

بلوتارك (فلوطرخوس)

تاريخ

أباطرة و فلاسفة الإغريق



المجلد الأول

ترجمة : جرجيس فتح الله

تاريخ
أباطرة وفلاسفة اللغريق

تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق

بلوتارح «فلوطرخوس»

ترجمة
جرجيس فتح الله

المجلد الأول

الدار العربية للموسوعات

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ

 **الدار العربية للموسوعات**

الحازمية - مفرق جسر الباشا - ستر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان

ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 00961 5 952594 - فاكس: 00961 5 459982

هاتف نقال: 00961 3 388363 - 00961 3 525066 - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد الهاني

فهرس محتويات المجلدات الثلاثة

549	ايموليوس پاولوس
587	پلويداس
619	مارچلوس

المجلد الثاني

661	أريستدس
693	ماركوس كاتو
729	فيلپويمين
749	فلامينينوس
777	پيروس
815	گايوس ماريوس
859	ليساندر
887	سيللا
933	كيمون
955	لو كوللوس

المجلد الأول

7	توطنة
29	ثيسوس
65	روملوس
109	ليكورغوس
149	نوما پمپليوس
207	صولون
243	پوپليسكولا
271	تيميستوكلس
307	كاميللوس
349	پيريكليس
395	فابيوس ماكسيموس
429	الكيبادس
469	كريولانوس
511	تيموليون

1479	كليومينيس
1509	طييريوس گراخوس
1529	كايرس گراخوس
1551	ديموستينيس
1577	شيشرون
1621	ديميتريوس
1663	مارك انطوني
1737	ديون
1777	ماركوس بروتوس
1825	اراتوس
1863	ارتخششتا
1889	غالبا
1913	اوتو

1005	نيكياس
1039	كراسوس
1081	سرتوريوس
1107	يوميونيوس
1129	آغيلانوس
1167	پومپوي

المجلد الثالث

1253	الاسكندر
1323	يوليوس قيصر
1375	فوكيون
1407	كاتو الاصغر
1461	آغيس

توطئة

إن المجموعة الشهيرة جداً باسم «سير بلوتارخ»، ليست كما تركها لنا المؤلف لا من حيث الشكل ولا من حيث الترتيب. ففي المؤلف الأصلي دونت السير في سلسلةٍ من الكتب، وكل كتاب يتضمن سيرة يونانية واحدة تقابلها سير رومانية، وتلحق بهما دراسة مقارنة. وقد أُضيف إلى هذا تراجم سير أشخاص مختلفة لم توضع موضع مقارنة. ولعلَّ «أوتو Otho و«غالبا Galba» ينتميان إلى سلسلة من الأباطرة الرومان تبتدي «باغسطس Augustus» وتختتم «بفيتيلليوس Vitellius». وأما سيرتنا «ارتخششتا Artaxerxes» و«اراتوس Ara-tus» السياسيين، فكلتاها سيرة مفصلة، كسير الآخرين الذين قبل لنا أنهم وجدوا وعاشوا، مثل [هرقل Hercules وارسطومينيس Aristomenes، وهسيود Hesiod، وپندار Pindar، ودايفانطس Daiphantus، وقراض Crates، الهجاء، واراتواس Aratus الشاعر].

وفي السير المتعاصرة نفسها، ثغرات، فثم كتاب يشمل سيرتي «إپامننداس Epaminon-das وسكيبو Scipio» الأصغر فقط. إذ لا يوجد مقارنات كثيرة، وهي إمّا مفقودة، أو لم تكتب. وسيلحظ القاري، أن التنبيهات التي يذكرها المؤلف هنا وهناك عن السير التي ستتلو أو تلت تدلُّ بأن ترتيبها في الأساس يختلف عن الترتيب الحاضر. مثال ذلك أنك تجد حين تفتح الصفحة الأولى من هذا الكتاب، ذكراً لحياة «ليكورغوس ونوما» في سيرة «ثيسيموس» على أساس كونهما مدونتين سابقاً.

وفي إمكاننا أن نعرض وقائع حياة (بلوتارخ) البسيطة بفضلكة مختصرة جداً. ويرجح أنه ولد في عهد «كلوديوس Claudius» في حدود العام ٤٥ أو ٥٠ ميلادية. ومسقط رأسه مدينة [خيرونيا Chaeronea] في بويوتيا Boeotia حيث استقرت أسرته قبل زمن طويل، ونالت مكانة طيبة وسمعة حميدة. درس في اثينا متتلماً على الفيلسوف امونيوس Am-monius وزار مصر وقضى في روما ردهاً من الزمن مبعوثاً في «مهمة رسمية» لعلها كانت

بعثة دبلوماسية من خيرونيا في حدود العام ٩٠م. وبقي فيها مدة طويلة اتسعت لالقاء دروس اثار اهتماماً عاماً. ولسنا ندري هل زار ايطاليا مرة واحدة فقط أم عدة مرات.

ووصل جبل الود بـ «سوسيوس سينشيو Sosins Senecio» وهو كما تؤمي كل الدلائل «سوسيوس» الذي تقلد منصب القنصل اربع مرات. ولعل علاقتهما هذه نشأت في روما حينما كان (سوسيوس) أصغر سناً منه بكثير^(١). ولعله تعرف به اول الامر اثناء القائه دروسه أو لعلهما تعارفا في اليونان. وعاد الى خيرونيا واليونان، ويبدو انه قضى البقية الباقية في حياته في تلك المدينة الصغيرة التي كان يكره «تقليص حجمها بنزوح ولو ساكن واحد من سكانها عنها». وساهم في شؤون المدينة وضواحيها ونُصب «ارخوناً»^(٢) على المدينة وقام بأعباء الكهانة لاپوللو في دلفي عدة سنين كما يبدو.

وكان متزوجاً وأباً لما لا يقل عن خمسة أولاد، منهم اثنان على أقل تقدير بلغا مبلغ الرجولة. وأعظم ما كتب هو مجموعة سيره هذه، يليها عدد من الكتب ألفها في الفترة الأخيرة من حياته على عهد (تراجان)، ومن المشكوك فيه انه ادرك (هادريان)، وان نحن اتخذنا العام ٤٥م تاريخاً محتملاً لميلاده، فإن العام ١٢٠م المرافق للسنة الرابعة من حكم هادريان يكون أقرب تاريخ محتمل لوفاته على سبيل الافتراض، وما هو أكيد عندنا انه عاش عمراً مديداً، وانه وصف نفسه في احدى محاوراته الخيالية بالشاب البافع يناقش في الفلسفة مع [أمونيوس] ايام زيارة نيرون بلاد اليونان العام ٦٦-٦٧م. وانه كان حياً ناشط القلم والفكر على وجه التحقيق في الشتاء الذي عبر به تراجان الى (داقيا) بعد ان بنى جسراً على نهر الدانوب. وهو يقول في رسالته (عن مبدأ البرد) «لقد انبأنا اولئك الذين يشتون الآن مع الامبراطور على الدانوب ان انجماد الماء سيؤدي الى تحطم السفن تحطيماً».

ويمكن إضافة بعض الأسماء والوقائع مستمدة من كتاباته، زيادة على ما ذكرناه. وليس لنا في هذا المجال ألا الإعتماد الكلي على تلك الوقائع المقتضبة نفسها. فلدينا حكايات واستطرادات في السير، وفي تأليفه ومقالاته ومحاوراته واحاديث مائدتته وغيرها من تصانيفه، وهي تزود القرحة بمادة متنوعة لمختلف الاستنتاجات الطريفة والغريبة.

(١) إلا اذا أخذت عبارة المؤلف «اولادي زملاؤك» مأخذ التندر والتفكهة.

(٢) Archon: واحد في الحكام التسعة الكبار في اثينا القديمة. وفي الايام الأخيرة أصبح يطلق على رئيس بلدية اي مدينة يونانية. او حاكمها. او قاضيه.

ذكر (نيكارخوس Nicarchus) جد أبيه عرضاً في سيرة «انطوني» اذ قال: «كان والد حدي يقص كيف سُخرَ اهل خيرونيا في حرب انطوني الأخيرة لنقل القمح الى ساحل خليج (كورنشا) وكان قد خصص لكل منهم حملَ معين الوزن، والجنود يحتاطونهم ويحتشونهم بالسياط...» وبعد أن كملت اول نقلة، واكتيلت النقلة الثانية لهم، وصلت ابنا هزيمة (اكتيوم Actium)^(٣). وورد ذكر جد (لامپرياس Lamprias) ايضاً في السيرة نفسها. بصدد سماعه قصة من (فيلوطاس Philotas) الطبيب، عن حياة البذخ والإسراف التي كان «انطوني» يعيشها في مصر، وتحدث عن والده أكثر من مرة في آثاره الأخرى الصغرى دون ذكر اسمه. ويظهر اسم «امونيوس» استاذة ومثقفه الأثيني، عدة مرات في آثاره الصغرى. ونوه به مرة واحدة في هذه السير، تنوياً خاصاً عندما ذكر ان سلباً لتيمستوكليس تتلمذ معه على أمونيوس. ونجد ذكرًا لتسنم هذا الفيلسوف منصب الاستراتيجيةوس Strategus^(٤) في اثينا ثلاث دفعات^(٥) وهو منصب هام جداً في مجرى التاريخ العالمي، واشبه بمنصب «البيوطارخين في بويتيا» ظلَّ يسند الى المواطنين المحبلين طوال عهد الامبراطورية، ويستنتج من الرسالة الصغيرة الموسومة «في مبادئ السياسة» ان احد المناصب العليا المرتبطة بالوالي الروماني. ويحدثنا بلوتارخ «مرة، لحظ معلمنا امونيوس اثناء درس ما بعد الظهر أن بعض مستمعيه كانوا قد افراطوا كثيراً في تناول طعام الفطور فأمرَ بحضر منا أن ينزل عقابُ بابنه لأن الشاب كما قال، أبى أن يتناول فطوره الا مع خمرة مَرَّة. واخذ في الوقت نفسه بنظر شرراً الى أفراد الصف المدنيين».

والحكاية التالية كأنها تعود الى فترة متأخرة بعض الشيء عن فترة دراسته في اثينا قال: «اذكر عندما كنت انا نفسي شاباً، أني أوفدت مع شخص آخر في مهمة عامة الى الپروكنصل Proconsul^(٦) واتفق ان وقع لزميلي ما اعاقه عن اكمال الرحلة فخلفته ورائي ومضيت

(٣) لا يوجد على اية حال سبب اكيد يدفعنا للقول بان بلوتارخ، يتذكر مشاهدته والد جده وسماعه منه هذه الحكاية.

(٤) في اثينا القديمة يعتبر المنصب بمعادلة قائد الجيش، أو يكون صاحبه واحداً من أعضاء مجلس العشرة الأعلى المنتخب سنوياً فيها.

(٥) وهذا ما يثير بغض الشك حول الرواية اثبتها المؤرخ البيزنطي [يونانيوس] التي قد لا تتناقض معها تناقضاً تاماً. وهي «ان امونيوس معلم بلوتارخ الالهي، كان مصرياً...». ومن المؤكد أن بلوتارخ كان على معرفة تامة بالحكمة اليونانية المصرية، انظر رسالته الى السيدة المثقفة [كليا Clea] عن «ايزيس وازويرس»، ولعله مكث مدة طويلة في الاسكندرية ودرس هناك كثيراً.

(٦) في النظام الروماني هو حاكم ولاية رومانية. وفي عهد الامبراطورية هو حاكم اقليم سناتوري (أي تابع لمجلس الشيوخ).

لأنجاز المهمة وحدي ثم عدتُ وفيما كنتُ أقدم حساباً عنها واسلمَ مأموريّتي إلى المجلس، نهض أبي وأسرَّ إليّ بأن أحاذر كلمة «ذهبتُ» و«قلتُ» وأتكلم بصيغة المثني، وأحافظ على سهم زميلي من المهمة في سائر تقريرِي».

ولا نعرف شيئاً عن زيارته إيطاليا وإقامته فيها، أكثر من روايته في سيرة (ديموستيسس). وأن مهام الوظيفة التي كان يتقلدها، والزوار الذين يقصدونه للجدال الفلسفي كان يستفيد كثيراً من وقته فلم يتسن له آنذاك أن يلم المأماً كافياً باللغة اللاتينية. ولا نشك في أنه رحل كثيراً فقد قال أنه شاهد تمثال ماريوس أو تمثاله النصفي في (راقت)، أثناء إبراده سيرة (ماريوس). ويحدثنا في مقولته «عن الحبِّ الأخوي» أنه كلف أثناء وجوده في روما بمهمة التحكيم في نزاع نشأ بين أخوين يُعد أحدهما من عشاق الفلسفة «إلا أنه لم يكن يستأهل صفة الفيلسوف ولا صفة الأخ قلتُ له أنني لأتوقع منه مسلك فيلسوف تجاه من هو قبل كل شيء عادي، لا يفخر بالعلم بالفلسفة، وهو بالدرجة الثانية أخ له، أجباني قائلاً: أما عن النقطة الأولى فلا أراك فيها إلا مصيباً. إلا أنني لا أعلق أهمية كبيرة على ولادة شخصي نتيجة اتصال زوج من الاجسام. ويستنكر بلوترخ طبعاً هذا القول الكافر الشنيع وبؤس صاحبه. وثم حكاية أطرف من هذه، أوردها في رسالته عن «حب الاستطلاع»... فمن الوصايا الأخرى لاجتناب الخطأ، أو البرء منه «عليب أن نعود أنفسنا عندما يؤتي لنا بالرسائل ألا سادر إلى فتحها بعجلة، وألا نقطع خيوطها ساساننا، كما يفصل الكثيرون عندما يعجرون عن حلها بأيديهم وألا نضغ إلى السعادة مسرعين، إذا رأيناهم مقبلين، والألا نقفر عندما يقول صديق أن لديه نبأ طريفاً، أو خصوصاً أن كان عنده نصيحة مفيدة يقدمها لنا. ومرة عندما كنتُ ألقى درساً في (رومه) كان من بين مستمعي (روستيكوس Rusticus) الذي بطش به [دوميتيان Domitian] فيما بعد غيراً من شهرته وحسداً لسمعته. كنتُ مستمراً في الكلام عندما دخل جندي يحمل إليه رسالة من الامبراطور فسكن الجميع، وتوقفتُ لأدع له مجالاً لقراءة الرسالة فلم يفعل، وأما القاها بعيداً عنه حتى فرغت من درسي، وانصرف المستمعون. هذا مثل على السلوك الرزين الجدير باثارة منتهى الإعجاب».

كان (ل. يونيوس ارولينوس روستيكوس L. Junius Aralenus Rusticus) صديق (بليي Pliny وتاكيوس Tacitus) الخالد المجد بين شهداء الرواقيين الذين دونت أسماؤهم في معرض سيرة «أغريكولا Agricola»، كان في مطلع شبابه تلميذاً شديد التشيع [التراسيا بايتوس Thrasea Paetus]. وعندما فرض نيرون حكم الموت على [بايتوس] هذا، وكان مجلس الشيوخ يوشك على إبرام الحكم بالادانة، اندفع روستيكوس بغضب دفاق من عاطفته،

مستعملاً حق الاعتراض (الثيتو) وهو حق ما زال آنذاك مرتبطاً شكلاً بمنصب التربيون Trib-une^(٧) الذي كان يتقلده وقتذاك. ولم يعلح معلمه في منعه من التظاهر بما كان سيؤدي به قبل ان يحين أجله - الى اضافة اسمه الى القائمة الضحايا الاماجد. كتب هذا سيرة لحياة (ثراسيا) بعد ممارسته مهام منصب الپريتور^(٨) في أثناء الحروب الاهلية التي عقيبت موت بيرون، مثلما كتب (سيسيئو Senecio) سيرة (هلفيدبوس Helvidius) ودون (تاكيتوس) تاريخاً لحياة (اغريكو لا) على ارجح الروايات. وكانت لغة (اروسيتكوس) صريحة جريئة بحيث سببت موته. ومن المعلمين الذين تلقى الشاب ماركوس اوريليوس Marcus Aurilius علومه عليهم نقراً اسم «اورلينوس روسينكوس» الذي قد يكون حفيداً لروسينكوس السالف ذكره، ومعه نجد اسم (سكستوس Sixtus) الخيروني ابن أح بلوتارخ الذي يقول الامبراطور الألمعي الفيلسوف عنه «لقد علمني مثال نفسه، الاخلاق الحميدة والحكمة العادلة التي كن ما يقبُ يوصي بها» وظل الامبراطور يختلف الى منزله متتلماً عليه برعة لم تضعف قط.

ولا يستنتج طبعاً من العبارة التي صيغت بها الرواية انها وقعت ابام «دوميتيان» وان بلوتارخ يشير الى رساله دوميتيان فيها. على ان وجوده في روما ابام حكم هذا الامبراطور أو بعده يبدو مرجحاً بسبب اللهجة التي يتكلم بها عن العظمة السخيفة لقصور دوميتيان وغيرها من المباني الامبراطورية.

وكثيراً ما ينوه بلوتارخ باسم أخويه «تيمون Timon» ولامپرياس Lamprias» في مقولاته ومحاوراته، ويبدو انهما كانا تلميذين لامرنيوس أيضاً وانك لتجد العبارة التالية في رسالته «الحب بين الأخوة»، يقول بلوتارخ «واما عن نفسي أنا، فمن النعم التي اشكر حظي الحسن عليها هي محبة تيمون أخي لي، في الماضي والحاضر، لها لمحبة عظيمة بحيث يمكن ان تعدل وحده سائر النعم الأخرى. ولا بد ان يكون كل من خالطنا وعاشرنا مطلعاً عليها. وأصدقائنا خير العارفين بها طبعاً»

وزوجه هي (تيموكزينا Timoxena) بنت (الكسيونا). ووقائع حياته البيتية نجد خير تصوير وادقه في رسالته الموجهة الى زوجه حول شكلهما بئتهما الوحيدة التي ولدت لهما وهما في سن متقدمة بعد ولادة اخوتها بفترة طويلة على ما يبدو:

(٧) واحد من الضباط (في اول الاول اثنا، ثم عشرة) يختارهم لشعب بالاقتراع ووظيفة المحافظة على حقوقه ازاء مجلس الشيوخ والقناصل ومراقبة الحريات العامة من الاعتداء.

(٨) هميل روماني يباط به قيادة جيش، وقد تطور هذا المنصب فيما بعد فقاد حاكماً ينتخب بالاقتراع العام ويقوم بوظيفة ما من وظائف القنصل.

«من بلوتارخ الى زوجه - تحية»

يبدو ان السعاة الذين ارسلتهم لينعوا لي طفلتنا. قد ضلوا السبيل الى اثينا، فأبلغت به عند وصولي (تيناغرا) وأعتقد ان كل ما يتعلق بتشجيع الجثمان قد تم. واؤمل أن تكون مراسيم الجنازة قد أشاعت في نفسك أعظم السلوان. وان تخلف اي شيء رغبت فيه واحججت عنه انتظارك لموافقتي - وكان فيه عزاء لك فنقدية، إلا ما يشويه افراط او شعبة وابك لأزهد الناس في هذا. حسبي يازوجي العزيرة الأمل في ان تبقي نفسك وتبقيني في حدود من الاحزان معقولة ولست بغافل قط عن مبلغ خسارتنا وجسامة فجيعتنا. وما انا «بجذع من خشب او قطعة من حجر». وأنت تشهدين على ذلك ياشريكتي في الحزن على أطفالنا العديدين الذين تولينا تربيتهم بأنفسنا في منزلنا واحداً بعد واحد. وهذه الطفلة، الإنة ولدت لك استجابة لرغبة خاصة خالجت نفسك بعد اربعة ابناء، فأتاح ولادتها الفرصة لي لإدانة اسمك. وهي كما اعرف جيداً موضع حب خاص عندك.

ومضى يذكر ان طبع الطفلة المحبب وطرقها الجميلة عملت في زيادة آلام الشكل زيادة عظيمة، وبعدها قال «ومع هذا فلا مبرر لنا اذ نسينا الصائح التي نتقدم بها الآخرين، ولا عذر اذ انظرنا الى فاجعتنا الحاصرة وكأنها غمت على سعادتنا السالفة وكدرت صفوها» ومن كان حاضراً ساعة الجناز تحدثوا بأعجاب عن هدوئها وبساطة سلوكها. والجنازة نفسها كانت عاطلة عن اي مظهر من مظاهر المبالغة في النواح والندب. ولم يكن هذا مصدر عجب له فهو يدري كم كانت عيشتها البسيطة المتواضعة وثار دهشة اصدقائه الحكماء وزائريه.

وهو الذي خبر ايضاً مبلغ صبره وجلدها عند فقدها بكر اولادها... يقول بعد هذا... «عندما تركتنا جميلتنا (شارون Sharon) اذكر ان بعض معارفي من الأجانب كانوا مقبلين علي من البحر لما وصلني نعي الطفلة، فسبقوا الى البيت مع بعض الاصدقاء. إلا ان النظام التام والهدوء المستتب الذي وجدوه هناك، جعلهم يعتقدون (ذكر لي ذلك فيما بعد) ان الخبر عار عن الصحة. ويختتم «رسالة العزاء» (وهو عنوانها) بعبارات تتم عن ايمانه بحلول الروح البشرية. ذاكرة أن الأبوين تحصسها وتقوي عزائمهما تقاليد اسلافها والوحي الرأني الذي ينكشف لهما، ويلفهما بممارسة الطرق الصوفية الديونيسية.

هنالك فقرة في الرسالة يستنتج منها ان بلوتارخ (تيموكرينا)، كانا جذيين وقت ان حلت بهما المصيبة. وان رواج ابنهما أوتوبولس كان مناسبة لإحدى المآدب التي فصلت وقائعها في رسالته «المسائل السيمبوزية» (اي احاديث ما بعد طعام العشاء). في إحدى هذه المحاورات

مجد تنويراً بعيداً بابس [أوتوبولس Autobolus] لقد كتب بليوتارخ الرسالة الصغيرة في شرح [طيمماؤوس Timmoeus] لانيه اوتوبولس وبليوتارخ. ولابد انهما كذا وقتذاك مكتملي الرحولة ليطرقا موضوعاً صعباً كطيمماؤوس. وفي بحثه «عن السيل الذي يحب أن يسلكه الشباب لعراء قصائد الشعراء» يقول مخاطباً «ماركوس سيداتوس Sedatus» ليس من السهل ان منع منعاً باتاً كلاً من عزيزي سوكلاروس Soclarus وعزيزك كليندر Cleander عن قراءة الشعر. ولكن ليس هناك ما يشير هل ان سوكلاروس ابن له، أو حفيد، أو قريب من أقرباء الأسرة، أو تلميذ وهو من الاحتمالات أيضاً. واما [يوريديس Eurydice] المتزوجة حديثاً ببوليانوس Polianus. فتبدو انها من أهل داره حدساً وتخميناً من رسالة «في الوصايا الزوجية» كتبها لها ولزوجها على انه لا يمكن القول انها بنت له وليس من المحتمل قط أن يكون موضع [تيموكرينا] الصغيرة المتوفاة قد ملي.^(٩) بأخرى.

قد تكون وظيفة الأرخون التي أشغلها بليوتارخ في مدينته وظيفة سنوية ومن المحتمل جداً انه أشغلها أكثر من مرة ويبدو انه كان يهتم بأصغر أمور المدينة وأقلها شأنًا. بل كان يعتمد مباشرة أحقر الأشغال، فبعد ان روى قصة [ابامننداس] أنشأ بمدح وبرفع من شأن وظيفة رئيس الكنائس بقوله: «وأنا أيضاً للسبب نفسه أجدي هدفاً لتندر جيراني، كما يشاهدونني - وما أكثر ذلك- في الاماكن العامة اتولى شؤوناً مشابهة لواجبات تلك الوظيفة. إلا أن القصة التي رويت عن [انتستينس Antisthenes] تأتي هنا لنجدي.

فعندما أبدى أحدهم دهشته لرؤية هذا الرجل يحمل الى بيته سمكة بالتوابل اشتراها من السوق، أجابه قائلاً «إنها لنفسى وقياساً على هذا فإن عاب عليّ أحدهم وقوفي في محل عام ومراقبة قياس ابعاد الجر، ونقل الجص والحجر، أجب بقبولي «انه ليس لنفسى بل لبلدي».

وفي المقالة المختصرة الموسومة «هل ينبغي للرجل الهرم أن يستمر في معالجة الشؤون العامة؟» كتب بحث [يوفانس Euphanes] وهو عضو قديم بارز في كل من [أريوباغس Areopagus] اثينا، والمجلس الامفكتيوني Amphictyon^(١٠) على البقاء في منصبه قائلاً «فلنبق على زمالتنا الطويلة ولا نقطعها، وليمتنع كلانا عن اعتزال هذه الحياة التي اخترناها»

(٩) أمّا عن بلوع ابين له مبلغ الرحولة على أقل تقدير فيبدو من عبارة قصد بهما ابنيه الصغيرين الآخرين بقوله انهما اطلالا الحلوس في اللعب متأخرًا عن العشاء.

(١٠) اريوباغوس هو بالاصل تل من تلال اثينا. حرت العادة ان تلتئم فيه المحكمة العليا، أو مجلس الحكم الأعلى واما المجلس الامفكتيوني فيتألف من مندوبين من جميع الدول اليونانية بجمعهم للطر هي الشؤون المتعلقة باتحادهم.

وعني موضع آخر يقول مشيراً الى واحبات وظيفته الكهنوتية لاپولكو دلفي «وتعلم اني خدمت هذا الرب [البيشي] عدة بيشادات^(١١) خلون، ومع هذا بانك لن تستطيع ان تقول لي: انك اسهمت كثيراً في تقديم الاضاحي والرقص الديني، والفرائض الأخرى، وقد آن الأوان يا بلوتارخ ان تنزع قلادتك الكهنوتية وتتقاعد عن العرافة مقرأً بعجزك بعد ان بلغت من العمر عتياً»

حتى في هذه العبارات والروايات القليلة، والقريبة من الحقيقة والواقع، يوجد ما يكفي من المواد لتأليف صورة من الحياة البيشية السعيدة نصف الأكاديمية، نصف العملية تنصرم بين اقرباء محبين واصدقاء معروفين، وتميل كثيراً الى الدراسات العلمية والاخلاقية، وتتصل مع هذا، بواجبات المواطن العادي واعبائه. وياتقانا الى أبعد من هذا، ينعز عليا طبعاً التسليم بحقيقة مشاهد المحاورات الخيالية واعتبارها وقائع تاريخية. ومع هذا ففيها الكثير مما يمكن أن يؤخذ مأخذ الصدق في التصوير إن جاز لنا هذا القول. وربما وجد الكثير مما يمكن أن يؤخذ مأخذ الحقيقة بالحرف، فما يدعى [سيمپوزياك أو مسائل ما بعد العشاء] المجموعة في تسعة كتب مهداة الى «سوسيوس سينشيو» قيل لنا أن كثيراً منها جرى بحثها بحضور [سوسيوس] ومشاركته في روما وفي بلاد البوتان كأن يكون هذا مدعواً الى حفلات رفاف [اوتوبولس]. ويظهر [لامپرياس] واخوه [تيمون] كثيري النشاط والخبرة في المناقشات، لكل منهما شخصيته واراؤه المستقلة. ترى المشهد الآن في دلفي، ثم تراه في اثينا وأحياناً يكون روما وهو نادر ويكون أناً بمناسبة إحياء الالعب. وكان بلوتارخ سبب وظيفته الكهنوتية بقيم الولائم على شرف الشاعر الفانز في الالعب [البيشية]. وهالك وليمة عشاء بمناسة الالعب [الاستمية] في كورنث، وهالك حفلة أولمبية أخرى في [إيليس Elis]... كان بلوتارخ مواطناً اثينياً بالموالاة للقبيلة الليونسية - ولذلك تراه موجوداً في مناسبة تكريم صديقه الشاعر الفيلسوف [سيرابيون Serapion] لفوزه. إن الاشخاص الذين شاركوا في احاديث مختلف المحاورات الصغيرة، يؤلفون زمرة واحدة متراصة فهم أكثر من ثمانين بين فلاسفة ونحويين وبلغاء، واطباء منهم [يوتيدموس Euthydmus] زميله في الكهنوت و[الكيسون] حموه، وأربعة أو خمسة من اقربائه بحكم المصاهرة و«فافوريسوس Favorinus» فيلسوف [آرليس Arles] في [پروفنس Provence] الذي لقي حظوة عند [هادريان] في ما

(١١) وهي فترات متعددة لأربع سنوات. كل مرة تنقضي بين احياء الالعب النشئة كالالعب الاولمبية.

بعد، وإلى هذا الامراطور اهدى واحدة من رسائله، فأجابه بمقالة اسمها «پلوتارخوس» وهي تدور حول الفلسفة الاكاديمية. تجده سيرابيون يستضيف هذه السحبة في بستانٍ على ضفاف نهر حيفيسوسوس Cephissus ثم تراهم يتناولون عشاءهم مع طبيب صديق على مرتفعات {هيامبوليس Hyampolis} ويتقابلون في حفلة بحمامات {ايديسوس Aedepsus} وفي هذه المجالس كانت تبحث شتى المسائل، تجدها أحياناً جذية أخلاقية بحوية تاريخية.

وفي أحيان كثيرة تجدها مرحلة فكاهية: ماذا يقصد افلاطون في قوله ان الآلهة تستخدم الهندسة؟ لماذا يكون سمعنا أحداً في الليل منه في النهار؟ لماذا تكون الأحلام أقل انطباقاً على الواقع في موسم الخريف؟ أيهما وجد قبل الآخر: البيضة أم الدجاجة؟ أي يد من يدي ثينوس جرحها ديوميديس Diomedes؟ وهكذا. وينبري {لامپرياس} الجد ليعتب على ابنه والد پلوتارح دعوته عدداً كبيراً من الضيفان للحفلات التي «اقمناها عند عودتنا الى الوطن من الاسكندرية». ويقيم {امونيوس} ستراتيجوس {جنرال} اثينا، مأدبة عشاء للفتيان الذين برزوا في مسابقة المهارة في النحو والمنطق والهندسة والشعر، وتروى حكايات في هذه المناسبة حول الأبيات الشعرية التي أسيء اقتباسها في المناسبات أو لم يُسأ.

ومن الآثار الثانوية الأخرى التي تركها المؤلف. ما يبدو بعضه وكأنه دروس أُلقيت في روم. ثم نشر بعدئذ بمقدمة صغيرة للأشخاص المعنيين، وعندنا مقولة في «الفوائد التي يمكن ان يجنيها من أعدائنا» موجهة الى كورنيليوس پولكر Cornilius Polker ومقالة عن «القدر» مهداة الي {بيزو Piso} وعن «الحب الأخوي» مهداة الى {نيغرينوس Nigrinius} وكوينتوس Quintus، وكثير منها محاورات ومناقشات فيها قدر كبير من المشاهد المتماثلة المتنوعة والاحاديث الضاحكة التي تتخلل مناقشات المائدة.

في حديث مع امونيوس وأصدقاء آخرين «منذ عهد بعيد، عندما كان {نيرون} في بلاد اليونان»، جرى النقاش في معنى الكتابة الغريبة المنقوشة على معبد دلفي. نحت فيه حرفا E و A. وجرى بحث في طبيعة العرافة بمناسبة قيام بعض اصدقاء پلوتارخ بإراءة المباني المقدسة في دلفي لأحد الزائرين - أثناء الفترات التي تخللت الشروح المملة نوعاً ما التي كان الادلاء المحترفون يسردونها آنذء طوافهم بالمواقع المقدسة «حصل ذلك قبيل بدء الألعاب البيئية في عهد {كاليستراتوس Callistratus} فهما في دلفي التقيا برحلتين قديما من أفصى ارجاء المعمورة وهما {ديمتريوس} المحوي، القادم في برطاب في طريقه الى موطنه {طرسوس} وكليسمرونوس Cleombrotus الليعدموسي الذي عاد لتوه من رحلة ترفيهية ثعافسة - الى مصر العليا، بلغ بها نهاية السحر الارثري». وتبدو ملاحح للموضوع، ثم يتسעה محاوره في

مسألة «انقطاع الببوءات» ويتضمن فقرة فيها القصة المشهورة عن الصوت الذي أنبأ بموت (Pan) العظيم. وتجده (أوتوبولس) يكلم (اسكولاروس) زميل ابنه في مدح كايا قد سمعاه، لرياضة القنص. معلقين على ذلك بقولهما أن خير مزية تذكر لهذه الرياضة هي انها تحرف بعيداً بالعاطفة التي تجده منطقاً لها في مشاهدة قتال المصارعين، وتأخذها الى سبيل أقل بشاعة وهمجية. ثم يبرز في النقاش حالاً رمرة كبيرة من الفتيان المغرمين بصيد السمك وقنص وحوش البرية، ويقوم متكلمان ليطرحا على بساط البحث موضوع: ايهما أوفر حكمة وعقلاً، أحيوانات البحر أم حيوانات البر. وتروى في الجلسة حكايات عن الفيلة. ويقص ارسطوطيموس Aristotimus المدافع عن تفوق حيوان البر مستشهداً «بكلب يُقلد تأثير مسرى السم في الجسم» في مشهد تمثيلي رآه بأمر عينه في روما. كان التمثيل متقناً بحيث هرّ مشاعر الحاضرين ومنهم الامبراطور الشيخ (فسبسيان) في ملعب (مارجللس Marcellus) وإنك لتكاد تحسّ من لهجة العبارة كأن بلوتارخ لا ارسطوطيموس هو الذي شاهد المنظر^(١٢).

ويظهر (أوتوبولس) مرة أخرى في محاورة عنوانها «عن الحب». كتبت تحقيقاً لرجاء صديقه فلافيانوس Flavianus وهو حديث طويل تتخلله حكايات غريبة، شارك فيه والده وهو في جبل هيليكون Helicon «منذ زمن بعيد قبل ان نولد، وعندما جاء بأمن لتقدم قرباناً (للحب) في عيد اقيم (بنسباي)، بعد نزاع نشأ بين أبويهما».

إن هذا الخصام لم يكن تخريفاً بل حقيقة واقعة. وعلى وجه العموم فإن هذه الإطارات الموضوعية التي تؤلف هيكل حركة المحاورات الخيالية منها وشبه الخيالية، فيها عناصر من الواقع قد ترقى الى الحد الذي يمكن اعتبارها من قبيل الاحداث التاريخية المسلم بها حصلت للمؤلف كما أوردها الكتاب المتأخرون، وإن لم يكن يقصد بها في الواقع أن تؤخذ بشكلها الحرفي، وإن يعتبر نصها حقيقة. بأن «سويداس Suidas» الموسوعي إنما يسرح في خيال بحث عندما يقص علينا كيف خلع «تراجان» عليه منصب القنصل، وأصدر أوامره الى جميع حكام «ايليريا»؛ بالاً يقدموا على عمل قبل استشارته! وكان «سينكللوس Syncellus» المؤرخ البيزنطي يبالغ مثله بل أكثر منه في ذكره تحت فصل وقائع سنة من سنوات حكم (هادريان)

(١٢) وينوه هنا بعض تنويه لطباع فسبسيان المتميزة بالقسوة والوحشية. في قصة عنه أوردها في محاورته عن «الحب الأحوي» عن [سابيوس] الثائر [الغالي] وزوجه ايبونيا Eponina. وقد ذكرها تاكيتوس أيضاً في تاريخه كن قد ولد لهما في مخابهما تحت الأرض ولدان - فقد اختفيا وعاشا تحت اطباق الأرض عدة سنين حتى أفتصح أمره وقتل، يقول بلوتارخ. «أحد هذين الولدين كان معاً هنا في دلفي قبل فترة قصيرة» ثم يزيد معلقاً «ان انقراض نسل فسبسيان يعود الى غضب الارباب لعمله هذا المحرد من الشعور والرحمة».

الأولى، ان بلوتارخ الفيلسوف الخيروني، اقامه الامبراطور في اواخر عمره حاكماً على بلاد اليونان. ومع ان عهد [تراجان وAntonines] كان بمثابة العصر الذهبي للفلاسفة فقد بدا وكأن فترة اضطهادهم القصيرة وعهد (دوميتيان) أكسبتهم مدة من الزمن مكانة روحية سامية شبيهة بما نالوا بعد حكم (ديوقلتيان). على ان هذه المنزلة انتزعت منهم بمجهود كهنة الدين الجديد.

هنالك رسالة وردت بين مؤلفات بلوتارخ المطبوعة تتضمن مجموعة من «اقوال الملوك والقادة» مهداة الى (تراجان) ومع وجود شك كبير حولها، فليس بمستبعد أبداً ان تكون من تأليف بلوتارخ نفسه. وهي ليست بما يستوقف النظر، وأكثر ما يلاحظ فيها، اختلافها الشديد في الاسلوب عن رسالة أخرى لايشك في انها منحلّة - نشرها باللاتينية جون السالسيوري Johan Salisbury وهي موعظة حافلة بالوصايا الى «التلميذ تراجان بقلم معلمه السابق المزعوم بلوتارخ ولدينا قائمة بمؤلفات بلوتارخ، كثير من الاسماء التي تتضمنها لا وجود له الآن. يقول [سريدياس] كاتبها، انه نقلها عن الامبرياس ابن بلوتارخ. كذلك يوجد رسالة قصيرة وضعت في مقدمة تلك القائمة. وجهها بلوتارخ الى صديق تعرف به في آسيا، وكان قد كتب اليه من موطنه بطلب معلومات معينة. قد تكون القائمة صحيحة إلا ان اسم «لامبرياس» لا يظهر قط في كل مؤلفات بلوتارخ بوصفه ابناً من ابنتائه. ولايسعنا إلا ان نشك بأن اسم الأسرة هذا، قد انتحلّه بعضهم، وان هذه الرسالة الى الصديق المجهول الآسيوي الفها احد النحويين في عصور تالية، قاصداً رفع قائمة عادية لأسماء آثار المؤلف العديدة.

إذا قرأ المرء بلوتارخ فعليه ان يتذكر النقاط التالية: إنه أخلاقي أكثر منه مؤرخاً واهتمامه بالطبائع والشخصيات والأعمال الفردية والدوافع الخاصة الى تلك الأعمال أكثر بكثير من اهتمامه بشؤون السياسة وبتغيير الامبراطوريات. فعنده ان الواجب يؤدي فيكافاً عليه مؤدبه. والكبرياء تنال حراها، وسرعة الغضب سيئة يجب تقويمها. والنزعة الانسانية والاتصاف والسماحة تنتصر في الحياة الدنيا. او تعوض في الحياة الأخرى وانك لتري فكر بلوتارخ في سيره - يتجه دائماً الى الآراء الارسطية في الاخلاق، ونظريات افلاطون السامية التي كانت مذهب الطبقة المثقفة في عصره.

هذا العصر هو نقطة ثانية يجب ان يتذكرها القاري، انه عصر [خيرون وتراجان وهادريان]، انه مفتتح خير العصور واسعدها من عمر الامبراطورية الرومانية العظمى، بنظامها الاجتماعي الذي ساد سواحل البحر الأبيض المتوسط كافة (وكانت ايطاليا واليونان مركزاه، والشرق وأقصى ما عُرف من بلاد في الغرب طرفاه) فقد وصل أعلى درجة من التقدم والكمال وسادت

قوانين روما وفلسفة اليونان رقعة من الأرض تمتد من نهر دجلة حتى الجزر البريطانية انه آخر العصور العظيمة للحضارة الرومانية - اليونانية، ولقد كان [إبيكتيتوس Epictetus] يعلم باليونانية الحكمة التي امتاز بها [ماركوس أوريليوس] عندما غدا امبراطوراً. وأعاد [ديو خريسوستم أريان Dio Chrysostom Arrian] للأذهان ذكر بلغاء [آتيكا] المشاهير الأعلام، ومؤرخيها العظام. وفيما تجد بلوتارخ يكتب من [خيرونيا]، كان [ناكسيبتوس وبليتي الأصغر، ومارشال، وجوفينال] يكتبون في روما. قد يقال أيضاً - وربما لا يخلو القول من صحة - أن كتاب اللاتين في العاصمة لم يكونوا في نقل الروحية والطابع العام اللذين يميزان ذلك العصر - بمستوى صدق قلم هذا البووتي الريفي الساج الذي كان يكتب بلغة أوسع انتشاراً، غير متقيد بأي ذكريات قوية محلية لمجلس الشيوخ العتيق وللجمهورية. وربما وجدت تاكيثوس وجوفينال «أكثر أصالة رومانية» من أحد مواطني امبراطورية البحر المتوسط. العظيمة لأن شروق حكومة الامبراطورية كما يشعرون بها في العاصمة، صورت في الشعر والنثر الرومانيين تصويراً أدق وأقوى مما يناسب الهيئة العامة للدولة، كما تراها عيون سكان عالم الامبراطورية حتى في عهد حكم (دوميتيان) نفسه.

وهذه الأخيرة، على أية حال الساحة الأكثر هيبة؛ وإن أفضل العهدين واحسنهما هو ذلك الذي تعكسه حياة بلوتارخ وكتاباتة، فأسلوبه أسلوب ذلك الرجل السعيد بذاته الراضي بما قسم له واحاط به.

إن الذكريات القوية الغالبة لأحداث السنين الماضية التي مرت تحت ظل الإرهاب المباشر، الناجم عن شروق الحكم الامبراطوري لم تنتقص من طبيعة بلوتارخ المستبشرة الضاحكة ولم تجرده من بساطته المرحية ولم تشب سعادته بظل من الأسى. ومع أنه كان يتذكر (نيرون)، وكان رجلاً عندما اعتلى (دوميتيان) عرش الامبراطورية، فكلما يسعنا قوله انه كان يكشف عما يجوز لنا وصفه بالسعادة الهادئة، لمن خرج من شر عظيم ليعيش في ايمان طيبة. وإن قوة تلك السعادة التي يبديها، لدليل على ان جذورها كانت قد تأصلت في ظروف غير موآتية، ولا طيبة.

قبل الكثير عن عدم دقة بلوتارخ، ولا ينكر أنه كان قليل الاحتفال بالأرقام يناقض أقواله بنفسه أحياناً، وأعظم منقصة تؤخذ عليه هي تعلقه الشديد: بالحكايات، إذ لم يكن يعبر عن ايراد القصص التي كان هو اول المدركين زيفها. ومن شأنها ان تخلف انطباعاً غير منصف عن راويها. وهو بهذا الطريق لم يصف كلاً من [ديموستينس، وبريكليس] إذ ورت عن افلاطون تحامله على ثانيهما، وهو التحامل الذي طبع به جميع الفلاسفة المتأخرين ومنهم بلوتارخ.

صحيح ايضاً أن معالجته اللاتاريخية لمواضيع سيره تجعله يبدو أحياناً غير دقيق، بل موضع استفاد في الصور التي يرسمها. وما هو طبيعي أن الجانب الكبير من حياة رجال الدولة العامة يمكن أن يجد تفسير في وضعهم السياسي. إلا أن بولتارخ قليلاً ما فكر في هذا، أو عرف فيقدر ما نجحت أبحاث المؤرخين المعاصرين في اكتشاف أمورٍ عن مثل هذه العلاقات، كانت هذه السير نحتاج إلى تصحيح. ولكن يكون من المناسب، بل من المفيد العودة إلى الصورة التي رسمت قبل أن تسود الأفكار الجديدة والنظرات الحديثة عالمنا الحالي حول الغموض الذي يعتور ولا شك الدراسات الحديثة أن لم نرجع إلى أحكام قابلة للأخذ والرد كهذه. وإنما بمجرد القياس على المبادئ الواسعة لقانون الأخلاق القديم في التفريق بين الخطأ والصواب.

وبغضنا بعض الطرّف عن الأمور التي اتينا إلى ذكر طائفة منها. وبصيرنا قليلاً على قصة حب فيها شيء من المبالغة، ويتجاوربا عن عداءٍ شبه ديني للقادة الديموقراطيين الدين سخط عليهم افلاطون وإذا ما وضعنا في حسابنا أيضاً، أن الحكايات من أمثال ما أورده عن (تيسوس) يصعب جداً فصل الجانب الاسطوري منها عن الجانب الحقيقي كما أقرّ هو نفسه. امكننا القول أن القراء على مختلف أعمارهم سيجدون في تاريخ بولتارخ سيراً أميناً، مشققة لحياة عظماء الرومان واليونان. وإذا كان من العيث حقاً أن نفكر بصدور سير أمينه في عصر بولتارخ، فلدنيا ها هنا على أية حال سجل أمين للوفائع التاريخية كما أرادها عصره. وهو ما أحبّ اليونان والرومان أن يعتقدوه عن محاريبهم وساستهم الغابرين. أما كصورة فهي تعتبر خير نسخة لوجهات النظر الخلقية الرومانية واليونانية، ولآرائهم في مبادئ، للأخلاق. أما أنها تمثل حصيلة الفكر الأدبي الروماني - اليوناني، كتبت لا تحت ضغط نكبة وإنما في جو اعتيادي مطمئن هو جو الحياة الهادئة البسيطة الواقعية لسكان الريف وهم يزاولون شؤون عيشتهم اليومية - هي بلا جدال ذات قيمة عظيمة. ويمكن القول أن الطبع الذي أظهره كاتبها بطوي على سماحة وبشر ووداد ذي سحر طبيعي غير مجلوب بتطرية، ولا يمكن أن يرقى إليه أي كاتب من الكتاب الكلاسيين الذين وصلتنا آثارهم.

وهذه الترجمة الانكليزية هي نسخة منقحة للترجمة المطبوعة في أواخر القرن السابع عشر من تاريخ حياة بولتارخ بقلم [درايدن Dryden] الذي أريد أن يُضفي اسمه الداوي أهمية وبلقي نوراً ساطعاً على أولئك الكادحين الخاملين الذكر الذي انجزوا القسط الأوفى من نقل هذا الأثر حسناً كان نقلهم أم سيئاً. وبطبيعة الحال يوجد تفاوت كبير في مجهوداتهم غير أن الترجمة التي عملها [لانگهورن Langhorne] في أواسط القرن الماضي هي والحق يقال اصعب كثيراً من الترجمة الأولى وأقل منها حيوية بمقدار كبير. انها لترجمة بملة ثقيلة الوقع

على النفس تعوزها الطلاوة، لذلك ولعدم وجود ترجمة جديدة أصيلة - فيؤمل ان يكون أحياء الترجمة الأولى الذي نحاوله الآن ذا فائدة. وما كانت الحاجة لتدعو الى ذلك لو أن مستر لونج... لم يقصر تعليقاته النفيسة جداً التي علقها هناك، على السير الخاصة بالحروب الأهلية الرومانية في السلسلة التي طبعها منشورات مكتبة [نايت شيلنغ].

والحياة التي صنفها دوايدن لبلوتارخ هي مثل كثير من كتابات هذا الأديب، سريعة التأليف، لكنها جيدة السبك. تفتقر الى الدقة لكنها شيقة طليّة. أما السيرة التي كتبها (داسيه) وطبعها في آخر مجلد من الترجمة الفرنسية التي عملها للسير، فهي جيدة جداً من نواح شتى. أما المواد التي أعتمدها الاثنان فقد استمدها من معين واحد، وهي المراجع التي توفر الى حجمها [روالدوس] عند كتابته سيرة بلوتارخ، التي تعب فيها كثيراً. ونشرها ملحقاً من نشرة باريس الوثائقية القديمة للعام ١٦٢٤. على أن كل ما هو ذو قيمة في التراجم المذكورة إنما استمد من المواضيع المتوفرة «في المكتبة اليونانية لفابريشيوس Bibliotheca Graeca (Fabricius) وفي الموسوعة الألمانية ليهاول، مع آخر الإضافات. وواضح أيضاً ان الكثير مما هو مفيد، موجود في المجلدات الرومانية Fasti Romana بقلم كلنتون Clinton وقد اقتبسنا منها الجدول التالي.

ملاحظة: الكتاب الذين وضع في نهاية اسمائهم نجمة هم يونانيون.

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتّاب الفترة
٤١	اعتلاء كلودبوس	سيبيكا
٥٤	اعتلاء نيرون، نيرون يزور اليونان.	
٦٦	تنويه بذلك في محاورة بلوتارخ عن حرفي E وا في دلفي).	لوكان
٦٧	نيرون يحتفل بالالعاب الاستمية (تنويه بذلك في سيرة بلوتارخ عن فلافيوس)	بيرسيوس
٦٨	«غالبا» أمراطوراً. الحروب الأهلية.	
٦٩	فيتيلليوس. اوتو. فسبسيان.	
٧٠	الاستيلاء على اورشليم	

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتّاب الفترة
٧٤	الفلاسفة يُنفون من روما.	
٧٩	مقتل «سابينوس» الغالي. موت فسبسيان. واعتلاء تيطس. موت بليني الأكبر. ثورة بركان فيزوف. تنويه بلوتارخ بهذه الظاهرة الطبيعية باعتبارها حدثاً قريباً لعهد في محاوراته «عن السبب في ان الوحي لم يعد ينزل شعراً»؟	كونتيليان* ستاتيسوس سيلبوس
٨١	اعتلاء «دوميتيان»	ابتياليكوس مارتياي
٩٠	الفلاسفة ينفون ثانية من روما بعد مقتل «روستيكوس»	ديوخريسوس* (ولد في حدود ٦٠م)
٩٦	اعتلاء «نرفا»	بلوتارخ
٩٨	اعتلاء تراجان	ابيكيتيرس اريان
١٠٠	تكريظ بليني	بليني الأصغر (ولد في ٦١م)
١٠٣	ابيكيتيرس يعلم في نيقوميوليس. أريان احد الذين يحضرون دروسه.	جوفينال (ولد في ٥٩م)
١٠٤	بليني في «بثينيا»	فافيورينوس* سيوتونيوس
١٠٦	تراجان يشفي في الدانوب (بلوتارخ يشير اليها في مقالته - مبدأ البرودة)	(ولد في حدود ٧٠م)
١١٣	إقامة عمود تراجان	
١١٤	انتصارات تراجان على الفرثيين (كان بلوتارخ قد كتب سيرته عن انطوني قبيل هذه الاحداث)	
١١٧	اعتلاء هادريان العرش (في السنة الثالثة لحكم هادريان كان بلوتارخ حياً على ما زعمه يوسينوس)	

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتّاب الفترة
١٣٨	اعتلاء «انطونينوس»	بطليموس. أبيان*.
١٦١	اعتلاء ماركوس اوريليوس	پاوسانياس*.
١٨١	اعتلاء كومودوس	چاليتون. لوشيان*.
		اثناؤوس*. ديون
		كاسيوس*

إن الخطأ الذي وقع فيه كل كتاب سيرة بلوتارخ ابتداءً من [روالدوس] هنا، هو افتراضهم الواهم أن بلوتارخ قضى سنوات عديدة من حياته في روما قد تبلى حوالي الأربعين. ويسبب هذا الوهم حورت حياته برمتها تحويراً جوهرياً. ولذلك ليس ثم جدوى في إيرادنا هنا سيرته التي كتبها [درايدن] وضمها إلى هذه الترجمة التي نقحناها وأجرينا عليها، تعديلات قلت أم كثرت هنا وهناك. ويكفي أن نورد هنا مقتبساً أو اثنين من تلك السيرة. أولهما قد يلتقي بعض الضوء على موضوع غامض بعض الشيء للقاريء المصري: كان (درايدن) مخطئاً في تعليل أو تعليلين لا أهمية كبيرة لهما. إلا أن وجهة نظره العامة في عقيدة الأرواح الشريرة Daemonic التي تظهر في كتابات بلوتارخ، قد نفي إلى حد ما بالغرض. قال درايدن: «بإمكاننا أن نتأثر خطي باقي أرائه، من فلسفته التي قلنا أنها افلاطونية على العموم، وإن لم يكن هناك مجال للانكار أيضاً وجود صبغة من العقيدة الإبلكتية^(١٢) فيها تلك العقيدة التي بدأت بداعييتها [پوتامون Potamon] في عهد امبراطورية أغسطس. والتي احتارت من كل العقائد الأخرى ما هو في رأيهم أكثر مناسبة وعقلاً غير مقيمين على عقيدة معينة واحدة. غير رافضين كل شيء ما عداها. واني سأتصدى هنا لعقيدة الأرواح فقط. ففي رسالتي بلوتارخ: «عن أسباب انقطاع النبوءات» و«عن عدم نزول الوحي شعراً، كما كان ينزل في السابق» يبدو أنه من مؤيدي المذهب الفيثاغوري في انتقال الأرواح من حال إلى حال. لقد بينا آنفاً أنه يؤمن بوحدة رئيس الأرباب الذي يسمى بعدة أسماء حسب صفاته. فهو جوبيتر من سلطانه اللامتناهي وهو اپوللو من حكمته وهكذا دواليك. إلا أن بلوتارخ يضع في الدرجة التي تلي جوبيتر، تلك المخلوقات التي يطلق عليها اسم ديون أو الجن. وهي كائنات ذات طبيعة متوسطة بين الإله والانسان، لأنه كان لا يتصور وجود نفرة بين الطرفين القصيين: المخلوقات الخالدة والمخلوقات المائتة. وأنه لا يمكن أن تبقى الطبيعة مثل هذه الشفرة

(١٢) ويقصد بها [الكلكتية] وهو الاسم الذي تعرف به الآن Eclectic.

الواسعة مفترحة دون ان نملأها بنوع وسط من الحياة يمت الى كل الطرفين القصيين. اذن فالاتصال بين النفس والجسد انما يتم فحسب عند الارواح الحيوانية كما نجد ذلك الاتصال بين العالم الالهي والعالم الانساني يتم بهذا النوع المتوسط بينهما الذي سميناه (ديمون). فهؤلاء «الجن» كانوا في مبدأ أمرهم بشراً. اتبعوا طريق الخير والصلاح وتساموا في الفضائل حتى انسلخوا عن اجسامهم البشرية وتخلصوا من اوضاع وجودهم الأرضي وارتقوا الى مرتبة «الجن» هذه. وهنا اعترضهم أحد أمرين، إما أن يستمروا في التسامي والارتقاء في سلم الحياة الأثيرية سقائهم محافظين على طهرهم وصلاتهم. أو ان يسقطوا مرة أخرى ليعودوا الى الجسم البشري الميت ويتقمصوا اللحم والعظم بفقدان تلك الطهارة التي هي اساس كينونتهم الأثيرية. هذا النوع من الجن هو الذي انيط به أمر انزال الوحي والعرافة بحسب رأي پلوتارخ. إن الارواح التي تخلف فيها الكثير من عناصرها الأرضية، تكون عرضة للتأثر العاطفي، وتلعب بها الالهواء البشرية. وهي في العادة تأثيرات خيرة طيبة. وقد تكون أحياناً شريرة ضارة بالناس. وتتفاوت بين هذين المقياسين على قدر ما تكون فضائل تلك الارواح سامية، أو بقدر ما تتزايد سقطاتها وهفواتها لتتدرج بالتدرج الى حالة البشر وتكون عرضة للموت والفناء وهو يعزو انقطاع الوحي أو بالأحرى تناقصه (لأن بعض تلك الارواح كان موجوداً حتى ايام پلوتارخ) إما الى فناء هؤلاء الجن كما يبدو ذلك من رواية (ثاموس Thamos) المصري الذي أوحى اليه أن يعلن موت الرب العظيم (پان). وإما الى مغادرتهم الموضع التي كانوا قد اختاروها للوحي حين طردتهم منها طائفة من الجن أكثر قوة منهم ونفوسهم على إثر تلك الثورات التي استمرت تحدث منذ عصور سحيقة. ومن امثال تلك الثورات الحرب التي نشبت بين الجبابرة والأرياب. وطرد (ساترن: زحل) بأمر جوبيتر. ونفي اپوللو من السماء، وسقوط قولكان... وغير ذلك كثير. وكلها في رأي المؤلف معارك تجري بين هؤلاء الجن (الديتون). ولكن لنفترض (ونرجح ان پلوتارخ فعل مثلنا) ان هؤلاء الجن تولوا أمور البشر تحت رقابة الكائن الأعلى، فعاونوا الاخيار، واقتصوا من الاشرار. وأحياناً حلوا في أسمى البشر نفوساً، كما كان حين سقراط يُنذره دائماً بمكان من الخطر ويعلمه كيفية اجتنابها. ولا يسعى إلا أن أعجب من كل كاتب لحياة پلوتار، ابتداءً من روالدوس بصورة خاصة وهو أوسعهم اطلاعاً بها، كيف أكدوا عن ثقة أن الوحي إنما يتأتى من الأرواح الشريرة، ان تفكيرنا كمسيحيين ينصرف الى هذا الاستنتاج طبعاً. أما ان يكون هذا رأي پلوتارخ، فهو خطأ فاضح لا وجه للاعتذار عنه. ويكفي لإقناع رجل سوي العقل أن نذكر بأن مؤلفنا في اواخر عمره كرس نفسه للقيام بالفرائض الدينية في دلفي وأن نعلمه أيضاً انه مات وهو كاهن لأپوللو. ولنا أن نحكم

مطمئنين انه لم يصب بشيء من الخرف في عمره المتقدمة جداً من محتوى الرسالة التي كتبها بعنوان «ان الرجال المتقدمين في السن يجب ألا يحجموا عن تولي الأعمال العامة». والآن يجب علينا أن ننفذ فكرة انه كان يرى في الرب الذي يخدمه: كأكوديون أو شيطاناً كما نسميه نحن. فلا شيء أبعد عن رأي وممارسة هذا الفيلسوف الجليل من هذا الإثم والفسوق. وإن قصة «بشياس» أو كاهنة أبوللو وهي القصة التي اختتم بها رسالته عن انقطاع الوحي، تدعم تأكيدي هذا أكثر من ان تدحضه. فقد راحت الى المعبد... «دَخَلْتُ بتردد عظيم الى الموضع المقدس لتتلقى الوحي ثم خرجت مزودة الفم جاحظة العينين في صدرها زحير وصوتها حاد النبرات لا يفهم منه شيء. حتى لكأن زلزالاً يزلزل في جوفها. تجاهد لالتقاط انفاسها وتلهث. ويختصر القول فقد كان الرب يشغل على نفسها ويضاعفها ولم تكن قادرة على احتماله حتى ماتت عذاباً وهي بليدة الخواس، بعد ايام قليلة». كان بليوتارخ قد ذكر مثل هذه الحادثة ان الكاهنة يجب أن لا تكون مضطربة الفكر نجسة العاطفة، ساعة نزول النبوة عليها. فاذا كانت حالتها هذه، فإنها لا تصلح قط لتلقي الوحي. مثل آلة الطرب التي لم تحرق اوتارها حزناً صحيحاً فانها لا تخرج النغمات الصحيحة المتناسقة. وقد ذكر في نهاية هذه القصة ما تركنا نشك في «أن هذه الكاهنة لم تعش عيشة طهر وعفة مدة من الزمن قبل اوان الوحي. لذلك بدأ موتها عتياً نرضه عليها سلطان أعلى لعيشة الفجور التي عاشتها، أكثر منه عملاً شريراً لروح تستمتع بالشر للشر فحسب». هالك ملاحظة أخرى أقرب الى الفرض في الواقع. وسأنحرف عن موضوعي لأرويها لأنها تتعلق ببعض الشيء ببلاد بريطانيا. يقول بليوتارخ: «هناك عدد كبير من الجزر الصغيرة منتشرة حول بريطانيا مثل انتشار جزر (سپورادس Sporades) حول بلادنا. كانت خالية من البشر وبعضها يسمى بجزر الجبابرة أو الجان. أرسل الامبراطور شخصاً يدعى (ديميتريوس) لاستكشافها (لا بد أن يكون الامبراطور كاليگولا أو كلوديوس^(١٢) بحساب الزمن) فبلغ الرحالة احدى الجزر المجاورة لمجموعة الجزر المجهولة. وكانت مأهولة بقليل من البريطون (كان سائر بين قومهم يرهبونهم وينزلونهم منزلة القداسة) وما ان احتوته الجزيرة حتى اظلم الجو واضطرب وظهرت اشباح غريبة فيه. وأثارت الريح عاصفة هو جاء وظهرت سحبٌ بلونٍ نارٍ ودوامات ريح ترقص متجهة نحو اليابسة. ويعد ان زالت هذه المظاهر العجيبة اعلمه سكان الجزيرة بان أحد الكائنات الأثيرية التي هي اسمى من بني جلدتنا البشر، قد توقفت عن الحياة وتلاشت. فهؤلاء الجبابرة كالشمعة، في حياتها تعطي ضياءً جميلاً نافعا أثناء اتقادها. ولكن يثور ثائرها وتضج وتقلب شراً وويالاً

(١٢) في زمن متأخر من هذا بكثير دون شك.

عندما تدنو من النهاية ويخبر ضيائها. في حياتهم يضيئون لنا وينعمون علينا بالخير والبركة. ولكن ما ان تدركهم ساعة الغناء حتى يقبلوا الدنيا عاليها سافلها ويشيروا العواصف ويفسدوا الجو بالأبخرة القتالة. ما من شك في أن المؤلف يقصد بهؤلاء المخلوقات ما عرف عندنا با(درويد Driud) الذين هم أقرب الى الفيشاغوريين من اي طائفة أخرى. وقد يكون فكرة الجن هذه، واحدة من عقائدهم على أنه ليس من الأكيد ان كل «الجن» اشرار على هذا القياس. والاشرار منهم هم أولئك الذين قضى عليهم ان يتقمصوا الأجسام البشرية بسبب سوء تصرفاتهم وهم في حالتهم الاثيرة... ولكن حان الوقت لنخلف موضوعاً حافلاً بالخيال والخرافة خالياً من المعقول. واني لأهم بان اتصور الأبخرة الطبيعية والغازات المتصاعدة من الكهف حيث كان المعبد قد بني. ربما هي المؤثرة على نفوس كل من يدخله. كما اثرت على الراعي (كوريتاس Coretas) الذي كان اول من أكتشفها بمحض الصدفة وعزاها الى حماسة النبوة، ورعشات وحيتها. حتى انه لما تضاعفت قوة هذه الأبخرة وكانت عادة تتجمع في الكهف: ككهف مويوس، وتروفينيوس، ودلفوس) صار الوحي يتناقض بالقياس نفسه وصادف ان كانت أقوى من العادة عندما قتلت كاهنة بيثياس التي شعرت بحقيقة الأمر فامتنعت عن الدخول. أما وان الوحي لم يعد ينزل بصيغة شعرية فلأن الشعراء عافوا مهنة الكهانة. وان جني سقراط (وقد اقر سقراط أنه لم يره قط بل كان يسمعه من جوفه ولا يحس به الآخرون) فهو ليس إلا مظهراً لقوة خياله، أو هو «ملاكه الحارس» اذا استخدمنا التعبير المسيحي الافلاطوني. إن الفقرة الأخيرة من سيرة حياة المؤلف قد تصلح خاتمة لهذه المقدمة قال درايدن: «والآن وبالكبرياء والتعظيم الذي تعودته كتاب المقدمات الهولنديون، يمكننا ان نقلد مؤلفنا آيات المديح والثناء. ذلك لأن الكتاب القدماء منهم والمحدثين، ذكروه بالتجلة والتكريم. لكن ملء الصحائف بهذا النوع من البضاعة من شأنه أن يشبع عدم الثقة في نفس القاري. فيتوهم أن پلوتارخ هو بحاجة الى هذا، إن روالدوس على أية حال جمع الوافر من هذه الأقوال ومن جمع لهم سأذكر فحسب اسما. جيلبيوس ويوسيفوس وهيميريوس السورفسطاني ويونابيوس وكيريللوس الاسكندراني وثيودوريت (جوهانس ساريبرنسس [Sohannes Sarieberiensis] وپترارك الشهير وپطرس فكتوريوس وجوستوس لپسيوس.

إلا ان [ثيودوروس غازا]]، وهو رجل واسع الاطلاع في اللاتينية ومن أعظم النقلة الأغريق الذين عاشوا قبل أكثر من قرنين، يستأهل منا أن نشب له هنا تقریظ الحرفي، فالآخرون اجزلوا الثناء على پلوتارخ دون الآخرين، في حين ان هذا الباحث رفعه على الجميع واليك ما كتب:

« قبل ان أحد أصدقائه طرح عليه هذا السؤال المغرق في الخيال والمبالغه: اذا تعرض التراث الفكري كله الى خطر الغرق، فأعطي له حق خيار واحد باستنقاذ آثار مؤلف واحد، فمن سيقع عليه اختياره؟ فأجاب: اختار بلوتارخ. ولعله معذور في قوله هذا. اذا بانقاذ آثار هذا المؤلف يكون قد حفظ خير مجموعة منها... »

إن مديح [Agathias] هو الآخر يستحق تنويعاً، لقد نبغ هذا الكاتب في حدود المائة الخامسة للميلاد على عهد الامبراطور جستينيان والابيات المذكورة في «الشذرات الأدبية» Anthologia وبترجمتنا لها هنا أختتم على كاتبنا. ولا يفوتني التنبيه بأنها نظمت لتنقش على تمثال يقيمه له الرومان احياءً لذاكره.

يا بلوتارخ الخيروني، ان تمثال الشكر هذا، اقامته روما ذات المجد العسكري العظيم تكريماً لذكراك الخالدة. فهي وبلاد اليونان شاركتنا في شهرتك معاً. (فلقد كتبت سير ابطالهما وقارنت فيما بينهما).

لكنك لم تستطع انت ان تكتب سيرتك، ان لسيرهم اقرباً اما سيرتك فما لها قرين.

ثبت بالترجمات

النص الأصلي: الطبعة الأولى (طبعة فلورنسا. آب ١٥١٧) الطبعات التالية. [شيفر Shafer] ١٨١٢-١٨١٨ و ١٨٢٥-١٨٣٠، [سنتينس Sintenes] ١٨٣٩-١٩٤٦ و ١٨٨٤-١٨٨٨. [دوينر Doehner] ١٨٤٦-١٨٥٥. [بكر Bekker] ١٨٥٥-١٨٥٧.

الترجمات: سر توماس نورث Sir Thomas North، من النص الفرنسي المترجم بقلم [جيمس أميو James Amyot] في ١٥٧٥ و ١٥٧٩ و ١٥٩٥. (مع سير اضافية)؛ طبعات نالية، وطبعة ١٦٧٦ هي آخر ترجمة كاملة، نشرت بمقدمة لجورج ودهام G. Windham. ثم ترجمة ثيودر في ١٨٩٥؛ بقلم و. ه. د. روس W. H. D. Rouse «مععيد بلوتارخ» عشرة مجلدات في ١٨٩٨ و ١٨٩٩؛ منتخبات لشرح مسرحيات شكسبير مع تعليقات وفهرست ابجدي الخ... بقلم و. و. سكيت W. W. Skeat سنة ١٨٧٥ وترجمة لجماعة من الكتاب مع مقدمة لدرابدين في سيرة حياة بلوتارخ (الترجمة تسمى عادة باسم درابدين) ١٦٨٣-١٦٨٦ وهناك طبعات عديدة تالية اهمها تلك التي عملها ونقحها كثيراً [ارثر هيو كلر Arthur Hugh Clough] ١٨٦٤-١٨٧٦. وترجمة (و. لانكهورن W. Langhorne) ١٧٧٠. طبعات تالية: (ف. رانكهام F. W. Rang-

[ham ١٨٤٦]، [Bohn ١٨٥٣]، دار كاندوس كلاسيك Chandos Classics
١٨٨٤، دار كاميلوت كلاسيك Camelot Classic (مختارات) ١٨٨٦، لوبوك من
الكتب المائة. رقم ٣٩. ترجمة بقلم [أ. ستيوارت A. Stuart] و[غ. لونج G.
Long]، مع سيرة بلونارخ. طبعة مكتبة ستاندارد - بوهن ١٨٨٠-١٨٨٢.

الترجمة الانكليزية التي نقلنا عنها ترجمتنا العربية هي طبعة جديدة، لـ[كلو] كما نشرت
في ١٨٦٤، وتتضمن مقدمته الاصلية مع اضافات من عندي نتيجة مراجعات ترجمات أخرى.
واستطرادات منقولة عن مقدمات أخرى لتراجم انكليزية وفرنسية. أخصّ منها بالذكر
اصدارات دار نشر پنګوين بأربعة اجزاء، فهذه التي قام ايان سكوت كلفرت Ian Scott Kil-
vert تناولت جزءاً، عنوانه «قيام وسقوط أثينا» وتضمّ سير تيسبيوس وصولون وتيموستوكلس
وارستيدس وكيمون وپركليس ونيقياس والكيپاديس وليساندر. وجزء آخر أعطي عنوان (بناة
روما) تناول فيه سير كلّ من كربولانوس وفابيوس ماكسيموس ومارچلوس وكاتو الاكبر
وطيبيريوس كراسوس، وگايوس گراسون وسرتوريوس، وپروتوس ومارك انطوني. وكذلك ظهر
لعين المترجم مجلّد آخر بعنوان (عصر الاسكندر) وضمّ سير اسخيلادس، وپيلوبيداس، وديون
وديموستينس وفوكيون والكساندر (الأسكندر المقدوني) وديميتريوس وپيروس. أمّا الجزء الرابع
وعنوانه (سقوط الجمهورية الرومانية) فهو من ترجمة (ريكس وارر Rex Warner) وتناول
سير ماريوس وسوللا وكراسوس، وپومپي ووليوس قيصر وشيشيرون. ويبلغ عدد السير في
هذا المجلدات الاربعة ٣٣ سيرة من أصل ٥٠ سيرة التي تكمل بها سير المؤلف. وقد ترجمناها
جميعاً مع التعليقات.



لوحة رومانية تعود الى ٢٠٠ ق.م

تیسوس

THESEUS



ثيزيوس يقتل المينوتور - إناه أتيكى

أي (سوشيوس! سينشيوس [Socius Senecio] ^(١))

تعلم اني في كتابي هذا قد فعلت كما يفعل الجغرافيون ^(٢) حين يجمعون في حواف خرائطهم أحراراً من العالم لا يعرفون عنها شيئاً. فيضيفون حشوداً في الهامش مع هذا التفسير: ان وراء هذا الحد لا يوجد إلا الصحارى الرملية التي تعج بالضواري، وليس غير المستنقعات التي يتعذر اقتحامها، وأراضي الصيبيين (الصفالمة Scythians) المنجدة، والبحر الثلجي» والآن فتدوني كذب السير المقارنة. قد أخضت في دياجير تلك العهود التي قد يفلح العقل المستنير في بلوغها أو أي التاريخ الصحيح موطن، قدم فيها. وبماكاني القول مطمئناً عن تلك الشخصيات البعيدة جداً «وراء هذا لا يوجد غير الأساطير والخرافات، وسكان تلك العهود لا يزيدون عن شعراء ومدعى أساطير ووراء ذلك لا يوجد شيء حقيقي ثابت». لكنني فكرت بعد كتابتي سيرتي (الكورسوس) المشتزع، و(نوما) الملك، إن في وسعي الصعود حتى (رومولوس) بعد ان بلغت بتاريخي مرحلة قريبة جداً من عصره - وكان يحدوني الى هذا العمل اسباب وجيهة. ثم سألت نفسي كما تسأل (أسخيلوس): «بهذا المقاتل البطل من يجرؤ على التراجع؟ ومن أضع بمواجهته ومن يكون بدأ له؟» ^(٣)

ولم أجد له صواً غير ذلك الذي عمر مدينة أثينا الجميلة الطائرة الصيت وملأها بالناس، لأضعه مقابل أب مدينة روما الشهيرة المنيعه. ولنأمل أن تخضع الأسطورة في حديثنا الى

(١) احد الذين صادقهم بلوتارخ اثناء اقامته في روما. وعظمهم نفوذاً. فقد تولى منصب القنصلية اربع مرات ما بين اعوام ٩٨ - ١٠٧، واعتاد بلوتارخ توجيه كثير من رسائله في الاخلاق اليه. وعلينا ان لانحط بينه وبين سيبيشو اندي قتله [دوميتيان] لأنه دون سيرة [هلفيديوس پريسكوس]، والى الشخص عليه وجه بلوتارخ أيضاً سيرتي ديموستينس وديون.

(٢) الجغرافيون أو المؤرخون كما ورد في الأصل. دليلاً وليلاحظ ان الجغرافيين الأوائل لم يكونوا يقنعون بآثبات المواقع والمسافات، بل يبحثون في الأحداث والعادات والأخلاق ونظمه الحكم ومن أمثال هؤلاء [سترابون] و[پلوسينيوس] وحول تيسيسيوس وتاريخه المؤرخون على خلاف. فلوح أكسفورد مثلاً يعني اتحاد المقاطعات الاتيكية وتأسيس الالعاب الاستيمية في ١٢٥٩ ق.م وبليز Blair يحدد تاريخ هذين الحدثين في ١٢٢٤ ق.م أي بعد حملته على كريت بسبع عشر سنة.

(٣) «سبعة ضد ثيبة» الص ٤٢٥، ٢٩٥.

عملية غريبة عقلية بحيث تأخذ شكل التاريخ الصحيح، وعلى أية حال فحيثما يوجد من الأساطير ما يستعصي على المنطق السليم، وبأى أن يتحول الى أي شيء قريب من الحوادث المحتملة، ليس لنا إلا أن نرجو العثور على قراء كرما - يتقبلون أساطير القدماء برحابة صدر وإغضاء. ويبدو [ثيسوس] شبيها [برومولوس] من نواح كثيرة. فكلاهما لم يكن ثمة زواج شرعي، وكلاهما مطعون في نسبه، وكلاهما اشتهر بانحداره من عترة الأكلهه و...

« كلاهما محاربٌ ولا أحد ينكر ذلك »^(٤)

كلاهما امتاز بقوة في الجسم ومضاء في العقل متساو. أحدهما بنى روما وثانيهما ملأ أثينا بالسكان، وروما وأثينا أشهر مدينتين في العالم طراً، واتهم كلاهما باختطاف النساء ولم يخلص في وطنيهما من النواتب العائلية ولا من الكيد. وتعرضا معاً لسخط بني قومهما قبل ان ينتهي بهما العمر؛ هذا اذا اتخذنا من الحكايات الشعرية الخيالية دليلاً الى الحقيقة.

ترتفع شجرة نسل [ثيسوس] من جهة الأب حتى تصل الى [إرخثيوس Erechtheus]^(٥) والى أقدم من سكن [اتيكا Attica] أما من جهة امه فهو سليل [پيلوپس Pelops]^(٦) وكان هذا، أقوى كل ملوك الپلپوننيسوس Peloponnesus لا بما يملك من مال، بل بكثرة ما لديه من اولاد. لأنه تزوج بنات عدد كبير من الزعماء، وولى عدداً كبيراً من اولاده حكم البلدان التي تجاور مملكته. ومن بين اولاده [پيتيوس Pittheus] جد [ثيسوس]، كان مؤسس المدينة صغيرة يسكنها قوم [الطرويزينيين Troezenian]^(٧). وعرف بإحاطته بكل الحكمة والمعرفة التي وصل اليها عصره. ويبدو أنها تتألف من مبادئ الأخلاق أساساً. ومنها نال [هسيود] الشاعر شهرته في كتابه «الأعمال والأيام» وبين ما يتضمنه في الواقع بيت يُعزى الى [پيتيوس] وهو «ان المكافأة التي بوعد بها صديق عزيز يجب ان تكون أكيدة

(٤) الإلياذة ٧: ٢٨١. عن تيلامون وهكتور.

(٥) فهو الجيل السادس المنحدر من صلب ارخيتوس. وقيل انه ابن فولكان ومينرفا أو كراني Cranae حفيدة كرانلوس ثاني ملك في أثينا. لذلك كان بلوتارخ محقاً في قوله انه من صلب [أوتو خوونس]. أو ان سكان اثيكا الأوائل سمو بهذا لأنهم ينحون بولادتهم من قرية البلاد، [ميروپوتس وتوكيديدس].

(٦) ابن تانتالوس Tantalus من أصل فريجى هاجر الى اتيكا حاملاً ثروة كبيرة جمعها من تنقيب في مناجم بالقرب من سبيلوس. وبفضل ثروته هذه ضمن لابنائه حكم اضعف المدن وأكبرها وكانوا أحد عشر. كما انه زوج بنيتي لأميرين فكانت [اليسيديسي] زوجاً [الكتريون] أو نسطور ابن پرسیوس ملك تيرنثس. وكانت [استيداميا] زوجاً لـ[ستفيلوس] ملك [ميسين].

(٧) ترويزية: مدينة صغيرة ارغوايسية تقع على ساحل خليج سارون قبالة أثينا في الپلپوننيس و[پاوسنياس] يتفق تقريباً مع الرواية نفسها ويقول انه عَلم الفصاحة في ترويزية وأضاف «لقد قرأت كتاباً من تأليفه، اعطانيه رجل في ابيداوس» [ج ٢ ص ٣٠ و ٣١].

وكبيرة^(٨) أو كما جاء في ارسطو^(٩) وكذلك [يورپيدس] عن رأي الناس فيه، عندما يصف [هيپوليتوس Hippolytus] بأنه «تلميذ پتيوس الالهى»^(١٠).

كان [ايجيوس] ملك أثينا يصبو الى عقب، فاستخار في ذلك الكاهنة الهيثية وجاءته النبوة الشهيرة وكانت غامضة جداً، فلم يكن على ثقة بأنه ممنوع من الجماع بصورة باتة، فقصده [طراويزين] والقى على اسماع [پتيوس] صيغة النبوة وهي كالآتي:

لا تحمل عنت زق الخمر البارز يا زعيم الرجال العظيم حتى تعود الى أثينا مرة أخرى^(١١)

الظاهر ان پتيوس فهم معنى النبوة، فيما أقنعه أو اغراه بمضاجعة [إيثرا Aethra] بنته، وعلم [ايجيوس] فيما بعد أن من ضاجعها هي بنت [پتيوس] ولشكه في انها علقت منه، ترك سيقاً وزوج بحال في محل خفاء تحت صخرة عظيمة فيها تجويف بمقارها تماماً. ثم ودعها بعد ان أطلعها على السر وحدها. وأوصاها في حالة وضعها طفلاً ذكراً، إن تخبره بحقيقة نسبه عندما يبلغ مبلغ الرجال ويكون قادراً على زحزحة الصخرة واستخراج ما أخفاه. وان تبعث به مع هذه التذكارات اليه وان تكتم الأمر عن كل احد وتوصيه أن يحفي أمر رحلته هذه قدر الامكان خوفاً عليه من الباللاتيين [الدائمي الثورة عليه. فهؤلاء كانوا يزورونه لأنه يلون عقب، وكانوا هم أنفسهم خمسين آخاً كلهم من صلب بالاس Pallas^(١٢) أبيهم وأخيراً بعد توصيته هذه ترك إيثرا. ووضعت [إيثرا]^(١٣) ذكراً. وقال بعض الكتاب إنه سمي [تيسسيوس] في الحال تيمناً بالتذكارة^(١٤) الذي تركه أبوه تحت الصخرة. وزعم آخرون ان هذا الاسم لحق به في اثينا بعد أن أقر إيجيوس بنوته. ومهما يكن من أمر فإن الابن نشأ في

(٨) عاش [هسيود] في حدود خمسة قرون بعد [پتيوس] وهذا المقطع هو رقم ٣٧١.

(٩) المقطع رقم ٥٥٦.

(١٠) هيپوليتوس ١١.

(١١) المرجع السالف يورپيدس: ميديا ٦٧٤ و ٦٧٦.

(١٢) بالاس هو أخ لايجيوس، ولما كان قد حكم على ايجيوس بالآ ينسل فقد اعتبر الهالانتيدي مملكة اثينا ميراثهم الذي لانزاع فيه.

(١٣) يقول پلوتارخوس انه ولد في موضع دعى انذاك وبعده لزم طويل بل [جيتليون] وهو قريب من ترويزينه. واليه ارسل پتيوس ابنته لتعزو الطفل الى [پنتون].

(١٤) اليونان كالأراميين والعبرانيين وغيرهم من الشعوب القديمة، يسمون الاشخاص والاشياء بصفات الاحداث والوقائع والظروف التي يتفق وقوعها مع الطهور او الولادة. والكلمة اليونانية [پتيوس] تعني (وضع) وحملة [پتاونوك] معناها [تبني ولداً] وقد فعل ايجيوس الشينين وكانت مراسيم التبني ضرورية لاعانة تيسسيوس على وراثة العرش. فهو ابن غير شرعي.

رعاية جده [پتيوس] حتى وعين له [كونيداس Connidas] مريباً وحارساً. والآثيون حتى يومنا هذا يقدمون له كبشاً في اليوم^(١٥) السابق للعيد المخصص له [تيسسيوس] ويكرمونه أكثر من [سيلانيون Silanion] وپاراسيوس [Parrhasius]^(١٦) اللذين عملاً له [تيسسيوس] تماثيل وصوراً منحوتة. وهم في ذلك محقون.

كان العرف السائد في بلاد اليونان يومئذ أن يقصد الشباب [دلفي] عندما يبلغ الحلم، ويقرب للرَّب أول ثمار شعره النامي. وكذا فعل [تيسسيوس]. (هناك موضع ما زال يحمل اسمه يقال أنه سُمي كذلك خصيصاً).

وجزّ ناصيته فحسب، مثلما عمل [الأبانتيون Abantes]^(١٧) على ما يقول [هوميروس]^(١٨). وأطلق على هذه الطريقة في قصّ شعر الرأس اسمه أيضاً. على أن [الأبانتين] كانوا قد اتخذوه زياً لهم لا تقليد للعرب كما يتصور بعضهم، ولا للميسين Mzians منا زعم بعضهم وإنما لكونهم قوماً محاربين تعودا القتال وجهاً لوجه وامتازوا عن سائر الاقوام بانهم يشتبكون بالأيدي من أعدائهم كما شهد لهم أرخيلوخوس Archilo-chus^(١٩) بأبياته التالية:

«لا مجال ثم لدوران المقاتل في الهواء. ولا فسحة لشدّ القوس عندما يقدم آرس المخيف يخطر ليشارك في مشار النقع هناك في السهل فهذا قتال التلاحم بالأيدي وهؤلاء الرجال هم منه اساتذته. سادة أوبويا الرماحة الذين طبق ذكهم الآفاق وأسلوبهم هذا في القتال أوجب عليهم أن يجزوا نواصيتهم حتى لا يمتكنوا اعداءهم منها.

(١٥) ومن هنا كان المثل اليوناني «لا يمكن الوفاء بدين المعلم إلا بتقديم أعظم التكريم له».
(١٦) كان ثم صورة لتيسسيوس في الكايتول من عمل پاراسيوس تمثل معركته مع المونيتاور بقيت حتى زمن بليني: [تاريخ الطبيعة ١٠ ٢٥] هذا الرسام الشهير عاش في حدود القرن الرابع ق.م. وأما [سيلانيون] فهو مثال برونز معروف كان معاصراً لالاسكندر المقدوني تقريباً.
(١٧) الأبانتيون: سكان أوبويا إلا أن أصلهم من أباي وهي مدينة في تركيا من هذه العبارة يبدو أن بولتارخ إنما يشير إلى العادة التي تعود إلى زمن أبعد بكثير من زمن تيسسيوس. إلا أن [يوستاتيس] يزعم أن تيسسيوس هو الذي استحدث العادة ويقول أن التقدم لم تكن في دلفي بل في ديلوس. وأنها قاصرة على الترويزينيين وبعد عهد تيسسيوس بدا واضهاً من لوشيان أن العادة فرضت تكريماً لهيبوليتس على الجنسين بوصفها اجراءً ضرورياً لإتمام الزواج. في طور الرجولة يجز الشعر الذي يبقي ذلك العين مرسلأ في الهيكل ويوضع في وعاء فضي أو ذهبي يحفر عليه اسم صاحبه ويكون من أوقاف (ابوللو).
(١٨) الإلياذة ٢ ٥٤٢، ٥٤١.

(١٩) شاعر أغريقي عاش في حدود منتصف القرن الثامن (ق.م.) وكان هوميروس قد تكلم بعين هذا عن الابانتين قبله ثلاثمائة سنة. (راجع الحاشية السابقة) حيث يقول أن الابانتين خرقوا دروع أعدائهم برماح صويلة أعني أنهم التحموا معهم بالأيدي.

والمؤرخون يذكرون أيضاً أن هذا السبب هو الذي حدا بالاسكندر المقدوني أن يأمر رؤساء جيشه بحلق لحى المقدونيين كافة، لأنها نقطة ضعف فيهم، قد يستعيد منها العدو...

ظَلَّت [ابثرا] تكتم حقيقة سبب [ثيسبيوس] طوال طفولته وأعلى حدّه [پتسيوس] للناس أن الوليد هو لقح نطفة الرب بوسيدون [نبتون].

لنبتون عند الطراوينيين مكانة خاصة لاتعدلها مكانة ربّ آخر فهو الآلهة المعلم المرشد لهم، واليه يقدمون أولى ثمارهم، وهم ينقشون على نقودهم صورة رمح ذي ثلاث شعبٍ تكرّماً له.

وأظهر ثيسبيوس قوة جسم خارقة وبأساً ومراساً وخفة وعقلاً وفهماً مساوياً لتلك القوة. وأخذته أمه الى الصخرة وهناك افضت اليه باسم أبيه وأمرته أن يزحزح الصخرة ويستخرج من جوفها تذكارى أبيه [ابيجيوس]. فأقبل على الصخرة دون تردد ولم يلق صعوبة تذكر في رفعها^(٢٠)، لكنه رفض أن يقوم برحلته بحراً وإن كانت أسلم وسيلة للسفر - ورغم رجاء أمه وجده ففي ذلك الزمن كان الطريق البري الى اثينا محفوفاً بالأخطار والمكاره الجسام ليس فيه جزء خلا من قتلة وقطاع طرق. في ذلك العصر، نجم صنف من الرجال تميزوا بقوة الساعد وخفة القدم وشدة العضل تفوقوا في هذه المظاهر الجسمانية على البشر العادي فلم يعرفوا للتعب معنى وأبوا استخدام هذه الطاقات العظيمة من نعم الطبيعة في غايات سامية تمت الى الخير وتعمل لمنفعة البشر وانما اتخذوا الاعتداء والارهاب ديئنا، وجعلوهما مصدر استمتاع وتبجّج. واعانتهم قواهم الخارقة على ممارسة أعمال القسوة والانسانية وصرفوا تلك الطاقات في النهب والسلب والغصب وارتكاب كل المحرمات بحق كل من يقع في ايديهم. وفي رأيهم أن احترام الآخرين، والتمسك باهداب العدل، والمساواة والانسانية، وهو موضع اجلال الناس العاديين، انما يعود الى افتقار اولئك الى عنصر الاقدام والقدرة على الأذية، أو الى خوفهم من التعرض للأذى. وهي مما لا شأن به لأولئك الذين بلغت قوتهم حداً تشبّع به مطامعهم وترضى غرائزهم. وكان (هرقل) قد قضى على طائفة من هؤلاء، فبطش بهم اثناء مروره في تلك البقاع، وأغفل بعضهم فهروا وأخفوا أنفسهم عنه، فتقاضى عنهم أحتقاراً لخضوعهم الذليل. ثم ركب هرقل المصائب فأنشغل بها. وبعد أن قتل [إيفيتوس Iphitus] عاد الى [ليديا] وظلّ فيها عبداً رقيقاً [لأومفاله Omphale]^(٢١) بمثابة عقوبة فرضها هو على نفسه

(٢٠) مدّد ذلك الحين بانت تدعى بـ(صحرة ثيسبيوس) وكانت تعرف قبلاً باسم «مذبح جوبيتر ستينيوس».

(٢١) القتل بختارون النفي لأنفسهم عادةً ويفرضون على أنفسهم نوعاً من العقوبة يمارسونها حتى تحصل لديهم القناعة بأنهم استوفوا حطهم لقد قذف (هرقل) [إيفيتوس] ظلماً من فوق اسوار [تيرنتوس] لأن اباه [يوريتوس] نقض العهد معه اذ وعده بابنته [ايولي] زوجاً بشروط معينة نكح بمعده فاستجار (هرقل) بـ(نيلوس) أولاً فلم يجرد. ثم نجح في مسعاه مع [ديوفوبوس]. لكنه بقي يعاني مرضاً عضالاً. فاستخار =

لارتكبه جريمة القتل تلك. وفي هذه الفترة التي قضاها هناك تمتعت بلاد ليديا بعهد من الأمن والطمأنينة لا مثيل لهما. على أن الحياة دب ديبها في أولئك الأوغاد وانتشروا ثانية في بلاد اليونان والاتحاء المجاورة، وانطلقوا يعيشون فيها فساداً ولم يكن هناك رادع يردعهم، ولا أحد ينزل بهم العقاب. ولذلك كانت الرحلة البرية بين اثينا وبيلوبونيسوس محفوفة بأعظم المخاطر. وحاول الجند^(٢١) (ثيسيسوس) عن عزمه السفر برا بشرحه أعمال كل واحد من الأشرار وقطاع الطرق وبيان قوتهم وإغنائهم التي يمارسونها ضد المسافرين، علّه يقنع بالسفر بحراً. لكن يظهر أن ثيسيسوس كان متأثراً منذ زمن بعيد بمآثر هرقل وأعماله المجيدة وكان ينزله منزلة من الأكابر لا مزيد عليها. ولم يكن يسره شيء أكثر من اصغائه إلى كل من يروي طرفاً من وقائعهم، وخصوصاً أولئك الذين رأوا بأأم العين أو كانوا شاهدي عيان عمل قام به أو سامعي أي قول قاله، وتلك ثيسيسوس الشعور الذي انتاب (تيموستوكليس)^(٢٢) وبعده بإحقاب، عندما قال أن النوم يعزّ عليه إلا بعد أن يحوز شكة سلاح ملتياداس Miltiades وبلغ أعجابه بخصال هرقل مبلغاً عظيماً حتى أن أحلام ليله كانت تدور كلها حول أعمال ذلك البطل. وفي أثناء النهار كانت رغبته المستقرة في تقليد تلك الأعمال، تدفعه دفعاً إلى القيام بمثيلاتها.

زد على هذا فقد ذكر أن هذين البطلين يمتان أحدهما إلى الآخر بصلة رحم. لأن [ابشرا] هي بنت [پتيوس] و[الكينا Alcmena] هي بنت [السيديسي Lycidice] وپتيوس أخ للأخيرة، وكلاهما ولدا [هيبوداميا وپيلوبس]. لذلك لم يحتمل [ثيسيسوس] أن يصل هرقل ويجول في طول البلاد وعرضها يظهر البر والبحر من الأشرار بينما يتهرب هو من مثل هذه المغامرات التي جاءته منقاداً من تلقاء نفسها، ولم ير هذا مما يشرفه وإنما يلحق العار بسمعة أبيه الشهير، بفرازه المخزي عن طريق البحر فلا يستطيع أن يقدم بمآثره وجلالته برهاناً لأبيه الحقيقي، على عظمة ميلاده، بدلاً من برهان السيف والنعلين.

فانطلق تحدوه هذه الغاية وتغلبت نفسه تلك الأفكار. عازماً على أن لا يلحق بأحد سوء، بل أن يقاتل كل من يعترض سبيله متحدياً، وأن ينتصف لنفسه ممن ينوي به شراً. وكان أول من بطش به [پرفيتس Periphetes] في معركة فردية جرت بالقرب من ابيداوروس Epidaur-us^(٢٣) وكان خصمه يستخدم الهراوة سلاحاً. ومن يومها لصق بثيسيسوس لقب [كورنتس

= (دلفي) فنيّه بأن عليه أن يبقى رهن العبودية ثلاث سنوات ليتحقق له الشفاء. ولذلك قام (عطارد) ببيعه لـ(أفعاله) ملكة ليديا.

(٢٢) انظر سيرة تموستوكليس.

(٢٣) منطقة في الپلوبيوبسيس.

Corynetes] أي حامل الهراوة وكان القتل قد أعترض سبيله وحال بينه وبين السير. لقد راقبت له تلك الهراوة فجعلها سلاحه واستخدمها كما استخدم هرقل جلد الأسد بالقائه على منكبيه ليظهر صلح ضخامة الوحش الذي يطش به. فحمل ثيسسيوس الهراوة لهذا السبب وأصبحت أقوى سلاح في يده، وانه كان قد قهرها وهي في يد صاحبها.

ومضى في رحلته حتى برزخ [پيلوبونيسوس] وهناك فستك بالمدعو [سنييس Sinnis] المعروف بلقب. «لواء جذوع اشجار الصنوبر»^(٢٤) (مأخوذاً من طريقته في القضاء على ضحاياه الكثيرين) فقتله بالطريقة نفسها، دون أن يسبق له ممارسة ذلك من قبل. وفي هذا برهان على ان القوى الطبيعية هي فوق كل فن وخبرة. وكان (السنييس) هذا بنت — الطول في غاية الجمال تدعى [پريغونه Perigune] عندما سقط ابوها قتيلاً هربت لاتلوي فلحق بها [ثيسسيوس] باحثاً عنها في كل مكان. وبلغ بها المطاف موضعاً تنمو فيه الشجيرات، والطرفاء والشوك، فراحت الهاربة تتضرع الى النباتات ببراءة الطفولة لكي تخفيها عن مطاردها - كأن للنبات عقلاً يدرك! - ونذرت إن نجت، الا تقطعها ولا تحرقها إلا ان ثيسسيوس ناداها ووعداها أن يعاملها باحترام ولا يلحق بها اذية. فخرجت اليه من الدغل. وبعد اكتمال ايامها وضعت له ابناً عرف باسم [ميلانيپوس Melanippus] على انها تزوجت فيما بعد [ديونيوس Deioneus] ابن [يوريتوس Eurytus] الأوخالياني، وثيسسيوس هو الذي زوجه اياها. إن [ابوركسوس Iorxus] ابن [ميلانيپوس] ولد ثيسسيوس رافق اورنتوس Ornytus مع من رافقه من المستعمرين الى كاريا Caria وقد اعتادت أسرة الايوكسيديس Ioxids المنحدرة من صلبه ألا يحرق نساؤهم أو رجالهم شوكاً أو طرفاء اجلالاً وتكريماً لهذا النبات وايفاء بنذر أمهم.

كانت الخنزيرة المسماة^(٢٥) [فيا Phaea] وحشاً ضارياً هائل الجثة، وخصماً لا يستهان بأمره قط وقد عاثت فساداً في كرميون لكن ثيسسيوس انحرف عن سبيله قصداً ليلقاها ويقاتلها ويفتك بها^(٢٦). حتى يبرهن انه لا يقوم بكل مغامراته بدافع الحاجة. ومن رأيه ان

(٢٤) لقب بذلك كان ثني رأسي شجرتي صنوبر وشهد المسافرين اليهما فاذا أطلقا ليعودا الى وضعهما تحرق المربوط بها الى اشلاء. ان پاوسانياس فضلاً عن اوفيد ٧٠٤٠، يسميانه (سينس) ويقول ان واحدة من هاتين الشجرتين بقيت حتى عهد الامبراطور الروماني [هانريان]

(٢٥) باليونانية تعني ذات اللون الغامق. ويقول سخرابو ان هذه الخنزيرة ولدت الخنزير الكاليدوني الذي فتك به ملياجر. وكروميون تقع على الحدود التي تفصل كورنث عن ميغارا.

(٢٦) في هذه الحادثة يبدو أن بطلنا حاد عن مبدئه الذي انطلق من أجل تحقيقه وهو ان لا يكون الجانب المعتدي في مزالٍ كانت الخنزيرة الوحشية على اية حال أكثر احتراماً من إحياء شجرتي الصنوبر.

معاقية الأشرار والمعتدين الذين يعترضون سبيله، إنما هو جزءٌ من واجب الرجل المقدام، وإن عليه فضلاً عن ذلك البحث عن الضواري والوحوش المفترسة الهائلة والبطش بها، إن بعض الكتاب يزعمون أن (فيا) كانت قاطعة طريق تعيش في [كرميون] شديدة القسوة كثيرة الطبع، ولقبت بالخزيرة لقذارة عيشتها وانحطاط خلقها وقد قتلها ثيسبيوس فيما بعد.

كذلك قتل [سكيرون] على حدود [ميغارا] أو قذف به إلى الهاوية من فوق الصخور، وكان هذا كما زعم معظم الكتاب لصاً سيء الصيت يتعرض لكل المسافرين، وروى بعضهم أنه كان يمدّ قدميه طالباً من عابري السبيل أن يعسلوهما، وفيما هم يفعلون ذلك يركلهم فيقذف بهم من الصخور إلى البحر، شراً منه وشراسة، على أن كتاب (ميغارا) «يتحدّثون كل الأخبار القديمة» في نقض هذه الرواية ويقولون ومنهم سيمونيدس Simonides أن (سكيرون) لم يكن قاطع طريق ولا رجل شرّ وعنف بل خصماً وعدواً لهؤلاء الأشرار وصديقاً للناس الأخيار ويقولون أثباتاً لذلك إنّ (أياكوس Aeacus) كان رجلاً عظيم القداسة، وهو موضع احترام جميع اليونانيين، كما أن (صخريوس Cychreus) السلاميسي، يجعله الآثينيون ويعبدونه عبادة الأرباب، وإن فضائل (پيليوس Peleus) وتيلامون Telamon] ليست بالجهولة من أحد، و[سكيرون] هذا، هو زوج بنت [سخيروس] وحمو [أياكوس] وجَدّ [پيليوس] [وتيلامون] وكلاهما ابنا [اندياس Endeis] بنت سكيرون^(٢٧) وخاريكلو Chaericles وليس من المحتمل إذن، أن يصاهر خير الرجال شرهم ويتحدوا بهم برباطة القراية والنسب. يأخذون منه ويعطونه ما هو أغلى قيمة وأعزّ شيء في الحياة. وبحسب ما روى أولئك الكتاب أن ثيسبيوس لم يبطش [سكيرون] في رحلته الأولى إلى اثينا. وإنما عندما استولى على [اليوسس] المدينة التي يقطنها الميغاريون بعد أن هزم حاكمها الأكبر [ديوكلس Diogles].

تلك هي التناقضات التي تجدها في الحكاية، وفي تلك المدينة أيضاً قتل [كركسيون Ger-cyon] الاركادي في نزال فردي قاراده في الحال^(٢٨) وسار حتى بلغ [ارينيوس Erineus] وفيها قتل داماستيس الملقّب بروكروستوس بإرغامه على جعل قبره بقدر جسمه كما اعتاد

(٢٧) ابلودورس يجعلها ابنة (خيريون) إلا أن زعم پلوتارخ هو الأصح والأصح إذ أنه يدلّ بحجة منطقية لهذه الرابطة ويتفق مع پلوتنياس في ذلك.

(٢٨) ظلت البقعة تسمى (سيكرون پالسترا) إلى زمن پلوتنياس. كان سيكيرون أوّل من استخدم الأصول الفنية في المصارعة لكن (مينرثا) ساعدت (ثيسبيوس) على الغلبة بفضل تدريبها له.

ذاك ان يفعل بكل صحاباه. وبهذا سار على نهج [هرقل] الذي كان دائماً يذيق المعتدين عليه ما كانوا يقصدون ان يذيقوه لو ظفروا به. وذبح [بوسيريس] وقدمه قرباناً، وقتل [آيتوس] في مصارعة فردية. وفنك به (كينوس Cynus^(٢٩)) في معركة واحدة حاسمة. وقضى على [يترميروس] بتكسير جمجمته قطعاً ومنها جاء المثل السائر «بليّة يترميروس»^(٣٠). فالظاهر ان يترميروس كان يقتل المسافرين بأن يفظحهم برأسه نطحاً.

هكذا مضى ثيسبيوس قدماً في الاقتصاص من الأشرار. فأذاقهم ما كانوا قد أذاقوه الآخرين وجزاهم جزاءً وفاقاً عن كل المظالم التي اقترفوها.

وبوصوله نهر [كفيسوس] لقيته زمرة من قوم [فيتالدي]^(٣١) وقرأوه التحية ولبوا طلبه في التطهر كما قضت عادات تلك الأيام، وقاموا بالمراسيم المعتادة طبق المرام. وبعد ان قرب قربان الرضا للأرباب استضافوه وأدبوا له في بيتهم. فكان كريماً وعطفاً منهم لم يلق مثله منذ بدء رحلته حتى وصوله اليهم.

وبلغ آثينا في الثامن من شهر [كرونئوس Cronius] الذي يسمى الآن هيكتاتوميون Hec-atombeon فوجد الأحوال العامة في غاية الاضطراب والمدينة منقسمة الى حزبين وشيعتين، ولم يخلص ايجيوس واسرته من هذه الفوضى والقلق. اذ كانت [ميديا Medea] تعيش [ايجيوس] بعد فرارها من [كورنث] وقد وعدته انها ستجعله قادراً على انجاب اولاد بقوة سحرها. وهذه المرأة هي اول من وقفت على سرّ [ثيسبيوس] الذي بقي أمره مجهولاً من ايجيوس حتى ذلك الزمن، وما انه بلغ من العمر عتياً وركته الهواجس وتناهيه الشك والغيرة وملاً الخوف جوانب نفسه من كل صغيرة وكبيرة بسبب وجود الحرب المناويء له في المدينة، فقد سهل على هذه المرأة إقناعه بقتل [ثيسبيوس] بالسّم أثناء مأدبة كان سيحضرها بوصفه

(٢٩) في النص الأصلي [هرميونه] والارجح انه بولتارخ مخطئ هنا اذ لا يعرف ثم موضع بهذا الاسم أو ما يقرب منه. والمؤرخون بعد [فيلوخورس] يطلقون عليه اسم (ترميونه). (في ترجمتي B. P. وبرايدن، أثبتت كما اوربناها هنا في ترجمتنا العربية).

(٣٠) كتاب آخرون يميزون لهذا المثل أصولاً أخرى. ف(كويداس) يشتقه من موقع مستحکم في (كاريا) بين (ميلوس) و(ملكارتاسوس)، يدعى (ترميويوم) استخدمه الطغاة بمثابة مطبق للمسجونين. اما ابوستوليوس فيعزوه الى آخر أيام الحياة ويسمى ترميا.

(٣١) هؤلاء هم نسل فيتالوس الذي افضت اليه سيبوس الرّبة، بسرّ زراعة شجرة التين والاشراف على أسرارها مكافأة له على حسن ضيافته لها في منزله لم يجد (ثيسبيوس) نفسه مهيناً لاقتبال تلك الأسرار قبل التطهر ذلك لأن يديه كنتا منموستين بالدم وان كان دم القصوص وقطاع الطرق. تطوّف الاقدمون في فكرة التطهر الى أقصى حدّ. حتى ان ابوللو نفسه أرغم على القيام بمراسيم التطهر بعد قتله الأقمى (بيثون) التي ألحقت الدمار باليونان. وقد جرى تطهير (ثيسبيوس) في مذبح جوبتر قرب نهر (كينسوس) (انظر باوسيناس ١: ٢٧٠).

من الغرباء عن المدينة. وصل الى موضع المأذبة وهو يميل الى التريث في كشف أمره، حتى يتيح لأبيه فرصة اكتشافه أولاً. وجي. باللحم ووضع فوق المائدة فانتضى ثيسسيوس السيف كأفأ يريد اقتطاع فلذة من اللحم. فتعرف ايجيوس على التذكار حالاً ورمى بقدر السم. وبعد أن القى بضعة أسئلة على ابنه عانقه، وجمع كل مواطني المدينة واعترف علناً بابوته له. فرحبوا هم به أيضاً لأن شهرته سبقتهم اليهم، وقيل انه لما سقط قدح السم اندلق ما فيه فوق بقعة هي الآن موضع مسور في (دلفينيوم)^(٢٢). وهي الأرض التي كان يقوم عليها منزل ايجيوس. اما تمثال (مارس) الذي هو في الجهة الشرقية من المعبد فيسمى (تمثال مارس في باب ايجيوس).

كان ابنا (باللاس) قبل ظهور (ثيسسيوس) قد أخذوا الى السكينة انتصاراً لموت ايجيوس لاستعادة الملك بدون عنف لانه لم يخلف نسلأ. فلما تقرر ان يخلفه ثيسسيوس في الحكم ثار حنقهم واجتاحتهم الثورة: فهذا ايجيوس أولاً لا يعدو أن يكون ابنا متبنئاً لپانديون - Pandion^(٢٣) ولايت بصله قرابة لأسرة (ارختيوس)، يضبط الملك عنوة واقتداراً، وذلك (ثيسسيوس) الزائر الاجنبي الغريب عن الديار قدر له ان يخلفه في الملك... لم يصبروا وأعلنوها حرباً، وقسموا جموعهم الى قسمين: الأول زحف علناً على المدينة من (سفيتوس Sphettus) بقيادة ابيهم والشاسي نصب كميناً في قرية (عارغتس Gargettus) قاصداً الايقاع بالعدو من الجانبين. وكان مع هؤلاء منادي مدينة آغنوص المدعو (ليوس Leos) فأقبل على ثيسسيوس وكشف له خطة الهالانتيد فما عثم أن فأجأ أولئك الكامين وأبادهم عن بكرة ابيهم. ولما وصل نبأهم باللاس وزمرته هربوا وتفرقوا.

ومن هذا نشأت عادة عند أهالي مدينة (پالين Pallene) على شائع القول وهي أن لايرتبطوا بأي تحالف أو مصاهرة مع سكان قرية (اغنوص) وأن لايدعوا المنادين بلفظون في اعلاناتهم الكلمات الشائعة في كل أنحاء البلاد وهي « اكويتي ليوي » اي « أيتها الناس أسمعوا » كارهين سماع كلمة (ليو) بسبب خيانة هذا الرجل.

كان ثيسسيوس مشوقاً الى العمل، راغباً في ذبوع صيته. فترك آئينا ليقاثل ثور (ماراثون) الذي اوقع اضراً ليست بالقليلة بسكان مدن (تتراپوليس Tetrapolis)^(٢٤). وبعد أن تغلب

(٢٢) دلفينيوم ان موقع هذا المحراب المخصص لاپوللو دلفي ما يزال موضع تساؤل. وحدهس. ويقع على العموم شرق الاوليمپ

(٢٣) في الواقع ان (ايجيوس) ليس ابن (پانديون) بل ابن (سكيرياس).

(٢٤) من مناطق اتيكاء، سميت بهذا الاسم لاحتوائها على أربع مدن وهي [زينومبي، مراثون، پروپالتس، ترايكورنثوس] بنائها (كسوش) حَتَن أرخيتيوس.

عليه قاده حياً ودخل به دخول الظافرين الى المدينة ثم بحره قرباناً (لاپوللو دلفي) (٣٥) وتدو حكاية (هيكاله Hecale) واكرامها نيسسيوس واستضافته في حملته هذه، وكأنها لاتخلو من الحقيقة. فقد جرت عادة أهالي المدن المحاورة ان يجتمعوا في يوم معين لتقديم قربان (لجوبيتر هيكاليوس) يطلقون عليه اسم «هيكاليسيا»، تكريماً لهيكاله ايضاً. (يطلقون عليها اسم التصغير هيكالين - والسبب في هذا يعود الى انها كانت تخاطب نيسسيوس وهو شاب عندما استضافته. بمثل كلمات التحبيب هذه كما يفعل كبار السن لصغارهم، وكذلك لأنها نذرت لأجله قرباناً لجوبيتر اذا عاد سالماً من القتال، لكنها ماتت قبل اوبته، فجوزيت بهذا الاكرام رداً لجميلها، وذلك بأمر من نيسسيوس على ما يحدثنا (مهلوخورس) (٣٦). ولم يمر زمن طويل حتى أقبل على المدينة محصلو الجزية من كريت لأخذ القسط الثالث. وكان الاثينيون يدفعونها للسبب التالي: قُتل اندروغيوس Androgeus (٣٧) قتلة غادرة على حدود (اتيكا) فلم يكتف (مينوس) أبوه بجرح المصائب الشداد على الأثينيين بحروبه المتتالية، بل انضم اليه الأرياب وأحدثوا الخراب في البلاد وجعلوها بلقعاً يباباً، فنزل بهم القحط وفك بهم لوباء وجفت أنهارهم، ونزلت عليهم نبوءة مفادها ان غضب الآلهة لن ينقضي، إلا اذا استرضوا (مينوس Minos) وصالحوه، واذ ذاك سيزول عنهم يؤسهم ويحسر عن كواهلهم الشتاء فأرسلوا اليه رسلاً وبعد كثير من الالتماس والرجاء صالحوه أخيراً على شروط وهي أن يدفعوا لكريت كل تسع سنوات جزية تتألف من سبعة فتيان وسبع عذارى. وهذا ما اتفق على ايراده معظم الباحثين والحكاية الأخرى التي تحفل بالشعر والخيال تضيف الى ما تقدم أن غول (مينوتاور Minotaur) (٣٨) التيه كان يفترسهم، او انهم يهيمون على أوجههم في التيه لا يجدون فيه منفذاً للخروج فتنتهي حياتهم هناك اشنع نهاية وان هذا الغول كان على ما يصفه يوربيدس: شكلان مختزجان، يتألفان من خلقتين مهولتين ذات طبيعتين متنافرتين: ثور ورجل مجتمعين! (٣٩)

(٢٥) ديودورس (٥٩٤) يعزو هذا القربان ل(ايجيوس).

(٣٦) فيلوخورس مؤرخ أثيني (٢٢٠٠ ق م) كتب مقولات شينة عديدة اورد (سويداس) قائمة بها لكن لم يصلنا شيء، منها خلا بعض المقتطفات التي اقتبسها منه بعض الكتاب.

(٣٧) قال بعضهم ان (ايجيوس) أمر بقتله لأنه كان على اتفاق مع الهالانتيدي ويقول بعضهم ان الثور المرثوني هو قتله

(٣٨) احتلقها الشعراء فقالوا انه ابن (باسيفاي) من نطفة ثور. وپساي هي زوج ميبوس التي ابتلاها نبتون بهذا الميل الشنيع انتقاماً من ميبوس لأنه رفض ان يقدم له ثوراً جميلاً كان يتوقع ان يكون قرباناً له. ان حل هذه العقدة التي تكتف القصة من قبل (باليفاتوس) ليس قوي الاحتمال.

(٣٩) مناساة الأعريق مقطع ٢. هن ٦٨٠.

لكن [فيلوخورس] يقول أن أهالي كريت ينمون هذه المزارع نفعياً قاطعاً ويقولون أن التيه المزعوم ما هو إلا سجن عادي ليس فيه من صفات السوء إلا صفة واحدة وهي انه منيع يصعب على نزلائه الفرار منه. وان [مينوس] الذي أنشأ ألعاباً تكريماً لذكرى [اندروغيوس] كان يهب هؤلاء الشباب والعذارى جائزة للفائزين. وكان هؤلاء الأسرى يودعون سجن التيه خلال تلك الفترة. وأول من فاز في تلك الألعاب كان رجلاً يتمتع بقوة عظيمة ومكانة رفيعة، يدعى [طوروس Taurus] وهو شخص قاس لا تعرف الرقة والرحمة الى قلبه سبيلاً كان يعامل الاثينيين الذين اعطوا له جائزة شرّ معاملة وأغلظها. وكان رأي [ارسطو] الصريح الذي أدلى به في معرض بحث كتبه عن دستور شكل الحكم عند [البوتيان Botiaens] ^(٤٠) ان مينوس لم يكن يقتل هؤلاء الفتيان، وانما كانوا يقضون بقية حياتهم عبيداً في كريت. وان الكريتيين ايفاءً بنذر قديم قطعوه على أنفسهم منذ زمن طويل قد اعتادوا ارسال قرايين الى [دلفي] من اول ثمار رجالهم وان بعض الذين انحدروا من سلالة هؤلاء الاثينيين العبيد كانوا يخلطون مع التقدمات ويرسلون، ويعجزهم عن العيش هناك رحلوا اولاً الى ايطاليا، وأستقروا حول [ابايجيا Iapygia] ثم انتقلوا منها الى [تراقيا] وأطلق عليهم اسم [البيريتيين] وهذا ما جعل فتيانهم في اثناء تقرب قرايين معينة ينشدن أغنية تبدأ بعبارة «الى اثينا فلنذهب». هذا ما يكشف لنا الخطر الذي ينطوي عليه عدا. مدينة هي سيدة البلاغة وأميرة الغناء. كان [مينوس] دائماً ينعت بأسوء النعوت، ويمثل دائماً بالرجل الشرير على المسرح الأثيني، ولم يفلح [هسيود] ^(٤١) في انقاذ سمعته حين وصفه بـ«مينوس، الذي لا يدانيه في ملوكيته أحد»، ولم يفده هوميروس ^(٤٢) الذي وصفه «صديق جوبيتر الخدين» وكلمته. وظلّ القول الفصل في هذا لكتاب التراجيديا الذي كانوا يمتطرونه برابل من الهجاء والنقد من ارض مسارح قشلياتهم ويمثلونه برجل العنف والقسوة ^(٤٣). في حين كانت الأسانيد تدل انه ملك سوي، وواضع قوانين. وان المدعو [رادامانثوس Rhadamanthus] كان قاضياً مستقيماً يطبق قوانينه له.

لما حان أجل القسط الثالث من الجزية، ووجب على كل اب له ولدٌ شاب يصلح للإرسال أن

(٤٠) لا وجود له. انه مفقود كغيره من المباحث التي عزيت اليه من هذا القبيل.

(٤١) افلاطون: مينوس ص ٣٢٠. هسيود ٧٤.

(٤٢) الاودييسه ١٩ ١٧٩.

(٤٣) هذا الخطأ الذي وقع فيه بلوتارخ، وقع فيه عدد من الكتاب بينهم افلاطون فهناك اثنان باسم [مينوس] احدهما ابن [جوبيتر زفس] و[اوروبه] وهو أمير عادل سامي الخلق. والثاني وهو حفيده ابن [ليكاستس] الذي يقصده بلوتارخ هنا بوضعه اباً لـ[اندروغوس] وكان من الطفلة.

بشارك في عملية الاقتراع العامة لاختيار العدد، ثارت الخواطر على (ايجيوس) وبدأت اتهامات جديدة تنصب من الناس الذين امتلأوا حزناً وسخطاً، مراحوا يقولون: انه وهو سب كل ما أصابهم من شقاء، الشخص الوحيد السالم من هذه اليلوى، وقالوا أيضاً أنه أورت ملكته ابن سفاح اجنبي ولم يعد يهتم بمصيرهم ولا بخسارتهم في كبتانهم الشرعيين لأبناء السفاح، وقعت هذه الاقوال وقعاً شديداً في نفس ثيسسيوس، واحتلت كل تفكيره وملكته عليه مذاهبه ورأى أن الواجب يقضي عليه المشاركة في آلام مواطنيه فعرض نفسه ليكون واحداً من الشباب المرسلين الى كريت، دون حاجة الى اجراء قرعة بالنسبة له. فهز النام نبله هزاً وامتلاوا أعجاباً وحجاً بطبيعة عمله هذا. ووجد (ايجيوس) ابنه هذا مصراً على قراره ولم تند معه توصلاته الكثيرة، فأستسلم ويوشر باختيار الباقيين بالقرعة، على ان (هولانيكوس - Hol-lanicus) يخبرنا ان الآثينيين لم يكونوا يستخدمون القرعة لاختيار الشباب والعداري، وانما كان (مينوس) يأتي بنفسه ويختار من يشاء فكان ثيسسيوس اول من اختاره. وتنص الشروط أيضاً على أن السفينة التي تقل الأسرى تكون من الآثينيين، وان الشبان المبحرين لا يحملون اسلحة حرب، وانه ثم القضاء على (المينوتاور) تلغى الجزية.

في القسطنطين الاول والثاني ارسل الآثينيون السفينة بقلوع سوداء اذ لم يكن لديهم اي امل في سلامة اولادهم أو عودتهم، وكانوا واثقين انهم ذاهبون الى قصاء محتوم لا يُدفع. أما الآن وبعد ان شجع ثيسسيوس اياه وتكلم كلام الواصل من نفسه، يقتل (المينوتاور) فقد سلم (ايجيوس) ربان السفينة شراعاً آخر ابيض اللون وأمره ان يرفعه على صاري سفينة عند العودة اذا كان ثيسسيوس حياً سالماً، واما اذا هلك فليرفع الشراع الأسود دليلاً على وقوع المصيبة. ويقول (سيمونيدس) ان الشراع الذي تسلمه ربان السفينة من (ايجيوس) لم يكن أبيض اللون بل... «قرمزيًا منقوعاً في عصير زهرة شجرة بلوط زاهية جداً»^(٤٤)

كذلك يكون علامة فرارهم ونجاتهم، ويذكر (سيمونيدس) أيضاً ان ربان السفينة هو (فيريكولوس Phereclus) ابن (امارسياس Amarsyas)، ويقول ان (سيروس) ارسله الى ثيسسيوس من سلاميس وأن (ناوسطازس Nausitthous) كان ملاح الدفة، و(فاباكس Phaeax) رقيب مقدمة السفينة. اذ كان الآثينيون في ذلك الزمان قليلي الخبرة بالملاحة^(٤٥)

(٤٤) ليست زهرة بل هي ثمرة الشجرة المعروفة عند النباتيين باسم Quercus ilex وهي شجرة بلوط قمينة دائمة الخضرة يفزوها دودة صغيرة يسميها العرب «قرمز» تخرج منها صبغة قرمزية وثيوهرامستس يتكلم عن هذه الثمرة في كتاب نياته فضلاً عن بليني. وهي مصدر مادة الصبغة القرمزية منذ أقدم الزمن.
(٤٥) بحسب رواية هوميروس ارسل الآثينيون خمسين سفينة الى طروادة. على انها كانت سفن نقل لا سفن حرب ويؤكد (ثوكديدس) انهم لم يقوموا بأي نشاط بحري حتى بعد عشر سنوات أو اثنتي عشرة عقت =

لم يمارسوا مهنة البحر. ولم يفعل [سيروس] هذا إلا لأن [مينيتس] أحد الشبان هو ابن بنته. ورثت هذه الواقعة بناء [ثيسيوس] هيكلي [فياكس^(٤٦)] و[ناوستاؤس] بالقرب من معبد [سيروس]، زد على هذا أن العيد المعروف بـ(كيبيرنيسيا Cybrenesia)^(٤٧) اقيم تكريماً لهما.

يحدثنا معظم المؤرخين القدامى ناهيك بالشعراء، أن [أريادنه Ariadne] التي وقعت في غرامه، أعطته كرة من الخيوط حال وصوله كريت وعلمته كيف يستخدمها لتقوده خلال منعطفات التيه ومنعرجاته. وبهذه الوسيلة خرج منه سليماً وقتل الفول [المينوتاور]^(٤٨) وابحر عائداً ومعه [آريادنه] والأسرى الأثينيون. ويضيف [فركيدس Pherecydes]^(٤٩) إنه احدث ثقباً في قيعان سفن كريت، ليحول دون مطاردتها له. ويكتب [ديمون Demon] ما مفاده أن [طوروس] كبير قواد مينوس قتل بيد [ثيسيوس] في قم الميناء أثناء معركة بحرية جرت قبيل ابحاره الى اثينا. لكن [فيلوخوروس] يروي الواقعة كما يأتي: عندما أنشأ الملك مينوس الألعاب السنوية كان متوقعاً أن يفوز [طوروس] بجائزتها، كما فعل قبلاً. وكان موضع حسد عظيم لذلك. فأخلاقه ومعاملته للناس جعلت سلطانه مكروهاً، وهو أيضاً متهم بعلاقة مع [باسيفي Pasiphae] ولهذا وافق مينوس في الحال عندما طلب ثيسيوس نزاله. وجرت العادة في كريت أن يسمح للنساء بمشاهدة الألعاب فكانت [أريادنه] بين المتفرجين، فداخلها أعجاب شديد بجمال رجولة ثيسيوس واقدامه وقوته التي ابداهها في النزال مما جعله يقهر كل من يتصدى له أو يتحداه. ولم يكن مينوس بأقل سروراً، سيما وأنه تغلب على

= معركة ماراثون، أي بعد حصار طروادة بسبعمائة عام تقريباً لذلك كان من قبيل المعجزات ان يحقق الأثينيون في المجال البحري هذا التقدم الفارق الذي بدأ بهد ثيسيوس بارسالهم الى طروادة هذا العدد من السفن في غضون فترة قصيرة. على كل فقد كان الفضل الأول بهذا التقدم يعود الى (تمستوكليس).
(٤٦) هو بهر حكومي يجتمع في رحابه الحكام الشيوخ ويطلق عليهم اسم پرايتانس ويعيش فيه أيضاً على نفقة الدولة أولئك الذين اعتبروا بانهم يستحقون من بلادهم خير جزاء» كما يستقبل فيه السفراء الاجانب وتقام في الحفلات العامة والاستقبالات.

(٤٧) الى هذه القصة تعزى على الألب صورة مونثوكون لفينوس وهي فوق الأمواج مستلقية على غرزة ويدها ممسكة بشعر ذقنها وبرفتها كيبيدات راكبين طهور حيتان الخ...

(٤٨) في واحدة من أجمل الصور التي تم العثور عليها في مركولانيوم (وهي المدينة التي غطتها حجم بركان فيزوف العام ٧٩ فازيحت وتم الكشف عنها). وقد ظهر فيها ثيسيوس وهو يطأ المينوتاور (وهو حيوان خرافي برأس ثور (جسم انسان) في حين تجمع الصبيان عليه يقولون يديه ويحتضنون ركبتيه.

(٤٩) من الأقدمين أشتهر شخصان بهذا الاسم، الأكبر منهما هو معلم هيثاعورس وطاليس ومن مدينة سكيروس ويلقب بالعقبة أو اللاهوتي، لأنه أول من علم حول خلود الروح في بلاد اليونان، أما الثاني وهو الذي يغيب الاحتمال انه المقصود عند بلوتارخ فهو مؤرخ من جزيرة ليروس التي تقع في بحر ايجة وقد سبق عصر هيرودوتس بقليل.

[طوروس] واخراه. فلم يتردد في ان يدفع له بالأسرى الأثينيين، وأعاد الحرية الى أهلها.

وبروى لنا [قليدemos Clidemus]^(٥١) رواية يستغرب صدورها منه فيها حواش وشجون وديول موعلة في القدم، يقول عقدت معاهدة بين جميع الأغريق تم الاتفاق فيها على أن لا يسمح لأية سفينة تحمل أكثر من خمسة أشخاص بالانحار من أي مكان. واستثنى من المع [چاسون Jason] الذي نُصب قبطاناً للسفينة العظيمة [ارگو Argo]. وسمح له الانحار وجوب المحيطات معقباً القراصنة، لكن عندما هرب [ديدالوس Daedalus] من كريت وركب البحر الى اثينا، شرع مينوس بمطاردته بسفنه الحربية مخالفاً الاتفاق، فأجبرته العاصفة على الرسو في (صقلية) وهناك قضى نحبه^(٥٢). وبعد وفاته استبدت الرغبة بأبنة [ديوكاليون Deucalion] للتحرش بالاثينيين، فبعث يطلب منهم تسليم [ديدالوس] اليه مهدداً بقتل جميع الاثينيين الذين تسلمهم ابوه من المدينة كجزء من الجزية، ان هم رفضوا طلبه. فبعث ثيسوس بردٍ مهذب الحاشية على هذه الرسالة الغاضبة، معتذراً عن تسليم [ديدالوس] الذي كاد يكون من اقربائه. فهو ابن خالة لان أمه [ميرويه Merope] هي بنت [ارختيوس]. إلا أنه أخذ يبني عمارة بحرية في السرّ. جعل قسماً منها في بلاده قرب قرية [ثيميوتادي Thy-moetadae] وهو موضع بعيد عن كل الطرق العامة. والقسم الثاني اودعه عند جدّه [بيثيوس] في طروزين، مستهدفاً تنفيذ خطته بأعظم السرية. وما كمل اعداد اسطوله هذا حتى أقلع به يرافقه [ديدالوس] وغيره ممن أرتهن في كريت ليكونوا ادلا. ولم يدر احد من الكريتيين بقدومه وحسبوه صديقاً وحسبوا اسطوله اسطولهم. وسرعان ما سيطر على الميناء وأسرع بالنزول وبلغ [غنوصوس Gnossos] قبل ان يلاحظ أحد زحفه وفي معركة جرت عند مزاعل التيه، أباد [ديكاليون] وكل حرسه بحد السيف فانتقل الحكم الى [اريادنه] وعقد معها حلفاً واستعاد الأسرى منها، وأتفق على عهد صداقة دائمة بين الأثينيين والكريتيين. واقسم الطرفان على ألا يبدأ حرباً.

هناك روايات تاريخية أخرى حول هذه المسألة، وهناك أمثالها حول [اردبانه] وكلها متناقض ومتنازع عليه. ترى بعضهم يقول انها شنقت نفسها بعد ان هجرها [ثيسبيوس] وبعضهم يقول ان بحارته اخذوها الى جزيرة [نخسوس Naxos] فتزوجت [اوناروس Oenar-us] كاهن [باخوس] ^(٥٣). وان ثيسبيوس هجرها لوقوعه في حبّ أخرى.

(٥٠) (قيوسيوس) في تربيخه يذكر مؤرخاً بهذا الاسم. كتب بحثاً عن (اتيكا) وعن العودة غير المتوقعة لأولئك الذين غابوا زمناً طويلاً. ومن الممكن ان توضع الحكاية في أي من المبحثين.

(٥١) هيرودوتس ١٧٠.٧، ديدورس ٤ ٧٩.

(٥٢) ومن هنا جاءت ولا شك الخرافة المتداولة بانها تزوجت ناحوس نفسه.

«كان حبيته (ايگله Aegle) بنت بانوبيوس يحرق صدره»^(٥٣) وهو بيت شعر يقول عنه [هرياس Hereas] انه كان في السابق موجوداً ضمن منظومات [هسبرد] ^(٥٤) إلا أن [پستراتوس Pisstratus] ^(٥٥) شطبه، واضاف البيت التالي الى منظومة هوميروس «جهنم الأموات» ارضاً، للآثينيين: «ثيسسيوس، وبيراثوس، ابنا الآلهة الجباران»^(٥٥). وتقول نشة أخرى ان [اردبانه] انجبت لثيسسيوس ولدين وهما [اوينوبيون Oenopion] و[سطاقيلوس Staphylus] ومن القائلين بهذا [آيون Ion] ^(٥٦) الشاعر الخيوسي، حين سكتب عن مدينته: «التي بناها في ذات يوم - أونوبيون ابن ثيسسيوس».

لكن أشهر الروايات الاسطورية التي جرت على كل لسان هي الآتية: لدى [هيايون ألوماتوسي] قصة تختلف من الباقي اذ يكتب قائلاً أن النوء دفع بسفينه ثيسسيوس الى جزيرة [قبرص] وفيها [اردبانه] وهي حامل، وفي حالة يرثى لها من المرض بسبب دوار البحر. فأنزلها الى الساحل وتركها وحيدة وعاد لمعاونته السفينة. وفجأة دفعت بها ريح شديدة الى عرض البحر. وأبدى نساء الجزيرة عطفاً على [اردبانه] وعناية كبيرة بها وعملن ما وسعهن للتسرية عنها وتخفيف وحشتها. حتى انهن زورن رسائل ودفعن لها اليها كأنما وردت من ثيسسيوس. ولما ادركها المخاض بالغن في بذل كل ما تحتاجه من رعاية إلا انها توفيت قبل ان تضع وليدها ودفنت دفنة لاثقة. ثم ما لبث ثيسسيوس ان عاد وركبه هم شديد لفقدائها وترك قبل مغادرته الجزيرة عند أهلها مبلغاً من المال ينفقونه على شراء قرايين لها. وأمر بصنع تمثالين صغيرين أوقفهما عليها واحد من الفضة وآخر من النحاس. والمراسيم التالية يقوم بها أهل الجزيرة ضمن مراسيم تقديم قرايينهم في اليوم الثاني من شهر [گورپيوس Gorpiaeus] المخصص لاردبانه. ان يستلقي شاب منهم على ظهره ليفلّد بصوته وحركاته آلام المرأة اذ يدركها المخاض و[ألوماتوسيون] يطلقون على البستان الذي ضم رفاتها، اسم «بستان فينوس اردبانه».

وذكر بعض كتاب [نخسوس] رواية تختلف عن هذه، وزعموا وجود رجلين باسم مينوس، وامراتين باسم اردبانه احدهما تزوجت كاهن باخوس في جزيرة نخسوس، وأنجبت له [سطاقيلوس] وإخاه الآخر. إلا أن اردبانه الثانية التي عاشت في زمان متأخر، وهي التي

(٥٣) أنظر (أثينايس) ص ٥٥٧.

(٥٤) طاعية أثينا كان كما صورة پلوتارخ في سيرة صولون محباً للكتابة وممارساً للأدب.

(٥٥) الاوديسي ١١: ٦٣٩.

(٥٦) كاتب مأساري عاصر (بيركلس) فقدت مسرحياته كلها لكن (أثينايس) حفظ لنا مقطوعات من مناجاته.

حملها ثيسبيوس معه، وهجرها فيما بعد، نزلت الى [نخسوس] مع مرضعها [كوركيانا Cor-cyna] التي ما زال قبرها قائماً. وان [ارديانه] هذه توفيت أيضاً هناك وعندها أهل الجزيرة لكن بشكل يختلف عن عادة الأولى. فاحياء عيد هذه يتم بالافراح العامة والقصف واللهو، في حين أن عيد الثانية ينقضي بالحداد والكآبة^(٥٧).

توقف ثيسبيوس في جزيرة [ديلوس Delos]^(٥٨) بطريق عودته من كريت. وقرب لوب الجزيرة، وقدم للمعبد تمثالاً لفينوس كانت [ارديانه] قد أعطته له^(٥٩)، ورقص مع الشبان الآثينيين رقصة ما زالت شائعة عندهم الى يومنا هذا احياء لذكراه وهي تتألف من حركات تقدم وتأخر موزونة محدودة، تقليداً وثقيلاً لمنعطفات التيه والتواءاته. ويقول [ديكوارخوس Dicoearchus]^(٦٠) ان الديلوسيين يسمون هذه الرقصة [كرانه Crane]^(٦١) وقام ثيسبيوس برقصته هذه حول المذبح [الكيراتوني]^(٦٢) واسمه هذا جاء لانه بني من القرون التي تؤخذ من الاصداغ اليسرى لرأس كل ذبيحة. ويقال انه انشأ العباب في [ديلوس]. وكان اول من بدأ تقليد اهداء سعف نخل للغائرين.

لما أقتربوا من ساحل اثينا اطار الفرح صوابهم لتكمل رحلتهم بالنجاح حتى ان ثيسبيوس والقيطان نسيا رفع البشارة ودليل السلامة لايحيوس، فما كان منه إلا قذف بنفسه بأساً من الصخرة الى البحر فهلك. وما ان نزل ثيسبيوس في ميناء [فاليرم Phalerum] حتى قدم القرايين التي كان قد نذرها للأرباب عندما ركب البحر. ثم انه ارسل الى المدينة بشيراً يحمل

(٥٧) احياء أعياد (ارديانه) زوج (باخوس) يتم احياؤها باللهو والقصف والافراح للاعراب عن صبرورثها (ربة). في حين ان القرايين المقدمة لـ(ارديانه) الثانية تشير الى سقوطها واعتبارها انساناً عادياً.

(٥٨) من هذا جاءت عادة قيام اثينا سنوياً بارسال وفد الى (ديلوس) لتقديم قربان (ايولو).

(٥٩) كان هذا تمثالاً خشبياً صغيراً نحتته (ديالوس) بقاعدة مريمه تقوم مقام القدمين وهو اول من ابتدع القاعدة للتماثيل وقد بدت في آثاره الأخيرة. ربما كانت (ارديانه) قد تسلمت التمثال من النحات وحملته معها وان ثيسبيوس قدمه لايولو على زعم أهل (ديلوس) ان لم يشأ ابقاءه عنده لانه يذكره بحبيبته. (پاوسانياس ٤٠.٩).

(٦٠) هو أحد تلاميذ ارسطو الف كتباً عدة. أشهرها تاريخ سبارها. كانت فصوله تتلى سنوياً على شبانها بامر من الايغوري. وقد اثنى عليها شيشرون كثيراً.

(٦١) يحدها كالليماخوس بأنها رقصة حلقيّة. وسميت (كرينه) ربما نسبة الى طائر الكرين (الكروان) الذي يطير بشكل حلقي، يقول [يوستاثيوس] كان الناس قبل ثيسبيوس يرقصون على شكل مجموعتين منفصلتين واحدة لذكور وواحدة للإناث فجاء هذا ووجد بين الجسسين عند انقائه رفاقه الشبان من التيه. ما زال هذا النوع من الرقص حياً في اليونان بعد مرور زهاء ثلاثة آلاف سنة ويُدعى (كانديوت Candiot). [انظر م. جي تاريخ الأدب اليوناني ص ١٣].

(٦٢) الكلمة مشتقة مباشرة من (قرن) ويعزى صمعه الى ايولو والقرون هي من ذكر غزلان (كينثوس) قتلته أخته الصيادة وقد سي كما تقول الاساطير من دون ملاط أو صمغ أو أية مادة غرائية أو لاصقة.

نبأ سلامة العودة. ولما دخل هذا، وجد معظم الأهالي في حزنٍ وكآبةٍ لمقدمهم ملكهم، بينما استولى الفرح على آخرين لأنباء الشير السارة (وهو ما لا سبيل لنكرانه) وأظهروا شوقاً في الترحيب به وضفروا قلائد الزهر على رأسه، فتقبل ذلك بطبيعة الحال إلا أنه رفعها عن رأسه وقلدها العكاز الذي يحمله المادي عادةً، ورجع إلى الشاطيء بهدا الشكل، فوصل قبل أن يفرغ ثيسبوس من مقدمة الخمر للأرياب، فوقف عن كשב ولم يأت بحركة لنلا ينقض صلاته ودعاه وما أن انتهى ثيسبوس حتى تقدم منه وأعلن له موت الملك. فهرع الجميع إلى المدينة في ضجة واضطراب وندب وعويل. إن عادة عدم تنويع المنادي بل تنويع عكازه في عيد [تسخوفوريا Oschophoria]^(٦٣) نشأت عن حادث ذلك اليوم واستمرت حتى يومنا هذا. كذلك نشأت منه عادة هتاف الحاضرين وقت سكب قربان الخمر «إيليليو، آيبوو آيبوو Eleleu loü loü»^(٦٤) وأولى هذه الكلمات تخرج عادة من أفواه المستعجلين. أو تستخدم هتافاً للنصر، أم الكلمتان الأخريان فهما لازمة من لوازم اللسان يلفظها الناس عندما يكونون في حالة عم أو اضطراب بال.

وبعد أن شيع ثيسبوس جنازة أبيه، قام بإيفاء نذوره لآبوللو في السابع من شهر [پانانيبسيون] ففي ذلك اليوم دخل إلى مدينة كل الشبان الذين عادوا معه من كريت سالمين. وقيل أيضاً أن عادة سلق الحمص في هذا العيد بدأت منذ ذلك اليوم، لأن كل الشبان الذين نجوا، جمعوا ما فضل من زادهم في قدر واحدٍ وسخنوه وأكلوا منه جميعاً، كذلك نشأت عادة حمل غصن الزيتون الذي يشد عليه شيء من الصوف في المواكب [بعد ذلك استعمل في الصلوات والأدعية] وأطلقوا عليه اسم [إيرسيون Eiresione] وكان يتزوج مختلف الثمار إشارة إلى زوال القحط والمحل، منشدين الاغنية التالية:

«إيرسيون يأتي بأفضل التين، إيرسيون يأتي بأرغفة خبز من أفضل دقيق القمح الأبيض ويأتي بالعسل في الجرار. والزيت نضج به أجسامنا، وبدنان من الخمر القوة ليؤوب الكل إلى فراشه نشواناً».

(٦٣) عيد للصر يبدء بموكب من اثينا نحو فاليرم. ويشتار عدد معين في شبان أشرف الأسر على أن يكون الابوان صيين، ويحملون اغصاناً مثقلة بالعنب ويعدون منطلقين من معبد (ياخوس) نحو هيك (مينرثا) القريب من الباب الغاليري والسباق للوصول يشرب كأساً من الخمر ممزوجة بالعسل ويأكل جبناً وخبزاً وزيتاً ويتبع الراكصين جوق بقيادة شابين يرتديان ثياب النساء وهم يغنون ويحيط بالشابين عدد من النسوة على رؤوسهن سلال ويتم اختيارهن من أغنى الأسر في المدينة ويقود الموكب كله مبادٍ يحمل قضيباً تعيط به اغصان.

(٦٤) الكلمة الأولى تدل على الشعور بالفرح والغبطة التي كان تيسبوس يحس بها وهو قاصد (اثينا) والكلمة الثانية المرددة تنبئ عن حزنه على وفاة أبيه.

ومع أن بعضهم يرى أن انشاء هذا العيد كان لذكرى الهيراقليدي^(٦٥) الذين رباهم الآثينيون وأستضافوهم بالشكل الذي فصلناه إلا أن رأي الغالبية هو ما ذكرناه أولاً.

كانت السفينة التي أقلت ثيسسيوس وصحبه الشبان الآثينيين، ذات ثلاثين مُجذافاً وعادت سالمة فألقى عليها الآثينيون حتى ايام [ديميتريوس فاليريوم]^(٦٦) وعندها خلعوا عنها الالواح الخشبية النخرة، ووضعوا محلها الواحاً حديدة أقوى من سالفتها. وأضت السفينة بسبب هذا التغيير مثلاً بصرب بين الفلاسفة حول المسألة المنطقية عن الأشياء المتحولة^(٦٧)، ففريق منهم يتمسك بقوله ان السفينة بقيت كما هي، والفريق الآخر يقول انها لم تعد السفينة عيها.

إن العيد المسمى (اسخوفوريا) أو عيد الأغصان كان ثيسسيوس أول من احتفل به وما زال الآثينيون يحفظونه حتى يومنا هذا. ويعود السبب في انشائه ان ثيسسيوس لم يأخذ معه العدد الكامل المطلوب من العذارى اللاتي وقعت عليهن القرعة بل اختار شابين شق بهما من ذوي القوة والبأس والمظهر الأنثوي والقسمات المليحة، غير من مظهرهما بالاستحمام الكثير واجتنب الحرارة وأشعة الشمس المحرقة، ودوام استعمال انواع الأدهان والعطور والغسل ووسائل الزينة لتجميل الرأس، أو نعومة البشرة، وتحسين لونها، حتى حقق التغيير المطلوب فيهما، ثم علمهما كيف يقلدان اصوات النساء، ومشية العذارى وتخطرهن بحيث ما عاد يفرق احدٌ بينهما وبين النساء. ثم وضعهما بين الفتيات الآثينيات المرسلات الى كريت. فلما عاد سالماً، قام هو وهذان الشبان على رأس موكب ديني مهيب وهما في شكلهما النسوي، ويعين الزبي الذي يتخذهُ الآن اولئك الذين يحملون اغصان العنب في الموكب. وهم يحملونها تكريماً لباخوس واريادنه، بسبب الحادثة التي اوردناها. أو ربما يعود ذلك الى أن اوبتهم الى الوطن وافقت موسم الخريف وهو أوان حني الأعصاب. هذا وان النسوة اللاتي يطلق عليهن

(٦٥) بعد ان صرد ثوريستشوش الطاغية نسل الهيراقليدي من البليوينيسس وبقيّة بلاد الأعرقي التجأوا الى اهل اثينا لحمايتهم فحاربوهم وجرياً على العادة المتبعة فقد دخلوا المدينة وبابدهم الاعصار، وقد عالج موضوع هؤلاء (يوريديس) في مسرحيته (هيراقليدي).

(٦٦) اعني حوالي الف سنة، لأن (ثيسسيوس) عاد من كريت في حدود ١٢٢٥ ق.م. وكالليماخوس الذي عاصر (ديميتريوس) وقد اخبرنا ان الآثينيين طلبوا يبحثون هذه السفينة المقدسة الضالدة الى ديلوس في زمانه (٢٨٠ ق.م) و(ديميتريوس) الفاليري هو الوصي المذدوب عن (كسماندر المقدوني) في اثينا [٢٠٧-٢١٧ ق.م] قيل انه نصب لنفسه ثلاثمائة وستين تمثالاً خلال هذه المدة وقد حطمت كلّ في يوم واحد اذ دمرها دعاة ابادة التماثيل Iconoclasts بعد سقوطه. وكانت وفاته في ٢٨٤ ق.م. [راجع افلاطون: فيادر].

(٦٧) في رسالته حول «بطء الانتقام الالهي» يعزو بلوتارخ استنباط هذا النوع من المعرفة الى [بيثاغورس] من القرن الخامس قبل الميلاد وخلصتها أن التغير الذي يطرق على اجزاء الجسم في الفترات المتعاقبة للنمو الجسدي ابتداء من الطفولة ثم الشباب فالرجولة والشيخوخة، من شقته بالمقابل بحدوث تبدلات كاملة في الهوية الانسانية وتنتهي المناظرة في هذا الموضوع الى وجوب ابراء الدين من واجب الوفاء بدينه السابق.

[داينوفيسري Deipnopherae] أو حاملات طعام العشاء، يندمجن في هذه المواكب ويساعدن في تقديم القرابين أحياناً وتقليداً لأمهات الفتيات والعذارى الأسرى. فقد كُن في هذا الموقف المؤلم يتراكمضن هنا وهناك، يأتين بالخبز واللحم لاولادهن، ويروين لهم حكايات واقاصيص مسلية ليصرفن خواطرهم عن الخطر الذي ينتظرهم. ولهذا استمرت عادة رواية الخرافات والاساطير القديمة في هذا العيد. ونحن مديون لتاريخ [ديمون] بهذه التفاصيل الدقيقة. اختيرت رقعة أرض، واقيم عليها معبد لثيسبوس. وجُمع من الأسر التي أخذ منها الشبان الرهائن ضريبة للمعبد يتفق منها على القرابين. وعُين آل (ثيثالدي) مشرفين على تلك القرابين. وأضفى ثيسبوس عليهم هذا الشرف تعويضاً واعترافاً بفضلهم السابق عليه.

بعد وفاة [ايجيوس] أخذ [ثيسبوس] يُنمي في ذهنه فكرة عجيبة، وتصميماً عظيماً، ولما أختصر الأمر في ذهنه جمع كل مواطني اتيكاً في مدينة واحدة، وجعلهم شعباً واحداً لمدينة واحدة. وكانوا قبلها يعيشون في فرقة وتباعد، يصعب جمع كلمتهم في أي شأن من الشؤون المتعلقة بالمصلحة العامة المشتركة، بل كانت الخصومات والحروب كثيراً ما تنشأ فيما بينهم، تمكن من ازالة ذلك بوسائل الاقتناع وتنقله من بلدة الى أخرى ومن عشيرة الى عشيرة. وسارع اولئك الذين ينتمون الى الطبقة الفقيرة، أو ذوو الدخول الصغيرة المحدودة الى اعتناق افكاره الرائعة تلك، في حين وعد اولئك الذين يملكون السلطان والمال، بجمهورية لا يرأسها ملك وبحكم ديمقراطي أو حكم شعبي لا يكون هو فيه ملكاً بل مجرد قائد عسكري، وحام لقوانينهم، وفي الأمور الأخرى يكون الجميع على مستوى واحد دون تمييز أحد على الآخر. وبهذه الطريقة أفلح في اجتذاب قسم من هؤلاء الآخرين الى صفه اختياراً. اما الباقي فتظاهروا بالاقتناع لخوفهم من سلطانه الذي كان مرهوباً جداً، ولعرفتهم بشدة عزمه وبأسه، وعندئذ بدء بحل كل مجالس الحكم المحلية، وبيوت الدولة العليا، وعزل الحكام، واقام مجلس عموم واحد وقاعة شورى في الموضع الذي يقوم اليوم القسم الأعلى من المدينة (الأكربوليس) وأطلق على المدينة اسم «اثينا»^(٦٨) وقرر بالمناسبة عيداً عاماً يقرب منه قربان اجماعي سمّاه [پان اثينا: أو قربان كل الاتحاد الاثيني]^(٦٩) [أتيكاً] واستحدث ايضاً قرباناً آخر يدعى

(٦٨) كانت قبلاً تطلق على البلدة القديمة فحسب. وقد لاحظ المؤرخون والباحثون الثقة انه كثيراً ما أطلقت على اثينا الصفة العامة أو اسم الجنس اي (المدينة) فحسب [مثلما كان الرومان يشيرون الى روما باسم (أريس) Urbs أي المدينة] بسبب ذيوع صيتها. ان اول ملك لها وهو (مكيكروبس) بنى القلعة على مرتفع وأطلق عليها اسمه ومعناه [المدينة القلعة].

(٦٩) باناثينا Panathaea. كان له وجود قبل تيسبوس ويقام تكريماً (لمينرفا) ولم يكن يمت لأثينا بصلة لكن تيسبوس عظم من شأنه وجعله عيداً عاماً لكل سكان اتيكاً ولهذا سمي (باناثينا). وهناك العيد الكبير والعيد الصغير ويقع هذا في العشرين من شهر ثارجيليون كل سنة. والاول يعيدونه كل خمس سنوات =

[ميثوشيا Metocia] او عيد الهجرة^(٧٠)، ويقع في السادس عشر من شهر [هيكاتوميون] وتنازل عن عرشه وسلطاته الملكية كما وعد، ومضى قدماً في تقنين دستور الجمهورية الشعبية بعد استشارة الأرباب والاستعانة بهم. اذ ارسل يستخير عرافة دلفي بخصوص مستقبل حكومته الجديدة ومدينته، ونزلت عليه النبوءة كالآتي:

أي ثيسبيوس سليل خط الملكي بنت بيتوس. لقد أعطى ابي مدينتك، مقادير وأمر دول عديدة. فلاتقلق ولا تخش شيئاً ولكن استشر فقط بثقة وبِعزم الطحلب لن يكف عن العوم فوق الامواج التي تخف به.

ويقال أن آخر أبيات هذه النبوءة، كررتها الكاهنة سيليل Silyl للآثينيين بعد زمن طويل، بالصيغة التالية:

«قد يغطس الطحلب، لكنه لن يغرق وهذا ما تقرّر له^(٧١)».

بعد هذا انصرف الى توسيع رقعة مدينته، ودعا كل الأجانب للقدوم اليها، والتمتع بامتيازات مواطنة متساوية مع أهاليها، وقيل ان العبارة الشائعة «تعالى اليها أيتها الشعوب كافة» هي العبارة التي نطق بها ثيسبيوس عندما أقام صرح الجمهورية على شكل ائتلاف أممي على أنه لم يدع نظام حكمه الجديد ينقلب الى فوضى يتدفق جموع الأقوام الى المدينة فينبت حبل النظام وينفرط عقد الأمن والاستقرار، وكان اول من قسم سكان الجمهورية الى ثلاث طبقات متميزة: النبلاء، المزارعين، الصناع. وأسند للطبقة الأولى رعاية الشؤون الدينية وحق اختيار القضاة، والتصرف في شؤون التعليم والاشراف على تنفيذ القوانين، وتفسير كل الأمور المتعلقة بالعقائد المقدسة، وعلى هذا الأساس سادت مساواة دقيقة في المدينة، فالنبلاء يتقدمون الباقي في الشرف والمكانة والمزارعون يتقدمون الجميع في الفائدة والمال، والصناع يتفوقون على الجميع بقوة العدد. يقول [أرسطو] مظهرأ ميله الى الحكم الجمهوري ان ثيسبيوس كان أول ملك تنازل عن حكمه المطلق طوعاً، ويبدو ان [هوميروس] شهد له بذلك

= في الثالث والعشرين من شهر هيكاتوميون وفيه يسير موكب حاملاً حجاب (ميرفا) أو ما يدعى (بيبلون) وقد نقش عليه صورة انتصار الآلهة على الجبابرة. الى جانب مناظر لأعظم مثرة ابطالهم.

(٧٠) أحياء لذكرى تركهم الدسكرو واجتماعهم في مدينة واحدة. ويسميه ثوكيديدس ٢ ١٥ [سيوشيا] إلا أن السبب واحد. وهذه المناسبة انشأ ثيسبيوس أو حافظ على الالعب الاستمعية إكراماً لـ(نبتون) وقد رمي من ذلك الى اجتذاب الغرباء وتشجيعهم على سكنى اثينا منحهم حقوق المواطنة كاملة.

(٧١) عندما استولى [سيللا] على أثينا لم يبق نوع من أنواع القسوة إلا ارتكبه وهناك قصد بعض الآثينيين معبد (دلفي) للاستشارة في هل ان ساعة مدينتهم الأخيرة قد حانت؟ فنجابت الكاهنة على حد قول [پاوسنيانوس ١ ٢٠] «ما يتعلق بالطحالب له نهايته». منوهة كما يبدو بالنبوءة القديمة التي صدرت هناك.

أيضاً عندما اقتصر على ذكر كلمة «شعب اثينا» في قائمة السنن^(٧٢) التي ذكرها، دون أن يخصص غيرهم بهذه.

وضرب أيضاً نقوداً ونقش عليها صورة ثور، إما أحياء لذكر ثور (ماراثون) أو تذكرة بانتصاره على (طوروس) قائد مينوس أو ربما ليذكر شعبه بوجوب الانصراف الى الزراعة. ومن هذه السكّة جاء التعبير الشائع جداً عند الأغريق حين يؤتى الى تقويم شيء من الأشياء «انه يسوى عشرة ثيران، أو يسوى مائة». وبعد ذلك ضمّ (ميفارا) الى آتيكا وأقام على الخليج^(٧٣) ذلك الأسطون الشهير الذي نقش عليه كتابة تتألف من سطرين يشيران الى حدود الدولتين لأنهما تلتقيان في تلك النقطة. فعلى الجانب الشرقي تقرأ هذه العبارة:

«پيلوپونيسوس لبست هنا بل آيونيا».

وعلى الجانب الغربي تقرأ: «پيلوپونيسوس هنا، لا آيونيا!».

وأنشأ كذلك ألعاباً مصاحياً بها ألعاب هرقل بدافع من طموح فيه إذ كان الأغريق برغبة من هرقل يحتفلون بالالعاب الاولمبية^(٧٤) تكرماً لجوبيتر، فلم لا يحتفلون بالالعاب [الإستمية]^(٧٥) تكرماً لبنتون، وبرغبة منه؛ لقد كانت تلك الألعاب قبل ذلك مخصصة [لمليكرتا Melicerta] يتم أحيائها ليلاً باحتفال خاص، وهي في الواقع مراسيم دينية أكثر من كونها عيداً عاماً أو احتفالاً شعبياً. وهناك من يزعم أن الأصل في الألعاب [الإستمية] انها كانت لذكرى [سكيرون] اقامها تيسوس على أثر موته تخليداً لاسمه لأنه أدنى اقربائه اليه. فهو ابن [كاسيتوس] و[هنيوخا Heniocha] بنت پتيسوس. على أن بعضهم يقول أن ابن هذين الأيون هو [سنيس] وليس (سكيرون)، وأن (تيسوس) اقامها للأول منهما. وإبرم

(٧٢) الإلياذة ٥٤٧.٢. في تلك العبارة وصف الأخائيون به شعب اريخينوس العظيم» وهي ما تشير الى مفهوم لايتفق واستنتاج پلوتارخ لكن ربما أعتبر العبارة قاصرة على أولئك الذين كانوا قد أمروا عليهم «ارخيتوس» يوماً ما؟

(٧٣) هذا الأسطون اقيم بموافقة الأيونيين والپيلوپونسيين. لوضع حدّ نهائي للنزاع حول الحدود وقد بقي قائماً حتى عهد قديوس ثم نقش الهيراقليدي هذا الصرح عندما ملكوا (ميفارا) التي انتقلت بموجب ذلك من يد الأيونيين الى يد الدوريين [أنظر سنرايو] وقام [هادريان] فيما بعد بتقليد هذه الكتابة فقد نقش على النصب الذي أقامه بين أثينا الجديدة وأثينا القديمة كتابتين، فمن جانب تقرأ عبارة: «هذه أثينا مدينة تيسوس العتيقة» ومن الجانب الأخر تقرأ هذه العبارة «هذه مدينة هادريان وليست مدينة تيسوس».

(٧٤) لا بد وأن يكون نشوء هذه الألعاب قبل التاريخ الذي اثبت لزمان مرقل بوقت طويل. فقد اثبت (سترابو) بانها لم تكن معروفة أيام (هوميروس) وربما وجدت قبله ولكن على عنها وطواها النسيان حتى أحييها (أفيثيتوس) وهو التاريخ الذي اثبت لتأسيسها.

(٧٥) سميت كذلك نسبة الى برزخ (اسموث) پيلوپونيسوس حيث تجري ثمة.

(سيوس) في الوقت نفسه معاهدة مع أهالي كورنث، ليسمحوا للقادمين من أثينا برؤية الألعاب الاستمعية، بموضع شرف يتصدر النظارة. وقدرت مساحة هذا الموضع بقدر ما يغطي من الأرض شراع السفينة^(٧٦) التي أقلت المتفرجين مبسوطاً بكامل ابعاده. وهذا ما اثبتته كل من [هيلانيكوس، وأندرو Andro هاليكارناسوس].

وأما عن رحلته الى البحر الأسود Euxine، فقد كتب فيلوخوروس وآخرون انه قام بها مع هرقل عارضاً عليه خدماته في الحرب ضدّ الامازونات^(٧٧) وكافأه به [انتيوخيا Antio-pea]^(٧٨) على شجاعته. إلا أن القسم الأكبر ومنهم [فيريكيدس Pherecydes] وهيلانيكوس وهيرودوروس، يقولون انه قام بالرحلة بعد هرقل بسنين عديدة وهو يقود عمارة بحرية خاصة به، وانه أخذ الامازونة [انتيوخية] أسيرة، وهي القصة الاقرب احتمالاً. على اننا لانجد اي شخص آخر غيره ممن رافقه في هذه الحملة، يقول انه أسر أي امازونة. ويضيف [بيون Bion] قوله، ان تيسسيوس لجأ الى الخديعة لأسرها وبعدها ألقه عن الساحل في الحال. فالامازونات على حدّ قوله شبقات جداً محبات للرجال يطبعهن، فلم يصبرن على وجود تيسسيوس عند ارسائه على سواحلهن. بل بادرن الى ارسال الهدايا السنّية، فدعا [انتيوخية] التي حملت الهدايا الى صعود السفينة، وما أن فعلت ذلك حتى أطلق سفينته للريح. ويضيف كاتب من بثينيا هو [مينيقراتس Menecrates] صاحب تاريخ نيقية، أن تيسسيوس بعد اصعاده انتيوخية وإطلاق سفينته للريح، تجول مدة من الزمن بمحاذاة السواحل، وكان يوجد في السفينة اخوة ثلاثة من شبان اثينا رافقوه في رحلته وهم [يونيوس Euneos] وثاؤوس Thaos وصوليوس Soloüs]، والاخير منهم وقع في حبّ [انتيوخية] وبغفلة عن البقية كشف عن سرّه الى صديق عزيز وطلب منه ان يتوسط بمصارحة انتيوخية بما يعتمل في نفسه من عاطفة. ففعل إلا انها لم تشأ مبادلتة العاطفة ورفضت حبه رفضاً باتاً، وعالجت الموضوع معالجة هادئة حكيمة ولم تنه الأمر الى تيسسيوس ولم تذكر له شيئاً. لكنّ اليأس الذي ركب [صوليوس]

(٧٦) كانت ترسل هذه السفينة سنوياً الى ديلوس وفاءً لنذر تيسسيوس وهي مزدانة باغصان الزيتون المقدس ومملوءة بالفرايين المفصصة لا يوللو. ومنذ فترة تزيينها حتى عودتها، تدخل المدينة في فترة تطهر ويوقف تنفيذ احكام الموت الرسمية. ولذا نذكر القاريء هنا بفترة الايام الثلاثين التي مرت ما بين الحكم على سقراط واستشهاده. والى فترة التحريم هذه ندين بالمناطرات لرائعة التي نقلها لنا تلاميذه والوقائع التي تحللت تلك الفترة بينه وبين مستمعيه.

(٧٧) ليس هناك خرافات ورحم بالغيب بقدر ما يتعلق بموضوع [الامازونات] ويقول [سترابو] أن أكثر مؤرخي الاسكندر المقدوني أهلاً للثقة لم يطرّقوا حتى لذكرهن ولو كنّ حقاً جزءاً من الشعب الصيبي فكيف اتفق أن حملن اسماء يونانية؟

(٧٨) يقول [يوستين] ان هرقلأ أعطى تيسسيوس (هيپوليتو) وأحتفظ لنفسه به (انتيوخية).

جعله يلقي بنفسه في نهر قريب من الساحل. ولما علم ثيسبيوس بموته وحبه العائر الذي اورده المنية، ادركه حزن شديد، وفي تصاعد كآبته تلك تذكر نبوءة كانت قد نزلت له في دلفي. اذ أنهت اليه كاهنة [ابوللو بيتوس] بأن عليه ان يبني مدينة وقتما ينتابه اعظم الحزن. واینما كان موجوداً، وعليه ان يترك بعض اتباعه حكماً لها. فبنى مدينة [بثيوبولس] مشتقاً اسمها من صفة [ابوللو] واحياءً لذكرى الفتى المتكود الخائب في حبه، أطلق اسمه [اصوليوس - So-lois] على النهر الذي يجري بمحاذاتها. وعهد لأخوى الفريق بإدارة المدينة وتنفيذ قوانينها وضم اليهما [هرموس Hermus] احد أفضل نبلاء اثينا. ومن اسم هذا الأخير عرف اسم حي من احياء المدينة [بمنزل هرموس] وبخطأ في نطق الاسم^(٧٩) اظن المقصود به [بيت هرميس] اي الاله مارس وهكذا انتقل الى الرب ذلك التكريم الذي اريد به [هرميس - عطارد].

هذا هو سبب واساس الغزو الأمازوني لاتيكا. ذلك الغزو الذي لا يمكن ان يبدو قط عملاً انشوائياً صغير الشأن. ويكاد يكون من المتعذر أنهن عسكرن في المدينة نفسها ودخلن المعركة قرب [پنيكس Pnyx]^(٨٠) عند التل المسمى [ميوزيوم Museum]^(٨١). إلا اذا كن قد استولين على كل البلاد المجاورة للمدينة ووجدت الجراءة والسلامة الكافيتين للزحف عليها. ويصعب الوثوق بما زعمه [هيللانيكوس] عن قيامهن بهذه الرحلة الطويلة برأ، ومرورهن بالبوسفور الكبير^(٨٢) عندما كان متجمداً. أما أنهن عسكرن في مكان آخو غير المدينة فهذا مؤكد، ويمكن اثباته بما يكفي من الاسماء التي ما زالت تطلق على المواقع في تلك الانحاء، ويقام القبور والاضرحة والأنصاب للاتي سقط منهن في سوح القتال.

لما غدا الجيشان على قيد النظر أحدهما من الآخر، سادت فترة هدوء وشك في إيهما سيبدأ الهجوم؟ وأخيراً قرب ثيسبيوس قرباناً لرب (الخوف)^(٨٣) اطاعة لأمر نبوءة نزلت عليه، ثم بدأ القتال. وكان ذلك في شهر [بيودرميون Boedromion] وفيه يحتفل الأثينيون الى يومنا هذا بعيد [بيودروميا]. ويريد [قليديموس] ان يكون أكثر تفصيلاً واسهاباً فيكتب قائلاً ان

(٧٩) هرفياً giving it the circumflex accent.

(٨٠) كان موضعاً قرب القلعة اعتاد أهل اثينا الاجتماع لسماع الخطباء يبحثون في الأمور العامة. وسمي كذلك للمحلات المزينة في ذلك الحي، وقال آخرون انه من اجتماع Conflex الجمعيات العامة فيه.

(٨١) يقوم ال(ميوزيوم) فوق كمة صغيرة مقابل المحسن وفي أعلى جزء من الاكمة. وربما اسمه من وجود هيكل الميوزات هناك أو ربما من اسم الشاعر ميوزيوس الذي كان ينشد فيه اشعاره وقد دفن هناك ايضاً (انظر پاوستنياس ٢٥:١).

(٨٢) البرذخ الذي هو بين بحر پالوس موتس وبين البحر الأسود.

(٨٣) يدخل الوثنيون في عداد الهتهم فضلاً عن المواطنين، الاحساسات المزعجة، والظواهر الطبيعية المخيفة ويعبدونها اتقاء شرها.

ميسرة الامازونات حركت نحو موضع ما زال يعرف باسم [أماروبيوم] وتقدمت ميمنتهن نحو [بنيكس] قرب [حريسا] والتحم الآثينيون الذين خرجوا من خلف تل [اميزيوم] بهذا الجناح. وار قور تارك اللاتي صُرعن، تُرى شاحصة في الشارع المؤدي الى مدخل [پيرياكا Piriaca] قرب هيكل البطل [خلقدون Chalcaedon] وان الآثينيين حاقت بهم الهزيمة في هذا الموضع، وهربوا من وجه النساء حتى معبد [فيوريس Furies]^(٨٤) لكن امدادات جديدة وصلت ميسرتهم من [الپلاديوم ومن اللقييوم ومن ارديتوس Palladium, Ardetlus, Lycium]^(٨٥) فكروا علي جناحهن الأيمن ودحروهن حتى ألقوا بهنّ الى مخيماتهنّ. وسقط في هذه المعركة عدد كبير من الامازونات وغدت الحرب سجّالاً، ثم وبعد أربعة أشهر عقدت الهدنة بين الطرفين، وأبرم الصلح بوساطة من هيسوليتا (يطلق المؤرخون هذا الاسم على الامازونة التي تزوجها ثيسسيوس، ولايسمونها انتيويه)، على أن بعضهم كتبوا أن [مولپاديا Molpadia] قتلتها بطعنة رمح اثناء ما كانت تقاتل الى جانب ثيسسيوس. وان النصب القائم جوار هيكل «الارض الاولمبية»^(٨٦) إنّما اقيم فوق قبرها تخليداً وعلينا ان لانعجب اذا وجدنا التاريخ يخطب خطب عشواء في حوادث موغلة في القدم كهذه، فقد قيل لنا أن الامازونات اللاتي جرحن في المعركة، أرسلتهن انتيويه سراً الى (خلقيس) فشفي كثير منهن بفضل سهرها وعنايتها. لكن بعضهن توفي وقبر في موضع يطلق عليه الى يومنا هذا [امازونيوم]. واما ان الحرب انتهت صلحاً فهذا واضح أكيد من اسم الموضع الملاصق لمعبد ثيسسيوس فهو معروف بـ[هوركومزيوم Horcomsium]^(٨٧) من العهد الموثق الذي ابرم هناك. وكذلك من الأضحية الغابرة جداً التي جرت العادة على تقديمها للامازونات في اليوم السابق لعيد ثيسسيوس. كذلك يريك [الميفاريون] بقعة في مدينتهم على الطريق الممتدة من السوق الى موضع يدعى [روس Rhos]^(٨٨) تضمّ رفات بعضهن، حيث يقوم «البناء المعيني Rhomboid» وشبيه بهذا ما

(٨٤) في الواقع لم يكن هذا المعبد موجوداً آنذاك، اذ انه بني على اثر محاكمة اورستس [پاوسنياس ٢٥:٧].
على ان الموضع الذي قصده پلوتارخ لك يكن بالامكان تحديده بغير ذلك.
(٨٥) كان الپلاديوم المكان المخصص لمحاكمة المتهمين بجرائم القتل. (ارديتوس) نسبة الى البطل الاثيني الذي فض نزاعاً قائماً بين مواطنيه المختصين فيما بينهم واقنعهم بربط انفسهم بقسم جماعي متبادل على الاتحاد والتعاون.

(٨٦) بهذا يقصد (القرع) وقد سمي بهذا لأنها كما يزعم پلوتارخ نفسه هي رسالته عن «انقطاع النبوءات» - تشبه الجن أو الشياطين وليست لها كمال الالهة ولا نقصان فيها كالبشر لكن، لما كان بعض الفلاسفة الفيثاغوريين قد توصلوا فيما بعد ان نتائج فلكية كافية للاستنتاج بان الشمس هي مركز المجموعة فيعتبر ان تراهي للمفكرين الاوائل بابه «جسم ارضي». ولذلك سمي القرع أحياناً بالنجم الأرضي.

(٨٧) من الأقسام التي اديت توثيقاً للعهد المقتطوع.
(٨٨) «مجرى» لأن المياه المنحدرة من الجبال المشرفة على المدينة كانت قد اتخذت مجراها مرة (پاوسنياس =

قبل ان بعضهن قتل قرب [خيرونا] ودهن على ضعة نهير كان يعرف سابقاً باسم [ثرمودون Thermodon] والآن يدعى [هيمون Haemon] ذكرنا شيئاً عنه في سيرة [ديموستينس].
ويبدو أن مرور الامازونات عبر [تسالي] لم يخلُ من مقاومة. اذ يوجد ثم عددٌ من قبورهن قرب [سكوتوزا Scotussa وكيوسفاليا Cynoscephalae].

هذا غاية القصد في الامازونات، وهناك رواية عن اوردها ناظم ملحمة [ثيسيد Theseid] هي محض خيال مختلف. يقول ان انتيويه على سبيل الانتقام من ثيسيسوس لأنه هجرها وتزوج [فيدرا Phaedra] انحدرت الى المدينة بمجوع من امازوناتها، فقتل عليهن هرقل!

الحق يقال ان ثيسيسوس تزوج [فيدرا] إلا انه فعل ذلك بعد موت انتيويه التي اُحببت له ولداً دعاه [هيسبوليتوس] أو [ديموفون] على حَدِّ زعم [پندار] (٨٩). أمّا النكبات التي حلت [بفيدرا] وابنه فلا سبيل لنا إلا الافتراض بأنه وقعت كما اتفق على روايتها جميعهم. لأنه لم يتم احد من المؤرخين بالاعتراض على الشعراء التراجيدين الذين كتبوا عنها.

هناك روايات أخرى أيضاً عن زيجات ثيسيسوس لا تشرفه مناسباتها ولا تُسعده في وقائعها، لم تتطرق اليها التمثيليات الاغريقية. فلقد قيل انه خطف [اناكسو] الطروزينية، وقتل كلا من [سينيس Sinnis، وركيون] ليغتصب ابنتيهما. وتزوج [بيرويا] أم [أجاس Ajax]، ثم [فيريويا Pheriboea] ثم [آيوه Iope] بنت [ايفكليس Iphicles] فضلاً عن اتهامه بهجر [اريادنه] مخالفاً مبادئ الشرف والاخلاق كما أوردنا - عندما وقع في حب [ايگله] بنت [پانوبيوس Panopeus] بدون وجه حق، أو اعتبار لكرامة. وأخيراً قيامه بخطف [هيلين]، وهو العمل الذي قلب اتيكا كلها الى ساحة حربٍ قور بالدماء، وكان بالأخير سبباً لنفيه وموته وهذا ما سنروي وقائعه الآن.

يرى [هبرودوروس] انه وان كان يوجد ثم الكثير من الحملات العسكرية الشهيرة التي قام بها أشجع رجال عصر ثيسيسوس، فانه هو نفسه لم يقدر إلا واحدة، وهي معركة اليبثيين مع

== ٢٠٤١٠١. وربما كان الروميويد تلاً تراثياً غير منتظم.

(٨٩) يخطيء [پندار] في قوله ان [ديموفون] هو اُحد ولديه اللذين انجبهما من [فيدرا]. [الثاني هو اكاماس]. عند زواج ثيسيسوس من فيدرا أرسل هيسبوليتوس لأمه إيثرا ملكة طروزين لتتولى تربيته. وبعد زمن عاد لخصور الالعب الاثينية فوقعته [فيدرا] في حبّه وراودته عن نفسها عبثاً. وفي نوبة من انفعالها ويأسها شكته لثيسيسوس زاعمة انه حاول النيل من شرفها وتقول الاسطورة ان (ثيسيسوس) دعا [ببتون] ليذيقه ميتة عنيفة عقاباً له فاستحى دعاؤه اذ فيما كان هيبوليت يقود عربته على ساحل البحر ارسل ببتون عجلي بحر اربعاء الخيل فقلبت العربته به وتمزق جسده، ويذكر الشعراء ان الملكة شجقت نفسها حزناً و [ديانا] التي هرّتها عفة هيبوليت، وألتهنها نهايته المفجعة. أقنعت [ايكولايوس] باعائه الى الحياة وجعلته مرافقاً لها في سائر مهامها

(السنطورس) إلا أن بعضهم يقول انه رافق [جاسون] الى [خُلقيس]^(٩٠) و[ملياجر - Meleag-er] لقتل الخنزير الوحشي الكليدونى. ومن هنا جاء المثل السائر «لا شيء بدون ثيسسيوس»، وثابت أيضاً انه حقق بنفسه دون معونة من أحد مآثر مجيدة لا تحصى، من هذا حاء القول المأثور «هرقل آخر، أو هرقل ثانٍ» ولقد شارك أيضاً [أدراستوس Adrastus] في استعادة جثث أولئك الذين صرعوا امام قبادفيا قلعة (ثيبة) لكن ليس بالشكل الذي صوره [يوربيدس] في مأساته^(٩١)، اي ليس عنوة واقتداراً بل بالفهم والإقناع والاتفاق، وهو ما أستقر عليه معظم المؤرخين. ويضيف [فيلوخورس] ان هذا الاتفاق هو الأول من نوعه في التاريخ، (لكن يظهر في تاريخ هرقل، انه اول من سمح لاعدائه ينقل جثث قتلاهم) وان المقابر التي تضم رفات معظمهم مازالت ظاهرة في قرية [اليوثيري Wleutherae]^(٩٢) اما قبور القادة فتشوي في [اليوسيس] حيث خصص لهم ثيسسيوس رقعة من الأرض اكراماً لخاطر [دراستوس]. ورواية [يوربيدس] التي اوردها في مسرحية «المتضرعين» بدحضها [اسخيلوس] في مأساته المسماة [الايولسينون Eleusiniand]^(٩٣) حيث يقوم ثيسسيوس برواية الوقائع كما اثبتناها هنا^(٩٤).

والصداقة الشهيرة التي ربطت بين [ثيسسيوس وبيرتاووس] قيل انها بدأت على النحر الآتي: ذاع صيت ثيسسيوس، وعلم الناس بقوته وبأسه في أقصى بلاد اليونان، ورغب [بيرتاووس] ان يختبر الأمر بنفسه، فقام تحدوه هذه الغاية بضبط قطيع من الشيران يعود لثيسسيوس، وبينما كان يستاقه من ماراثون، أبلغ بأن ثيسسيوس يقص أثره وهو بكامل سلاحه فلم يسرع في فراره، بل انقلب عائداً لملاقاته. ولما تفرس احدهما في الآخر امتلأ هيباً واحتراماً متبادلاً، ونسيا كل نية في القتال. وسبق [بيرتاووس] فمد يده لثيسسيوس وطلب منه ان يكون حكماً في النزاع. ووعد ان يخضع لأي عقوبة يفرضها بملء الرغبة فلم يكتف ثيسسيوس بالصفع عنه، بل عرض عليه صداقته واخوته في السلاح. وأشهدا على صداقتهما وعززأها بالأيمان المغلظة. وبعد زمن، تزوج بيراتاووس [ديداميا Diedamia]^(٩٥) ودعا ثيسسيوس الى

(٩٠) ربما بحثنا عن جزء الصوف الذهبية.

(٩١) وهذا أيضاً ما يذكىه ايزوقراطس في مقاله حول (هيلين) وان كان يرى في موضع آخر ان (ثيسسيوس) أرسل سفراء الى ايتوكليس، إلا ان هذا التناقض الواضح أزاله معاصره (ليسياس) بذكره ان (ثيسسيوس) بعد مفاوضة غير ناجحة حصل بالقوة على نتيجة أفضل. مناساة [المتضرعون: ص ٦٥٢ وما بعدها].

(٩٢) مدينة في اتيكا على حدود بويوسيا [پاوسنياس ١ ٢٨].

(٩٣) الابيات ١٢١٣ وما بعدها.

(٩٤) مفقودة.

(٩٥) كل الكتاب الآخرين يسمونها (هيوداميا) ما عدا [پريبيتيوس] الذي يسميها [ايسحوماخه] ٩ ٢ ٢ =

حفلة العرس، ولمشاهدة بلاده بهذه المناسبة والتعرف بقومه اللابيثيين^(٩٦) كما دعا في الوقت نفسه قوم [السنطوروس]، وفي الحفلة لعبت الخمر برؤوس هؤلاء، وأظهروا شراسة وسوء أدب، وطفقوا يتحرشون بالنساء ويهينونهن. فأسرع اللابيثيون يثأرون منهم ويطشوا بعدد كبير منهم في اثناء الوليمة. ثم نشبت معركة فيما بينهم فهزموهم وطردهم من أرضهم جميعاً وكان ثيسسيوس يقاتل الى جانب الابيثيين إلا ان لهيرودوروس قصة أخرى عن هذه الأحداث. فهو يقول أن (ثيسسيوس) لم يسرع الى معاونة اللابيثيين إلا بعد نشوب الحرب. وان اول مشاهدته لهرقل كان في طريق ذهابه اليهم. اذ كان قصده أن يجده في [تراخيسن]^(٩٧) التي أختارها هرقل موطناً بعد كل مغامراته واسفاره وان هذه المقابلة تمت بشكل مشرف لهما، وباحترام وود لا مزيد عليهما. ولكن القول الاكثر احتمالاً واعتماداً هو ما زعمته طائفة أخرى من المؤرخين بان لقاءات أخرى كثيرة كانت قد جرت بينما «انه بسمي من ثيسسيوس مُنح هرقل في [إليوسيس] حق المواطنة وقبل اجراء المراسيم اسرار كسيريس Ceres قام بالتطهر بسبب النجاسات التي حفلت بها حياته الماضية^(٩٨)».

يقول [هيللاينيكوس]: اختطف ثيسسيوس هيلين عندما كان في الخمسين من عمره. وهي وقتذاك طفلة ليست في سن زواج. ويقول بعض الكتاب - يقصدون جباً تهمة تتضمن واحدة من اكبر الجرائم - انه لم يسرق هيلين بشخصه، وان الفاعلين هما [ايداس Idas] و[لينكيوس Lynceus] خطفاها وجاءا بها اليه ووضعها امانة عنده. ولهذا رفض اعادتها الى اخويها [كاستور Cadtor] و[پولوكس Pollox] عندما طلباها منه. أو يقولون ان أباهما [تنداريوس Tandaros] كان قد بعث بها اليه ليحافظ عليها من [انباروفوروس Enarophorus] ابن [هيبكيون Hippocoon] وكان يحاول اختطافها وحملها بالقوة وهي طفلة. لكن أقرب

= وهي بنت [داراستوس].

(٩٦) يطلق هوميروس على «اللابيثي» صفة الأبطال. واثّر عن السنطير بانهم انصاف بشر وانصاف خيل ويصورون عموماً راكبين خيلاً أما بسبب وحشيتهم أو لصفتهم الحيوانية ان لم يعز اليهم استعمال الخيل وسياستها.

(٩٧) موضع صغير يقع بالقرب من جبل اوتيا.

(٩٨) قبل التكريس للأسرار الكبرى في الپوسيس لابد من اجراء مراسيم التطهير في الأسرار الصغرى على المرشح (وتقام هي أعرا بالقرب الپوسيس) وبعد ان يُعد المرشح نفسه بالصيام والتأمل يجب عليه ان يضطجع على جلد خنزيرة حامل سبق أن ضحيت لـ(چوپتر)، ثم عليه أن يفتسل بماء البحر الذي يمازحه الملح والغار والشعير ويعدّها يمر عبر النار ثم يكلل بالزهر. ويقضي المقبول في الأسرار السنة التالية يدرس المراسيم للبعث الجديد وبعد هذا كله (باستثناء مراسيم وخاصة جداً قاصرة على رتبة الكهنوت) يتم تكريسه نهائياً بارتداء الثوب الذي كُرس فيه لابتزعه عنه حتى يهتريه ويغدو خرقاً فيوقفه على [سيريس] أو [پروسيرين] أو يحفظه لاولاده.

الروايات احتمالاً وأغناها بالشهود، هي الآتية: ذهب ثيسبيوس وبيرتاوس الى سبارطا، وبعد ان خطفا الصغيرة اثناء ما كانت ترقص في معبد [ديانا اورثيا] ^(٩٩)، هربا بها فخرج رجال مسلحون لتعقبهم، إلا أنهم لم يمسوا في مطاردتهم أبعد من [تيجيا Tegea] ولما أمس الحاطفان المطاردة وفي اثناء مرورهما ببلاد الپيلوبونيسوس وصلا الى اتفاق فيما بينهما، وهو ان يقتربا على هيلين، فمن خرجت له اتخذها زوجاً، والظافر بها يجب ان يساعد الخاسر في الحصول على أخرى. وسحبت القرعة وفاز ثيسبيوس فأخذ هيلين الى مدينة [افيدني Aphid-nae] ^(١٠٠) ولم تكن تصلح للزواج - واودعها لدى واحد من حلفائه المدعو [افيدنوس]، ثم بعث بأمه [ايشرا] لتعني بها هناك وطلب من حليفه هذا ان يكتنم سرهما لئلا يعرف احد موضعهما. بعد أن فرغ من هذا عاد الى صديقه للوفء بالوعد ورافقه الى [ايبروس Epirus] ليخطفا بنت ملك المولوسيين [Molossians] المدعو [ايدونيوس Aidonius] أو [پلوتو] وكان هذا الملك قد جمع زوجة [پروسپرينا Prosprina] ^(١٠١) وابنته [كوراي Corae] وكلباً هائلاً عنده يدعى [سيربيروس] وطلبت من كل خاطب لابنته ان ينازل هذا الكلب فاذا تغلب عليه فاز بها ولكن لما ابلغ ان قصد بييرتاوس ورفيقه، هو اختطافها ^(١٠٢) لا خطبتها أمر بالقاء القبض عليهما وطرح بييرتاوس الى كلبه فمزقه تمزيقاً وألقى ثيسبيوس في السجن وأبقاه.

في هذا الزمن نبغ [مينيسثيوس Menestheus] ابن پيتيوس وحفيد [اوريندس]، وابن حفيد [ارختيوس] وهو اول خطيب جماهيري في التاريخ، من اشتهر بالمقدرة على خطب ود الجماهير واثارتهم وتزعم جموعهم. هذا الرجل اثار حفاظ وموجدات كبار القوم في المدينة، ومنهم عدة كبير من كان يضرر لثيسبيوس حقداً دفيناً لأنه جردهم من اقطاعياتهم وسلطانهم وحشرهم جميعاً في مدينة واحدة، واستخدمهم كالرعية أو العبيد، ومن ناحية ثانية دفع هذا المشاغب أخط الناس واوزاعهم الى الهياج والفتنة، قائلأ لهم انهم خدعوا بمجرد حلم بالحرية.

(٩٩) اعتاد السبارطيون جلد اولادهم فوق مذبح معبد ديانا اورثيا هذا - جداً مبرحاً باشد واقسى ما يتصوره العقل لتمويدهم على الاحتمال. كانت هيلين التي عرفت بانها بنت [چويثر] من [ليدا] زوج [نداروس] في العاشرة من العمر عندما اختطفها ثيسبيوس وبييرتاوس.

(١٠٠) مدينة تقع بالقرب من أثينا.

(١٠١) پروسپينا أو [كوراي] اسمان لشخص واحد هو اسنة [ايدونيوس] بعل [سيرس] وپلوتارح يحدثا في كتاب (الاخلاق) قائلأ ان المقصود بـ(پروسپرين) هو القمر الذي يقوم [پلوتو] اله الظلام بخطفه أحياناً. والواقع ان كوراي لاتعني الا «فتاة أو بنت» فيقال «بنت ايبروس» كما يقال بنت لبنان أو بنت الصين الخ.

(١٠٢) رعب افلاطون (الجمهورية ٣٠) ان يستر خلة ابناء الآلهة هؤلاء ويبرئهم من تلك التهم التي تفتقر الى اثبات تنفى الحكاية من اساسها.

في حين انهم في الحقيقة جردوا من تلك الحرية ومن بيوتهم الحسنة، وعقائدهم الدينية، وبدلاً من ملوكهم الطيبين الصالحين، استسلموا وخضعوا لاستبداد شخص اجنبي طفيلي، وفيما هو ماص في إفساد عقول المواطنين زودته الحرب التي شنها [كاستور وبوللوکس] بفرصة ثمينة ليزيد من حجته قوة وأثراً. وزعم بعضهم ان تحريضه واثارته كان السبب الأساس لهجومهما على أثينا. على أنهما لم يقتريا شيئاً في اول زحفهما ولم يبدُ منهما اعتداء، وانما طلبا [هيلين] أختهما بصورة ودية مسالمة فنفي الأثينيين وجودها في المدينة واكدوا جهلهم بموضع اخفائها، فتأهباً للهجوم. وهنا خف [اكاديموس] لنجدتها اذ عرف بوسيلة ما مخبأ المخطوفة، فدلها عليها ولهذا السبب اغدق عليه [كاستور وبوللوکس] النعم والعطايا ما أغناه طول حياته وكان اللقيديميون اثناء اجتياحهم المتكرر لآتيكا والبلاد المجاورة وابقاعهم الخراب بها، لايمسون [الاكاديمي] (١٠٣) بأذى لأجل ذكرى [اكاديموس]. إلا ان [ديكسارخوس Di-caearchus] يقول بوجود شخصين أركاديين في جيش [كاستور وبوللوکس] أحدهما يدعى [اخيديموس Echedemus] والثاني يُدعى [ماراثوس Marathus] ومن اسم الأول اشتق ما يعرف الآن بالأكاديميا، التي سميت فيما بعد (اخيديميا) ومن اسم الثاني استمدت (ماراثون) القرية اسمها. فقد عرض هذا الرجل نفسه ضحيةً للآلهة قبل المعركة، تحقيقاً لنبوء ما.

وبلغ [كاستور وبوللوکس] مدينة [أفيدنيا] وتغلبا عليها في معركة فاصلة واستوليا على المدينة، وفيها قتل [البگوس] ابن [سيرون] وهو من جماعة الديوسكوري (أي كاستور وبوللوکس)، على ما قيل، ويوجد في (ميفارا) موضع دُفن فيه ما يزال يدعى [اليكوس] ويكتب (هيرياس) ان ثيسبيوس هو الذي قتله، ويستشهد على ذلك بالبيتين الآتين عن اليكوس:

«وقتل اليكوس في سهل افدنيا.

قتله ثيسبيوس، في سبيل هيلين الشقراء»

على انه لا يوجد ما يؤيد وجود ثيسبيوس هناك عندما استولي على المدينة واسرت أمه.

ومهما يكن من أمر، فقد بسط كاستور وبوللوکس سلطانهما على [افيدنيا]. واستبد القلق بمدينة أثينا. وافلح [مينيسيتوس] في اقناع الأهالي بفتح ابوابها واستقبالهما بكل مظاهر الصداقة قائلاً: إن عدوهما الوحيد هو ثيسبيوس الذي كان البادي، بالشر. وانهما سينقذان الأهالي. وكان سلوك العاتحين مصداقاً لهذا فبعد أن استتب لهما الأمر في المدينة لم يطلبوا

(١٠٣) موضع تحفّ به الأشجار بالقرب من نهر كفسوس يبعد بحوالي ميل واحد شمال غرب أثينا، وهنا كان افلاطون وتلاميذه يحضون للدرس (انظر سيرة كيمون).

أكثر من منحهما حتى القبول في الأسرار، لأن صلة قرابتهما بها لا تغل عن صلة هرقل^(١٠٤). وكان قد نال التكريم نفسه من قبل، فحقق لهما مطلبهما وتبناهما [Aphidnos] مثلما تبني [Pylius] ^(١٠٥) هرقل، واحتفى بهما كما يحتفى بالالهة، وسيما بالاسم الجديد [اناكسيس] وهو اما مأخوذ من الهدنة Anoshe التي تلاها أو من تدابير الرعاية التي اتخذها كيبلاً يلحق بأحد مكروه، بوجود جيش كيبس داخل المدينة. ذلك لأن جملة «أناكوس وابخين êkhein, Anakös» تطلق على أولئك الشديدي الاهتمام بكل شيء، ولهذا نجد ملوكاً يلقبون «أناكتس». ويقول بعضهم أن تسميته هذه من اناكيس Anakes مظهر في الفلك. ففي اللهجة الاتيكية يقترب هذا الاسم اقتراباً شديداً من الكلمات التي تعني «هوق» أو عالٍ فالأثينيون يستعملون كلمتي انيكاس Anekas وانيكاثن Anekathen بدلاً من آنو Anö وآنوثين Anothin.

وقيل ان [ايشرا] والدة ثيسبيوس أسرت هناك، وحملت الى لقيديميون، ومن هناك ذهبت الى طروادة مع هيلين. ويستندون في زعمهم هذا الى بيت للشاعر هوميروس حين يذكر من رافقها: «اثيرا وكليمينه الحورا الجميلة اللين وكبدتا لبيثيوس»^(١٠٦). لإثبات انها كانت ترعى شؤون (هيلين). ويسقط آخرون هذا البيت ولا يعدونه من شعر هوميروس^(١٠٧)، كما ينشدون كآسطورة [مونبخوس] الذي كان كما تقول الحكاية - ابناً [لديموفون Demophon ولادوبكه Laodice] انجباه سراً، وقامت [ايشرا] على تربيته في طروادة لكن [ايستر Ister] يتحفظ برواية أخرى عن [ايشرا] في الكتاب الثالث عشر من تاريخه عن آتيكا، وهي تختلف عن الباقيات. يقول ان [أخيل، وياتروكليس] تغلباً على [الكساندر: باريس Paris] في تسالي قرب نهر [سبيرخوس Sperchius] لكن [هتكور] استولى على مدينة طروزين ونهبها وأسر [ايشرا] هناك... والظاهر أن هذه القصة لا أساس لها من الصحة.

في أثناء مرور هرقل [بالمولوسيين]، حُلّ ضيفاً على [ايدونيوس] الملك فنوّ هذا عرضاً برحلة ثيسبيوس [ويبيرتاؤوس] الى بلاده، وقصّ عليه ما كان يريدانه وما حُلّ بهما نتيجة

(١٠٤) ذلك لأنهما ابنا لجوبيتر ايضاً وهو إله الذي يدهى الأثينيون بأنهم جاؤوا من صلبه. لذلك كان من الضروري أن يمنح حقوق المواطنة قبل قبولهما في الأسرار. وعلى هذا الأساس تم منحهما الجنسية عن طريق التبنّي.

(١٠٥) ملك ثسبي Thespie في بويوميا.

(١٠٦) الإلياذة ٢: ١٤٤.

(١٠٧) يبدو ذلك بعيد الاحتمال. فمن غير المنطق أن تكون حماة هيلين وصيفتها أو أن تكون وصيفة هيلين ملكة. ومع هذا فإن حكاية أسر (اثيرا) تطابق كثيراً الصورة التي كانت تشاهد في دلفي. إذ بدت (اثيرا) ورأسها يحلق كالبيد وحفيدها يشاهد وهو يتوسط في الأفراج عنها (پلوسنياس ١٠: ٢٥).

ذلك. فاعتمَ هرقل غمّاً عظيماً للموت المخزي الذي لاقاه أولهما والوضع المرزي الذي آل اليه ثانيهما ولما كان من العيب أن يبحث في موضوع الأول لموته، فقد توسط في أمر الثاني فنال بغيته ولبي الملك طلبه. واسرع ثيسبيوس الى اثينا بعد اطلاق سراحه، وكان في انصاره ومؤيديه بقية.

وهناك اوقف على هرقل كل الاماكن المقدسة التي كرستها له. وغير اسماءها من [بفسيا] الى [هرقلييا] (١٠٨) اعترافاً بفضلها، إلا أنه استثنى اربعة فقط كما حدثنا [فيلوخورس]. وبدافع من رغبته في البقاء محتلاً المكان الأول في الجمهورية، وتصريف شؤون حكمها كالسابق، ما لبث ان وجد نفسه مشتبكاً مع الاحزاب في صراع، والمتاعب تحفّ به من كل جانب فأولئك الذين طالما اهنضوه، أضافوا الى بغضائهم احتقاراً، وبلغ فساد خواطر الشعب مبلغاً من التفسخ بحيث ما عادوا يطيعون الاوامر بصمت، وانما صاروا يُدفعون الى اداء واجباتهم بالملق والمداهنة. ومال به الفكر الى استعمال القوة لإخضاعهم، ولكن الاحزاب ومثيري الشعب من الديماغوجيين كانوا أقوى نفوذاً. وأخيراً ادركه اليأس من التوصل الى اي نجاح مجد في اثينا، فبعث باولاده سرّاً الى [يوبوا] ووضعهم في رعاية (اليفينور Elephen-or) ابن خلدون، ثم لعن شعب آثينا في قرية [كارگيتس] حيث مارال يوجد فيها موضع يدعى [اراطيريون Araterion] أو موضع اللعان أو الدعاء، أبحر الى (سكيروس Scyros) وفيها أراض خلفها له أبوه، وصداقات توهم وجودها بين الأهالي، وكان [ليقوميدس Lycomedes] ملكاً على الجزيرة يومذاك، فقصده ثيسبيوس وانهى اليه رغبته في تمكينه من اراضيهِ لأنه قرر السكن والاستقرار في الجزيرة. وهنا يختلف الكتاب في بعضهم يقول انه اتصل به طالباً منه العون على الاثينيين، وان [ليقوميدس] أما حسداً لمجد رجل عظيم، أو أرضاً [لمنيسيتوس] (١١٠)، فاده الى أعلى جرف في الجزيرة، بدعوى مشاهدته الأراضي من موقفه ذاك. وقذف به من حلق، وقتل، ويقول آخرون: لا بل سقط قسماً وقدرأ حينما زلت قدمه أثناء سيره هناك كعادته يومياً بعد العشاء. ولم يلحظ أحد موته، يومذاك ولم يهتم به أحد، وتمكن (فيستبيوس) من بسط سلطانه على مملكة اثينا بهدوء، ونشأ اولاد

(١٠٨) أظهر يوربيدس ثيسبيوس في مسرحية [هرقل في تجواله] وهو يعد منقذه بالقيام بهذا العمل على السبيل الوفاء.

(١٠٩) تقع هذه الجزيرة مقابل يوبوا. اصبح الاثينيون الناكرو الجميل يشعمرون بمرور الزمان ينثار هذه القلعة. حتى انهم قرروا تهدئة لطيفة لزانر ان يقدموا له قرابين عامة وان يحيوا ذكراه بتكريم كتركيم الكفة.

(١١٠) أو كما قال بعضهم: بعد ان تبين له ان يريد افساد رعيته عليه واغواء زوجه.

ثيسسيوس نشأة خصاصة وفقر، وصحبوا (الفينور) في حروب طروادة لكنهم عادوا الى أثينا بعد موت (مينستسيوس) في تلك الحملة، واستعادوا الملك. وفي العصور التالية نجحت عدة ظروف حملت الآثينيين على تكريم ثيسسيوس وإنزاله منزلة نصف إله. ومن تلك الظروف ما حصل في المعركة التي خاضها الآثينيون في (ماراثون) ضد الميديين. فلقد اعتقد كثير من الجنود انهم شاهدوا شبح (ثيسسيوس) وهو بدروعه وسلاحه يتقدمهم في الهجوم على البرابرة^(١١١).

وبعد الحرب الميديية عندما كان (فيلو Phaedo) أرخوناً لأثينا^(١١٢)، استخار الآثينيين عرافة دلفي، فأمرها بجمع عظام ثيسسيوس ودفنها في موضع لائق بمقامه، وأعتبرها من ذخائر المدينة المقدسة. إلا أن جمع بقاياها، كان في غاية الصعوبة، وأصعب منها التوصل الى موضعها فقد ضاع الموقع عن الأدهان بعد سكنى البرابرة المتوحشين الغلاظ في الجزيرة^(١١٣). ومرت الأيام ثم أستولى (سيمون Cimon) على الجزيرة (كما أوردنا ذلك في سيرته) وكان شديد الرغبة والحماسة في العثور على الموقع الذي يضم جسد ثيسسيوس وتشاء الصدفة، أن يلبح نسرأ جاثماً على نشز من الأرض ينقر التراب بمنقاره وينشه بمخالبه. وفجأة قدحت فكرة في رأسه بما يشبه الوحي الرباني. بأن يحفر هناك ويبحث عن عظام ثيسسيوس، ففعل ووجد في ذلك الموقع تابوت رجل جسمه أكبر من المعتاد، ووجد سنان رمح نحاسي، وسيفاً مسجى معه، فرمى الجميع وحمله الى سفينة وقدم الى أثينا، فاستبد المرح بالآثينيين وخرجوا للقاء الذخائر الكريمة واستقبالها بما يليق من المواكب الفخمة والقرايين، حتى لكان ثيسسيوس يعود الى

(١١١) پلوتينيوس (١:١٥٠:٤).

(١١٢) هو الملك السابع عشر لأثينا مدحصر الملك الاسرائيلي شاول ضحى نفسه في سبيل بلاده أثناء القتال مع الدوريين والهيراقليديين العام ١٠٧٠ ق.م ان علم ان النبوة وعدت بالنصر لاي طرف يسقط قائده قتيلاً ويسبب ذلك عطشه مواطنوه تعظيماً يفوق الوصف حتى اعتبروا ان ليس بعده من يستحق ان ينصب ملكاً فالتوا المنصب ووضعوا السلطة بيد مجلس من الحكام باسم الاراخنة (ج: ارخون) يتم اختيار اعضائه بالاقتراع كما أختار لرئاسة المجلس (ميدون) أكبر أبناء الملك المصري. وكان الارخون يحكم طول الحياة في مبدء الأمر وقد تعاقب ثلاثة عشر منهم في ظرف ٣١٦ سنة. وبعد موت (الكيمون) اخرهم جعلت الفترة مددودة بمشتر سنين وبقيت منحصرة في اسرة الملك قدروس حتى موت (ارخيئاس أو ثيسياس) على قول بعضهم وهو السابع في الطبقة الثانية من الحكام الاعلى. وبه ختم حكم اسرة (قدروس) وعندما استقر الآثينيون مدداً حكم الارخون السنوي وصاروا يختارون تسعة بدلاً من واحد سنوياً (سنمود الى شرح ذلك بتفصيل اكثر في حياة صولون). حكم فيدون ما بين ٤٧٦ و٤٧٥ ق.م.

(١١٣) لا يمكن القبول بهذه الروايات عن (سكيروس) ولا سيما من أولئك الذين يتذكرون بأن (أخيل) كان قد ارسل قبل عصر (كيمون) بسبعة قرون الى لابل (ليقوويدس) وان سكيروس لقربها من يويويا يجب ان تكون ذات علاقات مع بلاد الأغريق.

المدينة بلحمه ودمه، حياً. انه اليوم يرقد في وسط المدينة قرب (الجناسيوم) الحالي^(١١٤). وقبره ملجأً وملأه للعبيد والفقراء والملهوفين الهارين من اضطهاد ذوي السلطان. جعل كذلك اعترافاً بسجايا تيسبوس وغيرته في معاونة المظلومين، ووقايتهم من السوء، وعدم تقاعسه مرة واحدة عن اجارة مستجير او اغائة مضطهد يلوذ بحماه. ان أعظم واجل قربان يقدمه له الآثنيون، هو في الثامن من شهر [پيانپسيون Pyanepsion] وهو اليوم الموافق لعودته من كريت مع الشبان الآثنيين. وهم ايضاً يضحون له في اليوم الثامن من كل شهر على مدار السنة، إما لانه كان قد عاد من [طروزين] في الثامن من شهر [هيكاتومبيون] كما ذكر [ديودوروس Diodorus] الجغرافي، وإما لانهم يعتبرون عدد (٨) هو العدد الملائم له، اذ قيل انه ولد (لبنتون) وانهم ليقربون الى نبتون في اليوم الثامن من كل شهر. ورقم ثمانية الذي هو أول مربع لعدد زوجي، ومضاعف أول مربع^(١١٥) يبدو وكأنه شعار قوة جبارة ثابتة لهذا الرب الذي لقب منذ ذلك الحين [اسفاليوس Asphalius] و[غيوخوس Gaeiochus] اي مؤسس الأرض ومثبتها.

(١١٤) يقصد جمناسيوم بطليموس [پاوستيناس ١٧:٢].

(١١٥) لبدء الاعداد المستمد من المصريين القدماء عن طريق فيثاغوراس منزلة عالية جداً عند بلوتارح.



روملوس

عمن اخذت (روما) ^(١) اسمها وفي اي ظروف عُرف هذا الاسم المؤثر الشهير على افواه البشر؟ ان الكتاب يختلفون في هذا فبعضهم يرى ان [الپلاسجي Pelasgi] ^(٢) في اثناء تجوالهم خلال كل العالم المعمور واخضاعهم شعباً لا تحصى، آثروا الاستقرار هنا، وسميت مدينتهم (روما) ^(٣) لبأسهم العظيم وقوتهم الحربية. ويزعم آخرون أن زمرة من أهالي (طروادة) تمكنوا من النجاة بعد الاستيلاء على مدينتهم ويسرت الاقدار لهم سفناً ابحروا بها، فدفعت بهم الريح حتى سواحل (توسكانيا) وأرسوا على مقربة من مصب نهر التيبر Tiber. وهناك عقدت نساؤهم المنهوكات المريضات بنو البحر - عزمهن على احراق السفن ^(٤) بناءً على اقتراح تقدمت به واحدة منهن اسمها (روما) وهي ذات نسب رفيع وفكر راجح. ففعلن ذلك وثار غضب الرجال اول الأمر، لكنهم اضطروا الى البقاء قرب [پالاتيوم Palatium] وانصلحت امورهم بعد زمن قصير بشكل فاق آمالهم. اذ وجدا الأرض خصبة جداً والمواطنین

(١) من اجل استنادنا الى أقرب تاريخ لظهور صاحب السيرة، علينا أن نفترض العام ٧٥٣ ق.م تاريخاً لتأسيس روما وان نفترض العام ٧١٦ ق.م تاريخاً لوفاة رومولوس. وهما حدثان لا يبعدان زمنياً بكثير عن عام الميلاد فأنهما والحالة هذه يحيط بهما الغموض والجهالة، ويراهما بعض من قبيل الرجم بالغيب أو التقدير الفلكي. ويحدد آخرون غموض تاريخ روما بفترة حكم ملوكها السبعة الذين حكموا طوال ٢٢٤ عاماً. وتسلم طبقة ثالثة من المحققين بالقليل المؤكد مما ورد عن اية وقعة خلال القرون الخمسة التي تلت تأسيس روما. وكتاب الاغريق وهم على الأغلب شعراء ومدونو اساطير لم يهتموا بما كان يحصل في ايطاليا. كما ان [نوما] لم يترك لنا شيئاً غير ما يتعلق بالدين أو الفلسفة. ولم يبرز مؤرخو الرومان الى عالم الوجود الا بعد الحرب الفينيقية.

هذا هو الغموض الذي يحف بأصول روما في عهد الابطاطرة وشأنها في ذلك شأن معظم المدن والشعوب القديمة الا ان الغموض هنا أكثر وأظهر لأن أول من سكنها لاجئون وخارجون على القانون ينتمون الى شعوب أخرى ولا ينتظر منهم ان يتركوا لنا تاريخاً، الا ان [ليفيا] وغيره من مؤرخي اللاتين يتفقون بان رومولوس هو باني روما وان المدينة وأهلها اتخذوا لها اسماً. في حين نرى كبرياء كتاب الاغريق وخيلاهم تدفعناهم الى ان ينسوا لأنفسهم كل شيء بما في ذلك روما نفسها.

(٢) هؤلاء - وامسلمهم من اركاديا - هم اول سكان بلاد الاغريق. ومن هناك طردوا فسكونوا (بساليا) وازبحوا الى (ايبيروس) ثم الى مقدونيا وايطاليا وكريت واسيا.

(٣) الكلمة تدل على القوة.

(٤) انظر الاينياد [٦.٤٠٥-٦٩٩].

بالغي الطيبة، فزادوا في اكرام السيدة (روما) باطلاق اسمها على المدينة التي كانت هي سبباً في وجودها. ومن هنا جاءت -على ما قيل- العادة الشائعة في روما، وهي ان تحيي النساء الرومانيات ذوي قرباهن وازواجهن بالعناق والقبل، لأن النسوة بعد احراقهن السفن استخدمن هذا الاسلوب من التدليل والتعجب لتهنئة خواطر ازواجهن.

ويقول بعض الكتاب ان [روما] التي أخذت المدينة اسمها منها هي بنت [ابطالوس - Ital-us] و[ليوكاريا Leucaria] أو كما يزعم آخرون انها ابنة [تيلافوس Telaphus] ابن هرقل، وقد تزوجت [اينياس Aeneas] أو [اسكانيوس Ascanius] ابن اينياس على حد زعم آخرين. ويحدثنا بعضهم ان [رومانوس Romanus] ابن [أوليسسوس Ulysses] و[جيرچ Circe]، هو الذي بناها، ويقول آخرون ان بانيها هو [روموس Romus] ابن [ايماثيون Emathion] الذي ارسله [ديوميد] من طروادة. ويقول آخرون بل هو [روموس] ملك اللاتين، بناها بعد ان طرد [الترينيين Tyrihenians] ^(٥) الذين قدموا الى ليديا من تسالي ثم انحدروا الى ايطاليا.

أما الكتاب الذين يجعلون اسم [رومولوس] مصدر اسم المدينة، فهم يختلفون فيما بينهم حول ظروف ولادته. نضعهم يقول انه ابن اينياس و[دكزيتيا Dexithea] بنت [فورباس Phorbas] وانه وأخوه ريوس حملا الى ايطاليا في حدائتهما. وكانا على صفحة النهر عندما فاضت مياهه وطففت فأغرقت كل المراكب الطافية الا السفينة التي تقلهما، فقد رست بهما برفق على الضفة وكتبت لهما نحة غير متوقعة. ومن اسميهما جاء اسم الموضع (رومه) ويقول بعضهم ان [روما] هي بنت السيدة الطروادية صاحبة الاقتراح بحرق السفن، تزوجت [لاتينوس] ابن [تيلماحوس Telemachus] وانجبت [رومولوس] ويقول آخرون ان [اميليا Aemilia] بنت [اينياس] و[لافينيا Lavinia] زوجه، ولدت له للرب [مارس]. ويتحفك آخرون بأساطير مماثلة عن اصل الرجل، فعند [طارخيتيوس Tarchetius] ان ملك [ألبا Alba] الذي كان شر الناس وأقساهم ظهر في بيته شبح غريب خرج من موقد النار على هيئة رجل، وبقي هناك عدة ايام وكان ثم عرافة لـ[تيثيس Tethys] في توسكابا ^(٦)، استخارها طارخيتيوس في شأنه فكانت النبوة هي ان تهب عذراء من العذارى نفسها للشبح، وستنجب منه ولداً يكون شأنه عظيماً وبأسه شديداً، ويسمى به جده ويرتفع سعوده. فأسر طارخيتيوس

(٥) هو اسم آخر لشعب التوسكان. وهؤلاء هم خير البلاسيي الذين ورد ذكرهم ولم يكونوا مستوطنين اقبلوا من [ليديا] كما يزعم [ميون] بسبب اختلاف لغتهم وعاداتهم ودينهم وقوانينهم.

(٦) ليس ثم نبوة بخصوص [تيثس] على ان هناك نبوة حول [ثميس]. وكان مع كارمنقا المنوه بها فيما بعد.

بالنبوة لأحدى بناته وأشار إليها أن تسلم نفسها للشبح فاستنكرت الأمر وابت وأرسلت خادمتها بدلاً عنها، ولما سمع طارخيتيوس بما فعلت استنشاط غضباً وامر فألقي بالبنت والخادم في السجن وكان ينوي قتلها، إلا أن الربة (نستا) منعت، إذ ظهرت له في حلم، ففرض عليهما عقوبة: أن يحكما سبيجاً وهما مكبلتان بالآغلال. فإذا اكملناه أجبرتا على الزواج بمن يختاره لهما، ولكنه كان يأمر اتباعه أن ينقضوا في الليل ما نسجته في النهار.

وفي عصرون ذلك وضعت الحامل وليدين، فسلمهما طارخيتيوس لشخص يدعى (تيرانيوس Teratius) وأمره باهلاكهما، فحملهما ووضعهما قريباً من ضفة النهر. وأقبلت ذئبة وراحت ترضعهما، في حين قدمت طيور مختلفة جاملة يناقرها قطعاً صغيرة من الطعام لتضعها في فيهما. إلى أن لمحهما راعي بقر، فانتابته الدهشة، لكنه تجرأ على الاقتراب منهما ورفعهما إلى حضنه، وهكذا كتبت لها النجاة، ولما بلغا أشدهما هاجماً طارخيتيوس وتغلباً عليه هذه الاسطورة بوردها (پروميثيون Promethion) في تاريخ ايطاليا.

إلا أن القصة الأقرب إلى التصديق، وهي التي يقر بصحتها أكبر عدد من الثقات، كان ديوكليس (البيپاريثوس Peparuthus) أول من اذاعها بين الأغريق بوقائعها الرئيسية، وجاراه في معظم تفاصيلها (فابيوس پكتور Fabius Pictor) ^(٧) أيضاً، لكن الروايتين لا تخلوان من اختلاف. إما الشكل العام لهما فهو كما يأتي:

«كان ملوك [إليا] ^(٨) يتوارثون الحكم على طريقة التسلسل العمودي، اعتباراً من جدهم الأعلى [إنياس] إلى أن رست الخلافة أخيراً على الأخوين [نوميستور Numitor] و[امبوليوس Amulius] ^(٩)، فاقترح ثانيهما تقسيم الميراث إلى قسمين متعادلين ^(١٠)، وجعلت المملكة معادلة للذهب والكنوز التي جيء بها من طروادة. وأختار [نوميستور] المملكة.

(٧) بيپاريثوس هي مجموعة من الجزء في بحر ايجه. اشتهرت بفخرها. ولا يعرف عن [ديوكليس] شيء. أما [فابيوس پكتور] الذي ينعت [إليفي] «بأقدم الكتاب الرومان» فهو أحد أعضاء الوفد الذي أرسل إلى دلفي بعد معركة (كاناي) السيئة الصيت. للسؤال عن الوسائل التي يمكن بها استجلاب رضا الآلهة. وقد اتهمه [بوليبوس] في حوالاته بأنه أساء معاملة القرطاجين.

(٨) بين إنياس حتى نوميستور داميليوس ثلاثة عشر ملكاً من السلالة ذاتها إلا أننا نكاد لا نعرف شيئاً عنهم أكثر من أسمائهم وسنّي حكمهم. وازهرهم (اميليوس) الذي هاق أخاه شجاعة وعقلاً طرده من العرش. وقتل ابحتستوس ابن نوميستور الوحيد وكرس ابنته (ريا سلفيا) لخدمة ثستا ليؤمن بقاءه في السلطة.

(٩) إلفي ٢:١.

(١٠) لم يذكر [ديون] ٧٠١ عن هذه القسمة شيئاً. ولكنه يذكر فحسب أنه اميليوس انتزع العرش بالقوة وطرد أخاه ظلماً وعدواناً وهو أحق بالعرش. وأيد هذا فقرة أوردها إلفي (٦١) أن قال «لما كان ريموس ورومulus تزامين فليس ثم وسيلة لترجيح أحقية أحدهما في الحكم على الآخر بمقتضى قانون الأقدمية.

وبحيازة اموليوس المال والذهب غداً قادراً على أن يفعل كل ما يقصر عنه (نومبتور) وآل به الامر الى انتزاع ملكة اخيه بسهولة. ولخوفه ان تنجب ابنته اولاداً جعلها (قستاله) (*) وبهذا رسم لها ان تعيش عزراء الى الأبد ولا تتزوج. وبعض الكتاب يسمى هذه المرأة (المسيدة ايليا Iliia) وبعضهم يسميها (ريا Rhea) وآخرون (سلفيا Silvia) وعلى كل حال، فانه لم يمرّ طويل زمن حتى أكتشف انها حامل خلافاً لقوانين القستال الصارمة^(١١). ووجب ان يحل بها افطع عقاب. إلا ان [أنثو Antho] بنت الملك تدخلت وتوسطت لها عند ابوها. فأودعت سجيناً منفرداً ومنعت من اي رفقةٍ لئلا تضع وليدها دون علم من الملك. وفي الوقت المحدد لها وضعت وليدين يزيد حجمهما عن حجم الوليد الاعتيادي ويفوقانه جمالاً فزاد هذا في غضب الملك (أموليوس) وأمر خادماً ان يحملهما ويُغرقهما، هذا الرجل يسميه بعض الكتاب (فاوستولوس) وبعضهم يقول لا بل أن (فاوستولوس) هو الرجل الذي قام على تربيتهما. ووضع الحادم الولدين في صندوق صغير وقصد النهر عازماً على القاتلتهما في مانه. لكنه خشي التقدم منه والقى بهما على الضفة وقفل راجعاً. وكان ماء النهر الفائض يتعالى، حتى بلغ الصندوق. وحملتة الامواج وعموته برقي ولين، حتى انزلته في ارض سهلة متطامنة يطلقون عليها اليوم اسم (جرمانوس Cermanus)، وكان اسمها قبلاً «جرمانوس» ولعلها من كلمة (جرماني Germani) اي الأخوة.

والى جوار هذه الأرض كان يوجد شجرة تين برّي اطلقوا عليها اسم (روميناليس Ruminalis) والى جوار هذا (رومولوس) (وهو تغليل ضعيف) وإمّا من (روميناتينغ Ruminating) لأن

(*) عندما اوجد رومولوس شعلة النار الخالدة اوقفت على العناية بها عذارى يسهرن على ابقائها مشتعلة في كل مجتمع روماني وتحول هؤلاء النسوة الى كاهنات لهن حقوق خاصة وعليهن واجبات صارمة وأطلق عليهن اسم عذارى [قستال] نسبة الى ربة النار. وكان في العادة يفترن من بنات اعرق اسر روما وان تتراوح سن الواحدة بين السابعة والثامنة وان تضطلع بثنائية رسالتها ثلاثين عاماً تلقّز خلالها بالصفة. ويحكم سهرهن على النار التي تعتبر اهم رمز للبلاد كن يحيطين من الشعب وحكامه بمركز يقرب من القدس ويطلع عليهن اعظم الامتيازات وتهجن لهن في الملاعب العامة مقاعد الشرف ويتقدم مواكبهن ضباط العرس. واذا صادفن مجرمًا يساق للموت فبامكانهن اطلاق سراجه حالاً. وبمقابل ذلك يفرضن على قواني صارمة فادا اهلن النار وانطلقت حلدن بلا رحمة واذا فرطن في غفاهن يرجعن بالمجارة في عهد [نوما]. ثم وجد هذا العقاب غير كاف فصرن يلدن أولاً ثم يدفن أحياء بعد ان يتوك في قبورهن مقدار من الطعام ويسجل التاريخ ان ثمانية عشر مهن لقين حتفهن على هذه الشاكلة. وبسبب ذلك لم يسمح الاباء لبناتهم بالانخراط في هذا السلك وبعد ان كان الاختيار قاصراً على أعرق الاسر سمع لبنات الطبقة المتوسطة والعبيد المعتوقين وأبطل هذا كله الامبراطور ثيودوسيوس المسيحي بعد تقلبه على خصمه اوجينيوس الوثني في العام ٣٩٤م وأصدر أمراً بالغاء كل المعابد وبضمنها معبد قستال. واطفاء النار فيه. (١١) ليفي ٤: ١ و ٥-٦.

الماشية تستظل بفيئتها عادة وتقصدها تخلصاً من حرارة النهار لاجترار طعامها، والتعليل الأقرب من هذا أنها جاءت من عملية إرضاع الطفلين هناك، لأن القدماء يطلقون كلمة [روما] على التقام الثدي، أو الإرضاع، وهناك ربة مختصة برعاية الأطفال وتربيتهم ما زالوا يسمونها [رومبليا] ^(١٢) وهم لا يستخدمون خمرًا في التقريب إليها ^(١٣)، وإنما يستعبدون عنه بالحليب. والتاريخ يحدثنا أن ذئبة أرضعتهم ^(١٤) طوال وجودهما هناك، وأن طير يقار الخشب كان يزودهما بالطعام بصورة مستمرة ويتولى حراستهما، ومنزلة الذئبة والطير مقدسة عند الرب [مارس]، واللاتين مازالوا يعبدون هذا الطائر ويكرمونه إكراماً خاصاً دون باقي الطيور. وهذه دلائل تقف في مقدمة الأسباب التي تدعم ما قالته والدة الطفلين، أن أباهما هو الرب [مارس] نفسه وإن قال بعضهم أنه وهم أوقعها فيه [امبوليوس] الذي أتاها هو بنفسه ليلاً مرتدياً دروعه وسلاحه. وظن آخرون أن أول ظهور لهذه الأسطورة جاء من اسم مريض الطفلين ويتضمن معنى مزدوجاً فاللاتين لا يقتصرون على تسمية الذئب بـ [لوبي lupae] وإنما يطلقون الكلمة نفسها على العاهرات. وكانت زوج فاوستلوس (أكا لارنتيا Acca La rentia) التي ربتهم، امرأة قليلة التمسك بالعفة. ويقدم لها الرومان عدة قربان. ويقوم كاهن الرب مارس بإرساله القربان هناك في شهر نيسان بمناسبة العيد اللارنتي.

كذلك يكرمون [لارنتيا] ^(١٥) أخرى للسبب التالي: لم بدر حارس معبد هرقل كيف يقضي وقت فراغه الكثير، فأقترح على رب معبده لعبة نرد على رهان: إن غلب الحارس اخذ شيئاً ثميناً من الرب وإنه غلب الرب، يتعهد الحارس أن يبسط له مائدة حافلة بانفس الطعام ويؤمن له رفقة امرأة جميلة. ثم التقى بالنرد نيابة عن الرب، ثم القاه لنفسه فكان الرب هو الرابح. ولاعتقاده أنه مرتبط بعهد يجب الوفاء به، أدب للرب عشاءً فخماً ودفع مالا [للارنتيا] وكانت في عز جمالها وإن لم تشتهر بعد ^(١٦) - وجاء بها إلى المأذبة في المعبد وبسط فرائشاً وبعد ختام العشاء خرج وأغلق الباب عليها، كان الرب سيطراً حقاً. وقيل إنه جاءها فعلاً

(١٢) ليفي «الرومان لا يسمون تلك الربة [رومبليا] وإنما [رومبينا]» على أن كتاباً آخرين يرفضون اشتقاقاً كهذا كما يرفضون أسطورة الذئبة ويرونها من قبيل التفتيق والتصنيع. ويرون أن احتمال الأغلب هو أن المسبة أخذت اسمها من (رومون) وهم أسم نهر التتير الأول.

(١٣) لأنها كانت ضارة في تلك الفترة من عمر الطفل.

(١٤) ليفي ج ١: ٤ و ٦-٧.

(١٥) هذه المرأة حسب قول [م. ويكارد] يجب أن تدمى [إكنا] رومبنا نسبة إلى معاشرها. والمفروض أن يكون شأنها شأن [ملاور] التي أوقفت ثروتها التي جمعتها من حياة الفسق والفجور على الشعب الروماني. فكرمت مقابل ذلك باحياء العاه سميت باسمها وهي العاه يشويها التحلل والاباحية.

(١٦) في كتابه عن [الأخلاق] يقول بلوتارخ أنها كانت تعرف (بالعاهرة الشعبية).

وامرأها ان تنزل الى السوق صباح اليوم التالي وتسير الهوينا وتحمل أول رجل تلقاه وتتخذة خليلاً. ففعلت ولقيت رجلاً يدعى [تاروتوس Tarrutius] وكان متقدماً في السن طائل الغنى أعزب بلا عقب، فضم [لارنتيا] اليه وعلق بحبها وترك لها عند وفاته كل ثروته وجعلها وارثته الوحيدة في كل ممتلكاته الواسعة فكتبت وصية موثقة أوقفت بموجبها معظم الثروة على النفع العام. وذكر انها أختفت فجأة بالقرب من الموضع الذي يضم بقايا [لارنتيا] الأولى، ذلك لأنها اشتهرت وذاع صيتها لكونها محظية الرب. والبقة تسمى [فيلابروم Velabrum] الى يومنا هذا لأن النهر كثيراً ما يفيض ماؤه فيضطر الناس القادمون الى [الفورم Forum] من المحلات المجاورة، الى ركوب الزوارق والأطواف. والكلمة اللاتينية لفعل التنقل بالطوف هي [فيلاتورا Velatura] ^(١٧). ويشق آخرون الاسم من [فيلوم Ve-lum] اي شراع، لان متعهدي حفلات الملاعب العامة اعتادوا ان يعلقوا شرعة على طول الشارع المؤدي الى الملعب الكبير [سركس ماكسيموس Circus Maximus] ابتداءً من الفورم حتى هذه البقة. ولهذه الأسباب تكرر [لارنتيا] الثانية في روما.

قام [فاوستولوس] راعي خنازير اموليوس بتربية الاخوين سرّاً؛ ويقول آخرون ^(١٨) علم بتلك من الاول وكان يدخلهم ويساعدهم دون ان يدري به احد. وقبل ايضاً انهما ارسلتا الى اغابي [Gabii] ^(١٩) للدراسة وبرزاً في الاداب وغيرها من فنون الثقافة مما يليق بارومتهما. وانهما سميا [رومولوس ورغوس] من [روما Roma أي الرضع] لأنهما وجدوا وهما يرضعان من أئداء الذئبة على ما تقدم بيانه. وكانت ضخامة جسديهما وجمالهما منذ الحداثة مناسبين لتفوقهما الطبيعي، ولما بلغا أشدهما اثبت مدى شجاعتهما ورجولتهما بمعاناتهما أخطر المغامرات والمهالك. وكان يبدو ان [رومولوس] كثير التروي لا يقدم على شيء قبل التفكير فيه، وان له حكمة رجال السياسة والحكم، وكان يبدو وكأنه خلق ليلقي بالأوامر لا ليتلقاها في كل علاقاته مع الجاورين سواء ما يتعلق منها برعي الحيوانات أو الصيد ولذلك تعلق

(١٧) ايد هذا الأصل اللغوي (فارو de L. L. Varro = 4-7) الذي يشتق كلمة Velabrum من Velo بوصفها مختصر Vehelabrum أو الاستنتاج الثاني يرى انه مشتق من Velum فهو خطأ لاشك فيه. فالعادة المشار اليها [نشر خيمة في الحفلات العامة] سأت قبل تاريخ وجود اسم [فيلابروم] وقت قيام [كاتولوس] بتكريس الكابيتول [إليني: التاريخ الطبيعي ١: ١٩].

(١٨) ربما أحيا هذا أمل نوميتور في العودة الى الحكم. على ان معرفته بالموضع الذي كان الطفلان فيه يفتيان علومهما، وامدادها بالسبب العيش يتناقض تماماً والطريقة التي ادت الى اكتشافهما عندما بلغا أشدهما وهذا اهم جزء من الرواية.

(١٩) احدى اقدم المستعمرات الألبانية تبعد باثني عشر ميلاً الى جنوب شرقي روما ويقول [ديون الهيكارتانسوس] ١٩٠١ انهما درسا هناك الاداب اليونانية وفن الخطابة والتدرب على استخدام السلاح.

بحبهما رفاقهما واتباعهما. وكانا يحترقان ويزدريان خدم الملك ووكلاءه وحجابه، ولا يجدان أي ميزة يمتازون بها عليهما، ولا بهتمان قلامة ظفر بأوامرهم وتهديدتهم. وكانا يقضيان أوقاتهما في المفيد من الأعمال والدرس الكثير، ولم يجدوا في الكسل والتعطل فائدة أو فضيحة. وانصرفا إلى مختلف الرياضات كالمدو والقنص ومطاردة قطاع الطرق، والقبض على اللصوص. وابتغاء المضطهدين والمظلومين من الأذى وسبب مآثرهما هذه اشتهر أمرهما.

نشأ خصام بين رعاة إبقار (نوميتور واموليوس) ولم يحتمل الأخوان رعاة الأخير وضبط مواشيهم باعتداء رعاة الأول منهما فحملوا عليهم واجبروهم على الهزيمة واستعادوا القسم الأكبر من الغنيمة، فغضب (نوميتور) غضباً شديداً، فلم يبالوا به وكانت الخطوة الأولى التي أقدموا عليها بهذه المناسبة ضمها إلى زميرتهما عدداً من العبيد الأقيس والفقراء المدقعين - وهو عمل يعادل المرحلة الأولى للعصيان والثورة. واتفق أن (رومولوس) الشديد التمسك بفرائضه الدينية كان يقدم قرباناً، عندما التقى رعاة (نوميتور) بأخيه (ريموس) وهو مع قلة من أصحابه يقومون برحلة، فهاجموه ودأب قتال بينهم واخذوه أسيراً وجازأ به إلى (نوميتور) وكالوا له التهم جزافاً، لكن (نوميتور) لم يشأ معاقبته بنفسه خشية أن يثير غضب أخيه اموليوس المعروف بقسوته الشديدة، واتصل به وطلب منه أن يأخذ بيده أمر تطبيق العدالة بوصفه أخاً أهانه رعايا خدمه. على أن اهل (أليا) كانوا ناقلين على عمل خدم اموليوس، كما كانوا يمتقدون أن (نوميتور) قد عومل معاملة غير طيبة. وهكذا اضطر أميليوس إلى إبقاء (ريموس) بيد نوميتور ليعمل به ما يحلو له، فجاء به هذا إلى دياره وتزايد إعجابه بشخصية الفتى وجمال أعضائه وقوة جسمه التي لا مثيل لها بين الرجال. وتبين من رجهه آيات الشجاعة ومضاء العقل. وهي سجايا بقيت شامخة غير متصاغرة رغم الظرف العصيب الذي يعانيه صاحبها. ثم بلغته أبناء كل المغامرات والمآثر التي أقدم عليها، وكلها دلائل على ما توسمه فيه. ولا سيما القوة الآلهية التي تقود أولى الخطى إلى اعظم المصائر. وتمكن (نوميتور) من وضع يده على الحقيقة باطاعته فكرة عابرة خطرت بباله عرضاً فدفعته إلى سؤاله بلهجة رفيقة عمن يكون؟ ومن اين جاء؟ فتشجع (ريموس) واجاب قائلاً «لن أخفي عنك شيئاً، اذ يظهر لي ان طبعك اقرب الى طبع الملوك من اموليوس، لانك سمحت بالتحقيق في امري وفحص قضيتي قبل ان تفرض عقاباً علي^(٢٠)، في حين ان اخاك يعاقب قبل أن

(٢٠) البتآن التاليان للشاعر الروماني فرجيل [١٩-٧٠ ق.م. الايباد الكتاب السادس ٥٦٦] وفيهما يصف محكمة قاضي جهنم فيقول «يعاقب أولاً. ثم يسمع الدفاع ويأجل ويرغم الاتهم على الاعتراف. ويفسر القانون ويحوره بالشكل الذي يحلو له». Gmosus hoc shadanthus habet durissima regna Casti- gatque, auditque dolos, subigi il que fateri

يعرف كنه المسألة. كُنَّا في السابق نعتقد نحن التسوامين، بأننا ابنان (لفاوستولوس) و[لارنتيا] خادمي الملك، ولكن منذ أن الصقت بنا التهم واكتشفنا النوايب وحاقت الأخطار بحياتنا هنا أمامك - ونحن نسمع أشياء كثيرة عن أنفسنا، وما يشهد بهذه الحقيقة الخطر الحالي المحدث بنا الآن^(٢١). قيل إن مولدنا يكتشفه الغموض والسِرّ، وأغرب منه تربيتنا منذ الحداثة، فالطيور والوحوش التي اقيمت بيننا هي التي اطعمتنا فاعتدنا بحليب الذئبة ويلقيمت طائر نقار الخشب، ونحن مُضجعون في صندوق صغير ملقى على صفة النهر إن الصندوق مازال موجوداً كما خلفناه وهو مصفح برقائيق من نحاس عليها كتابة كادت حروفها تمحي. وهذه كلها تذكارات حقيقية لأبونا بعد أن نمت وبغادر الدنيا». وبعد أن تأمل (نوميتور) بهذه الأقوال، وبحسابه التواريخ ومقارنتها بمظهر سِنّ الشاب، لم يضعف الأمل الذي راوده، بل أخذ يفكر كيف يتصل بابنته سِرّاً ويحادثها عن هذه الأمور، لأنها مازالت رهن السجين.

ولما سمع [فاوستولوس] بنبأ القبض على [ريموس] وتسليمه إلى [نوميتور] استنجد برومولوس لاتقاده. وصارحه في تلك الساعة بتفاصيل سِرّ ولادتهما وإن كان قبل هذا قد أبدى له تلميحات عنها وكشف ما يكفي الذكي السريع الحاطر للاستنتاج الكثير، ودفعه الخوف والقلق من تأخره في العودة إلى أن يحمل الصندوق ويسرع به إلى [نوميتور] في الحال. إلا أن بعض حراس الملك شكوا في أمره ونظروا إليه بعين الريبة. وأريكتهم استلثهم، فلم يسعه إلا أن يكشف عن الصندوق المخبأ تحت عباءته، واتفق أن كان بين الحراس شخص من الأشخاص الذين شاهدوا القاء الطفلين^(٢٢)، فعرف الصندوق من شكله ونقشه الكتابي. وأدرك الغرض حالاً فأسرع إلى الملك وأخبره بالحقيقة فأدخل فاوستولوس لانتزاع الحقيقة منه. ولم يكن ليحتاج إلى جُلْد، ولم يكن بالرجل الذي يصمد أم التهديد كما لم يلق عنتاً أو اكراهاً فاعترف بأن الطفلين هما في قيد الحياة يعيشان في مكان يبعد كثيراً عن الباء، ويمتھنان الرعي. وأنه قصد أخذ الصندوق إلى [إيليا] التي طالما اشتاقت إلى رؤيته ولمسه بيدها، ليتأيد لها أن

(٢١) لابد وإنهما سمعا حكاية غامضة عن كيفية بقائهما العجيب في قدر الحياة زمان الطفولة. ولهذا استنتج (ريموس) بطبيعة الحال أن الأرباب الذين رعاها هكذا، سينقذونه من الخطر الحالي في حالة ما كانت قصة طفولتهما حقيقية

(٢٢) يبدو هذا مناقضاً لما ذكره بلوتارخ في الاول إذ أفاد أنه يكن شم غير خادم واحد هو (فاوستولوس) الذي استخدم في هذه المهمة الغريبة على أن [بيون الهاليكارناسوسي] يصرح بغير لبس بأن عدداً من الخدم قد شاركوا في العمل.

طفلها على قيد الحياة. وفي تلك الاثناء انتاب [اموليوس] ما ينتاب المضطربين عقلياً فيعلمون إما بدافع من خوف وإما بدافع من ثورة عاطفية، فأسرع يرسل الى [نوميتور] رسولا تربطه به صداقة متينة وزوده بأوامر تقضي أن يعلم من أخيه عن وصول ما يزيد وجود الطفلين على قيد الحياة^(٢٢). فجاء الرسول وشاهد بأمر عينه كم كان [ريموس] قليل الرغبة في ان يحضه [نوميتور] ويضمه الى كفنه. وهذا ما جعله أكثر ثقة في نجاح مهمته ومسماه فنصحهما بمباشرة العمل وعرض عليهما معاونته. ولم يكن الوقت ليسمح لهما بالتردد لو شاءا اذ ان رومولوس كان قد اقترب كثيراً بقوة عظيمة، وراح المواطنون ينضوون تحت لوائه سراعاً بدافع الكره والخوف من [اموليوس] وقسم [رومولوس] قواته الى سرايا، الواحدة منها تعد مائة رجل. وكان كل أمر سرية يحمل قطباً خشبياً شديداً فوقه حزمة من العشب الصغير واللاتين يطلقون على هذه الحزم [مانيبولي Manipuli] ومن هذا جاءت تسميتهم [مانيبولارس Manipulares] لقادة جيوشهم واخذ [ريموس] يثير الناس ويحرضهم على الثورة من الداخل، وشرع يهاجم من الخارج ولم يدرك الطاغية ماذا يصنع واي حيلة يحتال لسلامته حتى قبض عليه وهو في حيرته وقتل.

إن معظم تفاصيل هذه الرواية التي اوردتها [فابيوس]، وديوكليس الهيباريثوسي] وهما على ما يبدو أول من أرحا تأسيس روما، مشكوك فيها بسبب ما يحيط بها من خيال ومبالغة، لكن ينبغي الا ننبذها بكاملها. لو تذكر الناس الى اي حد من الخيال يسمو اليه الشاعر احياناً واذا ما فكر بأن العظمة الرومانية ما كان يتسنى لها أن تبلغ هذه الذروة دون ان يكون للمشيئة الالهية ارادة فيها. ولو لم تساعدها ظروف عجيبة فائقة للعادة.

بعد ان هلك [اموليوس] وعادت الأمور الى الاستقرار والهدوء، لم يشأ الاخوان البقاء في [البا] دون ان يكونا حكيماً، ولا أن يستوليا على الحكم وجدهما في قيد الحياة. فسلما مقاليد الأمور اليه، واکرما والدتهما الإكرام اللائق، وقررا الذهاب والعيش وحدهما وبناء مدينة في الموضع الذي تركابه وعاشا وهما طفلان. وكان هذا أشرف سبب لرحيلهما، وهو يبدو ضرورة لا سبيل لها الى دفعها بسبب التفاف جموع غفيرة من العبيد واللاجئين حولهما فوجدا ان أمامهما سبيلين لا ثالث لهما، إما أن يفرقا الجموع الملتمة ويعودا كما كانا قبلاً، وإما أن يأحدهما للعيش معاً في بقاع أخرى، إن أهالي [البا] لم يرغبوا في ضم هؤلاء اليهم والاختلاط بهم، وبدت نيتهم هذه في قضية خطف النساء وهو عمل لم يأتيه هؤلاء بدافع

(٢٢) ما يعزو بلوتارخ الى [اميليوس] من موقف، لا يمكن ان يقبله العقل والمنطق لاسيما اذا قارناه بالحكاية التي لوردها [ديون: المرجع السالف] بهذا الشأن.

الشهوة، بل بحكم الضرورة والحاجة، اد لم يكن في مقدورهم الحصول على روجات طوعاً. وهذا ما أنبتته الوقائع، فقد أظهروا للنسوة اللاتي خطفوهن اشدّ الرعاية وأعمق الاحترام والتجلة.

لم يمرّ طويل زمنٍ على انشاء المدينة حتى اقاموا ملجأً يلوذ اليه اللاجئون واسموه معبد الرب (آسيلاؤوس Asylaous)^(٢٤) وكانوا يبسطون حمايتهم على كل قادم ولا يردون مستجيراً قط، لا خادماً الى سيده ولا مديناً الى دائنه ولا قاتلاً الى قاضيه متعللين بقرلهم ان هذه البقعة اصطفتها الالهة، ولذلك يمكنهم المحافظة على اللاجئ بقوة النبوة. وغدت المدينة مكتظة بالسكان^(٢٥)، ولم تكن تحوي في مبدأ امرها غير الف بيت على ما قيل... إلا ان هذا سيكون موضوع حديث تالٍ. وانصرفوا الى البناء انصرافاً كلياً، وما لبث أن ظهر شيء من الخلاف حول اختيار المواقع. تغيّر رومولوس ما يسمى الآن (روما كوادراتا) اي روما الربعة وأصر ان يكون موضع اقامة المدينة وحدّد (ريموس) مساحة من الأرض على جبل (آفتنين Aventine) حصّنته الطبيعة خير تحصين وأطلق عليه (ريمونيوم Remoniuam) فنبأ باسمه إلا ان اسمه الحالي (ريجناريوم Rignarium)^(٢٦) واستقرّ الرأي أخيراً ان يحسما خلافهما باستخارة الطير وهي سائحة وبأرجحة^(٢٧)، فوقفوا في موضعين متباعدين. وقيل ان (ريموس) شاهد ستّة من النسور وان رومولوس شاهد ضعف هذا العدد، وقال آخرون ان ريموس كان صادقاً في عدده، لكن (رومولوس) كذب في عدد ما شاهد منها، إلا ان العدد اصبح اثني عشر عندما وصل ريموس اليه، ومن هنا جاءت عادة الرومان في مراقبتهم النسور أكثر من سواها عند استخارة الطير.

وروي (هيرودورس پونتيكوس) ان هرقل كان يستبشر كثيراً عندما يسبح له الطائر وهو يهتم بعمل ما. لأن النسور هو أقل الحيوانات اذى لا يقرب الزرع النابت، ولا ثمار الشجر ولا

(٢٤) لا يعرف على وجه التحديد من يكون ربّ اللاجئين هذا، فبعض الشراح ومنهم [داسييه] يقول انه [اپوللو] اما [ديون] فيخبرنا بأن الموضع الذي كان يقوم عليه الملجأ في زمانه، قد كرس (لهيوتير)، في مبدأ الامر لم يقبل رومولوس) بدخول المتجشّين والخارجين على القانون، إلا انه اعطاهم مرتفع (ساتورينيوس) الذي سمّي فيما بعد كاپيتولينوس ليتخذوه مسكناً. [ليفي ج ٨ ١ و ٥].

(٢٥) معظم الطروديين (ولم يكونوا يزيون عن خمسين أسرة زمن أغسطس) احتاروا أن يربطوا مصائرهم بمصائر الآخرين كما هذا هذوهم سكان پللاتيوم وساتورينا وهما قصبستان جوار [ألما].

(٢٦) لا نجد ذكراً للاسمين اللذين وردا هنا عند اي مؤرخ أو كاتب ويذكر (فستوس) ان قمة جبل [آفتنين] كانت تدعى [ريموريا] منذ ان عزم [ريموس] على بناء المدينة هناك إلا ان [ديون] يتكلم عن جبل [آفتنين]

وعن [ريموريا] أنهما محلان مختلفان ويزعم [ستائس] ان [ريموريا] هي بلدة قريبة من روما. (٢٧) ليفي ج ٨ ١، ١٢.

الماشية وهو يقتات ابداً على الجيف والرخم. ولا يفترس ولا يؤذي كائناً حياً، واما عن بني جنسه الطير، فهو لا يمسّ أحداً منها ولو كانت ميتة، وكأفأ هي من فصيلته^(٢٨)، في حين ترى العُقبان والبومة والصقور تأكل وتقتل بعضها بعضاً أو كما يقول اسخيلوس^(٢٩): «أي من الطير يكون طاهراً إذا ما افترس من بني جنسه؟».

زد على هذا ان سائر أحاس الطير الأخرى كثيرة الملازمة لنا لا تغيب عن انظارنا ولكن النّسور قليلاً ما تعرض نفسها للرؤية. ويندر ان تجد رجلاً رأى صغار هذا الطائر، وندرتها وقلة ظهورها أدّى ببعضهم الى القول أنها تأتي من عالم ثانٍ مجهول، مثلما يعزو الدجالون اصلاً لكل الأشياء التي تكون الطبيعة ولا هم مصدرها.

عندما انكشف الغش لرعوس استنشاط غيظاً^(٣٠). وبينما كان رومولوس يروم الخندق المقرر ان يكون فوقه اساس سور المدينة، تعتمد احداث خلل في جانب من العمل وعوق أخريس، وأخيراً بينما كان ينطّ فوقه مستهتراً مستخفاً، قيل ان رومولوس قتل به^(٣١)، وقيل لا بل سيلير Celer أحد اصحابه هو الفاتك، فخرّ صريعاً وحدث اشتباك قتل فيه [فاوستولوس] و[بلستينوس Plistinus] الذي عاون على تربية (رومولوس) وهو أخُ [فاوستولوس] كما ورد في الحكاية. وعلى أثر ذلك هرب [سيلير] الى توسكانيا، والرومان يطلقون اسمه [سيليرس] على أسرع العدائين. وقد لُقّب [كوينتوس ميتلوس Quintus Metellus] «سيلير» لأنه هيأً بمناسبة تشييع جثمان ابيه عرضاً عاماً للمصارعين - في غضون ايام قليلة، فكانت سرعته مصدر عجب.

بعد ان دفن رومولوس اخاه مع ابيه بالتبني في جبل [ريمونيا Remonia] باشر في بناء

(٢٨) لا نعتقد ان دارسي طبائع هذا الحيوان يوافقون بلوتارخ على رايه هذا. مع ان الجبن والخوف يدفعان السور على تفضيل الجيف الا أنّ طباع الضواري فيها تدفعها أحياناً الى مطاردة الأحياء من الحيوان. هذا الى أنّ ندرة هذه الطيور الجارحة هو برهان آخر يعزّز افتقار هذه القصة الى الصحة.

(٢٩) «المضروعون» ٢٢٦.

(٣٠) ليبي ج ١، ٢:٧.

(٣١) اختلف الشقيقتان حول موضع المدينة الجديدة. فأحالا الأمر الى حنهما منصح بأن يستخيرا. فكانت النتيجة لصالح [رومولوس] وقرر أن تكون هضبة (بالاتيا) موقعاً البناء وانقسم البياؤون الى فريقين مختلفي الرأي عندما قفز [ريموس] من فوق الى المندق وهو يقول ساخراً: «هكذا سيقفز العدو من فوق» وهنا اصابه (جيلير) بضربة قاتلة وهو يقول «هكذا سيصد ابناء مدينتنا صولة العدو». وتقول المصادر ان (رومولوس) حزن حزناً شديداً على شقيقه وكاد يخغ نفسه لو لم تهل [لارنسيا] دون ذلك. ويقول [ديون] ان الرومان قفزوا من فوق العدار عندما تمّ بناؤه في حين ان ذلك يشير بالتأكيد الى الخط الدائري الذي احفروا ليس الا سجد بلوتارخ هنا يخلط بين قصتي موت (ريموس) اللتين اوردهما (ليبي) بشكل منفصل وان ذكر ان قصة موته بيد (رومولوس) اثناء نشوب القتال هي الارجح والاكثر شيوعاً.

المدينة ويحث يطلب من توسكانيا^(٣٢) رجالاً يرشدونه على اسس من الطقوس المقدسة والشرائع المدنية، الى المراسم التي ينبغي مراعاتها، والأحكام الدينية التي يجب اتباعها. فقاموا أولاً بحفر خندق مستدير حول ما هو الآن (الكوميسيوم)^(٣٣) وساحة الاحتماع وفيها القوا باحتفال مهيب اول ثمار كل الاشياء التي هي إما جيدة بحكم العادة، او ضرورية بحكم الطبيعة وأخيراً تناول كل رجل قطعة صغيرة من تربة ارضه والقيت دفعة واحدة^(٣٤) وأطلقوا على هذا الفور اثناء قيامهم بذلك اسم (موندس Mondus) أي السماء وبعد أن جعلوه مركزاً؛ خططوا حدود المدينة دائرة حوله ثم ركب المؤسس شجرة نحاسية في رأس محراث وربط في نير واحد ثوراً وبقرة^(٣٥) وساقهما بنفسه وشقّ خطاً عميقاً حول تلك الحدود، وكان واجب الذين يتبعونه ملاحظة كل التراب الذي ينقلب الى الجانب الخارجي ورده الى الداخل نحو المدينة وعدم ترك اي قطعة منه خارجها. وبهذا الخط رسموا مكان السور، وسموه اختصاراً (پوموريوم)^(٣٦)؛ أعني پوستموروم Postmorum أي ما بعد السور، أو ما يليه. وفي المواضع التي تقرر احداث ابواب المدينة رفعوا الشجرة النحاسية من رأس المحراث وساقوا الفدان بدونها تاركين فسحة غير مشقوقه، اذ لو اعتبروها مقدسة أيضاً، لما تمكنوا من السماح بدخول وخروج ضروريات الحياة منها واليها بحرية، وبعض هذه الضروريات غير طاهرة بذاتها. والأستطرا في الخطيئة.

واما عن اليوم الذي بوشر فيه ببناء المدينة فهناك إجماع بين الكتاب، وهو اليوم الحادي والعشرين من نيسان الذي يقدسه الرومان في كل سنة ويطلقون عليه اسم «يوم ميلاد

(٣٢) يخبرنا [فسستوس] ان للتوسكانيين تقليداً حول ما يجب اتباعه في مراسم هند بناء المدن والمباني والاسوار والابواب. وهم يطلبون ارشادهم الى نوع الطقوس التي يجب مباشرتها من نبوة (تاكيس) الذي قيل ان (عطارد) كان معلمه.

(٣٣) هي ساحة مجاورة للفورم. فيها تعقد الاجتماعات العامة. والموندوس اي مركز العرافة في المدينة هو مما يلي پالاتينا - انظر ما بعده.

(٣٤) (أوفيد) لا يقول انها حفنة تراب جاء بها كل من بلده، بل حفنة تراب جاء بها كل واحد من عدد جاره. وهي اشارة الى ان روما لن تثبت أن تفخض لعكمها الشعوب المجاورة لها. الا أن [ايسيدورس ٢.٢٥] يرى ان القادم أولى الثمار مع حفنة تراب في الخندق إنما يقصد منها تذكير رؤساء المستوطنات بان اول واجب هؤلاء هو تومير كل اطايب الحياة لآبناء وطنهم والمحافظة على الاتحاد ولسلام بين اقوام يتقاطرون من مختلف ارجاء العالم ليصيروا كتلة واحدة وعصبة لاتنفصم عراها.

(٣٥) اشارة الى الحصوية. وأما رد التراب الى الداخل المدينة فيعني ان المدينة ستبقى خالدة ولن يحل بها الخراب.

(٣٦) أو پوميريوم أو موروم، وتعني استناداً الى ليفي. فسحة غير مسكونة بين السور وبين أقرب البيوت هي الداخل عرضها مسار تلك الفسحة التي تترك خارج السور. ويحرم زراعتها بحكم القانون

الوطن»، وقيل انهم لم يكونوا في مبدأ الأمر يضحون في هذا اليوم بالذباح، اذ وجدوا هذا اليوم الذي ولد منه وطنهم جديراً بالبقاء طاهراً لا تشينه قطرة دم واحدة، غير انه كان يوحد قبل انشاء المدينة عيد للرعاة وأصحاب المواشي يحتفل به في مثل هذا اليوم ويدعى (باليليا Palilia) ^(٣٧) ان الأشهر اليونانية والرومانية تكاد لا تتفق فيما بينها قط. والمقول الشائع ان اليوم الذي شرع فيه رومولوس بالبناء هو الثالث عشر من الشهر بالتأكيد وقد صادف فيه كسوف شمسي ^(٣٨). وذكروا ان [انتيمachus (Antimachus) الشاعر التياني Teian شاهدته وكان ذلك في السنة الثالثة من الاولبياد السادس ^(٣٩). كان للفيلسوف [فارو (Varro) المطلع اطلاعاً عميقاً على التاريخ الروماني صديق اسمه [طاروطيوس (Tarrutius) ^(٤٠) الذي كان الى جانب معرفته بالفلسفة والرياضيات قد درس طرق استخراج الطوالع والأزياج الفلكية لمجرد حب الاطلاع واشتهر بتبحره في هذه الصناعة مما جعل صديقه [فارو يطلب منه استخراج طالع [رومولوس] الى حد أول يوم وأول ساعة، وان يعمل حسابه على ضوء وقائع حياته العديدة التي هو على بينة منها. وان يقوم بهذا مثلاً يحلّ مشكلاً هندسياً فعلى حدّ قوله أن كلاً من الكشف عن مستقبل امرءٍ بمعرفة يوم ميلاده، ومن استخراج يوم ميلاده بما يعلم من وقائع حياته هما مما يمتان الى علم واحد، فليل (تاريتوس) المهمة وتأمل أولاً في أعمال الرجل والأخطار التي حلت به وزمن حياته وكيفية موته ثم قارن كل هذه المعلومات بعضها ببعض واعلن بكل ثقة واطمئنان ان رومولوس حبلت به امه في السنة الأولى من الاولبياد الثاني ^(٤١) في الساعة الثالثة بعد مغرب شمس اليوم الثالث والعشرين في الشهر المصري المسمى [خوياك (Choeac) وفي ساعة الحبل به كان هناك كسوف كلي ^(٤٢) واما

(٣٧) الباليليا أو عيد باليس ربّة القطعان. ويسمى احياناً پاريليا من اللفظة اللاتينية [پاريري] اي التقدمة. لأن الصلوات كانت ان ذاك تكلّى من أجل إخصاب الأعنام. ويقول (أوفيد) ان الرعاة يحيون بهذه المناسبة مهرجاناً ليلياً عظيماً يختمونه برقصات حول النار التي يشعلونها في الحقول من أكوام القش.

(٣٨) هوكسوف ٧٥٣ ق-م الثابت فلكياً.

(٣٩) حصل في العام ٧٥٤ ق-م.

(٤٠) كان هذا المنجم البارع وثيق الصلة بـ (شيشرون) لكن لما لم يحصل كسوف في اليوم الذي عينه فليس في امكاننا ان نقرّ له باية براءة. ان الأشهر المصرية التي لا تتفق بداياتها تماماً مع أشهرنا استخدمت فيما يلي اعتباراً ليلابها التي اتخذ نظامها الفلكي قاعدة.

(٤١) اي في العام ٧٧٢ ق-م.

(٤٢) لم يكن ثم كسوف كلي في السنة الأولى من الاولبياد الثاني. بل حصل في السنة الثانية منه فان كان الحبل بـ (رومولوس) قد وقع في السنة التي ذكرناها هاته يتفق والراي المجمع عليه بأنه كان ابن ثمانى عشرة سنة عندما باشر ببناء روما. وهذا هو رأي (كاتو) يسانده في ذلك كل من [ديون] و[سولينوس] و[يوسيبوس] وعدد كبير من المؤرخين المتأخرين والمعاصرين. في حين نجد كلاً من [فارو] و[شيشرون] يثبتون الحدث في السنة التي سبقت.

ميلاده فكان في الحادي والعشرين من [توت Toth] = ايلول في حوالي شروق الشمس، وكان أول صخرة وضعها في بنيان روما - اليوم التاسع من شهر [فارموتي Pharmuthi] = نيسان : بين الساعة الثانية والثالثة منه. هؤلاء المنجمون يرون ان لطالع المدن اوقاتها الثابتة المعينة كما كان الشأن في طوابع الناس، ويكون بالامكان جمعها والتنبؤ بها من مواضع النجوم وارصادها ومعرفة ما يتعلق بها منذ زمن بنائها... لكن هذا البحث واشباهه قد لاتلذ القاريء طرافتها وغرابتها قدر ما تضجره بخيالها ومبالغاتها.

بعد ان بنيت المدينة قام رومولوس باحصاء كل القادرين على حمل السلاح وتنظيمهم في كتائب عسكرية كل كتيبة تضم ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس^(٤٣)، وأطلق على الكتيبة [ليجيون Legion] لأنها كانت تتألف من الصفوة المنتخبة من أشد المحاربين. وسمى باقي الشعب [بالعامة]. وانتخب مائة من ابرزهم ليكونوا مستشارين وسأهم [پاتريشيان. (آباء) Patricians]^(٤٤) وأطلق على مجلسهم [سنات (مجلس الشيوخ) Senate]. وقال بعضهم ان الپاتريشيان سمو هكذا لكونهم ابناء لاهناء شرعيين. وقال آخرون لا بل لكونهم قدموا الدلائل القوية على ان آباءهم ليسوا من الخليط المجهول، والصعاليك الذين تدفقوا الى المدينة^(٤٥) في اول أمرها، ولم يكن بإمكانهم اثبات بنوتهم وأنسابهم. وزعم آخرون ان الصفة جاءت من [الحماية] وهي اللفظة التي يطلقونها على «عمل حماية الضعيف». ويردون أصلها الى [پاترون Patron] وهو اسم احد أولئك الذين جاؤوا مع [إفاندر Evander] اعظم محام ومدافع عن الضعفاء والمضطهدين. ولعل اقرب التعاليل احتمالاً هو الآتي: لما رأى رومولوس ان الواجب الأساسي لأغنى الناس هو الرعاية الأبوية والاهتمام بشؤون افقرهم، وان من واجب العامة ألا يكرهوا أو يترددوا في تكريم سادتهم بل لن يحبوهم ويحترمهم وان يعتبرهم ابناء لهم وينادوهم بهذا اللقب، فقد إرتأى ان يطلق عليهم اسم [پاتريشيان]. بينما كانت الاقطار

(٤٣) وبمقابل هذا يعلمنا [ديون] بأن المستوطنة كلها كانت تضم (٢٢٠٠) رجل وان [رومولوس] قسمهم الى ثلاثة اقسام متساوية وأطلق على كل قسم اسم قبيلة) أو (ثلاث) يقوم على رأس كل قائد Prefect أو تريبيون Tribune. وقسمت القبيلة الواحدة الى عشر أفخاذ (كيوراتي Curiae) ان عدد البيوت أو الاكواخ الذي لم يكن يتعدى الالف الواحدة يقوم دليلاً على زعم (ديونيسيوس) هذا. إلا ان الصعاليك الذين دخلوا لاجئين واستقطنوا والذين قد يكونون كثيري العدد على ما يهتمل - لم يصبوا مع المستوطنين الاصليين وان منحوا فيما بعد حق المواطنة.

(٤٤) الملك لا يفتقر هؤلاء الرجال المائة. بل تقوم كل قبيلة باختيار ثلاثة شيوخ، ويقوم كل كيوربي من الثلاثين باختيار عدد مماثل فيكون المجموع (٩٩) ولم يمين (رومولوس) إلا الشيخ المائة وهو رئيس أو أمير مجلس الشيوخ والحاكم الأعلى للمدينة عند غياب الملك في حملة عسكرية.

(٤٥) انظر رأياً مختلفاً لديون الهيكرباسوسي. (٤٢) وأنظر لبقّي أيضاً.

الأخرى تلقب شيوخها بالقاب الأسياد العظام. وهكذا تجدد الرومان قد اتخذوا لقباً أكثر شرفاً وأقل ابهة وهو « باتروس كونسكربتيتي [Patres Conscripti] »^(٤٦) وكان في مبدأ الأمر [باتروس] فحسب ثم اضافوا اليه اللقب الثاني في زمن تال، وبهذا اللقب الأكثر جلالاً تميز الشيوخ عن العامة، وانفصل النبلاء عن سواد الشعب بطريقة أخرى أي بتسمية الأولين [باترون]»^(٤٧) وتسمية الآخرين الاتباع أو الموالي، وبهذه الوسيلة أوجد علاقة حب وصداقة ما بين الفشتين أثمرت قدراً كبيراً من العدل في التعامل فيما بينهم، فالباترون هو مستشار مواليه في القضايا القانونية ومحاميهم في سوح القضاء والمحاكم، ومجمل القول. شاورهم ومعاونهم في كل المسائل. والموالي بدورهم يخدمون الباترون لا بتقديم الاحترام والتكريم، بل بمساعدتهم المادية في حالة افتقاره، كصهر بناتهم بالمهر أو دفع الديون عنهم^(٤٨)، وليس من قانون أو قاض يجبر الباترون على الشهادة ضد تابعه، ولا التابع ضد باترونه، وبعد مرور حين من الزمن وجد أن أخذ المال من الموالي مما لا يشرف قط طبقة الباترون فأبطلت العادة مع بقاء الواجبات الأخرى سارية... وفي هذا القدر الكافي...

في الشهر الرابع لبناء المدينة، وقعت حادثة خطف النساء واغتصابهن^(٤٩) وهذا ما يزعمه [سابيوس]. وأما آخرون فيقولون أن رومولوس نفسه وهو محارب عسكري ارادها أن تكون علة لشن الحرب، ربما تحدوه في هذا نبوءة جعلته يؤمن أن رفعة شأن روما وعظمتها تتوقفان على الإقادة من الحرب ولهذا تخرش أولاً [بالسابين Sabine]، ولم ينهب منهم غير ثلاثين عذراء وهو عدد قليل قد يصلح ذريعة للحرب، من كونه رغبة النساء فحسب، على أن هذا

(٤٦) أعني الآباء المسجلين. والمنحدرون من هاتين الطبقتين ميزوا فيما تلا من الزمان باسمي الآباء الكبار Patre Majorum والسادة الأدنى Minorum Gantium.

(٤٧) هذه الأبوة توازي بقوتها رابطة الدم والتحالف. وقد كان أثرها عجيبة في استمرار الوحدة والرابطة الوثقى بين الرومان طوال (٦٢٠) عاماً لم يقع خلالها نزاع أو خصام أو تنابز بين الآباء والأبناء حتى في الأيام الجمهورية حيث كثيراً ما كانت طبقة العامة تنمرد على اصحاب السلطة العليا في المدينة. بالأخير أخل بهذا الانسجام تلك الفتنة الكبرى التي اثارها [كايوس كراخوس] (انظر السيرة). وكان التابع الذي لا يؤدي واجبه ازاء (باترونه) يعدّ خائناً خارجاً على القانون ويستهدف الي أن ينفذ به أي شخص عقوبة الموت (ديون) ومما يجدر ذكره هنا هو أن اختيار الـ(باترون) لم يكن قاصراً على أفراد العامة. بل تعداهم الى المدن والبلد التي أخذت تضع نفسها تحت هذا النوع من الحماية بمرور الزمن.

(٤٨) ويضيف ديون قوله (٤:٢) انهم يدفعون عنهم مصاريف الدمار التي يخسرونها ويدفعون عنهم كذلك اجور محاميهم وغير ذلك.

(٤٩) ينقل (ديون) عن (كيلليوس) ان ذلك وقع في السنة الرابعة ويؤكد (فاستي كايوتوليني) ذلك بإثباته تاريخ الحروب مع الكيانيسيين التي وقعت بعد هذه الحادثة مباشرة. ويذكر (ليفي) أيضاً (٩١) ان الرومان صاروا يشكلون من القوة ما أهلهم لمقارعة جيرانهم.

القول ليس الأرجح. والذي يبدو، ان رومولوس وجد مدينته تكتظ بالوافدين من الأجناب والأخلاق وقليل منهم من كان ذا زوج وان هذا المجتمع الذي يتألف معظمه من فقراء، منقطعين، سيدب فيه الانحلال حتماً ويسوده الإنقسام والتناحر ولن يبقى على تلاحمه طويلاً كما أمل ايضاً ان تهدأ خواطر النساء المخطوفات بعد حين، ليجعل من الاعتداء تعلقة للتحالف والتبادل التجاري مع (الساين) وعلى هذا الاساس قام بالمغامرة هكذا:

أولاً أعلن انه اكتشف هيكل أحد الارباب مدفوناً تحت أطباق الأرض^(٥٠) ويسمى [كونسوس Consus] وهو إما آله الشورى (لأنهم مازالوا يستعملون للشورى كلمة [كونسيليوم Consilium] ويسمون كبار حكاهم [كونسول Consule] اي مستشاراً وإما أن يكون [نبتون الفارس]، ذلك لأن الهيكل أبقى مستوراً في الملعب الأكبر^(٥١) لا يكشف للجمهور إلا بمناسبة سباقات الخيل. ولا يزيد آخرون على القول ان هذا الرب شاء ان يجعل معبده مدفوناً تحت الأرض لأن من طبع المشورة ان تكون سرية مكتومة. عند اكتشاف الهيكل أعلن رومولوس انه قرر أحياء يوم حافل لتقديم قربان، مشوعة بالدب وغشليات للعموم، من قبيل الترقية والتسرية، فتقاطرت جموع غفيرة الى المدينة وجلس رومولوس في صدر الملعب يحف به عظماء قومه ونبلاؤهم متشجاً بالأرجوان، وكانت اشارة الانطلاق هي نهوضه وجمع اطراف رداءه والقائه على كتفيه. ووقف رجاله على اهبة الاستعداد شاكي السلاح واعينهم شاخصة اليه وانظارهم مركزة به ولما أعطى الاشارة صاحوا صيحة هائلة وامتشقوا سيوفهم ووقعوا على بنات [الساين] يخطفوهن، وكى الساين الأديار بدون مقاومة. وقيل ان ما سبي لايزيد عن الثلاثين^(٥٢)، وسميت اسماء [اركيبوري Curiee] الثلاثين بهن إلا ان [فاليريوس أنتياس Valerius Antias] يرفع عدد المخطوفات الى خمسمائة وسبع وعشرين، ويزيد [يولا Julia]^(٥٣) العدد الى ستمائة وثلاثة وثمانين، وخير عذر يمكن ان يتمسك به رومولوس في عمله هذا هو ان المخطوفات كلهن كن عذباوات. اي ان اتباعه لم يتعرضوا للمتزوجات باستثناء واحدة وهي [هيرسليا Hersilia] وهذه خطفت بحض خطأ ولم يعرف حقيقة أمرها، هذا يدل على أنهم سبوهم لا بدافع الشهوة، بل لايجاد تحالف ورابطة جوار

(٥٠) ابقى المذبح مدفوناً اشارة الى عمل الطبيعة الففي في انتاج القمح والخضار لان (كونسون) هو الرب الايطالي القديم للزراعة.

(٥١) أعني في القصر. حيث بنى (اتكوس مارجيوس) فيما بعد الملعب الكبير لسباق الخيل والمجالات.
(٥٢) رواية ليفي: ٢.١، تورد هذا العدد أيضاً. إلا انه كان يأخذ برأي [فاليريوس أنتياس] في أماكن أخرى.
(٥٣) هو ابن (جوبا) ملك الموريتانيين جيء به الى روما وهو صبي وقد وقع في الأسر، فدرس العلوم الاغريقية واليونانية واصبح مؤرخاً شهيراً. ويذكر ليفي أن أغسطس اعاد اليه جزءاً من أملاك ابيه وزوجه (كليوباترا) بنت مارك انطوني. ويتفق (ديون) مع ليفي في هذا.

باصم الوسائل وامتنها. وقال بعضهم ان [هوستيليوس Hostilius] تزوج هرسيليا هذه، وهو من ابرز رجال الرومان، وزعم غيره ان رومولوس هو الذي تزوجها واحببت له بنتاً سميت [برما Prima] أي الأولى لأنها بكره، وابنا سُمي [أفيلْيُوس Avillius] بسبب تعلق المواطنين الشديد به في ذلك الحين. ثم تغير اسمه بعد احقاب الي [بيلليوس] هذا ما يرويه [زيودوتوس Zenodotus] الطروزيني وكثيرون لا يتفقون معه في ما ذهب.

قيل انه كان يوجد كثير من الأراذل والدهماء بين الذين ساهموا في خطف العذارى، وشوهدت طائفة تحمل أنسة فاقت الأخريان جمالاً وجاذبية ورشاقة، فأعترضتهم زمرة من سراتهم وحاولت انتزاعها فاحتجوا قائلين انهم يحملونها الي [تالاسيوس Talasius] وهو والحق يقال شابٌ فتّي لكنه غير معروف بصفات الشجاعة واللباقة. ولما سمعوا منهم ذلك ايدوهم واستحسنوا ما يفعلون بهتافات عالية، وانضم بعض الزمرة الي هؤلاء الدهماء طرباً ولعباً وراحوا يهتفون باسم [تالاسيوس]. من هذه الحادثة نشأت عادة عند الرومان ما زالت متبعة الي يومنا هذا فهم في حفلات اعراسهم، يتنادون بلفظة [تالاسيوس] بوصفها الكلمة التي تقوم مقام [العرس]. مثلما هي [هيمينايوس Hymenas] لدى الأغريق. لكنهم يقولون أن تالاسيوس هذا كان سعيداً للفاية في زواجه إلا أن [سكتوس سيلا Sextius Sylla] القرطاجني وهو رجل لا تعوزه سعة الاطلاع ولانفاذ البصيرة قال لي ان رومولوس نطق بهذه الكلمة كإشارة لبدء عملية الاختطاف، ولذلك هتف بها كل من ظفر بفتاه لنفسه ومن هنا جاءت العادة في الأعراس. لكن معظم الكتاب (ولاسيما بوبا) يرى ان الكلمة كانت تستخدم للمتزوجات حديثاً كوسيلة لمشهن على القيام باعمال البيت على خير الوجوه، وتطلق كلمة [تالاسيا Talasia] على الغزل كما نلفظهن نحن باليونانية^(٥٤)، لأن الالفاظ اليونانية كانت شائعة وقتذاك ودونها شيوعاً الالفاظ الايطالية، وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان الرومان في ذلك الزمن يستعملون كلمة [تالاسيا] بالمعنى الذي تدل عليه عندنا، فعلى المرء اذن ان يبحث عن سبب آخر لهذه العادة. اذ عندما صولح السابين بعد الحرب التي نشبت بينهم وبين الرومان، اتفق على شروط بخصوص معاملة نسائهم؛ وهي ان لايجبرن على اداء اعمال منزلية شاقة فيها صفة العبودية ما عدا الغزل. لذلك جرت العادة ان يردد كلمة تالاسيوس اولئك الذين يقدمون يد العروس أو يصحبونها أو يكونون حاضرين وقت الزفاف - للتذكير بان العروس لن تقوم من الآن فصاعداً بعمل إلا الغزل واستمر تطبيق العادة التالية الي هذا اليوم

(٥٤) من لفظه (تالروس) الاغريقية. والملاحظ ان كل سيدات روما يحكن ثياب ازواجهن وأولادهن حتى أغسطس نفسه كان يشهر مرتدياً الثياب التي تصنعها روحه وآل بيته.

وهي ان العروس لا تتحطى عتبة باب زوجها ، وانما تُرفع فوقها رفعاً دون ان تطأها ، وهي تذكرة بأن عذارى السابين كن قد حملن الى بيت الزوجية قسراً ولم يدخلن بمحض اختيارهن . ويقول بعضهم ايضاً أن عادة فرق شعر رأس العروس من الوسط بسنان رُمح ، تذكرة بأن مبدأ زواج الرومانيات كان بالحرب والقتال ، وهو ما اشتبهتُ في شرحه في كتابي « المسائل »^(٥٥) .

وقعت عملية الاختطاف هذه في الثامن عشر من شهر [سكستيليس Sextilis] الذي يدعى الآن [اغسطس: آب] وفيه تقام احتفالات [الكونسواليا Consualia]^(*) .

كان السابين قوماً محاربين اشداد كثيري العدد . عاشوا في قرى غير محصنة وهو على ما يظنون يناسب مستعمرة ليقديمونية^(٥٦) جريئة لانهاب أهدأ ولما وجدوا انفسهم مكتوفي اليد بتلك الرهائن النسائية التي تضمن سكوتهم وحسن سلوكهم ، ولشدة تعلقهم ببناتهم أتروا ارسال سفراء الى رومولوس يحملون طلبات عادلة منصفة وهي ان يعيد اليهم بناتهم وينهى اثر هذا الاعتداء ، ثم يسعى بالاقناع والوسائل الشرعية الى انشاء علاقة صداقة بين الشعبين . لكنه ابى النزول عن البنات وأقترح عليهم الدخول في حلف . وهنا أخذ بعضهم يتردد وانثوا يتداولون فيما بينهم ولم يقطعوا برأي ، إلا ان [اكرون] ملك [سيوننسيا Coeninen-sia]^(٥٧) وهو رجل جريء ومحارب مقدم ، مدفوعاً بما يكفه من حسدٍ طويل الأمد لرومولوس لماثره العظيمة ، ولاسيما لما وجد خصمه هذا قد علا شأنه وعظم خطره بمغامرة خطف النساء ، وان الاقتصاص منه أمر واجب ، فأعلنها حرباً على رومولوس وزحف بجيش جرار فاستعد رومولوس له^(**) ، ولما تقابل الجيشان وقفاً وهما شاكيا السلاح لا يلتحمان وانما فضلاً مبارزة فردية . فنذر رومولوس اذا تغلب على خصمه ، ان يحمل بنفسه سلاح المغلوب ويقربه الى [جوبتر] زيادة في التعظيم . ونزل حومة الوغى وقهر عدوه ثم تلت ذلك معركة هزم بها جيش الخصم المهزوم واستولى على مدينته ، لكنه لم يلحق اي اذى بسكانها وانما امرهم بتقويض بيوتهم . وان يتبعوه الى روما فيمنحهم كل حقوق المواطنة^(٥٨) . الحق يقال ان عظمة روما

(٥٥) في الفقرة المشار اليها حذف بولتارخ واحدة من اهم الملل الطبيعية المعزوة الى (فستوس) وهو ان الرمح بوصفه شعار السلطان قد يفرض على المرأة واجب الخضوع لبعليها (الاخلاق . السؤال رقم ٨٧) .

(٥٦) عيد الحصاد (من كونسوس Consus) .

(٥٦) ومن هؤلاء عدد كبير من اللقديمين هربوا تخلصاً من قوانين ليكورغوس الجائرة هتركوا سبارطه واستقروا في ايطاليا وأخذ عنهم المواطنون الاصلاء عاداتهم . [هذا كما يبدو عند ديون ١١٢] .

(٥٧) سكان لاتيوم Latium القديمة .

(**) ليقي ١٠١ .

(٥٨) يختلف بولتارخ مع المؤرخين اختلافات كثيرة وبعضها جوهري ، حول تفاصيل الحملة . وليس في الامكان ايراد هذه الاختلافات وتمحيصها ومضاماتها في حاشية تعريف مقتضبة . فلتراجع عند ليقي وديون .

وسؤدها لم يكن مديناً لشيء، قدر ما هو مدين إلى مزجها وتوحيدها كل ما تفتحه من البلدان. ولأجل أن يبرّ رومولوس بنذوره [الجويتر] بأحسن ما يمكن ولأجل أن يجعلها مصدر استمتاع لأهل المدينة عمد إلى قطع بلوطة باسقة وجدها نامية في المعسكر فهندمها على شكل قشال، ثم كساها دروع [أكرون Acron] كما يكتسبها المحارب ولم أطراف ثيابه على جسده وحمل التمثال وشعره يتماوج خلف أذنيه في النسيم بلطف أسرّ واسنده على كتفه الأيمن بصورة عمودية ثم ساربه وهو ينشد أناشيد النصر يتبعه كل جيشه فاستقبله الأهالي بهتاف الإعجاب والفرح. وكان موكب ذلك اليوم المثل المحتذى لكل مواكب النصر الرومانية التالية.

هذه الخشعة المنحوتة أوجدت نوعاً جديداً من القربان [الجويتر فيرتيريوس] (جاءت من فيريري Ferre)^(٥٩) وتعني باللاتينية: الضرب) لأن رومولوس رجا الآله أن يضرب عدوه ويهزمه. وسميت الغنائم [أوبيما Opima]^(٦٠) أو الأسلاب الملكية، على زعم [فارو] لأنها كانت قيمة جداً، كما تدل عليه كلمة [أوبيس Opes] وإن يذهب الظن بالمرء إلى أنها مشتقة من [أوبوس: Opus] أي «عمل»، ودرجت العادة أن لا يخلع شرف إعطاء «الغنائم الملكية» إلا على قائد الجيش الذي يقتل بيده قائد جيش العدو^(٦١). ولم ينل مثل هذا الشرف غير ثلاثة من قادة الرومان أولهما رومولوس لقتله [أكرون] السينيني، وثانيهما [كرونيوس كوسوس Cornelius Cossus] لقتله [طولنيوس Tolumnius] التوسكاني^(٦٢)، وثالثهما [كلوديوس مارجللس Claudius Marcellus] لبطشه به [فيريدومارنوس Viridomar-]

(٥٩) هذه الكلمة لم تكن مستعملة في ذلك الحين والأرجح أنها مشتقة من لفظة Ferre وهو الضمّل. لأن رومولوس حمل بنفسه الدروع إلى ميكل جويتر. أو لعلها على أغلب الاحتمال مشتقة من الكلمة الأعريقية فيرترون التي يفسرها ليفي (١٠:١) باللاتينية Ferculum ومعناها غنيمة حرب.

(٦٠) فستوس يشقّ أوبيما من كلمة Ops وتعني «الأرض وثرواتها» و Opina spolia بحسب رأي الكاتب تترجم به الأسلاب الثمينة. ولم تكن كلمة opus كثيرة الاستعمال في ذلك الحين مثل كلمة Ferre على أغلب الاحتمالات.

(٦١) هذا ما أثبتته ليفي حول الموضوع كذلك. إلا أن [فارو] الذي ينقل فستوس عنه، يخبرنا أنه ربما كان للروماني الحق في «الأسلاب الثمينة» حتى ولو كان جندياً بسيطاً miles manipolans شريطة أن يقتل قائد جيش العدو ويستولي على شبكة سلاحه. ولهذا نجد (كرونيوس كوسوس) يفتنمها عند قتله (تولميوس) ملك التوسكان ولم يكن أكثر من (تربيون) تحت أمرة (اميليوس). وعلى أغلب الاحتمال لم يدخل (كوسوس) روما راكباً عربية النصر وإنما تبع قائده وهو يحمل «الأسلاب» على هاتفه. ولا يقطع ليفي برأي حول رتبة (كوسوس) وقت أن حقق نصره. رغم تأكيد (اغسطس) له بأنه وجده يسمى بالقتل في السجلات. وأنه ما فعل هذا إلا احتراماً لسيدته الإمبراطور. ولأن شهادة (فارو) يجب أن تدحض أسطورة مشكوكاً فيها وإن وجدت حقاً فمن الممكن جداً أن اللقب قد استعير من واقع رفع كوسوس إلى مرتبة القنصل.

(٦٢) كان هذا العام ٤٣٦ ق.م، حسبما أورده ليفي ٩:٤، ٥-٦.

(nus) ^(٦٣) ملك الغالين والثاني والثالث دخلا المدينة في مركب النصر وهما راكبان عجلة حاملان اسلحهما بنفسهما ، وقد اخطأ [ديونيسيوس] ^(٦٤) في التأكيد بأن رومولوس استخدم عجلة في هذه المناسبة ^(٦٥) . وينبئنا التاريخ ان [تارقينيوس Tarquinnius] ابن [داماراتوس Damaratus] كان أول من بلغ بمواكب النصر الى هذه الدرجة من الروعة والجلال . ويقول آخرون ان [پوبليكولا Publicola] هو اول من استخدم العجلة في مواكب النصر هذا وان ثائيل رومولوس التي قتلته في مركب النصر ، لا يوجد منها ما تظهره راكباً في كل ما هو موجود منها في روما .

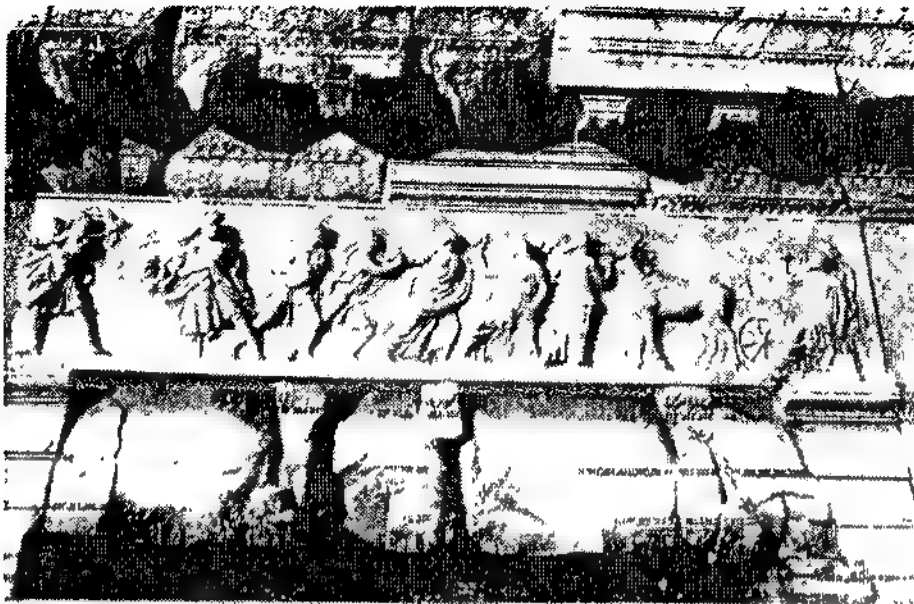
بعد ان تغلب رومولوس على السينسينين ، أخذ السابين الآخرون يترصدون الفرص ويستعدون الزمن ، ثم وحد اهل [فدينيا Fedena] و[كروستوميوم Crustomerium] و[انتينا An-temna] قواهم ضد الرومان ^(٦٦) لكنهم منوا بهزيمة نكراء ، ونزلوا عن مدنهم لرومولوس فاستولى عليها وضبط اراضيهم وتخوفهم فوزعها واستاقهم جميعاً الى روما . إن الاراضي التي استولى عليها رومولوس ، قسمها بين الرومانيين ، الا انه استثنى اراضي اباء الفتيات المخطوفات وابقاها لهم . وثار غضب سائر السابين لهذا العمل وامروا عليهم [طاطيوس Ta-tius] قائداً وزحفوا الى روما . وكانت المدينة منيعة يكاد يتعذر افتتاحها ، فمن تحكيمااتها ما يعرف اليوم بالكابيتول ، وهو حصن وضع فيه كتيبة قوية من الحرس على رأسها [تاربيوس] لا [تارپيا Tarpia] العذراء على ما زعمه بعضهم ليظهروا رومولوس بظهر الأحق . لكن [تارپيا] التي هي بنت قائد الحصن كانت مغرمة بالأساور الذهبية والحلي التي يتحلى بها العدو ، ولذلك عرضت تسليم الحصن الى السابين إن كوفنت على خيانتها بكل الحلي التي تحلى اذرعتهم اليسرى . فوافق [طاطيوس] وفتحت لهم احد الابواب ليلاً وادخلتهم . لم يكن [انتسيگونوس Antigonus] وحيداً في قوله انه أحب الخونة ، لكنه كره الذين كانوا . ولا القيصر الذي قال محدثاً [ريميتاقليس] التراقي انه ليحب الخيانة ولكنه يكره الخائن ، هذا هو الشعور العام لمن اتفق له وحظي بخدمات الخونة واثرار الناس ، وهو نفس ما يرى الناس في

(٦٣) وفي نسخ أخرى يكتب «بريتومارتس Britomartus» وقد كان هذا في العام ٢٢٢ ق.م. (انظر سيرة مارسلوس في الكتاب) .

(٦٤) روما القديمة ١١: ٣٤ .

(٦٥) المرجع نفسه پوبليكولا ٩٠ .

(٦٦) [ليفي] المرجع السالف ١١: ١١ ، أو بحسب اقوال غيره من المؤرخين فقد كان كل منهم يحارب على انفراد كلما اكمل استعداد . وبالشعار نفسه Dum singuli pugnant inversi vincuntur (توكيديس: جرمانيا) ولا يمكن لأهل [مدينيا] علاقة بهذا التحالف فهم توسكان تابعون لـ [فيبي] ولا نزاع ثم بينهم وبين الرومان طبعاً حتى وفاة [طاطيوس] .



اغتصاب نساء السابین



سمّ الحيوانات، فهم راضون عنها ما دامت ذات نفع لهم، لكنهم يفتنون شرها وخبيثتها حين ينقضون أيديهم منها. وهذا هو المسلك الذي سلكه [طاطيوس] مع [تارييا] بعد تسليمها الحصص. فقد أمر السابين بابقاء الشرط وبألا يصنوا عليها بأي جزء من حلي أذرعهم اليسرى، وكان هو أول من خلع اساوره والقها عليها واتبعها بدرع صدره^(٦٧) وهذا الباقون حذوه وارتفع المذذوف من الحلي فوقها حتى دفنت تحت أكداش الذهب والدروع ففاضت روحها تحت الثقل والضغط. وحاكم رومولوس، القائد تارييوس وادانه بالخيانة. على حدّ قول (يوبا) الذي نقله لنا [سولبيشيوس غالبا Sulpicius Galba] وأما من كتب بخلاف ذلك عن تارييا زاعماً أنها كانت بنت [طاطيوس] وأن رومولوس احتجزها بالاكراه، وإنها فعلت ما فعلت وجازاها ابوها على نحو ما قدمناه، هؤلاء إنما يخططون خبط عشواء. ومنهم [انتيجورنوس]^(٦٨). أمّا [سمبلوس] الشاعر الذي يرى أن تارييا لم تسلم الكاپيتول للسابين سبل للغال لوقعها في حب ملكهم، فهو أكثر تخريفاً من أولئك، حين يقول:

كانت (تارييا) التي تسكن قريباً من الكاپيتولي

هي التي فتحت ابواب روما للعدو.

هي التي سلمت الكاپيتول، حصن المدينة الأمانع

لأنها وقعت في حب المهاجم الغالي!

فغدرت بنازل ابائها

وبعدها بقليل يتكلم عن موتها فيقول:

إن الجموع الغفيرة من الأعداء الغاليين والبوي Boi

لم يرضوا أن تبقى حية تعيش على ضفاف الپو Po

فألقوا بتروسهم فوق الفتاة.

وبهداياهم الثمينة قتلوها ودفنوها في الحال.

دفنت (تارييا) هناك، وأطلق اسمها على التل المعروف [بتارييوس] وظلّ يعرف به حتى

(٦٧) يذكر (بيو) ومؤرخون آخرون أن طاطيوس عاملها بهذا الشكل لأنها قامت بدور مزدوج فعملت على خيانة

السابين من أجل رومولوس في حين جاهرّت بخيانة الرومان من أهل السابين. (بيون ١٠:٢) وبرهاناً على

هذا التكريم الذي نالته من الرومان بعد وفاتها ولبقي (١١:١) يسجل ذلك ولا يمارض فيه.

(٦٨) كتب (انتيفونس كاريستيوس) تاريخاً لايطاليا. وجمع جملة من «المكايات المجيبة» في عهد [بطليموس

فلادلفوس] وأمّا (سمبلوس) فقد نظم تاريخاً شعرياً لايطاليا.

عهد الملك (تاركوين Tarquine) الذي أوقف الموضع على حويتر فنقل رفاتهما وضاع اسمها، إلا في ذلك الجزء من الكابيتول الذي مازالوا يسمونه «الصخرة التاربية»، وهي الصخرة التي اعتادوا اللقاء المجرمين منها إلى الهاوية.

بعد أن سيطر السابين^(٦٩) على المرتفع، ثار ثائر رومولوس واشتبك معهم في معركة، وكان [طاطيوس] وانقأ من نفسه فلم يتحاش الاشتباك، مدركاً أنه لن يخسر شيئاً في حالة هزيمته فخلفه مواقع حماية منيعة وكان السهل في الوسط وهو ميدان القتال، تحيط به أكام عديدة صغيرة يبدو وكأنها ستملي على الفريقين قتالاً مريراً عنيفاً بسبب وعورتها، وعدم وجود منافذ كثيرة فيها وصعوبة الكر والفر، وأتفق أيضاً أن النهر الفائض كان قد غمر ساحة المعركة قبل مدة ليست بعيدة، ولما انحسر عنها ترك خلفه (حيث يقوم الفورم اليوم) موحلة عميقة عمياء خادعة لا تعرف حدودها ولا يظهر مدى خطورتها للعين المجردة. ويصعب اجتنبها، وصادف السابين حسن حظ نادر، بينما هم يهيمون بدخولها دون حذر أو ارتياب. إذ كان [كورتيسوس Curtius] وهو رجل مقدم مستشوق إلى كسب الشرف في القتال، ذكي سريع الخاطر، يخبّ بجواده أمام الآخرين^(٧٠)، إذ باقدام حصانه تعرض في الطين، فحاول إخراجه بالسوط والمهزاة والصياح، وبعد فترة أدركه العجز فتركه وانقذ نفسه. ومنذ ذلك اليوم وهذه البقعة تعرف ببهيرة [كورتيسوس]. وبعد أن نجا السابين من هذا الخطر راحوا يقاتلون أحسن قتال ويبلون خير بلاء، وظلت نتيجة معركة ذلك اليوم غامضة، في حين سقط كثير من القتلى، ذكر بينهم [هوستيلوس] زوج [هرسيليا]، وجَدُ [هوستيلوس] الذي حكم بعد [نوما]. ثم حصلت اشتباكات قصيرة عديدة إلا أن أعظمها وعلى الأرجح، أوقعها في النفس وابعدها أثراً هو الاشتباك الأخير، فيه أصيب رأس رومولوس حَجَرَةً من حجرة شجته، فكاد يسقط سريعاً ويعجز عن متابعة الحرب... وتخاذل الرومان وبدت عليهم علامة الهزيمة وراحوا

(٦٩) ليفي: المرجع السالف ١٢:١.

(٧٠) ليفي [١٣:١] وديون [١٠:١١] يثبتان خلاف ذلك. إذ يذكران (كورتيسوس) صدّ هجمة الرومان أولاً إلا أنه عُلب على أمره بكرة من رومولوس وبمحاولته الانسحاب المنظم فقد سقط سقطاً لا نجاة منها في البهيرة التي سميت باسمه منذ ذلك الحين. Lacus Curtius حتى عندما جفت وكادت تكون وسط الفورم. ويقول [بروجيليوس] أن الأرض قد تشققت. وصرح الارسيبيجي بأنه من الضروري أن تحشد قوى المدينة لمقعة المدينة فتقدم هذا الشاب المدعو كورتيسوس (ليفى ٦٧) الذي عرف بالبسالة والصبر على القتال وهو على صهوة حصانه وتحت أثن السرج وقذف بنفسه في البركة بكامل دروعه فالتحمت شقوقها في الحال وكانت هذه البركة قبل فتح قنوات المجاري انشء بالبالوعة تصبّ فيها كل مياه روما القذرة. ويرى بعض الكتاب أنها أخذت اسمها من القنصل [كورتيسوس] زميل ماركوس حينوشيسوس في الحكم لأنه أمر بتسويرها بناء على نصح الارسيبيجي بعد أن صربتها صاعقة.

يفرون باتجاه (الپالاتيوم)، وفي تلك الاثناء استجمع رومولوس بعض قواه واستندار لتجديد سُعار المعركة وواجه قومه المهزمين مشجعاً بصوت جمهوري حائاً اياهم على الصمود والقتال هذا والعدو يتكاثر عليه عددياً وجنوده يحجمون عن الثبات ومواجهة الخصم. فسط يديه نحو السماء متضرعاً الى (جوبيتر) لايقاف فرار الجيش ورعاية حق روما والعناية بأمرها في أعظم خطر تجابهه. وما أن أنهى صلاته حتى صدّ الحجل منه والاحترام له كثيراً من المهزمين عن الفرار، وأنقلب خوفهم الى ثقة. إن أول المواضع التي ثبتوا فيها كان المحل الذي يقوم عليه الآن معبد [جوبيتر ستاترا] (قد يمكن ترجمته بجوبيتر اللأبث) وفيه انتظمت صفوفهم ثانية، وكروا على السابيين ودفعوا بهم الى موضع يعرف الآن بـ (ريجيا) ^(٧١) ثم الى معبد (قستا).

تأهب الفريقان لخوض معركة ثانية فحال بينهم وبين ذاك مشهد عجيب يقصر عنه الوصف. فقد أسرع بنات السابيين المخطوفات، مهرولات في اضطراب عظيم، بعضهن من هذه الجهة وبعضهن من تلك كأن بهنّ مساً من الجنّ. حتى صرن في وسط الجيش بين جثث القتلى. وبلغن مواقع ازواجهن وابائهن، بعضهن يحملن أطفالهن، وبعضهن محلولات الشعر والريح تعبث به، بنادين السابيين مرةً، والرومان مرةً بأرق الكلمات وأكثرها حناناً. وهنا غلبت العاطفة نفوس الفريقين فنكفوا الى الوراء ليفسحوا لهن سبيلاً بين الجيشين.

أحدث منظر النسوة حزناً وألماً عميقاً في قلوب الجميع، لكن عباراتهم التي بدأتها باللوم والتغيف، وانهينها بالضراعة والعتاب، كان لها التأثير الأقوى. وهذا ما قلن لهم.

«اي أذىً نالكم منا لنستحق منكم هذا العنت والعذاب في الماضي والحاضر؟ لقد جرى خطفنا بظلم وعدوان، وبالقوة والاكراه، خطفنا أولئك الذين نرتبط بهم الآن برابطة الزوجية. وبعد ان تمّ ذلك أهمل آباؤنا وأخوتنا وبنو قومنا أمرنا زمناً طويلاً، والآن ونحن مرتبطات بأوثق رباط مع أولئك الذين كُنّا نكرهم كراهة الموت في الماضي، لا نملك أنفسنا من الرجفة للخطر، والبكاء لموت أولئك الرجال الذين أعتدوا علينا، انكم لم تنتصفوا لشرفنا من المعتدين عندما كُنّا عذارى. ولكنكم جئتم اليوم لتنتزعوا بالقوة الغاشمة، نساءً من أزواجهن، وأمهات من أطفالهن، وهي جريمة أعظم خطراً بنواياها الرضيعة من أهالكم السابق لهنّ وغدركم بهن. فأيهما أشنع؟ أمضاجعة هؤلاء لنا، أم اشفاقكم علينا؟ إن كنتم اردتم حرياً لأب سب آخر من الأسباب فالواجب يقضى عليكم لأجلنا أن ترفعوا ايديكم عن أولئك الذين جعلوكم اجداداً لاولادهم، وأحماءً لهم. وإن كانت حريكم هذه لأجلنا، فها

(٧١) هو منزل الكامن الأعظم في الازمنة التاريخية الأولى.

نحن اولاء، خذوا وخذوا معنا أختانكم وأحفادكم، اعيدونا الى ابائنا وبنى قومنا ولا تحرمونا أزواجنا وأولادنا. نتوسل اليكم ألا تجعلونا مسبيين مرتين».

تكلمت (هرسيليا) بكثير من هذا، وراحت الأخباريات بتوسل بكل حرارة. ولم يعد ثم سبيل إلا الى الهدنة، واجتمع الرعاء الكبار للمداولة. وجاءت النسوة ببنائهن وأزواجهن الى ابائهم واشقاهن، وجلبن اللحم والشراب لمن يحتاج، ونقلن الجرحى الى منازلهن لتعريضهم، وهما أظهرن لذويهن مبلغ سيطرتهن على منازلهن. وكن يحترمن أزواجهن، ويبدون لهن ضروب التجلة والاحترام ويحيطونهن بكل ما يتصور من العطف والود. وأتفق الجانبان على الشروط التالية: للنساء الراضيات بحالهن ان يبقين حيث هن على أن يعفین - كما ذكرنا - من كل الأعمال الذليلة المتعبة، باستثناء الغزل وان يسكن السابین والرومان المدينة معاً. وأن تسمى المدينة روما من (رومولوس، وتسمى (كويريتيس [Quirites] ^(٧٢) من مواطن (طاطيوس)، وان يحكم هذان الزعيمان معاً ويمارسان القيادة بالتساوي، وكان محل المعاهدة يدعى (كوميتيوم [Comitium] ^(٧٣) من (كويري [Coire] اي اللقاء أو الاجتماع.

وهكذا تضاعف عن عدد سكان المدينة. وأنتخب مائة من السابین ^(٧٤) (شيوخاً) وزيد ملاك الكتاب العسكرية الى ستة آلاف راجل، وستمائ فارس ^(٧٥)، ثم قسم الشعب الى ثلاث

(٧٢) لكلمة كويرس في لغة السابین معنيان. فهي «رمح»، وهي أيضاً «أله محارب يحمل رمحاً» وليس بالإمكان التحقق من ايهما أعطى اسمه للأخر. ومهما يكن فالرب كويرس أو كورينيوس هو إما (مارس) أو هو أله حرب آخر كان يعبد في روما حتى وفاة رومولوس الذي كُرم ذكره بخلع لقب كويرتيوس عليه. ويقول [ديون] ان الشخص كان يدعى (رومانوس) والشعب كان يطلق عليه (كويرتيس). إلا ان القسم الأول من دعواه تلك ستخالف الصيغة القديمة لإعلان الدفن Ollus Quiris letho datus est.

(٧٣) يقع الكوليسيوم عند قدمه تل پالاتينا مقابل الكابيتول. غير بعيد عن الموضع الذي بنى فيه الملك هيكل (فولكان). حيث كانا يجتمعان عادة مع مجلس الشيوخ لأخذ رايه في المسائل العامة. هذا الاسم فرض نفسه بعد عهد رومولوس وبقي زمناً طويلاً.

(٧٤) يناقش پلوتارخ نفسه هنا عندما يذكر في سيرة (نوما) بأن عدد اعضاء مجلس الشيوخ كان مائة وخمسين. أو لعل رومولوس بسبب استبداده في آخر ايامه لم يهتم بملء المقاعد الشاغرة في ذلك المجلس!

(٧٥) أكتشف المؤرخ روالد Ruaid في تعليقاته على پلوتارخ، خطئين كبيرين هنا. أولهما قوله ان رومولوس ضم ٦٠٠ فارس الى الفرقة العسكرية في حين لم يضم مثل هذا العدد الكبير الى الفرقة في اي وقت من الاوقات. فقد كان ملاكها مائتين أولاً ثم ارتفع الى ثلاثمائة ثم بلغ أخيراً الاربعمائة وبقي كذلك. وأما الخطأ الثاني فقوله ان رومولوس جعل فرقة الرجالة في حين لم تتمد في زمانه نصف هذا العدد. وقال بعضهم ان (ماريوس) كان أول من رفع ملاك الفرقة الى ستة آلاف. لكن (ليفي) يخبرنا، ان ذلك حصل قبل عهد (ماريوس) بزمان بعيد، وقد أحدثه سكيپيو افريقانوس. وبعد طرد الملوك جعل ملاك الفرقة ما بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ ثم ارتفع الى ٥٠٠٠ حتى جعلها (سكيپيو) ٦٠٠٠ ولم يلجأ الى هذا الأ في الصالات الخاصة وبعد الضرورة القصوى فملاك الفرقة الرسمي هو أربعة آلاف راجل ومائتا فارس. إلا ان [م. ريكارد] يتفق مع پلوتارخ بايراده هذا العدد الذي أثبتته النص وباعتباره فرقة رومانية - سابينية =

قبائل: سميت الأولى [رامنينسيس Ramnenses^(٧٦)] من رومولوس، والثانية [طاطينسيس Tatinses] من طاطيوس، والثالثة [لوجيرنسيس Lucerenses] من لوكوس، أي البستان، حيث يقوم الملجأ الذي شيد ليؤوذ به كل هارب أو لاجئ، فيلقى الأمان النشود، ويقبل مواطناً في المدينة. وما يدل أن القبائل كانت ثلاثة ما يظهر من الصفة «تريبه Tribe» و«تريبون Tribune». وكل قبيلة تتألف من عشرة (كيوريات Curiae) أو أفخاذ، والاسم مأخوذ من اسم المرأة السابينية على ما يقوله البعض. لكن لا أساس لهذا التعليل فكثير من النساء يسمين باسماء امكنة مختلفة. وإن كانوا والحق يقال كثيري الاكرام نسانهم لطالما احيوا ذكراهن بوسائل مثل هذه. كانوا يفسحون لهن طريق المرور كلما التقو. بهن. ولا ينطقون بكلمة نابية في محضرهن، ولا يظهرون عراة امامهن وإذا قتلن شخصاً لا يحاكن امام القضاة العاديين^(٧٧). وإن يتحلى اطفالهن بحلية تسمى لوللا^(٧٨) (لأنها شبيهة بفقاعة الماء) يحطن بها أعناقهم. ويلبسنهم البرتكستا Praetexta وهو رداء ذو حواش ارجوانية.

لم يجتمع الزعيمان للمشاورة في الحال. وإنما اجتمع كل منهما بشيوخه المائة على حدة أولاً، ثم اجتمعوا سوياً. رسكن [طاطيوس] حيث يقوم اليوم معبد [مونيتا Moneta] وسكن رومولوس بالقرب من درجات «الساحل الجميل»^(٧٩) وهو الموقع القريب من منحدر جبل [بالاتين Palatine] المتحده نحو الملعب الأكبر. ويقال إن شجرة توت مقدسة نمت هناك. وذكر

= مختلطة اي فرقتين في الواقع.

(٧٦) اختلف الباحثون في أصل هذا الاسم. وثم عدة افتراضات [ليني ٣١] يقر باستحالة التحقق من أصله. في حين يستق [فستوس] من لفظة ليجروس Lucerus وهو ملك اربيا Ardea ويشتهق فارو من لفظة لوكومو Lucumo وهي اسم زعيم إتروري شهير رومولوس في حروبه. وأما (الرائيسي) منغلهم من (ألبا) سكنوا تلي بالاتينا وجيليا. وأما التانينسي) فهم سابين خصم لهم تلاً كاپتولين وكورينال. وأما القبيلة الباقية فتشمل اللاجئين من اتروريا ولاسيوم وقد سكنت الفسحة الواقعة بين القبيلتين المشار اليهما آنفاً.

(٧٧) وإنما امام مندوبين يعينهم مجلس الشيوخ من بين أعزائه.

(٧٨) عندما يرتدي الشبان «الرداء الرجولي Toga Virilis» فانهم يظفون ال(بوللا) وهي خلية ذهبية على شكل كرة جوفاء ويقدمونها لآلهة البيت De Lares. فإذا توفي الشاب قبل بلوغه السادسة عشرة. فإن العلية توضع في الوعاء الذي يحوى رماد الميت. ويقول ساتورنيوس ٦:١ أن هذه العلية لا يقتصر التحلي بها على الأحداث بل أنها تزين أولئك الذين يكرمون بموكب نصر اذ تقوم بتقليد واحدة كبيرة منها كبيرة الكاهنات الفستالات كعلامة من علامات التكريم. كما أن النسوة يفضنها الى ما يتزين به العلى. وأما بخصوص الجلباب ذي العاشية الأرجوانية فإن الفتيات المازيات يرتدينه حتى يتزوجن. كما يرتديه الشبان حتى يبلغوا السابعة عشرة. إلا أن ما كان إشارة تكريم لأولاد نساء السابين في عهد رومولوس أصبح شائعاً بين الجميع حتى شمل اولاد العبيد العتقاء.

(٧٩) ربما كان النص اليوناني [خاخون] صمراً. ولا شك أن المقصود هنا «Scalae Caci» درجات كاكي.

(٨٠) أو لأجل تحديد فسحة للعرافة على حد زعم (سرفقيوس).

عن كيفية نموها ان رومولوس اراد مرة أن يجرب قوته^(٨٠) فقفز من جبل أفنتين برمح قناته مصنوعة من خشب تلك الشجرة قطار بعيداً ثم انغرز عميقاً في الأرض ولم يفلح أحد في انتراعه رغم تعاون الكثرة وبقي في موضعه وكانت التربة خصبة فامدت الخشبة بالغذاء فنمت وامرعت وازهرت واستوت جذعاً كبير الحجم. وتولى السلف الشجرة بالعناية وأكرموها وعبدوها وعدوها من أقدس الذخائر واحاطوها بجدار. فاذا بدت لأي ناظر قليلة الاخضرار والازدهار مائلة الى الذبول والاصفرار فزرع حلاً الى اي مستطرق بقاء لتهبئة الماء فتقوم ضجة حتى لكان بيتاً يحترق ويهرع الناس من كل صوب بأوعية الماء ليسقوا الشجرة... وعندما كان (كايس قيصر Caius Caesar) يرمم الدرجات المحيطة بها، اتلف بعض العمال جذورها عندما كانوا يحفرون بالقرب منها فبيست.

واتخذ السابين الأشهر الرومانية: وقد ذكرنا في سيرة [نوما] كل ما هو مهم في هذا الباب. واتخذ رومولوس تروسهم الطويلة ونبذ دروعه ودروع الرومان كافة واتخذ دروعهم، فقد كان الرومان يشنون فوق صدورهم درقات مستديرة على الطراز [الاركيثي Argive] وكانت اعيادهم وقرايبتهم مشتركة، ولم بلغ عيد من أعياد الشعين. واستحدثوا أعياداً جديدة منها عيد [ماتروناليا Matronalia]^(٨١) الذي انشيء تكريماً للنساء وأعتراقاً بمجهودهن في أطفاء نار الحرب، وأحدثوا أيضاً عيد [كارمنتاليا Carmentalia]^(٨٢). ويخيل لبعضهم ان [كارمنتا Carmenta] هذه هي ربة تشرف على ولادة البشر، لذلك تكرمها الامهات كثيراً. ويظن بعضهم انها زوج [ايفاندا] الأركادي. وهي كاهنة عرافة ترسل نبؤاتها شعراً، وقد أسميت [كارمنتا] من [كارمن: اي شعر]. واسمها الحقيقي [نيقوستراتا]، ويرى بعضهم أن أقرب الاحتمالات في اسم الكاهنة هو اشتقاقه من لفظ [كارنس - منتى] ومعناه مختل العقل^(*)، اشارة الى الحركات الجنونية والشنجات التي تعترها اثناء نزول الوحي عليها.

(٨١) في اثناء هذا العيد يتوجب على كل الرومانيات المتزوجات القيام بخدمة عبيدهن على المائدة وان يقبلن الهدايا من أزواجهن مثلما يقدم الأزواج لهن من هدايا في عيد [ساتورناليا]. ولم يكن عيد [ماتروناليا] قاصراً على تكريم النساء السابينيات بل هو مخصص لـ [مارس] ولـ [جونو لوكانيا] الى حد ما. ويقع في الاول من شهر آذار على خلاف ما ذكره بعض المعلقين الآخرين.

(٨٢) وهو عيد كبير يقع في ١١ من كانون الثاني وتقام مراسيمه في اسفل الكابيتول بالقرب من باب كارمنتال. ويرفع الدعاء والصلاة للربة [كارمنتا] من أجل اخصاب نساء روما ولساعة ولادة سهلة (أوفيد ١: ٦١٧) وبلوتارخ أيضاً في (أسئلة رومانية) فانه يحفل [كارمنتا] أما لـ [ايفاندا] ان قصة هذه السيدة وقصة لويركاليا التي تنكحها في المنز هي من نسج الخيال المحض.

(*) Caurc «مختل او مسلوب» و Mens «عقل».

أما عيد (باليليا) فقد سبق لنا الكلام عنه. والذي يبدو ان عيد [لوپركاليا -Lapercal-ia] ^(٨٣) هو عيد التطهر، لأنه مأخوذ من الزمن الذي يقام فيه وهو غير أيام السفاد Nefasti من شهر شباط واسم (شباط February) نفسه يعني التطهر. والعيد نفسه كان يدعى في قديم الزمان (فبرواتا Februata) إلا أن اسمه مرادف للاسم اليوناني (لكيا -Ly-caea) ويبدو انه موغل في القدم جاء به الاركاديون الذين صحبوا [ايثاندر] ^(٨٤). على أن كل هذا رجم بالغيب وتخمين، إذ قد يأتي أيضاً من «الذئبة» التي ارضعت رومولوس، وأننا لنشاهد الكهّان [اللوپيركي Luperci] ^(٨٥) يبدؤون طوافهم من الموضع الذي قيل ان رومولوس ترك فيه. لكن المراسم التي تتم فيه تجعل من أصعب الأمور التوصل الى الحقيقة. فثم ماعز ينحر، ومن ثم يؤتى نبيلين صبيين ويقوم بعضهم بوسم جبهتيهما بالسكين الدامية، ثم يقوم آخرون بمسح ما خلفته السكين من دماء بقطع من الصوف مغموسة بالحليب، وعلى الصبيين أن يضحكا بعد مسح جبهتيهما وبعد هذا تقطع جلود الماعز سيوراً يسك بها الصبيان ويهرولان وهما عاريان إلا ما يستر عورتيهما، بضريان بها كل من يصادفهما، ولا تتجنب الزوجات الصغيرات تلك الضربات لأنها تساعدن على الحمل كما يشاع بينهن. أو ثم شيء آخر غريب في هذا العيد، وهو ان [اللوپيركي] يضحون بكلب. هذا وان شاعراً من الشعراء كتب تغاسير خرافية للعادات الرومانية على شكل قصائد تقريض فيقول في هذا الصدد، انه رومولوس ورعوس بعد ان حققا النصر على اموليوس، ركضاً فرحين الى الموضع الذي ارضعتهما فيه الذئبة. وأحياناً لهذه الحادثة انشيء هذا العيد، ولذلك يركض الصبيان النبيلان...

«وهما بضريان كل من يصادفهما. حين أقبل التوأمان الشهير ان من مدينة [ألبا] مسرعين والسيف في يد كل منهما».

أما إمرار السكين الدامية على جبهتيهما، فهي إشارة الى الأخطار التي حفل بها ذلك اليوم، وما جرى فيه من سفك دماء. وأما مسحهما بالحليب فهو ذكر اطعامهما وتغذيتهما. ويكتب [كابوس اچيلوس Caus Acilius] ^(٨٦) ما مفاده أن قطيع ابقار لرعوس ورومولوس شتتت في الفلاة، قبل ان تبنى روما، صلياً لرب [فونوس Faunus] ثم خرجا للبحث عنها

(٨٣) يحتفل بهذا العيد في العادي عشر من شباط تكريماً للرب (يان) وبسبب عداوة يكنه للذئاب فقد سمي [لوپركوس]: من نخب Lupa.

(٨٤) ليفي ١: ١ و ٢-١.

(٨٥) أي كهانة الرب (فونوس) الذي هو (يان) عند الرومان مثلما ذكر.

(٨٦) هو مفوض الشعب (Tribune) كتب بالاغريقية في بعض الحوالات. ويخبرنا ليفي ان (كلوديو) ترجمها الى اللاتينية وأقتبس منه شيشرون.

وهما عاريان لنلا يعرفهما العرق الناضح مهما. وهو الذي جعل [اللويريكي] يتراكمون عراة. أما إذا كان القربان للتظهر فحسب فتضحية الكلب أمر واجب لأن اليونانيين كانوا يصحون بالجراء كما يشاهد ذلك في نقوشهم ومحتواتهم. وهم كثيراً ما يزاولون هذه المراسيم التي يسمونها [پريسكلاسيزموس Periscylacismus] ^(٨٧) أما إذا كان القربان لشكر الذئبة التي أطعمت رومولوس وحفظت حياته، فشم سبب وجيه للتضحية بكلب لأنه عدو الذئاب، إلا إذا كان سبب قتله عقاباً له على عرقلة اللويريكي أثناء ركضهم. وقيل أيضاً إن رومولوس هو أول من استحدث فريضة النار المقدسة. وعين عذارى مقدسات للبقاء عليها مشتعلة ^(٨٨)، سمين فستالات. ويقول آخرون أن [نوما بومپيليوس] هو موجد هذه الفريضة. وهم يتفقون على كل حال أن رومولوس كان تقياً شديد التدين، مهراً في إقامة الفرائض ولهذا كان يحمل عصاً معقوفة [ليتوس Littuus] مما يستخدمه السحرة لرسم أركان السماء عندما يجلسون لمراقبة الطير، ظلت عصا [رومولوس] محفوظة في الهالاتيوم، وضاعت عندما استولى الغاليون على روما، ثم عشر عليها بعد طرد هؤلاء البرابرة في الأطلال والخرائب مدفونة تحت كومة عظيمة من الرماد ^(٨٩)، ولم تقسمها النار بضر في حين أتت على كان ما كان حولها. واستن رومولوس قوانين، تميز أحدها بالصرامة وهو يقضي بالآ تهجر المرأة زوجها، ويدخل الزوج حق طلاقها في حالة تسميمها أولادها أو تزيف مفاتيح الزوج، أو إذا زنت ^(٩٠). وإذا

(٨٧) أو [پيرسكو لأكيزموي Perisku Lakismoi]، ويتم ذلك بأن يدور كلب أو جروه حول الشخص المراد تطهير وبعد انتهاء الطواف يقتل الحيوان. وهذه المراسيم شائعة جداً عند الأغريق.
(٨٨) ما زال معبد فستا الرئيس قائماً في روما، وهو على شكل دائرة يتألف محيطها من عشرين اسطوانة - رخامية يطوها أفرين ذو نقوش بدعية ويتألف سقف من قرص مذهب أعلى في وسطه مثل قبعة الصينين وإطاره يرتكز على تيجان الأعمدة العشرين بني ليكون محراباً للشعلة النار المقدسة، التي كان الرومان يعتقدون أنها ترمز إلى قوة روما وعظمتها والتي كانت ترعاها الربة فستا في عرفهم. وتتناوب عذارى فستا السهر على الشعلة الدائمة ليل نهار، كما كان من واجباتهن رفع الصلاة للربة لتكفل رخامية الشعب والدولة ونصر جيوش روما في الحروب وكان يعهد اليهن أيضاً ببعض محفوظات الدولة ووصايا الأباطرة والوثائق الهامة التي يتوقف على سريتها كيان البلاد. ولذلك كن يعتبرن هاميات روما وحارسات مجدها [م. ت.].

ولابد وأن بلوتارخ يقصد بأن (رومولوس) الأول هو أول من استحدث النار المقدسة في روما. وأما عن وجود العذارى الفستالات قبله في ضاحية (ألبا) فهذا مؤكد لأن أمه كانت واحدة منهن. أما النار المقدسة الفالدة فلم تكن مقصورة على روما بل هي شائعة في مصر وبلاد الفرس وما بين النهرين واليونان ولدى كل الشعوب تقريباً. أخذنا الأغريق عن الشرق وهي النتيجة الطبيعية لعبادة الشمس أو النار كما في الدين المجوسي

(٨٩) يذكر شيشرون في رسالة النبوءات. أنها اكتشفت في معبد كهنة ساليا في أعلى قمة تل بالاتينا.
(٩٠) مع هذا، فإن الامتياز الذي اعتبره بلوتارخ تعسفاً بحق المرأة، كان موسى النبي قد أباحه للرجال بدرجة واسعة. على أن حرية النساء عند الرومان كانت تبلغ حد أعطائهن الحق في تطبيق أزواجهن كما يظهر =

سرحها زوجها لسبب آخر غير هذه الأسباب الثلاثة، يصادر منه ملكه، ويعطي نصفه للمطلقة ويوقف النصف الآخر على الربة [Ceres] (٩١) وعلى كل من طلق امرأته كفارة، وهي ان بضحي لآلهة الأموات. ولوحظ في رومولوس أنه انفرد عن غيره بعدم وضعه عقوبة ما لجرمة قتل الأب أو الأم الحقيقي (٩٢)، ولكنه ادمج الجريمة مع غيرها من القتل وفرض حكماً عاماً معتقداً أن القتل عامة اعمال شنعاء وأن هذا القتل مستحيل لا يقدم عليه أحد وثبت أنه كان مصيباً في حكمه هذا، فقد مرت ستمائة سنة متواصلة ولم يرتكب مثل هذه الجريمة في روما. وذكر ان [لوشيبوس هوكتيوس Lucius Hostius] كان أول قاتل لأبيه وقد وقع ذلك بعد حروب [هانيبال]. وفي ما ذكرنا الكفاية.

في السنة الخامسة لحكم [طاطيوس] كان بعض اصدقائه وبني قومه قد صادفوا سفراء موغدين من [لورنتوم] (٩٣) الى روما فحاولوا سلبهم اموالهم ولما قاومهم هؤلاء بطشوا بهم جميعاً، وكان غدرًا فظيلاً حمل رومولوس على الاستعجال في انزال العقاب بالمجرمين، إلا ان [طاطيوس] حال دون ذلك. وكان هذا مبدءاً الخصام العلني الذي نشأ بينهما. ولم يظهر شيئاً منه في اثناء تصريفهما الشؤون العامة وكانا شديدي الحذر من الاصطدام وظهر بمظهر المودة والتفاهم. أما ذوو القتلى فبعد ان حيل بينهم وبين الانتصاف الشرعي لقتلهم بسبب تدخل طاطيوس. تربصوا به اثناء ما كان يقدم قرباناً برفقة رومولوس في [لافينيوم]، ووثبوا عليه وذبحوه (٩٤)، إلا أنهم لم يتعرضوا [لرومولوس] بل رافقوه الى بيته باحترام وهم يثنون عليه لما ابداه من عدالة، وذُفن رومولوس جثمان [طاطيوس] دفنة فخمة جداً في جبل أفنتين، قرب

= من جوفينال ومارچيال (٤١:١٠) وفي الوقت نفسه يجب ان يلاحظ انه لم يعرف من طلاق واحد وقع في روما خلال خمسمائة وعشرين عاماً وهو دليل على فضائل الرومان ومثانة أخلاقهم ولذلك يفسر بالذكر [كارفيليوس كيبوريوس] بوصفه أول من طلق زوجه من الرومان. (٩١) وهذا هو النص القانوني اللاتيني:

Familiam ad aedem Cloeis: ispe sacer esto.

(٩٢) في هذا غرامة كبيرة. كما يلاحظ المؤرخ داسييه أن تعبير «القتل الابوي» كان موجوداً قبل ان يرد ذكر لارتكاب مثل هذا الجرم.

(٩٣) ليفي ١٤.١ و ١-٣ ويقول [ديون] انهم كانوا سفراء قدموا من [لافينيوم] في السنة السادسة لحكم [طاطيوس]، لرفع الشكوى من الاعتداءات التي ارتكبها اصدقاء له في موطنهم. وانهم وقعوا اثناء عودتهم في كمين نصبه لهم السابين في الطريق فسببوهم وقتلوا بعضهم. وكلتا المدينتين متجاورتان ومن اعمال [لاسيوم].

(٩٤) ربما كانت هذه ذبيحة للرب الأسيومسي المسمي (اريديدكس) وروما تشارك فيه أيضاً لأن المهاجرين الطرواديين استقروا في ذلك الموضع. على ان [لوچيبويوس] يقول ان [طاطيوس] لم يذهب الى هناك برفقة رومولوس. بل لم يذهب من أجل تقديم الذبيحة واما حرح وحده محاولاً اقناع الأمهالي بالعفو عن القتل.

موضع يدعى [ارمیلوستريوم Armilustrium]^(٩٥) ولم يحاول الاقتصاص لمقتله. وذكر بعض الكتاب ان مدينة لورنتوم خافت العواقب فأسرعت بتسليم قتلة [طاطيوس] إلا ان رومولوس أطلقهم قائلاً: لقد جَبَّ القتلُ القتلَ. وبهذا أحدث اسباباً للثغولات والتحرصات وثرثرة السسة الحساد اذ راحت تدبغ اسه ارتاح من ازاحة زميله وشريكه في الحكم، على ان مثل هذا الكلام لم يؤثر في السابقين ولم يشرغية فيهم واستمروا يعيشون بسلام. وبقي اعجابهم واحترامهم له، إما حب حقيقي يكنه له بعضهم، وإما خوفاً من بطشه، وأما لاعتباره في منزلة الأرباب، وأظهرت الأمم الأخرى اجلالها لرومولوس ايضاً وارسل اللاتين عدة سفراء اليه ودخلوا في حلف اتحادي معه. وأستولى على [فدينى Fidenae]^(٩٦) وهي مدينة مجاورة لروما بكونية من الفرسان فقط سبقوه على ما قيل، مزودين بأوامر تقضي بكسر رتاجات ابوابها. وبعدها هجم بنفسه على غير انتظار. وقال آخرون ان سكان المدينة بداؤا العدوان وراحوا يهجون الريف ويدمرون ما فيه فكمّن لهم رومولوس، وبعد أن قتل عدداً كبيراً منهم أقتحم مدينتهم إلا انه لم يهدمها أو يقوضها بل جعلها مستعمرة رومانية وارسل اليها في الثالث عشر من نيسان الغين وخمسائة مستعمر روماني.

وبُعبد هذا انتشر وباء الطاعون، وأخذ يهلك الناس دون سبق مرض، فأمحل الزرع وجفّ الضرع وامطرت السماء دماً على المدينة^(٩٧)، فأضيف الى البؤس الذي يعانيه، الخوف من غضب الآلهة. وعندما حلت المصائب نفسها [بلارنتوم] حكم الجميع أن النعمة السماوية حلت بالمدينتين لأنهما لم تسلكا سبيل العدل في مقتل طاطيوس والسفراء. فما أن سَلِمَ القتلة وعرقبوا حتى خفت وطأة الوباء بصورة ملحوظة. وطهر رومولوس المدينتين بفرائض الغسول المقدسة، وقد بقيت قمارس على ما يقال في غابة تدعى [فرنيتنا Ferentina]. وقبل ان تزول آثار الطاعون غزا الرومان قوم [الكامرتين Camertine] واجتاحوا البلاد متوهمين ان النوائب أعجزت اعداءهم عن المقاومة. إلا ان رومولوس مالبث أن عاجلهم القتال واستظهر عليهم بفتكه بستة آلاف فيهم والاستيلاء على مدينتهم وسوق ما وجده فيها من الأهالي الى روما.

(٩٥) سسي بهذا بسبب الاحتفال المعروف بهذا الاسم. ويقام في ١٩ من تشرين الأول كل سنة وفيه تستعرض الوحدات العسكرية صفوفاً ويجرى تطهيرها بتقديم القرابين.

(٩٦) هي هذا يتفق بلوتارخ مع ليني (١٤١) إلا ان [ديون ١٢.٢] يقول. عندما ارسل أهالي (كريستوميريوم) ارضاً لأعانة الرومان الذين أصرت بهم المجاعة أو الوباء، كم أهالي (فدينى) للقاظة وسلبوها

(٩٧) هذه الرّخات المنيرة الحافظة بالوعيد، يعروها م. ريكارد الى الحشرات والابخرة القرزية ويقول انها لم تكن نادرة في الايام المتأخرة واما لنقرأ عن أمثال هذه الحوارق فيما غير من الازمار ولدما ما يشبهها في ايامنا الحالية كسقوط حجارة برشقات.

ونقل الى [كاميريوم Camerium^(٩٨)] من الرومان ضعف العدد الباقي فيها، وكان ذلك في اليوم الأول من شهر آب.

إن عدد من عفا عنهم من الناس خلال السنوات الست عشر الأولى من بنائه روما كان كبيراً جداً. ومن بين الغنائم التي استولى عليها من [كاميريوم] عجلة نحاسية تجرها أربع خيول وضمتها في معبد [قولكان] ونصب فوقها تمثالاً له مفتوحاً بصورة إله النصر.

هكذا صارت قوة روما تتنامى يوماً بعد يوم، وضعف أمر جيرانها وحمل شأنهم وقتعوا أن يُتركوا بما لديهم. إلا أن الأقوام الأقوى منهم، يدافع من الحسد أو إباءً عن الحصوع الى رومولوس، والسكوت على تعاضم سلطانه، قرروا الوقوف في وجه طموحه، وأول تلك الأقوام الـ[فينيتس Veinets]^(٩٩) وهم شعب من توسكانيا كثير المال والرزق يسكن مدينة عامرة. فأختلقوا سبباً للحرب خلاصته ان [فيديني] تعود لهم وهو ادعاء فضلاً عن كونه غير معقول، فهو سخيف، فهم الذين تركوا أهلها لشأنهم في أشد المواقف حرجاً ولم يمدوا اليهم يدالعون فهلك كثير منهم، وهم الآن يدعون بملكية اراضيهم ومساكنهم عندما آلت الى أيدي الآخرين.

كان جواب رومولوس على طلبهم هذا، حازماً هازئاً. فقسّموا قواتهم الى قسمين وهاجموا بالأوّل منهما حامية [فيديني] وزحف الثاني لقتال رومولوس، ونال الأول نصراً وقتل ألفين من الرومان. أما القوات الثانية فقد هزمها رومولوس وقتل منها ثمانية آلاف. ثم جرت معركة أخرى قرب [فيديني] وهنا يتفق جميع الكتاب ان الفضل الرئيس في نصر ذلك اليوم يعود الى مجهود رومولوس فقد أبدى مهارةً فائقةً وشجاعة لا تبارى. وبدأت القوة والسرعة اللتين اظهرهما وكأنهما ليستا من طبع البشر. أما قول بعضهم ان أكثر من نصف الأربعة عشر ألفاً الذين قتلوا في ذلك اليوم كان هلاكهم بيد رومولوس فهو حديث خرافة وهم لا يقبله العقل ابداً، فحتى [الماسينيين] بالغوا كثيراً في ادعائهم ان [ارسطومينيس Aristo-menes] قدم ثلاثة قرابين متوالية لقتله مائة فقط من أعدائه اللقديمييين^(١٠٠).

بعد أن هزم رومولوس جيش عدوه، وترك فلوله تنجو يحلدها وجه قواته نحو المدينة وكان

(٩٨) تلك المدينة في [لاسيوم] كان رومولوس قد استولى عليها من قبل. وقد انتهز أهاليها الاصليون هذه الفرصة للعصيان هانتفضوا وذبّحوا العامية الرومانية.

(٩٩) في Veii هي عاصمة بلاد القوسكان وتقع على سفح جبلي وتبعد عن روما زهاء مائة فرسخ. ويضاف اليها [بيون] باثينا من جهة غناها وحممها.

(١٠٠) يؤيد [پاوسنياس ١٩.٤٢] هذه الرواية وينوه بالمرمان والمكان فضلاً عن ذكره الهيكتاتوم المقدم لـ[چوبتر اتيوماتس] هذه الحروب بين الماسينيين والسپارطيين كانت قد حرت على عهد [توللوس هوستيليوس].

العدو قمعني بخسائر جسيمة فلم يفكر في ابداء مقاومة وأغا أعلن استسلامه وأبرم معاهدة حلف وصداقة أمدها مائة عام، وتنازل أيضاً عن مساحة كبيرة من الأرض تدعى (سپتيمياكيوم Septempagium) (١٠١) أي المنطقة ذات المدن السبع، كذلك نزلوا له عن مملحتهم التي تقع على ضفاف النهر، ودفعوا إليه بخمسين رهينة من نملاتهم، ضماناً لتطبيقهم شروط الصلح، ودخل المدينة في موكب نصر - في الخامس عشر من تشرين الأول (١٠٢)، ومن بين الأسرى الذين ساروا فيه قائد جيش الفينيتس وهو رجل طاعن السن، لم يعمل على ما يبدو بما غله حكمة السن. وتصرف ينزق ومن هذا جاءت عادة ظلت تطبق في كل مناسبة تقرباً لقرايين النصر، وهي أن يقاد رجل كبير السن خلال السوق حتى الكابيتول، متشحاً برداء الأرجوان ومتقلداً لعبة الاطفال (بولاً) والمنادي ينادي فائلاً «السارديون سيثم بيعهم الآن» (١٠٣) إذ يقال ان توسكانيا هي إحدى مستعمرات السارديين، وان (فينيتيس) هي مدينة توسكانية.

كانت هذه المعركة آخر ما خاضه رومولوس من معارك. وبعدها أقدم على ما يقدم عليه معظم الرجال لا بل كل الرجال الذين ارتفعوا الى ذروة المجد والسؤدد بفضل ظروف معجزة فائقة العادة. (باستثناء القليل جداً) نقول أقدم على ما أقدم معتمداً على رصيده من جلائل الاعمال والمآثر.

... ارداد تيهاً بنفسه وغروراً، واستبدل بسلوكه الشعبي المتواضع، الكبرياء الملكية الكريهة من الشعب، وتزيا بزيّ بغيض جداً الى قلوب العامة، فلبس القرمز وفوقه رداء مطرز الحاشية بالارجوان (١٠٤). وكان يقابل الناس وهو جالس على عرش يحيط به دوماً زمرة من الشبان عرفوا باسم (چيليرس) (١٠٥) أي العذائين لسرعتهم في قضاء المهام. وكان يسير امامه آخرون سيوراً من الجلد لتقييد من يأمر بتقييده حالاً. وللاتين يستعملون كلمة (الليكارى Alligre)

(١٠١) تمتد من مدينة فيني حتى ضفاف نهر اليتير.

(١٠٢) للمرة الثالثة كما يزعم (ديون) وبشكل افخم من السابق بكثير.

(١٠٣) الفينيتس والاتوريون الآخرون هم مستوطنون قدموا من ليديا. وكانت مدينة (سارديس) مسقط رأسهم. ويؤرخ [فستوس] نقلاً عن [سينيجيوس كاپيتو] هذه العادة من وقت فتح جزيرة سردينيا من قبل رطيبيريوس سمپيتوس كراخوس] عند جلبه هذا العدد من أسرى تلك الجزيرة. حتى لم يبق من يشاهد في سوق التخلص من بضاعة غير العبيد السارديين.

(١٠٤) يطلق عليه Sagum أو «الزي العسكري» وفوقه يلبس ال[البالودامتوم] أو معطف الجنرال ويشد فوق الكتف على ان ما حطه مكروهاً بالدرجة الأولى هو فسوته المتنامية في عقاب المجرمين. ومن ذلك انهم عدد من الشبان الاشراف بقيامهم باعدادات غير مسموح بها على اراضي مجاورة فحكم عليهم بالموت بالقائهم من أعلى الصخرة التاريخية (ديون: ١٤:١١).

(١٠٥) ليحي ١٥:١: ٨. أمر رومولوس الأفخاذ (كبيراي) الثلاثين بأن يختاروا له حرساً يتألف من ثلاثمائة رجل أي عشرة من كل فخذ وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم بلوتارخ «چيليرسي».

الحالية، ومنها حاء لقب [ليكتورس Lictors] لهؤلاء الحرس. وكلمة [باكويولا Bacula] اي صولجان للعصي التي يحملونها (فاجي Fasces)، لأن القضبان كانت شائعة آنذاك. ولعلمهم كانوا يستعملون اول الأمر لفظة [ليطورس] اليونانية، ثم زيدت حرف C فصارت (ليكتورس) أو (ليتورعي لانييتوس Liturgi Leitos) باليونانية «خدام للشعب» لأن كلمة «لانييتوس» اليونانية تعني «العامّة» و«لاوس Laos» تستخدم للجمهور عموماً.

إلا أنه عندما توفي جده [نوميستور] في [ألبا] وآل العرش اليه، وضع الحكم في ايدي العامة لأجل أن يخطب ودّهم، وعين حاكماً على أهالي [ألبا] (١٠٦) يستبدل سنوياً. وهذا ما لقّن رجال روما العظام درساً في أن يفضلوا دولة حرة على الملكية، حيث يكون الكلّ رعية وحكاماً في الوقت نفسه. إذ حال بين الپاتريشيان وبين الاسهام في سياسة الدولة، ولم يبق لديهم غير الاسم واللقب. تراهم يجتمعون بحكم العادة وحفظاً للمظاهر أكثر من ابداء المشورة، ولا يفضلون عن العامة إلا بأنهم اسبق الى معرفة ما يجري، ولم تكن هذه المسائل ذات بالٍ أو قيمة، ولكن عندما عمّد رومولوس الى توزيع الأراضي التي غنمها على الجنود من تلقاء نفسه، وعندما اعاد الى مدينة فينتيس رهائنها، أعتصب مجلس الشيوخ ولم يوافق ولم يقره على ذلك - وكان قبلاً يجتمع ليستمع صامتاً الى أوامر الملك ثم يتفرق. الظاهر انهم عدّوها اهانة عظيمة لهم. وغدا المجلس موضع شك وريبة عندما أختفى رومولوس اختفاء الغريب المفاجيء. بعد زمن قصير من هذا. غاب في السابع من تموز [يولي الذي كان يسمى آنذاك كوينتيلس Quintilis] غير تارك شيئاً مادياً يروي عن موته، إلا يوم اختفائه. وفيه ما تزال تقام عدة احتفالات قتل ما وقع (١٠٧) وعلينا ألا نعتبر هذا الغموض مما يستغرب له اذا تذكرنا كيفية موت [سكيبيو افريقانوس] (١٠٨) فقد قضى نحيبه في داره بعد العشاء ولم يكن في موته ما ينفي سبباً أو يثبتهُ، فبعضهم يقول انه موته كان طبيعياً لعلّة مزمنة كان يشكو منها. وبعضهم قال انه تهرج السم، وذكر آخرون أن أعداءه فاجأوه ليلاً وخنقوه. مع هذا كله فان جثته عرضت للملأ وراح الجميع يستنتجون ويخمنون، في حين لم يترك رومولوس أثراً عند غيبته، ولو جزء صغيراً من جسمه أو خرقة من ثيابه. لذلك مال الظن الى أن الشيوخ

(١٠٦) أو السابين. هناك بعض المؤرخين ممن يفضل اطلاق اسم ألبان عليهم.

(١٠٧) أمثال ما يدعى Monae Carpolimae أو Popeal ipagima أو Festum Amiclarum.

(١٠٨) هو سكيبيو افريقانوس ابن پاولس ايجيلوس - تبناه سكيبيو الاكبر وبما انه كان دائم المعارضة لمشاريع الشقيقين (كراخوس) فقد طن أن زوجه سمپورينا وهي اختهما - قد دست له سمّاً وقتلته وبحسب زعم [فاليريوس ماكسيموس] لم يفتح تحقيق قضائي لمعرفة اسباب موته. ويحدثنا (فكتور ٥٨) ان الحثة حملت وقد قنع الوجه بقماش من الكتان لئلا يظهر الوجه وقد اسود.

فتكوا به في معبد (فولكان) وقطعوا جثته اجزاء صغيرة أخفى كل واحد منهم جزءاً في طيات ثيابه وتخلصوا منها. وفي رأي آخرين أن غيبته هذه لم تكن لا في معبد فولكان ولا بفعل مجلس الشيوخ، وأن حقيقة ما حدث هو انه كان يخطب في الناس خارج المدينة قرب موضع يدعى (مستنقع الماعز)^(١٠٩) فاكفهر الجوّ فجأة وحصلت ظواهر عجيبة في السماء وأظلم وجه الشمس^(١١٠) وانقلب النهار ليلاً مضطرباً حفل بالرعود والصواعق المهولة والرياح الهوج تهب من كل صوب. فتفرق الناس وهربوا لابلون. إلا أن الشيوخ بقوا في موضعهم كتلة واحدة. ولما سكنت العاصفة وانكشف الظلام واجتمع الناس ثانية افتقدوا ملكهم ولم يجدوه وسألوا عنه فقال الشيوخ لهم لا تبحثوا عنه ولا تشغلوا انفسكم بأمره. وامرهم أن يكرموه ويميدوه لأنه ارتفع الى مصاف الالهة. وانه مزعم ان يكون لهم رباً كريماً رحيماً بعد ان كان لهم ملكاً صالحاً باراً فأمن الناس بما سمعوا ورجعوا فرحين في آمالهم بنوال خير الأمور منه. إلا انه وجد بينهم من أخذ يكلل القضية بسؤ نية وأخذ يتهم الباتريشيان ويغتائبهم، ويقول انهم خدعوا الناس واعرهم بحكايات سخيفة، لتغطية الحقيقة وهم الذين قتلوا الملك في الواقع.

قالوا: ولما أخذت الأمور تنحدر من سيء الى أسوء وملأت الاشاعات الحو، قام (يوليوس پروكولوس Juluis Proculus)^(١١١) أحد الشيوخ الباتريشين عرف بالخلق الحميد وبصداقته الحميمة لرومولوس^(١١٢)، ويكونه ممن جاء معه من البا كما كان ينحدر من اسرة نبيلة، ووقف متكلماً في الفوروم. أقسم باغلظ الايمان وامام الناس جميعاً انه رأى رومولوس قادماً نحوه وهو مسافر في طريق، وكان يبدو اطول قامته وأبهى منظراً ويرتدي دروعاً براقّة تشع نارا. فادركته الرهبة من الشيخ فابتدره قائلاً: أيها الملك ما الذي دعاك الى تركنا؟ ولماذا جعلتنا نتخبط في ظنون سيئة زائفة. والمدينة كلها في حزن وترح لا نهاية له؟ «فأجاب يقول: «كانت مشيئة الارباب، اي پروكولوس - ان يبقى نحن الذين انحدرنا من صلبهم. بين البشر هذه المدة من الزمن. وبعد ان بنينا أعظم مدن العالم بمجدها وجبروتها آن لنا ان نعود الى السماء».

(١٠٩) انظر ليفي المرجع السالف ١٦ و ٤٠١.

(١١٠) نوه [شيشرون] بهذه الظاهرة العجيبة ايضاً في «الجمهورية: الكتاب السادس» ويبدو من تدقيق الانزياح الفلكية، انه كان ثم كسوف كلي طويل، في عام وفاة رومولوس ويقع في ٢٦ من اذار فإن قارنا ذلك بالتقويم الروماني المستخدم وقتذاك فانه يوافق شهر تموز. او لعل الرومان هم أكثر اطمئناناً من زمن موته من وقت ميلاده.

(١١١) ليفي: المرجع السالف ١٦٠١، ٥-٨. وهو سليل أيولوس أو أسكانيوس.

(١١٢) من هنا جاء الاحتمال الغالب بان الشيوخ اختاروه ليحمل للناس ابناء الرؤيا المختلفة وهو ما كان مسجوحاً به باعتباره فناً قريباً مزيداً في الاختلاق المعجزات تعظيماً للأقدمين.

فتكوا به في معبد (فولكان) وقطعوا جثته اجزاء صغيرة أخفى كل واحد منهم جزءاً في طيات ثيابه وتخلصوا منها. وفي رأي آخرين أن غيبته هذه لم تكن لا في معبد فولكان ولا بفعل مجلس الشيوخ، وإن حقيقة ما حدث هو أنه كان يخطب في الناس خارج المدينة قرب موضع يدعى (مستنقع الماعز)^(١١٠) فاكفهر الجو فجأة وحصلت ظواهر عجيبة في السماء. وأظلم وجه الشمس^(١١١) وانقلب النهار ليلاً مضطرباً حمل بالرعود والصواعق المهولة والرياح الهوج تهب من كل صوب. فتمرق الناس وهربوا لایلون. إلا أن الشيوخ بقوا في موضعهم كتلة واحدة. ولما سكنت العاصفة وانكشف الظلام واجتمع الناس ثانية افتقدوا ملكهم ولم يجدوه وسألوا عنه فقال الشيوخ لهم لا تبحثوا عنه ولا تشغلوا أنفسكم بأمره. وامرهم أن يكرموه ويعبدوه لأنه ارتفع الى مصاف الالهة. وأنه مزعم أن يكون لهم رباً كريماً رحيماً بعد أن كان لهم ملكاً صالحاً باراً فآمن الناس بما سمعوا ورجعوا فرحين في آمالهم بنوال خير الأمور منه. إلا أنه وجد بينهم من أخذ يكلل القضية بسوء نية وأخذ يتهم الباتريشيان وبغشائهم، ويقول أنهم خدعوا الناس واغروهم بحكايات سخيفة، لتفطية الحقيقة وهم الذين قتلوا الملك في الواقع.

قالوا: ولما أخذت الأمور تنحدر من سيء الى أسوء وملأت الاشاعات الجو، قام إبوليوس پروكولوس [Julius Proculus]^(١١٢) أحد الشيوخ الباتريشين عرف بالخلق الحميد وبصداقته الحميمة لرومولوس^(١١٣)، ويكونه ممن جاء معه من البيا كما كان ينحدر من اسرة نبيلة، ووقف متكلماً في الفوروم. أقسم باغلط الايمان وامام الناس جميعاً أنه رأى رومولوس قادماً نحوه وهو مسافر في طريق، وكان يبدو أطول قامته وأبهى منظراً ويرتدي دروعاً براقّة تشع نارا. فادركته الرهبة من الشيخ فابتدره قائلاً: أيها الملك ما الذي دعاك الى تركنا؟ ولماذا جعلتنا نتخبط في ظنون سيئة زائفة. والمدينة كلها في حزن وترح لا نهاية له؟ فأجاب يقول: «كانت مشيئة الارباب، أي پروكولوس - أن نبقى نحن الذين انحدرنا من صليبهم. بين البشر هذه المدة من الزمن. وبعد أن بنينا أعظم مدن العالم بمجدها وجبروتها آن لنا أن نعود الى السماء.

(١٠٩) انظر ليفي المرجع السالف ١٦ و ٤٠١.

(١١٠) بوه [شيشرون] بهذه الظاهرة العجيبة أيضاً في «الجمهورية الكتاب السادس» ويبدو من تدقيق الارياح الفلكية، انه كان ثم كسوف كلي طويل، في عام وفاة رومولوس ويقع في ٢٦ من آذار فإن قارنا ذلك بالتقويم الروماني المستخدم وقتذاك فانه يوافق شهر تموز. او لعل الرومان هم أكثر اطمئناناً من زمن موته من وقت ميلاده.

(١١١) ليفي: المرجع السالف ١٦: ٨-٥. وهو سليل إيلوس أو أسكانيوس.

(١١٢) من هنا جاء الاحتمال الغالب بأن الشيوخ اختاروه ليحمل للناس أبناء الرؤيا المختلفة وهو ما كان مسموحاً به باعتباره فتناً قريباً مزيداً في اختلاق المعجزات تعظيماً للأقدمين؛

فوداعاً وقل عني للرومان، انهم لن يبلقوا أعلى مراحل السلطان البشري بغير الوحدة والتمسك بحميد الخصال. وسنكون نحن لهم الآله الشفيع (كويرنيوس Quirinaus).

ومال الرومان الى تصديق هذا القول لما عرف عن المتحدث من امانة واخلاص، ولمسحة من الحقيقة والحماسة كانت تشويه لهجته كأنها نفحة آلهية نزلت عليه أو كان آلهاً تقمصه، ولم يعارض قصته أحدٌ ونبلوا كل دعوى واعتراض، ورفعوا أكفُ الدعاء لكويرنيوس وأقراؤه تحية الرب. ما اشبه هذه الحكاية ببعض الخرافات اليونانية التي رويت عن كل من (ارستياس Aresteas) البروكونيزي Proconnesian^(١١٣) و(كليوميديس Cleomedes) الاستيالي Asty-palaeam^(١١٤) إذ رووا أن (ارستياس) توفي في دكان دباغة، ولما جاءه اصداقاه لم يحدوا جثته. وبعد فترة من الزمن قدم بعض معارفه من الخارج وزعموا أنهم شاهدوه سائراً في الطريق المؤدي الى (كروتون Croton) وروي عن (كليوميديس) الذي كان جباراً هائل الحلقة ذا قوة فائقة، يخالط عقله جنون، وطباعه وحشية، ارتكب كثيراً من أعمال العنف كان آخرها أنه وجه بقبضة يده لكمة الى عمود في مدرسة كان يدعم سقفها، فكسره من منتصفه فخر السقف على من بداخل المدرسة من اطفال قتلوا جميعاً^(١١٥)، فطورد، فهرب واختبأ في صندوق كبير وأغلق عليه الغطاء وامسكه من الداخل فحاول عند كبير من الرجال فتحه فلم يوفقوا فلجأوا الى كسره قطعاً قطعاً ولكنهم لم يجدوا كليوميديس داخله، ودفعهم العجب والحيرة الى استخارة عرافة دلفي منزل الوحي فأجابتهم بالجواب التالي: «كان كليوميديس الاستيالي آخر الجبابرة». وقيل أيضاً أن جثمان (الكميني) تلاشى اثناء ما كانوا يحملونه الى القبر ولم يجدوا في التابوت غير قطعة من حجر. ويقص كتاب الخرافات كثيراً من هذه الحكايات غير المعقولة، متحدين مبدأ موت البشر الطبيعي، فمع ان تجريد الفضيلة البشرية من اي صفات ربانية تجريداً تاماً هو كفر وضعة، فكذلك يكون من السخف والهذيان مزج السماء بالأرض، ولنؤمن [ببندار] القائل:

اجسام البشر كلها تخضع لحكم الموت. والروح تبقى خالدة مدى الدهر.

فهي وحدها من صلب الأرباب منهم جاءت واليهم تعود، وحدها لامع الجسم، وذلك بعد انفصالها عنه وفك ارتباطها به. عندما تكون طاهرة نظيفة تماماً خالية من اضرار اللحم. وفي

(١١٣) للاستزادة راجع [هيرونيوس ١٣٤-١٥].

(١١٤) انظر [پاوسنياس ٦:٩] وما بعدها.

(١١٥) يقول [پاوسنياس] ٩:٤ وقمت هذه الفاجعة لأنه لم يعط الجائزة بعد فوزه في نزال مصارعة على (ايكوس) الايبيري. وصار يعبد كآله للمائرة البطولية التي حققها واستياليا في جزيرة من جزر الكيكلادس بالقرب من (كريت).

عرف [هيراقلطس] ان الروح الطاهرة، هي السامية الى ما لا نهاية تدفع من الجسم، كما يحرق السرق من السحابة. إلا أن الروح التي تبقى اسيرة الشهوات والغارقة في الأحاسيس فهي تشبه البخور الفاسد الثقيل يصعب إيقاده وتصعيده ابخرة».

فيتبقى علينا والحالة هذه ألا نسارع الى ارسال اجسام الناس الصالحين الى السماء، خلافاً لميادي، الطبيعة واحكامها! بل يجب أن نؤمن بأن فضائلهم وارواحهم تنتقل من الحالة البشرية الى حالة الجبابرة بحسب طبائعهم الالهية ويمتضى سنة الأرباب تم ينتقلون من حالة الجبروت هذه الى أنصاف أرباب وبعد ان يمروا في مرحلة القداسة والتطهر الأخير، كما في لسنن المعروفة، ويحررون انفسهم من كل ما يربطهم بالبشر والشعور البشري، يرتفعون الى مصاف الآلهة لا بحسب نظام بشري مقنن وإنما بحسب حكم العقل السليم^(١١٦). وهناك يتمتعون بالكمال الأعظم وما فيه من قداسة وبركة.

يقول بعضهم ان لقب [كوريتيوس] الذي عرف به رومولوس، مرادف لـ(مارس)، ويقول غيرهم بل أطلق عليه لأن المواطنين الرومان عرفوا بهذا الاسم Quiritus، وزعمت طائفة أخرى أن الأقدمين سموا الرمح أو قناة الرمح (كوريس Quiris)، فيكون اسم قمشال يونو Juno، المستقر على رمح، [كوريتيس] والرمح المحفوظ في الريحيا، بمثابة [مارس]، ومن يبرز في القتال من المحاربين يهدى اليه الرمح في العدة. ولأن رومولوس آله حرب، أو آله الرماح فقد سمي [كوريتيوس] ولابد أن معبداً ما، بني تكريماً له على جبل [كوينرياليس Quirinalis] وهو مأخوذ منه:

أما اليوم الذي غاب فيه رومولوس فقد أطلق عليه «يوم فرار الناس»، أو «سابوعا الماعز» لأن الناس يخرجون فيه الى ظاهر المدينة ويقدمون القرابين في «مستنقع الماعز» وينادي أحدهم الآخر وهم خارجون من المدينة، باسماء رومانية كقولهم [مركوس]، [لوسثيوس]، [كابوس]! مقلدين ما جرى اثنا هروب الناس في ذلك اليوم، وكيف كانوا ينادي أحدهم الآخر في ذعرهم وعجلتهم. ولكن بعضهم بنفي ان يكون هذا تقليداً لما جرى، ويزعم انه تمثيل الهجوم مباغت سريع يُعزى الى الحادثة التالية: بعد ان طرد [كاميلوس Camillus] الغالين من روما، والمدينة تفاسي الامرين مما حل بها وتشعامل على نفسها لتستعيد قواها انتهزت

(١١٦) كان هسيود أول من فرق بين الطبائع الأربع الإنسان، الحمار، الحنّ، الآله ويظهر انه رأى امكان التحول الدائم والتقدم الى حالة الخلود. وعندما يقول لنا عبدة الاوثان ان الكائن الحي قبل وصوله الى الطبيعة الأخيرة (طبيعة الآله) يمكن ان يقذف به ثانية الى الظلام الدائري الأول، لا يسمعا الا التصور بأن الاوائل سمعوا بدوى شك شيئاً عن الملائكة المغضوب عليهم المطرودين من الجنة.

جموع اللاتين هذه الفرصة وزحفت عليها بقيادة [ليفيوس بوستيميوس Livius Postimius] وعسكرت قواتهم في موضع غير بعيد عنها وأرسل القائد منادياً للمدينة يعلم السكان ان اللاتين يحبون تجديد حلفهم القديم واتحادهم (بعد ان ادركه الانحلال وكادت تنبت عراه) وان هذا لا يتم الا بعقد روابط مصاهرة جديدة بين الشعبين. فان ارسل الرومان عدداً مناسباً من عذاراهم واراملهم فيسكون ثم سلم وصداقة بين الشعبين، وهو ما ناله السابين من قبل بشروط مشابهة. واصغى الرومان الى هذا وكانوا من جهة يخشون الاشتباك في حرب ومن جهة أخرى فإن النزول من نساءهم هكذا، يعني الرضا بحالة تكاد لا تختلف عن الاسترقاق. وفيما هم يقبلون الأمر من شتى وجوه قامت خادمة بيت تدعى فيلوتيس Philotis (بعضها يسميها توتولا Totola) وأشارت عليهم ان يتربثوا في الاقدام على أحد الأمرين، وان يلجأوا الى الحيلة لاجتنابهما وكانت خطتها ان يبعثوا بها مع عدد من الخادومات الجميلات بعد ان يرتدين ثياب العذارى الحركات. وأن تقوم هي عندما يجن الليل، يقاد نار كاشارة الرومان فيخرجون على اثرها ويباغتون العدو النائم. وانطلقت الحيلة على اللاتين. وأوقدت [فيلوتيس] مشعلاً في شجرة تين برية وسترتها من جهة العدو بسنار واغطية وكشفتها للرومان فخرجوا حالاً وكانوا في عجلتهم ينادي أحدهم الآخر، وهكذا باغتوا العدو على حين غرة وانتصروا عليه. ولهذا اقاموا عيد النصر وسموه «تاسوعاء الماعز» لأن شجرة التين تسمى عند الرومان (كاپرينكوس: أو تين الماعز) وهم يكرمون النساء به، باحتفالات تقام خارج المدينة وفي خمائل مصنوعة من اغصان التين. وتجتمع المقادامات معاً ويتراكن ويتلاعبن جذلات ويمثلن معركة زائفة فيما بينهن ويتقاذفن الحجارة دليلاً على أنهن عاون رجال الرومان في حريهم تلك. إن هذه الرواية لا يزيدنا الا قلة من الكتاب، لأن التنادي بالاسماء نهائياً والخروج الى مستنقع الماعز لتقديم القرابين يبدو انه يستقيم مع الرواية الأولى أكثر من الثانية إلا اذا افترضنا وقوع الحديثين في يوم واحد من عامين مختلفين.

في العام الخامس والاربعين من عمر رومولوس وفي العام الثامن والثلاثين لحكمه غادر (١١٧) هذه الدنيا على ما قيل لنا.

(١١٧) [ديون] وبلوتارخ نفسه يذكر في اول سيرة [نوما] ان رومولوس ودع الحياة في العام السابع والثلاثين لباء روما. ولعلهما لا يجانبان الحقيقة ولا يتناقضان. لأن أولهما يقول ان عمر رومولوس كان عند موته (٥٥) سنة وثانيهما يفكر (٥٤)

أوجه المقارنة بين رومولوس وثيسسيوس

هذا ما وصل الى علمي من اخبار عن كلٍّ من رومولوس وثيسسيوس، مما يستحق التدوين. والظاهر مبدئياً أن ثيسسيوس كان يبحث عن المغامرات وجلاتل الأعمال بحثاً بمحض اختياره في حين كان بوسعه ان يحكم آمناً مطمئناً في [طروزين] بلاداً واسعة. أما رومولوس فلأجل التخلص من عبودية كان يزرع تحتها، ودفعاً لما كان يتهدهده، أصبح شجاعاً من فرط الخوف (على قول افلاطون)، ولخشيتته من النواب الكبار اقدم على أجل الأعمال، تدفعه الحاجة ليس إلا. هذا وان اعظم مآثرة له هي قتله ملك البيا، أما ثيسسيوس فبوسعه ان يسمى [سكبيرون، ومينيس، وبروكرونتوس، وكورينتيس] وكلها وقائع على الهامش ومقدمات لأعمال اضخم وأحل، مبقته هؤلاء. خلص بلاد اليونان من شر الطغاة قبل ان يدري هؤلاء المساكين من هو محلصهم وفضلاً عن هذا فقد كان اسهل عليه السفر الى اثينا بحراً. فاشرار البر ولصوصه لم يأتوا عملاً ضده، في حين لم يكن رومولوس آمناً مادام اموليوس حياً. زد على هذا أن ثيسسيوس كان يتعرض للأوغاد لا لأذى الحقوه به، بل في سبيل الآخرين. اما روموس ورومولوس فلم يعترضاً اعمال الطاغية ماداما في نجوة منه. واذا كانت الاصابة بجرح في معركة السابين، وقتل الملك اكرون والاستظهار على كثير من الأعداء. مآثر جلييلة فلنا ان نضاهي بها معركة ثيسسيوس ضد السنطورس، وضروب البطولة ضد الامازونات، لكن المرء يعجز حقاً عن وصف عمل ثيسسيوس، بانضمامه طوعاً الى الشان والعذارى المرسلين الى كريت إما ليقع فريسة في براثن الغول، واما ان يضحي به على قبر [اندروغيوس] وإما كأهون الشرين أن يعيش عيشة الاراذل المحقرين في عبودية أشد الرجال قسوة وغلاظة، أيوصف بالشجاعة؟ ام بسمو النفس؟ أم بحب انصاف الناس، أم التعلق بالشرف أم بالاقدام أو البأس؟ ولذلك أرى ان الفلاسفة قد اجادوا في تعريف الحب بأنه علاج الأكلة تزود به الصغار لتحميمهم وترعاهم^(١). فحب [ارمادنه] يبدو أساساً من عمل آله شامت ارادته

(١) انظر ليفي ٢ : ١٢.

المحافظة على حياة ثيسبيوس. وليس لنا والحق يقال ان نلومها على حبّه بل ان نقر بكونها حديرة^(٢)، لأن الرجال والنساء لن يكونوا سواسية في شكل عاطفتهم تجاهه، وإذا كانت أريادنه الوحيدة في هذا، فيقيناً انها تستحق حبّ آله، هذه التي كانت قد احبت الفضيلة والصلاح واشجع الرجال طراً.

ومع ان كلا من تيسبيوس ورومولوس كانا رجلي دولة بطبيعهما إلا انهما لم يحافظا حتى الأخير على أخلاق الملك فقد انحرف كلاهما عنها، وتغيّرا. فأولهما مال الى الديمقراطية. وثانيها انحدر الى مهالك الطغيان وانتهى بهما السبيل الى غلطة واحدة وان اتبعنا طريقين مختلفين. ذلك ان المحاكم يجب ان يحافظ قبل كل شيء على كيان البلاد وهذا يتم بالإمتناع عن الاتيان بما لا يليق بقدر ما يتم بالتمسك بما هو لائق. إلا ان ذلك الذي يعدّ من سلطانه أو يوسّعه عمداً فهو لا يصلح كملك ولا كحاكم بل هو أماً غوغائي وأماً طاغية وكلاهما اثما يشيعان الكره والاحتقار في قلوب الرعية ومهما يكن فان خطأ الأول فهما يبدو نابعاً من الحنان والمشاعر الانسانية النبيلة. أمّا الثاني فمصدره الانانية والفظاظة.

وان لم يكن من الجائز أن تعزى مصائب الناس الى سوء الطالع، بل بالأحرى الى اختلاف الطبائع، فمن يبري، ثيسبيوس من غضبه الجانح الذي خرق حدود المعقولات - على ابنه، ومن يبري، رومولوس من جريرة قتله أخاه؟ لو نظرنا الى الخواطر لسهل علينا الصلح من غضب مأتاه سبب أقوى من سبب ثيسبيوس، كالغضب الذي تشيره ضربة شديدة مفاجئة. ولما كان رومولوس قد اختلف مع أخيه عمداً وتقصداً في امور عامة فمن الحق أن يصل هذا الخلاف فجأة الى مرتبة الثورة العارمة القتالية. إلا أن الحبّ والغيرة واتهام^(٣) الزوج وهي مما لا يستطيع الخلاص من تأثيره غير قلة من الرجال - هي التي دفعت بثيسبيوس الى ارتكاب ذلك الجرم بحق ابنه. زد على هذا أن رومولوس ارتكب في فورة غضبه عملاً ذا أثر فاجع في حين انتهى غضب ثيسبيوس عند حدود الكلام، اي عبارة آثمة، ولعنة اب طاعن في السن... وأماً مصائب الشاب الباقية فيبدو أن سببها كان سوء طالعها. وإلى هذا الحد لا يسع المرء إلا ان ينحاز الى جانب ثيسبيوس.

(٢) هنا يتفق بلوتارخ مع سقراط، الذي يُعلّم بان حبّ الفضيلة التسامي هما وحدهما القادران على تحقيق اتحادنا بالكائن الأسمى. لكن مع أن هذا المبدء هو من أحسن المبادئ لكنه غير ممكن التطبيق هلى [أريادنه] هاین الفضيلة من هذه الأميرة التي وقعت في حب اجنبي من أول نظرة وسارعت الى تحقيق لاشتها بدمار اقربائها وبلادها

(٣) لا ينوه بلوتارخ في سيرة تيسبيوس بشيء عن هذه التهم. مع انها يجب ان تكون بدرجة من الخطورة بحيث ادت به الى تلك المناسة المفعلة

إلا أن لرومولوس ارجعية ممتازة على قرينه، وهي أن أعماله الكبار نبتت من براعم وبدابات صغيرة جداً. فكلما الأخوين عُرفاً بكونهما ابني لراعى خنازير، وخادمين، وقيل أن يعتقا منها الحرية لجميع اللاتين تقريباً ونالا فجأة كل القاب التعظيم والتكريم، فسميا بالقاهرين اعداء بلادهما، والحادين على اصدقائهما وابناء قومهما، وزعيمى الشعب، وبناة المدن لامهدهميا كنيسيرس، الذي بنى بيتاً واحداً فقط من بين البيوت العديدة التي قوضها وهدم عدة مدن تحمل اسماء الملوك والابطال الاقدمين. ألحق يقال ان رومولوس هذا حذوه في ايامه الأخيرة، وارغم اعداءه على تقويض وتهديم منازلهم ومساكنة قاهريهم. إلا أنه لم يحز لنفسه اراضي وبلاداً وملكة وزوجات واطفالاً واقرباء بازالة مدينة من الوجود أو بتوسيع مدينة، بل نالها كلها باستحداث مدينة جديدة عظيمة. ولم يقتل أحداً في عمله هذا وأما نفع أولئك الذين كانوا في حاجة الى المأوى والمسكن، ورغبة في تكوين مجتمع ترعى لهم حق المواطنة فيه. ولم يبطش باللصوص والمجرمين بل اخضع امما وقهر مدناً. وأنتصر على الملوك والقادة.

أما عن قضية رموس فليس من يدرى بأي يد قتل. وعلى الأرجح يُعزى قتله الى آخرين وليس ثم من شهة في انه انقذ أمه من موت محتوم ونصب ملكاً على عرش [اينياس] القديم، ورفع من شأنه بعد خمول وضعة وانحطاط الى منزلة التابع الخانع. وقدم له خدمات جليلة. ولم يلحق به أذى ولو بصورة غير مباشرة. لكن نسيان ثيسيرس أوامر والده برفع الشراع الأبيض لا يبرئه من عقاب جريمة قتل الأب لا في رأيي ولا في رأي أي قاض مهما بلغت سماحته. وأدرك أحد الكتاب [الأتيكين] صعوبة الاعتذار لهذا العمل، فزعم كذباً ان ايجيوس أسرع يعدو عند اقتراب السفينة متجهاً نحو الاكروبوليس ليستطلع الأنباء. فزلقت به قدمه وسقط... وكأني به قد سار وحيداً ليس معه خادم أو حارس يمشي في ركابه!

والحق يقال ان خطيئات خطف النساء التي ارتكبها ثيسيرس، لا تسمع له بأي عذر مقبول، أولاً لتكراره الجريمة عدة مرات فقد خطف [اريادنه] ثم [انتايوب] ثم [اناكسو] الطروزينية، وأخيراً سرق [هيلين] وهي طفلة لم تبلغ سن الزواج الشرعي وثانياً من ناحية السبب، فان عدارى الطروزينين واللقيديمونيين والامازون فضلاً عن كونهن غير مخطوبات له، فلسن أكثر جدارة بانجاب اولاده من الاثينيات اللاتي ينحدرن نسلأ من [ارخيتيوس] و[كيبكرويس] [Cecrops] إلا أن دافعه الى هذا كان الشهوة لا الحاجة. اما [رومولوس] فعندما خطف زها. ثماعانة امرأة لم يتخير لنفسه كما قالوا إلا امرأة واحدة هي [هرسيليا] وفرق الباقيات على رؤوساء المدينة. وأثبت بضروب الاحترام والتجلة ومظاهر العطف والعدل التي عامل بها هاته النسوة، ان هذا الاعتداء لم يكن إلا عملية سياسية حسنة القصد غايتها تكوين مجتمع،

وتوحيد شعبين، وجعلها ينبوعاً يفيض بالصدقة والاستقرار العام. وكدليل على ما أحدثه هذا الرباط الزوجي من حب واحترام وتلاحم، لم يحصل خلال مائتين وثلاثين سنة تالفة أن طلق رجل امرأته، أو هجرت^(٤) امرأة تزوجها والزمن شاهد. ولكن كما أن أول قضية قتل يرتكبها أحد بأمه أو أبيه، هي من الأمور الغريبة النادرة عند الأغريق، كذلك يدري الرومان جيداً أن [سپوريوس كارفيليوس Spurius Carvilius] كان أول من طلق زوجته مستهماً إياها بالعقم^(٥). والنتائج المباشرة كانت متشابهة فعلى أساس هذه الزيجات تقاسم الزعيمان [رومولوس وطاطيوس] الحكم فيما بينهما، وخضع الشعبان لحكومة واحدة. ولكن لم ينجم عن زيجات تيسسيوس صداقة أو تحالف أو تبادل تجاري، بل نشأت عنها عداوات وحروب وسببت قتل المواطنين وآلت أخيراً إلى خسارة مدينة [أفيديني] التي لم ينقذ أهلها من مصير طروادة إلا سلوك أهلها تجاه العدو^(٦). ومقابلته بالضراعة والتوسل، ولم تتعرض أم تيسسيوس للخطر وحده، بل عانت كذلك ما عانت [هيكوبا] من هجر الأبن وإهماله. إلا إذا كانت حكاية أسرها مختلفة كما هو بودي أن يكون ذلك مع مسائل أخرى، ولقد قيل أن ظروف تدخل الآلهة التي سبقت أو وافقت ولادة رومولوس وتيسسيوس كانت مختلفة فأولهما عاش بنعمة خاصة من الأرباب. ولكن النبوءة نزلت لاييجيوس محطرة عليه مضاجعة النساء، أوضحت كما يبدو أن ولادة تيسسيوس لم تكن محل رضى الأرباب أو إرادتهم.

(٤) يخبرنا [ديون ٢ ٨] بدقة أكثر أن ذلك حصل في العام ٥٢٠ ق-م أيام كان [يومپوبيوس ماثو وپاپيريوس ماسو] قنصلين.

(٥) أقسم [كارفيليوس] يميناً أمام الجنسورين، بأنه يكنّ لزوجته اعظم احترام وأنه لا يطلقها إلا لأن انجاب الأولاد كان من ضمن الاتفاق المقدس عند زواجهما. إلا أن ذلك يجنبه الاستنكار والكره من الجميع الذين وجدوا أن يخطئ مسلماً قبيحاً بعمله هذا [١٧ Aul G-٩: ٢٦ و ٣: ٤].

(٦) كاستور وپولوكس.

ليكورغوس

LUKOUGUS

دُونْ يَلوتارح حياة ليكورغوس قبل تدوينه سيرة تيسميوس. كما ذكر هو نفسه عند سرده حياة الأخيرة. والظاهر انه كان شديد الكلف بالسپارطيين عظيم التقدير لهم ولعاداتهم. فقد ترك لنا الى جانب هذه السيرة وسيرة غيره من عظماء السپارطيين - رسالة حول قوانين اللقيديمين وتعاليدهم وأخرى حول الحكم الليقية لقد جعل من ليكورغوس نظماً مثالياً وعمل سلوكه ليقدمه كدليل على ان الحكيم الذي اتى الفلاسفة الى اعطاء اوصاف له كثيراً. ليس مجرد شخصية مثالية لا يمكن ان ترتفع اليها الطبيعة البشرية.

في الروايات التي تركها لنا المؤرخون عن ليكورغوس واضع قوانين سبارطا Sparta كثير من الخط والتخمينات والرجم بالغيب، وقل أن ذكر أحد شيئاً لم ينقضه الباقون أو يشككوا فيه. وتختلف وجهات نظرهم حتى حول شؤون الأسرة التي نبغ منها. أو الرحلة التي قام بها، أو موضع وفاته وكيفية موته، ويأتي أعظم الخلاف حين يبحثون عن القوانين التي استحدثها، والجمهورية التي أنشأها. ويتمتعز اتفاقهم تماماً حول العصر الذي عاش فيه، إذ يقول بعضهم انه عاش في أيام (إيفيستوس Iphitus)^(١) وأنهما تعاوناً معاً على سنّ شريعة إيقاف الحروب^(٢) أثناء إحياء الألعاب الاولمبية، ومن هؤلاء أرسطو. وتشبّهت لقوله زعم وجود كتابة على قرص من الأقراص النحاسية التي تستخدم في تلك الألعاب نقش عليها اسم ليكورغوس وأن هذه الكتابة كانت مقرّوة في أيامه. إلا أن [راتوستينس Eratosthenes] و[بولودورس Apollodorus]^(٣) وغيرهما من المؤرخين يحاولون بحساب الوقت على أساس تعاقب الملوك السبارطيين - ان يثبتوا انه عاش في زمن أبعد كثيراً من تاريخ منشأ الألعاب الاولمبية^(٤).

(١) ملك (إيليس) الذي قيل أنه أنشأ أو بالأحرى أحياء الألعاب الاولمبية قبل مائة وثمانين سنوات من قيام أول أولمبياد معروف في العام ٧٧٦ ق.م وعرف بنسبته الى كوربوس. كما جرت عادة الاولمبيادات التالية بنسبتها للفائزين الآخرين.

بده [إيفيستوس] بتقديم ذبيحة لهرقل الذي كان الإليانيون يعتقدون انه ساخط عليهم لسبب ما. وبعدها أمر بالألعاب الاولمبية لتعلن في سائر بلاد اليونان. وبعد بالحرية والأمان لكل الواردين لمشاهدة الألعاب وخذد موعداً لها - وكانت قد انقطعت بسبب نقشي الولاء على ما قيل. كذلك نصب نفسه رئيساً لها وحكماً. وهذا امتياز كان اهل (بيزا) كثيراً ما يتنازعون عليه مع خلفائه الذين انحصر فيهم طوال ما كانوا ملوكاً. وبعد انقراض الأسرة عين الاملون رئيسين حكمين ثم ارتفع العدد الى عشرة ثم الى اثني عشر بمرور الزمن.

(٢) في اثناء إحياء الألعاب الاولمبية (فضلاً عن الألعاب الپيشية والإسمية والقيمية) تفرض دائماً وكبده عام، هدنة في سائر بلاد اليونان يصدر بها بيان رسمي وتتم اذاعته (پاوسنياس ٢:٥) فإذا بخلت وحدة عسكرية [إيليس] بعد هذا البيان. فتفرض غرامة قدرها مئتان على كل جندي [توكيديس ٤٩٥]

(٣) لقب [ايرانتستينوس] بافلاطون الثاني لسعة مداركه وأطلاعه وهو مؤرخ شهير وشاعر وفيلسوف نبغ وتمتع برعاية [بطليموس فيلوطاير] اذ كان والده [بطليموس سورگيتيس] قد دعاه من اثينا ونصبه أميناً مشرفاً على مكتبة الاسكندرية الشهيرة. ومعاصره [اپوللو دوروس] كتب كتاباً عن الميقولوجيا، ما زال موجوداً، ويحتوي على مختصر لتاريخ الالهة والابطال الاقدمين. الى جانب آثار أخرى له مفقودة.

(٤) الاولمبياد الأول كان في ٧٧٣-٧٧٦ ق.م.

ويظن [طيماتزوس]، أنه يوجد شخصان بهذا الاسم عاشا في زمنين مختلفين، ولأن أحدهما كان أشهر من الثاني فقد اسند اليه الناس مجد الإثنين وعلى تظنيّه، أن أسسهما عاش في زمن يداني عصر [هوميروس]، وأسهب بعضهم وافرطوا في التفاصيل الى الحد الذي زعموا فيه أنه التقى بالشاعر. أمّا وأنه عاش في عصر بعيد فهذا ما يمكن استخلاصه من فقرة وردت في كزينفون Xenophon إذ جعله معاصراً للهيراقليدي Heraclidae والحقيقة هي أن آخر ملوك سبارطا^(٥) هم هيراقليديون نسباً، لكن كزينفون يبدو في هذه الفقرة وهو يتكلم عن خلفاء هرقل المباشرين الأوائل.

وإن ضرينا صفحاً عن هذا الاضطراب والغموض، فبإمكاننا محاولة تأليف تاريخ لحياته معتمدين على أقل النصوص تناقضاً وميالين الى اولئك الكتاب الأجدر بالثقة من غيرهم. وعند الشاعر [سيمونيدس] أن ليكورغوس هو ابن پريتانيس [Prytanis] لا ابن [يونوموس]، على انه كان أوجد رايه في هذا، لأن الباقيين كافة يرتبون سلالة نسبهما على الشكل التالي:

ارسطوذيموس Aristodemus

پاتروكلس Patrocles

سوتيس Sotus

يوربون Eurypon

[ليكورغوس] من زوجه الثانية ديوناماسا Dionassa وپولينكتس من زوجه الأولى] ويقول [داخيداس Dieuchidas] أنه النسل السادس من پاتروكلس والحادي عشر من الهيراقليدي^(٦).

(٥) يقول (مسترابو) ان ليكورغوس عاش بالتكيد في الجيل الخامس بعد [الثيمينس] الذي قاد حملة استيطان الى (كريت) والثيمينس هذا هو ابن (كيسسوس) الذي بني مدينة (اركوس) في الوقت الذي قام (پاتروكلس) جد ليكورغوس الخامس بوضع أسس سبارطا وعلى هذا يكون ليكورغوس قد عاش بعد (صولون) بوقت قصير وفي حدود العام ٩٠٠ ق.م. وإن ظن بعض المؤرخين المتأخرين انه عاش في عصر الهيراقليدي.

إن هذه الفقرة اقتبسها پلوتارخ من رسالة (كزينفون) المماثلة عن «جمهورية سبارطا». كما اقتبس من تلك الرسالة اهم ما أورده عن سيرة ليكورغوس.

(٦) من [ارسطو ذيموس] خرج التوأمان يورستينس وپروكلس ومنهما نبغ الخطان الملكيان الأكبر والأصغر في سبارطا. وهما الخطأ الأغندي والأقريتوتيدي. و[ارسطو ذيموس] هذا هو ابن (هيلوس) ابن (هرقل) [انظر پاونسياس ١٠٣-١٠٤] و[هيروdotus ٢٠٤:٧ و ١٢١:٨].

واياً كان الأمر فان [سويوس] كان بالتأكيد أشهر اسلافه، فبقيادته اخضع السبارطيون الهيلوت Helot^(٧)، و اضافوا الى بلادهم بقوة الفتح جزءاً كبيراً من أركاديا، وهناك قصّة تروي عن [سويوس] وهي ان الكيتوريين^(٨) ضربوا حصاراً حول جيشه وهو في موضع صخري قاحل ليس فيه قطرة ماء وأضطر الى ان يتفق مع اعدائه على ان يعيد اليهم كل ما استولى عليه من املاكهم إن شرب الماء هو وكل جنوده من أقرب ينبوع. وبعد حلف اليمين على الاتفاق، جمع جنوده وعرض ملكته كلها على أي واحد منهم هدية منه، إن تمكن من ضبط نفسه ولم يشرب ماءً. ولما لم يصبر واحد منهم على العطش، أو بعبارة أخرى لما شرب جميعهم وارتثوا، تقدّم هو الى ينبوع في اعقابهم ومد رأسه وأصاب وجهه برشاش من مائه دون ان يدخل معه قطرة واحدة ثم سار عنه مبتعداً أمام اعين اعدائه، رافضاً ان تنازل عن فتوحاته، لأن الاتفاق نصّ على أن يشرب من مائهم (هو) وكل رجاله.

ومع ذبوع اسمه واستطارة شهرته لهذا العمل البطولي، إلا ان أسرته لم تتخذ اسمه لقباً. وانما لقت باسم ابنه [يوربون] (عرفوا باسم الاقريبونتيد Eurypontids)^(٩). ويعزى هذا الى أن [يوربون] أرحى من قبضته على المحكومين متطوعاً الى خطب ودّهم ورضاهم.

فكثرت مطالبهم بعد هذه الخطوة الأولى. وكره العامة الملوك المتعاقبين بعده وسخطوا عليهم بعض الشيء لأنهم حاولوا استخدام القوة، أو لاعطائهم تنازلات أخرى وإظهارهم الضعف اما لخور في نفوسهم او لليل المزيد من حبّ الناس. وسادت الفوضى سبارطا زمناً طويلاً ومما سببته، موت والد ليكورغوس. اذ بينما كان يحاول تهدئه شغب، طعن بسكين جزار فتضى نجه وخلف الملك لابنه الاكبر پولندكتس Polydectes.

(٧) سكان (ميلبوس) وهي مدينة بحرية من مدن لاقونيا فتحها اللقيديميون واستمبدوا أهاليها وأطلقوا اسم الهيلوت لا عليهم وحدهم بل على كل عبيدهم الآخر. وعلى اية حال فمن المؤكد ان نسل الهيلوت الاصلاء وان كانوا قد لقوا اسوء ما يتصور من المعاملة (بمضهم أغتيل) فانهم مكثوا في لاقونيا عصوراً.

(٨) الكيتوري Clitori شعب من اركاديا، اسمهم جاء من مدينتهم التي استمدت اسمها من اسم ملوكهم. يوجد بالقرب من هذه المدينة نبع ماء يثير الشرب منه اشمنزازاً وصدوداً في النعس عقيماً عن الخمر. [أرسطو. ميتافزيقا ١٥: ٢٢٢].

(٩) من المفيد هنا تقديم للقراري فذلك عن نظام الحكم الملكي اللاقوني على عهد الأسرة الهيراقلدية. هذه الأسرة طردت [تيسامينيس] ابن [أورستس]. وحلّ يورستينس وبيروكس ولداً [أرسطو زيموس] محلّه. واتخذ حكمهما منحىً جديداً فكان ثم ملكان بدلاً من واحد سلطتهما متساوية ولم يقسم الأخوان المملكة بينهما ولم يتفقا على المناوبة في الحكم بل حكماً معاً وفي أن واحد ومما يدعو الى العجب انه يصرف النظر على المحاسدة والمنازعة. فان هذه الملكية الثنوية لم تنته بنهاية هذين الأخوين بل استمرت في تعاقب ثلاثين ملكاً من فرع يورستينس، وسبعة وعشرين ملكاً من صلب بيروكس. [يورستينس] خلف [أعيس] وبه سميّ نسل هذا الفرع (أنغيدي) في حين اتخذ الفرع الثاني اسم (أفريتونيدي) نسبة الى (أفريتون) حفيد [بيروكس]. [أنظر پلوسنياس، سترابو، هيرودوتس وغيرهم].

وتوفي هذا بعد فترة قصيرة، فأل حق العرش (كما خيل للجميع) الى ليكورغوس، ومُلك فعلاً، حتى تبين ان زوج أخيه المتوفى حامل، فسارع ليعلن ان الملك يعود لعقب أخيه ان ولد ذكراً. وانه سيمارس تبعات الحكم وصلاحياته بالوصاية فحسب. والاسم السبارطي للوصاية هو پروديكوس Prodicus بعد ذلك عرضت عليه الملكة الحامل ان تسقط جنينها بصورة من الصور شريطة ان يتزوجها عندما يعتلي العرش. ماستنكر شر المرأة ومحitte نفسه إلا انه لم يرفض اقتراحها صراحةً وإنما تظاهر بقبوله وأرسل رسولاً لابلأغها شكره وفرحه ولكنه أصرّ مشدداً بالآ تلجأ الى اسقاط جنينها لما ينطوي عليه ذلك من الأذى، هذا إن لم يتضمن خطراً على حياتها قائلًا انه سيقوم هو نفسه بالتخلص من الوليد حال وضعه. وبامثال هذه الوسائل والحيل أمكنه أن يحوز ثقة المرأة ويبلغ بها نهاية أيام حملها. ولما سمع انها في المخاض ارسل اشخاصاً ليكونوا قريبين منها وليلاحظوا كل ما يجرى. وزودهم باوامر تقضي ان يتركوا الوليد لأمه إن كان بنتاً وان يأتوا به اليه حالاً أينما وجد ومهما كان يفعل، إن وُكِد ذكراً، وأتفق انه كان يتناول عشاء مع كبار القضاة عندما وضعت الملكة ابناً. فجيء به اليه وهو جالس الى المائدة فتناولوه بيديه وقال لمن حوله: «يا رجال سبارطا هوذا ملكٌ ولد لكم» ثم وضعه على سرير الملك وسمّاه [خاريلأوس Charilaus] أي «فرحة الشعب» لأن الجميع تملكوا الاعجاب والغبطة لما واؤوا من روح ليكورغوس النبيلة العادلة.

لم يطل به الحكم غير ثمانية أشهر، إلا أن الشعب أكبره وأحبّه لأسباب أخرى غير الملك. واطاعه العديد لفضائله السامية لا لأنه وصي على العرش بيده الحل والعقد. إلا ان بعضهم حاول غمز نفوذه المتعاطف وقت شبابه. لاسيما اصدقاء الملكة الأم واقرباؤها فقد زعموا أنه لم يعدل في معاملتهم وكثيراً ما الحق به الأذى. وفي نقاش حاد جرى بين [ليكورغوس] وبين [ليونيداس Leonidas] أخ الملكة لم يتورع ان يشتتمه بقوله: انه لعلى يقين تام بأنه لم يمر زمن طويل حتى يراه ملكاً يريد من قوله هذا أن يزرع الشك في النفوس، وبهيء الاذهان الاتهام [ليكورغوس] باهلاك الطفل في حالة موته ولو بصورة طبيعية. ونشرت الملكة الأم واتباعها امثال هذه الحكايات من عمد، وتصميم فانتابه قلق شديد، وأصبح وهو في خوف مما سيحيي به المستقبل. ووجد خير سبيل لأجتنب الشر هو التفي الاختباري والانتقال من بلاد الى أخرى حتى يبلغ ابن أخيه سن الزواج، ويضمن ولي عهد له.

فركب البحر إذن يحده هذا العزم وبلغ (كريت) أولاً، وفيها درس مختلف أجهزة حكمهم وتعرف بأعلامهم، وأستحسن بعض قوانينهم^(١٠) ورأى ان يفيد منها في بلاده، وأهمل طائفة

(١٠) يرى اقدم الكتاب (امثال افورس، كاللتنس، ارسطو افلاطون) ان ليكورغوس اقتبس كثيراً من شريع =

كبيرة منها إذ لم ير فيها جدوى وصلاً وكان [طاليس Thales] ^(١١١) من أشهر الرجال الذين عرفوا بالحكمة، والعلم، والوقوف على شؤون السياسة والحكم، فاقنعه [ليكورغوس] بحكم صداقته وبالحاجة الشديد، أن يسافر معه إلى [لقيديمون] ومع أن مظهر طاليس الخارجي ومهنته الخاصة لا ترفعه إلى أكثر من درجة شاعر غنائي، إلا أنه قام والحق يقال بمهمة مشترع من أقدر واكفاً المشتريين في العالم. فاناشيده التي تدفع وتحث النفوس على الطاعة والتعاضد، وقوافيه واوزانه التي تحمل في طياتها فكرة النظام والهدوء، كان لها تأثير عظيم على عقول المستمعين تلين طباعهم وتهذب نفوسهم فلا يشعرون، إلا وقد نبدوا الحزازات والأحقاد واتحدوا معاً في إعجابهم وحبهم بالفضيلة. ان [طاليس] مهد السبيل للنظام الذي ابتدعه [ليكورغوس].

وأنتقل من كريت إلى آسيا عازماً - كما قيل - على تأمل أوجه الخلاف بين قواعد وأساليب حياة أهل كريت الجذبة الرزينة جداً، وبين عادات الأيونيين ^(١١٢)، الرقيقة المرفهة. لينبئ له من ذلك رأياً - كما يقارن الأطباء بين المرضى والاصحاء. ووقع نظره هنا ربما ^(١١٣) لأول مرة على ملاحم هوميروس وقد حفظتها أيدي أسلاف [كريوفيلوس Creophus] بلا شك. ولما وجد أن الدروس السياسية الرضية والمبادئ الخلقية والحكم تشيع في تلك الأشعار حتى تكاد تعفو على التعابير المتبذلة والأمثال السيئة التي توجد فيها ^(١١٤)، شرع حالاً في نقلها وتنسيقها

= جزيرة كريت إلا أن يوليبيوس (٦) يصنّ على تخطئتهم جميعاً ويقول «في سبارطا، الأراضي كلها موزعة على المواطنين، ولا وجود للثروة، والحكم وراشي في حين أن الأمر خلاف ذلك في كريت» على أن هذا لا يدل بأن ليكورغوس لم يأخذ بطائفة من الأحكام الجيدة والأعراف السائدة في كريت، وأفعال ما لا يصلح. على أنه ثم تشابهها عظيم بين شرائع ليكورغوس وشرائع (مينوس) ملك كريت بحيث وجب علينا أن نشايح سترابو [١٦] في إيمانه بأن الواحدة كانت أساساً للأخرى. أيهما؟؟
(١١) كان طاليس شاعراً وموسيقياً ويجب ألا يخلط بينه وبين (طاليس المليسي) الذي عدّ من حكماء اليونان السبعة. وقد عاش الشاعر قبل الفيلسوف بمائتين وخمسين عاماً تقريباً.
(١٢) أرسل الأيونيون من أتيكا مستعمرين إلى جزء من آسيا الصغرى يقع بين ليديا وكاريا في حدود العام ١٠٥٠ ق.م أي قبل عصر ليكورغوس بقرن واحد ونصف قرن ومع أنهم يقطعوا أواصرهم مع الوطن خلال هذه الفترة القصيرة. إلا أن مشرّعنا استطاع الحكم على التأثير المناخي والانتاجي لآسيا، حتى أن هؤلاء المستعمرين أصبحوا مضرب المثل في الفنون والميوعة.

(١٣) ويضيف كلمة «ربما» لأن بعض الكتاب الأغريق أكدوا أن ليكورغوس التقى بهوميروس بالذات وكان آنذاك يعيش في (خيدس)، على أن بولتارخ هو صاحب الرأي المتمد هنا، فقد مات هوميروس قبل ميلاد ليكورغوس ولم تكن اليونان قبل عهد ليكورغوس تعرف شيئاً عن هوميروس خلا مقطوعات متفرقة عرفت معاوين موضوعاتها مثل «بطولة ديوميده» أو «فدية هكتور» وغير ذلك.

(١٤) أن حكم افلاطون في هذا الموضوع يختلف تماماً عن رأي ليكورغوس فحين استبعد الشعراء من «جمهوريته» لم يستثن حتى هوميروس نفسه الذي وجده أدبياً مفسداً للشباب لأنه لم يقدم صورة لائقة للآلهة كما يراها افلاطون. في عدائه هذا لهوميروس يقف افلاطون وحيداً لاناصر له.

نظام لطيف لما رأى فيها من فائدة لبلده. كانت هذه الملاحم في الحقيقة قد حظيت ببعض شهرة بين الأغريق، ووصلت شذرات واجزاء مقتضية منها قبله الى أيدي بعض الأفراد بحكم الصدف الا ان ليكورغوس هو أول من نشرها واذاعها.

يقول المصريون أنه رحل الى مصر ومكث فيها، وأعجب كثيراً بأسلوب تمييز الطبقة العسكرية عن بقية السكان^(١٥)، فنقل هذا النظام الى سبارطا. لأن إبعاد هذه الطبقة عن الذين يمتنون الأعمال الجسدية يكسب الدولة روعة ومهابة عظمتين. ولقد دون ذلك أيضاً بعض الكتاب الاغريق. وأما عن رحلاته في اسبانيا وافريقيا والهند، ومناقشاته مع [الحنموسوفسيين Cymnosophist]^(١٦)، فمصدر كل الروايات الوحيد عنها كما وجدت - هو ارستوقراطس Aristocrates السبارطي ابن هيبارخوس Hipparchus.

واشتاق أهل سبارطا الى ليكورغوس كثيراً، وانحوا عليه بالعودة مراراً قائلين: «حقاً ان لدينا ملوكاً، يرتدون شارات الملك ويتخذون ألقاب الجلال والسلطان، أما عن مداركهم وسعة عقولهم فليس فيها ما يميزها عن عقول أفراد رعيتهم.» وزادوا قائلين ان فيه وحده تظهر أرومة السيادة الحققة، والطبع الذي خلق ليحكم، والإرادة التي وجدت لتطاع. ولم يكن الملكان نفسيهما بالكاهن عودته، لأنهما كانا يعتبران وجوده سداً واقياً لهما من غائلة شعبيهما.

وطالعت هذه الحقيقة عند عودته، فانصرف حالاً دون، أن يضيع وقتاً - الى الإصلاح الشامل، عزم أن يغير وجه الجمهورية بأسره اذ ما فائدة قوانين قليلة وتغييرات جزئية؟ كان عليه أن يعمل كالطبيب الواسع العقل عندما يجابه مريضاً تكالبت عليه الاسقام وأختلطت فيه، فيقوّة الأدوية ينهكه ويضعفه، ويغير من كل مزاجه ثم يخضعه بعد ذلك الى نظام حمية

(١٥) المصريون لم يميزوا العسكريين والكهنة (وهما غالباً من الأشراف) عن بقية طبقات الشعب لكنهم ميزوا نوبي المهن الأخرى كالزراعة، ومربي البقر، والتجار، والبحارة والمترجمين وهم ينحدرون من قبائل وطبقات مخصوصة يأخذ فيها الابن عن الأب حرفته ويرى هيرودوتس (٢ ١٨٦) ان النظام المذكور استمدته ليكورغوس من مصدر أقرب الى موطنه من مصر، فقد كان سارياً عند التراقيين، والصيبيين وغيرهم.

(١٦) فلاسفة الهنود القدماء هي طائفة منصرفه الى التأمل والصمت، يكاد أهلها لا يرتدون شيئاً من الثياب يعيشون في الغابات، والبرهميون فصيلة من الطائفة نفسها وهم يكرهون البطالة كراهة تحريم. ويحدثنا اپوليوس انهم اوجبوا على تلاميذهم تقديم حساب يومي عن عمل طيب قاموا به أو بالتأمل بعمل أقدموا عليه قبل السماح لهم بالجلوس لتناول العشاء. وهم يؤمنون بالتناسخ وبحياة أخرى أفضل وأطيب حتى انهم ما كانوا ليريدوا قذف أنفسهم الى النار عندما يشبعون من الحياة. أو تصيبهم مصيبة. ونخشى ان يكون الخيلاء والاعتداء بالنفس، الدافع الذي دفع أحدهم الى احراق نفسه امام اسكندر الكبير، وآخر الذي قضى حرقاً امام اغسطس قيصر. وما يزال الخلاف قائماً حول صحة زيارة ليكورغوس الهند من عدمه - بين مترجمي بلوتارح الفرنسيين أمثال (داسييه وريكارد).

دقيق جديد تماماً. وبعد أن صورَ لنفسه مشاريعه المقبلة، قصد دلفي لاستحارة أبوللو^(١٧) هناك وبعد أن نال بغيته، وقدم قربانه عاد بالنبوءة الشهيرة التي سُمي فيها «حبيب الله» و«الأقرب إلى الآلهة» إلى البشر» وأن صلاته استجيبَت وأن قوانينه ستكون خير ما وجد، وأن الجمهورية التي ستسير عليها ستكون أشهر جمهورية في الدنيا. كل هذا شجعه على كسب وجهاء سبارطا إلى جانبه وأقنعهم بمدِّ يد العون له في مشاريعه العظيمة، وأسرَّ بالمسألة أولاً لأقرب اصدقائه وكسبوا هم أنصاراً آخرين بالتدريج، والهب حماسة الجميع لتنفيذ مآربه، ولما حانت ساعة العمل، أمر ثلاثين من سراة سبارطا، أن ينزلوا سوق المدينة بسلاحهم فجر اليوم التالي، ليبتِ الرعب في نفوس الحزب المناوئ. وذكر [هرميپوس Hermippus] أسماء أشهر وأبرز عشرين منهم. إلا أن [ارثميادس Arthmiades] كان أسم أبرز الجماعة كافة، وأقربهم إلى ثقة ليكورغوس وسرَّه، وأكثرهم نفعا له في سنِّ قوانينه ووضعها موضع التطبيق. اضطربت الحواطر، وساد الهياج وتوهم الملك [خاريلوس] أن مؤامرة تحاك ضده، فاسرع يحتمي بمعبد البيت النحاسي^(١٨)، ولكن بعد أن تبين أنه واهم، واخذ العهود والمواثيق منهم بأنهم لا ينوون به شرأ، ترك ملجأه وانضم هو نفسه إليهم. كان [خاريلوس] إنساناً من أرقُ والطف الناس وأكثرهم سماحة. حتى أن [ارخيلوس Archelaus] أخاه في الملك يقول فيه عندما كانت طبيبته تمدح أمامه: «من يستطيع القول عنه أنه طيب؟ وهو لا يعرف الصرامة حتى مع الأشرار».

من التغييرات الكثيرة والاصلاحات التي عملها ليكورغوس، اوكها وأعظمها أهمية انشاء مجلس للشيوخ. سلطاته مساوية لسلطات الملك في الأمور الهامة جداً، ليحدَّ من سلطات الملك، ويعدِّل ويلطف من اندفاعاتها النارية^(١٩)، وبذلك يشيع الثبات والاطمئنان في بناء

(١٧) اقنع (مينوس) أهل كريت بأن قوانينه نزلت عليه وحيأ من (چوپتر) وقلده في ذلك ليكورغوس تحدوه الرغبة في اقناع أهل سبارطا بأن فعل ما فعل بتوجيه وأمر من (أبوللو). هناك مشترعون آخرون وجدوا من الأفضل كثيراً أن يرضخوا هذه الفكرة القائلة بأن شرائعهم ونظمهم إنما جأتهم من الأرباب. لأن حبَّ النفس في الطبائع البشرية الذي لا يتسامح ولا يتحمل تفوقاً عبقرياً تمثل في مشروع لم يعاونه أحد في عمله، يجد راحة وسهولة في تطبيق احكام ذلك المشروع عندما يقال له انها أوحيت اليه في السماء ولهذا نجد والضعفي الشرائع القديمة يعزونها الى الارادة الالهية دائماً لأن في ذلك تعزيزاً لشأنها ورفعاً من قدرهم كما يضمن لهم فضلاً عن ذلك قيام الأهالي بالدفاع عنها ومعاونته ضميرياً في تطبيقها والتقييد باحكامها.

(١٨) اي خاليوكس وهو هيكل الزينة اثبات. وكان شاحصاً في ايام (پاوسنياس) المعاصر لماركوس انطوليوس. (١٩) الفقرة التي يشير إليها المؤلف هي في كتاب املاطون الثالث حول الشرائع حيث نجده يبحث في أسباب سقوط الدول ويضع الكلام التالي على لسان اثيني قائلاً يخاطب اللقيديميي. «في اعتقادي إن آلهة من الآلهة مدموعاً بغيرته على دولتكم ولمعرفته بما سياتي به المستقبل أعطاكم ملكين من أسرة واحدة -

الجمهورية» على ما يقول [افلاطون]. لأن الدولة قبل ذلك لم تكن تستند على قاعدة ثابتة فمرة تقبل إلى الملكية المطلقة لفترة من الزمن، عندما يستظهر الملوك، ومرة تقبل إلى الديمقراطية الصرفة عندما ترجح كفة الشعب وتكون لأرادته الكلمة العليا. فكان مجلس الشيوخ هذا بمثابة قطب الرمح، كالثقل في السفينة فانها تحفظها دائماً في توازن تام، ينحاز أعضاؤه السماوية والعشرون دائماً إلى جانب الملوك لمقاومة التيار الديمقراطي، ويساندون الشعب من الجهة الثانية ضد أي محاولة لقيام ملكية مطلقة. وأما بخصرص تحديد العدد بثمانية وعشرين فيقول [أرسطو] عُرِي سببه إلى أن اثنين من المؤقرين الثلاثين الأصليين عدلاً عن المساهمة في الخطة لجن اعتراهما ولكن [سفسيروس Sphaerus] يؤكد لنا أن العدد المؤقرين كان ثمانية وعشرين بالأصل، ولعل هاك سرّاً في العدد الذي يتضمّن سبعة مضروبة في أربعة والسبعة هو أول عدد تام بعد الستة ولذلك كن متساوياً في كل أجزاءه^(٢٠). وأما رأيي الخاص فهو أن ليكورغوس حدّد العدد بثمانية وعشرين على أن يُعدّ الملكان بين الاعضاء فيكمل العدد ثلاثين.

ولقد كان شديد الاهتمام بإنشاء هذا المجلس حتّى أنه راح ينشد نبوءة عنه من دلفي. فأنزل عليه ما سمي مرسوم [الريترا Rhetra] وهو كالآتي: «بعد أن تقوم بيناء معبد [جوبيتر هيليانوس Helianus] و [مينرفا هيلانيا M. Hellania] أن تقوم بتنظيم الشعب في «فيليس Phyles» وترصّهم في «أوبس Obes» عليك أن تؤسس مجلس شورى من ثلاثين شيخاً بضمنهم الزعيمان، وعليك أن تجمع الشعب بين فترة وأخرى في إپيللازين Apellaze-

= ليحكم بعدالة أكثر عند ممارستهما الحكم وبذلك تتمتع سيطرة بأعظم الاستقرار. وبعد هذا عندما تنزع الملكية إلى الاستبداد والحكم المطلق تقوم روح الالهة متقمصةً جسداً بشرياً (هو ليكورغوس) بوضع اسباب الحكم ضمن حدود العدل والمساواة عن طريق سلطة مجلس الشيوخ الحكمة المساوية لسلطة الملكين». ويقوم أرسطو [السياسة ٧:٢] بتغطية هذه الفكرة من ناحية بقاء الشيوخ في مناصبهم طوال العمر فيقول: «من السخف إن تودع مصائر المواطنين أيدي رجال قد يحول تقدمهم في السن دون دقة التمييز. فالعقل يهرم مع هرم الجسد. كذلك ليس معقولاً أن يكون هؤلاء معصومين لا يمكن محاسبتهم على أفعالهم وأحكامهم». لكن يبدو أن حلاً مجدياً تم الوصول إليه للمشكلة الأخيرة بإبتداع نظام الايقوري فيما بعد. وقد استحدث بصورة رئيسة للدفاع عن حقوق الشعب وإذا بصيف افلاطون قوله: «والنعمّة الثانية التي حظيت بها سيارطه هو ذلك الأمير الذي رأى أن السلطان الشيوخ وسلطان الملكين مفترقات في التحكم والاستبداد ويستحيل وضع رقابة عليهما. فابتدعت سلطة الايقوري كبح جماحهما». إن أعجب ما في النظام هو وجود ملكين لكن وبعد أن فقدت أجهزة حكم ليكورغوس نفوذها الأول حطمت الأحزاب التي خرجت في هذه المنازعات، كيان سيارطه. ومع هذا فإرسطو في [السياسة ١:٥] يعزو دوام تلك الدولة إلى توزيع السلطات:

(٢٠) على أغلب الاحتمال لم يكن ليكورغوس على علم بقانون الاعداد. كما كان أبعد من أن يضع قوانينه على أساس التفكك واللعب الفكري.

in ما بين (بابيكا Babyca) و(كناسيون Cnacion)^(٢١). وهناك بمقترعون وتؤخذ اصواتهم، ان للشعب الكلمة الأخيرة والقرار النهائي». ويقصد بكلمتي Obes & Phyles طبقنا الشعب، وبالزعمين يقصد الملكان، وبأبيللازين يشير الى ابوللو البيشي، ويقصد بها الاجتماع، وبابيكا وكناسيون هما الآن [اونوس Oenus] على ان ارسطو يقول أن [كناسيون] هو نهر، و[بابيكا] جسر، وبين هذا النهر والجسر كان يتم الاجتماع اذ لم يكن لديهم بيت شوري، ولا بناءة يجتمعون تحت سقفها. وكان ليكورغوس يرى أن البهجة والزخرفة في مجالس الاجتماعات لا تفيدهم في شيء، وانما قد تغدو عائقاً لانه يصرف المجتمعين عن الشؤون التي اجتمعوا لها الى التماثيل والتهاوليل والسقوف المزخرفة المنقوشة، وغيرها من التوشية الفنية التي تحفل امثال هذه البناءات عند الاغريق الآخرين في هذه الاجتماعات العامة تعقد في الهواء الطلق لا يسمح لاي فرد أن يعطي رأيه بل يحق له إما أن يصادق أو ان يرفض ما يعرضه عليهم الملك أو مجلس الشيوخ. ولكن عندما أخذت العامة تشوّه وتحرف مدلولات المبادئ عن معانيها الاصلية باضافة كلمات معينة أو حذفها، أدخل الملكان [بوليدوروس Polydorus وثيريومپوس Theopompus] الفقرة التالية الى [الرتيرا العظمى] أو الميثاق الاعظم: «يحق مجلس الشيوخ والزعماء أن ينقضوا اي قرار أخطل اتخذه العامة». أي أن يرفضوا ابرامه ولهم أن يحلوا جمعية الشعب بحجة أنها أخطأت وحادت عن جادة الصواب في مشورتها.

وتمكنوا بالخذاع والحيلة أن يلقوا في روع الجمهور بأنها مساوية لبقية الرتيرا في درجة صحتها كما يبدو ذلك من أبيات الشاعر [ترتيوس Tyrtaeus] التالية^(٢٢):

هذي النبوءات الصحيحة التي سمعوها من [ابوللو]
وجاؤوا بأقوالها الصادقة من معبد [پيثو Pytho]:
«الملوك الذين عينتهم السماء، واحبوا الأرض،
يكونون اوانل في مجلس شوري البلاد.
ويأتي الشيوخ في المحل الثاني، ويأتي العامة أخيراً.
ألا فلنؤسد شريعة ريترا صحيحة بين الجميع!

ومع ان ليكورغوس اتخذ كل الاحتياطات الممكنة لتلطيف جهاز حكمه الجمهوري فان اولئك

(٢١) لعلها اسماء رواغد صغيرة لنهر الفروقتاس.

(٢٢) شاعر غنائي اربله الاثينيون بعد منحه رتبة جنرال - على رأس قوة لنجده السبارطيين. نصرأ على المسينيين. عندما همسهم واستنهنض مهمم بقصيدة انشدها وهو على رأس قواته العسكرية.

الذين عقبوه وجدوا ان التيار الاوليفارشي^(*) «مرغياً ومزبداً ولأجل أن بكبح مزاجه الحاد وصولته الجائحة، وضعت لُقمة في فمه» على حَدِّ قول افلاطون^(٢٣)، هذه اللُقمة هي إحدَث سلطة الايفوري Ephorie^(٢٤) التي أنشئت بعد موت ليكورغوس بمائة وثلاثين سنة. وكان [إيلاتوس Eliatus] وزملاؤه أول من أسندت اليهم هذه الوظيفة في زمن حكم الملك [ثيويپيوس]، الذي اجاب زوجه الملكة عندما عيّرتة يوماً ما، بأنه سيخلف سلطة الملك لأولاده وهي أقل مما تسلمها من أسلافه؛ قال «كَلَّأ بل أكثر، لأنها ستدوم وقتاً أطول». ذلك لأن الملوك السبارطيين بعد أن رسمت لسلطاتهم حدود معقولة، تحرروا تماماً في الأخطار، والمؤامرات ولم يعانون قط المصائب التي انصبت على جيرانهم في مسيني Messene وأرغوس Argos، أولئك الذين حرصوا على سلطاتهم، وابوا التنازل للشعب عن قليل منها، فحسروها كلها.

(*) Oligarchy: هو حكم الأقلية أو الصفوة المنتخبة [م. ت.].

(٢٣) افلاطون: القوانين ٦٩٢.

(٢٤) هيرودوتس (٦٥:١) و[كزينفون جمهورية لقديسية ٨] يتولان ان ليكورغوس هو الذي عين الايفوري شخصياً. إلا أن التفاصيل التي يبسطها المؤلف مقتبساً من ارسطو (السياسة ٧) وغيره، باعتبار انها لم تستحدث إلا بعده بزمان طويل، يبدو اقرب الى المعقول. ان لا يحتفل مطلقاً ان ليكورغوس الذي ساند الارستقراطية بكل قواه ولم يترك للشعب شيئاً إلا حق القبول أو الرفض - انه يعين نوعاً من مفوضين شعبيين ويجعلهم سادة مساوين للملك ولجلس الشيوخ. بعض المؤرخين يرون ان الايفوري كانوا في مبداء الأمر خلصاء للملك يتدبجهم لممارسة سلطته عندما يذهب للحرب لكن المعروف الاكيد ان الشعب كان يختارهم عن طريق الانتخاب من مجموع الدماء وأحياناً من بين ادنى طبقة من الدماء حيث ان اجراً المواطنين وأصلهم يكون أكثر حظاً للفوز بمثل هذه الوظيفة - كائناً ما كانت صفته. فهي وظيفة القصد منها الحد من سلطة الملكين وسلطة الشيوخ. وعدد الايفوري خمسة. في جمهورية قراطجة ويجرى انتخابهم كل سنة. وقد رسم ان تكون قراراتهم بالاجماع لتفقد سلطاتهم ذات تأثير. كانت سلطاتهم محددة بشكل جيد. إلا انها تهررت بمرور الزمن من كل قيد. فصاروا يرأسون الاجتماعات العمومية ويقومون بأحصاء الأصوات في الاقتراع، ويظنون الحرب ويفقدون معاهدات السلم ويتفاوضون مع الدول، ويقررون عدد القوات المجنّدة، مع تحديد مصروفاتها ويوزعون المكافآت ويفرضون العقوبات باسم الدولة. ويعقدون مجالس قضاء ويحققون في سلوك الحكام والقضاء ويشرفون على تعليم الشباب وتوجيه سلوكهم. كما زوّدوا بسلطة خاصّة على الهيلوت، ويمتصرون القول انهم حصروا كل السلطات الادارية والتنفيذية بأيديهم شيئاً فشيئاً ومضوا الى الحد الذي قاموا بتنفيذ حكم الموت بالملك [أغيس] بزعم انهم يفنون حكم العدالة. أخيراً قتلهم [كليمنيس] صبراً.

يرى (بارنلي) في كتابه (رحلات اناخارسيس) ان صلاحيات الايفوري كانت حتى عهد ليكورغوس قاصرة على الحكم الداخلي حين اثار والشعب وحرصوه على مقاومة الشرائع الجديدة. وكان لامالي كريت الذين اقتبس عنهم - ضباط يقارنهم ارسطو بالايفوري، يعرفون باسم (كوزمي). على ان معظم الكتاب لا يذكرون الايفوري بوصفهم بدعة من بدع النظام أوجدها [ثيويپيوس] بل اعتبارهم جهازاً من شأنه الحد من سلطة الملك وكبح جماحه. فالاحتمال انن هو ان ليكورغوس ابقى لهم بعض الامتيازات. وان ثيويپيوس زوّدهم بسلطات أخرى مما جعل النظام يبدو نوعاً من الاوليكارشية.

والحق يقال ان كل من يتأمل في الفتن والثورات وسوء الادارة التي حلت في هاتين الدولتين الجارتين اللتين تتصلان بالدم فضلاً عن صلة الجوار لا يسعه إلا أن يجد خير سبب للعجاب بحكمة ليكورغوس ويعد نظره. فهذه الدول الثلاث من أول نشأتها كانت متسارية، أو اذا كان هناك اي امتياز فقد اختصت به دولنا [مسين وارغوس] اللتين اعتبرت أسعد خطأ من الثالثة (سبارطا) (٢٥) في أول القسمة. وكانتا يمتلكان اراضي أفضل (٢٦) ومع هذه لم تطل سعادة البلدين طويلاً، بسبب طغيان ملوكهم من جهة، وبسبب صعوبة حكم الشعبين من جهة، وسرعان ما سادتهما الفوضى، وانهارت صروح اجهزة الحكم والمجتمع فيهما، مما أظهر بكل وضوح مبلغ الخطوة التي نالها السبارطيون من لدن الآلهة بانعامها عليهم بوضع قوانينهم الحكيم الذي منح حكومتهم استقراراً وتوازناً سعيداً.

بعد تعيين الشيوخ الثلاثين، كانت مهمته التالية التي باشرها هي أخطر المهام طراً. أعني القيام بتوزيع جديد للأراضي الزراعية، حيث كان يوجد تفاوت عظيم في هذا بين الناس، والدولة توزع تحت عبء الشكوى والسخط العام الذي يثيره الفقراء والمحتاجون في حين كانت الثروة كلها مركزة في أيدي قلة ضئيلة، فلأجل أن يزيل من مجتمع الدولة التحاسد والتباغض، والاجرام والترف، وتلك الأمراض المتأصلة المزمنة، الفقر، والغنى الفاحش، حملهم على التنازل عن ملكياتهم جميعاً، والرضى بتقسيم جديد للأرض، وأقنعهم بأن يعيشوا معاً على قدم المساواة، وان تكون الجدارة والأهلية هي السبيل الوحيدة الى التقدم والشهرة؛ وتقبيح الشر، وحسن الجزاء للأعمال الطيبة يكونان معيار الخلف الوحيد بين انسان وانسان.

بعد موافقتهم على مقترحاته هذه، باشر في الحال بوضعها موضع التطبيق فقسم بلاد [لاقونيا] مبدئياً الى ثلاثين ألف سهم متساوٍ وقسم الجزء المرتبط بمدينة سبارطا الى تسعة آلاف سهم وزعها على السبارطيين، كما وزع السهام الأولى على باقي المواطنين الريفيين. ويقول بعضهم أنه خصص للمواطنين السبارطيين ستة آلاف سهم فقط وان الملك [بوليدوروس] أضاف اليها ثلاثة آلاف أخرى. وقال: آخرون ان [بوليدوروس] اضاف مثل عدد السهام التي حددها ليكورغوس بأربعة آلاف وخمسمائة فصارت تسعة آلاف وكانت قطعة الأرض الواحدة تنتج سنوياً (بأخذ معدل سنتين متتاليتين). حوالي سبعين بوشلاً* من القمح

(٢٥) هذه الدول الثلاث تدعى انحدارها من دولة واحدة هي دولة الهيراقليدي (فارغوس ومسيني) تردان اصولها الى (تمينيس) (وكرسفونتنس وسبارطا) تُردان الى افرسنتينس وپروكلس ابني اريسطو نيموس.
(٢٦) تغطي الجبال ارض سبارطا لتجعلها غير صالحة للزراعة تقريباً في حين نجد (سترابو) يصف سهول ارغوس ومسيني بالخصوبة وكثرة المياه ويحطها اخصب جزء من بلاد الاغريق.
(*) ميكال للقمح تعادل سبعة ثمانية غالونات [م.ت].

لرب الأسرة، وأثنى عشر بوشلاً لامراته. مع مقدار مناسب من الزيت والخمر، وهو ما يكفي في اعتقاده لبناء الأجسام قوية صحيحة، أما الفائض عن الحاجة فلا خير فيه لهم. وروى أنه كان عائداً من رحلة له، بعد تفسيحه الأراضي بزمان وجيز، وصادف أن كان وقت الحصاد والأرض قد حصدت لتوها. فأبتسم إذ شاهد اكوام القمح قائمة وكلها متساوية وقال لمن حوله «أرى لاقونيا كلها تبدو مثل مزرعة أسرة واحدة، قسمت بين عددٍ من الأخوة».

ولم يقنع بهذا، وقرّر أن يعرّى توزيعاً في أموالهم المنقولة أيضاً. حتى لا يبقى أي فرق أو تفاوت كبير بينهم. ووجد أن تطبيق ذلك بصورة صريحة، ينطوي على أعظم المخاطر، فسلك سبيل الحيلة^(٢٧) وتغلب على حرصهم بالخطة التالية: أمر أن يُغلب التعامل بالنقد الذهبي والفضي الغاء تاماً. وإن لا يسمح إلا بنوع من النقود الحديد وهي ذات حجوم كبيرة وثقل عظيم، وقيمة تافهة جداً. فلأجل حفظ ما قيمته مئائين^(*) يتطلب خزانة واسعة جداً. ولأجل نقل هذه الكمية يحتاج إلى ما لا يقل عن زوج من الثيران. وتداول هذه النقود أختفى في الحال عدد من الرذائل وزالت من لقيديمونيا. إذ من يخطر بباله أن يسرق مثل هذه النقود؟ ومن يمسك شيئاً بدون لا تكون قيمة له، ولا فائدة فيه حتى لو قطع أجزأه. إذ أنهم كانوا يغطون السكّة وهي محمرة في الخل وبهذه الوسيلة يتلف معدنها ولا تعود صالحة لشيء.

ثم انه أصدر أمراً بعدم قانونية مزاوله كل الفنون غير المفيدة، المترفة، وما كان الأجدر به هنا أن لا يصدر مثل هذا الأمر، فهذه الفنون ماتت من تلقاء نفسها ولحقت بالذهب والفضة، لأن النقود الجديدة لم تعد ثمناً صالحاً ومناسباً للتخفيف الفنية. لكونها من الحديد ولا يمكن تداولها بين سائر الأغريق الذين سيهزأون بها - هذا إن أمكن تصديرها ونقلها. وهكذا لم يعد ثم وسائل لشراء بضائع أجنبية وكماليات صغيرة، ولم يعد التجار يرسلون سفنهم المحملة بالبضائع إلى الموانئ (اللاقونية) أما أساتذة البلاغة، وقارئو الخط المشعبون، وتجار البغايا، ونقاشو الفضة، وصاغة الذهب، والجواهريون، فلم يعودوا يرون جدوى في زيارة بلاد ليس فيها

(٢٧) ظلّ السبارطيون بعد ليكورغوس رجعاً طويلاً من الزمن ينفرون نفرة شديدة من زيادة العرض وحب الاقتناء إلى حد أن شاباً أشتري ضيعة بقائدة عظيمة فاستدعي ليؤدي حساباً على ذلك وفرضت عليه غرامة. فقد وأراً انه عظيم الشئع إلى جانب جرعية في شراء حاجة بأقل من قيمتها لأنه استخدم عقله من أجل الربح وهو في العمر الذي يجب أن يفكر الناس في الاتفاق. لكن عندما لم يعد السبارطيون قانعين بحدود بلادهم وارتدوا التوسع خلافاً لما كان ليكورغوس ينهاهم عنه، فقد اشتبكوا في حروب خارجية. ولم تقبل نفوذهم في البلاد الأخرى. ووجدوا أنفسهم مرغمين على التوجه نحو الفرس الذين بهرتهم فضتهم ودميهم. وازداد جشعهم إلى حد شنيع حتى ضرب بهم المثل الذي ذكره افلاطون وهذا هو «يرى المرء قدراً كبيراً من النقود يدخل إلى لقيديمون. لكنه لا يرى منها شيئاً يخرج».

(*) حوالي ٤٠ باوناً استرلينياً.

نقود وهكذا أخذ الترف يزول ويتلاشى وهو يتجرد شيئاً فشيئاً عما يقويه وينعشه، حتى قضى عليه تماماً ومات. لم يعد للاغنيا، هنا افضلية على الفقراء لأن غناهم وثرأهم الواسع فقد سبيله الوحيد الخارجي، قُطِّلَ حببساً في الداخل لا يفعل شيئاً. وبهذا السبيل نبغ من الناس صناع مهرة وفنانون في عمل الأشياء المفيدة الضرورية للعموم، كالكراسي، والأسرة، والموائد، ومختلف ادوات الاسطبل في حدود حياة الأسرة. وكانت تلك الحاجات موضع اعجاب من يراها لدقتها. وتذكر بصورة خاصة طاس الشراب السمي كونون Cothon^(٢٨) فقد شاع أمره وتسابق الناس على اقتنائه. ولاسيما الجنود، على قول [كريتياس Critias]. فلونه يحول دون ملاحظة الشارب للماء العكر أو المشوب الذي قد يضطر المرء الى شربه بدافع الحاجة والضرورة. فقد جعلت هيئته بحيث يعلق الطين بحوانبه فلا يبلغ قم الشاب إلا الماء النقي. ولهذا أيضاً عليهم ان يشكروا واضع قوانينهم الذي أطلق منهم كوامن مهاراتهم وابداعاتهم في اصفاء صفة الجمال على الأدوات الضرورية ذات الاستعمال اليومي، بإراحة الصناع الفنانين من متاعب صنع الأشياء غير المفيدة. أما الضربة الثالثة، الأشد وقعاً والألمى حداً التي انزلها واضع القوانين العظيم هذا بالترف والشهوة الى الغنى فهو المرسوم الذي قضى بأن يأكل الجميع من مائدة عامة^(٢٩). فيتناولون الخبز واللحم وكلّ ألوان الطعام المقررة دون تفصيل، وأن لا يقضوا حياتهم في البيوت، مستقلين على الأرائك الوثيرة جالسين الى الموائد الحافلة باطايب الطعام، مستسلمين الى ايادى طهايتهم وحشمتهم ليُسَمِّتُوهم في الزوايا مثل الحيوانات النهمّة، وليتلفوا لا عقولهم وحدها، بل أجسامهم التي سيدركها بلا شكّ الخمول للافراط في الملذات، فتظل في حاجة مستمرة الى النوم الطويل والحمام الساخن، والراحة والابتعاد عن الجهد، وبعبارة أخرى ستكون بحاجة الى العناية قدر ما يحتاج ذوو الأسماء والزمنى إنه في الواقع لمعجزة خارقة ان يتم الوصول الى هذه النتائج.

(٢٨) اقرأ وصفاً لهذا الكأس الفخاري في الفقرة التي كتبها «كريتياس» وهي في الاثينيوس ١١ ١٠.
(٢٩) تعمق كزينفون في تحليل اسباب ذلك فراح ابعث مما ذهب اليه بليوتارخ وغيره اي انها ترمي الى قمع الرغبة بالترف. فقال ان المائدة الجماعية تقوم مقام مدرسة أو هي بمثابة معهد علمي يقوم فيه الكبار على تهذيب الصغار بان يقصّوا عليهم قصص الأحداث العظيمة التي عرفت بذكرايتهم وبهذا يثيرون في نفوس الجيل الجديد حبّ المعالي والشرق للآتيان بأشرف العمل. لكن وجد ان هذا لا يمكن ان يتحقق فعلاً بالنسبة لجميع المواطنين عندما زاد عددهم على عدد قطع الأراضي المقرر توزيعها لذلك انتقد المؤرخون ليكورغوس وقالوا كان عليه ان يجعل هذه الموائد الجماعية على حساب الدولة مثلاً جرى ذلك في (كريت) وبعد ان اقتبس معظم شرائعه منها (ارسطو: السياسة ٢: ٨). لكن علينا ان نتذكر بانهم كانوا قد أحتاطوا لتلك الزيادة في السكان بإرسال مستوطنين الى الخارج لذلك لم ينقل الفقراء عيه ليقيديمون الى أن اصيبت الحكومة بالانهلال.

على أن «أعظم ما يمكن أن يُسلب من الغنى ليس مجرد الشهوة الى التملك، وإنما طبيعة الغنى نفسها» على ما لاحظته [تيوفراستوس Theophrastus]، فيارغام الاغنياء على مجالسة الفقراء لتناول الطعام من مائدة واحدة، لا يسعهم ان يفيدوا من ثرائهم ولا أن يستمتعوا به ولا ان يرضوا كبرياهم بالنظر اليه أو عرضه على الأنظار. ولذلك لا توجد بقعة في الدنيا يصدق فيها المثل السائر بالحرف الواحد «بلوتوس Plutus آله الغنى، أعمى» مثلما يصدق في سبارطا. وهو هنا ليس أعمى فحسب، بل مثل صورة لا حياة فيها ولا حركة.

ولا يسمح لأحد أن يتناول طعاماً في بيته أولاً ثم يحضر الموائد العامة فكل امرء هناك يراقب أولئك الذين لا يأكلون ولا يشربون كالباقين ويعيرونهم بالتخث والرقّة.

هذا القانون الأخير اغاظ الاغنياء واستنفذ صبرهم بنوع خاص فاجتمعوا كتلة واحدة ثائرة على ليكورغوس، وانتقلوا من الكلمات الجارحة الى رجمه بالحجارة. حتى اضطر الى ترك السوق هارباً واتجه الى ملاذ مقدس لانقاذ حياته وشاء حسن حظّه ان يسبقهم جميعاً إلا شاب يدعى [الكاندر Alcander] لم يكن فظاً بطبعه، وأن عرف عنه التسرع والصنف، فقد لحق به وحاذاه ولما التفت ليكورغوس نحوه ليرى من المطاردة عاجله بضربة عصا على وجهه. ففقداه عينا. فتوقف ليكورغوس دون أن تؤثر هذه الحادثة فيه أو تقلّ من غراب عزمه. وكشف عن وجهه المشوّ وعينه الملاحظة لانظار بني قومه فأدركهم الأسف والحجل، ودفعوا بالضارب اليه ليقتصر منه وصحبوه الى بيته وهم في غمّ شديد لاعتدائهم عليه وبعد ان شكرهم ليكورغوس على اهتمامهم بأمره صرفهم جميعاً واستبقى [الكاندر] وأدخله بيته ولم يوجه اليه كلمة غاضبة، أو عملاً عنيفاً. ولكنه صرف أولئك الذين يجالسونه على المائدة، وطلب من [الكاندر] أن يقوم على خدمته. وكان الفتى طبيباً بطبعه فقام بما طُلب منه دون تذمر أو شكوى، وسمح له أن يشاطره العيش فاتبحت له الفرصة ليتبين فيه رفقته المأثورة، وهدؤ طبعه فضلاً عن راحة عقله الفائقة وجلده على العمل الذي لا يعرف وهناً وما الى ذلك. فأنقلب من عدوّ له، الى أشدّ المعجبين به تحمساً ومشايعة. وأخير اصدقاءه وأقرباءه ان ليكورغوس ليس بذلك الشخص الجهم السيء الطبع الذي توهمه الكثيرون من قبل بل يمتاز بالطف وأرق طبع في الدنيا. وهكذا جعل ليكورغوس من شاب أهوج مندفع، واحداً من أكثر المواطنين السبارطيين اثزاناً ورجاحة، بدل أن يبعد الى عقابه عن خطاه.

وأخيراً، لذكرى هذه الحادثة أقام معبداً لمينرفا، سمّاه [أوبيتليتيس Optiletis]. إن كلمة [أوبتيلوس Optilus] هي اللفظة الاغريقية الدارجة في تلك الأثناء ومعناها «عين» [أوفثالْموس Ophthalmus] ويقول بعض الكتاب الذين كتبوا رسالة عن جمهورية سبارطا،

ومنهم (دُيسقوريدس Dioscorides) أنه جُرِحَ حقاً، ولكنه لم يفقد عينه نتيجة الضربة. وأنه بنى المعبد اعترافاً بفضل شفائه. ومهما يكن من أمرٍ ومهما بلغت هذه الروايات من الحقيقة، فبعد هذا الاعتداء، استنّ اللقيديميون لأنفسهم مبدأ حمل ما لا يزيد عن عكازٍ في اجتماعاتهم العمومية.

ولنعد الآن الى وجبات الطعام العامة؛ إن لها عدة أسماء باليونانية فأهالي كريت يسمونها [آندريا Andria] لأنها للرجال فقط. والليقيديميون يسمونها [فيديتيا Phiditia] بقلب «اللام» الى «دال» في كلمة [فيليتيا Philitia] ومعناها «الحب في المآذب» لأن الطعام والشراب المشترك يعقد جبال الودّة. أو لعلها جاءت من (فيدو Phido)، أي الشّع والتقيتر، لأنها بمثابة مدارس عديدة للاعتدال وربما كان الحرف الأول زيادة في الكلمة التي هي بالأصل [ايديتيا Editia] أي الأكل من (Edode). وهم يجتمعون زمراً من خمسة عشر أو نحوها. وعلى كل فردٍ منهم أن يساهم في اداء بوشل واحدٍ من الخبز، وثمانية غالونات من الخمر، وخمسة پاوندات من الجبن وپاوندين ونصف پاوند من التين ومبلغ طفيف جداً من المال لابتياح سمك أو لحم شهرياً للمائدة العامة. والى جانب هذا إذا قدم أي واحدٍ منهم قرباناً للأرباب فهم يرسلون على الدوام صدقة الى القاعة العامة. كذلك عندما يصطاد احدهم قنيسة «فانه يرسل الى الجهة نفسها، شيئاً من قنيسته. وفي هاتين المناسبتين فقط يسمح للمرأة أن يتناول طعامه في بيته. وقد بقيت عادة الطعام الجماعي سارية المفعول بكلّ دقةٍ زمناً طويلاً بعد ليكورغوس. حتى أن [آغيس Agis] الملك نفسه بعد أن هزم الاثينيين أرسل عند عودته الى بلاده يطلب الحصّة المعينة من المائدة العامة معتذراً بأنه يرغب في تناول طعامه مع الملكة في خلوة^(٣٠) فرفضها [الپوليمارخوس^(*)]. وهو الرفض الذي أحقّ الملك واحفظه حتى انه ألغى مراسم صباح اليوم الثاني الخاصة بتقديم القرابين الواجبة لكلّ حربٍ طيّبة الختام، فما كان فهم الأ وحكموه بتأدية غرامة.

وكانوا يرسلون صغارهم الى هذه الموائد كأنما يرسلونهم الى مدارس تهذيب وتشقيف. فيلقنون فيها شؤون الحكم وادارة الدولة باصفااتهم الى رجال السياسة المجربين. وفيها يتعلمون كيف يطرّزون احاديثهم بالنوادر وأن يتبادلوا المزاح والتندر دون حدّ الإيلام وأن يتقبلوها برحابة صدرٍ وفي هذه النقطة من حسن التربية فاق اللقيديميون غيرهم بصورة خاصة.

(٣٠) كان الملوك اسبارطا حق دائمي في تناول وجبتين من الطعام. ليس للسماح لهم باظهار مزيد من الشهوة. بل لتتاح لهم فرصة مشاركة حصتهم من الغذاء مع رجل مشهود له بالشجاعة يختار لينال هذا الشرف.
(*) الپوليمارخوس السبارطيون هم الذين يقودون الجيش تحت امرة الملوك. انهم كبار رجال الدولة وهم دائماً يوزعون الطعام على المائدة.

ولكن ما أن يُبدي المرء ضجراً منها حتى يكف الجميع عن توجيه القول له بعد اشارة خفيفة حداً. وحرث العادة ايضاً أن يقول أكبر الزمرة سنّا لكلّ منهم مشيراً الى الباب عند دخولهم: «لا تخرج كلمة واحدة من هذا الباب». وإذا رغب أحد في الانضواء الى احدى هذه الزمر الصغيرة فعليه ان يفور في الاختيار التالي: يأخذ كل عضو من أعضاء الندوة كرة صغيرة من العجين. ويلقونها كلّ بدوره في آنية عميقة يطوف بها عليهم نُدل وهي فوق رأسه فمن يرغب في انضمام المرشح الى ندوتهم يلقى كرتة في الآنية دون أن يغير من هيئتها ومن لا يريده يضغطها بين أصبعيه ويجعلها مسطحة وهذا ما يعادل التصويت بالرفض. وإن وجدت عجيبة مدحاة واحدة فقط لا يقبل المرشح، إذ يشترط الإجماع عليه، ليكون كلّ أعضاء الزمرة متفاهمين بعضهم مع بعض، ويطلق على الآنية [كادِيخوس Caddichus] ومنه اشتق اسم المرشح المرفوض (*). وأشتهر لون من الطعام عندهم هو العصيدة السوداء، وهي ذات قيمة غذائية كبيرة بحيث كانت طعام كبار السن الوحيد، فهؤلاء كانوا يتحسّونها ويتركون اللحم لمن دونهم سنّا. ويقال أن ملكاً من ملوك^(٣١) [الپنطوس Pantus] سمع الكثير عن عصيدتهم السوداء تلك فبعث يستقدم طاهياً ليقدّمونياً ليعمل له شيئاً منها. ولما ذاقها استجبها ولم تعجبه قطّ وكان الطاهي يرقبه فقال له «لأجل أن تجعل هذه العصيدة شهية عليك يا مولاي أن تغتسل في نهر ايروتاس Eurotas!».

وينصرف كل رجل الى داره بعد أن يشرب خمراً باعتدال ولا يستخدم نوراً لأن استخدام النور ممنوع مهما كانت احلك الظروف، والسبب في هذا هو أن يعودوا أنفسهم على السير بجراة في الظلام^(٣٢)، تلك هي القواعد العامة المتبعة في وجبات طعامهم.

لم يضع ليكورغوس قوانينه في مدونات، ومع أنه لا يوجد في أي [ريتر] ما يمنعه صراحةً. لأعتقاده بأن أكثر النقاط فائدة، ومعظم ما هو أكثر تعلقاً بالمصلحة العامة، انما ينطبع في قلوب الشباب بالضبط والربط الجيدان. ويبقى بالتأكيد، ويجد مكاناً أحفظ له وضمن من أي شكل من أشكال الإرغام، هذا هو التشقيف، أي مبدأ العمل الذي وضعه أعظم المشرعين وأفضلهم. وإمّا عن المسائل الأقل أهمية، كالعقود المالية والتجارية وأمثالها التي تتغير أشكالها وصيغها بتغير الظروف والأحوال فقد رأى من الأفق الأبعث لها قاعدة ثابتة، أو

(*) ولعل كلمة Candidate التي تطلق على كل مرشح لاية انتخابات مأخوذة من هذه.

(٣١) سرد پلوتارخ الحكاية في موضع آخر وعزاها الى (ديونيسيوس) طاغية صقلية ويؤكد شيشرون ايضاً بانه الشخص المقصود، واقرتاس هو نهر سبارطا.

(٣٢) يقصر كزنيغون هذا المسع على الشبان، ويقول ان الغرض منه هو بقاؤهم بحيث لا يخطنون طريقهم الى منازلهم!

صيغة معينة، متوقعاً أن أشكالها ونصوحها خاضعة لتقلبات الأزمان وإرادات الناس ذوي الأحكام الصائبة، وفي عرفه أن الثقافة هي غاية كل قانون وهذب كل نظام.

لذلك كان من مبادئه أن لا تدون تلکم القوانين. وشرع قانوناً موجّهاً بصورة خاصة ضدّ الترف والبذخ، فقد رسم به أن لا تهندم سقوف البيوت بأكثر من الفأس، وأن لا تسوّى ابواب المنازل بغير المنشار، ويمكن القول أن ليكورغوس كان يهجس بصحة قرلة (إپامنداس) عن مائدته «الحَيانة، وعشاء كهذا لا يمكن أن يجتمعا معاً»^(٣٣). الترف وبيت كهذا لا يمكن أن يكونا صاحبين. إذ لا بدّ أن يكون المرء مافوناً أحق ليفرش منزلاً بسيطاً وكهذا وغرفاً عادية ارائك ذات ارجل مفضضة وبسط عليها أغطية ارجوانية، ويزودها بصفائح الذهب والفضة. لاشك أن لديهم الادراك ما يجعلون أسرّتهم مناسبة لبيوتهم وأغطيّتهم مناسبة لأسرّتهم وباقي ادواتهم المنزلية وأثاثهم مناسبة للأغطية. ويروي أن الملك (ليوتخيدس Leotychises) الأول، كان يجهل تقريباً وجود أشياء غير هذه الأثاث البسيطة، ولما دعي الى كورنث، وأدخل غرفة فخمة أدركته الدهشة الشديدة لرؤيته خشب الاعمدة والسقف منحوتاً نحتاً بديعاً ومكفّاً. فسأل مضيفه أتنمو الأشجار في بلاده مريمّة هكذا؟^(٣٤) وكان المدأ الثالث (الريثرا الثالثة) أن لا يشنوا الحرب كثيراً وان لا يجعلوا الحرب الطويلة مع العدو الواحد. لثلا يفيد منها تدريباً، ويتعلم فنونها باضطراره الى الدفاع المستمر عن نفسه. وهذا ما كان مصدر لوم كثير لأغيسلاوس Agislaus بعدها بزمان طويل إذ وُجد أن هجماته المستمرة على (بيوسيا)^(٣٥) جعل الليثيبين اقرباً أكفاً للليقيميونيين ولذلك معندما رآه (انتالكيداس Antalcides) جريحاً يوماً ما، قال له: لقد أُجزل لك العطاء عن الجهود التي بذلتها في جعل الليثيبين جنوداً أكفاً، شاؤوا أم أبوا». هذه القوانين سميت (ريثرا) للدلالة على أنها نبؤات أو قوانين إلهية مقدسة تقف في مرحلة الوحي^(٣٦).

ولأجل أن يشقّ شبابهم ثقافة حسنة (وهو في رأي ليكورغوس أهم وأنبل عمل للمشترع كما قلتُ آنفاً)، فقد ذهب تفكيره ابعده مذهب حتى بلغ به الى الاهتمام بهم من وقت الحمل بهم وولادتهم، مبتدئاً بتنظيم الزواج. لقد كان [ارسطو] مخطئاً في قوله ان ليكورغوس بعد

(٣٣) جوفينال ٢٦:١٠. Nulla aconita libuntin Fictilibus.

(٣٤) يجب ان لا يعتبر ملقي هذا السؤال غيباً أو جاملاً بالتجارة الى هذا الحد. فهو في الحقيقة نوع من السخرية بينايات كورنث الفخمة.

(٣٥) كما ظهر ذلك واضحاً في معركة (ليوكترا) إذ هزم (إپامنداس) الليقيمييين ففسروا ملكهم كليويرتس وهرّة مقاتلي جيشهم.

(٣٦) أو ربما لأنها لم تكن مكتوبة. فنقل من فم الى أذن الى فم.

تجربته كل الطرق لرد النساء الى الرزاة والدماثة، اضطر أخيراً الى تركهن على ما هن فيه. ذلك لأن زوجات الرجال الذين يقضون معظم ايام حياتهم في الحروب يكونون مضطرين الى تركهن اثناء غيابهم سيدات البيت المطلقات فينهين ويأمرن ويتصرفن على هواهن، ويعاملن باحترام فيه كثير من الافراط ويطلق عليهن لقب السيدات والأميرات. هذا ما يقوله ارسطو والحقيقة أنه بذل في مسألتهن أكثر ما امكنه من الجهد. فأمر أن تمارس الفتيات رياضات المصارعة والعدو ورمي القرص وقذف الرمح حتى تنمو ثمرات أحشائهن في أجسام قوية صحيحة وتتخذ جذوراً أثبت وتجد وسطاً للنمو أفضل، وتكون النتيجة أنهن يكنّ أقدر على تحمل متاعب الحمل والآمه بهذه القوة التي اجتمعت لهن. ولأجل أن يزيل منهن رقتهم المفرطة، وخوفهن من التعرض لتقلبات الجو وكُل ما هو من طبيعة الأنثى أمر بأن تخرج الفتيات في المواكب العامة عاريات الشبان وان يرقصن أيضاً بهذا الوضع في بعض الأعياد الدينية وينشدن أناشيد معينة. في حين يقفك الشباب حوالينهم يسمعونهم ويشاهدونهم. وفي هذه المناسبات يعرضن بأسلوب المزاح تعريضات مناسبة بأولئك الذين لم يبلوا بلاءً حسناً في القتال كما ينشدن أناشيد الثناء والإشاعة بأولئك الذين أظهروا البطولة وبهذه الوسيلة يرفعن من معنويات الشباب للمنافسة في حلبة المجد والفخار، وينصرف المدحون وقد أمتلازا اعتزازاً ورضى بالمكانة التي كسبوها عند الفتيات. أما أولئك الذين عرضن بهم فإن التأثير الذي يحدثه فيهم لا يقل وقعاً عن التوبيخ الرسمي والأثكى من هذا كله أن ذلك يتم بسمع ومرأى من الملوك والشيوخ وكل سكان المدينة.

وليس في تعري الفتيات على هذه الشاكلة ما يخجل أو يجلب العار، فالعفة تحوطهن، وكل عوامل الشهوة والفجور لا محل لها. ان ذلك يعلمهن البساطة والاهتمام بالصحة ويكسبن ذوقاً خاصاً للمشاعر والأحاسيس السامية، لأنه يفسح لهن السبيل الى ميدان الأعمال النبيلة والمجد. ولذلك كان من الطبيعي أن يفكرن، ويتكلمن مثل [گورگو Gorgo] امرأة [ليونيداس]. فقد قيل أن سيدة أجنبية قالت لها على ما يظهر أن النساء الليقديونيات، هن الوحيدات في الدنيا اللاتي يحكمن الرجال، فأجابتها: «ولسب وجيه، لأننا النساء الوحيدات اللاتي يلدن رجالاً».

ان هذه المواكب والمسيرات النسائية العامة وظهور الأثاث عاريات في اثناء رياضاتهن وروقصهن، لهن من مخرصات الزواج، «لأنها تعمل في نفوس الشبان بشدة الحب وصدقه، إن لم يكن بدقة الرياضيات وصدقها» - كما يقول افلاطون(*) . ثم زاد على هذا يعدد من

(*) في الجمهورية.

الاحراءات فجرد أولئك الدير أثروا حياة العزوبة^(٣٧) الى درجة ما من حقوق المواطنة بحكم القانون، فقد استثنوا من مشاهدة المواكب العامة حيث الشبان والشابات يرقصون عراة. وفي أيام الشتاء يرغمهم الضبط على السير وهم عراة حول ساحة السوق يشدون نشيداً فيه هجاء وتحقير لأنفسهم يتضمن ما معناه أنهم يستحقون هذه العقوبة لتمردهم على القوانين. زد على هذا أنهم محرومون من مظاهر التجلة والاحترام التي يقابل بها الفتيان كبار قومهم وشيوخهم. فمثلاً لم يعب أحد ما قيل لدركيليداس Dercyllidas وهو قائد شهير بارز، عندما دنا يوماً من شاب، فلم يقم هذا احتراماً له بل بقي جالساً وقال «لن يفسح ولدك مكاناً لي».

وفي الزواج يحمل الزوج عروسه بما يشبه القوة والإكراه، لا لأن العرائس صغيرات السن وضعيفات الجسم، بل يكره عادة في شرح شبابهن وقام نضوجهن وبعد ذلك تأتي المرأة المشرفة على مراسيم الزفاف وتقص شعر العروس جُمعاً حول رأسها وتلبسها ثياب الرجال وتركها فوق مطرح في الظلام فيأتي العريس وهو مرتدي ثيابه الاعتيادية زينة هادئة، بعد أن يكون قد تناول عشاءه على المائدة العامة ويدخل غرفة العروس وحده ويحل رباط منطقة عذرتها ويفتضها وبعد ان يبقى فترة من الوقت معها يعود بهدوء الى مسكنه لينام كالعادة مع الشبان الآخرين، ويستمر على هذا المنوال: يقضي ايامه بل لياليه مع أصحابه، يزور عروسه بين الفينة والفينة زورات الوجه الخجل مستعيناً بالكتمان، إذ ينبغي أن لا يشاهده أحد وعلى المرأة نفسها أن تستخدم ذكاءها وحيلتها لايجاد فرص حسنة للقائهما عندما تكون زمرة الشباب متشغلة عنهما. ويعيشان على هذه الشاكلة زمناً طويلاً وقد يرزق الازوج باولاد قبل أن يشاهدوا وجوه زوجاتهم في ضوء النهار. إن اجتماعاتهما النادرة العسيرة تفيد لا لتمرير أنفسهما عن ضبط الإرادة، وأخذ النفس بالحزم فقط، بل لتجمعهما معاً بجسدين قريبين صحيحين وبعاطفة متجددة حية نشيطة لم يخمدها ويذبلها الافراط في الشهوة والجماع المستمر ويكون افتراقهما مبكراً على الدوام بحيث يترك في نفس كل منهما بقية نار مشتعلة من الشوق واللذة المتبادلة. وبعد احاطة الزواج بمثل هذه الحشمة والتحفظ، أهتم بازالة الغيرة النسوية الفارغة اهتماماً مساوياً. فحرّم كل انواع الفجور، ولكنه اعتبر مما يشرك الرجال أن يسمحو لأولئك الذين يتوسمون فيهم النجابة والخير - بمضاجعة نسوانهم لأجل

(٣٧) يحدد الوقت للزواج. وإن لم يتزوج الرجل في سن البلوغ فإنه يتعرض للعقاب كما يعاقب كل من يتزوج من كان عمره أزيد أو أقل. ومن كان اباً لثلاثة أولاد فإنه يتمتع بامتيازات كثيرة. ومن كان اباً لأربعة أعفي من الضرائب والعداري الماكرات يتروحن من غير بائنة لأن الحاجة لا تمنع الزواج ولا الغنى يحث عليه. ويضيف (كليارخوس) تلميذ ارسطو ان هناك عيداً في سبارطة يسمح فيه النساء بجلد العزّاب حول المذبح ليرغموا بشعور من الخجل والألم على الزواج!

الإيجاب^(٣٨)، مستخفين بأولئك الناس الذين يرون ان هذا النوع من الملك مما لا نصح المشاركة فيه، محتقرين سفك الدماء واثارة الحروب في سبيله. وسمح ليكورغوس للطاغين في السن ان يختاروا شاباً معروفاً بحسن الخلق والسيره لمضاجعة نسوانهم الصغيرات السن حتى يكون لهم ابناء من هذا الوصال، يرثون سجايا الوالد الطيبة، واذا وقع رجلٌ مستقيم السيرة في حب امرأة متزوجة، بسبب حشمتها، وحسن تربيتها لأولادها فله ان يطلب من زوجها وصالها بكل بساطة، حتى يُثبت له من قطعة الأرض الطيبة هذه أولاداً صالحين، كان ليكورغوس يعتقد أن أولادهم ملك للدولة قبل ان يكونوا لأبريهم، ولذلك لم يكن يريد أن يولد المواطنون من نطفة أول مواصل للمرأة، بل باختيار أفضل الرجال. لقد بدت له قوانين البلاد الأخرى سحيقة عقيمة لاتلائم العصر، فالناس هناك شديداً الخرص على أنسال كلابهم وخيولهم يبدون اهتماماً كبيراً بها ويبدلون مالاً كثيراً ليحصلوا على نسلٍ محسن منها، في حين يستأثرون وحدهم بزوجاتهم ويحبسونهن لأنفسهم فقط ويستولدونهن، وقد يكونون ضعفاء العقل مرضى، سقيمي الاجسام. كأنما لا يدرون أنهم أول من سيعاني مغبةً إستيلاد أطفالٍ عليين لأنهم سيضطرون الى تربيتهم والعناية بهم، والأمر خلال ذلك لو كان الأطفال حسني الصفات. هذه القواعد التي اقيمت على أسس طبيعية واجتماعية، لا صلة لها قط بالحرية الفاجرة التي اتهمت نساؤهم بها فيما بعد، ذلك لأن الزنا كلمة لا معنى لها قط عندهم. وقد روي مثلاً عن (جيراداس Geradas)^(٣٩) وهو من السيارطيين الأقدمين، أن أحد الأعراب سأله:

- ما هي العقوبة التي فرضتها قوانينهم على الزناة؟ فأجاب:

- لا يوجد في بلادنا زناة.

فقال الغريب:

- ولكن هب أنهم وجدوا.

فأجاب:

- عند ذلك يجب على المدعى عليه أن يقدم على سبيل الغرامة، ثوراً يبلغ عنقه من الطول ما

يجعله قادراً على شرب الماء من نهر اقروتاس تحته وهو واقف في رأس تايفتوس -Tay-

getus^(٤٠)، فتعجب الرجل من هذا وقال:

(٣٨) وستى الملوك من ذلك. اذ لا يسمح لهم بأعارة نسايتهم.

(٣٩) في كتابه «الاخلاق» يشبه: جيرادانتوس.

(٤٠) أعلى جبل في سيارطا. ومنه يمكن البلويوتيس كلها.

- محال أن يوجد ثور كهذا.

فأجاب [غيراذاس] باسمًا:

- يمكن بقدر ما هو ممكن العثور على زان في سبارطة.

وفي هذا الكلام عن الزواج الكفاية.

ليس في مقدور الأب أو سلطته أن يربي ابنه كما يشاء. وعليه أن يعرضه على خبراء مختصين في موضع يدعى [ليسكه Lesche] وهؤلاء هم شيوخ القبيلة التي ينتمي إليها الطفل ومهمتهم أن يفحصوا الطفل فحصاً دقيقاً فإن وجدوه قوياً حسن التركيب اصدروا قرارهم بتنشئته وتربيته ويمنح سهماً من سهام الأرض التسعة آلاف التي أسلفنا ذكرها: لأجل الاتفاق عليه منها. وإذا وجدوه سقيماً ضئيلاً سيء التركيب أمروا بأخذه إلى ما تُسمّى [آپوثيتي Apothetae] وهو يشبه غوراً من الأرض يقع تحت [تايجيتوس]. فهم لا يرون من مصلحة الطفل ولا من مصلحة المجتمع أن يبقى في الحياة إن لم يظهر من فجر حياته ما يدل على أنه سيكون متين البنان صحيح الجسم. ولهذا السبب نفسه لاتفصل النساء الوليد بالما، كما جرت العادة في البلاد الأخرى، بل يغسلنه بالخمير ليعجنم عود الأجسام وقابليتها. إذ انهن يعتقدن بأن الأطفال الذين يولدون بداء الصرع، أو بكيان سقيم، سيموتون بحمام الخمر هذه، بخلاف ما لو كانوا أقوياء أصحاء فأنها تقوّي وجودهم وتشدّ من عضلهم وتجعلها كالحديد المسقي. وتستخدم المرسعات فنوناً وضروباً من العناية بهم، فلا يشدونهم بالاقمطة والأربطة فتتشأ أجسامهم حرّة ولا تنضغط أعضاؤهم وتشوه، ولا يكونون منتطحين في اختيار طعامهم. ولا يخشون الظلام أو يخافون البقاء وحدهم، بدون تهيّب أو قلق أو بكاء^(٤١). ولهذا تتسابق البلاد إلى استقدام واستئجار الممرضات السبارطيات وذكر أن مريض [الكيباديس Alcibiades] سبارطية. وإذا كان محظوظاً في ممرضته، فإنه لم يكن كذلك في معلمه، إذ يخبرنا افلاطون أن وصيّ [پريكليس Pericles] اختار لهذه الوظيفة خادماً اسمه [زوپيروس Zopyrus] لا يفضل أي عبد عادي في شيء.

كان رأي ليكورغوس مختلفاً، فلم يسمح أن يؤتى بالمعلمين لصبيان السبارطين عن طريق شرائهم من السوق. ولا يعطي لهم أجراً على اتعابهم ولم يجز شرعاً أن يقوم الآباء على تربية أولادهم كما يحلو لهم. ولكن ما أن يبلغوا السابعة من العمر حتى يُضمّنوا إلى فصائل وصفوف مدرسية في ظلّ نظام ضبط واحد يؤدون قمارينهم ويلعبون معاً. ومن يبرز منهم في

(٤١) يجيز أرسطو البكاء للأطفال (السياسة ١٧.٧) بوصفه نوعاً من أنواع الرياضة فيه فائدة للصحة والنمو؛

الجسارة ويظهر احسن السلوك بعين رئيساً لهم: فيتابعونه بانظارهم ويطيعون أوامره ويتحملون بصبر اي عقاب يفرضه عليهم. وهكذا يكون كل مناهج ثقافتهم وتربيتهم قمرناً مستنراً للطاعة التامة السريعة. ويكون كبار السن في موضع الرقبا، على ما يعملون. وكثيراً ما يثيرون بين الصغار خصاماً وشجاراً حتى تسنح لهم منها فرصة لمراقبة طباعهم المختلفة، وليتبينوا الجسور من الجبان عندما يبلغون مرحلة التعرض الى المخاطر الجسام. ولا يلتقونهم من القراءة والكتابة الا بقدر ما يحتاجون اليه في حياتهم المدرسية، والاهتمام الرئيس منصباً على جعلهم مواطنين صالحين، وتعليمهم كيفية احتمال الألم، والنصر في المعركة، تمرّ بهم الأعوام وهم يزدادون ضبطاً وخضوعاً للنظام. وتراهم برؤوسهم الحليقة، يسيرون حفاة بدون نعال، ويلعبون أغلب لعبهم وهو عراة.

ولما يبلغون الثانية عشرة، لا يسمح لهم بارتداء ثياب داخلية وكساؤهم الوحيد هو عباءة واحدة تكفيهم سنة كاملة. وأجسامهم جافة صلبة لا تعرف الحمامات ولا الأدهان، فهذا الترف البشري لا يسمح لهم به إلا في ايام قليلة معينة من السنة ويسكنون معاً في زمر صغيرة، وينامون على فراش من بنات القش الذي ينمو على ضفاف نهر [يوروتاس]. وهم يكسرونه ويسوونه بأيديهم بدون سكاكين، وإذا كان الزمن شتاء، خلطوا به شيئاً من الحسك اذ يعتقدون ان في هذا النبات صفة اشاعه الدفء.

وفي الوقت الذي يبلغون هذه السن لا تجد أحداً من الصبيان المبرزين فيهم إلا ولديه محبٌ يصاحبه ويعاشره. ويهتم الرجال الكبار بهم أيضاً وكثيراً ما يأتون الى ميدان الالعاب ليسمعوهم يشاهدوهم يتبارون بعضهم مع بعض إما بالحديث أو بقوة العضل. ويرقبون الأمر بجدّ واهتمام عظيمين كما لو كانوا اباهم او مدرسيهم، أو محكميهم. ويندر ان تجد ملعباً خالياً من شيخ واحد على الأقل في اي وقت أو مكان، لينبهم الى واجبه أو ليعاقبهم أن وجد اهمالاً فيهم.

والى جانب هذا، يعينون شخصاً من أكثر رجال المدينة صلاحاً واستقامة للإشراف عليهم وإدارة شؤونهم. فيقوم بتنظيمهم في عدة فصائل ويُعين رئيساً لكل فصيلة، يختاره منهم متميزاً بالجرأة وحسن الخلق ويسمى [ايرين Iren] ويكون عمر الايرين عشرين عاماً، أي يزيد عن أعمار رؤسياه سنتين عادةً أما أكبر الفتيان عمراً فهم [مل - ايرين Mell - Iren] أو كما لو قلت، «شرف للرجولة». اذن يكون هذا الشاب رئيسهم، عندما يقاتلون، سيداً لهم في زمن السلم يستخدمهم في شؤون بيته، ويبعث بأكبرهم سناً للاحتطاب. ويرسل أضعفهم وأقلهم قابلية لجمع الأعشاب والخضروات. فبما عادوا خالي الوفاض، وإما عمدوا الى

سرقته، ويتم ذلك بأن يدخلوا البساتين زحفاً، أو يتسللوا بخفة وسعة حيلة الى غرف الطعام. فإذا قبض عليهم متلبسين جلدوا بلا رحمة. لقيامهم بالسرقة على هذا النحو الفاضل الخالي من المهارة، ويسرقون أيضاً ما تقع عليه ايديهم من اللحم وهم متربصون متحينون كل فرصة عندما ينام الناس أو يغفلون على غير عادتهم. فإن قبض عليهم لا يكتفى بجلدهم بل تجويعهم، بابقائهم على حصتهم الاعتيادية من الطعام وهي لا تسد رمقاً. ويكون ذلك التجويع عن قصد لتضطرهم الحاجة الى وضع نشاطهم وحيوتهم موضع التطبيق^(٤٢). وهذا هو الغرض الأساس المتوخى من اعطائهم وجبات غير كافية ينضاف اليها غرض آخر لا يقل اهمية وهو أن تطول قدامتهم. لأن حيوية الروح ترتفع بخفة الجسم الطبيعية، في حين انها تنوء تحت ثقل الكميات الفائقة الحد من الغذاء الذي لا يجد له منصرفاً إلا في البدانة والسمنة، والجسم يزداد طولاً وينمو ويتزعزع اذا كان لدنا^(٤٣). والجسم الجاف العود، اللدن هو خيرها تعرضاً لعناصر الطبيعة، أما الاجسام الضخمة المفرطة في التغذية فتكون ثقيلة وأقل صلاحاً للتعرض للطبيعة. وخير مثال نجده في النساء الحاملات اللاتي يتماطين الحمية في غضون أشهر الحمل، فهن يضعن أطفالاً أرق جسماً واصغر حجماً، ولكنهم يكونون احمل وجهاً وابدع تكويناً. لأن المادة التي صيغوا منها الين وأسهل تكويناً. اما السبب في كل هذا، فأترك تقديره لغيري.

ولنعد الآن الى موضوعنا الذي بترناه - يهتم أطفال الليقديين بشؤون السرقة اهتماماً جدياً، حتى أن شاباً سرق ثعلباً واخفاه تحت عباءته فراح هذا الحيوان يمزق احشاءه قزيقاً والشاب صابر على ما تعمل فيه مخالبه واسنانه ومات لساعته ولم يكشف المسروق. وما يجرى تطبيقه اليوم في [اليقديون] يكفي للبرهان على صدق هذه الحكاية. فقد شاهدت انا نفسي عدداً من الفتيان يجلدون حتى الموت تحت درجات مذبح [ديانا] الملقبه [اورتيا]^(٤٤).

و[الابرين] أو مساعد الرئيس، يمكث وقتاً قليلاً مع الشبان بعد العشاء ويطلب من أحدهم أن يغني أغنية، ومن آخر ان يطرح سؤالاً يقتضى جواباً دقيقاً وإعمال فكر. مثلاً: من هو خير

(٤٢) من هذا يتضح ان المقصد ليس تشجيعهم على السرقة أو تعويدهم عليها بخفة ومهارة. بل المقصد الحقيقي هو تعويدهم السرعة والحذر في اوقات الحرب والأزمات.

(٤٣) لعل المقصود هنا [دياناتوريكا] التي جلب اورستوس تمثالها الى لقيديون على ما قيل، ومان البشر قرايينها، يزعمون ان ليكورغوس ابطل هذا النوع من القرايين واستبدلها بجلد الشبان حتى يطلع المذبح بدمائهم على الأقل.

(٤٤) اعل المقصود هنا [دياناتوريكا] التي جلب اورستوس تمثالها الى لقيديون على ما قيل. وكان البشر قرايينها، يزعمون ان ليكورغوس ابطل هذا النوع من القرايين واستبدلها بجلد الشبان حتى يطلع المذبح بدمائهم على الأقل.

الرجال في المدينة؟ ما هو رأيه في العمل الملاتي الذي قام به الشخص الفلاني؟ وهكذا يدرّبونهم في هذه السن المبكرة ليصدروا أحكاماً صائبة على الأشخاص والاعمال وليكونوا على علم ومعرفة بقابليات ومواطن ضعف ابناء قومهم ومن لا يملك جواباً آتياً عن سؤال من هو المواطن الصالح ومن هو المواطن الطالح، ينظر اليه وكأنه مخلوق غيبي قليل الاهتمام. لا يملك شعوراً بالشرف والفضيلة، أو قلّ ما يملك منه، وفضلاً عن هذا يجب أن يعللوا اجوبتهم بالأسباب الوجيهة المعقولة وبعبارات مقتضبة خالية من الاطناب، كثيرة المعنى. ومن يفشل في هذا، أو لا يكون جوابه موفياً بالغرض، يعرض الرئيس إبهام يده! وينفذ الايرين هذه العقوبة أحياناً في محضر من الشيوخ والمحكمين حتى يتبينوا هل يعدل في تنفيذ العقوبة حسبما يستحق صاحبها. فإذا أخطأ في ذلك لا يعتفوه امام الفتيان ولكنه يستدعى بعد انصرافهم ليقدم حساباً على خطأه وليؤدّب أفاًسياً كان في تطبيق العقوبة، أم رحيماً.

ولعشاقهم، ولمصطفبهم سهم أيضاً في تكريم الفتيان أو تعزيرهم وهناك قصة تروى أن حكماً غرم أحدهم لأن الفتى الذي يحبه، بكى كالانثى أثناء ما كان يقاتل. وهذا النوع من الحب لا غبار عليه فيما بينهم بحيث ان معظم الأمهات الفاضلات لا يتحرجن في الكلام عنه امام الفتيات الصغيرات، والمنافسة فيه لا وجود لها. وإذا اصطدمت رغبات عدة رجال في شخص واحد يتفق الجميع معاً على ارضاء رغباتهم بخير ما يمكن الاتفاق عليه.

ويعلمونهم أيضاً أن يتحدثوا بأسلوب طبيعيّ طليّ ساخر. وأن يضمنوا اكثر المعاني بأقل ما يمكن من الالفاظ. فليكورغوس الذي توخى كما رأينا، أن يفرض أزهد قيمة لأكبر قطعة من النقود، عكس الآية في الكلام ولم يسمح إلا بالأحاديث التي تصاغ بأقصر العبارات وأقلّ الالفاظ ونحو أكثر ما يمكن من المعاني وألطفها. ولاعتياد أطفال سبارطة الصمت الطويل والزهدي في الكلام، نمت فيهم قابلية اعطاء أجوبة محكمة بليغة، وكالأتاقين المتشردين الذين لا يعيشون حياة مستقرة نادراً ما كانوا كثيري الأولاد، كذلك الثرثارون، كثيرو الكلام فنادر ما تخرج من افواههم كلمات رصينة بليغة. عندما سخر اثينيّ بسيفو السبارطيين القصار قائلاً أن الحواة على المسرح يبتلعونها بكل سهولة اجابه الملك (أغيس) بقوله: «نحن نراها من الطول بحيث تكفي للوصول الى قلوب اعدائنا». ويبدو لي أن شيئاً ما في اسلوب كلامهم الموجه فهو يبلغ حالاً الهدف المقصود، ويخلف تأثيره العميق في عقل السامع معاً.

ويظهر ان ليكورغوس نفسه كان يبالغ العبارة سريع البديهة، إن صدقنا ما روي عنه. هذا ما يدل عليه جوابه لذلك الذي كان متحمساً لإقامة نظام ديمقراطيّ في لقيديمون قال له: «إبدأ أيها الصديق فأقمها في اسرتك». وسأله آخر لماذا يسمح بتقريب هذه القرابين الزهيدة التافهة

للاكمة. فأحابه «حتى يكون بالامكان أن يقدم شيئاً لها بصورة مستديرة». وسُئل أي شكل من التمارين العسكرية أو الممارك يُفضل فأجاب «كل الأشكال، إلا تلك التمارين التي تقتضي منك مدّ يديك إلى الأعلى»^(٤٥) وعزيت إليه أجوبة أخرى وجهها إلى بني قومه خطياً. فقد سئل عن أفضل وسيلة لمقاومة غزو العدو، فأجاب «بالاستمرار في بقائكم فقراء، وبأن لا يطمع الرجل في أن يكون أعظم شأننا من زميله». كذلك استشير في هلاًلاً كان ضرورياً احاطة المدينة بسور؛ فبحث بالجواب التالي: «المدينة الجديدة التحصين هي التي تملك سوراً من الرجال لا من الآخر». ولكن يصعب القول بأن هذه الرسائل حقيقية وليست منحولة.

وأما عن كرههم الثرثرة فإن أجوبتهم اللاذعة شاهد: انفرد شخص بالملك [ليونيداس] يحدثه في مسألة مفيدة، ولكن ليس في الزمان والمكان المناسبين. فقال الملك «ما أكثر الفائدة يا سيدي، ولكن في غير هذا المكان». وسئل الملك [خاريلوس] ابن أخ ليكورغوس لماذا استقّ عَمَهُ هذا المقدار الصغير من القوانين فأجاب «قليلو الكلام لا يقتضي لهم غير قوانين قليلة». ومرة دعي المدعو [هيكاتايوس Hecataeus] السوفسطاني إلى واحدة من تلك المواعيد العامة، فلم ينطق بحرف واحد طوال العشاء، ولهذا جاب [أرخيداميداس Archidamidas] ببرر مسلكه ويزكيه: «ذلك الذي يعرف كيف يتكلم، يعرف أيضاً متى يتكلم».

أما الأجوبة المسكتة اللاذعة والحادة التي نوهت بها، قدونك طائفة منها: وجه أحد الرجال الكثيبي اللجاجة إلى [داماراتوس] سؤالاً بأسلوب استفزازي مزعج: «من هو خير رجال ليقيديونيا فردّ عليه أخيراً «أقلهم شهاً بك». وراح بعض الناس الذين كان بصحبة [آغيس] يشنون على الإلياثين Eleans لأشرافهم الدقيق وتنظيمهم العادل الشريف للألعاب الأولمبية. فأجاب [آغيس]: «بلا شك، ينبغي أن يمدحوا كثيراً لأنهم تمكنوا من أن يعدلوا يوماً واحداً في غضون خمس سنوات»^(٤٦). وأجاب [ثيومسيوس] أجنياً تقادى في اظهار حسه للقيديونيين قائلاً أنه بني قومه لقبوه [فيلولاقون: أي محب اللاقونيين]:

- كان يشرفك كثيراً لو لقبوك [فيلوبوليتس: أي محب بني قومه].

ولما قال أحد الخطباء الأثينيين أن الليقيديونيين لا ثقافة لديهم، أجابه [بلستواناكس Pylas] ابن [پاوسانياس Pausanias] «أصبحت يا سيدي فنحن من دون سائر الأغريق لم

(٤٥) هذا هو الشكل الذي يطلب فيه التسليم أثناء المعركة.

(٤٦) ان «موزعي الجوائز ميلانويك» على الفائزين في الألعاب الأولمبية يجهدون أنفسهم لى أقصى حدّ خلال الأشهر العشرة السابقة على الألعاب (پارسانياس ٦ ٢٤) ليكونوا أهلاً للوظيفة، بدراستهم الدقيقة لكل البيانات واللوائح المتعلقة بالمراسيم ليكونوا أهلاً للقيام بمهمتهم خير قيام.

تشقف بأي شيء من سوء طباعكم». وسأل أحدهم (ارخيداميداس) كم يعد السبارطيون يا تُرى؟ فأجابه «ما يكفي لردّ غائلة الأشرار يا سيدي».

ونتبين أيضاً طباعهم من نكاتهم ومزاحهم، لأنهم لا يرسلونه جزافاً واعتباطاً، بل أن عنصر الفكاهة فيه يستبطن ويستند الى شيء يدعو الى التفكير والتأمل فمثلاً سنل شخص لماذا لا يذهب ويشاهد رجلاً يقلد صوت العنديلِب تقليداً متقناً، فأجاب «سيدي! إني سمعت العنديلِب نفسه»^(٤٧). وآخر قرأ الكتابة التالية على أحد القبور:

واموا أن يطفئوا نار الطغيان القاسي

في (سيلنيوس) فخروا ضحايا آله الحرب مارس

فقال معقباً «يستأهلون الموت، اذ بدلاً من محاولتهم إطفاء الطغيان كان الاجدر بهم أن يتركوه يحترق». وعرض على صبيّ ذبك قتالاً لا ينكص حتى يموت في مكانه فقال: وما شأنني بالديكة التي تموت. أريد ذبك يعيش ويقتل الآخرين! وآخر شاهد فريقاً من الناس يريحون انفسهم على مقاعد فقال: «معاذ الله ان أجلس في مكان لا أستطيع القيام منه لتحية كمار قومي». ومختصر القول ان اجريتهم بلغت حداً كبيراً من البلاغة والنكتة الحادة. وصدّق من قال أن الاتجاه الذهني في الطبع السبارطي أكثر ظهوراً منه التمرين الرياضي، والحق يقال.

ولا تقلّ عنايتهم بالثقافة الموسيقية والشعر عن اهتمامهم الكلام وطهارته واتقانهم فن الحديث، وتمتاز اغانيهم بالحسوبة والنشاط بحيث تثير نار الحماسة والثورة في نفوس رجال وتشيع روح الاقدام فيهم. واورانها بسيطة خالية من الصنعة الفنية. ومواضيعها أخلاقية جدية دائماً وأغلبها عادة يدور حول تمجيد الرجال الذي قتلوا دفاعاً عن بلادهم، أو هجاء أولئك الذين أظهروا جنبا، ترفع اولهم الى أعلى درجات التمجيد، والسعادة في حين تصف ثانيهم بالضعة والحقارة. وثم أيضاً أناشيد أفتخار بما سيقدّر لهم من أعمال، وتعظيم لما فعلوه، وتختلف الأناشيد باختلاف السنّ فمثلاً كان لديهم ثلاثة اجواق في حفلاتهم الدينية. الأول يتألف من كبار السنّ والثاني من الشبان والثالث من الأحداث، فيبدأ الجوق الأول بالمصراع التالي:

كنا ذات يوم صفاراً، شجعاناً، اقوياء».

فيرد عليهم جوق الشباب منشداً:

(٤٧) هذه الحكاية عزّاما بلوتارخ الى اغيسيلوس في سيرة حياته. فلتراجع.

«ونحن الآن كذلك، فتمالوا وجربوا»

ويأتي جوق الاحداث بالأخير فيقول:

«لكننا سنكون أقوى من كليكما عما قريب»^(٤٨).

وإذا نحن تعنينا التأمل في أصولها وتأليفها. وبعضها ما زال شائعاً حتى يومنا هذا، وفكرنا في الالحان التي تنفخ في الناي (وعلى إيقاعها يتقدمون الى ميدان القتال) فسنجد أن [تيرباندر Terpander]^(٤٩) ويندار سبياً وجهياً للقول بأن الأناشيد الدينية والحماسية صنوان وحليفان. ويقول أولهما عن بلاد ليقدونيا:

«الرمح وأغاني الميوزات الرائعة فيها يلتقيان.

والعدل الصارم يسير متجولاً في شارعها».

ويقول [يندار] هنا تجدد مجالس الشيوخ الحكماء

ورماح الشبان التي عقدت عليها ألوية النصر

وتشاهد الرقص والغناء والطرب.

وكلاهما يصفان السبارطيين بأن تعلقهم بالموسيقي لا يقل عن تعلقهم بالحرب، بكلمات واحد من شعرائهم:

مع الحديد الصلب المرفف

يأتي العزف على القيثارة!

فقبل أن يشتبك السبارطيون في القتال، يقوم الملك أولاً بالتقريب الى الميوزات Mus-es^(*)، تذكرة لهم بما نشأوا عليه ودربوا، وتنوياً بالحكم الذي سيصدر على ما يقومون به من عمل، ولدفعهم الى البطولات وانجاز جلائل الأعمال التي تستحق التدوين.

(٤٨) هذه الردة من الأبيات انما هي جزء من نشيد ربما كان ناظمه ترفيوس.

(٤٩) شاعر وموسيقي (كل شعراء ذلك الزمن كانوا موسيقيين تقريباً). عزي اليه اضافة ثلاثة اوتار الى العزف Harp وكان ذا اربعة. عاش بعد عصر هرميروس بمائة وعشرين سنة في (لسبيوس) ثم استدهي الى سبارطا بحكم نبوة - لتهدئة فتنة. قيل انه نظم شرائع ليكورغوس شعراً.

(*) الميوزات [مفردا ميوز Muse]. ربّات قسمة هن بنات جوبيتر (زفس) وزوجه [منيموسين Mnemosyne] ويعتبرن في اليتولوجيا اليونانية موهيات بالفنون التسعة المعروفة: [كالبيو Calliope] لشعر الملاحم، و[كليو Clio] للتاريخ و[يرا تو Erato] للشعر الغنائي. و[يترپي Euterpe] لشعر الغزل و[مليومين Mel-pomen] للتراجيديا، و[پوليهمينا Polyhymnia] للأغاني الدينية، و[ترپسيغوري Terpsichore] للرقص، و[ثاليا Thalia] للكوميديا واورانيا Urania للتاريخ.

في تلك المناسبات يخفف الليقديميون قليلاً من صرامة عاداتهم وانظمتهم، ويسمحون للشباب ان يطيلوا شعر رؤوسهم ويشذّبوه. وأن يقتنوا الأسلحة الثمينة والثياب الفاخرة. وكان السرور والغبطة يتملكان السيسارطيين وهم يشاهدون شبانهم يخطرون مندفعين الى الحلبة كالجياذ العتاق تصهل وتحسم. فما أن يبلغ الفتى أشدّه ويصلب عوده حتى ينصرف الى العناية شديدة بشعر رأسه فيهدبه ويشذّبه ويفرقه ويصنّفه، ولاسيما يوم المعركة تطبيقاً لوصيّة واضح قوابلهم المدوّنة «إن لمة كثيفة من الشعر فوق الرأس تزيد في الوجه الجميل جمالاً. وتضفي على الوجه المنفرّ رهبة وتشيع في النفس رعباً».

وعند وصولهم ميدان القتال، تخفّ تمازيثهم الرياضية كثيراً ويطرأ تحسّن على اوزاقهم، وترتخي قبضة الضباط الصارمة عنهم. ولذلك كانوا الشعب الوحيد الذي يجد راحته في الحرب. ولما ينتظر صفوف جيشهم للقتال امام العدو القريب، يضخّي الملك بمعزاة^(٥٠). ويأمر الجنود أن يحيطوا رؤوسهم بقلادهم، ويشير على التافخين بالسرناني ان ينفخوا نشيد^(٥١) [كاستور] العسكري ويبدأ هو نفسه بانشاء [پايان Paean]^(*) التقدم الى الأمام. ويلوح للنظر فجأة منظر مهيب رهيب، كتلة قراصة تزحف الى الأمام على انغام السّرنايات، لا يختلّ لها نظام، ولا يعتور اذهان اعصائها تردد أو تهيب، ولا يطرأ أيّ تغير على ملامح وجوههم وهم يتقدمون بنفوس هادئة مطمئنة منشرحة الى القتال الدمويّ على انغام الموسيقى. رجال في مثل هذا التكوين قليلاً ما عرفوا معنى الخوف أو التهيب من الشدّة. وانما يملأوهم الإقدام والبأس الذي يدفعه الأمل والثقة. كأنّ ربّاً من الارباب برعاهم ويقود خطاهم. ويلزم جانب الملك دائماً شخص توجّ بالفار في الألعاب الاولمبية. وعلى هذا الأساس قيل أن لاقونيا رفض هدية كبيرة جداً شريطة أن يخرج من قائمة اللاعبين المتسابقين وعندما تمكّن من خصمه في السياق وغلبه بكلّ سهولة صاح به المنفرجون «والآن ما الفائدة التي جنيتهما من انتصارك أيها السيد الليقديميوني؟» فأجابهم باسم «سأقاتل مع الملك جنباً لجنب».

وبعد ان يلحقوا الهزيمة بالعدوّ. يطاردونه حتى يشبّ لهم النصر تماماً، ثم يصدر أمر التقهقر. لأنهم يرون من الضعة والحقارة لشعب أغريقي أن يفلك ويذبح رجالاً استسلموا وانتهت كل مقاومتهم. وهذا الاسلوب في معاملة اعدائهم يفصح عن كرم نفس عالٍ فضلاً عن

(٥٠) يقول (كزينفون) ان الملك الذي يقود الجيش كان عليه ان يضمّي لكلّ من جويتر ومينوثا عند حدود مملكته. وربما خُمت (الميزوات) الى مينوثا بوصفها حامية للعطوم والقنون.

(٥١) كذا كان يدعى. وربما نظمه البطل نفسه او لعله يتضمّن تفاصيل عن مآثره.

(٥٢) بالافريقية Paian وهو نشيد لابوللو الپاياني. وقد يكون موجّهاً الى الربة [ارطيميس] أخذته الرومان عن الاغريق. وأصبح مرادفاً لاي نشيد أو شكر على نجاة.

كوبه سياسة حكيمة فعندما يعلم العدو انهم لا يقتلون إلا من يدي مقاومة، ويؤمنون الباقي على أرواحهم، يجد عادةً في الفرار خير طريق للنجاة.

ويزعم [هيببوس Hippius] السوفسطائي أن ليكورغوس نفسه كان جندياً عظيماً وقائداً محنكاً. ويعزو اليه [هيلوستيفانوس Philostephanus] أول تقسيم للخيلة الى كوكبات تتألف من خمسين وتسير على شكل مربعات. إلا أن [ديمثريوس] الفاليرياني يخالفه تماماً بقوله أن كل القوانين التي وضعها كانت لإغراض السلم والحق يقال إن الهدنة الاولمبية المقدسة، أو إيقاف القتال التي وجدت بمساعيه ومجهوداته، قيل بي الى الاعتقاد بأنه رجل عطف رقيق القلب، يحب السلام والاستقرار، بصرف النظر عن كل ما يرويه لنا [هرميپوس Hermippus] عنه بخصوص الهدنة. وزعمه أنه لا فضل له فيها، إن [ابفيتوس] وحده هو الذي أوجدها، وإن ليكورغوس كان أحد الحاضرين عند عقددها ومحض الصدفة ليس إلا. فقد كان هناك وسمع صوت رجل من خلفه يلومه ويعجب منه لأنه لم يشجع بني قومه على المشاركة في الاجتماع. فالتفت ولم ير أحداً، فاستنتج أنه صوت السماء ولذلك أسرع حالاً الى [ابيتوس] وياشر في مساعدته على إقامة احتفالات ذلك العيد الذي كان بمساعيه ومجهوداته أثبت بناءً، وأعظم شهرة من السابق.

ولنعد الى اللقيديميونيين، بقى النظام سارياً عليهم حتى بعد بلوغهم مبلغ الرجال لا يسمع لأيّ منهم أن يعيش على هواه، وكانت المدينة أشبه شيء بمعسكر فيه لكل شخص سهمه من الرزق وأسباب المعيشة والعمل مجدد ومقن والمواطن لا ينظر الى نفسه كفرد ولد ليعيش لذاته وفائدته الخاصة، بقدر ما يعيش لبلاده ولأجلها. لذلك إن لم يؤمروا بعمل شيء ما، تراه يذهبون لرؤية الصبيان وهم يقومون بتمارينهم كي يعلموهم شيئاً مفيداً أو ليتعلموا ممن هم أخبر به منهم والحق يقال أن من أعظم وأرفع النعم التي حباها بها ليكورغوس هو كثرة ساعات الفراغ التي نجت عن منعه ممارسة أي حرفة أو تجارة رخيصة وضيعة. فأما عن مهنة جمع المال وهي تعتمد على كثرة الحركة المتعبة والمزعجة ومقابلة الناس وعقد الصفقات فلم يكونوا بحاجة اليها في دولة لا يلقى الغني فيها أي احترام أو تجلة وكان قوم (الهيلوت) يستنبتون الأرض لهم ويدفعون لهم سنوياً الكمية المتفق عليها عيناً، دون أي متاعب. وفي هذا الصدد تروى حكاية عن لقيديموني اتفق وجوده في اثينا أثناء انعقاد المحكمة وأخبروه عن حكم أحد المواطنين باداء عرامة لأنه كان يعيش عاطلاً لا يعمل شيئاً وأن أصدقاءه رافقوه الى منزله للتسرية عنه وهو في أشد حالات الألم والتعاسة، فأدرك اللقيديموني العجب من هذا ورغب من صديقه أن يريه ذلك الشخص الذين أدبوا لكونه يعيش عيشة المواطن الحر. كانوا

يعدون الاحترام التافه للوقت، والاهتمام بالفنون اليدوية، وجمع النقود، أعمالاً أقلّ قدرأ منهم بكثير. ولسنا بحاجة للقول أن خطر التعامل بالذهب والفضة أدى الى زوال الدعاوى القضائية حالاً، إذ لم يعد يوجد في مجتمعهم فقر ولا حرص، بل ساد العدل؛ وراح كل فرد يبال ما هو في حاجة اليه، وعلى وجه الإستقلال لأن تلك الحاجات محدودة قليلة وكانوا ينفقون كل أوقاتهم - ما عدا ساعات تمارين الميدان والحرب - في اجواق الرقص، والمواكب والصيد والقنص، أو مشاهدة التمارين الرياضية في ساحات اللعب. وأولئك الذين تقلّ اسنانهم عن الثلاثين^(٥٢) لا يذهبون الى السوق أبداً وإنما يقضى حاجتهم من المؤن والارزاق أقربائهم وأصدقائهم وليس مما يشرف كبار السن أن يروا متسكعين هناك باستمرار بدلاً من قضاء القسم الأكبر من النهار في ساحة التمارين التي يطلق عليها [لسخاي Leschai] إذ لو انهم اجتمعوا هنا لقضوا وقتاً مستمراً، واحدهم مع الآخر.

لا بخصوص كسب المال، أو السؤال عن أسعار السوق بل في الحكم على عمل من الأعمال يستأهل تبادل الرأي فيه على الأغلب. مكبرين في الأخيار مآثرهم عائبين على الاشرار مثالبهم بأسلوب يمتاز الفكاهة، ويخلو من القسوة، وتتخلل احاديثهم التي لا تحمل الكثير من الطابع الجدي - دروساً في النصيحة، والارشاد الى طريق التقدم، ولم يكن ليكورغوس بذلك الرجل المتشدد الصارم الفائق عن الحدة، فهو الذي اقام تمثال (الضحك) الصغير على ما يذكر (سوسيبوس Sosibius)، الذي يقول أيضاً، إن المرح المقبول يشيع بينهم في أوقات العشاء، وفي محلات الولائم العامة، فيكون بمثابة حلوى ومقبلات يُلطف من حياتهم الخشنة الصارمة. والإجمال نرى أن ليكورغوس صاغ السبارطيين بشكل ما عادوا يستطيعون أو يقبلون العيش كل لنفسه على وجه الانفراد. لقد انقلبوا فهم كياناً واحداً موقوف على النفع العام، تراهم يتجمعون حول قائدهم مثل دُبر النحل. وقد أنسلخوا انسلاخاً تاماً عن «أنيتهم» بدافع الحماسة وروح الجماعة التي سادتهم، فتنافوا في خدمة بلادهم وتسابقوا اليها. وأقوالهم هي خير ما يظهر به أحاسيسهم ومشاعرهم في هذا المأل.

لم يُقبل دخول (بيديراتوس Paederatus) في قائمة الثلاثمائة فعاد الى بلده ضاحك السنّ مسروراً لأن في سارطة ثلاثمائة من الرجال كلهم خير منه^(٥٣). وكان بوليقراتيديداس

(٥٢) يقولون انه سنّ البدء بالخدمة العسكرية لكن لما كان القانون يقضي ببقائهم في الخدمة حتى سن الأربعين فالقول هو ان سنّ الخدمة العسكرية لم يكن ثابتاً.

(٥٣) يقول كزنيفون ان الايفوري اعتادوا تعيين ثلاثة ضباط. وكل ضابط ينتقي مائة من أفضل ما يجده والشخص المنتقى يعتبر اختياره شرفاً عظيماً.

Polycratidas من ضمن وفد ارسل في سفارة لنوآك ملك الفرس. فسألوه هل كان قدومهم بصفته الشخصية. أم بصفة رسمية عامة؟

فأجاب. «صفة عامة أن نجحت سفارتنا، وبصفة شخصية إن فشلنا وسألت (ارغيليونيس [Argileonis] بعض القادمين من (امفيبوليس [Amphipolis]. هل مات ابنها (براسيداس [Brasidas]»^(٥٤) ميتة الشجاع كما هو جدير بالسبارطي؟ ولما بدأوا يشنون عليه أعظم الثناء قائلين «لم يبق له نظير في سبارطا» ردّت عليهم قائلة «دعكم من هذا القول، كان (براسيداس) رجلاً شجاعاً طيباً، ولكن هناك الكثير ممن يفوقه في سبارطا».

قلت سابقاً أن مجلس الشيوخ تألف من أعوان ليكورغوس ومساعديه الأصيلين في خطه واصلاحاته. أما الشواغر فقد أمر أن تُملأ بخير الرجال وأكثرهم استحقاقاً ممن جاوز الستين من عمره وليس ثم مدعاة للعجب أن كانت العضوية فيه مصدر تنافس عظيم. فأى تنافس بين الرجال أسمى من التنافس لا على من هو أسرع عدواً من أسرع العدائين، أو أقوى جسماً من الأقوياء، بل على من هو أوفر حكمة بين كثير من الحكماء ومن هو الأصح من الصلحاء، والانساب ليعهد اليه بالسلطة العليا في الجمهورية وبالسلطان على حياة، وحقوق ومصالح بني قومه العليا كمكافأة على سجاياه وقابلياته؟ أمّا الطريقة التي يجرى بها انتخابهم فهي كما يلي يدعى الشعب لاجتماع عام، ويختار منهم عدد، ويؤخذون الى غرفة قريبة من مكان الانتخاب ويغلق عليهم بابها فلا يرون أحداً ولا يراهم أحد^(٥٥)، ولكن يسمعون أصوات الاجتماع في الخارج لأنهم يقررون الأمر من هتافات الجمهور، كما يقررون معظم شؤون الساعة الخطيرة. وبعد ان يتم ذلك، لا يؤتى بالمرشحين المتنافسين ويقدمون للجمهور معاً بل يتقدم واحد بعد آخر بموجب قرعة، فيشخص المرشح أمام الجمهور بدون أن ينطق بحرف، ويزود الأشخاص في الغرفة، بمناضد للكتابة، ليدونوا كل هتاف، ويقدروا قوته ويسجلوها دون أن يدروا لمصلحة من كان ذلك الهتاف. بل مجرد كتابتهم انه الهتاف الغلاتي بالشدة وبمقدار كذا هو للأول أو للثاني أو الثالث وهكذا. فمن يكون قد حاز أكثر وأعلى الهتافات والتشجيع

(٥٤) انتحس هذا الجنرال اللقيديسي على الآتينيين في معركة بالقرب من امفيبوليس المقدونية الواقعة على شفاف نهر ستريمون، لكنه خرّ صريعاً في المعركة (توكديدس ١٠٠٥).

(٥٥) كانت هذه الطريقة مشوشة غير مؤكدة للتوصل الى من فاز بأعلى الأصوات فكثيراً ما كانوا يضطرون الى فصل الناس وعد الأصوات والدليل على هذه الصعوبة ما حصل في إحدى المناسبات للانيورس المدعو سثينلايداس [توكديدس ٨٧ ١]. يطن ارسطو أن على الناس عدم ترشيح انفسهم في مثل هذه الأحوال ولا ان يطلبوا المنصب أو العمل بل يجب ان يطلب منهم بدعوة، بسبب كفاءاتهم أو اهليتهم (السياسة ٧ ٢).

ينصب شيخاً في الحال. وعندئذ يوضع أكليل غار على رأسه. ويسير في موكب حافل ليرور كل المعابد ويقدم شكره للأرباب. يتبعه عدد عظيم من الفتيان وهم يهتفون له، والنساء وهن ينشدن الشعر تكريماً وتعظيماً لفضائله، متمنيات السعادة له في الحياة. ويسيره على هذا الشكل خلال المدينة. يبسط كل صديق أو قريب له، مائدة طعام ويقول: «المدينة تكرمك بهذه المأدبة». أما هو فبدلاً من قبولها - ينصرف عنها إلى المائدة العامة التي اعتاد انه يتناول عليها طعامه سابقاً، وتعطى له وجبته بأضافة شيء إليها فيتسلمها ويضعها أمامه. وبعد ختام العشاء تتجمع قريباته النسوة عند الباب. فيختار من بينهن، أعظمهن مكانة عنده، ويقدم لها الوجبة الإضافية التي نحّاها. وهو يقول انها كانت دليل تكريم له، وهي الآن دليل تكريم لها. وبهذا تنال منزلة كبيرة في البيت ويقوم سائر النسوة على خدمتها.

وبصدد دفن الموتى استحدث ليكورغوس نظاماً ينطوي على حكمة كبيرة، لأجل القضاء أولاً على جميع الحرافات سمح لهم ان يدفنوا موتاهم داخل المدينة بل سمح ان نقام انصابهم حتى حول المعابد وقصده من هذا أن يتعود الفتيان هذه المناظر. وان لا يخافوا رؤية الجثة^(٥٦). وان يتصوروا أن لمس جثة أو وطء قبر يصيبهم بالنجاسة. وأمر ثانياً - أن لا يدفن شيء مع الجثث إلا بعض اوراق من الزيتون إن شاؤا مع الكفن الأحمر الذي يلقون الجثة به^(٥٧) ولم يسمح بقش اسماء الموتى على الاصرحة إلا لأولئك الذين سقطوا في الحرب صرعى أو للنسوة اللاتي يقمن بالواجبات الدينية. وحدّد وقتاً جدياً قصيراً للحداد، لا يزيد عن أحد عشر يوماً، وفي اليوم الثاني عشر يقربون للرب (كيريس Ceres) وينتهي كل شيء. وهكذا نرى في الوقت الذي وضع حدّاً لكل التوافه من الأمور بدت الأمور الهامة الضرورية وليس فيها صغير أو زهيد إلا ويعبر عن إكبار للفضيلة، وشجب للرذيلة. لقد ملأ بلاد لقيديونيا كلها بدلائل وأمثلة عن أحسن السلوك. تلازمه فكرة واحدة وهي أن افراد الشعب منذ عهد الشباب فصاعداً لا يمكن أن يقفوا حيث هم في مجال الفضيلة والصلاح وانما يتقدمون بالتدرج المطرد.

ولهذا السبب منعهم في السفر الى الخارج، والانتقال في البلاد الأخرى للتعرف بأجهزة الحكم الاجنبية، والاخلاق السائدة فيها، واكتساب عادات الناس السيئ التهذيب، وذوي

(٥٦) جرت العادة في عموم بلاد اليونان والرومان ان يدفن الموتى على جانبي الطريق الخارجية. والسبب في ذلك هو المحافظة على الصحة العامة. ومهما يكن السبب الجغرافي الذي قرن بهذا. فاننا نجد ليكورغوس يرفض كل ما يتعلق بالموتى. وقد جاء من هنا عادة حرق جثث الموتى ووضع الرماد المتخلف في أوعية. ولم يبق ليكورغوس بالفائتها.

(٥٧) يخبرنا ايليان (٦:٦) ان الاكفان الاحمر- واوراق الزيتون انما هي للموتى من المواطنين البارزين في مجال الخدمة العامة ولاسيما في الحرب وليست مباحة للجميع بدون تفریق.

الآراء المختلفة في أسلوب الحكم. وكذلك نفى كل الأجانب الذين لا يتمكنون من عرض سبب وجيه مقنع لجيئهم، لا لحسوفه من مدارستهم شكل حكومته وتقليدها كما يزعم (ثوسكيديدس)، أو أن يتعلموا شيئاً ينفعهم، بل لئلا ينشروا أموراً مضادة للأداب العامة. فوجود غرباء، يجب التسامح في الكلمات الغريبة، وتلك البدع تنتج بدعاً فكرية، ويستتبع ذلك آراء ومشاعر تتلف صفاتها الشاذة قوام الدولة المتناسق. كان مهتماً بانقاذ مدينته من العدوى بالأخلاق السيئة الأجنبية، قدر ما يهتم الناس عادة بدفع الطاعون عنهم.

والى هنا لا أجد أنا شخصياً أي شيء يتم عن ظلم وعدم مساواة في قوانين ليكورغوس. مع أن بعض الذين يقررون أنها صالحة للغاية لتربية خبر الجنود، يرونها معيبة من ناحية العدالة. وربما كانت شريعة «الكريتيا Cryptia»^(٥٨) (هذا إذا كانت قانوناً من قوانين ليكورغوس كما يقول أرسطو)، تجعل أرسطو وأفلاطون على السواء يريان هذا الرأي في ليكورغوس ونظام حكمه، فبمقتضى هذا القانون يرسل الحكام بصورة سرية عدداً من أقدر الشبان الى انحاء البلاد بين الفينة والفينة وليس معهم من سلاح غير خناجرهم، ولا من القوات الا الضروري القليل. فيخفون أنفسهم ليلاً في مواضع بعيدة أعين الرقباء، ويبقون هكذا حتى يجنّ الليل فيخرجون من مكانهم وينبشون في الطرق العامة ليقتلوا اي هيلوتي يصادفونه واحيان يشبون عليهم نهراً وهم في اعمال الحقل منشغلون ويذبحونهم، وعلى ما روى لنا [ثوكسيديدوس] في تاريخه عن حرب الهيلوبونيس، إن عدداً كبيراً من هؤلاء بعد أن اتم

(٥٨) كلّ المؤلفين كتبوا مستنكرين قسوة القيديمين على الهيلوت. وان حاول بليوتارخ المعجب الكبير بالسبارطيين التخفيف من وطأة ذلك جهد ما امكته. ان هؤلاء المساكين البائسين ميزوا بالعبودية في شتى مظاهر حياتهم اليومية حتى في ثيابهم وحركاتهم. فقد رسم لهم ان يغطوا رؤوسهم بجلود الكلاب ويرتدوا صدرأ من جلود الغنم. ويحظر عليهم تعلم اي فن من الفنون الحرة. او الاقدام على اي هو من ليافة اسيادهم ويضربون مرة في اليوم بالسياط لئلا ينسوا بانهم عبيد، فضلاً عن هذا منهم معرضون (الكريتيا) وتلك عقوبة لاينجو منها مطلقاً كل من يتكلم أو ينظر أو يمشي أو يتحرك مثل الانسان الحر! يحاول بليوتارخ ان يثبت لأعمال القسوة والوحشية تاريخاً أبعد بكثير من عهد ليكورغوس فيزعم. انها ما طبقت الا بسبب انضمام الهيلوت الى المسيحيين بعد الزلزال المدمر الذي وقع في ٤٦٧ ق.م. فهذه جزء كبيراً من لقيديمون، وفنك باكثر من عشرين الف سبارطي. لكن ايليان يذكر بكل وضوح ان الرأي السائد في بلاد الافريق هو أن هذه الهزة الارضية المدمرة كانت حكماً سماوياً عوقب به السبارطيون لمعاملتهم اللاإنسانية للهيلوت.

ويقول م. بارثلمي في [رحلات اناخارسيس] ان الكريتيا كما فرضها ليكورغوس لم تكن الآنوماً من التمهيد للعمليات الحربية، حيث يقوم الشبان بنصب كمان وشن هجوم ليلي خارج المدينة. غير قاصدين ان يكون ذلك ضد الهيلوت. وان اعمال القتل فيهم ربما بدت في زمن كتابة رسالة أفلاطون في الشرايع. بسبب مقاومة الهيلوت لتلك الغارات الليلية. فاذا بالتمارين تنفذ قاصرة على مطاردة هؤلاء العبيد المساكين وتنوسي الغرض الأصلي منها.

السيارطيون اختياريهم ليسالتهم، توجهوا بأكاليل الغار ومنحوا امتياز المواطنة وحقوقها وطيف بهم كل المعابد تكريماً لهم وتعظيماً. ما لشوا أن اختفوا جميعاً بصورة فجائية. وكان عددهم يقارب الألفين. ولم يستطع أن يتوصل أحد لا في حربه ولا بعده، الى كيفية موتهم. ويضيف ارسطو الى ذلك قوله أن «الايفوري» ما أن تسلموا مقاليد الحكم حتى أعلنوا الحرب عليهم واتقوا بأن ذبحهم خلال لا يحرمه الدين. ويجمع الكتاب قاطية أن السيارطيين عاملوهم بشدّة القسوة، إذ كان من الأمور الاعتيادية ارغامهم على أن يتناولوا قدرأ كبيراً من الخمر حتى يشملوا فيقروونهم وهم في هذا الوضع الى قاعاتهم العامة حتى يشاهد الأحداث ماذا يفعل السكر في الانسان ويجبرونهم على أداء رقصات خليعة وضيفة وغناء مقطوعات مضحكة قبيحة ويمعنونهم من انشاء أناشيد جيدة منعاً صريحاً حتى انه لما غزا الثيبيون لاقونيا^(٥٩) وأسروا عدداً كبيراً من الهيلوت حاولوا عبثاً أن يحملوهم على انشاد قصائد من (ترياندر^(٦٠)) أو (الكمان Alcman) أو (سپندون Spondon). وكانوا يجيبون قائلين: «لا، ان سادتنا لا يريدون» وصدق من قال: «في سيارطه، الحرّ يملك أعظم الحرية، والعبد فيها أتعس العبيد في العالم». وفي رأيي ان هذه المظالم والاضطهادات بدأت تمارس في سيارطة في زمن متأخر جداً لاسيما بعد حصول الزلزال العظيم^(٦١) وقيام الهيلوت بانتفاضة عامة، فقد ضموا قواتهم الى المسينيين واجتاحوا البلاد وخربوها والحقا الخطر الجسيم بالمدينة. لأنني لا أستطيع اقناع نفسي الى إسناد سلوك بربري شرير كهذا لليكورغوس، لما عُرف به في اللطف والدماثة وحب للعدل في كل المناسبات الأخرى، وهو ما تشهد به النبوءة أيضاً.

عندما تأكد أن تنظيماته الأكثر أهمية قد رسخت جذورها في عقول بني قومه وان العادة جعلتها سهلة المتناول محبوبة، وان جمهوريته باتت ثابتة رصينة لا نحتاج الى معين، ويمكنها أن تحضي في سبيل التقدم وحدها «عندئذ شعر بالسعادة كما شعر خالق الأرض بالارتياح وهو يراها كائنة متحركة» على حدّ قول افلاطون. أجل شعر ليكورغوس بالفرح وهو يتطلع الى عظمة بنائه السياسي وجماله وهو يعمل ويتحرك. وتقلبته فكرة وهي أن يجعل نظامه هذا باقياً ما بقي الجنس البشري ينقله الخلف عن السلف. وعقد اجماعاً عاماً استثنائياً حضره

(٥٩) في عهد ابيامنداس. بعد معركة ليوكترا في ٣٧١ ق.م.

(٦٠) شاعر عثاني شهير ولد في حدود الاولبياد السابع والعشرين في (سارديس) من اعمال (ليديا) لكن جيء به وهو صغير الى ليقديمون وأستقلّ عبداً إلا ان عبقيته الشعرية أمنت له العتق والحرية.

(٦١) وقع هذا الزلزال في عهد [ارخيداموس] في حدود المائة الخامسة ق.م قدّم المدينة وابتلع عشرين ألف سيارطي ودج جبل (تايغيتوس) رجاً عنيفاً. ويعزو پلوتارخ هذه النكبة في موضع آخر الى سلك السيارطيين ازاء بيات [السبوس] يخالف ما يراه ايليان من ان ما حلّ بهم كان بسبب معاملتهم السيئة للهيلوت

الشعب جميعاً، وقال لهم، إنه يرى الأمور قد استقرت بشكل مناسب معقول لأجل سعادة الدولة وصلاحها. على أن شيئاً في غاية من الأهمية كان يراه ناقصاً ولم يشأ التصريح به حتى تنزل عليه نبوءة فيده. وأنه يرغب منهم في الوقت عينه أن يطيعوا القوانين ويطبقوها دون أي تغيير حتى عودته وعندئذ سيفعل ما تأمر به الآلهة. فأسرع الجميع للموافقة ورجوه أن يعجل في رحلته. وقبل أن يفارقهم جعل الملكين واعضاء مجلس الشيوخ والعامة جميعاً يقسمون ميثناً بالابقاء على أسلوب الحكم الراهن حتى عودته. ولما تم ذلك انطلق الى [دلفي]، وقرباً لا يوللو ثم سأله هل أن القوانين التي وضعها جيدة، كافية لسعادة الشعب وصلاحه؟ فجاءت النبوءة بأن القوانين ممتازة جداً وأن الشعب بالخضوع لها سيبليغ أعلى مراقي التقدم والرخاء. فقام ليكورغوس بكتابة النبوءة وبعث بها الى سبارطا ثم قرب لا يوللو ثانية. وأستأذن من أصدقائه وأبنه وغادروهم وهو على يقين بأن السبارطيين لن يحتشوا بالقسم الذي أدوه، وأنه لذلك يجب أن يحتتم حياته العامة بالشكل الذي يجده مناسباً وهو لا يزال في السن التي تكون فيه^(٦٢) الحياة عبثاً والموت مرغوباً فيه وفي حين كان كل ما حوله في حالة طيبة راضية، فأنهى حياته بالامتناع عن تناول الطعام معتقداً أنه واجب سياسي أن يجعل في موته. إن أمكن - خدمة للدولة. وإن يقدم حتى في ختام حياته مثلاً من أمثلة الفضيلة، ويحقق غرضاً مفيداً. أنه من ناحية يتوج ويختم سعادته الخاصة بموت جدير بمثل هذه الحياة الكريمة ومن ناحية أخرى يصن لبني قومه التمتع بالمنافع التي انفق حياته كلها في سبيل كسبها لهم بعد أن اقسما الايمان المغلظة على البقاء اماناً. مخلصين لتنظيماته حتى عودته. ولم يكن مخظناً في أماله. لأن مدينة ليقيديون بقيت المدينة الرئيسة في كل بلاد الاغريق زهاء خمسمائة عام. وظلت تحافظ محافظة دقيقة على قوانين ليكورغوس. وخلال هذه المدة كلها لم يحصل فيها شيء من التغيير اثناء حكم اربعة عشر ملكاً ختموا (بأغيس) ابن (ارخيداموس Archidamus) فإن استحداث منصب «الايغوري» وإن كان قد ظن أنه لمصلحة الشعب، إلا أنه زاد من ملامح الحكم الارستوقراطية^(٦٣) وبرزها الى اقصى حد بدلاً من أن يخفف من غلواتها.

وفي اثناء حكم [أغيس]، بدأ الذهب والفضة لأول مرة يتدفقان الى سبارطا، ومعها جاء كلّ الودائل والشُرور التي تصاحب الرغبة المفرطة في الثراء. وزاد (ليساندر) من هذه الفوضى

(٦٢) ومع هذا يقول لوسيان أن ليكورغوس كان في الخامسة والثمانين عندما قبض.
(٦٣) ينكر ارسطو ذلك [السياسة ١٧:٢] والواقع أنه غير ممكن وليس معقولاً أن يقوم الضباط المزودون بمثل هذه السلطة العظيمة بإبطال الجزء الديمقراطي من الدستور الذي كان له الفضل في توليهم تلك السلطة.

بحلبه الاسلاب والغنائم الحربية الثمينة فملاً بلاده بمظاهر الذخ والتزف وان كان هو نفسه رجلاً مستقيماً^(٦٤)، وأبطل قوانين ليكورغوس ومراسيمه. اذ ما دامت تلك القوانين نافذة المفعول في سبارطا فقد كانت تبدو أقرب الى حياة رجل حكيم ذي خلق حميد منها الى حكومة سياسية لشعب من الشعوب. وكأسطورة الشعراء التي ألغوها عن هرقل، وهي تجواله في البلاد معاقباً الطفلة القساة، والأشرار المجرمين بجلد اسده وهراوته، كذلك ما قيل عن اللقيديمونيين بأنهم تمكنوا من كسب خضوع كل الاغريق الطواعي الودود، بعكاز بسيط وبرداء خشن واستمروا طوال الوقت يحاربون الطغيان والفساد والعدوان، ويتدخلون كوسطاء لفض الحروب، وانهاء النزاعات المدينة. ولم يكلفهم هذا في أغلب الأحيان تحريك جندي او درع واحد بل بمجرد إرسال مندوب واحد، يخضع الجميع لتوصياته دونما اعتراض. ذلك هو الرصيد من النظام والمساواة الذي وجد في دولتهم وكان يفيض على الآخرين بالكثير من النعم والخيرات.

ولذلك لا يسعني إلا أن أعجب من أولئك الذي يقولون ان السبارطيين خير الرعايا، واسوء الحكام، وبرهاناً على هذا، ينسب قول الى الملك [ثيوبرومبوس]. عندما قال أحدهم أمامه: «أن سؤدد سبارطا ما بقي هذه المدة الطويلة إلا لأن ملوكها كانوا من القادة المحنكين.» اجابه قائلاً: «كلاً بل لأن الشعب يعرف جيداً كيف يطيع». ذلك لأن الشعب لا يطيع حكامه إلا اذا أتقنوا فن القيادة والحكم. والطاعة هي درس يلقنه القادة. والزعيم الحقيقي يخلق بنفسه طاعة اتباعه، وكما أن الغاية الأخيرة لفن ركوب الخيل هي تذليلها وكسر شكيبتها، كذلك هو فن الحكم، فانه يهدف الى اشاعة وايحاء الرغبة في الطاعة بين الناس، واللقيديمونيون لم يكتفوا بالايحاء بهذه الرغبة، بل تعدّوها الى كسب رغبتهم المطلقة ليكونوا رعايا خاضعين لهم. ولم يكن هؤلاء يطلبون من السبارطيين ارسال سفن ومال ونجذات عسكرية لهم. بل كانوا يطلبون قائداً سبارطياً واحداً فحسب. وهم ينزلون هذا القائد ارفع منزلة من التجلة والاحترام. وهو ما كان موقف الصقليين في [غيلپوس Gulippus] وموقف [الخلقيديين Chalcidians] من [پراسيداس] وموقف كل اغريق آسيا^(٦٥) من [اليساندر وأغيسلاوس وكالليكرائيداس Cal-]

(٦٤) يذكر [سيسيستوس] نقلاً عن [ميديورس ١٠٦.١٨] أنه جلب الى سبارطا ألفاً وخمسمائة تالنت من الذهب فضلاً من غيره من النفائس ويخبرنا كزنيغون ايضاً انه عند استيلائه على اثينا بعث الى سبارطا بالكثير من الغنائم الثمينة ومن بيتها (٤٧٠) تالنت من الفضة.

(٦٥) ارسل السبارطيون [غليپوس] للدفاع عن [سيراقوز] عندما غزاها الاثينيون بقيادة [الكيبادس]. واما الخلقيديون الذين صرّع [براسيداس] اثناء ما كان في خدمتهم فلم يكونوا من [خلقيس] [يوبويا] بل من حوار [امفيپوليس]. ويأغريق اسيا يعني كل سكان اسيا الصغرى وايونيا والجرر المحاورة و[كالليكرائيداس] هو امير بحر ليقيديموني في نهاية حروب الپيلوبونيسيس.

lacratis) ولم يبخل عليهم الأقوام أو الأمراء الذين أرسلوا لهم بالقصاب «البناء والمقتصين». وكانت انظارهم دوماً شاخصة الى مدينة سبارطا نفسها بوصفها اكمل نموذج للسجاية العالية والحكم الصالح في حين اعتبر باقي الاغريق مجرد علماء. وإسائفة وقد أشار الى هذا (ستراتونيوكوس Stratonicus) بنوع من الفكاهة، عندما اقترح مازحاً أن يُسنَّ قانونٌ بدير الآثينيين بموجبه شؤون المراكب الدينية والطقوس المقدسة الخفية، وشرف الاليانيون على الالعب الاولمبية، وإذا هفا واحدٌ منهما أو اخطأ فيجب أن يُعاقب اللقيدييون بالضرب^(٦٦). وقال أنتستينس بلهجة جدية (وهو أحد متلميذي سقراط) عن (اليثيين) عندما استخفهم الطرب بانتصارهم في (ليوكترا Leuctra)^(*)، أنهم أشبه بصبيان المدرسة الذين ضربوا معلمهم.

ومهما يكن من أمر، فإن ليكورغوس لم يرد لمدينته أن تحكم عدداً كبيراً من المدن الأخرى. بل كان يرى أن سعادة الدولة كسعادة الفرد من البشر، هي في ممارسة الفضائل أساساً، وفي وحدة السكان. لذلك كان هدفه في كل تنظيماته أن يجعل فومه أحراراً بالفكر، مستقلين بالنفس، أقوياء الارادة. لذلك، فإن كل أولئك الذين أجادوا الكتابة في السياسة امثال افلاطون ودوجييس Diogenes وزينو Zeno، اتخذوا ليكورغوس نموذجاً لهم. لقد ترك هؤلاء وراءهم كلمات وأفكاراً فحسب في حين أن ليكورغوس كان منشئ نظام حكم لا كتابية بل حقيقة واقعة، حكومة قصر الآخرون عن تقليدها واستنساخها^(٦٧). وفي الوقت الذي اعتبر الناس الطبيعة الفلسفية الفردية شيئاً لا يمكن بلوغه، نجده بالمثل الذي ضربه من دولة ذات فلسفة كاملة، قد ارتفع وسما فوق كل واضعي القوانين في بلاد الأعريق. ولهذا قال ارسطو أن الإكرام الذي اكرموه في لقيديونيا بعد وفاته كان أقل مما يستحق. مع أن لديه هناك معبداً يقدمون فيه القرابين اليه سنوياً كأنه اله.

(٦٦) لأن المعلمين يحاسبون على اخطاء تلاميذهم ان أصل النكته ولبابها هو هذا: اعتاد اللقيديميون انزال العقاب بالوالدين أو المتبنيين ولذا إذا ارتكب ابنتهما أو ابنتهما خطأ أو ضلوا سواء السبيل. ولما بات اللقيديميون الآن معلمين للشعوب الأخرى فقد وجب عليهم تحمل القصاص الواقع عليهم جراء اخطاء تلاميذهم!

وستراتونيوكوس هو موسيقار أثيني، مدحه (أشينيوس، ٨:٨) لجمال تأليفه، وقابليته على التتكير. إلا أن تعلق ابتاء وطنه بالفراغات والاهام أضفى مسحة غلاية على سحره.

(*) في السنة ٣٧١ ق.م بقيادة ايبامنداس.

(٦٧) يختلف افلاطون وارسطو عن بلوتارخ في هذا حتى پوليبوس نفسه الذي كان شديد الازعاج بنظام الحكم السبارطي، نجده يقول ان السبارطي وان كان صاحب انصاف وفضيلة لكن الجماعة قليلو الاهتمام بنشر العدل لا يكثرثون بمكارم الأخلاق.

وذكروا ان صاعقة سقطت على الضريح الذي ضم رفاته بعد نقلها الى سپارطا ودفنها، وهي حادثة لم تحصل لرجل عظيم سواه، باستثناء [أفريديس] الذي دفن في مدينة [أريشوسا Are- thusa] بمقدونيا^(٦٨). وقد تكون هذه الظاهرة للمعجبين بالشاعر، برهاناً ودليلاً على انه حظي بعين ما حظي به ذلك الرجل القديس مصطفى الآلهة، يقول بعضهم ان ليكورغوس توفي في [كيرّا Cirra]^(٦٩)، ويزعم [ابوللوثيرميس Apollotthemis] انه توفي بعد مجيئه الى [ايليس Elis]، ويقول [طيساؤوس] و[أرسطوكزينس Arstoxenus] ان حياته انتهت في كريت، ويضيف ثانيهما أن قبره عند الكريتين قائم في منطقة [برغاموس] بالقرب من «درب الغرباء». وترك ابناً واحداً هو [انتبوروس Antiorus] الذي مات بلا عقب فأنقرضت الأسرة، إلا أن أصدقائه وأقرباءه ظلوا يقيمون له حفل ذكرى سنوياً لوقت طويل، وسميت ايام الاجتماع [ليكورغوس] ويقول [أرسطوقراطس] ابن [هيبارخوس]^(٧٠) انه توفي في (كريت) وان اصدقائه الكريتيين بناء على طلب منه أحرقوا جثته وذروا رماها في البحر، خوفاً من أن تنقل عظامه الى لقيديمون، وعندئذ يتخذونها حجة وتعلل ليحلوا انفسهم من القسم، ويقوموا باجراء تحديد، في أصول الحكم.

وفي هذا الكفاية عن حياة وأعمال ليكورغوس.

(٦٨) هذا اذا كان عاد الى بلاط [أرخيلاوس] على أن ثم ضريحاً له في أثينا.

(٦٩) بلدة بالقرب من دلفي.

(٧٠) مؤلف كتاب في تاريخ لقيديمون. أقتبس فيه اثينيوس ٧:٢.

نوما پمپلیوس

NUMA POMPILIUS

715-672 ق.م

مع أن شجرة الأسرة النبيلة تصل بشكل متسلسل دقيق حتى [نوما پوميوليوس] باتفاق المؤرخين جميعاً، فهناك تناقض كبير بين المؤرخين بخصوص زمن حكمه، فشم كاتب يدعى [كلوديوس Clodius] يذكر في كتاب له بعنوان [تعليقات على التاريخ] أن سجلات روما القديمة فقدت عندما نهبها الغاليون^(١)، وإن كل ما هو موجود منها الآن هو مزيف، قصد بتزييفه ارضاء ومعاملة بعض الناس الذين يرغبون في ان يتوهموا أنفسهم بأنهم من نسل عريق نبيل في حين أنهم ليسوا كذلك. ومع أن الشائع المعروف أن [نوما] كان من تلاميذ [فيشاغوراس]^(٢) الحميمين، إلا أن آخرين ينفون ذلك ويؤكدون أنه لم يكن واقفاً على اللغة اليونانية ولا علومها. وأنه كان رجلاً ألمعيّ الذهن بفطرته، وهُب قابليات طبيعية بلغت به مراقي الفضائل العليا، أو انه عشر على معلم من البرابرة يفوق فيشاغوراس علماً ويؤكد بعضهم كذلك، ان فيشاغورس لم يكن معاصراً لنوما. وانما عاش بعده بخمسة أجيال على الأقل^(٣). وان هناك فيشاغوراس آخر وهو مواطن سبارطي، نال جائزة في سباق أولمبي، في الاولمبياد السادس عشر^(٤)، الموافق للسنة الثالثة من اختيار [نوما] ملكاً. ربما تعرف به في رحلته الى ايطاليا وعاونه على انشاء مملكته ومن هنا كان السبب في ظهور عدة عادات وقوانين [لاقونية] بين الأنظمة الرومانية. وعلى أية حال كان [نوما] من نسل سابيني^(٥).

(١) ٣٩٠ ق.م.

(٢) لم يزر فيشاغوراس الفيلسوف ايطاليا حتى الاولمبياد الحادي والخمسين اي بعد اربعة أجيال مرت على عصر (نوما) ويضيف (نيون ١٥:٢) الى هذا بأنه لم يهتم بالدراسات الفلسفية في كروتونا وقت انتخابه فان تلك المدينة لم تبني الا في السنة الرابعة من تاريخ اعتلائه العرش.

(٣) ليفي (١٨:١) يجعله في عهد سرقليوس نكليوس، وشيشرون في الخطب (٣٧:٢) يجعله في وقت متأخر مؤكداً انه قدم ايطاليا على عهد تاركينوس سوبربوس.

(٤) ٦٥٤-٦٥٧ ق.م.

(٥) اكتشف [ديون ١١٢] في تاريخ السابين أنه بينما كان ليكورغوس وصياً على ابن أخيه اشومس (حاريلوس بلا شك) هرب بعض اللقيديمين الذين لم يستطيعوا احتمال صرامة قوانينه واتجهوا الى ايطاليا فاستقروا أولاً في (يوميتيا) ثم انتقل عدد منهم الى ارض السابين وامتزجوا بهم ولقنوهم عاداتهم لاسيما تلك التي تعلق بالحرب. ودرّبوهم على الجلد والصبر وشطف العيش. وعلى هذا الأساس تكون هذه الدفعة من اللاجئين قد استقرت في ايطاليا قبل ميلاد [نوما] بمائة وعشرين عاماً.

وذكروا أنهم مستعمرة لقيديونية. والتاريخ على العموم غامض، ولا سيما عندما يحقق على ضوء قوائم الفائزين في الألعاب الاولمبية التي نشرها في زمن متأخر [هيبياس Hippias] الإلياني، وهي لا تستند الى مرجع ثقة. وابتدأنا من نقطة مناسبة سنباشر في عرض أهم الوقائع المدونة عن حياة [نوما] وأجبرها بالملاحظة.

كانت السنة السابعة والثلاثين (محسوبة من يوم بنا روما) عندما قام رومولوس الحاكم آنذاك - بتقديم قربان عام في «مستنقع المعز» في الخامس من شهر تموز - المسمى [كابروتين نونس Caprotine Nones] بحضور الشيوخ وأهالي روما. فأظلمت السماء فجأة وخيمت على الأرض سحب كثيفة سحبها كثير من العواصف والمطر. وفر العامة هارين وقد تملكهم الذعر وتفرقوا أيدي سباً. وفي هذه العاصفة أختنا رومولوس ولم يعثر على جسمه حياً أو ميتاً. ونار شك خبيث في أن غيبته من عمل الباتريسيان وأنششرت اشاعات بين الناس بأنهم تأمروا عليه وإزالوه من الوجود بعد أن ضاقوا ذرعاً بالحكم الملكي، ونفذ صبرهم في الآونة الأخيرة من المسلك الاستبدادي التحكيمي الذي اتخذوا إزاءهم. وانهم أرادوا أن يستحوذوا على السلطة وإدارة دفة الحكم بأنفسهم. وقد حاولوا تبديد هذه الشكوك وإزالتها من الأذهان بالافراط في تكريم رومولوس وجعله في مصاف الآلهة فقالوا لم يمت بل عرج الى السماء وانتقل الى حالة اسمى من حالة البشر وأقسم [بروكلوس] وهو رجل محترم الكلمة بارز الشخصية - يانه رأى رومولوس يصعد الى السماء لابساً ثيابه الملكية ويكامل شكة سلاحه وسمعه يقول وهو يصعد، بأن على الرومان من الآن فصاعداً أن يطلقوا عليه اسم [كويرينيوس].

بعد أن هدأت الخواطر وخدمت الفتنة، ظهرت مشكلة أخرى حول انتخاب الملك الجديد، لأن عقول الرومان الأصلاء والسكان الجدد لم تبلغ بعد ذلك المبلغ من وحدة الاتجاه، بل كان ثم أحزاب تختلف وجهات نظرها اختلافاً بينا - وكان ثم تنافر وتباغض ما بين الشيوخ أنفسهم. ومع أنهم اتفقوا جميعاً على ضرورة اختيار ملك، إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم على شخصه. فأولئك الذين بنوا المدينة مع رومولوس، وسبق لهم أن نزلوا عن جانب من أراضيهم ومساكنهم [للسابين]، كانوا يستنكرون أي اقتراح يقضي بخضوعهم لحكم من كان موضع احسانهم ورعايتهم. والسابين يزعمون من الجهة الثانية أنهم خضعوا لحكم رومولوس وحده، بعد وفاة ملكهم [طاطيوس] دون شكوى أو تدمير، وقد حان دورهم الآن ليكون الملك من بني جنسهم. ولم يكونوا يعتبرون أنفسهم أدنى منزلة من الرومان، ولا يعدون مساهمتهم في توسيع روما أقل من مساهمة الرومان. فلولا جموعهم الكبيرة ولولا مساعدتهم لكان من العسير أن

تستحق اسم المدينة. وظل الحزبان يتنازعا ويتجادلان على هذه الصورة. وخشية أن يسبب الاختلاف فوضى عامة - بغياب أي شكل من أشكال الحكم والقيادة اتفق على أن يقوم أعضاء مجلس الشيوخ المائة والخمسون دورياً^(٦) - بوظيفة الحاكم الأعلى ويكون لكل واحد منهم عندما يحين دوره حق استعمالشارات الملك وتقديم القرايين الدينية الرسمية وتصريف شؤون الحكم لمدة قدرها ست ساعات نهاراً وست ساعات ليلاً، وهذا الانتقال السريع في السلطة والتوزيع العادل لها، سيزيل كل آثار المنافسة بين الشيوخ والتحاسد بين الشعب لما يرون شخصاً يرتفع الى مرتبة الملك، لينخفض الى متسوى فرد عادي خلال يوم واحد. وسُمي هذا الشكل من الحكم عند الرومان بالملكية الدورية Interregnum.

على أن هذا الشكل البسيط الساذج من الحكم ما كان يمنع شكوك العامة وتنديدهم، كأنما وجدوا فيه تغييراً في شكل الحكومة ومفضياً الى حكم الأقلية [أوليغارشي] وان الشيوخ ينتهون ابقاء السلطة العليا في ايديهم عن طريق نوع من الوصاية، دون أن يباشروا في اختيار الملك. أخيراً اتفق الحزبان على أن يختار السابين ملكاً من بين الرومان. ووجد أن هذا هو خير حلّ لأنهاء روح التحزب والتكتل. وان الأمير الذي سينتخب سيكون موضع رضى وتعلق أولئك الذين انتخبوه وأولئك الذين انتخب منهم على حد سواء. وترك السابين حق الاختيار للرومان الأولين. وهؤلاء بدورهم كانوا أكثر ميلاً الى قبول ملك سابيني ينتخبونه هم، في ان يروا ملكاً رومانياً يختاره السابين ويشابهونه، فعقدت مجالس مشاورة ورشح انوما بومبوليوس^(٧) من شعب السابين وهو شخص بلغت اخلاقه السامية من الشهرة حداً عظيماً، فما أن ذكر اسمه حتى وافق عليه السابين بحماسة تفوق حماسة الذين انتخبوه. وكان يسكن خارج روما. وبعد أن أعلن الانتخاب للجمهور عين عدد من كبار وجهاء الحزبين لزيارة المرشح وعرض الحكم عليه. وكان انوما يسكن في مدينة سابينية مشهورة تدعى [كيوريس Cures] ومنها أطلق السابين والرومان على أنفسهم الاسم المشترك [كيورتيس]. وكان أبوه [پومپونيوس Pomponius] رجلاً فاضلاً، ونوما أصغر بنيه الأربعة وكُلد (كما

(٦) بحسب دعوى المؤلف كان عدد الاعضاء في عهد روملوس مائتين. على أن [ميون] يقول ان الكتاب يختلفون في هذه النقطة. فبعضهم يؤكد اضافة مائة عضو على اتحاد السابين والرومان. وبعضهم يؤكد اضافة خمسين. واما حول شكل حكم النواب المكين (ليني) ميوننا بالقرب التفاصيل احتمالاً اذ يقول ان الشيوخ انفسهم انقسموا الى مجموعات عشرية واقترحوا على من يحكم اولاً وثانياً الخ. بحسب ترتيب الاقتراع على أن يكون لشخص واحد فحسب من كل عشرة حاكمة. امتياز حمل شعار السلطة.

(٧) في ذلك الوقت دعا نواب الملك الأهالي ووجهوا اليهم الكلام التالي «ايها الرومان. انتخبوا لانفسكم ملكاً ان مجلس الشيوخ موافق. وان اتم اخترتم ملكاً خليفاً بخلافة (روملوس) فان المجلس سيمصابق على انتخابكم». وقد سر الشعب جداً بتنازل الشيوخ وعدم استخدامهم صلاحياتهم.

شاعت العناية الرّيانية) في الحادي والعشرين من نيسان وهو يوم بناء [روما]، وقد وهب نفسه بادرأ ما هذبت الطبيعة مثلها، تعلقت بالفضيلة والصّلاح، وأخضعها بالنظام واخذها بالثقيف والحياة الصارمة ودراسة الفلسفة وهي وسائل من شأنها أن تطرد النزغات الحقيرة والعواطف الوضيعة فضلاً عن قمعها حدة الطبع، وعنف المزاج. وهي صفات لها مكانة عالية بين البرابرة. وكان رأيّه أن الشجاعة الحقيقية تكمن في اخضاعنا عواطفنا للعقل.

كان قد جرد منزله من كل مظاهر الترف والنعومة. وفي حين كان المواطنون والأجانب على حدّ سواء يجدون فيه قاضياً نزيهاً ومستشاراً لا يرقى الى مشورته شك، فانه انصرف في حياته الخاصة الى عبادة الأرباب الخالدين لا الى اللهو والفسوق. وعكف على التأمل العقلي في قوى الطبيعة، والمقدرة الالهية. وبلغ من شهرته أن زميل رومولوس في الحكم زوجته ابنته الوحيدة وجعله ختنه، لكن هذا لم يُغمر كبرياءه بالرغبة في العيش مع حميته في رومه. وفضل الحياة مع السابّين، والعناية بأبيه في آخر عمره. وفضلت (طاطيا) أيضاً عيشة زوجها البسيطة الخاصة على حياة الفخفة والترف التي كانت تتمتع بها وهي مع والدها. وقبل انها توفيت بعد حياة زوجية دامت ثلاث عشرة سنة.

وعندئذ ترك [نوما] ضوضاء المدينة ونزع الى حياة الريف. يتجول في البساتين والحقول، ويؤدي فرائضه الدينية، ويقضي جل أوقاته في الاماكن الخلوية وحده وهذه الوحدة كانت سبباً في حكاية اتصاله بالرّبة. خلاصتها أن نوما لم يعتزل المجتمع بسبب حالة من السويداء اعترته، أو لإضطراب عقلي انتابه، وانما لأنه ذاق مسرات وصال أسى كثيراً من الوصال البشري، وسمح له بالزواج من الالهة لما احبته الرّبة [ايجيريا Egeria]^(٨) وأختصته لنفسها وبذلك نال البركة والحكمة الالهية.

هذه الحكاية تشبه الاساطير الموغلة في القدم كما هو واضح. تلك الاساطير التي انحدرت الى الفريجيين وما زالت تروى عن [أتيس Attis]^(٩) وما انحدر للبيثيين عن [هيروودوتس]،

(٨) ان ميل [نوما] الى العزلة. واهتياده الانزواء في أمكنة غير معروفة من غابة [أريشيا] كان سبباً في شائعات مختلفة راجت بين الناس. وظن بعضهم أن العورية (ايجيريا) هي التي أملت عليه الشرائع الدينية والمدنية التي قام بسنّها. وأكد ذلك هو نفسه كي يؤمن المصادقة الريانية عليها ولكن لما لم يكن ثم من يخلو من سوء الظن والنزغات فقد ظن بعضهم ان ما يجتذبه الى الغابات والكهوف شيء لا يمت الى العفة بصلّة. وهذا ما حدا بجوفينال الى السخرية عند ذكره بستان [ايجيريا] ليقول (١٥٣) *Hic, ubi nocturnae Numa Constituebat amiae* ويعقب أوّفيد بقوله ان ديانا من أجل ان تنسى حزنها على فقدان [نوما] حولتها الى نبع ما زال يدعى باسمها (١٥) (السوخ) وهو وپلوتارخ الذي تبنى الرأي نفسه هما الوحيدان اللذان ذكرا انها كانت زوجه (انظر أيضاً ديون ١٥:٢).

(٩) قيل ان [أتيس] كان موضع حب الرّبة (كيبيله) وان (ديانا) عشقت انديميون. وأمّا هيروودوتس هذا =

وللاركاديين عس انديميون Endymion، ولا نذكر عدداً آخر ممن ظن أن الآلهة اصطفتهم واسبعت عليهم حبها. وليس يبدو غريباً أن لا تنزل آلهة شامت ان تحب رجلاً، لا طيراً ولا حصاناً وتعيش مع نفس فاضلة وتتبادل الحديث مع حكيم ذي خلق رفيع. وان كان يصعب حقاً الاعتقاد بأن للآلهة والجن قابلية على الحب الحسي والجسماني والتوكله في جمال انسي أو جسم بشري. على أن حكماء المصريين لا يقرون حقاً بهذه التفرقة، وهي: من الممكن لروح إله ان تتقمص طبيعة انثى من البشر، لتحمل في أحشائها نطفة أولية لجبل بشري، في حين يرون من الوجهة الثانية أنه يستحيل على جنس الذكر من البشر أن يتصل جنسياً، أو يترجج جسمانياً برة من الرئات، غير معتبرين على ما يبدو أن ما هو قابل الحصول في شق، يفترض وجوب حصوله في الشق الثاني، والمنطق يفرض ان التزواج ذو طبيعة تبادلية. وليس يصيح إلا الافتراض بان الآلهة تتجاوب لحب البشر، أو انها تحبهم على شكل الرعاية والاهتمام بهم وبفضائلهم. ولم يخطئ أولئك الذين زعموا أن (أبوللو) عشق [فورياس]، و[هياسينثوس Hyacinthus] و[ادميتوس Admetus] ^(١٠)، أو أن [هيبوليتوس السيكيوني Sicyoiuon] كان ذا حظوة عندهم، مشمولاً برعايتهم، فطالما كان يبحر من [سيكيون] إلى [سيرافا]، كانت العرافة الهيبثية ننشد هذا البيت الملحمي المعبر عن اهتمام الرب وحبه:

الآن رجع هيبوليتوس مرة أخرى يخاطر بحياته العزيزة في غمار البحر

وذكروا أيضاً أن [پان] وقع في عشق [پندار] وأشعاره ^(١١). وأن القوى الالهية كرمت [هسيود، وارخيلوخوس] ^(١٢) بعد وفاتهما، لأجل [الميزوات]. وثم رواية أخرى هي أن

= [يسميه داسييه: رويوتس] فلم يذكر في أي موضع آخر على ما نعتقد.

(١٠) كان (فورياس) ابن (تريوپاس) ملك أرغوس قد انقذ الروبيين مما لا يحصى من الافاعي التي عاثت في جزيرتهم ومن ثلثين هائل على الأخضر، كان قد ازدد عدداً كبيراً من الناس. ولذلك اعتبر مقرباً من [أبوللو] الذي قتل (الهيثون). وقد وضع مع البيثون في السماء بعد موته في برج الثعبان. كذلك هياسنتوس ابن اميكلاس باني مدينة اميكلي القريبة من سبارطا فقد كان محبوباً من أبوللو و[فيروس] فقتله الأخير في نوبة من الغيرة. وعندها تحول إلى زهرة الهياسنتا التي سميت باسمه. [پاوسنياس - لقيديمون ١٩:٣، أوفيد المسوخ ١٠:١٠٥، اما (ادميتوس) فهو ابن (فيريس) ملك تيتاليا. تقول الاساطير ان أبوللو حفظ له غنمه.

(١١) كان ل(پان) منزلة ميادية خاصة عند پندار. ولذلك نجده يسكن بالقرب من هيكل (ويا) و(پان). ونظم تلك الاشعار التي غناها عذارى ثيبه في عيد تلك الرببة. وقيل ان سعاد بسماع صوت الاله نفسه وهو يتلو إحدى مقطوعاته الشعرية.

(١٢) قتل (ارخيلوحس) بيد الجندي كالكوندس أو أرخيلاس النخسوسي. أرغمته كاهنة الأولى على تادية مريضة الكفارة لقتله رجلاً مكرساً للميزوات. ولعنت نبوءه دلفي «الرجل الذي قتل به» لأنه «قتل خادم الميزوات». وأما عن (هسيود) فقد كان ضحية شك ظلم والقي في نهر [دافنيس] فحمله التيار إلى البحر ونقلته الدلافين إلى ريويم وهو لسان من خليج كورنث. فمّر الأرخومينيون وهم من سكان مويوتيا الذي =

(ايسكولابيوس Aeaculapius) لازم [سوفوكليس] طوال حياته وتبرك بالحديث معه وما رآته توجد عدة براهين على ذلك، منها أنه لما توفي، قامت آلهة أخرى بمراسيم جنازته (١٣). وإن نحن أقمنا أي وزن لهذه الوقائع، فلماذا نعد من قبيل السخف والتخريف - القول بأن روحاً مماثلة من ارواح الآلهة كانت تعتمد الى ملازمة (زاليوكس Zaleucus) و(مينوس)، و(زرادشت Zoroaster) (١٤)، و(ليكورغوس)، و(نوما)، أولئك الذين وضعوا دساتير الممالك، واشترعوا أنظمة الجمهوريات؛ بل ومن المعقول أن نعتقد أن الآلهة بدافع من أغراض سامية، تمديد المساعدة لهؤلاء الرجال، فتوحي اليهم بالرأي الصواب في اثناء التشاور وتبادل الآراء بالأمر الهامة، كما تزور الشعراء والموسيقين، ان لم يكن دائماً ففي أوقات ابداعهم... وأختلاف الآراء في هذا الموضوع كبير و«الطريق فيه لاجبة» كما يقول (باخيبيدس Baechylides) (١٥)، وليس ثم أي سخف في التعليل الذي روي أيضاً عن (ليكورغوس ونوما) وغيرهم من مشاهير المشرعين وعظمائهم فقد زعموا هم أنفسهم أنهم مزدودون بسلطان من الآلهة، لأن مهنتهم كانت ازالة الشر وسياسة الجماهير الصعبة القيادة، وفرض انظمه وقوانين جديدة على مجتمعاتهم... حتى لو كان ادعاؤهم هذا كاذباً، فهو بالتأكيد مفيدٌ لصالح أولئك الذين فرضت الاصلاحات عليهم فرضاً. ولأجل ان تكمل الحكاية:

كان نوما في حدود الأربعين عندما أقبل الوفد يعرض الملك عليه. وكان المتكلم ان (پروكولوس) و(فيلسوس Velevs) وهما أول من رُشح للملك. فنشب الخلاف حول من يكون منهما وكان الرومان الأصائل يميلون الى (پروكولوس)، والسابين الى (فيلسوس). فالحق كلمة قصيرة جداً نيابة عن الوفد لاعتقاد ان عرض الملك لا يستلزم الكثير من القول لاقناع المرشح ولكنهما وجدا - خلافاً لما حسباه - بأن عليهما أن يتوسلا بمختلف وسائل

= فتك بهم الطاعون فتكاً دريعاً، أمروا بنقمة ان يرفعوا رفاته وينقلوها الى بلادهم وقد جاء في النبوة «العلاج الوحيد هو اعادة عظام هسيود من أرض ناويكتس الى أرض أوخوميفس» وبعد ان نفذوا ما جاء في النبوة، انقضت غيمة الوباء عنهم.

(١٣) توفي سوفوكليس في اثينا اثناء ما كان ليساندر يشد العصار عليها، وقيل ان (باخوس) أو (ديونيسوس) أمر القائد السبارطي في حلم «بأن يسمح للتعار الطائر الاثيني الجديد بأن يدفن في (دليكيا) مقبرة اسلافه وبعد تكرار هذا الأمر لم ير ليساندر مندوحة من الرضوخ له [پاوسانياس ١: ٢١] [بليني التاريخ الطبيعي ٢٩: ٧].

(١٤) استن زاليكوس شرائعه للوكريين في بلاد الاغريق الكبرى زاعماً ان (ميترقا) هي التي أوحى له بها. وما زرادشت فهو النبي المجوسي (تذكره المأثر اليونانية بلنه ملك باختياريا) الذي استن الشريعة التي عرفت باسمه. ومينوس الملك هو مستن الشرائع الكريتية.

(١٥) اشاد هذا الشاعر بغير هيرود كينذار في الالعب الاغريقية وانه بن متافسه العظيم أحياناً وكان الامبراطور يولييان من أشد المعجبين به وكثيراً ما تمثل باشعاره.

الإقناع والمنطق مع شخص عاش في هذو ودعة - ليقبل بحكم مدينة بنيت وتأسست وترسعت بالحرب، فأجاب (نوما) بحضور أبيه وقريبه (مارشوس Marcius) بما يلي: «كل تيدك في حياة المرء، خطر عليه، وإن الجنون وحده يستطيع أن يحمل شخصاً لايحتاج الى شيء، قانع بكل ما هو حوله، على ترك الحياة التي اعتقادها، فمهما كانت نقائص تلك الحياة فلها على أية حال افضلية الحقيقة الواقعة ومزياتها على حياة مجهولة، يحف بها الشك. وإن كانت مصاعب هذا الحكم في الواقع لا يمكن أن تنعت بالمجهولية. فرومولوس الذي كان أول الحكام لم ينج من الشكوك، والتخرصات في أنه تأمر على حياة شريكه (طاطيوس) ولم يخلص مجلس الشيوخ من مثل هذه التهمة في أنه قتل رومولوس غدرًا. على أن رومولوس امتاز بالفكرة العامة السائدة عنه وهو أنه ولد من الآلهة، وعاش بمعجزة. في حين أن ولادتي كانت طبيعية وقد رباني وانشأني أناس معروفون لديكم. وإن الصفات الموجودة في طبعي وشخصيتي هي أفضل دلالة على عدم صلاحتي للملك. - حب الوحدة، والدراسات التي لا علاقة لها بشؤون الحياة المادية، ميل في الى السلام والهدوء تمكّن في فلا اطيع التخلي عنه، انشغالي في اعمال لا تمت الى الحرب والعنف؛ اندماجي باناسر لا يلتقون إلا في العبادة وفي صلوات رقيقة متماطفة، قضوا حياتهم كلها في حقولهم ومزارعهم وأظنني سأكون مبعث سخرية عامة إذا طغتُ حائاً على عبادة الآلهة، مبشراً وخطيباً في التمسك بالعدالة، وكره العنف والحرب في مدينة هي أخرج الى قائد جيش منه الى ملك.

وبإدراك الرومان من كلامه هذا أنه يرفض قبول المنصب الملكي زاد الحاحهم واصرارهم قائلين: لا يجدر به أن يتركهم ويخيب رجاءهم في هذا المطلب، وبذلك يضطرم الى العودة بلا شك الى الاختلاف والنزاع فيما بينهم، إذ لا يوجد شخص غيره، يكون موضع قبول الفريقين المتناحرين. وأخيراً انتحى به ابوه ومارشوس جانباً واقنعوه بقبول هبة كريمة ومنحة كانت السماء مصدرها أكثر مما كان من البشر وقالوا: «مع أنك عازف عن الغنى، راض بما لديك، لاتبحت وراء شهرة السلطان بعد أن نلت شهرة الفضيلة التي هي أثمن من الأولى، إلا أنه يجب أن تعدد الحكم خدمة الهيئة. فالله الآن شاء أن يفيد من اعمال فضائلك وحكمتك وعدالتك. وهي سجايا لن يُقدر لها أن تبقى عاطلة مهملة. فأرجع عن اصرارك على ورفضك هذا لمنصب هو لحكماء الرجال ميدان لممارسة الاعمال الشريفة العظيمة، ولعبادة الالهة عبادة لائقة ممتازة، وبت العادات الصالحة الخيرة التي لاتستطيع نشرها بين الناس إلا السلطة. كان (طاطيوس) محبوباً وإن كان اجنبياً، وذكرى رومولوس اصفت عليها الآلهة مختلف النعم والبركات، ومن يدري؟ لعل هذا الشعب المنتصر ابدأ قد اتعبته الحرب وقنع بالأسلاب والغنائم التي غنمها، قد يكون

رابعاً أكثر من أي شيء آخر بملك مسالم وادعٍ محبٍ للعدل، يقود خطاهم إلى الاستقرار والسلام؟ وإذا كانت عواطفهم تنزع إلى الحرب بما لا قبل بدفعه، أفليس من الأفضل أن تكون الأعنة بيد معتدلة قادرة على تحويل شدة الحرب إلى مسلك آخر وإن مدبنتك وكل شعب السابين سيجعلان منك رابطة صداقة ودليل حسن نية لهذه السلطة الفتية المتنامية؟

ورافق هذا الإقناع والالحاح عددٌ من العلامات الإلهية السعيدة، على ما قيل. كذلك حساسة بني حلدته الذين بعد أن فهموا مضمون الرسالة التي حملها إليه الوفد الروماني، رجوه أن يرافقه ويقبل بالملك كعامل من عوامل الوحدة والأئتلاف بين الشعبين.

فرضخ [نوما] لهذا الإلحاح، ورحل إلى روما بعد أن انجز تقديم قربانه للآلهة. وأستقبله في الطريق الشيوخ والعامة الذين خرجوا للترحيب به برغبة لا تكبح. واستقبلته النساء أيضاً بهتاف الفرع وقدمت القرايين عنه في كل المعابد وكان الفرع عاماً حتى لأنهم يستقبلون مملكة جديدة لا ملكاً جديداً. وعلى هذه الصورة أرتقى درج [الفورم] حيث كان أسبوريوس فيتيوس [Spurius Vettius] في تلك الساعة الملك الوقتي؛ فقام هذا بأخذ الاصوات، وأعلن [نوما] ملكاً، وجيء إليه بشارات واوشحة السلطة. ولكنه أبى أن يتقلدها قبل أن يستشير الآلهة ويحظى بموافقتها ورضاها. فأخذ الكهنة والعرفاؤون [Ougur] (*) إلى الكايبيتول وكان الرومان في ذلك العهد يسمونه (التلّ التاريخي). ثم قام رئيس العرفاوين بتغطية رأسه^(١٦) وتحويل اتجاهه إلى الجنوب ووقف خلفه باسطاً ذراعه اليمنى على رأسه وأخذ يصلي وهو يدير له رأسه إلى كل الجهات توقعاً لإشارة خير من الآلهة. وكان المنظر عجباً رائعاً، والصمت والخشوع يهيمنان على الجموع المحتشدة في الفورم. وهم في عين التوتر والتوقع. حتى ظهرت الطيور السانحة ومرت من جهة اليمين. وعندئذ اتشح [نوما] بالرداء الملكي وانحدر من التلّ إلى الجماهير، فقابلته بالتعاني وبالهتاف، والصراخ، وحيته ملكاً مقدساً، ذا حظوة عند الآلهة. وأول ما فعله عند توليه الحكم، أنه حلّ كتيبة الرجال الثلاثمائة الذين كانوا حرس رومولوس الشخصي وقد عرفوا باسم [كيليرس]^(١٧)، قائلاً إنه لن يظن سوء في أولئك الذين

(*) موظف ديني روماني واجبه ينحصر في التنبؤ بالحوادث المقبلة بدلائل من حركات الطير، أو من حالة انشعاب الذبائح، أو من الظواهر السماوية. وربما كان الاسم تركيباً مزجياً من الكلمتين الرومانيتين [Ovis = طير] و[Gar = كلام] (م.ت).

(١٦) هذا هو النص الحرفي الذي أورده المؤلف. لكن يظهر من [فيقي ٨٠١] أن العرفان لم يغط وجهه [نوما] بل غطى وجهه Augur ad laevam yejus capite velato sedem cepit. وهذا هو الواقع لأن العرفان يلف يوماً برداء حاص يدعى Laena عند قيامه بالعرافة.

(١٧) يقول [نيون الهاليكارناسوسي ١٦.٢] أن [نوما] لم يحدث أي تغيير في الأجهزة التي أوجعها رومولوس. لذلك ومع أنه لم يستخدم الجيليرس بمثابة حراس لكنه أبقاهم باعتبارهم من صفار الكهنة وواجبهم =

وضعوا ثقبتهم فيه، ولا يحكم شعباً ليس له ثقة به. وثاني ما فعله انه اضاف الى كاهني جوبيتر ومارس، كاهناً ثالثاً، تكريماً لرومولوس وأطلق عليه اسم [فلامين كويرينالس Flamen Quirinalis] (١٨). كان الرومان القدماء يسمون كهنتهم [فلامينس Flamines] بتصغيرهم كلمة [پيلامينس Pilamines] اليونانية من كلمة (Pileus) پيليوس، وهي القبعة او القلنسوة التي كانوا يلبسونها. وفي تلك الأيام كانت الألفاظ اليونانية أكثر امتزاجاً باللغة اللاتينية من الوقت الحاضر (١٩). ويجرى مجرى هذا أيضاً «الرداء الملكي» الذي يُسمى [لينا Laena] [فنجوبا] يقول أنه [خلينا Chlaena] وهي الكلمة اليونانية المطابقة له. وإن اسم [كاميللوس Camillus] (٢٠) الذي يطلق على الصبي الخادم في معبد جوبيتر حين يكون ابواه على قيد الحياة، فهو مأخوذة من الإسم الذي يطلقه بعض الاغريق على مارس مشيرين الى وظيفته وهي قيامه بخدمة الآلهة الباقين.

وعندما فاز (نوما) بمودة وحب الشعب، بهذه الاجراءات، باشر حالاً بهمة تحويل الطبائع الرومانية الصلبة الحديدية الى طبائع تمتاز بالركة والوداعة، وليس أدق من وصف افلاطون به المدينة التي تحتاحها حتى محرقة - لروما في ذلك الحين. فقد انشأتها بالأصل نفوس ما عرفت إلا الجراءة والاقدام سبيلاً وعجمت عودها المخاطر والمواقف الصعبة وجاءت بهم اليها صروف الدهر من كل فج عميق، وهكذا لم تر الوجود إلا بالمحروب الدائمة مع جيرانها كانت، والعزوات سبيلاً لبقائها ونموها والتعرض للأخطار مصداً لكل قوة جديدة لها مثل اوتاد اثبتتها في الأرض إلا ضربات المطارق لأجل أن يحقق (نوما) غرضه العسير - تحويل طبائع هذا الشعب العنيدة الاعتدائية الى طبائع هادئة مسالمة رقيقة، بدأ بجهته عن طريق الدين. فأكثر من تقديم القرابين والمواكب والرقص الديني وكان يترأس معظمها بشخصه. محاولاً بهذه المظاهر الدينية التي تمازجها صنوف من الملاهي ووسائل التسلية الانسانية الرقيقة، التغلب على امزجتهم القتالية العنيفة والتخفيف منها. وكان يملأ بين الفينة والفينة أيضاً اذهابهم بالخواف الدينية، مدعياً ظهور اشباح غريبة، وسماع اصوات مرعبة. ليخضع عقولهم

= الاهتمام بالقرابين والعمل تحت اشراف التربيوت ضباطهم القدماء.

(١٨) وعلى هذا الأساس يكون Flamin Martialis كاهن مارس و Flamin Dialis كاهن جوبيتر وعلى هذا

نفس.

(١٩) مؤلفة أصلاً وبشكل رئيس من الاغريقي الايولي القديم. وإن كان الزمن والصيانة والتحسين المتدرج قد اكسبها المظهر الأخير المختلف جداً.

(٢٠) كاميلوس مشتقة من كلمة (كاميلوس) البويوتية ومعناها في الغالب (خادم) في هيكل في العادة يوجد شاب حسن الخلق وظيفته خدمة الكاهن. من الضروري أن يكون ابواه على قيد الحياة ولذلك استخدم بلوتارخ الكلمة التي تقابل باللاتينية لفظي Matrium e, Patrium اي الأبوة والأمومة.

وبذلكها، بمشاعر الخوف من خوراق الطبيعة.

هذه الطريقة التي استخدمها [نوما] أدت إلى الاعتقاد بأنه على صلة كبيرة [بفيثاغورس]، ففي فلسفة الأخير منهما وهي سياسة الأول. تحتلّ علاقات الإنسان بالآلهة منزلة عظيمة وقبل أيضاً أن هيبة وجلال مظهره وثيابه إنما استمدّها من شعوره الشبيه بشعور فيثاغورس. إذ روي عن هذا، أنه درّب نسرًا على الهبوط إليه كلما ناداه، أو الميل نحوه أثناء طيرانه. وأنه كان في أثناء مروره بين الناس المجتمعين لمشاهدة الألعاب الأولمبية، يريهم فحذه الذهبية إلى جانب معجزات وغرائب أخرى كان يقوم بها. مما دعا [تيمون الفيلاسي-Philaisian]^(٢١) إلى كتابة البيت التالي: «إنه ذلك الذي كان معترًا يجد الشعب بكلامه المهيب الذي يلقيه إلى سمع الجمهور»

وعلى هذه الشاكلة تحدث [نوما] عن ربة معينة، أو حورية من حوريات الجبل تعلقت بحبه، وراحت تقابله سرًا كما سبق لنا ذكره، كما اذاع أنه كان كثير اللقاء بالميوذات ومعادثهن وعزا إلى تعاليمهن معظم الوحي الذي نزل عليه. ومن بينهن واحدة أوصى الرومان بإكرامها بنوع خاص وهي [تاجيستا Tacita] أي الصامتة، وربما فعل ذلك تقليدًا وتكريمًا للصمت الفيثاغوري. ورأيه في الصور يوافق جدًا مبدأ فيثاغورس. الذي يعتبر أول مبدأ للكينونة شعورًا وعاطفة تسمو على الحسّ البشري، ولا يمكن الوصول إليها إلا بالتفكير المطلق التجريدي. ولذلك منع [نوما] الرومان أن يمثلوا الآلهة بهيئة أسنان أو حيوان. وأنك لا تجد أي صورة مرسومة أو منحوتة لرّب من الأرباب لفترة طولها مائة وسبعين عامًا فقد بقيت هيكلهم ومعابدهم خالية من الصور والتماثيل. وشاع الاعتقاد بينهم أن هذه الأشياء الوضيعة، أرذل من أن تشبه أرفع الكائنات وأسمائها. والوصول إلى الآله مستحيل إلا بالذهن الطاهر النقي. وقرايينه تشبه بتفاصيلها قرايين فيثاغورس شبهًا كبيرًا، فالدم لا يسفك فيها، بل يكتفى بتقديم الأزهار والخمر وما إليها من أرخص التقلّعات وهناك براهين واضحة أخرى تثبت ارتباط [نوما] بفيثاغورس هذا وإن الكاتب الفكه القديم [إبيخارموس Epicharmus] وهو من المدرسة الفيثاغورية ذكر في كتاب له مهدي إلى [آنتينور Antenor] أن فيثاغورس جعل مواطنًا حرًا من مواطني رومه، وسَمّى نوما أحد أولاده الأربعة^(٢٢) [ماميركوس Mamer-

(٢١) كاتب سيلي Sili وهو نوع من الهجاء. سمي كذلك نسبة سيلاموس الذي كان يشتد في نقده للفلاسفة بسبب تمسكهم بالمبادئ.

(٢٢) على سبيل إكرام الكتاب بعض الأسر الرومانية عمدوا إلى ربط نسبها بنسب [نوما] وعزّوا إليه أربعة أولاد. لكن المعروف عمومًا أنه لم يخلف غير ابنة واحدة اسمها [بومبيليا] وأسرته [إميليا] هي واحدة =

cus] وهو اسم أحد اولاد فيثاغورس. ومنه جاءت (كما قالوا) الأسرة الباتريشية العريقة (إيميلي Aemili)، إذ أن أباه الملك لقبه على سبيل المزاح [إيميليوس Aemilius] لأسلوبه اللطيف الطلي في الحديث، وسمعتُ أثناء وجودي في روما، انه عندما نزلت نبوءة تأمر باقامة تمثالين^(٢٣) أحدهما لأعظم الناس حكمة بين الاغريق وثانيهما لأعظمهم سباله، أقاموا تمثالين من النحاس أحدهم [الاسكيبيازيس]، والآخر [لفيثاغوراس]. ومهما يكن من أمر فلننتحول عن هذه الأمور التي يكتنفها الكثير من الأوهام، فضلاً عن كونها من قلة الأهمية بحيث لا تستحق صرف وقت أكثر من هذا. وإلى نوما يعزى انشاء رتبة الكهنة المعروفين باسم [بونטיפييس Pontifices]^(٢٤). وقيل أنه كان أولهم. وأن الكلمة مشتقة من (پوننس Po-tens) أي «ذا القوة» لأنهم يقومون بخدمة الآلهة ذوي الحول والسلطان على الجميع. ويزعّم آخرون أن الكلمة تشير الى «استثناءات من قضايا مستحيلة» فالكهنة عليهم أن يقوموا بكلّ الواجبات الممكنة. فان وجد أمر يفوق طاقتهم وحدود إمكاناتهم فينبغي ألا يثار احتجاج على قصورهم فيه. وأكثر الآراء شيوعاً أن أصل الكلمة هي أكثرها سخافة^(٢٥) يشقون الكلمة من [پونس Pons] و[الجسر باللاتينية هو Pontem] وتقع الكهنة لقب بناء الجسور! القدماء، وحراسة الجسر وترميمه مناط بالكهنة كأي واحدة من الوظائف العامة المقدسة أخرى الذي يروونه اقدس وأقدم المراسيم الدينية. هؤلاء الكهنة أيضاً يقال أنهم خلّوا العناية بالجسور بوصفه اهم عمل في وظيفتهم الكهنوتية. وعُدّ هدم الجسر الخشبي^(٢٦)، وكسره من قبيل

= من أشهر الأسر الرومانية يتفرع منها فروع الهاولي Pauli والباپي Papi. وكلمة اميليوس بالافريقية تعني الرقيق أو الجميل.

(٢٣) بحسب رأي بليني (تاريخ الطبيعة ٥:٢٤) انه كان اثناء حربهم مع السانين (٢٢٩-٢٣٤ ق.م) حين أمر ابولو الهيئي الرومان باقامة التمثالين فتم نصبهما في الكوميسيوم وبقيتا ثم حتى دكتاتورية سيللا ٧٨-١٣٨ ق.م ولعل الأمر الذي ورد في النبوءة كان يشير على الرومان بأن يتزودا بحكمة الاغريق ويتحلوا بشجاعتهم إن اردوا النص.

(٢٤) نصب [نوما] أربعة وكلهم من الباتريشيين. ولكن اضيف اليهم في العام ٤٥٢ أو ٤٥٤ ق.م أربعة من البليبيين. وفي عهد (سيللا) بلغ عددهم خمسة عشر. والملك نفسه يؤكد هنا انه كان يترأسهم، أو ما يدعى بالكاهن الأعظم على ان [إيفي ٢٠:١] يعزو ذاك الشرف الى شخص آخر بنفس الاسم هو [نوما مارشيوس] ابن احد الشيوخ. وربما كان پلوتارخ قد التبس عليه الاسم. ومن المحتمل جداً ان [نوما] احتفظ لنفسه بهذا المنصب لشدة تدبته. فالملوك في العالم القديم كانوا يسيرون على هذا الخط. وقد هذا جنوهم اباطرة الرومان في فترة متأخرة كما سنرى.

(٢٥) ومع هذا فان [فارو الأول] منها على الأخص بان پوس سوبليشيوس بنيت أولاً ثم جرت عليها ترميمات عديدة تحت اشرافهم. ان هذا العمل الشعبي الممتاز كان يستبق دائماً بتقديم الذبائح والدعوات لربّ النهر وقد نقل هذا الواجب من اختصاص الكهنة الى (الكستور) في عهد اغسطس قيصر.

(٢٦) ما زال موجوداً ينظر اليه باحترام ومهابة وهو يربط بايكولوم بالمدينة [انظر ديون ١٤٢] كذلك الكتاب المتأخرون حول روما الحديثة

الكفر والاثم الديني لا مجرد جريمة ممنوعة قانوناً. وقيل فضلاً عن هذا أن بناءً كان من الخشب يشد أجزاء مسامير خشبية لا مسامير أو عضادات حديدية، اطاعةً لنبوذة^(٢٧)، ولم يكن الجسر الحجري إلا بعد زمن متأخر جداً، عندما كان [إيميلوس] أميناً للخزانة العامة -Quaes-tor^(٢٨). وقالوا أيضاً أن الجسر الخشبي لم يسبق عصر [نوما] وإنما أكمل بناءً [انكوس مارشوس Ancus Marcius] لآ ملك، وهو حفيد [نوما] من بنته.

إن وظيفة [بونطيكس ماكسيموس] أو الكاهن الأعلى، أستحدثت لأجل تفسير الشريعة الإلهية أو بالأحرى للهيمنة على الفرائض المقدسة وليست وظيفتها فاصرة على مراقبة قواعد الاحتفالات الدينية العامة بل على تنظيم تقديم قرابين الأفراد ومراقبتها لتلا تخرج عن العرف الجاري وتقديم المعلومات لكل شخص، عما هو مفروض في العبادات والصلاة وكذلك يكون الكاهن وصياً حارساً على عذارى قستا، ويُعزى إلى [نوما] إنشاء وظيفتهن^(٢٩) هذه إلى جانب استحداث النار الخالدة التي يرعيناها. ولعله تصور أنه من المناسب جداً أن يعهد بالنار الطاهرة غير النجسة إلى أشخاص ذوي عفة وطهارة، أو أن النار التي تضطرم ولا تنتج شيئاً حتى تخمد، فيها وجه شبه بحياة العذراء^(٣٠) وفي بلاد اليونان، يعهد بأمر النار المقدسة الخالدة اينما وحدت -كما هي دلفي وآثينا- لا إلى العذارى بل إلى الأرامل اللاتي فات أوان زواجهن. وقد يحدث بمحض الصدفة أن تنطفئ، هذه النار كما أنطفأ المصباح المقدس في أثينا على عهد طغيان [ارسطيون Aristion]^(٣١)، وفي دلفي عندما أحرق الميثريون المعبد^(٣٢)، وكذلك في أيام الحروب الإلهية الرومانية^(٣٣) والحروب الميثريداتية Mithridatie حيث هدم

(٢٧) أسلوب البناء هذا يعزوه بليني (١٥:٢٥) لا إلى النبوة بل للصعوبة التي جابهت الرومان عند كسره (وكان موصولاً بخطافات حديدية) في حروبهم ضد (پورسينا).

(٢٨) سنة ١٧٩ قدم مسألة معرفة نوما لميثاغورس مسألة يكتنفها الغموض كانت موضع أخذ وبرطولين وهي أشبه بجذال الأطفال.

(٢٩) بالأحرى بناء معبد قستا لأن [رياسلفيا] وائدة روملوس كانت قستا له ألبا.

(٣٠) هناك تناقض بين هذه العبارة والعبارة التي أوردها المؤلف بالذات في سيرة كاميلوس فلتراجع.

(٣١) بقي ارسطيون (٨٦-٨٨ ق.م) صامداً مدة طويلة لحصار (سيللا) مدينة أثينا وكان قد استولى عليها أثناء حروب (ميثريدات) وكان ارسطيون هذا قد ارتكب أعمالاً شنيعة عديدة بحق المدينة، كما كان السبب في لقاء الحصار عليها ونهبها بالآخر. كانت النار المقدسة تحفظ في معبد مينرفا.

(٣٢) في عهد كيخسرو الفارسي.

(٣٣) يحدثن بليني (المحق ١:٨٦) أن ما حدث والحرب الإلهية بين ماريوس وسيللا تكاد تشرف على نهايتها - هو أن (ميونتيوس سكيفولا) الكاهن أقتيل عند مدخل معبد قستا، لكننا لم نجد النار المقدسة مطفاة. إلا أن (لوكان) يقول أنه سقط بالقرب من المعبد وأن دماءه كادت تطفئ النار المقدسة. بل عندما أحرق هذا المعبد عند نهاية الحرب البونيقية ١٠٢ ق.م. فإن الكاهن جيجليوس متلوس اندفع خلال البيران وانقذ الإيلاديرم وغيره من المقدسات وقد دفع بصره ثماً لذلك. كذلك أحترق الهيكل مرة أخرى عند نهاية حكم =

الهيكل أيضاً، في هذه الحالة كان بعد من قبيل الإثم والنجاسة أن توقد هذه النار ثانية من لهيب اية نارٍ اعتيادية، أو شرارة رمادٍ أو من أي شيء آخر إلا أشعة الشمس النقية غير النجسة. ويتم ذلك عادة بالعدسات اللامعة^(٢٣) وهو جسم يتألف من منشور مستطيل مثلث كلّ خطوطه من أسطحه تلتقي في مركز واحد ويكون دائم الدوران فستعريضه الى الشمس يتمكنون من جمع أشعة الشمس فيه وتركيزها كلها في نقطة التقاء تلك (البؤرة) فيغدو الهواء ساخناً وتلتهب كل مادة خفيفة جافة قابلة للاشتعال حالما تُقرب من الأشعة التي تتطلب المادة والقوة الفاعلة للنار، ويرى بعضهم أن وظيفة هالة الفستالات هي حفظ النار ليس غير، إلا أن آخرين يقولون انهم يحافظن على اسرار مقدسة أخرى^(٢٤) كتمت عن الجميع. وقد آتينا في سيرة كاميللوس الى ذكر كل ما تصح روايته، أو السؤال عنه من تلك الاسرار.

وقد ذكر ان [جيجانيا Geganina] و[فيرينيا Verenia] كانتا أول كاهنتين رسمها [نوما] لوظيفة الفستالات، ثم اعقبهما [بكانيوليا Canuleia] و[تاريبيا] ثم أضاف [سرفيوس Servius] اثنتين، وظلّ العدد أربعة حتى يومنا هذا...

إن النظام الذي استنته [نوما] للفستالات هو كما يلي: يجب ان يندرن عذريتهن لمدة ثلاثين عاماً. يقضين العشرة الأولى منها في تعلم واجباتهن، والعشرة الثانية في مزاولتها، والعشرة الباقية في تعليمها للاخريات وتدريبهن عليها. وبعد أن تنتهي المدة، يكنّ حُرّات في أن يتزوجن. ولكن يقال أن قليلات منهن إخترن مزاوله هذا الامتياز وقد لوحظ أن حياتهن الجديدة بعد تقاعدهن عن وظيفتهن، لم تتميز بالسعادة، وانما وافقها الأسف والندم والكآبة ولذلك تمجد القسم الأكبر بؤثرن البقاء والاستمرار حتى أرذل العمر والموت محافظات بأشد ما يمكن على حياة العزوبة بدافع من الخوف الديني، وضغط الضمير.

وبمقابل تلك الصرامة عوّض بامتيازات وسلطات كبيرة. فلهنّ أن يوصين في حياة آباؤهم، ولهنّ حق ادارة شؤونهم بدون وصي أو قيم. وهذا امتياز لا يمنح للمرأة متزوجة أم أولاد ثلاثة. واذا خرجن لشأن، سار امامهن حملة الفاقي^(٢٥)، واذا لقين في سيرهن مجرمات يساق

= (كرومودوس) ولعل يلو تارخ كان يخلط هنا بينه وبين الكاپيتول.

(٢٣) العدسات الحارقة التي تجمع الأشعة في البؤرة، هي من مخترعات أرخميدس الذي عاش بعد (نوما) بخمسة قرون.

(٢٤) كذلك التي تتعلق بـ(الباديوم) والتماثيل وغيرها لآلهة ساموثراكي [انظر ديون ١٧ ٢].

(٢٥) حزمة العصي في وسطها فأس، يحملها [اللكثور] امام الحكام الكبار الرومانيين اشارة الى السلطة وهي من كلمة [Fascis] اللاتينية ومعناها [حزمة] ومنها جاء اسم الحزب الفاشي (الفاقي) الذي اسسه [موسوليني] في ايطاليا الحزب العامة الأولى، ولم يخصهم [نوما] وحده بهذا الامتياز بل حباهم به =

الى حتفه امكنهن انقاذ حياته بعد أن يُقسم^(٢٦) بأن اللقاء كان بمحض الصدفة وليس مُدبراً. وإذا احتك أحد بالكروسي الذي يحملن عليه بحكم بالموت، وإن أقرت أحداهن خطأ بسيطاً عاقبها الكاهن الأعظم وحده بجلدها بالسياط (عارية أحياناً) في مكان مظلم وبينهما ستار مسدل، ومن تفرط بنذرهما تدفن حية^(٢٧) قرب باب في المدينة اسمه [كولينا Collina] حيث يقوم كتيب من التراب داخل المدينة ويمتد بعض مسافة، ويدعى باللاتيسية (Agger)، فتبنى في جوفه غرفة صغيرة. ينزل المرء اليها بدرجات. ويهيئون في تلك الغرفة فراشاً ويشغلون مصباحاً ويتركون كمية زهيدة من الطعام تتكون من الخبز والماء وأناء من الحليب. وشيء من الزيت. حتى لا يقال أن ذلك الجسم الذي كُرس ونُذر لأقدس خدمة في الدين، قد هلك جوعاً^(٢٨). وتوضع المذبة في محفة، وتغطى تماماً وتربط بالحبال حتى لا تسمع الأذن شيئاً مما قد تقول، ثم ينقلونها الى الفورم، وينسحب كل المارة عن سبيلها صامتين اثناء مرور المحفة ويتبع النعش زميلاتهما بألم صامت كتيب ونعمري ليس ثم منظر أشد إيلاماً من هذا المنظر، ولا يوم مثل هذا اليوم نعيشه المدينة بأعظم الأسى والكآبة. وعندما يبلغ المركب ساحة التنفيذ يحل الضباط الحبال ثم يرفع الكاهن الأعلى يديه الى السماء ويتمتم ببعض الأدعية المخصصة قبل المباشرة. ثم يأتي بالمحكومة وهي مستورة ويضعها على الدرج المؤدي الى الحجرة ثم يدير رأسه جانباً مع الكهنة الباقي. ثم يرفع الدرج بعد أن تقذف الى اعماق الغرفة ثم بهال مقدار من التراب فوق الفتحة وتسوى حتى لا يمكن تمييزها عن باقي سطح الكتيب، ذلكم هو عقاب تانك اللاتي يكسرن نذر عفتهم.

وقبل أيضاً أن نوما بنى معبد فستا. ليكون مذكراً للنار المقدسة وهو على شكل دائري، لا يمثل هيئة الأرض كأنها مثل فستا تماماً. بل ليمثل عموم الكون. ففي الوسط يضع الفيشاغوريون عنصر النار^(٢٩) ويطلقون عليه اسم فستا والوحدة، ولم يكن من رأيهم أن

= ايضاً ثلاثي الحكم في ٧٦٢ ق.م وأعطى اغسطس ما دعى بـ *Juo trum libesorum* بتشجيع المواطنين بعد الفمار الذي أحدثته الحروب الأهلية.

(٢٦) لايجزو كاهن ل(جوير) أو ل(فستا) على تادية قسم. فهو مصنف بكامعه. ولو شاؤا فهم مختارون في تأكيد أقوالهم وتوثيقها باليمين لكن يندر أن طلب منهم ذلك. وإن حلفوا فهم يطلقون برجتهم فستا فحسب. (٢٧) في اليا يجلدن بالسياط بسبب ما يفترون ولا أكثر [ديون ١٧.١]. إلا أن [نوما] شدد العقوبة الى حدّ الرجم. أخيراً جعلها تاركوينوس بريسكوس الدفن حياً.

(٢٨) هناك أمر يحافي العقل والمنطق. إذ ما فائدة الطعام للفستاله المقبورة حية بعد انقطاع الهواء عنها بسدّ القبر؟ أو لعل ما قصده بلوتارخ من استخدامه كلمة اريزاق - هو بعض مواد القرايين؟

(٢٩) معروف جداً أنها نظرية فيلولايوس وغيره من الفيشاغوريين إلا أن ثيوغينس لينريتوس يذكر لنا ان فيثاغوراس نفسه يرى الأرض هي المركز.

الأرض ثابتة أو أنها تقع في مركز دائرة الكون وإنما هي مستمرة الدوران حول مجلس النار وليست في عداد العناصر الأولية. وهم في هذا يتفقون مع فكرة افلاطون الذي قال في أواخر حياته (على ما زعموا) بأن الأرض تحتل مركزاً ثانوياً وأن الفضاء المركزي المهيم احتجزه جسم آخر أسمى من الأرض.

وهناك وطبعة أخرى للكهننة، هي أن يشرفوا يرشدوا الناس إلى المراسيم المتبعة في مراسيم الجنائز. وقد علمهم [نوما] أن لا ينظروا إلى هذه الأعمال نظرة تقزز واشمئزاز، بل كواجب محتم للأرباب السفليين الذين ينتقل إلى أيديهم خير جزء منّا، وكذلك أوجب عليهم أن يعبدوا الربة [ليبيتينا Libitina] التي تشرف على كل مراسيم الدفن. وسواء أقصدوا بها [پروسپوينا Prospuina] أو [فينوس] (كما يرى معظم الرومان المطلعين)^(٤٠)، فليس مما لا يتسق منطقياً أن يُعزى بدء حياة امرء ونهايتها إلى مسعى رب واحد.

وعين [نوما] أيضاً قواعد تتوخى تنظيم أيام الحداد، بموجب اوقات مخصوصة وبحسب الأعمار. فمثلاً طفل في الثالثة من عمره لا يقام له حداد مطلقاً فإذا زاد سنه عن هذا حتى العاشرة يكون الحداد عليه شهراً لكل سنة زيادة في عمره. ومهما بلغ سن الميت فيجب ألا يزيد أقصى فترة للحداد عن عشرة أشهر. وهو الزمن المعين للنسوة اللاتي مات عنهن أزواجهن لمواصلة حياة ترملهن حتى تنقضي المدة. وإن تزوجت الأرملة قبل انقضاء هذه العدة، فعليها بمقتضى شريعة [نوما] أن تضحي ببقرة مع عجل^(٤١).

وأحدث [نوما] أيضاً اصنافاً أخرى من مراتب الكهنوت، وسأتكلم الآن عن اثنين منها. هما

(٤٠) إن [فينوس ليبيتينا] هذه هي [پروسپرينه] بعينها. وقد اطلق عليها في دلفي اسم [فينوس اپيتوفيا] وپلوتو هو رئيس الهة الظلام السفلي كما أن لديهم أيضاً (عطاردهم).

(٤١) قربان غير طبعي كهذا، يقصد به ردع الآمال عن الزواج ثانية قبل ختام عدة الحداد. إن النسوة التي اشترعها [رومولوس] تمتد عشرة أشهر لا أكثر. وعندما اضاف [نوما] شهرين آخرين فيما بعد، لم يغير من الفترة المقررة سابقاً للحداد. ولذلك فنحن كثيراً ما نجد ما يسمى بسنة الحداد *Lutus Annus* بعد الزمن المحدد. وهي في الواقع سنة (رومولوس) إن لون ثياب الحداد المعتاد الذي يستخدمه الجنسان اظهاراً لحزبهم هو الأسود الصرف دون أن يخالطه لون آخر. لكن الموضة التي سادت البلاد بعد قيام الامبراطورية شملت ألواناً عديدة من الثياب. وصار الأبيض الساذج المحلي مجتذلاً إلى الحد الذي صار النسوة تستخدمه ثياب الحداد [پلوتارخ مسائل رومانية] والملاحظ في يومنا هذا ان الأبيض هو لون الحداد عند الصينيين

هناك أحوال وأحداث توجب انتهاء فترة الحداد العام أو وقف الحداد الخاص قبل انصرام الفترة التي عينها العرف كتدشين هيكل أو الاحتفال بالعبادة عامة، أو أعياد، أو التظهن الذي يقوم به الهنوس، أو حل قسم قاض أو جنرال، وتزور ثياب الحداد أيضاً عند عودة أب أو أخ أو ابن من الأسر أو عندما تسند وظيفة إلى أحد أفراد الأسرة، أو يرقى.

{السالي Sali} (٤٢) و{الفشيباليس Feciales} (٤٣) مقدماً بهما اسطع برهان على تقواه وقداسته. هؤلاء {الفشيبال} أو القيصون على السلام، يبدو أن أسمهم مشتق من طبيعة وطبقتهم، وهي وضع حدٍّ للخلافات بالنصح ومجالس الصلح، إذ لا يسمع باللجوء الى السلاح إلا بعد أن يعلنوا هم أن كلَّ أمل في التفاهم قد زال. ونحن أيضاً نطلق باليونانية كلمة سلام عندما تُحلَّ الخصومات بالكلام لا بالقوة. يرسل الرومان عادة {الفشيبال} أو السعاة الى أولئك الذين اعتدوا عليهم أو أضروا بهم بطلب الانتصاف والتراضي، فإذا رفض هؤلاء، دعوا الآلهة ليشهدوا فعلهم ونادوا بالويل لهم ولبلادهم إِم كانوا الظالمين، ثم أعلنوا الحرب عليهم. ولا يجوز للجندي ولا للملك أن يلجأ الى السلاح ضدَّ رغبة هؤلاء الكهنة أو دون موافقتهم. والحرب تبدأ بإشارة منهم فان ابلغوا القائد بأن الحرب التي سيشتنها هي حربٌ عادلة فتكون مهمته تقرير كيمييتها ووضع خططها.

ويعتقد أن المذبحة التي أوقعها الغاليون بالرومان والدمار الذي انزلوه ببلادهم كان عقاباً للمدينة لإهمالها هذه الإجراءات الدينية. فعندما غزا هؤلاء البرابرة {الكلوينيين Cluinians}. أوفد {فابوس امبوستوس Ambustus} الى معسكرهم للتفاوض في صلح مع المحاصرين فكان جوابهم خشناً فقط، فتصور فابوس أن مهمته كسفير أنتهت والتحم معهم بحركة منحازاً الى صفِّ الكوسيين، متحدياً أشجع محارب من العدو لمبارزته في نزال ثنائي. وحالفه الحظ فقتل حضمه وأخذ سلاحه غنيمة. ولما عرف الغاليون بما حصل بعثوا الى رومه برسول يشكون أمره، لأنه نقض قانون الحرب الدولي راخُل بالسلام قبل أن تشهر الحرب، فنوقش الموضوع في مجلس الشيوخ وكان من رأي {الفشيبال} أن يُسلم {فابوس} الى أيدي الغاليين. ولسبق انذاره بالقرار، قرَّ الى عامة الشعب ونجا من العقوبة بحمايتهم ووقوفهم الى جانبه. فما كان من الغاليين إلا وزحفوا بجيشهم على رومه، واستولوا على الكايبيتول ونهبوا المدينة؛ وإن تفاصيل هذه الحادثة مثبتة في سيرة حياة {كاميللوس}.

ومنشأ كهانة {سالي} هو كما يلي: في السنة الثامنة من حكم {نوما} ظهر وباء فظيع

(٤٢) السَّالي هم حرس الأنجليا، اي الدروع الاثني عشر المطقة في ميكل مارس. لصق هذا الاسم بهم من عادة رقصهم عند الاحتفال بالعيد السنوي المقام تخليداً لذكرى الدرع العجائبي الذي ادعى {نوما} انه مبط عليه من السماء. ولا يزيد عدد هؤلاء الحرس عن اثني عشر يتم اختيارهم من الشباب الباتريشي الذين يمتازون بالرشاقة وجمال القوام (ديون ١٨:٢).

(٤٣) ديون. يراهم من الاروميين (السكان الأصليين) ويقال إن {نوما} استعمار هذا من اهل لاسيوم. إذ عين عشرين {فشيبيال} بعد اختيارهم من اعرق الأسر في روما ووضعهم في معهد خاص. وإن ما يدعى باتر باتراتوس وهو الذي يعلن الحرب وينبئها ربما كان احد اعضاء هذه الجمعية يختار لهذه الغاية شريطه ان يكون ابوه وابنه في قيد الحياة [ليفى ٢٤.١ و ٢٧] [ديون ١٩.٢] [جيلوس ١٤:١٦].

احتاح ايطاليا كلها وغزا رومه أيضاً وملكت الرهبة والكربة قلوب الناس. وقيل أن درقة نحاسية سقطت من السماء بين يدي [نوما]. فأنهى الى الناس عنها الرواية التالية: إن [ايجيريا] و[الميزوات] أكدّن له بأن الدرقة هي هبة سماوية لشفاء أهل المدينة وخلصهم. ولأجل الأبقاء عليها أمرته الربات بأن يصنع إحدى عشرة درقة أخرى تماثل الاصلية في حجمها وشكلها بحيث لا يمكن لأي لص أن يفرق بين الأصلي والمقلّد. كما أنه أعلن نيته في تكريس الموضع الذي يلتقي فيه مع [الميزوات] ووقفه عليهن مع الحقول المحيطة به، كذلك النبع الذي يروي تلك الحقول، جعله مقدساً ووقفاً على استعمال العذارى الفستالات. ليضمن بغسل وتنظيف قدس الأقداس في هيكلكن بتلك المياه المقدسة، وكانت سرعة زوال الطاعون برهاناً دامغاً على صواب اجراءاته هذه وعرض [نوما] الدرقة على ارباب الصنعة ورجا منهم ابداء مهاراتهم في عمل أشباه لها. ولم يفلح في ذلك أحد، حتى توصل صانع ماهر اسمه (ماميوروس فيتوريوس Mamurius Veturius) الى ما قصر عنه باع الآخرين وعمل نسخاً من الدرقة لم يستطع نوما نفسه أن يميز الأصلية منها وعهد بحفظ هذه الدرقات الى كهنة مخصوصين يسمون [سالي] وهؤلاء لم يأخذوا اسمهم هذا من [ساليوس Salius] استاذ الرقص، كما يدعي بعضهم زاعماً أنه ولد في [ساموثراكه Samothrace] أو [مانتينيا Mantinea]. وكان يعلم الرقص بالسلاح. وإنما اشتق على أغلب الاحتمال من الرقص بالقفز وهو ما يزاوله [السالي] أنفسهم عندما يحملون الدرقات المقدسة في شهر آذار ويطوفون بها في انحاء المدينة. وهم في هذه الموكب يرتدون قمصاناً قصاراً من الارجوان ويتمنطقون باخزمة عريضة مكفتة بالنحاس ويضعون على رؤوسهم لامات نحاسية ويشبهون خناجر قصاراً.

ويقومون بين الفينة والفينة بتمثيل عملية التحام وطعان بالدرقات إلا أن المظهر الرئيس في الموكب هو الرقص. فيتمايلون ويتأودون برشاقة ويمثلون بسرعة ولمحات خاطفة بعض الحركات المعقدة بكثير من مظاهر القوة والخفة. ويطلق على الدرقات اسم [انكيليا Ancilia] لأنها ليست دائرية الشكل ولا كاملة الاستدارة كالدرقات الاعتيادية، وإنما مقرنصة متعرجة تشبه حوافها بعضها الى بعض نحو الداخل في أثخن المواضع منها.

وبهذا تكون ذات شكل مقوس أو ما يُسمى بالاغريقية [انكيلون Ancylon] أو لعله جاء من كلمة [انكون Ancon] أي المرفف فيه تُعلق، وهو ما يقوله [جوبا] الشديد الرغبة في ان يجعلها اغريقية الأصل. ومن المحتمل أنها جاءت من [Anecathen] اي النزول من فوق. لأنها هبطت من السماء، أو من [اكيسيس Akesis] لما لها من قابلية الشفاء. أو من [أوخمون ليسيس Auchmon Lyusis] لأنها وضعت حداً للمحل والجفاف. أو من

[أناسخيسيس Anaschesis] أي الخلاص من النانات، وهي أصل الاسم الآثيني [أناسيس Anaces] الذي منح [لكاستور وللوكس] إذا كان عليهما أنه نردھا الى أصل أغريقي. وكانت مكافأة الصانع [ماموريوس] على مهارته أن اسمه بات يذكر بالثناء في القصائد التي يغنيها كهنة السالي وهم يرقصون بسلاحهم في شوارع المدينة على أن بعضهم يزعم أن السالي لا يلفظون «فيتوريوم مامويوم Yeturium Mamwium» بل [فيتيريم ميموريام Veterem Ma-moriam] أي الذكر القديمة.

بعد أن أستحدث [نوما] هذه الرتب الكهنوتية المختلفة أقام بالقرب من معبد قستا، ما يسمى حتى يومنا هذا «ريجيا» أو بيت الملك. حيث كان يقضى جل أوقاته في التعبد وخدمة الأرباب، مرشداً الكهنة أو متحدثاً معهم في مواضيع دينية مقدسة. وكان لديه منزل آخر فوق جبل [كوريناليس] ما زالت آثاره باقية الى يومنا هذا. وكان المتادون يخرجون قبل أن يبدأ أي موكب ديني، أو صلاة، ينادون الناس بوجوب تركهم عمالهم والخلود الى الراحة. ويقولون ان الفيثاغوريين ما كانوا يسمحون للناس بأن يتعبدوا ويصلوا الى آلهتهم على هواهم وكلما سمحت لهم الظروف بل أن يخرجوا من بيوتهم واذهانهم متهيئة لاداء الفريضة. ولذلك رغب [نوما] تبعاً لذلك أن لا يرى مواطنوه المراسيم الدينية أو يسمعوها وهم غافلون غير خاشعين، بل أن يتركوا ما بأيديهم من اعمال وان ينصرفوا بجماع نفوسهم الى الدين بوصفه أرفع عمل للبشر وأكثر جدية. وأن تزول الضوضاء من الشوارع. وتقل ضجة الأعمال الجسدية وينقطع مرور السابلة إفساحاً لسبيل المواكب الديني. وقد بقيت آثار لهذه العادة في رومه حتى يومنا هذا، إذ عندما يبدأ القنصل باستخارته بمراقبة الطير، أو بتقديم قربان. ينادى في الناس Ha-cage أي انصتوا لهذا!». وهو تحذير للحاضرين بأن يضبطوا أنفسهم ويخشعوا. وكثيراً من هذه التنظيمات تشابه ما وصفه الفيثاغوريون. فمن اقوالهم «لا تجعل المكيال بمثابة مقعد تجلس عليه»^(٤٤). لا تحرك النار بالسيف^(٤٥). عندما تخرج الى سفر فلا تنظر خلفك^(٤٦). فلتكن أضحياتك لألهة السماوات بعدد وتري، ولتكن أضحياتك لألهة الأرض بعدد شفعي^(٤٧). «إن مدلولات كل هذه الرصايا لم تكشف للعامة، وكذلك بعض مبادئ [نوما] لا

(٤٤) بمعنى ان لا نستسلم لدواعي الكسل.

(٤٥) اي «لا تزيد في غيظ من كان مفتافاً».

(٤٦) في موضع آخر أثبت بلوتارخ الوصية بهذا الشكل «لا تكرر من الحدود راجعاً والمعنى واحد وهو «مت رجلاً، ولا تنحصر على الحياة وهي تتركك، ولا تتمن ان تعود صغيراً».

(٤٧) يرى الاقدمون العدد الوتري أكثر كمالاً، ويعتبرونه رمز الاتحاد إذ لا يمكن قسمته الى نصفين متساويين كالعدد الشفعي. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد للتفضيل اي باعتبار الشهر الثاني لآلهة الأرض على انه نجم عن ذلك آلاف من الرسوم الغيالية ما زال بعضهم يحتفظ بها الى يومنا هذا.

تري لها معنى واضحاً كقولهم « لا تقدم قربان خمر الى الآلهة من خمر فطيرة، لا تقدم اية أضحيات بدون خبز^(٤٨). قم بالدوران لما تؤدي صلاتك للآلهة^(٤٩). اجلس بعد أن تكمل فريصتك » إن الوصيتين الأوليين تشيران الى أن فلاحه الأرض واصلاحها هما جزء من الدين. واستدارة المصلين اثناء قيامهم بالفرائض انما يمثل دوران الأرض على ما زعموا. وفي رأيي: إنه لما كانت المعابد تستقبل جهة الشرق، فإن المؤمن يدخلها ويظهره مستدير القبلة اي مَشْرُق الشمس بينما وجهه يستقبل الآلهة فيدورانه يؤدي صلاته للربين معاً. هذا إلا اذا كان في تعبير الإنجاء في الصلاة معنى غامض مثل « العملة المصرية »^(٥٠) التي تشير الى تقلبات حظوظ الانسان ووجوب الرضى بكل ما قسمه الاله من حظوظ أو غيره من أحوال مهما كانت وجهتها، فهي صحيحة ومناسبة. ويقولون أيضاً أن الجلوس بعد الصلاة هو علامة على أن دعوات المصلين قد استجيبت، والبركة التي طلبوها مُنحت لهم. ثم كانت الأعمال المختلفة مقسمة بفترات من الراحة. فلربما كان جلوسهم بعد فراغهم من عملهم، لأجل نيل رضا الآلهة عن عمل آخر سيبدأونه. وهذا ما يتسق تماماً مع ما ذكرنا قبلاً، وهو أن المشرع يريد تعويدنا على رفع صلاتنا الى الرب لا بحسب ما تسنح به الظروف ولا بوجه العجلة لأجل الانصراف الى اعمال أخرى، ولكن بتوفير وقت وفراغ لها. وبهذا التنظيم والتشقيف الديني أنتقلت المدينة دون ان تدري الى حالة من هدوء الطبع، وأمتلأت أعجاباً واحتراماً لقضائل [نوما] بحيث كانت تطيع كل ما يستتبه بثقة خالصة من أي شك وإن لم تكن مغرقة في الخيال وما وراء الطبيعية، ووجدوا به انساناً لا يعصيه شيء، أو يستحيل عليه ولا يذكر عنه أمر إلا ويصدق عليه.

وهناك حكاية هي انه دعا مرة عدداً كبيراً من المواطنين الى مأدبة^(٥١) وكانت الصحاح التي وضع فيها اللحم بسيطة جداً مما يستعمل في بيوت العامة والطعام نفسه كان اعتيادياً

(٤٨) الفرض الاساس من هذا الشرط ربما من أجل صرفهم عن تقديم الدم واستدراجهم لتقديم الكحل وتناثيل الحيوانات المصنوعة من العجين أو ربما للتدليل بان الخبز هو أفضل هدية من الطبيعة أما الخمر الماسخة فلا قيمة لها.

(٤٩) ربما لتمثيل عظمة رئيس الآلهة.

(٥٠) يقتبس كليمنت الاسكندراني (A:٥) فقرة من أحد حكاية تلك الديعة جاء فيها قوله: ان الكهنة المصريين كانوا يعبدون العجلة في اماكن العبادة لأنها تمثل سرعة التنقل وعدم الاستغراق. ويعبدون الزهر تكبيراً بقصر الحياة.

(٥١) يحدثنا [بيون ١٥٢] ان [نوما] أشهد هؤلاء المدعوين الرومان بعد ان أطلعهم على كل غرف قصره صباحاً بحقارة الاثاث الذي لا ينبي عن المأدبة العظيمة التي تعين قيامها مساء ذلك اليوم. ثم انه ابقاهم معه الجزء الأكبر من ذلك اليوم وبعد ذلك دخلوا محل العشاء فوجدوا لدهشتهم كل شيء ينطق بالفخامة والنفاسة. وربما عزا هذا كله الى صديقه وخله الخفي

فقيراً، وعندما جلس الضيوف بدأ يحدثهم ان الآلهة التي أعتادت محادثته، قد زارته الآن. وعلى حين عرة ظهرت في القاعة انواع مختلفة من أثمن الأقتراح وحفلت المائدة بأنفس الطعام واللحوم. إلا ان المحاوراة التي قيل انها جرت بينه وبين (جويتر) تفوق كل الأساطير الخيالية التي صفت عنه. قيل أن آلهين نصعين هما بيكوس Picus وفاونس Faunus كان يختلجان الى ينابيع وخصائل «جبل أفنتين» قبل أن يصبح مأهولاً ويدخل في المدينة، وربما كانا من جماعة المسوخ Satyr أو الهان Pan خلا انهما كانا يتجولان في كل ارجاء ايطاليا ويقومان ببعض انواع الحيل والخدوات عن طريق السحر والعقار، كما عزا الأغريق ذلك الى ما يسمونهم ائيدي داكيتيلي Idaei Dactyli^(٥٢)، وعزم نوما يوماً أن يفاجي. هذين الآلهين النصفين بسكب مزيج من الخمر والعسل، في مياه النبع الذي يشريان منه عادة. وعندما وجدا انهما وقعاً في الفخ خرجا عن هيتيهما الحقيقيتين واتخذاً مختلف الاشكال وتزيّاً بكلّ زيّ بشع ومظهر غير عادي. ولكن لما وجدا أن لا فكاك لهما من الفخ، ولا أمل في تحرير نفسيهما، اضطرا الى أن يكشفوا له عن مختلف الأسرار، وما سيحصل من المستقبل. وخصوصاً تعويذة للبرق والرعد ما زالت مستعملة، ويقتضي لها بصل، وشعر، وسمك البلشارد، ويقول بعضهم انهما لم يكشفوا له سرّ التعويذة. إلا انهما استدعيا جويتر من السماء بسحرهما. فراح يقول لنوما بلهجة غاضبة انه اذا أراد أن يسحر الرعد والبرق فعليه أن يفعل ذلك بالرووس فسأله نوما:

- كيف؟ أبرؤوس البصل؟

فأجاب جويتر

- لا، برؤوس الرجال

واراد [نوما] أن يصرفه عن قسوة هذه الوصفة فحوّل الموضوع الى جهة أخرى. بقوله

- قولك يعني، شعر رؤوس الرجال.

فأجاب جويتر:

(٥٢) يخبرنا ديودورس نقلًا عن ايفوروس بأن [الائدي داكيتيلي] هم أصلًا من جبل (ايدا) في (فريجيا) وقد عبروا منها الى اوروبا مع (مينوس) الملك واستقروا أولاً في [ساموثراقي] حيث علموا سكانها الممارسات الدينية. ويظن ان (اورفيوس) هو تلميذهم وهو أول من جاء الى اليونان بنوع ما من انواع العبادة. ويقال كذلك ان الداكتيلي هم أول من استخدم النار وعرف خصائص الحديد والنحاس ولقنوها سكان البلاد الذين يسكنون قرب جبل بيريكثوس. كما علمهم طرق الإفادة منها ومن أجل هذا ولكثير من مكتشفاتهم الأخرى عبدوا كما تعبد الآلهة بعد مماتهم واسمهم باليوناني [داختيلوس] وهي اصبع (عشر اصابع) يستخدم كتعويذة ضد المخاطر وتلبس حجارة معينة كتعويذة، تحمل اسمهم.

- لا يل أحياء - ...

فقاطعه نوما بقوله

- ... السمك؟

وكانت (ابجيريا قد علمته هذه الأسئلة. وعاد جويتر الى السماء وقد هدأت سورة غضبه ويات «Ileos» أي طيب النفس. ولهذا أطلق على هذا الموضع اسم اليشيوم Ilicium^(٥٣) من تلك الكلمة اليونانية، بعد أن صُحِفَ اللفظ كما اثبتناه.

هذه الروايات على قدر ما هي مضحكة سخيفة تظهر لنا مشاعر الناس تجاه الآله، تلك المشاعر التي تمكنت منهم بحكم العادة. وتظهر أن أفكار نوما الخاصة انحصرت كما قيل - في المسائل الآلهية الى حد لا مزيد عليه حتى انه عندما أبلغ بأن «الاعداء يقتربون» أجاب مبتسماً «وانا أضحى»!

وهو الذي بنى أيضاً معبدي «الايان»^(٥٤) و«الحدود Terminus»^(٥٥). وعلم الرومان أن الحلف «بالايان» هو أغلظ عین يمكن أن يحلفوا به، وهم مازالوا يحفظونه^(٥٦). ويقومون لترمينوس اي آله الحدود، قرابين خاصة وعامة الى يومنا هذا، فوق حدود اراضيهم وشواخصها الحجرية. على أن تكون القرابين من صنف الأحياء، وإن كانت قبلاً ذبائح، فأبطلها نوما لأنه قدّر أن رب الحدود الذي يحرص على السلام ويشهد للحق، لا شأن له بالدماء. ومن الواضح جداً أن هذا الملك هو أول من خطط الحدود بين اراضي رومه، لأن (رومولوس) كان دائم العدوان على اراضي جيرانه، ولم يؤثر عنه انه رسم حدوداً ما. فالحدود هي في الواقع وسيلة دفاع لأولئك الذين يختارون رعايتها واحترامها. في حين انها شاهد على ظلم الذين يعتدون عليها. والحقيقة هي أن البقعة التي استأثر بها الرومان في مبدأ الأمر، كانت صغيرة المساحة للغاية فوسّعها رومولوس بحروبه وقام نوما الآن بتقسيمها وتوزيعها على أفراد العامة

(٥٣) هنا بجانب بليوتارخ الصواب. وربما عَزَى ذلك الى قلة تَضَلُّع في اللغة اللاتينية. ويخبرنا [أوفيد ٣: ٢٢٨] ان جويتر يطلق عليه اسم (اليشيوم) من فعل (اليجري) اي الفروج، لأنه خرج من السماء بهذه المناسبة. (٥٤) Filles.

(٥٥) الآلهة تيرميني تمثل بالبجارة التي أمر [نوما] بوضعها على حدود الدولة الرومانية، وحول كل ارض خاصة. كما انه أمر تكريماً لها بإقامة عيد سنوي سماه ترميناليا في ٢٢ أو ٢٣ من شهر شيباط وهو آخر يوم من أيام السنة القديمة. ولذلك ضوعف عندما قام يوليوس قيصر بإصلاح التقويم. وعندها سميت السنة ببسكتال والاضحية التي تقدم في هذه المناسبة هي امّا خنزير خنوص رضيع أو حمل. ان رفع رمز الآلهة ترمينيكان يعتبر امانة عظيمة بحيث كان دم المجدف مباحاً ولاي شخص الحق في قتله وهو آمن من العقاب.

(٥٦) «اقسم بايماني Medius fidius» وهو يمين روماني يعادل قولنا اليوم «بشرمي» أو «باموسي».

المتظلمين الساخطين، مدفوعاً برغبته في إزالة الفقر المدفع الذي يدفع الى الغواية. ولتوجيه الناس الى الزراعة لإيصالهم الى حالة أفضل من النظام والاستقرار كذلك اعاد قسمة أراضيهم نفسها. ليس هناك مهنة فاضلة مثل الزراعة. وحياة الريف تولد رغبة وتعلقاً شديدين بالسلم والدعة وتختلف عند كل الناس مهما اختلفت صفاتهم. تلك الروح من الشجاعة والصلابة وتجعلهم مستعدين للقتال دفاعاً عن كل شر من أرضهم في حين انها تقضي على كل اعتداء متأت من أعمال الظلم والعنف. ولهذا وزع نوما الاراضي بعد تقسيمها قطعاً مؤملاً ان تكون الزراعة تعويذة تأسر نفوسهم وتصرف إهتمامهم الى السلم، ومقدراً بأنها ستكون وسيلة للربح الأدبي فضلاً عن الكسب الاقتصادي. وسمى كل قطعة ارض (پاغوس Pagus)، وعين لكل واحدة منها رئيس رقباء. وكان يتمتع نفسه أحياناً بتفقد هذه المستعمرات شخصياً ليكون احكامه الخاصة على طبائع كل امرء من النتائج. وكان يحضوره يمدح ويكرم ويستخدم أولئك الذين يحسن عملهم وبالتوبيخ واللوم يدفع المتكاسلين والمهملين^(٥٧) الى مضاعفة جهودهم.

إلا أجل أعماله وأعظم مآثرة له، هي تقسيم الناس بحسب حرفهم وصناعاتهم الى جمعيات أو نقابات. فقد كانت المدينة تتألف، أو بكلمة أخرى - منقسمة الى قبيلتين تعذر إزالة الخصام بينهما، في حين أن ذلك الخلاف كان يحول دون قيام أي وحدة، وبسبب نزاعات واثارات دموية مستمرة، وهذه تفكيره الى أن الشعب أقرب شيء الى المواد الصلبة لا يمتزج بعضها ببعض الا عندما تكوّم كومة واحدة وتسحق الى ذرات وبهذه الطريقة تمتزج، فقرر أن يقسم السكان جميعاً الى عدد من الاجزاء الصغيرة مؤملاً من استحداث تفرقة أخرى - انه يزيل التفرقة الأصلية الكبرى لأنها ستضيع في الصغرى. فمجز الناس بمختلف ما يتعاطون من حرفة أو صناعة، وأسس جمعيات للموسيقين والصاغة والنجارين والصباغين، والاسكافية والسلاخين والصقارين والفخارين. كما جمع كل أرباب الصناعات اليدوية الأخرى في نقابة أخرى. وعين لكل واحدة مجالس قضائها ومنظماتها الادارية ومراسيمها الدينية. وعلى هذه الشاكلة بدأت تضمحل كل صفوف التفرقات الحزبية لأول مرة ولم يعد يتحدث عن أي شخص بوصفه رومانياً أو سابيمياً. رومولياً أو طاطياً، وغدت التقسيمات الجديدة مصدراً للتمازج العام والتألف.

ومن مآثره المدوحة جداً تغييره أو تعديله ذلك القانون الذي يمنح الحق للأباء في بيع اولادهم^(٥٨)، مستثنياً من ذلك المتزوجين ومشترطاً رغبة وموافقة الأبوين إذ يبدو من القسوة

(٥٧) ان اعمال زراعة الحقول يعتبره الرومان جرماً يستحق عقاب الجسنور Censorium Probrum.
(٥٨) منح رومولس سلطة للأباء على ابنائهم، تزيد عن سلطة لآسياد على عبيدهم. ففي حين لا تجد السيد =

الشديدة أن تتزوج امرأة من شخص حُر، فتجد نفسها فيما بعد تعاشر عبداً.

وحاول أيضاً تنظيم تقويم سنوي وهو ان لم يكن دقيقاً للغاية، لا يخلو من الأسس العلمية. كان الرومان في أيام رومولوس لا يحددون اشهر السنة بايام معينة ومدد متساوية. فبعضها يحتوي عشرين يوماً وبعضها يبلغ خمسة وثلاثين يوماً أو أكثر. ولم يكونوا واقفين على اختلاف حركات الشمس والقمر وإنما استقروا على قاعدة واحدة وهي أن السنة الكاملة تتألف من ثلاثمائة وستين يوماً، ولكن (نوما) حسب مقدار التفاوت بين السنتين الشمسية والقمرية بأحد عشر يوماً لأن القمر يكمل دورته السنوية بثلاثمائة واربعة وخمسين يوماً بينما تكملها الشمس بثلاثمائة وخمسة وستين. ولأجل أن يزيل هذا التفاوت ضاعف فرق الأحد عشر يوماً وزاد شهراً واحداً على كُلِّ سنة ثانية وأمدّه اثنتان وعشرون يوماً وهو يلي شهر شباط يوسمى عند الرومان شهر (مرسيدينوس Mercedinus)، وقد اقتضى لهذا التعديل مرور الزمن، تعديلات أخرى. كذلك غير نظام تعاقب الأشهر، فوضع شهر آذار في المرتبة الثالثة بعد أن كان أول أشهر السنة. وكانون الثاني جعله الأول بعد أن كان الحادي عشر. وشباط الذي كان الثاني عشر والأخير، جعله الثاني، ويعتقد الكثيرون أن (نوما) هو الذي أضاف شهري كانون الثاني وشباط أيضاً. ففي البداية كان لديهم سنة تتألف من عشرة أشهر فقط. وهناك من اقوام البرابرة ما يعدّون ثلاثة اشهر فقط في سنتهم. وسنة الاركادين في اليونان، أربعة أشهر؛ وكانت سنة المصريين في مبدأ الأمر، شهراً واحداً على ما قيل، ثم جعلت أربعة أشهر. وهكذا فمع أنهم يعيشون في أحدث بلدٍ من البلدان^(٥٩)، تراهم معروفين بأنهم أقدم الشعوب في العالم ويعدون في شجرات سلالاتهم ارقاماً هائلة من السنين معتبرين الأشهر سنوات^(٦٠).

= قادراً على بيع عبده أكثر من مرة واحدة، نجد الأب يحلّ له بيع ابنه ثلاث مرات مهما كانت حالته القانونية ومهما بلغ من عمر. كان هذا العرف سائداً في بلاد اليونان الى زمن (هولون)، وقد قام هذا بوضع حدود لها. فحرم بيع الابن عند بلوغه سن الرجولة، إلا انه استثنى من التحريم البنات والأخوات اللاتي يفاجأن بملبسات بالزنا. ولم يطل امد التحديد الذي وضعه [نوما] لهذا، المبدأ أن ما لبث ان ألغى بعده. إلا ان حكم العشرة Decemvir في اللوح الرابع أحيى هذا التقليد (نيون ٨:٢) وعُدل عنه تدريجياً بالتقدم الحضاري. لكن كان يحصل تطبيق للعرف في عهد شيشرون الأمر الذي يدل على أن هذا الحق ظل سارياً بكل ما فيه من صرامة.

(٥٩) عندما جفّت الدلتا وهي على أغلب الاحتمال احدث جزء مأهول من البلاد المصرية [هيروذوتس ٩:٢ و ٥]

(٦٠) اذا افترضنا ان المصريين كانوا يسمون الشهر سنة، فان حساباتهم وتواريخهم ستبدو أقرب الى الحقيقة نظراً الى عمر الدنيا حالياً. فهم يحسبون تسلسلاً للملوك يعود الى فترة (٢٦٠٠٠) سنة على ان فرضيتنا تجعل عهود حكم ملوكهم قصيرة جداً لا يقبلها العقل. هذا مع العلم ان هيروذوتس يقول ان المصريين هم أول من بدء الحساب بالسنة الحولية وانهم أول من جعل السنة اثني عشر شهراً ان الاسبقية التي يتباهون بها يجب ان يعزى والحالة هذه الى مذهب الجزء الخرافي من تاريخهم الى عهد =

وأما إن الرومان حصروا السنة كلها بعشرة أشهر في مبدأ أمرهم. ولم يحصروها بأثني عشر، فهذا يبدو واضحاً من اسم آخرها «ديسمبر December» ومعناه «الشهر العاشر». وكون آذار March هو الأول، فهذا أيضاً واضح لأن الشهر الخامس بعده كان يدعى «كونتيليس Quintilis» والسادس يدعى (سكستيليس Sixtilis) وهكذا إلى الأخير. إذ لو كان شهر كانون الثاني وشباط يتقدمان آذار، لوجب أن يكون (كونيتيليس) الخامس بالتسمية والسادس بالترتيب. وكذلك يكون طبيعياً أن آذار March. المكرس للآله مارس Mars هو الأول في تقويم رومولوس. وأبريل April (نيسان) الذي أخذ اسمه من فينوس (أي أفروديت Aphrodite) هو شهره الثاني. وفيه يقرَّبون إلى فينوس، وتستم النساء في أول يوم «Calend» منه وهن ضافات رؤوسهن بالكاليل الزهر، ولوجود حرف (ب) في اسم الشهر، لا حرف (ف) يرى بعضهم أنه غير مشتق من اسم (أفروديت)، ويقولون أنه من كلمة «أوبريو Operio» وهي كلمة لاتينية تعني «فتح» لأن هذا الشهر يأتي في أول الربيع، ويفتح البراعم والأزهار، وينتهي موسمها. ويليه ما يسمى أيار May من كلمة (مايا Maia) وهي اسم أم (الرب عطارد) وهو مكرس له. ثم يتبعه حزيران June (يونو Juno). أما على أن بعضهم يجعل اسميهما مشتقين من اسم موسم بقوة السنة (مايورس Majores). أما الأشهر الأخرى فقد سموها بحسب ترتيبها فسمي الخامس (كونيتيليس)، والسادس (سكستيليس)، والسابع (سبتمبر) والثامن (أكتوبر) والتاسع (نوفمبر) والعاشر (ديسمبر). ثم أن (كونيتيليس) تبدل اسمه باسم «بوليوس Julius» من اسم قيصر الذي هزم (بومبي)، كذلك استبدل اسم سكستيليس (بأوغسطس) وهو القيصر الثاني الذي عرف بهذا اللقب وحذا (دوميتيان) حذو هذين، فأعطى اسمه للشهرين التاليين وعرفا به (جرمانيكوس Germanicus) و(دوميتيانوس Domitianus) ولكن اسميهما عادا إليها بعد أن أعتيل أي سبتمبر وأكتوبر وبقياً كذلك حتى الآن دون تغيير. ومن الأشهر التي أضافها (نوما) أو نقلها عن مواضعها، شباط (فيرووري) من فيروا Februa وهو شهر التطهر وفيه يقدمون التقدّمات إلى الموتى ويحتفلون بعيد (لوبركاليا) وهو يشبه مراسيم التطهير في معظم تفاصيله، وكانون الثاني (جانوري) من يونو Juno وقد قدّمه (نوما) على آذار المكرس لمارس، والسبب الذي دفعه إلى ذلك في اعتقاده هو رغبته الشديدة في التأكيد والايضاح بأن الفنون والعلوم في زمن السلم، لها الأرجحية على فنون الحرب وصناعتها. فقد كان (يانوس Janus) هذا إما

= سميق جداً. وأما عن مقولة بلوتارخ بأن مصر هي بلاد حديثة العهد فهو قول غريب من رجل له مثل هذه المعرفة الواسعة. وأما عن سنتهم ذات الأشهر الأربعة فما زال المتتبعون المختصون في حيرة من ذلك.

إلهاً نصفاً أو ملكاً في العصور الغابرة السحيقة، وكان على وجه التأكيد محباً للوحدة المدنية والاجتماعية، وعرف بأنه انتشل الناس من الحياة البربرية الهمجية. ولهذا السبب مثلوه بوجه، إشارة إلى الحالتين أو الوضعين الأول منهما الوضع الذي كان عليه البشر، والثاني الوضع الذي ألوا إليه بعد أن انتشلهم.

ولعبده في رومه مدخلان يسمونها بابي الحرب، لأنهما يبقيان مفتوحين في أيام الحرب ويغلقان في أيام السلم، والحالة الثانية كانت نادرة جداً لأن الامبراطورية الرومانية في حالة اتساعها وتضخمها كانت ابداً محاطة باقوام البرابرة وباعداء يترصبون بها الدوائر ولهذا ما عرفت للسلم طعماً إلا في القليل النادر. وقد أغلق هذا المعبد في أيام [اوغسطس قيصر] فقط^(٦١). بعد أن حقق انتصاره على [انطوني]، كذلك أغلق مرة ثانية عندما كان [ماركوس آتيليوس Marcus Atilius]^(٦٢) و[تيطس مانليوس Titus Manlius] قنصلين. ثم لم تمر فترة وجيزة من الزمن مفتوحين قط طوال حكم نوما وظلا مغلقين باستمرار لمدة ثلاثة وأربعين عاماً كاملة وهي مدة سلم لم يعرف مثلها من قبل ومن بعد ولم يكن الرومان الوحيدين الذين لان جانبهم، ومال بهم طبعهم إلى الدعة والسلم بحكم ملك مسالم رقيق الطبع، بل تعدتهم هذه الروح إلى شعوب المدن المجاورة كأنها حبّ عليها نسيم رخي من رومه. فبدأ الجميع يعانون تغييراً في المشاعر، وشاركوا كافة في الشوق العام إلى لذة السلم ونعم النظام والاستقرار. إلى حياة تستغرقها اعمال استنابت التربة وتنشئة الأولاد وعبادة الآلهة. وساد ابطاليا أيام أعياد، وحفلات الالعاب والتزاور بين الاصدقاء والألفة والاستضافة والكرم. وكان حبّ الفضيلة والعدل يتدفق من حكمة نوما كما يتدفق الماء من نافورة. وكان هدوء طبعه يشع بالهدوء والطمأنينة إلى جميع الجهات ولذلك أصبحت مبالغت الشعراء وفقاعاتهم الكبيرة تتضمن إلى الواقع البسيط بوصف ما حدث على النحو التالي: «... نسجت العناكب خيوطها فوق تروس الحديد»

أو قولهم: «الصدأ يأكل الرمح المسنون، والسيف ذا الحدين. ولا يسمع بعد صوت أبواق النحاس، ما عاد النوم الهنيء يزايل عيون الناس»^(٦٣).

(٦١) قبل مجيء اغسطس قيصر أغلق معبد (يانوس) عدة مرات وخلفاً كما ذكر في المتن (غلقه في ٧٥٠ ق.م) فقد أغلق في أيام نيرون، وفي أيام قسباسيان بعد تغلبه على اليهود.
(٦٢) علينا ان نشب «كايوس» بدلاً من «ماركوس». فزميله (تيتوس مانليوس) أغلق معبد (يانوس) في نهاية الحرب التيونية الأولى في ١٩٠ ق.م. وظلت روما مشتبكة في نضال مستمر منذ عهد نوما حتى هذه الفترة.
(٦٣) لقتبس بلوتارخ هذه القصيدة من مجموعة قصائد (بالكليدس) التي حفظها لنا [ستومبيوس] حول الإشادة بالسلم.

اذ لم تقم حرب ولا فتنة ولا انقلاب في أحوال الدولة طوال حكم [نوما] ولم يواجه بحقد أو نية سوء ولم يحصل مؤامرة عليه أو تحاك خطة، مبعثها الطموح ضده، فإما كان الخوف من الآلهة هو الذي يعصمه من الخطر وإما الاحترام لفضائله، أو لعلها نعم الحظ الآلهية التي كانت في اسمه ترضى البراءة الإنسانية هي التي جعلت حكمة مثلاً حياً وبرهاناً ساطعاً مهما كانت الوسائل - على ذلك القول الذي نطق به افلاطون بعد مرور زمن طويل وهو أن الوسيلة الوحيدة والدواء الناجع الوحيد للخلاص من الشرّ الانساني هو في اتساق سعيد للأحداث حين توجد في شخص واحد سلطات الملك وحكمة الفيلسوف لأجل أن ترفع الفضيلة الى سلطة مراقبة الشر والهيمنة عليه. وهذا الرجل الحكيم هو مبارك بشخصه. «ومباركون ايضاً أولئك الذين يستطيعون الاصغاء اليه والاستماع الى تلك الكلمات التي تخرج من فمه»^(*).

وربما لم يكن هناك حاجة أيضاً للاكراه أو التهديد في التأثير على الجمهور لأن الصورة بنفسها هي المثل الساطع الواضح على الفضيلة في حياة اميرهم وهي التي ستؤدي بهم طوعاً واختياراً الى جادة الفضيلة والى مواجهة حياة طاهرة مباركة تمتاز بحسن النية والتعاون المتبادل ويدعمهما الخير والعادل وهذا أعلى مكسب يمكن أن يناله سعي الانسان. ونوما هو خير حاكم يغرس هذه الفكرة في قلوب رعاياه ويحملهم على اعتناقها. إنه المديح الذي لم يستحقه أحد كما أستحقه [نوما]. وهو ما يبدو حلياً.

هناك اختلاف بين جمهرة من المؤرخين حول أولاده وزوجاته فبعضهم يزعم أنه لم يتزوج بأحد بعد [طاطيا] ولم يكن لديه منها غير بنت واحدة اسمها [پومپيليا Pompilja]، ويقول آخرون انه خلف اربعة ذكور آخرين وهم [پومپو Pompo]، وپينوس Pinus، وكالبوس Cal-pus، وماميروكوس Mamercus] وقد كان واحد منهم مؤسساً للأسر العريقة الشهيرة الأربعة [پومپوني، پيناري، كالبورني ماميركي Pomponii, Pinarri Calpranu, Mamerei] وزادت هذه الأسر الى اسمائها لقب [ريكس Rex^(٦٤)] ملك أيضاً لانحدارها من [نوما]. على أن طائفة ثالثة من الكتاب تقول أن شجرات النسب تلك لم تكن غير مجاملة وتعلق اختلقها الكتاب ليلالوا حظوة عند هذه الأسر العظيمة، فعملوا لهم شجرات نسب كاذبة متسلسلة من نوما. وقالوا أيضاً أن [پومپيليا] ليست بنت [طاطيا] بل بنت [لوكريسيا Lucretia] وهي زوج أخرى بنى بها بعد أن اختير ملكاً. ومهما بلغ أختلافهم، فكلهم يتفقون في

(*) افلاطون: الشرائع.

(٦٤) ريكس Rex هو لقب اسرة ايميلي Aemilii واسرة مارچي Marci. ولم يكن لقب پومپوني Pomponii أو پيناري Pinarri أو مامرجي Mamerci. وقد انحدر آل پيناري من أسرة كهنة هرقل وهم أعرق وأقدم عهداً من عصر [نوما]. انظر [لوفي ٢٧: ١، ديون ٩: ١، فرجيل الابنياد ٨: ٢٧١].

الرأي بأن هذه السنت تزوجت ابن [مارشوس] وهو الشخص الذي أقتنعه بتسلم مقاليد الحكم ورافقه الى رومه، فأختير عضواً في مجلس الشيوخ تكريماً له. وبعد وفاة نوما نافس [تُلُّوس Tullus] ابن [هوستيليوس] على الملكية. وبفشله في الانتخاب، بضع نفسه حسرةً وكمداً. إلا أن ابنه [مارشوس] الذي تزوج [بومبليا] بقي في روما. وهو والد [انكوس مارشوس] الذي عقب [تُلُّكوس هوستيليوس] في الملك وكان عمره خمس سنوات عند وفاة [نوما].

وعاش [نوما] حتى زادت سنّه على الثمانين وبعدها لم يقض نحبه بموت الفجأة أو بعد مرضٍ حاد وأثماً توفي بكبر السنّ وبتهاقت قواه ووهنها التدريجي على ما قاله [بيسو (Piso)].

وقد أجمعت في جنازته كل أمجاد حياته كاملةً، عندما التقت كلّ الدول المحاورة وهي في تحالف وصداقة مع روما، لتكريم وتشريف مراسيم دفنه بالاكاليل وبهدايا الشعوب. وحمل الشيوخ النعش الذي يضمّ جثمانه يتبعهم الكهنة، ثم موكب المشيعين المهيب، في حين ساهم الجمهور عامةً بأحداثه ونسائه وأطفاله وهم يصرخون وينتحبون كأنما يندبون موت وفقد قريب عزيز لهم أعتبط وهو في شرح شبابه لا ملكاً شيخاً بلغ اِرْذَل العمر وقيل أن جثمانه لم يحرق، لانه أوصى بذلك^(٦٥)، بل نحشوا ناووسيين من الرخام حسب وصيته وأدعوا جثمانه فيما دسوها في جبل يانيكولوم Janiculum، وكان في أحدهما جثمانه وفي الثاني كتبه المقدسة^(٦٦). التي دونت له خاصةً كما هي ألواح المشتريين اليونان. ولكن محتوياتها انطبعت في نفوس الكهنة وقلوبهم في اثنا حياته، حتى تشبعت بها أذهانهم وتشريت بروحها وغاياتها. وقد أوصى أن تدفن معه. كأنما هذه الرصايا المقدسة لا يمكن أن تبقى وتنتشر في كتابات جامدة إلا وتفقد مكانتها واحترام النفوس لها. ولهذا السبب نفسه يقال ان الفيثاغوريين منعوا أن يحتوي تعاليمهم كتابة لا روح فيها^(٦٧) بل فضلوا ان تحفظها الصدور والذاكرات القمينة بحفظها فيقولون عندما كان يتسرب بعض المعادلات الهندسية المعقدة الغربية الى شخص غير جدير بها أن الأرباب تهدد بالاقنصاص من هذا العمل الشيع والتجديف، بأشارة مخصوصة وبهيبة واسعة شاملة. وتتعاقب جملة من هذه الحوادث لتثبت

(٦٥) في الأريمان القديمة كانت جثث الموتى توارى التراب، ثم أخذ المصريون يحنطونها حفظاً لها اعتقاداً بعودة الروح اليها. اما اليونان فقد كانوا يحرقونها تغدياً لتفسخها وما يترتب على ذلك من آثار سيئة. على ان (بليني) يزعم بأن (سيللا) هو أول روماني أهرقت جثته.

(٦٦) يبدو ذلك منافضاً للمؤمن (١٢:٣) الذي يقول «بعد وفاة تُلُّوس هو مستيليوس تسلم خلفه [انكوس مارشوس] من الكهنة شرائع [نوما] الخاصة بالطقوس والعبادات وأمر بحرقها في الحجر وعرضها على الجمهور».

(٦٧) ذلكم ما مال اليه الكهنة المصريون. ومنهم انتقلت الى فيثاغوراس على ما يبدو ثم الى افلاطون ونوما ليُعلم الى عادات تلك البلاد. وربما استمد الأخير من نفس المصدر.

وجوه الشبه في حياتي [نوما وفيثاغورس] يسهل علينا الاعتذار لأولئك الذين يحارلون اثبات تجارب في أفكارهما ووجود علاقة شخصية فيما بينهما فعلاً.

ويذكر [فاليريوس انتيوس] أن الكتب التي دفنت في الصندوق أو الناووس المشار إليه بلغت اثني عشر مجلداً في الشرائع الدينية ومثلها من المجلدات في الفلسفة اليونانية ولما كان (ب. كويلوس IP. Cornelius و(م. بيبوس IM Baebius) قنصلين بعد اربعمئة عام من وفاة نوما^(٦٨)، سقط مطر عزيز وجرفت السيول العرمة التراب وكشفت عن التابوتين الحجريين وقد سقط عنهما غطاؤهما فشرهد أحدهما خالياً تماماً من أي اثر لبقايا جسم بشري. وجد في الآخر الكتب التي اشربنا إليها، فأخذت إلى الپريتور [پيتيليوس Petilius] وبعد أن قرأها وتأمل ما فيها، أقسم يميناً أمام مجلس الشيوخ بأن محتوياتها لا تصلح في رأيه - للنشر بين العامة، فحملت المجلدات إلى الكوميثيوم وهناك تمّ احراقها.

من حظ الأخبار أن قد استهم تجدد بعد موتهم وإن الحسد الذي يضطغنه لهم الأشرار لا يعيش بعدهم طويلاً، وقد يسعد الخطأ بعضهم أن يشاهدوا موته قبل أن تحين آجالهم، وفي قضية (نوما) أيضاً كانت مصائر الملوك الذي عقبوه بمثابة طبقات عاكسة تطلق نور سمعته الساطع. فقد عقبه خمسة ملوك انتهت حياة آخرهم في المنفى وهو شيخ هرم بعد أن نحي عن العرش. ومن الأربعة الباقيين ثلاثة اغتالتهم يد الخيانة والآخر وهو (تللوس هوستيليوس)، الذي خلف (نوما)، سخر من فضائل سلفه ولاسيما تعلقه بالعبادة وأعتبرها اعمال ضعف وخور نفسيّ وحول عقول الشعب إلى الحرب إلا أنه ألجم وكبح جماح هذا التهور والطيش. وتردى هو نفسه في حماة الدجل والشعوذة المختلفة جداً عن ثقى وتهجد نوما حين ألمّ به مرض مزمن كثير الأوجاع وعندما مات بضربة صاعقة^(٦٩)، ترك آخرين يقاسون ما قاسى من آلام.

(٦٨) هذا الحدث وقع في العام ٥٧٢ ق.م. ولعل بلوتارخ كتب (٥٠٠) يقول شارو. «ان شخصاً اسمه (ترنتيوس) كان يملك قطعة ارض بالقرب من يانكولوم. وقد شاعت الصدفة ان واحداً من رعاته مرّ يوماً بقطيعه فوق قبر [نوما] فانتكشفت له كتب قانون كان [نوما] قد دون فيها الاسباب التي دفنته إلى تقنين الديانة الرومانية بالشكل الذي رسمه. فحمل الراعي هذه الكتابات إلى (الپريتور) الذي أخذها بدوره إلى مجلس الشيوخ. وبعد قراءة التعليق والاسباب الموجبة أمن بسلامة نية [نوما] وأمر باحراق الكتب على ان يقوم (الپريتور) يقذفها إلى اللهب.

(٦٩) ضربت الصاعقة قصر (تللوس هوستيليوس) فاحرقته وهلك فيه هو وزوجه وأولاده. على ان بعض المؤرخين يقولون ان [انكوس مارجيوس] حفيد [نوما] الذي كان يطعم إلى الملك. انتهن فرصة اشتداد العاصفة فنتك بالملك.

أوجه المقارنة بين نوما وليكورغوس

بعد انتهائنا من الكلام في سيرتي ليكورغوس ونوما، سنضع معاً نقاط اختلافهما كما هي مبسطة هنا امام اعيننا وان كان العمل صعباً. إن أوجه الشبه بينهما واضحة: اعتدالهما، تدنيهما، كفاءتهما في الحكم ثم اختلافات جوهرية في شؤونهما العامة، أولها أن نوما قبل الملك وليكورغوس نزل عنه. نوما تسلمه دون رغبة فيه، وليكورغوس كان حائزاً له فتخلّى عنه. الأول ارتفع من شخص عاديّ غريب، الى منصب الملك، رفعه اليه آخرون. والثاني نزل من حالة الأمانة الى شخص عاديّ يحض اختياره. إنه لمجد مؤثّل أن تنال عرشاً بالحق، ولكن أعظم منه أن تفضل الحق على العرش فالفضيلة التي جعلت الأول يبدو جديراً بالسلطات، هي نفسها سمّت بالآخر الى درجة عدم المبالاة به. وأخيراً، فكما يحزق الموسيقيون اوتار قيثاراتهم كذلك أرخى الأول منهما روحية اهل رومه المندفعة المؤثرة الى درجة اوطأ شدة الآخر في سبارطا ورفعها الى نغمة أعلى عندما اضرت بها الفتق واصابها الانحلال والانقسام. وكان العمل الأصعب من نصيب ليكورغوس. اذ لم تكن مهمته اقناع مواطنيه بنزع دروعهم، وحل انطقة سيوفهم وانما كان يريد منهم نبذ ذهيبهم وفضتهم، وترك اثاثهم الغالي وموائد طعامهم الفاخرة لم تكن مهمته الوعظ والارشاد الى حفظ تعاليم الدين واعياده وتقديم القرابين للأرباب كما يجب وتخليهم عن السلاح وانما حشهم على نبذ الولائم والحفلات والشراب، وصرف أوقاتهم في التمارين العسكرية المجيدة. وهكذا فبيننا نجد الأول يحقق مسعاه كله بالاقناع وبحب شعبه له وتعلقه به، نجد الآخر بالكاد لنجح في الأخير، بعد ان تعرضت حياته للخطر والمتاعب. وكانت فكرة نوما وحياً رقيقاً ودوداً، يناسبه تماماً، وهو ان يوجه اهتمام شعبه ويميل بهم الى السّلام والعدل، لترق طباعهم الوحشية النارية، وان سلما هنا بان معاملة [الهيلوت] وهي جزء مما قرّره شرائع ليكورغوس تُعدّ اجراءات لا مثيل لها في القسوة والظلم، فعلينا الاقرار أن نوما كان أكثر انسانية بما لا يقاس، واقرب شهاً بالمشترعين اليونان

فقد بلغ به الأمر أن منح للعبد المسترق حق الجلوس وتناول الطعام مع سيده^(١) في عيد [زحل] حتى يتذوق بعض أطيب الحرية وملاذها. فهذه العادة أيضاً تعزى إلى نوما. إذ يقولون أنه كان يربح أن يُفسح لأولئك الذين ساهموا في استغلال الأرض مجالاً للتمتع بخيراتها. ويعلمها آخرون، بأنها أحياء لعصر [زحل] حيث لم يكن هناك فرق بين السيد والعبد. والجميع يعيشون كالأخوة في حالة متقدمة من المساواة.

وبصورة عامة يبدو أن الأثنين كانا يسعيان إلى غرض واحد وغاية واحدة. وهو الوصول بالشعبين إلى حالة الاعتدال، والتكشف أما من السجاياء الأخرى فقد ركز أحدهما جل اهتمامه في تقوية شعبه، والآخر في العدالة. إلا إذا أسندنا أختلافهما في السبل إلى اختلاف أمزجة الشعبين وطباعهما واحوالهما وقابلية تطبيق قوانينهما. فنوما لم يعمل للسلم جنباً منه أو خوفاً بل لأنه لا يريد أن يظلم فبئس، ولم يكن ليكورغوس بالذي يرغب في رفع الروح العسكرية في شعبه ليظلموا الآخرين، بل ليكونوا قادرين على حماية أنفسهم بها.

وفي سبيل الوصول بالأمزجة التي كونها في شعبيهما إلى سبل واهداف عادلة وغايات سعيدة يحدان منها عندما تزيد في انطلاقتها ويقربانها في مواطن ضعفه، وجدا نفسيهما مضطرين إلى استحداث ابداعات عظيمة. فشكل النظام الحكومي الذي أقامه نوما، كان ديمقراطياً جمهورياً إلى أقصى حد فنقابات الصاغة والموسيقين والاسكافيين تؤلف طبقة العامة المختلفة الألوان والصور. أما ليكورغوس فكان ارسوقراطياً صارماً جامداً، في حصره كل المهن اليدوية والأعمال الوضيعة بطائفة الخدم والأجانب، ولم يسمح لمواطنيه من أدوات العمل، إلا بالرمح والترس أي صناعة الحرب فقط وخدمة إلهها مارس. ولم يسمح لهم بشيء من المعرفة والفهم غير اطاعة أمرهم العسكريين، والنصر على الأعداء في الحرب. ومنح أي مضاربة مالية بينهم بوصفهم رجالاً أحراراً ولأجل جعلهم على هذه الصورة وابقائهم عليها تماماً طوال حياتهم، خوفاً كل ما يتعلق بأموال المال والنقود إلى أيدي العبيد والهيلوت بما فيها من أعمال الطهي وخدمة البيوت. إلا أن نوما لم يحدث مثل هذه التفرقة، وإنما قمع الروح

(١) هي ساتر ناليا، وكان يميده في الرابع عشر من شهر كانون الثاني. وتقرب القوابين تكريماً لذلك الذي جاء بسعادة ورخاء العصر الذهبي إلى إيطاليا. وفيه ينعم القدم بالحرية ويمارسون كل صروب اللهو والمرح استعادة لذكرى المساواة الاجتماعية التي سادت ذلك العصر. وفيه يتبادل الاصدقاء الهدايا، ولا تعلن حرب ويوقف تنفيذاً أحكام الموت بالمجرمين. على اننا لانعلم شيئاً عن منشأ العيد. يقول (ماكروبيوس) انه كان معروفاً في إيطاليا قبل بناء روما. وقد يكون مصيباً في قوله، لأن الاغريق كانوا يحتفلون بعين هذا العيد تحت اسم «خروثيا» [ماكروبيوس ساتورناليا ١ ٧] ويؤكد (ريكارد) انه شأ بعد حكم [نوما]، إما في عهد [تلوس هوستيليوس] وأما في عهد [تاركوينيوس سوبربوس].

العسكرية، وسمع بحرية مطلقة للحصول على الثروة بكل وسيلة شاءها الانسان. ولم يهتمم بازالة الفروق الاجتماعية من هذه الناحية. وانما سمح للاغنياء بأن يزيدوا في ثروتهم دون حد. ولم يهتمم بازدياد الفقر وتفاقمه المطرد، وهو ما كان يجب عليه أن يحتاط له من البداية عندما كانت الفروق في احوال الناس المالية صغيرة، والناس ما زالوا يعيشون في أحوال اقتصادية متقاربة نوعاً ما. لم يتخلص من ذلك كما فعل ليكورغوس، ولم يتخذ التدابير والاحتياطات للفنق والفوضى التي تنجم عن الحرص على المال.

فتن ليست ذات خطر قليل، بل هي البذرة الحقيقية والمبدأ الأولي لكل الشرور والمكاره العظمى وفي اعتقادي أنه لا يمكن لوم ليكورغوس على إعادة تقسيم الأراضي، ولا لوم [نوما] على عدم إعادة تقسيمها، إن هذه المساواة كانت القاعدة والأساس لجمهورية واحدة. اما في رومه حيث سبق توزيع الأراضي، فلم يكن ثم ما يدعو الى إعادة تقسيمها والاخلال بالاجراءات الأولى التي كان معمولاً بها على ارجح الظن.

واما بخصوص الزوجات والأولاد واحوال المجتمع فكلهما اتبع سياسة صحيحة لإزالة التنافر والخلاف منه. على أن ساليتهما كانت مختلفة. فعندما يجد الروماني أن لديه عدداً كافياً من الأولاد، وعندما يرجوه جاره الذي لا ولد له أن يسلفه زوجة، فليس هناك ما يمنعه شرعاً تسليفها لمن يرغب فيها لفترة مؤقتة أو بصورة دائمة. في حين يجد الزوج اللقيديوني، قد يسمح لأي رجل آخر بزوجه، اذا رغب في انجاب اولاد منها، ولكنه يبقئها في منزله، وتظل الرابطة الزوجية الأولى وواجباتها كما كانت.

لا بل رأينا كثيراً من الأزواج، يدعون رجالاً الى بيوتهم لمضاجعة نساءهم، حتى ينسلن لهم أولاداً جميلي الخلقة حسني التركيب. اذن ما الفرق بين العادتين؟ أنقول أن نظام اللقيديونين هو نظام لا يهتم قط بالنساء، وانه يسبب لأغلبية الناس ازعاجاً وقلقاً لا نهاية له، تراقفسه الهواجس والأحقاد؟ وان نظام الرومان الذي يحوطه مظهر أكثر رقة وسماحة، يرخي حجاباً على هذا التغير ويجعله أشبه بعقد زواج جديد ويتغاضى عن وضع عام اجتماعي لا يمكن احتماله؟ كذلك كانت انظمة [نوما] حول العناية بالفتيات أكثر مناسبة لهن ولجنس الأنثوي، في حين كانت انظمة ليكورغوس غير انثوية وصارمة فسحتا مجالاً كبيراً لتندر الشعراء عليهما [ومنهم مثلاً بيبكوس Ibycus]^(٢) إذ أطلقوا عليها «فينوميريس Phae-nomirides» اي الفخذ العاري وعملوا كيوربيديس^(٣) على إثارة نار الغيرة في أزواجهن.

(٢) شاعر غنائي في ريبيريوم.

(٣) اندروماخة.

هؤلاء، اللاتي كن مع الشبان في راحة النهار، يخرجن من الدار وافخاذهن مكشوفة، وارديتهن تتطابر لتظهر عريهن.

ذلك لأن الغلاطل التي ترتديها الفتيات العازبات مشقوقة الجانبين من الأسفل بحيث تنكشف عن افخاذهن العذرية أثناء سيرهن. وقد وصف سوفوكلس^(٤) ذلك وضعاً دقيقاً بقوله: « تلك [هرميون Hermione] الفتاة الصبية أيضاً بغلالتها التي ليس فوقها رداء، ننحس الى الخلف وتترك فخذا العاري حرّاً مكشوفاً»

ولهذا قيل ان نساءهن المسترجلات الجريئات مصدر ضيق لأزواجهن بالدرجة الأولى. سيدات مطلقات الأمر في بيوتهن، يدين بأرائهن في الشؤون العامة بحرية تامة، ويتكلمن علناً دون قيد في أهم المواضيع. إلا أن الأمهات وريات البيوت في عهد نوما، كن محترمات، وموضع اجلال أزواجهن، وهو من آثار ذلك التكريم الذي نلفه في أيام رومولوس بمثابة تعويض عن اختطافهن عنوة^(٥) ومع ذلك فإن الحشمة الكبيرة تسود حياتهن. وهن ممنوعات من التدخل في الشؤون الخارجة عن طبيعتهن، والوقار مفروض عليهن والصمت عادة فيهن. لا يقرن الخمر مطلقاً ولا يتكلمن إلا بمحضر من أزواجهن حتى في أبسط الأمور. بحيث أنه عندما سمع لامرأة مرةً بعرض قضيتها في ساحة القضاء، قيل ان مجلس الشيوخ ارسل يستفسر من العرافة، بماذا تنذر هذه الحادثة الخارقة^(٦)؟! والواقع أن سلوكهن العام الصالح وخضوعهن، وطاعتهم، يبرهن عليه بحق إشتهار عددٍ منهم بسوء الطبع والسلوك.

وكما يدون المؤرخون الأغريق في حولياتهم أسماء أولئك من امتشق السيف في الحروب الأهلية، أو قتل أخيه أو أباه أو أمه، فكذلك الكتاب الرومان يذكرون أن [سيوريوس كارثيلوس] كان أول من طلق امرأته، بوصفها حادثة لم يقع مثلهما خلال مائتين وثلاثين عاماً أي منذ بناء المدينة. وان من تدعى [تاليسا Thalea] امرأة [پنيساريوس Pinarius]،

(٤) القصيدة ٧٨٨.

(٥) فرض (رومولوس) عقوبة الموت على الزانية أو الشاربة خمرأ. لأن الزنا - على حدّ قوله - يفتح باباً لكل انواع الجرائم. والخمر تفتح باباً للزنا، وجاء في المأثر [ان اغناطيوس ميجينيوس] قتل زوجه بيده لأنها عاقرت الخمر فبرأه مجلس الشيوخ [بلييني المرجع السالف ١٢:١٤] وهناك حادثة أخرى أفضح فقد حكم على امرأة سرقت مفاتيح مخزن بأن تُرجم فقام اقرباؤها برجمها حتى قضت نحبها لقد خفت حدة هذا القانون بتعاقب الاجيال فأصبح عقاب المرأة التي تصرعها الخمره هو حرمانها من البائنة.

(٦) ما بدأ في ذلك الزمن غربياً، اصبح فيما بعد عادياً. حتى ان كل امرأة مزعجة عن هذا الطراز تلقى (بـ) (افرانيا) نسبة الى زوج أحد أعضاء مجلس الشيوخ التي أشغلت ساحات القضاء بمراجعاتها. وثم (هورتسيا) الفصيحة بنت الحطيط المصنع (هورتسيوس) فقد تكلمت بالنجاح مراعتها في «الدفاع عن النساء عندما فرض عليهن ثلاثي الحكام» غرامة، فقد ووفقت بحفضها الى حدّ كبير [٨ و ٣ و ٤].

اختصمت مع حمايتها (جيفانيا) في عهد (تاركوينيوس سوبربوس Tarquinius Superbus) بوصفها أول حادثة من نوعها.

وتنسق تشريعاتهما وانظمتها بخصوص زواج البنات، مع تلك التي شرعت لتثقيفهن. ولم يسمح ليكورغوس بزواجهن إلا بعد ببلغن النضوج التام ويتوفر لديهن الميل. فالوصال الجنسي، عندما يكون متفقاً مع قوانين الطبيعة، يولد الحب والحنان عوضاً عن الكراهية والخوف الذي يرافق الوصال غير الطبيعي. ذلك هو رأي ليكورغوس كذلك تكون اجسامهن أكثر استعداداً لتحمل متاعب الحمل وتربية الأولاد وهو في رأيه هدف الزواج وغايته.

أما الرومان فيزوجون بناتهن قبل بلوغهن العشرين أو في السنوات الأولى بعدها. معتقدين ان اجسامهن وعقولهن معاً ستصل أزواجهن المقبلين وهي طاهرة لا تشوبها نجاسة. وتبدو وجهة نظر ليكورغوس من ناحية الولادة أصح وأقرب الى الطبيعة. أما نوما فيرى أن الحياة الزوجية المتواصلة أقرب الى الأخلاق^(٧). على أن القواعد التي وضعها ليكورغوس للعناية بالاولاد والاشراف على تربيتهم وجمعهم في زمر ووضعهم تحت طائلة النظام وال ضبط، كذلك تنظيمه الدقيق لوجبات طعامهم ورياضاتهم، كل ذلك يُظهر [نوما] مشرعاً عادياً. فقد ترك الأمر كله لرأي الأبوين ورغباتهما وحاجاتهما. فيامكان الأب لو شاء أن يجعل ابنه مزارعاً أو نجاراً أو صقاراً أو موسيقياً. حتى لكأن تدريبهم وتربيتهم منذ نعومة اظفارهم لغاية عامة مشتركة أمرٌ لا يستحق الاهتمام، فيكونون اشبه بمسافرين جمعتهم سفينة واحدة، ركبها كل واحد منهم يحض اختياره ولغرض خاص به لا وحدة عمل تجمعهم في سبيل المصلحة العامة إلا عندما يدق ناقوس الخطر، وفي حالات مخاوفهم الخاصة تراهم عموماً لا يعملون إلا وفق ما تليه مصالحهم الخاصة.

ولا مندوحة لنا الا أن نلوم المشترعين العاديين الذين قد تعوزهم المعرفة ويفتقرون الى السلطان، ولكن عندما يتسلم رجل حكيم كنوما، مقاليد السلطة المطلقة على شعب طيع. أفهناك شيء يستحق اهتمامه أكثر من موضوع تثقيف الشئ الجديد، وتدريب الشباب. ليس خلافاً لطبيعتهم، أو ضدّ أمزجتهم بل وفق أعلى نموذج عام للفضائل ومبادئ الاخلاق مما يجب أن ينشأوا عليه منذ أظفارهم؟ وبين الفوائد الكثيرة التي جناها ليكورغوس من خط سيره هذا هو الثبات الذي ضمن بقاء قوانينه. ولم يكن للأثيان التي حلفها السبارطيون بان يقيموا

(٧) يفضل ارسطو [السياسة ١٦:٧] المبادئ السبارطية باعتبارها ذات فائدة عظيمة بثأرها ومردودها على الانسان. وكان النظام الروماني في رأيه أقرب الى تحقيق الغاية المرجوة - ويقضي بتأخير الوصال الجنسي الى أن تنفذ الأشياء أكثر تفهماً لواجباته وأهمية معامل نضوجها وتقديمها في السن.

عليها، من أثر كبير لو لم تثبت في نفوس وأخلاق الصغار بالتدريب والثقافة، ولو لم يشرب حياتهم كلها بحب الحكومة التي أقامها. وكانت النتيجة أن الأصول والأسس التي بنى عليها تشريعاته ظلت سارية أكثر من خمسمائة سنة. بقيت مثل صبغة عميقة ثابتة جداً، تسود كتلة الشعب بأسره. في حين كان كل خطة نوما وهدفه استمرار السلم وحسن النية، وقد زال كل أثر لهذا بعد وفاته. إذ ما ان قبض ولفظ آخر انفاسه حتى انفتح بابا معبد [ياوس] على مصاريعهما. واندفعت ريح الحرب، كأنما كانت حبيسة محصورة داخل هذه الجدران تحتاج إيطاليا وغلاً أرضها بالدماء والضحايا^(٨). وهكذا لا يكتب البقاء الطويل لاسمى الأعمال وأنبليها، لأنها تحتاج الى ذلك الجُص الذي يبقى اجزاءها ملتحمة وبنائها ثابتاً، وأعني به التهذيب والتثقيف. ولعل قائل يقول: ماذا اذن؟ ألم تتقدم رومه، وتزداد عظمتها بالحروب التي خاضتها؟ انه السؤال يتطلب اجابة طويلة، اذا قصدنا به ارضاء أولئك الناس الذين يرون «الحال الأفضل» في الغنى والترف والتملك. لا في الاستقرار والدعة والاستقلال. وهي جميعاً مظاهر لروح العدل. وعلى اية حال، فمما يرفع قدر ليكورغوس، ان الرومان بعد نبذهم أنظمة نوما وسياسته نمت امبراطوريتهم وتعاطت قوتهم كثيراً بينما خمل شأن اللقيديمونيين حالما ابتعدوا عن أنظمة ليكورغوس وهبطوا من أوج عظمتهم الى المحضيص. وبعد أن انحسر نفوذهم عن سائر بلاد الأغريق، تعرضوا هم أنفسهم لخطر الزوال التام على انك في الوقت نفسه لا يسمعك إلا ان تجد الظروف التي جاءت بنوما علامة غريبة جداً، تكاد تكون آلهية المصدر. فهو أجنبي، أقنع بالمجيء، مكروهاً ويقبول مملكة قام هو بنفسه بتغيير جهازها تغييراً تاماً، وكان سبيله الى هذا الإقناع فحسب. حكم مدينة لم تكن في حينه قد غدت مدينة موحدة، ولم يلجأ الى السلاح أو أي عمل من أعمال العنف.

(في حين استخدم ليكورغوس قوة المواطنين النبلاء، ضدّ معارضة العامة) وانما بمجرد قوى الحكمة والعدالة، فيها وحدها تمكن من تحقيق الوحدة واحلال التفاهم بين الجميع.

(٨) يقصد حروبهم مع الفيدناتي والالبان واللاتين.

معلومات عن
بعض الآثار التاريخية والمباني الشهيرة
التي ورد ذكرها في الكتاب

١ - الاكروبوليس [البارثنون]

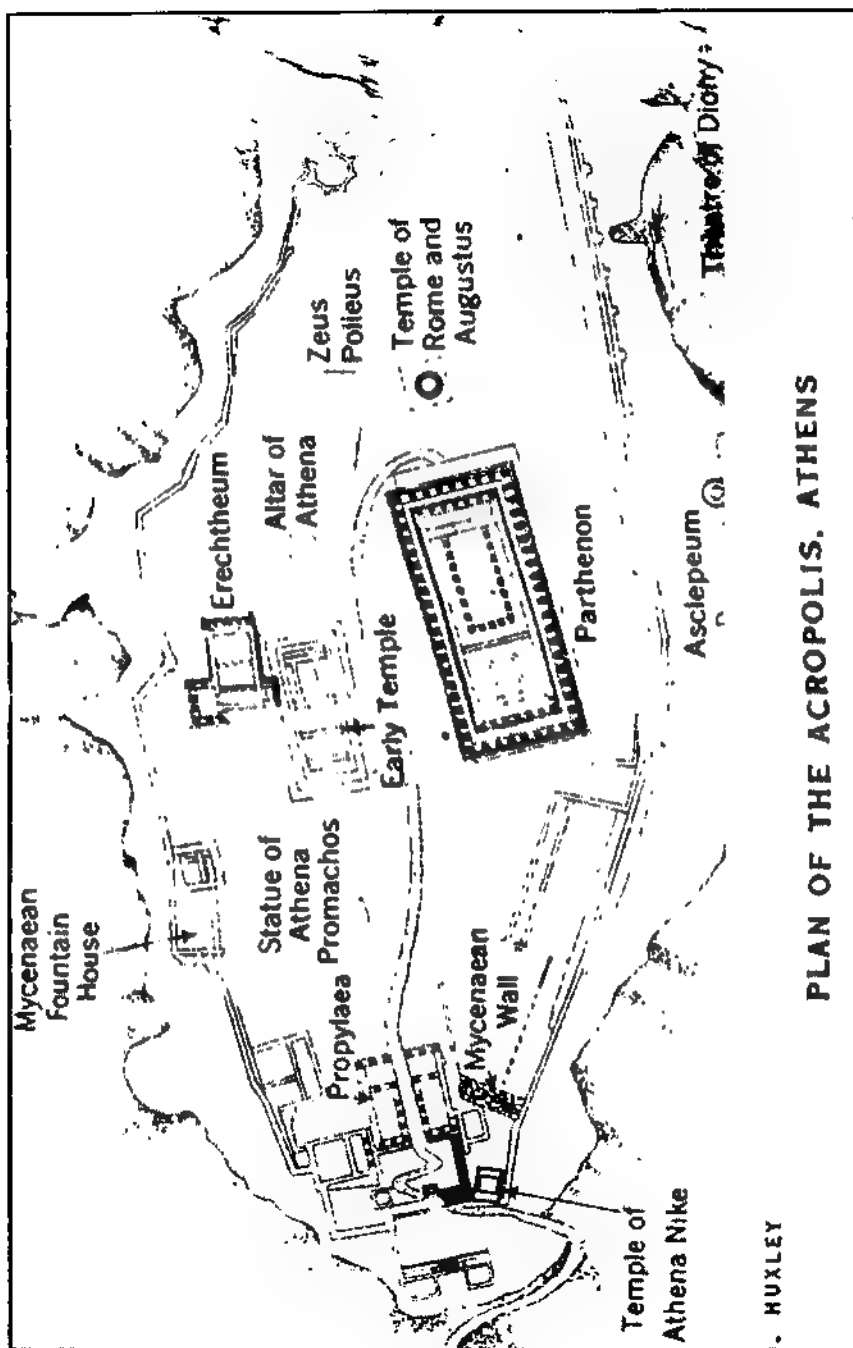
ومعنى الكلمة باليونانية (الأرض المرتفعة) وعرف باكروبوليس أثينا لوجود تمثال أثينا ومعدها البارثنون فيه ويقع وسط مدينة أثينا تقريباً على ارتفاع 150 قدماً تقريباً وبطول 1150 قدماً وعرض 500. ويطلق الاسم عادة على القلاع التي تبنى على نشز من الأرض ليتجمع حولها أماكن سكنى ولتعدو بمثابة قلعة حامية Citidal وكانت مسيجة وفيها اعتاد ملوك أثينا بناء قصورهم وهاكل أثينا التي تعرف باسم هيكاتومبيدون.

حينما نتحدث عن الاكروبوليس Acropolis يرد الى ذهننا في الحال الأثر الوحيد الباقي قائماً أو بالأحرى قشرته أو ما بقي من قشرته. وهو هيكل أثينا المعروف بالبارثنون وهي عند الرومان الآلهة منبرفاً وكلمة اكروبوليس كلمة عامة يكرر إطلاقها على أي موقع محصن وان كان خارج بلاد اليونان.

محصنات الاكروبوليس في أثينا هدمها الفرس اثنا احتلالهم المدينة وسواها بالأرض اسوارها وهي كلها. إلا أن (كيمون) الذي سترد سيرته في واحد من الأجزاء التالية قام بتجديد معظم للسور المحيط به بعد معركة (يوريميدون) في العام 468 ق.م.

بحسبنا من الاكروبوليس الذي كان في عهود طويلة مقرأاً لحكام أثينا وحكوماتها. نيابة البارثنون وهي أهم آثار الاكروبوليس على الإطلاق. كما بدت في الرسم التخطيطي للاكروبوليس المنقول عن دائرة المعارف البريطانية (مادة أثينا).

ابنية قليلة في العالم استخدمت امكنة عبادة لديانات مختلفة. والبارثنون نقشته المحطمة والمشوهة ما زالت تأخذ باللب. صم بناء (اكتينوس Actinus) على هيئة مستطيل كما يرى في الصورة عرضه 101.34 قدماً وطوله 224.14 قدماً. بدأ معبداً للالهة أثينا ونحوها الى كنيسة للعذراء مريم وانتهى بصيرورته مسجداً لنبي الله محمد. والسياح اليوم ومنذ هازت اليونان استقلالها في مطلع القرن التاسع عشر يصعدون الاكروبوليس ليتجولوا في ارجاء المعبد



ويقفوا تحت اساطينه القائمة ليلتقطوا تصاورهم. بوصفه اروع ما أنجزه الاعريق او ربما اي نحات آخر ان الدقة الحسابية وجمال التصميم التحما معاً ليخرجا منحوتة تنبص بالحياة، كأنها نحتت من قطعة رخامية واحدة هائلة الجرم بل حتى الرخام فيه يغير من الوانه بتغيير الصبء الواقع عليه. حتى الآن ورغم الخراب العظيم الذي نزل به فانه يمثل الميزات الرفيعة للطبع اليوناني وذوقه الغريزي كما عبر عنه منشئه الحاكم (بيركليس) بقوله «نحن نحب الجميل وان كان ساذجاً بسيطاً في ذوقنا. ونحن نهذب العقل دون خسارة الرجولة». كان ذلك في حدود 450 ق.م عندما شرع في بناء المباني الجميلة في هذه المدينة التي قُحِدت قوة الفرس وتسلمت قيادة العالم الاغريقي وكان البارثون ابرز تلك الابنية على الاطلاق اقيم في موضع هيكلا قديم للآلهة عينها. طبق المهندس والنحات العظيم فيدياس Pheidias، تصميم اكنيونس وجرى العمل وفق تصاميمه بتعاون عدد كبير من المتعهدين المحليين على أساس القطعة. ومن ضمنها الاعمال المتعلقة بالمنحوتات والأشكال. كل طاقم من النحاتين يعمل لنفسه والقطعة النحوتة (قنال وما اشبه) سُقِرت بستين دراخما.

انتهى بناء البارثون في 432 ق.م. باستثناء السقف الخشبي بقي البارثون في الاكروليس (يحيى) أثينا تسعة قرون سيما خلال حرب البيلوبونيس بعد الانتهاء من تحصين الاكروليس لعام واحد 431 ق.م وبقي البارثون قائماً شامخاً رغم الخراب الذي أحدثته هي وما تلاها من الحروب ورغم اضمحلال مركز المدينة حوطفت قدسية الاكروليس لوجود البارثون فيه عند نشوب الجرب بين المقدونيين والاغريق. وقد قام الاسكندر نفسه بتزيين واجهته.

واهمل الاكروليس في احيان عديدة واعتدى عليه بالسرقات خلفاً الاسكندر المتنازعين فيما بينهم، وعومل الاكروليس باحترام عندما ضمت اليونان الى الامبراطورية الرومانية الا ان احفاد (بركليس) غرتهم معاملة الرومان واتفقوا على حلف عسكري ضد روما مع الملك الارمني ميثيريدات وفي 88 ق.م فحاصر جنود (سيللا) المدينة واقتحمها وأطلق عسكره يقتل وينهب ويسلب.

والظاهر من وصف پاونسياس في القرن الثاني الميلادي ان معظم ابنية الاكروليس وأظهرها البارثون - سلمت وكانت قائمة مثلما بنيت قبل ستمائة عام.

في العام 330 م أعلن الامبراطور قسطنطين المسيحية ديناً رسمياً. وفي العام 400 ميلادية أنقلب البارثون من هيكل لأثينا الى كنيسة مسيحية للعدراء مريم (ثيودوكس) وكمل تحويل داخلها (المذبح) الى هيكل تقام فيه المراسم الدينية المسيحية مكرسة على الطقوس الارثوذكسي. وازدانت الحيطان من الداخل بصور القديسين حتى السقوف بفن التكفيت

الرخامي (الفرسكو). وفي 1204 أفتحت الكريوليس غوغاء الصليبيين في الحرب الصليبية الرابعة. بعد استيلائهم على القسطنطينية واقتسم الامراء والفرسان الطليان والفرنسيون الاقاليم اليونانية بينهم وكلهم عدو متحمس لمذهب الارثوذكسي. هؤلاء الرعايا لم يكونوا على اطلاع بمجد اثينا وقديسة الاكريوليس كانوا ويعتبرون الارثوذكسية مجرد زندقة يجب انه تحارب بجميع الوسائل. فنهبوا كل ما هو ثمين في البارثونون واذابوا الأوعية المقدسة واتفقوا مكتبة الاسقفية. وأصبحت اثينا من حصنة نبيل بورغندي. وسمي الاكريوليس باسم جديد بلغة مالكة وباسمه Château de Sathines وجعل مقراً للحاكم العسكري الفرانكي. وسيم لكاتدرائية العذراء (البارثونون) بطريك فرنسي وصادق البابا انوسنت الثالث على هذه التغييرات.

في العام 1453 دخل محمد الثاني الفاتح القسطنطينية ودانت له اثينا التي دخلها دخول الظافر، حامداً الله لأنه «رأي في حياته أم الفلاسفة» وبقي أربعة ايام يرتاد مواقعها الأثرية والتاريخية، وقال عنها «انها أعز عليه من كل مدن مملكته، وأعاد الاعتبار الى كهنة الارثوذكس والغنى الطقوس اللاتينية التي عاشت فيها حوالي قرنين ونصف قرن. الا انه كان استثناء عن سائر السلاطين الدين عقبوه، اذ ما جاءت نهاية القرن الخامس عشر حتى تحول البارثونون الى مسجد وانتهى دور كنيسة العذراء مريم، فالأغا التركي (القائد) لحماية المدينة اتخذ مسكنه في الاكريوليس وفي ملحقات الكنيسة بالضبط وقسمها الى دار حكومة ودار حريم وغاب الاكريوليس في ثنايا التاريخ حتى القرن السابع عشر حيث أخذ الفضول السياح فوجها اهتمامهم اليه وتعاقبت الارساليات الدينية الجزويتية (في 1645، وفي 1772) وكتبت تقارير عن الزيارات وقبل انه يلحق الخراب التام بالاكريوليس ذكر ان السفير الفرنسي في تركيا المركيزدي تواتيل قصده بصحبة رسام فلمنكي وعمل مخططاً له، وعقبه جورج ويلر البحاث الكلاسيكي الانكليزي بصحبة رسام فرنسي بدراسة كل ما على قمة الاكريوليس مستخدمين وصف پارسنياس.

في العام ١٦٨٧ هاجم البنادقة بقيادة فرانسسكو موروسيني الحامية التركية في الاكريوليس بعد اجتياحهم معظم بلاد اليونان فتحصن الاتراك فيه واختزنوا بارودهم في البارثونون. وفي ٢٦ من ايلول ١٦٨٧ اسقط المهاجمون قنطرة وسط البارثونون فانفجر الباورد وأحدث تخريباً هائلاً منها سقطت الجناح الغربي بكامله، وتشويه اوجه الكثير من التماثيل لم يكن هناك اي أمل باصلاح الخراب الذي احدثه هذا القصف لاسيما بالتماثيل ولم يكتف (موروسيني) بهذا التخريب بل حاول قلع تماثيل بوسيدون وخبول مركبة آثينا من المدخل

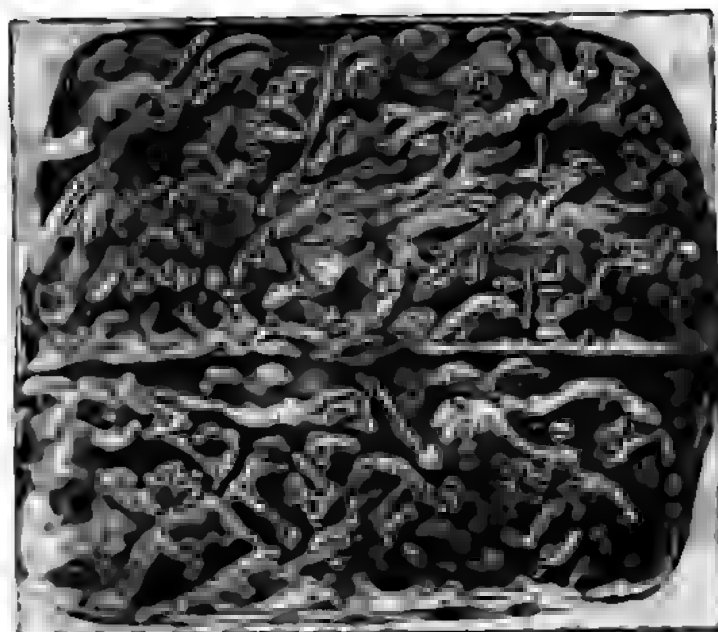
الغربي فسقط الجميع على الأرض وأصبحوا عظاماً لا يسوى نقلها الى مدينته شيئاً إلا أنه ارضاءً لرغبته هذه قام بنقل اربعة أسود من الرخام ما زالت تزين قبة قصر الارسنال في البندقية.

وفي العام 1801 استحصل اللورد آلجين سفير بريطانيا في استانبول رخصة من الترك تخوله حيازة ونقل اي قطعة رخامية من الاكربوليس عليها كتابات ونقوش ومن ضمنها التماثيل. وترجمت هذه الاجازة على نحو واسع وبسخاءٍ عظيم واستخدم لورد آلجين مئات العمال لنقل ما بقي من تماثيل البارثنون. وقد قدر عددها صدقاً أو كذباً بثمانين قطعة حملت كلها الى بريطانيا ، وهناك قام المتحف البريطاني بشرائها بمبلغ 35 ألف باون. ثارت المخاطر على ما فعله لورد آلجين، وهجاءه والشاعر البريطاني المفلق لورد بايرون ولقبه بالسارق.

منذ حيازة اليونان استقلالها في 1827 واعلاتها أثينا في 1834 عاصمة لها وهي تطالب كل جهة من الجهات التي نهبت الاكربوليس والبانثيون باعادة ما سلبته من تماثيل وقطع أثرية. كما بدت باصلاح ما أمكن اصلاحه من هذا الأثر العظيم وهدم المسجد ورفعت البنايات التي اقامها الترك كما أعيد نصب الاساطين المتهافتة وترميم ما بقي من سور الاكربوليس الى غير ذلك من اصلاحات ما أمكن.



نقش من تيمر ابراهيم يظهر قسرة مسكونة حول صط الحيم في مخصصه فرقة وشمس



حجر كريم من
عهد اشمس
يشاهد الجنود
الرومان (يساراً)
الى الأسفل)
يراهون نصبا
تذكاريًا يحضر
من الامبراطور
الجمهورية
مكتسبات

٢ - دلفي

هيكل استخارة

يقع في اقليم (فيوكيس) بالقرب من قرية عرفت أيضاً باسم دلفي وعلى مجنبه من جبل پارناسوس القريب من أثينا.

كانت تعتبر دلفي عند اليونان مركز الأرض ويرتبط اعتبارها كذلك من أسطورة نقول ان رئيس الالهة (زفس) أطلق نسرين اثنين، واحد من جهة الغرب وأخرى جهة الشرق على أن يكون اتجاهاهما نحو المركز فالتقيا في دلفي.

وقد أبدت التنقيبات التي جرت موقعياً ان الموضع كان مسكوناً منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد. على ان التاريخ الحقيقي لدلفي بدأ في القرن السادس ق.م. اذ اصبحت مركز العرافة بالمستقبل بعد التحاقها بالعصبة الامفياكتونية واهم مراكز الكشف عن حجب المستقبل والنهي أو السماح بمباشرة هذا العمل او ذاك بوساطة الكاهنات أو العرافات اللاتي يلازمه. ولم تكن (دلفي) تستشار في أمور الدولة وحدها بل في شؤون المرء الخاصة وكثيراً ما كان لنتائج عرافتها القول الفصل في السياسة وميادين النشاط الوطني.

في دلفي كان يوجد شق في الأرض ينطلق منه غاز يؤثر في الأعصاب ويترك المستنشق في حالة من اللهذيان وتقريه من الغيبوبة. وأفترض في هذا الغاز انه انفاس الاله ابوللو.

وعند الاستخارة كان ثم كاهنة تجلس على كرسي ثلاثي الارجل موضوعة فوق الشق لتستنشق الغاز. فشروح في شبه غيبوبة يخرجها عن وعيها لكنه لا يمنعها من الكلام. وعندما يقوم القادم بسؤالها وانتظار الجواب فانها تنطق بأقوال مبهمه قد لا ترتبط بعلة القدوم اليها وتعتسر الاستخارة فاشلة اي ان الاله لا يريد ان يقطع في القضية وانما يترك التصرف بها لاصحابها أو أنها تتقول باشياء مبهمه وعندها يقوم كاهن باخبار الزائرين بما قالت.

سيرى القاري، فيما بعد أن القادمين يقصدون دلفي من أماكن بعيدة بهدفها وتقديمات
نفسه استرضاء للموافقة الإلهية على ما يخططون وينتوون أو النصيح بالابتعاد عن عمل ما
ينتوون أو معرفة ما يجب عليهم عمله أو ما سيحدث وهم مطلقاً يعتقدون بما تشير عليهم
النبوة وفي العادة يكون الجواب أشبه باللفز يفهم بأشكال مختلفة ويفسر بمعانٍ عديدة، وعلى
سبيل مثال: ملك يريد شنّ حربٍ على ملك آخر، ما هي النتيجة؟ من سيكون الرابع؟ وتأتي
الاجابة المحيرة من فم الكاهنة: «ستسقط مملكة عظيمة!». وهنا يترتب على المستخير أن
يقطع أي مملكة ستسقط أمملكته أم مملكة خصمه؟

فقدت دلفي قيمتها وشهرتها بمجيء المسيحية ولم يعد لها قيمة بعد انقراض الوثنية.
وبدأت (المدرسة الفرنسية) الأركيولوجية عملية التنقيب في الموقع في 1892. ومن نتائج ما
توصلت اليه أكتشافها هيكل أبوللو والمذبح الذي خصص لأهالي (جنوس) وهما في أسفل
الاستاديوم والمسرح وآثارهما باقية.

٣- الفورم Forum

بالاصل ساحة مفتوحة (ميدان) تجدها في سائر المدن الرومانية تستخدم كأماكن لقاء أو كالاغورا اليونانية اي سوقاً عاماً للتبادل التجاري. أو لتصرف الشؤون السياسية أو المقاضاة أو مجلس قضاة ويكون مستوى السطح متساوياً وبهيئة مستطيل عادة ويحاط بأعمدة أو بهياكل عبادة صغيرة (باسيليكا) أو معابد أو بنايات المحاكم أو ما سواها من ابنية تشيد للاغراض العامة. وفي قوانين الالواح الاثني عشر استخدمت الكلمة بوصفها مدخلاً للقبور. وفي المعسكر الروماني يكون الفورم فضاءً لا تحيط به بنايات أو اسيجة يقام الى جانب مقر قيادة الجيش (الپريتوريوم).

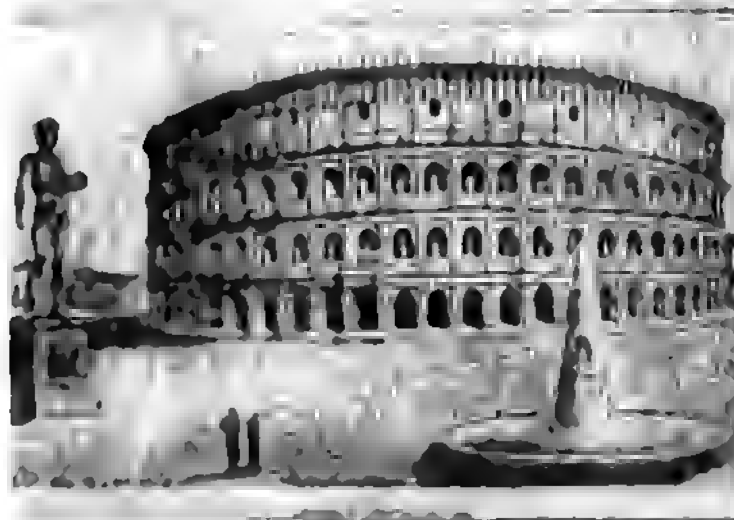
عمرماً يراد من الكلمة اللاتينية الساحة المفتوحة أمام باب بناية أو مخرجها. وفي روما أشارت الكلمة الى ساحة من الأرض كانت مستنقعاً جُفف - تقع بين تليّ الكاپيتولين والپالاتين. ويعرف للموقع أيضاً به (فورم رومانوم Forum Romanum). وقد خصص في العهد الملكي للاجتماعات العامة (الشعبية) عندما كان يتعذر الاجتماع من ميدان الكاپيتولينا Area Capitolina. وقبلها كان الفورم في روما يستخدم لألعاب المصارعة وغيرها. وقد بنيت فوق الأعمدة المحيطة به مقصورات للمتفرجين.

وبانساع رقعة المدينة أقيم أكثر من فورم واحد، ويختص كلٌ منها بناحية حياتية، فاستحدث فورم قضائي تهرى فيه مرافعات التقاضين ويجلس قاضٍ فيها للفصل في الدعاوى ويترافع امامه المدعون أو وكلاؤهم.

واستخدم فورم خصيصاً لبيع الخضراوات، وفورم قاصر على بيع وشراء الماشية. وفي أواخر أيام الجمهورية وأوائل العهد الامبراطوري استحدث عدد من الميادين (الفورم) مثل فورم (پومپي) وفورم (تراجان) وفورم (فبساسيان) وقد خلف هؤلاء وغيرهم آثاراً لهم فيها. في العادة يكون الفورم ذا سطح مستوٍ مرصوف وفي الأعياد العامة والاجتماعات

السياسة كان يسمح للعربات بالدخول وهو مفعول من جميع جانب ولا أبواب مطمئنة هي أي جزء منه والدخول والخروج لا يعوقه عائق.

هذا ما نأمله من معبد اصبحت يوصفها التي ارجع عنها اراءه بركان فيروني فضلا عن معجزة اخرى للعبود هي صغر عتده وظهرها الصعود يوما الذي ترى صورته الحالية او عبارة اخرى انفاضة التي جانب معجزة له عظمى صورة واصبحت لشكله الاول ومجرباته



٤- نظام الحكم الآثيني

(دولة المدينة Polis)

على ضوء اصلاحات صولون

الديمقراطية السياسية في نظام الحكم الآثيني وصلت الى أقصى نهاية منطقية لها . بطبيعة الحال هناك من ينكر على آثينا ديمقراطية نظامها لأن جميع النساء والعبيد والغريباء المقيمين فيها محرمون من حق التصويت، ولا يحق لهم في المداخلة وإدارة شؤون الدولة، فآثينا ليست والحالة هذه ديمقراطية إذا عرفنا الديمقراطية بأنها نظام يقضي بمشاركة جميع البالغين من السكان وأنه لا يمكن ادراج نظامها ضمن أي نوع من أنواع ديمقراطيات عصرنا هذا، باعتبار الحجم والسعة وعدد السكان حيث كان من الواجب على كل دولة حديثة اناطة الحكم بممثلين وإداريين محترمين فدولة المدينة كآثينا مثلاً قد يكون بحسابنا هذا مشكلاً من أشكال الانظمة الاوليفارشية^(١)، اما إذا عرفنا نظامها بأنه مشاركة جميع المواطنين في الحكم فبالامكان اعتبار آثينا دولة ديمقراطية. علينا أيضاً ان نتذكر بان من شروط المواطنة الاغريقية ان يكون الشخص مولوداً لأبوين أغريقيين أو أب على الأقل. والدولة الاغريقية هي نظرياً أو شعورياً بالنظر الى هذا، مجموعة من الاقرباء أو مجرد أهالي منطقة أو حي معين .

على ان التحديد الدقيق للديمقراطية بالنسبة الى ما نرى اليه حالياً ليس مهماً^(٢). لأن

(١) Oligarchy اللفظ التقليدي المستخدم ليعت حكم القلة أو الصفوة المختارة عندما لا ينظر الحاكم بعين الرضا. استخدمه ارسطو لتعريف حكم الأقلية عندما لا يمارسه أفضل الاشخاص بل أظلمهم واسوأهم.

(٢) لما كان معنى كلمة ديمقراطية ينطوي على أهمية فيوسعنا أن نشرح المقصود بها في الاستعمال اليوناني، في الاحاديث العادية كلمة Demokratia تعني حرفياً «السيطرة بواسطة الشعب» أي الديمقراطية السياسية كما جئنا الى وصفها في المتن، إلا أن النظريين السياسيين لاسيما افلاطون وارسطو استخدموها لتعني «حكومة من الفقراء» وعلى هذا الاساس فقد ادانوها باعتبارها نظاماً أو شكلاً معكوساً من أشكال الاوليكارشية أو الديكتاتورية. أو حكم الطغيان. أي حكومة هدفها النفع الخاص وكلمة Polity والشبيء بالشبيء يذكر هي الاسم الذي لقيت به حكومة اتفق عليها الجميع دون أن تختص ببطقة.

اهتمامنا ينصبّ في كيفية عمل الاجهزة السياسية في اثينا وما هو مقدار تأثيرها وعملها في الحياة، وفي عقول الاثينيين.

الجمعية العامة هي الرأس، وهي السلطة العليا. وقد جاهد الاثينيون بكل طاقاتهم للابقاء على هيمنتها وعلى سلطاتها وان رمزياً (على الورق). ولم يكن هناك أية قابلية في اثينا لجهاز أو ماكنة ادارية تتولى زمام الحكم ذات فائدة بحجم صغير. وتتألف الجمعية العامة من كل ذكر بالغ، قبله مجلس الديمي Deme (مجلس المنطقة) وأفتى بانه مؤهل وحائز الشروط المطلوبة شرعاً وأنه لم يحرم شرعاً من حق التصويت بسبب ارتكابه جرماً خطيراً. والغى شرط الملكية والقدرة الملكية وأكتفى بشرط أوجب على الاثيني أثناء قيام حرب، أن يزود نفسه بشبكة سلاحه وجميع المعدات التي تؤهله للانخراط في الجيش وان يكون قادراً مالياً على تأمين حصانه والانفاق على علفه ان كان من صنف الخيالة.

على أن الحكومة Polis مكلفة من طرف آخر بالاتفاق على مأكله عندما يكون في سلك الخدمة الفعلية. اما المواطنون ذوو الامكانيات المالية الجيدة فهم يخدمون في صنف المشاة الثقيلة (الهوبليتيس Hoplite) وهم يجهزون انفسهم بالسلاح. اما الفقراء الذين لا يملكون ما ينفقون به على سلاحهم فهم يبقون في الاحتياط أو يستخدمون جذافين في الاسطول. ويخدم في الجيش الغريباء كالمواطنين سواء بسواء. ولا يستخدم العبيد لا في الجيش ولا في الاسطول الا عند الضرورة القصوى، عندما يحدق بالوطن أعظم الخطر وعندها يدعى العبيد للتطوع مع وعسدر أو تعهد حكومي يوفى به دوماً بالعشق وحق المواطنة المدني الكامل Civil بدون حق المساهمة في العمل السياسي Politicia.

الجمعية العامة هي جلسة عامة علنية يحضرها كل المواطنين الذكور الذين لهم حق التصويت وهي السلطة التشريعية الوحيدة ولها سلطة الهيمنة بطرق ووسائل مختلفة في الاشراف على الادارة والقضاء.

في الإدارة: لم يعد للارويباغوس القديم المؤلف من الاراخنة السابقين ما يعمل في الأزملة المتأخرة، غير الفصل في قضايا القتل. كان الاراخنة (ج: ارخون) في زمن ما ذوي سلطة واسعة. تختارهم الجمعية العامة سنوياً بطريق الاقتراع العلني. ان مواطن في اي عمر يمكن ان يرشح نفسه للكرسي واحد من الاراخنة التسعة. واناطة أمر انتخابهم بالجمعية العامة يعني بالطبع ان سلطتهم مستمدة منها وان السلطة باقية عند الجمعية. والجمعية تلتزم مرة واحدة كل شهر. الا اذا اقتضى امر طاريء عقد اجتماع غير عادي للفصل في قضية هامة.

الكلام في الاجتماع هو حق من حقوق المواطن عندما يفلح في استرعاء انتباه الاعضاء للاصغاء اليه. ولكل مواطن حاضرا الحق في اقتراح اي شيء صمم قيود دستورية احترازية مرسومة.

إن جمعية كبيرة كهذه تحتاج الى مجلس أو لجنة تسمى البولي Boule أو المجلس الذي يتألف من 500 عضو غير منتخبتين لكن يختارون بالقرعة. لكل قبيلة (عشيرة) من القبائل العشرة خمسون عضواً. هذا المجلس يختار كما رأينا بشكل اعتباطي ويضم اعضاء يختارون سنوياً وهم بطبيعة الحال ذوو مشارب مختلفة لا يؤمل منهم كثير من الشعور التعاضدي الموحد وهذا هو الغرض والهدف من الفكرة، لا شيء يهيمن على جو الجمعية العامة وتبقى حرية بوجه اي تغلب أو تأثير.

الاجهزة الادارية تملأ باعضاء من المجلس التحضيري (البولي). ولما لم يكن بالامكان عملاً أن يحضر أعضاء الخمسمائة في جلسات متواصلة، فكثرتهم تحول دون تكوين هيئة تنفيذية فعالة. لذلك يختار خمسون عضواً لتكوين مجلس الهيرتاني Prytany من القبائل العشرة. يبقى في حالة اجتماع لعشر سنة. ويختار هذا المجلس رئيسه لكل يوم بالقرعة، أي يكون رئيساً له طوال اربع وعشرين ساعة فقط ويعتبر رئيساً تشريعياً للدولة^(٣).

لوضع حدود أخرى على تصرفات الهيئات الادارية فرض علي جميع الحكام الذين انتهت فترة خدمتهم تقديم حساب عن أعمالهم الرسمية ولا تنتهي مسؤوليتهم أو تعرضهم للاتهام حتى يقدموا هذا البيان الذي يسمى اوديت Audit. ويبقون شبه محجوزين ولا يحق لهم مغادرة اثينا أو بيع أي شيء من ممتلكاتهم.

هناك دائرة واحدة لم يكن بالامكان تركها عرضة لمخاطر التصويت هي قيادة القوات البحرية أو البرية. فهذه الهيئة وتسمى ستراتيجوي Stratigoi تتألف من جنرالية أو امراء بحر عشرة ينتخبون لمدة سنة واحدة كاملة واعادة الانتخاب جائزة بل هو امر اعتيادي في الواقع. وليس بالأمر الغريب عند الاثينيين ان يتولى جندي بسيط مهمة الجنرال ويتقلد رتبته في معركة، وان تراه في معركة أخرى وقد عاد جندياً بسيطاً. تلك هي الصورة الأكثر تطرفاً في المفهوم المبدئي للديمقراطية. أي «تُحكم» (بفتح التاء) وان تُحكم (بضم التاء) بالتناوب».

(٣) اتفق ان تقلد سقراط الفيلسوف هذا المنصب يوماً واحداً عندما أشرفت حرب البلوپونيز على النهاية ودب الانقسام في الجمعية كما يحصل في بعض الأحيان. وطلبت الجمعية من دون أي علة أو مبرر قانوني اصدار وثيقة اتهم بكل مجلس الجنرالية لفشلهم في انقاذ الناجين من المعركة البحرية (اركينوساي). إلا ان سقراط تحدى الغوغاء ورفض انه يوضع الاقتراح في التصويت.

إن الجنرال أو الاستراتيجية بوصفه الموظف الوحيد الذي ينتخب بسبب مؤهلاته وقابلياته الخاصة ويتولى مثل هذا المنصب الذي لا بدانيه منصب في خطورته، نجده يمارس نفوذاً عظيماً وسلطة واسعة في شؤون المدينة^(٤).

ولا يقتصر سلطان الجمعية على أمور الاشتراع والادارة بل يتعداه الى أمور القضاء. وكما انه لا يوجد هناك اداريون محترمون. كذلك لا يوجد قضاء محترفون ولا مدعون عامون ولا محامون، والمبدء السائد هو ان المغدور أو المدعي يتقدم بشكواه رأساً الى بني جلدته من المواطنين - الى المحاكم المحلية في المسائل الشخصية أو البسيطة وإلى المحاكم الاثينية في المسائل الجسيمة كالقتل والسرقة وسائر الجرائم المدنية. وتتألف للفصل فيها هيئة محلفين Juru وهيئة قضاة هي في الواقع قسم من الجمعية العامة ويختلف حجمها بين مائة عضو وعضو واحد 101 وألف عضو وعضو واحد 1001 بالنظر الى أهمية القضية. وليس هناك قاضٍ وانما مجرد شخص يرأس الجلسة المخصصة لسماع المرافعة من بين هيئة المحلفين وهو بهذا الاعتبار يشبه ما يدعى بـ(فورمان Forman) في نظام هيئة المحلفين الاوربية الحالية. وكما قلنا ليس هناك ادعاء عام ولا محامون والطرفان مكلفان بالسير في مراحل الدعوى شخصياً وان كان بمقدور المدعي أو المتهم - كما جرت العادة ان يسمح لهما باستخدام خطيب (كاتب خطب) يعدّ للمتهم دفاعه على شكل خطبة يجب ان يلقيها هو بنفسه ولا حق له بانابة آخر الاقائتها عنه. كذلك الأمر بادعاء المدعي.

تلك هي هيئة المحلفين الشعبية وكيفية تأليفها ومدى صلاحيتها هي الفصل في الوقائع وفي تطبيق القانون وليس هناك محكمة أعلى منها وليس هناك استئناف وان لم يكن يوجد عقوبة محددة في القانون للجرائم، ولذلك فنيما ان هيئة المحلفين عن فرض اي نوع من العقوبة يكون على المدعي الذي فاز في دعواه ان يقترح أولاً العقوبة التي يريد بها ويعدها يقدم المحكوم اقتراحاً خصوصياً كبديل لاقتراح المدعي. ثم يترك الاختيار للهيئة القضائية بين الاقتراحين^(٥).

من كل ما جئنا الى شرحه. يستنتج القاري ان شؤون الدولة في ايدينا يديرها هوأً، وان

(٤) من خلال هذا المنصب ومركزه في الجمعية العامة استطاع بيركليس مثلاً أن يقود الاثينيين مدة طويلة.

(٥) هذا ما يفسر الاجراءات القضائية في محاكمة سقراط (٤٧٠-٣٩٩ ق.م) التي وردت في كتاب افلاطون (ابولوجيا. الدفاع) (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) طلب المدعون فرض عقوبة الموت. الا ان سقراط اقترح تعزيمه فحسب مبناً واحدة لانه لا يملك أكثر من هذا واصراً على ذلك فاثار موجة من السخرية والتندر. في حين لو انه اقترح النفي فقد كان يسر ذلك هيئة المحلفين وتقبل به بكل سرور.

ذوى الاحتراف لا يعطى لهم فسحة للعمل أو مجال لممارسة مهاراتهم الا الاقل منهم. القليل والواقع ان المنبهر فيهم هو عادة (عبد شعبي) وكل آثيني التبعيّة أما جندي أو بحار أو مشترع أو قاصر أو عضوا إدارة إن لم يكن (ارخوناً) وهو حتماً عضو في (البولي) وقد انتقد افلاطون وسقراط هذا النظام لا لانه غير فعال بل لأنه اودع الأمور بيد جهلة جهلاً تاماً بمزاولة (فن السياسة) لتحسين أحوال الناس.

ملحق

الجيش الروماني

النظام - التركيب - الاستحكام - العقيدة - النبوءات

الجندي الروماني أينما كان موجوداً ضمن تخوم الامبراطورية الواسعة الأرجاء، يحض ولاه وإخلاصه المباشر والمطلق للدولة وللإمبراطور وإلى آلهة روما الوطنية. ودين الجيش ينسرب بدقة وحذق إلى هذه المثل الموحدة فالجندي الروماني على هذا الأساس له أن يزعم بأنه مشارك فعال في مصائر روما ويستمد رضى النفس والراحة الفكرية من الاعتقاد بأنه إنما ينجز واجباً مقدساً عن طريق هذه المشاركة. والتقوى على هذا الأساس تعد فعلاً من الفضائل عند العسكري كالشجاعة والحذاقة في استخدام السلاح وآلات الحرب. ولذلك كان الدين عاملاً هاماً في نجاح الماكينة الحربية الرومانية عبر العصور مثلما أمن للجيش الروماني عامل التفوق في التنظيم والضبط والتسلح والتاكتيك فمئذ أوائل العهد الجمهوري وجد الرومان في الدين رابطة وثيقة بين انفسهم وبين الآلهة من اعتقادهم بأن السلطة المطلقة الرومانية تنشق من هذه الآلهة وهي التي تحميها. فالموضوع والحالة هذه وفي كل حين هو أمر في غاية من الاهمية. وليس هناك ما هو أكثر ظهوراً من المنجزات العسكرية وهي سرّ بقاء الامبراطورية ومصدر امنها.

ان الاصلاحات التي احدثتها الامبراطورية الاوغسطية (نسبة الى اغسطس قيصر) الى جانب اشاعتها النظام الميدني في التطبيق، لم تستغن عن الكثير من التقاليد العسكرية الرومانية ولم تعتمد الى خلخلة احكامها. وقد استغل اوغسطس قيصر مركزه بوصفه الفرد المنتصر في الحكم الثلاثي (راجع سيرة يوليوس قيصر). استغل مركزه هذا ليفقد المواطن القائد Princeps، والامبراطور (القائد الاعلى للجيش Imperator) معاً وهو جمع في غاية الذكاء لسلطة واحدة دون لقب أو صفة (ملك) فبوصفه برنسيپس، كان كما وصفه احد

الكتاب «الاول بين الأقران Primus inter pares». لكن ختمه كان يساند مائة واربعين سيفاً من جنود فرقه واول ما عمله من اصلاح هو انقاص عدد الفرق الرومانية (والجنود هم مواطنون رومان) فأصبح قوام الجيش الروماني حوالي ٢٨ فرقة بعد ان كان ٥٠ وملاك الفرقة خمسة آلاف ضابط وجندي مقسمة الى خمسين سرية على رأس كل أمر سرية (مستوريون) وأنيط بكل فرقة واجب محدد لانتعدهاء وألغى الجيش الاحتياطي القادر على الاخلال بتوازن السلطة. والى جانب الفرق الرومانية كان هناك قطعات عسكرية نظامية من الشعوب الأخرى التابعة، نظمت بشكل ألوية (ج لواء Cohert) تعداد الواحد منها يبلغ ألفاً من الجنود والضباط وانيط بهذه الوحدات واجبات الدوريات والمحافظة على الأمن في الحدد، ومساندة الفرق الرومانية حيثما تم حشدها في النقاط الاستراتيجية.

ويهيء الجيش له مخيماً (قلعة)، وهي قاعدة أو مقر منتظم له حين يخرج للقتال في ارض العدو، وهذه تكون بمثابة مقرات شتوية، يجري فيها النظام الصارم ويطبق تدريب متواصل وتكون الوحدات في درجة انذار قصوى على الدوام. قانون انضباط حازم شديد خضع له الجنود والضباط معاً ولم يستثن منه أحد. وعندما يكمل جنود الاحتياط هؤلاء، مدة خدمتهم بجدارة فانهم يمنحون صفة المواطن الروماني.

وكما بينا أنفاً ينسحب ولاء الجندي أيضاً الى الآلهة الرئيسة عند الشعب الروماني بالدرجة الاولى فضلاً عن ولائهم للامبراطور رئيس دولة وقائد عام للجيش معاً.

كان يفرض على العسكري قبل عهد (اغسطس) قسم بين الولاء لقادة الميدان. وهو عمل فيه من الخطر ما فيه وكثيراً ما ادى الى حرب أهلية. اما الآن فليس هناك غير قائد واحد وله تقسم اليمين وهو كبير الآلهة (جوبيتر او بتيمسوس ماكسموس) وهو الذي يتقدم الكل ويرمحه الذي يرسل الصواعق يحمي الدولة، وقواه الطاغية في التدمير مصورة على دروع ومجنات وتروس الجنود، وطيوره الجارح النسرتراه يرتفع على قطب كالرأية امام الجنود مصنوعاً من الفضة. والنزول عن هذه الراية او فقدانها يصم بالعار الاكبر حامله ويصيب الوحدة بهزيمة مخجلة لا منجى منها.

سنوياً وفي اليوم الأول من شهر كانون الثاني، يقام استعراض عسكري بكل شكة الحرب والسلاح امام كل مخيم (قلعة) يعلن فيه تجدد الولاء لجوبيتر وتوقد له نار جديدة. ويتم لهذا الغرض تمهيد ساحة بمساحة ١٠٠ ياردة مربعة لتقام عليها منصة القائد لتلقى تحية القطعات وهي قرّبه اثناء الاستعراض ويبنى فيها مذبح لجوبيتر Tribunal وقد اكتشف هذا في مواطن

عديدة اوروبية. فتكرّم الامبراطور الخادم وتاليه هما القاعد التي لا يحاد عنها في حل معسكر روماني وهناك مذبح مكرس «لروح سيدنا الامبراطور» ويبنى لمواجهة العدو، ويحتفظ فيه بالراية والاعوية الدينية التقليدية وغير ذلك من ادوات المراسيم والاشياء والغنائم الثمينة ورواتب الجنود. ودوائر الادارة وأماكن حفظ السجلات تحتلها حجرات مساعد القائد وموظفيه ومعاونيه وتدعى كورنيكيولاريس Cornicularis وأما مقر القائد المركزي فيبنى له او ينصب له خيمة أخرى ويدعى پريتوريوم Praetorium. وفيها يجتمع اليه مجلس الحرب ورؤسا الاركان والصباط للتخطيط للحملة او المعركة المقبلة اذ كان يجب على القائد اضافة الى استشارة ضباطه والاستماع الى رأيه، ان تجري عملية الاستخارة أو النبوءة وتسمع من هم (عراف) بعد تقديم اضحية (قربان) للاله. ويتم بأساليب عدة، ومن بينها فحص احشاء الاضحية. او مراقبة السارح والبارح من الطير، او في غرابة مشبة الدجاج، او بظهور حيوان من جهة ما بشكل غير موقوع، او بعلامات مخصوصة في الرهوه والبروق. وتحت اي ظروف خاصة اي حدث قد يعسر (العارف) بالشكل الذي يتراءى له، ومهنة العرافة عند الرومان هي هبة آلهية حصّ بها اناساً معينين دون غيرهم. لكن كان هناك فترات تعليم لمعهد دراسة العرافة يسبق مزاولتها.

مراسيم تقديم الاضحية هي بحد ذاتها مصدر عون شديد للعرافة. لكن الغرض الاساس منها هو تطهير وإعداد أولئك الذين سيساركون في الحرب. والمقدمة العظمى هي ان يضحى بخنزير وكبش وثور تقدم نيابة عن الدولة.

هذه المراسيم لابد منها عند انطلاقة الجيش الروماني الى مغامرة او فتح عسكريين. وعندما تأتي نبوءة المراف مبشرة بالسجاح ومشجعة على الانطلاق تقري النبوءة تأليه اصحاب الولاء بتقديم العرايين وستكون النتيجة السجاح بدون شك.

وفي حالة الاستيلاء على ارض جديدة، او استعادة أقاليم فقدتها روما يقام نصب تذكاري للمعركة التي خاضها الجيش في هذا السيل. وهي من جملة التقاليد العسكرية الرومانية وقد نقلوه من الأفرقي. ويتخذ النصب التذكاري على شكل كدس من الاسلحة والدروع والتروس وشبكة الحرب وغيرها من آلات الحرب المنتزعة من جثث قتلى العدو في عين الميدان الذي جرت فيه المعركة وبحفقت هزيمة العدو في العادة كانت هذه العدد الحربية نكدس قطعته فوق قطعة كيفما اتفق وبدون ترتيب لتمثل العدو المنهزم وتكدس عادة عند قاعدة صليب خشبي بعلوه سف وخوذة وتروس أو سلاح آخر. وكثيراً ما ينقش وصف للمعركة اذا كانت القاعدة مبنية بالحجر، او انها تنقش فوق المسكوكات والعملات. لاتزال آثار وخرائب لمقايها هذه الاتصاب

قائمة. عرف منها النصب التذكاري الشهير الرابع في (لا تريي) بمقاطعة (موناكو) بمقابل الجانب البحري وكان قد اقيم في ١٦ ميلادية تذكراً لاختصاصه ٤٦ قبيلة آلهية. وهناك ايضاً نصب الامبراطور التذكاري في رومانيا تخليداً لارواح ثلاثة آلاف جندي روماني فقدوا حياتهم.

وعبد الجيش الروماني آلهة مختلفة متعددة الجنسيات تبعاً لتقاليدهم الدينية ويعبدون الارواح والاطياف والاشباح، وتبدو العبادة بتقديم صفوف معينة من الهدايا والقرابين والاضاحي. ويأتي الأول في التصنيف بطبيعة الحال دين الدولة الرسمي. رعبادة آلهتها الوطنية ويأتي اثر ذلك تقديس الامبراطور، وهو فرض واجب على كل روماني أو غير روماني خاضع للحكم الروماني^(١).

وتقام حفلات دينية عديدة بصورة منتظمة وليس من المفروض فيها أن تكون رزينة ويحف بها الاجلال والوقار، بل كانت بالاصل بهدف الترفيه ولكن بصورة مهذبة وبجلال ديني وكان يتخللها في العادة ألعاب وتمثيل، وهي طابع المناسبات الرومانية منذ القدم فقد اقيمت بالاصل للترفيه والتسلية.

ويطول الحديث بنا عن الديانات غير الرسمية التي كان الجنود يزاولونها ويعتقدونها ومقدار قيمتها عندهم وانتشارها بينهم ففي زمن ما ولنقل القرنين الاول والثاني الميلاديين كانت عبادة الاله (ميشرا) الفارس معروفة جداً ومتفشية في الجيش الروماني يقيمون لها المناسبات كما يقيمون للآلهة الوطنية، وهياكل هذه الآلهة غير الوطنية كانت عادة تقام خارج المعسكر وبالقرب منه.

(١) في بلدة (الدورة) التي تقع على نهر الفرات. عثرت بعثة آثار من جامعة بيل على كدس كبير من وثائق البردي تعود الى مقر دائرة سجلات اللواء المياميري (التدمري) الذي كان يعسكر هناك وقد وجد في أحد الاوراق التي لم يعثرها تلف كبير قائمة بالاعباد الدينية فضلاً عن مناسبات الاعياد الرومانية. وكان فيها عدد من الآلهة الشرقية، وقد وجدت البعثة ان الايدي عدلت فيها وشطبّت وأضافت. وفي الواقع كانت الصحيفة بمثابة تقويم عسكري، ويستشف منها ايضاً ان نوعاً من احتفال كان يجري كل اسبوع تقريباً. إما بتقديم قربان الى آلهة وطنية او اقامة حفل تكريم لعضو من بيت الامبراطور نكراً أن كان أم أنثى.

ذكر [ديديموس Didymus] ^(١) النحوي، في جوابه على رسالة (أسقليبيادس Asclepiades) [ades] حول ألواح شريعة صولون، فقرة أوردها المدعو [فيلوكليس Philocles] تشير إلى أن اسم والد صولون هو [يوفوريون Euphorion] خلافاً لرأي جميع الآخرين الذين كتبوا عنه، فهم يتفقون بصورة عامة على أنه ابن [إكسيستيدس Execestides] وهو رجل متوسط الثروة والنفوذ في المدينة، إلا أنه سليل أسرة من أعرق الأسر فهو منحدر من صلب [قدروس Codrus] وأمه كما يؤكد [هيراقليدس هونتيكوس] هي بنت عم أم [بستراتوس] وكانت الوالدتان صديقتين حميمتين في مبدأ الأمر، لأنهما قريبتان من جهة، وبسبب نبل سجايا [بستراتوس] وجماله الرائع من جهة أخرى ^(٢). ويقولون إن صولون أحبه أولاً، وأعتقد أن هذا هو السبب في عدم وصول عدواتهما، بعدما اختلفا حول الحكم - إلى حدود العنف والحدق بالعكس فإن وداهما السالف ظل يقيم في قلبيهما، ليبقى ذكرى مودتهما العريزة حية:

إن جمرات صاعقة رفس الملتهبة ظلت متوهجة.

كما صورها يوربيدس. وفي قصائد صولون أيضاً نجد شواهد على أنه لم يكن قادراً على مقاومة الجمال، ولا تحدي الحب.

بمواجهته مثل ملاكم في الحلبة

(١) ديديموس الاسكندري من مدرسة ارسطوخوس، ومعاصر لانغسطس. وقال عن بعض الكتاب ان تعقيباته ولا سيما على خطباء الاغريق وشعرائهم بلغت أربعة الاف

(٢) كان بستراتوس رجلاً كريماً محبوباً في منتهى الرقة واللفظ. وكان يلزمه ابدأ عبدان أو ثلاثة يحملون حقائب مغممة بالبقود الفضية فاذا ما وجد علائم مرض على شخص ما أو سمع بأن أحداً ما توفي فقيراً، يبادر إلى معالجة الأول على نفقته ويكفل بمصاريف تشييع الثاني ويقفنه. وإذا وجد مغموماً حزينا تحرى عن السبب فإن كان الفقير، يبادر إلى ستر الخلّة لكن لا بالشكل الذي يسلمهم إلى الكسل والتواكل. وفتح ابواب بساطيه ومزارعه للمواطنين يقطعون ويجنون من ثمارها ما شاؤا. كان وسيماً بهي الطلعة هاش الوجه بانساً، رقيق اللسان متواضع الجانب. ويختصر القول كانت فضائله حقيقية خالصة لا متعملة. أو مقصودة أو مشويه باغراض الهيمنة والاستبداد بحكم أثينا. ولو لم يكن كذلك لعد أفضل مواطن في أثينا على حدّ قول (صولون) نفسه. مدحه (هيروdotus) كثيراً لحسن ادارته واتنى عليه [شيشرون: في الخطب ٢:٢٤] وأشاد ببلاغته وفصاحته.

كما تبين من أحد قولبيه الذي حظر على العيد^(٣) المشاركة في الألعاب الرياضية ودهن أجسامهم بالزيت. أو أن يعلقوا بحبّ شاب. وبهذا جعل مثل هذه العلاقة وغيرها في مرتبة الشرف، وموضع الثناء. مقبولة من الوجهاء ومحرمة على الوضعاء.

وقيل أن (بسيستراتوس) كان متيمماً بالمدعو (خارموس Charmus) وهو الشخص الذي أوقف له تمثال الحب في «الأكاديمي» بالقرب من الموضع الذي كان العداً مون في سباق الشعلة المقدسة يشعلون منه مشاعلهم^(٤). وكتب (هرميپوس) يقول:

ضيّع والد صولون ثروته^(٥) في التصدق والإحسان الى الآخرين وكان لديه اصدقاء كثيرون يرغبون في انقاذه من ضيقه إلا انه كان يخجل من أن يكون مدينأً بفضل، لأنه منحدر من أسرة اعتادت عمل الخير فلانقبله. ولذلك انصرف صولون الى التجارة في شبابه، وإن كانت طائفة من الكتاب تزكّد لنا أن انصرافه الى الأسفار لم يكن للربح وحده، بل في طلب العلم والخبر. ومن المؤكد انه كان محباً للمعرفة. إذ لما بلغ من العمر عتياً نراه يقول عن نفسه بصيغة الغائب:

«كل يوم أزداد عمراً، وأتعلم شيئاً جديداً».

وهو ليس من المولعين بالغنى، ولذلك يستوي عنده، الرجل...

«الذي تحتوي يده الفضة والذهب واحمال القمح ويملك الخيل والبغال، واقطاعات واسعة من الأراضي، مع ذلك الذي لا يملك إلا خبز يومه والثياب التي تكسو ظهره والحذاء الذي ينتعله»^(٦) وزوجاً شاباً وولداً وامراً شاباً وعدداً من السنين يقضونها معاً فكلاهما في عرفة.

(٣) أفريديس الباكاي ٨.

(٤) يقام سباق المشاعل ثلاث مرات في السنة ويتم في الباناثينيائي إكراماً لـ(مزيثا) و(پروميثيوس) كل في عيده. ويتم احيائها بالشكل التالي: ينير المتبارون مشاعلهم من مذيح (پروميثيوس) في السيراميكوس ويبدأون بالعدو بأسرع ما يمكن متجهين الى المدينة ومن ينتظفي مشعلة أثناء ذلك، يخرج من العلبة ومن يسبق الى الهدف يعلن فائزاً في المباراة [پاوسنياس ١: ٢٠].

(٥) يضع ارسطو (صولون) في مرتبة الفقراء من مواطني أثينا. ويتخذ من آثاره الدلائل على ذلك في الواقع لم يكن صولون غنياً. ففي شبابه كان انصرافه الى الشعر يستغرق معظم اهتمامه. ويقول اعلاطون في رسالته (تيميون) «لو أن صولون أكمل كل قصائده (لاسيما ملحمة في تاريخ جزيرة الاطلانتيد التي جلبها معه من مصر) ولو حصص وقتاً لتنقيح واصلاح تلك الملحمة كما فعل غيره. لظهر وهو أشهر وأشعر وأبعد صيتاً من هوميروس وهسيود وكل شعراء الأقدمين. وواضح من سيرة حياته وكتاباتاته انه يتخلق باسمى الفضائل وأطيب مزاج وأحب الطباع».

(٦) هذه المقطوعة والتي هي من المنسويات الى ثيوغنس.

وكتب أيضاً في مكان وفي موضع آخر: لا ضير في أن أكون غنياً، لكنني لأريد الغنى أن جاء بوسيلة غير لائقة. العدل حق وإن كان بطيئاً^(*).

من الممكن جداً أن يظهر الرجل الصالح أو السياسي بعض اهتمام بالحاجات الضرورية دون أن يُعتبر مهتماً بالصفائر والتوافه. وفي عصر [صولون] «لم يكن العمل مَعْرَةً لأحد» كما قال [هسيود]^(**) ولم تكن المحنة سبباً للتفرقة والامتنياز، وكانت التجارة حرفة نبيلة فهي التي تأتي إلى البلاد بالحاجات اللطيفة التي يستمتع بها البرابرة. وكانت واسطةً للتصرف بملوكهم ومصدراً لا ينضب معينه للتجارب والخبر. وقد بنى بعض التجار مديناً كبيرة أمثال [بروطيس Protis] مؤسس مدينة [ماسيليا] التي تعلق بها الغاليون أشد التعلق، وهي قريبة من نهر «الرون». وهناك أخبار تفيد أن [طاليس]^(٨) و[هيپوقراطيس] الحاسب كانا يزاولان التجارة. وأفلاطون نفسه كان يسدّ نفقات رحلاته من بيع الزيت في مصر^(٩).

وعزيت رقة صولون واسرافه وأسلوبه الشعبي، لا الفلسفي، في تصويره للذات والمسرات باشعاره إلى حياة التجارة فقد ركب الآف الأخطار، وكان من الطبيعي أن تعوض ببعض المتع والمسرات. أما أنه يعد نفسه أميل إلى الفقر منه إلى الغنى، فهو واضح من أبياته التالية:

كثيراً ما ينعم الاشرار بالغنى في حين يجوع الخيرون

مع هذا فإنني لن ابدل حالي بحالهم

وفضيلتي بذهبهم. لأن ما املكه يدوم

في حين يبدل الغنى مالكيه يومياً

الفضيلة شيء لا يستطيع أن سلبه أحد

في حين ترى الغنى يبدل اصحابه

(*) المقطع ١٢

(**) الاعمال والاسم ٣١١.

(٧) ربما كان هذا الذي ذكره (جوستين) قائلاً أنه واحد من أبرز المهاجرين الذين هربوا من (فوكسين) تخلصاً من سلطان الفرس وبنى مدينة ماسيليا وإلى الاسم عنه يعزو ارسطو تلك المستوطنة أيضاً. (اثيناغورس ٥:١٣).

(٨) العمل الذي عزي ثم طاليعي - أي التجارة هو على الغالب ما قصده ديونغييس لابيرييتوس عند تكوينه سيره حياته (٢٦٠١) فقد قال من أجل أن يبرهن على سهولة جمع المال والغنى. وبإدراكه بعمد نظره وبصيرته أن المحصول من الزيتون سيكون كثيراً، فاتباعه قبل نزوحه وبيع عظيم من الصنف.

(٩) بيع زيتون اليونان وبلاد اليهودية في مصر كان من الأمور وهو محصول أتياكا الوحيد. ولوفرته سمح صولون بتصديره.

ويبدو أنه قرض الشعر، ولم يكن يرمي من ذلك بالأول الى هدف بل كان يعالجه للتسلية وقضية الوقت ثم راح يضمن المبادئ الفلسفية في قصائده ويشيع فيها كثيراً من التعاليم السياسية. ولم يكن قصده تسجيلها ونشرها، بل لتبرير أعماله. كما كانت أحياناً تهدف الى استنهاض هم الأثيبين وحشهم أو تأنيبهم وتوبيخهم، وزعم بعضهم انه حاول صياغة قوانينه في قالب شعر حماسي قبل سنّها. وقد اتحفونا بالمقدمة الشعرية:

ألا فلنتقدم بالصلاة الى زفس ابن كرونوس الملكي. ليمنح هذه الشرائع، شرائعي النجاح والشهرة^(*)

وفي مجال الفلسفة اهتم أساساً بالناحية السياسية من الاخلاق شأنه في ذلك شأن معظم الحكماء. اما في العلوم الطبيعية فهو يكشف عن قصور ومعلومات بسيطة عتيقة كما يبدو من هذه الأبيات:

الغمام هو الذي يدفع بالثلج والمطر
والرعد لا يلبث أن يصدر من البرق الخاطف
والبحر يصطخب موجه عند هبوب الريح
لكنه لطيف سمح عندما يُترك وشأنه.

وعلى أغلب الاحتمالات أن طاليس في ذلك العهد، هو الذي ارتفع بالفلسفة من مجرد ممارسة، الى درجة الامتهان والاحتراف. وبقية الحكماء، إنما سمّوا فلاسفة لتضلّعهم في المسائل السياسية.

ولقد قيل أنهم عقدوا اجتماعين في دلفي ثم في كورنث. بمسعى من (پرياندر) الذي قام بتهيئة الاجتماع مع مأدبة العشاء. إلا أن مكانتهم ارتفعت أساساً عندما أرسلت اليهم جميعاً الطلبة ذات القوائم الثلاثة، فراح أحدهم يدفع بها الى الآخر تواضعاً وإيثاراً، وأبى واحد منهم تفضيل نفسه على صاحبه، بمنتهى الطيبة وحسن النية. والحكاية تروى على النحو الآتي:

كان بعض (الكوان Coan) يصطادون السمك بالشباك. فأشتري بعض الأجانب (الميليسين) مقدماً كلّ ما تخرجه رمية الشبكة في البحر فألقى بها الصيادون فخرجت بهذه الطلبة الذهبية التي قيل أن (هيلين) القتها في هذا الموضع عن عودتها من (طروادة) لما

(*) ما وصل من شعر صولون جمع في كتيب لـ Bergre باسم الشعر القناني الأغريقي - Paetae Lyrid Gra

تذكرت بنوة قديمة. وراح هؤلاء الغرباء بنازعون الصيادين على الطلبة. وسرى الخصام الى المدن حتى كاد يؤدي الى حرب. ثم فصل (ابوللو) في النزاع بأن حكم أن تهدى اللقطة الى اوفر الناس حكمة. فأرسلت أولاً الى (طاليس) في مدينة (ميليّس). وقد نزل له (الكوان) عنها بكل سخاء وهي التي كادت تؤدي بهم الى قتال (الميليسيين) جميعاً. إلا أن (طاليس) ابي قبولها قائلاً أن (بياس Bias) أوفر الناس حكمة، فأرسلت اليه ومنه أرسلت الى آخر وهكذا دارت عليهم كرة أخرى حتى طاليس، وبعد انتقالها من (ميليّس) الى (ثيبه) أوقفت على (ابوللوارسيمينين)^(١٠). ويكتب (ثيوفراستس) انها عرضت على (بياس) أولاً في مدينة (پريان Priene) ثم الى (طاليس) في (ميليّس) ودارت على الجميع لتعود من جديد الى (بياس)، ثم أرسلت الى دلفي. تلك هي تفاصيل الحكاية عموماً. خلا أن بعضهم يقول ان الهدية لم تكن طلبة ذهبية ذات قوائم ثلاثة، بل هي كأس بعث بها (كروسوس Cruesus). وقال آخرون بل هي صفيحة تركها (بائيكلس Bathycles).

وروي أن كلاً من (اناخارسيّس Anacharsis)^(١١) (صولون)، وكلاً من (صولون و طاليس) كانوا عشراء واصدقاء. ونقل بعضهم اجزاء من احاديثهم وزعموا أن (اناخارسيّس) قدم الى آثينا لرؤية صولون فطرق بابيه وقال له انه غريب عن البلد قصده ضيفاً، يريد صداقته. فأجابه صولون اليس من الأفضل له ان يبحث عن الأصدقاء في موطنه؟ فأجاب (اناخارسيّس):

- اذن فأناشيء صداقة معي أنت الذي تقيم في موطنك!

فأعجب صولون بحضور بدهة الطارق وذكائه، ورحب به في بيته وابقاه معه ردهاً من الزمن. وكان في ذلك الحين قد انصرف الى الشؤون العامة وقطع شوطاً في تهية قوانينه. ولما

(١٠) مشتقة من اسم ميكل مكرس لذلك الاله ويقع على ضفاف نهر اسيمينوس الذي يجري بالقرب من ثيبه. اما من حكماء الاغريق السبعة. فالجميع عليهم بصورة عامة هم باياس Bias السيريّني، وخيلون السبارطي Chilon، وكليوبولوس Cleobulus اللندوسي، وپرياندر Periander الكورنثي، وپيتاكوس Pittacus الميثيليني، وصولون Solon الاثيني، وطاليس Thales الميليّتي.

(١١) عُرف الميثينيون قبل صولون بزمان بعيد بالزهد والعبادة والعدل. واناخارسيّس هو منهم، أمير من أمراتهم. نزح الى اثينا في حدود الأولياد السابع والاربعين (٥٩٠ ق.م) وأهله عقله الراجح وسعه مداركه وكثرة تجاربه الى ان يعده بعضهم من ضمن الحكماء السبعة. إلا أن أحكم الحكماء لاينجو من الشنود. ولهم كغيرهم من البشر هفواتهم وسقطاتهم. وقد كان الأمر مع (اناخارسيّس) كذلك اذ حمل معه طقوس (كيبيله) الاغريقية خلافاً لشرائع بلاده وطلّ يمارسها بصورة سرّية فاتفق ان واحدًا من بني قومه أطلق على سرّ قوشى به الى أخيه الملك الذي أسرع اليه ليصرعه بسهم مسدّد الى قلبه (هيرودوتس ٧٦٤).

علم (اناخارسيس) بما يفعل ضحك منه واستعرب محاولة تنظيم حياة بنى قومه بقوانين مسطورة، وتوسله بها الى ازالة الطمع والغش وقال له ان الشرائع اشبه بنسيج العنكبوت لا يقع في خيوطها الا الفقير والضعيف، في حين يسهل على الغني والقوي قطعها فأجابه صولون قائلاً: «إن الناس يظنون خاضعين للقوانين مادامت لا تستفيد اية جهة من خرقها، وانه بنى قوانينه لمواطنيه على هذه الفكرة والأسس ونظمها بحيث يدرك الجميع ان من الخير لهم ان يكونوا منصفين عدولاً متمسكين بالقانون لا ان يخرقوه. إلا ان الوقائع اثبتت أن (اناخارسيس) كان اصوب من صولون ونظرتة أحق من آمال ذاك. ويؤثر عن (اناخارسيس) عندما كان عضواً في الجمعية العامة انه أظهر عجبه من أن الحكماء في اليونان يتكلمون فحسب، بينما الحمقى هم الذين يتخذون القرارات.

قالوا ان (صولون) رجل لرؤية (طاليس) في (ميليطس) وابدى عجبه من بقائه عازباً لم يتخذ زوجة ولم ينجب أولاداً فلم يجبه طاليس عن سبب عزوبته حالاً، لكنه أوصى بعد ايام أحد الغرباء بأن يقول انه غادر أثينا قبل عشرة أيام، فأخذ صولون يسأل عما وقع هناك من حوادث. فأجاب الرجل مطبقاً التعليمات التي أوصاه بها طاليس: «لا شيء، يذكر، خلا تشييع جنازة شاب، شاركت فيه لمدينة كلها لأن الميت كان كما قالوا ابن رجل محترم، بل أكرم أهل المدينة خلقاً ولم يكن في المدينة عندما توفي ابنه فقد مضى عليه زمن طويل في الأسفار» فأجاب صولون: بالشقاء هذا الرجل! ولكن ما اسمه؟» فقال الرجل: «لقد سمعته لكنني نسيتته الآن، وكل ما اذكر هو الكلام الكثير عن حكمته وعدله» وهكذا كان صولون يدفع الى الشك بكل سؤال وزادت مخاوفه، وأخيراً استبد به القلق، وذكر للغريب اسمه وسأله هل أن الشاب الميت يدعى ابن صولون؟ فأرمأ بالايجاب طفق صولون يلطم رأسه ويأتي بحركات وأقوال تنم عن كرب عظيم^(١٢). وهنا أسرع اليه طاليس وأمسك بيده وقال له مبتسماً: «هذه الأشياء يا صولون هي التي ابعدتني عن الزواج وانجاب أولاد. فهي صعبة شديدة حتى بالنسبة الى شخصك، ولكن لاتقلق، فالنبا مختلف من أساسه». هذه الرواية نقلها (هرميبوس) عن (پاتيكوس Pataecus) الذي يتباهى بأن له روح (ايسوب Aesop).
ومهما يكن من أمر، فانه مما لا ينسجم مع العقل السوي، ولا مع الروح القوية أن نتجافى

(١٢) الامر سواء أكان في هذه المناسبة أو غيرها أي عند وفاة ابن له فقد كان جواب (صولون) انسانياً ومعقولاً للغاية عندما طلب منه أن يكف دمه لأن البكاء غير مجد فقال «ولهذا فانا أبكي» اي لاني لأرى فيه جدوى. وبهذا يقول الشاعر العربي اللسان اليوناني الأصل ابن الرومي مخاطباً عينيه عندما جمع بوفاة ابن له

فجوداً فقد أورى نظركما عندي.

بكاؤ كما يشفي وإن كان لا يجدي

السعادة خوفاً من فقدانها. اذ ينبغي على هذا الأساس ألا نسمح لأنفسنا بالرغبة في الغنى والمجد والحكمة مادام يلاحقنا الخوف من فقدانها كلها. لا بل الفصيلة نفسها، وهي أعظم ما يرعب المرء في امتلاكه فكثيراً ما تتأثر بالمرض وتناول العقار. حتى [طاليس] نفسه وهو غير متزوج لا يسعه التحرر من القلق إلا إذا بطل اهتمامه باصدقائه وأقربائه وولاده في حين قيل أنه تبنى ابن أخته [كيبستوس Cybisthus] لأن النفس يلزمها عنصر العطف، ولأنها ما خلقت الا لتحب، ولتدرك وتفكر أو لتتذكر، فلا سبيل لها إلا أن تميل الى شخص غريب وتركز اهتمامها به عندما لا تجد من تحنو عليه من صلبها. والاشخاص الغريب وغير الشرعيين ينالون الخطوة عندها فتتعلق بهم كمن يتعلق بمال لا وريث له. والحب يأتي بالقلق والاهتمام وقد ترى أناساً لا يكفون عن التنديد بغراش الزوجية ويثمرته، فإذا مرض ابن أحدي خداماتهم أو محظياتهم أو مات. رأيتهم وكأن الحزن يكاد يقضي عليهم، فيبكون وينتحبون بحرقة. وترى بعضهم يظهرون ذلك الحزن المخجل العميق على فقد كلب أو حصان. وآخرين يتحملون موت ابنائهم الصالحين الشرعيين دون أن يبالغوا في إظهار ما يليق من الحزن، هؤلاء أمضوا حياتهم رجالاً بكل معنى الكلمة، وعاشوها على مبادئ العقل ضدّ صروف القدر، الى مثل هذه الآلام والأحزان التي لا تنتهي. وهم في واقع الحال لا يملكون فرصة الاستمتاع الآني بما هو موضوع حبه، لأن احتمال خسارتهم المقبلة له تظلّ ابداً تسبب لهم قلقاً ورعباً وآلاماً مستمرة. وينبغي لنا ألا نتحصن بالفقر ضدّ الغنى أو ضدّ الاصدقاء باجتناّب كل المعارف أو ضدّ بنين بعدم انجبابهم، بل يجب أن نسلح بالعقل والأخلاق. وفي هذا الكفاية من القول.

بعد أن أتعبت الاثنين حربهم العسيرة التي أعلنوها على الميغارين بسبب جزيرة [سلاميس] وبلغت بهم حدّ الضنى والانهك. أصدروا قانوناً يعاقب بالموت كلّ من يدعو بالقول والكتابة بلزوم استعادة الجزيرة أو بذل الجهود في سبيل ذلك. فأحق ذلك صولون، وأدرك أن آلاماً من الشبان يريدون شخصاً يكون هو البادئ، ولكنه لم يجرأ على أن يكون أول المحرضين خوفاً من حكم القانون. فتصنع الجنون ودفع اسرته الى أن تذبح في المدينة بأن عقله قد أختل. ثم نظم في السرّ قصيدة وحفظها عن ظهر قلب حتى تبدو وكأنها من وحي البديهة، ثم هرع الى ساحة السوق وعلى رأسه قبعة^(١٣) وتجمع الناس حوله وتبعوه حتى أعتلى منصّة المنادي وبدأ ينشد مراثيته بهذه الافتتاحية:

انا هو المنادي الذي جاء من سلاميس الجميلة.

(١٣) جرت عادة الاثنينين بالآ يغطوا رؤوسهم إلا عندما يلّم بهم مرض.

وأشعاري التي انشدتها الآن هي بدلاً من الخطبة^(١٤)

ويطلق على القصيدة اسم «سلاميس». وتتألف من مائة مصراع وهي رائعة الأسلوب. وقد أثنى عليها اصدقاؤه. ولاسيما [بستراتوس] الذي حث الناس على العمل بالوصايا التي نضمتها. وبلغ الأمر أن ألغى القانون واستوفت الحرب تحت قيادة صولون. على إن الرواية الشائعة، تروى على الصورة الآتية: أبحر صولون مع [بستراتوس] إلى كولياس Collas فوجد النساء هناك يضحين إلى (سيرس) جرياً على عادة أهل البلاد فأرسل إلى سلاميس صديقاً يثق به، ليظهر يظهر الخائن أمامهم ويقدم اليهم معلومات كاذبة وينصحهم أن يرافقه حالاً إلى [كولياس] إذا أرادوا الفوز ببعض النسوة الاثينيات فأسرع الميفاريون بأرسال رجال معه في سفينة وشاهدها صولون تقلع من الجزيرة فأمر النسوة أن ينصرفن ودفع بعدد من الشباب المرد اللاميس ثياب النساء ونعالهن وأغطية رؤوسهن، وقد تسلحوا بالخناجر. إلى الرقص واللعب بالقرب من الساحل حتى يتزل العدو من السفينة ويقفوا تحت رحمتهم، وأنظمت الخدعة على الميفاريين وغرهم مظهر الشبان المرد فتقدموا من الساحل ونزلوا والرغبة تراود كل واحد في أن يكون أول الفائزين بالغنيمة فلم ينج منهم أحدٌ وأعتلى الاثينيون ظهر السفينة وتوجهوا إلى الجزيرة واحتلوها.

ويقول آخرون انهم لم يحتلوها على هذه الشاكلة. بل أن صولون استنزل أولاً هذه النبوءة من دلفي:

أولئك الأبطال الذين يثوون في [اسوپيا Asopia] الجميلة كلهم دفنوا وأوجههم متجهة نحو الشمس الغاربة ألا فأذهب وأدخل السكينة اليهم بأفضل القرابين.

ثم أبحر نحو الجزيرة ليلاً، وضحى للبطلين [بيريفيموس Periphemus] و[كيخوريوس Cych-reus]^(١٥)، ثم أخذ معه خمسمائة متطوع من الاثينيين (كان قد صدر قانون جديد يمنح أولئك الذين يستولون على الجزيرة ارفع المناصب في الحكومة وأخذ أيضاً عدداً من زوارق الصيد وسفينة واحدة ذات ثلاثين مجذافاً وأرسى في خليج سلاميس الذي يشرف على [نيسيا Ni-

(١٤) لم يصلنا منها غير ستة أبيات. انظر المقطوعة ١-٢ في برك Bergk وانها تتطوى على نوم وتائب للاثينيين بسبب تخليهم عن (سلاميس) كما تتضمن تحريضاً واستهزاء للقتال في سبيلها.

(١٥) هو ملك سلاميس. ولديه هيكل كرس له في تلك الجزيرة. يخبرنا [پاوسانياس] (٣٦:١) ان حياً ضخمة شوهدت في إحدى السفن الاثينية أثناء المعركة البحرية بين الفرس والاثينيين. ولم تكن هي الواقع غير البطل [كيخوريوس] كما أبلغهم [هوللو].

Isaea. ولم يسمع الميغارينيون الذين كانوا ساعثين في الجزيرة غير أخبار غامضة، ففرعوا إلى السلاح وأرسلوا سفينة لاستطلاع حركات العدو. فأسرها صولون وقبض على من فيها وملأها بالآثيين وأصدر أمره بإبحارهم إلى الجزيرة بأقصى ما يمكن من السرية والكتمان وفي الوقت زحف برأ على الميغارين ببقية الجنود وأشتبك معهم في القتال، في حين استولى جنود السفينة على المدينة، وتؤيد هذه الرواية المراسيم الدينية التي اتبعت فيما بعد وهي: أن تبهر سفينة آثينية بكل هدوء أولاً إلى الجزيرة ثم بعدو - وهو يهتف - نحو مرتفع (سكيراد يوم Sciradi-um) ليلتقي بأولئك الذين يزحفون عليه برأ. وهناك يقوم معبد للإله آرس Ares^(١٥)، بناء صولون لانتصاره على الميغارين ومن لم يقتل منهم في المعركة لم يفكهم إلا بشروط.

إلا أن الميغارين ظلوا يقاتلون، ومُنِي الجانبان بخسائر جسيمة حتى لجأوا إلى المفاوضات وأختاروا السبارطيين محكمين في النزاع. ويؤكد كثيرون أن ثبت هوميروس أظهر مزيداً من العطف على قضية صولون فحشر سطرأ في قاعة سفنه - أثناء ما كانت القضية أمام المحكمين، فصارت الفقرة تقرأ على الوجه الآتي: «أثنا عشر سفينة جاء بها (أباكس) الشجاع من سلاميس».

ويقال أنه أضاف: «وصف قواته في المواقع التي يقاتل بها الآثينيون. على أنه الآثينيون^(١٦) يصفون هذه الحكاية بالثرثرة والهراء، ويذكرون أن صولون جعل الأمر يبدو للمحكمين، وكأن [فيلبوس Philaeus] وأقرسأكيس Evrysaces) ولدي أباكس قدما الجزيرة إلى آثينا هدية لأنهما منحا حقوق المواطنة الآثينية. وإن أحدهما كان يعيش في براورون Brauron آثيكا والثاني في [ملاطيه Malite] وأنهما كانا يملكان في مدينة [فيلبيدي Philaidae]، واسمها مشتق من [فيلبوس]، وهي مسقط رأس [بستراتوس].

ومن حجج صولون التي استخدمها ضد الميغارين، كيفية دفن جثث الموتى، فقال أنها كانت تدفن حسب عادات الآثيين لا بحسب عادة الميغارين. فالذي جرى العمل به عند هؤلاء أنهم بحولون وجوه موتاهم إلى الشرق، أما الآثينيون فيوجهونها نحو الغرب^(١٧). إلا أن

(١٥) أي ايناليوس Enyalios.

(١٦) الإلياذة [٢٠ م ٥٥٧] قد لا يصح هذا البيت دليلاً. فهناك كثير من القصائد عند [هوميروس] تثبت أن سفن [أباكس] كانت قد اتخذت مواقعها بالقرب من التسالين (٦٨١٠٨) و(كذلك سترابو ١٠). وفيلبوس الذي ذكر في المتن بعد هذا إنما هو حفيد (أباكس) بحسب رواية پاوسانياس [٣٥:١].

(١٧) أنكر ديوجينيس ليرتيوس ذلك إنكاراً باتاً. إلا أنه مخطئ على الأغلب لأن إيليان في [تاريخه ١٩٧] يتفق مع بلوتارح حول طريقة الدفن عند الآثيين. وأما بخصوص طريقة الميغارين فهو يختلف معه إذ يقول أنهم لا يتقيدون بشكل معين في دفنهم موتاهم ويتركون ذلك للمصدف.

(هيرياس) الميغاري ينكر الحجة مؤكداً أن بني قومه يدبرون وجوه موتاهم الى الغرب أيضاً. كذلك تعلل صولون بأن الاثنين لا يدفنون إلا ميتاً واحداً في القبر^(١٨). ولكن الميغاريين يدفنون اثنين أو ثلاثة في قبر واحد. ومهما يكن من أمر فإن بعض نبؤات (أبوللو) التي ورد فيها ذكر الجزيرة باسم (سلاميس ايونيا)^(١٩) عززت من ادعاء صولون كثيراً. فحكم له القضية السبارطيون الخمسة هم (كريتولايداس Critolaidas، وأوموفاريتوس Amomphare-tus وهيبسيخيداس Hypsechidas واناكسيلاس Anaxilas وكليوفيس Cleomenes).

وعظم شأن صولون وقوى مركزه بهذا. إلا أن ما بلغ به أعظم مواطن الشهرة والتقدير عند الأغريق هو نصحه بالدفاع عن نبؤة دلفي والوقوف الى جانبها وببذل العون وإن لا يدعوا الكيريين Cirrhaeans^(٢٠) يمتهنونها بل بوجوب المحافظة على شرف الآلهة، فبناءً على محاولاته أعلن الامفكيتيون الحرب. ومن بين من يؤكد ذلك أرسطر عند ابراده ثبتا باسماء الفائزين في الالعب البيثية. فهو يجعل صولون صاحب تلك المشورة. على أن صولون لم يكن قائد تلك الحملة كما يقول (هرميبوس)، نقلاً عن (إفانثس Evanthes) الساموسي Sami-an. وهذا ما ينفيه ايسخينس Aeschines الخطيب^(٢١). فقد ورد في سَجَل دلفي (الكمون) لا صولون كان قائد الاثنين... وكان فساد البكيلونيين قد استفحل في الجمهورية ونشر فيها الاضطراب اكنافه منذ عهد بعيد يرجع الى حكم (ميغاكليس) الأرخون عندما اقنع المتأمرين مع (كيلون Cylon)^(٢٢) الذين لجأوا الى معبد (مينرفا) بالخروج منه ووعدهم بمحاكمة عادلة

(١٨) ويرجع بعض الشراح أن يكون سبب ذلك سعة البلاد وعدد سكان كلا البلدين.

(١٩) أيونيا القديمة تشمل أتيكا فقط.

(٢٠) هم سكان (كيريا) وهي بلدة تقع على خليج كورنث أجتاحت بفزواتها المتكررة أراضي (دلفي) المجاورة، وحاصرت قواتها المدينة نفسها يحدها الطمع في الاستيلاء على نفائس معبد (أبوللو). واستنجد بالإفكتيون وهم قادة دول الإغريق، فكان من رأي (صولون) أن يصدر استنكار عام للعمل ثم أرسل (كلسيتيوس) طاغية (سيكيون) قائده العام لحرب قوات (كيريا) ونُصب (الكيميون) قائداً للقوات الأثينية والتحق صولون بوصفه مساعداً أو مشاوراً لـ (كلسيتيوس) وألقى الجيش الإغريقي الحصار على (كيريا) ربحاً من الزمن دون أن يصيب نجاحاً. فاستُخبر (أبوللو) وكان الجواب أنهم أن يفلحوا في الاستيلاء عليها إلى أن تلتطم أمواج البحر الكيري بساحل بحر دلفي. هذه النبوءة أخذت الجيش على حين غرة، إلا أن صولون أسرع بالتفسير والحل، بأن نصح (كلسيتيوس) أن يوقف كل أراضي (كيريا) على معبد (أبوللو) دلفي وبهذا تصبح دلفية وبالطبع سيلتطم الموج آنذاك بأراضي دلفي. ولما أصبحت من موقوفات دلفي تم الاستيلاء عليها وبنوه (پاوسنياس ١٠ ٢٧) بخطة أخرى أقترحها صولون، تتم عن رجاحة عقله وعمق تفكيره، وهي تحويل مجرى نهر (پليستوس) الذي تعتمد (كيريا) على مائه.

(٢١) في خطبته «ضد قطيسيفون».

(٢٢) ظل الحزب المناوي للديمقراطية قائماً بعد مرور زمن طويل على ارساء قواعدها ولم يترك اصحابه وسيلة إلا جربوها لاعادة نظام الحكم القديم. وكان (كيلون) انساناً جليل القدر رفيع المقام وصهراً =

فشدوا خيطاً بالصورة المقدسة وامسكوا باحدى نهايتيه وعادروا ملجأهم لحضور المحكمة^(٢٣). ولكن الخيط انقطع من تلقاء نفسه عند وصولهم معبد [فوريس Furies] وكانت الربة قد رفضت بسط حمايتها عليهم. وعندئذ قبض عليهم ميغالس والقضاة. ومن حيل بينه وبين المعبد منهم رجم بالحجارة، ومن هرب عائداً الى الملجأ ذبح على درج الهيكل. ولم ينج إلا أولئك الذين توسلوا بزوجات القضاة. لكنهم بقوا نجسين، ينظر الناس اليهم نظرة الكراهية والاشمئزاز، وأستعادت بقية حزب [كيلون] قوتها، وأستمر شجارها مع أسرة [ميغالس]. وفي أيام صولون بلغت الشحنة أوجهاً وانقسم الجمهور الى حزبين، ولما كان صولون مرجعاً عاماً، فقد تدخل في الأمر بمعونة رؤوسا آثينا. وتمكن بالطف والتأنيب من إقناع النجسين بالمشول امام محكمة مؤلفة من ثلاثمائة مواطن نبيل، والخضوع الى القرار الذي يصدرونه وترافع ضدهم [ميرون Myron] و[فليا Phlya]. وأدينوا بنتيجة القرار، ومن كان منهم حياً نفي، ثم نبشت قبور الموتى منهم وأخرجت جثثهم والقيت خارج حدود البلاد. وفي اثناء هذه الاضطرابات والخيال انتهز الميغاريون فرصتهم فأنقضوا على الاثينيين وأنتزعوا منهم [نيسيا وسلاميس]^(٢٤) ثانية. زد على هذا ان المدينة غشيتها الأوهام، والخوف، وشتى الظواهر الغريبة. وأفتى الكهنة أن القرابين قد مسها بعض الدنس والنجاسة، وينبغي أن تظهر. فبعثوا يستقدمون [إبيمنيدس Epimenedes]^(٢٥) الفايستي Phaeist من كريت. وكان هذا يعد

= لـ(ثياغينس) طاغية ميغارا، وهو ممن ينفر من تغيير الحكم الفجائي. ويكره فكرة الركض وراء المنصب بوصفه فضلاً من الآخرين يطوق به عنق الفائز به. لاسيما وان حقه فيه واضح من جهة والدته. لذلك رتب خطة للاستيلاء على القلعة اثناء انغماد الاولمبياد الخامس والأربعين. عندما يكون عدد كبير من الاهالي منتشغلين بمشاهدة الألعاب. وقد تم تنفيذ ذلك وأستولى (كيلون) على القلعة. إلا أن (ميغالس) رأس الأراخنة آنذاك اتفق مع الحكام الآخرين وكل قوات آثينا وضربوا الحصار على القلعة وضيقوا على أصحاب المؤامرة الخناق حتى اضطر [كيلون وأخوه الى الفرار، تاركين بقية اصحابهم يتدبرون أمرهم بأنفسهم. يقول بلوتارخ: «من نجا من السيف، لجأ الى هيكل منيرفا. لكن الحكام لاحقوهم وفتكوا بهم هناك وبذلك اسفطوا الاثينيين الذين أستنكروا عملهم بقتلهم في حرم الهيكل وهي جريمة عظيمة. هذه العادة يوردها مفصلة (١٢٦.١).

(٢٣) في حدود العام ٦٣٦ ق.م أنظر المرجعين سالفَي الذكر.

(٢٤) مدينة كانت تقع على خليج كورنث.

(٢٥) يضرنا [ديوغيونيس لابرتيوس] أنه بينما كانت تجرى عملية تطهير المنازل والحقول والاشخاص جاء (إبيمنندس) بعدد من الغنم السود ومثيله من الغنم البيض وأطلق الجميع في [الارويواغوس] وأمر الناس أن يتابعوها مرادى ويعيتوا المواضع التي تضطجع فوقها ليقوموا بتضحيتها فيها. وعندها تقام مذابح ومنصات تخليداً لذكرى هذا التطهير الديني يقول (ديوغيونيس) ان هذه المذابح التي لا تكنى باي اسم ظلت شاخصة حتى ايامه. وكان التعويض الوحيد الذي طلبه (إبيمنندس) من الاثينيين على عمله هذا، هو ان يعقدوا حلفاً مع بلاده (كريت). واما الاسطورة التي تقول انه رقد ٥٧ أو ٥٠ عاماً وظل على قيد الحياة. وحياته المحفوفة بالاسرار وعمره المديد، فكل هذا معروف وقد ذكره المؤرخون.

سابع الحكماء عند أولئك الذين لا يدخلون [بيرياندر] في عدادهم^(٢٦). ويبدو أنه كان يعتبر مفضلاً عند الأرباب، وعلى معرفة بكل الأسرار الدينية وما هو فوق الطبيعة منها ولذلك أطلق عليه رجال عصره [كيوريوس]^(٢٧) الثاني، وابن الحورية المسماة [بالطه Balle]. ولما قدم إلى أثينا وتوثقت علاقته بصولون، قدم إليه معونات في مناسبات مختلفة. وعيّد السبيل لتسريعاته وعدل من أشكال العبادات وقلل من صرامتها، وخفف من القواعد الخاصة بالحداد فأدخل بعض القرايين لتقدم حالاً بعد التشجيع، وأطرح تلك المراسيم القاسية البربرية التي تتعاطاها النساء عادة^(٢٨). إلا أن أعظم مآثرة له هو تطهير وتنقية المدينة، بفضل قرايين تهدة، وتطهير معينة. وإقامة بنايات مقدسة. وبهذه الوسطة جعلهم أطوع إلى العدالة وأكثر ميلاً إلى التألف. وذكروا أنه نظر إلى مونيخيا Munychia^(٢٩)، وإطال التأمل ثم قال لمن حوله «ما أشد عسى الإنسان في أمور المستقبل! فلو تكهن الآثينيون أي فتنة ويلوى ستلحق هذه مدينتهم لأكلوها أكلاً بأسنانهم ليتخلصوا منها»^(٣٠). وشم نبوءة أخرى تعزى إلى [طاليس] يقولون أنه أوصى اصداقائه بأن يدفنوه في موضع خامل الذكر قدر من اراضي [ميليطس] قائلاً أن البقعة ستكون يوماً مركز لقاء الميليطيين الرئيس، وأكرم إيبيمينيديدس أجل اكرام وعرض عليه أهل المدينة هدايا عظيمة وأغدفت عليه الامتيازات والنعم، إلا أنه اكتفى بطلب غصن واحد من الزيتون المقدس، فأعطى ما اراد وعاد إلى بلاده.

بعد أن قضي على الفتنة الكيلونية ونفي المدينسون منهم، عاد الآثينيون إلى شحنائهم الأولى ونزاعهم على الحكم، وكان يوجد احزاب وشيع مختلفة، بقدر ما كان يوجد اختلاف رأي في البلاد. كان حيّ التلال يحبذ الديمقراطية، وحيّ السهل يفضل الأوليغارشية، أما أولئك الذين يعيشون على الساحل فيريدون مزيجاً من النظامين، وبهذا حيل دون استظهار حزب على آخر^(٣١) وكانت الفروق في الاحوال بين الاغنياء والفقراء في ذلك الحين قد بلغت اقصى الحدود حتى بدت المدينة في حالة خطيرة جداً، وليس هناك من وسيلة لانقاذها من

(٢٦) انظر ارسطو [دستور أثينا: ١].

(٢٧) من يدعى كيوريوس Cures، انما هم الكهنة الكريتيون الذين يقومون على خدمة [زفس الإيدي] واسمهم مشتق من اسم انصاف الكهنة الذين قامت الربة (ريا) بإيداع (زفس) الطفل لديهم.

(٢٨) كالضرب على الصدور، وجرّ الشعر، ولطم الوجوه الخ...

(٢٩) ان اكروبوليس [بيريوس] يشرف ستراتيجياً لا على شبه الجزيرة وحدها بل على أثينا نفسها كذلك. وكثيراً ما وضع فيه فاتهو أثينا جنوداً.

(٣٠) تحققت هذه النبوءة (على ما يقولون) بعد ٢٧٠ سنة عندما ارغم [انتياغر] الآثينيين على القبول بحامية في ذلك الموضع. انظر سيرة [ديموستينس]. وأفلاطون يعزو اليه نبوءات أخرى.

(٣١) انظر ارسطو [دستور أثينا ٤: ٨].

الاضطرابات والوصول بها الى حالة من الاستقرار إلا سلطة دكتاتورية مطلقة. وكان الجمهور كله مثقلاً بالديون للاغنياء وكان عليهم أن يختاروا إما زراعة اراضيهم لدائنينهم وأعطائهم سُدس المحصول فيسمون اذ ذاك: ثيتيس Thetes أو هكتوموري Hectemprii وإما يسلّموا اجسامهم لقاء الدين وقد يحجزون أو يرسلون الى العبودية في الوطن، أو يباعون للأجانب واضطر بعضهم الى بيع أولاده، (لأن القانون لا يمنع ذلك)، أو الهروب من البلاد خلاصاً من قسوة الدائنين. إلا أن معظمهم وهم اثبتهم جنائياً بدأوا يتكتلون، ويبت أحدهم في الآخر روح الاقدام للوقوف في وجه هذا الظلم. واختيار قائد للقيام بتحرير الدائنين الذين صدرت الاحكام بحقهم وتوزيع الأراضي وقلب الحكومة.

وهنا ادرك أعقل الآثينيين أن صولون هو الشخص الوحيد من بين الجميع من ليس له علاقة بالمشكلة أو هو طرف فيها. وأنه لم يشارك في استغلال الاغنياء، ولم يعان مؤس الفقراء. والحوك عليه أن يمد يداً الى الحكومة، ويقض النزاع. وان كان [فانياس Phnias] ولسبيان (Lesbian) يؤكدان ان صولون احتال بحيلة على الفريقين لكي ينقذ بلاده. فوعدهم فقراء سرّاً بتقسيم الأراضي، ووعد الاغنياء بضمان ديونهم، على أن صولون بالذات يقول عن نفسه أنه تردد في مبدأ الأمر في المساهمة في شؤون الدولة. لخوفه من مكابرة هذا الحزب، ومن طمع ذاك، ومع ذلك فقد انتخب (ارخونا) بعد [فيلومبروتوس] ومنح سلطة سن القوانين والتحكيم ورضي به الاغنياء، لأنه غني، ووافق عليه الفقراء لأنه نزيه. وقد أشيع عنه قبل انتخابه قوله «انه لن تقوم حرب لما تكون الأمور متوازنة». وهذا ما أرى جشع حزبي الاغنياء وخاصة حزب الفقراء^(٣٢). أولهما قسّر التوازن: ان ينال كل امرء نصيبه المناسب. وثانيهما فسرّه: ان تعم المساواة التامة للجميع. ولذلك ارتفعت آمال الجانبين. وألح رؤوساء القوم على صولون ليقبض على ناصية الحكم ففعل^(٣٣) وليعالج الأمور على هواه ويكلّ حرية حين أشتب الأمر له. وكان الكثير من العامة يرغبون أن يحكمهم رجل عادل حكيم، يصرف أمورهم بحكمته، لعلمهم أن التغيير الذي يفرضه القانون والعقل فقط، هو تغيير صعب عسير المنال. ويقول بعضهم أن صولون تلقى هذه النبوءة من ابوللو: «خذ المقعد الوسط، وكن مرشد السفينة فكثير من أهل أثينا هم الى جانبك». ولكن أصدقا المقيرين عابوا عليه بالدرجة الأولى أبا» الحكم بنظام الملكية المطلقة بسبب الاسم المقترن بها فحسب^(٣٤). كأن فضائل الحاكم

(٣٢) المرجع نفسه [٣:٤].

(٣٣) في العام ٩٤ ق.م.

(٣٤) يجب علينا الاستدراك للقول انه كلمتي «طافية» و«طفيان» اللتين تردان أحياناً في النص لا تعني دائماً عند الاقدمين الحكم البغيض المتميز بالقسوة والعنف والاستغلال والفساد. فكثيراً ما كان الطفافة =

لاستطيع أن تجعل منه شكلاً شرعياً من أشكال الحكم. لقد اقدمت [يوبيا Euboea] على هذه التجربة لما أختارت [تيسونداس Tynnondas] وكذلك دويلة [ميتلين Mitylene] التي أمرت عليها [بيتاكوس Pittacus]^(٣٥) إلا أن هذا كله لم يثن صولون عن عزمه. ولكنه على ما قيل - أجاب أصدقاؤه: «صحيح أن الحكم المطلق بقعة جميلة، ولكن لا يوجد فيها مكان للنزول، وكتب على نسخة من اشعار [فوكوس Phocus] ما يلي:

«فلأني أنقذت أرضي، وكففت يدي عن الظلم والقسوة. وأبيت أن اشوه اسمي الصالح بلطخة أو بعار - لن أسف قط، وأعتقد أن ذلك سيكون رأس شهرتي»
ومنها يتضح أنه كان رجلاً عظيماً الشهرة قبل أن يستأثر شرائعه^(٣٦). وقد سجل صنوف السخرة التي صبت عليه لرفضه الحكم والسلطة في هذه الأبيات:

«لا شك أن صولون من الحالمين والسذج فعندما تحبوه الآلهة بالنعم، تراه يرفضها بحض اختياره. عندما تكون الشبكة مملأة بالسماك ويراها مفرطة في الثقل، بأبي أن يرفعها، جُبناً منه، وقلة عقل. لو اني اهتبلت تلك الفرصة في الغنى والحكم وكنت طاغية لأثينا يوماً واحداً لأعطيت جلدي للسليخ، وتركت بيتي بضمحل ويموت^(٣٧)».

وهكذا يجعل الفقراء والدهماء بلهجون بذكره. ومع انه رفض قبول الحكم، إلا انه لم يكن لين الجانب كثيراً في شؤونه، فلم يظهر امام السلطات ذليلاً طائعاً ولم يستأثر شرائعه لإرضاء أولئك الذين انتخبوه. فما كان جيداً من القوانين لم يدخل اليه تعديلاً أو يغير فيه لثلاً...

«تخرّ الحكومة على ركبيتها وتتقوض تماماً»

لقد كان أضعف من أن يعتمد الى صياغة نموذج حكم جديد أو يعيد تشكيله بهيئة يغلب

«يمارسون سلطانهم بشكل قانوني عادل، إلا أن رفضه والقيام ضده كان مصدره بصورة عامة المبدء الذي أختله هذا الحكم لنفسه أعني السلطان المطلق الذي قد يفشى دائماً تطوّف من يمارسه والوصول به الى أقصى درجة من التحكم والبربرية، والى تدمير اي استقلال أو اغتصاب.
(٣٥) هو واحد من الحكماء السبعة قبض على زمام السلطة في [ميتلين] فراح [الكبوس] الذي ما كان مواطناً ومعارضاً له ومدافعاً عن العرييات - يهجوّه وينتقده ويخفف من شأنه، كما فعل بالطفاة الآخرين، فتفاصى [بيتاكوس] عنه ولم يكثرث به. واقدم على قمع تمرد الأهالي بالقوة ونشر السلام والعدل والانسجام بين المواطنين ثم تنازل عن السلطة بمحض اختياره واعاد الحرية الى بلاده. إلا انه أرغم في آخر عمره على تولي السلطة مجدداً باجماع ملح من المواطنين. فنطق بحكمته الشهيرة «الفضيلة لا تخلو من هوانق» وبعد أن حقق ما جئ به لتعقيفه أعتزل الحكم ليعود فرداً عادياً.

(٣٦) المقطوعة ٣٢.

(٣٧) المقطوعة ٣٣.

عليها الاعتدال. ولكنه طبق ما خيل له انه ممكن التطبيق عن طريق إقناع المستعدين للإقناع، وباستخدام القوة للمعاندين كما قال هو نفسه: «القوة والعدل، يعملان معاً».

ولذلك، فعندما سئل فيما بعد: هل ترك للأثينيين خير قوانين يمكن لأحد أن يعطيها؟ اجاب «تركتم خير ما يستطيعون أخذه» وهذا أسلوب في الجواب يقول عنه المحدثون أن الأثينيين يلجأون اليه للتحقيق من سوء شيء. بأعطائه وصفاً جميلاً بريئاً لا يחדش الأسماع. فهم يسمون الطاهرات حظايا. والجزية: مكساً، والحامية حرساً، والسجن غرفة. ويبدو أن هذا من مبتدعات صولون. أساساً. فقد أطلق يقضي قانوناً بالغاء الديون مصطلح [سيساكثيا Siesacthea]. أي الإغاثة أو تخفيف الإعباء. فأول قاعدة وضعها هي الاعفاء الشامل عن كل ما تخلف من الديون، ولا يحق في المستقبل لأي شخص أن يسخر لنفسه عمل جسم مدينه ضمناً لدينه. على أن بعضهم ومنهم (أندروسيون Androton) يؤكد انه لم يُلغَ ما تخلف من الديون وإنما حُفِضَت الفائدة فحسب وهو ما كان موضع رضى الناس فسموا هذه المنفعة [سيساكثيا] كما شملوا بالتسمية، توسيع الكايبيل ورفع قيمة النقد والقوة الشرائية^(٢٨). فقد حدد قيمة [البان] مجدداً بمائة درهم (دراخمه) في حين كان قبلاً ثلاثة وسبعين درهماً، وهكذا فمع كون عدد القطع النقدية المدفوعة عن الدين كانت سواءً، إلا أنها أقل قيمةً. وهذا ما عاد بالفائدة الكبيرة على أولئك الذين يدفعون ديوناً كبيرة. وفي الوقت نفسه لا يخسر الدائنون شيئاً من ديونهم.

على أن معظم الكتاب يتفقون على أن الغاء الديون هو المقصود [بسيساكثيا] أي ابراء الذمة. ويؤكد هذا في بعض مواضع من قصيدته التي يعزو فيها هذه المأثرة لنفسه: «لقد رفعتُ عن الأرض المرتهنة حجارة الرهن - وما كان منها مستعبداً أصبح حراً.»^(٤٠ أ)

ففيها يعزو لنفسه بانه رفع شارات الحجز عن الأراضي^(٢٩) التي كانت العين تشاهدها من قبل في كل مكان وحرر الحقول التي كانت قبل ذلك محجوزة. وحرر أولئك الذين حبسهم دائنهم. وأعادهم الى البلاد بعد أن ظلوا متشردين في الخارج كما اخبرنا عنهم: قضت الأقدار عليهم بالنأي والتشرد زمناً طويلاً فنسوا لغة موطنهم (لغة اتيكا).

وحرر بعض أولئك الذين «رسفوا هنا في أغلال العبودية المخزية في بلادهم»^(٤٠ ب).

(٢٨) اسطر ارسطو [دستور أثينا ١٠ و ٥٠].

(٢٩) من عادة الأثينيين وضع بطاقة على المنازل أو الأراضي إشارة الى انها خاصة أو محجوزة.

(٤٠ أ) المقطوعة ٢٦ الابيات الرابع وما بعده بعد ارجاعها من صيغة المتكلم الى صيغة الفاعل. البيت ٦ من

اقتباس ارسطو.

(٤٠ ب) المقطوعة ٢٦ (الابيات ٩-١٢ من برگ.) (الابيات ١١-١٤ من ارسطو).

وفيما هو يرسم هذه الخطط حصل أمرٌ مخجلٌ جداً، إذ لما قرّر الغاء الديون، وأخذ يفكرُ بأفضل الطرق للبدء بالتنفيذ وأسّر لأقرب اصدقائه اليه [كونون Conon وكلينياس Clinias وهيبو نيكوس Hipponicus] رهم ممن يضع فيهم أعظم الثقة - بأنه لن يتدخلَ في قضية الأرض، وإما سيحرّر الناس من ديونهم فحسب. فأنتهزوا الفرصة وعجلوا باستدانة مبالغ كبيرة من المال وابتاعوا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية لأنفسهم. ولما طَبّق القانون بقيت املاكهم لهم دون أن يضطروا الى دفع المال الذي استدانوه. وهذا ما أثار الشكوك العظيمة في صولون وما زاد في السخط عليه والكره، ان حالته المالية لم تتأثر بالقانون، إلا أنه يادر حالاً الى قطع دابر الشك بأن أهرأ ذمة كل مدنيه الذين يدينون له بخمسة تالنتات فأكثر حسب أحكام القانون، وكانوا كثيرين. على أن بعضهم مثل [پوليزيلوس Polyzelus] الرودسي، يقول أنه أبرأ من كان مدنياً له الى حد خمسة عشر تالنت. وسُمّي اصدقائه أولئك منذ ذلك الحين بالمتناقضين Chreocopidae أو قُطاع الدين^(٤١).

لم يُرض صولون بعمله هذا أبناً من الحزين، فالأغنياء سخطوا لخسارة اموالهم، والفقراء سخطوا لأن الأراضي لم يجر تقسيمها مجدداً وبقيت على حالها ولم تفرض المساواة التامة بين المواطنين على نحو ما فعله ليكورغوس في جمهوريته. والحق يقال أن ليكورغوس هو سليل هرقل الحادي عشر، فضلاً عن انه كسب اشياعاً واصدقاء عديدين بعد حكمه الطويل في [لقيدونيا] ونال شهرة عظيمة ونفوذاً واسعاً استخدمها كلها في اشادة صرح نظام دولته وأعتمد غالباً على القوة لا على الاقتناع، حتى انه فقد إحدى عينيه في معركة^(٤٢)، كما كان قادراً على استخدام إحدى الوسائل لسلامة الدولة واستقرارها، وهو ازالة الفقر والغنى في مجتمعه، إلا أن صولون لم يبلغ هذا الحد في سياسته فقد كان متوسط الحال، ومع ذلك لم يتقاعس ولم يدخر وسعاً في ممارسة كل سلطته، ولم يكن ثم ما يعتمد عليه غير ثقة الناس به حسن ورأيهم فيه واعتمادهم عليه. أما أنه أثار سخيمة معظم من كان يؤمل نتيجة أخرى عنه، فهو ما أشار اليه في ابياته:

بالأمس كانوا يتيهون بي أعجاباً وبياهون واليوم ينظرون إليّ شزراً كأنني عدوهم.
الاصدقاء كلهم انقلبوا أعداء^(٤٣).

(٤١) هنا مفارقة لفظية واضحة. فـ(Cercopidae) الذي يطلقه الاثينيون على أنفسهم. يشبههم الى ملكهم الاول ككريس Cecrops فيقولون انهم من نسله [جوفياال ٤٦٠٨].

(٤٢) ارسطو: الدستور الاثيني ٦.

(٤٣) المقطوعة ٣٤. الآن الابيات الاربعة فما بعدها من المقطوعة ذات الابيات التسعة التي اقتبسها ارسطو (انظر الدستور ٣:١٢).

ومع هذا فلو حاز أي امرءٍ «ما حزته من سلطان» على حدّ قوله. لما امتنع أو قصر عن احتلاب أدسم الحليب لنفسه وصادر الكل. ولكن لم يمرّ طويل زمن إلا وشعروا بفائدة ما صنع. فزال حقدهم عليه. وقدموا قرايين عامة أطلقوا عليها اضحية الغناء الديون [سِيمَاكثيا] واختاروا صولون ليضع القوانين النموذجية الجديدة لجمهوريتهم، ومنحوه صلاحيات مطلقة في كل شيء، وسلطاناً ماله حدود على أقضيتهم ومجالسهم ومجالس شورايم، ليقرر بنفسه مواعيد اجتماعاتها وعددها، وتخصيص الأموال لها. ومُنح صلاحية حلّها أو الإبقاء عليها حسبما يرتأيه.

وكان أول أعماله الغاء كل قوانين [دراكو Draco]^(٤٤) لصرامتها الفائقة وعقوباتها القاسية، خلا ما يتعلق بجرائم القتل منها. كانت عقوبة الموت في قوانين [دراكو] تفرض تقريباً على كل الجرائم حتى تلك التي تعاقب على البطالة، أو على من يسرق رأس خنزٍ واحد أو تفاحة واحدة كان الموت عقابها مثل جرائم القتل والكفر. وصدق عنها حقاً قول [ديماديس Demades]^(٤٥) الذين نبغ بعده بزمان طويل. «لم تكتب قوانين دراكو بالحبر، وإنما كتبت بالدم». وسئل [دراكو] نفسه: لماذا جعل الموت عقاباً للعظم الجرائم فأجاب «الجرائم الصغيرة تستحق ذلك. وليس عندي عقوبة أشدّ من الموت للجرائم الكبيرة».

ولما كان صولون يرغب في إبقاء الجهاز القضائي بأيدي الطبقة الغنية، وإن يفتح أمام العامة في الوقت نفسه أبواب أجهزة أخرى من أجهزة الحكم. فكانت خطوته الثانية هي أحصاء أموال المواطنين^(٤٦) فرداً فرداً فالذين ملكوا خمسمائة ميكال من الغلة: مائعة وجافة جعل منهم

(٤٤) كان [دراكو] أرخوناً في أول سنة وثاني سنة من الأوليبياد التاسع والثلاثين الموافق لـ ٦٢٢ ق.م. مع أن اسم هذا الرجل الشهير يظهر كثيراً في صفحات كتب التاريخ القديم إلا أننا لا نجد أكثر من عشرة أسطر محترمة عنه وعن شرائعه، ويمكن القول بأنه أول مشرعي أثينا، ذلك لأن قوانين أو بالأحرى «توصيات» Precepts (تريبترليموس) كانت قليلة جداً لا تكفي لتثبيت الحقوق والواجبات ومن تلك الوصايا «أكرم أبويك» و«اعبد الآلهة». «لا تؤذ حيواناً» وما إلى ذلك. وكان [دراكو] أول أغريقي عاقب على الزنا بالموت. وأعتبر القتل أشنع جريمة وأفظعها وأراد أن يعزز كرهها في الذهن فشرع بأن تجري التعقيبات القضائية بحق الجمادات والأشياء الغالية من الروح أن كانت سبباً لإحداث الموت. لكنه إلى جانب جرميتي القتل والزنا القتين عوقبتا بالموت. فقد جعل عدداً من الجرائم الأصغر شأناً تستحق عقوبة الموت أيضاً وهذا ما أدى إلى الغاء كل شرائعه تقريباً. فصرامتها المتناهية الشبيهة بالحد المسنون المرفف، جعلها كائنات الذي ينفذ عميقاً وقد حفظ لنا بروفييري في (de Abstin) نصاً من تلك القوانين وهو ما تعلق بالعبادة «أنه لقانون أبدي في أتينا. أن تعبد الآلهة وجوباً، وكذلك تعدد الإبطال بحسب تقاليد أسلافنا في السر تعبد فقط وبصلاة لائقة، وبالثمار الأولى ورافة الخمر سنوياً».

(٤٥) خطيب أثيني عاصر فيليب المقدوني وابنه الاسكندر.

(٤٦) أرسطو دستور أثينا ٢:٧ وما بعده.

الطبقة الأولى هو أطلق عليها اسم [پنتاكورسيوميديمني Pentacosiomedimini] ^(٤٧) (اي ذوي الخمسمائة مكيال). أما أولئك الذي ملكوا حصاناً أو مالاً يعادل ثلاثمائة مكيال فأطلق عليهم اسم [هيبادا تيلوميتس Heppada Telumtes] وجعلهم طبقة ثانية. أما من ملك ما يعادل مائتي مكيال فسماهم [زويگيتي Zeugitae] وجعلهم الطبقة الثالثة أما السابقون فجعلوا طبقة رابعة وسماهم [ثيتيس Thetes] وهؤلاء لا يحق لهم ان يتولوا أي منصب حكومي. لكن لهم أن يحضروا الجمعية العامة ويعملوا عمل المحلفين، وهو عمل يبدو للوهلة الأولى شيئاً تافهاً، لكن سرعان ما تبين أنه حق ذو سلطان عظيم. لأن كل موضوع خلاف رئيس يرفع اليهم ليصوتوا عليه، ولا يستثنى منها حتى الامور التي هي من اختصاص الارخون اذ قرر ان تستأنف اليهم قضائياً.

وكذلك قيل أن صياغة قوانين صولون كان يشوبها الغموض وكانت معانيها مزدوجة التفسير مطاطية. وقد تعمّد ذلك لتزاد هيبة مجالسه القضائية. لأن غموضها وصعوبة تفسيرها وعدم توصل الناس الى فهم منطوقها الحرفي يضطرم الى رفع دعاواهم الى القضاة المختصين الذين حذقوا الصناعة. اما عن المساواة الطبقيّة فهو ينوه بها على الصورة الآتية:

منحت الشعب سلطة كافية ولم اجردهم من الكرامة ولم أعطهم الكثير جداً واما اولئك الذين يملكون السلطة. ويتمتعون بالغنى الطائل فقد جعلتهم القوانين في نجوة عن كُلِّ ما يحطّ من قدرهم. ووقفت بدرعي الجبار امام كلا الطبقتين ولم أدع أحد الغريقين يعتدي على حقوق الآخر ^(٤٨)

وقوى من ضمانات أمن الطبقة العامة، بمنح الحق العام إقامة الدعوى عن أي جريمة من جرائم الايذاء العمدي. فإذا تعرض أي فرد للضرب، أو بُتر منه أي عضو أو اعتدي عليه بأي شكل من الاشكال، كان لكل مواطن الحق في إقامة الدعوى على المعتدي. وهدف صولون من هذا، أن يعود المواطنين أن يشعروا بشعور المعتدى عليه، كأنهم اعضاء في جسم واحد. وأن تشور

(٤٧) ان هؤلاء [الپنتاكورسيوميديمني] يدفعون ثالوثاً واحداً لبيت المال. أما [الهيباداتيلوانتيس] فيتوجب عليهم كما تدل عليه عبارة النص - أن يقتنوا حصاناً وان يخدموا في الجيش فرساناً. واما الرهخيتي فقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم وسط بين طبقة الفرسان وطبقة العامة (ذلك لأن الجذافين الذين يحتلون المتعد الوسط بين الثالاميت في قيوم السفينة وبين التراميت في الدفة. ومع أن الـ(ثيتيت) الذين لا يدفعون ضريبة. لا صوت لهم في الجمعية العامة، فانهم كما لاحظ پلوتارخ حازوا أمتيازاً عالياً باعتبارهم مرجحاً استثنائياً في معظم الاحكام القضائية وقد بلغ استخدام هذا الامتياز من الخطورة حداً حسب رأي ارسطو (السياسة ١٠:٢) أن اثينا وقعت فعلاً بيد الرعاع وسلطانهم الطاعي.

(٤٨) المقطوعة ه وما بعدها. ارسطو [دستور اثينا ١٠٢] أنظر أيضاً ١٠٩ وما بعدها.

ضمايرهم للجرمة كأنها وقعت عليهم. وهناك قولة له تنسجم ومنطوق قانونه. اذ سئل ما هو النموذج الأمثل للمدينة في رأيه فأجاب: «المدينة التي يتساوى فيها المعتدى عليهم وغير المعتدى عليهم بحق اذانة ومعاقبة المعتدين.»

عندما ألف صولون مجلس (الاريباغوس)^(٤٩) من الأراخنة السابقين الذين تولوا هذا المنصب السنوي وكان هو واحداً منهم^(٥٠)، لاحظ أن الشعب الذي تخلص من الديون مازال أمره مضطرباً بجأراً بالشكوى فألف مجلساً آخر قوامه اربعمئة عضو^(٥١)، تنتخب كل طبقة من الطبقات الأربع، مائة عضو له. وواجبه تدقيق وأقرار كل ما يفرض على الشعب من أوامر وقوانين، وبعد ذلك يتم عرضه على الجمعية عامة. أما المجلس الأعلى أو (الاريباغوس) فقد جعله حارساً ومراقباً على القوانين وبذلك كان هذان المجلسان بمثابة مراسيتين للنظام الجمهوري.

(٤٩) Areopagus: اي جبل مارس (أريوس = مارس Arius) و[ياغوس جبل Pagus] وهو موضع في اثينا مرتفع تعقد فيه أعلى محكمة قضائية [م.ت].

إن المحكمة الاريوباغية وإن كانت أسسها قد ثبتت منذ عهد طويل إلا أنها فقدت الكثير من سلطاتها عندما قام (براکو) بتفصيل محكمة ايفيتاي Ephetae. في الزمن القديم حتى مجيء صولون كانت هذه المحكمة تضم أناساً أشتهروا بغناهم ونموذهم ورجاحة عقولهم. على أنه لم يكن لعضويتها إلا من كان أرخوناً. وهذا ما حقق الهدف الذي رمى إليه فقد ارتفع قدر (الاريباغوس) وسمعت مكانتها وامتست قراراتها محترمة، بحيث لم يعد احد يقوى على انتقادها أو رفضها. وظل الأمر كذلك أجيالاً عديدة.

(٥٠) بعد انقراض نسل الميذونتيدي Medontidae. حدد الآثينيون فترة حكم الأرخون بسنة واحدة. وجعلوا المجلس يتألف من تسعة بدل أن يتولاه أرخون واحد. بعبارة أخرى أنهم حققوا ما كانوا يصبون اليه منذ عهد بعيد أعني أن يجعلوا حكمهم الأطلين تحت الرقابة الشعبية العامة. حصل هذا الانتقال العظيم الى الديمقراطية في أثينا أثناء الالبياد الرابع والعشرين الموافق للعام ٦٨٤ ق.م. كان لهؤلاء الحكام مظاهر تمييز وتكريم واضحة ومنها التسمية فالأرخون الأول هو ايبونيموس Eponomus باسمه تفتتح السنة. والثاني يدعى باسيلئوس أو ملك Basileus وقد جعلوا اللقب ثانياً لتعريده من صفة الأولوية. ووظيفة المنصب رعاية الشؤون الدينية وأطلقوا على الثالث اسم [بوليمارخوس Polemarchus] وللأشرف على شؤون الحرب. أما السة الباقون فيحمل كل منهم لقب [تسموثيتي Thesmothetae] وهم الاوصياء على القوانين يراقبون تفسيرها وتطبيقها والحفاظة عليها وإزالة الغموض والتناقض فيها. ويمر هؤلاء الحكام قبل انتخابهم بفحوص صارمة للغاية تشمل التحقيق الدقيق في أصلهم وفصلهم [يجب أن تكون الاجيال الثلاثة الأخيرة التي سبقته على الأقل من أسرته اثينية الجنسية من جهة الأب والأم] ومرجة تفوأم وعباداتهم للآلهة، وحجهم لابيهم وبلادهم وما يملكون من ثروة الخ. وقد بقي هذا المجلس قائماً حتى زمن الامبراطور الروماني كالنيوس.

(٥١) رُفع عدد القبائل في عهد كالستينفوس الى عشر بعد طرده أسرة الپستراتيدي الحاكمة. ورفع عدد اعضاء مجلس شيوخه الى خمسمئة. كل قبيلة تنتخب خمسين عند نهاية العام. ويقدم زعيم القبيلة قائمة بالمرشحين ومن هؤلاء يختار العدد المقرر بالقرعة. ثم يقوم الشيوخ بتعيين الضباط الخمسين ويطلق عليهم اسم (پريتاسي) ويتأرض عشرة منهم الآخرين لمدة أسبوع ويسمون پروتيري ومهمتهم الحيولة بين وقوع فوضى ومن هؤلاء يختار (إيستات) أو رئيس لا يدوم منصبه أكثر من يوم واحد [أرسطو: دستور أثينا ٤٠٨].

يقللان من تعرضها للنوء والغرق، ويحعلان الشعب أكثر هدوءاً واستقراراً. وهذه هي الاسباب التي دعت صولون الى انشاء مجلس (الاريوباغوس) ويبدو ذلك ثابتاً تاريخياً لأن (دراكو) لم يسه بشيء عن وجود الاريوباغيين، في حين يشير الى (الزفيتي Zaphetae) في كل قضايا الدم. على ان لوح صولون الثالث عشر المتضمن القانون الشامس، كانت صياغته كالآتي: «كل من كان مجرداً من حقوق المواطنة قبل أرخونية صولون يستعيد حقوق مواطنته. إلا أولئك الذين ادانهم الاريوباغوس والايغيتي، أو ادانهم الملوك في الپريتانيوم لارتكابهم جرائم القتل العمد مع سبق التصميم، والقتل قصداً، أو من دسّ الدسائس على الدولة أو تأمر عليها - على ان يكونوا في ديار الإبعاد عند سنّ هذا القانون».

من هذه الصياغة يتبين أن الاريوباغوس كان موجوداً قبل قانون صولون، فمن يمكن أن يحاكمه هذا المجلس قبل صولون إن كان هو الذي أوجد مجلس قضائه؟ اللهم اذا كان قد حذف شيء من النص أو شابه سوء صياغة أو عدم دقة وهو أمر محتمل. وأقرب صياغة الى الوضوح هي ان يقال «...أولئك الذين ادینوا بجرائم كان الحكم بها من اختصاص الاريوباغوس والايغيتي^(٥٢) والپريتانيوم عند تشريع هذا القانون»

... يتقون مجردين من حقوقهم، لا تمحى عنهم وصمة العار، أمّا ما عداهم فيعاد اليهم اعتبارهم ويلغى الحكم عنهم. وعلى أية حال نترك الموضوع للحكم القاري».

من بين قوانين صولون، قانون غريب عجيب، فهو يجرّد حقوق المواطنة من كل من يقف على الحياد في اثناء ثورة أو تمرد^(٥٣). والظاهر أن المشرع لم يكن يرى بقاء أي مواطن فاقد الشعور والاهتمام بالمصلحة العامة، منصرفاً الى شؤونه الخاصة فحسب مهتماً بما يعود عليه بالفائدة، مجرداً عن أي تمسّس باضطراب سياسي يذاهم بلده، بل يجب عليه أن ينحاز قوياً الى الجانب المصيب أو الى الحزب الذي يكون الحق الى جانبه فيناضل ويتعاون معهم. لا أن يتعد عن مواطن الخطر ويجلس مراقباً المعركة عن كثب ليرى من الغالب؟

(٥٢) كان أول عمل المجلس القضائي في عهد الملك [ديموفون ابن تيفس] للنظر في دعاوى القتل العمد والقتل القصد دون تصميم. ويتألف المجلس من خمسين قاضياً أثينياً، وعدد غير محدود من الارغوسيين. إلا ان [دراكو] أخرج الارغوسيين. وأمر المجلس بأن يتشكّل من واحد وخمسين من الفاضل الأثينيين وان لا يقل عمر العضو فيه عن خمسين سنة. ومنحهم سلطاناً يعلو على سلطان اعضاء الاريوباغوس. إلا أن صولون خفض هذه السلطة. بحيث جعل هذا المجلس تحت اشراف الاريوباغوس كما حدد صلاحيته القانونية.

(٥٣) يورد [اولوس غيلبيوس] النص الحرفي لهذا القانون. ويضيف قائلاً «ذلك الذي يقف الحياد، يجب ان يجرّد من منازله ويحسر بلاده وأملكه وان يبقى خارج الوطن. ويمدح (غيلبيوس) قصد المشرع من هذا القانون حين ينمّه بـلوتارخ».

ويدو للمرء قابوياً سخيلاً تافهاً أن يسمح لروحة ذات مال موروثة بأن تتخذ أقرب ذوي زوجها عشيراً، إن لم يقيم زوجها بمعاشرتها! على أن بعضهم يمدح القانون ويراها فعلاً لردع أولئك العاجزين عن واجباتهم الزوجية ويسعون للزواج بالوارثات طمعاً بما لهن، مستخدمين السماح القانوني ليعرقوا به سنن الطبيعة. إذ كان الواجب يقضي أما أن يعزفوا عن هذا الزواج أو أن يعيشوا حياة زوجية شائنة، ويعانوا العار والخزي جراء طمعهم وخطأهم المتعمد. هذا فضلاً عن أن اشتراط كون خليلها أقرب اقرباء زوجها هو عملٌ طيبٌ حتى يظل نسب الأسرة لثمة هذه العلاقة.

وبما جرى مجرى هذا القانون في غرابته، ذلك الذي قضى أن يوضع العريس والعروس في غرفة مغلقة الباب حيث يأكلان معاً^(٥٤) سفرجلة وان زوج الوارثة يجب أن يعاشرها ثلاث مرات في الشهر على الأقل فهذا يكون من قبيل التكريم لها وإظهار الحب الواجب من الزوج لزوج عفيفة محصنة. وإن لم تنجب له أولاداً. وهو ما يقضي على كل أسباب الخلاف ولا يؤدي بالخصام الطفيف الى قطيعة. وفي غير مثل هذه الزوجات، منع صولون دفع أي بائعة منعاً باتاً. فلا يكون للعروس غير ثلاث فساتين، وأثاث بيتية بسيطة^(٥٥). لشيء سوى ذلك. لأن صولون لم يشأ أن تعقد الزوجات على أساس الريح أو المال بل أن يسبقها الحب الخالص، واتفاق الميول، وانجاب الأولاد. كما طلبت أم (ديونيسوس) من ابنها ان يقوم بتزويجها أحد مواطنيه اجابها قائلاً «حقاً اني حطمت قوانين البلاد بالطغيان الذي امارسه، لكنني لا أستطيع أن تحدى قوانين الطبيعة أو اوارقها بزواج غير متكافي». مثل هذا الإخلال غير مسموح به في الجمهورية، كما انه لا يفسخ أي مجال لعقد مثل هذه الزوجات غير المتكافئة، التي لا يربطها الحب ولا تصل الى غاية ولا ثمرة. ولقد حق على كل حاكم بعيد النظر، أو مشرع للقوانين ان يقول لشيخ كبير السن ما قيل «لفيلوكتيتس (Philoctetes)^(٥٦) في التراجيديا

(٥٤) ليس غريباً ان تاكل الوارثة وزوجها سفرجلاً (فكل المتزوجين حديثاً ياكلون هذه الثمرة) وهذا ما يجعل حديثهما المتبادل رائقاً. ولاسيما وانها تجعل رائحة الفم طيبة. لكن لداسييه تفسيراً آخر من مؤداه الحرس المتبادل على سلامتها لأن السفرجل كما هو شائع لدى العامة ترياق للسموم ويظهر من [إيليني: التاريخ الطبيعي ١١:١٥ و ٦:٢٣] ان لهذه الثمرة منزلة عظيمة لدى الاقدمين من نواح عدة.

(٥٥) تجلب العروس الى منزل الزوجية قصعة فخارية تسمى [فروغيتيس] تخبز فيها أرغفة الشعير. كإشارة الى انها صارت تضطلع بأمور البيت وانها ستشارك في اشغال الأسرة.

(٥٦) تمثيلية بهذا الاسم لايعلم باسم مؤلفها على وجه الدقة. تدور أحداثها حول [فيلوكتيتس] صديق هرقل ومرافقه. بعد موت هرقل ورث عنه سهامه المغسوسة بدم الهيدرا. سقط أحد هذه السهام على قدمه ببعض الصدفة. فأحدث حرجاً ونقر الجرح فأضطر الأغرقيق الزاحفون على طروادة الى تركه وهو يقاسي ألماً مبرحة في لموس. ولما لم يكن بوسعهم الاستيلاء على تلك المدينة بغير هذه السهام القتالة. فقد أرسلوا اليه وقدأ يلتصقها منه. بنى [سوفوكليس] من هذه الاحدثة مأساة مازالت موجودة.

تزوج امرأة في مقتل العمر ابنتها المسكينة: «خطأ انك تزوجت في حال ملائمة!»
ومن احكام هذا القانون انه «إذا وجد شاب تزوج امرأة غنية كبيرة السن. وقد ازداد بدانة
وسمن كالقطاة وهو في مرتعه، أبعد عنها حالاً وتزوج بامرأة صغيرة ذات سن مناسبة»... وفي
هذا الكفاية.

من قوانينه الأخرى النافعة التي اصدرها، محريم ذكر الموتى بسوء^(٥٧) فمن الصلاح والدين
أن يحتفظ المرء للذاهبين بحرمة وقداسة، ولا يعيب بذكرى من قضى نحبه. ومن حسن الخلق
أيضاً أن يوضع حدٌ للشنآن، يمنع المواطنين من اغتياب الأحياء في المعابد وساحات القضاء
ودوائر الحكومة، أو اثناء الألعاب العامة، ومن يفعل ذلك يجازى بدفع ثلاثة دراخمتين
للمقذوف من غرامة للحكومة قدرها دراخمان. فالعجز عن ضبط العاطفة، دليل على طبع
ضعيف وسوء تربية يصعب تهذيبها في أغلب الأحيان، وقد يكون تقويمها مستحيل. وعلى
القوانين أن تضع في حسابها جميع الاحتمالات ان كان غرض صانعها فرض العقوبات على
القلة المذنبة لأجل الإصلاح لا معاقبة الكثرة دون ما هدف أو غاية.

وكان موضع ثناء عظيم لقانونه الخاص بالوصايا. فقبله لم يكن أحدٌ يستطيع ان يوصي
بماله. لأن تركة الميت هي ميراث مؤكد لأسرته لا ينازعها فيه أحد. فسمح صولون بالوصية،
كذلك سمح بها في حالة ما لو كان الموصي بلا عقب ذكر فله ان يهب ماله لمن يشاء^(٥٨)
وأظهر صولون بذلك أن رابطة الصداقة أقوى من رابطة القرابة، والميول البشرية أقوى من
دواعي الضرورة وجعل مال المواطن ملكاً حقيقياً له يتصرف به دون قيد أو شرط إلا أنه منع
وصية المحتضر وأبطل كل ما جاء منها نتيجة شدة مرض أو بسبب سحر، أو سجن أو اكراه.
أو اغراء اقدمت عليه المرأة الموصى لها، لأن الاغراء على ارتكاب خطأ هو في مستوى الاكراه
وليس ثم فارق كبير بين الخديعة والإجبار وبين الاغراء والاكراه مادام كلا الأمرين يحدان من
حرية العقل سواء بسواء^(٥٩).

وأصدر قانوناً بتنظيم افراح المرأة وحدادها وكيفية مشيتها وألغى كل ما هو ضد الحشمة أو
غير معقول. فلم يسمح للمرأة اثناء خروجها من الدار ان تلبس أكثر من ثلاث قطع من

(٥٧) حتى من قبل أولادهم. وهذا أقصى حدٍ للتحریم [ديموستينس].

(٥٨) «أولاد شرعيين» كما يضعها ديموستينس.

(٥٩) وكذلك رُسم أن لا يستفيد الابناء بالتبني من الوصية. ولكن ما أن يرزقوا أولاداً شرعيين حتى يكونوا
أحراراً في العودة الى الأسرة التي جاؤوا منها. اما اذا بقوا دون اولاد فان الاملاك المورثة بعضل
تبنيهم تعود الى اقرباء المتبني [ديموستينس].

التياب، وإن لا تحمل من اللحم والخمر ما تزيد قيمته على اوبول Obol واحد^(*) أو سلة يزيد ارتفاعها عن كيوبيت^(**) واحد. وإن لا يخرجن ليلاً إلا في عربة يتقدمها مشعل مضيء^(٦٠). ومنع أهل الميت أن يضربن صدورهن اثارة للعواطف أو أن يندبن ميتاً في جنازة آخر^(٦١). وأبطل عادة التضحية بثور على القبر، ودفن أكثر من ثلاثة أردية مع الميت، وإن لا يزور القبر غير ذوي الفقيده^(٦٢) باستثناء مناسبة التشييع. ومعظم هذه الأمور ممنوعة في قوانيننا الحالية. لكن يزيد عليها فيما بعد حالة واحدة، وهي أن تقوم مراقبات للنساء الشاكلات باصدار احكام طفيفة على كل من تسرف في حداثها واطهار حزنها.

ولاحظ صولون ان المدينة أخذت تكتظ بالأشخاص الذين يأتون الى اتيكيا من كل حدب وصوب سعيًا وراء الرزق، وإن معظم البلاد قاحلة ماحلة وإن تجار البحر لا يصدرن لمن لا يستوردون منه بالمقابل فوجه المواطنين الى التجارة. وسن قانوناً ينص على أن الأبن ليس مكلفاً بإعاشة أبه ان لم يقم الأب بتنشئته على حرفة ما^(٦٣)، والمحق يقال أن ليكورغوس ورث مدينة خالية من الأجانب، وارضاً... «تتسع لجماهير غفيرة، تكفي ضعف عددهم»

على حد ما قال [يوربيدس] زد على هذا أن الشغيلة كانوا كثيرين حول سبارطا، ليس بينهم عاطل واحد، وكلهم يعمل ويكدح. ولذلك كان مصيباً حين أعفى مواطنيه من الأعمال اليدوية والحرف الاعتيادية، ابقاهم تحت السلاح وعلمهم صناعة الحرب لا غير. في حين أن صولون استوحى قوانينه من واقع بلاده، ولم يحاول جر الواقع الى قوانينه.

ووجد خصوبة الأرض اضعف من تؤمن عبثة الزارعين، ناهيك بمعجزها عن إعاشة الجموع

(*) عملة يونانية قيمتها عشرة افلس تقريباً.

(**) قياس يوناني طوله ١٨ انجاً.

(٦٠) لثمنهن من ارتكاب اية جريمة تحت ستر الظلام.

(٦١) يسرد [ديموستينس] في (تيموكراتيس) قواعد صولون الخاصة بالجناز على النحو التالي: «فلتسبح اجساد الموتى في البيت بحسب وصية الميت. وفي اليوم التالي قبل شروق الشمس تحمل منه ويتقدم الرجال الجنازة أثناء السير، وتسير التسمية في أعقابها. ويحظر على اية امرأة في الحداد ان تدخل حرم اي ميت أو تسير في جنازته حتى تنقضي على ميتها ثلاثة أعوام كوامل، الا اذا كان الميت الثاني بدرجة ان عم أو ابن خال. هذه القواعد اقتبسها مشترع الألواح الاثني عشر» الروماني ففرضها على الرومان. (٦٢) تعتبر هذه الزيارة هماً من أعمال البر. اما زيارة الغرياء فهي مكروهة إذ يفترض انها تستلطن نية خبيثة مجرمة وهي سرقة عظام الميت لتستخدم في اعمال السحرة.

(٦٣) من يحكم بجريمة الكسل والبطالة ثلاث مرات. يطن لعلما بقتة انسان «سيء السيرة»، وقال بعض الكتاب ان [إراكو] جعل البطالة مرة واحدة جريمة عقوبتها الموت. إلا أن صولون خفف من هذه الصرامة وجعل عقوبة السيء السيرة الغرامة بمبلغ مائة درهم (دراخمة). ويؤكد هيروودوتس وبيون [الرجع السالف ١ و ٦:٢] ان مثل هذا القانون كان مطبقاً في مصر ويحتمل جداً أن يكون صولون المطلع على قوانين تلك البلاد، قد اقتبس هذا المبدأ من هناك.

العاطلة التي لا نتهن الزراعة. فأدخل التجارة في عداد المهن. وأمر مجلس الاربوياعيين بالتحقيق عن مصدر ارزاق كل فرد وعقاب العاطلين. لكن القانون التالي كما شرحه [هيراقلدس بونتيكوس] كان اشد صرامة، فقد قضى بأن لايجبر أولاد النساء، غير المتزوجات بإعالة آبائهم غير الشرعيين. فمن يأبى شكيليات الاتحاد الشريف بالزواج، يعتبر انه يعاشر النساء لأجل المتعة لا لإحجاب الولد، وبهذا يكون حرمانه من كد ابنه السفاح جزاءً وفقاً لأنه حرم على نفسه كل حق له في تأديب أولاده. وجعل من ولادتهم نفسها فضيحة وعاراً.

واغرب ما في قوانين صولون تلك تتعلق بالنساء^(٦٤). فقد سمحت لكل امرء بقتل الزاني حين يضبط في الفراش. لكن اذا اجبر اي رجل حرٌ على الزنا، فعليه ان يدفع غرامة قدرها مائة دراخما، واذا اغواها يُعزم عشرين دراخما. أما أولئك اللاتي يبيعن انفسهم علناً أي العاهرات اللاتي يذهبن علناً الى كل من يدفع لهن أجراً. فلا جناح عليهن وعلى معاشرتهن، وحُرِّم بيع البنت والأخت إلا اذا ثبت انهن خلعن عذارهن، وإن يكن غير متزوجات.

الحق يقال انه ليس من العدل في شيء أن يفرض على الذنب عقاب جد صارم أحياناً، دون اتاحة مجال لندم صاحبه، في حين يعاقب المرء عنه وأحياناً بعقوبة طفيفة جداً، يفرض غرامة زهيدة مثلاً، كأن القضية مجرد لعبة! إلا اذا كانت النقود في آثينا من الندرة بما كان آنذاك. فقلّة النقد تجعل هذه الغرامات عقوبات شديدة جداً. ونحن نرى في تقديم الأضاحي ان ثمن الشاة الواحدة والبوشل الواحد من القمح قد حددا بدراخما واحد لكل منهما. والفائز في الألعاب [الإستمية] يعطى مائة دراخما جائزة، والفائز في الألعاب الاولمبية يعطى خمسمائة ومن يأتي بذئب يعطى خمسة. ومن يأتي بجروء يعطى درخما واحدة وقيمة الثور خمس دراخمات، وقيمة الشاة دراخما واحدة كما يؤكد [ديمثريوس] الفاليري. على أن الأسعار التي حددها صولون في لوجه السادس عشر بخصوص الحيوانات الممتازة هي بالطبع أعلى بكثير من هذه الأسعار، ومع هذا فهي واطنة جداً نسبةً الى الأسعار الحالية. لقد كان الاثينيون أصلاً أعداءً للذئب ارضهم اصلح للرعي منها للزراعة. وبعض المورخين يؤكدون أن طبقاتهم لم تأخذ اسماها من ابنا [أبون Ion] وإنما من الصنائع المختلفة التي يزاولونها، فالجنود يسمون [هوبليتي Hoplitae]. والصنّاع [إيرغادس Ergades] والفلاحون [غيليونتس Gele- lantes] والرعاة والباحثون عن الكلاً [إيغيكوريس Aegicores]^(٦٥).

(٦٤) الزانية لايسمح لها بالزينة أو المشاركة في الفرائين العامة. وإن فعلت فلكل شخص الحق في خرق ثيابها من بُرٍ وقربها في اي مكان من جسها على ان لا يؤدي الضرب الى القضاء على حياتها أو فقـ عينها
(٦٥) هذا التقريب اللغوي العمير في تفسير اسماء القبائل القديمة الأربع التي اشتقت من أسماء ايون =

ولما كانت البلاد الاتيكية قليلة الانهار والبحيرات^(٦٦)، وليس بها بنيايع ثرة والناس معظمهم يستخدمون الآبار التي يتولون هم حفرها. فقد سن صولون قانوناً يسمح بالاستقاء من الآبار العمومية التي تقع ضمن مسافة هيبكون Hippicon واحد (أي اربع فورلنغات)^(*) من المستقين. فاذا كانوا على مسافة أبعد فعليهم أن يحفروا بئراً خاصة بهم. فاذا حفرها إلى عمق ستين قدماً ولم ينبط ماء، فلهم الحق في أن يأخذوا ملء مكيال (سعته اربعة غالونات ونصف غالون) يومياً من جيرانهم. لأنه كان يرى من الحكمة أن تؤمن الحاجة، وأن لا يشجع المرء على الكسل. وكان ذكياً في أنظمتها المتعلقة بشؤون العراس، فمن يغرس شجرة جديدة عليه أن يبعد موضعها مسافة خمسة أقدام من حدود حقل جاره على الأقل. فاذا كانت شجرة تين أو زيتون فيجب أن لاتقل المسافة عن تسع أقدام لأن جذورها تمتد وتنتشر ولا يمكن ان يغرس هذان الصنفان قرب أي نوع من الأشجار الأخرى. إلا وألحقا بها ضرراً لأنهما تقتصان غذاءها وأحياناً تخنقها بعملية تنفسهما ومن يحفر حفرة أو ساقية فعليه أن يجعلها بعيدة عن أرض جاره بمسافة تساوي عمقها ومن يربي قفائر نحل فعليه أن يضعها ضمن مسافة ثلاثمائة قدم من قفائر نحل شخص آخر

ولم يسمح بتصدير مادة إلى الخارج غير الزيت ومن يصدر مادة أخرى غيرها يلغنه الأرخون لعنة ديبية. أو أن يدفع عنه مائة دراخما والقانون التالي مشيت في اللوح الأول من القوانين فلا يظن أحد - كما يؤكد بعضهم - انه لايعقل ان تصدير التين كان ممنوعاً في يوم ما وأن المبلّغ عن المخالفين كان يدعى «المتبصص»^(٦٧)؛ كذلك استقر قانوناً بخصوص جراح الحيوان والأذى الذي يحدثه في الغير. فاذا عض كلب شخصاً أوجب القانون على صاحبه أن يسلمه وقد ربط إلى عنقه جذع خشب طوله اربع أقدام ونصف قدم^(٦٨). وهو ضمان جيد لأمان الآخرين من غائلة الحيوان. أما القانون الخاص بحصول الأجانب على الجنسية الأثينية فهو مما

= الأربعة كما يقول هيرودوتس [٥ ٦٦]، فالأول لا علاقة له بـ Nolpe أي الأسلحة. والثاني لا علاقة له بـ Ergon أي العمل. والثالث لا صلة له بـ ge أي الأرض. والرابع لا صلة له بـ aix أي العنزة. (٦٦) يحدثنا [سترابو] عن وجود بيع ماء غير بالقرب من ليكوم. وينوء افلاطون ببيع ماء بارد في غاية الصفاء. إلا ان اتيكاً هي بلاد قاحلة عموماً وكل من نهري اليليسوس، داريدانوس لا يجريان باستمرار. حتى كيبسوس نفسه الذي كثيراً ما يتدفق ماؤه، ويلبث أن يجف صيفاً في أغلب الأحيان (٥) مقياس طولى يبلغ حوالي ٢٢٠ ياردة فيكون الهيبكون حوالي ٨٨٠ ياردة. (٦٧) الترجمة الحرفية يجب أن تكون «عارض التين» وقد أنتشر هذا الاسم فيما بعد فأصبح هكذا Syco- phant ويقترن بصفات رذيلة كالمقارة والذلة والوضاعة. (٦٨) هذا الحكم وعدد آخر من أحكام صولون، دخلت في أحكام الألواح الاثني عشر الرومانية. فقد أرسل الرومان في حدود ٢٠٠ ق.م وفداً إلى أثينا لإختيار بعض القوانين اليونانية لقانونهم المدني.

يشكّ في صلاحه. إذ لم يسمح بهذا الامتياز إلا لأولئك الذين حكموا في بلادهم بالنمي المؤبد أو من جاؤوا اثينا للتجارة تصحبهم أسرهم. ولم يكن يقصد من هذا التحديد، تشييط همة الاجانب في الحصول صفة المواطن الاثيني الحر، بل لتحريضهم على المساهمة الفعالة الدائمة في الحكم، زد على هذا أن أولئك الذين اخرجوا قسراً من بلادهم أو تركوها بحص اختيارهم سعيّاً وراء الرزق سيكونون أكثر إخلاصاً لبلادهم الجديدة من وطنهم الأول.

وأما قانون الملاعب العامة (واسمه پاراسيتين Parasitein)^(٦٩) فهو نموذج للقوانين الصولونية بفرايته. لأنه يعاقب المتردد عليها كثيراً، مثلما يعاقب المنقطع عنها، فالأول مفرط في استمتاعه، والثاني مستخف بالدولة

وحدد سريان هذه القوانين بمائة عام، وكتبها على ألواح، أو بكرات خشبية أو ما يدعى [أكسون Axon] تدار حول محورٍ وهي في خزانات. وقد ظلت بقايا منها في الپريتانيوم أو القاعة العمومية في آثينا معروضة للناس حتى أيامي. وقد عرفت حسب قول ارسطو باسم [كيريس Cyrbes]^(٧٠) بدليل آيات للكوميدي [كراتينوس Cratinus]:

«بعد استئذانك - أقول بفضل صولون وبفضل دراكو اللذين أشعلت
[كيريساتهما] النار التي حُصّصت بها حبات فاصوليائنا»^(٧١)

لكن بعضهم يقول أنها [كيريسات] تامة تتضمن قوانين متعلقة شعبنا بالقرايين وبفرائض الدين وغيرها.

لقد أقسم المجلس كله على تأييد هذه القوانين. كما أقسم كل فرد من طبقة الـ: تسموتيتيا عند حجر ساحة السوق، بأن يقدم كل من خرق نصاً من نصوصه - مثلاً ذهبياً مساوياً لجسمه الى دلفي^(٧٢). ولاحظ مقدار الاختلاف بين أيام الأشهر، وان القمر لا يطلع ولا يأفل بحسب

(٦٩) ومنها جاءت كلمة طفيلي Parasite المعروفة في أغلب اللغات الأوروبية على أنها كانت من الصفات المشرفة في الأزمنة القديمة [أثينيوس ٦:٦] إذ كان يقدم بها رفيق الطمان على مائدة القرايين. وبيان ذلك أنه كان ثم في بلاد الأغريق عددٌ من الأشخاص كرم بهذه الصفة وظيفة افراده انتقاء الحبوب والثمار وما هو ضروري للتقدمات العامة. وقد أمر صولون بأن تقدم كل قبيلة ذبيحة واحدة في الشهر وبعد انتهاء مراسيم القربان تقدم مائدة عامة يساهم فيها كل فرد من القبيلة بدورٍ ولا تشهر به أو يجب عليه تقديم هذر مشروع لتقاعسه.

(٧٠) ارسطو [دستور اثينا ١.٧].

(٧١) معاصر [يريكلس] وبعد صولون بحوالي مائة وخمسين سنة، عندما أعملت قوانين هذا الأخير تماماً.

(٧٢) في ذلك الزمان كان الذهب نادراً في اليونان، حتى ان السبارطيين الذين أمرتهم النبوة بطلاء وجهه تمثال ابولو بالذهب. لم يجدوا الذهب الكافي. فنشأت العرافة الكاهنة عليهم بشرائه من (كروسوس) ملك ليديا.

حركة الشمس، فكثيراً ما يسبقها ويشرق قبلها. وأمر لذلك أن يسمى اليوم قديماً أو حديثاً معيداً الى الشهر القمري السابق ذلك الحزء الباقي منه قبل حصول الاندماج، ومضيفاً اليوم المتخلف الى الشهر القمري الجديد، ويظهر انه أوّل من فهم بيت الشاعر هوميروس:

« تلك نهاية الشهر القديم وبدأ الشهر الجديد » (٧٣)

وأطلق على اليوم الذي يتلوه « القمر الجديد ». وبعد اليوم العشرين لم يعد بالاضافة اليه. بل طرح العشرين من الثلاثين بحسب اوجه القمر المتناقصة. وعندما بدء بتطبيق قوانينه (٧٤) أخذ الزوار يتقاطرون اليه يومياً مدحون بعضها وينتقدون بعضها وينصحون بتعديدها وتعديلها الا أن القسم الاكبر جاء ليطلب معرفة السبب في وضع هذه المادة أو تلك تفسير واضح دقيق للهدف والمعنى. وتغادياً للحرجة وخوفاً من اساءة التفسير أو خليقاً بتنفيذ رغباتهم قرر التخلص من هذا الموقف الصعب ومصادر الحيرة هذه والحاح المواطنين « ففي الأمور الكبرى يصعب ارضاء الجميع » (٧٥) كما قال لنفسه وتحت الادعاء بالتجارة...

(٧٣) إكتشف صولون خطأ نظرية (هاليس) القائلة بأن القمر يكمل دورته في ثلاثين يوماً. فقد وجد أن الوقت الذي تستغرقه الدورة هو تسعة وعشرون يوماً ونصف يوم. فامر بأن يكون شهر واحد مؤلفاً من ٢٩ يوماً، وشهر ثانٍ مؤلفاً من ٣٠ يوماً بالتناوب وبعد هذا وجد أن مجموع ايام السنة القمرية ٣٥٤ فلاجل مساواتها بالسنة الشمسية امر باستحداث ٢٢ يوماً أو ٢٣ يّزاد كلّ سنتين. كذلك امر الاثنين بتقسيم شهورهم الى ثلاثة اقسام وهي البداية و لوسط والنهاية. كل قسم من الشهر يتألف من عشرة ايام. والشهر الأخير البسيط يتألف قسمه الثالث من تسعة ايام. وبحساب الايام فازيم يتداولون القول هكذا: أول يوم من مبدأ القمر أو ثاني يوم من وسط القمر (اي اليوم الثاني عشر من الشهر) أو آخر يوم من نهاية القمر (ويقصدون اليوم الثلاثين من الشهر).

(٧٤) نوه بولتارخ بذلك الجزء من قوانين صولون التي وجدها فريدة تستدعي الالتفات. إلا أن [ديوغينيس ليرتيوس] و[ديموستينس] ذكروا مجموعة أخرى لا يمكننا اغفالها هنا وهي: (١) من لا ينفق على امه وابيه بالشريير السيء الصيت. (٢) وكذا يعامل ناكرايوته. (٣) الرجل الذي يختلف الى بيوت الفسق والفجور يمنع من الكلام في الاجتماعات العامة. (٤) محظوظ على الوصي أن ينام أو يعاشر أو يتزوج والدة ذلك الذي نُصب وصياً عليه. (٥) لا يباح تعليم القاصر بذلك الذي يليه في حق الميراث. (٦) يحظر على حفّار الاختتام الاحتفاظ بالاصل الذي نقش عنه الختم. (٧) من فقا عين أخر فلتفقا عينه. (٨) اذا ادمن (أرخون) على الضمر فيجب قتله. وأما الاحكام التالية فقد أوردها ديموستينس (أ) من رفض التطوع في الحرب أوفر وأظهر جبناً، يمنع من غشيان الاماكن لعامة والميدان العام واماكن العبادات العامة. (ب) اذا فاجأ رجل زوجه متلبساً بالزنا وعاشرها بعد ذلك فامه يعدّ من الاراذل. (ج) يلاحق القوّاد ويقتل عند القبض عليه. (د) إن قام أحد بسرقة في ساعات النهار، فليؤت به الى الضباط الأحد عشر، وإذا قبض عليه متلبساً بسرقة في ساعات الليل فليقتل. أو يُجرّح في حالة هروبه، ويحمل الى الضباط الأحد عشر في حالة الغاء القبض عليه. وان سرق اموالاً عامة فعليه أن يدفع ضعفها. وإذا شاء المحكوم (عند عدم رفع الغرامة) فليكل بالاعلال لمدة خمسة ايام. وان جُدّف أو ارتكب عملاً محرماً فليقتل.

(٧٥) المقطوعة رقم ٧.

ابتاع سفينة تجارية قاصداً السفر، ورحل وغاب فترة أمدها عشر سنوات، وكان يأمل من ذلك أن تثبت قوانينه في نفوس المواطنين ونزل مصر^(٧٦) أولاً وسكن حسب قوله «قريباً من الموضع الذي منه يصب النيل فيه ماء» الدافق عند ساحل قنوب - Canopus»

وامضى ردها من الرمس يدرس مع (پسنوفيس Psenophis) من مدينة هليوبوليس، و(سونخيس Sonchis) السايتي Saite وهما أوسع الكهنة ثقافة وعلماً. ومنهما ظفر بمعلوماته عن قصة جزيرة اطلانطيا Atlantia^(٧٧). فقرر نقلها الى اليونانيين وشرع في نظمها شعراً على قول افلاطون. ومن مصر رحل الى (قبرص) فأحتفى به (فيلوقبروس Philocy-prus) وأكرمه إكراماً عظيماً. وهو أحد الملوك فيها، كان يحكم مدينة بناها (دموقون) ابن (تسيوس) بالقرب من نهر (كلاريوس) وموقعها حصين. إلا أنها صعبة الوصول، غير مريحة للسكان. فأغراه صولون بأن ينقلها الى السهل الجميل المنبسط تحتها ويجعلها مدينة جديدة أجمل وأوسع من مدينته تلك وبقي هناك وساعد في جمع السكان اليها، وفي هندسة تحكيماتها ودفاعاتها وجعلها مريحة للسكنى، بحيث تقاظر الناس اليها. وحذا ملوك قبرص الآخرين حذو (فيلوقبروس) وأختطوا مدنهم الجديدة بالشكل نفسه وإكراماً لصولون واعترافاً بفضلته أطلق الملك اسمه على المدينة فصارت تدعى (صولي Soli) وكانت قبلاً (إيبي Ae-pae). ونوه صولون بعبادته تأسيسها في إحدى ملحmates المهداة الى (فيلوقبرص) اذ قال:

«ألا فلتعش على عرش (صولي) عمراً مديداً، وليخلقك ابناءً من صلبك. ومن جزيرتك السعيدة (قبرص) فلتُرسل لي وأنا أبهر - ربح رخاء، لتهب مباركته حكمك الجديد. وليشع الإزدهار في مدينتك، ولترس بي الى البر بأمان.

ويرى بعضهم أن حكاية لقاء صولون (هكروسوس) لا تتفق مع الوقائع التاريخية. إلا أنني لا استطيع أن اتعاضى عن حادثة بلغت هذا المبلغ من الذبوع وأسقطها من الحساب بعد أن

(٧٦) من المحتمل أن ذهابه الى مصر كان لغرض بقائه بعيداً عن الأحداث لا هرباً من طليان (پستراتوس). كما يقول بعض الكتاب فسنة لم تكن تتحمل ذلك في الثانية، وتعليل پلوتارخ لسفره هو الصحيح. و[القنوب] مدينة تقع على مصب النيل ويدعوها هيرودوتس «معادي» وهليوبوليس هي «المطرية» وسائس هي «سا» وكلاهما من المدن العتيقة الموطلة في القدم.

(٧٧) ابنى افلاطون هذا التاريخ من ذكريات صولون [كما يتضح من مناظرثه طيماؤس وكريتياس]. وبحسب ادعائه كانت الاطلانطيس الذي ينسب اليها المحيط لأطلنطي. أكبر مساحة من آسيا الصغرى وأفريقيا (المعومة آنذاك). وبصرف النظر عن سعتها فإنها غرقت في يوم ويلة ويحدثنا (ديودورس) ان القرطاجيين الذين أكتشفوها فرضوا عقوبة الموت على من يسكنها. ومن ضروب الحدس التي لحقت بهذه الاسطورة هو ان القرطاجيين عرفوا أمريكا عن طريقها. وهناك رأي آخر مؤاده ان الاطلانطيدي (الجرر السعيدة) هي المعروفة اليوم بجزر الكناري.

تواترت وقوي سادها. هذا فضلاً عن ملاءمتها لطبيعة صولون وحدايتها بحكمته وسعة عقله. وإن كانت في الواقع لا تتفق وبعض الروايات التاريخية. التي لم تغلج جهود آلاف المؤرخين في ترتيبها وتسقيتها وفق نظام يتفق عليه الجميع وترضى عنه كل الآراء. يقولون أن صولون قدم الي (كروسوس) بطلب منه. وكانت حاله عند اللقاء شبيهة برجل البر عندما يرى البحر لأول مرة في حياته، فكما يتوهم بكل نهر يصادفه بحراً محيطاً، كذلك كان صولون وهو يسير في بلاط الملك مشاهداً العدد الهائل من النبلاء وعليهم انفس الحلل، يحيط بهم الحرس الكثير والسعاة الصبيان. وتوهم في كل واحد بأنه هو الملك، حتى بلغ [كروسوس] وكان هذا يتسحلي باندر وانفس ما يخطر بالبال من الجواهر والذهب ويرتدي أغلى حلل الأرجوان- وبدأ منظره مهيباً فخماً يبهـر العين. لكن صولون لم يظهر ما يدل على دهشة واستغراب عندما مثل امامه. كذلك لم يثن عليه بما كان كروسوس يتوقعه. بل اوضح بسلوكه لكل عين نفاذه انه رجل يحتقر كل مظاهر الأبهة والفخفة، والاختيال الرخيص الذي ينطوي عليه المشهد. وأمر كروسوس خدمه أن يفتحوا لصولون ابواب خزانته وكنوزه ويعرضوها لانظاره ولم يكن صولون ليرغب في شيء من هذا. لأنه كوّن فكرته الصائبة عن صاحبها حال ما وقع نظره عليه. ولما عاد من جولته تلك سأله كروسوس: هل عرف أحداً يرفل في مثل سعادته؟ فأجابه صولون انه عرف شخصاً يدعى [تيللوس Tellus] وهو مواطن اثيني من بني قومه. كان رجلاً نزيهاً ذا ابناء صالحين وثروة لا بأس بها. مات موت الأبطال في ساحة القتال دفاعاً عن بلاده. فورما كروسوس بسوء الفهم وأفن الرأي لأن مقياس السعادة عنده لم يكن كثرة الذهب والفطنة. وانه فضلّ عليهما حياة وموت رجل بسيط مغمور بالنسب بالمقياس الى هذا القدر في العظمة والسلطان. ثم انه سأله ثانية: هل عرف رجلاً أكثر منه سعادة غير [تللوس] فأجاب صولون: «بلى، [كليبيوس Cleobis] و[بيتون Biton] وهما شقيقان عظيمي الحب بعضهما لبعض وابنان طائعان لوالديهما الى أقصى حدود الطاعة ولما تأخر جلب ثورين لجرّ عجلتها، شدّ انفسيهما في النير وسارا بالعجلة الى معبد [جونو] وأكبر جيرانها سعادتها في ابنيها، فامتلات حبوراً، وبعد تقديم القرابين واجراء المراسيم الدينية خرج الشقيقان ليصيبا شيئاً من الراحة وناما ولم يستيقظا، ماتا ميتةً هائلةً هنيئة وهما في ذروة التشريف والتكريم». قال كروسوس غاضباً: «اذن فأنت لا تعدنا بين السعداء قط؟» ولم يكن في نية صولون مجاملته، ولا اغضابه أكثر مما أغضبه قائلاً: «إن الآلهة أيها الملك قد تفضلت على الأغريق بكلّ النعم الأخرى على درجات معتدلة، لذلك كانت حكمتنا عادية بسيطة، لا حكمة ملوكية نبيلة. وهذا ما يمنعنا - بعد ملاحظتنا مالا يحصى من البلايا المحدقة بأحوال

البشر - من التجبر والتأفف من متع حياتنا آلانية، وبحول بيننا وبين الدهشة لسعادة أي إنسان لأن التبدل يطرأ عليها بمرور الزمن. فالمستقبل المجهول قد يأتي بأي تغيير في حظوظ الانسان. ونحن لانعد المرء سعيداً إلا ذلك الذي حبته الآلهة بسعادة دائمة طوال حياته. ونحن لانميل الى وصف المرء بالسعادة وهو في منتصف حياته عرضة الى تقلبات حظوظه. وليس من سلامة الرأي وثباته أن يتوَجَّ مصارعٌ ويعلنُ فوزه وهو ما يزال في حلبة النزال».

بعد هذا صرفه [كروسوس] وفي نفسه ضيق وانزعاج. ولم يعظه صولون بشيء ما.

كان [ايسوب] مدون الأساطير في [سارديس] قد حُلَّ ضيفاً على كروسوس آنذاك بدعوة منه، ونال لديه خطوة كبيرة. وقد أصابه غمٌ عظيم لاساة استقبال صولون، فأُتصل به وقدم له النصيحة بقوله: «أي صولون! فليكن حديثك مع الملوك إما قصيراً أو معقولاً فأجاب صولون: «لا هذا، ولا ذاك، لن يكون قصيراً ولا معقولاً. لذلك استخفَّ [كروسوس] بصولون في حينه. لكن لما تغلب عليه [كورش] وأستولى على مدينته، وأخذ حياً وحكم عليه بالحرق ووضع فوق اكداش الحطب مقيداً على مشهد من جميع الفرس وبحضور الملك كورش نفسه هتف بأعلى صوته ثلاث مرات: «ايه يا صولون!» فعجب الملك وارسل من يستفسر: أي رجل أو آله صولون هذا الذي استصرخه وحده في صيقلته شديدة؟ فانضى اليه [كروسوس] بالحكاية كلها قائلاً: «انه أحد حكماء الأغريق العظام، استقدمته لا ليعطيني أو يعلمني شيئاً احتاج اليه. وانما لأريه سعادتي وأشهده عليها فظهر أن اليأس في فقدان تلك السعادة كان أشدَّ وقعاً من لذة التمتع بها. عندما كنت حائزاً عليها بداخيرها موضع أخذ وردٍ واحتمالات. اما الآن فقد جلبت خسارتها بلوى حقيقية يصعب احتمالها. وقد أدرك صولون ذلك ونظر الى نهاية حياتي فاستنتج ما سيكون مما هو كائن حينئذ ولم يعتمد على المجهول المشكوك فيه، ولم يزلزل حكمه ما رأي». لما سمع كورش ها الكلام - وكان اوفر عقلاً من [كروسوس] ووجد في المثل الشاخص امامه تحسيداً لنيوة صولون، لم يكتف باطلاق كروسوس، والعفو عنه بل اكرمه طوال حياته. فكان لصولون أن يفخر في أنقاذ ملك ووعظ آخر.

عندما غادر صولون آثينا بدأ الخصام بين الآثينيين. فتزعَّم المدعو [اليكورغوس] حيَّ السهل. وتزعَّم [ميغالس ابن الكميون] سكان الساحل ووقف [پسمستراتوس] على رأس حزب حيَّ المرتفعات (٧٨) حيث يسكن [الثيتس] أفقر الناس، وأعدى اعداء الاغنياء، وأخذت المدينة تتطلع الى حكم جديد، وان ظَلَّت تطبق قوانين صولون الجديدة. وكان امل الثيتس كبيراً

(٧٨) هذه الاحزاب الثلاثة التي انشعب اليها الآثينيون كنا قد نوهنا بها سابقاً وهي على التوالي «بيديائي» Pe-
dieai و«پارالي» Parali و«ديكيكروني» Dikiirni.

في ان التعبير سيكون أصلح لهم، وسيجعلهم أقوى نفوذاً من الحزب المناوي.

هكذا كانت الأحوال عندما آب صولون فاستقبله الجميع بتجلة وإكرام. لكن كبر سنّه حال دون قيامه بأي عملٍ أو نشاط. بل حتى القاء الخطب العامة كالسابق. إلا أنه حاول رَأب الصديق وتسوية الخلافات بالمباحثات الخاصة مع زعماء مختلف الأحزاب. وبدا له [پستراتوس] أكثرهم تفاهماً بأنه كان لين العريكة الى أقصى الحدود، لطيفاً غابة اللطف في أقواله. وصديقاً كبيراً للفقراء^(٧٩)، معتدلاً غاية الاعتدال في خصومته السياسية. وقد أوصله ذكاؤه وفراسته الى ما حرّمته منه الطبيعة لذلك كان موضع ثقة أكثر من الآخرين. وأشتهر بالخصافة وحب النظم والعدل، ومعاداة كل من يحاول النيل من نظام الحكم القائم. بهذا كله استمال أغلبية الجماهير ونجح في اقناعهم. ولم يلبث صولون أن فهم طبيعته، وأدرك نواياه ووقف على خطئه قبل غيره. إلا أنه لم يكرهه بسبب طموحه. وأخذ يحاول تعويده على التواضع وتخليصه من الطموح وكثيراً ما قال له وللآخرين. لو استطاع القائد أن يتخلص من حبّ العظمة ويجتثّها من فكره وبرأ من رغبته في الحكم المطلق فلن يقوم مثله رجلاً فاضلاً ومواطناً ممتازاً في البلاد كلها. وكان [تسپيس Thespis] في تلك الأيام قد بدأ يغير في شكل التمثيليات التراجيدية، فتعلق الناس بها كبديعة جديدة، وإن لم تصل في حينه الى مرحلة المنافسة والمسابقة. وكان صولون بطبعه ممن يحبّون سماع الأشياء الجديدة وتعلمها وبما انه كان عاطلاً بالغا أرذل العمر وليس لديه ما يشغل به نفسه غير الخمر والموسيقى، فقد ذهب لرؤية [تسپيس] هذا وهو يمثل جرياً على العادة. وبعد انتهاء التمثيلية وجه اليه الكلام قائلاً: الا يشعر بالخلجل وهو ينثر الأكاذيب نشرأ أمام هذا العدد الكبير من الجمهور؟ فأجابه [تسپيس] قائلاً: لا ضرر ثم في ترديد الأكاذيب وتمثيل المسرحيات. فرفع صولون عصاه ودق بها الأرض وقال: و«ويحك يا هذا! لو أننا حبذنا مسرحية كهذه وأثنيينا عليها فسنجد انفسنا يوماً ونحن نباشر أمثالها!».

فلما أحدث [پستراتوس] جرحاً بجسمه^(٨٠) وحمل في عجلة الى ساحة السوق الكبرى وراح يُشير الناس موهماً أن خصومه هم الذين جرحوه بسبب نشاطه السياسي. فثار غضب

(٧٩) المقصود بالفقراء هنا ليس أولئك الذين تحلّ الصدقة عليهم. فأمثال هؤلاء لم يكن لهم وجود في اثينا، يقول [ايذوقراطس] «هي تلك الايام لم يكن ثم مواطن مات بسبب الفقر. ولم يكن ثم من يستعدي في لطرقات حالياً على المجتمع العار».

(٨٠) يصيف هيرودوتس (٥٩١) انه جرح أيضاً بفال عجلته، وفي خطبة حماسية لبني قومه ذكرهم بمأثرة هي خدمتهم ضد الميعاريين الخ. وقد وقع هذا الحدث في اثناء الاولپياد الثامن والخمسين = ٥٦٠ ق.م [ارسطو دستور اثينا ١٠١٤].

الجمهور وراح يهتف له، وتقدم منه صولون وقال له: «يا ابن هيبوقريطس، انك تقدم نسخة غير دقيقة من أوديسا [اوليسيسوس] هوميروس، عملها ليخدع بها أعداء، بينما فعلتها انت لخداع بني قومك»^(٨١) بعد هذا هاج الجمهور وتدافع لحماية [پستراتوس] وعقدوا اجتماعاً عاماً فيه تقدم أحدهم وهو [ارسطون] باقتراح يقضى بتخصيص خمسين حامل دبوس لحراسة [پستراتوس] فعارض صولون في ذلك وتكلم كثيراً بالمعنى الذي ضمنه الايات التالية:

«لقد سحركم بكلماته المسحقة، وعباراته الأخاذة

الى ان يقول:

حقاً أن كل فرد منكم ذكيّ أريب بنفسه

ولكن ما أن تجتمعوا معاً حتى تكونوا اشيء بشخص غيبي أجوف»

ولاحظ ان الطبقة الفقيرة تميل الى تحبذ الاقتراح بحماية [پستراتوس] وقد هاج هانجهم، ورأى الخوف يستولي على الاغنياء وهم ينسلون مبتعدين عن مكان الخطر والأذى. فترك الاجتماع قائلاً: انه أعقل من بعض الناس، وأقوى من بعضهم الآخر، أعقل ممن يفهم الدوافع والغايات، وأقوى ممن يفهم و خاف الوقوف في وجه الطغيان. وبعد ان صدر الشعب قراراً يقضي بحراسة [پستراتوس]، لم تتم الموافقة حول عدد الحرس، إلا أنه لم يهتم بذلك قلامة ظفر وجند العدد الذي شاء منهم وأحتل بهم [الأكروبوليس] فضجبت المدينة وسادها الاضطراب، وهرب [ميخاكليس]^(٨٢) وكل افراد أسرته. اما صولون الهرم - المعنوم النصير فقد خرج الى ساحة السوق الكبرى والقى خطبة على المواطنين، أنبهم فيها على ضعف نفوسهم وعدم مبالاتهم من جهة أخرى على ان لا يخسروا حريتهم بهذا الشكل الذليل الخانع ثم قال قولته المشهورة:

«في الماضي كان وقف الطغيان مهمة سهلة، أما الآن فليس أدعى الى التمجيد

والفخار من العمل على ازالته عندما بدأ يذو قرنه ويشدد ساعده.»

لكن الجمهور كان يخشى الانحياز الى صفه. فأب الى معناه كنيهاً وحمل شكة سلاحه ووضعها في شرفة امام باب داره، ومعها العبارة التالية: «لقد انجزت مهمتي في المحافظة على بلادي وقوانين»^(٨٣) ثم اعتزل كل شيء. ونصحه الاصدقاء بالفرار فأبى، وعكف على

(٨١) الاوديسي ٢٤٤:٤-٢٦٤.

(٨٢) ام لقلادون وهي سليلة أخ لصولون.

(٨٣) «وان على الآخرين أن يعملوا كذلك». أطر [ارسطو دستور أثينا ٢:١٤].

قرض الشعر في تأنيب الاثنينين كقوله:

إن ركبتم النوائب اليوم لجن أصابكم كلكم فلا تلقوا باللوم على الآلهة. فهي
آلهة خير والخطأ خطأونا جميعاً. لقد وضعت كل الحراس بين يديه، وعليكم الآن
أن تنفذوا ما يأمر به».

وقال له كثيرون أن (الطاغية) سينزع منه حياته لهذا السبب، وسئل على من يعتمد في
البقاء إن كان مصمماً على الاستمرار في هذه الأقوال الجريئة فأجاب «على شيخوختي» ولكن
لما تسلم (پسستراتوس) مقاليد الحكم أكرم صولون كثيراً ورعاه. ولم يبطل قوانينه وإنما
طبقها حتى على نفسه وارغم أتباعه على احترامها، وبعث برجو ملاقاته وطلب النصيح منه
ووافق على كثير من اقتراحاته. حتى بعد أن انقلب طاغية مستبداً؛ لما اتهم بجريمة قتل أمام
(الاروياغوس)، مثل بكل هدوء أمامه لدفع التهمة عنه وتبرئة نفسه ولكن المشتكي لم
يحضروا. وأضاف قوابين أخرى جديدة منها: تكفل الحزينة العامة بالاتفاق على مشوهي
الحرب. وهذا ما ذكره (هيراقلیدس پونتیکوس)، قائلاً أنه اتبع خطي صولون فيما رسمه
بقضية المدعو (ثيرسپپوس Thersippus) الذي أصابته الحرب بعاهة ويؤكد (ثيوفراستوس)
أن مشترع قوانين معاقبة العاقلين الذي سبب زيادة الغلة في البلاد والاستقرار والهدوء إنما هو
(پسستراتوس) لا (صولون).

وتوقف صولون عن العمل في اثره الشعري العظيم «تاريخ أو أسطورة الاطلاتيد»، التي
أخذها عن حكماء (سپاس Sais)^(٨٤) ورأى من المناسب أن ينقلها للاثنين، فبدأ بنظمها
ولكنه توقف، «لا لضيق وقته، بل للكبر سنه وقصود همته عن عمل ضخم كهذا» على حدّ
قول افلاطون. فأوقات فراغه كانت كثيرة كما يشهد عليه بيته التالي:

«كل يوم ازداد سنًا، واتعلم شيئاً جديداً»

وهذا الآخر: «والآن - فإن آلهة الجمال والغناء والخمر» التي هي مصدر سعادة
معظم الناس أصبحت آلهتي أيضاً.

ورغب افلاطون ادخال تحسين على قصة جزيرة الاطلنطيس^(٨٥)، كأنها ضيعة جميلة بحاجة
الى وارث أقبلت تسعى اليه بسند ملكيتها، فعمل لها باباً فخماً وسوراً مهيباً وخط لها

(٨٤) لا أثر لمل هذا الكتاب ولعل نسبته اليه من نسج خيال افلاطون.

(٨٥) يزعم [ديوجينيس ليرتيوس] انه مات في قبرص [٦٢١:٥٠]. وأن تدرية رماد جسده ثم بناء على وصيته.
وسواء أكان ذلك صحيحاً أو أن تفسيع ذلك جاء من الكتاب، مياعتقانا ان الجهة التي أخذت ذلك كانت
تريد أن تشبيه بومسية [ليكورغوس] حول مصير جثمانه بعد موته.



POPPLICOLA

،publicola،

503

هكذا كان صولون، وبه نقارن [پوبليكولا] - منحه الرومان هذا اللقب بالأخير إعترافاً بفضل^(١) وزيادة في تكريم اسمه القديم [پوبليوس فاليريوس Publius Valerius] ^(٢) وهو من نسل [فاليريوس] أحد مواطني روما الأوائل. وعرف بأنه رئيس العاملين على إزالة الخلافات بين الرومان والسابين. ذو لسان قوي في اقناع الملوك بالخلاد الى السكينة وتوحيد الشعب. هذا هو نسب [پوبليوس فاليريوس] على ما قيل. نال سمعة داوية في فترة حكم الملوك - لفصاحته، كما اشتهر بغناه. إلا أنه كان يوزع ماله بلا حساب على المعوزين، يستخدم البلاغة بكفاءة ونشاط في خدمة العدالة، وغدا معروفاً أنه المرشح الوحيد ليستلم المنصب الأول في البلاد فيما لو تغير نظام الحكم وأصبح جمهورياً. إن ارتقاء [تاركوينيوس سوپربوس Tarquinius Superbus] العرش بالخدبة^(٣) والغش، وجعله المقام الملكي اداة للإعتداء والطغيان بدل ان يكون حكماً ملكياً عادلاً، ملأ الشعب كرهاً لحكمه وبموت لوكريسيا [التي قتلت نفسها بعد اعتدائه عليها]^(٤) حانت الفرصة للثورة، وشارك [لوشيو

(١) في نهاية قنصليته الأولى عندما هدم منزله. وكسر شوكة الفاشي أمام قوة الشعب وعظمت.

(٢) كان فاليريوس فوليو - كما يقول ليفي - أول رجل من أسرته أستقر في روما. وهو واحد من الزعماء الاشراف الثلاثة الذين تبعوا [طاطيوس] الى روما [ديوان ١٠:٢].

(٣) من الانتهاكات الأخرى انه وطئ جسد حبيبته القتل [سرفيوس تلوس] وهو في طريقه للجلوس على العرش [ديون ١٠:٤] و[ليفى ٤٨:١] وآخرين.

(٤) يقول ليفي [٥٨٠١هـ] انها طلبت حضور ابوها وزوجها الى منزلها فاقبل [لوكريسيوس] أبوها برفقه [پوبليوس فاليريوس اي پوبليكولا] وزوجها [لوشيو يونيوس بروتوس] وعدد كبير من عظماء الرومان وبكلمات قليلة كشفت لهم عن جلية الأمر. وصرحت بعزم ثابت بقرار انهاء حياتها بعد ان تم شرفها. وحثهم على أن لا يتركوا الجريمة التي اقترفها مغتصبها دون عقاب. راحت كل جهودهم لثنيها من قصدها عبثاً وغيببت خنجرها في صدرها. بينما شاع الحزن والأسى في نفوس الجميع، وهنا استل بروتوس الغنصر الدامي ورفع (وكان حتى تلك الساعة يتصنع العنون كي لا يباله اذى المستبد) وقال: «اقسم بهذا الدم الذي هو في منتهى الطهر والذي لا يمكن ان يمسسه إلا دماء تاركوين القذرة. اقسم امي سلاحق تاركوين العطريس وامراته الشريرة وأولادهما بالنار وبالسيف وإن أدع واحداً من هذه الأسرة يحكم روما. أناشدهي عسى قسمي هذا ايتها الآلهة». بعد ذلك سلم الخنجر لكولاتيس ولوكريسيوس وقاليريوس وغية الحاضرين ورمطهم بالقسم نفسه. يقول ديوبيسيوس ان بروتوس راح يخطب في الناس حهاراً وعلناً، حتى أن المؤتمرين استخبره قنصلاً مع كولاتيس ولما علم تاركوين بالثورة عمل في العودة الى روما فوجد اوليها موصدة في وجهه ورفض دخوله الى المعسكر فذهب الى «كابي».

بروتوس [Lucius Brutus] في الانقلاب. واتصل [بفاليريوس] قبل أن يتصل بكل أحد بدلاً من ملك. فوافق [فاليريوس] وقال ان المنصب من حق [بروتوس] لكونه مؤسس الديمقراطية. لكن لما كان اسم (النظام الملكي) بغيضاً من الشعب، وان توزيع السلطة بدأ أكثر اتساقاً واستماعة وموائمة للنظام الجديد. فقد انتخب اثنان ليمارساها، وكان [فاليريوس] يأمل أن يلموز بمنصب القنصل مع بروتوس^(*)، فخاب فأله وانتخب [تاركوينيوس كوللاتينوس Tarquinus Collatinus]^(٥) زوج [لوكريسيا] قنصلاً بدلاً منه رغم مساعي (بروتوس) نفسه^(**). وهو رجل لا يرقى أحد مرقاه في الكفاءة، لكن البلاء، لخشيتهم من عودة الملوك الذين لم يكفوا عن استخدام كل مجهوداتهم في الخارج وكل وسائل الاغراء، في الداخل - استقر رأيهم عليه لكرهه الملوك كرهاً عميقاً واستحالة صفحه عنهم بأية حال من الأحوال.

وأضطرت نفس [فاليريوس] لتوهمه ان حرصه على خدمة بلاده، صار موضع شك، فهو شخصياً لم يتضرر باستبداد الطغاة، ولم يلحق به أذى. ولذلك انسحب من مجلس الشيوخ، وانقطع عن مزاوله المحاماة وأعتزل الحياة العامة، مما أطلق اللسنة بالحديث، وإشاع في النفوس خوفاً من أن تدفعه ضغينته الى المعسكر الملكي فيكون بذلك دمار الدولة وهي مازالت تتأرجح بين على أثر الانقلاب الأخير. وكان [بروتوس] يشك أيضاً في نوايا عدد من أعضاء مجلس الشيوخ غيره، فعزم على ربطهم بيمين غموس في هياكل المعابد. وأقبل [فاليريوس] الى الفورم في اليوم المعين وهو في أطيب حالة. وأصفى مزاج وتقدم الشيوخ في حلف اليمين على عدم الخضوع أو الميل الى قضية [تاركوين] بأي شكل من الأشكال، بل التمسك بالحريات العامة أشد التمسك. وهو ما ارتاح له الشيوخ كثيراً. وقوى أيدي^(٦) القنصلين. وماعتم عمله التالي أن أظهر مدى إخلاصه ليمينه فقد جاء وفد من [تاركوينيوس] يحمل مطالب لطيفة خداعة يقصد بها التفرير بالناس والتحميه عليهم مظاهرة الملك بظهر النادم على أعماله واعتدائه، وعزمه على اتباع سياسة الاعتدال في رغباته. ووجد القنصلان من الضروري اذاعة تفاصيل هذه الوفاة على الجمهور إلا أن [فاليريوس] عارض الرأي ولم

(٥) ليقي ٥٨:١، ٢:٢، ١١.

(٥) سمي بذلك لأنه حكم (كولاسيا) وهي مدينة انتزعها من السابين تاركوين الأب. ووالده هو (ايجيريوس). وهو وتاركوين المكابر ابنا عم

(٥٥) ليقي ٦٠١ و ٤.

(٦) بهذا انتهى عهد في روما (٢٤٤ ق.م) وهو التاريخ الشائع إلا ان هذا لا يتفق في الواقع مع منطق الاحداث فتحل لاتجد في التاريخ منذ بدنه حتى هذا الزمن سبعة من الملوك (معظمهم لم يميت مئة طبيعية) حكموا هذه المدة الطويلة من السنين بتعاقب مستمر غير منقطع!

يقبل أن توضع الطبقة الفقيرة - التي كانت تخاف الحرب أكثر مما تخاف الاستبداد لو سحقت لها فرصة الخيار بينهما - موضع حيرة واغراء، إذا، خطة الملك الجديدة. ثم أقبلت سفارة ثانية برسالة مفادها أن الملك [تاركوينيوس] لا يمانع في النزول عن عرشه والقاء السلاح إن عُوِّض هو وأصحابه وحلفاؤه عن أموالهم وأموالهم التي تركوها^(*)، ليسعششوا في منافعهم بالتعويضات. فمال فريق إلى الاستجابة للطلب ولاسيما [كوللاتينوس] الذي تمحّس للاقتراح. إلا أن [بروتوس] وهو رجل صارم عنيد، اندفع إلى [الفورم] وأعلن خيانة زميله القنصل، بقبوله دفع تعويضات للمستبددين، وتزويد أولئك (الذين كان مجرد منحهم ما يعيشون به في المنفى شيئاً منكرًا) بأموال وارزاق تسهل لهم آثاره الحرب. وقد نجم عن هذا اجتماع عام كان أول المتكلمين فيه [كايوس مينيشيوس Caius Minicius] وهو من العامة. ان يعطي ما يريد إلا ان بروتوس ذا الطبع الحاسد السريع الثورة أسرع إلى الفورم وحض الرومان على رفض الطلب واستخدام الأموال ضدّ المستبددين^(٧)، وحذر من إرسالها اليهم لئلا تستخدم ضدهم.

على أن قرار الرومان في الموضوع كان ضد ذلك. قالوا انهم الآن يتمتعون بحريتهم التي حاربوا لاجلها فينبغي عليهم ألا يضحوا بالسلم لأجل المال، ولذلك كان من الأفضل إرسال املاك الطفلة^(٨) اليهم. إلا أن طلب التعويض كان جزءاً ثانوياً من خطة [تاركوينيوس] فالقصد منه كان جسّ مشاعر الأهلين والتمهيد لمؤامرة جاهد أعضاء الوفد في سبيل تنظيمها، فأخروا عودتهم بحجة شراء بعض البضائع وبعثوا اشخاصاً آخرين إلى مرسلهم وقواهم، حتى تكلمت مساعهم بالنجاح باستمالتهم أسرتين من أعرق الأسرى في روما. فآل اكويللي Aquillii كان لديهم ثلاثة شيوخ في المجلس، وآل فيتيلي Vitellii لديهم شيخان. وهؤلاء كلهم أولاد اختي [كوللاتينوس]. هذا فضلاً عن أن [بروتوس] كان مرتبطاً برابطة المصاهرة مع آل فيتيلي، لأن زوجته وأم أولاده هي أختهم^(٩). وكان من ابنته شابان يناهزان في السن ابناء آل

(*) ليفي ٢، ٥.

(٧) يقول [ديون] أن الموضوع نوقش بهدؤ وبكثير من التجرد في مجلس الشيوخ، وعندما استعصى الحل، ووصلوا الطريق المسدود «هل يفضل الشرف أم المنفعة؟» أحالوا المسألة إلى الشعب، فصادق هذا بالغلبة صوت واحد على تفضيل الشرف، وضرب أول مثل للشعور بالكرامة الوطنية ويقول المؤرخ نفسه، أنها لم تكن السفارة الثانية بل اقتراحاً ثانياً من السفارة الأولى وكان الغرض كسب الوقت.

(٨) المرجع نفسه ٤، ٢.

(٩) يذكر [ديون] و[ليفى] أنها أم ولدين فحسب. لكن المؤلف يتفق مع أولئك الذين يقولون ان العدد أكثر من هذا، وأن [ماركوس بروتوس] الذي شارك في قتل [قيصر] هو من ذرية أحدهم. ويتفق [شيشرون] مع الرأي الثاني أو انه يتظاهر بذلك ليضيف على قضية (بروتوس) وشخصية شعبية أكثر.

فيتللي وبريطهما معاً رابطة صداقة وثيقة فضلاً عن القرابة ويكادون لا يفترقون نهائياً. وتم ادخال ابني بروتوس في المؤامرة، وأن يتحالفا مع بيتهم الكبير، ويعملا لتحقيق آمال التاركوينين في استعادة ملكهم، والتحرر من استبداد ابيهما وحقاقتهم (كذا كان يطلقان كلمة الاستبداد على صرامة ابيهما مع المجرمين! في حين ان الحق كان مظهرأ يتقنع به منذ عهد بعيد ليحمي نفسه من اعتداء الطاغية. وقد ظلت الصفة لاصقة به اسسياً على الأقل) هكذا اتصل الشابان بآل أكويلي وتم التفاهم بينهم، ولم يتخرجوا من ربط نفسيهما بقسم ديني غليظ موثق بلطعة من دم رجل قتيل قدم قرباناً لهذا الغرض! ولمس احشائه. واجتمع المؤتمرون في دار آل اكويلي^(١٠).

وكان موضع الاجتماع داراً ملائمة مظلمة تسيطر مطروقة. وصادف أن عبداً يدعى [فنديشيوس Vindicius]^(١١) كان في الدار بمحض الصدفة. وشاهد ما ظهر على القادمين من انشغال وعجلة. فركبه الخوف من افتضاح أمره وأخفى نفسه وراء خزانة. وأمكنه من مراقبة حركاتهم وسكناتهم وسماع أحاديثهم. فعلم بخطتهم وتتضمن قتل القنصلين، وتابعهم وهم يكتبون الرسائل الى [تاركوينيوس] بهذا المآل. ويدفعون بها الى السفراء الذين كانوا صبوراً في دار آل اكويلي^{(١٢)(١٣)} وحاضرين في الاجتماع.

بعد انصراف المؤتمرين، إنسلّ [فنديشيوس] سراً من البيت، لكن الحيرة استدت به ولم يدرك ماذا يفعل. لأن أخبار الأب [بروتوس] عن أبنيه، وأخبار الحال [كوللاتينوس] عن اولاد الأخت بدأ له أمراً صعباً ثقيلاً وهو كذلك والحق يقال. ولم يكن ليتمكن أو يثق بروماني واحد ليفضي اليه بهذه الاسرار الخطيرة، كما لم يكن قادراً على التزام الصمت واحتمال عبء هذه المعلومات الثقيلة. أخيراً أسرع الى [فاليريوس]، مسوقاً بما أشتهر من رقة بتواضع، ولسهولة الولوج الى بيته الذي لم تكن ابوابه تغلق في وجه المحتاج ومظلمات الناس البسطاء، وكانت امرأة فاليريوس وشقيقة [ماركوس] حاضرتين لما نفّض [فنديشيوس] ما في جعبته. فطار

(١٠ و ١٢) يقول [ديون] شعر هذا العبد بشك مزاح يراقب الجماعة، ويؤكد ليفي (٤:٢) انه كان على علم بالمؤامرة فعلاً. لكنه أجل كشفها حتى يجتمع لديه كل الدلائل الدامغة التي تقنع من يسمعها. ويقول ليفي أيضاً انه قصد القنصلين، أطلقهما على الأمر (٤:٢، ٦).

(١١) بل في بيت آل فيتيللي على ما يزعم ليفي (٤:٢، ٥). وكان تاركوين قد نفذ حكم الموت بوالد (بروتوس) وشقيقه بسبب ما يتفقان به من غنى لا غير.

(١٢) قد يكون ثم بعض غموض وعدم بقة. لم تجر العادة في ذلك الزمان بان ينزل السفراء في البيوت الخصوصية. فقد كان ثم منزل حكومي مخصص لهم. ويبين من العبارات التالية في النص أن بعض رسائلهم وعدداً من خدمهم قد احتجزوا في قصر الملك السابق. والعبارة الواردة باللغة اليونانية قد تشير الى انهم دعوا من المنزل المخصص لهم، لقضاء بضعة ايام مع زعيم المتأمرين.

صواب فالبريوس وعلقه البغلة ولم يدع العبد يخرج من منزله وجبسه في غرفة ووضع امرأته حارساً على بابها كما أرسل اخاه في الوقت عين لهاجمة قصر الملك، ووضع اليد اما امكنه على جميع المكاتب، والقاء القبض على من فيه من خدم وحشم في حين أنطلق هو واتباعه المخلصون والاصدقاء وجمع كبير من الخدم والحاشية الى بيت (أكولي) وكانوا يحض الصدفة خارج الدار، فافتحموا الأبواب عنوة ووقعت ايديهم على الرسائل وهي ملقاة في جناح السفراء. وفي اثناء ذلك عاد آل كولي الى منزلهم واشتبكوا مع المهاجمين عند المدخل محاولين استعادة الرسائل، فقاومهم المهاجمون واقفوا بعباةتهم على رؤوس خصومهم. وأخيراً وبعد كفاح طويل أفلت المهاجمون بغنائهم وأسراهم وتسللوا الى (الفورم)، وحصل اشتباك مائل في قصر الملك، حيث وضع (ماركوس) يده على بعض الرسائل الأخرى وهي مدموسة داخل البضائع لأجل تهريبها الى الخارج، كما التقى القبض على الموجودين من خدم الملك واستاقهم الى (الفورم)، وبعد ان قام القنصلان بتهدئة الوضع، جيء بالعبد (فنديشيوس) بايعاز من (فاليريوس) وطرحته التهمة علناً، وقُضت الرسائل، ولم يستطع الحوثة أنكارها. ومعظم الناس واقفون وكان على رؤوسهم الطير، والهَم مرتسم على الوجوه، ونوّه بعضهم بفرض عقوبة النفي. عطفاً منهم على (بروتوس) وكانت دموع (كوللاتينوس) وصمت (بروتوس) قد أشاعاً بعض الأمل في الرحمة. إلا أن (بروتوس) نادى ابنه كلاً باسمه وقال لهما «الا تستطيع أنت يا (تيطس)، وأنت يا (طيباريوس) أن تدلّيا بدفاع عن تهمتكما؟» وكرر عليهما السؤال ثلاثاً فلم يلق جواباً خلا الصحة. فأشاح بوجهه ملتفتاً الى ضباط الحرس وقال «لم يبق إلا أن تؤدوا واجبكم» فأسرعوا وقبضوا على الشابين ونزعوا عنهما الشيا بواثقاً كتافهما وراء ظهرهما. وشرعوا يجلدونهما بالعصي، وكان منظرهما يفطر القلب. وقيل ان (بروتوس) لم يدّر رأسه ولم يسمح بأي نظرة عطفٍ تلين ملامحه الجامدة الصارمة وترقق منها. وانما كان ينظر اليهما بصرامة وهما يناسيان مرّ العذاب، الى أن طرحوهما أرضاً وقطعوا رأسيهما بالفأس، ثم غادر محل الاجتماع تاركاً النطق بباقي الحكم الى زميله^(١٤). وكان عمله هذا يستحقّ ارفع الثناء وأشدّ التنديد في آن واحد. إن سمو فضائله رفعتة فوق

(١٤) قارن النص لما جاء في ليفي ٥: ٩٠ فهو يدلي بحكاية مختلفة حول سلوك بروتوس وهي بالنص اللاتيني *Quam inter Omne Tempus pater, Valtusque etos eyus Spectacula esset, emimento animo Patrio inter Publicae Poenae Minstrum.* وتربيته خلال هذا الموقف المناوئ كانت كلّ الانظار حائرة بوجه الأب، حيث كانت الام الأب واضحة للعيان. قارن أيضاً (ديون ٢٠٥) الذي يتفق مع بلوتارخ. اي ان بروتوس لم يكن يظهر اي حزن أو ألم ساعة التنفيذ مهما كان شعوره الباطن الحقيقي.

مشاعر الحزن، أو أن عظم سلبه كل شعور بالحزن. وكلا الأمرين ليسا من الطبائع الانسانية الاعتيادية في شيء. فهو إما شعور آله، واما شعور همجي. على أن الأدعى بنا الى المعقول، إن يكون حكمنا عليه خاضعاً لسمعته لا ان تنال سمعته انتقاصاً من ضعف حكمنا عليه. وفي رأي الرومان أن عمل بروتوس هذا، في تثبيت دعائم الحكم الجمهوري كان أعظم من عمل [رومولوس] ببنائه مدينة رومه. وبعد مغادرة بروتوس [الفورم] استولى على المشاهدين، مزيج من الدهشة والرعب وران صمت عام وان أشاع التساهل والرخاوة التي عرف بها [كوللاتينوس] - بغض الثقة في آل اكويلي وشجعتهم على طلب مهلة للإجابة عن التهمة، وطلب تسليم عبيدهم [فنديشيوس] وعدم بقاءه في حماية متهميهم، وبدا القنصل ميالاً الى تحقيق ذلك، وهم بغض الجمعية. لكن [فاليريوس] لم يقبل بتسليم العبد (وكانت جماعته تحيط به)، ولا برفض الاجتماع قبل انزال العقاب بالخونة. أخيراً تمكن من تحكيم قبضته على آل [اكويلي] واستدعى [بروتوس] لمعاونته، وهاجم فكرة [كوللاتينوس] الخرقاء، في فرصه على زميله ضرورة انتزاع حياة ولديه بيديه بينما مال هو الى عين بحياة الخونة واعداء الشعب على بعض النسوة من قريباته. فاستاء [كوللاتينوس] بما سمعه وأمر ان ينتزع [فنديشيوس]، وهم [اللكتور] باطاعة الأمر وشقراً الجمع الحاشد اليه وقبضوا عليه وراحوا يضربون كل من يحاول استنقاذه. فوقف اصداقاء [فاليريوس] على رأس المقاومة. وطالب الشعب باحضار [بروتوس] فجاء. وبعد أن ساد الصمت والسكون قال لهم. انه استعمل حقه في اصدار الحكم على ولديه وترك الباقي للاقتراع العام لكل المواطنين الأحرار. «وليتكلم كل شخص ما يريد، وليتبع من يستطيع اقناعه» ولم يتطلب الأمر القاء خطب ومزيد من النقاش. فما أن طرحت قضية المتهمين في التصويت حتى ادينوا بالاجماع وقطعت رؤوسهم.

كانت قرابة [كوللاتينوس] للملك المخلوع قد وضعت موضع شك واسم أسرته جعله مكروهاً. ممن كان يتعود عند سماع كلمة [تاركوين] فحسب. فلما حصل ما حصل وادرك أنه مصدر سخط الجميع، استقال من منصبه وغادر المدينة سراً^(١٥). وبالاقتراع الذين جرى لملاء منصبه الشاعر فاز [فاليريوس] بأغلبية ساحقة، مع التكرم. واصبح قنصلاً جزاء اخلاصه وحرصه. ووجد أن فنديشيوس يستحق بعض ما كوفيء هو به. فاعتقه وجعله مواطناً رومانياً ومنحه بعدها حق التصويت مع اي حزب شاء الانضمام اليه. ولم ينل العبيد العتقاء حق الاقتراع ولا بعده بزمان، اي من عهد [أبيوس Appius] الذي ظفر بحب العامة لهذه

(١٥) انظر ليفي ٢:٢ و٣-١٠.

(١٦) أبويوس كلوديوس كايكيوس كان قد عين جنسوراً في العام ٢١٢ ق.م.

المأثرة ومنذ [فنديشوس] حتى يومنا هذا وحالة العتق التام^(١٧) تدعى [فندكتا Vindicta] نسبةً الى اسمه.

بعد ذلك، استبيحت اموال الملوك ونهبها العامة، وقوَّض بناء القصر، وكان أجمل جزء من «حقل مارس»^(١٨) الذي يملكه [تاركوينوس] قد كُرس لخدمة ذلك الرب. واتفق ان كان موسم الحصاد، والغلة المحصودة ملقاة على الأرض حزمًا. ووجد من غير المناسب أن تلقى للدرس والتدريه أو تنجس بأي استعمال كان، لذلك حملوها الى ضفاف النهر ثم قطعوا أشجاراً وقذفوا بالجميع في الماء لأجل تكريس الأرض وهي خالية من كل شاعل. وكان القاؤها واحدة فوق الأخرى متحاذية فلم يحملها التيار بعيداً وحيث وقفت الدفعة الأولى منها وغاصت في القاع، تكسدت الدفعات التالية ولم تجد مجالاً وأشتبك بعضها ببعض، وأخذ مجرى الماء يعمل على رصّها رصاً شديداً وأسفى عليها طبقات من الطمي فثبتت وكبرت وصارت أشبه بالسمنت يلتصق به كل ما يأتي به التيار من طرح، وتعذر على المجرى اقتلاعه بل رصّه وضغطه فزاد حجماً وقساكاً بمرور الزمن وانداح حتى تكون سدّ يوقف كل ما يأتي به التيار من تربة. وهو الآن جريرة مقدسة تقع قرب المدينة، تزدان بعباد الأرباب والمتنزهات، وتُسمى باللاتينية «إنتر دووس بونطس Inter Duas Pontes»^(١٩). على أن بعضهم يقول أنه الأمر لم يقع أثناء تكريس حقل [تاركينوس] وإنما بعد زمن، لما أوقفت [تاركونيا] كاهنة فستا الحقل المجاور له على النفع العام فكرمت. ومنحت امتيازاً على سائر النساء. وهو ان تكون شهادتها معتبرة، وان يكون لها حق الزواج فأبت استعمال الحق الأخير. وعلى هذه الصورة يروى بعضهم الحكاية.

لما يش [تاركوين] من العودة الى عرشه بطريق التآمر، التفت نحو التوسكانيين فوجد

(١٧) هناك ثلاث حالات عتق أصولية وليس بينهما ما يقضى اعطاء حق الاقتراع المعتوق. ولم يصل العبد المعتوق الى حالة المواطنة الكاملة الى في الجيل الثالث من نسله.

(١٨) كان الاصح قوله انه أعاد وقف حقل كامبوس مارييتوس لأن هذا الحقل كان قد أوقف على مارس منذ عهد روملوس. وقد استعاده تاركوين وجعله لمنفعة الخاصة [ديون ٢:٥].

(١٩) الجسر الفابريشي Ponte dei quattro capi بسبب التمثال المرمرى ذي الرؤوس الاربعة. الذي قيل انه يمثل الرب (يانوس). كان يربطه بالمدينة من ناحية الكابيتول. وجسر جسقياً سانت بارثولونا Ponte Ges- tra st. Bartolonea من جهة باب يانيكولين Janicoline (ويسمى الآن جزيرة القديس بارثوليميو) نسبة الى اسم الكنيسة التي بنيت عليه تكريماً لهذا القديس. وقد تكون الحكاية أقرب الى التصديق لو اعتبرنا ان سرعة النهر كانت على أقلها في ذلك الموسم الصيفي القاطن بحيث ان الاشجار التي تقطع من (حقل مارس) المذكور ما كان بالإمكان ان تدفعها قوة التيار. وترتب على الرومان التعاون على جرّها ونصبها في مواضعها لتقوم هياكلهم وشرفات منازلهم على أسس واساطين أكثر ثباتاً. ان طول الحقل يعادل ربع ميل تقريباً وهو مدبب النهاية اشبه شيء بهيكل سفينة.

فيهم استعداداً وترحيباً^(٢٠)، وشرعوا يعدون له جيشاً جراراً. منهض القصلان لمقومتهم على رأس الرومان. وجعلوا موضع اللقاء في موقعين مقدسين مخصوصين أحدهما يدعى البستان الآرسي Arsian والثاني هو المرج الايسوفي Aesuvian، ولما بدأت المعركة برز [ارنوس Ar-nus] ابن تاركوين لبروتوس القنصل الروماني، فاشتبكاً يدفعهما الكره والغبيظ لا اشتباك الصدفة، أحدهما يريد أن يظفي، غله وحقه على الاستبداد والآخر يريد أن يثأر لنفسه، فهما جواديهما واصطدما بعنف فاق المعقول والروية فسقط قتيلين أحدهما بيد الآخر. وأصطدم الجيشان في معركة رهيبة انتهت بعد الجهد الجهد بخاتمة طيبة فبعد أن ألحق الطرفان أحدهما بالآخر خسائر متساوية فرقت ما بينهما عاصفة^(٢١)، وانتهت القتلى [فاليريوس] لجهله نتيجة معركة اليوم ولرؤيته حزن رجاله لشهد قتلاهم وفرحهم لخسائر العدو. وكان واضحاً للعيان أن عدد القتلى متساوٍ في الجانبين. وكل جيش أكثر احساساً بهزيمة خصمه من احساسه بنصره، عند تقديره خسائره وأرعى الليل سدوله (ليل كالذي يتصوره المرء في أعقاب مثل هذه المعركة) وأخذ الجيشان للراحة. وإذا بالبستان يزلزل زلزاله على ما قيل - ويصدر منه صوت قائل: «ان خسائر التوسكان تزيد على خسائر الرومان بقتيل واحد فقط» وكان من المؤكد أنه بيان سماوي من آله^(٢٢). فاستقبله الرومان بهتاف الفرح وعلامات السرور، بينما هجر التوسكان خيامهم خوفاً وذهولاً وتفرق معظمهم أبادي سباً. وأوقع الرومان بالباني وكانوا يناهزون خمسة آلاف وأخذوهم أسرى واستولوا على كل ما في المعسكر. ولما احصى القتلى وجد ان التوسكان قد خسروا أحد عشر ألفاً وثلاثمائة قتيل أي بزيادة قتيل واحد عن خسائر الرومان. هذه المعركة جرت في شهر شباط، وسار فاليريوس في موكب الظفر احتفاءً بها، وكان أول قنصل يسوق في موكب النصر مركبة ذات اربعة جياذ، وكان منظراً فخماً. وأستقبله الأهليون باعجاب خالٍ من الحسد أو الغيرة على ما قيل، ولم تكن المواكب التالية بمثل هذه الحماسة والروحانية قط. فلقد أكبر الشعب في [فاليريوس] التكريم الذي اضيفناه على ذكرى زميله الصريع، باضافته الى مراسيم التشييع خطبة التأبين، وكان وقعها عند الرومان جميلاً للغاية ووجدوها عملاً سديداً ومدحوها، حتى غدت عادة في عظماء الرجال أن يلقوا خطاب تأبين عامة في جنازات المشاهير من المواطنين، مع تعداد مآثرهم^(٢٣). وقد ثبت ان

(٢٠) ليفي [٦: ٢، ٤] كان الترحيب من قبل أهالي فيني وتاركويني فحسب.

(٢١) ليفي [١١: ٧، ١١] يقول ان التوسكان ولوا مذعورين بعد المعركة.

(٢٢) يذكر ليفي بمصدر روايته الحادث عنه (٢، ٧) انه الرب سلفانوس. ويزعم [ديون] انه [فاونوس]. وقال بعضهم انه صوت (بان) أحد مساعدي [ياحوس] الذي كان أول من استخدم هذه الخطة لأرغاب جيوش الاعداء.

(٢٣) لم تكن خطب التأبين معروفة عند الاغريق حتى معركة ماراثون كما يؤكد لنا [ديودورس ١١: ٢٣] الذي =

قدم هذه العادة عند الرومان يزيد عن قدمها لدى الاغريق. إلا اذا اعتسنا صولون أول مشيها - في قيام الخطيب [Anaximenes] في عهده،

إلا أن جاساً من تصرفات فاليريوس ألم الجمهور وأثار سخطه. [فروتوس] الذي يعتبرونه أباً لحريةهم لم يقبل الحكم إلا مع شريك في السلطة. فضم اليه واحداً ثم آخر أثناء حكمه. في حين أن فاليريوس بتركيزه السلطان كله في يده، لم يكن يعتبر بأية حال خليفة [فروتوس] في منصب القنصل، بل خليفة [تاركوين] في الاستبداد. صحيح انه ألقى خطبة في تأبين [فروتوس] لكنه كان يشاهد «العصي والغؤوس» تحف به من كل جانب وهو يهبط من منزله الفخم ولم يكن بيت الملك الذي هدمه بأفخم منه، تصرفات كهذه جعلته يبدو أقرب شبيهاً بالملك المخلوع حقاً أن معناه المبني على [Vellia] كان مهيباً بعض الشيء. فهو يعلو (الفورم) ويشرف على كل ما يجري منه والمرقى اليه صعب. وكان موكبه وهو يهبط أشبه بالموكب الملكي المهيب. لكنه أثبت كم هو حسن لرجال السلطة المسؤولين ان تكون لهم أذان تسمح بدخول الحقيقة قبل دخول المداينة واللق إليها. فلما ابلغه اصحابه بأقاويل الناس وغيظهم من سلوكه لم يستأ ولم نحاول في الأمر. ولم ينتظر لينبلج الصبح على منزله، بل أرسل يستقدم فعلةً وهدادين قوضوه وسووه بالقاع. وفي الصباح الباكر تجمع الناس يتطلعون بدهشة واحترام الى عمله الجليل، مبدين اسفهم لهذا المنزل الجميل الذي أصبح أثراً بعد عين بسبب معاملهم الظالم، كأن الذي انهدم ليس جماداً بل كائناً حياً. وأضطر القنصل [فاليريوس] الى البحث عن سقف يظله عند اصحابه بعد أن فقد المأوى. فاستضافه هؤلاء، حتى بنى له الشعب بيتاً على أرض خصصت له. وكان أقل فخامة من منزله الزائل. والآن يقوم في موقع هذا المسكن المعبد المعروف باسم [فيكا پوتا Vica Pota] (٢٤).

= كان عمره ١٦ سنة عند وفاة فروتوس. فالقانون الذي استأن بخصوص رثاء وتعداد مائت عظماء القوم هو ذو تاريخ متأخر، ويسبق بولتارخ الأحداث كثيراً عندما يحدد للقانون عصر صولون وحتى عند السماح به، لم يكن يخطئ به إلا أولئك الذي استشبهوا دفاعاً عن بلادهم في حين وسع الرومان من شموله ليندخل في حكمه كل من يقدم لبلاده خدمة في أي مجال [ديون ٢:٥].

(٢٤) لعل المقصود بها ربة النصر Victorese Passeasor التي يقوم معبدها عند قدمه الفيليا Vellia. لكنه تجنباً لحسد الأهالي أنزل مواد البناء الى أسفل التل وبني منزله هناك. ويلاحظ أن بولتارخ أورد اسم ربة النصر اصلاً هكذا اونيكى يوني ويعني باللاتينية القديمة (نصر) وبما انه لم يفهمها حق الفهم فقد استبدلها بلفظة Vicus Publicus وهي لا تعني شيئاً هنا. على أن الاسم الذي جاء في المتن ظهر عند ليفي [٧ ٢] ويرجح انه مأخوذ من Vinceres و Potiri وأما ما تلا ذلك من خطر على سكنى أي باتريشي بالقرب من الكابتول فقد عزاه بولتارخ في محل آخر الى هذا السبب. لكن ليفي (٢٠ ٦) يجعله لاحقاً للحكم على مانيوس. فبعد ان أنقذ هذا السياسي الصرح من الغالين حام الشك في انه يطمح الى اعلان نفسه ملكاً فحكم عليه بالقائه من فوق الصخرة التارية.

قرر [فاليريوس] أن يجعل الحكومة وشخصه مظهرين محبوبين من الشعب، يدل أن يكونا مصدر مهابة وخوف. فأخرج القووس من حزمة العصي. وكان عند دخوله قاعة الجمعية يخفض تلك الحرم دليل احترامه الشعب^(٢٤)، واعتباره مصدر سلطته وأساس حكومته. فقلّده القناصل الذين عقبوه وحرصوا على التقليد حتى يومنا هذا وفي رأيي أن إذلال المرء نفسه ليس وسيلة لأظهار التواضع فيه، وإنما هو مجرد طريقة لتفادي التخربات والنسيمة بالأخذ بأسباب الاعتدال. لأن ما أطرّحه من مظاهر المنصب، أضافه إلى سلطانه الحقيقي. وظلّ مرتاحاً مطمئناً إلى أنه سيبقى مطاعاً محبباً. والدليل على ذلك أنهم منحوه لقب «بوليكولا» أي «محب الشعب». فخلص به وأشتهر على بقية أسمائه، لذلك سظلّ نشر إليه بهذا الاسم في بقية حديثنا عن سيرته.

وأطلق حرية الترشيح لمنصب القنصل^(٢٥). وقبل أن يفسح السبيل لشريكه المقبل، واحتياطاً لمفاجآت الصدف وعدم ثقة منه بها ولئلا يفسد الجهل والمنافسة خطه، استن بموجب صلاحيته فقط خير المبادي. واهم الأنظمة، وبدأ بملء شواغر مجلس الشيوخ التي كانت خالية بسبب فتك [تاركين] بأعضائه، أو لموتهم في الحرب الأخيرة، ويذكر المؤرخون أنه أدخل إلى المجلس على هذا الأساس مائه وأربعة وستين شيخاً. ثم أنه سنّ عدة قوانين أعطت الشعب مزيداً من الحرية. ولاسيما ذلك القانون الذي يمنح المدانين حق استئناف أحكام القناصل إلى الجمعية العامة. وفي قانون آخر فرض عقوبة الموت على كل من يغتصب منصباً قضائياً دون موافقة الشعب. وسنّ قانوناً ثالثاً للترفيه عن فقراء المواطنين، قضى بالغاء الضرائب عنهم^(٢٦). وتشجيع أعمالهم وحرفهم. وهناك قانون في التمرد والعصيان على أوامر القناصل لا يقل صلاحه عن القوانين الأخرى، توخى به منفعة عامة الشعب أكثر من منفعة النبلاء، لأنه يفرض على المتمرد أو العصي غرامة قدرها عشرة ثيران وشاتين. وثمن الشاة عشرة أوبولات، وثمن الثور مائة^(٢٨). وقد حدد السعر هكذا لأن النقود في ذلك الحين كانت نادرة قليلة الاستعمال والتداول عن الرومان، إلا أن ثروتهم الحيوانية كبيرة. ولذلك تجدهم يطلقون على أي مال مُقيم كلمة «پكولييا Peculia» وهي مأخوذة من لفظة بيكوس Pecus أي ماشية. كما أنهم

(٢٥) إلا في فترات الحروب فقد كانت انقاس توضع وسط العزمة.

(٢٦) إن أملي بوليغولا هذا الحق للجميع فعلاً فمن الأكيد أنه لم يطبق فهو نفسه اتخذ التدابير كما سنرى - لانتخاب قنصلين باتريشيين هما لوكريسيوس وماركوس هيراشيوس واتخاذهما زميلين له على التوالي وكان [ليوشوس سكسينوس] أول قنصل من طبقة البليبيين يتولى المنصب بعد احقاب واحقاب من الزمن الذي يحدده بوليتارخ. ولم يدم هذا التقليد غير أحد عشر عاماً [إلغى ١٨.٧] (٢٧) أعفى الصناع والأعمال، وكبار السن الذين لا أولاد لهم من دفع الضرائب. (٢٨) قبل هذا كانت الغرامة باهظة جداً بحيث يصاب دافعها بالدمار التام.

صكوا على نقودهم القديمة جداً صورة ثور أو شاة أو خنزير، وسموا أولادهم باسماء «سويللي Suillii» و«بويلوحي Bubulci» و«كاپراري Caprari» و«پورحي Porcii» - من كاپرا Ca-pra اي عنزة، وپورحي اي خنازير Porci^(٢٩).

ومع كل هذا الاعتدال والليونة، فرض على جريمة خطيرة واحدة عقوبة شديدة صارمة فقد أباح لأي مواطن ان يقتل اي شخص متآمر قبل المحاكمة، ولا جناح على القاتل اذا قدم دليلاً على تأمر القتل اذ مع انه يبدو أمراً بعيد الاحتمال ان يظل أمر خطير للغاية كهذا في طي الكتمان، كذلك ليس بعيداً أن يبقى سرّاً، وإن ظهرت بوادر له قبل فرض الحكم. ولتفويت الفرصة على التآمر أو تعويقها أجاز لأي شخص أن يحبط المؤامرة بقتل المتآمر فوراً، وعظمت مكانة (پوليكلولا) بقانون استحداث بيت المال. فقد وجد من الضروري ان يساهم المواطنون ببعض المال للنفقة على الحروب. ولم يرغب في ان تكون تلك الأموال تحت ضبطه شخصياً ولا أن يوكل بأصحابه أمر حفظها ولا ان يدعها تدخل البيوت الخاصة، فجعل حفظها منوطاً بمعيد زحل. ولذلك تراهم الى يومنا هذا يودعون الأموال المعبأة هناك. ومنح الشعب حقاً في انتخاب شاخين بمنصب أمين خزانة [كوستور Quaestor]^(٣٠). وأول اثنين تقلدا الوظيفة هما (پوبليوس فيتوريوس Publius Veturius) و[ماركوس مينيشيوس Marcus Minicius]. وتم جمع مبالغ كثيرة لأن الجباية حددت بمقدار مائة وثلاثين ألفاً، وأعفى الأيتام والأرامل منها. بعد هذا صادق على تعيين [لوكريشيوس Lucretius] والد لوكريسيا قنصلاً مزاملاً له ومنحه حق التقدم عليه، إذ نزل له عن [الحرس الفاجي] احتراماً لسنه وبهذا استمر نظام الأقدمية بسبب السن الى يومنا هذا. الا أن القنصل الجديد [لوكريشيوس] توفي بعد ايام قليلة، فانتخب [ماركوس هوراشيوس] خلفاً له وبقي قنصلاً الى نهاية العام. في تلك الفترة. وحين كان [تاركوين] في توسكانيا يتأهب لحرب ثانية مع الرومان، قيل

(٢٩) الأولى من لوس Lus اي الخنزير أيضاً. والثانية من Los اي الثور.

(٣٠) وظيفة المحتسب (الكويستور) هي المحافظة على أموال الخزانة العامة يحاسبون عليها عند ختام مدة وظيفتهم وهي سنة واحدة. كما انهم ينفقون من الأموال العامة على الخدمات العامة، ويستقبلون السفراء ويقومون برعايتهم ويهتمون بتأمين محبتهم وتوفير السكن لهم. ولا يمكن ان يسمح لجنرال بموكب نصير الا بعد أن يقدم للمحتسب حساباً عن الاسلاب والفنائم التي استولى عليها معززاً بالقسم. في المبداء كان يوجد في الدولة كويستوران. وبتناسع الامبراطورية زيد في العدد، ومع أن هذا المنصب كثيراً ما كان يشغله قناصل سابقون الا أنه كان يعتبر أول خطوة يخطوها رجل الدولة نحو المناصب الرفيعة. ويظهر أن بولتارخ يشير هنا الى أول تاريخ لاستحداث هذا المنصب [انظر ليفي ١٤:٤] على أن تاكيتوس في الحوليات [٢٢٩] يعزو انشاءه الى عهد الملوك ويقول ان حق انتخابهم لم ينتقل الى الشعب الا بعد مرور ثلاثة وستين عاماً على طرد تاركوين.

انه وقع حادث عجيب: باشر [تاركوين] في فترة حكمه بتشييد بناء الكابيتول حتى شارف على أكماله وقرر اما من تلقاء نفسه أو اطاعة لنبوءة، أن ينصب فوقه تمثال مركبة الحبس الا انه اضاع ملكه^(٣١). وكان التوسكان قد باشروا في صبّ المركبة وصنعوا كوراً. ولم يظهر الحبس تلك الخواص السليمة المعتادة فيه وهي الانكماش والتصلب بعد ان يُفجر ويتبخّر منه الماء، بل انتفش وكبر حجمه حتى بعد التصلب والبرودة بحيث أخترق جدران الكور ولم يكن بالامكان أخراجه من فوخته. كما كان نقله في غاية الصعوبة، وعُدَّ السحرة هذه الظاهرة دليل قوة ونجاح كل من يملك التمثال. وقرر التوسكان ألا يسلموه الى الرومان رغم الحاحهم بطلبه اذ ردّوهم قائلين: ان [تاركوين] احق به من نفاه. وبعد ايام قليلة اقاموا سباق خيل، وما يناسبه من حفلات والاعاب، وفيما كان سائق مركبة النصر يسوقها بهدوء وعلى رأسه أكلیل الغار، يريدان يخرج بها من الخلبة اذا جفلت الخيل ثم جمحت اما عشيئة الهية، أو بحدث طراً للخيّل. فعجز السائق عن كبجها وأفلت زمامها من يده اذ أسرع تعدو بكلّ قواها نحو روما غير عابئة بصياحه وانتهازه وقوة ساعده فاستسلم لها مضطراً ولم يحاول شيئاً معها حتى بلغت الكابيتول، وهنا انقذف السائق منها عند مدخل [راتومينا Ratumena]^(٣٢). إنارت هذه الحادثة عجب التوسكان واهلهم فنزلوا عن تمثال المركبة للرومان.

كان [تاركوين ابن ماراتوس] قد نذر ان يبنى معبد [كابيتولين جوبيتر] في أيام الحروب مع السابين. فقام على بنائه مع بعده، ابنته أو حفيده المدعو [تاركوينيوس سويريوس]^(٣٣) ولكنه لم يتمكن من تكريمه لضياح الملك منه قبل قمامه. ولما كمل بناؤه وقمت زخرفته^(٣٤)، رغب [پوليکولا] في تكريمه إلا أن النبلاء حسدوه على هذا الامتياز فضلاً عن حقدهم السالف عليه لما أصابه من شعبية بسنّه القوانين وإدارته دفة الحرب، مما كان يجعله أجدر الناس بهذا الشرف. على اية حال كانوا يحملون له ضغنا، فندفعوا زميله [هوراتيوس] الى طلب تكريس المعبد وفيما كان [پوليکولا] يقود إحدى الحملات العسكرية صوّت على طلب الموافقة [هورشيوس] وأخذوه الى الكابيتول خلصة كأنهم عاجزون عن ذلك لو كان پوليکولا

(٣١) كان نصب عجلة فوق اسطح المعابد من الأمور المألوفة. ويطلق عليها لهم فاستيجيا Fastigia والزيادة أو التوسع في أي شيء كان يعتبر نذير سوء وبشير يمن في ان واحد معاً.

(٣٢) اسم الشاب [راتومينا] أنظر [پليني ٤٢:٨].

(٣٣) ليفي يشاركه في شكه [٤٦:١]. لكنه يعيل للقول بانه ابنه. غير ان [ديون ٢:٤] اثبت بصورة لا يعقورها شك ان [لوشينيوس] و[اروس] تاركوينيوس هما حفيدا تاركوين الكبير.

(٣٤) يبلغ طول هذا المعبد ٢٠٠ قدم ومرضه ١٨٥. زينت أوجهته بثلاثة صفوف من الأعمدة. وحف بحوائبه الثلاثة الأخرى صفان من الأعمدة. واقیم في البهو ثلاثة محاريب ليونو ولجونو ولنيرفا و[ديون ١٣:٤] يعرض وصفاً مفصلاً له.

موجوداً، ويذكر بعضهم أن القنصلين^(٣٥) اقترعا فرست قيادة الجيش على بولييكولا خلافاً لرغبته. في حين يذكر بعضهم أن القرعة رست عليه في تكريس المعبد، وما حدث اثناً. مراسيم التكريس.

يعزز هذا الرأي بعض الشيء على ما يبدو الثالث عشر من ابلول الذي وافق البدر التّم لشهر (ميثاگنيون Metagitnion) تقريباً، أجمع الناس في الكاپيتول وخيم الصمت على الرؤوس، وبعد أن أدّى (هوراشيوس) المراسيم الواجبة وهم بنطق عبارات التكريس انتهز (ماركوس) شقيق (بوليكولا) فرصة وقفته المقصودة قرب الباب، وصاح قائلاً «أبها القنصل إن جثة ابنك مسجاة في المعسكر» فأحدثت تأثيراً على كل الحاضرين إلا (هوراشيوس) فلم تنل من أعصابه وكان جوابه على هذا: «القوا الموتى خارجاً حيث شئتم، أنا لستُ في حداد» ثم باشر في اكمال المراسيم. وظهر النّبأ كاذباً لكن (ماركوس) أعتقد أن المفاجأة قد تصرف هوراشيوس عن مواصلة الشعار لكن هذا أدرك الحيلة، أو أظهر صبط نفس ولم يفسح سبيلاً لمشاعره ان كان قد صدّقها.

واصاب تكريس المعبد الثاني ما اصاب الأول من مصير. قلنا ان المعبد السابق بناه (تاركوين) وكرّسه (هوراتيوس) وقد احترق إبان الحروب الأهلية^(٣٦). أما المعبد الثاني فقد بناه (سيللا Sylla) ومات قبل تكريسه تاركاً هذا الشرف [لكتولوس Catulus] فأنهزم هذا في الفتنة (الفيتيلية)، وشرع (فسپسيان) ببناء الثالث يحالفه فيه الجاح الذي واكبه في كل الأمور الأخرى وعاش لدى اكمال البناء لكنه لم يكن في عداد الأحياء عندما هدم. خلافاً [لسيللا] الذي مات قبل تكريس معبده. إذ ما أن قضى (فسپسيان) نحبه حتى اتت عليه النار. اما المعبد الرابع القائم الآن فقد بناه (دوميتيان). ولقد قيل أن (تاركوين) انفق اربعين ألف أوقية من الفضة على اقامة اسسه فحسب. اما المبالغ المنفقة على طلائه وزخرفته في

(٣٥) يؤكد ليفي حصول القرعة (٨:٢) ولعل بليوتارخ أعتمد عليه في النقل. لقد كان ذلك شرفاً عظيماً لأن اسم الدكتاتور كان محفوظاً على مدخل المعبد.

(٣٦) يشير الى تدميره اثناء هروب [ماريوس - سيللا] في ٨٢ ق.م. وقد قام الأخير باعادة بنائه مستخدماً اعمدة رخام انتزعتها من معبد زفس في أثينا. لكن لم يوفق الى تكريسه فقد عاجلته المنية قبل تمامه. ونكروا انه قال وهو يعالج سكرات الموت ان هذا هو أسوء ما صادف من حظ طوال حياته. وكرّسه كاتولوس في العام ٦٩ ق.م. وقد احترق مرة ثانية عندما كان فيتلوس يضرب حصاراً على (فلافيرس سابينوس) في الكاپيتول في العام ٦٩ للميلاد. أي بعد ١٢٨ سنة من تشييده ولا يعلم من كانت له يد في احراقه. (تاكيتوس لتاريخ ٧١:٣ و٧٢). وجدد الامبراطور فسپاسيان بناه. ثم احترق مع الكاپيتول في العام ٨٠ للميلاد بالأخير اعاد دوميتيان بناه ونقش عليه اسمه دون ان يذكر شيئاً عن أول بنائه [انظر سوتونيوس].

أيماننا هذه، فهي تزيد على ثروة أغنياء رومه، وتقدر بما يزيد عن أثنى عشر ألف تالنت^(٣٧). وكانت أعمدته من المرمر (البنيتيلي) بطول يتسقى اتساقاً لطيفاً مع غلظها. وهي الأعمدة التي كنا قد شاهدناها في اثينا، ولم تزد جماً ورواءً عندما أعيد نحتها في روما، قدر ما فقدت من تناسق، إذ جعلت مستدقة الأطراف نحيلة وإن دهش المرء لما أنفق على الكابتوا فما عليه إلا أن يلقي نظرة على إحدى مقصورات قصر (دوميتيان) أو إحدى قاعاته أو على حمام من حماماته أو مسكن محظية من محظياته. وستكون على شفعية قوله [إبيخارموس]:

«الاشراف لا يكشف عن عقلية حرة بل هو مرضٌ عضال والحق يقال».

فهو يقول مشيراً إلى دوميتيان: «ليس هذا تقى منه ولا عظمة، وإنما مرض البناء ورغبة كرجية [ميداس Midas] في تحويل كل شيء إلى ذهب أو مرمر» وفي هذا ما يكفي.

بعد المعركة التي فقد فيها [تاركوين] ابنه على اثر مبارزته مع بروتوس ولّى هارباً إلى كلوسيوم Clusium مستجيراً بـ[الاراس پورسنا Laras Porsenna] أقوى ملوك إيطاليا، ورجل فاضل كريم فاجاره وحقق سؤله وطلباته^(٣٨) وأرسل في الحال أمراً إلى رومه بأن تستقبل ملكها [تاركوين] ولما رفض الرومان ذلك أعلن الحرب عليهم محدداً الزمان والمكان اللذين قررهما للمعركة وزحف بجيش لجب. وكان [پوليكلولا] قد أنتخب قنصلاً للمرة الثانية^(٣٩) أثناء غيابيه، وأنتخب [تيطس لركريتوس] زميلاً له. فأسرع بالعودة إلى رومه.

(٣٧) من أهل تقريب فهم المبلغ للآلهان. نقدر قيمة التالنت الواحد بالسعر العالي للدولار اعني ما يعادل ٢١٠٠ دولار أو ١٠٠٠ پاون سترليني ان البون الشاسع ما بين ما يملكه المواطن العادي في ايام الجمهورية وايام الملكية يستحق التأمل هنا. ففي عهد (تراجان) لم يكن هناك عنيّ تزيد ثروته عن ٧٠٠٠٠٠ پاون سترليني. في حين أن (إميليوس سكاوروس) أثناء توليه منصب (الايديل) لقام ملعباً مؤقتاً على حسابه كلفه تسعمائة الف پاون سترليني. وتلك (ماركوس كراسوس) ضياعاً وفري كانت تغل له أكثر من مليوني پاون سنوياً. وترك [كورنيليوس بالبوس] في وصيته ٢٥ ديناراً لكل مواطن روماني وهي تعادل خمسين شلناً بحساب القوة الشرائية المقارنة الحالية. وكان الكثير من الرومان من يملك ما بين عشرة آلاف وعشرين الف عبد. فلا عجب أن رفيع العبيد السلاح في وجه روما ونازلوا الجمهورية في حروب طويلة منهكة.

(٣٨) كثير من الشراح يرون اسم تكريم يخلع على رئيس اللوكومون الاثني عشر أو ما يدعى dodecaechy etrusia. على ان (ديون) يعتبره اسماً لشخص [٤٠٤]. كان (تاركوين) توسكاني الاصل إلى جانب كونه يساعد ملكاً وقع في ضيق. لم يذكر ليفي ولا ديون أنه أعلن طلباته لروما.

(٣٩) في اثناء قنصلية پوليكلولا الثالثة وكان هوراشيوس پوليللوس يرامله فيها - زحف (پوسينا) على روما. و(ليفى) في هذا يتفق مع پلوتارخ.

ولأجل أظهر معنوية أعلى من تحدّي [پورسنا] بنى مدينة [سيكليوريا Sigliuria] (٤٠) وجيش پورسنا معسكر على مقربة منه. وانفق مبالغ طائلة في تسويرها وتحكيمها. ووضع فيها سبعمائة رجل من المستعمرين كأن الحرب أمرٌ تافه عنده. لكن [پورسنا] قام بهجوم عنيف وارغم المدافعين على التقهقر الى روما. وكاد جيش پورسنا يدركهم ويدخل المدينة معهم. لكن پوليكولا انقذ الموقف بكرة على العدو من داخل المدينة، وأرغمهم على التراجع. ثم اشتبك معهم في معركة على ضفاف [التبر] وقاومهم مقاومة ضارية وكان العدو يهاجم بجموع هائلة. واصيب [پوليكولا] بجراح بالغة ونقل خارج ساحة القتال. ولم يكن حظ زميله [لوكرتيوس] بأحسن من حظه وخاب أمل الرومان وتقهقروا الى المدينة حفظاً على أرواحهم. وأحدق برومه خطر داهم وأشرفت على السقوط بيد العدو الذي كان يندفع متقدماً فوق الجسر الخشبي ووقف [هوراشيوس كوكليس Horatius Cocles] (٤١) يصدهم بمعاونة اشجع محاربين في روما: [هرمينيوس Herminius] و[لارتيوس Lartius] وجاء «لقب «كوكليس» لأنه فقد إحدى عينيه في الحرب. وقيل أن هذه الكنية لصقت به لأنه افطس الانف مقلطه حتى يكاد لا يبين له أنف ما بين عينيه فيخيل للناظر انه ذو عين واحدة، وكان القصد أنه يُكنى چكلويس Cyclops (٤٢) لكن الاسم صُحِفَ الى «كوكلس». بقي [كوكلس] هذا صامناً يصد تقدم العدو حتى تمكن رفيقه من كسر الجسر خلفه، فالتقى بنفسه في الماء بدروعه وسلاحه وسبح الى الجانب الآخر، وهو مصاب بطعنة رمح توسكاني في فخذه. وأعجب [پوليكولا] بسالته وأقترح حالاً أن يقدم له كل روماني رزق يوم كامل هدية له. ثم منحه قدر ما يستطيع محرائه تحويط أرض يخط في يوم كامل. كذلك اقام تمثالاً برونزياً تكريماً له في معبد [قولكان] على سبيل التعويض للعرج الذي أصابه من الطعنة.

القي [پورسنا] حصاراً شديداً على المدينة. وانتشرت المجاعة بين الرومان. كذلك قام جيش توسكاني جديد بشن الغارات على البلاد. ولما انتخب [پوليكولا] قنصلاً للمرة الثالثة، قرر تقوية تحصينات المدينة والدفاع عنها دون اللجوء الى تحركات هجومية خارج المدينة. على أنه تسلل سرّاً (٤٣) وهاجم المغيرين التوسكان والحق بهم هزيمة وقتل منهم خمسة آلاف.

(٤٠) لم تكن سيكليوريا على سبيل التحدي ولا في ذلك الزمن كما يزعم بلوتارخ بل كان بناؤها لتصير حاجزاً ضد اللاتين والهرنشي في قنصلتيه الثانية. بل لعله الموضع الذي يطلق عليه ليفي (٥٥:١) سيگينا.

(٤١) هو ابن اخ لهوارشيوس القنصل.

(٤٢) يقول (ديون). لقب بذلك لأنه فقد إحدى عينه في هذه المعركة. كان مقاتلاً رهيباً بدون شك فهو أحد ثلاثة صعدوا الى الأخير ثم انسحب رفيقه قبل أن يكسر الجسر بعدهما (ليفى ١٠:٢ يذكروهما بتفضيل أكثر).

(٤٣) اذاع القنصلان خبراً قام العبيد الهاربون بنقله فوراً الى معسكر التوسكان، مؤذاه ان كل القطعان =

إن قصة (موشوس Mucius)^(٤٤) تروى بأشكال مختلفة ونحن هنا لا نرى مندوحة من إيراد الشكل الشائع لها: كان هذا رجلاً يجمع في شخصه كل الخصال والسجايا الحميدة، وأبررها الشجاعة والميل للقتال ولذلك قرر اغتيال (پورسنا). فتزياً بالزّي التوسكاني ونطق بلغتهم، وخرج يقصد طلبته حتى بلغ معسكر الأعداء. ودنا من مجلس الملك. وكان يحف به النبلاء فوقع في حيرة لأنه لم يكن يعرف الملك بالوجه، وخاف السؤال للاستيثاق لئلا يفتضح أمره. ولم تطل به الحيرة بل امتشق سيفه وطعن أوّل شخص ظنه الملك فقبض عليه في الحال وفيما كانوا يستنطقونه جيء إلى الملك بمستوقد يضطرم ناراً لأجل تقديم القرايين. فدس (موشوس) يده اليمنى^(٤٥) في لهب جمراته وأخذ يحرق (پورسنا) بوجه هادي، لا أثر لما يحسّ بالم فتملك پورسنا الإعجاب به وأطلق سراحه وأعاد إليه سيفه، إذ رفعه وقذف به إليه فتلّقه (موشوس) بيده اليسرى مما دعا إلى تكيّنه (سكيولا Scaevola) أي الأعسر. وذكر أنه قال معقّباً: «لقد تغلبت على إرهاب پورسنا، لكن كرمه غلبني، والاعتراف بالمثمة تضطرنني إلى الكشف عما يقصر العقاب عن استخلاصه مني» ثم راح يؤكد للملك بأن ثلاثمائة روماني مثله يحومون الآن حول معسكره يحدوهم العزم على قتله وأنهم يتحينون فرصتهم. وصارحه بأنه ليس آسفاً بفشله في القيام بمهمته فهذا حكم القدر. وإن رجلاً شهماً شجاعاً مثله يستحق أن يكون صديقاً للرومان لأعدّوا. وأصدق (پورسنا) ظنّه وأعلن عن ميله إلى المهادنة، لا خوفاً من الرومان الثلاثمائة حسب اعتقادي - بل تقديراً لشجاعة الرومان عموماً^(٤٦).

يجمع كل الكتاب على أن اسم الرجل هو (موشوس نكيثولا)^(٤٧) إلا (أثندوروس Athendorus) ابن (ساندون Sandon)، فقد ذكر في كتاب مهدي إلى (اوكتافيا) أخت (قيصر) أن اسمه (پوستموس) أيضاً. ولم يكن پوليكولا يعتبر عداوة (پورسنا) خطراً على رومه قدر ما كان يعتبر صداقته ومخالفتة عنهما لها وفائدة. لذلك عهد إلى الملك (پورسنا) بمهمة التحكيم بينه وبين (تاركوين). وأثبت له براهين عديدة أن خصمه من أسوء الرجال وأنه

= التي جيء بها من الأرياف سترسل للزعي في الحقول، وستكون تحت الحراسة. هذا الطعم أجتذب العدو ليقع في كمين.

(٤٤) C. Mucius Cordus.

(٤٥) ليفي (١٢ ٢) يقول أن (پورسنا) هدد موشوس بالتعذيب ويأمره على الاعتراف بشركانه وعندها دس موشوس يده في النار ليثبت له أنه لا يقيم أي وزن لتهديده.

(٤٦) (ديون) يعزو الصلح إلى محوم پوليكولا الفاجح الذي جاء ذكره في النص. فيسرده بوصفه نتيجة لاثرة موشوس.

(٤٧) ساندون فيلسوف روائي من طرسوس كان معلماً لأغسطس ثم لـ طيبريوس قيصر.

يستحق الحرمان من الملك. لكن [تاركوين] رفض بغطرسة إي تحكيم، ولاسيما تحكيم [پورسنا] الذي نكت بعهدٍ قطعه له، فأغضب جوايه هذا [پورسنا]، وشك في عدالة قضيته، كما أنه مال إلى الأخذ بحجج ابنه ارنوس الذي حرص على مصلحة رومه. وعقد صلح بين الطرفين على الشروط التالية: أن ينزل الرومان عن جميع الأراضي التي اغتصبوها من التوسكان. وأن يعيدوا اليهم كل الأسرى، وأن يستعيد الرومان كل من لجأ منهم إلى التوسكان^(٤٨). وتوثيقاً لعهد السلم هذا يقدم الرومان رهائن تتألف من عشرة من أبناء الپاتريشيين ومثله من بناتهم. ومن وقع عليه الاختيار [فاليريا] بنت پوليكولا.

بعد هذه المواقف توقف كل الأعمال العدوانية. وخرجت البنات الرهينات إلى النهر للاستحمام في موضع يؤلف انحناء النهر خليجاً راكد المياه. ولم يجدن حراساً ولا مستطرقاً، فتشجعن للسباحة إلى الضفة الأخرى غير مباليات بعمق الماء وقوة التيار. ويؤكد بعضهم أن [كلوليا Cloelia]^(٤٩) عبرت على ظهر جوادٍ وحملت الأخريات على اللحاق بها. لكنهن أثبن على عملهن بوصولهن سالمات ومثولهن بين يدي پوليكولا واستنكر الأمر منهن وأشدت قلقه لئلا يفسر العمل تفسيراً سيئاً ويبدو هو أقل حرصاً على العهد من پورسنا. وأن تفسر هذه المرأة الانشوية، اخلاقاً من الرومان وخيانة. فما كان منه إلا أن ردهن إلى پورسنا. لكن رجال [تاركوين] وقفوا على القضية فنصبوا كميناً قوياً على الضفة الأخرى يريدون الإيقاع بمن يرافقهن. وفيما هم مشتبهون اندفعت [فاليريا] بنت پوليكولا مخترقة صفوف الأعداء وافلحت في الفرار بمساعدة اثنين من خدمها أما الباقيات فقد طوقن واحدى بهم الخطر لكن [ارنوس] ابن پورسنا أسرع إلى انقاذهن عندما بلغته الأنباء. وانهزم العدو وسلم الرومان وشاهد [پورسنا] عودة الفتيات فسأل عمن دبر الهروب وأشار به، ولما ابلغ بأنها [كلوليا] رفعها بنظره اعجاب وسرور وامر أن يقاد إليه أحد خيوله فجيء بجواد مطهم فخم السرج نفيس الحلى واهداه لها. وهذا ما يقوم دليلاً للذين يزعمون أن [كلوليا] كانت الوحيدة التي عبرت النهر على ظهر جواد. أما من ينكر ذلك فيرى الهدية مجرد اعجاب توسكاني بجرأتها. وعلى أية حال يوجد شمال فارسة ينتصب في [فيا ساكرا Via Sacra]^(٥٠) وانت ذاهب إلى

(٤٨) طلب من الرومان إعادة سبع قرى كانوا قد انتزعوها من الفينيتيين Veientes في الحروب السابقة (ليني ١٣٢).

(٤٩) يدلي [ليني ١٣٢ و ٦١-٦٠] برواية مختلفة جداً عن حادثة كلوليا المثل الذي ضربه موشبيوس في الشجاعة آثار حماسة الفتيات وتحليداً لذكرها أقام الرومان في رأس الطريق المقدس تمثالاً Virgo insid-

ens equa

(٥٠) عبارة لاتقل ليساً يذكر لها (ديون) انه لم يعد لهذا التمثال أي أثر في زمانه (أيام أغسطس) فقد انت لار عليه. على أن پليبي (٦٣٤) يتفق مع پلوتارح في هذا

الپالاتيوم، يقول بعضهم انه تمثال [كلوليا]، ويقول آخرون انه تمثال [فاليريا]، وبهذا تصالح [پورسنا] مع الرومان وقدم دليلاً آخر على سماحته بأن أمر جنوده بترك المعسكر بأسلحتهم فقط، وخيامهم ملأى بالقح وغيره من المؤونة، هدية للرومان. ومن هنا جاءت العادة المطبقة الى يومنا هذا، وهو أن ينادى بكلمة «پورسنا» عندما يبدأ أي بيع علني لبضاعة، تخليداً لعطفه، وترى في مجلس الشيوخ ابضاً تمثالاً برونزياً له عتيقاً ساذج الصفة^(٥١).

كان [ماركوس فاليريوس] أخو پولييكولا و[پوستيميوس تويرتوس - Postimius Tiber] قنصلين عندما اغار السابين على الرومان وتمكن [ماركوس] بفضل معونة پولييكولا، وتصريف الشؤون العامة عنه من احراز انتصارين كبيرين. قُتل في أولهما ثلاثة عشر ألف سابيني دون أن يخسر رومانياً واحداً. فأهدي له بيت بُني في الپالاتيوم^(٥٢) على حساب الخربة العامة اعترافاً بفضلته. وفي حين كانت ابواب سائر البيوت تفتح الى الداخل. جعلت ابواب بيت ماركوس تفتح الى الخارج، تأكيداً لأعتراف الجمهور الأبدى بحميلة، لأن ذلك يشير الى افساحه لاي اقتراح في اقامة قرابين عامة. واليونان^(٥٣) عموماً كانوا يبنون هذا النهج في هندسة بيوتهم منذ القديم وهو ما يستدل عليه من تمثيلياتهم الهزلية لأن من يريد الخروج الى الشارع يعمل ضجة مسبقة قرب الباب تسيبها للعارة والمتسكعين في الشارع انتخب پولييكولا قنصلاً للمرة الرابعة، لما هدّد التحالف بين السابين واللاتين باثارة حرب جديدة^(٥٤)، كذلك انتشر خوف غامض في المدينة بسبب تواتر حوادث اجهاض النساء، حتى لم تحصل ولادة واحدة في أجلها الموعد. ورجع پولييكولا الى كتب [السبيلين Sibyl-line]^(٥٥)، ثم ضحى لپلوتو، وجدد اشاء العاب معينة أمر بها اپوللو. فاعاد الى المدينة

(٥١) كذلك ارسل اليه المجلس سفارة مع هدية تتألف من عرش مطعم بالعاج وصولجان وتاج من الذهب. ورداء النصر. ولم يذكر هو أو ايقي شيئاً عن التمثال البرونزي هذا.

(٥٢) نصب امام هذا المنزل تمثال برونزي لقور وهو شعار فاليريوس الذي كان نصره سبباً في المحافظة على الزراعة وخيرات روما (انظر پليني ١٥:٣٦).

(٥٣) كان ل(پوستيميوس) حصنه في هذا النصر كما كان له سهمه في الأعمال الجلية التي تمت.

(٥٤) يعرض ليني (٦:٢، ٦:٣) وصفاً جدياً مقتضب لهذه الحرب.

(٥٥) قصت تاركوين امرأة مجهولة الهوية عارضةً عليه تسعة مجلدات من النبوءات كان قد دونها الدهر سيبيل من كوما وطلبت ثمناً لها مبلغاً كبيراً من المال استكثره وابى شراها. فأحرقت ثلاثة منها وعرضت عليه السنة الباقية بالثمن عليه فرفض بسخريه. فأحرقت ثلاثة أخرى وطلبت للثلاثة الباقية الثمن الذي حديته للتسعة. فاستغرب الملك من سلوكها العجيب ودفع بالكتب الثلاثة الباقية الى العرافين لفحصها فتقسموا بشرائها مهما غلى ثمنها، ففعل وعين اشخاصاً من نوبي الجاه والمكانة أطلق عليهم اسم دووميفري Duumviri ليكونوا اوصياء عليها. فحفظوها في خزانة تحت معبد (جوبيتر) الكابيتولي وبقيت هناك حتى أتت نار الحروب المارسية على المعبد [تبيون ١٦:٤] هؤلاء الحفظه الاوصياء الذين زيد عددهم فيما بعد الى العشرة، كانوا يعوون الى تلك الكتب يستشيرونها بامر من مجلس الشيوخ كلما أحرق =

الثقة بالآله. ثم استعدّ للقضاء على تهديد البشر لها، وبدت الاستعدادات العظيمة وأثر الحلف القوي. وكان يوجد بين السابين شخص يدعى [أبيوس كلوسوس - Appius Claus-es] ^(٥٦) وهو من أعظمهم ثراء واقواهم جسماً، ولكن أخلاقه العالية ابرر ما فيه فهو ذو منطق حسن وكلام مقنع، على أنه لم يتخلص من الحاقدين والحساد وتلك حال جميع العظماء المشاهير، لقد زاد من حقدهم عليه وقوفه ضدّ هذه الحرب وظهوره بمظهر المدافع عن مصالح الرومان. وقيل ان غايته من دفاعه هذا، هو السيطرة على بلاده وإدراكه التام مدى تحييد العامة لفكرته. ومدى خطئها عند العاملين لاثارة الحرب. وكان خائفاً من أحواله الى المحاكمة، لكن لما كان اصداقوه قد عاهدوه على الفكرة ووعده بالمساعدة فقد اثار فتنة بين السابين عوّقت نشوب الحرب. وكان [بوليوكولا] واقفاً على دوافع هذه الفتنة، فلم يأل جهداً في تأجيل وتوسيع رقعتها. وبعث وفداً يحمل رسالة الى [كلوسوس] يحده فيها ويشيد بطيبته وحسن نواياه قائلاً انه يرى انه لا يليق بالمرء مهتماً بلخ الأذى الذي ناله، أن يطلب من بني قومه ثأره. ولأجل سلامته، يدعو انه شاء الى النزوح عن أرض اعدائه والقدوم الى رومه وسيرحب به الشعب الروماني ويستقبله بالاكرام اللائق بمقامه وسجاياه الرفيعة. فوزن [كلوسوس] المسألة وزناً دقيقاً ووجد انها خير حلّ ثمليه الضرورة. وشاور أصحابه واتصل هؤلاء، بأخريين والتأم شمل الجميع وشدوا الرحال الى رومه. وكانوا خمسة آلاف أسرة ^(٥٧) بأطفالها ونسائها. من أطيب السابين خلقاً وأهدأهم مزاجاً وأبلغ [بوليوكولا] بدنهم فخرج لاستقبالهم بكلّ مظاهر الحفاوة والصدقة منحهم فوراً حق التصويت وخصص لكل فرد مساحة من الأرض تبلغ ايكرين، على ضفاف نهر أنيو Anio، ومنح [كلوسوس] خمسة وعشرين (إيكرا) واعطاه مقعداً في مجلس الشيوخ، وهذه بداية لسلطة سياسية استخدمها بتعقل وحكمة دفعت به الى احضان الشهرة واكسبته نفوذاً كبيراً. فكان عميداً للبيت (الكلودي) ^(٥٨) الذي لا يقل شرفاً عن أعرق بيوت رومه.

= بالبلاد خطر عصيان أو حلت بالجيوش الرومانية هزيمة. أو حصلت مخاريق يظن انها طالع نحس. كما كان هؤلاء يترأسون تقديم القرابين، والعرض المسرحي الذي تأمر به تلك الكتب تهوئة للغضب السماوي. (٥٦) (يسميه [ديون ٧:٥] تيطس كلوديوس Titus Claudius وليقي بسميه [أنا كلوسوس Atta Clausus] وفيما بعد [أبيوس كلوديوس Appius Clodius]). (٥٧) هذا يعني عشرين ألف شخص على الأقل، بمعدل أربعة افراد في الأسرة الواحدة، كان نصيب كل فرد نصف إيكرا.

(٥٨) في روما اسرتان شهيرتان باسم كلودي Cloudia أحدهما باتريشية والأخرى بليبية. الأولى أطلق على أفرادها لقب پولكر Pulcher والثانية أطلق عليهم لقب مارجلوس Marcellus وقد خرج من الثانية ثلاثة وعشرون قنصلاً، وخمسة دكتاتورين. وسبعة تقلدوا وظيفة جنسور، ونال اثنان من القواد فيها موكبي نصر وتكريمين. ومنها نبغ الامبراطور طيبيريوس ومن اتباعه تألفت العشيرة الكلودية (أنظر ليقي وديون).

إن نزوح هؤلاء هداً من الأمور في بلاد السابين. على أن رؤوساً هم وزعماءهم ما كانوا يريدونهم أن يخلدوا إلى الراحة والاستقرار. وزاد من حقهم أن [كلوسوس] أجهض محاولة الانتقام الذي دبروه، بفراره وانحيازهم إلى الرومان بعد أن استمر في معارضته له ونجح بتعويق الحرب إلى أمدٍ. فساقوا جيشاً جراراً وعسكروا على مشارف [فيدينيا] وبصبا كميناً بالفين من الرجال قرب رومهم، ووزعوا قواته في عدد من الوديان والغابات ورودوها بأمر يقصي عليها بالخروج من مكانها فتعيث في البلاد فساداً وهدماً وإن تقترب من المدينة ثم تتراجع أمام العدو لتجره خلفها وتوقعه في الكمائن. وما لبث بوليوكولا أن وقف على الخطّة من جماعة الفارين فقسم قواته بمجموعات ثلاثٍ واناظ بزوج بنته [پوستيميوس بابلوس Posti-mius Babilus] قيادة ثلاثة آلاف محارب يخرجون مساءً ويحتلون التلال التي تشرف على مكان الأعداء، ويراقبون حركاته واناظ بزميله القنصل [الوكريتيوس] قوة تتألف من اشجع الرجال واسرعهم لمقابلة خيالة العدو. بينما تولى بنفسه قيادة بقية الجيش الذي أوكلت إليه مهمة التعرض للجيش السابيني. وانتشر فجأة ضباب كثيف وقام [پوستيميوس] في الصباح الساكر بالهجوم على مواضع الكمائن بصباح دافٍ منحدرًا من التلال. وهجم [الوكريتيوس] على الخيالة الحقيقة وحاصر بوليوكولا وحلت الهزيمة بالسابين من كل ناحية عسكروا بها وراح الرومان يفتكون بالمنهزمين من غير أن يلقوا مقاومة إذ كان أملهم بالنجاة هو الذي يوردهم موارد حتوفهم لأن كل موقع كان يتوهم الموقع الآخر سليماً صامداً فلا يبدي قتالاً ولا يثبت محاربوه في مواضعهم فيخرج من في معسكر إلى الكمين، ومن هم في الكمين يهرعون إلى المعسكر فيلتقي الفارون بالفارين ليجد الاثنان انهما بطلبان الحماية أحدهما من الآخر. على أنه قرب مدينة [فيدينيا] من السابين هو الذي انقذ البقية الباقية منهم، ولا سيما الهاربون من المعسكر. أما من لم ينجح في الوصول إلى المدينة فأما هلك أو وقع أسيراً. ومع أن الرومان يعزون نصرهم إلى أحد آلهم فإنهم يقررون بالفضل إلى قيادة قائد واحد. ويقال أن الجنود كانوا يتحدثون فيما بينهم قائلين: «أن بوليوكولا دفع بالعدو اليهم وهو أعمى أعرج لا يعوزه إلا السلاسل، ليذبحوه بحد سيفهم» وغنم الرومان ثروة كبيرة من الأسرى والأسلاب.

بعد أن اغتجز بوليوكولا نصره وادع مقدرات المدينة إلى رعاية خلفائه القاصل. قضى نحبه واستهت بذلك حياة حافلة بكل ما هو شريف ونبيل^(٥٩). على قدر ما تكون حياة البشر، وبدا

(٥٩) يقول ليفي (١٦ ٢ و٧) «في السنة التالية انتخب أكريبيا مينيموس وبوليوكولا پوستيميوس. كان بوليوكولا فاليريوس بإجماع الكل أعظم الرومان وأنبغهم في فنون الحرب والسلام توفي وهو في قمة مجده وبلغ من الفقر حداً أنه لم يخلّف ما يكفي لسد نفقات جنازته لذلك دفن على نفقة الدولة. وليست النساء العدد عليه منكما فعلم عند موت برويتوس... كان على پلوتارخ هنا أن يذو بفقره تنويها واضعاً، لأن الجنازة التي =

وكان الشعب لم يكرم الراحل في أثناء حياته الاكرام الواجب وانهم مازالوا مدينين له. فقرروا ان يكون تشييعه شعبياً وساهم كل مواطن بكوادراس (Quadrans)*^(٦٠) واحد للدفقات واستصدر قرار خاص للنساء بلبس الحداد عليه سنة كاملة وهي شارة تكريم انفراد بها دون غيره. ودفن حسب رغبة الشعب داخل اسوار المدينة^(٦١)، في جزء منها يدعى [فليا Velia]، ومنع نسله امتياز الدفن فيها. والآن لم يعد يدفن هناك أحد عن أعضاء الأسرة على كل حال. اذ يحمل جثمان الميت اليها عادة ويوضع فيها، ثم يأتي شخص ويضع مشعلاً تحت الجنازة ثم يسحبه حالاً، كدليل على امتياز الميت وعلى تنازله عنه. وبعد ذلك يرفع الجثمان ويحمل الى المقبرة.

= تنفق عليها الدولة وهي أحياناً من قبيل الشرف الذي تحفله على الميت. ولا شك ان المبلغ الذي أكتتبته لسكان كان كبيراً.

(*) عملة رومانية.

(٦٠) هي الأصل كانت عادة إلا ان الألواح الاثنتي عشرة منعت الدفن داخل الاسوار. وبعد هذا صار دفن الموتى يتم على حاسي الطرق الخارجية العامة. واحتفظ بامتياز الدفن المدينة لأولئك الذين قدموا خدمات جليلة للدولة كما هو الحال عند الاعريق ويقول [ديون] انه امتياز خصى به بوبليكولا لكن بلوتارح يتذكر في موضع اخر ان [مايربجيوس] حظي بهذا الامتياز ايضاً كما حظي به كل من دخل في موكب نصر على ما يؤكد لنا بير Pyrrho من لبارا Lipara.



أوكتافيا

أوجه المقارنة بين بوبليكولا وصولون

هناك شيء فريد في هذه المقارنة، لا وجود له في أية سيرة من السير الأخرى. وهو أن أحدهما لا بُدَّ أن يكون مقلداً للآخر وإن السابق كان خير مثال للاحق. فعند تأمل عبارة وصولون التي فاه بها امام (كروسوس) بخصوص سعادة (تللوس). يتضح أنها أكثر انطباقاً على بوبليكولا. إذ أن سجايا (تللوس) وميئته المثالية اكتسبته صفة أسعد الناس، ومع هذا فإن وصولون لم يشد به في شعره، كما لم ينل أحدٌ من صلبه ولا رؤوساً، قومه امتياز نصب تذكاري لكن حياة بوبليكولا كانت أبرز حياة بين الرومان، لآخلاقه وللسلطة التي حازها. فيها قد مرَّ على وفاته قرابة ستمائة عام^(١) ومازالت أسر رومه العريقة مثل بوبليكولي - Popico lae ومسالي Messalae وفاليري Valerie^(٢) تعتبره أصل عراققتها وبذرة نبالنها. ومع أن (تللوس) صمد في موقعه وقاتل قتال الجندي الباسل فإنه قتل على يد أعدائه لكن الأسعد منه حظاً، هو من قتل أعداءه ورأى بلاده منتصرة تحت زعامته وبلغت به مآثره وانتصاراته المجيدة، نهاية سعيدة، وهذا هو مطمح وصولون. وإن الصرخة التي أطلقها في قصيدته بهجاء (مينرموس Minnermus) [٣] حول استمرار حياة الإنسان: «ألا فليسر قلب الصداقة المخلص في ركاب نعشي فيُصعد حسرة أليمة، ويُذرف دموعاً رثاء».

وهي شاهد على سعادة بوبليكولا، فموته لم يقتصر على استدراج الدمع من عيون أصدقائه ومعارفه فحسب وإنما كان مصدر حزنٍ واسعٍ لكل المدينة. وبذت النسوة وكأنهن فقدن به ابناً أو أخاً أو أباً. قال وصولون «لست بمن يكره الغنى، لكني أرفض الغنى الذي يأتي بطريق غير مشروعة لأن عاقبته دينونة. على أن ثراء (بوبليكولا) جاءه بطريق مشروعة، لا بل أنفقه

(١) يبدو من هذه العبارة أن بروتارخ كتب هذه السيرة في بداية حكم الامبراطور تراجان.

(٢) أعني الفاليري الآخرين وهم ماكسيمس، كورفيني، بوتيني، ليفيني، فلاجي.

(٣) مخترع البيت الخمس في الشعر، هو شاعر موسيقي من كولوفون أشتهر بعريثاته بصورة خاصة. ولم يصل لنا منها غير مقطوعات قليلة وقد وصفه الشاعر (موراي) فوق [كالليماخوس].

في اغراض سامية نبيلة. وصرفه على وجوه البر والاحسان ولذلك يجب علينا ان نقر بان پوليكولا هو الأسعد وان ما اعتبره صولون اكمل الصلاح وأعظمه توفر في پوليكولا ومارسه وتمتع به في موته.

ويمكن القول ان لصولون بدأ في مجد پوليكولا، كذلك يصح القول ان پوليكولا بدأ في مجد صولون باختياره اياه نموذجاً يحتذى ومرشداً في سن الأنظمة الديمقراطية وجده من السلطة المفترطة للمنصب القنصلي. والواقع انه نقل عدداً من قوانينه الى رومه مثل اعطاء الحق الجمهور في انتخاب الرؤساء، ومنح الحرية للمحكومين باستئناف احكامهم امام الجمعية العامة كما أعطى صولون هذا الحق للمحلفين. انه لم ينشيء مجلس شيوخ⁽⁴⁾ كما عمل صولون، لكنه وسع المجلس القديم حتى ضاعفه او كاده. ويعود استحداثه منصب امين الخزانة الى صولون نفسه. والحكمة في هذه البدعة انصراف رئيس الدولة الفاضل الى الأمور الهامة، لا مباشرة الأمور الثانوية كالمسائل المالية، اما اذا كان سيء الحق فقد يزيد المال في غوايته ان انيط به المال والحكم معاً. وكره الاستبداد عند پوليكولا أشد منه عند صولون. وفي قوانين صولون لا يمكن معاقبة شخص يحاول اثارة فتنة أو تدبير مؤامرة إلا بعد ادانته قضاءً. بينما اجاز پوليكولا قتله قبل احراء محاكمته. وارتفعت منزلة صولون حقاً عندما عرض عليه الحكم المطلق بحكم الظروف وقومه يلحون عليه في قبوله. الا أنه أبى ذلك. لكن فضل پوليكولا لا يقل عن فضله، فقد تسلم قيادة لاحت سلطانها فحوكها الى حقوق للجمهور، ولم يستعمل كل الصلاحيات التي يمارسها القنصل بحكم منصبه. وعلينا ان نتذكر بأن صولون كان أول من راعى ذلك:

الشعب يُجلّ قدر حكامه دوماً، عندما لا يعتدون عليه ولا يسايرونه.

ان الغاء الديون كان من معجزات صولون. وكانت وسيلته العظمى لتثبيت حريات المواطنين. إن كل قانون يمنح حقوقاً متساوية لساير الطبقات هو قانون لا فائدة منه حين يضطر الفقراء الى تضحية تلك الحقوق على مذبح ديونهم. ففي هذه الحالة يكونون رهن اشارة الاغنياء وطوع امرهم سواء في المعاهد العامة ومحاربتها أو في دور العدل ودواوين الحكومة وعلى الخصوص في اثناء المناقشات العامة، إن أعظم نجاح لصولون أي الغاء الديون أدى فعلاً

(4) يفهم من النص ان بولاتارخ يقصد الشيوخ (أو مجلس الاربعمئة) لا المجلس الاربويافي. ان مجلس الاربعمئة الذي يقرر ما يجب عرضه على الشعب من أمور. وليس ثم ما يمكن اقتراحه غير ما تم عرضه على الجمعية العامة ومضمه هؤلاء، لذلك المجلس على قدر الإمكان وسيلة لكبح الشهوة الى الاستبداد عن دالمكاه الاعلى. والرغبة في الحرية المطلقة من كل إسار عند الطبقات الدنيا فالاربويافوس يكبح الاولين. ومجلس الشيوخ اداة استئصال الثاني.

الى اجحاف بحقوق طائفة من الدائنين الا انه كان علاجاً خطراً فعلاً انهى الأجحاف العام الذي أزم الوضع في المدينة. وسمعة صولون الشخصية وقيمته ترتفع كثيراً عما وصم به من سوء التغبير وانتقص من شأن مبادي الحكم التي وضعها، فقد كانت سيج وحدها، لم تحذ فيها حذو احد وأكملها وحده دون معاوية آخرين ومجهوده الفردي فحسب، على أن آخر حياة بوليكلولا كانت أسعد وأحلى من نهاية حياة صولون. فقد شهد هذا الأخير بام عينه انهيار جمهوريته. اما بوليكلولا فقد خلف دولته بحالة جيدة ونظام تام وبقيت كذلك حتى الحروب الأهلية. وترك صولون قوانينه بعد ان سننها وحفرها على الخشب وغادر أثينا ولم يخلف حماة لها في حين ظل بوليكلولا يجاهد في تثبيت اقدام نظام حكمه، سواء وجد في الحكم أم كان خارجه. ومع علم صولون بنوايا (پستراتوس) واطماعه الا انه لم يحرك ساكناً لوقفه بل ظل مكتوف اليدين امام عملية الغضب وهي مازال تحبوه على أربع في حين قوض بوليكلولا صرح الملكية وسحقها وهي في عنفوانها ثابتة البنيان راسخة الجذور لطول العهد بها فكانت ميزاته مساوية لميزات صولون، اللهم الا حسن الحظ (فقد حالفه وحده دون صولون). وحرية ممارسة السلطان وكلاهما عاملان كفيلان بتحقيق تلك الأهداف^(٥).

وفي الشؤون العسكرية نرى أن (دياماخوس Diamachus) البلاطي Plataea، لا يقر لصولون حتى بادارة دفعة الحرب ضد الميعاريين كما اسلفنا. في حين ان بوليكلولا خرج منصوراً في معظم الحروب التي خاضها جندياً بسيطاً أو قائداً، اما في السياسة الداخلية فنجد ان صولون لم يتمكن من حمل مواطنيه على مواصلة الحرب لاستعادة سلاميس الأبالخنداع وانتقال الجنون. اما بوليكلولا فقد عرض نفسه من البداية الى أعظم الأخطار. فأشهر السلاح ضد (تاركوين)، وكشف المؤامرة وفضحها وكان العامل الرئيس في القبض على المتآمرين والاقتصاص منهم. ولم يكتف بنفي المستبدين من المدينة بل قضى قضاءً مبرماً على آمالهم في العودة. وكان مسلكه يتسم بالجرأة وقوة العزيمة في الأحوال التي تستدعي التحدي والمقاومة والمعارضة، وهو أحذر بالثناء في المواضع التي تستدعي استخدام الكلام ولغة السلام وحيث يكون النظام والتنازل واجباً. لقد نجح في كسب صداقة (پورسنا) وهو عدو رهيب لا قبل له بمقارعته. وقد يحتج بعضهم بان صولون استعاد سلاميس المفقودة في حين تازل بوليكلولا عما غنمه الرومان من اراضٍ. لكن عامل الزمن يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار عند الحكم على الأحداث والوقائع، وسلوك السياسي الحكيم يجب قطعاً أن يتأثر بالوضع الراهن كثيراً ما

(٥) يقول (سترابو) انه أرسل في سفارة الى أمير من أمراء الهند يدعى الليتروخادس Allitrochades. وانه كتب تاريخاً للبلاد التي زارها، لا يصح الاعتماد عليه كثيراً.

يجب التنازل عن جزءٍ لثلا يفقد الكلّ، والسماح بالقليل لضمان الكثير. وبهذه الطريقة انقد
يرليكولا املاك الرومان الخاصة، باعادة ما غصبوه وكسب مؤناً من العدو لأولئك الذين
كانت امنيتهم الكبرى الا بقاء على مدينتهم فحسب. وبإيداعه الحكم في النزاع خصمه نال
النصر، فضلاً عن نيّله ما كان هو نفسه ينزل عنه بطيب خاطر ليفوز بالنصر، الا وهو قيام
پورسنا بانهاء الحالة الحرب وتركه الارزاق لهم. متأثراً بالسجايا الرومانية التي وجدها في
قنصلتهم.

تيمستوكليس THEMISTOCLES

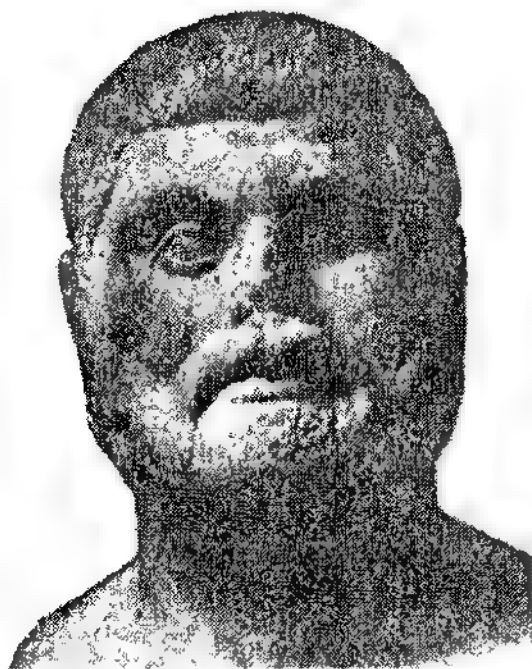
525-460 ق.م

اهم احداث عهده (ق.م)

٤٨٠ انتصار على احشويرش (ارتخششتا) في معركة سلاميس البحرية بعد عشرة اسابيع من مقتل ليونيداس في ثرموبيلي.

٤٧٩ هزيمة الفرس بقيادة ماردونيوس في پلاتيا على يد پاونسياس.

٤٧١ نفي توستوكلي بقرار ابعاد ووصوله الى بلاط احشويرش.



نمیتوکلس — متحف اوستا

كانت الملابس التي صحت ميلاد تمستوكليس أشد غموضاً وخمولاً من أن تشرفه^(١). فأبوه [نيوكلس Neocles] لم يكن من الآثينيين المبرزين، بل من سكنة مدينة [فرياري Phrearhi]^(٢) ومن عشيرة ليونتس وأما عن أمه فلقد قيل أنها وضيفة الأصل:

«أنا لست من معشر الأغريق النبلاء. أنا [أبروتونون Abrotonon] المسكينة المولودة في تراقيا. فلتحبنى النساء الأغريقيات ما شاء لهن الهوى. فأنا أم تمستوكليس!»^(٣)

على أن [فانياس] يذكر أن أم تمستوكليس ليست من تراقيا، بل من [كاريا Caria] وإن اسمها [يوتيريه Euterpe] لا [أبروتونون]، ويزيد [نياثس Neathes] على ذلك أنها من مدينة [هليكارناسوس] في [كاريا]. ولما كان الابناء غير الشرعيين^(٤)، وبضمنهم المولدون، ومن كان أحد والديه غير آثيني، يترددون على [الكينوسارغس Cynosarges]^(٥) (وهو نادٍ للمصارعة خارج سور المدينة مكرس لهرقل - وهرقل هو كما لا يخفى من الأرباب المولدين لأن أمه من البشر)، فقد أقنع تمستوكليس عدداً من الشباب أبناء الوجهاء بغشيان ذلك النادي معه ليدلوكوا اجسامهم بالزيت ويمارسوا الرياضة هناك. وكانت بدعة أريبة تهدف الى إزالة التفرقة بين النبلاء والدعماء، ومحو التمايز بين الآثينيين الخالص وبين الموكلين. على أية حال فهو لا شك يمت بصلة قريى الى البيت اللقوديمي^(٦)، لأن [سيمونيدس] يذكر خبر بنائه هيكل

(١) ينم النص عن وجود مقدمة لهذه السيرة مفقودة.

(٢) هذا الحي من المدينة، سمي بهذا لوقوعه على الساحل قرب بيريروس حيث يوجد بئر بالقرب منه موضع يحضر اليه كل محكوم بالنفي لجريمة قتل ارتكبها - عندما يتهم بجريمة أخرى [پاوسنياس ١ ٢٨].

(٣) ثيبوس ٨ ص ٥٧٦.

(٤) هي أثينا قانون يقضي بأن كل طفل من أم أجنبية هو ابن سفاح وإن كان ثمة زواج شرعي. ولذا فهو لا يرث إياه. كما كان أحياناً يستثنى من العصابات التي توزعها الدولة على مواطنيها [انظر سيرة بيركلس].

(٥) عن [پاوسنياس ١ ١٩] في هذا الموضع كرست مذابح لكل من هرقل وزوجه هيبا Heba وأمه ألكميناء، ورفيقه الذي يلازمه أيولوس وقد شرح (سويداس) أصل الكلمة. والغرض من الفصل الذي ذكره النص هو بلا شك للمحافظة على حسن السلوك ونقاء لعة الشاب.

(٦) Lycomedae من Lycus ابن باندليون. وهي أسرة أثينية قال پارسنياس عنها أن أعضائها هم سدة =

[فيليا Philya] الذي يعود الى تلك الأسرة وتزيينه بالتماثيل والصور وغير ذلك من الزخارف بعد أن أحرقه الفرس.

واجمع المؤرخون انه كان منذ فتوته مندفعاً متهوراً سريع الحاطر، ذا ميل شديد الى خوارق الأعمال، وضروب النشاط مع وضاعه اصله، ولم يكن يقضي أوقات فراغه وعطله الدراسية في اللهو والتبطل كغيره من الفتيان، بل يعكف على كتابة خطبة أو نظم القريض لنفسه، في مواضيع لا تخرج عن نقد زملائه وفي الإعتذار والترسل، وما انفك استأذه يقول له «انك يا ولدي لن تكون شيئاً صغيراً، بل شخصاً عظيماً، ولست ارى لك خلاصاً من هذا، أعظيم شر كنت أم عظيم خير». وكان يضيق بالوصايا التي تنزل له بخصوص تحسين سلوكه وأخلاقه ولا يكثرث بها، كما كان يستثقل تعلم كل ما يمت الى الموسيقى وسائر الفنون التشيقفية الأخرى، ويصفى بكل جوارحه الى كل الدروس التي تلقى عليه في السياسة والحكم وادارة الشؤون العامة، وهو اهتمام يشير الاستغراب من كان في مثل سنه، ولاشك انه متأث من قابلياته الطبيعية لمثل هذه الأمور. ولما كان فيما بعد يجد نفسه في صحبة أناس جمعمهم الانس والطرب وسائر ما يدعى باللهو الحر - ويوجد اليه النقد أولئك الذين يعتسرون أنفسهم في أعلى درجات التهذيب، كان مضطراً الى الرد عليهم بصلافة انه بالتأكيد لا يستطيع ان يستخدم ايّاً من الآلات الموسيقية الورتية، لكن اذا وضعت في يديه بللة صغيرة خاملة الشأن، فيامكانه أن يجعلها مدينة عظيمة شهيرة. ويقول ستيسمبروتوس Stesimbrotus^(٧) من جهة أخرى، أن (تمستوكليس) كان أحد المختلفين الى دروس (اناكساغوراس) وانه درس فلسفة الطبيعة على يد [ميليسوس Melissus] خلافاً لما ورد في التواريخ^(٨). كان [ميليسوس] يقرء الساميانين Samian في حصار [بيركليس]، وبيريكاس أصغر سنّاً من تمستوكليس بكثير. وكان [اناكساغوراس] على صلة وثيقة [بيريكاس] أيضاً، وبذلك يدعم هؤلاء قول

= معبد كيرسه Cerse ومتولى امور قرايينه في هذا المعبد الذي اعاد (ثيفس) بناءه تمارس طقوس التكريس وما اليها من الأسرار وقد انيطت هراسته بقبيلة چكروبيس.

(٧) من ثاسوس. شاعر غنائي وسوفسطاني مشهور في أثينا. عاش في ايام كيمون وبيركليس
(٨) كانت ولادة [انكساغوراس] في السنة الأولى من الالبياد السبعين (حوالي ٤٢٢-٤٦٠ ق.م) وهو في [كلزوميني] في ايونيا الآسيوية. من مفكري اليونان المشهورين كان عظيم النفوذ في أثينا عندما نفي تمستوكليس. ربح تمستوكليس معركة (سلاميس) في السنة الأولى من الالبياد الخامس والسبعين ودافع [ميليسوس] عن [ساموس] قبالة بيركلis في السنة الرابعة من الالبياد الرابع والثمانين لذلك لم يكن ممكناً أن يتلذذ تمستوكليس على انكساغوراس الذي كان له من العمر عسرون سنة محسب عندما انتصر هذا القائد في معركة سلاميس. كما انه لم يتلذذ على ميليسوس الساموسي الفيلسوف الطبيعي الشهير تلميذ پارمينيدس. ان لم يدل قدره ويرتفع صيته الا بعد مرور ٢٥ سنة عن المعركة. ويذكر ان حصار ساموس حصل في العام ٤٤٠ ق.م.

القائلين ان تمستوكليس كان أحد المعجبين بـ(منيسيفيلوس Mnesiphilus) الغريباري الذي لا يعد من العصحاء ولا من من الفلاسفة الطبيعيين بل مُعلماً لما كان يدعى آنذاك - بالحكمة^(٩)، وهو علم يتضمن شيئاً من الحكمة العملية. والحنكة السياسية ونشأ وتكامل من وقت صولون^(١٠) كمذهب فلسفي. إلا ان المتأخرين الذين، خلطوا به صناعة المحاماة وعلوم القضاء وحوّلوا الجانب العملي منه الى مجرد فن للحديث وصياغة للعبارات، أطلق عليهم عموماً اسم السفسطائيين Saphist^(١١). ولصق تمستوكليس بـ(منيسيفيلوس) بعد دخول الأخير حلبة السياسة.

لم يكن تمستوكليس في مبدأ شبابه متزناً هادي، الطبع منتظم التصرفات، فقد أطلق لنفسه العنان وارسلها على سجيته دون رادع من عقل أو إغارة اذن لنصح^(١٢). فكان والحالة هذه عرضةً لشتى أنواع المزالق، والتردي في أخطار، وكان كثيراً ما يخلع العذار تماماً وينحدر بسلوكه الى أسفل درك ويتخذ سُر السبل وقد اقرّ هو نفسه بذلك اذ قال: «إن أكثر الأمهار جموحاً وشراسة قد يغدو أجود حصان ان درب التدريب الصحيح وكسرت شكميته». على ان الذين نبوا على هذه الوقائع قصصاً من نسج مخيلاتهم كقولهم ان اباه انكر نسبته اليه وان أمه ماتت حزناً لسوء سمعة ابنها، لاشك يغترون عليه ويكذبون. وهناك فريق يخالف مزاعمهم هذه ويقولون ان أباه صحبه لمشاهدة السفن القديمة وهي جانحة الى الساحل المحطمة متروكة، ليروعه عن ممارسة الشؤون العامة، وليوضح له كيف يكون مسلك الجماهير والذهماء ازاء قاداتهم وزعمائهم، عندما لا يبقى نفع فيهم.

(٩) في الواقع أن الحكماء الأولين كانوا في الوقت عينه من كبار الساسة. وهم الذين يمدون الحكومات بالانظمة والقوانين ويضعون المبادئ. وكان طاليس أول من تدرج في هذا السلم ليبرز عالماً طبيعياً.
(١٠) خلال فترة مائة عام أو مائة وعشرين تقريباً.

(١١) الصوفيست هم في الواقع بُلغاء أكثر منهم فلاسفة. برعوا في صياغة الكلام وتنميت بزخرف البيان. وهم سطحيون فكرياً كما يخبرنا [ميوغينس ليثريتوس]. وأول من سمي بهذا هو (بروتاغوراس) الذي هاش في حدود الالهياد الرابع والثمانين قبل ميلاد افلاطون بقليل. إلا ان سقراط الذي كان أكثر تعمقاً في مبادئ الأخلاق من السياسة والطبيعة والبلافة والذي كان يهدف الى تصحيح أوضاع العالم عملياً لا نظرياً، فقد اتخذ لنفسه لقباً أو صفة متواضعة وهو الفيلسوف Phelosophos اي محب الحكمة. ونبذ صفة صوفس Sophos اي الحكيم.

(١٢) يقول [ايدرميوس] في صبيحة يوم شد تمستوكليس اربعاً من القناتيات الاثينيات الى عربة. وحملهن على سحب عربته هذه عبر السيرانيكوس على ملا من الناس جميعاً في الوقت الذي كان الاثينيون يجهلون معنى الفحور والانتعاس في اللهو والخمر والنساء. لكن ان كان مثل هذه الأمور مجهولاً حقاً عند أهالي أثينا فكيف تسمى لتمستوكليس أن يجد اربع عاهرات يمثل هذه الدرجة من الاستهتار والتبذل بحيث يقبلن بعرض انفسهم على هذا الشكل الفاضح؟

ومس الحلي الثابت أن ذهنه كان مشغولاً بالأمر العام، مهتماً بها من البداية. كما تملكت روحه عاطفة حائجة للبروز والشهرة واللهفة الى ارفع المناصب. ولذلك قبل بدون تردد أن يكون موضع كره أكره رعاء المدينة وأوسعهم نفوذاً وسلطاناً ولاسيما [أريستيدس Aristides] ابن (ليسيسماخوس Lysimachus) الذي كان منه على طرفي نقيض دوماً. ومع هذا يبدو ان عداءهما المتبادل نشأ عن حادثة صبيانة تافهة جداً. فكلاهما كان متعلقاً بـ (ستسلاوس Stesilaus) الكيوسي Ceos الجميل الصورة، كما ذكر أرسطون الفيلسوف، وعلى أثر ذلك اتخذوا مواقف متعارضة. وتنافساً في ميدان السياسة. ولا يعتقد أن تباين حياتيهما وأخلاقهما أدّى الى زيادة التناقض وحدة الخلاف. لأن أريستيدس ذو مزاج هادي، وخلق نبيل، وهو في الشؤون العامة يعمل دوماً لمصلحة الدولة بأمانة وأخلاص وإنكار ذات، دون أن يسعى وراء المجد والشهرة لشخصه. وكثيراً ما كان يضطر مكرهاً الى معارضة (تمستوكليس) والتدخل للحيلولة دون ازدياد نفوذه، وذلك بشير الجماهير ويدفعهم الى كل انواع المغامرات، مبتدعاً مشاريع جديدة على الدوام.

لقد قيل ان تمستوكليس كان يصبو الى المجد، ويتلهف الى القيام بعظام الأمور حتى بدأ مشغول البال متحفظاً كثير الانفراد بنفسه عندما نشبت معركة (ماراثون) مع الفرس، مع انه كان حدثاً. فاذا جرى الحديث أمامه عن مآثر القائد اليوناني المحنك (ميلتياديس)، اب الى بيته وامضى الليل مسهّداً واجتوى المغاني التي اعتاد الاختلاف اليها لقضاء الوقت والتسلية وان سئل عما به ردّ على السائلين بقوله: ان التذكارات الحربية التي غنمها ميلتياديس لا تدع له سبيلاً للنوم» وكان يعارض كل من يقول ان معركة (ماراثون) (*) ستضع نهاية الحروب، ويرى انها البداية لحروب اشدّ هولاً^(١٢). ولذلك ظلّ في تأهب واستعداد دائم وابقى المدينة مستعدة استعداداً حسناً متكهناً بما سيحصل، وبعد نظره لمصلحة بلاد اليونان بأسرها.

تعمدّ الأثينيون اقتسام مستخرجات مناجم الفضة في [الورنتيوم]^(١٤) فكان تمستوكليس الرجل الوحيد الذي تجرأ فأقترح على الشعب الكفّ عن توزيعها بل صرفها على بناء السفن لاستخدامها في الحرب مع الايجنتان Aeginetans^(**)، أغنى اقوام بلاد اليونان، الذين

(*) في العام ٤٩٠ ق.م.

(١٢) كان واثقاً تمام الثقة بان [داريوس] سيدرك بالآخر بالآسبيل له الى الاغريق الا مهاجمتهم بحراً بقوة لا يستطيعون معها ابداء اية مقاومة.

(١٤) جبل يقع شرقي اتيكيا بالقرب من راقس (سونيوم). هذه المناجم استغلّت تماماً وبضمت في ايام پاوسينياس.

(**) ٤٨٤-٤٨٢ ق.م.

حققوا السيادة التامة على البحر بالسفن الكثيرة التي يمتلكونها. وسهل على تمستوكليس اقناعهم بذلك مجتنباً اي ذكر للخطر الآتي من [داريوس] والفرس الذين تفصلهم عن اليونان مسافة شاسعة ولم يكن زحفهم مؤكداً. لذلك ما كانوا يعتبرون حينذاك مصدر خطر كبير. لكنه استخدم الكره الشديد الذي يحمله الآثينيون للايجينيين استخداماً بارعاً، وحملهم على التأهب. وبنى بالمال المجتمع لهم مائة سفينة^(١٥) وهي التي حاربوا بها [احشويرش: Xerxes] فيما بعد. وأخذ يحول اهتمام المدينة منذ ذلك اليوم الى البحر بالتدريج اذ كان من رأيه أن يني قومه في البر ليسوا انداداً لجيرانهم، وان في امكانهم دحر الفرس بسفنهم وترغم المدن اليونانية وبهذا «قلب الآثينيين من جنود محترفين الى بحارة وملاحين يجوبون البحار» على حد قول افلاطون^(١٦). وانتقد بأنه نزع الرمح والترس من أيدي الآثينيين وربطهم على لوح التجذيف. ويقول [ستسيمبروتوس] انه نجح في حمل المجلس على المصادقة رغم معارضة [ميلتاديس]. اما وانه جرح طهارة الحكم بهذا العمل واخذ بتوازنه الصحيح، فهو مما لا يقره الفلاسفة. لأن خلاص اليونان تحقق عن طريق البحر وان هذه السفائن هي صاحبة الفضل في اعادة تعمير المدينة بعد ان دمرت ولم تكن حالها حال المدن الأخرى المنكوبة. و[احشويرش] نفسه شاهد على ذلك، فمع ان قواته البرية لم ينلها ضررٌ بعد هزيمته في البحر، فقد اضطر الى النكوص على اعقابها بعد أن أثبت بالآ قبل له بمقارعة اليونان. وارى انه لم يخلف وراءه [مارادونيوس Maradonius] لأملٍ خالجه في امكان قهرهم، بل ليحول دون مطاردتهم له.

وأثر بعضهم عن تمستوكليس حبه المال والغنى^(١٧). ويعزو بعضهم ذلك الى رغبة في الاكثار من جوده وسخائه، فقد كان يحب التقريب الى الآلهة بكثرة. وينفق ويسرف في اكرام الغريباء، ولذلك كان دوماً بحاجة الى المال. على أن بعضهم اتهمه بالشع والخسة، وقالوا انه لا يتردد في بيع كل ما يهدى اليه من زاد ومؤن. ومرة طلب من [ديفيليدس Diphilide] مربى الخيول أن يعطيه مهراً، فرفض ذلك فهدده [تمستوكليس] بأنه لن يمر وقت طويل إلا وسيجعل من منزله حصاناً خشبياً. يقصد أنه سيعمل على اثارة نزاع وخصومة بينه وبين أقاربه. وفاق الجميع في اطلابه المجد والشهرة. ولما كان فتى يافعاً لا يعرفه الناس دعا الى داره [اسكيليس Episcles] الهرمسيوني الضارب الشهير الحاذق، الذي كان الاثينيون يتنافسون على دعوته - ليعزف له على العود، وغرضه من ذلك ان يجلب انتباه الناس اليه

(١٥) العام ٤٨٠ ق.م.

(١٦) القواميس ٤ ص ٧٠٦.

(١٧) هيرودوتس ٨ ١١٢، يصوره انساناً جشعاً لا يشبع نهمه الى المال ولعل جمعه الثروة كان يقصد منها تحقيق اطماعه بشراء الاعداد الكبيرة من الانتصار، أو ربما ارضاء لنزعة البذخ والاسراف فيه.

وليسألوا عن بيته ويخشوا مجلسه. وعندما حضر الألعاب الاولمبية بمتاعه الفخم ومآدبه الباذخة وخيامه وأثاثه النفيس محاولا الظهور بها على [كيمون] آثار عليه غضب اليونانيين الدبر كانوا يرون أن هذا البذخ والفخفة لا يجدران بشاب يافع غير مشهور لا ينتسب إلى بيت عريق وليس لديه من الأسباب التي تؤهله لهذا المظهر. وفي مسابقة تمثيل فازت التمثيلية التي انفق عليها بالجائزة^(١٨)، وكان مثل هذه المسابقات يثير وقتذاك كثيراً من الاهتمام والتنافس. ولذلك عمل تيمستوكليس لوحاً ونقش عليه العبارة التالية «تيمستوكليس الغريباري أشرف عليها Choregus وفرينيكخوس Phrynichus^(١٩) ألفاها. وأديمانتس كان أرخوناً عند إخراجها». وكانت العامة تحبه كثيراً، فقد اعتاد تحية المواطنين باسمائهم، وإظهار نفسه بمظهر الحكم العادل في مشاكل الناس. قال مرة (السيمونيدس)^(٢٠) الشاعر الكيوسي الذي طلب منه أمراً غير معقول عندما كان قائداً للجيش^(٢١): «لن تكون ياسيمونيدس شاعراً مغلقاً إن كتبت شعرك بأوزان مضطربة. ولن أكون حاكماً صالحاً إن صدرت قراراً غير عادل إرضاء لأحدهم» وفي مناسبة أخرى قال يسخر بسيمونيدس: «إنه رجل أقل تعقلاً من أن يتكلم ضد الكورنثيين سكان المدينة العظيمة. وأقل حصافة من أن ترسم له صور كثيرة ووجهه بهذا القبح».

وارتقى سلم الشهرة درجة درجة وكسب محبة الناس. ومالئث أن تغلب حزبه على حزب [أريستيدس] ومنفاه دون محاكمة^(٢٢).

(١٨) في زمانه بلغت التراجيديات اليونانية الغاية في النضج. وتعلق بها الآثينيون تعلقاً شديداً حتى أن أهم ما كان يرضي الأماثي من حكاهم وعظماهم هو ما يقدمه هؤلاء من عرض لخير التراجيديات والأعداد لإخراجها مرسحياً بالزيينات والزخرف. كما تفحص جوائز عامة للمجيدين المبرزين.

(١٩) كان تلميذاً لـ (ثيسبس) مبتدع فن التراجيديات. وهو أول من أدخل العنصر النسائي إلى التمثيليات. وأهم ما قدمه «الكتيون، والكستس، دانايدس». في حدود ٤٧٦ ق.م. ولكن إسفيلوس معاصراً له.

(٢٠) أشاد [سيمونيدس] بممركتي ماراثون وسلاميس في شعره. وقد نظم عدة قصائد ومرثيات وصلنا بعضها. كان صديقاً مقرباً ومحبباً من [پاوسنياس] ملك سبارطه، و[هيرو] ملك صقلية، ولأملاطون فيه رأي رفيع جداً حتى أنه خلق عليه لقب «الآلهي». أدركته الوفاة في السنة الأولى من لاولياد الشامن والسبعين وهو يبلغ من العمر تسعين عاماً تقريباً. ولهذا فلم يكن يتعدى الثمانين عندما وصف معركه سلاميس

(٢١) إن عبارة «قائد جيش» الواردة في النص لا تنطبق على واقع تيمستوكليس هنا ولولتارج يستخدم كلمة (زرادخوس) أي أرخون. في حين أنه لا يمكن أن يكون كبيراً للاراختة لأن صغر سنه لاتؤهله لإشغال هذا المنصب ذي المسؤولية. ويظهر من توكيديديس (١: ٩٢) وهيروdotus [٧: ١٤٢] أنه لم يبلغ هذا المنصب الرفيع إلا بعد عدة سنوات.

(٢٢) ٤٨٢-٤٨٤ ق.م. لا يعلم من أستخدمت عقوبة الإبعاد. يقول بعضهم أنه (يسستراتوس) أو بالأحرى ابنائه. ويقول آخرون أنها أوجدت بعد طرد أسرة بيسستراتوس. في حين يدعى آخرون بأنها قديمة تعود =

ثم زحف ملك الفرس على بلاد اليونان. واجتمع الآثينيون يتشاورون فيمن سينصب قائداً للجيش. وانسحب كثيرون من تلقاء أنفسهم وقد تهاوكوا عظم المسؤولية. وكان ثم خطيب جماهيري يدعى إبيكيدس Epicydes ابن يوفيميدس Euphemides وهو رجل فصيح اللسان، خائر القلب عبد للغنى، رغب في تسلّم القيادة وبدأ حظّه جيداً في نيلها، بتفوقه في عدة الأصوات. وقيل ان تمستوكليس لحشيشته ان تقع القيادة في مثل هذه اليد، ويصعب كل شيء - عمد الى شراء مناقسه بالمال ودفع له مبلغاً لقاء تنازله.

ارسل ملك الفرس وفداً مع مترجم يوناني، الى الاغريق يطلب «الماء والثروة»^(٢٣) اعترافاً منهم بسلطته عليهم وخضوعهم له. فقبض (تمستوكليس) على المترجم ونفذ فيه حكم الموت بموافقة الشعب. لأنه اذاع أوامر البرابرة ومراسيمهم باللغة اليونانية. فنال عمله هذا كثيراً من الثناء. ولم يسكت عن ارثميسوس Arthmuis الزيلي Zelea^(٢٤) الذي جلب ذهباً من ملك الفرس ليشتري به ذمم الاغريق، فأسقط عنه حقوق المواطنة والغنى جنسيته هو وأولاده ونسله من بعده. على أن أعظم ما عزز مكانته وقوى فيه، هو وضعه حداً نهائياً للحروب الداخلية في اليونان ونجاحه في تسوية خلافاتهم وإقناعهم بنزء العداوات جانباً طوال حربهم مع الفرس. وكان (خليوس Chileus)^(٢٥) الأركادي عوناً له في ذلك على مل قبل.

بعد أن أخذ على نفسه قيادة القوات المحاربة الآثينية. راح يُغري أهل آثينا بترك المدينة

= الى زمن [ثيسفس] وبمقتضى هذه العقوبة يتم ابعاد الرجال الذين يقوى نفوذهم بحيث يصبح خطراً على المجتمع ويهدد سلامة النظام - الى خارج البلاد لمدة عشرة سنوات [ديوبورس المرجع السالف ١١-٥٥ يعدد الابعاد بخمس سنين]. ويجب على المبعد ان يترك حدود آثينا خلال عشرة أيام. والاسلوب المتبع في اصدار هذه العقوبة هو: يعطى كل مواطن كسرة من الفخار أو صدفة فيكتب عليها اسم الشخص الذي وضع ابعاده قيد الاقتراح. ثم تجمع القطع الفخارية بعد أن تكمل ستة آلاف (عدد المصوتين) ثم يبدأون بفرزها فمن ورد اسمه في اكبر عدد من القطع ينفي عن البلاد لمدة عشر سنوات. وكان الابعاد شائعاً في ارغوس وميليتوس وميفارا وغيرها والابعاد هو غير النفي لأن الاولى مؤقتة، ولأن المبعد يحدد له محل اقامة ولأصانير امواله. وتوقع العقوبة في لحظات تطفى عاطفة الحسد والغيرة والفيظ على النفوس. ولا يلحق بصاحبها عار ولا تشوه سمعته ولا تسقط حقوق مواطنته.

(٢٣) هذا يعني طلب الخضوع والاستسلام المطلقين. إلا ان هيرودوتس [٢٢:٧] يؤكد بأن كيكسرو لم يرسل مثل هذا الوفد لا الى الآثينيين ولا الى اللقيديميين. لقد عومل سفراء ابيه معاملة في منتهى القظاظلة عندما تقدموا بهذا الطلب. ذا القاهم الآثينييون في الخندق حيث أعتادوا لقاء مجرميهم المحكوم عليهم بالموت قائلين بشماتة «هنا تجدون ما يكفيكم من الماء والثروة».

(٢٤) [زيلة] هي بلدة في آسيا الصغرى تقع بين كيبوكيا والبحر الأسود. إلا ان ارغيسوس عاش زمناً طويلاً في آثينا. ولم يعلن عن «ردائه» لأنه «أدخل الذهب الفارسي» وحاول افساد ذمم عدد من كبار الآثينيين به وتم نفيه بغير البرق. ينوه [ديموستينس] به أيضاً في [الفيليبات ٤].

(٢٥) وهو الذي مارس نفوذه عند اللقيديميين وأقنعهم بوجوب ارسال مساعدة للآثينيين ضد [ماردونيس] فاستجابوا له.

حالاً والابحار بسفنهم ومفاجأة الفرس بالحرب وهم بعدُ على مسافة بعيدة من سواحل اليونان. فعارض فكرته كثيرون. فقاد قوة كبيرة مع اللقيديونيين ومسكوا مَمرَ تمپه Tempe للمحافظة على [تسالي] التي أبَت الرضوخ لملك الفرس لكن لما عادت تلك القوات دون ان تحقق غرضاً وبات معلوماً ان التساليين فضلاً عن جميع البلاد الممتدة حتى [بويوتيا] قد دخلت طاعة [أحشويرش] بدأ الآثينيون يدركون قيمة نصيحة [تمستوكليس] وزادت أهمية مدينتهم، ولذلك أقروا الحرب البحرية وبعثوا به على رأس الأسطول لحماية مضائق ارتميسيوم - Artemis-sium^(٢٦).

والتقت اساطيل الحلف هنا. ورغب كل الأغريق ان تكون القيادة العليا للقيديونيين وان يكون زعيمهم [يوريباديس Eurybiades] قِداً عاماً لجميع القوات البحرية. إلا ان الآثينيين الذين كان عدد سفنهم يزيد على سفن كل حلفائهم^(٢٧) أبوا أن يكونوا ثاني أي أول. حتى قام تمستوكليس مدفوعاً بادراكه أخطار هذا الخلاف، وتنازل عن القيادة الى [يوريباديس] وحمل الآثينيين على القبول. وحفف وقع الأمر عليهم بقوله لهم: إن سلكوا في هذه الحرب مسلّك الرجال فسيتحمل هو وحده كل المسؤولية الناجمة عن هذا التعيين. وسيجدون ايضاً ان الاغريق لن يترددوا في الخضوع الى قيادتهم طوعاً. واتضح ان تنازله هذا كان عاملاً أساسياً في خلاص بلاد الاغريق. وذبح صيت الآثينيين في تفوقهم على أعدائهم بالشجاعة وعلى حلفائهم بالحكمة وبعد النظر.

وما ان وصلت العمارة البحرية الفارسية العظمى آفيتي Aphetae^(٢٨)، حتى أصيب [يوريباديس] بذهول للعدد الهائل من السفن الممتد أمامه. ولما أبلغ بأن مائتي سفينة أخرى تدلف خلف جزيرة سياثوس Sciathus، قرر ان ينسحب في الحال الى الشواطئ اليونانية، ومنها يبحر عائداً الى عدة مواقع في البيلوبونيس لينضم اسطول الى الجيش البري المعسكر هناك، فقد كان رأيُه انه يستحيل التغلب في البحر على القوات الفارسية المجمعة. وخشي الأيوبيون Euboeans ان يخذلهم الاغريق ويشركوهم تحت رحمة العدو. فأرسلوا [پلاغون

(٢٦) في الوقت ذاته فكر الاغريق في الدفاع عن شعب [ثرموبيلي] برأ ووجهوا اسطولاً لمسح مرور الاسطول البارثي من مضائق [ايغيا] فاجتمع الاسطول في ارتميسيوم وهي أحد مرافئ الجزيرة (هذه الواقعة يوردها [هيروdotus بتفصيل ١٧٢:٧]).

(٢٧) ييشا [هيروdotus] بان الآثينيين ساهموا بـ ١٢٧ سفينة عززت فيما بعد بـ ٥٢ سفينة أخرى في حين كان مجموع ما ساهم له سائر الاغريق لا يتعدى [٩١] سفينة منها (٢٠) سفينة اثينية أصلاً كانت معارة للخليقيونين [١٨].

(٢٨) هذه البلدة تقع في خليج [مغنيزيا] وسميت كذلك لأن الارغوط على قول [سترابو ٩٠] انطلقوا منها في سبيل بحثهم عن الجزة الصوف أو إستناداً الى قول هيروdotus [١٩٢:٧] لأنهم اطلقوا منها تاركن هرقل.

Pelagon} للمداولة سراً مع [تمستوكليس] ومعه مبلغ كبير من المال، فقبله تمستوكليس منه وقدّمه هوية الى [بوريبادس]^(٢٩) على حَدِّ قول [هيرودوتس] ولم يعترض أحد من بني قومه^(٣٠) الذي لم يكن عنده من المال ما يدفع به أجور بحارته، ولذلك كان شديد الرغبة في العودة. لكن تمستوكليس أثار عليه الاتيين فهاجموه ولم يبقوا له ما يتعشّى به، فأدركه ألم شديد وامتعاض، لكن [تمستوكليس] سارع بإرسال مقدار من الأرزاق اليه في صندوق ووضع في أسفله ثلثاً واحداً من الفضة. ورجاه أن يتعشّى الليلة، ويدفع غداً لبحارته. وإن لم يفعل فسوف يذبح بين الاتيين، انه قبل رشوة من العدو. هذا ما رواه [فانياس] اللسبي.

ومع ان المعارك العديدة^(٣١) التي نشبت بين الأغريق في مضائق [بويوا] لم تكن معارك فاصلة يتقرر فيها مصير الحرب. إلا أن التجربة التي استخلصها الأغريق كانت ذات فائدة جلية. فقد ثبت لديهم عملاً، وفي مواجهة الخطر الحقيقي أن عدد السفن أو الغنى والأبهة والزينة وصيحات الفخر، واثاثيد النصر البربرية ليس فيها مما يخيف الرجال الذين عجموا عود القتال وحلبوا أشرطه، وسرعان ما أدركهم الاستخفاف بمثل هذه المظاهر وبرزوا الى الاعداء غير هيّابين وصارعوهم وقارعوهم وقد شهد [بندار] ما فعلوا في القتال عند ارقميسيوم ووصفه ادق وصف وأصدق به قوله:

«... فهناك ثَبَّتْ أبنا، آثينا، الحجر التي استقرت عليها الحرية منذ ذلك اليوم»

إن أول مرحلة الى النصر هو أن يتحلى المحارب بالشجاعة، وكانت ارقميسيوم تقع في [بويوا] فيما يلي مدينة [هستيا Histiaea]^(٣٢) يليها ساحل مفتوح نحو الشمال. وتقوم مقابلها على مسافة قصيرة [اوليزون Olizon] في بلاد يحكمها رسمياً [فيلوكتيتس Phi-

(٢٩) يروي هيرودوتس بالشكل التالي [٥٠٨] «لا لم يفلح الاثيان في افناع [افريبيادس] بالبقاء في ساحلهم حتى يكلموا نقل زوجاتهم وأطفالهم. فانهم توجهوا الى تمستوكليس ودفعوا له ثلاثين تالنتاً، فرشا افريبيادس بخمسة منه. ثم لما كان [اديامنتس] الكورنثي القائد الوحيد الذي أصرَّ على القاء المراسي، فقد سعد تمستوكليس الى سفينته وقال له باهتمام «انك ان تتركنا يا اديامنتس. لأنك ستقبض مني لقاء قيامك بواجب - ما يزيد على ما سيعطيك ملك الماديين لقاء خيانتك له». وير تمستوكليس بوعده وارسل له ثلاثة تالنتات. وبهذا انحز ما اراده الاثيان وأستبقى لنفسه في الوقت عينه اثنين وخمسين تالنتاً.

(٣٠) السفينة المقدسة هي السفينة التي اعتاد الاتيون ارسالها الى [ديلوس] محملة بقرايين ال(اپوللو) وهي كما يدعى عين السفينة التي حمل بها [تيسوس] الجزية الى [كرت]. [انظر سيرة تيسوس].

(٣١) اشتبكوا في معارك ثلاث خلال ايام ثلاثة. في آخرها حقق [كليدياس] والد [الكيباديوس] الاعاجيب. وكان قد بنى سفينة حربية وجهزها بماضي مقاتل من حرّ ماله.

(٣٢) [استينا] مدينة ساحلية في [ايثيا] و[أولنيزون] مدينة في تساليا. هنا يشير بلوتارخ الى قيام [فيلوقراطس] بارسال عدد من جنوده في حصار طوادة [هوميروس الايالة ٧١٧٠٢].

loctetes] و تم معبد صغير للآلهة ديانا يعرف باسم معبد الفجر يحفّ به الشجر وتكتنفه في سائر جهاته اعمدة من الرخام الأبيض إن فركتها بيدك تلونت بلون الزعفران وفاحت منها رائحة شبيهة برائحته. وقد نقش على أحدها الايات التالية:

حارب ابنا اثينا في هذه المياه. عدداً لا يدركه الحصر من
القبائل التي تدفقت من اصقاع آسيا. وبعد ان غلبوا هؤلاء،
الميدون أقاموا لأرقميس هذا النصب شاهداً على ما عملوا.

و تم موضع مازالت العين تراه في ذلك الساحل. هو تلّ من الرمال كبير، يستخرج الناس من قلبه مسحوقاً أسود أشبه بالرماد، أو شيئاً أنت عليه النار، والمقول الشائع ان حطام السفن واجساد القتلى قد أحرقت هنا. لكن عندما وردت الأنباء من (ترموبيلي Thermopylae) الى ارقميسوم^(٢٣) تنعى لأهلها [ليونيداس Leonidas] الملك، وتقول ان [أحشويش] قد سيطر على كلّ المسالك البرية، تراجعوا الى داخلية بلاد اليونان، وكان الآثينيون قد أوكل اليهم حراسة المؤخرة وحماية التفهقر وهو اشارة تكريم وواجب يحف به الخطر. وقد تاه الآثينيون وأختالوا زهوا لما تمّ على ايديهم نتيجة ذلك.

وعندما كان [تمستوكليس] يجوب البحر على طول الساحل، أخذ ينعم النظر في الامكنة والمواضع التي يحتمل ان ترأس اليها سفن الاعداء. وعمد الى كل ما وجده فيها من صخور، وما نقله اليها من قطع رخام قريبة من مواضع الانزال المحتمل، أو على حافة الماء فنقش، نداءات ورسائل بخط كبير يناشد فيها الآيونيين أن يخلعوا نير الفرس ان كان باستطاعتهم ذلك وينضموا الى جانب الاغريق فهم اباؤهم واجدادهم وأصل نسبهم وهم اليوم يخاطرون بكلّ ما لديهم في سبيل حرياتهم. فإن تعذر عليهم ذلك فعليهم ان يعرقلوا زحف الفرس، ويوقعوا الاضطراب في خططهم ومعاركهم على الأقل. وكان أمله أن هذه النداءات ستدفع الآيونيين الى التمرد والثورة. أو اثارة المتاعب للفرس، عندما يساورهم الشك في أخلاص هؤلاء لهم.

ولم يبعث الاغريق بنجذات لما اجتاز [أحشويش] [دورس Dorus^(٢٤)] وعزرا بلاد [فيوكيس Pheocis] وراح ينهب مدنهم ثم يحرقها^(٢٥). وكان الآثينيون يودون من صميم

(٢٣) كان على علم بان [ترموبيلي] هو شعب جبلي ضيق يقع بالقرب من [أثينوس]. في زمننا الحالي لا يرى اثر لهذا الخانق الجبلي نظراً لتراكم الرسوبيات. مما جعل الأرض المحيطة به مستوية.

(٢٤) مستوطنة في آسيا الصغرى. اصل أهلها من أتيكا.

(٢٥) يقصد نجدات من أخائبها واللوپونييسوس. كان اللوويون قد انحازوا الى صفّ أحشويش البارثي [ميروودس ٨٠٤].

قلوبهم أن تلحح القوات الاغريقية بالفرس في [يوتيا] قبل أن يبلغوا اتيكاً، مطبقين خططهم البحرية التي اصرّ عليها تمستوكليس وهي التقدم بحراً حتى اركيسيوم، إلا أن الاغريق لم يستجيبوا لهم لأنهم ركزوا اهتمامهم كله بالبيلوپونيس، وتقرر تحشيد القوات كلها معاً في البرح، وبما حذار من البحر الى البحر في ذلك العنق الضيق من الأرض. واغتاط الاثينيون وسخطوا حين وحدوا انفسهم مخدوعين بحلفاتهم، على ما هم فيه من الوهن واليأس وارتقاء العزيمة بسبب الورطة التي كانوا فيها. فاشتباكهم وحدهم بحرب مع هذا الجيش الجرار دون معونة الاغريق، ستكون عاقبته الهزيمة المؤكدة. والقوات الباقية كان مقرراً لها أن تترك المدينة وتربط في السفن، ولم يكن السكان كما أسلفنا راغبين في ترك مدينتهم، متصورين ان النصر بعيد المنال، وأنهم بعد تركهم معابدهم وتعريض قبور وانصاب اسلافهم الى عدوان الغزاة، لن يبقى لهم وسيلة أخرى للنجاة.

واسقط في يد تمستوكليس كما أسلفنا - وعجز عن تحييد الشعب رأيه^(٣٦) وفشلت فيهم كل حجة عقلية أو منطقية، وهنا أطلق قابلياته الخلاقة وراح يستخدم سلاح النبوءات والخرافات لغرض فكرته هذه فرضاً، فأولاً أختفى تنين [مينرفا]^(٣٧) الذي كان محفوظاً في أعماق مكان من المعبد وقام كاهنه يذبح للناس بأن القرايين التي وضعت امامها لم تمس. وصرّح بايحاء من تمستوكليس أن الرية تركت المدينة وسبقتهم في الهروب الى البحر، وأخذ يزيد من تذكيرهم بتلك بالنبوءة الأخيرة التي منحهم على الركون الى الجدران الخشبية^(٣٨)، موضحاً أن تلك الجدران المذكورة في النبوءة لا يقصد بها غير السفن، وان جزيرة سلاميس لم تصفها النبوءة بالجزيرة البائسة الشقية بل بالصفات القدسية وما الى ذلك الا أنها ستكون في أحد الأيام

(٣٦) بالآخر نجح أعظم نجاح بحيث ان الجمهور الاثيني شرع يرحم كيرسيلوس Cysilus وهو خطيب كان شديد المعارضة له في الشؤون العامة. واما بخصوص إظهار الحب للوطن الأم، والتعلق بالنساء والاطفال المشردين، فقد أظهرن كرههن وخوفهن من فشل قضية الاغريق بسببهن فرحن يرحمن امرأة هذا الفطيب ايضاً.

(٣٧) استناداً الى هيرودوتس ٨: ٤١] كان هذا التنين حارساً للقلعة يمشي على التقدّمات اليومية من افراص العسل. وبلوتارخ على أكثر الاحتمال يعزو النية المذكور الى كاهنة [مينرفا].

(٣٨) كانت هذه النبوءة الثانية التي تسلمها وفد الاثينيين من أرسطوتيكى عرافة ايولوا. اما الاولى منها فقد اتسمت بالصرامة والشدّة في الأمر بترك القلعة، وياعلان خراب المدينة الشامل. وكان تمستوكليس الموحي للكاينة بهاتين النبوءتين دعماً للحظة التي نوى تطبيقها. وكان الرأي الأرجح في تفسير عبارة «الاسوار الخشبية» التي تنصحهم النبوءة بالاحتماء بها اما تقصد بها القلعة لأنها محاطة بأطم خشبية. في حين فسرها آخرون بأنها لا تعني غير السفن. وزعم تمستوكليس في مجال تفسيره الخاص، ان النبوءة لو قصدت اباداة الاثينيين لا وصفت اثينا بالمدينة «الخالدة» بل «التاعسة سلاميس». وان قولها «اولاد النساء» لا ينصرف الا الى البارثين الذين عرفوا بخنوتهم الفاضحة [هيرودوتس ١٤٣: ١٤٤ و ١٤٤].

عاملاً غي أعظم الخير للأغريق. حتى نجح في مسعاه، واستحصل مرسوماً يقضي بأن تودع المدينة الى رعاية [مينرفا] (٢٩) رية الآثينيين، وأن يمتطي متن البحر كل قادر على حمل السلاح بعد أن يعمل على ترحيل أولاده ونسائه وعبيده الى حيث يشاء. وبعد أن صودق على المرسوم بأشر الآثيسيون بنقل آباتهم ونسائهم وأولادهم الى [طرورزين] (٤٠) فاستقبلهم أهلها باكرام ومودة، وصوتوا على قرار يقضي ان تكون معيشة اللاجئين على حساب الخزينة العامة بأن يدفع (اوبولان) يومياً لكل شخص، مع السماح للاحداث بقطف الفاكهة من حيث شاؤوا، وان يدفع للعلمين أجور تعليمهم، وكان صاحب هذا الاقتراح [نيكاغوراس Nicagoras].

لم يكن في اثينا خزينة عمومية في ذلك الحين، الا أن المجلس الارويباغي وزع على كل مجند في الخدمة العسكرية ثمانية دراخمت على حد قول ارسطو وكانت هذه الخطوة عاملاً رئيساً في سد حاجة الاسطول من الرجال ويعزو [قليديوس] هذه الخطوة الى عبقرية تمستوكليس. ولما كان الآثينيون في طريقهم الى ميناء پيريوس Pirieus، اكتشفوا أن الترس الذي يحمل رأس (ميدوسا) مفقود، وبحجة البحث عنه عاث تمستوكليس سلباً في الانحاء المجاورة، وعثر بين ما وقع عليه، على مقادير كبيرة من النقود المخفية فصادرها لانفاقها على الحرب. وهكذا تم تجهيز الجنود والبحار تجهيزاً حسناً لرحلتهم.

كان منظر أهالي أثينا عند ركوبهم السفن مما يشير الرثاء والاعجاب في آن واحد، فترامهم وهم يرحلون أباهم وأولادهم الى الجزيرة بهدوء وجلد ولا تتحرك عواطفهم بالدموع والصراخ، وأشد ما كان يبعث على الألم ان النازحين اضطروا الى ترك عدد كبير من الناس الطاعنين في السن في السفن حيث هم. والحوانات الأليفة نفسها لا يترك المرء نفسه من الشفقة عليها حين يراها تهيم على وجهها سائبة في أزقة المدينة تنبح وتصيح كأنما تطالب بأسياها واصحابها. وما روي أن كسانثيوس Xantheppus والد [بيركليس] كان يملك كلباً وقياً لم يتحمل البقاء وحيداً فقفز الى البحر وراح يسبح بمحاذاة السفينة التي أقلت سيده حتى بلغت جزيرة سلاميس فخرج من الماء وسقط ميتاً على الساحل من فرط الجهد، ويقال ان البقعة التي مازال ثم يطلق عليها «قبر الكلب» انما هي قبره.

من مآثر تمستوكليس العظيمة في هذه الأزمة، دعوة [اريستيديس] وهي مأثرة لا تنقل شأنها عما سبقها. فقبل نشوب الحرب نفى هذا السياسي دون محاكمة بسعي الحزب الذي يترعمه

(٢٩) نعتقد ان پلوتارخ وقع في تناقض. اذ كيف هذا في حين سبق له واخبر الآثينيين بان [مينرفا] قد تخلت عن المدينة؟

(٤٠) قام آخرون بارسال نويهم الى إيجينا وسلاميس.

تمستوكليس وظلّ في دار الغربة، وقد تبين تمستوكليس بفكره الشاقب ان الشعب الآن آسف لغيبانه، وخشي من جهة أخرى ان ينحاز للفرس ليثأر لنفسه ويلحق ضرراً بقضية اليونانيين فاقترح استصدار مرسوم يقضى بعودة المبعدين للمساهمة قولاً وفعلاً في قضية السلاذ مع سائر المواطنين.

كان (بوريبیادس) بسبب بروز سبارطا على غيرها، قد نصب قائداً عاماً لكل الاساطيل الأغريقية، إلا أنه كان قعيدهمة خائر عزيمة، كثير التردد في الساعات الحرجة. وكان من رأيه أن يرفع مراسيه ويبحر الى مضيق كورنث ليكون الاسطول قريباً من الموضع الذي عسكرت فيه الجيوش البرية. فعارض تمستوكليس في هذا. وتبدلت بهذه المناسبة تلك الأقوال التي اشتهرت وتناقلها الناس فيما بعد. قال (بوريبیادس) يريد أن يتخلص من لجة تمستوكليس: «الا تدري ان أولئك الذين يبدأون السباق لا يضرهم يجلدون بالسياط»؟^(٤١) فأجاب تمستوكليس «ومن يتخلف في السباق لا يضر له أكاليل الغار» فرفع (بوريبیادس) عصاه كأنما يهزم بضره. فقال له تمستوكليس «إضرب إن شئت، لكن اسمع» فعجب (بوريبیادس) لما أظهره من لب، وسمح له بالكلام، وبهذا تمكن تمستوكليس في الوصول الى أفضل التفاهم. وتوجه اليه أحد الواقفين قريباً منه، بقوله «لا يجمل بمن ليس لديه مدينة أو منزل يخشى فقدانهما، إن يقنع الآخرين بالتنازل عن دورهم والنزوح عن بلادهم» فردّ عليه تمستوكليس قائلاً «حقاً اننا تركنا بيوتنا واسوارنا ايها العليج والوضيع، لأننا لم نر جديراً بنا أن نستبعد لحرصنا على أشياء لا روح فيها ولا حياة، على أن مدينتنا هي أعظم مدن اليونان طراً، وقد جرّدت للحرب مائتي سفينة تقف الآن هنا للدفاع عنكم بعد أذنتكم! فإن هزتم وغدرتم بنا كما فعلتم بنا مرة في الماضي، فإن معشر الأغريق لن يلبثوا ان يسمعوا بنا استيلاء الأثينيين على بلاد جميلة ومدينة حرة كسيرة لا تقبل بأية حال عن تلك التي فقدوها». هذا القول حمل بوريبیاس على الشك في ان الأثينيين سيتركون خط القتال وينسحبون ان هو انسحب. وانبرى أحد سكان اريتريا Eretria يحاج تمستوكليس فقال هنا له «الديك ما تتحدث به عن الحرب انت هي الشبيه بسلك الحبار Cuttle الذي يملك غلاصم فارغه في موضع القلب.

وقيل، بينما كان تمستوكليس يقول هذا وهو منتصب في برج السفينة. شوهد يوم^(٤٢) يطير

(٤١) لا مادرة تبدو من هذا القائد لتدل على افتقاره الى الشجاعة والبسالة بدليل ان اللقديميين وهم أعدل الحكام في تقديم ووزن اخلاق الرجال قدموا له غصن الشجاعة. كما انه عين قائداً لاسطولهم مرتين وان لم يكن يحري في عروقه دم ملكي. هذه المحادثة عزاهما [هيروبولس ٨: ٥٩] الى تمستوكليس واديامنتس قائد الكوريشيين: إلا أن نصّ بلوتارخ هو الراجع في ان اوريبيادس كان القائد العام.

(٤٢) طائر البوم مقدّس عند [منيرقا] حامية مدينة أثينا. وهو ينقش على كل الميداليات الاثينية وقد شوهد =

عن يمين الاسطول، واقترب ثم حط فوق رأس الصاري. وهذا الغال الحسن أقبح الاغريق بوجوب اتباعهم رأيه حتى أنهم تأهبوا حالاً للمعركة. ولكنهم نسوا نصيحة تمستوكليس بأسرع من لح البصر عندما وصلت اساطيل العدو ميناء [فاليرم] على ساحل آتيكا. وغطت سفنهم الشواطئ، وشاهدوا الملك يتقدم قواته البرية الى الساحل بقضها وقضيضها وعادت اعين البيلوبونيين تتطلع ثانية الى المضائق، وضائق صدورهم بكل من لامهم على العودة الى ديارهم. وانفقت كلمتهم على الرحيل في تلك الليلة، وأعطيت للملاحين الجبهة التي سيقتصدونها.

وحزن تمستوكليس حزناً عظيماً لقرار الاغريق، وضياح فرصة الحرب في بحر ضيق الارجاء، ومداخل مائية قليلة السعة، وآله أن يراهم ينسلون واحداً اثر الآخر كل الى مدينته. فدُعم التفكير واطل التأمل حتى اهتدى الى تلك الخطة التي قام بتنفيذها سيكيناس Sicin-nas^(٤٣) وكان هذا أسيراً فارسياً شديد التعلق بتمستوكليس، مربياً لأولاده. يتوخى مصلحته ويعمل على خدمته. ولهذا يرغب ان يكون أول من يخبره بأن الأثينيين قد تأهبوا للفرار، ويشير عليه بأن يحول دون ذلك بالانقضاء عليهم اثناء الهرج والمرج، وهم يعيدون مسافة عن جيشهم البري، وهذا ما يضمن له تدمير كل قواتهم البحرية فسرّ احشويرش بالرسالة سروراً عظيماً وصدقها وعدّها صادرة من شخص لا يريد له إلا الخير. وأصدر وأمر فورية لضباط سفنه بأن ينطلق حالاً بمائتي سفينة ويحيط بكل الجزر ويضبط المداخل والمضائق حتى لا يدع للأغريق سبيلاً للفرار. وبعد ذلك عليهم ان يحملوا مع باقي الاسطول على العدو، على رسلهم.

لم يعرف بتدبير تمستوكليس هذا أحد، الا ان ارستيبس ابن ليسيماخوس كان أول من حزره، فقصّد خيمة عدوه لا للتصافي وطرح الأحقاد، (لأنه نُفي بمساعيه) بل لينبئه بأن العدو قد طوّقهم. وكان تمستوكليس خبيراً بمساحة ارستيبس، ثم ان زيارته وقعت في نفسه موقعاً عظيماً في تلك اللحظة، فلم يكن منه إلا وصارحه بما فعله (سيكيناس) وطلب منه ان يستفيد من الثقة التامة التي يودعها فيه الأغريق، فيساعده على أغرائهم بالبقاء حيث هم ودخول المعركة مع العدو في المضائق. واستحسن ارستيبس الفكرة وذهب الى القادة الباقين وريانة السفن وحمسهم وشجعهم على النزال. على انهم لم يصغوا الى قوله حتى انفصلت

= في كل ما هو موجود فيها.

(٤٣) كان [اسفيلوس] موجوداً في هذه المعركة وقد تكلم عن [سيكيناس] اذ قال «واحد من الاغريق من مرتبات الجيش الاثيني أخبر احشويرش الخ.» في الواقع ليس من المحتمل ان يوكل تمستوكليس أحسباً أمر رعاية اولاده.

سفينة تينوسية Tenos^(٤٤) بقيادة [پانيتيوس Panaetius] عن العرس وحاءتهم وهم مازالوا في حيرة، فأبدت الاتباء بأن كل المضايق والممرات البحرية مغلقة وعندئذ انتهت مشاعرهم وطارت أنفسهم شعاعاً فضلاً عن صيورتهم أمام الأمر الواقع، مما دفع الجميع إلى احصان المعركة.

وما أن انبلج الصبح حتى صعد احشويرش موضعاً مرتفعاً ليستعرض اسطوله وينظم صفوفه. ويقول [فانوديموس Phanodemus] أنه جلس على نشز فوق معبد هرقل حيث يفصل ساحل اتيكيا عن الجزيرة قناة ضيقة إلا أن ما دونه [أكستندوروس Acestodorus] يشير إلى أن احشويرش اختار مجلسه في ضواحي ميسغارا على التلؤلؤ المسماة بالقرون، حيث جيء له بكرسي^(٤٥) من ذهب وأحاط به أمناء السر ليكتبوا كل ما يجري في القتال من أحداث.

وفيما كان تمستوكليس بهم يتقدم القرابين بالقرب من بارجة القائد، إذ جيء إليه بثلاثة من الأسرى جميلي الوجوه بشبابهم الفاخرة، الموشاة بالذهب وقيل انهم أولاد [احشويرش] وساندوكي Sandauce أخت احشويرش وما أن وقع نظر المنبي [يوفرانتيدس Euphran-tides] عليهم حتى لاحظ نأراً تشب^(٤٦) من التقدّمات ويخرج منها لهب خارق وهو يشير بحادث سعيد، فأمسك بيد تمستوكليس وطلب منه تكريس الشبان الثلاثة للتضحية. وتقريبهم بالصلوات، إلى «باخوس الناهش» لأجل النصر. وبذلك ينقذ الأغريق ويكتب لهم النصر. وانتاب تمستوكليس قلق شديد لهذه النبوءة العجيبة الرهيبة إلا أن العامة من الناس، الذين تراهم في أي أزمة عصيبة وكارثة عظيمة يتطلعون خلاصهم إلى وسائل غريبة، مسرفة، لا إلى وسائل معقولة، ارتفعت اصواتهم بالدعاء [لباخوس] كافة ودفعوا بالأسرى إلى المذبح وفرضوا تقديم القربان مثلما أمر به الكاهن^(٤٧). هذا ما ذكره [فانياس اللسبي] وهو فيلسوف واسع

(٤٤) جريدة صغيرة في البحر الإيجي وتعد ضمن المجموعة المسماة [كيكلادس] فاعتراضاً بفضل هذه الجزيرة بالنسبة للعادث، نقش اسم سكنتها على مائدة ذات ثلاثة قوائم مكرسة لـ[دلفي] من بين اسمين آخرين اعتبراً قاهري احشويرش أنظر هيرودوتس ٨: ٨٢].

(٤٥) هذا الكرسي أو العرش - أهو من الذهب أو من الفضة أم منهما معاً، فقد وقع غنيمة بيد الأثينيين وحمل إلى مدينتهم حيث كرس في معبد متبرفاً مع سيف ماردونئوس الذهبي الذي غنم بعدئذ في معركة [بلاتيا] ولكن ديموستينس (الكرسي يسميه الاقدام الفضية).

(٤٦) اللهم الساطع يعد دائماً خالاً حسناً. أكان حقيقياً صادراً من المذبح أو وهمياً يخرج من رؤوس أناس أحياء! ويذكر فرجيل (الابنياد ٢: ٦٨٢) لهياً من هذا النوع ظهر حول رأس فيولوس. ويذكر (فلورس) أنه شوهد فوق رأس [سرفيوس تلوس]. ان العطاس إلى جهة اليمين يعتبر كذلك من الفئال الحسن عند سائر الأغريق واللاتين [أنطر ارسطو في النفس ١: ١١] وكذلك [هوميروس في الاوديسا ٥٤٥. ٢٧] فهو يعتبر العطسة خالاً حسناً من أي جهة كانت.

(٤٧) ويعبر الطريقة قدم كل من [خيوس] و[تيديوس] و[لسبوس] قرابين بشرية إلى باخوس الملقب =

الاطلاع في التاريخ.

وكان عدد سفن الاعداء حسيما اثبتها [اسخيلوس] الشاعر في مأساته المسماة «الفرس» بحسب اطلاعه الخاص:

« علمت ان احشويرش كان في المعركة يقود ألف سفينة. بينها مائتان وسبع
بوارج سرعتها أكثر من السفن الاعتيادية. وهو ما استقر الرأي عليه. »

وكان عدد سفن الآثينيين مائة وثمانين، في كل سفينة ثمانية عشر محارباً على سطحها، منهم أربعة رماة سهام والبقية مقاتلون.

وكما كان تمستوكليس قد اختار أصلح ميدان للقتال، فإنه والحق يقال لم يكن بأقل حكمة في اختياره ساعة الصفر للبدء. فلم يواجه مقدّم سفنه نحو الفرس ولم يشرع في القتال حتى هبت رياح رخاء من البحر وجاءت معها بدّ قوي الى البرزخ وكان ذلك في مصلحة سفن الأغريق لأنها منخفضة البدن تكاد حافاتها لا ترتفع عن الماء إلا قليلاً ولقد ألحقت ضرراً بالغاً بالسفن الفارسية ذات الدفة والسطح العالي، فضلاً عن ثقلها، وبطء حركتها بحيث أصبحت فريسة سهلة لهجمات اليونان الحاطفة وكان الأغريق جميعاً يتابعون تحركات تمستوكليس، متخذين منه النموذجاً يحتذى، فضلاً ان أنه اتخذ موقعه مقابل سفينة القائد [آريامنيس - Aria menes] وهو رجل باسل شجاع تفوق سجاياء ومنزلته سائر اخوة احشويرش بكثير. شوهد هذا القائد يقذف بالرماح ويطلق السهام من بارجته الضخمة كأنما يطلقها من اسوار قلعة وكان كل من [امينياس Aminias] الذكي Decelean وسوسيكلوس Sosicles البيدي Pedian على ظهر سفينة واحدة، فعندما اختلط الحابل بالنابل والتقى جوجؤ سفينة بدفة أخرى ووجهت الواحدة قيدها النحاسي الى الأخرى فكبتها فتلاحقتا حاول [آريامنيس] الهبوط الى سفينتهما فهجما عليه بالرماح وقذفاه الى البحر فطفت جنته مع حطام السفن وعرفته ارقميسيا^(٤٨) فحمل الى [احشويرش].

= [بالنامش Omodius] وهذه هي الواقعة الوحيدة التي تؤت عن الآثينيين. ولم يذكرها هيرودوتس ويذكر [پاوسانياس] قصة تتعلق بتقريب مؤقت لقرايين بشرية في بويوتيا. وبخلافه فإن باخوس محتص مثل هذه القرايين فمن العادة في اليا بـ(اركاديا) ان تجلد النساء بالسياط فوق مذبحه. (٤٨) أرتميسيا هي ملكة هاليكارناسوس. برزت في مقدمة القوات البارثية وخاضت المعركة الى النهاية وكانت آخر من ترك ميدانها ، ولحق الملك البارثي ذلك فقال معقياً «سلك الرجال مسلك النساء، وسلكت النساء مسلك الرجال» أشدت حقد الآثينيين عليها كامرأة وكبطللة في عين الوقت وعرضوا مكافأة قدرها عشرة الاف دراخمة لمن يقبض عليها حية، وهرودوتس [٨: ٩٢] يروي قصة نجاتها في آخر لحظة والخطة التي استخدمت من أجل ذلك. من الواجب ان لا يخطئ بينها وبين سميتها امرأة [طلاسولس] ملك كاريا التي عاشت في عصر لاحق.

وجاء في الأنباء لهيباً عظيماً أرتفع في الفضاء فوق مدينة ايلوسيس Eleusis، ساعة احتدام القتال، وسمع منه ضجيج وأصوات في كل أرجاء سهل الثرياسيين حتى بلغ البحر. وكان أشبه برجال يراسلون ويرافقون الصوفي [إياخوس Iacchus] وإن ضباباً تجمع حيث تقوم الضحّة أرتفع ثم زحف وسقط على السفن. وخيل للآخرين أنهم شاهدوا أشباحاً على هيئة رجال بشكة سلاحهم وقد مدوا أيديهم مستنجدين من جزيرة (إيجينا) مقابل السواح الأعرقية والمقول، أنهم [الأيكسيدي Aeacidae]^(٤٩) الذين إستغاثوا وطلبوا العون قبل بدء المعركة.

وأول من أستولى على سفينة للعدو، هو (ليقوميدس Lycomedes) الأثيني قبطان أحد السفن. فقطع شعاراتها^(٥٠) وكرسها إلى (أبوللو المكلّل بالفار)، وكان الفرس يقاتلون في لسان بحري ضيق، بحيث تعذر عليهم تحشيد قطعهم البحرية كلها، وراحوا يتخبطون ويقاتل بعضهم بعضاً، بهذا حقق الأغريق عامل التكافؤ في القوى، وقاتلهم حتى اضطروهم الليل إلى الكف عنهم، ونالوا نصراً عظيماً مؤزراً وصفه (سيمونيدس) بأنه نصر لا مثبته له ولا قرين في كل ما عرف من الانتصارات البحرية المجيدة لا عند الاغريق ولا البرابرة. وكان بطبيعة الحال حصيلة البسالة والحماسة اللتين اجتمعتا في كل من خاض المعركة، مع حكمة تستوكليس وعبقريته الفذة^(٥١).

بعد هذه الواقعة البحرية حاول (أحشويرش) بدافع الغيظ من فشله وأن يربط سيلايسس بالقارة بمريرى ثابت بالقاء أكرام من الصخور والحجارة حتى يجعل منها سداً، ثم يستخدم السد المتكون لنقل قواته البرية إلى جزيرة سلايسس. ثم بغلق الممر تماماً بوجه الاغريق^(٥٢).

ورغب تستوكليس أن يستطلع رأي (أريستيدس) فيما كان يفكر من خطة، مقترحاً أن

(٤٩) أرسلت إلى [إيجينا] سفينة لطلب المعونة من [أياكس] ونريته [هيروودوتس ٨: ٦٤] وأياكس هو ابن جويتر من إيجينا أشتهر بعدائه حتى أن ادعيته حققت فوائد عظيمة للأغريق لاسيما في سنوات القحط التي صابت البلاد [إياوسينياس ٢: ٢٩] حين بعد وفاته واحداً من القضاة الثلاثة في العالم السفلي؛ (٥٠) هي في العادة تماثيل وقطع من المنحوتات الفخشية تمثل اشكالاً شتى وتثبت في جوف السفينة لتمييزها عن غيرها أو لحض الزينة.

(٥١) في هذه المعركة التي تعد من المعارك الكبرى في التاريخ القديم خسر الاغريق ٤٠ سفينة فيما بلغت خسارة الفرس ٢٠٠ خلافاً لأسر عدد أكثر من هذا بكثير.

(٥٢) يقول هيروودوتس (٩٧٠٨) أن أحشويرش أراد أن يوهب الأغريق بأنه يعتزم تجربة الحط في معركة بحرية ثانية لنلا يقوم الاغريق بالاقلاع والانتجاه إلى مضائق الهللسبونت وكسر الجسر العائم الذي بناء فوق السفن اثناء وجوده في (ساريس) مستخدماً الصنّاع الفينيقيين والمصريين. فقد شدوا السفن بعضها إلى بعض بجبال وامراس. وكان عرض المضيق ميلاً واحداً تقريباً وقد ثارت عاصفة به فدمرت ما وفقروا إلى مده قبل اكماله. واستبد الغيظ بالملك الفارسي. وحكاية أمره بجلد البحر بالسياط لسوء سلوكه معروفة. إلا أن المجهود في المحاولة الثانية لقي نجاحاً أكبر [المراجع نفسه ٢٣٧-٢٦].

يقلع الاسطول [هلسپونت Hellespont] لكسر جسر السفن حتى «يتم حبس آسيا، وأسرها داخل أوروبا» لكن [ارستيديس]^(٥٣) كره الخطة وقال له «إلى الآن حاربنا عدواً لا يهتم بشيء، قدر اهتمامه بملذاته وترفيه. فإذا حبسناه في بلاد اليونان وألجأناه إلى عمل يائس، فلا يعود الملك هادئاً ساكناً بقواته الجيارة وقد نشر فوق رأسه الشمعية المذبة، يرقب القتال كما يرقب ملهاة. ان وجد نفسه محصوراً فسيحاول المستحيل، وسيشتد عزمه، ويظهر بشخصه في كل موقعة ومناسبة ولا يلبث أن يصحح أخطاءه ويظهر ما كان قد أخفاه قصوره وأهماله وسيكون أكثر حنكة في تقديره الأمور. لذلك لا يفيدنا في شيء. يا قمستوكليس ان نحطم الجسر الذي بيننا لا بل يجدر بنا أن نبنى آخر إن امكننا - لكي نعمل في انسحابه».

فأجابه قمستوكليس قائلاً: «إن كانت هذه غايتنا فعلينا أن نستخدم حالاً كل حيلة ومواطبة وجهد للتخلص منه بأسرع ما يمكن». ولأجل هذه الغاية وجد بين الأسرى خصياً من خصيان الملك الفارسي يدعى [ارناكسيس]^(٥٤) فبعث به إلى سيده برسالة يقول فيها: بعد أن حقق الأغريق نصرهم البحري، قرروا الانتقال بأساطيلهم إلى [هلسپونت] حيث السفن مشدودة بعضها إلى بعض مثل جسر ليتلفوها. ولما كانت مصلحته تهتم [قمستوكليس] فقد كشف له عن ذلك ليعجل في انسحابه إلى البحار الآسيوية ووصوله إلى مملكته، وأنه في الوقت نفسه سيعمل على إعاقة وتأخير الأساطيل الخليفة عن اللحاق به. وما أن سمع احشويرش الرسالة حتى ارتعدت فرائصه^(٥٥) وأسرع بالانسحاب من بلاد الأغريق فوراً. وقد اختضعت حيلة قمستوكليس واريستيديس فيما بعد وعرفت بتفاصيلها في معركة [پلاتايا Plataea]. حيث عرض ماردومينوس Mardominus الأغريق لخطر خسارة كل شيء، باستخدامه وحدة صغيرة من قوات احشويرش.

ويكتب [هيرودوتس] أن [اليجنيا] برزت بين سائر مدن اليونان الأخرى بانجازها أعظم خدمة في الحرب. بينما أقر كل الرجال على انفراد بفضل [قمستوكليس] وإن كان ذلك ضد رغبتهم بسبب الحسد. وعندما عادوا إلى مدخل البيلوبونيسس وادلى عدد من القواد

(٥٣) هيرودوتس (١.٨:٨) لم يكن [ارستيديس] المتكلم هنا: بل هو اوريبيداس القائد العام.

(٥٤) ذكر هيرودوتس (١.١٣:١١٥) سيكليبيوس الذي كان قد أرسل من قبل في مهمة مماثلة.

(٥٥) بعد أن ترك احشويرش قائده (مردان) في اليونان بجيش قوامه ثلاثمائة ألف، انسحب بالباقي نحو تراقيا تمهيداً لعبور البوسفور. ولم يكن قد أمّن لجيشه إزاقاً فعانى مشقة عظيمة في مسيرته التي استغرقت ٤٥ يوماً. ووجد أن الوضع لايسمح له لمواصلة السير بشكل مريح وعلى النحو الذي يرغب فيه تقدم جيشه بحاشية قليلة العدد. ووجد الجسر معطوياً بفعل عاصفة فاستقل قارب صيد وعبر إلى الجهة الثانية ومن المضائق واصل انسحابه حتى [سارديس].

باصواتهم على المذبح^(٥٦). لتقرير من هو أحق شخص بأعظم الإكرام، صوت كل واحد منهم لنفسه في المقام الأول ثم صوتوا جميعاً لتمستوكليس في المقام الثاني وأخذه اللقيديميون معهم الى سبارطا وقدموا جائزة الشجاعة [ليوريبيادس] وجائزة الحكمة وحسن الإدارة له وتوجوه باغصان الزيتون. وأهدوه أحسن مركبة في المدينة وأرفقوا ثلاث مائة شاب حتى حدود بلادهم اجلالاً له^(٥٧). وفي الالعاب الاولمبية التالية عندما دخل السباق شخصت انظار المتفرجين اليه ولم تعد تهتم بالمستابقين وقضوا بقية اليوم يرمقونه باعجاب. ويعرفون الأجانب الحاضرين بشخصه، ويختالون به عجباً ويعبرون عن تكرمهم له بالتصفيق وغيرها من تعابير الفرح حتى أقرّ هو نفسه لاصدقائه وقد أمتلأ امتناناً بأنه يحصد الآن ثمرة كل ما بذله من جهود في سبيل الأغريق.

وكان بطبعه يحبّ العظمة والتكريم حباً جماً، وهذا يتضح من الحكايات التي أثرت عنه. فعندما اختاره الأثينيون قائداً للأسطول لم ينجز عملاً من الأعمال بصورة تامة أكان بشخصه أم بالدولة. وأما استمر في تأجيل البت فيها حتى يوم الإبحار، حتى يبدو بمظهر العظمة والسلطان وهو يصرف تلك الأمور المتراكمة العديدة دفعةً واحدة وما يستتبع ذلك من مقابلات مجموعة كبيرة من مختلف الناس، وعندما كان يستعرض جثث القتلى وهي تلقى في البحر، لاحظ عقوداً وأسورة من الذهب عليها. فتمّ بها غير آبه خلا أنه قال لصاحب له كان يتبعه: «خذ انت هذه الحلى، لأنك لست تمستوكليس». وقال لأنتيفاطس Antiphates، وهو شاب حسن الصورة كان يتحاشاه قبلاً، ثم راح يغازله بعد المجد الذي ناله: «لقد علمنا الزمان أبها الشاب درساً». وقال أن الأثينيين لم يمجّدوه ولم يكرموا. وأما جعلوا منه في الواقع شجرة الدرّدار. يحتمون بها عندما يسوء الطقس، وما أن يغدو المناخ جميلاً حتى يقطفوا أوراقها ويقطعوا اغصانها. وعندما قال له ذلك السيريفي Seriphian^(٥٨) انه لم يبل شهرته بفضل بل بعظمة مدينته، أجابه: «لقد اصبت القول. ما كنت لأنال الشهرة لو انحدرت من [سيريفوس]، ولا كنت تنالها لو جئت من أثينا».

ولمّا ظنّ واحد من القادة أنه حقق خدمات جليلة للأثينيين، مقارناً أعماله بأعمال

(٥٦) مذبح [پنتيلون]. هذه المراسيم انما تقررت لقوم اصدارهم حكماً خالياً من التحيز لأعطائه بمحضر من الآلهة (هيرودوتس).

(٥٧) يقول هيرودوتس: انها المناسبة الوحيدة التي قدم اللقيديميون خلالها تكريماً مثل هذا لأي كائن ولا (هيرودوتس ٢٧ ١١) رأي آخر ان يقول انهم ما اقدموا على ذلك إلا خوفاً من ان يحمل لهم ضغناً.

(٥٨) جزيرة صغيرة من مجموعة جزر كيكلادس. يهزء (جوشينال ١٠ السورخ) بصغر حجمها ويصفها [تاكيتوس الحوليات ٢٦:٤] بأنها صخرة يرسل اليها الرومان منقيهم في العادة.

تمستوكليس على سبيل التباهي، أجابه تمستوكليس «راح اليوم التالي للعيد» بعيب يوم العيد وينتقص منه قائلاً: ليس يوجد فيك إلا العجلة والمتاعب والاستعدادات لكى عندما يحين يومي ترى كل انسان يجلس بهلوه مستريحاً ويمتنع نفسه. فأقرّ العيد بصحة ذلك قائلاً: لقد أصبت في هذا، لكن لو لم أكن سابقاً لك، لما جئت قط. ثم استطرد يقول «وحتى لو كان الأمر كما تقول، فلولا تمستوكليس قد سبقك بمجيئه لما درى أحد أين ستكون الآن». وقال بمزح لتصرفات ابنه واستنثار باهتمام امه وتحكمه فيها وكيف انه استبد به عن طريق امه «...فالآثينيون يقودون اليونان، وأنا أقود الآثينيين وامك تقودني وانت تقود أمك» ولولوعه في أن يكون نسيج وحده في كل الأمور، كان يأمر المنادي عند بيع قطعة أرض تعود له - أن يضيف الى ندائه الملاحظة التالية «حول الارض جيران طبيون» وتنافس اثنان على يد ابنته، ففضل منهما الرجل ذا السمعة الحسنة، على الغني، قائلاً انه يفضل رجلاً بلا مال على مالٍ بلا رجل. وهذا هو أسلوب احاديثه^(٥٩).

بعد النصر الذي اتينا الى وصفه بدأ يعيد بناء مدينة آثينا ويحصنها ورشا الياغور اللقيديميونيين حتى لا يقفوا ضد هذا العمل. كما ذكر (ثيومپريوس) إلا ان معظم الكتاب يقولون انه خدعهم واستبقهم في الأمر. اذ سافر الى سيارطا متعللاً بسفارة، وهناك اتهمه اللقيديميونيين باعادة بناء الأسوار القائلين أن (پوليآرخوس Poliarhus) ما قدم من ايجينا إلا لغرض الاحتجاج على ذلك، فانكر (تمستوكليس) وطلب منهم ان يبعثوا بوفد الى آثينا ليحققوا من صحة ذلك. وفي خلال تلك الفترة اكمل بناء الأسوار ووضع أعضاء الوفد في ايدي ابناء قومه كرهائن مقابل شخصه. ولما عرف اللقيديميونيين الحقيقة لم يتمكنوا من الحاق اي اذى به. واضطروا الى اخفاء سخطهم وكل مظهر من مظاهر الحق في وقتها واعادوه الى وطنه^(٦٠).

وبعدها باشر في بناء ميناء (پيريوس) ادراكاً منه لموقعه الطبيعي الممتاز للغاية، ورغبة في ربط المدينة كلها بالبحر، وخالف السياسة التي جرى عليها الملوك الآثينيون الأقدمون الذين جاهدوا درماً في ابعاد رعاياهم عن البحر وتعويدهم العيش على الزراعة وفلاحة الأرض لا على الملاحة وتطواف البحار، فنشروا حكاية عن وجود نزاع بين (مينرفا) و(پستون) حول

(٥٩) ذكر شيشرون في [De Fies ٢: ٢٢] قولاً أخرى من أقواله تستحق التسجيل هنا. فعندما عزم عليه [سيمونديس] تعليمه فن تقوية الذاكرة ردّ عليه قائلاً «آه! ايجمل بك ان تعلمني فن النسيان لاني كثيراً ما تذكرت ما لايجب ان اتذكره وتعدّر على نسيان ما يجب نسيانه».

(٦٠) تفاصيل هذه الحكاية أوردها [توكيديدس ١: ٩٠] وعلى ذلك بان اللقيديمييين كانوا يخشون وقوع آثينا في يد العدو البارشي خلال غزوة ثانية محتملة. وهي محصنة مينة فتتقلب الى قلعة مفيدة في يد العدو.

السيادة على المدينة، وأن (مينرفا) ربحت القضية بإبرازها للمحكمين شجرة زيتون، إلا أن تمستوكليس لم يكتف بجمع الميناء في واحدة، بل جعل المدينة معتمدة اعتماداً مطلقاً على الميناء لا بل تابعة له هي والأراضي المجاورة للبحر الأمر الذي زاد من قوة الشعب وثقتهم بنفسهم أراء البلا - وهذا ما ذكر - أرسطوفانس [Aristophanes] وأصبح النفوذ كله بيد البحارة والملاحين والصيادين^(٦١). ولذلك كان أحد أوامر الطغاة الثلاثين^(٦٢) تحويل منصات الاقتراع في الجمعية من اتجاهها الذي كان نحو البحر الى البر. مستندين في رأيهم هذا الى أن السيادة البحرية هي أساس الديمقراطية وان جماهير الفلاحين لاتعارض كثيراً في نظام الحكم الاوليفارشي.

على ان تمستوكليس كان يضمر تدابير أعلى وأخطر بخصوص التفوق البحري. فبعد رحيل احشويرش عن البلاد وعودة الأسطول اليوناني الى (پاغاسي Pagasae) حيث قضى شتاءه. قال تمستوكليس من خطبة عامة في أهل اثينا أن لديه فكرة في عمل شي، سيكون ذا نفع عظيم لهم وآثراً كبيرة في سلامتهم ولكن لا يحمل التصريح به او اذاعته فأمره الأثينيون بأن يكشفه [لارستيدس]^(٦٣) فقط فاذا وافق عليه باشره. وعندما ابلغه أن خطته هي احراق الاسطول الاغريقي في ميناء (پاغاسي)، خرج ارستيدس الى الجمهور وأدلى برأيه في الخيلة التي تفتق عنها ذهن تمستوكليس. وقال في وصفها «لا يوجد اقتراح أخبث منه ولا أخزى»، وعند ذلك أمر الأثينيون تمستوكليس بالأفكر فيها.

وأقترح اللقيديميون في الجمعية العامة الامفكتيونية أن يطرد من المجلس ممثلو تلك المدن التي هي ليست اعضاء في العصبة، أو التي لم تحارب الفرس، فقام تمستوكليس يعارض هذا الاقتراح ويساند نواب تلك المدن خشية أن يؤدي اخراج التساليين وأهل (ثيبه) و(ارغوس) وغيرها، الى أن يغدو اللقيديميون المسيطرين على الاصوات في المجلس. ونجح في اقناع الاعضاء المجتمعين بتغيير^(٦٤) رأيهم في هذا الموضوع موضحاً لهم أن المدن التي ساهمت في الحرب لاتزيد عن واحدٍ وثلاثين وان معظمها في منتهى الصغر. وانه ليس من الممكن أو المعقول أن تستثنى مدن يونانية كثيرة وان يسيطر على المجلس العام مدينتان أو ثلاث مدن كبيرة. وبهذا أثار سحق اللقيديميون عليه، فمالوا الى [كيسمون] وجهوا كل رعايتهم

(٦١) «الفرسان» وقول أرسطوفان هذا هو هجاء في معرض المديح. انه يلوم تمستوكليس لانه عمل على اشاعة التحلل الخلقي والتفسخ في المدينة وهو من مظاهر المواني».

(٦٢) كان قيام عهد الطغاة الثلاثين في أثينا ابتداء من ليساندر في العام ٤٠٤ ق.م.

(٦٣) بيلاكوري بالأصل. مأخوذة من اجتماعهم في ثرموپيلي. وسميت المضائق بهذا الاسم لقربها من الحمامات الحارة المجاورة ولأن فتحتها ضيقة مثل فتحة الباب.

وأكرامهم له ليجعلوه خصماً سياسياً [تمستوكليس].

وكان تمستوكليس مصدر مضايقة واحراج للحلف، بإبحاره المستقيم الى الجزر وجباية الأموال منها. ويقول [هيرودوتس] أنه جاء يطلب مالاً من سكان جزيرة [اندروس Andros] (١٦٤) زاعماً لهم أنه «جاء معه ربتان: ربة الإقناع وربة القوة»، فأجابوه «أن لديهم أيضاً ربتين عظيمتي الحول، هما ربة الفقر، وربة المستحيل تقفان حائلًا دون دفع أي مبلغ من المال له». ويهجو [تيموكريون Timocreon] الشاعر الروديسي ويعرض به لتهافته على المال لقاء السماح بعودة بعض المنفيين الى بلادهم، في حين يهمله هو صديقه وضييفه. والأبيات هي التالية:

«ان كان ذلك ان تمدح [پاوسنياس]، وكذلك كزانتيبوس Xanthippus
وثالثهم [اليوتبخيداس]. فانا أظيف اليهم [الريستيديس] الذي
جاء من آثينا المقدسة، وهو الرجل الحقيقي بين الجميع.
مادام ليتو Leto يكره تمستوكليس،
ذلك الكذاب الخائن الفادر الذي لم يشأ إعادة صديقه
[تيموكريون] الى موطنه لياليسوس Lalyus (١٦٥)، طمعاً بالمال
لقد أخذ ثلاثة تالنتات من الفضّة وانصرف لعنة الله عليه.
ينفي بعض الناس بلا حق ويعيبه بعضهم
ويقتل بعضهم الآخر، وهو لا يني يلاً جيبه بالمال. وفي
المضايق عمل مأدبة من اللحم الفاسد كانت مصدر ضحك وازدراء.
أكلوها ودعوا للأكهة أن يقوم أحد غيره بهذا الواجب في السنة الأخرى».

لكن [تيموكريون] اشتط في هجاء تمستوكليس وخرقه كل الحدود في التهجم عليه بعد صدور الحكم بإبعاده - في قصيدة هذا مطلعها:

ألا يا ربّات الشعر (الميزوات) عودي الى جميع الاغريق
وانشدي هذه الأبيات المناسبة للجميلة لهم.

والحكاية هي أن قضية [تيموكريون] كانت قد وضعت موضوع بحث هل ينفي بسبب تعاونه مع الفرس أم لا؟ وكان [تمستوكليس] يحبذ نفيه وقد صوّت ضده. فعندما اتهم تمستوكليس

(٦٤) هي إحدى جزير كيكلادس بين آثينا ونخسوس وقد فصل هيرودوتس في الطلب وفي الجواب [١١١ ٧].

(٦٥) هي من مدن ساحل رودس سميت كذلك نسبةً الى لوحة مشهورة من عمل بروتوغوريس تمثل الصياد لياليسوس وكلبه.

بنأمره مع الميديين نظم تيموكرينون الابيات التالية بهذه المناسبة:
والآن لم يعد (تيموكرينون) عميل الميديين الوحيد حقاً
فهناك بعض الأوغاد الآخرين معه - ولست الوحيد
الذي خاب - فهناك ثعلب آخر نزل الميدان.

عندما بدأ أهالي أثينا يعيرون آذاناً صاغية لأولئك الذين يشلبونه وينقصون منه، اضطروا الى تفكيرهم بالخدمات الجليلة التي أنجزها - باستمرار ولجاجة باعثة على الضيق. وسأل أولئك المستائين منه، عما اذا كانوا قد ملؤوا من اغتنام المنافع الكثيرة من ذات الشخص الذي يذمونه، وبهذا القول ضاعف من كره الناس على ان أشد السخط كان مبعثه بناؤه معبداً لديانا، كتب عليه الكنية التي كنّاها بها [ارسطوبول Aristobule] اي «ديانا خير المشورات» مشيراً بهذا او انه قدم خير المشورات لا للأثينيين وحدهم بل لكل الأغريق. بناء قرب بيته في الحيّ المسمى أميليت حيث يأتي ضباط الشرطة اليوم بجثث من ينفذ فيهم احكام الموت ويرمون فيها حبال الخنق وثياب المخنوقين وسائر حاجات اولئك الذين يُقضى عليهم. والى يومنا هذا يوجد تمثال صغير [لتمستوكليس] في معبد «ديانا خير المشورات» يمثل رجلاً ذا عقلية كريمة وملامح بطولية فائقة الحدّ. وبالأخير نفاء الأثينيين، وأستخدموا النفي بدون محاكمة لاذلاله والخطّ من كبريائه وسلطانه كما يفعلون عادة بكلّ من قوي سلطانه وطغت عظمته بحيث ما عادت تناسب مبدأ المساواة الذي يقوم عليه البناء الجمهوري فالنفي دون محاكمة وضع بالأصل لا لمعاقبة المذنب، بقدر ما كان لأجل قمع وتخفيف حدة الحاسدين الذين يسرهم إذلال عظماء الرجال، فبالصاق هذا العار بهم بنفوس عن شيء من حقدهم وحسدهم.

بعد أن نُفي [تمستوكليس] (*) من أثينا، وعند وجوده في ارغوس افسادت قضية [پارسنياس] (٦٦) اعداءه وزودتهم بمزيد من الحجج ضدّه وكان [ليوبوتس Leobotes]

(*) في سنة ٤٧٢ ق.م تقريباً.

(٦٦) هذا الرجل العاضل هو ابن كليبروتس، وملك لاسبارطة. دحر البارثيين في معركة پلاتيا وأشتهر بالعدل والكرم والنزاهة. لكن أخلاقه انحطت وسفلت في الأخير اذ عقد معاهدة قبيحة مع البارثيين أصلاً في أن يساعده نفوذهم على امتلاك بلاد الاغريق كلها. وكان مشروعه يتلخص في تسليم البلاد الى [حشويرش] وان يحكمها هو باعتباره ملكاً تابعاً له على أن يزوجه ابنته. [توكيديس ١: ١٢٨] ما أن تبني هذه الفكرة الغريبة حتى بدء بتقليد العادات البارثية والنزوع الى حياة الترف التي يعيشونها. ونبذ ارتداء ثياب وطنه البسيطة، وصبر الايغوري عليه بعض الوقت ليتوفر لهم الدليل القوي على مشاريعه الخيالية. وما ان وضعوا ايديهم عليها حتى اصبروا أمراً بإيداعه السجن لكنه هرب والتجأ الى معبد [منيرفا حلقيوخوس] فما كان منهم إلا ان بنوا جداراً سنّوا به المداخل وقامت والدته بوضع اول حجر في البناء. وعندما =

الأركولي ابن (الكيميون) هو الذي اتهم (پارسنياس) بالخيانة ودعمه السبارطيون في اتهامه هذا.

عندما باشر (پاوسنياس) في خطته الخيانية، عمل على أخفائها عن تمستوكليس في مبدأ الأمر مع انه كان صاحباً له. ولكن عندما رآه يطرد من البلاد وتبين شدة وقع النفي عليه، أقدم على الاتصال به والافضاء اليه بسرّه ورغب في ان يساعده وأطلعته على رسائل ملك الفرس وأوغر صدره على الأغريق، وصورهم له بناكري الجميل والأوغاد. على أن (تمستوكليس) رفض مقترحاته، وأبى أن يكون طرفاً في المشروع بصورة مطلقة إلا أنه لم يكشف سرّ هذه الاتصالات ولم يند بسرّ المؤامرة لأي أحد إمّا لأنه كان يأمل عودة (پوسنياس) الى صوابه، والعدوان عن نيته، أو لتوقعه بأن محاولة هوجاء طائشة كهذه ترمي الى أغراض شيطانية دنيئة ستتكشف بوسائل أخرى.

وبعد ان نفذ حكم الموت (پاوسنياس) ووجدت في حوزته رسائل ووثائق خطية حول هذا الشأن تدّين تمستوكليس وتضعه موضع شبهة ثارت اثارة اللقيديونين عليه، واتهمه اعداؤه في أثينا بالتآمر. ولما كان غائباً عن أثينا فقد قدم دفاعه على شكل خطابات، مناقشاً بصورة خاصة النقاط التي كانت في السابق محور اتهامه. وكان جوابه على اتهامات اعدائه الظالمة الكاذبة، رسالة بعث بها للمواطنين وذكر فيها أن الشخص الذي كان طامعاً للحكم دوماً، ليس من طبيعته أن يحكم ويُخدم أحداً، لن يبيع نفسه ولا وطنه أبداً ليكونا عبيدين لبلاد عدوة بربرية.

ولم يرق المواطنون الأثينيون وزناً لدفاع (تمستوكليس) بعد أن اقتنعوا بأدلة متهميه وبعثوا بقوة من الشرطة للقبض عليه وجلبه. للمحاكمة أمام مجلس قضاء أغريقي، إلا أنه أنذر مسبقاً فانتقل الى جزيرة (كوركورا Corcra) وكانت حكومتها مدينة له بفضل لأنه أختير فيما مضى حكماً في نزاع بينها وبين الكورنثيين^(٦٧) فصل فيه بفرض مبلغ قدره عشرون

= (شرف على الموت جوعاً تمكثوا منه. وما أن وفقوا الى سحبه خارج المعبد حتى اسلم الروح [توكيديس المرجع نفسه ١٣٤] و[ديون ٩: ٤٠].

(٦٧) قدم تمستوكليس لاهل كوركورا خدمة هامة: كانت دويلات الاغريق تهّم بشن الحرب على هذه الجزيرة لانيها لم تنظم الى الحلف الأعظم ضد احشويرش. لكن تمستوكليس عارض الفكرة بقوله لو عاقبنا بهذا الشكل كل من لم ينضم الى الحلف لاقعنا بالبلاد الاغريقية ضرراً يفوق كثيراً ما كان سينالها من أنى على يد الفارزي. وعلى اية حال فقد غلب الخوف الذي كان يعتمل في احشاء أهل الجزيرة، على عرفان الجميل فلم يستقبلوا تمستوكليس خشية ان يثيروا مشاعر أثينا وسپارطة ضدهم. ورفضوا ان يقبلوه ضيفاً عندهم وبعثوا به الى ابيروس. [توكيديس ٢٠٠: ١] تعتبر ليوكاس مستوطنة كورثية صرفه

تالتا يدفعه الكورنثيون، وأعتبر لمدة [اليوكاس Leucas] وجزيرتها مستعمرة مشتركة للمديتين. ومن [كوركورا] هرب إلى [إبيروس] والآثينيون واللقيديمونيون يجدون في أثره وكان يتشتت بعرض نجاة يائسة تبدو مستحيلة. فقد فرّ لاجئاً إلى [ادميتوس Admetus] ملك المولوسيين. وكان هذا قد طلب طلباً من الآثينيين في عهد حكم تمستوكليس وأوح سلطانه. فرفض الطلب بشدة واحتقاراً واهانة، حتى أظهر الملك المهان ما يدلّ على أنه سيثار لنفسه منه إن ظفر به. على أن [تمستوكليس] في سوء حظه هذا كان يخشى كره جيرانه الأخير ونقمة مواطنيه عليه. أكثر من خشيته سخط الملك - ولذلك وضع نفسه تحت رحمته واذلّ نفسه أمامه فبضراعاته بأسلوب غريب يختلف عن عادات البلاد الأخرى إذ حمل ابن الملك وكان طفلاً وجشاً بالقرب من المستوقد أمام الهة البيت، وهذا هو أقدم وأعلى أسلوب في الإستجارة عند المولوسيين، لا يمكن رفضه مطلقاً ويقول بعضهم أن [فثيا Phthia] زوج الملك هي التي أشارت على تمستوكليس بهذه الطريقة^(٦٨) ووضعت طفلها أمام المستوقد. وقال آخرون أن الملك نفسه بالاتفاق مع تمستوكليس اعدّ وأخرج هذه التمثيلية ذراً للرماد على العيون، حتى يكون مقيداً بعهدٍ ديني يمنعه من تسليم المستجير لمطارديه وفي ذلك الزمن قام [إبقراطس Epicrates] الأخارني Achamae بإرسال زوجته وأطفاله إليه سرّاً من أثينا. ودفع حباته ثمناً لهذه الخدمة فقد أدانه [كيسون] وأعدمه الحياة، وفي رواية أوردتها [ستمبروتوس] (ربّما ناسياً ذلك بشكل ما، أو مستهدفاً أظهر تمستوكليس بمظهر القليل الإهتمام) قال أن المنفيّ أسرع يبحر إلى صقلية، وهناك طلب يد ابنة [هيسرو] طاغية [سيراقوس] ووعد أباه أن يخضع له بلاد الأغريق.

ولما رفض [هيسرو] طلبه غادره إلى آسيا. إلا أن هذه الرواية مشكوك فيها، بدليل ما كتبه [تيوفراستس] في مؤلفه [الملكية المطلقة Monarchy] قال: لما أرسل [هيسرو] خيل سباق إلى الألعاب الأولمبية ونصب سرادقاً فخماً باذخاً، القى تمستوكليس خطبته على الأغريق حمل فيها عليه وحرّضهم على قلع خيمة الطاغية ومنع خيله من المشاركة في السباق.

ويذكر [ثوكيديدس] بعد أن وصل تمستوكليس [بحرايحه] عن طريق البرّ استقلّ سفينة من [پيدنا Pydna] على خليج ثيرم [Therme]. ولم يكشف عن هويته طوال وجوده على ظهر السفينة حتى تبين له أن الريح تدفع بالسفينة قريباً من [انكسوس] (*) وارتعب إذ رأى

(٦٨) ليس بالشيء الملفت للنظر يقدم المستجير ادعيةً لآلهة بيت الذي استجاره. كما فعل [أوليوس] عند وصوله بلاط [الكينوبوس] (الاوليسي ١٥٢:٧) أمّا أن يقدم على ذلك وابن الملك بين ذراعيه مضموم فذلك واقعة غير اعتيادية.

(*) حوالي ٤٦٩ ق.م.

الآثينيين يحيطون بها. فكشف عن حقيقته لقبطان السفينة وملاحها وبين الرجااء والتهديد بقوله أنه سيتهمهما بمساعدته ويقبولهما رشوة مالية منه إذا خطر ببالهما ان يغتربا من الساحل وسيجعل الآثينيين يعتقدون بأنهما كانا يعرفان هويته عندما حملاه. وهكذا أرحمهما على الأقلاع والابتعاد وتوجيه السفينة الى ساحل آسيا ونقل اصدقائه جزءاً كبيراً من ثروته سرّاً ويعيشوها وراءه الى آسيا عن طريق البحر، في حين أن ما أكتشف وصادر منها قاربت قيمته الثمانين تالنتاً على ما يذكر (ثيوفراستس). ويقول (ثيومپوبوس) بل مائة تالنت في حين لم يقوم تمستوكليس بأكثر من ثلاثة تالنتات قبل أن يتولى الشؤون العامة^(٦٩).

عندما وصل (كيمه Cyme) وعلم أن الكثير الرجال يكمنون له على طول الساحل ولاسيما (ايرغوتيلس Ergoteles) و(پثيدوروس Pythodorus) (إن القنيصة تسوى عناء الصيد لمن يكون شاكراً أن كسب مالاً باية وسيلة. وقد أعلن ملك الفرس للعموم عن استعدادده لدفع مكافأة نقدية قدرها مائتا تالنت لمن يقبض عليه) فهرب الى ايجي Aegae وعي بلدة أيولية صغيرة، لا يعرفه فيها أحد غير مستضيفه (نيقوجينس Nicogenes) أغنى أغنياة (ايوليا) ومن أشهر من يعرف عند عظماء الرجال في داخلية آسيا. وفيما كان (تمستوكليس) يسكن داره متخفياً لعدة أيام وقع (اولبيوس Olbius) معلم أولاد نيقوجينس في غيبوبة وأدركته نوبة وجدٍ آلهي على أثر تضحية عقبها عشاء. ونطق بالنبوءة التالية شعراً:

«الليل سيتكلم - والليل يرشدك بصوت الليل سيسدّد خطاك»^(٧٠)

وبعدا آّب (تمستوكليس) الى فراشه ورأى في الحلم حيةً تلتف على نفسها فوق بطنه ثم ترحف الى عنقه ثم ما أن تمسّ وجهه حتى تنقلب الى عقاب نشر جناحيه فوقه ورفعته وطار به مسافة بعيدة، ثم ظهر له قضيب المنادي الذهبي. فما كان من الطائر إلا وخطّ به آمناً بعد متاعب ومشاق لا تُحصى.

وتمّ رحيله عن (نيقوجينس) بركون هذا الى الحيلة التالية:

ان اقوام البرابرة ومنهم الفرس، هم بصورة خاصة شديدو الغيرة، والشك والصرامة بخصوص نساءهم، لا زوجاتهم وحدهن بل إمائهن المشتريات وجواريهن، ويحرصون عليهن ويحجبونهن عن الأعين ولا يدعونهن خارج الدار بل يوصدون دونهن الابواب طوال حياتهن وإذا سافرن، يحملن في هرايج صغيرة ترخى عليها السجف من كل الجهات وتوضع فوق مركبة. فهيأ

(٦٩) هذا لا يستقيم قط مع ما وصفه بلوتارخ من البذخ والعزّ الذي كان يستمتع به تمستوكليس قبل ان يتولى وظيفة عامة.

(٧٠) اي «اسمع نصيحة وسادتك وستنجح».

[نيفوجيس] لتمستوكليس هودجاً كهذا واخفاء فيه وحملوه في الرحلة. وأوصى الحمالين ان يزعموا للذين يصادفونهم في الطريق انهم يحملون فتاة أغريقية خارج [أيونيا] الى نبيل في البلاط الفارسي.

يقول [ثوكيديدس]، و[خارون Charon] اللمپساكوسي Lampsacus أن [احشويرش] كان قد مات وأن تمستوكليس واجه ابنه ارتحششتا، إلا أن [إيفورس ودينون وقلبتارخوس، وهيراقليدس Ephorua, Dinon, Clitarchus] وكثير غيرهم، يذكرون أنه التقى بأحشويرش إلا أن الألواح الخولية تتفق ورواية [ثوكيديدس]. ومع هذا لا يمكن الجزم أياً من الروايتين هي الصحيحة والمعتمدة^(٧١).

عندما جوبه [تمستوكليس] بأحرج موقف له. قدّم نفسه أولاً [لأرطبان]^(٧٢) وهو قائد ألف، وقائلاً له أنه أغريقي يرغب في ان يكلم الملك في امور هامة هي الآن شغله الشاغل فأجابه [أرطبان] «إن قيم الرجال الخلقية ايها الغريب، تختلف. فما هو شريف عند أحدهم قد لا يكون كذلك عند آخر. ولكن من الشرف والنبيل للجميع أن يحافظوا ويحترموا شرائعهم الخلقية ولقد قيل لنا أن من خلق الأغريق الاعتزاز بحريتهم ومبدأ مساواتهم أكثر من اعتزازهم بأي شيء آخر. أمّا عن فمن شرائعنا الممتازة العديدة نحن نعتبر اكرامنا الملك وعبادته أسمى ما في شرائعنا من مبادئ، إننا نعدّه صورة لرب الكون الأعظم. فإن أنت ارضيت شرائعنا وسجدت لملكنا وعبدته ففي الامكان ان تراه وتكلمه، أما اذا كان رأيك خلاف ذلك، فعليك ان تتصل بغيري للتوسط لك. اذ ليس من العادات القومية هنا أن يسمح لأي شخص بمقابلته إن لك يسجد له».

أصغى تمستوكليس لهذا الكلام ثم أجاب «أنا آت يا أرطبان لأعمل على زيادة سلطة الملك ومجده، ولذلك لن أكتفي بتطبيق شرائعه على نفسي، سادامت مشيئة الآله أن يرفع الامبراطورية الفارسية الى أوج العظمة، بل سأعمل على أن يزيد عدد الساجدين والعابدين له كثيراً. ولن يكون هذا إذن عائقاً لي عن الاتصال به والافضاء اليه بما عندي». فسأله أرطبان: «ما الاسم الذي سنقدمك به اليه؟ لأن اقوالك تدل بأنك لست شخصاً اعتيادياً» فأجابه

(٧١) سيكون وصوله البلاط البارثي في السنة الأولى من الالبياد التاسع والسبعين أعني في ٤٦٤ ق م (ديودورس ٦:٩) وهي السنة الأولى لتولي (ارتحششتا) العرش. ولكن بعض المؤرخين ومنهم إيفورس الكومي في (تاريخ الاغريق) وهو يلي تاريخ هوميروس في الأهمية يقول ان وصوله كان قبل هذا التاريخ بسبع سنين [ديودورس المرجع السالف] كذلك ثوكيديدس ودينون والد كليتارخس الذي كتب تاريخاً لبلاد الفرس وهو من زمرة الاسكندر المقدوني.

(٧٢) ابن أرطبان قائد الحرس الذي قتل لحشويرش وأقنع ارتحششتا بقتل داريوس اخيه الأكبر.

تمستوكليس: «لن يعلم أي إنسان بذلك يا أرطبان قبل الملك». هذا ما يسرده [فانياس]، ويضيف [ابراتستينوس (Eratosthenes) (٧٢)] في رسالته «عن الغنى» أن تمستوكليس توصل إلى مقابلة [أرطبان] بمسعى من امرأة أريتريّة كانت في حرم ذلك القائد.

قد يكون كذلك وقد لا يكون لكن عندما أدخل على الملك وقدم له فروض التجارة والتعظيم وقف صامتاً حتى أمر الملك المترجم بسؤاله عن هويته. فأجاب «أيها الملك أنا هو تمستوكليس الأثيني، وقد نفاني الأغريق. إن الأضرار التي ألحقتها بالفرس عديدة إلا أن المنافع التي كسبها مني أعظم، فقد حلت بين قومي وبين مطاردتك حالاً سمح لي خلاص بلدي بإظهار الرعاية لكم أيضاً. لقد جئت لتحذوني أفكار متفقة مع النوايب التي أصابني، متبهاً لاقتبال عطفكم وغضبكم معاً، مَرَحِباً بعفوكم الكريم أو مستعداً لاحتمال سخطكم العظيم، ولديكم من بني وطني شهودٌ على الخدمات التي قدمتها لبلاد فارس. فانتفع بهذه الفرصة، لتظهر للملأ سجاياك، فهذا أحرى بك وأجدى لك ارضاء حنقك. إن انقذتني انقذت مستجيراً بك مخلصاً، وإن فعلت خلاف ذلك فستقضي على عدوٍ للأغريق».

وتكلم أيضاً عن النذير الألهي كالرويا التي حلم بها في منزل [نيقوجينس] والأمر الذي نزل عليه في نبوءة [دودونا Dodona] حيث طلب منه (جويتر) أن يقصد ذلك الذي كان اسمه شبيهاً باسمه عما فهم أنه مرسل إليه من جويتر لأن كليهما عظيمان ولكليهما اسم ملك.

وأصاخ الملك السمع معجباً بروحيته وشجاعته، ولكنه لم يجبه بشيء في حينه. إلا أنه أظهر فرحه أمام ندمائه المقربين وحمد حسن حظه وعد نفسه في غاية السعادة لذلك. ودعا لألهة [أهريمان] (٧٤) أن يتجه رأي كل أعدائه اتجاه رأي الأغريق فيهيئون ويتردون اشجع رجالهم من بينهم. ثم قربً للألهة، وعكف على الشراب ووصل به السرور حدّاً أنه صرخ في نومه ثلاث مرات «تمستوكليس الأثيني عندي».

وفي صباح اليوم التالي جمع الملك عظماء البلاط، وأمر باحضار [تمستوكليس] أمامه فتوجس هذا شراً عندما رأى الحراس مثلاً يرمقونه شزراً عندما يحرفونه، فيسمعونه قارص الالفاظ، وتقدم من ناحية الملك الذي كان جالساً والباقون سكوت، فمرّ به [روكسان] وهو قائد الف، وسمعه يتمتم قائلاً دون أن يتحرك من مجلسه: «أيها الشعبان الأغريقي المراوغ الماكر! إن عبقرية الملك السامية تمكنت من أحضارك هنا». وعندما مثل أمامه سجد له كالسابق فحياه الملك وكلمة برقة قائلاً أنه مدين له الآن بمائتي تالنت، اذ من المعقول والعدل أن يتسلم

(٧٢) رعاها [بطليموس أفريقيّس] من مسقط رأسه (كيرون) للاشراف على بقتلاطون الثاني.

(٧٤) أو أهريمن وهو آله الشر والظلام مسبب الطاعون والتكبات في التوبة الفارسية.

المكافأة التي خصصها «لن يأتي بتمستوكليس» ووعده بمال كثير وشجعه، وحضه على التحدث معه بكل حرية عن شؤون الأغريق. فأجاب [تمستوكليس] أن حديث المرء يشبه السجادة الفارسية النفيسة، لا تظهر زخارفها وصورها الجميلة إلا إذا فرشت بكامل أبعادها، فإذا ما طويت أو لُفّت ضاعت تلك التهاويل أو بدت شوهة للعين. لذلك فهو يرغب في مهلة من الوقت وسر الملك بالمقارنة وسمح له بما شاء من الوقت فطلب سنة كاملة وفي خلالها اتقن اللغة الفارسية وتكلم بها مع الملك دون مساعدة مترجم، وكان المفروض أن يتناول الحديث شؤون اليونان فحسب. ولكن حدثت في تلك الفترة تغييرات كبيرة في بلاط الملك وطُرد عدد كثير من ندمائه فاستهدف تمستوكليس لنقمة العظماء الذين تصوروا أن الجراءة بلغت به الحد الذي أخذ معه يتكلم عنهم. لأن الأكرام الذي أصاب غيره من الأجانب كان لا شيء، بالنسبة لما أُعِدق عليه من النعم. فقد لازمه في لهوه ومجالس طربه ونزهاته في القصر ورافقه في صيده وجعله ندياً مقرباً حتى أنه سمح له برؤية والدته الملكة، ومحادثتها مراراً كثيرة، وبأمر منه سمح له بالاطلاع على أسرار المجوسية وتعاليمها.

وعندما أمر الملك أن يطلب [ديماراتوس Demaratus] اللقيديوني ما يريد منه وسينيله طلبه مهما كان، طلب هذا أن يعينه على دخول [سارديس] دخولاً رسمياً وأن يحمل على عرش خلال المدينة وأن يزين مفرقه تاج على عادة الملوك^(٧٥)، فمد [ميثروبوستس] ابن عم الملك يده إلى رأس ديماراتوس ولمسه قائلاً إنه لا يملك عقلاً ملكياً يستأهل تغطيته بتاج ولو أن [جويتر] نفسه أعطاه برقه ورعده، لما أنقلب بهما إلى جريتر ثان! ورفض الملك أيضاً طلبه غاضباً وعزم ألا يرى وجهه ابداً، وأن لا يقبل أي استرحام بشأنه. على أن تمستوكليس تمكن من تهدئته واقتنعه بالصفح عنه. وقد جاء في الأخبار أن ملوك الفرس المتعاقبين بعد، ممن كانت صلاتهم وثيقة بالأغريق، عندما كانوا يدعون أي يوناني جليل القدر لخدمتهم فإنهم يكتبون له عهداً بأن قدره عندهم سيكون عظيماً مثلما كانت مكانة تمستوكليس، تشجيعاً وترغيباً لهم. ويردون أيضاً كيف أن تمستوكليس عندما كان يعيش عيشة رغيدة هناك، وهو قبله انظار الكثير، وجه الكلام إلى ابنائه من حوله وهو جالس إلى مائدة الطعام والخدم والسعاة يتسابقون إلى خدمته «أولادي! كان الدمار سيلحق بنا لو لم نُدْمِر!».

ويتفق معظم الكتاب أنه منح ثلاث مدن وهي [مغنيزيا Magnesia وميوس Myus]^(٧٦)

(٧٥) كان هذا أعظم تكريم يصدر عن ملوك الفرس.

(٧٦) إن الأراضي المحيطة بمغنيزيا الواقعة على نهر ميتاندر في آسيا الصغرى وغير البعيدة كثيراً عن أفسس، هي أراضي في غاية الخصوبة، حتى أنها كانت تدر على تمستوكليس من غلة ما يبلغ ثمنه أربعين تالنتاً. و[لاميساكس] في المضائق ينمو إلى جوارها أجود الكروم في سائر المشرق. و[ميوس] أو [ميوس] =

وليساكوس] لتأمين مطلبه من اللحم والخبز والخمر، ويضيف [نيانثس Neanthes] من [كيزيكوس Cyzicus] و[فانياس] إلى هذه المدن مدينتين أخريين هما [پاليسكيس Pa-laescpsis] لتأمين حاجته من الثياب، و[پيركوتة Percote] لسد حاجته من الفرش والأثاث المنزلية.

وفيما كان في طريقه إلى ساحل البحر لاتخاذ تدابير عسكرية ضد الأفرقي، نصب له فارسي اسمه إبيكسيس Epixyes (وهو حاكم فريجيا العليا) كميناً لقتله، وكان قد أعد قبل زمن زمرة من السيديين، ليهجموا عليه ويوقعوا به عندما يقف للاستراحة في بلدة تدعى «رأس الأسد» (٧٧). إلا أن أم الآلهة تراءت له أثناء غفوة الظهر فحلم أنها قالت له: «ابتعد يا تمستوكليس عن الأسد وحاذر لئلا تقع في شذقيه، ولهذا التحذير أتوقع منك أن توقف ابنتك [منسيبتولما Mniseptolema] على خدمتي». فعجب تمستوكليس لذلك وبعد أن نذر النذر المذكور للربة. حاد عن الطريق العام وقام بدورة وسلك سبيلاً ثانية مغيراً موضع استراحته المقرر، واناخ ركه ليلاً في العراء. إلا أن أحد الخيول التي تحمل أثاث خيمته سقط في النهر ذلك اليوم. فعمد خادمه إلى نشر السجاد والابسطة البلية وعلقها لتجف. وفي الوقت نفسه لحق بهم السيديون وسيوفهم مٌشرعة إلا أن ضوء القمر لم يسمح لهم بمعرفة ما هو منشور في العراء بالضبط وحسبوه خيمة تمستوكليس، وظنوه يرتاح داخلها. ولما أقتربوا ورفعوا الابسطة المعلقة، انتهز اتباع تمستوكليس الكافين فرصتهم وهجموا عليهم واسروهم واعترافاً بفضل ربة الأرباب عليه لانهذاره بالخطر المحدث، أقام لها معبداً في مدينة مغنيزيا كرسه باسم «دندمين Dindymene» أم الآلهة ونذر لخدمتها فيه ابنته «منسيبتولما».

وبوصوله [سادرس] زار معابد الآلهة، وعُني في أوقات فراغه باصلاح بنائها وزخرفتها، وبعدد التقدّمات التي تقدم لها ولاحظ في معبد أم الآلهة، تمثال العذراء النحاسي المسمى «حاملة الماء» ويبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام وكان قد أمر بصنعه وأقامته في موضعه ذلك، عندما

= وهي مدينة [كارية] تقع على مصب النهر المذكور سابقاً - غنية بالهاصلات لاسيما بالاسماك [توكيديس ١: ٢٢٨] وقد جرت العادة عند ملوك الشرق بأن يمنحوا اصداقهم وخصاصهم غلات مدن أو مقاطعات بدلاً من مبالغ مالية. والملك يعطي من المدن التي تعود له مثلاً مقداراً مما تدره من الخمر، أو المال أو الأموال أو الأكسية.

و[بيركوتي] هي الأخرى مدينة من مدن المضائق تقع بين لبيدوس ولامپسكس. و[پاليسكيس] تقع في (ترواد).

(٧٧) لم يرد اسم ليونتيفالس لا في سترابو أو ستفانوس البيزنطي أو ايلين وإما أم الأرباب فهي (ريا Rhea) أو كيبهه Cybele أو الأم الكبرى (Magna Mater). كما تسمى أيضاً دنديميته Dindymene مشتقاً من اسم جبل دنديمون في فريجيا.

كان مراقباً للماء في أثينا - وأنفق على صنعه من الغرامات التي كان يفرضها على أولئك الذين يفتصبون المياه العامة بحرفها عن مجاريها وتحويل أنابيبها، لاستعمالهم الخاص. وسواء أأدركه بعض الحزن لرؤية تمثاله مأسوراً، أو لرغبته في إطلاع الآثينيين على الخطوة الكبيرة التي نالها من الملك، والسلطان الواسع الذي مثّعه به، راح يفاوض حاكم المدينة ليقتنعه باعادة التمثال الى أثينا. فاستشاط القائد الفارسي غضباً وأبلغه انه سيكتب للملك بهذا، فانتاب تمستوكليس خوف شديد للعاقبة، وعمل على الاتصال بزوجات ذلك الحاكم ومحضياته ووصلهن بالهدايا النقدية حتى انفقاً غضب الحاكم. وقد جعلته هذه الحادثة أكثر حذراً وتحفظاً في سلوكه وتصرفاته خشية حسد عظماء الفرس وتحاملهم. ولم يواصل رحلته في أرجاء آسيا، كما ذكر [ثيومبويوس] وإنما عاش عيشة هادئة مستقرة في منزله بمغنيزيا. وقضى أياماً طوالاً على هذا المنوال آمناً مطمئناً يحترمه الجميع ويرفل في النعم والعطايا، ويكرمه اعظم رجال الفرس. وكان الملك في ذلك الزمن مشغولاً في أمور آسيا الداخلية، غير مهتم بشؤون الأغريق.

لكن عندما شبت الثورة في مصر، وخفّ الآثينيون الى مساعدتها^(*) ومخرت سفن الأغريق عباب البحار حتى وصلت (كليكييا) و(قبرص) وجعل (كيمون) نفسه سيد البحار، تحول اهتمام الملك ثانية الى بلاد اليونان وعزم عزماً أكيداً على تأديب الأغريق والحدّ من سلطانهم المتنامي على حساب سلطانه. وبدأ يعبئ جيوشه ويرسل الى القادة بأوامره العسكرية، وبعث رسلاً الى تمستوكليس في مغنيزيا يذكره بالوعد الذي قطعه، ويطلب منه العمل ضد الأغريق - على أن ذلك لم يزد من حقد تمستوكليس على الآثينيين ولا من سخطه؛ ولم تفتنه فكرة المجد والقيادة العليا التي سيتقلدها في هذه الحرب، ولعله قدر أن الهدف سيكون بعيد المنال، لا لأن الأغريق كانوا في ذلك الزمن تحت قيادة [كيمون] بصورة خاصة وغيره من القراذ المحنكين الذين كانوا يحوزون النصر تلو النصر ويفوزون بمعارك رائعة، بل بالدرجة الأولى لأنه كان خجلاً من تلوّث المجد الذي نالته مآثره العظيمة السابقة وانتصاراته العديدة وغنائمه العسكرية. ولذلك قرر ان يضع حداً لحياته بشكل يناسب السبيل الذي سلكته فيما مضى^(٧٨). فغربّ للأرباب ودعا اصحابه الى مأدبة فأكرمهم وصافحهم واحداً واحداً ثم شرب دم الثور^(٧٩)، كما جاء في الرواية الشائعة. أو السم النافع كما يزعم آخرون. وانتهت حياته

(*) في السنة ٤٥٩ ق.م.

(٧٨) عندما كانوا يضحون بالثور. تلقى بعض دمه في قدح وشربه ساخناً فقتل عليه (حسب قول بليني) لان هذا الدم يتخثر في الحال.

(٧٩) لا يوجد موضع في اتيكا باسم [الكيموس] وإنما توجد مقاطعة تسمى (اليموس) ويقع شرق (بيريوس) =

في مدينة مغنيريا وله من العمر خمسة وستون عاماً انفق معظمها في الحروب والسياسة وفي القيادة العسكرية. وأبلغ الملك بأسباب موته وكيفيته، فازداد به إعجاباً واستمر يظهر العطف لأقربائه وأصحابه.

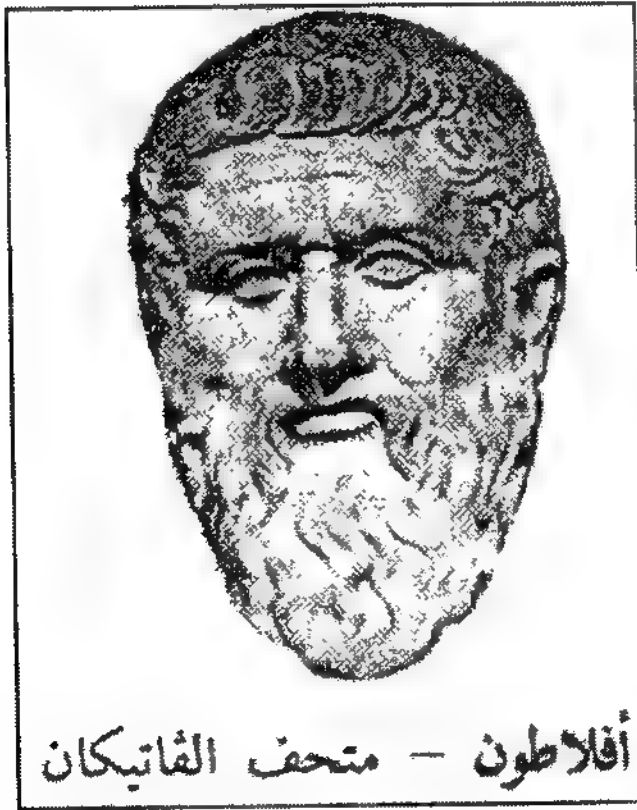
خلف (تمستوكليس) ثلاثة أبناء من زوجته (آرخيپه Archippa) بنت ليساندر الالوبيكي Alopece وهم (ارخيبتوليس Archiptolis ويوليوكتوس Poleuctus وكليوفانتطس Gliophilantus). وذكر افلاطون ان ثالثهم كان فارساً ممتازاً فحسب وهو ما عدا ذلك شخص مغمور. وابنه الرابع الذي ولد له قبل هؤلاء واسمه (نيوقليس) مات صغيراً بعضة حصان. وابنه الخامس (ديوقليس) تبناه جدّه (ليساندر) وخلف بنات كثيرات منهم (منسببتوليس) التي ولدت له من زوجه الثانية، تزوجها اخوها غير الشقيق (ارخيبتوليس)، و (ايطاليا Ital-ia) التي تزوجت (پانثيوديس Panthades) من جزيرة (خيوس). وابنته الأخرى (سيباريس Sybaris) تزوجت (نيقوميديس) الأثيني. بعد وفاة تمستوكليس رحل ابن أخيه (فراسيكليس Phrasicles) الى مغنيزيا وتزوج بنتاً أخرى له اسمها (نيقوماخ) بموافقة أخوته وتعهده برعاية صغرى الاولاد: (آسيا) ولدى المغنيزيين ضريح فخّم لتمستوكليس يقوم في وسط ساحة السوق الكبرى. ولا يستأهل منا الذكر ما أورده (اندوكيديدس Andocides) في خطابه لأصحابه حول وفاة (تمستوكليس)، وكيف ان الأثينيين سرقوا قبره وذروا رماده عظامه في الهواء. فقد أخلق هذه الرواية ليثير الحزب الاليفارشي على عامة الشعب. وليس ثم حيّ يجهل أن (فيلارخوس Phylarchus) انما يخترع اختراعاً وينسج من الخيال في تاريخه حتى لم يكن يعرّضه غير مرسع فعلي. فقد عمل من (نيوقليس وديموبوليس) ابنين لتمستوكليس، ليثير العواطف ويحرك الشجون والمشاعر، كأنما يكتب تمثيلية مأساوية. ويقول (ديودوروس) الفلكي في كتابه «عن القبور» تخميناً لا عن معرفة ثابتة: يوجد بقية عن بناء قرب ميناء [پيريوس] حيث تخرج الأرض بهيئة المرفق من مرتفع الكيموس Alcimus^(٨٠) عند اجتيازك اللسان الأرضي الى الداخل حيث البحر هادي. دوماً وعلى هذا البناء يقوم قبر تمستوكليس^(٨٠) على هيئة مذبح ويؤيد ذلك (افلاطون) الكاتب الكوميدي في ابياته التالية: يقوم ضريحك على موضع رائع من الساحل. والتجار مازالوا يقرؤنه الشحية مع

= أشتهرت بوجود معبد لـ(كيريوس) فيها ولأنها مسقط رأس المؤرخ (توكيديدس). لذلك كان مفريسيوس موفقاً في تصحيحه [پاوسنياس ١٢٠١].

(٨٠) يقول توكيديدس ١٢٨٠١. ان عظام تمستوكليس نقلت سراً الى اتيكيا بمسمى أقربائه وتطبيقاً لوصيته ودفنت هناك. الا ان (پاوسنياس) يتفق مع [ديودوروس] بأن الأثينيين الذين قدموا على ما فرط منهم بحق رحلهم العظيم، كرموه باقامة ضريح له في پيريوس. ويقول (پاوسنياس) انه كان قائماً في ابامه.

الأرض القادمين إليها. وسيظلّ ينتظر اليهم وهم غادون راتحون، خارجون داخلون.
ويرقب السفن وهي تمخر الماء تحته.

وظلّت عادة اكرام نسل تمستوكليس متبعة في مغنيزيا الى يومنا هذا. والآن يتمتع بها
تمستوكليس آخر من أهل اثينا تعرفتُ به وتوثقت صداقتي معه في دار الفيلسوف امونيوس.





كاميلوس

CAMILLUS

(Marcus Furius)

ت 365 ق.م

من بين الأمور العديدة البارزة التي تروى عن (فيوربوس كاميللوس) كان أعجبها وأروعها طراً أنه لم يبلغ منصب القنصل قط، في حين ظلّ يتقلد أرفع القيادات بصورة مستمرة يواكبه النجاح تلو النجاح، واختير دكتاتوراً خمس مرات، ودخل ظافراً أربع مرات، ولقب بباني روما الثاني. أن السبب في ذلك يعود إلى أحوال الجمهورية ووضعها في ذلك الحين، لأن العامة رفضوا انتخاب قناصل لخلافهم مع الشيوخ^(١) وأنتخبوا عوضاً عنهم حكاماً أسموهم بالتربيونات العسكريين، لهم صلاحيات القناصل وسلطاتهم كافة. وكان المأمول من هذا الاجراء أن يتناقص أذى الحكام لأن الحكم سيكون موزعاً على عددٍ أكبر. فوضع إدارة الحكم في أيدي ستة أشخاص لا اثنين.

كان فيه بعض الاطمئنان لمخضوم الحكم الاولييفارشي. تلك هي حالة الزمان عندما بلغ كاميللوس أوج مجده وعظمته. ومع أن الجمعية العامة Comitia كانت تجمع في بعض الأحيان خلال تلك الفترة^(٢) فينتخب القناصل إلا أنه لم يستطع اقناع نفسه بطلب المنصب القنصلي ضد رغبة الشعب. أمّا في وظائفه العامة الأخرى العديدة فمسلكه: عندما يكون مطلق السلطة، أن يمارسها كأنها موزعة بينه وبين غيره. والفضل في النتائج يعود له وحده في جميعها، وإن كان ثم شارك في القيادة. وعدالته جعلت حكمه آمناً من الحسد بالدرجة الأولى وأن قابليته وكفاءته هي التي ادخرت له المقام الأول الذي لم ينازعه فيه أحد بالدرجة الثانية.

(١) الخلاف القديم حول توزيع الأراضي تجدد. والعامة تصرّ على أن كل مواطن يجب أن يحصل على حصة متساوية. فيجتمع مجلس الشيوخ عدة مرات ليرفض هذا الاقتراح. أخيراً نصح [أبيوس كلوديوس] بكسب عدد من التربيونات العامة، باعتباره العلاج الوحيد للعناد المجلس والتحكم الذي يمارسه، فنقد الشعب هذه النصيحة إذ دفع الياس العام بالعامة إلى انتخاب تربيونات عسكرية بدلاً من القناصل. وقد خرج بعض التربيونات من طبقة الإليبيين (إليفي ٤٨:٤).

(٢) من ٣١٠ عندما لبتدأوا بانتخاب التربيونات العسكريين (إليفي ٧٠٤) من ٢٨٨ ق.م عندما صار القناصل ينتخبون بصورة مستمرة - كان يجري انتخاب قلة من القناصل بين حين وآخر. لكن لم ينتخب أثناء فترة إدارة كاميللوس أكثر من قنصل واحد أو اثنين وكانت الجمعية العامة مثوية القوام Centuriata إذ يتم تصويت الجمهور بمجموعات تتألف كل منها من مائة فصرت لاختيار اصحاب المناصب الرفيعة كالقنصل، والجنسور والپريتور وكان عدد التربيونات العسكريين في البدء ثلاثة فقط.

لم يكن آل فيوري Furi^(٣) في ذلك الحين بيتاً رفيعاً بارزاً قط^(٤). وهو الذي رفع من شأن نفسه بأعماله. وصار يشار اليه بالبنان، فقد خدم بأمرة الدكتاتور [پوستيميوس توبرنس] في المعركة الكبرى ضدّ الإكويين Aequians والفولسيكيين Voliscians^(٥). قد خرج راجعاً صهوة جواده عن بقية الجيش وهاجم العدو فأصيب فحذه بطعنة سنان مقدوف. فلم يأبه وترك الرمح مغروراً في مكانه واستمرّ يهاجم أشجع مقاتلي العدو حتى هزمهم. فأنعم عليه لمسالته هذه بمنصب الجنصور Censor^(٦) الى جانب مكافآت أخرى، وكانت هذه الوظيفة في ذلك الحين خطيرة، ذات سلطة كبيرة. وقد أثر عنه عمل طيّب جداً خلال فترة بقائه في تلك الوظيفة. كان المقاتلون يسقطون صرعى في الحرب ويتركون ارامل كشريرات فأصدر أمراً يقضي بأن يتزوج العازبون بهنّ طوعاً، وإلا تفرض على من لا يقبل، غرامة شخصية كما أنه أخضع الأيتام للضريبة كاجراء ضروري لتنفيذ الأمر الأول، وكانوا قبلاً معفوين منها، وكانت الحروب المستمرة تتطلب نفقات أكثر من العادة لهم إلا أن ما أضنك الرومان أكثر من أي شيء هو حصار [فيي Veli]. يسمى بعضهم هؤلاء القوم بـ(الفينيتاني Vientani) وهي كبرى مدن النوسكان ولا تقل عظمتاً عن روما لا في عدد الجنود ولا في مقدار السلاح. ولاعتبار نفسها على هذه الدرجة من الغنى والثراء، ولاعتدادها بفتونها وحضارتها وقوتها، دخلت في مناسبات شريفة كثيرة مع الرومان اطلاباً للمجد والسؤدد. أما الآن فقد تخلوا عن مطامحهم

(٣) اسم الأسرة [فيوريوس] و[كاميلوس] هو اسم الابناء الفضلاء الذين يخدمون في هيكل أحد الآلهة، وكان كاميلوس اول من أحتفظ به وجعله اسماً أخيراً له. أما اسمه الصغير فهو [ماركوس].

(٤) ربما قصد پلوتارخ به الرفعة العسكرية لا الرفعة المدنية. ففي العام ٢٦٦ ق.م وجدنا سكستوس فيوريوس يتولى منصب القنصلية [ديون ٢: ٨] وليفي ٢: ٢٩٠]. وفي فترة نقل من قرين واحد ما بين تريبيونية كاميلوس الأولى وتلك الفترة نجد ما لا يقل عن سبعة عشر من هذه الأسرة قد وصلوا الى هذا المنصب.

(٥) كان ذلك في العام ٢٢٤ ولكاميلوس من العمر ١٤ سنة أو ١٥. ومع ان المواطن الروماني لا يحمل السلاح عادة قبل السابعة عشرة ومع ان پلوتارخ يؤكد بان شجاعته الفائقة في ذلك الحين هيئت له الأسباب لتسليم منصب الجنصور، ان كان الأمر كذلك فلا بد انه انتخب لشجاعته فحسب إذ لم يكن من المألوف ان يسند مثل هذا المنصب الى حدث له مثل هذا العمر. في الواقع ان كاميلوس لم يصل الى هذه الوظيفة الا في العام ٢٥٣.

(٦) ان سلطة المحتسب (الجنصور) اول استحداثها في العام ٢٦١ لتأسيس روما. في زمن الجمهورية كانت جدّ واسعة. فمن صلاحياتها طرد اعضاء مجلس الشيوخ وتأييد الفرسان وتوبيخهم. ومنع الپليبيان من الادلاء باصواتهم في الاجتماعات العامة. الا ان الابطارة استقلوا بها وأحتكروها ولم يعد اللقب يشرف حامله. فيعمد الى التخلي عنه. واما ما ذكره پلوتارخ عند قيام كاميلوس باجبار عزاب الرومان على الزواج بارامل الحرب، فانه يدخل ضمن سلطات الجنصور ويدعى: Caelibes esie Prohobento ومن واجباتهم أيضاً الاحصاء السكاني العام Census الذي يجب اجراؤه كل خمس سنوات. [انظر ديون ١١، ١٥، ١٦، ٢٤-٨]. لفيي ٢: ٢٤ وغيرهم.

العابرة بعد أن أضعفتهم الهزائم الكبيرة، فحصنوا أنفسهم بأسوار عالية قوية وجهزوا المدينة بمختلف أنواع الأسلحة الهجومية والدفاعية وتموتوا أيضاً بالقمح وكل أنواع المؤن والأرزاق، واحتملوا بكل راحة حصاراً كان على محاصريهم أشق مما هو عليهم وأنكى. لأن الرومان لم يتعودوا البقاء بعيداً عن ديارهم إلا في أيام الصيف ولمدة ليست بالطويلة، وكان شأنهم دوماً أن يقضوا الشتاء مع أهلهم، فلهذا اضطهرهم المفوضون (التريبونيات) إلى بناء حصون في أرض العدو وإقامة تحكيمات قوية حول معسكرهم لدمج فصلي الصيف والشتاء معاً. وساد الشك في أن القادة يتباطئون ويتماهلون كثيراً في تضيق الخناق على المدينة بعد أن كادت تمر السنة السابعة على الحصار^(٧)، حتى بلغ الأمر إلى حد إقالتهم من القيادة واختيار آخرين لإدارة الحرب ومنهم (كاميللوس)، فأصبح (تريبونيا) للمرة الثانية^(٨). إلا أنه لم يعط في حينه دوراً في الحصار، لأن الواجب الذي وقع له بالقرعة هو قتال الفاليسكان Faliscans والكاپينات Capenares^(٩) الذين انتهزوا فرصة انشغال الرومان التأم فراحو يعيشون في بلادهم سلباً ونهباً واستطاع (كاميللوس) أن يكسر شوكتهم رغم حراسة موقف الرومان بحرب التوسكان، والحق بهما خسائر فادحة وأجبرهما على الفرار والتحصن وراء الأسوار.

وفي أثناء احتدام المعارك هذه، حصلت ظاهرة غريبة أدت إلى قلق واضطراب عظيمين في بحيرة ألبان Alban. بدت هذه الظاهرة أشبه بخارقة من الخوارق لأنها فاقت كل ما سبق خبره من الخوارق، وتحدثت كل التفسيرات المعروفة على ضوء الأسباب الطبيعية^(١٠). كان وقت بدء الخريف، وقد انتهى الصيف، ولوحظ أن الفصل الجديد خلافاً للعادة لم يكن ممطراً ولا كثير الاضطراب بالرياح الجنوبية وغاض ماء كثير من مختلف البحيرات والبرك والينابيع، التي

(٧) من التريبونيات الستة العسكريين المميزين في تلك السنة اثنان منهما فحسب كانا على رأس القوات التي حاصرت (فيبي) هما [لوشيسوس فرجينيسوس] و[مانتيوس سرجيوس] ثانيهما قاد الهجوم وأولهما أشرف على الحصار، وفيما كان الجيش منقسماً بهذا الشكل قامت قوات الفاليسكيين والكاپينات بالانقضاض على سرجيوس، في الوقت الذي انتفع المحصورون من الداخل وهاجموه خارج الأسوار. وظن الرومان الذين بدت أمرته أنهم يواجهون كل قوات [اترويا] فانهارت ممنوياتهم وتقهقروا، وكان بوسع (فرجينيسوس) انتقاذ الموقف. إلا أن كبرياء (سرجيوس) ابت عليه طلب العون من زميله وقرر هذا أن لا يقدم له أية مساعدة. فلوقع العدو منبحة هائلة في صفوف الرومان (ليفي ٨.٥).

(٨) في العام ٣٩٦ ق.م.
(٩) يقول ليفي (١٤ ٥) أن فاليريوس بوتيتوس [التريبون العسكري للمرة الخامسة هاجم الفاليسكيين ودمرهم وكذلك عمل (كاميللوس) بالكاپينات] إذ أوقع بهم خسائر عظيمة في الأرواح وغنم منهم الكثير.
(١٠) كان علماء ذلك الزمن قائلين على مساعدة الرومان في فهم هذه الظاهرة الطبيعية. (سترابو) الذي عاصر (أغسطس) كان يوسمه حل الغز أيضاً من تعطيفاته على بحيرة فوجيني التي تدعى اليوم «بحيرة قلعة كوندولفو».

تحفل بها ايطاليا، وبعضها جَفَّ تماماً. وبعضها لم يعد فيه إلا حثالة. وظلّت مناسيب مياه الأنهار واطنة جداً كما هو حالها صيفاً، إلا بحيرة [ألبان] التي تتغذى بمياه أخرى غير مائها والتي تحيط بها الجبال ذات الأشجار المثمرة من كلّ جانب. فقد فاض ماؤها دون ما سبب (الا إذا كان ألهاً) وارتفع منسوب مياهها بشكل ظاهر حتى سفوح الجبال وأستمر في الارتفاع الى أن بلغ قممها كل ذلك دون أن يعتري ماها هياج أو ثورة. وكانت في مبدأ الأمر منظرًا عجباً للرعاة والسارحين بالماشية. ولكن عندما تشققت الأرض التي كانت تمسك مياهها، بسبب ضغط كمية الماء المتزايدة وانكسرت كما ينكسر السد الكبير إندفعت المياه الى الاراضي الواطئة بسيل عرمة دفاقة وغطت على الحقول المحروثة والاراضي المزروعة لتنصب في البحر. ولم يقتصر أثرها على الرعب الذي اشاعته في نفوس الرومان، بل ساد الاعتقاد كل سكان ايطاليا، بأنها مقدمة لحادث خارق للعادة وكان أكثر الكلام عنها يجري في المعسكر الذي يحاصر (فيبي)، ولذلك بلغت انبأؤها المدينة المحصورة نفسها.

وكما يحصل عادة في الحصار الطويل، يلتقي كلا الفريقين ويتبادلان الحديث بعضهم مع بعض، وأتفق أن رومانيا وصل جبل الوء بينه وبين أحد أهل المدينة وصار موضع ثقته، وكان هذا واسع الاطلاع في نبوءات الأقدمين، ذا شهرة فوق العادة، في تفسير الأسرار الالهية، ولحظ الروماني أن رفيقه هذا كان في غاية السرور لحكاية البحيرة، بادي الاستخفاف بالحصار، فقال أنها ليست المعجزة الوحيدة التي حصلت للرومان فقد رأوا معجزات أخرى أعظم منها وأعجب، وانه ليود أن يقصها عليه ليكون على بينة وانما لفائدته من هذه البلايا العامة. فسارع الرجل الى قبول عرضه متلهفاً ومتوقفاً سماع اسرار عجيبة. فأخذ الروماني بلهيه بالكلام ويصرف انتباهه مبتعداً به شيئاً فشيئاً عن ابواب المدينة وهو مستغرق في الحديث حتى اذا صار على مسافة بعيدة ارتمى عليه وطوقه من وسطه (وكان أقوى منه) وبمساعدة آخرين هرعوا اليه من المعسكر حَمَلَهُ مقبوضاً عليه الى قواد الجيش. ووجد الرجل نفسه امام الأمر الواقع ولم ير مناصاً مما قدر له، فباح لهم نبوءة (فيبي) السرية. وهي أن المدينة مستبقي محتنة عن العدو ولا يمكن الاستيلاء عليها إلا اذا حُولت مياه بحيرة [ألبان] المتجهة الى البحر، عن مجراها الجديد هذا بحيث لا تعود تصب في البحر^(١١). وابلغ مجلس الشيوخ بذلك واقتنعوا بالأمر، فقرروا إرسال مندوبين الى دلفي يطلبون الراي من الآلهة وكان

(١١) يورد ليفي (١٥٥) النبوءة على هذا النحو: «لن تؤخذ فيبي حتى ينضب ماء بحيرة ألبا». [انظر ايضاً شيشرون. النبوءات ٤٤:٦].

الوفد يتألف من أناس رفيعي المقام وهم [الومپينيوس كوساس^١ Lucunius Cossas وفالييريوس پوتيتوس^٢ Valerius Potitus وفابيوس امبوسطوس^٣ Fabius Ambustus] فأبحروا واستخاروا الآلهة. فعادوا بجواب خاص وهو أن الرومان يهملون بعض المراسيم المتعلقة بالأعياد اللاتينية^(١٢)، وأما عن بحيرة [ألبا] فإن النبوة أمرت أن يحل دون البحيرة والبحر باقامة سد ان كان ذلك مستطاعاً. وإن تبقى مياهها ضمن حدودها الأولى وإن لم يكن ذلك ممكناً فعليهم أن يصرفوا الماء الى الاراضي المنخفضة بفتح السواقي والخنادق لتجف. فأبلغت الرسالة وقام الكهنة بانجاز ما يتعلق بالقرايين وخرج الناس للعمل في تحويل الماء عن البحر^(١٣).

وفي السنة العاشرة للحرب، سحب مجلس الشيوخ كل السلطات من القادة ونصبوا [كاميللوس] دكتاتوراً^(١٤)، فنصب بدوره [كرنيليوس سكيبو^١ Comellius Scipio] قائداً للخيالة. وكان اول عمله انه نذر للآلهة اذا انتهت الحرب نهاية حسنة فسيُحيى الالهاب العظمى القديمة تكريماً لهم^(١٥)، ويوقف معبداً على الربة التي يسميها الرومان [ماتوتا Ma-tuta] اي [الأم]. ومع أن الطقوس التي تقام لها تحمل المرء على الاعتقاد أنها الربة [ليوكوثيا Leucothea]. لأنهم يأخذون أمة الى الجزء السري من المعبد وهناك يضربونها بالأيدي ثم يخرجونها^(١٦)، ويحملون أولاد أخوتهم بين احضانهم بدلاً من اولادهم^(١٧). وعلى العموم بأن الطقوس التي تصاحب القرايين تذكر المرء برعاية [باخوس] لـ[إينو] والكوارث التي أحدثتها خطية زوجها. بعد هذا النذر زحف كاميللوس على بلاد الثاليسكان وهزمهم في معركة طاحنة هم وحلفاؤهم الكاينيات. ثم تفرغ الى حصار [في] ووجد أن الاستيلاء عليها بهجوم، هو من الصعوبة بمكان، ومحاولة تنطوي على مخاطر جمّة، فبدأ يحفر انفاقاً تحت

(١٢) العيد المقصود هنا، هو أكثر الأعياد حرمة عند الرومان وقد انشاء (تاركوين) المكابر [ديون ١١:٤] وكان للرومان فيه الصداقة لكن وجب على كل أهالي لاسيوم حضوره والمشاركة في تسمية الثور (لهوستر لاسيالس). وقد يمتد العيد اربعة أيام. والدّة يحددها القنصل بمحض رغبتهم.

(١٣) ما زال هذا المشروع الهندسي باقياً ومياه بحيرة ألبا تجري خلاله.

(١٤) في العام ٣٩٥ ق.م. ويقول ليفي (١٩٥) نجم عن هذا التحويل انقلاب فكري عام وحلت الثقة محل اليأس.

(١٥) نوع من السباق يجري في الملعب الكبير. انشاء الدكتاتور [پوستوميوس] بعيد اشتراكه مع اللاتين عند بحيرة (ويكيللوس). وقد أتى [ميون] الى وصف مراسيمها بتفصيل.

(١٦) وتدعى أيضاً [ينو Ino] وهي مثل [ماتوتا] فقد كانت تغار من أمة لها تعلق بها زوجها (ثاماس)

(١٧) كانت (ينو) والدّة يانسة جداً. فقد شاهدت ابنها [ليارخوس] يقتل اباه اي زوجها. فقدت بنفسها في البحر مع ابنها الآخر (ميلكرش) لكنها كانت أسعد حظاً كخالة. لقد حفظت حياة باخوس وهو ابن اختها المدعوة سيميلي Semele [انظر اوليفد].

الأرض وكانت التربة حول المدينة هشة سهلة الحفر، فعمد الى حفرها على عمق كبير حتى يتعذر أكتشافها وفيما كان العمل مستمراً بها، لم يترك للعدو مجالاً للشك في حرصه على انقائهم فوق الأسوار بهجمات المستمرة لصرف انظارهم عن الخطة حتى أمتدت الاتفاق الى قلب المدينة وبلغت القلعة الداخلية القريبة من معبد [جونو] وهو أعظم المعابد في المدينة واجلها مكانة... قيل أن امير [التوسكان] كان ساعثاً يقرب للآلهة، وإن الكاهن بعد أن فحص احشاء الأضحية صاح بصوت عالٍ أن الرئة ستمنح النصر لأولئك الذين يكملون مقدمة القربان، فسمع الرومان الذين كانوا في النفق كلماته هذه ففتحوا الثغرة حالاً^(١٨) وخرجوا الى العراء بجلبه شديدة وقعقة سلاح فاوقعوا الرهبة في العدو ففر لا يلوي فحملوا التقدّمات وأخذوها الى [كاميللوس]. إلا أن هذا الحكاية تبدو محض أسطورة. ومهما يكن من أمر فإن المدينة اقتحمت عنوة وانهمك الجنود في النهب وجمع كميات لا تحصى من الأموال والغنائم. وتطلع كاميللوس من برج عالٍ الى ما حصل فبكى أولاً مشفقاً، ولكن عندما أقبل أقرب الذين يحيطون به لتهنئته على نجاحه رفع يديه الى السماء ونطق بالدعاء التالي «يا جوبيتر ذا الحول والسلطان، ربا أيتها الآلهة التي هي الحكم الفاصل فيما هو خير وشر. انتم تعلمون بأننا لم نثار لأنفسنا من مدينة اعدائنا الاشرار الظالمين إلا بسبب وجيه وانما بدافع من الضرورة فحسب أرغمنا على ذلك. واذا ما حصلت مصيبة في مجرى الأمور لموازنة هذا الحدث السعيد، فأرجو أن تحول عن المدينة وعن الجيش الروماني، وتقع على رأسي وإن يصيب الرومان بأقل أذى يمكن». وبعد أن أكمل دعاءه هذا واستدار ليمضي (من عادة الرومان أن يدوروا الى اليمين بعد العبادة أو الدعاء). عشر وسقط وسط دهشة الحاضرين جميعاً، إلا أنه أقال نفسه من العثرة حالاً وقال لهم أنه نال ما طلبه من الآلهة وهو حادث بسيط جداً، وقع له لموازنه اسعد حظ حبي به الرومان.

وبعد نهب المدينة تماماً قرر ابقاء بنذره - أن يحصل قشال (جونو) الى روما. ونهياً العمال^(١٩) لذلك، وقام بالتنصية للرئة، وصلى لها قائلاً لاشك انه سيسرّها قبول عبادتهم لها، والتنازل متفضلة باحتلال مكان بين الآلهة التي تعبد في روما. وقيل ان قشالها أجاب

(١٨) الكلمات والعبارات التي تخرج من افواه اشخاص لا علاقة لهم في موضوع بحث أو مسألة لا دخل لهم فيها، لا تهمل وإنما تفسر بحسب الذوق فتحمل محمل فال حسن أوفال سيء ان انطبقت بأي شكل على قضية تشغل البال وعندما فيبدلون أقصى الجهود لتحقيق ذلك الفال ان خيل لهم بأنه يبشر بخير أو لتحاشيه ان انذر بشر.

(١٩) العمال المقصوبون هناك ليسوا بشغلة اعتياديين قد ينقص لمسه من قدر هذا الضم الشهير [ليني ه ٢٢] وإنما هم شبان أمتازوا بالوسامة يتم انتقاؤهم من بين سائر افراد الجيش سبقوا لهم ان اجروا مراسيم التطهر وارتنوا شياً بيضاً ويقومون بحملها بأعظم التجلة.

بصوت منخفض أنها مستعدة وراغبة. ويكتب المؤرخ [ليفي Livy] أن كاميللوس اثناء صلاته لمس الربة ودعاها وأن بعض المحاصرين صاحوا أنها ترغب في الانتقال. وإن أولئك الذين ايدوا حصول المعجزة، ودافعوا عنها، وجدوا حجة دامغة واحدة تعزز دفاعهم هي خطوط المدينة السعيدة العجيبة التي لا يمكن أن تصل بها الى هذا الأوج من العظمة والسلطان من بداية خاملة تاهمة لولا العديد من الدلائل المثيرة الى العناية الالهية والتعاون. ومن الاعاجيب التي جرت مجراها، ما لوحظ على التماثيل من حيات العرق، أو ما سمع من أنين يصدر عنها، وما يخيل للنظر انها تدور الى الخلف وتطبق اجفانها، الى آخر ما ذكره المؤرخون الأقدمون ونحن بدورنا نستطيع أن نروي حكايات عجيبة مختلفة من هذا القبيل. سمعناها عن أناس أحياء، لا يمكن أن ترفض بسهولة. إنما من الخطورة بمكان أن نشرع في تصديق هذه الحكايات، أو أن نستعجل في تكذيبها فالنفس البشرية بالغة القصور والعجز عن ضبط ارادتها، أو الصبر على حدود معينة، تراها تسبق أحياناً الى الأوهام والتخريف. وتراها أحياناً تلجأ الى الاستحفاف والازدراء، بكل ما هو فوق الطبيعة إلا أن خير الأمور أوسطها، وأجتناب التطرف هو أفضل السبل. وسواء أذكر [كاميللوس] الزهو والخيلاء، لمأثرته الكبرى في فتح المدينة التي كانت منافسة لروما بعد أن صمدت للحصار عشر سنين، أو لأصابتها بالعظمة جراً، اخضاعه الاقوام المجاورة، فقد اتخذ لنفسه سلطات الحاكم القضائي والمدني. إن افراطه في الشعور بالغرور والعظمة بدا جلياً في تجاوزه حدود الابهة في موكب نصره، فقد دخل المدينة راكباً عجلة حربية تجرها أربعة خيول شهباء، وهو عمل لم يسبقه فيه قائد من قبله، ولم يجرأ عليه أحد من بعده، لأن الرومان يعدون واسطة لنقل التي هي على هذا الشكل - من المقدسات وهي وقف على ملك الالهة وأبيها لا ينازعه فيها أحد^(٢٠). وهذا العمل باعد ما بينه وبين قلوب مواطنيه الذين لم يعتادوا مثل هذه المظاهر والأبهة.

والمأخذ الثاني الذي أخذوه عليه، هو معارضته القانون الذي يقضي بتقسيم المدينة. فالستريبونات الشعبيون تقدموا باقتراح ينص على تقسيم العامة والشيوخ الى قسمين، أحدهما يبقى في روما والآخر ينتقل الى المدينة المفتوحة، ويتم الاختيار بالقرعة وكانوا يريدون بهذا، التخفيف من زحام مدينة روما وتوفير مجال العيش فضلاً عن ضمان سلامة حدودهم ومصائرهم بسكناهم في مدينتين كبيرتين هامتين. اذن فقد تبنت عامة الشعب الساخط هذه الفكرة بحماسة وكانوا هم الأغلبية - وأخذوا يعقدون اجتماعات مستمرة في [الغوروم]

(٢٠) يقول ليفي [٢٧٠٥] انه شارك (ايولو) بهذه العدة. ويظهر ان العجلات التي تجرها ستة خيول لم تكن معروفة عند الرومان. كما انه كاميللوس طلا وجهه بالقرمز وهو اللون الذي تغطي به تماثيل الأرباب عادة.

وينادون بضرورة وضع الاقتراح في النص محدثين ضجة كبيرة إلا أن الشيوخ والنبلاء كانوا ضد الفكرة، يعارضونها بقوة محتجين بأن هذا الاجراء لن يقسم روما بل سيدمرها^(٢١). وقصدوا كاميللوس يطلبون منه العون. فخشي هذا العاقبة إن وصل الأمر نهايته الحديثة وآل الى اتخاذ قرار حاسم، فعمل على اشغال عامة الشعب بأمور أخرى. وأحبط المشروع، وهكذا أصبح مكروهاً. إلا أن السبب الأظهر والأعظم لبعضتهم له نجم عن قضية أعشار الغنائم الحربية، والجمهور هنا قويّ الحجّة في السخط عليه إن لم يكن محقاً. إذ يبدو أنه نذر لاپوللو قبل لقائه الحصار على [قبي] أن يوقف عليه عشر الغنائم إن وقعت المدينة بيده. ثم استولى على المدينة ونهب أموالها وسواء أكره ازعاج الجنود ومضايقتهم، أو نسي نذره بسبب تراكم أشغاله في تلك الفترة، فقد تركهم يتمتعون بذلك الجزء من الغنائم أيضاً وبعد مرور وقت ويتوطّد سلطانه، أحال موضوع النذر للبحث امام مجلس الشيوخ. وقد أعلن الكهنة في الوقت عينه بدوام ملاحظتهم للقربين أن هناك علامات تدل على الغضب الالهي، وإن ذلك يتطلب عطافاً وتقديمات.

وقرر مجلس الشيوخ وجوب الایفاء بالنذر. ولما وجد من الصعب أن يعيد توزيع الغنائم، قرّر أن يدفع كل شخص عشر حصته من الغنيمة مع حلفه اليمين. وهذا ما أضنك الجنود ومضايقهم، لأنهم فقراء الحال، فبعد أن تحملوا الكثير من هذه الحرب تراهم يجبرون الآن على إعادة هذا المقدار الكبير من المال من حلالهم بعد انفاق الذي أصابهم. وتشبث كاميللوس بأضعف دفاع بعد أن هوجم وقامت القيامة عليه. مُبرراً فعلته هذه بنسيانته نذره فحسب، فأحتجوا بدورهم أن نذره ينصّ على استخلاص عشر أسلاب العدو. أمّا الآن فهو يجيبها من عشر أموال المواطنين. وعلى اية حال اعاد كل شخص عشره المفروض عليه ورسم أن يصنع بشمنه وعاء من الذهب المصبوب ويُرسَل الى دلفي وكان الذهب من الندرة بمكان في المدينة. والحكام يفكرون في كيفية الحصول عليه. فأجتمعت السيدات الرومانيات وتداولن في الأمر معاً وقدمت بالمساهمة في المشروع كل واحدة بشيء من حليها الذهبية حتى اجتمع منه مازنته ثمانية تالنتات. واعتراضاً بفضلهم هذا قرّر مجلس الشيوخ أن يكرمهن الاكرام الواجب، فأصدر أمره باباحة القاء خطب تأيّن للموتى من النساء اسوةً بالرجال. وكانت العادة قبلها أن لا تلقى اي مربية عامة بحق امرأة ميتة^(٢٢). واختار الرومان ثلاثة سفراء من أعرق الأسر

(٢١) كانوا يفشون بأن تتحول المدينتان يمرور الزمن الى دولتين تحتربان فيما بينهما حتى تقعا معاً فريسة لاعدائهما.

(٢٢) دفع للنسوة قيمة الذهب وليس بسبب هذه المناسبة بل بعدما قمن بجمع كل حليهن الذهبية اكمالاً للمبلغ الذي طلبه الفاليون ليعطى لهن حق إلقاء خطب التأيّن [انظر ليفي ٥٠٠:٥]. اما الامتياز الذي =

وارسلوهم صحة الاناء الحربي، الذي بدأ رائعاً بدقة صنعته وجمال زخرفته. وكان البحر خطراً أبهذونه بمواصفه على حد سواء - كما تبينوا هم بأنفسهم حتى كادوا يغرقون وكانت نجاتهم من قبيل المعجرات عندما وصلوا الى جزر^(٢٣) [ايلوس Aelus] والريح رخاء فادركتهم سفن الليباريين Leparians، وقد حسبوهم قراصنة. وأستولوا على سفينتهم ولم ينجوا من الموت إلا بعد الدعاء والصلاة وقطروا السفينة الى المينا. وعرضوا مقتناهم واشخاصهم للبيع عبيداً بوصفهم غنائم شرعية ولأن هؤلاء كانوا قراصنة ولم يخل سييلهم إلا بشق الأنفس بعد تدخل وتوسط رجل واحد هو [طيماسيثيوس Themasisithus]، وكان بتقلد منصب القائد، فقد استخدم كل وسائل الاقتناع وأطلقهم بعد جهد كبير واعادهم بحراسة بعض سفنه. وسهل سفرتهم وساعدهم على تقديم النذر، ولهذا نال التكرم الذي يستحقه في روما.

وواصل [تريبونات] الشعب ضغطهم مجدداً بخصوص تقسيم المدينة، وشاء حسن الصدف ان تنشب الحرب بينهم وبين الفاليسكان، مما أعطى الحرية لرؤساء الرومان في اختيار الحكام الذين يريدونهم. وان يعينوا [كاميللوس] تريبوناً عسكرياً^(٢٤)، مع خمسة زملاء. وكانت الأمور تتطلب قائداً ذا سلطان وسمعة فضلاً عن التجربة والخبرة. وبعد مصادقة الشعب على الانتخاب زحف بقواته على أرض [الفاليسكان] والقي الحصار على [فاليري Falirii] وهي مدينة جيدة التحصين. كثيرة المؤن ومخازن السلاح، وإن أدرك صعوبة الاستيلاء عليها وما يتطلب لذلك من وقت طويل إلا أنه كان يرغب في إلهاة المواطنين وإبقائهم خارج المدينة منشغلين حتى لا يظلوا عاطلين في ديارهم لا يعرفون ما يصنعون بأوقات فراغهم غير التحزب للتريبونات وإثارة النعرات الحزبية والشغب السياسي وهذا في الواقع انجح دواء للرومان، يشفيهم من كل الامراض التي يعانها الحكم لجمهوري، كفعل الاطباء النطاسيين.

ولم يهتم أهل [فاليري] بالحصار كثيراً لاعتمادهم على قوة المدينة فضلاً عن أسوارها المنيعة التي تحميها من كل جانب. فكان السكان - خلا حرس الاسوار يروحون ويغدون في الطرقات بشبابهم العادية، والاولاد يداومون في المدارس. يأخذهم معلمهم للنزهة واللعب بالقرب من الأسوار لأن الفاليريين كالاغريق اعتادوا تخصيص معلم واحد لعدة تلاميذ تدفعهم

= أعطي لهم في المناسبة التي يذكرها بلوتارخ فهو السماح لهم بركوب العجلات، في مجال الألعاب العمومية وفي القرايين والعجلات المكتشفة من نوع أقل درجة في الشوارع.
(٢٣) ايتوليان أو يوليان هذه الجزر التي يسكنها قوم الليباري تقع بين ايطاليا وصقلية، وسميت بهذا لما قيل بانها كانت موضع سكن الرب ايكوس Aeclus وموطن رياحه. ولطبيعتها البركانية فهنا أيضاً يعزو القدماء وجود حذاء الآلهة فيها.

(٢٤) كان ذلك في ٣٩٢ ق.م.

الى ذلك رغبتهم في تنشئة الصغار من البداية على الاجتماع ومصاحبة بعضهم بعضاً.

كان هذا المعلم يوطن نية الغدر بالفاليريين عن طريق أولادهم، ولهذا عمد الى أخذهم يومياً الى الخارج بالقرب من السور، ولم يكن يبتعد بهم كثيراً في مبدأ الأمر. وبعد أن ينتهوا من قاربهم يعيدهم الى منازلهم. ثم أخذ بالتدريج يبتعد بهم حتى أصبحوا بالتمرس المتواصل لا يخشون ولا يهابون كأن الخطر ليس قريباً منهم. وأخيراً جمعهم كلهم وأخذهم الى ربابا الرومان. وسلمهم طالباً أن يؤخذ هو الى كاميللوس. فجيء به اليه ومثل امامه في الوسط وافاد قائلاً أنه سيّد ومعلم أولئك التلاميذ ولكنه فضل عطفه على كلّ الواجبات الأخرى وجاء لتسليم تلاميذه له وبهم يكون تسليم المدينة كلّها. وعند سماع كاميللوس اقواله هذه تملكه الذهول والعجب لهذا الغدر والتفت الى الحاضرين وقال «لا شك أن العنف والظلم مظهران من مظاهر الحرب بالضرورة ومع هذا فهناك مبادئ معينة يجب على الناس الطيبين مراعاتها حتى في الحرب، وليس النصر غاية تبلغ من السمو ما يبرر لنا التحلل من واجباتنا وارتكاب اشنع الأعمال وأخطأها. والقائد العظيم يجب أن يعتمد على مواهبه وكفاءته لا على نذالة الآخرين».

وبعد أن قال ذلك، أمر الضباط بتمزيق ثياب المعلم الخائن وشد يديه الى الخلف وسلم تلاميذه عصباً وسيطاً وأمرهم بإزالة العقاب به. ثم طرده الى المدينة. وفي ذلك الوقت اكتشف الفاليريون الخيانة وارتفع النواح والعيول في كل أرجاء المدينة لفاجعتهم بابنائهم، وراح الرجال والنساء يتراكمون نحو الأسوار والأبواب وهم في منتهى الحزن. فاذا بهم يشاهدون التلاميذ عائدين وهم يجلدون استاذهم العاري المكتوف اليدين، فارتفعت أصواتهم بالدعاء لكامللوس وسموه بالمنقذ والأب. وحدث هذا العمل أثره الشديد لا في الآباء وحدهم بل في بقية السكان الذين عاينوا ما وقع وامتلاوا أعجاباً وحباً بعدالة كاميللوس وعقدوا في الحال اجتماعاً عاماً أرسلوا على أثره وفدأ اليه لعرض استسلامهم له، ووضع انفسهم تحت تصرفه، فبعث كاميللوس السفراء الى روما، فأحضروا امام مجلس الشيوخ وتكلموا عما جاؤوا بخصوصه على هذا الشكل: «إن الرومان الذين يفضلون العدل على النصر، علموهم على حب الخضوع والطاعة أكثر من حب الحرية، وانهم لا يقرّون قط بأنهم أقلّ قوة من الرومان قدر ما يقرّون بأن الرومان يفوقونهم في كرم السجاياء». وأحال مجلس الشيوخ الأمر الى كاميللوس للبت فيه وتقرير ما يراه مناسباً، ففرض مبلغاً معيناً من المال على الفاليريين وعقد صلحاً مع الشعب الفاليسكاني كلّه وعاد الى بلاده؛

إلا أن الجنود الذين كانوا يتوقعون نهب المدينة هاجموا كاميللوس بقارص الكلام عندما عادوا خالي الوفاض واتفقوا مع بقية المواطنين في نعته، بعدو الشعب وبالرجل الذي يقف ضد

لمصلحة العامة. وبعد ذلك عندما جدد [تربيونيات] الشعب اقتراحهم بتجزئة المدينة ووضعوه في التصويت ظهر كاميللوس معارضاً له بصورة علنية، غير مكترث برضا الجمهور عنه^(٢٥)، وهاجم محسّذه بشدة وظلّ يعارض ويناقض رغبة الجمهور وميلهم الى ان رفض الاقتراح، ولكنهم ظلّوا على كرههم له. حتى عندما حلت به مصيبة عظيمة بفقد أحد ابنيه بمرض، فإن الشعور بالعطف نحوه لم يخفف قط من غلواء التحامل ضده. ولم يكن معتدلاً في حزنه على تكله فهو رقيق الشعور مرهف الحس بطبيعته وعندما قدّم الإتهام ضده ظلّ في منزله يشارك نساء بيته حدادهن.

كان متهمه [لوشبوس اپوليوس Lucius Apuleius] وموضوع التهمة هو احتجاز الأسلاب التوسكانية لنفسه. إذ أشيع ان أبواباً نحاسية معينة وهي جزء من الأسلاب قد ظلت في حوزته وتألت سخط الناس عليه وكان واضحاً أنهم سيتشبثون بأي فرصة تمنّ لإدانته. فجمع اصحابه وزملاءه الجنود وغيرهم عن تولى القيادة معه وكان عددهم كبيراً. ورجاهم أن يحولوا دون تعريضه لتهم باطلة وضبعة وتركه هدفاً لسخرية اعدائه وسخيمتهم. فتداول اصحابه في الأمر وتشاوروا وأجابوه بقولهم انهم لا يعرفون كيف يمكنهم مساعدته في مسألة الإدانة، إلا أنهم سيساهمون كلهم في دفع أية غرامة تفرض عليه. فلم يستطع تحمل هذه المذكة العظيمة وعزم وهو في فورة من غضب على ترك المدينة والذهاب الى المنفى. فودّع زوجته وابنه وتوجه بهدوء نحو باب المدينة^(٢٦) ووقف هناك ثم استدار وبسط يديه نحو الكاپيتول وصلى للأرباب قائلاً أنه إذا كان خروجه من وطنه متأتياً عن الغدر وسوء النية لا لذنب قارفه، فلتكن ندامة الرومان عنه عاجلة. ولتشهد البشرية جميعاً على حاجتهم اليه ورغبتهم في عودته اليهم.

وكان مثله مثل [أخيل Achilles] (*) الذي خرج الى المنفى وهو يصب لعناته على بني قومه وأدين دون أن يحضر أو يقدم دفاعاً عن نفسه وعوقب بغرامة قدرها خمسة عشر ألف [آس Asse]^(٢٧). وهي تعادل بعبارة الفضة ألفاً وخمسمائة دراخما. وكان [آس] عملة ذلك العهد، وعشرة من هذه السكة النحاسية تعادل [ديناريوساً Denarius] واحداً أو ما

(٢٥) فار الباتريشي ماكثيرة صوت قبيلة واحد. وسُرواً للغاية من موقف الشعب حتى انهم اصدروا في صباح اليوم الباكر قانوناً يقضي بمنح ستة ايكرات من أراضى (فني) لكل وب أسرة. ولكل عازب لا يملك وسيلة رزق واضحة. فقابل الشعب ذلك بالسماح بانتخاب القناصل بدلاً من التربيونيات العسكريين [انظر التفاصيل في ليفي ٣٠:٥].

(٢٦) كان ذلك بعد الاستيلاء على (فالوري) باريح سنوات اي في ٢٨٩.

(*) الايلاذة ١ ٤٩٧-٤١٢.

(٢٧) الآس AS هي عملة زهيدة القيمة.

سمي بالقطعة ذات العشرة». ولم يبق روماني واحدٌ بعد دعاء كاميللوس إلا وهو مؤمن أن جزاءً عادلاً فجائياً سيتبع ذلك الظلم وأنه سيصيب ثأره حتماً للغدر الذي هزّ الدنيا هزاً وانما وجده مرّ الطعم ووقعه اليماء. لقد نالت روما عقابها كاملاً بكل ما فيه من خزي وعارٍ وأخطار وحرار. والأمر سواء، أكانت نكبتها قضاءً وقدرًا أم يسعى أحد الأرباب الذي لم يشأ أن تبقى الفضيلة مهضومة الحق لا ينتصف لها (٢٨).

وأول إشارة كانت نذيراً بالكارثة، هي موت الجنصور [بوليوس] (٢٩) لأن الرومان يجعلون هذه الوظيفة أجلاً دينياً ويعدونّها من الوظائف المقدسة. والأمر الثاني هو رؤيا [ماركوس كويدشيوس Marcus Coedicius] وهذا رجل لا يتمتع بمكانة عالية وليس من الشيوخ، لكنه عرف بالصلاح والاستقامة، قصد هذا تربيونات العسكر قبل خروج كاميللوس الى منفاه، وأبلغهم بأمر يستدعي التأمل، قال انه كان يعيش ليلة امس في الشارع الذي يسمى «بالطريق الجديدة» فناداه أحدهم بصوت جهوري فالتفت فلم يشاهد أحداً وانما سمع صوتاً أقوى من صوت الآدمي ينطق بهذه الكلمات «يا ماركوس كويدشيوس»! اذهب فجر يوم الغد الى تربيونات العسكر». سخروا من القصة وتندروا عليها، وبعدها بقليل خرج كاميللوس من المدينة الى المنفى.

والغاليون هم من الشعب [الكلتى Celtie] (٣٠) قيل أنهم أرغموا على ترك موطنهم لأن بلادهم لا تكفي حاجتهم من الرزق جميعاً فنزحوا انتجاعاً لديار أخرى. وكان فتيانهم والمحاربون فيهم يعدون بالآلاف فضلاً عن النساء والأطفال الذين يزيدونهم عدداً، حتى بلغت بهم رحلتهم بحر الشمال واستقروا في أقصى جزء من أوروبا، بن جبال [پيرينا Pyrenean] وجبال الألب، بعد عبورهم جبال [ريفينا Riphæan] وعاشوا ثمّ زمناً طويلاً مجاورين اقوام (السينون Senones) [الكلتوري Celtorii] (٣١) وبعد ان ذاقوا الحمر التي عرفوها لأول مرة مرة ايطاليا فتعلقوا واشاعت فيهم نشوة ولذة لم يجدوها في غيرها فأحتقبوا سلاحهم وزحفوا بنسائهم وأطفالهم نحو جبال الألب سعياً الى الأرض التي تنتج ثمرة هذا العصير غير مبالغين

(٢٨) يعتقد الاقدمون ان الربة (غيس) تخصصت في الاقتصاد من ذوي الاعمال الشريرة في هذه الحياة. لاسيما الكبرياء ونكران الجميل.

(٢٩) في النص الاعريقي خطأ ارتكبه الناسخ الجاهل فقد كتب بدل ذلك «شهر يوليوس» اي تموز. فمعد وفاة [يوليوس] هذا، استخلعه ماركوس كورنيليوس في منصب الجنسور. وأفتتحت جنسوريته السيئة لا ينتخب جنسور للاء الشاغر اذا مات السلف. وانما يرغبون زميله الحي الآخر على الاستقالة (ليفي ٢١.٥).

(٣٠) الكلت Celtæ هو الاسم الذي يطلقه الاقدمون على سكان الغرب والشمال حتى سكيتيا.

(٣١) اراضي السينوني تشمل السين Sen والاوكمير Auxerre وترويي Troye، حتى مدينة (پاريس) ولا يعرف اصل الكلتري ولعل الكلمة مصحفة. لم يرد ذكرهم عند ليفي (٢٤:٥ و ٢٥).

بغيرها من الأراضي وقيل ان شخصاً يدعى [ارنوس] هو الذي عرفهم بالخمر وكان المحرض الأساسي لجيئهم الى ايطاليا^(٢٢). وهو رجل توسكاني عريق الأصل طيب الخلق، إلا أنه وقع في المشكلة التالية: كان وصياً على يتيم من أغنى ابناء البلاد وأجملهم صورة، اسمه (لوكومو Lucumo)^(٢٣). ربي منذ طفولته في كنفه ومع أسرته. وعندما شبَّ عن الطوق لم يترك بيت مربيته تعلقاً به وأعلن رغبته في البقاء، وظل زمناً يغازل امرأته وتغازله وتطارحه الحب ويطارحها سراً حتى لم يعد في الامكان ابقاء عاطفتها في طي الكتمان ولا اخفاؤها عن العيون. فاستأثر الشاب بالمرأة بصورة علنية فراجع الزوج القضاء، ولكنه لم ينل حقه بسبب ما تمتع به خصمه من جاه وكثرة مال، فترك بلده، ولسماعه بوجود بلاد الغال توجه اليهم وكان دليلاً لهم في حملتهم على ايطاليا.

في مبدأ دخولهم استحوذوا على كل البلاد التي سكنها التوسكان من قديم الزمان وهي تمتد من جبال الألب الى البحرين كما تشهد بذلك الأسماء. فالبحر الشمالي أو الادرياتي، أخذ اسمه من المدينة التوسكانية [ادريا Adria] أما البحر الواقع الى الجنوب فاسمه «بحر الجنوب» فحسب، وكانت البلاد كلها خصبة، حافلة بالشجر المثمر، والمراعي الممتازة، حسنة الإرواء بمياه الأنهار. وفيها ثماني عشرة مدنة كبيرة جميلة تحفل بالصناعات المختلفة والغنى، وكل مباح الحياة وافانين اللهو. وطرد الغاليون التوسكان منها وأستقروا فيها وقد جرى هذا منذ عهد جد بعيد.

كان الغاليون في الزمن الذي تتكلم عنه يحاصرون المدينة التوسكانية [كلوسيوم Clusium]، فاستنجد أهلها بالرومان وطلبوا التوسط لدى البرابرة بالفود والرسائل. وبعثوا بثلاثة اشخاص من أسرة [فابي] وكلهم ذوو مكانة عالية وصيت حسن في المدينة، فأحسن الغاليون استقبالهم احتراماً لاسم روما، وأوقفوا الهجوم على الأسوار وجلسوا يتفاوضون معهم. وسأل الوفد عن الأذى الذي نالهم من الكلوسيين فالجأهم الى الاغارة على مدينتهم، فضحك [برينوس Brennus] ملكهم وأجاب قائلاً ان الأذى الذي لحقه بنا الكلوسيون هم

(٢٢) يحدثنا ليفي ان ايطاليا كان معروفة للغالين قبل هذا الزمن بمائتين من السنين. وان كان هو الآخر قد نوه بقصة (اوبوس) واستطرد ليقول ان هجرة الغالين الى ايطاليا وغيرها من البلدان كان سببها ضيق بلادهم عن استيعاب عددهم المتكاثر وان الأخوين بلوفيسوس وسيكوفيسوس أقترعا على الاتجاه الذي سيسلكه كل منهما. فوقع ايطاليا من نصيب الاول ووقعت المانيا من نصيب الآخر وكان الاول في رأي ليفي أوفر حظاً.

(٢٣) لوكومو Lucumo ليس هو الاسم بل لقب الشاب وهو صاحب لوكوموني. وقد كانت اتروريا مقسمة الى اثنتي عشرة دويلة من تلك الدويلات.

عجزهم عن الزراعة إلا القليل جداً من الأراضي الواسعة التي يمتلكونها واصرارهم على التمسك بها ورفضهم التنازل لنا عن اي جزء منها ونحن غرباء كثيرو العدد فقراء. وانتم أيها الرومان أيضاً كنتم على شاكلتنا، اضربكم [الألبان، والفيديناتى Fidenate والأوربان] من قبل، والآن يلحق بكم [الفيتيتيون والكابينات] وكثير من [الفاليسكان والفولسكان] الأذى نفسه، فتستعبدونهم وتنهبون بلادهم وتستحوذون عليها وتقرضون مدنها، ولا يعد عملكم هذا من قبيل القسوة والاعتداء فانما انتم تتبعون أقدم الشرائع، تلك التي تمنح مقتنيات الضعيف للقوي، مبتدأها الاله ومنتهأها الحيوان فكل هذه الكائنات بطبيعتها تسلم بحق الأقوى في غضب الأضعف فكفاكم أيها الرومان شفقة على الكلوسيين الذين نُحاصروهم لشلا تعلموا الغالين درساً في العطف على أولئك الذين تظلمونهم، وتحركوا فيهم النخوة لمساعدتهم».

ادرك الرومان من هذا الجواب بأنهم لا قبل لهم باقتناع (برينوس) فقصداً الكلوسيين وراحوا يشجعونهم ويحرضونهم على مهاجمة البرابرة بمساعدتهم. أقترحوا عليهم ذلك إما لاختبار قوة أهل المدينة، أو لإظهار شجاعتهم هم. وتم الهجوم وحشي الوطيس بالقرب من الأسوار. وكان أحد الغالين الثلاثة واسمه (كوينتوس امپوستوس) يمتطي جواداً قوياً فأعمل به مهامه واندفع كالبرق نحو أحد الغالين وهو رجل ضخم الجسم شديد العضل لمحده وهو على حصانه بعيداً عن الآخرين. ولم تكشف هويته في مبدأ الأمر لسرعة القتال ولمعان دروعه التي حالت دون تركيز الانظار فيه، لكن (برينوس) عرفه حالما جنبدل الغالي وبدأ بجمع شكة سلاحه. فأشهد الآلهة على ما حصل خلافاً للتقاليد والأعراف المتبعة بين الشعوب المعتبر عند الجميع جزء من الدين، مشيراً الى ذلك الذي جاء في سفارة سلمية وهو الآن يشارك في أعمال العدوان ضده.

وما كان منه إلا ان سحب رجاله ورفع الحصار عن [كلوسيوم] وسار على رأس جيشه الى روما مباشرة. ولم يشأ أن يبدو عمله هذا ذريعة واستغلالاً للإهانة وتوخياً لابتداء استعداداته لتفادي أي سبب للقتال، أرسل منادياً يطلب الرجل لانزال العقاب به وفي الوقت نفسه استمر في زحفه على رسله.

اجتمع الشيوخ في روما. وكان كهنة [الفيسسيال] بين الكثيرين الذين نددوا بعمل [الغالين] ومن أكثرهم استنكاراً. وهؤلاء طلبوا من الشيوخ انطلافاً من اسباب دينية - أن يُحمل الشخص الذي ارتكب هذا الجرم كل الوزر والعقاب الذي يستحقه عمله. وبذلك تبرأ ذمة البقية. لقد نصب [نوما پومپيليوس] أعدل الملوك وأطيبهم خلقاً هؤلاء [الفيسسيال] ليكونوا حماة للسلام وقضاة ومحكمين في كل الأسباب التي تبرز اعلان الحرب. وعمد

الشيوخ الى إحالة القضية الى مجموع الشعب للبت فيها. وتكلم الكهنة هناك صدّ آل فابي كما فعلوا امام الشيوخ. إلا أن العامة استهانوا بسلطة هؤلاء الى الحد الذي بادروا معه الى اختيار [فابيوس] وأخوته [تريبونات] عسكريين نكايّة بهم واحتقاراً^(٢٤). ولما سمع العاليون بذلك استشاطوا غضباً واطرحوا جانباً كل استبطاء وأسرعوا غاية ما أمكنهم الى هدفهم يشيعون الرعب في من يرّ به زحفهم ويذهل لعددهم وما تجهزوا به للحرب من عدد هائلة، واستبد بهم الخوف للوحشية والعنف اللذين أظهرهما جيشهم اللجب حتى أدركهم الخوف على بلادهم وأعتبروها في حكم الضائعة ولم يعد لديهم شك في أن مدنهم ستلحق ببلادهم، ولكن الغالين خلافاً لما كان متوقّعا - لم يلحقوا بالمدن ضرراً خلال مرورهم، وأعلنوا بأنهم ذاهبون الى روما وأن الرومان هم أعداؤهم لا غير وأنهم يعتبرون كل الأقوام الأخرى أصدقاء لهم.

وبينما واصل البرابرة زحفهم السريع ساق التريبونات العسكريون الرومان في ساحة القتال استعداداً للحرب ولم يكونوا أقل عدداً من الغالين^(٢٥) (إذا كان عدد مشاتهم لا يقل عن اربعين ألفاً) على أن غالبيتهم جنود مستجدون، لا عهد لهم بسلاح قبال ذلك، زد على هذا انهم كانوا قد اهلوا فرائضهم الدينية تماماً، ولم يتسبر لهم أوضاع مناسبة ولم يستخبروا المتنبيين وهو ما جرت به العادة في أوقات الخطر وقبل المعركة. ولم يكن الجمل الغفير من القادة بأقل أهمية ينتخبون زعيماً واحداً وينحونه لقب (دكتاتور) لإدراكهم أهمية توحيد الجنود كلهم تحت أمره جنرال واحد في الأيام العصبية، ويوضع السلطة المطلقة كلها في يديه، أضف الى كل هذا، ان الضباط تذكروا معاملة كاميللوس لجنوده فحرصوا الآن في قيادتهم على أن يتطامنوا لجنودهم ويتحروا رضاهم وتركوا المدينة وهم على هذه الحال وعسكروا بالقرب من نهر أليا Allia على بعد عشرة اميال تقريباً من روما. وعلى مسافة غير بعيدة من مصبه في [التبير] وهذا داهبهم الغاليون وبعد مقاومة ضعيفة مخزية هزموا هزيمة شعاء ودب الخلل في صفوفهم وسادتهم الفوضى ودفعت مسيرتهم بطرفة عين الى النهر وهلكت كلها، اما الميمنة فلم يلحقها التلف لأنها تفادت الاصطدام بانسحابها من الأرض المنخفضة الى رؤوس التلال ومن هذه المواقع تمكن القسم الأكبر من ولوج المدينة. وأما الآخرون فقد هرب الكثير منهم ونجوا، وتعبد العدو من كثرة القتل، وانسحب ليلاً الى [قيبي] وهو على يقين بأن روما لن تقوم لها قائمة وأن من فيها في حكم الهلكي.

(٢٤) كان ذلك في العام ٢٨٧ ق.م بحسب رأي بعض المؤرخين أو ٢٨٨ بحسب رأي آخرين.
(٢٥) في الواقع كانوا أقل عدداً منهم لأن الغالين كانوا قد حشدوا سبعين ألفاً لذلك اضطر الرومان قبل الاشتباك الى مدّ جناحيهم بحيث اضعفوا القلب. فكان ذلك من اسباب انكسار صفوفهم بسرعة.

حرت هذه المعركة في حوالي التغير الشمسي الصيفي^(٣٦) وكان البذر قاً. وهو عين اليوم الذي حلت الفاجعة الآليمة (بالقابي) عندما وقع ثلاثمائة رجل من هذه الأسرة بيد التوسكان فانوهم عن بكره ابينهم. ومن هذه الخسارة الثانية ومن الهزيمة أطلق على ذلك اليوم اسم (اللينسس Allinsis) نسبة إلى النهر (أليا) (٣٧) ومازال يسمى به.

اما موضوع الأيام النحسة، وهل يجب علينا أن نعتبر أيًا منهما كذلك، وهل أحسن هيراقليطس صنعاً في تأنيب [هسيود] لتقسيمه الأيام إلى أيام نحس وإيام سعد. وبلوغه من الجهل حدًا اعتباره الأيام سواء لا تختلف، فكل هذا ناقشته وبحثته في موضع آخر. ولكن مناسبة هذا الموضوع لا تجعلني^(٣٨) خارجاً عن الصدد إن أوردت امثلة قليلة تتعلق به. ففي اليوم الخامس من شهر [هيپودروس] البويوسي الذي يوافق شهر [هيكاتومبيون] الأثيني حقق الهويوسيون نصرين فريدين، أولهما في [ليوكترا Leuctra] والآخر في [جريسستوس Geres-tus] وذلك قبل ثلاثمائة عام وفيهما قهروا [لاتامياس Lattamyas] والتساليين، وبهما تأيدت حرية اليونان واستقلاله. وفي يوم السادس من شهر [بيودروميون] الحق الأغريق الهزيمة المنكرة بالفرس في معركة (ماراثون). وفي اليوم الثالث هزمهم في پلاطيا Plataea. كما هزمهم كذلك في [ميكاله Mycale]، وفي اليوم الخامس والعشرين دحروهم في معركة (اربيلا) ونال الأثينيون نصرهم البحري في [نخسوس] بقيادة (خابرياس) في تمام بدر شهر [بيودروميون]، وغلبهم في اليوم العشرين منه في سلاميس كما بينا في رسالتنا «عن الأيام». وكان شهر [ثارجيليون Thargelion] أنحس شهر للبرابرة ففيه تغلب الاسكندر على قادة [داريوس] في [غرانيكوس Granicus] وتغلب [تيمولون] على القرطاجنيين في صقلية. في اليوم الرابع والعشرين واليوم نفسه والشهر نفسه يبدو على قول كل من افغورس Ephorus وكالليستينس Callisthenes^(٣٩) وداماستس Damastes^(٣٩). إن طراودة

(٣٦) في السادس عشر من تموز من العام ٤٧٦ ق.م سقط القابي.

(٣٧) Torrento de Gatin. وقد أشير إلى اليوم في التقويم الروماني إشارة واضحة باسم Dies Alliensis. (٣٨) عمد الاقدمون إلى اعتبار أيام مهيئة أيام نحس، وأخرى أيام سعد اما لقوة سحرية عزوها في الاعداد بسبب طبيعة الآلهة التي تشرف عليها. أو جراء متابعة الاحداث الاليمة والسعيدة التي تقع في أيام مخصوصة ونحن نجد ان هسيود وفرجيل قد اهتمتا ببحث هذه الفروق التي لا علاقة لها بالفلسفة.

(٣٩) التساليون بقيادة [لاتامياس] اندحروا امام البويوتيين قبيل معركة [ثرموبيلي] وقبل اكثر من مائة عام من معركة ليفيكترا. هناك ايضاً خطأ في اسماء ومواضع بويوتية Geraestus : جريسستوس، يجب ان نقرأ Geressus (جريسسوس). لان الأولى هي تتوء داخل في ايقيا. والثانية هي قلعة في بويوتيا. راجع پاوسنياس ١٤٠٩.

(٣٩) كالليستينس المؤرخ أحد تلاميذ ارسطو. راح ضحية شكوك سيده الاسكندر المقدوني الذي كان قد دون سيرته. وداماستس هو من مدينة سيكيوم Sigeum. خلف بعض الآثار التاريخية منها تاريخ =

فتحت. ويظهر من الجهة الأخرى أن شهر [ميثاغثنيون Metagitnion] الذي يسمى [پانيموس Panimus] في [بويوسيا] ليس بالشهر السعيد تماماً عند الأغريق ففي اليوم السابع منه هزمهم [انتيباطر Antipater] في موقعة [كرانون Cranon] والحق بهم الدمار التام. وقبلها هزمهم [فيليب] في [خيرونيا] وفي اليوم والشهر والعام عينها أباد البرابرة كل أولئك الذين غزوا إيطاليا بقيادة [ارخيداموس Archidamus] (٤٠). ويهتّم القرطاجنيون أيضاً باليوم الحادي والعشرين من الشهر نفسه لأنهم مُنوا فيه بإفدح الخسائر في الأرواح وباشنع هزيمة. ولست أجهل أن الاسكندر دمر طيبه للمرة الثانية في حدود أيام «عيد الأسرار». وبعدها في العشرين في الشهر نفسه (أي بيودرميون) إصطدم الأثينيون بالجيش المقدوني، وهو اليوم الذي أخرجوا فيه الصوفي إياكوس Jacchus وفي اليوم ذاته. فقد الرومان جيشهم الذي كان بقيادة [كيبپو Caepio] على يد الكمبريين Cimbri (٤١) وفي السنة التالية تغلبوا على الأرمن و[ديكران] بقيادة (لوكولوس Loculus)، ومات الملك (أطالوس Attalus) وبومبي كل في يوم ميلاده. والمرء يمكنه أن يتذكر كثيراً من الناس كانت حظوظهم متقلبة مختلفة في اليوم نفسه.

على أية حال كان ذلك اليوم من أيام النحر عند الرومان ولأجله اعتبر يومان آخران كذلك (٤٢)، في كل شهر. وسيطر الخوف والخرافات أكثر فأكثر كما تفرض العادة. على اني اسهت في شرح ذلك بدقة في «مسائل الرومانية».

ولو أن الغالين طاردوا الهاريين بعد المعركة حالاً، لما نفع علاج في انقاذ روما من الدمار التام ولما سلمت البقية الباقية من الهلاك. واستبد الرعب بأولئك الذين نجوا بحياتهم من المعركة فسرى منهم وانتشر في المدينة وزرع الفوضى والقلق في النفوس. ولكن الغالين لم يدركوا جسامه النصر الذي حازوا، وتملكهم الفرح فمكفوا على اللهو والولائم وتوزيع الغنائم والأسلاب وبذلك منحوا لأولئك الذين تأهبوا لمفادرة المدينة والنجاة، وأمهلوا أولئك الذين آثروا البقاء، للتأهب والإستعداد لهم. وهؤلاء الذين قرروا البقاء، تركوا المدينة كلها واحتشدوا في الكاپيتول بعد أن حصنوه بأسوار جديدة ونصبوا عليه معانوق.

وكان في مقدمة ما أهتموا به ذخائرهم المقدسة فنقلوا معظمهما الى الكاپيتول إلا أن

= انساب (ثوسه) في حصار طروادة.

(٤٠) كان هذا الأسير في طريقه الى نجدة [تارتوم] عندما قتل في [ماوريا] وهي مدينة قريبة من مدينة كاسال نوفو في كالابريا.

(٤١) حصل هذا في العام ١٠٤ ق م وكانت خسارة الرومان تروى على شاتين الفأ.

(٤٢) اليوم الذي يلي (كالتد) واليوم الذي يلي (ايدز) في كل شهر.

العذارى فستا] حملن النار المقدسة وهرين بها مع ذخائرهن المقدسة الأخرى. ويقول بعضهم أنه لم يكن في عهديهن غير النار الخالدة التي رسم [نوما] أن تعبد بوصفها مصدر الأشياء كلها. لأن النار هي أشد كائنات فعالية في الطبيعة. وكل حادث هو إما حركة، وإما تلازمه حركة وكل أجزاء المادة الأخرى، ما دامت بدون حرارة. تبقى جامدة ميتة وتتطلب إضافة نوع من الحياة أو الفعالية في عنصر الحرارة، وعند هذه الإضافة - بأي شكل تحت - فإن المادة تكتسب قابلية الفاعلية، أو المفعولية. ولهذا السبب جعل [نوما] للنار حرمة وقدسية، وأمر أن تبقى مشتعلة باستمرار بوصفها صورة للقوة الخالدة التي تنبعث منها وتصدر عنها كل الأشياء، ولهذا عرف [نوما] بالنسوع والحكمة التي أدت بالناس إلى الظن بأنه متصل [بالميوزات]. ويقول بعضهم الآخر أن هذه النار تبقى موقدة أمام الذخائر المقدسة، كما تبقى في بلاد اليونان لأجل التطهر، وإن هناك أشياء أخرى مكنوزة في أكثر أجزاء المعبد سرية لتظل في نجوة عن الانتظار كافة، خلا تانك العذارى اللاتي يسمين بالفستالات. وأكثر الآراء شيوعاً هو أن تمثال [بالأس] الذي جلبه [إينياس] إلى إيطاليا - محفوظاً هناك. على أن بعضهم يقول أن تماثيل الساموثراقيين Samothracians هي المحفوظة هناك ويقصون كيفية نقل [دردانوس Dardanus] (٤٣) لها إلى [طروادة]، وكيف أنه أقام تلك الطقوس عند بنائه المدينة وأوقف تلك التماثيل عليها. وبعد أن تم الاستيلاء على المدينة سرق [إينياس] تلك التماثيل واحتفظ بها لديه حتى جاء إلى إيطاليا. إلا أن أولئك الذين يدعون معرفة بالموضوع أكثر من هذا يؤكدون وجود برميلين حجمهما ليس بالكبير أحدهما مفتوح ليس فيه شيء، والآخر مغلق وممتلئ. ولكنهم لم ير أي واحد منهما مخلوقاً خلا إقدس العذارى. ويظن آخرون أن من يقول هذا وأهم وأن مصدر وهمه هو أن العذارى وضعت معظم ذخائرهن المقدسة في برميلين في زمن الغزو الغالي هذا، وأخفيها تحت أطباق الثرى في معبد [كوبرينوس] ومنذ ذلك الزمن والموضع يسمّى «البراميل».

ومهما يكن من أمر، فإن العذارى حملن اثمن الأشياء وأهمها، وهرين بها، وأخترن طريق فرارهن بحاذاة النهر، حيث كان يسلك الطريق نفسه، مواطن بسيط من رومه يدعى [لوشيبوس]

(٤٣) قيل إن [دردانوس] الذي عاش عصر موسى الكبير (حوالي ١٤٨٠ ق.م) كان أصله من أركاديا. وقد رحل عنها إلى ساموثراكي. وبعدما تزوج [ناتيا] أو [أريستا] بنت تيوكير Teucer فريجيا. ذكرنا فيما سبق شيئاً عن الآلهة الساموثراكية، ونزيد هنا قول [ماركوبيوس]. وهو أن الآلهة ماكين Du Magni التي جلبها [دردانوس] من ساموثراكي هي في الواقع آلهة البيت التي جاء بها [إينياس] من هناك إلى إيطاليا. ويقول [ديون] أنه شاهد تلك الآلهة في معبد قديم بروما. وهما من صناعة موغلة في القدم ثميلات شابين حالسين ويبد كل ربح.

البينيوس [Lucius Albinus] وهو من بين من فر. وقد أدركهن بعجلته التي حملها زوجته وأطفاله ومتاعه، وشاهدتهن وهن يرزحن تحت عبء الذخائر المقدسة الخاصة بالأرباب، وفي حالة من الأعياء والضئلك لا توصف، فأنزل زوجته وأطفاله وأخرج امتعته واركب العذارى في العجلة لكي ينحين بها إلى أحد المدن الاغريقية^(٤٤). إن هذا العمل الورع والاحترام الذي أظهره [البينيوس] بهذا الشكل البارز، تجاه الآلهة في هذا الوقت العصيب، لا يمكن أن يمر به المرء مَرَّ الكرام ولا يصح. السكوت عنه. على أن الكهنة الذين يخدمون أرباباً أخرى، وأكبر الشيوخ سنّاً، وهم قناصل سابقون لما ذاقوا لذة النصر وتمتعوا به، عَزَّ عليهم مغادرة المدينة. فأرتدوا ثيابهم الدينية المقدسة بالنفيسة. وقام [قابيوس] الكاهن الأعلى باكمال مراسيم الصلاة وقدم الجميع نذورهم إلى الآلهة^(٤٥). ويعزم منهم على جعل حياتهم فداءً لبلادهم جلس كلهم على كراسيهم العاجية في [الفوروم]^(٤٦)، منتظرين ما سيأتي به القدر. وفي اليوم الثالث للمعركة ظهر [برينوس] على رأس جيشه في المدينة. ووجد أبوابها مفتوحة على مصاريعها ليس عليها حراس ولا رأى فوق الأسوار جنوداً، فداخله الشكّ أوّل الأمر وظنها خطة مبيتة للايقاع به، أو حيلة لاستدراجه، ولم يحلم أن الرومان بلغوا هذا الحدّ من اليأس والقنوط. لكن لما تحقق من الأمر، دخل من الباب الكوليني Colline وأستولى على روما في المائة الثالثة والسنة السنين من بعد بناء المدينة بزمان قليل هذا إن جاز لنا افتراض وجود سجل تاريخي دقيق بالأحداث السابقة^(٤٧) التي كانت هي نفسها السبب في صعوبة تحديد الفترات الزمنية للأحداث التاريخية التالية لها ويبدو أن بعض الإشاعات البسيطة قد تسربت إلى بلاد اليونان عن فتح المدينة. أذ نرى [هيراقليدس بونتيكوس] الذي عاش بعد هذه الحوادث بزمان وجيز^(٤٨)، يتحدث في كتابه «عن الروح»: بأن خبراً ورد من الغرب، عن جيش متقدم من

(٤٤) يذكر ليفي أن [البينيوس] قادهم إلى [كايري] وهي من مدن [اترويا] وحسن استقبالهم. وكان بينهم بعض الكهنة والكاهنات الرومان الهاريين. بقيت الفستالات زمناً طويلاً في [كايري] يعارسن واجباتهن الدينية المعتادة. ومن هنا جاءت كلمة [كيريومونيا Ceremonie] كتبت لطقوسهن.
(٤٥) يعتقد الرومان أن الاضطراب والفوضى سيشتيمان بين صفوف العدو بهذه القرابين التي تقدم لربة جهنم.

(٤٦) هذه الكراسي العاجية كورولي Curule لا يجلس عليها إلا من تقلد أرفع المناصب. إن من يحق له استخدامها يحمل أيضاً عصا عاجية.

(٤٧) يقول ليفي (١٦) في تلك الأزمان لم يهتم الرومان كثيراً بالكتابة ثم إن تعليقات الكهنة وغيرها من الدونات المتحلقة الخاصة منها والرسومية قد تلفت عندما أحرق الغاليون المدينة.

(٤٨) عاش في ذلك العصر بالذات. كان أولاً تلميذاً لأفلاطون ثم لأرسطو وكان أفلاطون في الحادية والاربعين عندما أجتاحت روما. وهذا الاحتلال لم يخلف صدق دلوي في بلاد الاغريق مما يدل على أن العلاقة بين القطرين كانت ضعيفة لا يؤيدها.

بلاد (الهيبربوريين Hyperborean) قد استولى على مدينة اغريقية تدعى روما وان الغزاة أستقروا في موضع ما من تخوم البحر المحيط. ويظهر ان أفلاطون الفيلسوف كان قد سمع انباء صحيحة عن فتح الغاليين المدينة، لكنه يسمي منقلها «لوشبوس» في حين لم يكن هذا لقب كامبيللوس، بل «ماركوس»، على أن هذا موضع أخذ وردّ وتخمين. ونعود الى موضوعنا: بعد أن وقعت روما في قبضة (برينوس)، وضع حرساً قوياً حول الكابيتول ثم قصد الفوروم وهناك علتة الدهشة لمنظر العدد الكبير من الرجال وهم جالسون على تلك الصورة والصمت يخيم عليهم. لاحظ أنهم لم يقوموا عند مجيئه ولم تتحرك عضلة في وجوههم أو تغير شيء من قسمااتهم وإنما ظلوا غير مكترئين أو خائفين مستنديين على عصيهم جالسين بكلّ سكون يحرق أحدهم في الآخر. وبقي الغاليون مسمرين في الأرض برهة طويلة يتأملون بدهشة في المنظر العجيب، لا يجراؤن على التقدم اليهم أو لمسهم، متوهمين بأنهم جماعة من المخلوقات التي تفوق البشر، ثم أنّ واحداً منهم كان أكثر شجاعة من زملائه. تقدم من (ماركوس پاپيريوس Marcus Papirius) ومد يده ومسّ ذقنه بلطف ومسّ لحيته الطويلة فرفع پاپيريوس عصاه وأهوى بها على رأس الغالي بضربة شديدة فانتضى هذا سيفه وقتله، وبدأت بذلك المذبحة إذ هذا الباقون حذوه ووقعوا فيهم قتلاً وأفنوه ثم استداروا ليضعوا السيف في رقاب كل من اعترض سبيلهم وراحوا ينهبون البيوت ويسلبون ما فيها واستمروا عدة أيام في ذلك، ثم اشعلوا النار بها وهدموها حتى سوّوها بالقاع، وقد أثار حقنهم أولئك المتحصنون في الكابيتول لأنهم لم يقبلوا الإستسلام، وإنما راحوا يصدون هجومهم من مواقعهم الدفاعية ملحقين بعض الخسائر وهذا ما استفزهم ودفعهم الى احراق المدينة ووضع السيف في رقاب كل من وقع في ايديهم صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً أم امرأة بالغاً أم طفلاً.

واستمرّ حصار الكابيتول زمناً طويلاً، وبدأ الغاليون يشمرون بحاجتهم الى المؤونة^(٤٩)، وقسموا قواتهم، جزء منها بقي مع ملكهم يضيق الحصار على الكابيتول والباقي خرجوا للغزو ونهب المدن والقرى وانتزاع الأرزاق أينما حلّوا، وتفرقوا الى زمر وعصابات كل منها توجه الى ناحية لا على وجه التعيين وبدون خوف أو اكتراث لما قد يجابهها من أخطار. على أن أكبر وحدة منهم وأكثرها نظاماً توجهت الى مدينة [ادريا] وهي المدينة التي اختارها [كامبيللوس] سكناً له منذ رحيله عن روما... وكان قد اعتزل كل عمل وقنع بالعيش الهادي. لكن روحه بدأت الآن تتوثب ويدب فيها النشاط. ولم يفكر في اجتناب العدو أو الفرار. بل في التربص

(٤٩) لم يكن الغاليون مستعدين للحصار كما ان كلّ احتياطي الغلة كان مختزناً في (فيبي) انظر (ليفي ٤٢٥).

بفرصة للتأثر منه وكان مدركاً أن الادرياتييين لا يشكون نقصاً في الرجال وأنما هم بحاجة الى المعامرة والتدريب بسبب قلة تجربة ضباطهم وجبنهم. فبدأ يتحدث الى الشبان أولاً بقوله لهم انهم يجب ألا يعزوا نكبة الرومان الى شجاعة عدوهم، ولا الخسائر التي نزلت بهم بسبب أفن الرأي قيادة الرجال الذين لاحق لهم في النصر وان الحدث كان شاهداً على سلطان القدر وتحكمه، وأنه من البسالة حتى عند الخطر - أن يُصدّ غازيا بربريا اجنبياً، غايته من الحرب أن يدمر ويحرب، كما تفعل النار. فاذا تحلوا بالشجاعة والعزم فهو مستعد لوضع فرصة للنصر بين ايديهم، دون تريت قط. ولما وجد الشبان ميالين الى ذلك، قصد حكام المدينة ومجلس شوراها، وأقنعهم أيضاً، ثم جند كل قادر على حمل السلاح ورتبهم ووزعهم داخل الأسوار بأسلوب يصعب على العدو ملاحظة وجودهم وكان العدو قد اقترب بعد أن اكتسح البلاد وجرداها كل شي، وبات الآن وهو مشغل بالغنائم، وضرب خيامه في السهول دون ان يأخذ بأسباب الحذر والحيطه. وقضى ليلته في فجور وشراب ولهو حتى خارت قوى الجنود وتطرحوا اعياء وساد السكون التام في المعسكر ولما علم كاميللوس من كشافته بحقيقة الأمر خرج بالادرياتييين عليهم، وفي هداة الليل قطع المسافة التي تفصل بين العسكرين بكل سكون حتى بلغ مواقعهم وأمر بان يُنفخ في الأنفار، وان يطلق رجاله صيحة الحرب فأوقع الرعب فيهم من كل جهة في حين أن السكر والنعاس اثقلا حركة عدوهم. ودفع الخوف ببعضهم الى الصحو والعمل على تنظيم صفوفهم بكيفية ما تمكّنهم من المقاومة فترة من الزمن وماتوا وسلاحهم في ايديهم. إلا أن القسم الأكبر منهم فوجئوا وهم غارقون في سكرهم ونومهم فذبحوا قبل أن تصل ايديهم الى سلاحهم. أما الذين استفادوا من ظلام الليل وهربوا، فقد عشر عليهم مبعثرين هائمين على أوجهم في الحقول وأسرتهم الخيالة التي أرسلت لمطاردتهم.

وذاعت انباء هذه الموقعة بسرعة وانتشرت في المدن المجاورة وبعثت روح الحماسة في الشباب ودفعتهم الى القدوم من كل حدب وصوب والتطوع في جيشه. ولم يكن متحمساً لذلك، أكثر من أولئك الرومان الذين نجوا من معركة [أليا] ولجأوا الى [فيبي]، فقد راحوا يتحسرون ويلومون أنفسهم بقولهم:

- أيتها السماء! أي قائد حرمت المشيئة الالهية رومه، لتكرم (ادريا) وترفع من قدرها بمآثره؛ وتلك المدينة التي ولدت ربّت هذا الرجل العظيم ضاعت الآن وذهب ريحها، ونحن الآن بلا قائد، حلف أسوار أجنبيّة. عاطلون نشاهد ايطاليا يحيق بها الخراب امام أعيننا. تعالوا نعت الى الادريانيين نطلب منهم ارجاع قائدنا الينا، أو أن نذهب نحن اليه والسلاح في ايدينا، لأنه لم يعد شخصاً منقياً، ولم نعد نحن مواطنين وبلادنا في قبضة العدو.

واتفقوا جميعاً على هذا وأرسلوا الى كاميللوس يطلبون توليه القيادة لكنه اجاب بأنه لن يفعل ذلك إلا اذا أصدر أولئك الذين في الكابتول، أمراً بتعيينه بصورة شرعية. لأنه يجلهم ماداموا في الوجود ويعتبرهم منتخبيه^(٥٠)، فإذا أمروه فسيطيع بلا تردد، ولن يقحم نفسه في شيء إن لم يكن برضاهم. وأعجب الرومان بتواضع كاميللوس وخلقه لدن ابلعوا بجوابه هذا، لكنهم وقعوا في حيرة. بخصوص العشور على رسول لأبلاغ الكابتول بالقضية. أو بالأحرى كان يبدو ضرباً من المحال وصول أي شخص الى القلعة والعدو بطوقها ويحتل المدينة تماماً.

وكان بين الشبان فتى اسمه (پونتئوس كونيئيوس Pontius Coninius) من أسرة لاقتاز بشيء، لكنه جسر مقدام ملبٍ لداعي المجد. عرض نفسه لأخطار الرحلة ولم يأخذ معه اية رسالة لجناسة الكابتول لئلا يعرف العدو نوايا كاميللوس، في حالة وقوعه في ايديهم. وارتدى ثياباً رثة أخفى تحتها قطعاً من الفلين وقطع معظم رحلته غير متخفٍ وفي وضع النهار، حتى وصل المدينة ليلاً، ولم يتمكن من عبور الجسر لأن البرابرة كانوا يحرسونه، فنضا عنه ثيابه ولم تكن كثيرة أو ثقيلة وشدها حول رأسه وعمّ جسمه بالفلين سايحاً الى المدينة فدخلها مجتنباً الأحياء التي كان العدو فيها يقطاً مهتدياً الى ذلك بأصواتهم والضياء. وقصد الباب الكرمتالي حيث الهدؤ أعظم وتلّ الكابتول أشدّ انحداراً ووعورة لكثرة ما على سطحه من الصخور الحادة والمشقة. وصعد هذا السفح ووصل بكثير من المشقة الى جوف الجرف وقدّم نفسه للحراس وسكّم عليهم وأعلمهم باسمه، فأخذه الى القواد، وأستدعى مجلس الشيوخ حالاً فشرع يقصّ عليهم بالترتيب اتباء نصر كاميللوس الذي لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً. واحوال الجنود ومفاوضاتهم، ثم راح يلحّ عليهم بتثبيت أمرية (كاميللوس) فهو الوحيد الذي يعتمد عليه بنو قومهم خارج روما. وبعد سماع المجلس ذلك، ومداولته قرر تعيين كاميللوس دكتاتوراً وأرسلوا (پونطيوس) من حيث أتى فتمكن من اختراق صفوف العدو من غير أن يكتشف أمره وحالفه النجاح في ابصال قرار الشيوخ الى الرومان خارج روما، فتسلموه فرحين.

ولدى وصول كاميللوس وجد عشرين الف محارب شاكي السلاح متأهباً. وبهذا العدد، وبما أحضره من القوات الحليفة تهيأً للاشتباك مع العدو.

وفي روما، بينما كان بعض البرابرة يبرون بالصدفة بالموضع الذي سلكه (پونطيوس) ليلاً

(٥٠) ويحدثنا (ليفي) ان الجنود الرومان في (فيبي) تقدموا الى من تبقى من اعضاء مجلس الشيوخ في الكابتول... بطلب الاذن لهم أن يعرضوا القيادة على (كاميللوس) وهذا دليل على النضج السياسي الذي تحلى به المواطن الروماني.

للوصول الى الكابتول، اكتشفوا آثار ايدٍ واقدام في عدة أماكن مسيره وتسلفه، كما وجدوا في مواضع أخرى بقعاً على سطوح الصخور أزيلت نباتاتها ومواقع أنهيار ترابي حديد، مرجعوا الى الملك وأبلغوه بذلك فذهب وشاهدها بنفسه ولم يقل شيئاً في حينه وعند حلول الليل أختار من رجاله البرابرة أرشقهم قدأ وأكثرهم اعتياداً على التسلق لعيشهم في الجبال. وخطب فيهم قائلاً:

- إن العدو قد دلنا بنفسه على طريقة للتغلب عليه، لم يكن لنا علم بها من قبل، وبرهن لنا أنها ليست بالصعبة أو المستحيلة على همم الرجال. ومن العار الكبير أن نحسن العمل بالبداية ونفشل في النهاية، فيدركنا اليأس ونتولى عن موضع متوهمين أنه لا يقتحم في حين اثبت لنا العدو بالذات وجود وسيلة قد تؤدي الى الاستيلاء عليه، وما يسهل بلوغه على رجل واحد، لن يكون صعباً على الكثير من الرجال، واحداً بعد واحد، اما ان اضطلع بالأمر جماعة فسيكون كل واحد منهم عوناً وقوة للآخر وسيكافأ كل رجل يُبلي بلاءً حسناً ويكرم تكريماً.

لما سمع الغاليون اقوال الملك، قبلوا المهمة بكل سرور، وما أن حلّ الليل بهدونه حتى بدأت جماعة كبيرة منهم تتسلق المرتفع الصخري معاً بكلّ سكون متشبثين بالنتوءات الصخرية الشديدة الانحدار، ومصعدّين بمشقة لم تكن بالكبيرة كما توقعوا في أوّل الأمر، حتى أن الزمرة الأولى منهم سبقت الى القمة ونظمت صفوفها وفاجأت نقاط الحراسة الخارجية واستولت على مواقع المراقبة وكان رجالها يغطون من نومهم إذ لم يلحظ زحفهم كلبٌ أو رجل. ولكن كان يوجد بالقرب من معبد [جونو] أوژ مقدس^(٥١)، هذا الأوز كان يُعنى باطعامه وتغذيته في الأوقات الاعتيادية أما الآن فقد امست حالته سيئة بسبب شح القمح. وهذا الحيوان مستوفز، دقيق السمع بطبيعته، حسّاس لأقل صوت أو حركة. وقد زاد الجوع من رهافة حسه وابقاها بقطة قلقه، فأنشبت حالاً الى مقدم الغاليين فضجّت وراحت تصيح وتتراكض هنا وهناك حتى ابقظت كل من في المعسكر، وكان البرابرة في الجهة الأخرى فادركوا أن أمرهم قد أنكشف فلم يحاولوا اخفاء محاولتهم وتقدموا للهجوم وهم يصيحون ويضجون. وأسرع الرومان يمسك كل منهم بأوّل سلاح تقع يده عليه، وفعلوا ما أمكنهم في ظرف مفاجيء كهذا وكان [مانيليوس Manlius] وهو ذو منصبٍ قنصلي، وقوة في الجسم، وشجاعة نادرة، أول من

(٥١) بات الأوز منذ ذلك الحين موضع تكريم أمالي روما. وظلّ يربّى عدد كبير فيه على حساب الخزينة العامة ونصب تمثال ذهبي للحيوان تظليداً لأولئك الابطال. وكان يطاق يعد من الأوز كل سنة محمولاً على وسائد من المخمل ذات زخارف ونقوش انيقة. في الوقت الذي تمت عندهم كراهة الكلاب فكانوا يحوزون واحداً سوياً بخشبة [إيليني وبلوتارخ].

تصدى للمهاجمين واشتبك في قتال مع اثنين من رجال العدو في آن واحد فقطع بحدّ سيفه ذراع أحدهم اليسرى، اثناء ما كان هذا يرفع سيفه ليهوي به. ثم صفع وجه الآخر بدرقته فسقط وهوى من أعلى الصخرة ثم علا المتاريس ووقف صامداً فلحق به آخرون لشدّ أزره. ودفع الباقين الى التقهقر، ولم يكن عددهم كبيراً في الواقع ولم يحققوا شيئاً يستحق الذكر في هذه المحاولة الجريئة.

بعد أن غبا الرومان من هذا الخطر أمسكو بضابط المراقبة في الصباح اليوم الباكر وقذفوا به من أعلى الصخرة على رؤوس اعدائهم وصوتوا لمنح مكافأة (المانليوس) على نصره. وكانت مكافأة رمزية ترمي الى تكريمه لا منفعتها. فقد قدم له كل رجل منهم جرابته اليومية من الارزاق وهي نصف पाوند من الخبز وثمن पाينت من الخمر.

ومن تلك الموقعة بدأت أحوال الغالين تسوء وتتردى يوماً بعد يوم، وأدركتهم الحاجة الى الطعام، إذ لم يعد باستطاعتهم نهيه من الانحاء المجاورة خوفاً من كاميللوس^(٥٢)، وتفشت فيهم الأمراض بسبب العدد الكبير من الجثث التي تكومت أكداً ولم تدفن. ولما كانوا يعيشون بين الخرائب والرماد المتكسد طبقات كثيفة تأتي الريح وتثيره، بالإضافة الى الحرارة الشديدة الحارقة، فقد اصبح الهواء جافاً مخنقاً، وأدى استنشاقه الى تدمير صحتهم. على أن السبب الأساسي هو تبدل المناخ عليهم، لاعتيادهم العيش في بلاد جبلية كثيفة الظل، كثيرة الوسائل الواقية من الحر. وهم الآن في أرض منخفضة غير صحيّة بالمرة وفي فصل الخريف^(٥٣). أضف الى هذا فترة الحصار الطويلة ومصابيه، فقد تصرمت عليهم سبعة أشهر وهم امام الكابيتول. ولذلك كان التلف فيهم عظيماً وتساعد عدد الموتى بينهم حتى عجز الاحياء عن دفنهم، ولم تكن أحوال المطوقين في الواقع بأحسن من البرابرة مطلقاً فقد تفشت المجاعة بينهم وزادت حدة، وتماظم يأسهم لعدم سماعهم شيئاً عن كاميللوس لاستحالة ارسال مبعوث اليه بسبب حراسة البرابرة الشديدة. وهكذا ساءت أحوال الطرفين بحيث بدأ حديث عن الصلح فيما بين جماعات من ربايا المتحاربين عندما راها يتبادلون الأحاديث، وتبنى الفكرة قسادة الطرفين. واتصل [سولپيشيوس Sulpicius] التريبوني الروماني بزعيم الغالين بريتوس، وتمّ الإتفاق على أن يدفع الرومان ألف وزنة من الذهب، للغالين، ليجلو هؤلاء عن المدينة وتخومها حال تسلمهم القدية. ووثقت المعاهدة باليمين وجيء بالذهب إلا أن الغالين

(٥٢) كان كاميللوس بعد سيطرته التامة على الريف قد وضع حاميات وتقاطعاً عسكرية في جميع الطرق، فاصبح محاصراً لحاصريه!

(٥٣) خريف روما في العادة سيء.

وصعروا موارد مغلوشة سراً في ميداً الأمر ثم أخذوا يسحبون الميزان ويخلون بالورن بصورة علنية. وطق الرومان يحتجون ساخطين، وعندها نزع برينوس سيفه ومنطقته بأسلوب استفزازي مهين وقذف بهما الى كفة الموازين وعندما سأله [سولپشيوس] عن القصد من ذلك. فأجابه «ماذا يمكن أن يقصد منها إلا الويل للمغلوب؟»^(٥٤) فسارت مثلاً من الأمثال وثار العصب ببعض الرومان حتى فكروا في حمل ذهبهم والعودة للبتا. تحت وطأة الحصار، ومال بعضهم الى التفاوض، والتغافل عن اهانة طفيفة، وأن لا يعتبروا العار في دفعهم أكثر مما هو واجب مادام العار هو في دفع اي مبلغ مهما ضئول، فهذا هو العارُ بحد ذاته ولا يمكن النزول اليه إلا عند الضرورة.

وظلت هذه الخلافات قائمة فيما بين الرومان من جهة وبين الغاليين من جهة أخرى، دون أن يتوصل الطرفان الى تسوية حتى وصل كاميللوس بجيشه - الى ابواب روما. وعلم بحقيقة ما يجري فأمر القسم الأكبر من قواته أن تزحف خلفه ببطء. وبنظام واسرع هو يتقدمها بنخبة من محاربيه، حتى بلغ معسكر الرومان فأفسح له الجميع واستقبلوه بوصفه حاكمهم الأوحد، والصمت والنظام يسودهم، فأخرج الذهب من الميزان وسلمه الى ضباطه وطلب من الغاليين أن يرفعوا موازينهم ومعاييرهم وينصرفوا، قائلاً لهم: من عادة الرومان أن يحرروا بلادهم بالحديد لا بالذهب. وعندما بدأ برينوس بضج ويقول: إنه عومل معاملة غير عادلة بنقض هذا الاتفاق، أجابه كاميللوس: إن الاتفاق لم يبرم بصورة شرعية، والصلح غير قائم ولا تترتب عليه اية تبعات لأنه يتقصد منصب الدكتاتور وليس هناك حاكم شرعي غيره بحكم القانون. وإن الاتفاق عقد مع أناس لا يملكون صلاحية ابرامه. أما الآن فلنكل منهم ان يبسط وجهة نظره ويقول ما يريد قوله، لأنه جاء مزوداً بصلاحية كاملة بحكم القانون. للعفو عمن يطلب عفواً ويعاقب المسيء إن ظل مقبهاً على غيبه. وعندها استشاط [برينوس] غيظاً، ووقع اشتباك آني، واستشق الجانبان السيوف والتحما بدون نظام، وكان الاضطراب لا يهد منه لأن ميدان المعركة كان ما بين المنازل وفي الأزقة الضيقة ومواضع ينتفي فيها النظام تماماً. إلا أن [برينوس] سيطر على الموقف في الحال، وأمر رجاله بالكف عن القتال وسحبهم الى معسكرهم بخسارة قليلة ثم استيقظ ليلاً وترك المدينة منسحباً بكل قواته وبعد ان قطع ثمانية أميال تقريباً خيم على جانب من الطريق المؤدية الى مدينة [غابي Gabii]. ولم يكد الصبح بنلج حتى ادركه [كاميللوس] وهو مستعد تمام استعداد للملاقاته بأسلحة ممتازة وبرجال مفعمين ثقة وشجاعة ودارت رحى معركة طاحنة استمرت وقتاً طويلاً. أسفرت عن هزيمة ساحقة للغاليين ومنوا فيها

^(٥٤) Vae Victis

بعدد كبير من القتلى وخسروا معسكرهم وأما الناجون فقد طوردوا وقتل بعضهم وتفرق الجزء الأكبر ايادي سباً يفتك بهم الناس الذي خرجوا اليهم من المدن والقرى المجاورة^(٥٥).

وهكذا كان الاستيلاء على روما، غريباً في يابه كما كان خلاصها بعد أن بقيت هي قضية البرابرة سبعة أشهر كاملة. فقد دخلوها في الخامس عشر من تموز، وطردوا منها في حدود الخامس عشر من شهر شباط التالي، ودخل كاميللوس المدينة في موكب النصر وهو بما يستحقه فعلاً بعد أن انقذ بلاده الضائعة وأعاد المدينة الى أهلها على حدّ شائع القول، وأنضم الى موكبه أولئك الذين فروا مع زوجاتهم واولادهم وصحبوه الى المدينة، وأولئك الذين حوصروا في الكابيتول، وآلت بهم الحال الى شفا الهلاك جوعاً خرجوا لاستقباله وأخذ الطرفان يعانق بعضهم بعضاً عند اللقاء، وجرت دموعهم فرحاً، ولسعادتهم التي فاقت الحدود كانوا بين مصدق ومكذب للواقع. وظهر الكهنة ورجال الدين حاملين الأشياء المقدسة التي كانوا قد أخفوها هناك قبل رحيلهم أو أخذوها معهم في فرارهم. وعرضوها للمواطنين سليمة». فلما رآها هؤلاء شعروا وكأن الآلهة عادت معها الى المدينة. وبعد أن قدم كاميللوس القرابين للآلهة وطهر المدينة وفقاً للتعليمات التي أشار بها الخبيرون بالأمر. باشر في اصلاح المعابد القائمة واقام معبداً جديداً للرب «صوت» أو «اشاعة»، في البقعة التي سمع فيها [ماركوس سيديشيوس] ذلك الصوت السماوي ينهيه بقدم جيش البرابرة.

وكان من أصعب الأمور وأشق المهام تعيين وكشف المواقع المكرسة في وسط الانقراض المتراكمة، ولكن دأب [كاميللوس]، وجهود الكهنة المتواصلة بلغت بالمهمة حدّ النجاح. وعندما طرحت مسألة إعادة بناء المدينة التي دمرت تدميراً تاماً، ثملك المجموع بأساً واحجموا عن الاضطلاع بعمل يحتاج الى مواد ليست لديهم، وزاد في تردددهم حاجتهم الشديدة الى الراحة والاستجمام بعد كدحهم وتفضيلهم ذلك على مطالب جديدة من قواهم المنهكة وحالهم المرزقة. ولذلك توجهوا بانظارهم الى مدينة [لبي] بصورة لا شعورية وهي مدينة حسنة البناء وفيرة الرزق، وأعاروا أذانهم الصاغية لحيل المتعلقين المتشوقين الى ارضاء رغباتهم، ومالوا الى سماع أقوال رجال السوء المحرّضة على [كاميللوس]. كقولهم: انه ينمهم عن الانتقال الى مدينة صالحة لسكنائهم، ويرغمهم عن البقاء والعيش بين الانقراض، سعيّاً وراء طموحه، ومجده الشخصي. وانه يريد إعادة بناء انقاض محترقة حتى يرتفع قدره، عم مجرد رئيس حكومة،

(٥٥) هناك سبب وجيه للشك في صحة الجزء الأخير من هذه الحكاية وقد نقلها بلوتارخ عن [لبي] بقصتها وقضيضها. ألا أن بوليبيوس يذكر ان الغالين قد تسلموا الذهب من الرومان فعلاً. قفلوا عائدتين الى بلادهم بسلام. وهذا ما يؤيده [جوستين] و[سوتونيوس] بل [لبي] نفسه في محل آخر من تاريخه. (١٦، ١٠)

وزعيم روما وقائدها الى مؤسس روما أيضاً، (باستثناء رومولوس).

لذلك خاف الشيوخ من فتنة، فلم يقبلوا باعتزال كاميللوس السلطة في بحر السنة وان كانوا يرغبون في اعتزاله، اذ لم يحدث أن بقي دكتاتور في منصبه أكثر من ستة أشهر.

ولم يأل الشيوخ أنفسهم جهداً في تشجيع المواطنين على العمل وتهدئة ثورتهم بالإقناع والملاينة وطيب الكلام، ونوّهوا لهم بمزارات اسلافهم وأضرحتهم وذكروهم بالإماكن المقدسة، والمشاهد الدينية التي أوقفها [رومولوس ونوما] وغيرهما من الملوك. وتركوا لهم ليقوموا عليها ويحفظوها. ومن أقوى وسائل الإقناع الدينية التي استخدموها معهم قضية عثورهم على رأس مقطوع عن الجسم لم يمرّ عليه زمن طويل - اثناء وضع أسس بناء الكابيتول^(٥٦). واعتباره اشارة الى حكم القدر بأن يكون هذا الموقع رأس كل ايطاليا. ولفسوا انظارهم الى النار المقدسة التي أعاد ايقارها عذارى قستا بعد الحرب وقالوا:

- اي عار هو خسرانهم الكابيتول وأطفالهم النار، وتركهم المدينة تنعي من بناها، ليسكنها أجنب وأغراب، أو لتكون مرجأ ترعى فيه المواشي؟

مثل هذه الحجج والبراهين، يرافقها العتاب مرةً والتعنيف مرةً أخرى؛ تلقى على الافراد بصورة خاصة، وعلى الجماعات بصورة عامة في الاجتماعات، لم تجد غير الاعتذار والخسرات التي يبعثها القنوط وكان الردّ عليها يتلخص في أن شملهم الآن قد اجتمع بعد أن تحطمت سفينتهم، وهم مازالوا عراة وغرثى، ومن المسير ارغامهم على شدّ أوصال مدينة ممزقة منهزمة، في حين توجد مدينة أخرى كاملة البناء حسنة التكوين، تحت تصرفهم.

واستحسن كاميللوس أن يحال الأمر الى المناقشة العامة والاقتراع، ونهض هو بالذات بتكلم مخلصاً في تحجيد البقاء، وفعل كثير غيره، وبالأخير استدعى (لوشبوس لوكريتيوس) الذي كان منصبه يؤهله الى التقدم في الكلام على الجميع، وطلب منه كاميللوس أن يلفظ حكمه، ثم يتعاقب الآخرون بعده للإدلاء بأرائهم حسب الترتيب المرسوم. فساد سكون تام

(٥٦) وقعت هذه المعجزة في عهد الملك (تاركوين) الذي لاشك انه وضع الرأس هناك بنفسه فقد وجد هاداً يقطر منه الدم. وقد وجدوه عندما كانوا يحفرون الأسس وكنتما قد قُطع لقوه Olenus Calenus وأمركت الحيرة أحد العرايين الذين استشيروا في الأمر. فبعد ان عجز عن تفسير الظاهرة بشكل تبدو انها في مصلحة بلده. قال متردداً: إن الموضع الذي وجد فيه الرأس يجب ان يكون كابيتولاً لايطاليا كافة (ديون ١٣٤) ويورد [بلييني] في تاريخه الطبيعي هذه القصة (٢:٢٨) أما (ايطي) الذي يقدم تعليلاً أكثر بساطة فهو يتفق مع (ديون) على أن لفظة (كابيتول) أخذت عن هذه المادة. ويزعم (ارنوبويس ٤) مستشهداً بكثير من المراجع القديمة ان اسم الرجل الذي وجد رأسه مفصولاً هو Tolus Vulcentonws تولس فلجنتانوس فيكون Capit - toli = إلا ان (فارو) لم ينوه بأي شيء حول الموضوع.

وماكاد [الوشيوخس] يفتح فاه للكلام حتى اتفق مرور قائد مائة [سنتوريون] بسريته المخصصة للحراسة، على مقربة من الكابتول، وسمع المجتمعون صوته العالي يأمر حامل الراية بالوقوف حيث هو نصب الراية لأن الموقع خير المواقع أو أنسبها للبقاء. هذا الصوت المنطلق في تلك اللحظة الحرجة، وفي أزمة شديدة من الشك والقلق على المستقبل، اتخذ الشعب هادياً وذيلاً، إلى ما ينبغي عمله بصدد القضية. وما كان من [الوشيوخس] إلا أن اتخذ وضع المصلّي العابد، وأدلى بحكم يتفق ومشينة الآلهة على حدّ قوله، واحتذى خذوه كل من عقبه، وأحدث الأمر تغييراً مفاجئاً في مشاعر الأهلين والتفت كل واحد إلى صاحبه يشجعه ويحضه وأنطلق الجميع ويأشرون في أعمال البناء، ولم يجر عملهم وفق خطوط منتظمة أو تصميم مرسوم وإنما كان اعتباطياً مضطرباً إذ انهمك كل فرد بأول قطعة أرض صادفها أو وافقت مزاجه، وأدى هذا الاستعجال والفوضى في البناء إلى تشييد مدينة جديدة ذات أزقة ضيقة متعرجة سيئة النظام، ومنازل متزاحمة ومتلاصقة يعلو أحدهما الآخر. فقد قبل أن بناها كله تمّ في غضون سنة واحدة^(٥٧) مع أسوارها الخارجية وابتنتها الداخلية. غير أن الأشخاص الذين عينهم كامبيلوس لمهمة تثبيت مواقع جميع الأماكن المقدسة في هذه الفوضى العامة، وإعادة بنائها كلها. وصلوا في أثناء طوافهم حول البابلاتيوم - إلى هيكمل مارس وكان البرابرة قد أحرقوه وهدموه على آخره حتى سووه بالقاع كغيره من الأبنية، وفيما هم يزيلون الانقاض ويمهدون الأرض عشروا بمحض الصدفة على عصا العرافة التي تعود لرومولوس^(٥٨)، وكانت مدفونة تحت كدس من الرماد، تسمّى هذه العصا [ليتوس Lituus] وهي عادة معقوفة النهاية والعرافون يستخدمونها للتربيع الفلكي عندما يقومون بتنبؤاتهم بطريقة مراقبة مسار الطير، وكان رومولوس عرافاً يشار إليه بالبنان، ولما اختفى تسلم الكهنة عصاه تلك وحفظوها ذخراً مقدساً محجوباً عن أعين الناس ولمسات أيديهم. فلما وجد هؤلاء العصا سليمة في حين أتت النار على كل شيء، حولها. راحوا يبنون أضخم الأمال لروما، وأستنتجوا من هذا الحادث برهاناً على سلامة مستقبلها وخلودها.

لم يكد الرومان يبتغسون الصعداء مما دهاهم حتى ابتلوا بحرب جديدة. إذ إن الأيكورين Aquirans والفرولسكيين واللاتين، غزوا بلادهم دفعة واحدة وبصورة مباغتة. كما القى التوسكان الحصار الشديد على مدينة [سوتريوم Sutrium]^(٥٩) وحليفهم. وطوق اللاتين

(٥٧) سببت سرعة بناء المدينة متاعب ومشاكل عديدة لاسيما بخصوص المجاري العامة التي كانت تمتد عادة تحت الشوارع الرئيسة فقد صارت تمتد تحت المنازل الخاصة (ليني ٥٥:٥).

(٥٨) ينوه شيشرون في [النوبات ١٧.١] بهذا الاكتشافات أيضاً.

(٥٩) ساتري أو سوتري في توسكاني. وجبل مارشيوخس قرب لانوتيوم يبعد عشرة فراسخ تقريباً عن روما

جيش التربيونات العسكريين الذين كانوا معسكرين حول جبل (موشيسوس Maecius)، وصيقوا عليهم الخنادق حتى أصبح معسكرهم في خطر فبعثوا الى رومه برسל البجدة. وكان كاميللوس وقتئذ قد انتخب دكتاتوراً للمرة الثالثة.

توجد روايتان مختلفتان عن وقائع هذه الحرب. وسأبدأ بأبعدها خيالاً وأحفلها بالأساطير: قيل ان اللاتين بعثوا يطلبون من الرومان بعض بناتهم المولودات لآباء أحرار، ليستخذوهن زوجات. ولم يكن هذا الطلب يتعدى أحد امرين إما أنهم يريدونه ذريعة للتحرش، وإما أن يكون نية صادقة ترمي الى احياء العلاقة الماضية بين الشعبين. واستبدت الحيرة بالرومان وعزَّ عليهم الوصول الى قرار، فهم من جهة يخشون حرباً جديدة إثر حرب ما كادت تضع أوزارها بعد امن نالهم منها ما نالهم. وكانوا من جهة أخرى يشكون في أن «طلب زوجات» ما هو في الحقيقة إلا طلب رهائن، تُكسى عبارات مهذبة رقيقة وكلمات رشيقة من قبيل «التحالف» و«المصاهرة» وما أشبهه، وبينما هم في حيرتهم تلك، انبرت لهم خادمة بيت اسمها (توتولا Tutula) أو (فيلوتيس Philotis) كما يسميها بعض الكتاب. وأقنعت حكام رومة بتنفيذ خطتها وهي أن يرسلوا معها عدداً من أجمل الخادومات وأصغرهن سنّاً بعد أن يلبسنهن ثياب عرس العذارى النبيلات، وأن يتركوا البقية لحيلتها ومكرها، فوافق الحكام وأختاروا العدد الذي طلبته. وجملوهن بالذهب ونفائس الحلل، وأرسلن جميعاً الى اللاتين الذين كانوا معسكرين في موقع قريب من المدينة. وعندما جَنَّ الليل قامت البنات بسرقة سيوف العدو النائم. وأعتلت (توتولا) أو (فيلوتيس) شجرة تين برِّي ونشرت خلفها رداً صوفياً سميكاً ورفعت مشعلاً بمواجهة رومه، وهي الإشارة المتفق عليها مع قادة الرومان فقط، أخفيت عن سائر المواطنين الآخرين) وهذا ما أدى الى خروج الرومانيين من المدينة في فوضى عامة، وكان الضباط يدفعون رجالهم الى أمام دفعاً. والرجال ينادي أحدهم الآخر بالإسم، وصعب عليهم أن يعيدوا النظام الى صفوفهم وهجموا وهم بهذه الحالة على مواقع العدو واقتحموا موانعه وكان معسكرهم وافنوا معظم من فيه. وقد جرى ذلك في اليوم السابع من شهر تموز الذي كان يعرف في حينه بشهر كونجيليس. والعيد الذي يحل في هذا اليوم من السنة إنما هو تذكار لما جرى في تلك الوقعة، اذ يخرج الناس زرافات من المدينة وهم يتنادون باسماء مألوفة مثل (كابوس أو ماركوس أو لوشيسوس!) وغيرها تمثلاً بالحالة التي كانت تسود الرومان عند خروجهم العاجل على اللاتين وهم يتنادون بالأسماء، ويلي ذلك مشهد خادومات البيوت، يبرزن في العيد مرتديات أرهى الثياب، ويجرين هنا وهناك لاعبات لاهيات، ممازحات كل من يصادفنه، ثم يلحأن الى تقليد معركة فيما بينهن أظهاراً لدورهن في قتال اللاتين. وبعد ذلك يجلسن تحت

ظلال اغصان التين ليأكلن ويشربن. ويعرف هذا اليوم باسم [نونى كاپروتينى: Nanae Cap-rotationae] ويظن بعضهم أنه مشتق من «شجرة التين» وهي الشجرة التي ارتفع منها مشعل الحادمة كما تقدم. لأن الأسم الروماني للتينة هو [كاپريفيكوس Caprificus]. ويعزو فريق من الكتاب، كل ما يجري قوله وعمله في هذا العيد الى ظروف انتها حياة رومولوس. فقد غاب عن الأنظار خارج اسوار روما، عندما انتشر ظلام دامس وهبت عاصفة هوجاء مفاجئة. [قال بعضهم أنها ظاهرة كسوف شمسي] فالاسم اللاتيني للعنزة هو [كاپرا Capra] والوضع الذي أختفى منه رومولوس كان يعرف باسم «مستنقع العنزة» آنذاك.

على أن عامة الكتاب يفضلون الرواية الأخرى عن الحرب وتفصيلها تروى على النحو الآتي بعد أن أنتخب كاميللوس دكتاتوراً للمرة الثالثة، وعندما أبلغ بأن جيش التربيونات العسكريين قد طوَّقه اللاتين والفولسكيون، دعا الى النفير العام. ولم يقتصر في دعوة من بلغ سن الخدمة، بل جند من لم يناهزها. ثم أنه قام بجولة استطلاعية واسعة حول جبل [مرشيسوس] في غفلة عن عيون العدو وبعدها ساق جيشه الى مؤخرته. ثم أعطى الإشارة بقدومه الى الرومان المطوقين باشعال عدة نيران، فبث الشجاعة في نفوسهم وتهيأوا للتعرض للعدو ومبادأته بالهجوم.

ولكن اللاتين والفولسكيين الذين دبّ الخوف فيهم لانكشافهم للعدو من الجناحين بادروا للانسحاب وراء مواقعهم وأخذوا يحصنون معسكرهم بمتاريس وموانع قوية من جذوع الأشجار على جميع الجهات، قرروا الانتظار لحين وصول نجيدات من بلادهم، مع توقعهم المعاونة من التوسكان حلفائهم. وأدرك كاميللوس خطتهم، فخاف أن يؤول أمره الى الوضع الذي أرغمهم هو عليه، أعني أن يُطوّق هو، ولذلك قرّر أن لا يضيع وقتاً، ولما كانت متاريسهم من الخشب ولملاحظته أن ريحاً شديدة تهبّ باستمرار عند بزوغ الشمس من الجبال باتجاه المعسكر، فقد هيأ مقداراً من المواد الملتهبة وحشد قواته على خط الصّولة، وأعطى أمر الهجوم لجزء منها بالقذائف فاندفعوا الى العدو بصيحة عظيمة وجلبة شديدة من ناحية، بينما توجه هو بالوحدات التي ستطلق النار، الى الجهة التي تهبّ الريح نحو معسكر العدو، عادةً وكمن هناك يتحين فرصته. ولما بدأت المعركة ويزغت الشمس انطلقت ريح شديدة من الجبال فأعطى اشارة الحركة والهجوم وقذف بكميات ضخمة من المادة الملتهبة واستعرت النيران في متاريس الخشب القريبة ثم سرت الى المعسكر نفسه وقامت الحرائق في شتى ارجائه ولم يكن اللاتين قد استحضروا من الوسائل ما يدفع عنهم غوائلها ويعمل على إخمادها وعمت المعسكر وأخذت تلتهمه فلم يجدوا مفرّاً من الابتعاد عنه مسافة قليلة، ثم أنهم وجدوا أنفسهم مرغمين على

حوص المعركة فآلقوا بأرواحهم في أيدي عدوهم الذي كان لهم بالمرصاد أمام المتاريس مستعداً بسلاحه، ولم ينج منهم إلا نفر قليل. أما الذين مكثوا في المعسكر فقد راحوا طعمة للنيران، وعمل الرومان على اخماد الحرائق قبل أن تأتي على الأسلاب والغنائم.

بعد أن تحقق لكاميللوس النصر المؤزر، أناب عنه ابنه [لوشيويس] لحراسة الأسرى واحصاء الغنائم في المعسكر واستاق جيشه مخترقاً بلاد العدو فسقطت في يده عاصمة الايكويين، وأخضع الفولسكيين، ثم أسرع متوجهاً الى [سوتريوم] لمعاونتها في حربها مع التوسكان وليس لديه أية فكرة عما حلّ بها. وكل ما كان في علمه انها مازالت في خطر وإن التوسكان يشدونّ عليها الحصار، على أن الحقيقة كانت خلاف ذلك فقد استسلم [السوتريون] وفتحوا ابواب مدينتهم لأعدائهم فدخلوها وطرّدوا جميع سكانها منها بعد ان سلبوها كل شيء، ما خلا ثيابهم التي يرتدونها ولقيهم كاميللوس في الطريق يدفعون زوجاتهم وأولادهم أمامهم ويندبون سوء حظهم وهم في حالة من البؤس لاتوصف فثارت عاطفة كاميللوس، وابصر جنوده يذرفون الدمع عليهم ويظهرون مشاعر الحزن العميق، وأهالي [سوتريوم] المذكوون يتشبثون بهم ويتعلقون بأذيالهم. مخلف بالآ تغيب شمس اليوم إلا ويكون قد أنتقم لهم، وزحف حالاً الى المدينة، مخمناً أنه سيجدها لاهية غافلة بمن فيها، غير محروسة، ففأتحوها استولوا على مدينة غنيّة كثيرة الغنائم وما عادوا يخشون عدواً من الداخل ولا مغيراً من الخارج، وكان كاميللوس صادقاً في حدسه فلم يعرف العدو بقدمه حين أقترابه ولم ينتبه له حتى عند دخوله المدينة واحتلاله أسوارها التي لم يترك فيها العدو ولا حارساً واحداً، وكان التوسكان قد أووا جماعات متفرقة الى البيوت يعاقرون الخمر ويلهون. ولما فطنوا الى أن عدوهم قد أكمل الاستيلاء على المدينة كانوا ثملين بما عبوا من الخمر، متخمين بما التهموا من اللحم، لا بل غاية ما تمكن منه أقليتهم هو الفرار. أما الأغلبية فيما انتظروا موتهم المخزي وهم داخل البيوت، أو استسلموا للفنائح. وهكذا استولي على مدينة سوتريوم مرتين في يوم واحد، وأولئك الذين كانوا يملكونها فقدوها وأولئك الذين فقدوها استعادوها وكل ذلك بفضل كاميللوس. إستحق كاميللوس بهذا موكب نصر آخر. نال فيه من الرفعة والسعة ما ضاهى به النصرين الأولين، فمن كان سيء النظرة اليه من المواطنين، ومن كان يعزو انتصاراته الى الحظ لا الى نبوغ فيه، أرغمتهم أعماله الأخيرة على التسليم بقابلياته العظيمة وحيويته وعلى وجوب إكرامه وتقجيده.

كان [ماركوس مانليوس] أبرز خصومه وأقوى حسّاده. وهذا هو الشخص الذي تصدى للغالين عندما هجموا ليلاً على الكايتول، وأجبرهم على الاتسحاب، ولهذا السبب منح لقب

[الكابيتولي Capitolin]. احتل هذا الرجل المقام الأول في الجمهورية، لكنه عثر عن مطاولة شهرة كاميللوس ومجاعة سمعته شريفة، فلجأ إلى السبيل المعروف لانتزاع السلطة المطلقة، وأعنى به خطب ود الجماهير، ولاسيما أولئك الذين غرقوا في الديون. وراح يدافع عن فريق بالتزامه قضاياءهم ضدّ دائنينهم وينقذ الفريق الآخر بالقوة والشدة. ومنع القضاء عن ملاحقتهم بالدعاوى. ولم يمرّ به طويل زمن إلا واجتمع له عدد كبير من الساخطين، كانت ضوضاؤهم وصخبهم في [الفوروم] يلقيان الرعب في قلوب كبار القوم ووجهائهم فلم يجد [كوينتيوس كاپيتولينوس Quintius Capitolinus] الدكتاتور الذي نصب لأجل قمع الحركة - سبيلاً غير زجّ مانليوس في السجن، فكان ردّ الجمهور الآتي على ذلك أن يادر «بتغيير ثيابه» والناس لا يلجأون إلى تغيير ثيابهم إلا عندما تحلّ نكبة عامة. فخاف الشيوخ فتنة لا تبقى ولا تذر وسارعوا إلى إخلاء سبيله. لكن مانليوس زاد عتوا بعد إطلاق سراحه واشتدّ عنفاً في أهدافه وملاً المدينة فوضى وخراباً. فلم يجد الشيوخ بداً من انتخاب كاميللوس لمنصب الحاكم العسكري [تربيون]. وعين هذا يوماً لمحاكمة [مانليوس]، والاجابة عن التهمة التي رفعت ضده. وكانت الجلسة في موضع لا يساعد المدعين في مرافعتهم، لأنه يشرف على البقعة التي خاض فوقها مانليوس معركته مع الغالين - وهي في الكاپيتول بالقرب من الفوروم. فكان المتهم يمدّ ذراعيه إلى تلك الجهة باكياً مذكراً مستمعيه بمأثرته تلك. مثيراً عواطفهم. فحار قضاته في أمره ولم يدروا ما يفعلون، وراحوا يؤجلون المرافعة عدة مرات؛ فهم من جهة لا يرغبون في تبرئته من الجرم الذي تضافرت عليه دلائل كافية جداً. وهم من جهة أخرى عاجزون عن تطبيق أحكام القانون ومأثرته الجليلة ماثلة أمام أعينهم. وفكر كاميللوس في الأمر ملياً ثم أمر بنقل المحكمة إلى البستان [البيتليني Petiline] خارج السور، فمن هناك لا يمكن مشاهدة شيء من الكاپيتول. وواصل المدعي شرح التهمة، وتمكن القضاء من وزن أعماله واستنكارها وإدانته، فافتيد إلى الكاپيتول وألقي منكوساً من فوق الصخرة. وبذلك كانت تلك البقعة شاهداً على أعظم مجد له، وتذكيراً لأسوأ نهاية له. وهدم الرومان بيته ونوا فوق أرضه معبداً للربة [مونيتا Moneta] وصدر مرسوم يحظر على أي فرد من البارتريشين سكّني الكاپيتولين في المستقبل.

وطلب من [كاميللوس] تولي منصب الحاكمية للمرة السادسة، فأعتذر عنه بكبر سنّه. ولعلّه شعر بخوف من أن يقلب الخطّ له ظهر المجن فيبادره بنحسه بعد أيام السعد^(٦٠)، على

(٦٠) وذلك كي لا يُغري موقع القلعة الممتاز المشرف على سائر المدينة. إلى استعبادها أو يسهل الوصول إلى ذلك الغرض فقد اتهم [مانليوس] بالسعي لنصب نفسه ملكاً ولم يستطع اثبات براءته؛ و =

أن أظهر الأسباب لرفضه كان ضعف صحته فقد أبتلي بمرض في ذلك الحين. لكن الشعب لم يقبل بأي عذر وراح الناس يصرخون أنهم لا يريدونه ليركب خيلاً أو ليسير على قدميه، وأما يريدون منه سلامة الرأي وحسن المشورة. وهكذا اضطروا على تسلم زمام القيادة، على أن يسوق أحد زملائه الحكام [تريبيون] الجيش حالاً لمواجهة [البرينستين Praenestines] والفولسكيين الذين أجتاحوا أراضي حليفات روما بقوات كبيرة، فخرج كاميللوس على رأس الجيش اليهم. وتوقف وعسكر على مقربة منهم. وفي نيته أن يماطل في الحرب، إن لم يكن منها بد حتى يستعيد قواه وينظم صفوف جيشه لخوض اية معركة تحمها الضرورة. أو يجبر عليها. إلا أن زميله [لوشوس فيوريوس Lucius Furius] كان قليلاً الصبر، تتملكه رغبة جامحة في نبيل المجد وأطلاب المعالي، فلم ير رأيه والح في دخول المعركة وراح ينشر حماسة صفار ضباط الجيش ويغذيهم بالشعور نفسه. وخشي [كاميللوس] أن يظن بأنه ما أعطى قرار التريث إلا لحرمان الشبان من مجد يصبون اليه وينالونه من حملة عسكرية شريفة الغاية، وافق على اقتراح زميله وهو كاره، وتخلف في المعسكر بسبب ضعفه وليس معه غير نفر قليل^(٦١)، وهاجم [لوشوس] العدو بنزق وتهور، فصُدَّ هجومه وعندما أبلغ كاميللوس أن الرومان أنكفأوا إلى خلف وأخذوا ينهزمون، لم يستطع ضبط أعصابه وقفز عن فراشه وأسرع بالنفر القليل المتخلف معه، لمقاومة المندحرين لدى ابواب المعسكر شاقاً طريقه بين المنهزمين - قاصداً صَدَّ المطاردين، وكان لعمله هذا رد فعله فأولئك الذين دخلوا المعسكر فارين داروا على أعقابهم في الحال وتبعوه، وأولئك الذين خرجوا من المعسكر هاربين، اتجهوا اليه والتفوه حوله وأخذ واحداهم يلوم الآخر على تركه جانب قائده! بهذه الوسيلة تمكن من صَدَّ زحف العدو في قتال ذلك اليوم.

وفي اليوم التالي صَفَّ كاميللوس فرقة بنسقى المعركة وصال على العدو صولة شديدة

= استدرا الروحة من الشعب مع انه ابرز ثلاثين شكة سلاح غنمها من ثلاثين خصماً التهم معهم في قتال اليد باليد وقضى عليهم جميعاً، كما كرم باريغ تشرافات بينهما (Mural) اكيلان. وثمانية تيجان بدن. كما انقذ كثيراً من المواطنين وفي مقدمتهم سرفيلوس قائد الغيالة. ويزيد بليبي في تاريخه الطبيعي فيقول (٢٨٧) عندما كان مانيوس في السابعة عشرة من عمره. غنم اسلاب عدوين. وكان اول فارس في روما يوضع على رأسه تاج الغار. وتلقى جسده ثلاثة وعشرين جرحاً بقيت ندوبها ظاهرة في قتال شريف. وعند انقاذه سرفيلوس تلقى طعنتين غائرتين في ساقه وزراعه. ويضيف (ليفي) قوله انه صدر قرار بان لا يسمى أحد من اعقاب اسرته باسمه.

(٦١) من الخرافات المنتشرة بين الرومان ان (نعميس) آلهة الانتقام قد تبلي المرء بكبة بعد عمر طويل حاله النجاح وحسن الحظ دون انقطاع وكاميللوس الذي بلغ الآن السادسة والستين تقريباً (٢٧٩ ق.م) هم بتأدية يميز التقاعد المعتاد والتخلي عن الحكم بسبب المرض إلا ان الشعب رفض حتى سماع هذا الاقتراح منه [ليفي ٢٢.٦].

وهزمهم هزيمة شماء، ولحق بهم الى معسكرهم حتى اختلط الحابل بالنابل ودخلوا معسكرهم معهم واستولوا عليه وأبادوا بحدّ السيف معظمهم. ثم، لما سمع باستيلاء التوسكان على مدينة [ساتريكوم Satricum] ^(٦٢) وقتلهم كل أهاليها وهم رومانيون. بعث الى رومه بمعظم وحدات ذات السلاح واستبقى له وحدات مسلحة بأخف الأسلحة، مما أمتاز بالبسالة والإقدام، وهجم بهم على التوسكان المسيطرين على المدينة وكسروهم شرّ كسرة، وقتل عدداً منهم وطرد البقية. وعاد الى روما محملاً بغنائم كثيرة، مقدماً بهذا دليلاً ساطعاً على نبوغه وحكمته الفائقة وعلى صحة رأي أولئك الذين لم يعدوا الثقة فيه عندما فضلوه على الشبان الطموحين المشوقين الى القيادة وعزل الشيخ العليل العازف عن الحكم، مبرهنين بذلك على أن ضعف جسم القائد وشيخوخته لا يجردانه من الإقدام أو حدة الذهن.

لذلك، فعندما وردت الابناء بتمردّ التوسكولان Tusculan، انبطت بكاميللوس مهمة قمعه، وخير في تعيين زميل مساعد له من أحد الحكام. وكان كل زملائه متلهفاً الى هذا المنصب فمرّ بالجميع مرور الكرام ووقف عند [لوشيووس فيوريوس] فأختره دون غيره خلافاً لما كان متوقفاً، وفيوريوس هذا، هو الذي قاد الهجوم الفاشل الطائش ضد رغبة كاميللوس في الحرب الأخيرة كما مرّ بنا، وكاد يخسر المعركة والحرب كلها. وكان غرض كاميللوس من اختياره، هو أن يداوي نكسته ويحو عارها عنه على ما يبدو.

ولما سمع التوسكولانيون بمقدم كاميللوس، لجأوا الى حيلة للرجوع عن تمردهم وتفادي النتائج فكان كاميللوس يرّ بحقول امتلات بالزراع والرعاة المنصرفين الى اعمالهم كأنما في عزّ السلم. ووجد ابواب المدينة مفتوحة على مصارعها، والتلاميذ يذهبون الى مدارسهم، ورأى الصناع واليقلالين في دكاكينهم عاكفين على أعمالهم اليومية، ووجهاء القوم يروحون ويفدون في المحلات العامة بشبابهم العادية ^(٦٣). وأسرع قضاة المدينة لتهيئة مقرات سكنى للجيش الروماني كأن شيئاً لم يحصل، وكأنهم لا يشعرون بأي خوفٍ أو خطر، ولا يثقل ضميرهم ذنباً. ولم تنطل هذه المظاهر على كاميللوس، وتشككه في انباء خيانتهم إلا أن قلبه رقّ لهم لما رآه من ندامتهم، فأشار عليهم بمراجعة مجلس الشيوخ والعمل على تهدئة غضبه، وتبرع هو نفسه بالتوسط في أمرهم والدفاع عنهم. وهكذا برئت ساحة المدينة وقبيلت في حظيرة المواطنة رومانية ^(٦٤). وتلك هي أهم أعمال كاميللوس أثناء حاكميته السادسة، وأجدرها بالذكر.

(٦٢) يقول [ليفي ٦ ٢٢] انه اتخذ مقراً على مرتفع مع وحدات الريف لمراقبة سير المعركة.

(٦٣) هذا الموضع ليس السوتريوم الذي جاء ذكره قبلاً. ويبدو ان بولتارخ قد خلط بين الموضعين

(٦٤) التوكا Toga هو ثوب السلم، والساكوم Sagum هو لباس الحرب ويتوه ليفي [٦ ٢٥] ببعض ازياء أخرى يرتونها بالمناسبة.

بعد كل هذه الأحداث أثار [ليشينوس ستولو Licinius Stolo] مشكلة كبيرة وأقام رومة واقعتها وألب العامة على الشيوخ برفعه شعار حق العامة في اختيار واحد من القنصلين الحاكمين من طبقتهم، لا أن يكونا قاصرين على طبقة الهاتريشيين. وكان قد تمّ انتخاب [تريبونات] الشعب ألا أن طبقة العامة أوقفت عملية انتخاب القنصلين وحالت دونها^(٦٥). ولما كان عدم وجود رئيس دولة، يؤدي الى تفاقم الوضع وازدياد الفوضى. فقد لجأ الشيوخ نظمينا لرغباته وخلافاً لرغبة الشعب الى انتخاب كاميللوس دكتاتوراً للمرة الرابعة^(٦٦)، وضد رغبة كاميللوس الذي ان يكره الاصطدام بأناس اعطتهم خدماتهم الماضية الحق في أن يقولوا له ان مآثره الحربية التي أنجزها بفضلهم هي أجل وأعظم شأنًا من الأعمال السياسية التي أنجزها بالتعاون مع الهاتريشيين. وهؤلاء في الواقع لم يبرزوه ويدفعوا به الى أعلى المنصب الأ غير وحسباً أو بكلمة أخرى اذا نجح سيسحق الشعب، وان فشل سيسحق نفسه، وعلى اية حال ولأجل أن يعالج الأمر النجح معالجة ممكنة في تلك الساعة، ولبلوغ علمه باليوم المحدد الذي سيطرح فيه تريبيونات الشعب اقتراحاً بسن هذا القانون أصدر أمراً بالنفير العام، ودعا الشعب الى الخروج من الفوروم والذهاب الى المخيمات مهدداً بفرض غرامات ثقيلة على المخالفين. فقابل التريبونات تهديده، باحتجاج صارم وهددوه بفرض غرامة عليه قدرها خمسون ألف دراخما من الفضة اذا أصرّ على منع افراد الشعب من الادلاء باصواتهم عند الاقتراع على القانون. وسواء أخشي كاميللوس نفيّاً آخر، أو حكماً بالإدانة لا يتفق

(٦٥) المواطن الروماني الأميل الذي يتمتع بحقوق المواطنة كاملة؛ له ان يملك منزلاً في روما، وان يدلّي بصوته في الجمعية العامة. ويرشح نفسه للوظائف الحكومية. وهو من ثم منتسب الى واحدة من القبائل الرومانية. أما الانسان الحرّ في عهد الجمهورية فهو محروم من هذه الامتيازات. والبلدان الأخرى والمستوطنات الرومانية التي يتمتع أهلها بحق المواطنة ظبعضها الحق في المشاركة في الاقتراعات العامة وترشيح أهاليها للوظائف في روما. في حين حرم بعضا الأخر من ذلك. ولم يعط للتوسكولان حقوق المواطنة إلا بعد ذلك بزمان [ليني ٢٠:٦].

(٦٦) دام هذا الاضطراب خمس سنين في اثناء قيام التريبونات بمنع اجتماع الكوميسيا وهو ضروري لانتخاب القناصل وكبار الحكام. وكانت المناسبة التالية السبب في ذلك: قام [فابيوس أمبوسستوس] بتزويج بنته الكبرى من [سرفيوس سولپيشيوس] الهاتريشي الذي كان وقتذاك تريبيوناً عسكرياً. وزوج الصغرى من [لوچينيوس ستولو] وهو بليبي غني. واتفق ان الأخت الصغرى اشاء قياسها بزيارة لأختها، ان عاد زوجها من الفوروم وراح حرسه الككتور يطرقون الباب بمصيهم طرّقاً شديداً فخافت الأخت الصغرى فضحكت أختها ساخرة بجهلها بالحياة الراقية التي تحياها. فالتفتا الإمانة كثيراً. ولكي يهديا ابوها من رومها قال لها أنها ستجد عما قريب في بيتها من الحياة الراقية والابنة ما يفوق ذاك الذي تجده في بيت شقيقتها. واتفق الأب والزوج مع [لوشيو سكتيسوس] الذي أصبح أول قنصل بعد نهاية الفترة - واقترحوا عدة قوانين منها تخفيض سعر الفائدة. وتحديد الملكية الزراعية بعد أقصى لا يتجاوز الخمسمائة ايكرا. وجواز انتخاب أحد القنصلين من بين عامة الشعب وقد لورد ليفي ٦ ٢٨-٢٤ كل التفاصيل في هذا الباب.

وشيخوخته ولا يناسب ماضيه المجيد، فقد وجد نفسه أعجز الناس عن وقف زخم الجماهير الذين استمحل أمرهم واضطربت أنفسهم بالثورة والتمرد. فانسحب إلى بيته لوقت ما، ثم ادعى المرض عدة أيام، وأخيراً استقال من منصب الدكتاتور^(٦٧)، فانتخب الشيوخ دكتاتوراً آخر، يادر حالاً إلى تعيين (ستولو) زعيم المعارضة، أمراً لقوات الحَيَّالة. وتقرر سن قانون جديد وصادق عليه ووضع موضع التنفيذ - وقع هذا القانون وقع الصاعقة على الشيوخ فقد حدد ملكية الأراضي الزراعية بما لا يزيد عن خمسمائة أيكرا مساحة، وبهذا علت منزلة (ستولو) كثيراً، ولكن بِرَّ طويل زمن^(٦٨) حتى وجد (ستولو) يحتفظ بمساحة تزيد عن التحديد، ففرضت عليه العقوبات التي قررها قانونه!

ثم حُلَّ النزاع حول انتخاب القناصل - وكان هذا علة الخلاف والنقطة الأساسية للتناحر، ظلَّ يمدَّ الخلاف بين طبقتي الشيوخ والعامة بوقودٍ لا ينضب معينه.

ووصلت في أثناء ذلك، أنباءٌ تشير إلى أن الغاليين ينوون إعادة الكرة، وقد تقدمت جحافلهم من البحر الأدرياتي مندفعة نحو روما بجموع هائلة، وفي أعقاب هذا النبأ تواترت الأخبار عن أعمال التخريب التي يرتكيبها العدو، فقد كان يترك الأرض التي يجتازها قاعاً صافساً، والأهالي يفرون من أمامهم، يهيمون على أوجههم في الجبال مبشرين، ولم يصل منهم إلى روما إلا نفر ضئيل. إن مخاوف هذه الحرب هدأت الحالة في روما، وأعادت إلى المدينة وحدتها، وأختار الشيوخ والعامة، والنبلاء والدعاة بالأجماع كاميللوس، لمنصب الدكتاتور مرةً خامسة وكان يشارف ثمانين من عمره، لكنه لم يدع المرض أو خور القوى في هذه المرة كما ادعى قبلها، تقديرًا منه للخطر الذي يتعرض له الوطن، ومستجيباً لداعي الضرورة الملحة. وياشر في الحال بالتجنيد.

علمته تجربة الحرب مع الغاليين، أن قوة هؤلاء تكمن في سيوفهم البتارة، فهم يهونون بها بشكلاً اعتباطيَّ خشنٍ لا فنَّ فيه، فيبقرون ويبثرون الاعضاء ويقطعون الرؤوس والاكتاف بصورة وحشية فعالة. لذلك أمر بضع خوذٍ حديدية واقية يرتديها معظم رجاله، وأوصى بصقلها وتلميعها من الخارج حتى تنزلق فوقها سيوف الأعداء أو تتكسر. كما أمر بثبت اطارات خفيفة من النحاس حول التروس لأن الخشب لا يتحمل ضربات السيوف الشديدة كذلك درب جنوده على استعمال رماحهم الطويلة في القتال القريب. وعلمهم كيف يدبّرون بها

(٦٧) في ٣٦٦ ق.م.

(٦٨) رعموا بوجود شيء مخالفه في الاستشارة التي تمت بعد تعيينه. [إيفي ٦: ٢٨]. وقد خلفه [ببيليوس مانليوس] في المنصب.

صربات سيوف العدو عندما يلتحمون بهم.

إقترب الغاليون من نهر [الكوينوا] يجرون خلفهم أثقالاً لا تحصى، وهم متخمون بأسلاب تفوق الحصر. نظم كاميللوس جيشه لخوض المعركة، فاختار موقعه على تل سهل المرتقى فيه كثير من الوهاد والمنخفضات وأخفى في تلك التعاريج معظم فرقه. وأبقى القسم الأقل فوق التل بشكل ظاهر ليبدو وكأنه لجأ الى القمة بدافع الخوف. ولأجل تثبيت الخدعة في نفوس العدو، تركه ينهب ويسلب دون أن يتعرض له حتى دنا وأصبح على مشارف خنادقه وكاميللوس رابض في مواقعه الحصينة خبير محصن. لا يأتي بأقل حركة، حتى رأى القسم الطلائعي منه يتفرق زمراً في النواحي ينهب ويخرب ويدمر.

أما القسم الذي بقي في المعسكر فقد عكف على الشراب والقصف موصلاً الليل بالنهار ملقياً جانب الحذر. وفي هدأة من الليل قام كاميللوس بتحشيد أخف فرقه سلاحاً وأرسلها في المقدمة لعاقة العدو عن تنظيم صفوفه، ولايقاع الفوضى فيهم بالمشاغلة والهجمات المتكررة عندما يهيمون بالخروج من المعسكر وعند ابتلاج الفجر انحدر بالقسم الأكبر من الجيش وهم ينسق الهجوم - الى الأرض المنبسطة وكان جيشاً جراراً يتوثب أقداماً وشجاعة، لا كما حسبه البرابرة فرقة صغيرة أطاش الرعب صوابها.

وكان أول ما زعزع ثقة الغاليين وأفقدهم الشجاعة هو أن شرف المبادأة بالهجوم كان لأعدائهم خلافاً لما توقعوا وثاني ما أثر فيهم تلك الوحدات الخفيفة السلاح والحركة تفاجئهم بالكرات الشديدة دون أن تتيح لهم فرصة لتنظيم صفوفهم وفق الأحوال الحربي الذي اعتادوه فشاعت الفوضى فيهم، ووصل الضنك بهم حداً أن اضطروا الى القتال بصورة اعتباطية لا نظام فيها، ولما زج كاميللوس بفرقه الثقيلة، اندفع البرابرة اليهم بقوة وسيوفهم مشرعة فراح الرومان يكيلون لهم الطعن برماحهم ويتقون ضربات السيوف على الاجزاء التي يحميها الحديد حماية جيدة. وتثلثت سيوف الغاليين المصنوعة من معدن سيء السقي والثوث وتكسرت في ايديهم وخرقت الأسنة تروسهم وانغرس فيها كثير حتى ثقلت بها، فأضطروا الى ترك أسلحتهم وحاولوا الاستفادة من أسلحة أعدائهم، وراحوا يحاولون انتزاع الرماح من تروسهم. ولما وحدهم الرومان عزلاً لاسلاح في ايديهم، امتشقوا سيوفهم وكانوا يتقنون استخدامها - وأوقعوا مذبحة كبرى في الصفوف الأولى، بوقت قصير. بينما هربت البقية وتفرقت في الأراضي المجاورة. وكان كاميللوس قد أستعد لذلك من قبل باحتلال المرتفعات والتلا. وكان الغاليون يعرفون أن العدو أن يصعب عليه الاستيلاء على معسكرهم لأنهم تركوه دون حراسة وحماية لوثقهم بالنصر، ولذلك لم يلجأوا اليه في فرارهم.

قبل أن هذه المعركة جرت في السنة الثالثة عشرة^(٦٩) بفتح روما. ومنها فصاعداً ارتفعت معنويات الرومان، وازدادوا شجاعة، وتغلبوا على مخاوفهم من البرابرة، الذين عزوا هزيمتهم السابقة الى نفسي الوباء فيهم، وسوء حظوظهم، أكثر مما عزوه الى بسالة الرومان. في الواقع أن هذا المخوف كان شديداً عند الرومان حتى أنهم سنوا قانوناً يقضي باعفاء الكهنة من الخدمة العسكرية، إلا عند غزوات الغاليين.

كان هذا، آخر عمل عسكري انجزه كاميللوس. لأن استسلام مدينة الفيليتراني Velitani طوعاً لم يكن إلا مجرد عملية تابعة. إلا أن أعظم المعارك السياسية وأشقها حلاً ما زالت تنتظر منه تسوية، وكان عليه أن يخوضها ضد الشعب.

عاد الجيش الى أرض الوطن ثملاً بخمرة النصر والنجاح مصراً على تغيير القانون السائد، وانتخاب قنصل واحد من طبقتهم فعارض الشيوخ في ذلك أشد معارضة ولم يسمحوا لكامللوس بالاستقالة من منصب الدكتاتور. نشبوا به متوهمين بأن احتماهم باسمه العظيم وسمعته، يضاعف من قدرتهم على النضال لابقاء نظام الحكم ارستقراطي الشكل.

لكن، بينما كان كاميللوس جالساً على منصة الحكم يصرف شؤون الدولة، إذ صعد اليه ضابط ارسله تربيونات الشعب، وأمره بالنهوض والسير خلفه، ووضع يده عليه كأنما يريد القبض عليه ونقله. فامتلاً الفوروم بضجيج وصخب لم يسمح بمثله من قبل. وحاول بعض من كان حول كاميللوس أن يصدوا الضابط وقذفوا به من فوق المنبر. وراحت الجماهير في الأسفل تهيب بالضابط أن يقتاد كاميللوس وينزله عن مقعده. وأستبدت الحمرة بكامللوس وأسقط في يديه. ولم يدر كيف يخرج من هذا الموقف الصعب. على انه لم ينزل عن سلطانه بل جمع الشيوخ وأخذهم الى المجلس وقبل ان يدخل دعا للأكله أن تلهمهم الحل الصائب وتبلغ بهم الى نتيجة خير وسط هذه المحنة ونذر بقسم مغلظ أن يبني معبداً لـ (كونكوردي Concord) أن أنكشفت الغمة وزالت المحنة. ثم عقدت الجلسة، وأصطدمت آراء المجلس اصطداماً عنيفاً وكثر الجدل، أخيراً نجح أكثر الاقتراحات اعتدالاً، وأحسنه قبولاً عند العامة. وبه تمت الموافقة على تعيين قنصل من العامة الى جانب القنصل الآخر^(٧٠). وعندما أعلن كاميللوس قرار المجلس لعامة الشعب، أستبد به الفرح، وصالح الشيوخ صلحاً صميماً لم يسبق مثيله من قبل. ورافق الجمهور كاميللوس الى منزله بتظاهرة عظيمة، حافلة بضروب التجلة والتعظيم.

(٦٩) بعد ١١ سنة (اي في ٢٥٦ قـم) فرض عليه پوليبوس ليناس غرامة مقدارها عشرة آلاف ستردكه لأنه كان يملك الف ايكر بالاشتراك مع ابنة الذي أخرجه من السلطة بسبب ذلك [ليفيا ١٦:٧].

(٧٠) ليس ثلاثة عشر بل ثلاثة وعشرون عاماً [ليفيا ٤٢:٦].

ومظاهر الغبطة. وأجتمع المواطنون كافة في اليوم التالي وصوتوا بتأييد اقامة معبد (كوبكورد) تحقيقاً لنذر كاميللوس، على أن يشيّد بمواجهة بناية مجلس الشيوخ والفورم. كما صوتوا على اضافة يوم رابع الى أيام العيد الثلاثة المعروفة «بالأعياد اللاتينية». ورسوموا في تلك المناسبة، أن يقدم كل الرومان قرباناً وعلى رؤوسهم أكاليل الغار مصفورة.

في الانتخابات العامة التي أشرف عليها كاميللوس أنتخب [ماركوس اميلبيوس Marcus Aemilius] قنصلاً عن الباترتشين. و[لوشيوس سكسيتوس Lueius Sextius] أوّل قنصل عن العامة. وكان هذا آخر أعمال كاميللوس.

في السنة التالية أنتشر في رومه وباءٌ أهلك عدداً لا يحصى من عامة الناس، وراح ضعيفته معظم الحكّام ومن بينهم [كاميللوس]. وليس يصح القول انه أعتبط، أو مات قبل أوانه باذا فكرنا في عمره الكبيرة أو أعماله الكبيرة، إلا أن الحزن عليه فاق الحزن على كلّ من ماتوا بهذا الوباء مجتمعين^(٧١).

أهم الأحداث في عهده (ق.م)

٣٨٧ معاهدة السلام التي عقدها القائد السبارطي انطالقيداس مع الفرس وبموجبها أصبحت المدن الاغريقية في آسيا الصغرى خاضعة للفرس.

٣٧٧ (خابرياس) زعيم الاثينيين يهزم القائد اللقيدي (بوليسدس) في معركة (نخسوس) البحرية.

٣٧١ الثيبون بقيادة (إپامننداس) يهزمون اللقيديين في لُكترا.

(٧١) بعد أن فرض عامة الشعب ارادتهم بتعيين أحد القنصلين من بينهم وتم احياء المنصب القنصلي والتخلص من منصب التربيصون العسكري نهائياً. إلا أن طبقة الباتريشي لم تتنازل عن هذا الامتياز إلا بعد استحداثها وطيفة جديدة هي منصب البريتور الذي نص على أن يكون من الباتريشي دائماً. والقناصل هم جنرالات في الجيوش الرومانية وهم في الوقت عينه قضاة مدنيون. لكن لما كانوا في ميادين القتال في أغلب الأحيان فقد روعي من الانسب أن تسحب منهم الواجبات المدنية وتناط بقضاة يطلق عليهم اسم «بريتور» يلون القناصل في درجة الوظائف العامة. وأول بريتور نصب في روما كان ابن (كاميللوس). وبالنسبة فقد استحدث في عين الوقت منصب الكورول ايديل (لوفي ١٧) الذي سيأتي الكلام عنه. وفي حدود العام ٢٥١ ق.م. استحدث منصب بريتور ثانٍ وانيط به حل النزاعات والخلافات التي تنشأ بين الاجانب غير الرومانيين. وعند الاستيلاء على صقلية وسردينيا أضيف اثنان اخران، وأضيف عدد آخر عند فتح اسبانيا.



مارس

پیریکلس

PERICLES

495 – 425

إتفق أن القيصر(*) شاهد بعض اغنيااء الأجانب في (رومه) يحملون الجراء والقردة الصغيرة، يهددونها ويحتضنونها ويدللونها ويضمونها الى صدورهم بإعزاز وحب، وكان من الطبيعى أن ينتهز الفرصة ليسأل: هل تعودت النساء في بلادهن أن لا يحملن أطفالاً؟ إن هذا النقد الملكي الوجيه أخرى كثيراً بالناس الذين يغدقون على الحيوانات والبهائم ذلك الحب والعطف اللذين، ما زرعتهما الطبيعة في أنفسنا إلا لنخص به بني جنسنا من البشر، وللعلة نفسها يحق لنا العتب على أولئك الذين يسيئون استخدام حب الاستطلاع، والاستفسار ويصرفونه في أمور لا تستأهل من اسماعهم وأبصارهم اهتماماً، في حين تراهم لا يبالون بما هو حسن بذاته، ولا يكثرثون بما يصلح ويستقيم لهم.

إن مجرد الحسن الظاهر، لما كان جامداً عاجزاً عن الاستجابة لتعبيرات الأشياء التي تقع في طريقه أو تعترضه، فقد لا يقوى على ملاحظة أو اقتبال كل ما يعن له أباً كان، مفيداً أو ضاراً. لكن الأمر يختلف عندما يستخدم المرء قواه العقلية. ففي كل انسان قوة طبيعية لتكييف نفسه لكل مناسبة عندما يشاء وان لديه مقدرة على تغيير نفسه وتحويلها بأسهل ما يمكن الى ما يجده حسناً له. لذلك كانت مهمة الإنسان أن يتتبع خير الأشياء وأن يستخلص أصلحها، وبذلك لا يكون عمله قاصراً على تشغييل وتنمية قوى إدراكه، بل الانتفاع بتلك القوى أيضاً. وكما يكون لون من الألوان أبهى للعين من غيره، وكما تكون لطافته ورونقه باعشاً على تقوية النظر وزيادة حدته، كذلك ينبغي للانسان أن يستخدم بشعوره من البهجة قوى ذهنه في الأمور الكفيلة بصقله وتنشيطه، لمنفعته الخاصة، ومصلحته .

تلك الأمور المحفزة للذهن نجدوها في أعمال الفضية، لأنها تخلق في عقول قرائها العاديين دوافع وحوافز قد تؤدي بهم الى محاكاتها، في حين أن الأعجاب بما سواها لا يستتبع حتماً نشوء رغبة قوية في النفس الى محاكاتها. بالعكس، والى مرة بالعكس، فنحن عندما نعجب بصناعة، لاكثرث أو نهتم كثيراً بالصانع أو الفنان، كحالة أعجابنا بالعمود أو الأصباغ

(*) القيصود أغسطس قيصر.

الحمرء، أما نغيل الى هذه الاشياء، كأشياء، فحسب ولا نفكر بالعطارين والصباغين الذين صنعوها، أكثر من كونهم أناساً عاديين من عامتهم ودهماتهم.

لم يركب [انتستينيس Antisthenes] ^(١) متن الشطط لما قال ردّاً على ما سمع أن المدعو [ايسمينياس Ismenias، خير نافخ بالناي]، فقال: «قد يكون كذلك، إلا أنه مخلوق بشريّ بانس لا غير، وإلا ما كان نافخ ناي ممتازاً» وقال الملك [فليبس] لابنه الأسكندر شيئاً في الموضوع نفسه. فقد عزف هذا الابن مقطوعة موسيقية عزفاً مبدعاً عجباً في مجلس لهو وطرب. فعقب أبوه على ذلك بقوله: «الا يدركك الحجل يا بني، لعزفك عزفاً ممتازاً؟» ^(٢) والقصد من هذا أنه يكفي الملك أو الأمير أن يجد لنفسه فراغاً من الوقت أحياناً، لينصت الى موسيقى الآخرين، وأنه ليرفع من قدر الفن كثيراً عندما يجد في نفسه رغبة في حضور مجلس يمارس فيه آخرون هذه الأمور الفنيّة الرفيعة.

ومن يشغل نفسه في مهنة وضيعة، ينهض شاهداً ضد نفسه على إهماله وعجزه عن الاتيان بالأعمال الصالحة المفيدة، في تلك المعاناة التي يتكيدها أثناء انجازه الأمور القليلة الفائدة، أو التي لا فائدة فيها. ولئن وجد أي شاب نابغ أربب أي رغبة في أن يكون [فيدياس Phidias] عندما يشخص بنظره الى تمثال جويتر في [بيزا Pisa] ^(*) أو يتمنى أن يكون [بولقليطوس Polycleus] عند مشاهدته تمثال [جونو] في [ارغوس] ولا أن تتأثر نفسه بأشعار [اناكريون Anacreon] أو فيليطاس Philetas أو ارخيلوخس الى الحد الذي يشاق أن يكون أحدهم. اذا حازت أعجابنا قطعة دقيقة الصنع أو أي اثر فنيّ لجمالهما ورعتهما فليس ضرورياً أن يستحق صاحبها أعجابنا أيضاً ومن حيث ان هذه الأشياء لا تنفيد ناظرها ولا تجديهم نفعاً في الحقيقة، فإن الناظر اليها لا يشعر بأيّ شوق لمحاكاتها، كما أنه لا يجد أي حافز يدفع رغبة فيه أو يحرك جهداً منه لصنع شبيه لها.

أما الفضيلة فتأثيرها أني عميق يبعث الرغبة الى محاكاة صانعها عادةً، ونحن نتملك ثمار الحظ ونتمتع بها، أما ثمار الفضيلة فنهنو الى ممارستها ومزاوتها. نحن نُسَرُّ بأن نأخذ الثمار الأولى من الآخرين، لكننا نتمنى أن يأخذ الآخرون مِنّا الثمار الثانية. إن الثروة الأخلاقية حافز واقعيّ عمليّ، ما أن يقع عليها النظر حتى توجي الى نفس الناظر بدوافع

(١) تلميذ سقراط ومؤسس المذهب الفلسفي المعروف بالفلسفة الكليّة نبع في حدود (٢٦٥-٤٤٤ ق م) وهو معلم ديوكينيس.

(٢) وقع (فيليب) نفسه في خطأ شبيه بهذا الذي عتّف ابنه بسببه فمرة اختلف مع احد الموسيقيين حول مبادئ الموسيقى. فصاح مخاطبه قائلاً: «السموات لا تسمح لك بأن تعرف عن هذا الموضوع أكثر مني».

(*) أعني أولبيا.

لمحاكاتها واحتذائها. وليس تأثيرها على العقل والخلق مجرد اندفاع للتقليد. بل هو تأثير عميق تفصيلي خلاق للغرض الخلقى الذي ننتويه.

لهذا وحدنا من الملام أن نصرف الوقت ونبذل الجهد في تدوين سير مشاهير الرجال. وألفنا هذا الكتاب العاشر في سيرتي بيركليس وفابايوس وماكسيموس الذي ادار دفعة الحرب ضد [هيبال]، والرجلان متشابهان في أخلاقهما الأخرى ونواحيهما الحسنة، وهما كذلك سواء في مزاجهما الرقيق ولين عريكتهما واستقامتهما وسلوكهما العام. صنوان في مقدرتها على تحمل الأمزجة المتناقضة الجامحة لبني قومهما وزملاتهما في الحكم. ولذلك افادنا بلديهما كثيراً وأصلحا من أمور وطنيهما. وسواء ألتخذا السبيل القويمة الى الغرض المشروع أنفاً أم لم يتخذا، فهذا ما سنترك الحكم فيه للقاري. مستهدياً بما سيجده هنا.

كان بيركليس من قبيلة [أكامنتس Acamantis] ومن مواطني مدينة [خولارغوس Cho-largos] ونسبه أعرق الأنساب سواء من جهة أبيه أو أمه. [فكرانتيبوس Xanthippus] أبوه، هو الذي هزم قادة ملك فارس في معركة [ميكاله Mycale]، تزوج [أغارستي Aga-riste] (٣) حفيده [كلستينيس Clisthenes] الذي قام بمأثرة طرد أبناء [بستراتوس] ووضع حداً نهائياً لطغيانهم وأغتصابهم الحكم، فضلاً عن سنه مجموعة من الشرائع، وإقامته نموذجاً صالحاً للحكم يتفق تمام اتفاق وسلامة الشعب واستقراره.

في آخر أيام حمل أمه به، رأت في الحلم أنها ضاجعت أسداً. وبعد أيام وضعت بيركليس، وكان كامل التكوين إلا رأسه فهو مستطيل بعض الاستطالة غير متناسق، ولذلك لا تجد صورة له أو تمثالاً إلا والرأس مستورٌ بخوذة. ويظهر أن الصنّاع والمثالين ما كانوا يرغبون في إبراز ذلك العيب الجسماني.

ولقبه شعراء أثينا [سرخينوسيفالوس Scinocephalus] أو «رأس العُصْل» مأخوذاً من كلمة [سرخينوس Schinos] وهي تستعمل أحياناً لتسمية نبات العُصْلان أو بصلة البحر.

(٣) نجد عند هيرودوتس (١.٦.١٣١) النسب الكامل لبيركليس. كان «كلستينيس» ملك [سيكيون] ابنة واحدة تدعى [أغارستي] تزوجها [ميخاكليس] ابن [الكيمون] فكانت ثمرة الزواج ابناً هما [كلستينيس] و[أبيوقراطس]. وولد للثاني منها ابن دعي [ميخاكليس] وابنة سماها [أغارستي] وهي والدة بيركليس. ولذلك فهي ليست حفيده بل بنت أخيه.

إن معركة [ميكالي] في ايونيا، وقعت في اليوم نفسه وبين النتيجة العظيمة التي آلت إليها معركة [بلايتي] في ٤٧٩ ق.م. اد ترك الفرس في ميدان القتال اربعين ألف قتيل، وهلك عدد أكبر من هذا أثناء المطاردة. ولم يكتب النجاة للبقية إلا بالتقهقر المشين والاحتماء بأسوار ساردين. وكانت خسارة الاغريق تزيد عن اية خسارة حلت بهم في اية معركة أخرى خلال تلك الحروب كلها.

ويورد لنا أحد الشعراء الساخرين. المدعو [قراطينوس Cratinus] ^(٤) في «الحوليات الخيرونات Cheirons» بأن:

«الزمان القديم» تزوج مَرَج، بالملكة «قمرّد» فكانت نتيجة الزواج، ذاك القدر الطاغية المدعو بيركليس في الأرض جامع الرؤوس Head Compeller! في السماء.

وفي «آله الانتقام Nemesis» بوجه الكلام اليه قائلاً:

يقال يا ربّ - يا أنت «رأس» الآلهة المبارك الأعلى القوى ^(٥) أخا الجود والكرم! ويصفه [تيلقيدس Teleclides] الشاعر الآخر: وهو جالس في الاكروبوليس وقد ارهقته المتاعب السياسية:

بنو، تحت عبء رأسه. وهو الآن من خارج مقصورة رأسه ذات الأحد عشر متكاً مسبباً المتاعب والضجة العظمى.

وفي مسرحية هزلية لشاعر ثالث هو [ايبوليس Eupolis] اسمها «النصف Denes» يسأل عن ابنه، كل خطيب ديماغوجي من الديماغوجيين الذين جعلهم في مسرحية (قادمين من جهنم) (إيداس)، عندما خرج بيركليس في الأخير تراه يهتف:

هل صعد الى فوق، رأس القبائل التي تدور في تلك العوالم الواسعة؟

واتفق معظم الكتاب أن الاستاذ الذي لقنه الموسيقى هو [دامون Damon] (يقولون أن المقطع الأول من اسمه يلفظ قصيراً)، على أن [أرسطو] يخبرنا أن [بيتوقليدس Pythoelides] هو الذي جعله يتقن هذه الفنون ويحذقها، وليس ببعيد أن يكون [دامون] هذا من السفسطائيين، أحتال باحتراف الموسيقى على حماية نفسه كي يخفى عن الناس عامة نبوغه في المسائل الأخرى وتحت ستار هذا الزعم لازم الرياضي الشاب بيركليس في شؤون السياسة، أو بكلمة أخرى باعتباره مدرساً في التمارين الرياضية، وعلى أية حال لم تكن «قيشارة»

(٤) قراطينوس هو كاتب هزليات قديمة. كتب آخر مقطوعة له وهو في السابعة والتسعين من العمر. واقبوليس الذي كان اسبق منهم عند عبوره المضائق وقع «ضحية خياله الشعري الساخر».

(٥) كان بيركليس يلقب بـ(اوليمپوس) أو (جوبيتر) كما نوه بـ(توتارخ) بذلك فيما بعد. والشاعر هنا يوجه اليه القول بهذه الصفة ويشير اليه بكلمة «المباركة» أو «ذي الرأس الأكبر». وليس في العربية كلمة كهذه ذات معنى مزدوج ولفظ واحد. وفي الابيات الأولى لقب بـ(كيفالكيترس) أو جامع الرؤوس (كان رأس بيركليس لفرط ضخامته، يبدو وكأنه مجموعة رؤوس) بدلاً من نيقاليكيترس أو جامع الغيوم. وهي صفة من صفات (جوبيتر) المعروفة.

دامون ناجحة كل النجاح لستر نفسه اذ نفي عن البلاد دون محاكمة، لمدة عشر سنوات متهاً بتدخله لمصلحة السلطة المستبدة، وبهذا اتاح للمرسح فرصة التندر عليه، فمثلاً يجد افلاطون الشاعر يخترع شخصية مسرحية ويسألها:

«ادن قل لي أولاً من فضلك يا دامون، أنت الخيرون الذي زود بيركليس بصنعتة»^(٦) وتتلذذ بيركليس أيضاً على زينو [الأليائي Elea]^(٧) الذي عالج فلسفة الطبيعة بعين الطريقة التي عالجها [پاراميندس] إلا أنه أبلغ الذروة في فن لا ينازعه فيه أحد، وهو وحض حجج خصومه في الجدل واسكاتهم؛ ودونك وصف [تيمون الفيلوسي] له:

«كذلك كان لسان زينو الجبار؛ لسان ذو حدين يستطيع أن يبرهن على خطأ أي قولٍ مهما كان»

إلا أن [أناكساغوراس] الكلأزوميني Clazomenae كان الأكثر لصوقاً ببيركليس، وهو الذي أفاده أكثر من غيرهم، لاسيما بتوسيع مداركه والارتفاع بوعيه على كل المفاهيم الشعبية الاعتيادية، وفتح عينيه على سمو المقاصد ورفعة الأخلاق. كان رجال العهد قد لقبوا هذا الفيلسوف بـ[نوس] (Nous) أي العقل، أو النبرغ، إما بدافع أعجابهم بمواهبه العظيمة الفائقة التي برزت في علوم الطبيعة. وإما لأنه أوك الفلاسفة الذين عزوا المسبب الأول للوجود، لا إلى المصادفة وحكم الظروف ولا إلى الضرورة والوجوب، بل إلى ادراك محض نقى خالص يعمل في الأشياء الأخرى المركبة والمختلطة، كعنصر فصل أو عنصر اتحاد بين النظر والنظير.

وكان احترام [بيركليس] لهذا الفيلسوف وأعجابه به لا حدّ لهما ولا غرو فقد أثر في نفسه وملاها بالادراك المتسامي أو كما يوصف بالادراك الضارب في كبد الفضاء، ولم يكن معين هذا الادراك قاصراً على سمو الغاية، وسلامة القول البعيد جداً عن تهريج البلاغة الغوغائية، المضلّة الوضيعة، بل أوجد فيه إلى جانب ذلك رباطة جأش وهدوء ووقاراً في حركاته وسكناته، حتى لم يعد يقوي حادث طاريء على حديث استرسل فيه. وكانت نبرات صوته قوية هادئة مطردة، إلى غير ذلك من الميزات التي تخلف أعظم التأثير في سامعيه.

(٦) وكلمة (خيرون) هنا ذات معنيين فهي إما تفهم في العبارة هكذا: "أأنت معلم بيركليس؟ أو تفهم - "أأنت أكثر شراً من بيركليس؟"

(٧) (إيليا) بلدة إيطالية ومستوطنة للفوكيين. وعليها أن لا تخط هنا بين زينو هذا وبين زينو الاليائي موجد الفلسفة الرواقية. فالمقصود هنا هو رجل نال احترام بلاده لمحاولته انقاذها من يد أحد الطغاة، فقبض عليه الطاغية وأمر أن يوضع تحت منقّة الجص وينقّ حتى يموت إلا أن ميته حقت ما لم تحققه حياته فقد عصفت الغضب بمواطنيه لهذه الجناية ووثبوا على الطاغية مرتكبها ورجموه حتى الموت.

ومرة أبتلي بشخص وضع متهتك ظل يشتمه ويهينه على مسمع منه طوال اليوم وهو مشغل في ساحة السوق بتصريف أمر عاجل، فلم يأبه به وأستمر في عمله بصمت تام، ثم قفل الى منزله عند حلول المساء وهو في تمام هدوئه والرجل يجري في أعقابهِ يلاحقه بالشتائم وبرشقه ببذئ القول طول الطريق. ودخل بيركليس بيته وقد جن الليل، فأمر أحد خدمه أن يحمل مصاحاً ويرافق الرجل حتى منزله.

الحق يقال، ان الشاعر الدرامي [ايون Ion] يذكر أن سلوك [بيركليس] مع مجالسيه كان متسماً بالخيلاء والتعاطف، وغلطسته هذه كان يتخللها قدر كبير من الاستخفاف والازدراء بالآخرين، ويتحفظ في إطاره بساطة [كيمن] ومرونته وكياسته الطبيعية في سلوكه مع الناس. وعلى كل حال، فأيون هذا يرمي الى أن يعامل الأخلاق معاملة طبيعية في سلوكه مع الناس، فبحشر فيها بعض المواقف الهزلية، مما لا يمكن الركون الى أي منها^(٨). واعتاد [زينو] أن طلب ممن يسمون رزاة [بيركليس] بتظاهر المشعبذ أن يروحوا ويتصنعوا تلك الرزاة الى أن يزرع فيهم هذا التقليد حباً حقيقياً لهذا الخلق النبيل وأدراكاً له.

ولم يكن هذا، كل ما جناه بيركليس من مخالطته لاناكساغوراس إذ تدل الدلائل أنه صار وفقاً لتوجيهاته ينفر من تلك الحرافات التي يتطلع اليها الجاهل مشدوهاً خاشعاً وهي تبدو في السماء مثلاً... تلك الأوهام التي تستولي على عقول من لا يدري اسبابها، فيذهلون للظواهر الحارقة للطبيعة ويكون مرمي الاستشارة لقلة التجربة التي تنحي ادراك العلل الطبيعية جانباً، وتضع الأوهام الطائشة المحدودة الأفق، موضع الأمل الخير، وأطمئنان التقى المنبعث من الفهم والادراك.

وتحضرني حكاية عن بيركليس: أحضر له من مزرعته الريفية يوماً، كبش ذو قرن واحد، فلما وقع نظر العراف [لامبون Lampon] على القرن بارزاً من وسط جبهة الرأس صلباً قوياً، نطق بتفسيره قائلاً: لما كان يوجد في تلك الفترة رأيان أو مصلحتان أو حزبان قويان في

(٨) التمثيلية التراجيدية كانت بالاول عبارة عن جوق من المنشدين لتكريم باخوس. وكان الممثلون يرتدون ازياء تنكريه كالمسوح وكثيراً ما كانوا اثناء التلاوة واللقاء يتبادلون عبارة المزاح بدون حدود. بعدها اتجهت الجوقة الى الجدية والوقار فبدت تراجيكية مبدية اي مزيج من المساة والهزل ويمرود الوقت بدأ التراجيديون يعالجون مواضيع جدية وبدأ الممثلون شخصيات وقورة مؤدية وتم التخلص من المزيج المتناقض في التمثيلية واصبحت تراجيكية تامة الا ان الممارسة العملية حتى في الزمن الذي نحن بصدده كانت تقتضي عرض ثلاث مقطوعات تراجيدية جدية. وبعدها اعتاد الشعراء ان يختتموا مسابقتهم على الجائزة بقطعة ساخرة. ويوجد من هذا النوع تمثيلية جيدة هي «السيكوليا» ل[يوريديس]. وأيون هو مرسحي تراجيدي من مدينة (خيوس) ومن بعض اصول آثاره جانتنا مقطوعات قليلة من مرثياته.

المدينة، أحدهما يترجمه [ثوكيديوس]^(٩)، والثاني يرأسه [بيركليس] فإن الحكم سيؤول الى من خرجت إشارة الأقدار هذه من أرضه! فلم يكن من اناكساغوراس إلا أن فلق جمجمة الكيش نصفين، وعرض للحاضرين أن الدماغ لم يتخذ موضعه الطبيعي، ولأنه مستطيل كالبيضة فقد التّم من كل تجاويف القحف الذي يستوعبه وأجتمع في نقطة الموضع الذي نشأ منه جذر القرن البارز. في حينه أثار اناكساغوراس أعجاب الحاضرين بشروحه وتعاليله، إلا أن الأعجاب [بلاسيون] فيما بعد لم يكن بأقل منه، عندما هزم [ثوكيديوس] وقبض بيركليس على زمام الحكومة والدولة.

ولست أجد أي غرابة في القول بأن كلاهما كان مصيباً، فيلسوف الطبيعة ذاك، والعراف هذا فاولهما كشف عن سبب تلك الظاهرة كشفاً صحيحاً وأظهر للملأ علتها. أما الثاني فقد أبان الغرض من وجودها. وكانت مهمة أولهما الوصول الى أصل تكوينها وتفسيره، أي ايضاح السبب في غور القرن بهذه الهيئة الشاذة. في حين قصرت مهمة ثانيهما على التنبؤ بالغاية التي استهدفها غوره وعلام تدك، وأي خبر يستبطن؟

لقد خفي عن القائلين بأن البحث عن مسببات الخوارق يؤدي الى ضياع وتلف ما تنبيء به وتدل عليه انهم يضيعون مع تلك الخوارق السماوية كل البراهين والدلائل المثبتة للمكونات الانسانية، والتناسق البشري. ومثل هذه، كمثل اصطفاك حلقات الرمي النحاسية بعضها^(١٠) ببعض، وكتعارض انوار النيران المرشدة ليلاً، وكتصادم ظلال المزولات الشمسية؛ فلكل من هذه سببٌ ووسيلة ولكل سبب دليل الى آخر... إلا أن هذا البحث قد يلام موضعاً آخر غير هذا الموضوع ولنكتف بما عرضنا منه.

كان بيركليس في شبابه يتردد من مواجهة الجمهور الى أقصى حد، إذ كان يُعتقد بأنه يشبه [پسستراتوس] الطاغية شهاباً شديداً بلامحه وتركيبه البدني، وكبار السن المعمرّون الذين أدركوا الطاغية، فيذهلون للشبه العجيب بين صوتيها عندما ينصتون لعذوبة نبرات [بيركليس] وسرعة كلامه وذلاقة لسانه.

واطال [بيركليس] التأمل في حالة، فكر في ثرائه العريض ونبل محتده، وكثرة اصدقائه المتنفذين، ورأى أن هذا قد يؤدي به الى أعتباره من الاشخاص الخطرين على النظام فيحكم

(٩) سياسي معاصر لـ(بيروكلس) وواحد من مناوئيه. وابوه هو [اورولوس] في حين ان اسم والد المزح الشهير هو (ميلسياس).

(١٠) ان ضرب الأحلاق أو الصناعات النحاسية بعضها ببعض هي إشارة عسكرية عند الاغريق أحياناً. في حين انها عند الرومان إشارة يدعو بها المصارعون للفرار (شيشرون: الخطابة ٢) كما تستخدم الحلقات في المحاكم لدعوة المتقاضين.

عليه بالنفي فحوقاً من هذا عمد الى الابتعاد عن شؤون الدولة ولم يتدخل في شيء. لكنه برهن على شجاعة وبسالة في خدمته العسكرية. وموت [ارستيدس] وطرد [تمستوكليس]. واشغال [سيمون] بالحملات العسكرية التي قادها الى أجزاء من بلاد الأغرقي وقضائه معظم أوقاته خارجاً، تقدم [بيركليس] بعد طول تفكير ليأخذ مكانه، لا الى جانب الأغنياء والأقلية، بل الى جانب المعدمين والأكثرية، خلافاً لميله الطبيعي البعيد جداً عن الديمقراطية، وأغلب الاحتمالات انه خشي أن يشك في أنه بطمح الى السلطة المستبدة، كذلك لأن [كيمن] كان يؤيد الحزب الأرستقراطي، والمبرزون ورجال الطبقة العليا متعلقون به بشدة الحب له، فلم ير بدأ من الانتماء الى حزب العامة يحدوه في الوقت نفسه غرسان: أن يحصن نفسه من أي سوء، وأن يضع يده على الوسائل الفعالة لتناجزة خصمه [سيمون].

ما أن أستقر رأيه على هذا حتى أتخذ أسلوباً جديداً في حياته، وبذلك من عاداته، وأعاد تنظيم أوقاته. فلم ير بعدها سائراً في شارع غير الشارع المؤدي الى ساحة السوق وقاعة مجلس الشورى، وأجنب دعوات الخلان الى ولائم العشاء، وانقطع عن زيارة الاصدقاء، وأنهى كل علاقة له من هذا القبيل وتفرغ للجمهور تفرغاً تاماً ولم يكن هذا كله بالجهد القليل. ولم يسمع عنه بعدها انه قصد صاحباً له لتناول العشاء إلا مرة واحدة، عندما تزوج قريبه [يوربطليموس Euryptolemus] إذ بقي في الحفل حتى تمام مراسيم تقديمه الحضر، وبعدها أسرع بالنهوض وترك المائدة عائداً الى بيته^(١١).

كان يدرك إن هذه اللقاءات الودية من شأنها ان تزيل الكلفة وتمحو عامل التفوق بسرعة شديدة. وفي العلاقات الصعبة الوثيقة يصعب جداً الاحتفاظ بمظاهر الوقار والزانة، ويزداد التصرف على التمايز الحقيقي عندما يكشف صاحبه عنه كشفاً جلياً، وفي أخبار الرجال الحقيقيين لا شيء منهم يستأهل أعجاب مراقبي السلوك الظاهري، مثل حياة أقرب اصدقائهم الاعتيادية اليومية.

وعلى كل، ولأجل أن يجنب [بيركليس] أي شعور بالابتذال، أو تكون اشباع في الجمهور من رؤيته، لم يكن يظهر في المجتمع كثيراً، ولا يتكلم في كل شأن، ولا يحضر جلسات الجمعية العامة دائماً. بل كان على حد قول [قريطولوس Critolaus] يدخر نفسه للمناسبات الكبرى، مثل سفينة سلاميس^(١٢)، ويصرف الأمور الثانوية عن طريق اصدقائه، أو يدفع

(١١) أعني حتى جيء بالخمر لمجلس الطرب والشرب. ويُدعى بتعاطي الراح.

(١٢) الى جانب تلك المهام الكبرى الخاصة التي تستخدم لها سفينة (سلاميس) فهي ترسل لنقل الجنرال الذي يريد الاثينيون منه تقديم حساب. وأما كريتولوس المشاء فقد كان موقفاً من قبل مجلس شيوخ روما في ١٥٥ ق.م مع ديوغينيس الرواقي، وكارينادس الاكاديمي.

متكلمين آخرين بتوجيه منه، ومن هؤلاء، الأنصار [أفيالطس Ephialtes] الذي قضى على سلطة المجلس الأريوباغي، وسقا الشعب جرعة من الحرية كبيرة وقوية جداً - على حدّ تعبير افلاطون^(١٣)، بحيث أصبح صعب القياد، متمرداً على كل نظام، أو على حد قول الشعراء، الساخرين - كالحصان الجموح -...

«الذي لم يعد فيه الصبر على

اطاعة اللجام تراه بعض في أيوفيا، يطأ الجزر»

وأخذ أسلوب حديثه المتسق تمام اتساق مع السبيل الذي سلكه في الحياة ورزانة آرائه. عن نغمات تلك الآلة التي منحها له اناكساغوراس. وأما بخصوص تثقيف نفسه فقد أستمّر في الإفادة وتقوية ألوان بلاغته الخطابية من صبغة علم الطبيعة، ففضلاً عن نبوغه العظيم بالسليقة، توصل كما قال أفلاطون الألهي^(١٤) إلى الإفادة من الطبيعيات؛ فبلغ تفوقه العقلي هذا وقدرته الواسعة في استيعاب كل العلوم ثم أخذه بكل ما هو مفيد له من فن الكلام ما جعله يرتفع على الأقران بمسافة شاسعة. وقيل أنه ما لُقّب بالاولي إلا لهذا السبب. إلا أن بعضهم يقول أن اللقب جاءه بسبب تزيينه المدينة بكثير من المباني العامة. ويرى آخرون أنه سُمّي بذلك لما أظهره من كفاءة في تصريف شؤون الدولة، سواء في السلم أو في الحرب. ولا يستبعد أن تكون التسمية نتيجة اجتماع عدة مآثر وخصال في شخصه. ومهما يكن، ففي الكوميديات التي ألّفت آنذاك، كلمات متطابقة تعرض به تعرضاً حاداً إما بقصد قدحه والنيل منه واما على سبيل الفكاهة والنكتة المحضة. ومنها يظهر أن تسميته هذه جاءت من أسلوب كلامه، فهي تنوّه «برعوده وبروقه» عندما يقف خطيباً في الجماهير، وتشير إلى «الصواعق المرعبة التي تنفجر من لسانه»^(١٥).

يتناقل الكتاب حديثاً لثوكيديدس ابن ملسياس عن بيركليس قاله على سبيل التندر في براعة لسانه. وكان ثوكيديدس أحد المواطنين السراة البارزين، ومن أشدّ خصوم بيركليس، وعندما سأله [ارخيداموس] ملك اللقيديميين أيهما أظهر في المصارعة؟ هو أم بيركليس؟ أجابه قائلاً: «عندما أرفعه وأطرحه على الأرض بمسكة تتفق مع الأصول، يغلبني باصراره على أنه لم يسقط، ويحصل المتفرجين على تصديقه وتكذيب أعينهم». والواقع هو أن بيركليس كان شديد الحذر فيما يتكلم وكيف يتكلم. وبلغ به الأمر أنه كان يبتهل للآلهة كلما

(١٣) افلاطون [الجمهورية ٨].

(١٤) فيدروس افلاطون.

(١٥) ارسطوفانس. الأخارناتيس.

صعد مبراً^(١٦) بالآ تدع لسانه يرك بكلمة واحدة غير مناسبة للمقام ولا للموضوع

ولم يترك أثراً مخطوطاً عند موته، إلا بعض المراسيم والبيانات ولم يسجل التاريخ من أقواله إلا النزر اليسير. كقوله مثلاً «يجب أن ترفع [إيجينا] من [بيريوس] كما يزال القذى من العين.» وقوله: إنه رأى الحرب وهي تزحف في طريقها نحوهم من الهيلبونيوس. ومرة عندما كان (سوفوكليس Sophocles) مندوباً مفوضاً يزامله في القيادة وكان يصعد معه ظهر سفينة، أخذ يطري جمال فتى التقيا به وهما في طريقهما إلى السفينة فقال له بيركليس: «ياسوفوكليس! لا يكفي أن تكون يدا الجنرال نظيفتين، بل عيناه أيضاً.»

ويحدثنا [ستيسمبروتوس] أنه قال في أثناء تأبينه أولئك الذين سقطوا صرعى المعركة في [ساموس] (*):

أنهم كالألثة أصبحوا من الخالدين «فنحن لانرى الألثة بالعين المجردة، بل نعزو إليها الخلود بالعبادة التي نقدمها لها وبالنعم التي تسبغها علينا، وهو الوصف نفسه ينطبق أيضاً على أولئك الذين يموتون في سبيل وطنهم.»

كان ثوكيديدس^(١٧) يصف حكم بيركليس بالحكم الأرستقراطي المتستر باسم الديمقراطية، وهو في الواقع سيادة فرد أوحده عظيم، المقام ويقول كثيرون بعكس ذلك، ويذكرون أن عموم الشعب شجع بفضل وأقدم لأول مرة على الاستيلاء على أراضي الآخرين الممنوحة إقطاعاً لهم وعلى غيرها من الشرور، كإباحة ارتيادهم الملاعب والمسارح، ودفع مخصصات لهم عند أداء واجب عام فبهذه التدابير السيئة وتأثير من سياسة العامة انقلب الشعب من ذلك الجدي الحريص الدؤوب عن كسب رزقه من كدحه، إلى شعب محب للترف واللهو والخلاعة. وبين هذين الرأيين في حكم بيركليس لا مناص لنا من جلاء السبب في هذا التغيير على ضوء الحقائق المادية (**).

بالأول: قالوا أنه استمال قلوب الشعب لما قرّر منازلة كسيمون ومزاحمته على سلطانه الكبير. إذ وجد نفسه أقل ثراء ومالاً من خصمه الذي أفاد من سعة ثروته برعاية الفقراء والمحبب عليهم، فكان يدعو إلى مائدة عشائه ليلاً، مواطناً أو اثنين من المحتاجين، وكان

(١٦) يقول كوينتيليان انه يدعو بأن لا تخرج كلمة واحدة غير حسنة لأذان المستمعين. وقد أقرب إلى منطق لأن [سويداس] يذكر أن بيركليس كان يكتب خطبه قبل القائها على الجمهور. وهو أول من عمد إلى ذلك من الخطباء

(*) ٤٤٠-٤٣٩ ق.م.

(١٧) المرجع السالف ٦٥٢. ٩ في تقريره لبيركليس.

(**) دستور أثينا ٢٧ : ٤.

يكسو العجزة ثياباً، ويهدم جدران بساطيته واسيجتها، ليجني الثمار منها كل من يريد وبقدر ما يشاء، ويهدا حقن الغلبة على بيركليس بهذه الأساليب الجذابة لقوى الشعب. لكن بيركليس أخذ بنصيحة شخص يُدعى [ديمونيدس Demonides] ^(١٨) الأوياني على ما ذكر [ارسطو]، فعمد الى توزيع النقود العامة؛ مشترياً الجماهير بوقت قصير. فقد خصص المال للملاعب ومرض أجوراً لخدمات القضاء ^(١٩)، وغير ذلك من أشكال المنح والهبات. أستخدمها سلاحاً ضد المجلس الاريوباغي للحد من سلطانه. ولم يكن هو عضواً فيه، إذ لم يجر تعيينه بالاقتراع في منصب يؤهله للعضوية، كأرخون بسيط، أو أرخون بوليمارخ فمنذ قديم الزمان وأرخون Thesmothetes أو أرخون Basileus أو أرخون بوليمارخ هي من الوظائف الانتخابية. ومن تنتهي وظيفته فيها يغدو عضواً من المجلس الاريوباغي. فبعد أن ثبت بيركليس قدمه وأمن جانب جماهير الشعب وجه مجهودات حربه ضد هذا المجلس وحقن نجاحاً باهراً، بأن سحب منه حق النظر في معظم الدعاوى والنزاعات القضائية التي كان من صلاحيته اجراء المرافعات فيها، وتم ذلك بمسعى [افياتس] ومجهوداته. وعمل على إبعاد [كيمن] أيضاً باعتباره موالياً للقيديمونيين، وعدواً للشعب ^(٢٠). وكان المواطن الأول من حيث النسب والمال، وفاز بانتصارات باهرة على البرابرة، وملأ المدينة بالأموال وغنائم الحرب؛ على ما دون في تاريخ حياته.

حقاً كان نفوذ بيركليس عند الشعب عظيماً هائلاً.

لقد حدد القانون مدة النفي بعشر سنين. لكن [كيمن] عاد من منفاه قبل انتهاء المدة ^(*) - والسبب في ذلك ان اللقيديمونيين دخلوا حدود [تتاغرا] ^(٢١) بجيش لجب فنهضت اثينا لحربهم، فأنضم كيمن الى معسكر قومه وتقلد سلاحه وانتظم في صفوف قبيلته، يريد بذلك ازالة الشك في موالاته للقيديمونيين. مقدماً برهاناً في المغامرة بحياته الى جانب بني قومه.

^(١٨) هي مقاطعة في اثينا. أو ربما قصد بها احدى الجزر المسماة سپورادس Sporades في بحر ايجه. اشتهرت بوجود قبر هوميروس فيها.

^(١٩) هناك انواع عديدة من المحاكم في اثينا. وتؤلف من عدد معين من المواطنين ويصرف لكل مواطن (أوبول) واحد من الخراطة عن كل قضية ينظر فيها. ويحاول بعض الاشخاص ان يكسبوا شعبية وشهرة محاولون المطالبة برفع هذا الاجر.

^(٢٠) الحياة العظمى التي سببت اليه هي انه قيل هدايا ورشاوى أخرى في المقدونيين مما جعلته يتحلى عن الاستمرار في فتوحاته بعد أن وضع يده على مناجم الذهب في (تراقيا) وكان حوار (كيمن) انه وسع رقعة الحرب الى أقصى حد ممكن ضد التراقيين والاعداء الآخرين أما عدم توقعه في مقدونيا فذلك يرجع انه لا يريد ان يكون عدواً وخصماً للبشرية كلها. وقد تم ابعاد كيمن في ٤٦١ ق.م.

(*) أي في سنة ٤٥٧ ق.م.

^(٢١) في نويوتيا ما بين اسميتوس واسويوس.

إلا أن اتباع بيركليس تكالبوا عليه وأرغموه على الانسحاب من الحرب لأنه محكوم بالنفي. والظاهر أن بيركليس بذل في هذه الحرب مجهوداً يفوق ما بذله في أية حرب. وأنه عرّض نفسه للخطر بنوع خاص. كذلك أبلى أصدقاء [كيمنون] فيها خيراً بلاء، هؤلاء الذين أتهمهم بيركليس مع صاحبهم بمالأة اللقيديونيين^(٢٢). وهزم الأثينيون في الحرب وطوردوا حتى حدودهم، وكانوا، بتوقعهم هجوماً جديداً كاسحاً في أوائل الربيع القادم - يشعرون بالأسف والأسى على خسارة [كيمنون] وبالندم لطرده. وكان بيركليس أشدَّ احساساً من غيره بما يخالجه من هذه المشاعر. فلم يتردد ولم يتوان في انالتهم بتفاهم وتقديم باقتراح يقضي بالسماح لـ [كيمنون] بالعودة إلى الوطن. فتم له ذلك. وعند عودته قام بعقد صلح بين المدينتين^(٢٣)، مستفيداً من منزلته الكبيرة عند اللقيديونيين وحبهم له بقدر كرههم بيركليس وغيره من الزعماء الشعبين.

على أن فريقاً من الكتاب يزعم أن بيركليس لم يقترح عودة [كيمنون] إلا بعد أن عقد معه اتفاقاً يتضمن شروطاً سرية خاصة وكان الوسيط بينهما (الپينيكي Elpinice) أخت [كيمنون]، وتقضى الشرط أن يعين [كيمنون] قائداً عاماً لأسطول تبلغ عدته مائتي سفينة، يقوده للاستيلاء على ممتلكات ملك الفرس، وأن يتفرد بيركليس بالحكم في المدينة.

ويظن أن (الپينيس) هذه، كانت قد حققت لأخيها كيمنون منّة على يد (بيركليس)، إذ أقنعته بأن لا يشتد في تعقيب التهمة على كيمنون وإن يترفق به عندما حوكم بتهمة الخيانة العظمى^(٢٤)، وكان هو عضواً في لجنة الاتهام التي عينها مجلس العموم. إذ جاءته (الپينيس) راجية في أمر أخيها فأجابها مبتسماً «انك يا الپينيكي قد بلغت من الشيخوخة مبلغاً لا يسمح لك بمعالجة مثل هذه الأمور» لكن لما حضر الجلسة المخصصة لشرح التهمة والادعاء عليه بها. وقف للكلام مرة واحدة فقط، ليقدّم استقالته من العضوية ثم خرج حالاً من قاعة المحكمة، وبهذا كان أقلّ متهمي كيمنون تحاملاً عليه، وضرراً به.

فكيف يجوز لنا أن نصدق (ايدومينيس Idomenes)^(٢٥) الذي يتهم بيركليس بما يفهم منه أنه الذي دبر مقتل السياسي الجماهيري المحبوب [أفياطس] غيلةً وغدرًا؟ وهو صديقه الحميم وأحد أركان حزبه طوال حياته السياسية، يدافع الحسد بلمة غيرة من سمعته الداوية؟

(٢٢) كانوا يبلغون المائة عدداً كما سنرى في سيرة [كيمنون].

(٢٣) في العام ٤٥٠ ق.م.

(٢٤) مع هذا فقد حكم على [كيمنون] بغرامة قدرها خمسون تالنت (٢٠٠٠٠٠ پاون سترليني تقريباً) ولم ينج من حكم الموت إلا بعد اللتيا والتي. إذ انقذ أغلبية ثلاثة أصوات فحسب!

(٢٥) مسقط رأسه لامبساكس. وهو تلميذ ابيقور. كتب تاريخاً حول اتباع سقراط وتلاميذه.

لأدري من اين يش هذا المؤرخ، تلك القصص. قاصداً تلويث اسم رجل لم يسلم في الواقع من الاخطاء واللوم، إلا انه ذو نفس نبيلة، وشخصية متمسكة باهداف الشرف، وهي سجايا لا يمكن أن تفسح للقسوة والوحشية موضعاً أو سبيلاً اليها. واما حقيقة حكاية (إفيالطس) فهي كما أوردها ارسطو على النحو الآتي^(*): أصبح افيالطس غولاً مرعياً لحزب الاقلية بسبب دفاعه عن حقوق الشعب دفاعاً لايعرف المهادنة ولا المساومة، وبمحاسنته المجرمين بحق الشعب ودوام اتهمه لهم. فضاقوا به ذرعاً وهم على كل حال اعداؤه - فكمنوا له وأعتالوه سرّاً بتوجيه ارسطوديكوس Aristodicus التناغري.

وانتهت أيام كيمون في هذه الدنيا وهو قائد الأسطول في قبرص^(٢٦).

ووجد الحزب الارستوقراطي تعاضل سلطان بيركليس في المدينة وبروز شخصه على الجميع، فأدركت الحاجة الي شخص يوضع في مقابلته، لثلم حد سلطانه وقل غراب تفوقه لئلا يزول به الى الحكم الفردي المطلق، فرشح (ثوكيديدس) الألوبيكه Alopece وهو شخص حكيم عاقل من أقرب اقرباء كيمون - ليقود المعارضة ضد بيركليس، ولم يكن ثوكيديدس بطاول (كيمون) في الفنون العسكرية، إلا أنه كان يفوقه في تلك ناصية البيان، والسياسة وبدوام لبثه في المدينة ودخوله مع خصمه في معارك خطابية انتخابية تمكن بوقت قصير من ايجاد توازن حزبي في عالم الحكومة. فقد أبى أن يبقى أولئك الذين يتسمون بصفة الأمانة والصلاح (البارزون وذوو السمعة) على أسوأ حال من التفرق هنا وهناك، ضائعون بين عامة الناس لا أثر لهم، زاهدون في مكانتهم الرفيعة، معزولون مهملون في زوايا الخمول؛ عمد (ثوكيديدس) الى انتشالهم من وهنتهم واحداً واحداً وجمع كلمتهم ووحدهم، وتمكن بثقلهم من تحقيق التوازن المنشود مع الحزب الآخر كما في كفتي الميزان. والواقع أنه كان يوجد من البداية ما يشبه الصدع أو الشق الخفي، كما في قطعة حديد، يقوم حتماً فاصلاً بين النوازع الشعبية والنوازع الارستقراطية. إلا ان التناحر المكشوف والمنافسة بين هذين الخصمين زاد في الصدع عمقاً، وقسم المدينة الى حزبين: حزب الشعب وحزب الأقلية. لذلك عمد بيركليس في هذا الوقت بالذات الى اطلاق العنان للشعب أكثر من أي وقت مضى وجعل سياسته خادمة لاهوائه وصار يبذل الجهود المستمرة لارضائه باقامة مهرجانات عامة أو احتفالات دينية أو ولائم أو مواكب وغير ذلك، تحريماً لأدخال المسرة والبهجة في حياته، مثلما يستمال الأطفال بالالعاب والملاهي، التي لا شأن لها برفع مستواهم الثقافي وتهذيبهم، وتغادي في التودد الى الشعب بأن عمد كل

(*) ارسطو دستور أثينا ٤.٢٥.

(٢٦) في حصار كيتيوم ٤٤٩ ق.م.

سنة الى ارسال ستين سفينة الى البحر مشحونة بالمواطنين الذين تدفع لهم الدولة أحر ثمانية أشهر ليتعلموا فنون الملاحة ويتدربوا على خدمة السفن. ويبحث بألف مواطن الى حزر [الحيرسوبر] ^(٢٧) لأعمار الأرض وزراعتها بتوزيع اراضيها عليهم بالقرعة. وأرسل خمسمائة الى جزيرة [نكسوس]، ونصف هذا العدد الى [آندروس]، والفا الى [تراكيا] ليشاطروا قوم البيرالتي Bisaltae العيش. ويبحث بآخرين الى ايطاليا عندما تقرر اعادة تأهيل مدينة [سيباريس Sybaris] ^(٢٨) التي تسمى الآن [ثوري Thuri]. فعل ذلك لتخليص المدينة من العاطلين الذين يصيرون بسبب البطالة كتلة مزعجة من الفضوليين المتطفلين ويكون فيه أيضاً علاج لتشغيل فقراء المدينة وسدّ خلّتهم، كذلك تفيد هذه الجاليات في اخافة حلفائهم وصدّهم عن محاولة الانتفاض أو اجراء اي تغيير، فهم بمثابة حاميات اثينية تعيش في وسطهم.

إن تشييده المباني العامة والمعابد والهيكل، هو الذي أعطى أثينا روعاها وجمالها وجعلها محطّ إعجاب الأجانب ودهشتهم، وها هي الآن الشاهد الوحيد الأغريقي، بأن السلطان الذي فخرت به، والغنى السالف الذي كانت ترفل فيه لم يكن حديث خرافة ولا ضرباً من الخيال. مع هذا فان أعماله الانشائية هذه كانت دون سائر أعماله الأخرى في الحكومة، مطعناً أتخذه أعداؤه للنيل منه، وراحوا يستنكرون باعتراضاتهم التافهة في المجالس والاجتماعات العامة بقولهم: أنظروا كيف فقدت جمهورية أثينا سمعتها في الخارج وأضت هدفاً للنقد والتجريح، لنقلها خزينة دول اليونان العامة من جزيرة [ديلوس] ^(٢٩) الى مدينتها وأطلقت يدها فيها تعترف ما تشاء، وكيف أن حجتهم بنقلها خوفاً من استيلاء البرابرة عليها ولغرض وضعها في حزر حريز، فقدت قوتها ونُسفت نفساً بأعمال بيركليس. وكيف أن «بلاد الأغريق لها كل الحق في أن تسخط وتستنكر هذا العمل وتعتبره أهانة غير محتملة، وتعد نفسها ضحية تحكّم وطفبان عندما ترى أموال الخزينة التي شاركت في جمعها بدافع الضرورة الملبجة لسدّ نفقات الحرب، تبذر تبذيراً وتصرف بشكل لا مبرر له على طلاء مدينتنا وتجميلها وتزيينها بالتماثيل والمعابد التي كلفت ألف عالت ^(٣٠) كالمرأة المزهوة بنفسها حين أثقلت بالجواهر». وقال بيركليس للشعب رداً على هذا - أن الأثينيين غير مضطرين أبداً الى تقديم اي

(٢٧) في العام ٤٤٧ ق.م.

(٢٨) في العام ٤٤٤ ق.م. هذه المدينة كانت قد عبرت ثلاث مرات آخرها في العام ٥١٠ ق.م. ولم يعد بيركليس بناها فوق أرضها وإنما اقامها في أرض مجاورة.

(٢٩) المساهمة السنوية النقدية للدويلات الاغريقية في الحرب المقدونية. كانت تودع مع المبالغ الأخرى في معبد أبوللو (ديلوس) وتكون بعهد امانة يعيّنهم جمهور الأغريق. فقام بيركليس دون اي مبرر سقلها عوة الى اثينا وانفقها في اقامة البنايات العامة لتجميل المدينة.

(٣٠) قيل ان [البارثون] أو معبد [منيرفا العزراء] كلف هذا المقدار [انظر للمحق].

حساب عن هذه الأموال لحلفائهم، ما دامت آثينا قد تكلفت بالدفاع عنهم وبواقفها للبرابرة بالرصاد لحمايتهم، في حين لا يقدم هؤلاء الحلفاء حصاناً واحداً أو رجلاً أو سفينة؛ وأما بساهمور بالمال فحسب في المجهود الحربي «هذا المال الذي يخرج من ملك معطيه الى ملك متسلمه، عندما يقوم هذا المتسلم بانجاز الشروط المترتبة عليه». ثم زاد على ذلك بقوله، أن المدينة بعد أن أستعدت تمام استعداد لكل طاريء، واختزنت كل ما هو ضروري للحرب، لها كل الحق والمبررات في انفاق ما فاض من مالها هذا، على المشروعات التي ستضفي بعد اكملها شرفاً خالداً عليهم، وستمدهم أثناء القيام بها بموارد رزق عظيمة . وبما أن ذلك يتطلب صناعات مختلفة وأعمالاً كثيرة فقد اقتضى تحشيد كل أرباب المهن والحرف اليدوية الماهرة وتوزيعها على المشاريع. وبذلك غدا الجمهور كله شغيلة حكوميين تدفع أجورهم من أموال الدولة، فضلاً عن تجميل مدينتهم وإصلاحهما بسواعدهم. كان الرجال الذين أهلتهم قواهم وأعمالهم للخدمة العسكرية يعيشون في الشكنات العسكرية خارج الوطن بما تدفع له الدولة من رواتب، وكان من خطة بيركليس وتدبيره أن لا يبقى الجماهير الكادحة وذوو الحرف الدقيقة الذين لا يخضعون لنظام، مستثنين عن غيرهم محرومين من الأموال العامة، كما لا يمكن أن تصرف لهم أجور ورواتب من غير عوض أو مجهود يبذلونه، لذلك ارتأى بعد موافقة الشعب أن يقوم بهذه المشاريع الضخمة وخطط أسلوب العمل بحيث انها تحافظ على استمرارية العمل حتى يتم انجازها دون فترة عطالة. وبذلك تمنح فرصة لمزاولة مختلف الفنون والحرف فلا يحرم أي فرد بقي في الوطن من سهم طيب عادل في الأموال العامة لا يقل عن أسهم أولئك الذين يعملون في البحر أو في حاميات الخارج، أو في حملات عسكرية.

وكانت المواد الانشائية التي استخدمت، الحجر، والنحاس، والعاج، والذهب والأبنوس، وخشب الأرز. وأما ارباب الصناعات والحرف التي أقتضى مزاولتها في هذه المواد منهم الحدادون والنجارون، والصهارون واللحامون والصابون وقاطعو الحجر، والصابغون والصاغة وصناع العاج والطلاؤون، والمطرزون، والخزافون. ثم أولئك الذين نقلوا تلك المواد الى المدينة؛ التجار، والملاحون، وربانة السفن في البحر، وسائقو العجلات، ومرسو المواشي، وصانعو العربات وصانعو الخبال، ونساجو الكتان والأسكافيون، والدباغون، ومعبدو الطرق وعمال المساجم. وكما يقوم الرئيس في الجيش على رأس كل سرية من الجنود، فكل صناعة كان لديها سريتها الأجيبة من أعمالها الدائمين المهرة وشغيلتها. يجرى ضمهم معاً كما في حطّ قتال، لتكور الآلة والجسم في انجاز الأعمال. وهكذا توزعت الفرص والخدمات في هذه المشاريع العامة بصورة واسعة ضخمة على كل عمر وحالة.

وبرز العمل للعيان، لا تقل روعة حجمه عم جمال شكله الصناع يبذلون جهدهم ليموقوا على المواد والتصميم بجمال صناعتهم، على أن أعجب شيء هو سرعتهم في انجاز العمل.

ظنوا أن كل مشروع منفرد يتطلب لانجازة سلسلة متعاقبة من الرجال ذوي اعمار مختلفة، كل منهم يجب أن يكون ضليعاً في مهنته في ذروة خدمه وعنفوان مهارته. وقالوا أيضاً أن (زيوكسيس Zeuxis) سمع مرة الرسام (اغانارخوس Agatharchus) يتبجح بانجاز عمله من أعماله بسرعة وسهولة، فقال معقّباً «أما أنا فيلزمني وقت طويل» لأن السهولة والسرعة قد لا يورث العمل المنجز قوة دائمة ودقة في الجمال. إن قوة الحيوية وقابلية البقاء في عمل ثم، لهو خير مكافأة وتعويض عن الزمن الطويل الذي انفق فيه. ولذلك كان الاعجاب بأثار بيركليس شديداً بصورة خاصة، فقد تمّت بوقت قصير، لتبقى زمناً طويلاً وعد كل قطعة منها تحفة أثرية ساعة انجازها لجمالها ورونقها مع انها بدت وكأنها مصنوعة في تلك اللحظة بالذات لمجدتها واتقانها. هناك نوع من الرواء والجدة في آثاره، تخفّظها من عوادي الزمان، كان حيوية خالدة وروحاً أبدية تقيمتها أثناء عملها.

وأشرف [فيدياس] علي كل الأعمال وكان المهندس العام. على انه استخدم اساتذته عظماء وصناعاً حاذقين في مجالات واقسام مختلفة، فبنى [قلليقراطس Callicrates] و[اقتينس Gctinus]، صرح^(٣١) الهارثون الذي هو بهيئة مربع طول ضلعه مائة قدم، وبدأ [كوريبوس Coroebus] ببناء الهيكل في [اليوسيس Eleusis] حيث يقام الاحتفال بالأسرار، ونصب الأعمدة على الأرضية أو الممشى ثم ربطها معاً بالعوارض العليا. وبعد موته أضاف [ميتاجينس Metagenes] الإكسبيتي Xyptte، الأفريز، ووصف الأعمدة العليا. وسقّف [كسينوكليس Xenocles] الخولارغوسي عقادة المشكاة فوق معبد [كاستور وبوللكس]، وقام قلليقراطس ببناء الحائط الطويل^(٣٢) الذي قال عنه سقراط^(*): أنه سمع بيركليس بأذنه يقترح على الجمهور اقامته، وقد سخر [كرانيتوس] بهذا الأثر لطوله عند أكماله قائلاً.

كـدّس الخطيب الحـجارة فسوق الحـجارة

بكلمات منقووضة إلا أن الكلمات لا تبني جداراً.

(٣١) بقي هذا المعبد داخل اسوار القلعة وأطلق عليه اسم هيكاتوميبيدوم لأن طول ضلعه ناهز بالأصل مائة قدم وبعد أن أحرقه الفرس اعاد بيركليس بناءه وقد احتفظ باسمه وإن وسع مساحته كثيراً. ما زال هذا المعبد قائماً حتى يومنا هذا وهو قبلة السياح.

(٣٢) طول الحدار خمسة اميال. وسمكه من الأعلى يتسع لسيرة عربتين معاً. وهو يصل هيربوس بالمدينة.

(*) افلاطون (عورعياس).

وأما الأوديوم Odeum أو قاعة الموسيقى، التي ملئت من الداخل بالمقاعد وصفوف من الأعمدة، والذي جعل سقفها من الخارج يبدأ من القمة منحدرًا إلى الجانبين فقد قيل لنا أنه بنى تقليدًا لعمسراط ملك الفرس^(٢٢). وكان ذلك بأمر من بيركليس أيضًا. فجعله منه [كراتينوس] مناسبة للتعريض والسخر، في مهزلته المسماة «النساء التراكيات» إذ قال:

ها هو رأس جويتر البصلي قادم. انه الاديوم الجديد الشبيه بقبعة فوق هامته،
بعد ان زال عنه خطر النفي الى الأبد.

وكان بيركليس مغرمًا بالبروز أيضًا، فحصل على مرسوم يقضي بانشاء مباراة في الموسيقى يقام سنوياً في الپاناثينيا Panathenaea، وأختير هو حكماً. فنظم الطرائق والقواعد التي يلتزم بها المتبارون في غنائهم أو عزفهم على القيثارة أو الناي وكان الحاضرون في تلك المناسبة أو غيرها فيما بعد يجلسون في قاعة الموسيقى هذه ليروا ويسمعوا تجارب في الخدق والبراعة. وتم عمل البروپيليا Propylaea أو مداخل [الأكريولس] في خمس سنين وكان (منسيكلس Mnesicles) المهندس الرئيس لها. وقد وقعت اثناء بنائها حادثة غريبة، أظهرت ان الرية كانت راضية عن العمل. تتعاون وتساعد في انجازها على الوجه الأكمل. زلت قدم أحد الصناع، وكان انشطهم وأحذقهم فسقط من ارتفاع كبير وغداً في حالة خطرة وقطع الاطباء الأمل في شفائه. وفيما كان بيركليس مهوماً قلقاً عليه أذ ظهرت له [منيرفا] ليلاً في الحلم وشرحت له أسلوباً في علاجه^(٢٤)، فطبّقه وشفي الرجل بوقت قصير وبسهولة. وتخليداً لهذه المناسبة أمر باقامة تمثال نحاسي [لمنيرفا] لقب «بالصحة» في القلعة بالقرب من الهيكل، وقيل أنه كان هناك في الأيام السالفة. إلا ان [فيدياس] هو الذي صنع تمثال الرية من الذهب، ونقش اسمه على قاعدته^(٢٥). والواقع أن المشاريع كلها كانت تحت مسؤولية الى حد ما وكان له كما قلنا صلاحية الاشراف على كل الفنانين والحرفيين العاملين، بسبب الصداقة التي تربطه ببيركليس. وقد جعله هذا المنصب موضع حسد، وأدى الى صب الشتم والأهانات على حاميه بصورة مخزية، وتأليف الحكايات عنه كقولهم أن [فيدياس] كان يتصيد النساء الحرات

(٢٢) في هذه البياية يعقد سوق القمح أيضاً وكل ما يمت اليه بصلة وقد أحرقه (سيلا) اثناء حصار (اثينا)
فاعاد اريوارزانوس ملك كيدوكيا بناءه.

(٢٤) النباتات المسمى Parthenium الذي هو من فصيلة اعشاب الماتريكاريا - تأثير عجيب جداً على الاضطرابات العصبية. (بليتي. التاريخ الطبيعى ٧:٢٢) يورد قصة هذا الشفاء لعجيب ويشق اسم النبات من علاقته بالرية العذراء وينوه أيضاً بتمثال هذا العبد الذي أمر بيركلس البحات (ستيباس) القرصي بصنعه.

(٢٥) قيل ان التمثال كان من الذهب والعاج. وپاوسنياس (٩:٢٤) وصف مفصل له.

اللاتي يأتين لمشاهدة العمل، لحساب لذة بيركليس. وعندما وصلت هذه الحكايات كتاب المدينة الهزليين، راحوا يتفنون في اذاعتها والتعليق عليها، ولو كانوا سمعته بكل ما توصلت اليه قريحتهم من بذيء القول. واتهموه زوراً بعلاقة مع زوج [مينيبوس] وهو صديق له عمل معه في الحروب مساعداً وضابط ركن. كذلك زعموا أن صديقاً آخر له اسمه [بيريلامبس Pyrilampes] يربي طيوراً، كان يهدي طواويس لخليلات بيركليس^(٣٦). وكيف يعجب المرء، كأني عدد المزاغم الغربية التي يطلقها أناس عاشوا حياتهم كلها على السخر والتفكهة، وكانوا على استعداد في أي وقت لتضحية سمعة رؤوسائهم على مذبح الحسد المتبذل والاضطغان. كأنما لروح ما شريرة.

تجرباً حتى [ستسيبمروتوس التراكي] على أن يتهم بيركليس بأشنع تهمة وأكثرها خيالاً زاعماً بوجود علاقة آثمة له مع زوج ابنة. من الصعوبة بمكان تتبع الحقيقة وأستخلاصها من التاريخ عندما يجد أولئك الكتاب المتأخرون فترات طويلة من الزمن تقف عشرة في سبيل وجهات نظرهم، وعندما تجد المدونات المعاصرة لكل سيرة أو حدث مشوهة الحقيقة، ممسوخة، إما مدهانة وثقلقاً، وإما حسداً وسوء نية.

عندما راح الخطباء المنحازون الى ثوكيديديس وحزبه يتنادون كما كانت عاداتهم منددين بهيركليس لتبذيره الأموال العامة، وإيقاعه الخلل في عائدات الدولة، نهض في الجمعية العمومية وطرح القضية أمام الشعب: هل أنه أنفق كثيراً؟ فأجابوا: «كثير جداً، كثير جداً» وعند ذلك قال: «أذن ما دام الأمر كذلك، فلترفع النفقات كلها عن عاتقكم ولتقيد على حسابي على أن يسجل أسمي على جميع المباني المشيدة»^(٣٧). وعندما سمعوا هذا، هتف له بصوت عالٍ: إما بدافع دهشتهم من عظمة نفسه أو حرصاً على مجد هذه الآثار، وطلبوا منه اتفاق المزيد والاستمرار في عمله هذا بالشكل الذي يراه مناسباً وأن لا يألوا في ذلك جهداً أو مالاً حتى ينجزها.

وبالأخير بلغ النزاع بينه وبين ثوكيديديس مرحلته النهائية، وآل الأمر الى التساؤل من منهما سيفلح في نفي الآخر من البلاد، فخاض بيركليس غمار هذه المعركة الحافلة بالخطر، وقذف بخصمه الى الخارج، وقضى قضاءً تاماً على الحلف الذي نظم ضده.

(٣٦) هذه الحيوانات كانت وقتذاك نادرة وغالية الثمن جداً.

(٣٧) من عبارة اوردها (ثوكيديديس) يبدو أن الخزينة الأثينية العامة كانت تقوم في ذلك الحين بتسعة الاف وسبعمائة تالنت (أي ما يعادل اربعة ملايين پاون سترواليني) صرف منها بيركليس على اقامة البنايات العامة أكثر من الثلث ولذلك كان من الطبيعي ان يفتح تحقيق بكيفية الصرف.

وبذلك ازال الانقسام والتفرقة من المدينة ازالة تامة، ونعمت بعدها بالهدوء والوحدة. وحكم قضته على كل آئينا، وكل الشؤون المتعلقة بالآئينيين، غراماتهم الحربية، جيوشهم، سفنهم، الجرار، البحار، سلطانهم الواسع الرقعة على الأغريق الآخرين وعلى البرابرة. وكل المستعمرات التي ملكوها، وحصونها في بلاد الشعوب الخاضعة لهم، أما بموجب معاهدات التحالف، أو بمقتضى صداقتهم مع الملوك.

بعد كل هذا، لم يعد بيركليس شخص الأمس، لم يعد كما كان سابقاً مع الجماهير ذلك الرقيق اللين العريكة المحبوب المستعد حالاً للنزول عند رغباتهم وتلبية طلبا تهم من ضروب التسيريات والترفيه، كقائد الدفة يتحول مع الريح. ونبت تلك الرعاية المتراحية، المنطلقة والتودد للشعب الذي وصل في بعض الحالات الى حد تخطي العرف والقانون. وأبدل اللهجة الانيقية اللينة الوقع، بصرامة الحكم الارستقراطي الملكي، مستخدماً اياه لمصالح البلاد العليا باستقامة ودون انحراف، فاستطاع بشكل عام أن يقود الجماهير ويسوسها دون ما ارغام بل برغبة منها وموافقة، عن طريق اقناعها بما يجب عمله، وارشادها الى كيفيته. وأحياناً كان يلج ويدفعها دفعا الى حد التطرف خلافاً لارادتها. وجعلهم يخفضون جناحاً لكل ما فيه نفهم شاذوه أم أبوه. وكان يعمل ذلك والحق يقال ببراعة الطبيب النطاسي الذي يسمح لمرضى بداء مزمن معقد، ويكبده في ظرف آخر آلاماً شديدة ويسقيه الأدوية لتحقيق شفائه.

نشأت وترعرعت طبعاً - مختلف مشاعر السخط بين الشعب الذي كان بيركليس يمارس عليه سيطرة وضبطاً لا حدود لهما، فعرف ذلك السياسي العظيم كيف يعالج أمر كل فرد من أفرادهِ ويعامله المعاملة الصحيحة. واستخدم سياسة الأمل والخوف استخداماً حاذقاً وجعلها كعصوي سكان الدفة. يسبر بالعصا الأولى مسالك ثقتهم في أي وقت شاء، ويرفع بالعصا الثانية معنوياتهم ويشد من عزماتهم عند كُلّ نكسة أو خيبة. وأظهر بجلاء أن بلاغة اللسان، أو فن الكلام هو خير ضابط لأنفس الرجال (إذا استخدمنا لغة افلاطون) وإن مهمته الرئيسة هي مخاطبة الشعور والعاطفة وهما أوتار الروح ومفاتيحها، تتطلب من يد الضارب عليها لمسات رشيقة حذرة. على أن قوة عارضته لم تكن وحدها مصدر سلطانه المطلق، بل وجد الى جانباها السمعة التي كسبها في حياته، والثقة التي توحىها شخصيته وطهارة نفسه من أي شكل من أشكال الفساد، وتساميه على كل الاعتبارات المالية ومتاع الدنيا - كما يؤكد لنا ذلك ثوكيديدس. وإذا ضربنا صفحاً عن جعله آئينا العظيمة بذاتها، مدينة لا يسمو أي خيال في وصف عناها وعظمتها، ومع انه كان - بما مارسه من سلطة ونفوذ - أكثر من يدٍ مسارٍ للعديد من الملوك، والحكام المستبدين، الذين يورث طائفة منهم ملكهم لأولادهم، فهو من

جهته لم يزد في الميراث الذي تلقاه عن والده درهماً واحداً.

زودنا ثوكيديوس والحق يقال بكلمة صريحة، عن عظمة سلطانه وفيما تركه الشعراء الهزليون أكثر من إشارة اليه بأسلوبهم الجارح التعريضي، وهم يخلعون على اصحابه واتساعه اسم «اليسستراتوسيين الجدد» ويهيئون به أن يصرف النظر عن كل نية في سلوك طريق الاستبداد والتحكم، كأن ما بلغه من السؤدد والتفوق، لم يعد شخصه مناسباً للديمقراطية أو الحكم الشعبي، ولا بإمكانه التجاوب معها. ويقول [تقليدس]^(*) أن الاثنينين تنازلوا له...

«عن اتاوات المدن، ومعها المدن أيضاً، يحلّ ويربط كما يشاء وان يبنى إن شاء - اسواراً حجرية حول مدينة ما. وان ينقض تلك الأسوار إن طاب له ذلك. وسلموا له معاهداتهم، وأخلاقهم وسلطانهم ومستعمراتهم، وسلمهم وحرّتهم وثرواتهم، وكل أسباب فلاحهم الدائم.»

ولم يكن هذا حظاً واتاه في صدفة من صدف الدهر السعيدة، ولا ثمرة نعمة مزدهرة لموسم واحد لا غير. لكنها حالة طويلة الأمد. بقي فيها أربعين سنة^(**) وهو يحتل أرفع مقام بين رجال السياسة من أمثال افسالطس، وليوقراطس Locrates وميرونيدس Myronides وكيمون، وتوليديس Tolmides وثوكيديديس، كما استمرت بعد نفي ثوكيديديس واندحاره خمسة عشر عاماً أخرى، مارس خلالها قيادة منفردة مستمرة غير منقطعة، إذ كان يعاد انتخابه جنرالاً كل سنة، وظلّ حريصاً على استقامة لم تصمها وأقل وصمة، على أنه لم يكن في غير شؤون الحكم مهلاً غير مبال، فكان يرعى شؤونه المالية مثلاً. وقد ورث عقارات عن أبيه، فحرص على أن لا يلحقها الخراب، أو العيب بسبب الإهمال، وعلى أن لا تأخذ من اهتمامه وعنايته وقتاً لانصرافه الذي يكاد يكون تاماً الى شؤون الحكم، وأختار لادارتها أسلوباً كان في رأيه أسهل وأدق ما وجد. فكان يبيع كل ما تنتجه من غلة سنوية صفقة واحدة، ويموّن بيته بما يقتضي بشراء الحاجات العائلية من السوق ولذلك ضاق أولاده ذرعاً بأسلوب والدهم هذا عندما بلغوا أشدهم، ولم يشذ عنهم نسوة البيت فقد كان يقرّ عليهن، وشكون من تلك الادارة حيث كل شيء يتمّ حسابه من يوم الى يوم بمنتهى الدقة فلا ينقص شيء، ولا يفضل شيء الى الغد، ولم تكن هذه بحالة أسرة سرّية بارزة. كل ما يخرج وكل ما يدخل، وكلّ ما يؤخذ وكل ما يعطى الكيل يجري حسابه بالعدد والقياس وكان قد أوكلّ خادماً واحداً لادارة البيت اسمه [ايثانجيلوس Evangelus] وهو رجل كان يتمير بذكاء.

(*) من مسروحية لا يعرف لها اسم.

(**) ما بين ٤٦٩ و ٤٢٩ ق.م تقريباً.

مطروح، أو كان يعمل وفق توجيهات بيركليس، فقد بلغ الغاية في فن الاقتصاد المرلي.
ولم يكن في كل هذا ما ينسجم وفلسفة اناكساغوراس^(٢٨)، إن كان صدقاً ما روي عن خروجه من منزله وتركه أرضه مرعى للأغنام وعيشته عيشة عامة الناس ودهانهم اطاعة لإلهام رباني، أو لسمو نفس فيه، على أن حياة الفيلسوف المفكر وحياة السياسي النشطة لا تتشابهان في رأيي. فأولهما يستخدم في مسائل العقل الحيرة السامية، ذكاءه وعبقريته، وكلاهما لا يحتاج الى اداة أو مادة محسوسة، أما الثاني فإنه بتوجيه قابلياته العقلية وطاقاته الى واقع الاستعمال البشري، قد تتاح لنفسه فرصة لتتدفق بالخير، لا بالضرورة، بل بدافع النبيل والصالح لذلك نرى [بيركليس] يرفه عما لا يحصىه عد من مواطنيه الفقراء.

ومهما يكن من أمر فشم حكاية تروى عن [اناكساغوراس] الذي حمل ذكره واختفى في زوايا النسيان بينما كانت أمور الدولة تستأثر بكل وقت بيركليس واهتمامه. بلغ هذا الفيلسوف مبلغ الشيخوخه، وعقد العزم على أن يكون موته بامتناعه عن الطعام. فبلغ ذلك بيركليس بمحض الصدفة. فأذهله الخبر وارعبه وأسرع اليه في الحال واستخدم كل حيلة ورجاء ومنطق ليثنيه عن عزمه، ولم يكن في ذلك محزوناً على حالة اناكساغوراس قدر ما كان أسفاً على نفسه، خوفاً أن يفقد ذلك الناصح الذي خبر قيمته وقدرها، وعندها نضا اناكساغوراس ثوبه مظهراً جسمه عارياً وقال: «يا بيركليس، حتى أولئك الذين تدرّكهم الحاجة الى مصباح، فأنهم يزودونه بالزيت».

بدأ اللقيديمونيون يظهرون امارات القلق لثنامي قوة الآثينيين وعمد بيركليس من جهته، ليرفع معنويات الشعب، وينشئ في رؤوسهم فكرة إطلاب المجد بعظام الأعمال، الى اقتراح يقضي بدعوة كل الأغريق اينما كانوا أفي اوروپا أو آسيا في كل مدينة صغيرة أكانت أم كبيرة، لإرسال مندوبين الى جمعية عامة تعقد في أثينا، أو مؤتمر عام للمداولة والمشاورة في أمور المعاهد الاغريقية التي أحرقتها البرابرة، وفي القرايين المفروضة عليهم بموجب النذور التي قدموها للأرباب على سلامة بلاد اليونان عندما قاتلوا البرابرة، وكذلك للبحث في شؤون الملاحة البحرية، وعقد معاهدة حرية فيما بينهم، حتى لا يتعرض أحدهم لسفن الآخر فيما بعد. وأوفد عشرون شخصاً تزيد اعمارهم عن الخمسين^(٢٩) للدعوة الى المؤتمر، خمسة منهم ذهبوا

(٢٨) حرت عادة الاقدمين ان يقوم الشخص الذي ينوي الانتحار باسدال غطاء على رأسه بصرف النظر عن الاسباب التي دعت الى ذلك أفي سبيل بلاده أو التخلص من متاعب الحياة [بيوغيثس لاينثروتس يقول ان هذا الفيلسوف اورث أقرباعه.

(٢٩) هو سن البلوغ الثام عند الآثينيين. من بلغه جازله حق التصويت في الاجتماعات والانتخابات العامة.

لدعوة الأيونيين والدوريين Dorians في آسيا وسكان الجزر حتى [السيوس ورددس]، وخمسة منهم رحلوا لزيارة كل أرجاء [هلسبونت وتراقيا] حتى [بيزنطة] وخمسة غيرهم، لزيارة بويوتيا وفوكيس Phocis ويليوبونسوس ومنها يرحلون الى القارة المحاورة عبر بلاد اللوكريين Locrians حتى أكارنانيا Acarnania وامبراكيا Ambracia، والباقيون يأخذون طريق [يوريا] الى الأوتيانيين Oetaean وخليج ماليا Malia والى أخانيا^(٤٠) [موتوتيس Phothiotis] والتساليين. وقد نبّه جميعهم بتصلوا بالشعوب التي يمرّون بها ويفتحوها ويقنعوها بالحضور والمساهمة في مداولات السلام، وتنظيم شؤون الأغريق معاً.

ولم ينتج شيء من هذا، ولم تجمع المدن معاً عن طريق المندوبين. كما كان منتظراً. وقيل أن اللقيديمونيين عملوا على إحباط المشروع من طرف خفي^(٤١). وكان أول فشل للمحاولة في الهيلوبونيس. واني أرى من المناسب أن أشرح تفاصيلها هنا لإظهار نفسية بيركليس وسمو أفكاره.

نال في قيادته العسكرية صيتاً داوياً لحنكته ومهارته في فنون الحرب. فهو لا يشتبك بمحض رغبته في قتال ما إذا كان في نتيجه شك كبير، أو خطورة. ولم يحسد قائداً على مجد ناله من مغامرات طائشة تكلفت بنجاح باهر وحالفه فيها الحظ، مهما بلغ به أعجاب الآخرين. ولم يرهج جديرين بالتقليد والمحاكاة وإنما كان لا يفتأ يقول لمواطنيه أنه لن يألوا جهداً قط في العمل على توفير حياة دائمة خالدة لهم جميعاً. وسيبذل في ذلك قصاره. ولما رأى [بيركليس] أن توليدس ابن [طوليسوس Tolmoëus] الملقب بالثقة نتيجة انتصاراته السابقة^(٤٢) الثيّا الفخور بالمكانة التي رفعته اليها أعماله العسكرية - يقوم بالاستعداد لمهاجمة البروتيين في عقر دارهم حين لم يكن له في الحملة أية فرصة للنصر. ولما رآه يستميل أشجع الشبان وأكثرهم أقداماً فتطوعوا في الخدمة تحت لوائه وعددهم ألف مقاتل، عدا قواته الأخرى، حاول بيركليس جهده في الجمعية العمومية، أن يثنيه ونصحهُ بالعدول عن قصده ووجه اليه عبارة مأثورة ظلت تضرب في الأمثال: قال ما مفاده ان لم يأخذ بنصيحتي، فلن يخسر شيئاً إن تربص بالزمن وانتظر إقباله، وهو خير الناصحين. هذا القول لم يرق له وزن كبير في حينه، لكن الأنبياء وصلت بعد أيام قليلة، بهزيمة توليدس وقتله في معركة بالقرب من [كورونيا Coronea] وأن عدداً كبيراً من أشجع المواطنين سقطوا صرعى معه. فأكبر

(٤٠) يقصد بالآحين الأغريق عموماً في بعض الأحيان. لاسيما عند الكتابة عن الشعراء ويقصد بهم سكان منطقة معينة من إليوبونيس. لكن علينا أن نعرف أن المقصود بهم هنا - هم أهالي من تسالي.

(٤١) لا عجب ان يعارض اللقيديميون في هذا! إذ ان الموافقة عليه تعنى اعترافهم بالآثيين سادة الأغريق وما كان بمقدور الآثيين محاولة ذلك دون أمر أو مرسوم صادر من الأمفكتيون.

الناس كلمة بيركليس، ونال منها سمعة كبيرة، فضلاً عن ازدياد ايمان الشعب بحكمته ومحبه نبي حلدته.

الآ أن حملته الى [الخرسونيز]^(٤٣) هي التي أشاعت من الرضى والارتياح فى النفوس ما لم تُشعها أية حملة من حملاته، لأنها أكدت سلامة الأغريق الذين كانوا يسكنون تلك الجزر. فعلاوة على أخذه معه متوطنين آثينيين جدد، ومدّه المدن بقوة جديدة من الرجال، سورّ عنق البرزخ بجدار دفاعي من البحر الى البحر وبذلك أوقف غارات التراقيين الذين كانوا يطوقون الخرسونيز، فقطع دابر حرب مستمرة طاحنة، كانت تهدد البلاد منذ عهد طويل، بموقعها المكشوف لغزوات وموجات جيرانها من البرابرة. وتتن وتتلوى من وطأ شرور عصابات قطاع الطرق الذين أستقروا على حدودها وفي داخلها.

ولم يكن الأعجاب والأشادة بعملية تطوافه حول البيلوبونيسوس^(٤٤) بأقل من تلك. فقد أنطلق من بيكيا Pegae أو النافورات، وهي ميناء [ميفارا] بمائة من السفن ولم يكتف باجتياح سواحل البحر، كما فعل [توليدي] من قبل، وإنما نزل البرّ بجنوده وتقدم مسافة كبيرة في داخلية البلاد، وجعل كثيرين يلوذون بحمى اسوارهم، بمجرد الرعب الذي أحدثه ظهوره، وفي نيمبيا Nemea هزم [الاسيكونيين Sicyonians] ونصب تذكاراً لفوزه. وكانوا قد صمدوا بوجهه أشتبكوا معه في قتال. ثم عقد بين الآثينيين وبلاد آخايا Achaia حلفاً وأخذ منهم جنوداً وخبأهم في سفنه وعبر بالأسطول الى القارة، وسار به على مصبّ نهر أخيلازس Achelaus، واجتاح أكارنانيا وألبا [الوينادي Oeniadae] الى الاحتماء بأسوار مدينتهم وخرّب بلادهم ونهبها ثم عاد الى الوطن ملقباً مرسأ، بفائدتين: أنه أظهر لأعدائه بأسه، وظهر لبني قومه سالماً غانماً. إذ لم يعن في كل السفرة حادث سوء لأي واحد من مرؤوسيه ولو بمحض الصدفة.

ودخل أيضاً البحر الأسود Euxine^(٤٥) بأسطول كبير حسن العدة وحصل للمدن الأغريقية على كلّ التسهيلات الجديدة التي ارادوها، ودخل في علاقات صداقة معهم وأظهر لشعوب لبرابرة، عظمة الآثينيين وقوتهم ومقدرتهم التامة وثقتهم بإمكانهم الملاحة اينما شاؤوا، واثبت للملوك والأمراء المجاورين، أن بوسع الآثينيين السيطرة على البحر جميعه. وترك [اللسينوبيين Sinopians] ثلاث عشرة بارجة حربية، مع جنودها بقيادة [لاماخوس Lamachus]

(٤٣) اجتاح البيلوبونيسس وأحرق سفن قرطاجة، وهزم السيكونيين الخ. الخ على انه اندحر امام اللقيديميين في كوروشيا ٤٤٧ ق.م.

(٤٣) العام ٤٤٧ ق.م

(٤٤) العام ٤٥٣ ق.م.

(٤٥) ربما كان ذلك في حدود العام ٤٣٦ ق.م.

لمساعدتهم ضدّ أطيمنسيلىوس (Timesileus)^(٤٦) الطاغية وعندما قضى عليه وعلى شركائه وادبلوا عن السرير، صدر مرسوم بإبحار ستمائة يوناني من الراغبين - الى [سيوب Si- nope] ليستقروا هناك ويعيشوا بين السيئيين ويشاطروهم المنازل والأراضي التي كان الطاغية وحزبه قد ضبطوها.

إلا أنه لم ينزل في الأمور الأخرى الى نوازع المواطنين الطائشة النشوانة. ولم يحد عن قراره في اتباع ما يحبون وتحقيقه لهم. فقد اسكرتهم وادارت رؤوسهم قوتهم وانتصاراتهم الرائعة، وأشدت رغبتهم في استعادة (مصر)^(٤٧) وتلويح سواحل القرس. والحق يقال كان هناك عدد كبير ممن تملكته حتى في ذلك الزمن - تلك الرغبة المشؤومة النحسة، بحيازة جزيرة صقلية^(٤٨) الرغبة التي أشعلها خطباء حزب [الكيبادس Alcibiades] فيما بعد - ناراً ملتهبه لا تبقى ولا تذر. وكان هناك بعض من يحلم بتوسكانيا^(٤٩) وقرطاجنة، ولم يكن ميلهم هذا خالياً من أسباب وجيهة في حالتهم هذه من الرخاء وكثرة أملاكهم ومستعمراتهم.

إلا أن بيركليس استأصل هذه الرغبة في الفتوح الخارجية من جذورها وبدد بلا رحمة أحلامهم واجتثها اجتثاثاً، وكانت متخفة ناشطة دوماً لما لا يخص من المشاريع والمغامرات، ووجه طاقاتهم لترصين ما حصلوا عليه وتثبيته وأشغل بذلك معظم أوقاتهم. معتبراً فرض الكفاية منهم النجاح في كبح جماح اللقيديونيين. فهؤلاء كان يراهم الخطر الحقيقي الداهم، ولم يكن يتردد في اظهار مشاعر كرهه لهم في كثير من المناسبات. ونخص منها بالذكر ما أقدم عليه أثناء الحرب المقدسة^(٥٠). وحكاية ذلك أن اللقيديونيين ساقوا جيشاً الى [دلفي] وأستعادوا معبد أبوللو للدلفيين، من يد الفوسيين الذين كانوا قد ظبطوه، فترص بيركليس، حتى رحلوا وبادر في الحال الى الدخول بجيش، وأعاد الفوسيين الى المعبد. وكان اللقيديونيين قد نالوا من الدلفيين امتياز الأولوية باستخارة الألهة، وسجلوا أمتيازهم هذا بعهدٍ نقشوه

(٤٦) لم يرد ذكر اسم هذا الطاغية في أي موضع آخر. و(سينويه) هي من مدن [بافلاغونيا] استعمرها اليليسون. وتقع على ساحل البحر الأسود.

(٤٧) كان الآثينيون [توكيديديس ٢: ١٠٩] يسيطرون على مصر إلا أن [ميغابيس] أحد قواد [ارتمشتا] تولى طردهم منها في السنة الأولى من الأولياد الثمانين. ولم يتكلم عن نجاح حملة بيركليس على البلوپونيسس في السنة الرابعة من الأولياد الحادي والثمانين. وليس من القريب أن نرى أن يتحدث الآثينيون الآن وهم في أوج قوتهم - عن استعادة نفوذهم في بلاد كلثوا قد فقدوها قبل فترة قصيرة.

(٤٨) خمسة عشرة عاماً أو ستة عشر بعد وفاة بيركليس.

(٤٩) بعد أن فكر الآثينيون في ازراء صقلية لآيد أن يراودهم حلم التوسع في الأراضي الواقعة الى شمالها وإلى جوبها.

(٥٠) في حدود العام ٤٤٨ ق.م سميت كذلك لعلاقتها بمعبد دلفي وهناك ما هو أكثر شهرة ويعين الاسم في عهد ميليب المقدوني.

على حبهة الذئب النحاسي القائم هناك^(٥١)، فبادر بيركليس الى كسب امتياز مماثل للآثينيين من الفوسيين، وأمر فنقش على الصفحة اليمنى من جسم الذئب النحاسي نفسه.

وتشهد الحوادث التي تعاقبت شهادة قوية على صواب عمله وحكمته في صد اندفاعات الآثينيين، وقصّر مجهوداتهم على الدائرة الاغريقية. فبالدرجة الأولى ثار الاثينيون^(٥٢) عليه، فزحف بقواته عليهم واخمد ثورتهم، وتلا ذلك مباشرة انباء اشارت انقلاب الميغاريين عليهم وان جيشاً معادياً يتقدم على حدود [آتيكا] بقيادة [پلستراناكس Plistoanax] ملك اللقيديمونيين. فأنسحب بيركليس من [يوريا] وعاد بأسرع ما يمكن ليجابه حرباً تهدّد موطنه نفسه انه لم يغامر في الدخول بمعركة مع جيش عزيز الجانب تواق للقتال، بل ولادراكه ان [پلستواناكس] الشاب اليافع، كان يطيع في أكثر الأمور نصيحة [كلياندريدس Clean-srides] الذي بعثه [الايغور] مع الجيش ليكون بمثابة وصي ومساعد للملك الشاب، فقد قام سرّاً باختبار نزاهة هذا المستشار ونجح في افساد ذمته ببلغ من المال، ودفعه الى الاشارة على الملك بالانسحاب وتمّ انسحاب الهيلويونييسيين من آتيكا، وانحل الجيش وتفرق افراده عائداً كل الى موطنه. فاستشاط اللقيديمونيون غيظاً وعمدوا في سورة من غيظهم هذا الى فرض غرامة ثقيلة على ملكهم، فعجز عن تسديدها واضطر الى ترك [لقيدميون]^(٥٣). وهرب [كلياندريدس] وحكم عليه بالموت غياباً. وكلياندريدس هذا، هو والد [غيليبوس Gylipus] الذي استظهر على الآثينيين في صقلية. ويظهر ان الطمع كان مرضاً موروثاً في الأسرة، أنتقل من الأب الى الابن، اذ قبض عليه فيما بعد متلبساً بعمل جرمي مماثل وطرد بسببه من سبارطا. وقد اتينا الى المزيد من الشرح في هذا، عند كلامنا عن سيرة [ليساندرا].

وذكر [بيركليس] في أثناء تلاوته تقريره عن هذه الحملة امام الجمعية العمومية، انه أنفق عشرة تالنتات، بمناسبة معينة في سبيل المصلحة العامة، فصادق الشعب على الصرف دون سؤال أو تحقيق في باب الصرف. ويؤكد بعض المؤرخين ومنهم [ثيوفراستوس] الفيلسوف ان بيركليس اعتاد كل سنة أن يبعث سرّاً الى سبارطا بعشرة تالنتات رشوة لرجال الحكم فيها، لا ليشتري سلمهم، بل ليشتري الزمن، وليستعد على مهله ويكون الأقدر والاكثر استعداداً للحرب.

(٥١) قيل انه قبض على الذئب ووضع الى جانب الذئب الكبير لأن ذئباً قتل لصاً كان قد سرق المعبد ويعوانه المتواصل دل أهل دلفي على الموضع الذي أخفى فيه المسروق [پاوسنياس ١٠-١٤].

(*) في ٤٤٦ ق م

(٥٢) يقول توكيديدس [٢١:٢] ان رعيته حكموا عليه بالنفي بعد ان شكوا في انه قبل الرشوة ليسحب من الحياة العامة.

بعد هذا وجّه جيشه فوراً إلى الثاثرين، وهاجم جزيرة [يوبيا] بخمسين بارحة وخمسة آلاف مقاتل وأستولى على مدنها وطرد المواطنين الخلقيديين Chalaidsians الملقين [هيبوبوتي Hippobotae] أي «علاقي الخيل» ويعتبرون من أغنى السكان وبرزهم سمعة. وأخرج كل [الهستيايين Histiaeans] من البلاد، وأحل محلهم جالية آثينية، ضارباً بهزلاً، مثله الوحيد في الصرامة والشدة لأنهم كانوا قد أسروا سفينة آتيكية وقتلوا كل من فيها.

وعقد هدنة بين الآثينيين واللقيديمونيين، أمدها ثلاثون سنة. وأصدر مرسوماً جمهورياً بالحملة على جزيرة [ساموس] (*)، ولرفضها طلبه بإيقاف حربها مع الميليبيين. ولما كان الرأي يميل إلى أن هذا الإجراء ضد الساموسيين إنما أتخذ أرضاً لسپاسيا Spasia فمن المناسب أن نذكر هنا شيئاً عن هذه المرأة. أي جاذب فيها وای دها، مكنها من إيقاع أعظم ساسة العصر في حبال حبها واستهوائه. ومن ثم اتاحة المجال لحدث الفلاسفة (٥٢) عنها كثيراً، لا بما يشينها أو يجرحها.

ومن الثابت أنها [ميليسية] بالولادة (٥٤)، وإنها ابنة [أكسيوخوس Axiochus] وقيل أنها كانت تمكنت من امتلاك ناصية رجال من ذوي النفوذ والجاه الكبير بتقليدها، [تارجيليا Thargelia] (٥٥) العاهرة التي عاشت في العهد الأيوني القديم، وقد عرفت بجمالٍ نادر، وشخصية ساحرة للغاية يزينهما ذكاء وحصافة مدهشين. وكان عشاقها بين الأغريق كثيرين، وأستمالت كل من كان ذا علاقة بها لموالة الفرس وخدمة مصالحهم بنفوذهم ومراكزهم العالية. وبذلك زرعت بذرة التحزّب للميدّين في مدن كثيرة. هذا عن [تارجيليا]، ويقول بعضهم أن [سپاسيا] أستاذت بقلب پيركليس، واعزازه، لوقوفها الواسع على السياسة وحذقها أساليبها. وكان [سقراط] نفسه يختلف إليها أحياناً مع بعض معارفه، وأعتاد كثير من يختلفون إليها أن يصحبوا زوجاتهم للاستماع إليها. ولم تكن مهنتها تمت إلى الشرف بصلة ما، ومنزلها في الواقع دار للعاهرات الشابات. ويخبرنا [ايسخينيس Aeschines] (٥٦) أيضاً أن [ليسيكليس Lysicles] وهو تاجر أغنام ذو منبت وضيع، وخلق دنيء، أصبح فهو أول شخصية في أثينا بعد موت پيركليس، بسبب معاشرته [سپاسيا] (٥٧). ونحن، وإن كنا

(٥٠) هي ٤٤٠ ق.م.

(٥٢) سقراط وأملاطون.

(٥٤) [ميلتوس] من مدن [أيونيا] أشتهرت بكثرة مشاهير الرجال الذين ولدتهم حتى ضرب بها المثل

(٥٥) قالت ملك تساليا بفضل جمالها. لكنها أعطيت وهي في ريعان الشباب إذ فتك بها واحد من عشاقها.

(٥٦) اسخينوس السقراطي. في محاوراة عنوانها «أسيليا» لم تصلنا.

(٥٧) لايعلم المصنف الذي اشغله هذا الشخص والدرجة التي رفع إليها. فمن اثنين بهذا الاسم لعا مرتبة =

لا يأخذ مقدمة [مينيكزينوس Menexenus] لافلاطون، مأخذ الجد التام، فإن ما تضمنت عن أسباسيا فيه واقع تاريخي، جاء فيه أنها اشتهرت باختلاف كثير من الآثينيين إلى مجلسها ليتعلموا من الكلام منها^(٥٨). ويبدو أن تعلق بيركليس بها كان مبعثه العاطفة والحب على أية حال. كان متزوجاً بقريبة له، سبق أن تزوجت بهيپونيوكوس Hipponicus قبله وأنجبت له [كالياس Callias] الملقب بـ«الغني»، ثم أنجبت لبيركليس طوال عشرينها الزوجية له - ولدين وهما [كرانتيبوس Xonthippos] و[پارالوس Paralus] ثم انفصل عنها برضاها بعد أن ضاقا بالعيش معاً لعدم انسجامهما، فبنت برجل آخر، وتعلق هو بأسباسيا وأحبها حباً جارفاً، وكان يقرؤها التحية ويقبلها يومياً كلما غادر البيت أو عاد إليه من ساحة السوق.

ولقبت بأسماء عديدة في التمثيليات. منها «أومغال الجديدة» و«دينيانيرا Deianira» ولقبت أيضاً «بجونو» وأعطاه كراتينوس^(٥٩) صفتها الحقيقية «العاهرة».

«لقد حملت له يونو هذه، بتلك العاهرة التي لاتعرف الحياء المسماة أسباسيا».

ويبدو أنها أنجبت له ابناً. ففي تمثيلية [ديمي Demi] (ليربوليس Eupolis) قدم شخصية بيركليس وهو يسأل عن سلامة ابنه فيجيبيه ميرونيديس Myronides و«إيني هل هو حي»

«أجل... انه أصبح رجلاً متزوجاً منذ زمن طويل لو لم يخش سوء السمعة لولادته

من أم عاهرة.»

أشتهر أمر أسباسيا على ما يقال وذاع صيتها، حتى أن [كورش] الذي نازع [ارتحششتا] العرش الفارسي سَمَّى أَحَبَّ محظياته إليه باسم أسباسيا وكانت تدعى قبلاً [ميلتو Milto] وهي فوسية الأصل وابوها [هرموتيموس Hermotemus]. ولما سقط كورش في المعركة قتيلاً، حملت إلى الملك^(٦٠)، فكان نفوذها في بلاده كبيراً... خطرت لي هذه الأشياء، وأنا

= السلطة في أثينا، توفي أولهما بعد سنة واحدة من موت بيركليس، ولم يكن محتملاً أن انتفع إلى هذا الحد بعلاقته مع أسباسيا خلال مثل هذا الموقف القصير. أما الثاني الذي كان أصل السبب في نكبة (خيرويا) [ديودورس ٨٨، ١٦] فقد نفذ فيه حكم الموت جراء ذلك في تاريخ متأخر عن الأول بشعين عاماً، وليس من المعقول أن تكون أسباسيا قد عاشت قرناً من الزمن وهو مستقظة بنفوذها.

(٥٨) يجب الآن تصور أن أسباسيا إنما برعت في مطارحات الهوى والحديث التامع الخفيف في الواقع أن أحاديثها كانت جدية عميقة حتى ظن معظم أهل المعرفة الآثينيين بأنها هي التي كتبت خطبة التنبؤ الشهيرة التي ألغاهم بيركليس مخلاً ذكرى أولئك الذين سقطوا في حرب ساموس. ولا يستبعد أن قام بيركليس بشن هذه الحرب بناء على اقتراح منها، انتقاماً من منازعة الميليبيين وقيل أنها رافقته في الحملة وأنها شجعت معبداً تخليداً لنصره هذا [انظر ثوكيديدس ١: ١١٥].

(٥٩) في مسرحية الخيرونيون Cheirons.

(٦٠) أنظر كزنيغون. اناباسيس ١: ٢٠، ١٠.

أكتب القصة فلم أجد من المناسب اغفالها.

على أية حال، كان من أهم المآخذ على بيركليس اقتراحه في الجمعية العمومية إعلان الحرب على ساموس مناصرةً للميليسيين، واکراماً لحاطر اسپاسيا، فالدولتان كانتا مشتكتين في حرب على [پرين Priene]، وكانت كفة الساموسيين راجحة فيها، ولذلك ابوا القاء سلاحهم والاستجابة الى فض النزاع بطريق التفاوض وان يكون الاثينيون المحكمين فيه. فجهز [پيركليس] أسطولاً وأتجه الى جزيرتهم حيث قضى على حكومة الأقلية فيها وأخذ خمسين رهينة من كبار رجالهم ومثله من أولادهم وبعث بهم الى جزيرة [لنوس] وأبقاهم هناك. وذكر بعض المؤرخين أنه رفض عرضاً باقتدائهم بتالنت واحد لكل منهم، فضلاً عن هدايا كثيرة عرضها عليه أولئك الذين كانوا يكرهون جداً إقامة نظام ديمقراطي عندهم: زد على ذلك أن [پسوثنس Pisuthnes] ^(٦١) الفارسي أحد ضباط الملك، الذي كان ذا نوايا طيبة للساموسيين، أرسل اليه عشرة آلاف قطعة ذهبية ليصفع عن المدينة، فردّها [پيركليس] ورفض كل العروض. ومضى قدماً في ما أخطه للساموسيين، وما وجده مناسباً وأقام النظام الديمقراطي عندهم ^(٦٢) ثم ابهر عائداً الى أثينا.

إلا أنهم مالبثوا ان ناروا، وأفلح [پسوثنس] في تهريب الرهائن اليهم وأمدّمهم بكل وسائل الحرب. فكرّ پيركليس راجعاً اليهم بأسطوله فلم يجدهم غافلين ولا منهيين، بل تبين فيهم عزفاً راسخاً على نيل السبطرة البحرية؛ وكانت النتيجة أن پيركليس نال نصراً ساحقاً بمفرقة بحرية ضارية قرب جزيرة تراجي ^(٦٣)، فقد هزم باربع وأربعين بارجة، سبعين بارجة للعدو منها عشرون تحمل جنوداً.

وينصره هذا وما تلاه من مطاردة للعدو، حقق سيطرته على الميناء وألقى حصاراً عليهم وضيق الحناق، وكانوا رغم ذلك يحاولون أن يواصلوا كراتهم بشتى الأشكال، ويشتيكوا في القتال تحت أسوار المدينة، لكن پيركليس اتمّ تطويقهم من كل جهة وحصرهم في مساحة ضيقة جداً من الأرض. بعد أن وصله من أثينا أسطول كبير آخر ^(٦٤). ويذكر معظم الكتاب أن پيركليس أخذ ستين بارجة وأنطلق بها الى عرض البحر عاجزاً على اعتراض سفن الفينيقيين التي خفت لمعونة الساموسيين، وقتالهم في أبعد نقطة ممكنة عن الجزيرة. على أن

(٦١) هو ابن هشتاسب. كان حاكماً على (سارديس) وتبنى قضية الساموسيين طبعاً لأن كبار قومهم هم من الموالين للفرس.

(٦٢) كذلك وضع فيها حامية [ثوكيديس ١: ١١٥].

(٦٣) تراجينا هي جزيرة من مجموعة جزر سيوراندس مقابل ساموس.

(٦٤) يتألف من أربعين سفينة أثينية و٢٥ سفينة أخائية ولسبوسية [ثوكيديس ١: ١١٦].

{ستسمروتوس} يزعم انه ما خرج الأليستولي على قبرص، وهو زعم لاينطوي على إصابة ومهما كانت نيته، فالظاهر انه أخطأ الحساب. لأن {ميلسوس Melissus} القائد الساموسى آنذاك وابس العيلسوف {ايثاجينس Ithagenes} أغرى أهل المدينة بمهاجمة القوات الأثينية الباقية أما مردرياً العدد القليل من سفنهم، أو مستفيداً من قلة تجربة صباطهم وكسب الساموسيون المعركة وأخذوا عدداً من الأسرى كما عطلوا عدداً من السفن وتمت لهم السيطرة على البحر، ونقلوا الى الميناء كل ما يحتاجونه للحرب، ولم تكن يتناول يدهم قبلاً. يقول {ارسطو} أن {موليسوس} كان قد استظهر على بيركليس مرة واحدة في معركة بحرية سابقة.

ووسم الساموسيون الأثينيين الأسرى وسماً على جباههم يُمثل صورة برم غسلأ لإهانة سبق ان أصابهم بها خصومهم هؤلاء. فقد وسعوا عدداً منهم بوسم يمثل سامينة Samaena وهذا نوع من السفن واطي، مسطح من ناحية القيدوم ليبدو كالأنف الأشم، وهو من المؤخرة عريض واسع رحيب يتسع لحمولة كبيرة، ويسهل قياده، وسميت بهذا الاسم لأن أولك من صنعها كان في {ساموس} بنيت بأمر من {بوليقرطس Polycrates} الطاغية وهذا الوسم الذي رسم على جباه الساموسيين نوهت به الفقرة التالية - من أرسطوفان^(٦٥):

«لأن الساموسيين - وا أسفي - قومٌ مُعلّمون بالحروف».

ما أن بلغت أنباء النكبة بيركليس، حتى خفّ مسرعاً لانقاذ قواته^(٦٦) وأوقع بميلسوس الهزيمة وراح يطارد جيشه حتى حصرهم وراح يبنى حولهم جداراً وغايته ايقاعهم جميعاً في قبضته والاستيلاء على المدينة. وان كان في هذا الاسلوب تضحية في بعض النفقات، والوقت فهو يتم عن حرصه على أرواح مواطنيه وعدم التفريط بخسارة فيهم. ولكن صعب عليه كبح الأثينيين الذين أغضبهم هذا التأخير وكانوا تواقين للقتال مصرين عليه. فقسم الجيش كله الى ثمانى وحدات. وسحب قرعة بينهما فكل وحدة يخرج لها حبة الفول البيضاء تسحب من خطّ القتال وتعطي أجازة فيها بروح الأفراد عن أنفسهم ويطربون ويلهون، بينما تستمر الوحدات السبع الأخرى في القتال. والى هذا يعزى تسمية الأثينيين ليوم طربهم ومرحهم باليوم الأبيض إشارة الى حبة الفول البيضاء^(٦٧).

ويخبرنا المؤرخ {إففوروس Ephorus} زيادة على ما تقدم، أن بيركليس استخدم في ذلك

(٦٥) من مسرحية «البابليون» لم تصلنا.

(٦٦) يقول ثوكيديدس ان النجدة التي امره كانت تتكف ثمانين سفينة.

(٦٧) تعتبر حبة الفول البيضاء إشارة على البراعة في القضايا الجنائية وقد جرت العادة بذلك منذ زمن أعدد مما ذكر.

الحصار آلات الثغر، فقد كان شديد الاهتمام بالمستنظبات العجيبة، توافراً لاختصارها. وقد عاونه في ذلك [أرتيمون Artemon] المخترع الميكانيكي، وكان يرافقه في حملته، ولعرج فيه اعتاد أن يجلس في محفة لينقل الى مواقع العمل كلما استدعى الأمر وجوده، ولهذا السبب سُمي [بيريفوريتوس Periphoretus]. إلا أن [هيراقليدس هونتيكوس] يثبت عكس ما تقدم، مستنداً الى شعر [اناكريون]^(٦٨) الذي جاء فيه تنويه [بارتيمون بيريفوريتوس] هذا قبل حرب ساموس والأحداث الأخرى المعاصرة لها بأجيال عديدة. يقول انه كان حريصاً على راحته، شديد الحذر من مداومة الخطر على حين غرة. لهذا اعتاد قضاء جل أوقاته داخل البيوت، وأناط بائنين من خدامه أن يرفعوا فوق رأسه ترساً نحاسياً لئلا يسقط عليه شيء من فوق. وإن استدعت حاجة ملحةً خروجه، حمل في محفة متدلية من قضبان على مستوى واطي من الأرض ولذلك سُمي [پريتوريتوس].

في الشهر التاسع استسلم الساموسيون، وسلموا مدينتهم. فهدم بيركليس أسوارها وصادر سفنها وفرض على الأهليين غرامة مالية ثقيلة، دفعوا جزءاً منها في الحال، واتفق على تسديد الباقي في أجل مضروب. وسلموا رهائن ضماناً لحسن سلوكهم. وقد ألف [دوريس Douris] الساموسي مأساة درامية حول هذه الأحداث متهماً فيها الأثينيين وبيركليس بالفظائع والعسوة الشديدة - دون اعتبار ما للحقيقة، بينما لا ترى ثوكيديدس أو انيوروس أو ارسطو يذكرون شيئاً من هذا. ذكر مثلاً أن بيركليس ساق ضباط السفن وجنودها الى ساحة السوق في [ميليتوس] وهناك شدّ وثاقهم على ألواح خشبية وأبقاهم هكذا عشرة ايام حتى اصبحوا بين أحياء وأموات، ثم أصدر أمره بسحق رؤوسهم تحت ضربات الدبابيس وإلقاء جثثهم في الشوارع والساحات العامة دون دفن؛ كيف يمكن تصديق هذا؟

وعلى اية حال، كان من المحتمل جداً أن يبالغ [دوريس] في المصائب التي حلت بموطنه ليخلق شعوراً بالنفور العام من الأثينيين. فهو كثيراً ما يبالغ في سرده التاريخي حتى يتعدى بعضه حدود الحقيقة^(٦٩)، وإن لم يكن منساقاً وراء غرض أو عاطفة.

والحاصل، عاد بيركليس الى اثينا بعد اخضاعه الساموسيين، وأهتم بدفن أولئك الذين سقطوا في ساحة الحرب، دفنة مشرقة لائقة، وألقى بتلك المناسبة خطبة تأبين حسب العادة،

(٦٨) تحد هذه الايات في الاثيناوس (٩:١٢). الحقيقة ان الراء لا يسعه الا الاستغراب من وجود شخصين بعين الاسم وعين الاخلاق والنقص العقلي. إلا ان المهندس الذي رافق بيركلس ربما لا يتفق في شيء مع الآخر ما عدا الاسم. وان پلوتارخ وقع هنا في وهم عندما عزا اليه كل هذه التفاصيل.

(٦٩) عاصر بطليموس فلاذيلفوس. يقول عنه شيشرون ان دقيق وامين.

أثناء مواراتهم التراب، أثارت عظيم الإعجاب^(٧٠)، حتى أنه عندما هبط من المنبر، أقبلت عليه النسوة وأخذن يمدحنه وقُذنه من يده وضفرن على رأسه أكاليل الغار والشرائط، كاحتفاءً بـ «بلرياضي الفائز في الألعاب». وهناك دنت (الـ «بينيكي») منه قائلة: «لقد أتيت بايريكليس بأعمال البطولة والبسالة وهو ما تستحقه أكاليل غارتا التي جعلتنا نفقد كثيراً من كرام مواطنينا لا في حروب مع الفينيقيين أو الماديين كحروب كيمون، بل لقهر وأخضاع دولة حليفة ارتبطت معنا برابطة الدم والصداقة» وقيل أنه كان يتسم ابتسامة رقيقة أثناء حديث البينيكي، ولما أنهت ردّ عليها بهذا البيت من الشعر:

«ينبغي للعجائز من النساء ألا ينشدن التعطر»^(٧١)

وقال عنه [آبون] أن العظمة ركبت بعد مأثرته هذه في انتصاره على الساموسيين، وبدأ ينظر إلى نفسه نظرة التباه المذلّ فلقد أقتضى عشرة أعوام [الأغاممنون Agamemnon] حتى يستولي على مدينة من مدن البرابرة. في حين لم يقتض بيركليس أكثر من تسعة أشهر للاستيلاء على أعظم مدن الآيونيين وأقواها. ولهذا كان له ملء الحق في الفخر بهذا المجد الذي كسبه لنفسه. فقد كانت حرباً تنطوي على مخاطرة كبيرة، وكان هناك شك أكبر في نتيجتها. هذا إذا صدق ما قاله لنا [ثوكيديدس] عن اقتراب ساموس على قيد خطوة في انتزاع السيادة البحرية من أيدي الآثينيين.

بعد هذا^(٧٢)، بدأت حرب البيلوبونيس تتخذ شكلاً خطيراً وتبلغ مرحلتها الحاسمة. ونصح بيركليس مواطنيه أن يرسلوا نجدة للكوكريين Cocyraeans الذين تعرضوا لهجوم الكورنثيين^(٧٣). وأن يضعوا يدهم على جزيرة ذات موقع سوقي بحري هام جداً. مادام بادر

(٧٠) هذه المروية التي أُلقيت في السنة الرابعة من الألباد الرابع والثمانين هي غير الخطبة الشهيرة التي القاهها بمناسبة تبين فولئك الذي سقطوا مصرعى في بداية حروب البيلوبونيسس. في السنة الثالثة من الألباد السابع والثمانين (توكيديدس ٢: ٢٥-٤٦). أن الأريوباغوس هو الذي يختار الخطباء في هذه المناسبات. ولم يكن بالشرف القليل لبيركليس أن يختار مرتين لتعزية بلاده بالفاجعة.

(٧١) معناه «لقد بلغت من الكبر حداً بحيث لايجمل بها التدخل في الشؤون».

(٧٢) أي بعد الاستيلاء على ساموس بخمس سنين. وبالضبط في السنة الثانية من الألباد السادس والثمانين [بدأت حروب البيلوبونيسس في السنة الثانية من الألباد السابع والثمانين].

(٧٣) هذه الحرب بدأت في ٤٢٣ ق.م بخصوص أراضي إبيدأمفوس المدينة الصغيرة في مقدونيا التي بناها الكوركيين وكان لهؤلاء قوة بحرية عظيمة لا تعدلها إلا بحرية الآثينيين. طلب هؤلاء الكورثيون المعونة من الآثينيين في أن واحد ومن قصائد الشعراء الهزليين وهم صدق صوت الجمهور الأمين - يمكن أن نعرز سبب الحرب إلى الغضب الذي اجتاحت اسيا لاهانة وجهها إليها بعض من شبان ميغار. ويزعم آخرون أن بيركليس إنما شتها لصماية نفسه والتخلص من تقديم حساب على فترة حكمه. إلا أن هذه الأسباب غير معقولة لأنها ليست جديرة سياسيًا شهير مثله لا تستقيم مع خلقه ومنزله. ويدحض =

كل [البيلوبويس] بالأعمال العدوانية ضدهم. فوافق الجميع على اقتراحه بلا تردد، وصوّتوا على ارسال معونة ونجدة عسكرية لهم. فبعث بيركليس اليهم بلقيديونيوس^(٧٤) ابن كيمون على رأس عمارة بحرية تتألف من عشر سفن لا غير. وكان يقصد بهذا الإجراء ان يحنّيه الإهانة. فلما كان بين اسرة [كيمون] واللقيديونيين عطف متبادل وصداقة فقد تعمد أن يسيط به هذا العدد الضئيل من السفن حتى اذا فشل في مهمته وأخفق في تحقيق مأثرة في الحملة فلن يعزى ذلك الى مبالاة للقيديونيين أو على الأقل لكيلا يشك في مسلكه أو يتهم بالغدر؛ والواقع أن ارساله كان ضدّ رغبة بيركليس، لأنه ما فتىء يحتاط للحيلولة دون ارتقاء ابنه، كيمون في مناصب الدولة، وحبته في ذلك أن أسماهم وحدها تجعل الناس لا ينظرون اليهم نظرة المواطنة الآثينية، بل أن يعتبروهم أجانب وغرباء عنهم. فأحدهم يدعى (لقيديونيوس)، والآخر (تسالوس Thessalus) والثالث (إيليوس Eleaus)، والمظنون أن ثلاثتهم جاؤوا من أم اركادية. ومهما قيل عن نجدة السفن العشر والانتقاد الموجه اليها باعتبارها معونة تافهة جداً، لقرم كانوا يعانون ضيقاً شديداً كما أنها في الوقت نفسه وقعت بمبرر قوي لأولئك انتقدوا بيركليس لتدخله في الحرب. فان آثينا بعثت بعد ذلك بقوات أكبر، الى (كوركيरा Corcyra)^(٧٥) الا انها وصلت بعد انتهاء القتال. وأشدت سخط الكورنيثيين وغضبهم على الآثينيين واتهموهم علناً في لقيديون، وساندتهم الميغارئون في ذلك متظلمين من قيام الآثينيين بابعادهم عن كل سوق وطردهم منها ومن جميع الموانئ الواقعة تحت سيطرتهم خلافاً للحقوق العامة المشتركة التي أقسم على احترامها كل دول الأغريق في عهد السّلام المتفق عليه. وأعلن الايجينيون أيضاً بأنهم عوملوا معاملة سيئة قاسية وطلبوا من اللقيديونيين انصافهم ولم يجروا على تسمية الآثينيين وانهاهمم بالاعتداء جهراً. كما أعلنت مدينة (پوتيدا Poti-daea) الثورة على سادتها الآثينيين في الوقت نفسه، وكانت قبلاً من مستعمرات الكورنيثيين. فألقى عليها الجيش الآثيني الحصار وكانت سبباً آخر من أسباب الحرب.

ومع هذا فقد وفد الى اثينا سفراء للتوسط في السّلام، وبذل (ارخيداموس) ملك اللقيديونيين مجهودات صادقة للوصول بمعظم الشكاوي والخلافات التي هي مدار النزاع -

= ثوكيديدس هذه المزايع وهو محايد غزير المطومات. والتعليل المعقول الوحيد هو الصمد الذي ابتليت به اثينا بسبب ما بلغت من منعة وقوة ومهابة بعد انتصارها في الحرب الميديّة. وسلوكها المشوب بالتعالي والعجرفة واستنكار سيطرة اروح التسلط فيها.

(٧٤) يقول [ثوكيديدس] لم يكن قصد الآثينيين مساعدة الكوركييري بصورة فعالة. وإنما كان ارسالهم العمارة البحرية الصغيرة من أجل المراقبة ومتابعة تطورات القتال في حين يصاب القريقان بالانهك هذا فصلاً عن انه لم يكن القائد الوحيد فقد زامله في القيادة كل من ديوتينس و«پروتياس» (١ ٤٥).

(٧٥) إلا أن هذا الأسطول الذي تألف من عشرين سفينة حال دون اشتباك ثان كانوا قد تهيأوا له [ثوكيديدس ١ ٥٠].

الى حلول عادلة مرضية للأطراف المعنية، ولتهدئة عواطف الحلفاء المستوفزة وكان من المحتمل جداً أن لا تقع مغبة الحرب على الآثينيين لأي سبب من أسباب النزاع لو أنهم وافقوا على الغاء قرارهم ضد الميغاريين، وهو الذي عمل على إثارة عاطفة العداة للميغاريين في نفوس الآثينيين، فإنه بعد مثير هذه الحرب الأوحده.

ويذكر المؤرخون في هذا العدد، أن السفراء الموفدين وحلوا من لقيديون الى اثينا للبحث في هذه القضية، وقيل أن بيركليس تعلل بوجود قانون يحرم عليه انزال أو الغاء أي لوح كتب عليه قرار اتحده الشعب. ومنها اللوح الذي كتب عليه القرار ضد الميغاريين، فعقب أحد السفراء المسمى (بولياسيس Polyalscis) قائلاً: «لا بأس إذن، لانتزله، بل أدبروه على وجهه الثاني إذ لا يوجد قانون يمنع ذلك»^(٧٦). ومع أن قوله هذا كان تعريضاً جميلاً لبيركليس، فإنه لم يزعج الرجل عن موقفه ولم يشنه عن عزمه؛ وبغلب الاحتمال أن يُظن فيه نية خفية أو عداوة مستمرة بينه وبين الميغاريين، ولكن تصرفه التالي ينفي هذا الظن، فعند طرح التهمة للعمامة، وهي اغتصابهم جزءاً من الأراضي المقدسة على الحدود^(٧٧)، تقدم هو نفسه باقتراح يقضي بارسال مناد اليهم أولاً ثم الى اللقيديمونيين ثانياً يحمل صيغة الاتهام للميغاريين، وهذا عمل يبرهن بما لا يقبل الشك على نية طيبة تتحرى العدل. ثم ان المنادي الموفد (انثيموقريطس Anthemocritus) قضى نحسه. وظن أن للميغاريين ضلعاً في مرتبه. فقام (خارينوس Charinus) بقتراح اصدار بيان ضدهم بالصيغة الآتية: «سيكون من الان فصاعداً عدا، مستحكم لا شافع فيه بين الجمهوريتين. وإن وُضع ميغاري قداماً في آتيكا يقتل حالاً. وان يضاف الى أولك اليمين المعتادة التي يحلفها القواد العسكريون، تعهدهم بالقيام بغارتين على بلاد الميغاريين سنوياً، وان يدفن (انثيموقريطس) بالقرب من الباب الشراسي، المسمى الآن دپليلون Diptylon أو الباب المزدوج.»

وانكر الميغاريون انكاراً باتاً تهمة تدبير مقتل انثيموقريطس^(٧٨) وتصلبوا منها والقوا اللوم كله على أسباسبيا وبيركليس مستشهدين بالابيات الأخارنية Acharnian المشهورة التالية:

(٧٦) للمزيد من التفاصيل قارن ثوكيديدس [١:١٤٠] وغيره.

(٧٧) ان الارض التي تقع بين ميغارا وآتيكا، كرسيت للربنتين الاثوسينيين (كيريس) و(بروسپيريي) كذلك اتهم بيركليس الميغاريين بادهم كانوا يؤمنون الحماية للعبيد الاثينيين.

(٧٨) لم يورد [ثوكيديدس] أي ذكر لهذا المنادي، على ان الميغاريين كانوا يعتبرون مدبري هذا القتل حتى اتهم عوقبوا عليه وإن بعد اجيال عديدة. ولهذا السبب حرمهم الامبراطور هادريان كثيراً من الامتيازات. والاضاف اني حصص بها مدن الاغريق الأخرى ان ضريح انثيموقريطس كان على جانب الطريق المقدسة لمودية الى ايليوس [پاوسنياس ٣:١٦٠].

خرج الى الميغارين بعض رجالنا الأغرار الطائشين السكارى. واغتصبوا منهم عاهرتهم [سيميثا Simaetha] فلأجل أن ينأر المغاريون لهذا العمل. إقتحموا منزل [اسباسيا] وأختطفوا عاهرتين منها.

ليس من السهل معرفة السبب الحقيقي للحرب. إلا أن الجميع يلقون تبعته على بيركليس، لأنه حضّ على رفض الفاء البيان الصادر ضدّ الميغارين. وزعم البعض أن رفضه الطلب بصورة باتة كان متمشياً مع مصالح البلاد التامة، نابعاً من معنوية عالية. فقد استخلص فكرة، أن الطلب الذي تقدمت به السفارة، كان يرمي الى اختيبار اعصاب الآثينيين، وأن أي تنازل منهم سيؤخذ بمثابة أقرار بضعفهم، ويظهرهم بظهر العاجز الذي لا مخرج له غير هذا الحل؛ وهناك من يقول أن الرفض كان مبعثه التحدي والرغبة في القتال، اظهاراً لقوته، وخلقة مناسبة لتحقير اللقيديمونيين.

وأشدّ الدوافع هي الحادثة التالية التي أكدت علاقتها الوثقى بالحرب، معظم الشواهد والأدلة: كان فيدياس قد قام بعمل تمثال لمنيرفا على نحو ما بينا. وقد ابتلي بعداوة الكثيرين غيرة منهم وحسداً لأنه يتمتع بمكانة كبيرة وصداقة متينة عند بيركليس وهذا ما دفعهم الى تليفق تهمة عليه ساقته للمحاكمة الشعبية، وغرضهم من هذا أن يختبروا اتجاه الشعب كقاضٍ إذا ما ستحت لهم فرصة تقديم بيركليس امامه بتهمة ما. وكان سيلهم الى فيدياس وانهم اغروا عاملاً من عماله يدعى [مينون Menon] ودفعوا به الى ساحة السوق وبيده عريضة يطلب فيها منحه الأمان الجمهوري عند ادعائه على فيدياس، فأجيب طلبه، وسُح له بسرد شكواه. وفي المرافعة التي أقامها الادعاء العام ضده امام الجمعية العمومية لم يثبت عليه سرقة أو غش، لأن فيدياس الذي أخذ بنصيحة بيركليس من البداية وعمد الى الذهب المخصص للتمثال فكساه كالقميص به بصورة يمكن معها نزع ووزنه بصورة دقيقة، على أن صبت أعمال بيركليس العبرانية هي التي جرت المصائب على فيدياس، ولا سيما تصويره حرب الامازونات في سبيل ترس الأكلهه. فقد رسم صورته، شيخاً أصلع الرأس رافعاً صخرة عظيمة بكلتا يديه. ورسم صورة أخرى تشبه بيركليس شبيهاً تاماً وهو يحارب الامازونات، وكان وضع اليد المسكمة بالرمح أمام الوجه محاولة بارعة من المثال لحجب الشبه الى درجة ما، إلا أنه كان واضحاً وضوحاً كافياً من الجانبين.

وعلى هذا أودع [فيدياس السجن ومات فيه عرض^(٧٩)، أو على ما قيل بسم دسه له أعداء.

(٧٩) يزعم بعضهم انه نفى وانه صنع في فترة منفاه تمثاله الشهير «جوبيتر في الاولمب» الذي لم يبذه في الفن والدقة غير تمثال [منيرفا] الذي جاء ذكره في المتن.

بيركليس لإثارة فضيحة أو شكوك على الأقل حول بيركليس بوصفه قاتله. واقترح (غليكون Glycon) اغفاء [امينون] من الضرائب والمكوس وايضا القادة بالمحافظة على سلامته فأجاب الشعب بالموافقة.

ثم تلا ذلك الاتهام اسباسيا بتعاطي السقاء، يشكوى قدمها (هرميپوس) الممثل الكوميدي، وزاد عليها تهمة أخرى، هي استقبالها في بيتها مواطنات من طبقة الأحرار، ليستمتع بيركليس بعشرتهم. كذلك تقدم (ديريپيوس Diopithes) باقتراح سن قانون يقضي برفع الدعوى العامة على كل الأشخاص الذين يهملون شعائهم الدينية أو يبشروا بالمباديء الجديدة عن الأمور العليا، موجهها الشك الى بيركليس عن طريق (اناكساغوراس)، وكان قبول العامة بهذه الأمور وموافقتهم على التهم، يتمثل في اصدارهم بياناً (بناءً على اقتراح (دراكونيتدس Dracontides) يقضي بحاسبة بيركليس على الأموال التي انفقها أمام الپريتان^(٨٠) وأن القضاة يجب أن يجزوا المرافقة بالبطاقات التي توضع فوق هبكل الاكربوليس، فذبح الربة في الاكروبولس^(٨١) داخل المدينة، لكن (هاغنون Hagnon) الغنى الشرط الأخير من البيان، وأقترح أجراء المحاكمة أمام ألف وخمسمائة مواطن محلف. سواء أشاء الادعاء اسناد تهمة السرقة أو الرشوة أو غيرها. وتشفع بيركليس باسباسيا ذارفاً دموعاً غزيرة وترجى المحلفين في أمرها شخصياً، على ما روى (ايسخينوس)، ولكنه عمد الى أخراج اناكساغوراس من المدينة لحوفه عليه^(٨٢)، وتأمل فوجد انه لم يفلح مع الشعب في قضية فيدياس خوفاً من أن يتمدّد الاتهام اليه. لذلك استعجل باشعال نار الحرب وكانت خادمة هامدة حتى الساعة أوقد لهيبها مؤملاً بهذه الخطة أن يضيّع معالم التهم وبعثر الجهود

(٨٠) هم كما ذكرنا في حاشية سابقة اعضاء مجلس الشيوخ الخمسمائة الذين اصبحوا السلطة العليا في ذلك الزمن.

(٨١) في بعض القضايا الفارقة للمادة، حيث يتطلب من القضاة التمسك بأق موازين العدالة والشكليات، عليهم ان يتسلموا رعايهم من فوق مذبح [نبتون] على حد قول هيرودوتس ٨ ١٢٨، وعليها يدون احكامهم أو أن يتناولوا حبات الفاصوليا البيضاء أو السوداء. وما يقصده بولتارخ من قوله . وان يعروا المرافعة داخل المدينة يصعب اطباء تفسير له إلا اذا كان المقصود به الجمعية العامة للشعب كله. أما الألف والخمسمائة التي جاءت بعد العبارة فربما كان يقصد بها محكمة هلياي، سميت بهذا لأن القضاة يجلسون في الهواء الطلق معرضين لاشعة الشمس. والمحكمة من هذا النوع تتشكل من هذا العدد في لحالات الخاصة.

(٨٢) كان اناكسغوراس يؤمن بالوحدة الالهية اي بوجدانية اله الحكيم الخبير العليم خالق هذا الكون الحميل من عالم القوصى إن كان هذا دين المعلم فلاشك ان الناس سيتنتجون بان التعميد [بيركس] على دين المعلمه وانه يرفض فكرة تعدد الالهة السائدة في ذلك زمن. هذا الرفض ينطوى على أعظم الخطر. فقد تبين بعد فترة وجيزة اي في عهد سقراط بأنها عقيدة مهلكة.

في ملاحظتها واسكات تحامل الأعداء والحساد. فالمدينة عادةً تلقى بحملها عليه في الملمات، والخطر ولا تنق بغير قيادته لقوة شكية وحزمه.

تلك هي مجموعة الأسباب التي دفعت بيركليس، على الأ يرضى لأهل آئينا بالانصياع الى مقترحات اللقيديمونيين. إلا أن وجه الحقيقة فيها غير واضح.

واللقيديمونيون من جهتهم، كانوا يدركون أن بإمكانهم حمل الآثينيين على قبول أية شروط شاؤوها لو نجحوا مرة واحدة في ازاحة بيركليس ولذلك أرسلوا يطلبون منهم طرد «الدنس» الكيلوني Cylon الذي علق ببيركليس من جهة أمه. كما ذكر لنا (ثوكيديس) (٨٣). فباؤا بعكس ما أملوا، وبدلاً من وصفهم شخصيته بأنها موضع شك ونفرة. رفعوا من قدره في نظر مواطنيه وزادوا الثقة فيه، بوصفه اكراه الناس الى أعدائهم وأخوف ما يخافون. وأستبق بيركليس غزوة [ارخيداموس] لآتيكا على رأس حلف الپيلوپونيسوس بابلاغه الآثينيين أن ارخيداموس في أثناء اجتياحه البلاد، سيستثنى متعمداً أراضيهم من التخريب إما لحقوق صداقتهمما والتكريم المتبادل بينهما. وأما لإعطاء أعداء بيركليس فرصة للنيل منه بالشبهات. لذلك فهو يهب للدولة كل أراضيهم وما عليها من بناء، اللاتفاف العام

وماليت اللقيديمونيون وحلفاؤهم أن هاجموا أراضي آتيكا بجيش جرار تحت قيادة [ارخيداموس]. وخربوا ودمروا حتى بلغوا [آخارني] (٨٤) وهناك ضربوا خيامهم متوقعين ان الآثينيين لن يحتملوا وسيخرجون لقتالهم دفاعاً عن بلادهم واستنقاذاً لشرفهم، لكن بيركليس ابى أن يتعرض لستين ألف مقاتل من الپيلوپونيين والبيوتيين - في معركة تنطوي على مخاطر كبيرة قد تؤدي الى ضياع المدينة نفسها، وبذل جهوداً عظيمة في تهدئة المتشوقين الى القتال المستائين المتألمين لما آلت اليه الأمور، ونصحهم بخير الكلام كقوله «الأشجار اذا قلعت أو قطعت لا تلبث أن تنمو ثانية. لكن خسارة الرجال لا تعوض بسهولة». ولم يدع العامة الى الاجتماع، لئلا يرغموه على عمل معاكس لخططه إلا أنه كان أشبه بقائد الدفة البارع أو ملاح السفينة عندما تثور العواصف الهوج وهو في عرض البحر، يتخذ كل التدابير ويحتاط ويتأكد بأن كل شيء هو في محله، ثم يتبع ما يمليه عليه علمه وبراعته، ويحصر كل مجالات تفكيره في شأن سفينته، غير ملق بالآ على دموع الركاب المذرة، ولا على ضراعة المصابين

(٨٣) يقصدون افراد الأسرة الاكيميونية التي كانت قد وصمت بوصمة عاد الدم عندما قتل الأرخون ميغاكليس في حدود العام ٦٣٦ ق.م اتباع (كيلون) كقراً منه وتجديفاً. انظر صيرة صولون [ثوكيديس ١٢٦١ و١٢٧].

(٨٤) إقليم آخارني وهو اكبر الاقاليم المرتبطة بآثينا يستطيع أن يجند من مواطنيه ثلاثة آلاف مقاتل. وكان يبعد عن المدينة ألفاً وخمسمائة خطوة فحسب.

بالخوف ودوار البحر. فاحكم أغلاق مداخل المدينة، وثبت الحاميات العسكرية في كل المواقع السوقية، زيادة في الحذر، متبعاً وحي ضميره ورايه غير مكترث بمن ينتهرونه سخطاً عليه واستنكاراً لحططه. وكان كثير من أصدقائه يلحون بالرجاء وكثير من أعدائه يتهددونه بالويل، وينتهمونه بخطأ ما يفعل. وعمد عدد كبير الى نظم الأغاني وقصائد الهجاء فيه، وراح أهل المدينة يتعنون بها ويذيعونها زيادة في الفضيحة، وكلها تصبّ اللوم عليه لجنبه في تمشية شؤون القيادة، والتنازل الذليل للعدو عن كل شيء.

ومن هاجمه، (كليون Cleon)^(٨٥). فقد أستفاد من شعور السخط المتنامي ضده، متخذاً من هجومه مرقاة للزعامة، كما بدا من (مخمّس) هرميپرس واليك مصراعين منه:

«أيا ملك المسوخ والهزل! أستبقى أبداً

تستخدم الكلام التافه بذل السيف؟

فيه وحده كنت تدبر دفة الحرب

حتى الآن فتزعج أذاننا حتى لكان

تيلس Teles قد جاءت ثانية؟

لو أن أصغر مدينة وضعت على المسنّ

ليكون حذها ماضياً، فانك تصرف

أسنانك فرقاً كأنك أصبت بضربة كليون النارية

على أن هذا لم يحدث أثراً ما في بيركليس. لم يعبأ قلامة ظفر بتلك التهجمات، بل أحتملها بصبر، وسكت محتسباً عن الإهانات التي صبّوها عليه والتخرصات التي ارادوا بها تشويه سمعته. مضى في خطته قدماً، فبعث بأسطول مؤلف من مائه بارجة الى اهيلويونيسس وبقي هو في المدينة لتصرف الأمور برقابته المباشرة، الى أن رفع اهيلويونيسس مضاربهم ورحلوا، على أنه أخذ بتوزيع الأموال العامة وأصدر قانوناً يقضي باعادة توزيع الأراضي الزراعية. وطرد كل أهالي [ايجينا] ووزع اراضيها بالقرعة على الأثينيين، سعياً لإرضاء عامة الشعب المتألم الحائق من الأسلوب الذي اتبعه في الحرب وترفيهاً لهم وتخفيفاً عن شقائهم لما عانوه من الحرب، ورداً للكيل الذي كاله العدو لهم.

(٨٥) هو عين [كليون] الذي سخر منه (ارسطوقانس). تمكن من الفوز برتبة الجنرال، نتيجة خطبه واثانيه السياسية.

أجتاح الاسطول الذي أرسله الى البيلوبونيسس قسماً واسعاً من بلادهم وعاث سلباً وبهياً في المدن والقرى، ثم ما عثم أن زحف هو برآ على بلاد الميفاريين^(٨٦) بجيش وخرّب ودمر على هواه، ولو أن ما لقيه [البيلوبونيين] من الآثنيين في البحر، يقل عما لقيه الآثينيون في البر منهم، لما أطالوا أولئك من أمد الحرب. بل وسارعوا الى انهائها^(٨٧)، وهو عين ما تنبأ به بيركليس وتوقع حصوله لولا تدخل المشيئة الربانية التي تعتمد أحياناً الى احباط مساعي البشر، والإخلال بخططهم.

فالبدرجة الأولى دهم المدينة المرض الوياتي أو الطاعون وراح يقضي على زهرة شبابها وأصلبهم عوداً، وأصاب بعدواه النفوس فضلاً عن الأبدان فعميت البصائر، وساءت الأزجة، وهب الناس كالمجانين المسعورين يصرخون في وجه بيركليس، وراحو كالمصابين بنوبة هذيان يصبون جام غضبهم على طبيبهم المعالج، أو بالأحرى على أبيهم. إذ طفق أعداؤه بروجون بينهم أن سبب الطاعون إنما هو ناشئ عن تقاطر أهل الريف الى المدينة وأكتظاظها بهم واضطرارهم الى العيش مزدحمين في أماكن ضيقة ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً، وأنحشروا معاً في منازل صغيرة وأكواخ فاسدة الهواء. في قبض الصيف، وبقوا يعيشون داخلها عيشة التعطل والخمول بعد اعتيادهم العيش في الهواء الطلق النقي، وكان الحديث العام: إن الحرب التي أثارها هو، كانت السبب والعلة في تكالب العدد الضخم من المتعطلين في عمل ما وابقائهم مكدرين تكديساً كالبهائم فتتك بهم العدوى دون أن يهي لهم أسباباً للانتقال أو الوقاية.

اراد بيركليس إيجاد حل لهذه المآسي واصابة العدو بشيء من القلق، فأعد مائة وخمسين^(٨٨) بارجة وأصعد اليها قوات كبيرة من المشاة والخيالة المجريين وتهيأ للأبحار، مُفسحاً للأمل سبيلاً الى نفوس مواطنيه، باعشاً الخوف والفرق في نفوس أعدائه بهذه القوة الضخمة. وبعد أن سد كل بارجة حاجتها من الرجال وصعد بيركليس سفينته، شاءت الصدفة أن يقع كسوف^(٨٩) شمسي فاكفهر الجو وساد الظلام فجأة فتطير الجميع واعتبروه دليل نحس

(٨٦) جرد حملته في الخريف بعد انسحاب اللقيديمين [توكيديس ٢: ٣٦].

(٨٧) في الواقع عدلوا عنها وعادوا الى سبارطة. إلا أن أرخيداموس عاد في السنة التالية وإن لم يلخط بولتارخ ذلك. وفي أثناء هذه الهجمة الثانية انتشر الطاعون في العام ٤٣٠ ق.م [قارن توكيديس ٢: ٤٧-٥٤] الذي يصفه وصفاً دقيقاً ويقال انه جاء من بلاد الجيئة ونشر دماراً تاماً وهو في طريقه.

(٨٨) كان قوام الحملة مائة سفينة أثينية استوعبت اربعة آلاف مقاتل. ولحق بها سفن نقل كانت تحمل الخيول. كما كان ثم خمسون سفينة أخرى من خيوس وليسيوس [توكيديس ٢: ٥٦].

(٨٩) هنا أيضاً يخلط بولتارخ بين حملتين والكسوف وقع في مجيء الحملة الأولى [توكيديس ٢: ٢٨].

عظيم. والتفت بيركليس فرأى قائد دفة سفينة يتملكه الرعب والخيرة لا يدري ما يفعل مما كان منه إلا أن رفع عسائه ونشرها وهي مفجوجة امام وجه الملاح فحجب نظره «أرى في هذا الستر بأساً أو أي إشارة الى ضرر محتمل؟» فأجاب الرجل بالنفي. فقال بيركليس «فكيف اذن وبأية صورة يحتلف هذا الحجاب، عن احتجاب الشمس إلا بأن الذي سبب الظلام هالك أعظم من العباءة»، هذه حادثة كان الفلاسفة يروونها لتلاميذهم.

ومهما يكن لم يبق بيركليس على ما يبدو بمأثرة بحرية تستحق الذكر وتوازي استعداداته الكبيرة، عند الخلافة ذلك الأسطول. ثم انه القى حصاراً على المدينة المقدسة [إبيداروس Epi- daurus]^(٩٠) ولما ظهر ما يدل على قرب استسلامها له، تفشى المرض بين جنوده فقصى على أمهله، ولم يصب الداء الاثنيين وحدهم بل سرت عدواه الى كل من كان على صلة بالجيش. أخيراً وجد أن صبر الاثنيين قد نفذ، وروحهم بلغت التراقي. فبذل جهوداً جارية في تهدئتهم وتقوية عزائمهم فكان كمن يضرب في حديد بارد^(٩١)، وعجز عن ازالة سخطهم أو أرضائهم ولم تنجح أي حيلة معهم. والقوا بأصواتهم جميعاً ضده، وأستعادوا سلطتهم منه ونحوه عن القيادة مع تفرغه مبلغاً من المال، أقل ما قدره المؤرخون بخمسة عشر تالنتاً، وأكثر ما ذكره خمسون، ويحدثنا [إيدومينيوس Idomeneus] أن المدعي وصاحب الشكوى كان (كليون)، وإن [سمياس Simmios] يتأثر في ذلك خطي [يثوفرستوس]. اما هيراقليدس بونيثكوس فهو يتفق مع [لاكراتيداس Lacratidas] في مقدار الغرامة.

بعد هذا اشغلت الاضطرابات العامة الناس عنه، أو بعبارة أخرى أفرغ الشعب سمّ حنقهم كله في الضربة التي وجهت له، وحلّف حشده في مكان اللسعة، وتركوه لشأنه. إلا أن أحواله العائلية كانت أسوأ ما يخطر بالبال. فكثير هم أصدقاؤه ومعارفه الذين قضوا بالوفاة. أما أعضاء أسرته فكان الثنايز والتباغض ينهش فيهم، ورفع جميعهم ما يشبه راية العصيان عليه؛ كان ابنه الشرعي البكر [كزانيتيوس] متلاًفاً سفيهاً بطبعه؛ وزاد من سوء حاله زواجه ببنت [تيساندر Tisander] ابن [إبيليكوس Epilycus] الفريرة المسرفة وكان يشكو مرّ الشكوى تقشير أبيه عليه ومنحه مرتباً تافهاً لا يدفعه له إلا باقسط زهيدة. وفي أوقات متباعدة. وبسبب ذلك بعث الى صديق يوماً يطلب اقراضه بعض المال باسم أبيه، زاعماً أنه

(٩٠) هي اركيا. كرسيت [اسكولاپيوس] ويصفها بلوتارخ بالمقدمة ليقرقها عن بلدة أخرى في (لافونيا) بالاسم عينه لم يأت (توكيديس) الى ذكر هذه الفاجعة. لكنه يقول ان بيركلس فشل في محاولاته تلك لا في [إبيداروس] وحدها بل (طروزين) و(ايرمينوني) وغيرها ولم يستدل إلا على (بروسيا) وهي بلدة بحرية في لافونيا.

(٩١) حفظ لنا توكيديس (٦٠:٦١-٦١) خطبته بهذه المناسبة.

فعل ذلك بأمر منه. وأقبل الدائن على بيركليس يطالب يدينه، فامتنع هذا عن الدفع فأقام عليه الدعوى. ووقعت الإهانة على الابن وقعاً شديداً وتحلل من قيود البنوة وراح يبدد بأبيه علناً وأخذ يتندر في مبدأ الأمر بقتصص عن أحاديث أبيه في مجلسه ومناقشات مع السوفسطائيين كذكره مثلاً: كيف أن واحداً ممن كان يجيد الألعاب الخمس المفضلة، قتلَ [إبيتيموس Epitimus] الفارسالي Pharsalion بطعنة رمح أو خطي من دون أن يدري ما فعل، وخلاقاً لارادته وكيف قضى أبوه خمسة أيام في نقاش جدي مع (بروتاغوراس Protagoras) (٩٢) في أيهم المسؤول عن القتل: الرمح؟ أم الرجل الذي قذفه أم اساتذة اللعبة المؤسسون لهذه الألعاب، وذلك بحسب أسلم المبادي، العقلية وأقربها إلى المنطق.

وكذلك يذكر لنا [ستسيمرونوس] أن [كرانتيموس] هو الذي روج بين الناس تلك القصة الشنعاء عن علاقة زوجة بأبيه. وعلى العموم ظلت القطيعة بين الأب والابن ولم يرأب الصدع حتى موت الابن باول موجة وباء الطاعون. وفي غضونه أيضاً فقد بيركليس أخته ومعظم خلاته وأقربائه ومن أقرب الانتصار له في شؤون الحكم وأنفعهم. وعلى كل بقي عزمه لم يهن أزاء هذه الصدمات، ولم يبد ضعفاً أو يفضح مشاعره وظلت معنوياته عالية، وفكره ثاقباً ولم تنل منهما تلك النكبات. ولم ير باكياً أو محزوناً، أو يحضر دفن أي من أصدقائه أو أقربائه، حتى تكل ابنه الشرعي الثاني وهو الواحد الباقي. فخارت قواه لشدة الضربة، ومع ذلك حاول التصبر، والتجملد، إلى أن حلَّ يوم قيامه بشعائر التشييع، فتغلَّبت عليه العاطفة أمام منظر فقيده، عندما قام بضفر أكليل الزهر على الرأس، فصرخ صرخة أليمة. وتفجَّر دمه الحبيس وسال حاراً على خديه. تلك هي المرة الوحيدة التي أبدى فيها مثل هذا الضعف سائر حياته.

بعد أن أخذت المدينة تختبر القادة العسكريين الآخرين، لغرض مواصلة الحرب، وتعجم عود الخطباء لغرض اناطة شؤون الدولة بهم، وعندما تبين لها أن ليس فيهم من يضاهيه أو يعدله، ولا من يجاريه في الحزم والبراعة في الحكم بما يكفي لاثنتانهم على واجب له مثل هذا الوزن من الخطورة؛ انتابها أسف شديد لخسارتهم الفادحة به، وعزمت عليه أن يعود مرة أخرى ناصحاً لها وخطيباً، وقائداً كما كان.

وكان إذ ذاك منروياً في بيته حزناً كاسف البال. وأفلح (الكيببيادس Alcibiades) وغيره من الأصدقاء باخراجه من عزلته، والظهور للشعب، فما كاد المواطنون يرونه حتى أظهروا

(٩٢) بروتاغوراس من ابديرا تلميذ ديموقريطس. كان انكي وابرع سوفسطائي زمانه. ألف خلال فترة نشاطه الذي دام أربعين عاماً. أكثر مما انتج [فيدياس] المثال. وأثر عنه الاتحاد لقوله «ليس ثم شيء مؤكد حول وجود الآلهة أو طبيعتها».

عرفانهم بجسميله وأعتذروا له عن معاملتهم الظاهرة له، فتسلم شؤون الدولة مجدداً. وعندما انتخب حنرلاً، كان أول عمل قام به إلغاء القانون الخاص بالأطفال غير الشرعيين. وكان هو الذي تسبب في سنه، كي لا ينطفي اسم أسرته ونسبه بعد موت وارثه الشرعي الوحيد وحكاية سن هذا القانون تعود الى الزمن الذي بلغ فيه بيركليس أوج عزته وسلطانه غير محروم من الاولاد الشرعيين، فأقترح سن قانون لا يحمل صفة المواطنة بمقتضاه إلا من ولد من أبوين أثينيين^(٩٣). وعلى أثر ذلك أهدى ملك مصر اربعين ألف بوشل من القمح لتوزع على المواطنين الأثينيين. مما أدى الى اقامة دعاوى وقضايا اثبات نسب لا يمكن احصاؤها، وهي قضايا لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، لعدم أهميتها. وعانى كثيرون الأثينيين من التلغيق والتزوير، ونازع عدد المحكومين بذلك. الخمسة آلاف وبيعوا في سوق النخاسة عبيداً جراً، ذلك^(٩٤). أما عدد من اجتاز هذه المحنة وأثبتوا مواطنتهم الأثينية المحقة فقد تبين عند الاقتراع أنه يبلغ اربعة عشر ألفاً واربعين مواطناً^(٩٥).

يبدو من الغريب أن يلغى مثل هذا القانون، بعد تطبيقه على هذا المدى الواسع، ومن الأغرب أن يلغى بمسمى من الرجل الذي ألغى في سنه. على ان المصيبة التي قصمت ظهر بيركليس والحزن الذي أبتلى به لفجيعته بأسرته كان لهما أثرهما اللبات في تحطم كل معارضة والشفاعة له عند الأثينيين. وأشفقوا عليه شفقة ذلك الرجل الذي عوقب على غطرسته وتعاليه عقاباً كافياً بشكله ومعاكسة الأقدار بالمصائب، ووجدوا أن آلامه تستحق رثاءهم، بل تستحق منهم الندم على ما أتوه بحقه، وبدأ رجاؤه بإلغاء القانون في نظرهم، مجرد طلب يعرضه رجل ويستجيبه رجال وسمحوا له بقتل ابنه في سجل الأخرى، وبمنحه اسم أسرة بيركليس. هذا الابن قتله الشعب الأثيني مع زملائه القواد^(٩٦)، بعد أن حقق انتصاره على {الپيلوبونيين} في {أرغينوسيه Arginusea}.

(٩٣) بحسب قول پلوتارخ في مفتتح سيرة تستوكليس. ان هذا القانون سن قبل ان يتولى بيركليس الحكم ولعل هذا تشدد في تطبيقه بسبب روح العداء لكيمون الذي كان من اولاد انصاف أثينيين.

(٩٤) ان عدم شرعية الاولاد لا تجعلهم في مرتبة الرقيق. وانما تدرجهم في عداد الغرباء.

(٩٥) عدد قليل جداً في الواقع. عندما كانت أثينا تفكر في بناء مستعمرات لها، واخضاع جيرانها. وقهر الشعوب الأخرى.

(٩٦) في السنة السادسة والعشرين للحرب كان الأثينيون قد عينوا عشرة قواد لادارة الحرب وبعد ان انتصروا حوكموا وحكم على ثمانية منهم بالموت نقد بحق ستة منهم في الحال (منهم ابن بيركليس غير الشرعي) كانت الجريمة الوحيدة التي ادينوا بها هي انهم لم يقوموا بدفن قتلى المعارك. حصل هذا رمن أرخونية (كاللياس) في السنة الثالثة من الاولبياد الثالث والتسعين اي بعد ٢٤ سنة تقريباً من وفاة بيركليس ويعرض كزينفون في كتابة (الهيلينيات Hellenies) وصفاً مفصلاً لما حصل. كان الفيلسوف سقراط في تلك الفترة، واحدة من قضاة (الپريتان) لكنه رفض رفضاً باتاً ان يتولى مباشرة وظيفته

في الزمان الذي جرى به تسجيل الأبن، أصيب بيركليز بالوباء على ما يبدو، ولم تكن
اصابته صاعقة حادة كالآخرين، وإنما جاءت بصورة خفيفة هادئة وأخذت تستفحل شيئاً فشيئاً
وكان يعتورها كثير من النكسات والتقلبات، وأخذ الداء يخترمه إحتراماً ويذهب بقواه
ويقضى على مداركه الروحية العقلية، ففي كتاب القوى الأدبية «Moralia» لثوفراستوس.
تجد فقرة عن حالة بيركليز المرضية عند بحث الكاتب عن مسألة تغير مدارك الناس بتغير
ظروفهم، وعاداتهم الخلقية، وهل أن أمراض البدن يوقع فيها الخلل فيظهر على تصرفاتهم
انحراف عن قواعد السلوك العامة. فقد دون ذلك الكاتب أن بيركليز كان يعرض على
عائديه تعويذة أو «حجاباً» علقته نساء بيته في عنقه ليقيه سوء. كأنما أراد الكاتب القول
أن بيركليز قد بلغ به المرض وضعاً خطيراً، بذليل إعتقاده بسحر هذه التعاويذ الحمقاء.

ولما حانت ميته، لازمه نخبة من أصدقائه المواطنين ممن بقوا على قيد الحياة، وراحوا
يلهجون بعظمة مآثره ويثنون على أعماله الشهيرة، معدّين انتصاراته العسكرية. إذ أقام ما
لا يقل عن تسعة أنصاب نصر، تشريعاً للمدينة التي تولى قيادتها وقهر أعداءها. واصلوا
أحاديثهم فيما بينهم أعتقاداً منهم أنه لا يعني ما يذكرون ولا يفهمه لاشتداد وطأة العلة عليه.
إلا أن سمعه كان يتابع ما يقال فقاطعهم هنا قائلاً: انه ليستغرب مديحهم، وتقليد الشناء
لأمور كان للحظ دور رئيس في تحقيقها ولم يكن القائد الوحيد الذي أسعدته الصدق
بأنجازها وإن أمثاله لكثيرون. على أنهم ~~تنبؤوا~~ أن ينهوا بأعظم مآثره وأعزها جانباً...
«فبجهوداتي لم يلهمي الخلد آثني واحد».

حقاً أن بيركليز شخصية تستأثر منا بأشدة الإعجاب. لا لهدوء طباعه وعفتها، وهو الخلق
الذي ظلّ يلازمه في معظم حياته، وفي مجابهة الخصومات العديدة الشديدة التي واجهته
خلالها، بل للمعنوية العالية، والروح السامية التي جعلته قادراً وهو يزاول سلطاته الضخمة،
على قمع كل عاطفة، انتقامية واشفا. غلبه من أي خصم، وكبح نفسه عما تريد. ولم يعامل
أي عدو معاملة من لا يمكن التفاهم أو المصالحة معه. ويظهر لي شخصياً، أن هذه السجيئة
وحدها، تفسر بسبب تلقيبه بالاولمبي، ذلك اللقب الصيباني الفخيم! فطبيعة بمثل هذه الرقة،
وحياة خلت من هنوات العاطفة وهي في أوج سلطانها وارفعت منزلتها، لتستأهل لقب
«الاولمبي»، هذا بحسب مفاهيمنا عن الكائنات الالهية التي نعزو إليها سياسة العالم وحكمه
بوصفها الفاعلة لكل ما هو خير، وبعدها عن كل فعل شر. خلافاً لما يقول الشعراء، مهؤلاء
يصلوننا بخيالهم الجاهل الأخرق الذي يفضحه شعرهم الكاذب، فيسمون دار الأرباب منزلاً
هادئاً مطمئناً آمناً من أي خطر أو مفاجأة لاتزعجهم فيه الريح ولا الغيوم يشع منهم على حدّ

سواءً وبصورة دائمة نور نقيّ صافٍ رقيق. منازلٌ أكثر ملائمة للطبيعة الخالدة المباركة، يقولون هذا في الوقت الذي يؤكدون أن الآلهة كثيرة المتاعب لا تخلص من العداوات والبعضاء وغير ذلك من العواطف التي لاتلائم أو تليق بأقل الناس عقلاً وإدراكاً... لكن ربّما كان هذا الموضوع أليق للمعالجة والشرح في فرصة مناسبة أخرى.

إن السبيل الذي سلكته سياسة الدولة العامة بعد موت بيركليس سرعان ما كشفت عن مدى الخسارة به^(٩٧). فالحاقدون على ما ناله من سلطان في حياته، التي كسفت شمس حياتهم، راحوا بعد تركه المسرح السياسي يجربون الكثير من الخطباء والزعماء الشعبين، ليدركوا أنه كان المفرد العلم، وأنه لن يقوم مثل له بطبعه وسلوكه. ولن يجدوا شخصاً أكثر اعتدالاً منه، وأوسع إدراكاً وهو في أعلى درجة من سلطانه. ولا أكثر منه رزانه ومشاراً للأعجاب في رفقته وحنانه. وبدت لهم تلك السلطة الفردية التي أطلقوا عليها قبلاً «حكم الطفيان، والفردية المطلقة»، وكأنها القلعة الرئيسة لسلامة البلاد. ومهما بلغ عظم الفساد، وما نجم بعده من اضطراب وشور، فقد أفلح في ستره باضعافه وقمعته، وبذلك منعه من بلوغ مرتبة الداء العضال الذي لا يمكن البرء منه، وكان سبيله إلى ذلك الغفران والصفح الرفيق.

أهم الأحداث في زمنه (ق.م)

٤٤٠ أخضع ساموس التي ثارت على الأثينيين.

٤٣٩ بدأت الحرب بين كورنث وكوركيরা.

٤٣١ بصير الحرب البيلبونيس التي دامت ٢٧ سنة — فترة من هُزل.

٤٢٩ يموت بعد حكم أثينا ربع قرن.

(٩٧) توفي في السنة الثالثة لبدء الحرب البيلونية في ٤٢٩ ق.م.



وجها قطعة نقدية (٢٩٢ ق.م)

فابیوس ماکسیموس
FABIUS (Maximus)
(Cunctator)
275 – 203

بعد أن سردنا سيرة وأعمال بيركليس العظيمة، يتقدم تاريخنا بنا إلى سيرة (فابيوس) وجده الأعلى ابن (لهرقل) وحورية أو امرأة من نساء تلك البلاد ولدته على ضفاف التيبير، وكان أول فابيوس من تلك الأسرة الشهيرة الكبيرة العدد^(١) وعميدها. ويقول آخرون أن لقبها الأول كان [فودي Fodii] لأن أول أعضاء الأسرة كانوا مغرمين بحفر الثُقر لابقاع الوحوش وصيدها. وكلمة Fobese المرادفة لكلمة [حَقَر] ما زالت مستعملة في اللاتينية. وذلك Fos-sa أي خندق. ويتعاقب الزمن استبدال الحرفان فأقلب الأسم إلى [فابي Fabii]^(٢). وسواء في ذلك أكان الأمر صدقاً أو كذباً، فالثابت أن هذه الأسرة المحببة عدداً كبيراً من أبرز الرجال. وفابيوسنا هنا، هو الجيل الرابع المنحدر من [فابيوس روللوس Rullus]^(٣) الذي كان أول من قلد الأسرة شرف إضافة لقب [ماكسيموس] إليها؛ ويلقب فابيوس كذلك بـ[فيروكوسوس Verrucosus] لشؤلولة في شفته العليا، ولقب أيضاً في حدائنه [بأوفيكولا Ovicula] أو الحَمَل بسبب وداعته المتناهية. وكان ثقل لسانه وبطشه وتعسره في التعلم، وتردده في مشاركته الأولاد الآخرين العابهم، وخضوعه وسهولة انقياده لأي إنسان كأنما لايملك إرادة خاصة جعلت أولئك الذين تغرهم المظاهر السطحية منه، وهم الأكثرية الغالبة، يحكمون عليه بالغباء والبلادة. في حين تبنت أقلية الناس أن تشاقله هذا نابع عن الرصانة والثبات،

(١) ليفي [٥٠، ١١، ١٦، ٢١] هذه الأسرة اضطلمت كلها بالعرب ضد الفيبيدستيين في العام ٤٧٧ ق.م. فقد بعثت بستة وثلاثمائة من المقاتلين كلهم يحمل اسم «فابي». وقد قتلوا جميعاً وتعود شهرة الأسرة إلى أعضاء فيها تقلدوا أعلى المناصب في الدولة، ومنهم اثنان تولى كل منهما منصب القنصل ست مرات.
(٢) بليبي [تاريخ الطبيعة ١٨: ٢] يرد الاسم إلى صفة فيقول أنهم كانوا بالأصل من أبرع زارعين الفاصوليا Fabae

(٣) أو روتليابوس [بليبي المرجع السالف ٨: ٤] تولى القنصلية خمس مرات وحقق انتصارات عديدة هامة على الساميين والتوسكان وغيرهما من الشعوب. إلا أن لقب مكسيموس (العظيم) الذي لصق به لم يكن سببه ما ذكرنا. بل ناله أيام كان جنسوراً (محتسباً) إذ جمع كل قبائل روما بأربع فقط وكان سكان المدينة قبلها متفرقين بين القبائل بصورة عامة. وقد ضمن له هذا السلطة العليا في الجمعيات الشعبية [ليفى ١٦: ٩]. وقد سميت المجموعة بالقبائل الحضرية Tribus Urbana تقابلها القبائل العضلى Tribus Rusti cus وهي تعيش عادة في الريف.

وتوضحوا قوة ذكاء، وإرادة لها إقدام الأسد في ذلك. وما أن بلغ مرحلة العمل حتى برزت مواهبه وظهرت على حقيقتها، ووجد الناس عموماً أن ما عرف به من أفتقار الى الحيوية إنما هو التحرر من العاطفة. وثقل لسانه وبطء حركته، نتيجة للحكمة الحقة. وأفتقاره الى السرعة، وتثاقله هما اية الاستمرارية والصرامة فيه.

وبعبثه في جمهورية عظيمة يحيط بها اعداء كثيرون، رأى من الحكمة أن يعود جسمه على التمارين العسكرية، ليستند عوده بسلاح الطبيعة الوحيد هذا. كما أخضع لسانه لنظام يتسق ويتسع لحياته وخلقته، مدرباً أباه على فن الخطابة الجماهيرية. ولم يكن في بلاغته الكثير من التزيين الشعبي المتبذل ولا تلك الصناعة الفارغة بل كان فيها قدر كبير من الحس والشعور. قوية عقلية شبيهة بأسلوب [توكدهدس]. وما زال موجوداً الى الآن خطاب تأبينه بمناسبة موت ابنه الذي قضى نجه قتلاً. وكان قد ألقاه أمام الجمهور.

تقلد منصب القنصلية خمس مرات^(٤). وكان له شرف الدخول في مركب الظفر اثناء فترة قنصليته الأولى للانتصار الذي اجرزه على [الليغوريين Ligurians]^(٥) في معركة فاصلة، ودفع بهم الى مجاهل جبال الألب. ومنذ ذلك الحين لم يعودوا يغيرون، أو يغزون جيرانهم. وبعد هذا أغار [هنيبعل]^(٦) على ايطاليا وكان عند دخوله قد فاز بمعركة عظيمة بالقرب من نهر [تريبيا Trebia] وأخترق توسكانيا بعد ان دوخها بجيشه الظافر مخرباً كل الميلاد المجاورة، ومالئاً روما نفسها بالذهول والرعب. وزاد من قلق الأهالي وخوفهم بعض الظواهر الطبيعية من الرعود والبروق الفاتقة للعادة، وانباء عن حصول خوارق غريبة جداً وغير مسموع بمثلا. فقد قيل أن بعض التروس عرقت دماً، وان عدداً من أذان أهالي [آنتيوم] امتلأت بالدماء اثناء قيامهم بحصاد القمح. وان السماء أمطرت حجارة محترمة من شدة الحرارة، وان الغاليين شاهدوا السماء وقد أنشقت وسقطت منها رقوق كُتب على أحدها بصورة واضحة «لقد رفع مارس سلاحه»^(٧) إلا أن هذه الخوارق لم يكن لها تأثير على القنصل [فلامينيوس]^(٨) المنتهز الأهرج الطبع الذي ارتفعت درجة اندفاعه عالياً بانتصاره الأخير

(٤) اول قنصلية له كانت في ٢٢٢ ق-م أو في ٢٢٤ على قول ليفي [١٧:٢٢] والقامسة ثولاما في العام ٢٠٨ ق-م. وقد مضى على الحرب الفونية الثانية عشر سنوات تقريباً. اما قنصلياته الثلاث الأخرى فكانت على التوالي في الأعوام ٢٢٧ و ٢٢٤ و ١٩٢ ق-م.

(٥) الليغوريين سكنوا الساحل الممتد من نور جنوا حتى موناكو في فرنسا.

(٦) دخل هنيبعل ايطاليا في ٢٢٧ ق-م حسب زعم ليفي (٢٨:٢١) اثناء قنصلية كورنيليوس سكيبيو وسميريوس لونكوس. وبحر أولهما في معركة تيجينوس. قبل ان يهزم ثانيهما في معركة (تريبيا).

(٧) [Mauors telum Suum Concutit] (ليفى ١:٢٢).

(٨) يصوره [بوليبوس ٢] رجلاً ذرب اللسان شديد الكبرياء لكنه فاشل كجنرال. فقد كان وانقاً من النصر =

غير المتوقع على الغالبين، أذ حاربهم خلافاً لأوامر مجلس الشيوخ ونصح زميله. ولك يجد فابيروس الاشتباك مع العدو ينطوي على حكمة - من الجهة الأخرى، لا لأنه كان يعلق مزبداً من الاهتمام على الخوارق^(٨) التي كان يراها أشد غرابة من امكان فهمها بسهولة، بل لأنه كان يرى القرطاجيين قليلي العدو يفتقرون الى المال والتجهيزات، فوجد أن خير ما يعمل هو تحاشي الدخول في معركة ضد قائد عجم القتال عود جيشه، وبلته المعارك العديدة فلا غاية له الأ دخول المعركة، بل أن يرسل العون الى حلفائهم، والسيطرة على حركات مختلف المدن الخاضعة وترك قوة اندفاع هنيبل تتضاءل وتضعف وتنطفيء كاللهب بالافتقارها الى الوقود. لم تفلح هذه الأسباب الوجيهة في [فلامينيوس] الذي احتج قائلاً انه لم يسمح بتقديم العدو الى المدينة، ولن يكون مضطراً بالأخير الى الدفاع عن روما من خلف أسوار روما، كما فعل [كاميللوس] في الماضي. وبناء على هذا أمر قادة الفرق بوضع الجيش على خط القتال. تأهباً للمعركة، وخرج هو يريد ركوب جواده، وما قفز على صهوته حتى أصيب الحيوان بنوبة هياج لا يعلم سببها ورمع براكبه فسقط فلامينيوس على الأرض، إلا أن هذه الإشارة لم تثنه عن عزمه وأستمر في تطبيق خطته وزحف عن هنيبل الذي كان قد تمركز قرب بحيرة [ثراسيمينه Thrasymene] في توسكانيا وفي لحظة التقاء الجمعين حدثت هزة أرضية دمرت عدة مدن وغيرت مجاري الأنهار وجرفت أطنافاً جبلية عالية ولقرط لهفة المحاربين الى القتال لم يشعروا قط بشيء منها.

وسقط [فلامينيوس] في هذه المعركة سريعاً بعد أن قدم كثيراً من الدلائل على بسالته وأقدامه. وسقط حوله أشجع المحاربين في الجيش، وبلغ مجموع القتلى الكلي خمسة عشر ألفاً. وأسر مثل هذا العدد^(٩). ورغب [هنيبل] في أن يضيء على جثمان [فلامينيوس]

= الى الحد الذي كان يوجد في جيشه من العبيد الميدين بالسلاسل أكثر من الجنود. أحرز هذا النصر في ٢٢٤ ق.م في حين كان انتصاره المتوقع جداً متتياً من أسباب ثلاثة: فلو كان جيشه أقل عدداً من جيش عدوه، وثانياً انه أهمل عمل الاستفزازات ورفض قراءة الرسائل الواردة اليه من مجلس الشيوخ ولم يفضها إلا بعد ختام المعركة. وثالثاً وزع قواته للمعركة بصورة لا تتفق وأصول الفن الحربي. إلا أن براعة بعض ضباط ركنه سمح تلك الاخطاء [انظر بوليبيوس: ٢، ويلي ٢٠: ٤٩].

(٨) لم يكن [فابيروس] زميلاً لـ [فلامينيوس] هنا وإنما كان سرفيلوس جمينوس.
(٩) مع أن هنيبل نال نصراً ساحقاً إلا أنه ترك ألفاً وخمسمائة قتيل بعضهم مات بعد المعركة متأثراً بجراحه [ليفي ٢٢: ٦] لقد جرّ الرومان الى كمين نصبه لهم بين مرتفعات كورتوما وبحير ثراسيمينه. ويتفق بوليتارخ مع ليفي حول عدد قتلى الرومان الآ انه يجعل عدد الأسرى ستة آلاف. في حين يؤكد [بوليبيوس] ان العدد أكثر من هذا بكثير. نجا من الرومان حوالي عشرة آلاف كان معظمهم مثقناً بالجراح واتجهوا صوب روما. إلا أن أغلبية الجرحى سقطوا موتى على قارعة الطريق. ولفظت والدتان انفسهما للغلبة عاطلة العرج عندما شاهدتا وليهما يدخلان المدينة. =

مراسيم التشجيع التكريمية، فقام ببحث مضني عنه، ولم يجده بين القتلى ولم يعرف مصيره. في المعركة السابقة التي جرت قرب [سربيا] لم يستعمل القائد الذي كتب التقرير عنها، ولا المراسل الذي نقل نبأها، عبارات صريحة واضحة المفهوم^(١٠)، ولم توصف بأكثر من معركة غير فاصلة تساوت فيها خسائر الطرفين. ولكن الأمر كان مختلفاً في هذه المعركة إذ ما أن وصلت أنبأها إلى البريتور [پومپونيوس Pomponius] حتى جمع الناس وقال لهم بصراحة دون أن يحاول التغطية والمواربة: «أيها الرومان! لقد عُثينا في معركة عظيمة^(١١)، القنصل فلامينيوس قد قتل، وعليكم أن تفكروا فيما يجب عمله لسلامتكم».

فكان كمن فتح بأنبائه باباً لريح شديدة على البحر، فعاجت المدينة وعمتها فوضى تامة. في هذا الموقف العصيب لم تجد أفكارهم شيئاً ثابتاً تستقر عليه. وابقظهم الخطر الداهم أخيراً، فهداهم تفكيرهم في اتخاذ قرار بتعيين [دكتاتور] قد يتمكن من تصريف الشؤون العامة بسلطة منصبه المطلقة، وبحكمته الخاصة وشجاعته، ووقع اختيارهم بالاجماع على [فابيوس]^(١٢) الذي بدا خلقه جديراً برفعة المنصب، وعمره متقدم به إلى الحد الذي يمنحه الخبرة المنشورة، دون أن يجرده من النشاط وقوة العمل، وجسمه قادر على تنفيذ ما تختاره نفسه، وطبعه هو مزيج منجانس من الثقة والحنر.

بعد أن نُتِبت فابيوس في منصب الدكتاتور، قام أولاً بتعيين [لوشوس مينوشيوس Lucius Minucius]^(١٣) قائداً للخيالة، ثم طلب من مجلس الشيوخ الأذن لنفسه بأن يوجه القتال في الميدان وهو مختط حصانه. وهو ما كان محظوراً على القواد العسكريين الرومان بمقتضى قانون قديم. إماً لأنهم يضعون كل قوتهم في مشاتهم، فيبقون قوادهم العامين معهم. وإماً ليذكر القواد دائماً أنه مهما بلغت سلطتهم من الرفعة. فالشعب ومجلس الشيوخ ما زالوا أسبادهم، ومنهم يتلقون الأوامر والأذن. وعلى أية حال ففابيوس عَمِدَ إلى احاطة نفسه بفصل كامل من

= وسقط (فلامينيوس) صريعاً. جندله غالي يسمى [روكاريوس] بعد أن فتك بضابط ركنه الذي حاول عبثاً أن أن يحمي قائده.

(١٠) كتب سميروتيوس إلى مجلس الشيوخ مستنزاً بسوء الطقس عن عجزه على تحقيق النصر (بوليبيريوس ٣).
(١١) ليفي المرجع نفسه ٧. يقول أن الأمر اليومي الذي أصدره الجنرال لم يكن يزيد عن هذه العبارة «أيها الرومان، أننا خسرنا معركة عظيمة».

(١٢) لا يمكن لأحد أن يتولى سلطات الدكتاتور أو يمنح هذا اللقب غير القنصل. ولما كان القنصل الباقي (سرفيليوس) على رأس جيشه فقد قام الرومان بتعيين [فابيوس] نائباً للدكتاتور [Prodictator] بمبادأة خاصة وسلطان وتجلي عرفان روما للجميل أنهم سمحوا لفرقة من بعده بوضع لقب دكتاتور بدلاً من برودكتاتور ضمن قائمة القاب (ليفى ٨: ٢٢ و ٢١).

(١٣) بوليبيوس وليفى [المرجعان السالفان] يثبتان اسمه [ماركوس مينوشيوس روفوس Marcus Minucius Rufus] ولم يعينه (فابيوس) بل اختاره العموم.

الكتور قوامه اربعة وعشرون يلازمونه بمثابة حرس شخصي ليجعل سلطة واجبه أكثر ظهوراً وبروزاً، والشعب أكثر خضوعاً وطاعة. وعندما يأتي القنصل الباقي لزيارته يبعث يطلب منه صرف حرسه، مع (فاجيانهم) اي سلاحهم أي أن يتجرد من مظهر السلطة ليظهر أمامه شخصاً عادياً.

وأول عمل هام قام به بعد توليه منصب الدكتاتور، كان عملاً دينياً منسجماً تماماً مع الوضع: فقد أصدر بياناً تأنيبياً للشعب ذكر فيه أن هزيمتهم الأخيرة لم يكن سببها افتقار جنودهم الى الشجاعة بل الى إهمالهم شعارهم الدينية عموماً. وحثهم على أن يطرحوا كل خوف من العدو ولم يفعل ذلك بقصد اشغال عقولهم بالادعاء بل لرفع معنوياتهم واستخدام الشعور الديني لبث الشجاعة في نفوسهم وتقليل خوفهم من العدو، والايحاء اليهم بأن السماء تقف في صفهم وعلى هذا الأساس قرر استخارة النبوءات السريّة المعروفة «بكتب كيبيل»، فوجد فيها على ما قيل مختلف النبوءات التي تشير الى أحداث الزمن وتقلبات حظوظه، المقبلة ولكن يحرم عليه أن يكشفها للناس.

ومن ثم خرج الدكتاتور الى الشعب ونذر أمامهم قرباناً، يقدم فيه كل نتاج الموسم القادم في ايطاليا كلها، من بقر وماعز وغنم وخنازير في الجبال والسهول وتعهد باقامة الاحتفالات والمهرجانات الموسيقية على أن يتفق عليها مبلغ حدّد بـ ٣٢٣ سسترتيا Sestertia ر ٣٣٣ دينار يوس وثلاث دينار يوس^(١٤) لا غير، وهو يعادل بعملتنا ٨٣٥٨٢ دراخماً وأبولين. ويصعب علينا معرفة السر في تحديد المبلغ بهذا الرقم، إلا اذا كان إكراماً للعدد «٣» لأنه أول الأعداد الوترية، وأول رقم يحوي بذات نفسه مصدراً للأعداد، وبكل الصفات التي تعود للأعداد عموماً.

وبهذه الوسيلة نفخ فابيوس في قلوب الشعب آمالاً جديدة في المستقبل أذ جعلهم يوقنون ان الارباب تقف الى صفهم. أما هو فقد وضع ثقته في نفسه فحسب، مؤمناً بأن الآلهة لن تمنح النصر، وتنعم بالسعد إلا لمن يتحلّى بالبسالة ويعد النظر. وعلى هذا الأساس أنطلق فابيوس لمناجزة (هنييعل) لا نبية التحرش به وجره الى معركة، بل بقصد اضعافه واتعابه بمرور الزمن. وكسب عنصر التفوق العددي والمادي ومقابلته القلة بالكثرة، فكان يعسكر دائماً في الأراضي المرتفعة لئلا تطاله خيالة العدو ويلاحقه بدون هوادة ولا يدعه يغيب عن نظره، فإن سار لحق به وإن عسكر فعل مثله مع محافظته على مسافة كافية بينهما حتى لا يضطره خصمه الى

(١٤) الديناريوس عملة تساوي الدراخما ويعادل اربعة سيستيرتي Sestertia وبذلك يكون مجموع السيستيرتي ١/٢، ٢٢٤، ٢٢٣. ويتحويلة الى دراخما يصبح ١/٢ ٨٣٥٨٢ وهو ما يتفق مع النص.

خوض معركة. متخيراً دائماً والمرتفعات ليأمن صولة الفرسان. وهكذا لم يدع للعدو لحظة واحدة من الراحة وإيقاه دوماً في حالة انذار.

وأثارت خطة التأخير هذه في معسكر فابيوس شكاً في إقدامه. وكان هذا الشك في معسكر هنيبعل أكثر منه عند الرومان إلا أن [هنيبعل] كان الرجل الوحيد الذي لم تنطل عليه الهيلة ولم تفته براعة الخصم وخطة السوقية ولقد أدرك أن القرطاجينيين لن يتمكنوا من استخدام سلاحهم المتفوق إلا إذا أفلح في استدراج الجيش الروماني أو اضطره الى خوض معركة وان قواهم ستتناقص باطراد وستشج أرزاقهم بالتدريج ولن ينالوا من عدوهم فتيلاً. فعزم على أن يحبط تدابير هذه بكل ما أوتي من حيل ومراوغة حربية. وأن يستدرجه الى اشتباك، مثل مصارع عظيم الدهاء، يرصد كل فرصة لينال مسكة جيدة والتحاماً وثيقاً من خصمه. فمرة كان يهاجم، ومرة كان يحاول صرف انتباهه، وإبعاده الى مختلف الجهات، مجاهداً بكل وسيلة لاغرائه بالتخلي عن خطته المأمونة. ولم يكن لكل هذه الحيل اي تأثير على تصميم الدكتاتور، وأصراره. إلا أن الجندي البسيط لم يكن يرى في خطة فابيوس طعماً أو جدوى. بل تعدى هذا الاستحفاف الى أمر الخيالة نفسه، فمنيوشيوس التواق الى قتال مُبْتَسِر، الجريء الوثاق من نفسه كان قبلة انظار الجنود، وقد عمل هو نفسه الى بث الحماسة الهوجاء في نفوسهم وملئها بالأمال الجوفاء التي كانوا ينفسون عنها بتوجيه قارص اللوم الى فابيوس. وأطلقوا عليه لقب «مرافق هنيبعل»^(١٥) لأنه لم يكن يفعل شيئاً خلا متابعته غدوة ورواحاً والقيام بانتظاره، ثم راحوا يعلنون قائلين ان [مينيوشيوس] هو القائد الوحيد الذي يليق بقيادة الرومان، وهذا ما ملأه فخراً، وإعجاباً بنفسه حتى أخذ يتطاول ساخراً من اختيار فابيوس معسكرات جيشه في شعاب الجبال، قائلاً أنه ليجلسهم فيها كأنما هم في ملعب مدرج، ليشهدوا منها النيران تأتي على بلادهم والدمار يعمها. وفي بعض الأحيان كان يسأل أصدقاء فابيوس: هل يقصد صاحبهم بنقلهم من جبل الى آخر، أن يرتفع بهم الى السماء بالاخير لعدم وجود أمل لهم في الأرض؟ أم يقصد أخفاهم في طيات السحب عن جيش هنيبعل؟ فينقل أصحابه الحديث الى الدكتاتور ويحاولون إقناعه بضرورة الاشتباك وبالعدو اجتناباً للاستنكار العام. فيجيبهم بقوله: «لأكونن أجبن مما يصورونني لو أنني تخليت عن فكرتي الخاصة خوفاً من ملامتهم التافهة. ولست أجد عيباً في أن يتملك المرء خوف على سلامة بلاده؛ لكن من يحدد عن السبيل الذي أعتزمه نزولاً عند رأي آخر، أو خشيه توجيه

(١٥) ذلك لأن وظيفة الپيداكوكي منذ القديم وكما يدل عليه الاسم هو رعاية الاطفال في نزهاتهم القصيرة والمودة بهم الى البيت.

اللوم اليه، أو خوف اساءة فهم مقاصده، فهذا غير جدير بمنصب كمنصبي. ويسلوكة هذا يجعل من نفسه عبداً رقيقاً لأولئك الذي كان واجبه تصحيح اخطاهم وتقويم اعوجاجهم».

ثم سرعان ما ارتكب هنيبعل خطأ كبيراً. أراد ان تستجيم خيول جيشه في اراض جيدة المرعى، والابتعاد بجيشه الى مسافة تخرجه عن رقابة خصمه فأمر ادلاءه بأخذه الى اقليم [كاسينوم Casinum] ^(١٦) وأوهمهم سوء نطقه بالأسم أنه يريد [كاسيلينوم Casilinum] التي يمر من وسطها نهر [لوثرانوس Lothronus] (يطلق عليه الرومان اسم فلتورنوس Volturnus) وكانت أراضيها تكتنفها الجبال وليس من منفذ فيها غير الوادي الذي يجري فيه هذا النهر الى البحر فيصب في ساحل وعرجداً غير مأمون - مخلفاً وراءه أراضي سبخة كثيرة المستنقعات وضيافاً رملية عميقة الغور. وتمكن فابيوس لعرفته بالمسالك والطرق - من الاستدارة بجيشه والوصول الى المنطقة قبل هنيبعل، ووضع نخبة من فرقة قوامها أربعة آلاف مقاتل في مدخل الوادي واقفله. ثم تمركزت بقية الجيش في التلال المجاورة، وأتخذت مواقع مستحكمة، وانتقى وحدة تحمل أخف الأسلحة وأرسلها لمهاجمة مؤخرة (هنيبعل)، وكان نجاحها كبيراً فقد عزلت ثمانمائة من رجاله وأوقعت الفوضى في كل جيشه. ولما أدرك هنيبعل غلظته، وتبين الخطر الذي أحرق به أمر بالادلاء فصلبوا حالاً، ونظر فرأى العدو يحتل أفضل المواقع وامنعها وان الأمل باختراق جبهته معدوم، في حين أخذ الرعب واليأس يتسربان الى نفوس جنوده وسرى الاعتقاد فيهم بأنهم محاطون بطوق محكم يصعب جداً الخلاص منه.

إلا أن هنيبعل لم يقنط في حالته هذه، ولجأ الى حيلة بارعة. أمر بشد مشاعل، في قرون ألفين من ثيران معسكره شداً محكماً ثم أشعلها عند حلول الليل وأمر ان تساق الحيوانات نحو المرتفعات المشرفة على الممر في بطن الوادي، ونحو مواقع العدو. وجعل جيشه يسير الهونا في الظلام خلف قطعان الثيران. وكانت الماشية في مبدأ الأمر تسير بخطى منتظمة بطيئة وتبدو والمشاعل في رؤوسها اشبه بجيش يزحف في الليل، وتشير الدهشة والعجب في نفوس الرعاة وأصحاب المواشي في التلول المجاورة. وعندما بلغت النار جذور قرونها جن

(١٦) إجتاح هنيبعل سافينوم وأكتسح إقليم بينيفنتم وهو مستنقطة رومانية والقي الحصار على تيليسيا وهي مدينة تقع على سفح جبال الإپنين. لكنه وجد ان عملياته هذه لم تقد في حمل (فابيوس) على تغيير خطته. فقرر استخدام طعم أكثر اغراء وهو دخول كامبانيا أخصب سهول ايطاليا واجتياحه امام سمعه وبصره لعل ذلك يدفعه الى الاشتباك في معركة. كما أن احتلال كاسينوم سيحول دون ارسال فابيوس نجداً لحلفائه. إلا أن الخطأ الذي نوه به بولوتارخ في النص. جعل ادلاءه يأخذونه لا الى سهول (كاسينوم) بل الى خانق كاسيلينوم Casilinum الضيق الذي يفصل سافينوم عن كامبانيا. ويخبرنا ليفي (٢٢ ١٢) ان رئيس الادلاء جلد وصلب فحسب وهو أكثر احتمالاً لأن هنيبعل لم يؤثر عنه التسرع والاسترسال في الحق الى حد السخف وحرمان نفسه من خدمات الادلاء الآخرين.

جنوبها وراحت تعدو هانجة وقد أعماها الالم وتفرقت شذر مذر تهز رؤوسها هزاً عنيماً فتشر النار حواليتها وتشعل اللهب في الأشجار التي ترقق من بينها. وكان منظرًا مفاجئاً لفصائل الحراسة الرومانية على المرتفعات. عندما راؤوا اللهب الذي راؤه كأن مصدره رجال يزحفون بالمشاعل شاع القلق فيهم معتقدين بأن العدو يتقدم نحوهم من عدة جهات وانهم مطوقون. فتركوا مواقعهم وخلفوا الممر وأسرعوا يلوذون بمسكرهم على التلال. وما أن تم انسحابهم حتى قامت وحدات مشاة هنيبعل الخفيفة حسب أوامره باحتلال المرتفعات، وبعد زمن وجيز وصل الجيش كله بانقاله وسار مجتازاً الممر آمناً.

قبل يمضي الليل كله أكتشفت فابيوس الخدعة اذ وقع بيده واحدٌ من تلك الثيران، وأبقى جنوده طوال الليل مستعدين بسلاحهم خشية من كمينٍ في الظلام. وما أن انبلج الصبح حتى شرع في مهاجمة مؤخرة العدو وكادت الاشتباكات التي حصلت جراء ذلك في الأراضي الوعرة توقع الخلل والفوضى العامة في جيش هنيبعل لو لم يفصل من مقدمة جيشه وحدة اسبانية، أشتهر رجالها بمهارتهم في تسلق الجبال فضلاً عن خفتهم وسرعة حركتهم. فأنذفوا نحو الجنود الرومانيين ذوي السلاح الثقيل وقتلوا منهم عدداً كبيراً وبذلك أعجزوا (فابيوس) عن استمراره في مطاردتهم وأجبروه على التوقف. وهذا ما أرى الى السخط الشديد على الدكتاتور وازدياد السخرية به وقالوا: لقد غذا الآن جلياً أن نقصه عن خصمه لا يقتصر على الشجاعة والأقدام فحسب، بل على بعد النظر وإصالة الرأي وحسن القيادة وهي المزايا التي وعد أن ينهي بها الحرب.

وعمد هنيبعل الى رفع سخطهم عليه، يزحفه الى المناطق القريبة من ممتلكات فابيوس الخاصة وأراضيه وأمر فعات جيشه حرقاً وتدميراً بكل ما يحيط بها، محظراً أيهم أن يسروا أملاك خصمه بأدنى ضرر، بل ووضع حرساً عليها، فكان تأثير عمله على الجمهوري الروماني كما توقع ونُقلت انبازه الى روما. فاشاع التريبونات عليه آلاف الحكايات المخزية، بتحريك وتحريض من (ميتيليوس Metilius) خاصة، ولم يقد بهذا مدفوعاً بحقده على فابيوس، قدر ما كان يدافع صداقته لقرينه (مينوشيوس). اذ كان يعتقد أن الخط من سمعة فابيوس سيرفع من شأن صديقه. وكان مجلس الشيوخ مستاءً من فابيوس أيضاً، الاتفاق الذي عقده مع هنيبعل على تبادل الأسرى، وكانت الشروط تنص على أن الفريق الذي يسقى له عدد من الأسرى بعد عملية تبادل رجل برجل، فانه يقتدى بمبلغ مائتين وخمسين^(١٧) دراخماً للرأس

(١٧) ليفي (٢٢.٢٢) يصف هذه العملية بـ *Ardenti Pondo bina et Selibras in militem* ومن هذا صرنا نعلم ان البوندر Pound الروماني يعادل وزناً مائة دراخما يونانية أو (ميناً) واحدة. إن عدد فضاله =

الواحد. وعلى هذا بقي مائتان وأربعون رومانياً بعد التصفية ولم يكتف مجلس الشيوخ برفضه المصادقة على مبلغ الفدية، بل وجه اللوم لفابيوس على الاتفاق باعتباره غير لائق بشرف الجمهورية ولا متفقاً مع مصلحتها. لأن هذا من شأنه أفقداً رجالاً أوقعه جنسهم في قبضة العدو. وسمع فابيوس كل هذا وأحتمله بصبر لا يتفد ولم يكن في حوزته مال، كما أنه كان مصراً على الإبقاء بعهد لهنيبعل وأستخلاص الأسرى، فبعث بأبنه إلى روما لبيع أرضاً له ويأتيه بشمها الكافي للفدية. ففعل ابنه ما أمر به ودفعت الفدية وسلم الأسرى الذين أبدى معظمهم استعدادهم لدفع نصيبه من الفدية إلى فابيوس فرفض العروض رفضاً باتاً.

وفي حدود ذلك الزمن استدعاه الكهنة إلى روما للمشاركة في قربان معين، بمقتضى واجبات وظيفته، فأضطر إلى ابداع قيادة الجيش إلى (مينوشيسوس) وقبل أن يرحل لم يكتف بمعاملته معاملة القائد العام بل أخذ يرجوه متوسلاً بالاً يشتبك في معركة مع هنيبعل اثنا، غيابه. لكن أوامره ورجاءه ونصحه ضاعت كلها في (مينوشيسوس) إذ ما أن ولأ ظهره حتى بدأ يبحث عن فرص لمهاجمة هنيبعل، ووردت إليه أبناء عن إرسال العدو جماعات كبيرة للنهب والسب فلاحق فصيلة منها وأوقع بها مقتلة عظيمة وطرد البقية إلى معسكرتها مشياً الرعب في الآخرين الذين أحسوا بوطة العدو حين أخترق صفوفهم. إلا أن هنيبعل عندما سحب كل قواته المتفرقة إلى داخل المعسكر قام مينوشيسوس بتقهقر منظم دون أن تلحقه خسارة^(١٨). وكان نجاحاً زاد من خيالاته وتهوره، ملأ جنوده بثقة عالية مندفعة وانتشرت الأنباء في رومه. وقال (فابيوس) عندما أبلغ بذلك: إن أخوف ما يخافه هو نجاح (مينوشيسوس) إلا أن حماسة الشعب كانت عظيمة، دفعت بهم مسرعين إلى (الفورم) ليستمعوا إلى خطاب التريبيون (ميتيليوس)، مدح فيه (مينوشيسوس) وأشاد ببسالته، وبلغ بها أعلى عليين وهاجم (فابيوس) هجوماً عنيفاً واتهمه لا بالافتقار إلى الشجاعة وحدها، وإنما إلى الاخلاص. وليس هو وحده بل كثير من الرجال البارزين وعظمائهم. قائلاً هؤلاء هم الذين جازوا بالقرطاجنيين إلى إيطاليا، وغابتهم سحق حرية الشعب وأستقلاله، ولهذا السبب بادروا فوراً إلى وضع السلطة العليا في يد شخص واحد، قد يُعطى بطئه وتأخره، وقتاً كافياً لهنيبعل، حتى يسيطر على إيطاليا، ويمنح أهل قرطاجنة الوقت والفرص لامداده بمنتجات جديدة حتى يكمل فتوحه.

= الأسرى الرومان هو ٢٤٧ بحسب زعم ليفي ومع هذا فإنه يختلف عن بلوتارخ في قول الأخير انه مجلس الشيوخ ابي دفع فديتهم. فيقول انما اجل القمع قصب.

(١٨) عن ليفي (٢٤.٢٢) انه خسر خمسة آلاف بينما لم تكن خسارة العدو تزيد عن هذا بكثير من ألف.

وتقدم فابيوس الى المنبر وليس في نيته الردّ على التريبيون، وانما ليقول فحسب: بأنه يلزم الاستعجال في تقديم القربان ليسرع في العودة الى الجيش ومعاقبة [مينوشيسوس] الذي عمد الى القتال خلافاً لأوامره. فملأت كلماته نفوس السامعين بالاعتقاد بأن حياة [مينوشيسوس] هي في خطر لأن الحكم بالموت والسجن هما من سلطات الدكتاتور ولأنهم كانوا يخافون أن يكون فابيوس الوديع الخلق عادةً، صعب التهذئة عند استشارته، قدر ما كان يصعب إنارته. ولم يجسر أحد على رفع صوته بالإحتجاج. إلا [ميتيليوس] الذي كان منصبه يمنحه الحصانة ليقول ما يشاء (في فترة سيادة الحكم الدكتاتوري، تبقى لهذه الحاكمية سلطتها ولا تُلغى) فقد ابدى للشعب بجرأة مدافعاً عن [مينوشيسوس]، مستصرخاً الجمهور بالألا يعمل فيه قرباناً لعداوة فابيوس، ولا يسمح بالقضاء عليه مثل ابن امانيليوس توركواتوس Manlius Tor-quatus (*) الذي أحتز أبوه رأسه لنصر قاتل في سبيله وريح معركته، خلافاً لأوامره مع انه تكلم بالفار. وأخذ يحثهم على سحب السلطات الدكتاتورية من فابيوس، ووضعها في يد أجدر وأقدر وأكثر استعداداً لاستخدامها في مصلحة البلاد. ومع أن هذه الملاحظات خلفت في النفوس تأثيراً كبيراً إلا أنها لم تبلغ حدّ عزل فابيوس من منصب الدكتاتور، لكنهم رسموا أن يكون [مينوشيسوس] سلطة معادلة لسلطة الدكتاتور في ادارة دفة الحرب. ولم يكن لهذا سابقة في حينه^(١٩)، إلا انه طبق بعد زمن قليل على الهزيمة في [كاني Cannae] فعندما الدكتاتور ماركوس جونيوس يقود الجيش اختاروا في روما [فابيوس بوتيو Fabius Buteo] دكتاتوراً، ليعين شيوخاً جدداً يأخذون امكنة الشيوخ العديدين الذين قتلوا. ولكن ما أن أكمل املاء الشواغر بالعدد الكافي، وبصورة علنية، حتى أستغنى عن حرسه من [اللكثور] وانسحب مع كل بطانته ومضى في تصريف أعماله في القوم بكلّ هدوء مختلطاً بالناس كأى فرد بسيط.

وظنّ أعداء فابيوس أنهم حقروه وسحقوا كبرياءه سحفاً كافياً برفع [مينوشيسوس] الى درجة مساوية له. في السلطان. إلا أنهم أخطأوا وجهلوا خلق الرجل. فثم يعتبر حستهم هذا خسارة له. بل كان مثل [دبوجينس] الذي قيل له أن بعضهم «يهزأون له» فأجاب «لكني لست مهزأة» وقصده من هذا أن المهانين حقاً، هم أولئك الذين تحدث الإهانة فيهم أثراً. وهكذا كان الحال بفابيوس فقد رضى بهدوء عظيم وعدم مبالاة لما وقع. وقدم برهاناً للفكرة الفلسفية وهي أن الإنسان الصالح المستقيم غير قابل للتحقير. على أن حقنه الوحيد كان متأتياً من خوفه أن

(*) خالف الابن الأمر القنصلي واشتبك مع العدو الاثيني في نزال فودي، في المعركة الكبرى على قدمة جبل شيزوفيس ٢٤٠ ق.م.

(١٩) يخبرنا ليفي بأن مقترح الرسوم هو ترميتيوس قارو، الذي سمعته كثيراً بهزيمته في (كاسي).

يؤدي هذا القرار الأخرق، الى خسارة قضية البلاد، باتاحة الفرصة لمرض الطموح العسكري المزمع في مرؤوسه، ولكيلا يؤدي تهوور [مينوشيبوس] الى تورطه في مأزق، عاد الى الجيش بأقصى السرعة واتم السرية.

فوجد [مينوشيبوس] مزهواً مرتفع المعنوية بمنصبه الجديد، حتى انه لم يرص بالسلطة المشتركة وطلب ان تكون قيادة الجيش العامة بالناوية، يومٌ له ويوم لفاببيوس. فرفض فاببيوس طلبه وأقترح قسمة قطعات الجيش وعلته في هذا ان القائد المنفرد أقدر على قيادة قطعاته العسكرية الخاصة وبهذا تسلم الفرقتين الأولى والرابعة. وأختص [مينوشيبوس] بالفرقتين الثانية والثالثة، وقسماً القوات الاحتياطية بينهما بالتساوي.

وبالتعظيم الذي ناله [مينوشيبوس] لم يعد يصبر عن التباهي بنصره، عن طريق الازدراء بالمنصب الرفيع والسلطان القوى أعطي الذي منصب الدكتاتور. وذكره فاببيوس بأناءة ولين، أن الخصم الذي يقارعه هو هنيبعل لا فاببيوس، ولكن ان قضت الضرورة عليه أن ينافس زميله، فخبر منافسه له هي في مشابره واهتمامه بالمحافظة على روما لئلا يقال: رجل أطفاه الشعب وخصه بثقته، كانت خدمه أسوء وأقل شأناً من رجل أساء الشعب معاملته واذله.

ولكن القائد الشاب المستخف بهذا التأنيب، المزدري بالنصح باعتباره تواضع الشيخوخة الكاذب، ارتحل بقواته حالاً وعسكر وحده^(٢٠). ولم يكن هنيبعل غافلاً عن هذه الأحداث، والمنا ريض وأخذ يتحين فرصته منها. واتفق أن كان بين جيشه وبين [مينوشيبوس] نشرٌ من الأرض، بدأ له موقعاً مفيداً يمكن انشاء مواضع فيه، وكانت الحقول المحيطة به تبدو من بعيدٍ مستويةً متطامنة وان ملأها الوهاد والتضاريس الوعرة والوديان غير الظاهرة للعين وكان من أسهل الأمور على هنيبعل حيازة هذه الأراضي لو شاء، إلا أنه أراد أن يجعلها طعماً، أو فخاً يقتاد به الرومان الى اشتباك في الموسم الملائم. فلما انفصل [مينوشيبوس] عن [فاببيوس] رأى الفرصة مواتية لغرضه، ولذلك عمد الى وضع عددٍ كافٍ من جنوده في تلك المغاور والأخاديد ليلاً^(٢١)، ثم أرسل في الصباح الباكر وحدة صغيرة، تقدمت حتى أصبحت على مرأى من [مينوشيبوس] وبدأت تحتل نشر الأرض، فابتلع مينوشيبوس الطعام كما توقع، ودفع أولاً بوحداته الخفيفة، ثم اتبعها ببعض الخيالة لطرد العدو، وأخيراً لما شاهد هنيبعل بشخصه بزحف لمعاومة رجاله، تقدم بنسق المعركة، بكلّ قواته والتحم بالقوات المسيطرة على المرتع

(٢٠) هنا يختلف ليفي مع بلوتارخ اختلافاً جوهرياً بقوله ان الفرقتين الأولى والرابعة كانتا مناطتين بـ(مينوشيبوس) في حين اودعت قيادة الثانية والثالثة الى (فاببيوس). على ان (بوليببيوس) يخالف الاثنين هذا وقد كانت المسافة بين المعسكرين حوالي الف وخمسمائة خطوة.

(٢١) خمسمائة فارس ورجل (بوليببيوس ٢).

وصد لمقذوفاتهم، وظلّت المعركة زمناً متوازنة، ولكن ما أن تأكد هنيبعل أن الجيش العدو كله قد تقدم مسافة كافية في تلك السهول الوعرة المتعادية ودخل في الفخاخ التي نصّبها بحيث أصبح ظهره مكشوفاً لرجاله الكامنين في المغاور والأخاديد، حتى أعطى الإشارة فبرزوا من مخابئهم واندفعوا بهاجمون مؤخرة مينوشيوس من كلّ جهة وهم يصيحون صيحات مرعبة. وكانت المفاجأة عظيمة والمقتلة أعظم، وأصاب الجيش الروماني فوضى عامة وأختلت صفوفه. وفقد (مينوشيوس) ثقته بنفسه وأخذ يتقلّ ابصاره من ضابط إلى آخر. فوجد الجميع غير مستعدين لمواجهة الخطر على السواء. يميلون إلى الفرار، ولم يكن الفرار مأموناً كذلك، لأن الخيالة النوميديين Numidia كانوا قد أنتشروا في أرجاء السهل يجرون أذيال النصر، وهم يعقبون المنهزمين ويمزقونهم قزيقاً.

لم يكن فابيوس يجهل الخطر المحدق ببني قومه. وقد أدرك ماذا سيحدث جراء تهوّر (مينوشيوس) ومكر هنيبعل لذلك أبقى رجاله في حالة الإنذار وسلاحهم بأيديهم متأهبين لتعاقب الأحداث. كما أنه لم يضع ثقته في تقارير الآخرين وإنما راح يستطلع هو بنفسه كل ما حدث على رأس جيشه، فلما وجد جيش (مينوشيوس) يحيط به العدو وأن التنقلات الأرضية ومظاهر القتال تدلّ على أنهم أقرب إلى الهزيمة منهم للصمود ضرب منكبه بكفّه^(٢٢) وأطلق تنهيدة عميقة وقال لمن حوله «ابه يا هرقل! لكم كان (مينوشيوس) أسرع إلى تدمير نفسه مما توقعت وإن بدأ الأمر أبطاً مما أراد هوا». ثم أمر حامل الراية بالتقدم إلى الامام وسار الجيش خلفه، وهو في الطليعة يحشهم قائلاً «علينا أن نسرع لانقاذ مينوشيوس الباسل المحبّ لوطنه وإذا كان قد تعجّل في قتال الأعداء، فستحدث إليه عن هذا في وقت آخر».

وهكذا صال فابيوس على العدو وهو في الطليعة وظهر السهل من النوميديين بالأول، ثم انقضّ على الوحدات التي تهاجم مؤخرة الرومان وأباد كل من وقف في سبيله وأجبر فلولها على التقهقر السريع انقذاً لحياتها ولثلاث تكون حالها حال الرومان المطوقين. ولما رأى هنيبعل رجحان الكفة السريع، وفابيوس بشقّ طريقه صعداً، نحو المرتفع بين صفوف الجند، غير مبالٍ بالجهد الذي تتحمله سنّه المتقدمة، وأنه قد يتمكن من الانضمام إلى (مينوشيوس)، نكص على أعقابهم وأطلق بوق التقهقر وسحب قواته إلى معسكرهم، ولم يكن الرومان بأقل رغبة منهم في الارتداد سالمين. وقيل أن هنيبعل قال لأصدقائه مستندراً بهذه المناسبة: «ألم أقل لكم أن هذه السحابة^(٢٣) التي كانت تحوم دائماً فوق الجبل ستنقض علينا بعاصفة، إن عاجلاً أو آجلاً؟»

(٢٢) ينوه هوميروس بعادة ضرب الفخذ بالكف في ساعة الخطر أو المفاجأة ويضرب الجنب بالكف بدلاً من الفخذ أحياناً.

(٢٣) يورد ليفي قول فابيوس بهذا النمط: =

وآب فايبيوس الى معسكره بعد أن جمع رجاله الأسلاب من ميدان القتال. دور أن بوجه كلمة لوم، أو عبارة قاسية لزميله. وجمع (مينوشيوس) أفراد جيشه معاً وخاطبهم بقوله:
 - قيادة جيش عظيم بلا خطأ، أمرٌ يفوق طاقة البشر، لكن التعلم من الاخطاء والاتعاص بها، هو مما يليق بالرجل العاقل الصالح. قد تحملني اسبابٌ معينة على الشكوى من الأقدار لكن لدي أسباباً أكثر منها تحملني على شكرها، ففي ساعات معدودات أصلحت خطأ طويل الليث مزمناً، وعلمتني بانني غير جدير بقيادة الآخرين، بل محتاجٌ الى ان يقودني الآخرون. كما علمتني بالآ نحاول التفوق على من كان العمل برأيهم فائدة لنا. لذلك سيكون الدكتاتور قائداً لكم في كل الأمور، أما أنا فيبقائي على رأسكم الآن، يحدوني اليه اظهار امتناني له ليس الآ، ولاكون أول من يطعم أمره».

وبعد أن فرغ من كلامه أصدر أمراً بتقدم كل النصور الرومانية وان يتبعه كل رجال جيشه الى معسكر (فايبيوس). وجمد الجنود ذاهلين لطرافة المنظر عندما دخل، وعلتهم الحيرة والشك في الغرض من هذه المظاهرة، ولما دنا من خيمة الدكتاتور خرج هذا لاستقباله، فأسرع (مينوشيوس) وألقى براهاته تحت قدميه ونادياً آياه بيا أبي! بصوت مرتفع. بينما حيّ جنوده، زملاءهم في المعسكر كما يحيون الأسياد المحسنين وهي التحية الواجبة على العبيد المعتوقين لأولئك الذين انالوهم حريتهم. وبعد ان هدأت الضجة وساد الصمت انشأ (مينوشيوس) يقول:
 - لقد أحرزت أيها الدكتاتور نصرين في هذا اليوم، أحدهما نصر على هنيبعل وكان سبيلك اليه بسألتك وحكمتك، والنصر الثاني على زميلك، وكان سبيلك اليه حكمتك وطيبتك بالنصر الأول انقذتنا وبالنصر الثاني ثقفتنا. وعندما كان يجلبنا عار الهزيمة على يد هنيبعل جاءت هزيمة أخرى له على يدك فاعادت الينا شرفنا وسلمت ارواحنا. واني لا أجد اسماً اناديك به أعزّ وانبل من اسم الأب المشفق. وان كانت بركة الأب لا تداني ما حبوتني به. من أب ظفرت وحدي بنعمة الحياة. واليك انا مدين ليس بها وحدها، بل بحياة كل من هم تحت أمرتي.

ثم أنه ألقى نفسه بين ذراعي الدكتاتور. وفعل افراد الجيش كذلك بعضهم ببعض وهم مسرورون والدموع تجول في أعينهم.

لم يمرّ طويل زمن على هذا، حتى أعتزل فايبيوس منصب الدكتاتور وأعاد الحكم للقاصل^(٢٤). وطلق من خلقه أسلوبه في ادارة الحرب. وأجتنبوا كل التحام بهنيبعل في

. Non Celerius Quam Timui, Depehemdi Fortun a Temeritatem =

(٢٤) ليفي (٢٢ ٢٢) استعفى (فايبيوس) من منصب الدكتاتور بعد انقضاء الأشهر الستة وسلم القيادة الى =

معركة فاصلة. وقصروا مجهودهم على أمداد حلفائهم بالمساعدات، والمحافظة على المدن والخيولة دون سقوطها بيد الأعداء. ثم تولى القنصلية [تيرنيتوس فارو - Terntius Varo] (٢٥) بعد زمن، وهو رجلٌ مجهول النسب خامله، إلا أنه جري. مقدم يشتمع بشعبية كبيرة، وبدأ واضحاً أنه مزعج على توريط البلاد كلها في مخاطر جسيمة شهوره وجهله. فقد راح يوالي الخطب في المجالس قاتلاً: مادامت روما تعهد بقيادة جيوشها إلى امثال فابيوس فلن تكون للحرب نهاية. وأخذ يتبجح بقوله أنه سيحرر أرض إيطاليا من قبضة الأجنبي في اليوم الذي يقع نظره على العدو. وبهذه الوعود التي بذلها ونادى بها، إمكنه أن يعي، أعظم جيش جردته روما لقتال. فقد جند فيه ثمانية وثمانين ألف مقاتل (٢٦). إلا أن ما كان يوهي بالثقة لعامة الشعب، كان من جهة أخرى يصيب العقلاء المجرمين بالعرب وليس فيهم أكثر خوفاً من فابيوس. فلو قُدر لهذا العدد الضخم من زهرة شباب الرومان أن يباد في القتال، لضاع كل أمل في سلامة روما، إذ لا احتياطي آخر لها غيره. وعلى هذا الأساس راجعوا القنصل الثاني [إميليسوس پاولوس Aemilius Paulus] وهو رجل ذو تجارب عظيمة في الشؤون الحربية إلا أنه لا يتمتع بشعبية، فضلاً عن شدة خوف فيه من الجماهير، تولد عن إدانتها له لمخالفة ما أرتكبها (٢٧). فحكم ولذلك كان بحاجة إلى التشجيع ليحد من اندفاع زميله الأهرج. قال له فابيوس:

- إن شئت أن تؤدي إلى بلادك خدمة نصوحاً وتكون نافعاً لها، فعليك أن لا تكون أقلّ معارضةً لاندفاع [فارو] الأحق من بقطة هنيئيل المستوفزة. لأن كلاهما اتفقا على تقرير مصير روما بمعركة حربية. والأجدر بك والأقرب إلى العقل أن تصدقني أكثر مما تصدق [فارو] في كل ما يتعلق بهنيئيل، عندما أقول لك: انه إذا أمتنعت خلال هذا العام عن قتاله. فيما سيهلك جيشه من تلقاء نفسه، وأما سيكون مسروراً للرجيل بمحض

= قنصلي تلك السنة [سرفيوس] و[اتيلوس] والآخر حل محل [فلامينيوس] الذي هرع في ثراسيمي. ديوتارح يقتضي خطي [پوليبيوس] في سرد هذه الأحداث.

(٢٥) ابن قصاب، ورت مهنة أبيه في شبابه لكنه أغتنى فماف حرفته العقيرة واستجلب قلوب الجمهور بدهم أكثر التريبونات قوضوية وحباً للشعب وبهذا الأسلوب وصل إلى منصب القنصلية (ليفي ٢٢ ٢٦).

(٢٦) جرى العرف الروماني على تجنيد أربع فرق عسكرية كل سنة. في الأوقات العصبية والامرات تؤلف الفرق الواحدة من خمسة آلاف راجل روماني وثلاثمائة فارس وكتيبة لاتينية واحدة بعدد متساو من المشاة وضعف العدد من الخيالة. ويبلغ المجمع الكلي لقوة هذه الفرق البشرية ٤٣.٠٠٠ مقاتل. إلا أنهم جندوا بهذه المناسبة ثمانين فرق بدلاً من أربعة. أما ليفي فيكتفي بالقول ان القوات المجتدة كانت ضخمة جداً.

(٢٧) كان هو واخوه قد حققا نصراً على اللاتريين واخضاعهم لكنهما اتهاما بالتحيز في تقسيم الغنائم، أو كما يقول [اوريليوس فكتور] باختلاس الأموال العامة. وثبت عليهما ذلك وفرضت عليهما عرامة كبيرة وكانت غرامة أميليس أقل (ليفي ٢٥:٢٢).

احتياره. ويظهر هذا بجلاء من نفور البلاد والمدن الإيطالية كلها من محالفته، وإن جيشه الآن يكاد لا يبلغ ثلث ما كان عند أول مجيئه، ودعك من كل الانتصارات التي أحرزها. فأجاب [پاولوس] على هذا (كما ذكر بعضهم):

- لو أني أخذت شخصي فحسب بنظر الإعتبار لفضلت تعريض صدري لاسلحة هنيبعل عن تعريضه مرة أخرى لقضاء بني قومي الذين هم شديد والرغبة فيما لا توافقون عليه. ومع هذا، ومادام مصير روما في كفة القدر، فالأحرى بشخصي وخليقي أن أرضي وأطيع [فابيوس] ولو أجمع علي الثقلان والعالم كله.

هذه التدابير السديدة، هزمتها لاجابة [فارو] وتسرعته فعندما خرج القنصلان معاً لتسلم قيادة الجيش لم يتوصل الى حل غير القيادة المنفصلة أي أن كل قنصل يتناوب القيادة يوماً^(٢٨).

وبحلول يوم [فارو] في القيادة أختار موضع الجيش لمواجهة هنيبعل في قرية تدعى [كانني] Cannae^(٢٩) بالقرب من نهر [أوفيدس Aufidus]. وانتهر أول يوم آخر لقيادته فنشر العباءة القرمزية فوق خيمته وهي إشارة المعركة. وأفزعته القرطاجيين تلك الجرأة، وتفوق العدو العددي الذي ناهز الضعف. إلا أن هنيبعل أمر بالتأهب واعتداد السلاح وخرج مع بطانة قليلة للاستطلاع ومتابعة تحركات العدو وهو ينظم صفوفه للمعركة من مرتفع لا يبعد كثيراً عنهم. وانبرى [غيسكو Gisco] القرطاجي (وهو من أتباعه المساوين له في المقام) يقول: إن عدده جيش العدو مذهش فأجابه هنيبعل بلهجة جد لا أثر منها للمزاح: «هناك يا غيسكو شيء واحد إدعى الى الدهشة، غاب عن ملاحظتك» ولما سأله غيسكو عما هو؟ قال: «في كل هذه الجموع الزاخرة أمامنا لا يوجد شخص واحد اسمه غيسكو» وأغرقت السرية كلها في الضحك لهذه المزحة غير المنتظرة من قائدهم. وعندما هبطوا من المرتفع ونقلوها لمن لقوه فكان الضحك عاماً متواصلاً. لا قبل لهم بوقفه، ولما شاهد الجيش حاشية هنيبعل تعود من مهمة الاستطلاع وهي مفرقة في الضحك والمزاح، استنتج أنه دليل على الازدراء العميق بالعدو. وأن ضعفه هو الذي جعل قائدهم في تلك الساعة منشغ بالمزاح.

(٢٨) يقع بلوتارخ في خطأ. فقد كانت القاعدة الأصولية عند الرومان أن القناصل يتناوبون قيادة الجيش أثناء ما يكون الاثنان في الواجب عنه (پوليبيوس: ٣).

(٢٩) يقول [لبيي واييان وفلورس] أن [كانني] هي قرية حقيرة خاملة اشتهرت للمعركة التي جرت قريباً منها. إلا أن پوليبيوس الذي عاصر الحروب الفيونانية يصفها بالمدينة قائلاً أنها دمرت قبل سنة واحدة من اندحار الجيش الروماني. وفي هذا يوافق سيليوس ايتالكوس، بعد ذلك أعيد بناؤها إذ أن [بليني] يصنفها بين مدن [إپوليا]. وما تزال خرائبها شاخصة حتى يومنا هذا بالقرب من مدينة [باري].

وكعادة هنيبعل، لجأ إلى الحيلة والاستراتيج للاعادة من الموقف. ففي المقام الأول، نظم صفوف رجاله بحيث يكون مَهَبُ الريح^(٣٠) من خلفهم وكان اتجاهها في ذلك الوقت نحو الانقلاب إلى عاصفة هوجاء تامة تكتسح السهول الرملية العظيمة وتحمل باندفاعها سحابة من الغبار فوق الجيش القرطاجني وتلقى بحملها في وجوه الرومان، فتلحق بهم أذى عظيماً وتعوقهم في القتال كثيراً، وعمد في المقام الثاني إلى وضع خيرة رجاله في الجناحين. أما القلب فقد وضع فيه اسوأ وحدات جيشه واضعفاً. وأوصى الجناحين بتطبيق الخطة التالية: عندما يقوم العدو بهجوم كاسح على قلب الوحدات المتقدمة التي يعلم أنها ستتهقر لعجزها عن احتمال الصدمة وعندما يتقدم الرومان في مطاردتهم ويكونون مشتبهين بالقتال على مسافة كافية ما بين الجناحين. فعلى الميمنة والمسيرة أن تطبقا من الجانبين عليهما، وتحاولا تطويقهم^(٣١). ويظهر أن هذا هو السبب الرئيس في خسران الرومان. فقد القوا كامل ثقلهم على قلب هنيبعل فتتهقر، فاستحال شكل جيشه إلى هلال كامل، ومنحوا فرصة زردة لضباط القوات المختارة للهجوم عليهم من اليمين واليسار على الجناحين. وأوقعوا تفتيلاً وإبادةً بكل من لم يرتد إلى الخلف قبل أن يتصل جناحاً القرطاجيين في مؤخرتهم. وإلى هذه الكارثة العامة قيل أن خطأ غريباً حصل عند قوات الخيالة قد ساهم فيها. فقد أصيب جواد إميلبوس بأذى فرمغ سيده. فترجل عدد من الفرسان المحيطين به حالاً لمعاونته. ولما رأى الجنود الرومان قادتهم يتركون خيلهم، ظنوها إيعازاً لهم بالترجل هم أيضاً والهجوم على العدو راجلين. وسمع هنيبعل يقول وهو ينظر إلى المشهد: «إني لأعظم سروراً بهذا، مما لو جئ بهم إليّ مقبدين أيادي وأرجلاً»^(٣٢). وعن تفاصيل هذه الواقعة نحيل قارئنا إلى أولئك الكتاب الذين كتبوا عنها بتوسع^(٣٣).

وفر القنصل [فارو] إلى [فينوسيا Venusi] بشرذمة من الاتباع أما [إميلبوس پاولوس]، فبعد أن عجز تماماً عن إيقاف هزيمة رجاله، جلس على صخرة وجسمه كله تغطيه الجراح، وروحه لا تقل عن جسمه جراحاً متوقفاً أن يرحم بضربة قاضية. وبلغ تشويه وجهه وكثره الدماء

(٣٠) هذه الريح الحارة التي تهب من الشرق والجنوب. يسميها ليفي ٤٦:٢٢ [قولوترونوس] واسمها الحديث [سپروكو]. ولما كان الجيش الروماني يواجه الجنوب فقد عانى منها الكثير وساءت حاله بها. والتأثير المعروف الذي تحدثه هو الضمول والضعف بدرجة كبيرة.

(٣١) يذكر ليفي خطة أخرى لجأ إليها هنيبعل. فقد تظاهر خمسمائة من أفارقتة النوميديين بالانضمام إلى صفوف الرومان إلا أنهم انقلبوا عليهم عند احتدام المعركة وهاجموا الجنود الرومان من الخلف.

(٣٢) النص في ليفي ٤٩:٢. Quam Mallem vinetod mihi trodeset.

(٣٣) لاسيما پوليبوس وليفي (٤٧: ٤٩-٤٧) الذي كان پلوتارخ يعتمد على رئيساً. على أنهما لم ينجحا قط في إعطاء فكرة دقيقة واضحة عن الخطة التي أعتمدها هنيبعل في المعركة بصورة عامة.

التي تلتطحه مسلماً لم يعد معه معروفاً من أقرب أصدقائه وخدمه أثناء مرورهم به. وأخيراً عرفه الشاب الباتريشي [كورنيليوس لينتولوس Cornelius Lentulus] فترجل عن حصانه وعرضه عليه طالباً فيه أن ينهض وينجو بحياته الضرورية لسلامة البلاد. التي هي الآن في أمس الحاجة الى قائد عظيم مثله. ولكن لم يتنه شيء عن عزمه أو يقتعه بقبول العرض ورجا الفتى [لينتولوس] والدموع تجول في عينيه أن يمتطي حصانه. ثم أستوى قائماً ومد اليه يده مصافحاً وأمره أن يبلغ [فابيوس ماكسيموس] بأن [اميليوس پاولوس] قد أتبع توصياته الى النهاية ولم يجد قيد أغلّة عن تلك الآراء التي تمّ التفاهم عليها بينهما. ولكن سوء حظّه جعل [فارو] يتغلّب عليه بالدرجة الأولى وهنيبعل بالدرجة الثانية. وبعد أن زوّد [لينتولوس] بتوصيته وصرفه، توجه الى مثار النقع حيث المعركة حامية الوطيس والقي بنفسه على سيوف العدو. وقيل أن الرومان خسروا في هذه الموقعة خمسين ألف قتيل^(٢٣)، وأربعة آلاف أسير، أستسلموا في ميدان القتال وعشرة آلاف أخذوا في معسكري القنصلين.

والح أصحاب هنيبعل لإقناعه باستثمار فوزه، ومطاردة الرومان المنهزمين حتى ابواب روما، مؤكداً له أن لن تمرّ عليه خمسة ايام الا ويكون في الكايسيتول يتناول عشاءه. وليس من السهل التكهن بالاعتبارات التي منعت من ذلك. وقد يبدو أن التدخل الرباني هو الذي سبب التردد والاحجام الذي ابداه الآن، وحمل [باركاس Barcas] القرطاجني على أن يقول له ساخطاً: «إنك يا هنيبعل تعرف كيف تحرز النصر، إلا أنك لا تعرف كيف تفيد منه»^(٢٤) على أن هذه الموقعة أحدثت تبديلاً عجباً في أموره. فقد أصبح فهو السيد المطلق على أفضل الأقاليم والمدن في إيطاليا^(٢٥)، وسيطر على [كابوا Capua] نفسها التي تلي روما بالأهمية

(٢٣) ليني في المرجع السالف يذكر ان الرومان خسروا عشرين ألفاً وان حلفاءهم خسروا مثل هذا العدد فضلاً عن (٢٧٠٠) خيال بينهم كويستوران وواحد وعشرون تريبوناً وعدد ممن كان قد تولى مناصب القنصلية والپريتورية والايديلية ويضمّن منهم بالذكر سرفيلوس جمينوس. ومينوشوس قائد الفرسان، فضلاً عن ثمانين شيخاً من الامضاء العاليين في المجلس أو المنتخبين للدورة القادمة وكانوا قد تطوعوا للقتال، ووقع ثلاثة آلاف راجل في الأسر وثلاثمائة من الضيالة، يقول أيضاً ان هذا النصر كلف القرطاجيين ثمانية آلاف من اشجع مقاتلهم. ويزع (پوليبيوس) ان سبعين ألفاً قد قتلوا وان أكثر من عشرة آلاف. من غرائب ما وقع انه وجدوا نوميدياً حياً تحت روماني ميت. كان الروماني قد بترت يده ففج عن استخدام سلاحه للقضاء على النوميدي فلقى بثقله عليه وبأسنانه قطع اذنيه وافه قبل أن يفارق الحياة (ليني المرجع نفسه ٥١).

(٢٤) يصور ليني (مهربال) هكذا Non omnia nimirum eidum di dedere Vincere scis Tum Maharbal "Hannibal victoria ali nesas ومهربال هو قائد الخيالة الرومانية. ولطه ذلك الذي كان يلقب بـ(باركاس) مثل هلقار. أن زوموراس يحدثنا بأن هنيبعل ادرك غلظه فيما بعد حين أمسك عن تعقيب فلول العدو بعد انتصاره. وقد اعتاد أن يهتف متحسراً في أحيان كثيرة: أه لي من كاني! أه لي من كاني.

(٢٥) الايوليون، والسامنيون، والتارنت وغيرهم.

والغنية الزاهرة، كل ذلك وقع بيده وخضع لحكمه، وهو الذي لم يكن قبلها - يملك مدينة واحدة أو سوقاً أو ميناءً، خالي الوفاض معدماً لا يجد ما يطعم به رجاله إلا ما يأتيه عن طريق النهب من يوم إلى يوم، ولا موضع ينسحب إليه ويتحصن فيه أو يتخذ قاعدة لعملياته، وإنما كان يطوّف على غير هدى كأنما يقود عصابة ضخمة من الأفاكين.

هناك قول ليوبريدس «يكون المرء في وضع سيء حين يتوجب عليه أن يمتحن صديقاً كذلك يبدو أن وضع دولة ما لن يكون فضل عندما ترى نفسها بحاجة إلى قائد كفوء». وهذا ما كان عليه الرومان في ذلك الحين. فصائح فابيوس، وأعماله التي نعمتها قبل الموقعة بالجن والخور، صاروا ينظرون إليها الآن من الزاوية المعاكسة القصوى ووجدوا فيها ما فاق حكمة البشر السوي. حتى لكان للقدرة الإلهية بدأ في هذه النظرة البعيدة، وإنما التي تكهنت بغم فابيوس بنتيجة صعب تصديقها حتى بعد وقوعها خلافاً لحكم الآخرين جميعاً. ولهذا بادروا إلى وضع كل ما بقي لديهم من أمل فيه. وكانت حكمته الهيكل المقدس والمعبد الذي لا ذوا بحماه بغية النجاة. ولقد منعته نصائحه أكثر من أي شيء آخر، من التشرد وترك مدينتهم، كما كان الوضع عندما أستولى الغاليون على روما. وهذا الذي كانوا يعتبرونه خائر القلب وعديداً عندما كانوا - حسباً توهموا - في أمان ومنعة، صار الآن الرجل الوحيد الذي لم يظهر أثراً لخوف في هذا الإضطراب والشقاء العام غير المحدود. وإنما كان يسير في الشوارع بهدوء وثقة يكلم أبناء قومه ويبادلهم الحديث ويضع حداً لانتحاب النساء، ويكبح الاجتماعات العامة التي يتولى عقدها من يريد التنفيس منهم عن كربه وأحزانه. ويسمي منه عقد الشيوخ اجتماعاً، أو شاع روح الأمل في الحكام وكان هو نفسه روح كل دائرة وحياتها.

ووضع حرساً على أبواب المدينة لمنع الأهالي الخائفين من مغادرتها ونظم واختصر مراسيم الحداد على القتلى زماناً ومكاناً. وأمر أن تقوم كل أسرة بما يقتضى من هذه الشعائر داخل المنازل وإن لا تزيد مدة ممارستها عن شهر واحد، يقوم أهل المدينة كلهم بالتطهر وفك الحداد بعد نهايته مباشرة، وقرر الغاء الاحتفال بعيد [جيريس Ceres] ^(٣٦) الذي وقع في تلك الاثناء، لئلا تنكشف قلة المحتفلين به، ومظاهر حزنهم ويؤسهم، عظم الخسارة التي وقعت. فضلاً عن أن العبادة الأكثر قبولاً عند الآلهة هي التي تنبع من قلوب منشرفة. على الشعائر المتعلقة بتهنئة غضبها وأطلاب إشارات سماوية ومع ذلك فقد اقيمت بخير ما أمكن تحت

(٣٦) لم يكن هذا السبب الحقيقي المؤدي إلى الغاء العيد ووقع عادة في الثاني عشر من شهر نيسان بل لأنه يحرم على الذين يقضون أيام الحداد أن يُعَيّنوا فيه. ولك لتجد وقتذاك امرأة في روما إلا وهي في حداد. والواقع هو أن الاحتفال بالعيد أجل حتى نهاية فترة الحداد التي اختصرت إلى ثلاثين يوماً كي لا تتأخر المراسيم الدينية الخاصة والعامة أكثر مما تأخرت.

أشرف الكهنة والعرفان وأرسل [فابيوس پكتور F. Pictor] وهو قريب لفابيوس ماكسيموس إلى دلمي ليستوحي نبوءة من العرافة. وفي ذلك الزمن تحقق زنى [أفستاليتين] فقتلت واحدة نفسها، ودفنت الثانية حية كما جرى به العرف (٣٧).

دعنا قبل كل شيء، نبدي أعجابنا بالمعنوية العالية والتماسك الشديد اللذين تتمتع بها هذه الجمهورية الرومانية. فعندما جاء [قارو] مدحوراً مهزوماً يجلله الذل والعار، وبعد أن آل أسلوب تصرفه الأمور إلى النكبة والخزي خرج الشيوخ والعامة جميعاً لاستقباله عند أبواب المدينة، وأضفوا عليه كل مظاهر التكریم والاحترام. وبعد أن ساد السكون أخذ الحكام ورؤوس الشيوخ ومنهم فابيوس، يثنون عليه أمام الشعب لأنه لم ييأس من سلامة الجمهورية بعد هذه الخسارة الفادحة وإنما جاء ليتسلم مقاليد الحكم بيده وينفذ أحكام القوانين ويعاون أبناء قومه في جهودهم لأجل نصر مقبل (٣٨).

وبدأت قلوب الرومان تنبض بالحياة وتنتعش عندما وصلت إلى روما أبناء تشير إلى أن هنيبعل زحف بجيشه إلى أنحاء أخرى من إيطاليا على أثر المعركة، وطفقوا يبعثون بالقيادة والجيش لمتناجزته. وأختص بأعلى القيادتين [فابيوس ماكسيموس] و[كلوديوس مارجلوس Claudius Marcellus] وكلاهما من المشاهير، ولكن على أسس مختلفة. فمارجلوس كان كما ذكرنا في سيرته، رجل أعمال وإقدام، سريعاً جريئاً بشخصه - وكما وصف هوميروس ابطاله: عنيف يعشق القتال. وكان تآكثيه الحربي الذي واجه به هنيبعل الأقدام والجرأة وحب المغامرة، وهو الطابع الذي اتسمت به معاركه. إلا أن فابيوس ظلّ مقيماً على مبدئه الأول وما زال مقتنعاً بأن متابعة هنيبعل دون قتاله كفيل على الأقل بانهاكه والقضاء عليه مثل مصارع بلغ نهاية طاقته. وباستعمال كل قواه، غالباً ما تراه يستنفدها فجأة فيتهاوى منهكاً ويخسر الشوط. ويذكر لنا [هوسيدونيوس] أن الرومان يسمون مارجلوس سيفهم، وفابيوس درعهم. ومن قوة الأول وثبات الثاني، يخرج مزيج يكون فيه خلاص روما. ووجد هنيبعل بالتجربة إن اصطدامه بأولهما يشبه التقاء منهر ثرثار سريع المجرى يدفع به إلى الخلف إلا أنه لا يعدم أن

(٣٧) يضيف ليفي [المراجع السابق ٥٧] أن [كانتيليوس] عشيق احدهما جلد حتى فاضت روحه. وأن الديكاميثر راجعوا كتب الكليل فقمروا بأربع ضحايا بشرية «تدفن أحياء في سوق الحيوانات ذكر وأنثى اغريقيان. وأثنان من أهالي اليونان.

(٣٨) من تعليق [ليفى] على هذا قوله «ولو كان جنرالاً قرطاجياً للقى شرّ مיתה. ويحدثنا فاليريوس ماكسيموس [٤:٢ و ٥:٤] قائلاً أن الشيوخ والعامة حزموا عن طوعهم بأن عرضوا عليه منصب الدكتاتور، إلا أنه رفضه بكل تواضع. ويخبرنا فرونتينيوس [٤: ٤-٦] أنه ظلّ بقية حياته مرسلًا شعر نقته ورأسه لا يأكل على أريكة كغيره من الرومان ويقول عندما يقابل بمظاهر التكریم ان على الرومان أن يحطوا بحكام أوفر خطاً منه.

يعمل كسراً في ضفافه، وأمّا الثاني، فمع أنه يمرّ بالقرب منه هادئاً ساكناً، فهو يجرفه ويلتهمه التهاماً. وأخيراً أستقر رأيه على هذا: انه يخشى [مارجللوس] عندما يتحرك. ويخشى [فابيوس] عندما يكون ساكناً. وكان عليه طوال تلك الحرب أن يواجه أحدهما أو كليهما. فكلّ من هذين القائدين تولى منصب القنصلية خمس مرات، وبقياً جزءاً دائماً في جهاز القيادة العسكرية إمّا بصفة قنصل أو برو قنصل أو پريتور، حتى وقع [مارجللوس] في الفخ الذي نصبه له هنيبعل وقتل وهو قنصل للمرة الخامسة. إلا أن كلّ مكروه وبراعته لم يفلح مع [فابيوس] فلم يتعرض هذا للخطر إلا مرة واحدة. وذلك عندما وردته رسائل مزورة عن لسان أعيان مدينة [ميتاپونتوم Metapontum] يعدونه فيها بتسليم مدينتهم إن قدم إليها بجيشه، وبالصدقة والتحالف الذي ينتظره. وكاد يقع فريسة لهذه المؤامرة، إلا انه قرّر التقدم نحوها بجزء من قواته. بعد استطلاع الحظ من مسرى الطير فوجدها تشير سوء العقبى فعدل عن مسيره. ومالّث أن علم بأن الرسائل من صنع هنيبعل الذي أعد لاستقباله كميناً محكماً، وحرّى بنا أن نعزو هذا الحظ الى بركة الآلهة أكثر مما نعزوه الى بُعد نظر [فابيوس].

كان مسلكه رائعاً في اجتناب قرد المدن وثورة الحلفاء بالمعاملة الرقيقة العادلة، وعدم استخدام الشدة أو اظهار الشك عند أقل اشتباه. وذكر عنه أنه أبلغ عن شخص يدعى [مارسيان Marsian] (٢٩) مشهور بالبسالة معروف بشرف النسب، بأنه كان يكلم بعض الجنود سرّاً، عن الهروب من الجيش. فلم يلجأ فابيوس الى استخدام أي شدة معه، بل بعث في طلبه وقال له إنه ليعلم بالأهمال الذي أصاب مؤهلاته وخدماته الممتازة، وهو خطأ عظيم من الضباط الذين يمنحون مكافآتهم لا على أساس الكفاءة والمؤهلات، بل على غلطة منك إن شعرت بغبنٍ وراجعت أحداً غيري». ثم أنه خلق عليه جواداً مطهماً وهدايا أخرى، ومنذ ذلك الحين وهذا الرجل مثلاً يضرب في الاخلاص والتفاني، في سائر الجيش. فقد ادرك بحسب بصيرته انه اذا كان سائس الخيل ومدربا الكلاب يستخدمون أساليب لينة رفيقة لتذليل طباع هذه الحيوانات الشرسة، ولا يلجأون الى خربها أو معاملتها بالشدة. فأولى بأولئك الذين يتودون الرجال أن يحاولوا غرس حسّ النظام والضبط بأسوء مما يعامل البيستانيون النبت البري الذي يفقد بالتشذيب والعناية طباعه الوحشية بالتدريب، ليؤتي أفضل الثمر.

وفي مناسبة أخرى أبلغه بعض ضباطه أن رجلاً من رجالهم يتغيب كثيراً من موقعه ويخرج

(٢٩) ليفي [١٥:٢٢] يعزو هذه الحكاية الى [مارجللوس] لا الى [فابيوس] ويقول ان الاسم الوارد هو (بانديتوس) أو Bandius بانديوس في سيرة مارجللوس. وهو مواطن من (نولا) وجل نصف ميت بين اكداش القتل بعد معركة (كاني) وقد خصّ بامتياز الدخول على الجنرال متى شاء.

ليلاً، فسألهم أي نوع من الرجال هو ؟ فأجمعوا كلهم بأنه لا يوجد في سائر الجيش من هو أفضل منه، وأنه مواطن من [الوكانيا Lucania]، ثم طفقوا يروون مآثر عدة رواه يقوم بها. فأمر فابيوس بتحقيق دقيق عنه، وعلم أخيراً إن الغياب الكثير الذي لوحظ منه كان لزيارة فتاة وقع في حبها. وعندها أمر بعض رجاله أن يبحثوا عن الحبيبة سرّاً، وإن يأتوا بها إلى خيمته، ففعلوا، ثم أنه أحضر [اللوكاني] وانفرد به وقال له أنه يعرف جيداً بكثرة غيابه عن المعسكر ليلاً، وهو أخطر جرعة ضد النظام العسكرية والقوانين الرومانية، لكنه يعلم كذلك مبلغ شجاعته، ولا يجهل أيضاً الخدمات الجليلة التي قدمها، وهو لأجلها يرغب في العفو عنه والتفاضي عن خطئه لكنه وسعياً وراء إبقائه في حدود النظام - قرر أن يضع حارساً عليه يكون مسؤولاً عن حسن سلوكه. وبعد أن قال هذا، أخرج له الفتاة وخاطب الجندي المرتعب المذهول بالمفاجأة: «هذا هو الشخص الذي سيكون ضامناً لك. وسنرى حسن سلوكك المقبل هل أن تجوالك الليلي كان بسبب الحب أم لغرض أسوأ منه!».

وتم واقعة أخرى تشابه هذه، كانت عاملاً على دخوله مدينة تارنتوم (*) واحتلالها. بعد أن خسروها بدسياسة:

يوجد فتى [تارنتي] في الجيش له أخت تسكن [تارنتوم] التي كانت في قبضة العدو، هذه الاخت كانت شديدة الحب لأخيها، متعلقة به للغاية، وعلم الأخ أن بروتيي (Bruttian) نصبه هنيئيل قائداً لحامية المدينة، قد توكه بحب أخته. وخيل له أن علاقة كهذه قد تثمر ما فيه خير للرومان، وأتصل بفابيوس وانتهى إليه بخطته ثم ترك الجيش كمن فر منه ظاهرياً، وذهب إلى تارنتوم. ومرت الأيام الأولى والبروتيي ممتنع عن زيارة الأخت لأنها ما كان يعرفان أن الأخ على بينة مما يقوم بينهما من حب. على أن الفتى [التارنتي] أنتهز فرصة ليخبر أخته بكيفية سماعه عن تعلق رجل كبير المقام والسلطة بها وطلب منها أن تكشف له عن هويته. «فاذا كان شجاعاً حسن السمعة فلا يهم أصله وقوميته، مادام السيف في هذا العصر يمزج كل الشعوب ويجعلهم متساوين والاضطرار يجعل كل عمل شريفاً حيث الحق ضعيف، فعلينا أن نحمد الله إذا أخذ شكل الرقة». وعندئذ بعث الفتاة تدعو صديقها. وعرفت بأخيها وأظهرت بعدها تحارباً معه أكثر من الماضي. وزاد عطفها عليه بالنسبة التي تولت بها صداقته بأخيها. إلى أن اعتقد [التارنتي] بأن الضابط البروتي أصبح مهيناً لقبول العروض التي أعدّها له، وأنه وهو الجندي المرتزق الواقع في أسر الحب، سيكون على أتم استعداد للرضا بالكافآت السخية التي وعده بها فابيوس، حسب الشروط التي سيتفق عليها.

(*) خسرها الرومان في ٢١٢ واستعادوها في ٢٠٩ ق.م.

والنتيجة تم عقد الصفقة، بتسليم المدينة للرومان. وهذه هي الحكاية الشائعة إلا أن بعضهم يرويها بشكل آخر. فيقول أن هذه المرأة التي أتخذت آلة لحمل [البروتي] على تسليم المدينة لم تكن [تارنتية] بل [بروتية] وانها جارية لفابيوس. ولكونها بروتية، وعلى سابق معرفة بحاكم المدينة البروتي فقد بعث بها سرّاً لإغرائه وإيقاعه في الشرك.

وعمد فابيوس الى تغطية مساعيه هذه - صرفاً لانتباه هنيبعل الى خطئه - بإصداره أمراً الى الحامية الرومانية في (ريغيوم Rhegium) بأن تحتاج البلاد البروتية وتعيث فيها سلباً ونهباً وان تلقي حصاراً على [كاولونيا Caulonia] وتكتسح الموقع بكلّ شدة وزخم. وكان قوام تلك الحامية ثمانية آلاف رجل هم أسوء ما في الجيش الروماني ومعظمهم من الهاربين استاقهم مارچلوس^(٤٠) في صقلية بحالة غير مشرفة، ولم تكن خسارة هؤلاء - بالأمر المزعج أو الاليم للرومان ولذلك القى بهم فابيوس طعماً لهنيبعل، لصرف انتباهه عن [تارنتوم] فابتلعه حالاً وساق قواته الى كاولونيا. وفي الوقت نفسه كان فابيوس قد عسكر في طاهر تارنتوم والقى عليها الحصار وفي اليوم السادس منه تسلل الفتى التارنتي ليلاً من المدينة. بعد أن تفحص بدقة الموضع الذي كان مقرراً أن يدخل منه الرومان المدينة حسب الاتفاق مع القائد البروتي، وقدم تقريراً بالموضوع كله الى فابيوس. الذي لم يجد من السلامة في شيء، أن يعتمد اعتماداً تاماً على المؤامرة، بل أعطى الأمر بالهجوم العام برأ وبحراً من الجهة الأخرى بينما كان يتقدم بقواته سرّاً الى الموضع المتفق عليه - وفي الوقت الذي هرع التارنتيون لصد الهجوم عن المدينة، تسلّم فابيوس الاشارة في البروتي فتسلق الأسوار ودخل المدينة دون مقاومة.

وعلينا الإقرار هنا أن الطموح الجرمي تغلب عليه فيما يبدو. إذ اراد أن يظهر للعالم بأنه فتح تارنتون بالحرب، وبمجهوده العسكري لا بالخيانة والخدعة، فأمر رجاله بقتل [البروتيين] قبل الآخرين، إلا أنه لم ينجح في تثبيت هذا الانطباع كما رغب، ولم يحصل من جراء إلا على صفة القسوة والفدر. وقُتل عدد كبير من التارنتيين أيضاً وبيع ثلاثون ألفاً منهم في أسواق العبيد، وأعطى الجيش أسلاب المدينة، وجرى الى الخزينة العامة بثلاثة آلاف تالنت من النقد. وفيما كانوا ينقلون الأموال المنهوبة سأل الضابط المتسلّم ما الذي ينبغي عمله بالهتهم؟ يقصد صورها وتمثيلها فأجاب [فابيوس]: «فلندع للتارنتيين آلهتهم الغاضبة» ومع هذا فقد حمل

(٤٠) لم يستقدم مارچلوس هذه القطعات العسكرية. والمسؤول عن استقدامها هو زميله [ليفينوس]. الأول غادر صقلية قبل الاستيلاء على سيراقوز في [٤٠٠:٢٦] العدد يخفض الى اربعة آلاف كانوا يعيشون على كل انواع السرقات طوال اقامتهم في المدينة الصقلية، انما قرنا.

تمثال هرقل الضخم. ووضعه في الكابيتول الى جانب تمثال له على ظهر جواد، مصوب من الحاس^(٤١). وهي أعمال تختلف كثيراً عن أعمال مارچيللوس في مناسبة مماثلة، أظهرت في الواقع اسابيته وطيبة للعالم، كما أوضحناها في سيرة حياته^(*).

قبل أن هنيبعل كان على بعد خمسة أميال عندما بلغه نبأ سقوط [تارنتوم] فأعلن قائلاً «لقد ظفرت روما أيضاً بهنيبعل، خسرنا تارنتوم مثلما كسبناها» وأسر إلى خاصته للمرة الأولى بأنه كان دوماً يرى السيطرة على إيطاليا أمراً عسيراً أما الآن والقوات التي لديه، فهو يرى الأمر مستحيلاً.

وبهذا الفوز منح فابيوس امتياز موكب النصر في روما، وفاق بفخامته وروعته موكبه الأول^(٤٢) وأخذ الرومان ينظرون إليه كبطل مغوار تعلم كيف يقارع خصمه، ويحبط مكائده بسهولة ويصيب حذقه ومهارته بالعقم. والواقع هو أن جيش هنيبعل كان في هذا الزمن قد أصيب من جهة بالانهك لدوام خوضه الحروب، ومن جهة بالضعف والتفسخ الخلقي لإفراطه في الشرف والشهوات. وقد ازعج [ماركوس ليفيوس Marcus Livius] التكريم والشرف الذي خلّع على فابيوس. وكان هذا حاكم [تارنتوم] عندما سلمت غدرًا إلى هنيبعل، فانسحب متحصناً في قلعتها وظلّ متمنعاً فيها حتى استعادها الرومان.

وفي إحدى المناسبات صرح علناً امام مجلس الشيوخ إن الفضل في استعادة تارنتوم^(٤٣) يعود إلى مقاومته أكثر مما يعود إلى مجهود [فابيوس] فردّ عليه ضاحكاً «لقد أصبت كبد الحقيقة، فلو لم يخسر [ماركوس ليفيوس] [تارنتوم]، لما استعادها فابيوس ماكسيموس». ومن آيات التكريم والاعتراف بالجميل التي أضفاها عليه الشعب، انتخاب ابنه^(٤٤) متصلاً لندورة السنوية التالية^(**). وبعد تسلمه مهام منصبه بفترة وجيزة، عرضت أمور تتعلق

(٤١) من صنع ليسپوس [سترابو ٦].

(*) أغنى مارچيللوس روما بالتحف الفنية الاغريقية التي أخذها من سيراكوسه في ٢١٢ ق.م ويختلف رأي ليفي عن المؤلف فيقول ان فابيوس فتك بالأمالى وحافظ على الآلهة أما مارچيللوس فقد حافظ على الارواح ولكنه نهب الآلهة.

(٤٢) بعد انتصاره على الليغوريين - انظر ما سبق.

(٤٣) ليبي، يبدو هنا أقرب إلى المنطق والمعقول. فالفخر المعزى إلى ليفيوس هنا وهو يكاد يحال إلى المحاكمة، يظهر بعيداً عن الواقع. انظر كذلك شيشرون: الخطب ٦٧:٢.

(٤٤) نجاس بلوتارخ هنا البقة الزمنية احياناً. فمن (ليبي) يبدو أن ابنه وكان يحمل اسمه بالضبط، قد انتخب قسلاً قبل استيلاء الأب على تارنتوم بربع سنين، ويحفظ لنا [فاليريوس ماكسيموس] بهذه المناسبة دليلاً دامعاً على تواضع الأب فابيوس ووطنيته. فقد علق على دوام انحصار المنصب القنصلي في أعضاء أسرته قائلاً أن هذا خطر قد يهدد كيان البلاد.

(**) هي السنة ٢١٢ ق.م.

بشؤون الحرب يقتضى تصرفها فجاء الأب للقاء الابن ممتطياً جواده إما بداعي الشيخوخة والضعف أو ربّما متقصداً بذلك لاختبار ابنه، ولخط الابن ذلك وهو ما يزال بعيداً عنه مسافة، فأمر واحداً من حرس اللكتور أن يطلب من أبيه الترحل وأن يقول له، إن كان لديه عملٌ مع القنصل فعليه أن يدخل ماشياً. وبدأ على الحاضرين الاستنكار لصفاقة الابن وتحاسره على أب يتمتع ببالغ الاحترام لسنة وسلطانه وتحولوا بانظارهم الى [فابيوس] وهم صامتون، فما كان منه إلا أن ترحل بسرعة وتوجه الى ابنه يمثل الركض وذراعا ميسوستان وعانقه قائلاً:

- أجل يا بني! ونعم ما فعلت. لقد أحسنت فهم السلطة التي أودعت اليك، وعرفت حق المعرفة على من تمارسها. فتلك هي السبيل التي استخدمها أجدادنا الأولون لرفع شأن روما. مفضلين دوماً شرفها وحنقها على إبانهم وأولادهم^(٤٥).

والواقع أنه قيل عن والد جدّ فابيوسنا هذا^(٤٦) ما يشبه ذلك. فقد كان بلاشك أعظم الرومان في عصره سمعةً وسلطاناً، نصب قنصلاً خمس مرات، وشرف بالعديد من مواكب الظفر للاتصارات التي حازها. لم يراي بأس في أن يخدم برتبة ضابط تحت إمرة ابنه^(٤٧) عندما ذهب بوصفه قنصلاً الى تسلم القيادة^(*). وعندما منح الابن فيما بعد^(**) شرف الدخول في موكب النصر لحسن خدماته ركب الأب جواده خلف عجلة النصر كواحد من بطانته، فجعل من هذا مجدداً له، إذ كان فعلاً أعظم الرومان على الإطلاق باقرار الجميع. كما انه يمارس سلطة الأب الكاملة على ابنه، ومع هذا خضع لحكم القوانين ولسلطة الحاكم.

على أن حمدنا ومديحنا بفابيوس لا يُحدّ بهذا. فقد ابنه بعد زمن وكان مشار الاعجاب في تحمله التحساسة العظمى بداعة تليق بأب فاضل وانسان حكيم. ومن عادة الرومان عند موت شخص كبير المقام أن يلقي أحد أقربائه الأذنين خطبة تأبين، فقبل أن يقوم بهذا الواجب والقى خطبة في [الفورم] سجلها كتابة فيما بعد.

بعد أن أرسل [كورنيليوس سكيبيو] الى اسبانيا وانتصر على القرطاجيين في عدة معارك

(٤٥) يقول ليفي [٢٤:٢٦] بعد أن مرّ بأحد عشر لكتوراً وهو على سهوة جواده. أمر ابنه اللكتور الثاني عشر بان يقوم بواجبه. إلا أن فابيوس الأب أسرع بترجل وهو يقول «انني لأرغب يا بني أن أعرف هل تدري بانك قنصل؟ أم أنت لا تدري؟

(٤٦) يقصد به فابيوس رولوس الذي ورد ذكره في أول السيرة. [ليفى ٢٨:٨].

(٤٧) هو كوينتس كوركيس فابيوس هزمو السافيت. وكاد يعزل من منصب القنصلية لو لم يعد أبوه أن يقوم برعايته وتسديد خطاه في حملته الثانية وان يستخدمه مساعداً له [انظر ليفي ٩:٥٠. وقاليوريوس ماكسيموس ٧:٥].

(*) في ٢٩٢ ق.م.

(**) في ٢٠٥ ق.م.

وطردهم من تلك البلاد وحصل لروما على مدن وأراض ذات موارد عظيمة، عاد الى الوطن فاستقبله الشعب باعظم مظاهر الغبطة والحبور وكانت حماستهم به لا نظير لها وأنتحبه فُصلاً للدورة السنوية التالية برهاناً على امتنانهم. وكان يدرك انهم يأملون منه أعمالاً جساماً، ولقد رأى بعد تفكير أن قضية المنازعة على ايطاليا مع هنيبعل، هي مهنة الشيخ العاجز، فأقترح لنفسه مهمة في غاية الخطورة وهي جعل قرطاجنة نفسها مرسح جرب، وملء وملء، افريقيبا بالجيش والسلاح ونشر الخراب في ارجائها. وبهذا يُرغم هنيبعل على الانسحاب للدفاع عن بلاده بدلاً من غزو بلاد الآخرين، وسعياً وراء هذه الغاية بدأ يستخدم كل نفوذه وتأثيره على الشعب. إلا أن [فابيوس] عارض الفكرة بكل قوته، واقام المدينة وأقعدھا قائلاً للرومان: لاشي، يوحي اليهم بهذه الآراء الخطرة إلا تهوّر وطيش فتى أهوج حارّ الرأس. ولم يدخر وسعاً للحيلولة دون تبني هذه الخطة بالقول والفعل. ونجح في اقناع الشيوخ^(٤٨) بالانحياز الى رأيه إلا أن العامة أعتقدت أنه يغار من شهرة (سكيبو) ويخاف أن ينجز الفائح الشاب مآثرة عظيمة جليلة وربما يحرز شرف طرد هنيبعل من ايطاليا أو حتى انها الحرب التي ظلت مستمرة عدة سنوات وكانت تحت ادارته تتعثر وتلكأ.

وإن شئت الحقيقة، فإن [فابيوس] عارض مشروع (سكيبو) في مبدأ الأمر، بدافع الحذر والفتنة، جاعلاً نصب عينه سلامة المواطنين ليس غير والخطر الذي قد تتعرض له الجمهورية بالنتيجة. ولكنه أندفع أكثر فأكثر في معارضته بعامل المنافسة والطموح عندما وجد مكانته ترتفع عند الشعب يوماً بعد يوم، فأنقلب في معارضته عنيفاً جارحاً، شخصياً حتى بلغ الأمر به الى الإتصال بكراسوس Crassus القنصل زميل (سكيبو) وحثه على التمسك بالقيادة في ذلك الاقليم وعدم النزول عنه لزميله^(٤٩)، بل عليه أن يقود الجيش بنفسه الى قرطاجنة إن أستقر رأيه على ذلك. كذلك أوقف دفع المال [لسكيبو] لانفاقه على الحرب ولذلك أرغم على استدانته بكفالاته وضمانته من مدن (اتروريا Etruna) التي كانت متعلقة به للغاية. وكان [كراسوس] من الجهة الأخرى لا يرغب أن ينبري لمعارضته ولا مفادرة ايطاليا، فهو بطبعه بكرة كل أنواع الخصام والمعارضة كما وأنه يقوم باعباء وظيفه الكاهن الأعظم ومن شأنها أن تبقيه دائماً في البلاد.

(٤٨) بحسب المناقشات في مجلس الشيوخ بهذه المناسبة [انظر ليفي ٢٨. ٤٠-٤٤] تجد كذلك خطبتي سكيبو وفابيوس. وهما من أطرف ما يمكن.

(٤٩) لم يكن (كراسوس) يستطيع قيادة الجيش خارج ايطاليا بحكم منصبه الديني إذ كان يتقصد وظيفه (الكاهن الأعلى) وعليه أن يبقى (تاكيتوس الحوليات ٧١: ٤٢). لذلك لم يكن من المحتمل ان يصّر فابيوس على طلبه ويصل به الى هذا الحد. وإن بدا السبب هو جيش الضروري من الانزاق عنه. ويفصل ليفي في العون الذي ساهمت به المدن الصديقة: كيري، پوپيولونيا، تاركوني، قولاترا، أرسيوم وغيرها.

فحاول فابيوس وسائل أخرى لمعارضة المشروع وعرقل عملية النفير والتطوع وصرح في مجلس الشيوخ وأمام العامة أن (سكيبيو) فضلاً عن هروبه من وجه هنيبعل، يعمل على تجريد إيطاليا من كل قواها، وأختلاس شباب البلاد لزوجهم في حرب خارجية تاركين وراءهم آباءهم وأولادهم وزوجاتهم والمدينة نفسها دون دفاع تحت رحمة عدو فاتح منتصر على أبوابهم. بهذا كله أثار قلق الجمهور، إلى حد لم يسمحوا لسكيبيو أخيراً إلا باستخدام الفرق العسكرية في صقلية للحرب، مع ثلاثمائة محارب يثق بهم ثقة خاصة كانوا قد خدموا تحت امرته في إسبانيا. ويظهر أن (فابيوس) إلتجع في هذه الإجراءات ما أملاه عليه طبعه الحذر.

ولكن؛ ما أن نزل سكيبيو البرّ الأفريقي، حتى بدأت (*) الأنبياء ترد إلى روما عن الانتصارات العجيبة والأعمال الرائعة التي بآتيها. وقد أيدت وصفها الغنائم التي أرسلها إلى الوطن، ووقوع ملك نوميدي (٥٠) في الأسر، والمقاتل العظيمة في رجالهم. وحرقت وتدمير معسكرين للعدو بما فيها من كميات كبيرة من الأسلحة والخيول، وعندما اضطرت هذه الكوارث القرطاجيين، إلى إرسال وفد لهنيبعل تطلب منه العودة إلى الوطن وصرف النظر عن أماله العقيمة في إيطاليا ورحل منها (**). لأجل الدفاع عن قرطاجنة، هلت روما وكبرت وعظمت أعمال (سكيبيو) وخدماته الجليلة. ولم يكن لهذا كله تأثير على موقف (فابيوس) حتى أنه ارتأى أن يستبدل (سكيبيو) بخلف يحل محله، متخذاً من «تقلبات الخط» وهو السبب القديم سنداً لادعائه، حتى لكان آله الخطّ سيدركها الملل في إشارها الشخص نفسه ببركتها! بهذه اللهجة بدأ عدد كبير من الناس يرتابون في أقواله ويستنكرونها منه. وبدت وكأنها سوء نية وتشاؤم، وخور نفس متأت من كبر السن أو خوف من ذكاء هنيبعل مبالغ فيه. بله عندما عبأ هنيبعل جيشه في السفن وغادر إيطاليا، لم يستطع أن يمكس نفسه عن المعارضة وتعكير فرح روما العام، مصرحاً بخوافه، وشكوكه قائلاً لهم أن الجمهورية لم تقع في خطر مثلما هي فيه الآن وأن هنيبعل أقوى حراساً داخل أسوار قرطاجنة مما كان في إيطاليا. وأن (سكيبيو) سيقضى عليه القضاء المبرم إذا ما أشتبك بمعرّكة مع جيوشه المنتصرة التي ما زالت تشعر بحرارة دماء العدد العديد من جنرالات الرومان ودكتاتوريههم وقناصلهم

(*) في السنة ٢٠٤ ق.م.

(٥٠) وقع سيفاكس في الأسر [إيفي ٢٠: ٥١ و ١١] بعد حرق معسكره ومعسكر هسديوال. وهلك أربعون ألفاً من الإعداء بالنار ويحدّ السيف وأسر أكثر من خمسة آلاف بينهم عدد كبير من نبلاء قرطاجنة. مع أحد عشر شيخاً، وغنمت مائة وأربع وسبعون راية وأكثر من ألفين وسبعمائة حصان نوميدي. وستة من الفيلة وقتل ثمانية. مع مقادير كبيرة من الأسلحة.

(**) في السنة ٢٠٣ ق.م.

الصرعى، وأجفل الشعب الى حد ما، بهذه التصريحات حتى بدأوا يعتقدون أن الخطر أقرب اليهم كلما كان هنيبعل. أبعد عنهم. على أن [سكيبيو] لم يعتم أن قاتل هنيبعل والحق به هزيمة نكراء، وسحق عظمة قرطاجنة تحت قدميه^(٥١)، ومنع بني قومه ما صبوا اليه من غبطة وسعادة فاقت آمالهم وثبتت قواعد امبراطوريتهم التي أضحت مهزوزة مضعضة بكثير من العواصف.

على أن فابيوس ماكسيموس لم يعيش ليرى نهاية هذه الحرب السعيدة وسقوط هنيبعل النهائي، ولا ليبرح لعودة الحياة المطمئنة السعيدة الى الجمهورية. ففي حوالي الزمن الذي غادر هنيبعل إيطاليا^(٥٢)، سقط مريضاً وتوفي^(*). في [تبيه] قضى [إيامنداس] نحبه فقيراً لا يملك شروى نقيير حتى انه دفن على نفقة العامة. وقيل انه لم يعثر في داره إلا على قطعة نقد واحدة صغيرة القيمة. ولكن فابيوس لم يكن بحاجة الى هذا فالشعب نفسه تكفل بنفقات تشييعه باكتتاب خاص ساهم فيه كل مواطن باصفر قطعة نقد كدليل على حبهم له^(٥٣) وبهذا أعتبروه والدهم العام وجعلوا مماته لا يقل شرفاً عن حياته.

اهم الاحداث العالمية في زمنه

٢٠٧ ق.م: اسد روبال في طريقه لنجدة هنيبعل - يهزم ويقتله كلودبوس نيرو.

٢٠٢ ق.م: يتغلب سكيبيو افريقانوس (الأكبر) على هنيبعل في موقعة زاما Zama بافريقيا.

٢٠٠ ق.م: بدأت الحرب المقدونية الأولى وأستمرت اربع سنين تقريباً.

(٥١) لاشك ان بروتارخ يشير الى السفراء الشيوخ الذين ارسلوا الي سكيبيو عارضين عليه الصلح. اذ ما ان بلغوا حيمة الجنرال حتى انبطعوا على الأرض أمام قدميه جرياً على ما اعتادوه في بلادهم (ليفي المرجع السالف) وثم حادثة اذلال مشابهة لزعماء المدينة العشرة الذين ارسلوا بعد معركة زاما الكدرى. لعقد الصلح [انظر أيضاً پوليبوس ١٥].

(٥٢) بعد ذلك بقليل اتم هنيبعل انسحابه من إيطاليا وكان ذلك في ٢٠٤ ق.م. لايد وان (فابيوس) اصبح الآن شيخاً هرمًا. فقد قال ليفي معتمداً على من الكتاب انه ظلّ في منصب الكهنة اثنتين وستين سنة متوالية.

(*) في السنة ٢٠٢ ق.م.

(٥٣) يجب أن يكون المبلغ ضخماً جداً. فقد بلغ تعداد المواطنين الرومان في السنة التالية (٢١٤.٠٠٠).

أوجه المقارنة بين فابيوس وبيركليس

لدينا هنا سبرتان غنيان بالأمثلة، كلاهما ضربتا بالقدرح المعلن في الحنكة السياسية والعسكرية، ولنقم الآن أولاً بمقارنتهما من جهة الكفاءة الحربية... ترأس بيركليس جمهوريته عندما كانت في أرفع درجة من الازدهار والرخاء، عظيمة السلطان منبئة الجانب، لذلك قد يتوهم ان نجاحه هو نجاح اعتيادي وحسن طالع حفظه من كل عثار أو كارثة.

إلا أن مهمة فابيوس الذي اضطلع بأعباء الحكم في أخرج الأوقات وأصعبها لم يكن ملزماً بمحاطة وترصين دولة ثابتة الأركان مزدهرة الأحوال يرغل سكانها في بحبوجة من العيش، فضلاً عن أن انتصارات [كيمون] وغنائم النصر التي جاء بها [ميرونيدس وليوقريطس] مع العديد من مآثر [تولميدس] الشهيرة، إستخدمها بيركليس أساساً في ملء المدينة بمظاهر الافراح واللمور والحفلات الدينية أكثر من أستخدامه لها في توسيع وتوطيد دعائم امبراطوريتها. في حين وجد فابيوس أمامه عند توليه الحكم حالة ترتعد لها الفرائص، من جيوش رومانية ابيدت، وجنرالات وقناصل لها قتلوا، وبحيرات وسهول وغابات مملوءة بجثث القتلى، وأنهار أختلطت ماؤها بدماء بني قومه. ومع هذا، فبأحكامه الناضجة الرصينة وبقوة ارادة فيه لا تتزعزع، كان كمثل من أسند بكتفه جدار الجمهورية المتقوض ومنعه من الإنهيار، بسبب ضعف واخفاق الآخرين وربما كان أسهل على المرء أن يحكم مدينة روضها الزمان واناخ عليها بكوارثه وبلاياه، وأرغمها الخطر المحدث على الاصغاء لصوت العقل، من أن يسرج سرجاً على الطيش والجموح، وحكم شعب نموا بعهد طويل من الاستقرار والرخاء كالأتينيين عندما أمسك بيركليس بأعنة الحكم. ولكن الشجاعة في فابيوس، وقوة ارادته الفائقة للمعادة لم تقف حائرة خائرة امام مخلفات الكوارث المكدسة التي كان أهالي روما يومئذ يرزحون وينيون تحتها.

وبجوز لنا أن نضع استعادة تارنتوم أمام عمل بيركليس بجزيرة [ساموس]، وان نعاذل فتح [ابوبيا]، بفتح مدن [كامبانيا]، وان كان إخضاع [كاپوا] بالذات قد تم على يد القنصلين

{فولفيوس Fulvius وآبيوس Appius}. ولم أجد معركة فاصلة واحدة أنتصر منها فابيوس، استثناءً، معركته مع {الليغوريين Ligurians} التي كوفيء عنها بموكب ظفر. في حين محد بيركليس قد أقام تسعة أنصاب لتسعة أنتصارات نالها براً وبحراً. إلا أن لا نجد عملاً لبيركليس يمكن مضاهاته بمأثرة أنقاذ {مينوشيوس} الخالدة. عندما انتشل فابيوس جيشه وشخصه من هلاك محقق، انه لعمل جليل أمتزج فيه الاقدام بالحكمة والانسانية. ويبدو من جهة أخرى أن بيركليس لم يعان ما عاناه {فابيوس} من هنيئيل بشيرانه الملتهبة. فقد وقع عدوه تحت رحمته دون مجهود منه وبمحض الصدفة، ومع ذلك فقد تركه ينسل أنسلالاً من قبضته في جنح الليل، وعندما انبلج الصبح تعرض لأذاه واستبقه في ساعة النصر، وسيطر عليه أسيره بالأمس. وإذا كان من صفات القائد الجيد أن لا تقتصر نظراته على الحاضر، وإنما أن يتصف ببعد نظر فيما يستقبل من الزمان، فلا شك أن بيركليس يتفوق على فابيوس من هذه الناحية. لأنه حذر الأتنيين وأنذرهم مسبقاً، بويلات الحرب وبما سيُجر عليهم طمعهم في ما يزيد عن مقدرتهم على ادارته. ولم يكن {فابيوس} بهذه القدرة على التنبؤ عندما أخذ على الرومان تحمسهم لخطه {سكيبيو} ووجد فيها خراب الجمهورية. ولهذا كان بيركليس متنبئاً حسناً لنجاح سيء، وكان فابيوس متنبئاً سيئاً لنجاح حسن، والواقع أن خسارة منفعة بسبب فقدان الثقة في النفس ليست بأقل لوماً، من الوقوع في خطر بسبب الافتقار الى بعد النظر، على العموم، فكلاً النقيصتين مع اختلاف طبيعتيهما تنبعان من جذر واحد، هو الافتقار الى الخبرة واصالة الفكر.

وأما من الناحية السياسية فقد عزي الى بيركليس اثاره الحرب، عندما لم يقنع بالشروط التي عرضها اللقيديميونيون عليه. الحق يقال ان فابيوس أيضاً لم يكن بالذي يتنازل للقرطاجيين عن أية نقطة بل كان مستعداً للمجازفة بالكل ولا يرضى باقتطاع جزء من الامبراطورية الرومانية. إن طبية فابيوس وحسن معاملته لزميله {مينوشيوس} تدين - بطريق المقارنة محاولات بيركليس لنفي {سيمون وتوكديدس} الرجلين النبيلين الارستقراطيين، اللذين حكم عليهما بالنفي والتشريد بمسمى منه. ولقد كانت سلطة بيركليس في أثينا أوسع وأعظم من سلطة فابيوس في روما. ولذلك كان أسهل عليه أن يحول دون الارهصات الناجحة عن اخطاء ضباط آخرين وقلة كفاءاتهم، ولم يخرج أحد عن أمره غير {توليدس}، فقد قاتل {البوريين} خلافاً لرغبة بيركليس ونصحه، فقتل. إن قوة نفوذه جعل الآخرين يخضعون لحكمه ويطيعون أوامره. في حين ان فابيوس الوائق من حجته وصحة حكمه لافتقاره الى السلطان الواسع - لم يملك الوسائل الكفيلة باصلاح هفوات الآخرين. ولقد كان من حسن حظ

الرومان لو أعطى سلطة أوسع، عندئذ ستقل الكوارث التي حلت بهم - على ما نعتقد. أما عن الحدود والبذل العام فقد اشتهر بيركليس بعدم قبوله اي هدية، واشتهر فابيوس بافتداء الجنود الأسرى بماله الخاص وان لم يزد المبلغ عن ستة تالنتات. وفي الوقت نفسه لم يكن أحد كـبيركليس بملك الفرص للثراء فقد عرض عليه الملوك والأمراء والحلفاء الهدايا الثمينة، ومع هذا لم يكن هناك أعف منه وأبعد عن الفساد، ويجب الأقرار هنا أن جمال المعابد والمباني العامة الفخمة التي زين بها بيركليس بلده لا تضاهيها في الروا، والهندسة كل ما بني وأقيم في روما من تأسيسها حتى أيام القياصرة وهو واحدٌ وهم كثيرون.

الکلبیادیں

ALCIBIADES

450 _ 404

المعروف عن (الكيبیادس) أنه منحدر بالأصل من نسل^(١) (إيفريسكي Evrysaces) (*) ابن (أجاکس) من جهة الأب، ومن (الكيمون) من ناحية الأم. ووالدته (دينوماخي Dinomache) هي بنت (ميفاكلس) وأبو (كلينياس Clinias) الذي جهز سفينة على نفقته الخاصة، نال أعظم الشرف في المعركة البحرية بالقرب من (أرميسيوم)^(٢) وقتل فيما في موقعة (كورونيا Coronea)^(**) ضد (البويوتيين).

وكان (پيريكليس وأريفرور Areiphron) ابنا (كرانتیپوس) يتصلان به بنوع من القرابة من ناحية أوصيائه، وفي رواية لا أراها تخلو من الحقيقة، ان شعور الولد الذي كان يحمله له (سقراط) يرجع غالباً الى ما ذاع عنه ومع أننا لا نجد كاتباً واحداً بين الكاتبين يذكر لنا خبراً عن والده (نقياس Nicias) أو (ديموستينس) إلا ما أخسي، أو (فورميون Phormion) الثراسيولي (Thrasylus) وكلهم رجال ذاع صيتهم في تلك الفترة، فاننا نعلم أشياء، حتى عن مرضع الكيبیادس، فاسمها (أميكلأ Amycia) وهي من لقيديمون. ونعلم أيضاً ان (زوپيروس Zopyrus)^(٣) كان معلماً ومرافقاً له والخبر الأول جانا من (انتستينس) والثاني أورده (أفلاطون).

ومن النوافل هنا أن نتحدث عن جمال الكيبیادس، ويكفي القول في هذا الصدد أن هذا

(١) أفلاطون: الكيبیادس: ١.

(**) في السنة ٤٨٠ ق.م.

(١) شهد عدد كبير من أفاضل المؤرخين بعراقة أسرته ونبل معتده، وكادوا يجمعون كافة في الاتفاق على الضبوط العامة لسيرته مع اختلاف طفيف في الجزئيات. ان جد ميفاكلس المذكور في المتن. كما قد تزوج (إغاريستي) بنت (كلستينس) طاغية سيكيون. وانحدر من (الكيميون) الذي أشتهر أسلافه منذ عهد (نقيسفسن) مع العلم ان (خزانتیپوس) والد (پيركلس) تزوج إغاريستي ثانية هي بنت عم الأولى.

(٢) انظر هيرودوتس [١٧٨] إن معركة (كورونيا) التي قتل فيها. انما وقعت في السنة الثانية من الاولمبياد الثالث والثمانين [ديودورس المرجع السالف ١٢:٦]. وكانت من أعظم النكبات التي حلت بالأتينين فالقسم الأعظم منهم بات بين قتل أو أسير. وصرع جنرالهم [توليدس] وقامت المدن البويوتية المستسلمة العديدة باقتداء الأسرى.

(٣) يحدثنا أفلاطون في رسالته [الكيبیادس: ١] أن [زوپيروس] هذا، هو عبد تراقي أبق طامس مي السـ.

الحمال بقي زاهراً طوال حياته ولازمه منذ حدثته وشبابه حتى رجولته، منسجماً مع كل مرحلة من مراحل عمره انسجماً عجيماً، ومكبساً شخصه جلالاً وسحراً ومع أن قول [يورپيدس]: «جمال الخريف، جميل أيضاً»

لا يصدق بشكل عام، إلا أنه حقيقة واقعة في [الكيببلاس] من بين القلة التي انطبق عليها القول. وهذا يعود الى جمال تكوينه وممتانة بنيته الطبيعية. ولقد قيل ان لشغته لسانه كانت تزيد من حلاوة نطقه، وتضفي على حديثه المتسارع طابعاً جذاباً، وشعوراً بالثقة والاقتناع. وقد اثبت [ارسطوفانس] ذلك في الأبيات التي نظمها بالتندر على [ثيوروس Theorus] قال: «قال الكيببلاس: لكم هو شبيهه (بكولاكس Colax) قاصداً (كوراكس Corax = الغراب)، ثم يعلق الشاعر على هذا قائلاً: «ما أجمل ما يلثغ بالحقيقة!»

كذلك يشير [ارخيبيوس^(٤)] الى هذه اللثغة في قصيدة يسخر بها من ابن الكيببلاس: «ولكي يتوهمه الناس صنو أبيه وشبهه تراه يمشي وكأنه مجبول بالنغمة غارق في الترف تاركاً أهواب ثوبه تجرجر على الأرض خلفه. ويحني رأسه بقلة أكرثات ويتصنع اللثغة في حديثه.

وبدا في سلوكه مفارقات ومتناقضات بحسب تقلبات الزمن العجيبة المتعددة له. على أن الطموح ورغبة الاستعلاء كانت من أبرز التوازع التي تدمغ شخصيته بطابع قوي، وبدت منها لمحات في أقواله وتصرفاته أيام كان صبياً. فمرة ضابطه خصمه في مباراة مصارعة، ولما تبين أنه سيطر على أرضاً عض يد خصمه بكل قوته فأرغى في الحال قبضته عنه وقال «اراك يا الكيببلاس تعض كالمرأة» فرد عليه «لا بل كأسد!» وفي مناسبة أخرى كان يلعب الزهر مع اقرباء في عرض الشارع وهو بعد صبي يافع، فأقبلت عربة حمل نحوهم، وكان قد حان دوره لالقاء الزهر فأهاب بالسائق أن يقف لأن رميته ستكون في طريق مرور العربة، فلم يكثرث الرجل بقوله واصل السير فأفسح بقية الصبيان للمعجلة وانسحبوا إلا [الكيببلاس] فقد انبطح على الأرض امام العربة ووجهه الى أسفل متحدياً السائق ان يمر أن استطاع. ففزع الرجل وبادر الى شد أعنة الخيل وإيقافها، وشاع الخوف في نفوس المستظرقيين وأخذوا يتصايحون وهرعوا لإقالة الصبي.

وتبزت معاملته لمعلميه بالطاعة - عندما بدأ يتلقى أصول العلم. إلا أنه أبى ممارسة البغخ بالناي^(٥)، وعده مهنة وضيعة لا تليق بالمواطن الحر. وحجته في هذا ان العزف على العود أو

(٤) أحد كتاب الكوميديات الأقدمين.

(٥) هذا ما جاء ارسطو الى ذكره في [السياسة] فقد بحث ببعض اسباب فوائد دراسة الموسيقى ومضارها.

المرهر لا يحدث تشويهاً في جسم المرء أو وجهه بأية حالٍ من الأحوال، لكن النافخ بالناي يكاد لا يعرف حتى من أقرب اصدقائه عندما يقوم بالعزف. زد على هذا أن العازف على الزهر يستطيع ان يعي أو يتكلم أثناء عزفه، لكن استعمال الناي يؤدي الى اطلاق العم وحس الصوت ومنع اللسان عن النطق...

«فلندع اذن النفخ بالناي لشبان [ثيبه] الذين لا يعرفون كيف يتكلمون. أما نحن الآثينيين فلدينا - كما قال لنا أجدادنا - الربة [منيرفا] حاميهُ والربّ [ابوللو] حامياً، الأولى نبذت الناي وعافته، والثاني سلخ جلد النافخ به^(٦)» وهكذا عمل [الكيببادس] بين جدّه وهزله على التخلص من ممارسة نفخ الناي، وغرس في الآخرين كرهه أو أن الشبان راخوا يتحدثون عن احتقار الكيبباديس له وسخريته بمن يتعلمه، فسقط هذا الفن وأهمل بصورة عامة.

وفي النقد الشديد الذي ألّفه [أنتييفون Antiphon]^(٧) ضدّ الكيببادس، ذكر انه هرب في حدثه مرةً ولجأ الى منزل [ديموقريطس] وكان هذا بمن أختص به وصاحبه. فعزم انتييفون التشهير به على الملأ، وهم بذلك لو لم يشنه [بيريكليس] بقوله: «إن كان قد مات فالتشهير به لن يعجل بالعثور عليه أكثر من يوم واحد. وإن كان حياً سألماً فسيكون عمك سبةً له طوال حياته». ويقول [انتييفون] أيضاً، انه قتل واحداً من خدمه بضربة عصا في نادي سبرتيوس Sibyrtius للمصارعة. لكن ليس من المعقول أن نصدق كل ما يتخرص عدوه عنه، بعد اقراره علناً انه عازمٌ على تشويه سمعته.

ولم يمر وقت طويل حتى أخذ الكثير من ذوي الحسب والوجاهة يتنافسون دوماً على مصاحبته ووصاله، انما كان يجتذبهم منه ألعيته وجماله الفتان اللذين فاقتا العادة. على أن حباً [سقراط] العظيم له، يصحّ أن يتخذ شاهداً قوياً على سجايا الفتى النبيلة وخلقه الحميد، وقد تمكن هذا الفيلسوف بنفاذ بصيرته من الكشف عنها في جمال خلقتها، وفي مواطن سريرته. فقد وجد أن مقامه وثراءه والعدد الكبير من الآثينيين والأجانب يتملقونه ويمتدحونه، أمور قد تؤدي الى افساده، ولذلك قرر أن يتدخل في أمره ما وسعه ذلك للمحافظة على نية تبشر بأعظم الخير لثلاثا تنبل وهي ما تزال زهرة لم تنضج ثمرتها. فالحظّ لم يسعد أحداً كما أسعد الكيببادس ولم يحظه كما احاطه بالكثير مما يدعى باللغة الدارجة «أموالاً». أو حماه

(٦) يشير افلاطون الى هذه العقوبة التي انزلت بـ[مارسياس] لكنه يعزو اسبابها الى أمور أخرى. وفضلاً عن هذا فإن الربة [أثينا منيرفا] ألقت بالناي جانباً بعد أن شامت خديها المورمين المتقرحين منعكسين على صفحة ماء البع وعلب [ابوللو] المسخ [مارسياس] في مباراة على العزف فسلخ المملوب حياً.

(٧) سفسطي العقيدة. عاش في أيام سقراط. وورد ذكره عند كزيفون في [اليوماريليا ١] وهو يصدر مناقشة هذا الفيلسوف. ولا وجود لهذه المحاوره وربما عزي ذلك كذباً الى [انتييفون].

من كل سلاح من أسلحة الفلسفة أو حصنه من أي غائلة من غوائل الطعن والتجريح. فقد كان من البداية هدفاً لتعلق الذين لا يمشون غاية سوى ارضائه. مما كان يعمل على أصعاف نفسه. ويكرهه بنصيحة أي ناصح أو واعظ صادق النية. ويشاء حظ عبقريته أن يستخلص له [سقراط] صديقاً من دون الجميع. فلصق به وأجتوى الاغنياء وأكابر القوم المتكالبين على صحبته، وما عتم حبل الود أن توثق فيما بين الاثنين بشكل لا انفصام له. وأنقلب حال [الكيبياس] فصار يعير أيضاً صاغية لكل حديث خلا من التهنك وفكرة العشق المخنث ومظاهر التودد السخيفة المتبذلة، وعرف حق المعرفة إنه يعاشر إنساناً هدفه الكشف له عن نواقصه العقلية، وقمع تعاليه الباطل المتبذل فمالث: «عَرَفَهُ أن نام وذهبت كبرياؤه وتهدل جناحه كالديك المغلوب»

ووقعت مجهودات سقراط في نفسه مرقع التقدير العظيم بوصفها أصبح الوسائل التي تلجأ اليها الآلهة لإصلاح الشباب والعناية بهم. وعاد يحترق ذاته، ويعجب بسقراط، ويدخله الفرح للعطف الذي يلقاه منه. ويقف موقف الخاشع من فضائله، وبدأ دون أن يشعر، يَكُون في ضميره صورة انعكاسية متبادلة للحب و «لأنثيروس Anteros» الذي تكلم عنه افلاطون. وكان موضع دهشة عامة إذ رآه الناس يشارك سقراط طعامه ونزهاته ويساكنه خيمته، بينما أخذ يظهر صدوداً وتحفظاً تجاه كل من يحاول انشاء صلة به. ووصل صدوده من هؤلاء حَذُ الحشونة والمعاملة المهينة القاسية، ويذكر بنوع خاص معاملته لأنثيوس Anytus ابن [انثيميون Anthemion] الذي كان مغرماً به إلى حَذُ الوله. ودعاه هذا إلى وليمة كان قد أعدّها لبعض الأغراب فرفض [الكيبياس] دعوته. إلا أنه أفرط في الشراب في منزله مع أصحاب له، وخرج ثملاً يقصد محل الوليمة ليلعب لعبة مزاح. ووقف عند باب الغرفة حيث المدعوون في قصفهم ولهوهم ونظر إلى الموائد وقد تكدست فوقها أقذاح الفضة والذهب، فالتفت إلى خدمه وأمرهم أن يجمعوا نصفها ويحملوه إلى بيته ثم غادر المنزل^(٨)، مترفعاً حتى عن الدخول إلى غرفة الوليمة وعصفت سورة من الغيظ في نفوس الجماعة، وراحوا يندوون بمسلكه الشائن المهين، لكن انتيوس اسكتهم قائلاً أنه لا يتفق معهم في هذا، وأن الكيبياس أظهر كياسة وحسن تصرف عظيمين إذ أخذ الجزء بينما كان يستطيع أن يأخذ الكل.

وكان سلوكه هذا واحداً مع جميع عاشقيه الذين يريدون وصاله، إلا أجنبياً واحداً كان كما

(٨) يقول [أنثينيوس] انه لم يأخذها لنفسه. لكنه انتزعها من صديقه الفني ليعطيها [تراسيلوس] الفقير. وهو ما يخفف من وقع الحكاية إلى حد ما. كان انتيوس أحد الرؤوس الذين وجهوا الاتهام لسقراط فيما بعد

تروى الحكاية يملك عقاراً صغيراً ليس له غيره فباعه بمبلغ يناهز مائة (ستاتر)^(٩)، وقدمه لالكيبادس ورحا منه قبوله فابتسم الكيبادس مسروراً بهذه المبادرة ودعاه الى العشاء، وبعد أن أكرمه وأحتفى به أعاد اليه ذهبه وطلب منه الحرص على الحضور في اليوم الثاني عندما تعرض جباية الضرائب العامة للمزايدة وان يتدخل بين المزايدون ولا يكف عن رفع السعر. فطلق الرجل يعتذر لأن المبلغ المطلوب جسيم للغاية وقد يبلغ كثيراً من التالنتات. إلا أن (الكيبادس) الذي كان في ذلك الحين يحقد حقداً خاصاً على متعهدي الجباية الحاليين - هدد الرجل بالضرب إن هو رفض طلبه. وفي اليوم التالي حضر الغريب ساحة السوق وزاد تالنتاً واحداً على السعر الحالي. فثار غضب الجباة ثم أخذوا يتشاورون فيما بينهم وتوجهوا نحوه طالبين منه تسمية التأمينات التي ثبت أهلته، مستنتجين بأنه لن يجد أي ضمان. فافزعه هذا الطلب وبدأ يتراجع ولكن الكيبادس الذي كان واقفاً عن كئيب نادى الحكام قائلاً: «ضعوا أسمي الى جانب اسمه. انه صديق لي وساكون ضامناً له». ولما سمع المزايدون الآخرون ذلك، ادركوا أن محاولتهم هذه قد أخفقت، وكانوا في محنة لأنهم ارادوا بارباح السنة التالية أن يدفعوا بدل تعهد السنة السالفة. ولم يجدوا مخرجاً من ورطتهم هذه إلا بالرجاء من الرجل الغريب وتقديم مبلغ من المال. ولم يرض الكيبادس له بأقل من (تالنت) واحد، وعندما دفع له ذلك أمره بكف يده عن المزايدة، وبهذه الحيلة أخرجه من ضيقه المالي.

ومع أن (سقراط) كان له كثير من المنافسين الأقوياء. فان سجايا الكيبادس الخلقية الطيبة أعطت صداقته السيادة على كل المنافسين. كانت كلمات الفيلسوف تؤثر فيه أعظم تأثير حتى تستدر الدموع من عينيه، وتهز نفسه هزاً عنيفاً. على أنه كان في بعض الأحيان يستعمرى، تعلق المتعلقين عندما يزينون له تعاطي مختلف الملذات، فيترك (سقراط) إلا أن الفيلسوف يتبع آثاره كأنما يطارد عبداً أبقاً. وكان السيبادس يحتقر الناس ولم يحترم أو يجل أحداً سواه. ويقول الفيلسوف (كليانثس Cleanthes) في معرض حديث له عن شخص كان لصيقاً به: إن اذنيه هما مجال تأثيره الوحيد فيه، بينما كان منافسوه على صداقته يملكون منه سائر المجالات الأخرى للتأثير فيه. وليس من سبيل للشك في أن (الكيبادس) كان ضعيفاً للغاية أمام مباحج الحياة سهل الوقوع في حبالها. وإن العبارة التي استخدمها ثوكديدس لوصف سبيل العيش المفرط في الملذات الذي اختطه الكيبادس يؤكد هذا الاعتقاد إلا أن الدين حاولوا افساده استفادوا بالدرجة الأولى من نزوعه الى الطموح والغرور ليندفعوا

(٩) عملة (ستاتر) ترن اربع دراخمت اتيكية. وقد تكون من الذهب أو الفضة. والفضة منه تعادل قيمته دولاراً امريكياً واحداً على وجه التقريب. أما (ستاتر داريكوس) فهو النقد الذهبي الأتيكي ويجب أن يكون أعلى قيمة من هذا بكثير اذا ما حسبته نسبة تحويل الذهب الى فضة بواحد الى عشرة.

به قبل الآوان الى ركوب أعظم المغامرات. وأقنعوه بأنه ما أن ينصرف الى الشؤون العامة حتى تكسف شمسهم شمس كل الساسة والقادة، بل سيفوق بيريكليس شهرة وسلطاناً في بلاد الأعرىق. وكثيراً ما لاحظ سقراط مع هذا - أن مثل الكيبيادس كممثل الحديد تليته النار وتصلبه البرودة وتشد أجزاءه ثانية. تفضله الكبرياء والترف سواء السبيل، ليعود نادماً مصححاً أخطائه بنصائح الفيلسوف، ويستقيم ويتضح عندما يوضح له النقائص الكثيرة التي فيه، وكم هو بعيد عن كمال الأخلاق.

عندما اجتاز دور الحداثة قصد مرة مدرسة للنحو وطلب من الاستاذ أحد كتب هوميروس. ولما أجابه انه لا يوجد شيء من مؤلفات هوميروس، أهوى عليه بلكمة وخرج. ومرة قال له معلم آخر أنه نقح آثار هوميروس بنفسه. فقال الكيبيادس:

- كيف؟ وهل تصرف وقتك في تعليم الصبيان القراءة؟ أنت الذي تتمكن من تصحيح هوميروس ما أجدر بك أن تثقف الرجال.

ورغب يوماً أن يبادل بيريكليس الحديث فقصد منزله فقبل له أن بيريكليس ليس فارغاً له، لأنه مشغول في التفكير بكيفية تقديم تقرير بأعماله للآثينيين فقال الكيبيادس وهو ينصرف خير له أن يفكر في كيفية يتجنب بها تقديم أي تقرير ما.

وفي مطلع شبابه كان جندياً في الحملة التي جردت على (پوتيديا) (*) وكان سقراط يساكنه في عين الخيمة، ويقف في المعركة الى جانبه. ومرة حصل اشتباك عنيف، أهدى فيه شجاعة عز نظيرها إلا أن الكيبيادس أصيب بجرح ووقف سقراط حاجزاً امامه بحميه، ولم يساور الشك أحداً في أن هذا العمل أنقذ صديقه مع سلاحه من الوقوع في يد العدو وكان العدل بقضي أن يمنح سقراط جائزة البسالة لعمله هذا. إلا أن القادة مالوا الى منح الكيبيادس هذا الشرف بسبب مركزه الطبيقي. وكان سقراط يرغب في أن يزيد من تعطشه الى المجد النبيل القصد، فأنبرى أول شاهد له، والح عليهم لضفر أكليل الغار على رأسه وخلع شكة سلاح كاملة عليه. وبعد هذا، لما هزم الآثينيون في موقعة (دليوم Delium) (١٠) وفيما كان سقراط مع فلول قليلة العدو تتراجع ماشية، إذ لمح الكيبيادس وكان على صهوة حصانه، فلوى عنانه ولم يمض عنه بل وقف ليحيمه من الخطر، حتى نقله سليماً معاني رغم أن زخم الهجوم كان شديداً

(*) في العام ٤٢٢-٤٢١ ق.م.

(١٠) يحرنا [لاخيس] الذي كان ملازماً سقراط في ذلك الحين ان الآثينيين ما كانوا لهزموا لو وقف سائرهم الوقفة التي وقعها سقراط وصمدوا وادوا واجبههم مثله [ثوكيديوس ٢.٢، ١٠:٤]. ان املاطون الذي نقلنا عنه هذه الرواية عن حادث (پوتيديا) يزعم اثينيوس بأنه أخلق هذه الرواية على كل ليكرم ذكرى استاده وهذه المعركة جرت في الالبياد التاسع والثمانين اي بعد وقعة پونديا بثمانى سنوات.

عليهم والمقتلة فيهم عظيمة. على أن ذلك حصل بعد زمن بعيد.

ومرة صفع (هيبونيكوس Hipponicus) والد كاليباس Callias وهو رجل عظيم الشأن كبير المقام لنسبه العريق وثرائه، فعل ذلك دون سبب أو استفزاز أو سورة غضب مفاجئة، أو خصام نشأ بينهما. بل لأنه تراهن مع صديق له في لحظة مزاح، بأن يقدم عليها. وسحط الناس سخطاً شديداً على هذا الاعتداء عندما انتشر خبره في المدينة. إلا أن الكيببidas قصد منزل هيبونيكوس في صباح اليوم الثاني الباكر وطرق الباب، فسمح له بمواجهة المعتدى عليه، وهناك يادر الى خلق ردائه الخارجي وعرض جسمه العاري له ليجلده ويعاقبه كما يحب ويشتهي فنسي هيبونيكوس كل ما شعر به حتى ولم يكتف بالغفر عنه بل زوجه بعد قليل بابنته (هيباريتة Hipparete). ويقول بعضهم أن كاليباس ابنه هو الذي اعطى هيباريت، وليس اباه. ومهرها بعشرة تالنتات، وأن الكيببidas عندما اغتبت له ابناً أرغمه على أعطائه عشرة تالنتات أخرى محتجاً بأن الاتفاق قد تمّ بينهما على ذلك عندما تنجب هيباريت. ودبّ الخوف في قلب كاليباس من أن يدبر الكيببidas اغتياله فأعلن في اجتماع عمومي للمواطنين الآثينيين، أن بيته وأمواله كلها وقفٌ للدولة إن توفي بلا عقب. وكانت هيباريت زوجاً مخلصه رفيعة الخلق، إلا أنها زهقت أخيراً وعيل صبرها للإهانات التي كانت تلقاها من زوجها لمعاشرته المستمرة للعاهرات الآثينيات والاجنبيات، فانفصلت عنه ولجأت الى منزل أخيها ولم يبد الكيببidas اهتمام بالأمر مطلقاً وواصل حياته الدنسة إلا أن القانون كان يتطلب أن تحضر بنفسها أمام (الأرخون) لا بوكيل ينوب عنها وتقديم الدليل الذي يعطيها حق الادعاء بالطلاق. فتطبيقاً لحكم القانون تقدمت بشخصها للإدعاء. فجاء الكيببidas ورفعها بيديه وحملها الى منزله ماراً بساحة السوق دون أن يجراً أحدٌ على اعتراض سبيله أو استخلاصها منه. فسيق في كنفسه حتى وفاتها التي حصلت بعد فترة ليست طويلة عندما كان الكيببidas في (أفسس Ephesus). ولم تكن هذه الفعلة تعتبر من الكبائر أو مما لا يليق بالرجال. لأن القانون الذي أوجب على طالبه الطلاق أن يحضر في مجلس علني، يبدو أنه قصد بهذا إعطاء زوجها فرصة لاقتناعها والعمل على اعادتها.

كان (الكيببidas) يملك كلباً اشتراه بسبعين (ميناً) (*)، ضخماً الجسم في غاية الرشاقة والجمال. وكان ذيله أظهر حلية فيه، فعمد الى بتره^(١١)، وراح كل اصحابه يلومونه على فعلته وقالوا أن آثينا آسفة على ما حل بالكلب ولا حديث لأهلها إلا أستنكارها مضحك

(*) ما يعادل ٧٠٠٠ دراهم.

(١١) عن لوكهورن إن التمثال الأثري النفيس الذي يمثل هذا الكلب مقطوع الذيل موجود الآن في دوتكومس پارچ في مقاطعة يوركشاير بانجلترا. الموقعة حصلت في العام ٤٢٤ - انظر افلاطون (المحاورات)

وقال: «ما قصدته حصل بالتتمام اذن. كانت رغبتى أن يتحدث الآثينيون عن هذا حتى لا يتقولوا بالسوء عني».

وقيل أن أول حضوره مجلس العموم كان مناسبة تقديمه منحة مالية للشعب. ولم يكن عمله هذا نابعاً عن سبق تفكير به، بل صدر منه عفواً بينما كان ماراً في سبيله، إذ سمع صيحة فسأل عن السبب فأعلم أنه تبرع عام للشعب فجاء اليهم وتبرع هو أيضاً. فهتف له الجمع وصفقوا، وأخذ بالمفاجأة، حتى أنه نسي سمانياً quail كان يخفيه تحت عباءته، فأجفله الضجة وأفلت طائراً، وزادت هذه الحادثة من ضجيج الناس وهتافهم وأنطلق كثير منهم وراء الطائر، وتمكن أحدهم، [انطيوخس Antiochus] الملاح من امساكه واعادته له، فجعلته هذه الحادثة من أعزّ أصدقاء الكيبادس (١٢).

كان لديه كثير من المؤهلات العظيمة للدخول في معترك الحياة السياسية فشرف نسبه، وثراؤه، والبسالة التي ابداهها في مختلف المعارك وكثرة أصدقائه ومشايخه، فنحت كل الأبواب بوجهه على ما يقال إلا أنه لم يرض أن يدع نفوذه مع الشعب يستند كل شيء غير موهبة الخطابة ومضاحته. أما وانه استاذ من الخطابة فهذا ما يشهد به الشعراء السخرون. وأعترف له أقدر الخطباء الجماهريين إنه الى جانب مواهبه الأخرى - بلغ الذروة في فن الخطابة، بخطابه الزلي ألقاه ضد ميدياس [Midias] (*).

واذا وثقنا بكلام [ثيوفراستوس] وهو من دون كل الفلاسفة أكثرهم تحقيقاً وتدقيقاً وحباً للتاريخ، فلنا أن نذكر أن الكيبادي كان ذا قدرة عجيبة على استنباط واستخراج كل ما هو صائب وصالح القول لأي غرض ولأي مناسبة، مع وضعه في قالب لفظي بليغ لفظاً وتركيباً، وعندما لا تحضره العبارات المناسبة أو الكلم الدقيق فكثير ما بسكت وهو في وسط حديثه ويظل صامتاً حتى يقع على التعبير المنشود ويسيطر على نفسه.

وكانت نفقاته الضخمة على خيول الالعاب العامة والعدد الكبير الذي يحتفظ به من العجلات مروض حديث الناس، إذ لم يرسل أحد غيره - ملكاً كان أم شخصاً عادياً - سبع عجلات مرة واحدة الى الالعاب الاولمبية وإن يفوز دفعة واحدة بالجوائز الأولى والثانية والرابعة

(١٢) في تلك الايام كانت تربية طائر السمانى شائعة. وكان سقراط قد نصح الكيبادس بقوله ان يربزه في الحياة العامة يقتضي منه المزيد من الدراسة يحقق تفوقه على قادة العدو. ثم عقب بمزاح قاسٍ «كلّ كلاً يا الكيبادس، ان الدرس الوحيد الذي انشغلت به هو كيف تتفوق على [قيدياس] في تربية السماني! [افلاطون: الكيبادس ١] كان اسم الرجل الذي امسك بطائر الكيبادس سيقى مغموراً لو لم ينبئ في قيادة الاسطول عند غيابه. وعندما سخط له فرصة أصيب بشر هزيمة.

(*) ديوسيتيس: «ضد ميدياس» ١٤٥٠.

(على قول ثوكديدس)^(*) أو الثالثة (على قول يوربيدس). فيسبق بدرجة عالية جداً كل امتياز عرف أو منح في هذا الباب. وقد حيا يوربيدس فوزه بالابيات التالية:

إن نشيدي هذا واجب لك علي يا ابن كلينياس

النصر نبيل ولكن الاتيل منه أن تنجز ما لم ينجزه أحد من اليونانيون قبلاً
أن تفوز في سباق العجلات الكبير، بالدرجة الأولى والثانية، وتخرج من السباق
دون أن يصيبك التعب.

وتجعل المنادي يطلب ثلاث مرات أكليل زيتون زفس^(١٣)

إن التنافس الذي ابداه مختلف وفود الدول - في تقديم الهدايا له زاد من قدر نجاحه. وضرب له وفد [أفسس] خيمة ذات زخارف في نهاية الفخامة، وأهدته مدينة [خيوس] علفاً لحيوله مع كثير من حيوانات الأضاحي. وأرسل له وفد [اليسبوس] خموراً وزاداً للولائم الكبرى التي أقامها^(١٤). على أن لم يخلص من الألسن الحادة والنقد رغم كل هذا، وحصدوه إما لسوء طبع أعدائه. أو لسوء سلوكه. فقد قيل أن أثينياً يدعى (ديوميديس) من سراة القوم، وصديق لالكيببيادس، كان شديد الرغبة في الفوز بالسباق الأولي وكان قد سمع الكثير عن العربة التي تملكها الدولة في [أرغوس]، ولعلمه أن الكيببيادس يتمتع بمنزلة ونفوذ كبيرين هناك واصدقاء كثير، رجا منه أن يتوسط لشراء العجلة له، واتباع الكيببيادس العربة فعلاً وأختصها لنفسه، تاركاً وديوميديس يتميز غيظاً منه. ويبتهل الى الآلهة ويدعو الناس ليشهدوا الظلم الذي أصابه. ويبدو أن دعوى أقيمت في المحكمة بهذا الخصوص، كما يوجد لدينا مقولة عن العجلة كتبها [ايسوقريطس Isocrates] دفاعاً عن ابن الكيببيادس. إلا أن المدعي في هذه الدعوى هو [تسياس Tisias] لا [ديوميديس].

وما أن بدأ يدخل معترك السياسة ويتدخل في شؤون الحكم وهو ما يزال فتىً يافعاً، حتى أضعف منزلة جميع أولئك الذين استرحوا الثقة من الشعب، ما عدا [فاباكس] ابن

(١٣) هو Epi Kion أو ترتيله، النصر مثل افاشيد بندار المسورة.

(١٣) فار الكيببيادس بالجوائز الأولى والثانية والثالثة بشخصه في حين فازت عربته في غياب مرتين

(١٤) يكتب [انتستينوس تلميذ سقراط ان مدينة [خيوس] كانت تقدم العلف لخيله. وخيزيكوم تؤمن له الاصاحي. هذه العبارة تستحق التأمل فقد علمنا منها ان ذلك لم يقتصر على مناسبة ذهاب الكيببيادس الى الالعب الالبية بل تعداه الى حملاته العسكرية وتنقلاته. فيقول بهذا الصدد «كلما سافر الكيببيادس قامت اربع مدن على خدمته كما تقوم وصيفات على الخدمة في البيت. و(افسيس) تعدّه بغنم فاخرة شبيهة بالخيام الفارسية. و[خيوس] تعدّه بطن دوابه. و[خيزيكوم] تعدّه بالاضاهي والارزاق موائد طعامه. [ليسيوس] ترسل اليه الخمر وكل ما هو ضروري لإدارة بيته».

[ايريسستراتوس Erastriatus] ابن [نسياس] ابن [نيكيراتوس Niceratus] الذي وقف وحده في حلة المناقشة خصماً له. كان [نسياس] قد عاد وهو في سن متقدمة، وبصق قائداً أعلى. وكان [فاياكس] كالكيبيادس سياسياً صاعداً. وهو سليل بيت عريق لكنه يقل شرفاً وعراقة عن نسب الكيبيادس كما كان يقل عنه في أمور شتى أخرى في مقدمتها البلاغة. على أنه كان يتمتع بمقدرة نادرة على الاقتناع في مجال الأحاديث الخاصة، لا في نقاش عام امام الشعب. وكما قال فيه [يپوليس Eupolis]:

« هو آخر المتحدثين واعجز الخطباء »

هناك مقالة نفذ كتبها [فاياكس] (*) في الكيبيادس. ذكر فيها بما ذكر. أنه كان يستعمل يومياً على مائدة طعامه أواني الذهب والفضة التي تعود للمواكب والحفلات العامة كأنما هي ملك خاص (١٥) به.

كان ثم رجل اسمه [هيپربولوس Hyperbolus] من مدينة [پيريثودي Perithodae] يذكر عنه [ثوكديدس] (١٦) أيضاً، بأنه رجل سيء الخلق، وموضع سخيرة عامة لكل الكتاب الهزليين في عصره، لا يهتم قط بما يقولون عنه مهما بلغت أقوالهم من السوء فيه. وهو عادم الاكتراث بالسمعة، قليل الإحساس بالعار، خلُق ير يده بعض الناس جراءة وشجاعة. في حين أنه وضاعة وقلة حياء. لم يكن يحبه أحد إلا أن الناس كثيراً ما أستخدموه كلما انصرفت نيستهم الى تحقير شخص في الحكم أو اساءة سمعته. وفي هذا الوقت كان الشعب بناء على تحريض هذا الرجل، مهيباً للأضطلاح باجراءات أصدر حكم بالنفي لمدة عشر سنوات وهو ما يطلق عليه «النفي من دون محاكمة Ostracism». وكانوا يلجأون الى هذه العقوبة لإذلال وطرد المواطنين الذين تفوقوا على غيرهم في السلطان والشهرة وكانت دوافع الحسد والغيرة في عملهم هذا تغلب على دافع التخوف والحذر من خطر المحكومين بها. ولم يكن أنذاك من شك في أن العقوبة ستقع على أحد الثلاثة. وبذل الكيبيادس جهده ليقم انتلاقاً بين الاحزاب وفاتح [فسياساس] بمشروعه، وكانت نتيجة وقوع النفي عن نصيب [هيروبولس]. ويقول

(*) هذه المقالة وصلتنا من بين خطب اندوفيدس (الرابعة) وهي واضحة التصنيع نحّلها مؤلف مجهول لسان فاياكس.

(١٥) الظاهر انه كان يستعير هذه الصحاف المكرسة فيبيعها بالاستعمال اليومي ولا يعيدها الا قليل المراسم الدينية للمرض كي يبدو للأغراب وكأنها ملكه وأنه أعارها للمدينة. اما [فاياكس] فقد جاء ثوكديدس الى ذكره ووردت مقالته هذه بين خطب [اندوقيديوس: الخطب ٤] وهي خطبة واضحة الزيف نحّلها كاتبها المجهول لسان [فاياكس].

(١٦) التاريخ الطبيعي ٧٢: ٨.

آخرون انه لم يشاور [نسياس] في هذا الأمر بل [أفاياكس]، وبمساعدة حزبه ضمن قرار النفي بحق [هيبروليس] عندما كان أقل الناس توقعاً له، فقبل هذا لم يقع تحت طائلة العقوبة شخص سكرة وضع. وكان الشاعر الساخر افلاطون مصيباً كبيد الحقيقة في قوله عن [هيبروليس]: «مع هذا استحق المصير الجدير بالغابرين، المصير الذين لا يستأهله أمثاله من الرجال لأمثاله، وللعبيد الموسومين بميسم العبودية.

على أننا أثبتنا في موضع آخر تفاصيل أوفى، مما غا إلى علمنا في هذا الشأن. ولم يكن الكيبیادس بأقل همّاً بخصوص المنزل الرفيعة التي نالها [نيقياس] لدى اعداء، أثينا، من التشريف الذي خلفه الآثينيون عليه في الوطن. فمع أن [الكيبیادس] كان الشخص المعين رسمياً لاستقبال كل اللقيديمونيين عند قدومهم إلى أثينا، ومع أنه أهتم اهتماماً خاصاً بالأسرى الذين أخذوا في [پيلوس Pylos] ^(١٧) فإنهم خصوصاً [نيقياس] وحده بالتكريم والتجلة بعد أن نالوا سلباً واستعادوا الأسرى بمسمى [نيقياس] بالدرجة الأولى وكان القول المأثور في بلاد الأغريق أن بيريكليرس بدأ الحرب و[نيقياس] انهاءها، وإن السلم نُعت رسمياً ^(١٨) بسلم [نيقياس] اظطرب الكيبیادس اضطراباً شديداً لهذا الأمر ولما كان الحسد يلاؤه فقد راح يعمل على تشتت شمل العصبة المتحالفة. فوجد أولاً أن الأرغوسيين يريدون الحماية من غائلة اللقيديمونيين خرفاً وكرهاً.

فعقد بينهم وبين أثينا حلفاً معزواً بميثاق سري، واتصل بصورة شخصية وبطريق المراسلة مع رؤساء المستشارين في ارغوس مشجعاً أيهم على طرح جانب الخوف من اللقيديمونيين، وعدم التنازل لهم عن شيء ما. ونصحهم بالتريث قليلاً وإن يبقوا شاخصين بأنظارهم إلى الآثينيين الذين أدرکهم الندم الشديد للجنوح إلى السلم وانهم لن يلبثوا أن ينقضوه.

ووجد [الكيبیادس] أيضاً أن اللقيديمونيين كانوا قد عقدوا صلحاً ومعاهدة تحالف مع البويوتيين، من شروطها أن يسلموا لهم مدينة [پاناكتوم Panactum] سليمة، إلا أنهم لم يسلموها إلا بعد أن دمروها ^(١٩) مما أثار غضب الآثينيين الشديد. ولذلك أسرع الكيبیادس

(١٧) في العام ٤٢٥ ق.م وهي تعزى خطأ إلى [نيقياس] من قبل بولوتارخ وغيره من المؤرخين. فتوكيديدس يعلمنا أن تسمية [الكيبیادس] جاءت من الجهة اللقيديمية. وأن «حقوق الضيافة» المذكورة في النص بدأت بين أبيه [كينياس] وبين الكيبیادس والد اليبديوس Eudius أحد الايغوري الذي كان قد حلّ ضيفاً عليه في أثينا، فمنح اسمه لابنه (تكريماً) وعلى سبيل المقابلة بالمثل سمى الكيبیادس أحد ابنائه (بافيديوس) اسم الضيف اللقيديمي.

(١٨) جرى عقده في السنة ٢٤١ ق.م.

(١٩) قلعة على حدود بويوتيا وأتيكا. [انظر توكيديدس ٢:٥، ٤٢].

بنتهز الفرصة، ليسعّر من غيظ مواطنيه مهاجماً [نقياس] هجوماً عنيفاً ومتهماً إياه بأشياء كثيرة لم تكن تخلو من الحقيقة. منها انه لما كان جنزراً لم تبدر منه بادرة لأسر جماعة من جنود العدو^(٢٠) كان قد قطع عليها سبيل الهروب في جزيرة [سفاكتيريا Sphacteria]، ولما قام آخرون بأسرهم سعي شخصياً الى إطلاق سراحهم وإعادةهم الى اللقيديميونيين لنيل الخطوة عندهم. ثم انه لم يستخدم نفوذه لديهم، لمنعهم من عقد هذا الحلف مع الكورنثيين والبيوتيين، بينما عمد من الناحية الأخرى الى اعتراض سبيل بعض الدول الأغريقية التي كانت تحبذ عقد معاهدة تحالف وصداقة مع أثينا لأن اللقيديميونيين لا يرغبون في ذلك.

وفي هذا الزمن الذي بدأت منزلة [نيقياس] وسمعته تهريان الى المحضيض في عيون الشعب بمساعي الكيبيادس وفنونه، وأتفق أن حضرت سفارة من لقيديميون الى أثينا وصرح اعضاؤها انهم جاؤوا يحملون شروطاً مرضية جداً وانهم مفوضون مطلقو الصلاحية في تسوية كل ما هو موضوع نزاع بشروط مبنية على أسس العدالة والمساواة. ونالت مقترحاتهم قبول مجلس الشورى وأعلن انعقاد مجلس العموم في اليوم التالي لتجرى فيه مناقشة عروضة. فأشتد القلق بالكيبيادس لتطور الأمور بما لا يشتهي، وعمل على ان يجتمع بالسفراء سراً فتمّ له ذلك. ووجه اليهم القول التالي:

- ما الذي تسعون وراءه يا رجال سبارطا؟ أهكذا يغيب عن بالكم أن المجلس اعتاد دائماً أن يتخذ موقف الإحترام والإعتدال من كل السفراء؟ إلا أن جماهير الشعب خلاف ذلك فهي طموحة مندفعة بطبعها وراء المفاخرات العظيمة والمطالب الضخمة، وإن علموا بانكم خولتم صلاحيات مطلقة فسيشددو عليكم النكير، ويرغموكم على شروط غير معقولة فإياكم والسذاجة، وحذار من سلامة النية إن كان قصدكم الاتفاق مع الأثينيين على شروط متوازنة فيها. والأ انتزعت منكم امتيازات لا تتفق وخططكم. وابدأوا بالتعامل مع الشعب على أسس ومبادئ معقولة، واحذروا من القول بانكم مفوضون مطلقو الصلاحية».

(٢٠) بعد أن فقد اللقيديميون قلعة (بيلوس) في ميسينيا. وضعوا حامية جزيرة [سفاكتيريا] المواجهة لها. قواتها (٢٢٠) جندياً مع عدد من الهيلوت بقيادة [إبيتادس ابن بولوبروس] وأعتدّ نيقياس عن الخروج الى الجزيرة واحتلالها وان يتولى منصب القائد في حينه. إلا أن (كليون) وفق الى استعانتها وقتل عدد من افراد حاميةها وسوق البقية أسرى الى أثينا وكان بينهم مائة وعشرون سبارطياً بالوا حريتهم بفصل نيقياس. بعد هذا استعاد اللقيديميون القلعة فقد قُتل انتيوس الذي قاد النجدة. في الوصول اليها لعاكسة الريح وعاد الى أثينا فعُكِم عليه بالموت واستبدل الحكم بغرامة كبيرة. فكان أول من يفترق حكم موته بالمال على هذا الشكل.

بعد أن أنهى حديثه هذا حلف لهم الأيمان بأنه سينجز ما وعدهم من المساعي لقصيتهم وبهذا الشكل ابعدهم عن نيقياس وجعلهم يعتمدون عليه اعتماداً كلياً. وغادرهم وهم يلهمون بالشاء على حصافته ونفاذ بصيرته. وفي اليوم المضروب اجتمعت العامة، وتقدم السفراء فهض الكيببىادس وسألهم بكل احترام وتوقير: «ما نوع الصلاحيات التي تزودوا بها؟» فأجابوا أن تمريضهم غير مطلق. وهنا بدأ الكيببىادس وكأنه موضوع الإهانة لا فاعلها، وأخذ يندد بهم بصوت داور وينعتهم بالمراوغين والخداعين قائلاً إن هؤلاء لم يأتوا ليقولوا ويعلموا أي شيء، يتفق ومبادي الصدق وسلامة القصد. وثار تائرة مجلس الشورى وضج الجمهور سخطاً عليهم. أما [نيقياس] الذي كان يجهل اللعبة فقد استبدت به الحيرة وكان كغيره مذهولاً خجلاً من التغير في كلام أعضاء الوفد.

وبهذا رفصت سفارة اللقبيديمونيين رفضاً باتاً. وأعقب ذلك انتخاب الكيببىادس جنراً. فبادر في الحال الى عقد حلف اثيني مع الأغوسيين^(٢١) والأليانيين وأهالي مدينة (مانتينيا [Mantineia]).

لم يقع عمل الكيببىادس موقع رضا أحد من الناس، إلا أنه كان مناورة سياسية بارعة ادت الى شقّ الهلوبيونيسوس كلها تقريباً، وتقويض بناء وحدتها. والى تأليب ذلك العدد الضخم من المحاربين ضد اللقبيديمونيين امام [مانتينيا] في يوم واحد فقط. الى ذلك إنها نقلت ميدان الحرب الى مسافة بعيدة جداً عن تخوم الآثينيين. فاذا حدث وأنتصر العدو فإن انتصاره لن يفيده كثيراً. أما اذا هزم فقد لا تسلك سيارطا نفسها على أغلب الاحتمال.

بعد خوض المعركة قرب مانتينيا^(٢٢)، حاولت فرقة الألف المنتخبة الأغوسية، الإطاحة بحكومة الشعب في أرغوس ووسط سلطانهم عليها، وخفّ اللقبيديمونيون الى مساعدتهم، وأزالوا الحكم الديمقراطي. إلا ان الشعب قام بانتفاضة مسلحة وحرزوا بعض النجاح^(*)، وعاجلهم الكيببىادس بالنجدة فأكمل انتصاره وأعيد الحكم الديمقراطي. وتمكن الكيببىادس من إقناعهم ببناء اسوار طويلة^(**) توصل المدينة بالبحر لتصبح ضمن متناول يد آثينا. وأمدّهم بشغيلة وبنائين من آثينا وأظهر منتهى الإخلاص في معاونتهم وكان المجد والسلطان الذي ناله لا يقل عما نالته جمهورية آثينا.

(٢١) في السنة الرابعة من الاولبياد التاسع والثمانين: ٤٢١ ق.م. عقد صلحاً مع هذه الدول أمده مائة عام.
(٢٢) وقعت المعركة في السنة الثالثة للالبياد التسعين اي بعد مرور ثلاث سنوات على الاتفاق مع أرغوس.
[توكيديديس ٦: ٦٦ وما بعده] وذلك في العام ٤١٨ ق.م.

(*) في ٤١٧ ق.م.

(**) في ٤١٩ ق.م.

ثم وجه اهتمامه الى [باتري Patrae] (٢٣) وتكن من اقناع أهاليها بربط المدينة بالبحر أيضاً ببناء اسوار طويلة. ولما قال أحد الناس لهم على سبيل التحذير أن الآثينيين سيبتلعونهم في نهاية الأمر. ردّ الكيبيادس بقوله: «ربما كان الأمر كذلك. إلا أن عملية البلع ستتم بالتدريج وسيكون البدء من القدمين، اما اللقيديونيون فسيبدأون من الرأس ويمزقونكم بطريقة عين».

لم يهمل حث الآثينيين على الاهتمام بالبرّ وتثبيت مصالحهم فيه وظلّ باستمرار يذكر الشبان بالقسم الذي أدّوه في معبد [أغراولوس Agraulos] (٢٤): ويقضى ان يعتبر حقول القمح والشعير والخمر والزيتون حدوداً لآتيكا. وهو كتابة عن حقهم بملكية كل الأراضي الزراعية والمشمرة.

إلا أنه مزج كل هذه المآثر السياسية وبعد النظر وذلاقة اللسان، بحبّ الشرف، المفرط، والاسراف في الشراب والمأكّل، والحياة التحللة من المبادي، الخلقية. وكان يرتدي ثياباً قرمزية سافرة كزّي النساء، ويسحب ذيولها على الأرض خلفه عند مروره في ساحة السوق، وأمر بنزع الألواح الخشبية في سفينة لينعم باستلقاء، ليّن إذ أن فراشه لا يفرش على السطح، بل يعاقب في الهواء بسبور من الجلد وترسه الكثير الوشي والزخرفة، لم ينقش عليه الشعار الآثينيّ الاعتيادي (٢٥). وانما رسم عليه صورة (كبيويد) محسكاً بشرارة صاعقة. هذه المظاهر وأمثارها ملأت نفوس كرام المواطنين بشعور التفوّز والإشمئزاز، وسخطوا للحياة الفاجرة التي يحياها، ولاستهتاره بالقوانين. ووجدوها تصرفات شنعاء بعدد ذاتها تحمل في طياتها بذور السيطرة والظفان. ولقد اجاد (ارسطوفانس) التعبير عن مشاعر الشعب تجاهه حين قال:

«انهم يحبونه، ويكرهونه ، ولا يطبقون العيش بدونهم».

ويبلغ النهاية في الإعجاز ودقة التعبير تحت ستار الكتابة إذ قال:

«من الأفضل أن لا ترمي شبلًا تلاففه داخل الأسوار المدينة وإن فعلت، فعليك أن تعامله معاملة الوحش!».

والحق يقال ان كرمه، وأقامته الحفلات واللهو للعامة، وما الى ذلك من ضروب البذل للجمهور، لم يكن يعدله فيها أحد. وأن عراقة أسلافه، وقوة عارضته، ومهابة شخصه ومثانة

(٢٣) مدينة من مدن أخانيا. هذا المشروع احبطه أهل كورنث وسيكيون وغيرهما من المدن المحاورة.

(٢٤) هيرودوتس وپلوتستاس يثبتانها [أغلاوروس]. إلا أن ما اثبتت پلوتارخ هو الصحيح.

(٢٥) للمدن والاشخاص شعارات خاصة ترسم على صفايحهم. وشعاراتينا المعروف هو (البوم) أو (الزيتون) ولايسمح بحمل الشعار بالنسبة للاشخاص إلا للبارزين من القوم او من قام بعمل مجيد.

تركيبه التي خالطتها شجاعة فائقة، وبراعته في الفنون العسكرية، كل هذا حَكَمَ على الآثينيين أن يتحملوا تهتكه، ويتفاضوا عن أشياء كثيرة فيه وأن ينعتوا أخطاهم بأخف النعوت كما هي عادتهم، وأن يعزوها إلى اغترار الشباب وسماحة الطبع. ومن بين المآخذ عنه أنه أبقى الرسام [أغاثاركوس Agatharcus] ^(٢٦) أسيراً حتى انتهى من زخرفة وطلاء بيته ومن بعدها أطلقه ونفخه بمكافأة. كذلك اعتدى على [طورياس Taureas] بالضرب لأنه عرض بعض التمثيليات منافسة له بها، قاصداً منازعته الجائزة. وأختار لنفسه أسيرة ميلانية Melan وانجذب منها ولداً أهتم بتربيته وتعليمه، وأعتبر الآثينيون ذلك إنسانية عظيمة منه، مع أنه كان السبب الأساس لذبح كل الرجال جزيرة (ميلوس) ^(٢٧) من البالغين سن الخدمة العسكرية كانت قبضته تقع عليه لأنه كان أحد محبزي إصدار البيان وعندما نقش الرسام [ارسطوفون Aristophon] صورة [نيميا Nemea] ^(*) العاهرة جالسة والكيبیادس في حضنها، تقاطر الجمهور زرافات لمشاهدتها وأبدوا سرورهم بها. إلا أن الناس المتقدمين في السن استكروها واستفزعوها. ووجدوها وأمثالها شراً مستطيراً، واتجاهوا نحو الإستهداد. لذلك لم يتعد [ارخستراتوس Archastratus] الحقيقة إذ قال أن الآثينيين لا يستطيعون تحمل [الكيبیادس] ثانياً، ومرة عندما بلغ درجة كبيرة من النجاح في خطبة ألقاها. هرع إليه كل المجتمعين بهنثونه ويشنون عليه، ولم يمر [نيمون] ذو الطبع الانطوائي، به عرضاً ولم يتجنبه كما فعل غيره، بل توجه نحوه متقصداً، وامسك بيده وقال له:

- امض في سبيلك يا بني ولا تتردد، وزد من رصيدك عند الشعب، لأنك ستجرّ عليهم يوماً من المصائب ما يكفيهم.

وسخر بعض الحاضرين من قوله. وبعضهم اسمعه قارص الكلام. إلا أن عبارته نفذت عميقاً في نفوس بعضهم. وكذا كان اختلاف حكم الناس عليه، مثلما كانت أخلاقه كثيرة الشذوذ.

كان الآثينيون منذ عهد [بيريكليس] ينظرون إلى صقلية نظرة طمع واشتهاء ^(٢٨). إلا أنهم

(٢٦) كان لهذا الرسام صلة بمشيقة الكيبیادس. انظر [ميوسثينس].

(٢٧) إهدى جزر كيكلاوس. وهي مستعمرة لقيديمة حاصرها [الكيبیادس] بست وثلاثين سفينة و(٨٠٠٠) مقاتل صيف العام ٤١٦ ق.م الموافق للأياد التسعين. وأستولى عليها بعد أن وصلته نجدة في السنة التالية. ويسرد توكيديدس تفاصيل المذبحة التي أعقبت فتحها لكنه لا يذكر شيئاً عن الرسوم. ولعله أراد أن ينقل تبعة ما حصل على الحقد الذي ملأ الجنود فهاجمهم أنياً. دون أن يهتم به الآثينيون.

(*) پاوسانیاس (١٠ ٢٢ ٧) تمثيل لمنطقة نيميا في الألعاب التي فاز فيها. الاصل الاغريقي يشير الى ابها عاهرة.

(٢٨) تمكن بيركليس بذكائه وسلطانه القوى من كبح هذه الرغبة العارمة عند الآثينيين. إلا أنهم بعد موته سبّين أثينيين، أرسلوا بعض السفن إلى ريكيوم لنجدة الليونتيين الذي كانوا ضحية هجمات الصقليين =

لم يحاولوا شيئاً إلا بعد موته. فقد أرسلوا بدعوى مساعدة حلفائهم، فجدات متوالية في شتى المناسبات لأولئك الذين كانوا موضع اضطهاد [السيراقوزيين] بمهدين بذلك الطريق لإرسال قوات أكبر. إلا أن الكيببidas هو الذي اصرم نار الرغبة واججها في النفوس، واقتنعهم بالآ يمصوا في غايتهم سرّاً بعد الآن ولا أن ينفذوها شيئاً فشيئاً، بل أن يجردوا عليها أسطولاً كبيراً ويبسطوا سلطانهم على الجزيرة كلها. وملأ الجماهير بآمال عريضة مثلما كان هو مفعماً بها بل وأكثر، ففتح صقلية كان عندهم نهاية الطموح، بينما كان عنده مجرد البداية. وحاول (نيقياس) جاهداً أن يثنى الشعب عن تجريد الحملة، بشرحه لهم أن الاستيلاء على (سيراقوز Syracuse) أمر صعب للغاية إلا أن الكيببidas ما كان ليحلم بأقل من فتح قرطاجنة وليبيا، وبلوغه هذه الغاية التي تجعله حاكماً سيّداً إيطاليا والبلقونيس. كان يبدو له غزو صقلية مجرد مستودع لتفجير الحرب. وشاعت الحماسة في نفوس الشباب لهذه الآمال الجسام وأخذوا يرففون أذانهم إلى كبار السنّ منهم يحدثونهم عن عجائب البلاد التي سيشاهدون، فيشبع الفرح في نفوسهم. وانك لتلقى العدو الكبير من هؤلاء الفتيان جالسين في ميادين المصارعة والمحلات العامة يخططون على الأرض خريطة الجزيرة، وليبيا وقرطاجنة. وقيل أن (سقراط) الفيلسوف وميتون Meton المنجم لم يكونا بآملان خيراً للجمهورية من هذه الحرب. أولهما متكهناً بما سيأتي بوساطة جنة الذي يلازمه - على ما قيل، وثانيهما أظهر المخاوف من نتائجها إما بعد تحليل منطقيّ عقليّ للمشروع، أو باستخدامه فن التنجيم والاستخارة. ولهذا تصنع الجنون وأمسك بمشعل موقد وبدأ وكأنما يريد أحراق منزله. وذكر آخرون أنه لم يتصنع حالة جنون بل عمد سرّاً في موهن من الليل إلى أحراق بيته وفي اليوم التالي انهى بفجيعته إلى الجمهور لكي يحملهم على استبقاء ابنه الذاهب للحرب، تخفيفاً عنه ومواساة له. وبهذه الحيلة خذع بني قومه وحصل منهم على بغيته.

وعين (نيقياس) جنراً مع (الكيببidas) كرهاً عنه وخلافاً لرغبته وجهده في العزوف عن القيادة أكثر كرهاً بها لوجوده مع الكيببidas، إلا أن الاثنين رأوا أن إرسال الكيببidas وحده، دون وجود من يكبح جماحه مما يضرّ بمجرى الحرب، ولذلك عمدوا إلى معالجة تهوره بحذر ميقياس ولم يكن تعيينه ناجحاً عن هذا السبب وحده، فالجنرال الثالث في الحملة (لاماخوس) مع تقدمه في السنّ أبدى في عدة معارك ما برهن أنه لا يقلّ حدةً وتهوراً عن

= وبعبارة بسيطة واحدة أرسلوا عدداً أكبر من السفن. وعقبوها بأسطول أكبر بعدا يستقن آخريين. إلا أن الصقليين اتحدوا فيما بينهم وصدوا هذه الحملات تباعاً. وبلغ الغضب بالأتينيين جداً أنهم حكموا على الجنرالين بيثودورس وسوفوكلس بالابعاد جراء فشلهم. كما فرضوا على الجنرال الآخر (أفريميدون) غرامة ثقيلة.

[الكيببىداس] نفسه. وعندما بدأوا يتداولون حول عدد القوات وطرق تجهيزها بالمؤن والعتاد الضروريين قام [نيقياس] بمحاولة أخرى لمعارضة الفكرة ومنع وقوع الحرب إلا أن الكيببىداس حاله ونقل القضية إلى مجلس العموم^(٢٩). وهناك أقترح خطيب يدعى [ديموستراتوس] منح القواد الثلاثة صلاحيات مطلقة بخصوص التأهب للحرب، واتخاذ كل التدابير المتعلقة بها. فصودق على إقتراحه. وعندما تم كل شيء للحملة، ظهرت نبوءات نحس عديدة. ففي ذلك الوقت وقع عيد [أدونيس Adonis]^(٣٠) وفيه اعتادت النسوة أن يعرضن في كل أنحاء المدينة صوراً وشواخص تمثل رجالاً موتى يحملون إلى المدفن وإن يمثلن شعائر الجنائز بالنذب والعويل واناشيد الرثاء. على أن التقطيع الذي أحدث في صور شواخص و[مارس]^(٣١) أدى بأغلبها إلى تشويه في أوجهها خلال ليلة واحدة. وأفزع ذلك كثيراً من الأشخاص الذين تعودوا الاسترخاف بمعظم ما هو من هذا القبيل. وأشيع أنه من عمل الكورنثيين لأجل السيراقوزيين الذين كانوا مستعمرة لهم^(٣٢). أملين أن يعبد الآثينيون عن الحرب أو يزخروها، كرد فعل لهذه الخوارق. إلا أن النبأ لم يؤثر في الناس أي تأثير، ولم يكن رأي أولئك الذين لم يعتقدوا بوجود أي إشارة نحس في الحادثة، إلا مجرد كونها عملاً فاضحاً مباحاً قام به فتیان طائشون على سبيل المزاح أثناء خروجهم من اجتماع لهر وشراب. إلا أن مجلس الشورى والجمعية العامة أفرغتهم وأغضبتهم الحادثة ونظروا إليها نظرة شك وعدوها تمهيداً لمؤامرة عدد من الأشخاص لقلب نظام الحكم وواصلت الجمعية والمجلس اجتماعاتهما أياماً، للتحقيق الدقيق في كل ما يستدعي الشك.

وفي أثناء التحقيق أحضر [اندروكلس Androcles] وهو غوغاني - عدداً من الأرقاء والاجانب. ليتهموا الكيببىداس وبعض اصدقائه بتشويه الصور الأخرى بعين الطريقة.

(٢٩) هذه الخطب التي تستحق القراءة للأسلوب الجميل في ايضاح الاجراءات الحكيمه الحذرة التي يابرها نيقياس. والتهور والطيش اللذين يابشرهما الثاني. حفظها لنا ثوكيديدس. أو ربما قام هو بتدبيجها (٦: ٩٨-٩٩).

(٣٠) في عيد [ادونيس] تبدو كل المدن بمظاهر الهداد. وتعرض الرسوم امام كل باب. وتعمل في المواكب تماثيل فينوس وادونيس مع اوعية معينة فيها تراب انبتوا فيه قمحاً وأعشاباً وضماً وتدعى هذه الأوعية (هدائق ادونيس). وقرمى في البهر بعد ختام الاحتفال. ويحتفل كل بلاد اليونان ومصر به، كذلك كان اليهود يحتفلون به عندما انتقلوا إلى عبادة الاوثان (حزقيال ١٤: ٨) وفي خلال ساعات الاحتفال كثيراً ما ترى النسوة جالسات يندبن ويبكين من أجل تموز أي أدونيس.

(٣١) كان الآثينيون يصعبون تماثيل (مارس) امام ابواب بيوتهم. وهي على شكل قطع صخر مربعة يوضع فوقها رأس ذلك الرب. ويقول بلوسيناس [٢٢: ٤] إن سائر الاغريق استعاروا منهم هذا التقليد. اما التشويه الذي ينوه به بلوتارك فقد جرى قبل هذا التاريخ كما يؤكد [ثوكيديدس ٢٨: ٦].

(٣٢) أرسل هؤلاء المستوطنون بقيادة (ارخياس) وهو أحد الهيراقليدي [ثوكيديدس ٢: ٦] و[سترابو. ٥].

والتجديف على الأسرار الالهية وإتيان أعمال كفر يحقها في مجلس شراب، ومثل 'ثيودوروس' دور المنادي، وپوليتيون Polytion تقمص شخصية حامل المشعل، وقام (الكيبباس) بدور رئيس الكهنة. وظهر بقية الجماعة بدور المرشحين للرئاسة واقتبلوا درجة التكريس. هذه الوقائع تضمنتها بلاغ المعلومات الأولى الذي قدمه (تسالوس ابن سيمون) صدّ الكيبباس حول اتهامه الإستخفاف الإلهادي بالرتين (سميرس) و(پروسيبرين) الأمر الذي اسخط الشعب عليه وأحنقهم للغاية، و(اندروكلس) اخبث اعدائه زاد في الطين بلة وهوك التهمة فأقلق أصدقائه للغاية. ولكن لما علموا أن البحارة النهابين الى صقلية يقفون في صفه وكذلك الجنود. وعندما أعلن الجنود الالف الاحتياط من أرغوس ومانتينيا أنهم ما تكلفوا عناء هذه الحملة العسكرية البحرية البعيدة الذي إلا لأجل الكيبباس، فإن أسيتت معاملته فسيعودون الى ديارهم، عادت اليهم شجاعتهم، وخفوا عجالاً للاستفادة من الفرصة، وتركته، وأصيب اعداؤه بالخزي مرة أخرى نكصوا خوفاً من أن يكون الشعب أكثر رقة في حكمهم عليه، بسبب ما لديه من خدمات. فلأجل ان يحولوا دون ذلك، سعوا الى دفع خطباء آخرين، ممن لم يعرف عنهم عداوة لالكيبباس، بينما لا يقل حقدهم عليه عن أولئك الذين صرحوا بعداوتهم له، الى ان يقفوا في الجمعية ويخطبوا بهذا المعنى: «إنه لمن السخف أن يتعرض رجل انتخب قائداً لمثل هذا الجيش، بصلاحيات مطلقة، وبعد أن وصلت القوات الحليفة، وتم تحشيد جنوده - لخسارة الفرصة بينما يقوم الشعب بالاقتراع على انتخاب القضاة الذين سيحاكمونه، ويصبون الماء في الأواني لقياس الوقت المخصص لدفاعه (٢٣).» «دعوه يبحر في الحال، وليرافقه السعد، وعندما تضع الحرب أوزارها، يتفرغ الى تنظيم دفاعه شخصياً حسب أحكام القانون». وأدرك الكيبباس سوء القصد في هذا التأجيل، ووقف في الجمعية قائلاً انه لأمر فظيع أن يعهد اليه بقيادة مثل هذا الجيش العظيم، وهو يرزح تحت عبء تهم وشايات يستحق عليها عقوبة الموت إن لم يفلح في تبرئه نفسه من الجرائم التي الصلت به، ولكن إن فعل ذلك وبرهن على براءته، فإذ ذاك يمكنه التفرغ الى الحرب بكل سرور، إذ لا يعود بعدها في خوف من أي متهم كاذب.

(٢٣) أستخدمت الساعات المائية أثناء المحاكمات الشعبية في أثينا لتحديد اوقات المرافعات ويتم ايضاً هذه الساعات عند شروع الشهود بالإدلاء بشهاداتهم ويقوم بهذا ضابط يختار لهذا الغرض من طبقة العامة. ويخبرنا [پولوكس] ان الماء في القضايا الخاصة بالخروج على القوانين - يقسم الى ثلاثة أجزاء. جزء مخصص للمدعي ولتلاوة نصوص القانون ولأقوال الدولة. وجزء مخصص للمتهم وشهوده. وجزء مخصص للقضاة ان لم تعلن براءته بالقرار الاول ذلك لأن القضاة - كما هي العادة الآن عند أكثر المحاكم - يصدرن حكمن الأول بالادانة أو البراءة، والثانية بتحديد العقوبة في حال التجريم

إلا أنه لم ينجح في اقناع الشعب برأيه وأمره بالابحار فوراً^(٢٤)، فسرّحل مع الجنرالين الآخرين وكانت الحملة تتألف من ١٤٠ بارجة حربية تقريباً و ٥١٠٠ محارب، وحوالي ١٣٠٠ نابل ورامي مقلّاع، وجنود خفاف السلاح، وكل ما يتعلق بذلك من تجهيزات ومؤون.

وبلغ ساحل إيطاليا ورّسا في [ريجيوم Rhegium] وهنا أدلى بآرائه عن الأسلوب الذي ينبغي اتباعه في إدارة دفة الحرب. فعارضه [نسياس]، ووافقه [لاماخوس]. وأقلعت الحملة إلى صقلية في الحال، وأستولت على [كاتانا Catana]. وهذا كل ما تمّ تحقيقه أثناء وجود الكيبّياس، إذ استدعي إلى اثينا بعدها بقليل لاجراء لمحاكمته.

كما ذكرنا قبلاً لم يكن يوجد ضدّ الكيبّياس إلا شك ضئيل، والتهم التي الصقها به بعض العبيد والاجانب. إلا أن أعداءه زادوا في هجومهم عنفاً أثناء غيابه ووجدوا بين كسر التماثيل، والكفر بالأسرار وصورها كأنها أرتكبت معاً تمهيداً لعين المؤامرة التي كانت ترمي إلى قلب الحكومة^(٢٥). وشرعت الجمعية في زجّ كل المتهمين في السجن دون تفريق ودون سماع دفاع منهم، وأدركهم الندم بالنظر إلى جسامه التهمة - لأنهم لم يجروا محاكمة الكيبّياس وإصدار حكم بحقه في حينه. وعومل كل أصدقائه ومعارفه الذين وقعوا في يد الشعب وهو في سورة غضبه هذه المعاملة فظة وعذّب. ولم يذكر [ثوكيديدس] أسماء المخبرين^(٢٦) إلا أن غيره من الكتاب اوردوا اسم [ديوقليدس Diocliides] و[تيوسر Teucer]. ومن هؤلاء الشاعر الساخر [فرينبخوس Phrynichus] الذي نجد في شعره الأبيات التالية:

بريك يا (هرميس)^(*) العزيز! كن على حذر وانتبه لنا يكسر انفك المرمري. فلو
لحق بك أذى فقد تدرك الحاجة بك إلى [ديوقليدس] جديد ليطلق كذبة.

ويردّ الشاعر نفسه عن لسان [مارس] بالجواب التالي: «سأفعل ذلك وأكون على حذر ولن

(٢٤) في السنة الثانية من الاولمبياد المادي والتسمين أي في منتصف صيف ٤١٥ ق.م.

(٢٥) قالوا انه دبّر مؤامرة لتسليم المدينة للقيديميين وأنه اقنع التركيف بالفدر بهم.

(٢٦) مع هذا ذكر اندركلس [٦٥٠٨] باعتباره واحداً من خصوم الكيبّياس الاداء إلى جانب شركة بيونيوكوس واندوكيدس. اما المخبرون فهم عبد اسمه [اندروماخوس] و[تيفكر] الميفاري الذي أقرّ على نفسه وليس على الكيبّياس. و[اغاريستي زوج] [الكمايونيدس] و[لينوس] وهو من عبيد [فيريكلس] ونال [تيفكر] ألف دراهماً من الخزينة العامة مكافأة. وأبرز [ديوقليدس] عبداً من عبيده ليشهد بأنه رأى على ضوء القمر أكثر من ثلاثمائة رجل وهم دائبون على تشويه التماثيل. وأشار بالاسم إلى أربعين منهم بينهم [اندوقيدس] واعضاء أسرته وأبيه إلا أن [اندوقيدس] اتهمه بشهادة الزور وأثبت التهمة عليه فحكم عليه بالموت وحرى تنفيذه به.

(*) عطارد = مارس.

أدع بعد الآن ذلك الغادر تيفكر، ذلك الاجنبي الخائن يفخر بمكافأة أخرى على شهادة الزور.

في الواقع أن متهمي الكيببلاس لم يسندوا اليه شيئاً معيناً ثابتاً وعندما سئل أحدهم: كيف تسنى له معرفة هويات الاشخاص الذين شوها وجوه التماثيل، قال انه رآهم على ضوء القمر، وهذا تزوير وافك واضح لأن القمر في وقت الحادث كان هلالاً في اوله. وهذا ما أثار الاستنكار وصيحات الاحتجاج من ذوي الفهم والعرفه، إلا أن جماهير الشعب كانت متعطشة الى سماع المزيد من التهم ضده، فالتار الأولى ما زالت مستعرة في النفوس، وقد ظهرت آثارها في اصدار أمر القبض فوراً على كل المتهمين وزجهم في السجن.

وكان من بين المكلفين والموقوفين المحالين للمحاكمة الخطيب (اندوكيدس Andocides) الذي يرجع المؤرخ (هيللاتيكوس) نسبه الى (يوليسيس)، وهو ممن كان موضع شك دائم في بغض النظام الديمقراطي السائد، ومناصر لحكم القلة. والسبب الأول الذي جعله موضع اتهام بتشويه التماثيل، هو بقاء تمثال مارس الكبير المجاور لبيته سليماً لم تنله يد التشويه، من بين التماثيل الشهيرة القليلة التي ظلت سالمة. وكانت قبيلة (ايجيس Aegeis) قد اقامته نصباً تذكاريّاً، إلا انه سمي منذ الصاق التهمة باندوكيدوس، (بمارس اندوكميدس) مع أن النقش الكتابي في القاعدة يدل على خلاف هذا. واتفق أن هذا الرجل وثق عرى صداقة حميمة مع شخص بين الموقوفين بالتهمة نفسها، يدعى (طيماؤوس Timaeus) وهو أقل منه منزلة وشخصية إلا انه أشتهر بسعة الحيلة والجسارة، فأقنع (اندوكيدس) باتهام نفسه مع عدد قليل بهذه الجريمة، وعلل ذلك بقوله له: إن اعترافه هذا سيضمن له العفو حسب احكام المرسوم الشعبي. وفي الوقت نفسه سيكون احتمال الحكم على كل الباقيين المعترف عنهم ضعيفاً في حين أن الاحتمال قوي في الحكم على كبار القوم امثاله. فخير له أن يهتم بنفسه وينقذ حياته بكذبة من أن يتجرع غصص ميتة مخجلة كأنما هو مجرم حقاً. وإن كان يهتم بالمصلحة العامة، فالأجدر هو التضحية بمتهمين قليلين بهذه الوسيلة، سعياً لانقاذ الكثير من الأشخاص المتنازين، وحمايتهم من غضب الشعب. فراقت الفكرة له واعترف على نفسه وبعض الأفراد الآخرين ونال عفواً بموجب احكام القانون في حين نفذ حكم الموت بجميع من أعترف عنهم ما عدا نفرأ قليلاً نجحوا في الفرار. واتهم (اندوكيدس) خدعه انفسهم لينال المريد من الحظوة لكن سخط الشعب رغم هذا كله لم يهدأ، ويعد أن لم يعد يشغلهم أمر المشوهين عما هم فيه. توجهوا لصب جام غضبهم كله على الكيببلاس دون ان تأخذهم عجلة. وبعثوا بسفينة اسمها «السلاميسي» لجلبه. إلا أنهم أوصوا الموفدين بالا يستخدموا العنف بأيّة حال، وان لا يلقوا

القص عليه، بل يتوجهون اليه بكامل الإحترام ويطلبون منه بأدب أن يتبعهم الى اثينا لحضور المحاكمة وتبرئة نفسه امام الشعب. وكانوا يخشون عصيان الجيش وتمرده في بلاد العدو وهو في الواقع من أسهل الأمور عند (الكيببلاس) لو رغب فيه. فقد هبطت معوية الجنود عند رحيله، وأعتقدوا أن الحرب في المستقبل ستنهج نهجاً متباطئاً متعثراً تحت قيادة سياس. إذا ما سحب الكيببلاس من القيادة لأنه كان بمثابة مهماز لاحتثات القتال. فمع أن لاماخوس كان مثال المعسكري المقدام، إلا أن فقره جرّده من السلطة والاحترام في الجيش.

وكان من أثر رحيل الكيببلاس انه اخرج (ميسيلنا) في ايدي الاثينيين^(٢٧). اذ كان يوجد لطائفة من سكانها رغبة في تسليمها وعندما ارادوا ذلك أبلغ الكيببلاس السيراكوزيين بالأمر وكان يعرف الأشخاص، فأحبط المشروع كله. وعندما بلغ (ثوري) نزل الى الساحل وأخفى نفسه عن أولئك الذين يبحثون عنه. إلا انه كشف عن نفسه لواحد يعرفه فسأله هذا اليس له ثقة ببلاده؟ فأجابه الكيببلاس «أثق بها في أي شيء»، ما خلا الأمور التي تمس حياتي، ففي هذه لا أثق حتى بأمي، اذ ربما زلت يدها فألقت بالكرة السوداء بدلاً عن الكرة البيضاء» ولما سمع فيما بعد ان الجمعية نظقت بحكم الموت عليه، كان كل ما قاله هو هذا «لأجعلنهم يشعرون بأنني حي».

وكان نص لائحة الاتهام التي رفعت ضده كما يأتي: «ثسالوس ابن كيمون، من مدينة لاشيا Lacia: يعرض بلاغ اتهام الكيببلاس ابن كلينياس من مدينة (سكامبونيدا Scambonida) بأرتكاب جرم ضد الرّبة (سيريس) والرّبة (پروسپرين)، بتتمثيل الأسرار المقدمة تمثيلاً هزلياً محقراً، وعرض ذلك على اصحابه في منزله حيث أرندى حلاً لا يلبسها إلا رئيس الكهنة عندما يقوم بعرض الذخائر المقدسة، وأتخذ لنفسه منصب رئيس الكهنة وجعل پوليتيون حاملاً للمشعل وثيودورس من مدينة (فيجيا Phegaea) منادياً. وحيّاً بقية اصحابه باعتبارهم رهباناً ومكرسين مستجدين Myastae، فعل كل ذلك ضد قوانين ودستور (الايومبوليدي Eumolpidae)^(٢٨) ومنادي وكهنة معبد (اليوميس)».

(٢٧) ركب سفينة خاصة به لا سفينة تعود الى [سلاميس ميساناس] وذلك في ايلول في العام ٤١٥ ق. م.
(٢٨) كلمة Mystae تعني أولئك الذين رشحوا او كرسوا لتلقي الأسرار. هؤلاء يجب ان يهقوا سنة واحدة تحت الاختبار وليس لهم خلال هذه المرة أن يتقدموا في أكثر من ممر الهيكل. ولا يسامحون الآ في الأسرار الدنيا. وفي آخر السنة تفتح لهم ابواب المذبح ليشاهدوا الرّبة يكامل بهانها ان يومبولوس وهو مواطن تراقي سكن [إيليوس] كان أول من رتب وأنشأ هذه الأسرار الخاصة بالرّبة [كيريس] ولذلك صار نسله سدة لها. وإذا انقرض النسل فمن يخلقه يجب أن يلقب بلقبه [انظر باوسنياس ٢٨.١]

وحكم أيضاً بتهمة الاستخفاف بالمحكمة لعدم حضوره وصوره كل ممتلكاته وأمر كل الكهنة والكاهنات بلعنه رسمياً إلا أن [ثيانو Theano] بنت [منون Menon] من مدينة [ارغول] عارضت في هذا الجزء من الحكم وعلى ما ذكر - أنها قالت ان واجبها الديسي المقدس يحتم عليها ان تقدم الصلاة والدعاء لا اللعنات والشتائم.

ويادر الكيبيادس وهو مثقل بهذه الأحكام والعقوبات القاسية، الى الفرار من [ثوري] أولاً واتجه الى الهيلويونيسوس مستقراً في [ارغوس] فترة من الزمن. ولما وجد ان لا أمل هناك في العودة الى بلاده والخوف من أعدائه، بحث بطلب من حكام سبارطا الأمان وحق اللجوء السياسي مؤكداً لهم بأنه سيعوض لهم بخدماته المقبلة عن كل الأذى الذي لحقهم منه عندما كان عدواً لهم. فمُنحت سبارطا الأمان المطلوب فأسرع الرجيل البها، وأحسنوا استقباله، وتمكن حال وصوله من اقناعهم بلا حذر أو تردد - بأن يرسلوا مساعدات للسيراقوزيين واشتد في حشهم واثارة حماسهم حتى انهم بحثوا فوراً [غيليبوس Gylippus] (٣٩) الى صقلية لسحق القوات التي يملكها الأثينيون هناك. والنقطة الثانية التي أشار بها، هي تجديد الحرب ضد الأثينيين وقتالهم في عقردارهم. أما النصيحة الثالثة وهي الأهم، فكانت تقضي بتحسينهم [ديكيليا Decelea] وهذا من شأنه ان يستنفد ويقضي على موارد الأثينيين وجمهوريتهم (٤٠).

إن الشهرة التي كسبها من هذه الخدمات العامة تعادل الإعجاب الذي أثارته حياته الخاصة في النفوس. فقد أجتذب وسحر كل الناس بتعوده وتخلقه الاخلاق السبارطية. فالناس الذين رأوه يخلق شعر رأسه ويستحم بالماء البارد ويأكل وجبة طعام بدائية ويتعشى بالشورباء السوداء، يشكون، بله لا يصدقون بأنه كان لديه طاه في بيته. أو أنه عرف حلاقاً أو أنه لبس في حياته عباة من الارجوان المبللزي. وقد لوحظ عنه أنه تميز بتلك العبقرية العجيبة والبصيرة النفاذة التي مكنته من خطب ود الناس، فهو عظيم المقدرة على ترويض نفسه بسرعة، يسهل عليه تبني عادات الناس وطرق عيشهم، وممارستها بلا حرج أو تكلف، ويتلون

(٣٩) لم يضع [ثوكيديدس] اسم هذا الجنرال على لسان الكيبيادس أثناء الخطبة.

(٤٠) هاجن (اغيس) ملك الفقيديمين أتىكا على رأس جيشه والكونثيين وغيرهم من أقوام الهلويونيسي. وبناء على مشورة الكيبيادس احتل [ديكيليا] وحصنها في السنة الرابعة من الاوليات الواحد والتسعين = ربيع العام ٤١٣ ق.م. وتقع على منتصف الطريق بين أثينا وحدود بويوتيا. وبهذا حرم الأثينيون من مناجم الفضة. ومن بدلات ايجار اراضهم. ونجدات جيرانهم. وعرض قطعان مواشيهم للنهب. وامن ملجأ لعبيدهم الأبقين الذين ترك ما يزيد عن عشرين ألفاً منهم أثينا ومعظمهم صنّاع ماهرون وفنيون. لكن النكسة الكبرى وقعت في بداية الحرب وفي صقلية فقد خسروا أهدافهم فضلاً عن سمعتهم وأسطولهم وجيشهم وقواده.

تأسرع مما تملون الحرياء، والقول الشائع ان الحرياء تستطيع أن تتخذ لنفسها اي لون نشاء إلا لوياً واحداً وهو الأبيض، غير ان [الكيبباس] كان قادراً عن تكييف نفسه والانسجام مع أي جماعة يجدد نفسه فيها، أشراراً كانوا أم أخياراً، وبالمهولة نفسها يمكنه أن يتجلبب بثوب العضييلة أو الرذيلة، حسبما يميله الموقف. ففي سبارطا انصرف انصرافاً تاماً الى الرياضة البدنية، وظهر بظهر المتحفظ المقتصد. وفي آيونيا كشف عن نفس مرحلة خالية البال مترفة خلود الى الكسل والخمول. وفي تراقيا لم يكن يصحو من سكر أو يغادر مجلس شراب، وهي تساليا تراه وكأنه سمر على صهوات الخيل. وعندما قذف به العيش الى كنف [طيسافرنس Tisaphernes] نائب الملك Satrep الفارسي، ظهر على جميع الفرس وبزهم في معالم الأبهة والفخفة. وما ذلك لأن مزاجه الطبيعي سهل التغيير ولا لأن أخلاقه الحقيقية ذات جوانب متعددة، بل لأنه وهب قابلية فذة في أن يلبس لكل حالة لبوسها، وأن يتخذ الهيئة المناسبة كلما أحس بأن ممارسة ما تعودده ودرج عليه قد يكون مصدر ضيق وإزعاج لعشيرته أو جلسيه فقد أبى إلا أن يحرص على حسن المعشر عند من يخاطبهم... وان رآه. أخذ في لقيديوم وحكم عليه بظهره الخارجي لما وسعه إلا بالتمثل بمأثور القول: «ليس هذا ابن (أخيل)، بل أخيل نفسه» الذي اجتهد (ليكورغوس) في تكوينه أما ميوله وتصرفاته الحقيقية الأصلية فقد كانت تشير مثل هذه التناقضات «أظلت المرأة نفسها أم بدلت؟»^(٤١) فقد أغوى الكيبباس [تيسما Timaea] زوج (أغيس) الملك اثناء غيابه مع الجيش في الخارج فحبلت منه، ولم تحاول نكران ذلك. ولما وضعت حملها وكان ذكراً سمته رسمياً [ليوتخيدس Leotychides] إلا انها كانت تسر لصديقاتها وخدمها همساً بأن اسمه (الكيبباس)، الى هذا الحد بلغ بها العشق. أما هو فيقول بلهجة اللامبالي «لم أقدم على ذلك لمجرد الاستمتاع بالإهانة، ولا اشباعاً لعاطفة، بل قدرت أن يكون قومه ملوكاً على اللقيديونيين يوماً ما».

وانهى كثير من الناس الى (أغيس) بالقصة، إلا أن صروف الزمان كانت أقوى مؤيد لها. فقد قلقت نفس (أغيس) من هزة ارضية، فابتعد عن زوجه (تيسما) ولما يطأها طوال عشر أشهر، وبما أن وضع (ليوتخيدس) حصل بعد هذه الفترة مباشرة فانه لم يعترف بالبنوة، ولهذا لم يورثه العرش.

على أثر الهزعة التي حلت بآثينا في صقلية بعثت (خيوس) و(ليسبوس) و(سيزيكوس Cyzicus) سفراء الى سبارطا لينهوا اليها بعزمهم على شق عصا الطاعة على آثينا.

(٤١) هذا البيت اشده (الكثرا) عن لسان (هيلين) في (اورستس) وهي تغليظة ليوربيدس. بعد أن أكتشف بها وقد تقدمت بها السن نفس الملامة والاعتزاز بجمالها.

وتوسط [البويرتيون] لأهل [اليسبوس] وتدخل [فارنابازوس Pharnabazus] لصالح أهل [سزيكوس]. لكنهم فضلوا أولاً مساعدة [خيوس] قبل غيرها بسعى الكيببidas.

وركب هو نفسه متن البحر وطاف أرجاء أيونيا ونشر الثورة فيها بصورة مفاجئة وألحق بالأتينيين اهدح الحسائر والأضرار بالتعاون مع قادة للقيديمونيا. إلا أن [أغيس] ظلّ بلا حقه بالعناء بسبب ما لما فعل بزوجه، ويدافع الحسد منه للمجد الذي ناله؛ ولم يكن وحده في هذا الحسد، بل جراه فيه أعيان سبارطا وعظماؤها، إذ كانت تعزى الى مقدرته كلّ مآثرة أو موقعة ناجحة، وبالأخير حملوا حكام المدينة على إرسال الأوامر الى أيونيا، لقتله، ولكنه أبلغ مقدماً وبالسراً فخشي النتائج، إلا أنه ظلّ يتعاون تعاوناً وثيقاً مع اللقيديمونيين مع أخذه الحذر بالأبقاء تحت رحمتهم. وبالأخير يَم شطر [طيسافيرنس] نائب ملك الفرس، ومالئث أن عدّ أقرب المقربين اليه وأوسعهم نفوذاً. فهذا البربري الذي لم يكن قطّ طيب القلب والنوايا بل أخطأ مكر وشراً، أعجب بمجلس الكيببidas، ودهاته العجيب. والحق يقال إن جاذبية حديثه وعشرته اليومية لم تقو على مقاومتها أي طبيعة بشرية. ولا يتخلص من أسرها أمره، ولا يستثنى من ذلك أولئك الذين خافوه وحسدوه فهو لا أيضاً كانوا يضرون له نوعاً من العطف ويستأنسون بمجلسه ويرتاحون الى صحبته لذلك انجذب [طيسافيرنس] علق الكيببidas ومداهنته وهو اللفظ بطبعه، وعدو الأغريق الأول - واندفع الى منافسة صاحبه في التواؤم والأكرام بما لا مزيد عليه حتى أنه أمر باطلاق اسم «الكيببidas» على أجمل بساينه التي كانت تحتوي على مجاري ماء صحبة، ومماشي وأرصعة وخنائل وجواسق للاستراحة، وتوفر على تجهيلها باروع الزخارف وافخمها. وبقيت تعرف باسمه ويشار اليها كذلك.

هكذا عاف الكيببidas خدمة مصالح السبارطيين بعد أن فقد ثقته فيهم ولخوفه غدر [أغيس]، وطفق ينسج الخطط للابقاع بهم. وراح يقبضهم في عين [طيسافيرنس] ويخصه على قطع سيل المساعدات عنهم وقصرها على القليل. ويشنيه عن تشجيعه لهم على تدمير آئينا التام. وإن يزودهم بالقليل القليل من المال، لإتعايبهم وأضعافهم تدريجاً دون أن يشعروا، فإذا استنزف الجانبان قواهما بحرب سجال طويلة الأمد، كانا على أتم الاستعداد للخضوع معاً لملك الفرس. فاستحسن [طيسافيرنس] مشورته وطبقها حالاً وأخذ يلهج به ويعلن عن أعجابه الشديد به. وأخذ سائر الأغريق ينظرون نظرة أمل ورجاء في السيببidas، والآثسيون المحتنون في بلوهم، خالطهم الندم أيضاً على العقوبة القاسية التي فرضوها عليه. كما أنه كان شديد القلق والخوف من وقوعه في يد اللقيديمونيين أعدائه لو قدر لهم القضاء على جمهورية آئينا قضاء تاماً.

في ذلك الحين كانت آثينا قد حشدت كل قواتها في [ساموس] (*) وعصأت أسطولها هناك وجعلتها نقطة انطلاق لاختضاع من شق عصا الطاعة عليهم من الحليفات، والحماية ما تبقى من ممتلكاتهم. وحاولوا مختلف الوسائل الصمود لاعدائهم في البحر. وكان أخوف ما يحافونه [طيسافيرنس] والأسطول الفينيقي ببوارجه المائة والخمسين الذي قيل انه أطلق في عرض البحر. فلو وصل هذا الاسطول، لرجحت كفة الأعداء وفقدت الجمهورية كل أمل.

أدرك الكيبيادس هذا كله، فبادر في الحال الى الاتصال سراً بزعماء قومه وكانوا في [ساموس] ونفع فيهم روح الأمل بقوله انه سيسعى الى جعل [طيسافيرنس] صديقاً لهم؛ وانه لا يقدم على هذا العمل الطيب حباً في اوزاع الشعب ودهماتهم، ولا كسباً لهم وتوخياً للاعتماد عليهم، بل لأجل فضلاء المواطنين وأخبارهم إن هم أقدموا على محاولة القضاء على عتو الدهماء، كرجال شجعان. وتسلم أزمة الحكم، والعمل على انقاذ المدينة من الفوضى. فحبذ الجميع اقتراح الكيبيادس، ولم يعارض إلا القائد [فرنيخوس Phrynichus] [الديراديسي Dirades] فقد أبدى شكه -وله الحق في ذلك- بان الكيبيادس لا يهتم سواء أظلت الحكومة بيد الشعب أو انتقلت الى طبقة المواطنين العليا، وهو الآن ينشد بكل وسيلة، التوطئة لعودته الى أرض الوطن، فراح يحرض على الشعب وبزلب ليكسب الآخرين الى صفه، ولأجل أن يأسر عقولهم ويقع عندهم موقفاً حسناً». ولكنه كان كمن يضرب على حديد بارد. وادرك أنه جاهر بعداوة لالكيبيادس لارجوع له عنها. فخابر في السرّ [أستيوخوس Astyochus] قائد اسطول العدو محذراً اياه من السكيبيادس، ومشيراً أن يقبض عليه بتهمة الغش والخيانة. ولم يكن يدري إنه خائن يتعامل مع خائن آخر!

فاستيوخوس كان متلهفاً لنيل الخطوة عند [طيسافيرنس] عن طريق السكيبيادس، فبادر الى نقل كل ما ورده من [فرنيخوس] الى الكيبيادس. فأسرع الى ارسال رسل الى [ساموس] ليفضح خيانة [فرنيخوس]. فبلغ حلق القادة على زميلهم مبلغاً عظيماً وتكالبوا عليه بويخونه ويهاجمونه. ولم يجد سبيلاً لانقاذ نفسه من المأزق، وكان الخطر يطبق عليه. فحاول اصلاح الشرّ بشرّ أعظم وبعث برسالة أخرى الى [استيوخوس] يعاتبه فيها على غيخته والفضيحة التي سبها له. وقدم له في الوقت نفسه عرضاً جديداً، يتم بمقتضاه تسليم كل قطع الاسطول الآثيني مع جيشهم اليه. ولم يصب الآثينيون بضرب جسراً ذلك، اذ عاد [استيوخوس] ينقل الاقتراح لالكيبيادس. وكان [فرنيخوس] يتوقع ذلك منه وينظر تهمة جديدة يبعث بها الكيبيادس الى بني قومه، فلأجل أن يردّ الكيد عنه ويقلل من أهمية نبأ

(*) في شتاء ٤١٢-٤١١ ق.م.

الكيبیادس، أندرو وأشار بتحسين المعسكرات والتأهب لركوب السفن. وفيما كان الآثينيون مهتمين في استعدادهم، وصلتهم رسائل أخرى من السيبیادس فيها تحذير لهم من [فرينخوس] لأنه يريد تسليم اسطولهم الى الأعداء. فلم يهتموا بالخبر هذه المرة، وقدروا أن السيبیادس الذي كان على بينة تامة من خطط العدو واستعداده، يبقى من تلك المعلومات مجرد الفائدة الشخصية، ليحسن في عينهم ويدخل في آذانهم صحة التهمة التي عزاها الى [فرينخوس] (*).

لكن عندما هجم [هرمون Hermon] على [فرينخوس] في ساحة السوق وقضى عليه بطعنة خنجر، بوشر بالتحقيق عن اسباب القتل، وكانت النتيجة اذانة القتل رسمياً بالخيانة، ومكافأة القاتل بصفير أكاليل الغار على رأسه ورؤوس شركائه، عمد اصدقاء [الكيبیادس] المقيمون في أثينا الى شرح المسألة للزعماء الآثينيين في [ساموس] فيبادر هؤلاء الى ارسال [پيساندر Pisander] ليقوم بمحاولة قلب نظام الحكم في العاصمة وليبث الشجاعة في نفوس المواطنين الارستقراطيين، حتى يأخذوا مقاليد الحكم بأيديهم، ويزيلوا النظام الديمقراطي، وان يضع أمامهم اقتراح [السكيبیادس] بالسعي لكسب صداقة [طيسافيرنس] ومخالفته، عند وقوع هذا التغير.

هذا هو اللون الذي تلون به، والزعم الذي روج له، أولئك الذين تأمروا على الاطاحة بالنظام الديمقراطي في أثينا واقامة حكومة الاوليفارشية في مكانه، ما أن نجحوا في مسعاهم وسيطروا على الحكم تحت اسم «حكومة الآلاف الخمسة» (في حين لم يكونوا غير اربعمائة) (٤٢). حتى نبذوا السكيبیادس وأهملوا أمره. وراحوا يتقاعسون في ادارة دفة الحرب لأنهم من جهة كانوا يوجسون خيفة من الشعب الناقم على هذه الردة والكاره لها ولأنهم من جهة أخرى كانوا يأملون من اللقيديمونيين شروط صلح مناسبة. لأن هؤلاء كانوا دوماً على وئام مع حكومات القلة.

وأرغم أهل المدينة على الخضوع لأساليب القمع والاضطهاد، وأعدم المستبدون عدداً كبيراً

(*) في صيف ٤١١ ق.م بعد أن عزل فرينخوس من قيادته في ساموس وأظهر نفسه مسانداً متحمساً للثوريين الاربعائة في أثينا.

(٤٢) اقترح أولاً أن لا يخسر السلطة الآل الطبقة السفلى من عامة الشعب وان توضع بيد خمسة آلاف من أعيى المواطنين ومقدميهم لكن عندما اكتشف [پيساندر] وزملاؤه قوة حزبهم اقترحوا اصدار قرار بالغاء نظام الحكم الحالي وأن ينتخب خمسة من ال[پريتاني] وان لهؤلاء الخمسة الحق في انتخاب مائة. ولكل واحدة من المائة أن ينتخب ثلاثة وان هؤلاء الاربعائة المنتخبين يكونون مجلس شيوع تستقر فيه السلطة العليا ويقوم المجلس باستشارة الخمسة آلاف كلما وجبوا حاجة لذلك. هذا وقد نجح المؤتمرون في سن هذا القرار [توكيديس ٦٧.٨ و٦٨].

من تحراً على نقد ومعارضة «حكم الاربعمئة» علناً. ولما وردت هذه الانباء الى [ساموس] ثار الغضب بهم وتملكتهم رغبة الابحار فوراً الى [بيريوس]. ويعثوا يطلبون من [الكيبادس] الحضور، وانتخبه جنراً، وامروه ان يقودهم للقضاء على المستبدين. فكان رد الفعل عنده خلافاً لما يتوقع اي امرء من رجل رفعه تقدير الجمهور على حين غرة الى مركز القيادة لم يجد السكيبادس نفسه مرتبطاً بأي عهد يقضى عليه بتنفيذ مطالب أولئك الذين خلقوا من لاجي، مطرود جبراً لئلا لهذا الجيش العظيم وقائداً لهذا الاسطول الضخم، ولا مجبراً على الخضوع لمشيئتهم وبادر بحكم منصب القيادة الذي تسلمه الى معارضة تلك القرارات الهوجاء التي ساقهم اليها غيظهم الفجائي. وسعى لمنعهم من اقتراف الخطأ الجسيم الذي هموا بالاقدام عليه وأنقذ بذلك الجمهورية من الفناء بحق وحقيق. فلو انهم ابحروا الى اثينا، لتركوا كل آيونيا والجزر وهللеспونت تقع غنيمة باردة في أيدي العدو دون اي مقاومة. في حين لا يكون للآثينيين المنشغلين في حربهم الأهلية إلا قتال بعضهم بعضاً داخل أسوارهم. كان السيباديس هو العامل الوحيد أو العامل الرئيس الذي حال دون الكارثة، ولم يقتصر على استخدام وسائل الأنواع مع قادة الجيش، بل نزل الى الجنود بنفسه وانصل بهم فرداً فرداً يرجو بعضهم ويضغط على بعضهم الآخر، وأبدى [تراسيبولوس (Thrasylbulus) الاستريائي Stiria (*)] صاحب أعلى صوت بين كل الآثينيين، همة قعساء في هذا الصدد على ما قيل لنا. فقد ظل ملازماً لالسكيبادس في جولاته لينادي أولئك الذي استعدوا للإبحار ويطلب منهم العودة.

وأدّى السكيبادس خدمة جليلة أخرى. هي مساهم لايقاف الاسطول الفينيقي الذي كان اللقيدميونيون يتوقعون ان يبعث به ملك الفرس لمساعدتهم، او لانحيازه الى جانب الآثينيين إن جاء. وبادر الى الأبحار على جناح السرعة لتحقيق ذلك. تقدمت العمارة البحرية حتى شوهدت بالقرب من [أسپندوس Aspendus] ^(٤٣). إلا ان [طيسافيرنس] منع تقدمها الى ابعد من هذا نكاية باللقيدميونيين إلا ان الفريقين اعتقدا انها لم تحرف عن قصده إلا بجهود السكيبادس ومساعدته. وانهم اللقيدميونيون خاصة، بأنه نصح البرابرة بالوقوف على الحياد وترك الأغريق يدمر بعضهم بعضاً، اذ كان واضحاً ان وصول مثل هذه القوة العظيمة الى أي فريق، سيرجح كفته على الآخر ويمكّنه من الاستيلاء عن كل ممتلكات الآخر البحرية.

لم تمر فترة وجيزة، إلا وتم طرد «الاربعمئة» ^(٤٤) المستبدين من دست الحكم وراح اعوان

(*) يجب ان يميز هذا الجنرال الشهير عن ثراسيبولوس ثراسو (في الفقرة ٣٦).

(٤٣) مدينه ساحلية في [يامفيلية] بين رويس وقبرص.

(٤٤) اعتصموا السلطة في حزيران ٤١١ ق.م. وتم القضاء عليهم في ايلول من تلك السنة. وهي السنة الثانية من الاولمبياد الثاني والتسعين، ولنذكر القاري، بوجوب التفريق بين هذا المجلس وبين مجلس الشيوخ =

الكيببidas يدعمون بكل قواهم العناصر التي كانت تعمل على إعادة الحكم الديمقراطي. الجماهير الشعبية لم تكتف الآن بمجرد الرغبة في عودة الكيببidas إلى الوطن، بل أصدرت، مرأً له بذلك. إلا أنه لم يشأ أن يكون مديناً بمنة للشعب ولا أن يكون موضع اشدقه. وحلف أن لا يبطأ أرض الوطن خالي الوفاض، بل مثقلاً بمجدٍ أو خدمة للبلاد. ولذلك ابحر من ساموس بعدد قليل من السفن ومخر عباب بحر [كنيدوس Cnidos] وحوّ حول جزيرة [كوس Cos]. ولما بلغه أن [مينداروس Mindarus] قائد الاسطول السبارطي قد خرج بكلّ عمارته إلى [هلسبونتا] وأن الأثينيين يجرون في أعقابيه، لوى عنانه وأسرع يلحق بالقواد الأثينيين. وشاء حسن الحظ أن يكون وصوله في اخرج ساعة بسفنه الثماني عشرة. فقد اشتبك الاسطولان قرب [ابيدوس Abydos] في معركة ضارية وأستمر القتال حتى الليل. سجالاً ولم يستظهر فريق على آخر استظهاراً بيناً. وكان رجحان الكفة موضعياً. هذا متغلب هنا وذاك مستظهر هناك والعكس بالعكس. وخلف ظهور سفنه في نفوس الفريقين اعتقادين خاطئين إذ ارتفعت معنويات العدو. وأدرك الأثينيين الفزع، إلا أنه رفع العلم الأثيني على صاري سفينة القيادة. وحمل حملة صادقة على سفن الهلويونيسوس التي كانت بيدها المبادأة وهي تطارد سفن الأثينيين. فهزمها ومزقها وأخذ يطاردها من مسافة قريبة حتى أرغمها على الجنوح إلى الساحل فتحطمت عليه، فتركها بحارتها وسبحوا إلى البر. رغم وجود [فارنايازوس] الذي خفّ إلى معونتهم برآ، وعمل ما أمكنه لحمايتهم من جهة الساحل. وبالاختصار، غنم الأثينيون من الاعداء ثلاثين سفينة وأستعادوا كل سفنهم الأسيرة. وأقاموا نصباً تذكاريّاً لانتصارهم.

بعد أن ظفر الكيببidas بهذا النصر الكبير، أبى عليه زهو وخيلازه إلا أن يُشهد [طيسافيرنس] على حاله الجديدة، فتزود بالهدايا والجوائز، وأعتدّ بكل ما يتفق ومنزله وأنطلق لزيارته. إلا أن النجاح لم يحالفه في هذا كما تصور [طيسافيرنس] كان منذ زمن بعيد موضع رغبة اللقيديميونيين، وفيه خوف من سخط الملك لهذا السبب وجد في زيارة الكيببidas فرصة نادرة فقبض عليه وأرسله سجيناً إلى [سارديس] متوهماً بأن عمله الشائن هذا سيرفعه في عين الملك ويكون له صك براءة من أي أيام سابق.

ولكن لم يمض شهرٌ واحدٌ على أعتقاله حتى أفلح في الهروب، ويجواد حصل عليه تمكن من الوصول إلى [كلاروميني Glazomenae]، وهناك ألبس أسره [طيسافيرنس] ثوب عارٍ حديد باعلاته أنه كان مسهماً في خطة قراره. ومن هناك رحل إلى معسكر الجيش الأثيني (*)

= الذي ابتدعه صولون ويتكون من عدد مساوٍ.

(*) في مند، ربيع ٤١٠ ق.م. كان الأثينيون في كارديا وهي مدينة بالخرسونيز الشرقية.

حيث علم أن القاندين [منداروس] و[فارنا بازوس] موجودان معاً في [سيزيكوس]، فقام بين الحود خطيئاً. وما قاله «إن القتال برأ والقتال بحراً - ولعمر الآلهة - القتال صد المدن المحصنة، بحث أن يكون قتالاً واحداً غير مجزأ بالنسبة إليهم. وإن لم يحققوا بصرأ كاملاً في كل مكان فلي يوجد مال لهم». ثم أمر بركوب السفن واتجه مسرعاً الى [پروكوبيسوس Pro-connesus]، وأصدر أمره باحتجاز كل ما يعترض الاسطول من المراكب والسفن الصغيرة وايداعها في الوسط لئلا يسبق العدو علم بقدومه، وزاد في سره كتماناً هبوب عاصفة مطرية عظيمة صاحبها رعد وظلام داجن. والحق يقال أن العدو لم يكن الوحيد في جهله، لأن الآثينيين أنفسهم ما كانوا يعرفون وجهة سيرهم فالأمر كان فجائياً غامضاً قاصراً على ركوب السفن واطلاقها في عرض البحر، دون وجود نية مسبقة. وبعد ان انجباب الظلام شوهد الأسطول الپلويونيسي جائماً على مقربة من ميناء [سيزيكوس] يختال فوق سطح الماء، وخشي الكيبباس أن يكتشفوا قوته الحقيقية فيصيبهم الذعر ويحاولون النجاة بالهروب برأ، أمر بقية ضباط السفن ان يخففوا السرعة ويلحقوا به عن كسب. بينما تقدم هو بأربعين بارجة وأظهر نفسه للعدو وأستفزهزهم للمعركة، فانخدع العدو بضآلة عدد السفن واستهانوا بها وبأدأه القتال وكل اعتقادهم أن عدوهم لا يملك هذه القوة. ولكن ما أن حسي الوطيس حتى لاحت طلائع القسم الأكبر من الأسطول واطبقت عليهم فأدركهم الذعر ونزلوا البرأ لآذنين بالفرار، إلا ان الكيبباس أخترق القلب، بعشرين من أفضل سفنه وأسرع الى الساحل وأنزل جنوده وشرع في مطاردة العدو الذي ترك سفنه وهرب برأ، ففتك بعدد كبير منهم، وخف [فارنا بازوس] و[منداروس] لمعونتهم ولكنهما هزما شر هزيمة وقتل [منداروس] بعد ان أبلى خير بلاء وفر [فارنا بازوس] ناجياً بجلده وغنم الآثينيون عدداً كبيراً من قتلى العدو (٤٥) وأسلاًباً كثيرة وأسروا سفنهم وأحتلوا [سيزيكوس] التي جلا عنها [فارنا بازوس] وابدأوا حاميتها الپلويونيسيّة. وبذلك لم يكن كسبهم قاصراً على [هلسپونت] وأما طردوا اللقيديونيين بالقوة من كل البحار الأخرى. وضبطوا عدداً من الرسائل كانت في طريقها الى حكام سپارط، جاء فيها شرح للهزيمة الساحقة بالأسلوب السيارطي الموجز المقتضب «أمالنا قضي عليها. [منداروس] قتل. الرجال يشكون الجوع. لآندري ما نفعل...».

وبلغ الزهو والعرور بالجنود الذين حاربوا تحت أمرة الكيبباس في القتال الأخير حدأ عظيماً، وثللوا بخمرة النصر حتى أنهم راحوا ينظرون الى أنفسهم نظرة صناديد لا يشق لهم

(٤٥) ليس هذا التعبير غريباً. فلجئت القتل حرمتها الكبيرة وهي تفقدى كذلك. وما علينا الآ التذكر بان الآثيين فرصوا بقوة الموت على قوادهم المنتصرين في معركة [أرغيتس] لإهمالهم دفن القتلى.

عسر ولا ينف دونهم شيء. وترفعوا عن مخالطة الجنود الآخرين الذي عابوا عدداً من الهرايم. اذ حدث قبل فترة غير طويلة(*) ان (ثراسيللوس Thrasyllus) أصيب بهزيمة قرب [أفسس] وان الأفسسوسيين أقاموا نصباً تذكاريّاً من النحاس ازدراءً بالأتينيين^(٤٦). فراح جنود الكيببىادس يعيرون الجنود الذين كانوا تحت أمرة (ثراسيللوس) بهذه النكسة معظمين أنفسهم وقائدهم في الوقت نفسه كما انهم رفضوا القيام بالتدريب العسكري معهم أو مساكنتهم معسكراً واحداً. ولكن لم يمرّ طويل زمن إلا وهاجم فارنا بازوس بقوات عظيمة من المشاة والخيالة - وحدات تراسيللوس التي كانت منصرفة الى السلب والهبب في ارض [ابيدوس]. فخفف الكيببىادس اليه وتعاونوا على هزيمة (فارنا بازوس) وجنّدا في أثره حتى جن الليل. هذه الحادثة ألقت بين القلوب وعاد الجميع الى المعسكرات جذلين بهنيء بعضهم بعضاً. وفي اليوم التالي أقام الكيببىادس نصباً تذكاريّاً، وأنطلق لاجتياح كل الاقاليم الذي يسيطر عليها [فارنا بازوس] مستخدماً السيف والنار فلم يقف في سبيله أحد. وأسر عدداً كبيراً من طبقة الكهنة والكاهنات، إلا أنه أطلقهم بدون فدية. ثم استعدّ لهاجمة الخلقيدونيين^(٤٧) الذين كانوا قد شقوا عصا الطاعة على أثينا، وقبلوا بحاكم وحامية من لقيديمونيا. لكنه استخبر بأنهم نقلوا غلالهم وماشيتهم من حقولهم وادعوها اصدقائهم البيشيين، فوجه حملته نحو تخوم هؤلاء، وبعث رسولاً يتهمهم بهذا العمل. وكان ذعرهم من زحفه عظيم الواقع اذ مال بشوا أن سلّموا له الغنائم ودخلوا معه في حلف.

فانشى الى (خلقيدون) والقي عليها الحصار وأحاطها بسورٍ من البحر الى البحر(*) لعزلها تماماً، فزحف (فارنا بازوس) عليه بقواته لفتك الحصار، وحشد هيبوقريطس حاكم المدينة كل قواته وحمل على الأتينييين في عين الوقت، فقسم الكيببىادس قواته الى قسمين لمقابلة العدوين في آن واحد، وأرغم (فارنا بازوس) على فرار مخجل، وكرّ على هيبوقريطس وهزمه وقتله مع عدد من جنوده. وبعدها أبحر الى (هلسبونت) للتزود بالمال، فأستولى على مدينة (سيلمبريا Selymbria)^(٤٨). وهنا تعرض الى خطر جسيم بسبب تهوره وقلة حذره. فقد تعهد بعض السكان أن يسلموا له المدينة بلا حرب وكان الاتفاق يقضى أن يعطيه المؤقرون الإشارة بالدخول

(*) في صيف ٤١٠ ق.م بمعنصر كيزكوس.

(٤٦) كانت الانصاب في ياديء الأمر تقام من الخشب وتبقى حتى يعفو عنها الزمن ويمسح العداء بين الشعوب مسحاً. إلا ان الأفسسوسيين أقاموا النصب من النحاس تخليداً لفكرى اعمار لاثيني ولهذا راح جنود (الكيببىادس) يسخرون من جنود (ثراسيللوس).

(٤٧) مدينة على الپوسفور الأيمن وأنت نتجة الى البحر الأسود.

(*) في ربيع ٤٠٩ ق.م.

(٤٨) مدينة في تراقيا على ساحل (پروپونتس). كزينفون يسميها سيامبرايا.

من مشعل مضاء، يرفع فوق السور بعد منتصف الليل لكن أحد المتآمرين حالجه الندم عن الحيلة، فخشى الآخرون أن يفتضح أمرهم، وأكروهوا على إعطاء الإشارة قبل الموعد المتفق عليه وما أن لح الكيببidas المشعل مرتفعاً في الهواء، حتى هرع إلى الأسوار، ولم يكن جيشه متأهباً بعد، ولذلك كان في رفقته ثلاثون رجلاً تقريباً. بعد أن أمر أن يلحق به الجيش بأسرع ما يمكن، وبلغ السور ليجد الباب مفتوحاً له، فوجه مع رجاله الثلاثين وعشرين آخرين من ذوي السلاح الخفيف لحقوا به في آخر لحظة. وما أن صارت الشرذمة داخل المدينة حتى جوبهوا بأهاليها يحملون عليهم شاكبي السلاح. فبهت وتحير في أمره. إذا بقي وقرر الاشتباك معهم ضاع منه سبيل نجاته. أما النكوص فصعب عليه، إذ أنه لم يعرف هزيمة، ولم يفر في معركة. ولهذا طلب السكوت بصوت النفير. ثم أنه أمر أحد رجاله أن يعلن قائلاً: «عشاً ترفعون أيها السلميريون السلاح في وجه الأثينيين، هذه العبارة خففت من غلواء الفريق التائق للقتال إذ توهموا أن كل جيش العدو قد صار ضمن أسوار المدينة. ورفعت معنويات الآخرين الذين اختاروا التفاهم على تسوية. وفيما هم يتبادلون الحديث ويتداولون الاقتراحات دخل كل جيش الكيببidas المدينة. والآن وبعد تخمينه الصحيح بأن السلميريين جانحون إلى السلم حقاً، ولخوفه أن يعمد الثراقيون من جيشه إلى نهب المدينة (وكانوا قد أنضموا إلى جيشه بأعداد كبيرة إكراماً له) أمرهم بالانسحاب خارج الأسوار كافة. ولتقديم المدينة الطاعة عفاها من النهب وفرض عليها غرامة مالية فحسب، ثم انسحب منها بعد أن وضع فيها حامية أثينية.

وفي أثناء هذه الوقائع توصل القادة الأثينيون الذين يحاصرون حلقيدوناً إلى عقد معاهدة صلح مع [فارنا بازوس] على الشروط التالية:

أن يدفع لهم مبلغاً معيناً من المال وأن يعود الحلقيدونيون إلى حسي جمهورية أثينا. وأن لا يقوم الأثينيون بغارات على الأقليم الذي يحكمه [فارنا بازوس] وأن يسمح [فارنا بازوس] بمرور سفراء أثينا في طريقهم إلى ملك الفرس.

ثم لما عاد الكيببidas طلب [فارنا بازوس] أن يصادق هو أيضاً على المعاهدة ويحلف يميناً على التمسك بها. فرفض الكيببidas أن يفعل ذلك إلا بعد أن يحلف [فارنا بازوس]. وعندما تمت المراسيم على هذا النحو، ساق الكيببidas حملة على البيزنطيين الذين كانوا قد شقوا على أثينا عصا الطاعة، وأقام أطاماً حول المدينة(*).

إلا أن [انكسلاوس Anxilaus] و[ليكورغوس] وآخرين عرضوا تسليم المدينة غيلةً أدا تعهد الكيببidas بحفظ أرواح السكان وأموالهم، فنشروا إشاعة عن وجود حركة غير متوقعة

(*) أثناء شتاء ٤٠٩-٤٠٨ ق.م.

في أيوبيا اضطرتة على رفع الحصار والانسحاب. وفي اليوم عينه أظهر علامتهم الرحيل والإقلاع بجميع الاسطول، إلا أنه عاد ليلاً وانزل إلى الساحل كل جنوده وزحف نحو الأسوار بسكون وخفة وفي الوقت عينه أدخل سفنه إلى الميناء مفتعلاً أقصى ما يمكن من الحركة والضجيج والصياح والعنف.

فاعتبرت البيزنطيون الدهشة وفوجئوا من حيث لا يتوقعون وفيما هم يسرعون للدفاع عن مينائهم وسفنهم، سنحت الفرصة لأنصار الآثينيين بادخال الكيببىداس إلى المدينة بكل أمان. ومع ذلك لم تنته المسألة بدون قتال، فقد تصدى الهلويوننسسيون والبيروتيون والهيراريون، الجنود الخارجين من السفن وأرغموهم على ركوبها ثانية، ولما سمعوا أن الآثينيين دخلوا من الجانب الآخر، نظموا صفوفهم وأندفعوا إليهم، على أن الكيببىداس تمكن من النصر بعد قتال ضار، وكان يقود بنفسه المينة و[ثيرامينيس Theramenes] يقود الميسرة. وأحد ثلاثمائة أسير تقريباً، وهم كل ما تبقى من قوات العدو. وبعد انتهاء المعركة لم يقتل بيزنطي واحد أو يطرد خارج المدينة تطبيقاً للشروط المتفق عليها لتسليم المدينة وهيبالاً يضار أحد من سكانها لا بنفسه ولا بماله. ووقف [انكسيلاوس] فيما بعد في لقيديون متهماً بهذه الخيانة فلم يستنكر عمله. ولم يعترف بخطأه. وكانت حجته انه ليس لقيديونياً بل بيزنطياً وإن الخصم لم يكن مُحققاً بإسقاط بل ببيزنطة. فقد أحكم الحصار حول المدينة واستحال نقل الارزاق إليها. وكان رجال حامية الهلويوننسسيين والبيروتيين يلتهمون كل ما هو مختزن في حين يتضور البيزنطيون جوعاً مع زوجاتهم وأطفالهم. ولذلك فانه لم يخن بلاده ويسلمها للعدو وإنما انقذها من فواجع الحرب، متأثراً بذلك خطي معظم مشاهير رجال لقيديونيا الذين لا يرون أكثر شرفاً وكرامة من تحقيق كل ما هو نافع لبلادهم. فأحترم اللقيديميونيين دفاعه هذا ويرأوا كل المتهمين.

وهز الشوق الكيببىداس إلى موطنه أو بالأحرى تاق إلى ان يعرض على بني قومه شخصاً ظفر لهم بانتصارات عديدة. فأبحر إلى اثينا (*) وزينت السفن التي رافقته بالعديد من التروس وغيرها من غنائم الحرب وسحبت خلفها كثيراً من البوراج التي أستمولى عليها. مع شعارات وزينات الكثير الآخر الذي أغرق وحطم، وبلغ مجموعها الكلي مائتين ولا يُعتد كثيراً بما أورده [دوريس Duris] الساموسي الذي يدعي نسباً بالكيببىداس - من القول أن [خريسوعونوس Chrysogonus] أحد الفاتزين في الالاب [البيششية] كان ينظم حركة مجاذيف السفن بانغام نايه فتتحرك بانسجام الايقاعات الموسيقية، وأن [كالبيديس Callip-

(*) من ساموس في ربيع ٤٠٨ ق.م.

ipides الممثل التراجيديّ كان يلقي الكلام الى النوتية وهو مرتد جزمته وطيلسانه الأرجواس وماليها من حلله وحليّه السركسيّة. وان سفينة القيادة رفعت شراعاً ارحوايياً عند دخولها المياه. كل هذه الوقائع لم يرد ذكرها عند [ثيويومپوس أو ايقوروس أو كزيمون] والحقيقة هي أنه لا يُعقل البتة أن يعود المرء الى موطنه وقومه من نفي طويل الأمد تخلله كثير من المصائب والنوائب مثلما يعود نشوان طروب من مجلس لهو وشراب. وأمّا الواقع وكان بعكس هذا اذ دخل الكيبباس الميناء متوجساً خيفة مرتعد الفرائض. ولم يجرؤ على النزول الي اليابسة حتى شاهد ابن عمّ له يدعي [يورپطموس Euryptemus] مع آخرين من أصدقائه ومعارفه. وهم وقوف على الرصيف متلهفون لاستقباله ودعوته للنزول. وما أن وطئت البرّ قدمه حتى اندفعت اليه الجماهير مستقبلةً وكأنها لا ترى أحداً من القواد الآخرين غيره. وتزاحمت عليه وتكأكأت وحيته بهتافات شقت عنان السماء وراحت تتبعه خطوة خطوة. وأخذ القريبون منه يضفرون الأكاليل على رأسه. أما الذين لم يصلوا اليه فتنعروا بالوقوف بعيداً ومتابعته بانظارهم. وكان كبار السنّ والعجزة يدكون الصغار عليه بالاشارة اليه. إلا أن الفرحه الشعبية ما زجها شيء من الدموع، والسعادة الحاضرة شابتها ذكرى مؤلمة للمصائب التي عانوها. وعاد بهم الفكر الى الماضي وتبينوا أنهم ما كانوا ليصابوا بنكسة صقلية، ولا ليهزموا في اي موقعة حربية لو تركوا تصريف الأمور وقيادة الجيوش لالكيبباس، لما تسلّم مقاليد الأمور قبلها كان حالهم سيئاً فقد قُضي على نفوذهم في البحر أو كاد. وعجزوا عن حماية ضواحي مدينتهم من البرّ، كما كان التناحر الحزبي قد مزقهم وبلغ بهم ضعفاً مشيناً من اليؤس. وسرعان ما انتشلهم من هذنتهم، وأنقذهم من حالتهم المزرية ولم يكفه أن يستعيد لهم سلطانهم الدائر على البحر بل قلب هزائمهم الى انتصارات في كل برّ.

سبق للشعب ان أصدر مرسومأ بعودة الكيبباس من المنفى. بناءً على اقتراح [كريتاس Critias]^(٤٩) ابن [كاليسخروس Callaeschrus] كما يظهر من مريثته التي أراد بها تذكرة الكيبباس بالخدمة التي قدمها له:

من اقتراعي صدر ذلك المرسوم الذي جاء بك الى الوطن من منفك الشاق.
الاقتراع العام أنا الذي بدأته، وصوتي هو الذي وضع الختم على المرسوم.

(٤٩) صدر هذا المرسوم قبل ثلاث سنوات في آخر خريف العام ٤١١ ق.م. بعد إسقاط مجلس الاربعمائة وكريتاس هو ابن عم افلاطون وهو الذي ذكره في محاوراته وأصبح صديقاً لالكيبباس بعد عدااء مستحكم ان الشهوة الى السلطة تدعّر كل الروابط. فقد كان من الدّ أعدائه عندما أصبح الكيبباس واحداً من الطماعة الثلاثين. وأرسل يؤكد لليساندر بأن أثينا لن ترتاح وسيارطاً لن تأمن إلا بتصفية الكيبباس قتل [كريتاس] فيما بعد. قتله (ثراسيبولوس) عندما تولى هذا انقاذ أثينا من حكم الطفاعة.

ثم دُعي الجمهور الى اجتماع عام^(*)، ووقف الكيبيادس بينهم خطيباً فأسهب في وصف ما عاناه متأسيماً متألماً. ثم شكوا بلهجة رقيقة من المعاملة الفظة التي عومل بها، وعراها جميعاً الى معاندة الاقدار وشرّ المجني الذي يلزم روحه. ثم انتقل فأفاض في الكلام عن مستقبلهم وأماسيهم. وحثهم على التمسك باهداب الشجاعة والأمل بالاسم. وقام المواطنون برصع تيجان الذهب على مفرقه، وانتخبوه قائداً عاماً للبر والبحر ومنح صلاحيات مطلقة. كما أصدروا قراراً باعادة املاكه المصادرة اليه، وأوعزوا الى اليومولبيدي Eumolpidae والمنادي الأقدس، بحله من اللعان الديني الذي نطقوا به بموجب الحكم الصادر عليه فاطاع الجميع، ألا أن الكاهن الأعظم (ثيودوروس) أعتذر بقوله «إن هو برئ، فاني ما لعنته مطلقاً».

وبصرف النظر عن سير أمور الكيبيادس سيراً حسناً يتفق مع المجد الذي بلغه. فإن كثيراً من الناس ما زالوا قلقين بعض الشيء، ينظرون الى ظروف تطهير عودته نظرة شؤم. ففي اليوم الذي وصل الميناء كانت اثينا تحتفل بعيد الرية (منيرفا)^(٥٠) التي يطلقون عليها [بلنتيريا Plynteria] ويقع في الخامس والعشرين من شهر (ثارجيليون) عندما يقوم [البراكييرغيدي Praxiergidae] باحياء شعائر الطقوس السرية الخاصة بهم. فينتزعون كل الحلي والزينات من تماثيل الرية ويسدلون أغطية وستائر على الجزء الذي تحتله من المعبد لحجبه عن النظر ولذلك يعتبره الآثينيون انحس يوم وأشأمه ولا يأتون عملاً مهماً من أعمالهم فيه. وبموافقة قدوم الكيبيادس فيه، تصوروا أن الرية لم ترحب به ولم ترتح اليه لأنها أخفت وجهها ورفضته. ومع هذا كله سار كل شيء وفق رغبته. وعندما تم إصلاح السفن المائة التي عادت معه، وهيئت للأبحار، اخرته رغبة شريفة حتى ختام الاحتفال بالأسرار المقدسة، فمذ احتلال [ديسلييا Deceleia] وسيطرة العدو على كل الطرق المؤدية الى اليوسيس من آثينا، والمركب يسلك سبيل البحر لا تصاحبه أية شعائر لاثقة. فقد أخطروا الى حذف مراسيم القرابين والرقص وغيرها من الطقوس الأخرى التي جرت العادة بادانها في مراحل من الطريق. عندما يتقدم المركب الى [ياكوس Jacchus]^(٥١). فوازن الكيبيادس القضية في فكره، ووجد في إعادة جلال هذه الشعائر القديمة عملاً مجيداً فيه تكريمٌ للالهة وارتفاع حديد لمنزلته بين

(٥٠) في أوائل صيف ٤٠٨ ق.م.

(٥٠) في هذا اليوم يغسل تماثيل منيرفا. وتحاط المعابد بخيط إشارة الى انها مقلدة في وجه المصلين كما جرت العادة في ايام النحس. ويحمل تين مجفف اثناء المركب لأنه أول فاكهة تؤكل بعد الاكورن. اما البراكييرغيدي فهم الكهنة المختصون بـ(منيرفا).

(٥١) يوم عيد كيريس وپروسپرين تسعة أيام، وفي اليوم السادس يحمل من كيريس تماثيل [ياخوس] أو [اياخوس] الذي يعتقدون انه ابن جويتر ويطاف به في مركب. ولفظ [اياخوس] يطلق أحياناً على الترتيلة التي تشد اثناء مسيرة المركب أو حتى على ايام العيد برمته.

الناس. وقرر مرافقة الموكب في طريق البر، وحمايته بجيشه من العدو. فإذا بقي [آغيس] في موضعه ولم يعترض سبيله فسيكون في هذا اضعافٌ لسمعته وصيته. وإذا أضر الكيببidas الى حوص حرب مقدسة في سبيل الآلهة ودفاعاً عن أقدس وأجل شعائر الدين، فسيكون ذلك على مرأى من بلاده وسيثبت بها لبني قومه مدى بسالته. ما أن قرّ رأيه على هذا وابلغها للابومولبيدي والمنادين، حتى يادر الى وضع ربابا عسكرية على رؤوس التلال. وعند اسلاج الصبح أطلق كشافته ترود الطريق. ثم أخذ معه الكهنة والرهبان والمكرسين واضعاً ايهاهم في وسط رتل جنوده وقادهم بنظام دقيق وهدؤ تام. وكان موكباً جليلاً رائعاً وقال أولئك الذين لا يضمرون كرهاً للكيبييادس انه مارس فيه وظيفتي الكاهن الأعظم والقائد العسكري في وقت واحد ولم يجرؤ العدو على القيام بأي عمل ضده فوصل المدينة بأمان ولم يكن ارتفاع قدره في عين ذاته بأقل من ارتفاع منزلته في عيون الشعب لهذه المأثرة المجيدة. وسرح بهم الخيال حتى وصل الى حدّ الايمان بأن قيادته تجعل جيوشهم منيعة عن العدو لا يمكن قهرها. وأشدت تعلق أوزاع الشعب ودهماؤه به بحيث راحوا بصرخون برغبتهم في نصب نفسه حاكماً «طاغية» عليهم، ولم ير بعضهم معرة «في مفاخحته بذلك ونصحه بأن يجعل نفسه في نجوة عن الحسد والبغض، بازالة قوانين الشعب ومراسيمه، وقمع الثرثارين الذين يلحقون الدمار بالدولة، ليكون قادراً على تصريف شؤون الحكم وحده دون خوف من حساب أو اذانة.

وليس في الإمكان معرفة المدى الذي وصله ميله في ضبط السلطة المطلقة، وكل ما نعرفه أن اعيان المدينة وكسراها كانوا شديدي الخوف من ذلك، حتى انهم استعجلوه في الابحار، وعينوا الزميلين اللذين اختارهما هو، وسمحوا له بكل ما طلب^(٥٢). فأنطلق بأسطول قوامه مائة سفينة(*) فبلغ [اندروس] وهناك قاتل أهلها وقاتل اللقيديميين الذين ساعدوهم وتغلب عليهما معاً. على أنه لم يفلح في الاستيلاء على المدينة، وهذا ما أطلق ألسنة أعدائه بمختلف النهم ضده. والحقيقة هي: اذا كان ثم شخص في الدنيا دمره مجده، فهو الكيببidas. لأن انتصاراته المستمرة، كونت فكرة معينة عن شجاعته والمعية، وهي أنه اذا فشل في أمر ما سعى اليه، فالسبب هو إهماله. ولن يعتقد أحد بأن السبب هو إفتقاره للسلطة. إذ كان الظن السائد عنه أن لاشيء يصعب عليه إذا عالج أمره بجذ وحزم.

وأخذ الآثينيون يتوقعون يوماً وصول الاتياء عن إخضاع [خيوس] وبقية [آيونيا] وعيل صرهم لأن الأمور لا تسير بالسرعة التي كانوا يقدرون لها. ولم يفكروا ببلغ حاجته الى المال،

(٥٢) يخبرنا كرينفون بأنهما [ارسطوقراطس] و[اليمانقوس] وقد اقتصرت مشاركتهما في القيادة على البر

(*) هي نهاية تشرين الأول ٤٠٨ ق.م.

وبأن مواصلة الحرب ضدّ عدوّ لا ينقصه شيء من الأعتدة والأرزاق تأتيهم من ملك عظيم، وكثيراً ما لجأ الكيببىداس الى النزول عن أسلحته ليؤمن المال والأرزاق لإطعام جنوده. وهذا ما فسح مجالاً لآخر اتهام وجّه اليه. فقد أرسل (اليساندر Lysander) من لقبيديون ليتسلّم قيادة أسطولهم ومعه مبلغ كبير من المال نفحه به (كورش) ملك الفرس. فراح يدفع لكلّ بحار أربعة (أوبولات) أحوراً يومية وكانت ثلاثة قبلاً، ولم يكن الكيببىداس قادراً حتى على دفع ثلاثة (أوبولات) لرجاله، وحزم أمره أخيراً على دخول (كاريا Caria) للحصول على المال وترك قيادة الاسطول في غيابه (أنطيوخس) وهو رجل بحر مجرب، إلا أنه متهور متسرع قليل الشعور بالمسؤولية^(٥٣). مع أوامر صريحة له بأن لا يشتبك في قتال مع العدو مهما استفز. إلا أنه لم يبال بالأوامر وأستخف بها الى الحد الذي عمد الى سفينة الخاصة وسفينة أخرى فأنطلق بها الى أفسس حيث يرسو اسطول الاعداء. وراح يخطر بسفينتيه أمامهم وأقترب منهم متحرشاً حتى قيّادهم السفن واستخدم كل وسائل الاستفزاز الممكنة قولاً وعملاً. فأوسق ليساندر سفناً قليلة بالرجال ولاحقه، فخرجت كل السفن الأثينية لمعاونة انطيوخس، ولم يكن من ليساندر إلا وجرّد الاسطول كلّه وأشتبك الفريقان في المعركة ودارت دائرتها على الأثينيين ونال بها نصراً ساحقاً. وقتل انطيوخس. وأخذ ليساندر أسرى من السفن والرجال. واقام نصباً تذكاريّاً.

وأسرع الكيببىداس الى ساموس حال سماعه بالنبا، ثم خرج منها بكل اسطوله يريد ليساندر، إلا أن هذا القائد لم يخرج اليه وابتى النزال قانعاً بالنصر الذي كسبه.

وكان (ثراسبولوس) أبين ثراسون Thrason أشدّ رجال الجيش حقداً على الكيببىداس وكرهاً به، حتى أنه سافر الى أثينا بقصد رفع شكوى عليه، وأثارة اعدائه في المدينة ضده. وقام خطيباً في الاجتماع الشعبي وأوضح «إن الكيببىداس فرط بمصالحهم وأتلف أمورهم وحفر سفنهم بمجرد الإهمال المكابر لواجباته، وأودع قيادة الجيش في غيابه أناساً أصبحوا موضع ثقته من جراء مجالس الشراب والقصف ويذئ الكلام. في حين كان يروح ويغدو على هواه يجمع الأموال، وينغمس في الوان من الترف والبذخ والفجور بين عاهرات (أبيدوس وأيونيا)، واسطول العدو قريب متربص بنا الدوائر مستعد للأنقضاض». واصاخ الأثينيون سمعهم لهذه الشكاوى وأظهروا حنقهم وعدم رضاهم بانتخاب قادة آخرين للجيش^(٥٤).

(٥٣) وهو الذي أملك له بالسماطي. يقول كزينفون ان ليساندر أخذ خمس عشرة سفينة واسحب بعد المعركة الى (السيبوس)

(٥٤) وهم بحسب قائمة كزينفون كونيون وفيوميثيون وليونتس، پريكلس وابراسينيديس وارسطوقراطس وارخستراتوس وپروتوماخوس وثراسيلوس وارسطوغيثس.

لما سمع الكيبادس بما جرى يادر الى ترك الجيش كله^(٥٥) خشية مما سيعقب، وجمع حوله جيشاً من الجنود المرتزقة وهاجم على حسابه الخاص أولئك الشراقيين الذين يسمون أنفسهم بالأحرار ولا يعترفون بسلطة اي ملك. وبهذه الوسيلة جمع ثروة طائلة وفي الوقت عينه حافظ على الأغريق الذين يقطنون الحدود من غارات البرابرة.

كان الجنرالات الثلاثة الجدد [تيدبوس Tydeus وميناندر Menander وأدمينتوس Adi-mentus] قد اتخذوا [ايغوسپوتامي Aegospotami]^(٥٦) قاعدة لهم بكل ما بقي للآثينيين من سفن، وكانوا ينطلقون الى البحر صباح كل يوم من هذه القاعدة لاستدراج [ليساندر] الى معركة. بأسطول الراسي قرب [لامباسكوس Lampascus] ويعودون بعد كل اشتباك للاستراحة ببقية اليوم احتقاراً للعدو وعدم مبالاة به، ودون نظام ولم يكن الكيبادس الغريب منهم^(*). بمن يتعمى عن الخطر المحدق بهم أو بالذي يقلل من شأنه ولم يهمل التصريح لهم بذلك اذ ركب جواده وإقبل عليهم وشرح لهم أنهم أختاروا قاعدة غير صالحة ابداً، لأنها لا تمتاز بمناعة ولا تمنحهم أماناً من غارة، كما أنها بعيدة عن أية مدينة مما يضطرهم الى جلب تجهيزاتهم وازراقهم الضرورية من [سيستوس Sestos] البعيدة. وأشار أيضاً الى عدم مبالاتهم بوضع الجنود عند نزولهم الى البر، وحذرهم من مغبة تركهم الحبل على الغارب لهم يتفرون دون نظام ويروحون ويغدون كما شاؤوا في حين كان اسطول العدو الذي هو بقيادة جنرال واحد، يقفأ مترصاً بهم، مطيعاً للنظام الى آخر حد وعلى مسافة قريبة جداً منهم. ونصحهم بالانتقال بالاسطول الى [سيستوس]^(٥٧). فلم يكثرثوا لقوله، وأمره [تيدبوس] بلهجة مهينة أن ينصرف قائلاً انه ليس القائد الآن، وانما هناك آخرون يقودون الجيش. ويادر الكيبادس الى الاتصاف وقد لاح له نية غدر. وقال لاصحابه الذين رافقوه الى خارج المعسكر: لو احترم الجنرالية رأيه ولم يعاملوه بهذا الاحتقار الذي لا يحتمل، لأفلح خلال أيام معدودات في إرغام اللقيديمونيين مهما كرهوا، إما على قتال الآثينيين في البحر،

(٥٥) اخذاً معه بارجة واحدة. انسحب بها الى القلاع التي بناها ربما ليتخذها ملاذاً.

(٥٦) يتخطى بلوتارح هنا ثلاث سنين في غضونهما حلت هزيمة [يكونون] بعد ان توغل قليلاً في أرض العدو وهي السنة التالية وهي السنة السادسة والعشرين من الحرب الهلويونيسية نال الآثينيون نصر [أريستس]. وقاموا باعدام ستة من جنرالاتهم بتهمة بسيطة تقدم بها زميلهم [ثيرامينيس]. وفي السنة الأخيرة ابهر الآثينيون الى [أيبوس - بوتامي] وهو موضع على مقربة من المضائق. مقابل لامباسكوس كما جاء في المتن - الفترة تبدأ من ربيع ٤٠٧ حتى خريف ٤٠٥ ق.م.

(٥) في قلعة قرب پاكتيي Pactye [كزنيون الهيلينيون ٢٥.١.٢].

(٥٧) الصباط الذين يؤمرون على الجيوش الاغريقية واساطيلها يطلق عليهم اسم جنرال أحياناً، ويطلق عليهم اسم اميرال أحياناً لأنهم عادة يشرفون على الحركات العسكرية في البر والبحر على حد سواء.

أو معادرة سفنهم. وعد بعضهم كلامه هذا مجرد ادعاءٍ فارع، وقال آخرون أن المسألة ممكنة إذ انه قد يأتي بمجموع كبيرة من الخيالة والنبالة التراقيين ليهاجمهم براً ويشيع الفوضى في معسكرهم^(٥٨). وسرعان ما أثبتت الأحداث صحة استنتاجه وحكمه على اخطاء الآثينيين. فقد انقضَّ عليهم اليساندر فجأة، وهم أبعد الناس عن الشك في الأمر، وبلغ عنف هجومه حداً لم يفلت من يده غير (كونون Canon) وحده بثمانين سفن فقط^(٥٩). أما البقية وكان عددها يناهز المائتين فقد أستولى عليها وساقها خلفه غنيمةً مع ثلاثة آلاف أسيرٍ أعمل السيف في رقابهم جميعاً، وبعد فترة قصيرة أستولى على آثينا نفسها وأحرق كل ما وجد فيها من السفن وهدم اسوارها الطويلة^(٦٠). ودبَّ الخوف في نفس الكيببidas اللقيديميين، الذين غدوا سادة البحر والبر من غير منازع، فرحل الى (بيشينيا)، بعد أن بعث اليها بأموال كثيرة، وأخذ معه ما يزيد على ذلك، وترك في الحصن الذي كان يقيم فيه مقداراً يزيد بكثيرٍ على ما سبق ذكره. إلا أنه خسر جزءاً كبيراً من ثروته في (بيشينيا) فقد سطا عليه بعض التراقيين هناك وسرقوه وعندها قرَّر الذهاب الى بلاط (ارتخششتا) وكان واثقاً أن الملك لن يجده أقل مواهب من (تيمستوكليس) عند امتحانها، زد على هذا أنه أتما بقصده في قضية أنبل وأشرف مما قصده به تيمستوكليس. فلم تكن غايته عرض خدماته ضد بني قومه ووطنه كما فعل تيمستوكليس، بل ضد أعدائهم. أراد أن يحصل على عون من الملك للدفاع عن بلاده. وقدَّر أن (فارنابازوس) لن يبخل عنه بحق اللجوء فقصده في (فريجيا).

وظلَّ يعيش هناك رداً من الزمن يتبادلان الودَّ والاحترام والتكريم وكانت حال الآثينيين أثناء ذلك - يرثى لها، اتاخ البؤس عليهم بعد خسرانهم كل مستعمراتهم، وزاد في شقائهم حرمانهم الحرية أيضاً، وقيام ليساندر بتعيين ثلاثين حاكماً مطلقاً في المدينة، واذا ذاك وفي وسط خرابهم بدأوا يستعيدون الأفكار التي عرضت عليهم ولم يوافقوا عليها حين كانت السلامة ممكنة. وأقروا باخطائهم الماضية وندموا على حماقاتهم ووجدوا في اساءتهم معاملة الكيببidas الشابة خطيئة لا يمكن اغتفارها. فقد طرده دون أن يرتكب خطأ بنفسه، بل ولمجرد خنقهم على مرؤوس من مرؤوسه فقد بضع سفن بصورة مخجلة، أرتكبوا هم أنفسهم جريمة ادعى الى الحجل والعار بحرمان الجمهورية من أشجع قوادها وأعظمهم حنكة ودهاء. وكانوا

(٥٨) عندما يُرسي الاسطول مدة معينة. تنزل عادة قوات برية وبحرية وتعسكر في البر على الساحل

(٥٩) هربت سفينة تاسعة تعرف باسم (پارالوس) لتحمل اتياء الهزيمة الساحقة الى آثينا. ولجأ (كوبون) الى قبرص. وكان ايثاكوراس ملكها (انظر سيرة ليساندر).

(٦٠) حصل ذلك في السنة الرابعة من الاولمبياد الثالث والتسعين اي في السنة الثامنة والعشرين من الحرب البوليوبيسية.

يشعرون مع ذلك أن مجرد وجود الكيبيادس في قيد الحياة، يجعلهم يتشبثون بالأمل الواهي، ويمنعهم من اليأس التام بأحياء الجمهورية في آتينا. وكانت أنفسهم قانعة بأنه ان لم يستطع وهو في المنفى أن يجلس عاطلاً غير مكترث فسيكون الآن أقل صبراً على السكوت وتحمل إهانة اللقيديميين لبلاده. وأشدّ سُخْطاً على استبداد الحكام الثلاثين، إن واثته الفرصة وليس من قبيل السخف أو اضطغاث الأحلام ان تخالغ أفراد الشعب مثل هذه الامنيات وها هم «الحكام الثلاثون» أنفسهم شديداً اللهفة الى تسقط اخباره ومتابعة كل حركاته وسكناته. ويمختصر القول بينَ [كريتياس] ليساندر أن اللقيديميين لن يصغروا لهم الجو في بلاد الأغريق، وليس ثم ضمان لسيادتهم عليها إلا بالقضاء التام على الديمقراطية الأثينية. وإذا كانت المظاهر تشير الى خنوع الأثينيين وصبرهم على هذا العدد الضئيل من الحكام فان مجرد علمهم بان الكيبيادس ما زال حياً، لن يدعهم يذعنون أو يرضون بحالتهم الراهنة.

إلا أن ليساندر لم يقتنع بهذه الحجج، حتى بلغته بالأخير أو امر سرية من حكام لقيديميون، تريد منه بصراحة أن يعمل على قتل [الكيبيادس]. ولا يعرف هل أن الدافع الى هذا، كان خوفهم من حيويته وجراوته في الاضطلاع بكل ما هو خطر أو اطفاءً لحقد [أغيس] عليه. وعندما وصلت الأوامر بذلك الى [ليساندر] بعث رسولا الى [فارنابازوس] يطلب منه تنفيذ ذلك. فمهد [فارنابازوس] الى [ماجيوس Magaeus] أخيه، و[سوساميثرس Susamith-tes] عمه بالأمر. وكان الكيبيادس في حينه يسكن قرية صغيرة فريجية مع [تيماندر Timandra] مخطيته. ورأى فيما هو نائم الحلم التالي: وجد نفسه يرتدي ثياب مخطيته وهي تحتضنه بين ذراعيها وتصف شعره وتجمل وجهه بالمساحيق كأنه امرأته، وزعم آخرون أنه رأى في الحلم [ماجيوس] يحتز رقبة ويحرق جسده. وعلى أية حال انه شاهد هذه الرؤى قبل مقتله بزمان قصير. وهؤلاء الذين أرسلوا لقتله لم يكن لديهم الشجاعة الكافية لدخول منزله، بل طوقوه أولاً ثم أشعلوا النار فيه. وما ان أدرك الكيبيادس نيتهم حتى جمع مقداراً كبيراً من الثياب والأثاث وغطى بها النيران محاولاً اخمادها ثم لف طيلسانه حول ذراعه اليسرى وامسك بسيفه المنتضى بيده اليمنى وقذف بنفسه وسط اللهب وخرج منها سليماً قبل أن تحترق ثيابه، وتراجع البرابرة الى الخلف حالما رأوه ولم يجرؤ أحد على التقدم منه أو الاشتباك معه بل وقفوا على مسافة وأجهزوا عليه بالسهم والرمح المقدوفة، وأنصرف البرابرة بعد قتله. فرفعت [تيماندر] الجثة وعظمتها ولفتها بثيابها^(٦١). وقامت على دفنها

(٦١) دهنه في ميليسا. وقد أعلمنا [أثينيوس ٤: ١٢] أن النصب كان باقياً في عهده وانه شاهده بعينه وقد أمر الامبراطور هادريان تخليداً للرجل العظيم ان يصنع له تمثال من مرمر (پاري) وينصب فوق الضريح وأمر بتصحية دور له، كل سنة.. =

دفة لائقة محترمة على قدر ما سمحت به ظروفها وقيل أن بنت [تيماندر] (٦٧) هذه هي [لايس Lais] الشهيرة، الملقبة بالكورنثية وإن كانت من [هيكارا Hyccara] وهي بلدة صغيرة في صقلية. هناك فريق يتفقون على وقائع موت الكيببىداس التي سردناها في كل تفاصيلها، خلا أنهم لا يعزون سببها إلى [فارنابازوس] أو [ليساندر] أو اللقبيديويين، بل يزعمون أنه كان يعيش في منزله سيدة صغيرة السن من أسرة نبيلة هناك عرضها، ولم يستطع أخوتها احتمال عارها فأشعلوا النار في المنزل الذي يسكنه وقتلوه وهو يحاول النجاة بالشكل الذي فصلناه.



(ادونيس)

= إلى جانب الروايتين اللتين رواهما بلوتارخ هنا حول كيفية موته، توجد رواية ثالثة [ديودورس ١٤ ١١] الذي يعمد السبب إلى الحسد الذي كان يكنه له [فارنابازوس] السياسي الذي. ويقول أرسطو الطبيعة ٢٩.٤ كان موته في [الاقوس] وهو جبل في فريجيا. (٦٢) [داماساندر Damasandra] كما يسميها [أثينيوس] ويضيف قائلاً: إن [ثيوفوتا] مخطيته الأخرى قامت بكل ما في إمكانها لتشجيعه ودفنه دفنة لائقة.

کُریولانوس

CORIOŁĀNUS

(Caius Marcius)

5th.c

أنجب البيت البابائري المسمى [مارجيري Marcii] في روما، كثيراً من عظماء الرجال ومشاهيرهم، ومن بين الغابرين [أنكوس مارشوس Ancus Marcius] حفيد [نوما]^(١) لابنته، وخلف [تولوس هوستيلوس] في العرش الروماني، ومن الأسرة نفسها نبغ أيضاً [بوليوس Publius] وكونيتوس مارشوس [اللذان أسالا إلى روما أفضل وأكبر كمية من الماء عرفها أهلها. ومثلهما [سورينوس Cecnsorinus] الذي اختاره الشعب مرتين لمنصب أمين بيت المال، وحملهم هو نفسه على إصدار قانون يحرم على المرء أن يتولى هذا المنصب مرتين، على أن [كايوس مارشوس] الذي أكتب عنه هنا؛ كان يتيم الأب، نشأ ورعي في فترة ترمل أمه. فأثبت لنا بهذا أن فقد الأب لا يمنع أحداً من توفيق درجات المجد والشهرة، والتحلي باسم الفضائل في الحياة، ولا أن يكون عقبة دون التفوق والصلاح الحقيقي. وعلى أية حال، فأشهر الناس مغرمون في القاء تبعة شرهم ورداءتهم على سوء طوالعهم والإهمال الذي عانوا في الصغر. وأنه كذلك لشاهد لا يقل قيمة عما أسلفنا على صواب رأي أولئك الذين يؤمنون بأن الخلق الكريم الممتاز المتجرد عن الضوابط والقيود الملائمة، هو أشبه بالثنية الخنسية غير المحروثة، فهي أهل لانتاج الكثير من السيء والردى. أيضاً. وفي حين تراه يتنقل من نجاح إلى نجاح في كل أعماله الشريفة بقوة روح فيه، وفاعلية متأججة واستمرارية عنيدة لازمت كل ما أضطلع به من مهام، كان من جهة أخرى يرخي العنان لمجروح عاطفته وإطلاق العنان لها. ولقد كان من نتيجة إصراره العنيد على عدم إنزال نفسه إلى إرادة الناس المحيطين به أو تكيف به أو تكيف أحاسيسه وأخلاقه لهم أن جعل نفسه عاجزاً عن العمل مع الآخرين. إن أولئك الذين كانوا يرقبون معجبين، كيف كانت طباعه صامدة إزاء كل مناعم الملذات، واغراء الكسب المادي، صابرة على مشاق الخدمة، في حين أمنت صلابته إرادته العامة

(١) تزوجت بوميليا بنت نوما بـ(مارجيوس) ابن سايبني، عندما أقنع (نوما) بقبول المنصب الملكي وتبعية إلى روما، كان يأمل هو أن يخلفه في هذا المنصب. لكنه ما لبث عن بخع نفسه عندما أغفل وتخطوه لينصبوا (تولوس هوستيلوس). ومن زوجة بوميليا ولد (أنكوس) ابن مارجيوس ووصل إلى المنصب الذي حرم منه جده. ومن هذه الأسرة جاء (كرويانوس). والماء المنوه به في السطر التالي هو أنصفي ماء في روما. وقد حي به بعد شق ساقية له من منبعه طولها ستون ميلاً.

تلك الصفات الملازمة لها مثل ضبط النفس والعزيمة والاستقامة؛ لم يسعهم إلا أن يصيقلوا ذرعاً بصرامته وفظاظته وغطرسته واستبداده التحكيمي. وهي من حياة المواطن ورجل السياسة وأن الدراسة والثقافة والتمرس في الفنون لا تنطوي على فوائد لطلابها، أعظم من فوائد الدروس الرامية إلى التهذيب البشري، والتحضّر. فهذه تدرب أخلاقنا الطبيعية على الخضوع للمحدود التي يرسمها العقل، وتجنّبنا التطرف الجامع.

في تلك الأزمان كانت هذه المؤهلات تعتبر في روما أرفع ما يمكن أن تسمو إليه النفس، والأعمال الحربية هي ميدان ممارستها الوحيد وخير دليل على ذلك: الكلمة اللاتينية «Vertuten: الفضيلة»^(*). فانها مرادف دقيق لشجاعة الرجل، حتى لكان البسالة، والفضائل مجتمعة شيء واحد، وانهم يستخدمونها كصفة عامة لتفوق خاص بشخص.

و[مارشوس] الذي كان ميله يندفع به إلى بطولات الحرب بحماسة تفوق أي من في سنّه، بدأ بالتدريب على السلاح منذ نعومة أظفاره. ولما كان يدرك أن الأسلحة ما هي إلا أدوات عرضيّة، مصنوعة لا تأثير لها، ولا قيمة كبيرة فيها عند من لم تزودهم الطبيعة بأسلحة حسنة التركيز معدة إعداداً جيداً للخدمة، فقد انصرف إلى تكييف وتدريب كيانه على ضروب الفعاليات وشتى فنون القتال. فجمع فيه خفة العداء، وثقل المصارع الذي يصعب التخلص من قبضته حالما تطبق على الخصم في التحام، وبلغ في ذلك الغاية حتى كره منازلوه من بني قومه ولداًته أن يصرحوا بنقص كفاءتهم إزاءه، وأعتادوا أن يعللوا قلة حيلتهم فيه وضعفهم بقوة جسمه، قائلين أنها لا تعرف معنى الانهك ولا التعب، ولا يمكن الوقوف أمامها.

وأول ما دخل معترك الحرب وهو غلاماً مراهقاً^(٢)، كان في آخر معركة [التاركوينيوس سوبربوس] ملك روما الذي طرد من البلاد. فبعد محاولات فاشلة عديدة بذلها للعودة، راح الآن يبذل الجهد الأخير ويتامر بكل شيء في رمية واحدة. ووجد كل اللاتين قواهم وزحفوا معه نحو المدينة لأجل أعادته إلى العرش لا لشدة رغبتهم في خدمة تاركوينيوس وارضائه، قدر ما كان يدفعهم إلى خوفهم من شوكة الرومان وغيرها من ازدياد نفوذهم الذي ارادوا كبح جماحه وإيقافه عند حد. وتقابل الجيشان واشتبكا في معركة فاصلة ظلت متراوحة^(**)، وكان [مارشوس] في قلبها وفي مشار نفعها يقاتل ببسالة بمشهد من الدكاتور، وفي أثناء ذلك لمح جندياً رومانياً يسقط على الأرض بضربة من خصمه فبرز إليه ووقف دونه وقتله وأنقذ

(*) معناها العرفي الرحولة.

(٢) في ٤٩٦ ق.م المعركة المشار إليها وقعت بالقرب من بحيرة (ريغلس) في عهد اللينكاتوري [اولوس بوستيموس]. لم يذكر لا ليفي ولا ديون شيئاً عن هذه المؤثرة أثناء حديثهما عن وقائع ذلك اليوم.

(**) قرب بجدة Regillus في ٤٩٨ ق.م.

الحدي الحريح. وعلى أثر انتصار الجنرال الروماني توجّه لهذا العمل باكليل مصوغ من أغصان البلوط^(٣). وهي عادة درج عليها الرومان في تكريم أولئك الذين يقدون حياة أحد المواطنين وليس من المعروف هل يقصد من العادة تكريم خصوصي للبلوط نفسه على سبيل ذكرى الاركاديين^(*) الذين أشتهر أمرهم لنبرة إبولو سمّتهم بأكله البلوط^(**). وإن السبب فيه يعود الى سهولة حصولهم على ثمر البلوط في كل المواضع التي حاربوا فيها، أو لأن أكليل البلوط المقدس عند [جوبيتر] حامي المدينة، أعتبر لهذا السبب حلقة مناسبة لمن ينقذ حياة مواطن. والحق يقال أن شجرة البلوط تحمل أجمل الثمر وأكثره من بين كل الأشجار البرية المثمرة وهي أيضاً أقوى ما يستنبت من الشجر وثمرها كان القوت الأساس للأقدمين من البشر، والعسل الذي يجدونه فيها كان أول ما شربوا. ويحق لي القول أيضاً أن الدبق الذي ينمو عليها يزود المرء بالطيور وغيرها من الحيوانات ذات اللحوم الذبذة، لأنه يوقعها في شركه الصمغية.

وكان هذا من بواكر مآثر [مارشيسوس]. ويقال أن [كاستور وبولوكس] ظهرا في هذه الموقعة، وانهما شوهدا بعدها مباشرة في روما بالقرب من النافورة التي يقوم الآن معبدها في مكانها، حصاناهما ينضحان عرقاً، يذيعان انباء النصر على الشعب في [الفورم]. وتعين الخامس من تموز الذي هو يوم النصر، عيداً دينياً مكرساً للأخوين التوأمين.

وما يلاحظ بصورة عامة إن الشبان عندما تبلغ بهم المقادير مراقي الشهرة والصيت في عُمر مبكر، فانهم يستنيمون لها ويقفون عندها. وهي كفيلة باطفاء غلتهم واشباع نهمهم المحدود، وإن كان طبعهم يشوبه قليل من روح المباراة والمنافسة. والأمر على العكس عند عظماء الرجال وصناديدهم وأقرباء الأخلاق منهم بأن أول أشتهارهم يحتشم ويدفعهم كما تدفع الريح الى ملاحقة أمجاد أخرى. وهم لا ينظرون الى ثمرات فضائلهم نظرتهم الى مجرد تعويض نالوه عما فعلوه. بل يعتبرونها بمثابة عهدٍ قطعوها على أنفسهم للقيام بمآثر أخرى في المستقبل، وهم يخلون ويستنكفون من المجد الرصيد الذي كسبوه. وبكلمة أخرى يترفعون عم جعله حجاباً مسدلاً على ما مرّ من أعمالهم وغطاءً يدفن تحته بهاء الأعمال التي قدر لهم إنجازها في

(٣) «الفتح المدني» مرق به امتيازات كثيرة. فالقائز به الحق في وضعه على رأسه قدر ما شاء ومتى ما شاء وعلى الشيوخ ان يتهضوا أحتراماً له كلما ظهر به الجمهور. وله أن يطالب بوضع معقل له بينهم في الاجتماعات العامة وإن يكون لجده الصلبي وابيه عين التمييز. وهو تشجيع لنوي المواهب والمؤهلات لا يكلف العامة شيئاً. وكان يمنح بالأصل لكل مواطن ينقذ مواطناً آخر من خطر الموت.

(*) أول مستعمرين لروما بقيادة إيفاندر Evander.

(**) هيرودوتس ١٦٠٦.

المستقبل. ولقد كانت روح [مارشيووس] من هذا المعدن النبيل، فهي طموحة أبداً للتفوق على ذاتها دائماً، وهو لم ينجز عملاً فائقاً إلا وكان موقناً أن القدر يريد له عملاً آخر أعظم من سالفه في فرصة تالية. ولازمته الرغبة في تقديم دلائل مستمرة جديدة على بطولته وسيطرت على كيانه تماماً. فراح يضيف مجداً إلى مجده ويكسب النصر فوق النصر. وجعل من ذلك ميدان منافسة بين أمره، أيهما يبرز الآخر في تكريمه والثناء عليه؟ ولم يعد من أي حرب أو معركة خاضها في تلكم الأيام إلا وهو متوج بأكاليل الغار مشقل بالجوائز والمكافآت وفي الوقت الذي نرى غيره يجعل المجد والمنزلة الرفيعة آخر مطاف بسالته، نجد [مارشيووس] يجعل سعادة أمه نهاية مجده. فالغبطة التي تتملكها عندما تسمع الثناء عليه، وتراه وهو يتوج بأكاليل النصر، ويكاوذاً فرحاً عندما يعانقها وتضمه إلى صدرها، تجعله يشعر بذات نفسه، انه نال أعظم ما يناله بشرٌ من تشريف وسعادة. وقيل أن [إپامنداس] كان يملكه مثل هذا الشعور تماماً. فاهناً لحظة عنده، هي أن أباه وأمّه عاشا ليسمعا بالنجاح الذي حققه في القيادة وبانتصاره الكبير في [اليوكترا Leuctra]، إن الحظ الذي أسعده بمشاردة أبوه في الاستمتاع بلذة نجاحه، لم يمكن [مارشيووس] إلا من واجب تقديم كل فروض الشكر والامتنان لأمه [فولومنيا Volumnia]^(٤) وحدها، كما لو كان أبوه جياً ولذلك لم تكن نفسه تشبع من حنانها واحترامه لها. حتى أنه لم يفترق عنها عندما اتخذ زوجاً ورزق بأولاد بناءً على رجائها ورغبتها وظل يعيش معها تحت سقف واحد.

في ذلك الحين، أكسبته استقامته وشجاعته صيتاً كبيراً ونفوذاً طائلاً في روما. وكان مجلس الشيوخ بحباباته اغنياء المواطنين، في خلافٍ مستعصٍ مع طبقة العامة التي أخذت تجار بالشكوى المرة من المعاملة القظة اللإنسانية التي يلاقونها على أيدي المرابين^(٥)، فكثير منهم أثقل كاهله بالديون، وكثيرون جردوا من كل مقتنياتهم وأملأهم بطريق البيع أو الرهن تسديداً للدين. أما من بلغ الأمر بهم نهاية الأملاق بسبب المصادرات الماضية ولم يعد لديهم ما يصح مصادرتة، فقد سيقوا إلى السخرة والعمل الشاق دون أي اعتبار للجراح والندوب التي خلفتها في أجسامهم خوضهم شتى المعارك، دليلاً على خدماتهم الوطنية. وكان السابين آخر من أصمته السهام. فقد وثقوا بعهد قطعه لهم دائنهم الاغنياء أن يحسنوا معاملتهم ويكونوا أكثر رفقا بهم في المستقبل. وأنيب [ماركوس فاليريوس] القنصل، بايعاز من مجلس الشيوخ لتابعة تطبيق هذا العهد واستنجاهه. لكن، بعد أن حارب السابين الأعداء.

(٤) ومن الكتاب الآخرين الذين ذكروا [فولنيا] أسماً أزوجه، ديون وليفي وفاليريوس.

(٥) أو كما قال الآخرون ان الديكتاتور [ماكسيموس فاليريوس] وعد الشعب بقانون الغاء الديون [ديون] ٥٦.]

بسالة، وحققوا النصر، لم يجدوا رفقا من الدائنين ولا سماحة كذلك صرح المجلس بانه لا يذكر شيئا عن وجود عهد كهذا! وجلس ساكتا غير مكترث، وهو يشاهد افواج المدنيين يساقون كالعبيد، وأموالهم ومقتناهم ينزع منهم قسرا كالسابق. وبدأت الثورة تعتمل في النفوس وذُر قرن التمرد عليها، وعقدت اجتماعات عامة ذات طابع خطير في انحاء المدينة. ولم يخف أمر هذا الاضطراب الداخلي عن عين العدو، فأغار على البلاد وعاث فيها سلبا ولما أعلی القنصلان النفي وطلباً حضور كل من بلغ سن الخدمة العسكرية الى مقرات التجنيد، لم يلب أحد من المواطنين الدعوة في بضعة ايام فبادر مجلس الشيوخ الى عقد اجتماع للمداولة في الأمر واتخاذ قرار إلا أن أعضاء انقسموا على أنفسهم وأختلفت وجهات نظرهم، فبعضهم ارثاء، التنازل للفقراء عن القليل وخطب ودّهم بالتخفيف من صرامة القانون المتناهية، وارضاء قبضتهم عن حقوقهم المهضومة جداً. وعارض بعضهم الآخر هذه المقترحات وكان (مارشوس) أشدّ الاعضاء الآخرين تحمساً لرأيه وهو أن قضية المال من كلا جانبيها، ليست الموضوع الأساسي. وقال إن أعمال التمرد والعصيان ما هي إلا الخطوة الأولى الوقحة نحو إعلان الثورة الصريحة على أحكام القانون. وان واجب قمعها قبل أن يذر قرنهما يقع على عاتق الحكومة، ويتوقف على حكمتها في معالجة الموقف.

وواصل مجلس الشيوخ عقد اجتماعات عديدة في فترة من الزمن قصيرة، لبحث المشكلة ولكنها لم تسفر عن نتيجة أو قرار معين.

وعندئذ أقنعت العامة بأن احتمال انصافهم من ضييمهم يكاد يكون منعدماً. فاتفقوا فيما بينهم على رأي واحد وأجمعوا أمرهم على ترك المدينة دفعة واحدة. فخرجوا واحتلوا المرتفع المسمى «بالجبل الأقدس» وانتشروا في السهل القريب من نهر (آنيو) (*) دون القيام بأي عمل من أعمال الشغب أو العنف. وانما كانوا يرفعون أصواتهم بالشكوى وهم راحلون: بأنهم كانوا في الواقع قد طردوا من المدينة قبل زمن طويل، لقسوة الأغنياء وظلمهم. وان أي جزء من ايطاليا لن يبخل عليهم بالماء والهواء، والمدفن، وهذا كل ما كانوا يحصلون عليه في روما، اللهم إلا إمتياز الموت والمجرح في الحرب دفاعاً عن دائنيهم!

وتوجّس المجلس خيفة من نتائج ذلك فأختار من أعضائه شيوخاً من طبقتهم، اكثهم استقامة وشعبية وبعث بهم لمفاوضة طبقة العامة. وأسهب رئيس المفاوضين (مينينيوس أغريبّا Menenius Agrippa) في النصيح والرجاء من الشعب، نيابة عن المجلس، وحتم كلامه الصريح بالحكاية المشهورة الآتية:

(*) يبعد ثلاثة أميال عن المدينة (لوقي ٢٠٢٢.٢).

«حدث مرة أن أعضاء الجسم كلها ثارت على المعدة واتهمتها بأنها العصور العاطل الوحيد، والذي لا يقدم أي خدمة للبدن، في حين يتعبد سائر الأعضاء. ويقوم بأشق الأعمال لإشباع نهمها، وسد حاجاتها وشهواتها. فسخرت المعدة من رقاعة الأعضاء التي يظهر أنها لا تعلم شيئاً عن واجب المعدة، حيث أنها لا تتسلم الغذاء إلا لتوزيعه من قبلها على بقية الأعضاء، تلك هي القضية بينكم أيها المواطنون، وبين مجلس الشيوخ. أن الخطط والمقرارات التي تنقل اليكم وتضمن لجميعكم الفائدة والمصلحة، إنما تهضم هناك كما ينبغي».

وحلّ الصلح والوئام، ونزل مجلس الشيوخ إلى مطالب العامة حول انتخاب خمسة محامين^(٦)، لأولئك المحتاجين إلى المعونة. وهم الذين يقال لهم «مفوضو الشعب: تريبيوني Tribune» في أيامنا هذه. يتم انتخابهم سنوياً. وأول من تولى هذا المنصب [جونيسوس بروتوس Junius Brutus]^(٧) و[سيثينيوس فيلوتوس Sicinnius Vellutus]، اللذين تزعا العامة في خروجهم من المدينة.

وهكذا عادت الوحدة تسود المدينة وفزع العامة إلى سلاحهم فوراً وساروا إلى الحروب وراء قادتهم، بحمية ونشاط. وأما عن إمارشوس فمعه أن غيظه لم يكن بالقليل، لتغلب إرادة مجموع الشعب على مجلس الشيوخ وتحقيقهم مطالبهم، ومع أنه وجد عند الكثير من الباتريشيين السخط والاستنكار نفسه للتنازلات الأخيرة، فقد رجاهم مع ذلك أن لا يكونوا أقل حماسة واندفاعاً في خدمة الوطن والبذل له، من العامة على الأقل، بل أن يبرهنوا على تفوقهم في الجدارة والكفاءة أكثر من تفوقهم في الغنى والجأء.

كان الرومان وقتذاك يخوضون حرباً مع الثولسيين. الذين اتخذوا [كورولي Corioli] عاصمةً. ولذلك ضرب القنصل [كومينيوس Cominius] الحصار على هذا الموقع الهام، ولخوف بقية الثولسيين أن تسقط، حشدوا كل ما أمكنهم من القوات واستقدموها من كل

(٦) كان عددهم خمسة في الأول. وبعد سنوات قليلة ضم إليهم خمسة آخرون. وقيل أن يترك الجمهور [مونس ساچير Mons Sacer] استقوا قانوناً جعلوا فيه شفعى التربيون مصوناً ومقدساً. ورسموا بأن على أن تكون مهمة التربيون الوحيدة التدخل لإيقاف كل اعتداء يقع على أفراد الطبقة العامة من جانب الاسياد وهو ما يدعى بـ Intercessor ومؤداه أن يقف التربيون على قدميه وينطق بكلمة واحدة (Veto أنا امتنع) ذلك. وتوضع للتربيونات مقاعد عند باب مجلس الشيوخ ولا يدخلون المجلس إلا عندما يستدعيهم القناصل لتبادل الرأي حول مسألة تتعلق بمصالح الشعب.

(٧) اسم هذا التربيون [لوچيوس جونيوس] وبما أن لوچيوس جونيوس بروتوس قد اشتهر لأنه انفذ البلاد من تحكم الملوك فقد اُضاف إلى اسمه لقب [بروتوس] مما عرضه إلى كثير من السخرية والتعليق العكس (الكلمة اللاتينية Brutus تعني بالراج الغبي، وباللغة الأدبية الثقيل).

ناحية لأجل فك الحصار عنها، وكانت خطتهم أن يشتبكوا مع الرومان أمام المدينة، ليتمكن حصرهم من الحاسين. ولكيما يجتنب كومينيدس هذا الموقف الصعب، قسم جيشه الى قسمين وزحف بأحدهما للهجوم على الفولسيين عند اقترابهم من الخارج تاركاً [تيطس لارتيوس - Titus Lus Lartius] وهو من أشجع الرومان، على رأس القسم الثاني لمواصلة الحصار. وتبست الحامية الفولسية في داخل المدينة كم كان عددها قليلاً فدفعها اليأس الى الهجوم على المحاصرين، ورجحت كفتهم أولاً وطاردوا الرومان حتى خنأدهم. وهنا خرج عليهم [مارشيسوس] بسرعة قليلة العدد ومزق أول المهاجمين غزيقاً، وأجبر الباقيين على تخفيف وطأة هجومهم ثم أطلق صيحة عظيمة بالرومان وأهاب بهم لتجديد المعركة. فقد كان في إهابه كل ما يتطلب من الجندي ليس قوة الساعد وشدة الطعن وحدهما بل قوة الصوت وصرامة النظرات التي من شأنها أن تلقى الرعب في قلوب العدو - كما قال [كاتو Cato]. واستجمعت طوائف من صحبه قواها، وهرعت لإسناده فأنقلب هجوم العدو الى تفهقر، إلا أن [مارشيسوس] لم يفتح بمشاهدتهم يلمون شعبتهم وينسحبون بل شدّ عليهم النكير وصك مؤخرتهم صكاً عنيفاً ودفعهم بما يشبه الهزيمة السريعة الى ابواب مدينتهم. وهنا تبين أن الرومان يريدون النكوص على أعقابهم، مدحورون لفرط ما يطرهم العدو بالرمح من فوق الأسوار. وإن ليس بين من تبعه الشجاعة الكافية للتفكير في الاختلاط بالعدو الهارب والدخول الى المدينة المكتظة بالعدو المستعدّ بسلاحه، على أنه وقف وأخذ يحثهم على المحاولة صارخاً، أن القدر لم يفتح أبواب [كوربولي] لايواء الهاربين قدر ما فتحها لاستقبال الفاتحين. والتحق به عدة قليل كانوا راغبين في مشاركته في المغامرة، فشقوا طريقهم خلال الحشود المندفعة وأفلح في الوصول الى الباب واقتحمه من وسطهم ولم يجرأ أحد على مقاومته في مبدأ الأمر. إلا أن العدو تشجع عندما تبين قلة عددهم، وحمل عليهم فدارت معركة يقف القلم عن وصفها وفيها تمكن [مارشيسوس] من التغلب على كل مهاجم تصدى له بقوة الساعد وخفة القدم وجرأة النفس، ونجح في تشتيت شمل العدو الذي فرّ ناجياً الى داخل المدينة. أما الباقيون فقد استسلموا له والقوا سلاحهم. وبهذا اتاحوا [للارتيوس] فرصة كبيرة جداً للزحف على المدينة ببقية الرومان واحتلالها بسهولة وإطمئنان.

بعد أن تمّ إحتلال [كوربولي] بهذه الصورة المفاجئة، انصرف القسم الأعظم من الجنود الى النهب والسلب، و[مارشيسوس] الذي أحنقه هذا العمل راح يؤنبهم ساخطاً، ويصف أعمالهم بالدناءة والضعة، فبينما يخوض القنصل وينو جلدتهم معركة مع القسم الثاني من جيش الفولسيين، ويحاطرون بارواحهم في القتال، وجدهم يسيئون استخدام وقتهم في الركض وراء

الغنائم هنا وهناك. مبتعدين عن مكان الخطر بحجة أغتنام الأموال. ولم يعره أذنًا صاغية إلا نعر قليل، فما كان منه إلا أن وضع نفسه على رأسهم سالكاً الطريق الذي تحرك منه جيش القنصل قبله وكان وهو يكذب دؤوباً يدعو للآلهة كثيراً أن تسعده بالوصول الى ميدان الحرب قبل نهاية المعركة، وبلوغ [كومينيوس] لمعونه في اللحظة المناسبة، والمشاركة في أخطار القتال. وكان من عادة رومان ذلك العصر، عندما تتحرك قطعاتهم الى خط المعركة، ويكونون على وشك أن يرفعوا تروسهم ويشدون عبائهم على خواصرهم، أن يتبادلوا وصاياهم غير المكتوبة أو الشفوية فيما بينهم، وأن يسموا وارثهم بشهادة ثلاثة أو أربعة شهود. وقد لحق بهم مارشيوس ليجدهم في تلك الحالة والعدو على قيد النظر منهم.

ولم يكن اضطرابهم بالقليل عندما وقع عليه نظره وهو يسبح بالعرق والدم وليس معه إلا شرذمة. ولكنه أسرع الى القنصل وعينه تومضان سروراً ومد اليه يده، وقصّ عليه تفاصيل الاستيلاء على المدينة، ولما رأى الجنود [كومينيوس] يحتضنه ويحيه أيضاً أنتعشت قلوبهم جميعاً وارتفعت معنوياتهم وسمع من كان قريباً منهما ماحصل، وضمنه من كان بعيداً وصاح الكل بصوت واحد يطلبون الأمر بالمعركة وسأل [مارشيوس] منه أولاً عن كيفية تنظيم الفولسبين جيشهم وأين وضعوا خيرة رجالهم فأجابهم أنه يعتقد أن جنود [الانتيات Antiates] في القلب هم خيرة محاربين. وانهم لا نظير لهم في الإقدام والشجاعة. فقال [مارشيوس] «فدعني أطلب منك، ولأحصل على موافقتك في وضعي أمامهم» فحقق القنصل رجاءه وقد أمتلأ أعجاباً ببسالته ولما التحم الجمعان وراح الجنود يصوبون رماحهم بعضهم الى بعض، وسبق مارشيوس سائرهم في الهجوم، عجز الفولسبيون المتصددين له عن أن ينالوا منه قتيلاً، وكان يخرق صفوفهم أنى حمل عليهم، ويشقّ فيهم شقاً عميقاً إلا أن الشق يعود ثانية ليطبق عليه من الجانبين ويحصره في وسط السلاح المشرع. واذا أدرك القنصل الخطر الذي يتعرض اليه، دفع بنخبة من المقاتلين اليه لنجدته، وعندئذ حسم الوطيس واستشرى القتال حول [مارشيوس] وسقط عدد كبير من القتلى في رقعة صغيرة من الأرض. وأشدت وطأة الرومان على أعدائهم، واذاقوهم مرّ القتال حتى ارغموهم على الانكفاء ورحزحوهم عن مواقعهم ثم أخرجوهم من ميدان القتال. وطلبوا من [مارشيوس] متوسلين وهم يهمون باستثمار الفور - أن يعود الى المعسكر ويرتاح بعد ما رأوا ما أصابه من الإرهاق وخور القوى لما فقد من دماء. فأجابهم أن التعب لم يخلق للمتصرين واندفع معهم لمطاردة العدو. وهزمت بقية الجيش الفولسبي على هذه الشاكلة وقتل منهم خلق كثير وأسر ما لا يقل عدده عن القتلى.

وفي اليوم التالي قدم [الارسيوس] نفسه مع أفراد الجيش الى القنصل في سرادقة. فنهض

(كوميينيوس) وبعد أن قدم فروض الشكر الواجبة للآلهة على النصر الذي توجت به تلك الحرب. التفت الى [مارشسيوس] وألقى كلمة ثناء لا نظير لها بحق ثلاثه النادر المثال وشجاعته العاتقة التي كان شاهداً عياناً لقسم منها في المعركة الثانية. وسامعاً لتفاصيل القسم الأول من قم [لارسيوس] ^(٨) وبشهادته. ثم طلب منه أن يختار لنفسه العُشر من كل الأموال والحيل والأسرى التي في ايديهم قبل اجراء اي توزيع منها على الآخرين. وقدم له هدية شخصية اعترافاً باعماله المجيدة وهي جواد بكامل سرجه وزينته. وهتف له جميع افراد الجيش. على أن [مارشسيوس] برز الى الأمام، وأعلن عن قبوله الجواد مع الشكر وامتنانه للمديح الذي ناله من قائده. وقال: أنه ينبغي له رفض كل ما براه أميل الى مجرد منافع للجنود المرتزقة من كونه ميزة من إمتيازات الشرف، ولذلك لاسعه قبول العشر ويقنع بالسهم الذي يقع له عادة أسوة بغيره. «ولدي رجاء خاص واحد أطلبه وأملني ان لايرفض. عندي بين الفولسيين صديق كريم، رجل ذو فضيلة واستقامة. وقع اليوم أسيراً وآل الى العبودية بعد الغنى والحرية. فأرجو أن تسمحوا لتدخلني في أمره بأنقاذه من إحدى مصائبه، والحيلولة دون بيعه كعبد من العبيد». وأثار رفض [مارشسيوس] ورجاؤه هتاف استحسان أشد من السابق وكان الذين أعجبوا باستعلائه الكريم عن الجشع أكثر عدداً من المعجبين العديدين بشجاعة التي ابداه في القتال. وان عين الأشخاص الذين شعروا بشيء من الحسد والكراهة عندما رأوه يُخصّ بالتكريم على هذه الشاكلة، لم يسمعهم إلا أن يقرروا بأن الرجل الذي لايتردد في رفض مكافأة بهذه الطريقة النبيلة لهو أرفع بكثير من أي مستحق لها. وقد كان أعجابهم واندهالهم أشد بسجيته تلك التي جعلته يحتقر المال والمنفعة المادية، من سجاياه ومآثره الأخرى السابقة التي أنالته لقبه. انه لأسى عملاً أن يحسن المرء استعمال المال من استعمال السلاح، إلا أن رفضه وعدم استعماله هو انبل من استعماله.

ولما سكنت الهتافات ونداءات الاستحسان استأنف [كوميينيوس] حديثه قائلاً: «من العبث أيها الرفاق الجنود أن نحاول حمل الرفض المتأبى على قبول هدايانا بالقوة والإلحاح ولذلك فلننقطع هدية من النوع الذي لايمكن رفضه قط. فلنصوت على إقتراح يقضي بتسميته [كريولانوس] من الآن فصاعداً، إلا اذا رأيتم أن مآثرته في [كوريولي] قد سبقت هي نفسها اي قرار بهذا الشأن» وهكذا جاء هذا الاسم الثالث [كريولانوس] موضحاً بأن [كايوس] هو الاسم المجرد الشخصي، والثاني وهو اسم الأسرة أو اللقب [مارشسيوس] الذي يعرف به بيته

(٨) هو الصابط الذي ترك لمواصلة حصار [كوريولي]. ان شهرة مارجيوس بسبب العمل البطولي كانت تكشف متأثرة القصل كما يخبرنا ليفي [٢٣:٢] ولم يظن اسم [يوسيتيميوس كوتيونيوس] إلا أنه كان حفاراً على السحاس دعت اليه الحاجة عندما عقدت معاهدة الصلح من اللاتين فيما بعد.

وأُسرته. والثالث هو أضافة تالية، جرت العادة على اتخاذه لصفة عارضة من صفات الحياة لحقت بصاحبه، جسمانية كانت أم خُلقية أو لسجية طبية في صاحبه. مثلما كان الأغريق أيضاً يلصقون أسماء اضافة في العهود الأولى بالأسماء الأصلية في بعض الحالات بسبب عمل أو ماثرة ما. فتجد مثلاً اسم «سوتر Soter»^(*) و«كاللينيكيوس Callinicus»^(**) أو لظهر شخصي كقولهم «فيسكون Physcon» (ذو البطن المفتوحة) و«غريپوس Gryps» (ذو الأنف المعقوف). أو لميزات طبية كقولهم «يورغيتس Eurgetes» (المحسن) و«فيلادلفوس Philadelphus» (محب الأخ أو الأخت) أو لحسن حظ كقولهم يوديون Eudaemon (المتنعم) والأمير الثاني من عائلة وهو لقب باتوس^(٩).

ولقب عدة ملوك أيضاً باللقاب سخرية مثل انتيغونس الذي اشاع له لقب دوسون Doston (الرجل الكثير المواعيد). وبطليموس الذي لقب لاثميروس Lathimerus (فول العلف) وهذا النوع من اللقب هو أكثر انتشاراً عند الرومان فقد لقب شخص من أسرة ميتللي Metelli بلقب دبادماتوس Diadematus لأنه كان يخرج للناس زمناً طويلاً وقد عصب رأسه بعصابة تغطي ندبة في جبينه ثم آخر من الأسرة نفسها لقب چلير Celer لسرعته في تهيئة وعرض حفلة مصارعين بمناسبة تشييع جنازة أبيه خلال أيام قليلة. بتلك السرعة والحمية اللتين عُدّا من الخوارق. ويوجد الى يومنا هذا بعض من أنتسب اسمه الى حوادث طارئة حصلت اثناء ولادته. فالطفل الذي يولد وابوه بعيد عن البيت أو هو في سفر يدعى بروكولوس Pruculus أو پوستيموس Postimus إذا ولد بعد موت أبيه وعندما يولد توأمان ويموت أحدهما اثناء الوضع يدعى الحي منها فوبيكوس Vopiucus. ومن ذوي الشواذ جسمانياً لم يقتصرُوا على اشتقاق اللقبين سيللا Sylla (البقع) ونيجر Niger (أسود) ورفوس Rufus (الأحمر). بل كايكوس Caecus (الأعمى). وكلودي Claudii (الاعرج). يريدون تعويد شعبهم لحكمة فيهم، بالا بكثرُوا لا لفقد البصر، ولا لأي عاهة جسمية أخرى، والأ يتركهم الخجل من تلبية أي نداء بهذا الاسم كما لو كان أسهم ولا يعدونه تقيصة أو مجلبة للعار. ولنكتف بهذا القدر من الموضوع فسبيلنا اليه موضع آخر.

(*) الحفيظ.

(**) المنتصر.

(٩) يقول هيرودوتس [١٥٩٠٤] انه أعطي للثالث وليس للثاني [ملك كيرينه] ومن قبيل هذه الالقب والصعات أشتهر ثامن ملك من ملوك البطالة بلقب (سوتر). كما منح لانطيوخوس وديمتريوس وكالليبيكوس لسوقوس الثاني رابع ملك على سورية. (وقيكون) لبطليموس سابع ملك على مصر (غريوس) لانطيوخوس التاسع عشر ملك سورية.

ما أن وضعت حرب الفولسين أوزارها حتى أحيا زعماء الشعب الخطباء الشعبيون القلائل الداخلية، وأثاروا نزاعاً آخر دون سبب جديد أو شكوى أو ظلم واقع، وإنما جعلوا من المصائب التي تأتي حتماً في أعقاب التناحر السابق، حجةً لمهاجمة الباتريشيين. كان معظم الأراضي الصالحة للزراعة قد ترك دون حراثة أو بذار، فالحرب لم تمنحهم فترة راحة، أو مجالاً لاستيراد الأقوات من بلاد أخرى. فشح الطعام في روما إلى درجة متناهية^(١٠). ولاحظ مثيرو الشعب أنه لا يوجد من القمح ما يمكن شراؤه، وإن وُجد فلا مال هناك لشراؤه. فراحوا يختلقون الروايات والحكايات على الأغنياء ويذيعونها همساً، وكلها ترمي إلى تصوير المجاعة بأنها نتيجة قحدهم وبتدبير متعمدٍ منهم. وفي ذلك الوقت أقبل وفدٌ من [الفيليتراني Velitani] إلى روما باقتراح تسليم مدينتهم للرومان، وبرغبتهم في أن ترسل مستوطنين جدد ليسكنوها، لأن الوباء الذي اجتاحتها لم يبق من مجموع سكانها إلا ما يناهز العُشر. وأعتبر الرومان البعيدو النظر هذه الضرورة الفيليترانية، فرصة نادرة المثال على ضوء أوضاعهم العصيبة الراهنة. لأن المجاعة المتفشية أوجب القيام بالتنفيس عن المدينة وتخليصها من فائض السكان. وكانوا يأملون من هذا أيضاً تبديد سحب الثورة المجتمعة بالتخلص من أكثر المواطنين عنفاً وأحمى المشاغبين رأساً، وتفرغ عناصر الفوضى والمرض خارج جهاز الدولة على ما يقال.

وعلى هذا الأساس قام القنصلان بتسجيل أسماء المواطنين الذين وقع عليهم الإختيار للسكنى في مدينة [فيليتري Velitrae] التي كادت تقفر، كما أخطروا بقية المواطنين بوجوب التأهب لحمل السلاح ضدّ الفولسين. وكان الهدف من ذلك سياسياً وهو التحيلولة دون فتنة داخلية باشغال جماهير الشعب في أمور خارجية. ورأيهم هو أن يؤدي اختلاط الفقير بالغني الباتريشي بالفيليني في صفوف الجيش ومعسكراته وقيامهم معاً بخدمة وطنية واحدة - إلى حلول التصافي ووصل حبال الودّ فيما بينهم.

إلا أن المفوضين الشعبيين [سيبخيوس] و[بروتوس] تدخلوا في هذه الإجراءات وأعلنوا أن القنصلين بخفيان أشنع وأقسى عملية تحت الاسم البراق اللطيف «الإعمار والإسكان»، وإنهما يطرحان بالعدد الكبير من فقراء المواطنين إلى هذه الدمار والحرب يعرضهما عليهم السكن في مدينة أثقل هواؤها بالوباء، وغطيت أرضها بجثث الموتى. وإنهما يدفعان بهم إلى غضب

(١٠) انسحب العامة إلى الحبل المقدس Mins Secer قبل موعد الفلاحة ولم يبرم صلح بينهم وبين الباتريشي حتى انقلاب الشتاء. وهكذا ضاع وقت البذار [ديون ١٠:٧] وأرسلت روما وكلاهما لشراء القمح من أقطار أخرى كاتروريا وكامپسانيا وفولسكي حتى بلغوا صقلية. لكنهم عادوا خائبين إلا من اتروريا [انظر ليفي ٢٤:٢].

آلهة غريبة عنهم. وكأن حقدتهما لم يكفه القضاء على فريق منهم جوعاً، وتعريض الفريق الآخر الى شرّ طاعون فتاك، تراهما الآن يباشران أيضاً عملية إقحام المواطنين في حرب لا ضرورة لها، حرب أثارها بتدبير منهما فحسب. وبهذا لا يعود يبقى ناثية أو مصيبة للامتصاص من المواطنين، بسبب رفضهم الاستخذاء للأغنياء واستعبادهم، إلا مارسوها بحقهم.

بهذه الأقوال وأمثالها جنّ جنون الشعب، ولم يلبّ أحد منهم الأمر القنصلي بالحضور وقيد اسمه في سجلّ التطوع، وأظهروا عزوفهم العام عن طلب المباشرة بزراعة الموسم الجديد، فأسقط في يد مجلس الشيوخ ولم يدر ما يقول وماذا يفعل إلا أن [مارشيسوس] الشاعر بقوة نفوذه، المعتمد على رصيد مآثره الماضية، والمتأكد من أعجاب ومشابعة خيرة رجال روما وأشرافها ما لبث أن أخذ بيده زعامة معارضة المؤيدين لمطالب الشعب. وتم إرسال المستعمرين الى [فيلتري] من الذين خرجت أسماؤهم بالقرعة، وأرغموا على الرحيل تحت التهديد بانزال أشدّ العقاب بهم. ولما بقي الآخرون مصرين على رفض الخدمة العسكرية والخروج لحرب الفولسيين، قام [مارشيسوس] بتعبئة اتباعه ومناصريه ومن أستطاع أقناعه، وشن بهم غارة على تخوم [الانتيات] وسطا على قدر جسيم من القمح، وغنم كثيراً من الماشية والأسرى، وعاد الى روما منتصراً ولم يحتفظ لنفسه بشيء مما غنمه، إلا أن جنوده عادوا مشقلين بالأسلاب يسوقون انعامهم وأسراهم أمامهم. هذا المشهد أقنع المستنكفين عن القتال أسفاً وقهراً وأدركهم الندم لسوء موقفهم، وأمتلاؤا حسداً وغيرة من أخوانهم، وبذلك رسخ في نفوسهم كره عميق لمارشيسوس، وحنقوا عليه وعلى سمعته الداوية ونجم سلطانه الصاعد الذي قد يستخدم ضدّ مصالح الجماهير.

ولم يمرّ طويل زمن حتى تقدم [مارشيسوس]^(١١) مرشحاً لمنصب القنصل، وكانت الظواهر تشير الى ان الجمهور بدأ يميل الى جانبيه ويحبذ انتخابه، إذ كان الشعور السائد أنه من المخجل أن ينهز رجل كمارشيسوس عريق النسب، ذي مؤهلات وكفاءة، بعد قيامه بتلك الخدمات الجليلة الفريدة في بابها.

ولقد جرت العادة أن يمتزج المرشحون لمنصب القنصل بكلّ طبقات الشعب ويدعون لانتخابهم بالخطب والكلام الرقيق وسائر ضروب التزلف والاستمالة، وان يحضروا الى [الפורم] وليس على أجسامهم من ثياب غير الرداء الفضفاض المسمى «توگا Toga»، ولا يخلو القصد من

(١١) في ٤٩٠ ق.م. لانيوه لفي بموضوع ترشيح. وكان [مارشيسوس] يلج على مجلس الشيوخ للاستفادة من حالة المجاعة وارغام العامة (الپليبيان) على التنازل عن تربيوناتهم. فأضحى العامة حتى أنهم حاكموه عيابياً وأصدروا حكماً بنفيه. فالتحق بالفولسكيين. وتتفق رواية پلوتارخ مع رواية [ديون ٢١-٢٦] في هذا الصدد.

هذا إما تواضعاً في اللباس أمام الجماهير ليحسنوا في عينه، وإما ليسهل من أصيب منهم بجراح - أمر عرض ندوبها الشاهدة على حسن بلاتهم. ومن المؤكد أن الظهور بالثوب المضفاض من دون مشد أو حزام لا يقصد به إزالة أي شك في نفي مظنة الرشوة والفساد عن صاحبه المرشح الذي يريد أن يخطب ود الشعب. إن صفقات البيع والشراء لم تتسلل في عمليات الانتخاب، والمال لم يصبح من مقومات النجاح الأساسية في الاقتراع العام إلا بعد قرون عديدة من القرن الذي نحن الآن بهدده.

فعندما بدأ الفساد يستشري استبيحت حرمة مجالس القضاء، وهوجمت حتى المعسكرات. وأصبح المال فهو سيد الدولة بلا منازع عن طريق استئجار الشجاعة وشراء البطولة، واستعباد الفضّة للحديد. وأنقلب النظام الجمهوري الى حكم فردي ملكي. ولله در القائل: إن أول من هدم حريات الشعب هو أول من أغرقهم بالهدايا والأعطيات. وفي روما يظهر أن الفساد تسلل في الداخل سراً وبصورة متدرجة، فلم يظهر للملأ فجأة ولم تلحظه العين في مسراه، وليس يعرف الضبط أول من أستخدم الرشوة مع المواطنين وأول من أفسد دور القضاء والمحاكم. في حين كان المشهور في أثينا إن أنتيوس ابن انثيميون^(١٢) هو أول من رشا القضاة لما حوكم في آخر مرحلة من نهاية حرب البولوبونويس، بتهمة تسليمه حصن (پيلوس)^(*) الى العدو، وهو عهد كان يسيطر فيه على (فورم) روما جبل طاهر نقي ذهبياً من الرجال.

وكعادة المرشحين لمنصب القنصل، كشف مارشيسوس عن الندوب والجراح الظاهرة في جسمه، من جراح الوقائع والمعارك العديدة التي أبلى فيها أحسن بلاد خلال سبع عشرة سنة متصلة، فأثر فيهم تأثيراً عميقاً وراح أحدهم يقول للآخر: إن السباحة الشعبية تفرض انتخابه فنصلاً. ولكن لما أرف يوم الاقتراع، وظهر (مارشيسوس) في الفورم تحفّ به بطانة فخمة من الشيوخ، ويحيط به جميع الباتريشيين، وسيماؤهم تنطق بعظيم اهتمامهم بالأمر، وحركاتهم تنم عن جهد يبذلونه في سبيل إنجاح (مارشيسوس) فاق أي جهد بذلوه في مناسبة مماثلة أخرى، توجس الجمهور خيفة وأصيب بصدود مفاجيء عنه، وارتدوا عن العطف الذي أبدوه له، واستبدلوا النية الطيبة له، بشعور السخط والحنق والتقت هذه العاطفة الأخيرة بالخوف من أن يستخدم الباتريشيون هذا الرجل الارستوقراطي الخلق، العظيم النفوذ سلطة المنصب الممنوح له لغمط حقوق الشعب وسلبه الحريات التي بقيت له. فعدلوا عن انتخابه ووكوا قنصلين آخرين. وكان

(١٢) تأتت شهرته من توجيهه الاتهام لسقراط.

(*) بقعة على الساحل الغربي من مسينيا في البولوبونويس. احتلها الآثينيون في ٤٢٥ ق م (توكيديدس ٢.٤ -

٤١ في ٤١٠ حاصرها اللقيديميون فسلمت حاميتها المسيينة وفشل أسطول اثيني في قهرها.

هذا أشبه بطعنة نجلاء اصابته مجلس الشيوخ في الصميم وشعر اعضاؤه إنهم قُصدوا بالإهانة أكثر مما قصد [مارشوس] ، ولم تكن حالته بأفضل منهم ، وصعب عليه احتمال العار بأي قدر من الصبر والاحتساب فلقد كان دوماً يطلق العنان لما في نفسه ولا يجعل لمشاعره ضابطاً وكان يعتبر صفتي الكبرياء والتعدي في الطبع البشري مرادفتين للتبيل والشهامة أما النظام والعقل فلم يزرعا فيه صفة الاتزان وضبط النفس وهما من السجايا الأساسية التي تلازم رجل السياسة. انه لم يتعلم كم هو ضروري وجوهري لمن يتولى الشؤون العامة، ويتعامل مع بني البشر. أن يتجنب غرور النفس والاعتزاز بها، تلك الصفة التي يقول عنها أفلاطون «انها تنتمي الى عائلة العزلة»^(١٣)، لم يتعلم أن يتصف قبل كل شيء، بقابلية الكظم، والسكوت على سوء المعاملة التي كانت موضع احتقار عموماً. إن [مارشوس] الصريح كل الصراحة، والمستقيم الذي كان يؤمن بأن الشجاعة الحققة هي قهره كل معارضة والقضاء على كل ماجر. لم يكن يستطيع أن يتصور بأن ما انفجر في نفسه هو الضعف والأثوثة في طبعه. أعى قروح الغيظ هي التي تفجرت من مكان نفسه، فجعلته ينسحب وهو يمتلي، حقداً ومرارة وخفناً على الجمهور. وزاده حقاً رؤيته الشبان الباتريشيين المعترزين بعراقه أصولهم المخلصين لقضيته، الذين ناصروه باخلاص لم تُجن منه أية فائدة؛ وهم يظهرون الآن علامتهم سخطهم. ويحاولون تعريته والتسرية عنه. ولا عجب فقد كان لهم قائداً ومعلماً متفانياً في فنون الحرب والقتال، وكان نموذجهم المحتذى في مجال المنافسة الحققة والاستباق الى المجد والبطولات، الذي يجعل المتنافسين ثميني بعضهم على مآثر بعض باخلاص خالٍ من الغيرة والحسد.

وفي وسط هذه الغليان السياسي وصلت شحنات كبيرة من القمح الى روما. قسم منها ورد من أنحاء إيطاليا، وقسم معادل له قدمه [غيلو Gelo] ملك سيراكوز هدية لروما. وداعب الكثيرون الأمل بانفراج الأزمة على أثر ذلك، مُقدِّرين ان المدينة ستتخلص من أنياب القاعة والعسر، ومن مضاعفات النزاع الداخلي. ويادر المجلس الى عقد اجتماع فوري وتقاطر الجمهور وأحاط بقاعة المجلس ينتظر بلهفة نتيجة الاجتماع، وكان يتوقع أن يجري تخفيض من أسعار السوق التي ارتفعت إرتفاعاً جسيماً، وإن يتم توزيع شحنة القمح المهداة بدون ثمن، وفعلاً نصح بعض أعضاء المجلس باتخاذ قرار بهذا. إلا إن [مارشوس] هب قائماً وهاجم بكل عنف كل من تكلم لمصلحة الجمهور ونعتهم بالمتزلفين للأوشاب، والغادرين بالنبل، قائلاً أنهم سيرسخون بهذه المنحة، جذور البذور السيئة من الوقاحة والغطرسة التي غرسوها في نفوس الشعب، خدمة لأغراضهم الخاصة. وانهم ليفعلوا حسناً لو انتبهوا الى تلك

(١٣) ترجمتها العقيقة من اليونانية القديمة «الأنفة تعيش مع العزلة تحت سقف واحد»

الجنود واجتثوها قبل أن تخرج شططها، لا أن يدعوا طبقة الهليبيين تزداد قوة ومناعة بمنحهم حق تعيين حكام ذوي سلطان عظيم « كمفوضي الشعب: تربيون ». وهامم الآن يمارسون نفوذاً واسعاً في دوائر الدولة ما دام يلجئ لهم كل طلب، وما دام لا يوجد كايح لاراداتهم وما داموا يرفضون اطاعة أوامر القناصل ويأبون الانصياع لأي قانون أو حكم قضائي ويمنحون لقب القصاة لزعماء احزابهم... وه عندما تؤول الأمور بنا الى هذه النهاية، ونجلس نحن هنا لنقرر لهم منحاً وهبات. مثل الاغريق الذين أودعوا السلطة العليا في أيدي جماهير الشعب، فليس لنا من حيلة إلا أن نسلم مقاليد أمورنا اليهم طائعين ونقوم على رعايتهم ومداراتهم لأجل خرابنا جميعاً. لاشك في أن هذا الكرم لا يمكن أن يعتبر مكافأة عن خدمات عامة، لطالما أبوا المساهمة فيها، وهم أعرف بذلك من غيرهم، ولا منحة عن الفوضى والانقسام الذي أحدثوه. فكانوا بها كالمتهربين من وطنهم والمتخلفين عنه. ناهيك بالإهانات والشتائم التي كانوا دوماً مستعدين لقذف مجلس الشيوخ بها. وإحال أنهم يرون الدافع الى تقرير المنحة لهم خوفاً منهم وتزلزلاً اليهم، لذلك لا يمكن أن يوضع لتمردهم حد، ولن يقفوا عن إثارة القلاقل والاضطراب، وأن التنازل لهم، محض جون، ولو كان لدينا ذرة من العقل، وشيء من العزم فعلياً ألا نهدأ بل سترجع منهم كل سلطات المفوضين الشعبيين^(١٤) التي اترعوها منا ابتزازاً. لأن بقاها في أيديهم معناه هدم السلطة القنصلية، وعامل تفرقة مؤيدة في مدينتنا، التي أصابها منه الآن حرج بليغ لم تصب بمثله من قبل ويفتق ليس ثم احتمال في التحامه مرة أخرى، ولا أمل في رأيه والعودة الى الرأي الموحد، والكف عن اذكاء نار الخلاف وصيرورتنا مصدر عذاب أحداً للآخر^(١٥).

وبدوام ضرب [مارشيس] على هذا الوتر الحساس ضرباً بارعاً، نجح في اذكاء المشاعر العنيفة في نفوس الشيوخ الهاتريشين الأصغر سناً، وحمل كل الأغنياء تقريباً على الانحياز الى صفه، فلهجوا باسمه ووصفوه بالرجل الأوحى في المدينة الذي ارتفع فوق الرّيا، وتحدّى القوة. على أنه لقي معارضة من بعض كبار السن، يدفعهم الخوف من النتائج. والواقع انه لم ينجم عنه إلا الشر المستطير. اذ عندما أدرك مفوضو الشعب الهدف الذي يرمي اليه [مارشيس]، خرجوا من المجلس مسرعين وأهابوا بالحشود المجتمعة أن يتراصوا ويتكاتفوا ويسرعوا الى معونتهم. ثم عقدوا إجتماعاً جماهيرياً أنقلب الى تظاهرة عاتية. وللخص

(١٤) كان التريبونيات مؤخرأ قد سنوا قانوناً يجعل مقاطعتهم اثناء الخطاب جريمة معاقباً عليها.

(١٥) حذف بوليتارخ أخطر وأهم فقرة في خطبة كريبولانوس. فقد أقرح في هذه الفقرة ابقاء سعر القمح كما كان عليه من ارتفاع ليبقى الشعب معتمداً على السلطة خاضعاً لها. [انظر ديون]

للجمهور كلام [مارشوس]، فشأرت ثأثرته واجتاحته عاصفة من الخنق، وهمّوا باقتحام المجلس، إلا أن مفوضي الشعب حالوا دون ذلك، بالقاتهم التبعة كلها على [كريولانوس]. وعلى أثر ذلك بعث المفوضون بحرسهم الخاص يطلبون حضوره امامهم للدفاع عن نفسه. فردّهم عنه باحتقار عندما أبلغوه بأمر الحضور، فدخل التريبيونات بأنفسهم عليه ترافقهم ثلثة من ضباط [الايديل Aediles] وهم حرس السوق، يريدون أخذه بالقوة، ومدّوا أيديهم اليه فأنبرى إلياتريشيون لانتقاذه، ثم طردوا مفوضي الشعب، بل أعتدوا بالضرب على ضباط السوق مناصريهم. لكن الليل وضع حدّاً للنزاع، ولما انبلج الصبح وتبين القنصلان مبلغ هياج أفراد الشعب وسخطهم، وشهدوا كيف يتقاطرون من كل حذب وصوب إلى [الفوروم]، أدركهما خوف عظيم على المدينة بأسرها. فطلبوا اجتماع مجلس الشيوخ مرة ثانية. لاتخاذ قرار من شأنه تهدئة خواطر الجماهير الساخطة المستنفرة، ومخاطبتهم بلغة السماح واللين، واصدار قرارات تقسم بالتساهل. وانهم اذا فكروا في الوضع الراهن بحكمة، فسيجدون أن الحالة لا تتحمل التمسك بمقاييس الشرف، والتمسّدق بالمجد والسؤدد. ومثل هذا الموقف الحرج يتطلب تدابير رقيقة ومعالجة ليّنة، ومقررات معتدلة انسانية. وعلى هذا الأساس وافقت أغلبية المجلس وياشر القنصلان في تهدئة هياج الشعب بخير ما استطاعا، وأخذ يجيبان بأناة وصبر، على اتهاماتهم وشكاواهم التي صوّها صبّاً على مجلس الشيوخ واستخدما نهاية الرقة والاعتدال في لومهم ومعاتبتهم على سلوكهم المندفع. وابلغوههم أنه لن يكون هناك فرق في الأسعار بين الطبقات.

ولما هدأت سورة القسم الأكبر منهم وبدا من مسلكهم الهادي، الوديع إطمئنانهم لما سمعوا. أنتصب مفوضو الشعب وأعلنوا باسم الجمهور قراراً مفاده إنه مادام مجلس الشيوخ قد ثاب إلى رشده وأختار الرويّة وقرر أن ينصفهم، فهم من جهتهم مستعدون لإطاعة كل ما هو عادل ومنصف، لكنهم على أية حال مصرون على أن يتقدم [مارشوس] باجوبة عن التهم الآتية: فأولاً: أبسعه الإنكار بأنه حمل مجلس الشيوخ على تفسير نظام الحكم والغاء امتيازات الشعب؟

ثم: عندما طلب منه الحضور للإجابة على التهمة، ألم يعصي أمر الاستقدام؟ وأخيراً: ألم يعمل بكلّ ما في وسعه على اثارة فتنة وحرب أهلية يتسببه في الاعتداء، على ضباط (الايديل) وغير ذلك من ضروب الاهانات والاعتداءات العلنية. وإسناد هذه التهم إلى (مارشوس) كان يرمي إمّا إلى إذلاله وارغامه على إظهار خضوعه

للشعب (إن ظلّ راغباً في خطب وده والترلف اليه خلافاً لطبيعته). وإمّا الى احلال القطيعة النهائية بينه وبين الجمهور (إن شاء أن يبقى أميناً على طبيعته، وهو ما توقعوه منه بحكم معرفتهم باخلاقه).

وهكذا حصر [مارشبيوس] امام جمهور الشعب ليقدم اعذاره ويبري نفسه، وهو ما كان الشعب يتوقعه، فحافظ على الهدوء والسكينة، واصتت اليه دون مقاطعة، إلا أنه راح يستخدم لغة وقحة وأسلوباً تهجيبياً كان فيه متعباً لا معتذراً، لا بل كانت نبرات صوته ومظهره المعتدّ يمان عن غطرسة واستهانة تقرب من الازدراء والاحتقار للسامعين، بدل الاستحذاء والتواضع المنتظر منه. فتملك الجمهور غضب شديد، وأظهر علام نفاذ الصبر والاشمئزاز. ونهض [سينيوس] أكثر المعارضين صرامة وعنفاً، وبعد مداولة سرّية مع زملائه الآخرين، أعلن امام الجميع قراراً مفاده أن مفوضي الشعب حكموا على [مارشبيوس] بعقوبة الموت، ثم انه أمر [الايديل] بأخذه الى الصخرة التاربّية وقذفه من حائق الى الهاوية دون تأخير. فتقدم هؤلاء لتنفيذ الأمر الذي تميّز بالقسوة والصرامة حتى في أعين بعض [الپليبيين]. وعندها جنّ جنون الپاتريشيين ألماً واستغظاعاً وهرعوا وهم يضجون ويصيحون لانقاده، واستخدم بعضهم الأيدي فعلاً، لمنع تنفيذ أمر القبض وتحلقوا [مارشبيوس] وجعلوه في وسطهم، وعمد بعضهم الى مد الأيدي الصارعة لوقف هذا الاجراء العنيف المتطرف لأن الكلام في مثل هذه الضجة لا يفلح عادةً. وادرك اصداقاً مفوضي الشعب ومعارفهم صعوبة أخذ [مارشبيوس] الى موضع تنفيذ العقوبة وكم سيسفك من الدماء، ويهلك من الناس ويقتل من الپاتريشيين، فاقنعوهم بالعدول عما هو خلاف القانون. والأى يقتلوه قتلة سريعة شنعاء. كهذه دون محاكمة اصولية، بل أن يودعوا مصره الى الاقتراع الشعبي العام.

بعد مرور فترة من التأمل، التفت [سينيوس] الى الپاتريشيين وسألهم: ماذا يقصدون من انتزاع [مارشبيوس] عنوة واقتداراً من قبضة الجمهور وهو في سبيل تنفيذ العقوبة به؟ فردّ عليه الپاتريشيون بالسؤال المماثل: «بل قل لنا كيف سوكت لكم أنفسكم أن تهربوا واحداً في أعظم رجال روما جرأاً الى ساحة الاعدام بطريقة بربرية لا قانونية ومن دون محاكمة؟ وما هو قصدكم من ذلك؟». فقال [سينيوس]:

- «حسن جداً، لن نترك لكم سبباً للمخضام من هذه الجبهة... ولن ندع لكم علة للشكوى من الشعب. الشعب الآن يلبي طلبكم وصاحبكم هذا سيحكم وفق القانون»

ثم وجه القول الى [مارشبيوس]:

- «عين لك يا مارشبيوس، اليوم الثالث إعتباراً من «يوم السوق» القادم، لتحضر وتدافع عن

نفسك وتحاول ان أمكنك اثبات براءتك امام المواطنين الرومانيين الذين سيفصلون في قضيتك بالتصويت.

ورضي الباتريشيون بهذه الهدنة. وافرخ روعهم وعادوا الى منازلهم مسرورين بنجاحهم في المحافظة على حياة [مارشوس].

في غضون الفترة التي سبقت موعد المحاكمة (إعتاد الرومان أن يعقدوا جلسات المحاكم في كل يوم تاسع ومن هنا جاء الاسم اللاتيني (Mundinae) ^(١٦)، نشب القتال بين الرومان والأنثيات ^(١٧)، وتوقع الباتريشيون أن يستمرّ حيناً، وبذلك شاع فيهم الأمل في إمكان التملص من اجراء المحاكمة، وقدروا أن تهدأ أسورة غضب الشعب، ويقلّ سطحه حتى يصحّل بمرور الزمن عليه، هذا إن لم تصرف الحرب والمشاغل الأخرى اذهاهم عن الموضوع بصورة نهائية. وعندما توصلوا الى عقد صلح عاجل خلافاً لما توقعوا وعاد الجيش الى روما من أنتيوم، عاد القلق والارتباك بسود صفوف الباتريشيين وبادروا الى عقد عدة اجتماعات ليقرروا خطة لا تغرط فيها بمارشوس أو أعطاء فرصة لمثيري الشعب لخلق اضطرابات جديدة. ووقف بينهم [أپيوس كلوديوس (Appius Claudius)] المعروف بأنه أشدّ الشيوخ نفوراً من الامتيازات الشعبية، وقال منذراً: «إن مجلس الشيوخ سيقضى على نفسه قضاء تاماً، ويخون الحكومة إذا سمح للشعب مرة واحدة بتولي سلطة أصدر حكم على أي باتريشي». إلا أن الباتريشيين الأكبر سناً، والأقرب الى افئدة الشعب عارضوا بقولهم «إن جماهير الشعب لن تكون شديدة القسوة والصرامة كما يخيل لبعضهم. ولكنها ستكون أكثر ميلاً لللدعة والسكينة عند منحها تلك السلطة، فالذي دفعها الى طلبها لم يكن اذلال مجلس الشيوخ وانما العكرة التي تكونت عندها وهو أن المجلس هو الذي قصد اذلالها وتحقيرها، ألا فلتمنح لها هذه السلطة مرة واحدة وليكن ذلك دليلاً على الاحترام وشعور التعاطف والود». إن مجرد حيابة الشعب سلطة التصويت في هذا الشأن سيزيل فوراً العداء فيما بيننا».

ولما وجد [مارشوس] محنة المجلس والتوتر الذي يسوده بسببه، وحيرته بين عطفه عليه، وخوفه من الشعب، طلب من مفوضي الشعب أن يعرفوه بالجرائم التي ينوون إسنادها اليه، واصل التهم التي ستجرى المرافعة فيها امام الشعب، فأجابه أنه متهم بمحاولة اغتصاب الحكم. وانهم سيثبتون عليه محاولته وشروعه في اقامة حكم استبدادي ^(١٨). فنهض

(١٦) يقول [ميون ٨:٧] كان ثم فترة سبعة أيام فقط. بين ايام السوق.

(١٧) ورد نبأ مفاجيء الى روما يفيد بان أهالي (انتيوم) وضعوا ايديهم على سفن سفراء (غيلون) اثناء عودتهم الى صقلية بل انهم صانروا السفن واعتقلوا السفراء. وعندها تهيأ الرومان بسلاحهم لمعاوية أهالي (انتيوم) لكن هؤلاء ما لبثوا أن عادوا للطاعة وتم الصلح

مارشوس وتقدم قائلاً:

- فلنذهب أذن إلى الشعب، لثبوتة نفسي من هذه التهمة الباطلة أمام جمعيتهم العامة. اني أعرض نفسي بجل، اختياري إلى أي نوع من المحاكمة، ولن انتظّم من أي عقاب يفرض عليّ، وكلّ ما أطلبه هو أن تنحصر تهمني بما ذكرتموه الآن، وأن لا تخذعوا المجلس.

فوافقوا على شروطه، وذهب إلى موضع المحاكمة. لكن، عندما اجتمع الشعب تقدم مفوضوه باقتراح مراوغ، وهو أخذ الأصوات لا على أساس [الجنثوري] كما جرت العادة عليه بل على أساس رؤوس القبائل^(١٩)، وهو تغيير يمكن الغوغاء الحاقدة المشاغبة التي لا قيمة عندها للعدالة والنزاهة من صبّ جام حقدّها فعلاً على رؤوس الاغبياء، واشراف القوم ومن اعتاد بذل الخدمة للدولة أثناء الحرب. وبعد هذا عمد المفوضون إلى تغيير مواد الإتهام، في الوقت الذي تم القرار على ألا يحاكم مارشوس إلا عن تهمة الاستبداد والاستئثار بالحكم وهي تهمة ضعيفة يتعذر اثباتها عليه. فأسقطوا هذه التهمة واستعاضوا عنها بتهمة تحريضه في مجلس الشيوخ. ومعارضته في تخفيض أسعار القمح، ومطالبته بالقضاء على سلطات مفوضي الشعب. وأضافوا أيضاً تهمة ثالثة جديدة، بخصوص توزيعه الغنائم والأسلاب الحربية التي استزاعها من الانتصارات عند عروه بلادهم، لأنه خصّ بها من تطوع في جيشه وحسب في حين يفضي القبايل السائد بايداعها بيت المال^(٢٠). ولقد قيل ان هذه التهمة أخرجت موقف [مارشوس] أكثر من أية تهمة أخرى لأنه لم يستعد ولم يكن متوقفاً استجوابه عنها، لذلك

(١٨) استناداً إلى [ديون] قال مارشوس في معرض دفاعه عن نفسه «... فضلاً عن اصابتي بهذه الجراح التي ترونها في سبيل انقاذ المواطنين: الا فلندع التريبيونات يقررون لنا إن استطاعوا - كيف يمكن ان نسمج مثل هذه المؤثر مع النوايا الفادرة التي يتهموني بها» إلا ان [ديون] لم يذكر بان التريبيونات وافقوا على الشروط التي نكرها النص.

(١٩) منذ عهد الملك [سرفيوس توليوس] صارت الأصوات تؤخذ بطريقة الجنثوري أي المئات ان قدروا حتماً ان مارشوس سيجبراً أن أخذت الأصوات بهذه الطريقة. فالفرسان وأغنى المواطنين هم الأغلبية. حيث تؤلف الطبقة الأولى أو العليا ٩٨ صوتاً من أصل ١٩٢ وهي مجموع الطبقات الست. لكن التريبيونات الانكباء، امتوا بته في قضية تتعلق بحقوق المواطنين يجب أن يكون لكل مواطن واحد صوت واحد ولم يرضوا باحصاء للأصوات إلا على أساس القبائل. وإلى جانب محكمة جميعة المائة Teibuna Comitia Centuriata، توجد أيضاً الكيورياتا Curiata التي أقامها (رومulus) وتقسّم سكان روما الأصليين إلى ثلاث قبائل في كل قبيلة عشرة أعضاء Curiae. [ديون ٢٢-٥]. بقي هذا النظام سارياً حتى مجيء [سرفيوس توليوس] الذي ابدله بالطريقتين الأخريين في أعضاء آراء الجمهور.

(٢٠) افاد التريبيون [دجيوس] «إن هذا دليل واضح على نواياه الشريرة قبلاًلأموال العامة ضمن له مخلوقات وحرساً يساندونه في ما أعتزم من اغتصاب للسلطة. الا دعوه يثبت انه كان حائز السلطة التي تؤهله لتوزيع هذه الغنيمة دون خرق للقانون دعوه يجب مباشرة عن هذه القضية وحدها دون ان يلجأ إلى منون وتعلّات أخرى القصد منها تضليل الجمعية...» [ديون ٩.٧].

لم يكن دفاعه قوياً مقنعاً بسبب عامل المفاجأة. ولما بدأ على سبيل الاعتذار والقصص - معظم من مآثر أولئك الذين شاركوا معه في القتال، وبما أن من تخلف عن الحرب كان أكثر عدداً ممن تطوع، فقد قوطع بصيحات الاستنكار والتنديد. وأخيراً جاء دور التصويت، فأدين بأغلبية ثلاث قبائل (*)، وفرضت عليه عقوبة النفي المؤبد.

بعد النطق بالحكم ترك الجمهور محل الاجتماع بتظاهرة صاخبة وهتاف مدوي فاق بكثير أي تظاهرة قام بها الشعب بمناسبة نصر على عدو. في حين وجم أعضاء مجلس الشيوخ وأستولى عليهم الحزن العميق. وادركهم ندم شديد لأنهم لم يحاولوا شتى الطرق للحيلولة دون طغيان إرادة الجمهور، ولسمحهم له بممارسة هذا القدر الكبير من السلطة، فكانت نتيجةها أساءة استعمالها والتعسف في تطبيقها. ولم تكن الحاجة تدعو لتفحص ثياب الناس أو استقراء علامة مميزة فيهم للتثبت من طبقته، فمن كان فرحاً منهم بالنتيجة، فهو يلبس، لاشك فيه، ومن بدأ واجماً كنيباً فهو باتريشي.

وكان [مارشوس] الشخص الوحيد الذي لا يشعر بذلة أو صدمة. فمن سيمانه وصلاحه وتصرفاته كان يبدو مثالاً لضبط النفس وفيما كان الأسى يعمر قلوب أصحابه كافة، ظلَّ الرجل الوحيد الذي لم تؤثر فيه مصيبتة. لا لأن ترويضه العقلي علمه الرضا بحكم القدر، ولا لأن رقة طبعه جعلت القناعة خلقاً فيه، فالأمر بعكس ذلك تماماً إذ شاع في كيانه حقد عميق متأصل الجذور عنيف، لا يحس له ألماً كثيراً من الناس. الحق يقال أن الألم يتحول بفاعلية حرارته اللاهبة إلى غضب، ويُفقد صاحبه كل مظهر من مظاهر التخاذل والكآبة، وفي الغضب حيوية كثيرة، كالمصاب بالحُمى المحرقة ففي مرضه حرارة مادية ظاهرة، وفي عمل الروح والحق يقال عوارض مرضية ظاهرة من ارتجاف والنهَاب وانتفاخ، وكان يبدو مثلها في حالة [مارشوس] المضطربة، وتظهر في أعماله وحركاته.

عند وصوله البيت أقرأ التحية والدته وامراته وكانتا تذرغان دموعاً غزيرة وتنحبان وتعولان، فنصحهما بأن يقصدا في مشاعرهما والأ يستسلما للحزن جراء مصيبة^(٢١)، وبعدها توجه إلى أبواب المدينة فوجد اشراف روما كلهم مُجتمعين لتوديعه. ولم يصحب معه متاعاً ولم يطلب شيئاً أو يرجو رجاءً من مشيعيه، وفارقهم وليس في ركابه غير ثلاثة أو أربعة من الاتباع وأنطلق إلى موضع في الريف حيث مكث يضعه أيام يُطارحه مختلف الأفكار التي

(*) يقول ديونيسيوس هاليكارناسوس (٦٤:٧) صوت لراحة ٩ من أصل ٢٦ قبيلة.
(٢١) وصع كريولانوس ولديه في رعايه أمه جدتهما ولأولهما عشر سنين من العمر والثاني صغير جداً. [ديون
٩٧].

يدفعها الغيظ والسخط الى رأسه. ولم يكن فيها فكرة ذات هدف نبيل أو صالح. وكان عقله يدور به باحثاً عن أجدى الوسائل لاطفاء جذوة انتقامه من الرومان. حتى استقر رأيه بالأخير على أن يشنها حرباً شعواء عليهم، عن طريق أقرب الجيران اليهم، وعزم مدنياً على حسن بصر الفولسيين، والتأكد من مدى استعدادهم لذلك. وكان يعلم انهم ما زالوا شديدي القوى كثيري الموارد في المال والرجال. وأن بأسهم لم يضعف بالدرجة التي أشتد حقهم على الرومان وكرهم، بسبب الهزيمة الأخيرة التي ذاقوها منهم.

كان يعيش في [آنتيوم] رجل يُدعى [تولوس أوفيدبوس Tullus Aufidius] له بين الفولسيين ما للملك من مكانة واحترام بسبب ثرائه وشجاعته وشرف أسرته. وكان [مارشيسوس] يعلم أنه يكن له من العدااء الشخصي ما لا يكتفه لأي روماني آخر، فقد تبادلوا أثناء المعارك عدة تهديدات وتهديات ودعوات للنزال. وبهذه التحرشات المتبادلة التي كان من شأنها أن تثير حماسة صغار الجنود وتدفعهم الى خضم المعركة، اضافت العدااء الشخصي الى الخصومة الطبيعية بين المتحاربين. ومع كُل ذلك فقد توقع في [تولوس] سماعة خُلُق، وقدر ان ليس بين الفولسيين قبله، يرغب في فرصة تتيح له ردّ أذى الرومان صاعاً بصاع، ولذلك أقدم على ما أيدّ قول القائل:

من الصعب ان تقاتل الغضب. فهو يشتري
كلّ ما يريد. وان كان ثمن ذلك حياتنا

وتنكر بثياب غيرت من هيئته بحيث ينكره كل من يعرفه، مثل ما فعل [بوليسيس] في:
«انه دخل مدينة اعدائه الألداء» (٢٢).

وكان دخوله [آنتيوم] في حوالي المساء، ومرّ في الشوارع دون أن يعرفه أحد من المارة الكثيرين ووصل منزل [تولوس] ودخلها دون ان يحسّ به أحد وقصد الموقد وجلس اليه دون أن ينطق بكلمة واحدة مغضباً رأسه (٢٣). ولم يسمع افراد الأسرة إلا أن يندھشوا، ولكنهم اجمعا عن انهاضه أو طرح سؤال عليه. لما كان يحفّ بصمته وهيئته من جلال ومهابة. إلا أنهم أبلغوا [تولوس] بالحادثة الغريبة وكان يتناول عشاءه فنهض حالاً ودخل عليه وسأله عنم يكون، وما الذي جاء به الى منزله فكشف [مارشيسوس] عن هويته وحسر رأسه وبعد فترة صمت قال:

(٢٢) الاوديسي [٢٤٦ ٤] إما لأجل قياس جدار طروادة وأما لإقناع هيلين بالتعاون مع مواطنيها الاغريق (٢٣) يعتبر الموقد مكاناً مقدساً في البيت -، لأن فيه الهة الأسرة. وكل مستجير يأتيه وكأنه يلود بحرم.

- إن كنت لاتذكرني يا توللوس، وإن كنت لا تصدق عيني، فالضرورة تقضي أن أكون المتهم نفسي. أنا [كايسوس مارشيسوس] مسبب الأذى الكثير للقولسيين. ولو أنكرت هذا فلقبي [كريولانوس] الذي أحمله الآن هو وحده دليل كاف عليّ. التعويض الوحيد الذي نلتُه عن كل الأخطار التي تعرضت لها، والمصاعب التي خضتها، هو ذلك اللقب الذي يكشف عن عدائي لقومك. وهو الشيء الوحيد الذي بقي لي جردت وحُرمت كل الامتيازات الأخرى، جراء حسد الرومان قديمهم، وسبب جبن وغدر الحكام وأولئك الذين ينتمون إلى طبقتي وأخرجتُ من بلادِي منفيًا، وصرت مستجدياً متسكيناً عند مرفد نارك. لا باحثاً عن الأمان والحماية قدر ما أن باحث عن الانتقام من طردني. ولو كنت خائفاً من الموت لما جئت. وأعتقد أنني حصلت على مرادي بوضع نفسي بين يديك. فإن كنت تريد حقاً قتال أعدائك فهيأ أذن وأستفد من البلية التي تراني فيها. لانبهرص بهذه المهمة، وتحويل سوء حالي إلى نعمة عامة للقولسيين. فأنا في الواقع أكثر دأئمة في قتال لكم، من القتال عليكم، والأفضلية التي أملكها الآن هي وقوفي على كل أسرار العدو الذي سأهاجمه. فإن كنت عازفاً عن القيام بأية محاولات أخرى، فليست بالراغب في الحياة هنا، ولا يكون جميلاً منك استضافة شخص طالما كانت خصماً لك ومناساً والآن عندما يعرض عليك خدماته يتضح لك أنه غير صالح لك ولا نافع.

عندما وعى توللوس كل هذا الكلام جُنَّ فرحاً ومدَّ إليه يده اليمنى وصاح:

- قم يا [مارشيسوس]، وأستجمع شجاعتك. لقد جئت لأنتيوم بأعظم السعد، فيما قدمت نفسك له من فائدة. ولك أن تتوقع كل ما هو حسن من القولسيين.

ومن ثم أخذ يظهر له الإكرام والحفاوة وضروب العطف. وقضيا عدة أيام بعدها في التناول معاً بخصوص امكانيات الحرب.

وفيما كانت هذه المخططات تتخذ شكلها المادي، كان الاضطراب والفوضى يعمان روما، بسبب العداء المستحكم بين أعضاء مجلس الشيوخ وقد زاد حدة الآن بإدانة [مارشيسوس]، وإلى جانب ذلك أخذ العراقيون، والسحرة والكهنة وحتى الناس العاديون يتناقلون أنباءً عن علامات وخوارق لا يمكن الاستهانة بها. ومنها ما أشيع حدوثه على النحو الآتي: هناك رجل يدعى [تيطس لاتينوس] إنسان رقيق الحال ذو خلق طيب هادي، بعيد كل البعد عن الاوهام والخيال والشعبية، وأبعد من ذلك عن المبالغة والتفاهة رأى في المنام كأن جويتير جاءه وطلب منه أن يخبر أعضاء مجلس الشيوخ بأنهم وضعوا على رأس موكبه الديني راقصاً سيئاً غير ذي أهلية. ولكنه لم يهتم بالحلم ولم ير فيه أي أهمية لأول وهلة، ولكن بعد أن تكررت مرة

ثانية وثالثة، فقد أُنبا عزيراً عليه، وأصيب هو نفسه بالفالج وحمل الى مجلس الشيوخ على محفة ليُدلي بتفاصيل حلمه، وتقول الحكاية أنه أبل من مرضه وأستوى على قدميه حال ابلاغ الرسالة. وذهب الى بيته دون مساعدة أحد. وتلك المجلس العجب والحيرة، وراحوا يبحثون الأمر بحثاً دقيقاً. أما ما كان يشير اليه الحلم فهو هذا: أحد المواطنين في روما كان يملك عبداً ارتكب جرماً شبيهاً، فسُلّمه لزملائه الآخرين وأمرهم بجلده في السوق ثم قتله. وفيما هم ينعدون أمره هذا بجلد البائس الذي كان يتمطى وينقلص ينقلب ظهراً لبطن وعلى كل شكل من الأشكال والحركات الغريبة بسبب الألم الذي يحسه. اتفق أن أقبل في أعقابهم موكب ديني تكريماً لـجوبيتر. فاستنكر عدد من السائرين فيه مشهد الخادم المجلود إلا أنه لم يتدخل أحد منهم أو يتم بعمل أكثر من مجرد النطق بعبارات اللوم المعتاد والتنديد بالسيد الذي حكم على عبده بهذه العقوبة القاسية. فالرومان كانوا يعاملون عبيدهم في ذلك الزمان، معاملة انسانية للغاية. عندما يشتغلون ويكدهون معهم جنباً الى جنب فمن الطبيعي أن ترتفع الكلفة بينهم، وأن يعاملوهم برقة، ومن أشد العقوبات التي كانت تفرض على العبد المخطي، أن يحمل قطب الخشب الذي يسند محور العجلة ويدور بها في الجوار، والعبد الذي يحل به هذا العار، فيشاهده الجيران وأهل البيت ينغذ العقوبة، يسقط من عيون الناس، ولا يعودون يثقون به أو يعتمدون عليه، ويطلق عليه اسم فورچيفر Furcifer، من كلمة فوركا Forca اللاتينية ومعناها العمود الخشبي أو الجذع.

عندما قصّ (لاتينوس) حلمه، وانكفأ الشيوخ يتساءلون عن كون ذلك الراقص السيء، المكروه، فتذكر بعض الجماعة الذين أستلقت نظرهم غرابة العقوبة التي حلت بالعبد البائس، كيف جُلد على طول الشارع ثم ازهقت روحه. وأيد الكهنة هذا التخمين عندما استشيروا. فعوقب صاحب العبد وأمروا بإقامة احتفال جديد للموكب الديني تكريماً للرب، وبالتابعة نذكر (نوما) الحكيم في تنظيمه الوظائف الدينية، فهو يبدو بصورة خاصة شديد الحرص في توجيهه لها. ووضع نصب عينيه انتباه الشعب اليها وإحترامه لها. وقد رتبَ عند قيام الحكام والكهنة بالمراسيم الدينية، أن يسبق مركسهم مناد يخرج للباس وينادي بأعلى صوته: Hogage: أعملوا هذا الذي تهتمون به؛ وبهذا ينذر الناس بالتنبه للشعائر المقدسة التي سيمارسونها، وان لا يدعوا عملاً ديبوياً أو مشاغل بومية تشوش المراسيم أو توقع الخلل فيها. ومعظم ما يأتيه الناس. في هذا الصدد مفروض عليهم فرضاً، بكيفية ما. وأعتاد الرومان إقامة الشعائر الدينية، ومواكب صلواتهم لأقل الأسباب واتفه الدواعي. فإن حدث وتعثر أو كيا حصان من الخيل التي تجر العجلات المسماة «تسنسي Tensae» أو إذا جمع السائق أعنتها بيده اليسرى،

بأمرهم بإعادة المراسيم كلها من الأول. وفي العصور المتأخرة بلغ الحال بهم الى حد أنهم كرروا شعائر قربان واحد ثلاثين مرة لحصول خطأ أو هفوة أو حادث في اثناء الحفل. هكذا كان مبلغ احترام الرومان وشدة حذرهم في شعائر الدين.

وأخذ [مارشوس] و[توللوس] يتداولان في مشروعهما سراً مع رؤساء [آنتيوم] ويحثونهم على غزو الرومان بينما هم متناحرون فيما بينهم وكان يظهر أن الخجل يصدهم عن قبول الاقتراح لأنهم عقدوا هدنة يتم بموجبها وقف القتال لمدة سنتين، ولكن ما لبث الرومان أن هياؤا لهم حجة لنقض الهدنة. باعلاتهم في اثناء الالعب بوجوب مغادرة كل من جاء من الفولسيين لمشاهدة الألعاب وعدم بقاء أحدهم في روما قبيل مغرب الشمس. ودفعهم الى ذلك الإحتقار أو خبر مملق عن الفولسيين. ويؤكد البعض أن هذا العمل هو من تدبير [مارشوس]. فقد بعث سراً برجل الى الفنسليين، ليشتم الفولسيين كدباً وبهتاناً، بانهم يدبرون غزوة مفاجئة لرومان اثناء انشغالهم بالألعاب، واشعال النار في روما^(٢٤). فألهب هذا التحقير المرزي مشاعر الفولسيين، وملأهم حقناً على الرومان. وابتدل [توللوس] فرصته فراح يعمل على تسعير النار وزيادتها ضراماً، وأخذ يهوك الأمر على مواطنيه حتى أقنعهم أخيراً بإرسال وفد الى الرومان يطلب منهم إعادة الأراضي والمدن التي أقتطعوها من بلادهم جراء الحرب الأخيرة. فأجاب الرومان حائقين: إن الفولسيين كانوا البادئين في إشهار السلاح، وسيكون الرومان آخر من بضعه. وعاد الوفد بهذا الجواب فدعا توللوس الفولسيين الى اجتماع عام، وجرى التصويت على اعلان الحرب. ثم انه اقترح انه يدعى [مارشوس]، ونزع الاحقاد من النفوس وتناسيها، وطلب أن يشقرا بأن الخدمات التي سيقدمها لهم مارشوس بوصفه صديقاً لهم وشريكاً، ستزيد كثيراً على جميع الأضرار والخسائر التي ألحقها بهم عندما كان خصماً لهم.

فاستدعي [مارشوس]، فحضر ووقف بينهم متكلماً، فأجذب الجمهور الى صفه وأقنعه بالثقة في كفاءته وبراعته وحسن مشورته وجراسته، بقوة عارضته أكثر مما أقنعه بسجل بطولاته وأعماله المجيدة السالفة. وانتدب الى جانب [توللوس] ليتولى منصب جنرال في جيشهم، مزوداً بسلطة مطلقة في كل ما يتعلق بإدارة الحرب. ولما كان يخشى ان يطول الوقت في تحشيد كل قوات الفولسيين وتعبثها تعبثاً تامة، بحيث يفقد عامل المباغتة، فقد ترك

(٢٤) قال توللوس موحداً من دون سائر الشعوب لايرونا ستتحق الحضور لمشاهدة هذه الألعاب. نحن وحدنا نطرد من الأعياد العامة كاحقر الكفرة وارذل المجرمين! اذهبوا الى منكم وقرأكم وأظهروا الشارة الميعة التي وسعها بها الرومان». ليقفي [٣٧.٢، ١-٧] يقول انه جاء الى مجلس الشيوخ بتدبير سابق مع مارشوس. لكن يلو تارخ هنا ينحو منحى [ديون ٨: ٢]. على أن كرويانس كان صاحب اقتراح اعادة الاراضي والمدن التي استلبها الرومان منهم.

أوامر لحكام المدينة بخصوص أمور التعبئة والتأهب وجمع ما تحت يده من المتطوعين الأكثر تحملاً، وزحف بهم غير منتظر أو متريث، ووقع على الحدود الرومانية بغزوة مفاجئة لابتوقعها أحد^(٢٥)، واستولى نتيجة ذلك على غنائم كثيرة جداً زادت عما استطاع الفولسيون حمله، أو استهلاكه في معسكرهم.

على أن المؤون العظيمة التي عنمها والحراب الذي أحدثه في البلاد كان بالنظر اليه وإلى ما سيتلوه اصغر النتائج المتوحاة من غارته، فالبلاء العظيم الذي اراده وصبا اليه كان في الواقع توسيع شقة الخلاف بين الباتريشيين وعامة الشعب في روما، وزيادة الشكوك في نفوسهم. وسعيًا وراء هذه الغاية عمد أثناء ائتلافه المزارع وأملاك الناس الآخرين - إلى بسط حمايته على امتلك رحقول أشخاص معينين منهم وعدم مسها بسوء، ولم يسمح لجنوده بالنهب منها أو سلب ما فيها. وبهذا مجددت الملاحاة ونشب الخصام مجدداً، وأشدتْ وبلغ درجة لم يلفها من قبل: الشيوخ يلومون العامة للظلم الذي الحقوه بمارشيسوس، والعامة لايترددون في اتهام الشيوخ بأن حملة [مارشيسوس] هي من مكائدهم وتحريضهم انتقاماً منهم وبغضاً بهم، في حين جلس الآخرون على التلّ خوفاً وضعفاً كمتفرجين غير مكترئين بما يجري في ميدان الحرب. لأن لديهم في شخص عدو بلادهم حارساً وحامياً خارجياً لمتلكاتهم وثرواتهم.

بعد أن توخّت حملة [مارشيسوس] بالنصر وعادت بالفائدة الجلييلة على الفولسيين انسحب بهم إلى بلادهم سالمين وقد أشتدّ عودهم وارتفعت معنوياتهم وعادوا يستهينون بعدوهم بعد رهبة وتخوفٍ.

عندما تمّ حشد كلّ قوات الفولسيين في ميدان عرض الحرب وظهرت بفيالقها المسجّمة وأستعدادها العظيم، بدت حيشاً جراراً فوجد من المستحسن أن يترك جزء منه لحماية المدن وحراستها، وإن يزحف بالقسم الآخر على الرومان. وطلب [مارشيسوس] من [توللوس] أن يختار القيادة التي يريدّها. فقال [توللوس] «لما كان يعلم أن [مارشيسوس] لا يقلّ عنه بمسالة وأقداماً، ويعرفه في حسن الطالع، فهو يحبذ أن يراه قائداً للجيش الخارج للحرب. في حين يقوم هو بتدابير الدفاع عن المدن في الداخل، ويضطلع بتأمين حاجة جيش الهجوم من مؤون ومجهيزات». وهكذا تحرك [مارشيسوس] وقد راد قوة وسلطاناً - نحو مدينة [چيركيوم Cir-caeum] وهي مستعمرة رومانية، وقبّل استسلامها ولم يلحق أذى بسكانها. ثم غادرها ليجتاح بلاد اللاتين وكان يتوقع لقاء الرومان فيها لأنهم اصدقائهم وحلفائهم، وكثيراً ما اعانهم وانجدهم. إلا أن القوم في روما لم يظهروا حماسة وميلاً إلى الخدمة في الجيش،

(٢٥) قام تلّوس في الوقت عينه بغارة مماثلة على أراضي اللاتين. وعاد بعين النتائج الطيبة [ديون ٢٠٨].

كذلك لم يكن القنصلان يريدان التورط في مخاطرة حربية، لأن فترة وظيفتهما كادت تنتهي. فصرفا سفراء اللاتين خائنين. ولم يجد [مارشوس] أمامه جيشاً يقاقله، فرحف على مدنهم وأستولى عنوة على [توليريا Toleria] و[لافيجي Lavici] و[بيدا Peda] و[بولا Bola]، وهذه كلها قاومت زحفه فلم يكتف بنهب منازلها بل ساق سكانها عبيداً. وفي الوقت نفسه أظهر رعاية خاصة لكل من انحاز الى صفه. ولما كان يخشى قيام جيشه بأعمال تخريب لم يأمر بها فقد أختار موقعاً بعيداً لمعسكره، متعصفاً عن التعرض للأراضي والمزارع.

بعد أن فتح مدينة [بولا] وهي لا تبعد أكثر من عشرة أميال عن روما نفسها ونهب منها أموالاً لا تحصى ووضع السيف في رقاب سكانها الذكور البالغين، وردت أبناء نجاحه وفتوحاته الى الفولسيين الذين تخلفوا لحماية المدن، فلم يصبروا على البقاء حيث هم وأسرعوا ساكي السلاح للاتضمام اليه، قائلين انه جبرالهم وقائدهم الأوحـد الذي لا يطعون غيره. وذاع صيته واسمه في كل أرجاء إيطاليا وكانت الدمشية عامة لانتقال الخط الفجاني عند شعبين، كانت خسارة أحدهما وربح ثانيهما من عمل شخص واحد.

كانت روما تعج بالفوضى الشديدة، وأهلها زاهدون عن خوض أية حرب. يقضون كل أوقاتهم في النزاع وجبك المؤامرات من تحت الستار ولوم أحدهم الآخر. حتى وردت الانبياء بأن العدو يضيق الخناق على [لافينيوم Lavinium] التي يوجد فيها قنايل آلهتهم إبانهم الحارسة^(٢٦)، والذخائر المقدسة ومنها نشأ شعبهم الروماني برصفها أول مدينة في إيطاليا بناها [إينباس] هذه الأنباء أحدثت تغييراً عاماً غير عادي في أفكار الشعب وميوله. إلا انها ولدت شعوراً بالصدود عند الباتريشيين أكثر غرابية. فقد مال الشعب الآن الى العاـ الحكم الذي أصدره على [مارشوس]، ودعوته للعودة الى المدينة. فأجتمع مجلس الشيوخ لاعادة النظر في القرار، وعارض الاقتراح أولاً ثم رفضه. إنما لمجرد رغبته في معاكسة الشعب ومناقضته في كل ما يريده أو ربما لأنهم لا يريدون أن يكون مارشوس مدينا باعادة اعتباره الى عطف الشعب. أو ربما لادراكهم الآن بوجود شعور سخط ضد [مارشوس] نفسه لأنه يصبّ البلوى على الجميع سواء، سواء مع ان سوء معاملته لم يصدر من الجميع، ولصيرورته عدواً لسائر البلاد مع علمه أن كبار القوم وأخيارهم كانوا الى جانبه، وقد تألموا لما أصابه.

وأعلن الشيوخ قرارهم هذا، وأسقط في يد الشعب لأنه لا يملك سلطة في اقرار أي شيء، بالاقتراع العام أو سنه قانوناً، إلا اذا سبقه مرسوم من مجلس الشيوخ.

وزاد حتى [مارشوس] عند سماعه بما جرى، وتخلّى عن حصار [لافينيوم]^(٢٧) وزحف نحو

(٢٦) بالأصل جي، بها من طراودة [انظر سيرة روملوس].

روما بسرعة جنونية. وعسكر على بعد خمسة أميال من المدينة تقريباً، في موضع يدعى «خنادق كلويليا Cluilia» وخلق وجوده القريب رعباً عظيماً وقلقاً، إلا أنه وضع أيضاً حداً لأنقسامهم في حينه، إذ لم يعد أي منهم أفضلاً كان أم شيخاً - يستطيع معارضة الشعب في دعوة (مارشبيوس) للعودة. وعلموا أن الجماهير محقة في إقتراحها بمصالحته عندما رأوا نساءهم يتراكن جبهة وذهاباً في الشوارع مرعوبات، والعجز وكبار السن يملأون المعابد كلها بيبكون ويرسلون الدعاء والضراعة. وقصارى القول فقد كل سكان المدينة أسباب الشجاعة والعقل الضرورية لتدبير أمرهم. وأدرك الخاص والعام أن مجلس الشيوخ ارتكب خطأ فاحشاً في استحداث سبب عدا جديد مع (مارشبيوس) بينما كان الواجب يفرض عليه نسيان الأحقاد والتفكير في جبر الخواطر ونهذنتها. وبين هذين، حلّ الوفاق محل الخلاف بين مختلف الفئات. واتخذت الآراء، وتوصلوا بالاجماع إلى قرار يقضي بإرسال وفد إليه يعرض عودته إلى بلده. ويطلب منه وضع حدٍ لأحوال الحرب وويلاتها، واختير أعضاء الوفد من أقربائه وأصدقائه (٢٨) الذين يتوقعون منه خير ملقى وأحسن استقبال لما تربطه بهم من العلاقات والوشائج العديدة القديمة. إلا أنهم كانوا مخطئين جداً في ظنهم. فبعد أن أقتيدوا إليه في المعسكر وجده جالساً تحف به مطهر السلطان ويحيط به عظماء الفولسيين، ويبدو عليه التجهّم والصلافة. وطلب منهم أم يفصحوا عن أسباب مجيئهم ففعلوا بأرق عبارة والطف أسلوب وأنسب سلوك للهجتهم. وبعد أن فرغوا من أقوالهم ردّ عليهم بجوابٍ لادعٍ مفعم بالقسوة الغاضبة والمرارة، بخصوصه وبخصوص اسماءهم معاملته. وأمّا بوصفه جنرالاً للفولسيين فقد طلب إعادة كل المدن والأراضي التي انتزعوها منهم بالحرب الأخيرة وأن يعطوا الفولسيين نفس الحقوق وامتيازات المواطنة في روما، التي منحت سابقاً لللاتين، مادام لا يوجد أي ضمان في حلول سلم ثابت دائم دون شروط عادلة متعادلة للجانبين. وأعطاهم ثلاثين يوماً مهلة للتوصل إلى قرار.

بعد أن أنصرف الوفد، عمد مارشبيوس إلى سحب قواته خارج الأراضي الرومانية؛ فتذرع مبعوضوه وحاسدوه من الفولسيين الذين لم يستطيعوا تحمل نفوذه بين الشعب، بهذا العمل واتخذوه حجةً للتنديد به ومن بينهم (تولوس) نفسه. لا لأذى شخصي لحقه من مارشبيوس بل لضعف في طبيعة النفس البشرية، إذ لم يسعه إلا أن يشعر بالذلة عندما وجد مجده السالف يكسف تماماً، ويغدو هو بالذات شخصاً عادياً في نظر الفولسيين، لا يثير الإعجاب ولا

(٢٧) ترك وحدة من الجنود لمواصلة الحصار [ديون ٨ ٤].

(٢٨) اورد [ديون المرجع السالف] اسماءهم هكذا: ماركوس مونيشيوس، پوستيميوس كومينيوس، سپوريوس لارغيوس، بوبليوس يناريوس، كونيئس سوليشيوس. ويورد ديون خطبه رائعة ألقاها مونيشيوس بالمناسبة، وجواب كريلانوس عليها.

يكثر به أحد، في حين ارتفع عندهم رصيد زعيمهم الجديد بحيث ما عادوا يرون غيره. وفي رأيهم أن القادة الآخرين ينبغي لهم أن يقنعوا بذلك الجزء من السلطة الذي يراه مناسباً لهم. ومن هذا زرعت أولى بذور الشكوى والانتهاك وأخذت تنتشر سراً، وتلاقى المشاغبيون وأخذ يعمل الواحد منهم على إلهاب سخط الآخر، بالقول: إن الانسحاب الذي قام به هو في الواقع غدرٌ بالجيش وبالمدين، بل أفدح وأنه تغرير وتعمد إضاعة أخطر فرص وأنسبها للعمل، تلك التي يتوقف عليها الفوز بكل شيء أو خسارة كل شيء. ففي فترة الأيام الثلاثين هذه يمكن أن يحصل أي شيء في الدنيا.

على أن مارشيسوس لم يضيع لحظة واحدة من هذه الفترة. فقد أستولى خلالها على سبع مدن عظيمة عامرة بالسكان، دون أن يجرأ الرومان على مد يد العون إليها. فقد شلهم الخوف شللاً تاماً وأفقدتهم الحركة ولم يبد منهم ما يدل على الحياة أو الحس. وبانتهاء فترة الثلاثين يوماً ظهر [مارشيسوس] مرة أخرى على رأس جيشه. فبعثوا إليه بوفد آخر، يرجو أن يخفف من حنقه ويسحب جيش الفولسيين، وبعدها يعرض ما يراه مناسباً للطرفين من المقترحات فإن الرومان لا يقبلون بأي تنازل تحت التهديد، وإذا وجد أن الفولسيين محقون في طلب أي امتياز، فيمكنهم الحصول على ما يريدون ضمن حدود معقولة إن تخلوا عن السلاح.

وكان رد [مارشيسوس] أنه لن يجيب بشيء بوصفه قائداً للفولسيين أمّا بوصفه رومانياً وما يزال يملك صفة الروماني، فهو ينصحهم بله يحضهم - والحالة هذه - على ترك هذا الموقف المتعنت، والتفكير في عقد صلح مناسب، على أن يذهبوا الآن ويعودوا بالموافقة على مطالبه السالفة - بعد انقضاء ثلاثة أيام أخرى. وإلا فليعلموا أنهم لم يعودوا أحراراً في دخول معسكره بسعابات ووساطات لا طائل تحتها.

لما عاد الوفد وأطلع الشيوخ على جواب [مارشيسوس]، أدركوا أن بناء الدولة وصرحها يتعرض الآن إلى عاصفة هوجاء وأن الأمواج لن تلبث أن تغطي عليهم وتخيبهم في اللجة. فلم يروا مناصاً من «انزال الماساة المقدسة» على حدّ شائع القول، وهو ما كان يلجأون إليه في أشدّ ساعات الضيق. إذ صدر الأمر لطبقات الكهنة جميعاً، أولئك الواقفين على الأسرار أو سدنتها، وأولئك الذين يستوحون النبوءات من حركات الطير حسبما درج عليه الناس؛ أمروا كافة أن يخرجوا ولا يتخلف منهم واحد، يحلّهم وكسوانهم الكهنوتية التي يرتدونها عادةً أثناء ادائهم وظائفهم الدينية وينتظمون بموكب حيري ويسيروا إلى [مارشيسوس] ليطلبوا منه كالسابق - سحب قواته ثم التفاوض عن الفولسكان (الفولسيين) مع بني قومه الرومان. ورضي أن يستقبلهم في معسكره إلا أنه لم ينزل لهم عن أي شيء، ولم يرق لهجته وعباراته.

وطلب منهم بصلافة لا يشوبها تنازل أو تطامن أن يحتاروا بصورة نهائية بين أمرين الطاعة أو القتال. فالشروط الأولى كانت شروط سلم لا غير. وفشلت هذه الوساطة الدينية أيضاً ورجع الكهنة خائبين، وإذ ذاك قرر الرومان البقاء داخل المدينة والسهر على أسوارها. وهكذا كانت خطتهم قاصرة على صد كل هجوم قد يقوم به العدو. ووضع كل أمالهم في تقلبات الخط المفاجئة، وفي عامل الزمن لا غير. فقد كانوا يشعرون بعجز تام في المحافظة على أرواحهم، وأستولى على المدينة المزيد من الرعب والإضطراب، وسرت اشاعات مشؤومة تبني، كلها بشراً مستطير. ثم وقع حادث يشبه ما نقرأ عنه كثيراً في آثار [هوميروس] ولولا ذلك لأخذه الجمهور مأخذ الحقيقة الواقعة. فنحن نحده بقول في وصف مناسبة خارقة للعادة.

«ثم [باللاس] نزلت عليه الرئة ذات العيون الزرق الحادة بالالهام (٢٩).
ويقول في موضع آخر: على أن واحداً من بني البشر وجه عقله يان دخل في قلبه الى الخوف
كما سيقوله الآخرون.

وقال أيضاً: «أكانت تلك فكرته الخاصة، أم أمراً القاه عليه الرب؟» (٣٠)
في هذه المواقف يميل الناس الى تكذيب الشاعر وعدم الاعتداد بما يقول، كأنما بعرضه
المستحيلات، وتصديه للحيال العاثر المجرد، يسكر عمل الفكر الانساني المتروى، وعامل
اختياره الحر، وليس هذا ما نحده دائماً في صور هوميروس ووصفه. فان الاستنتاجات المألوفة
منها والمحتملة والاعتقادية يعزوها دوماً الى قوانا البشرية، وبذلك كثيراً ما يقول
«... على أنني لا أركن إلا لنصح نفسي العظيمة» (٣١).

وفي بيت آخر: «... وأصغى [آخيل] متألماً وأخذ مختلف الأفكار يتزاحم في رأسه
العظيم» (٣٢).

وفي ثالث: «... من رغبات نفسها - لم تنل فتبلاً الشاب النبيل بللروهون Bellerophom
المتسلح بدرع الحكمة»

لكن عندما يتسم الحدث بطابع الخروج عن المألوف، والمخارق للعادة، ويبدو بشكل مارياني
المنشأ، ويتطلب تعليلاً آلهياً من قبيل الالهام المعاجي، فهنا فحسب تتدخل القوى السماوية
لا لإحباط الارادة البشرية، بل لتنشيطها واتباعها، لا لخلق قوى أخرى فينا، بل لتزويد قوانا

(٢٩) الاوديسي ١٨ و ١٥٧ و ١٥٨.

(٣٠) المرجع نفسه ٣٣٩.٩.

(٣١) المرجع نفسه ٨ و ٢٩٩.

(٣٢) الايلياذة ١٨٨.١

بصور ويعوامل محرصة، هذه الصور لا تجعل عملنا عملاً لا إرادياً بأي شكل من الاشكال، بل لتفسح المجال بالأحرى للعمل الارادي التلقائي، يساعد ويؤزره الشعور بالثقة والأمل. اذ ينبغي لنا إما ان نكر انكاراً باتاً على عامل التأثير الرباني أي شكل من الاشكال السيئة والابداع فيما نعمله وإلا، فبأي سبيل نعمل فينا الموزارة والمساعدة الالهية؟ نحن بالتاكيد لانستطيع الافتراض بأن الكائنات الالهية هي التي تسيّر حركة اجسامنا وتوجه ايدينا وأقدامنا الى هذا السبيل أو ذاك لنتنك طريق الزلل قولاً وعملاً، وواضح انها تعرض العنصر العملي والاختياري في طبيعتنا بمحضات أولية معينة، عن طريق صور ترسعا في مخيلتنا وافكار تودعها في ضميرنا، فإما تشيرها وتوجهها الى السبيل القويمة، أو تحرفها أو تمسكاً عن سلوكها.

وفي الارتسك العام الذي أتيت الى وصفه، قام معظم سريكات الرومان وعقائلهن بالذهاب الى معبد [جويتر كايستولينوس] وبعضهن قصدن معابد أخرى. ومن بين هاته النسوة [فاليريا] بنت [پوليكيولا] الكبير الذي قام بأجل الخدمات للرومان في السلم وفي الحرب، كان پوليكيولا قد قضى نحيبه منذ زمن كما أوردنا في سيرة حياته. إلا ان فاليريا ادركت هذا العهد، وكانت تتمتع بمقام كبير واحترام في روما، ولم يشن سلوكها وحياتها نل مولدها. تملك هذه المرأة فجأة عاطفة أو فكرة من النوع الذي أتيت الى شرحه. ووقعت على السبيل القويمة بهدي رباني، فنهضت وطلبت من الأخريات النهوض ومرافقتها في الحال الى منزل [فولنيا] أم [مارشيسوس]. ففعلن ودخلن ليجدنها جالسة مع كتنها وقد وضعت احفادها في حضنها وتكلمت [فاليريا] باسم رفيقاتها اللاتي كن يحطن بها، قالت:

- جنناك يا فولنيا وانت يا فرجيليا كما تأتي نساء الى نساء لا بأمر من مجلس الشيوخ أو بتعريض من أحد الحكام، إن الكائن الالهي نفسه وقد أثرت فيه صلواتنا ودعواتنا ترائي، لي ودفعنا الى زيارتكما لئلا نرجو منكما رجاء واحداً نتوقف عليه سلامتنا وسلامة قومنا، إن قبلناه وحققناه فسترتفعا الى أعلى مقام بلغته النساء السابينيات اللاتي استبدلن العداوة القتالة بين آباءهن وأزواجهن، بالصدقة والسلام فهي بنا الى [مارشيسوس]، وشاركا معنا في رجائنا، واحملا عن امتكما هذه الدعوة العادلة لخيرها. فهي مع الأخطاء والاذيات الكثيرة التي أنتها، لم تصبكما بأذى ولا فكرت هي في الإساءة اليكما بشيء وهي في ذروة هياج حقدتها، انها الآن تعيدكما اليه سالمين، وان كان الأمل ضعيفاً في نيل شروط عادلة منه.

وأمّن جميع النسوة على اقوال [فاليريا] بكلمات الاستحسان والرضا. وأجابت فولنيا على

ذلك عما يلي:

- إن حصتي وحصة فرجيليا من المصائب العامة لا تقل عن حصصكن يا بنات قومنا على أن لدينا مصيبة خاصة انفردا بها عنكن. وهي فقدنا كفاءة [مارشوس] وصيته، ومشاهدتنا إياه وهو سجين سلاح الأعداء، لا محروساً به. واني مع هذا اعتبر أعظم بلوى حلت بروما هما الحالة الناعسة، والعجز المخجل اللذان جعلها تعتمد علينا نحن الاثنين. فعندما لا تَرَيْنَ [مارشوس] يقيم أي وزن واعتبار لوطن كان عليه أن يفضلته على أمه ويضعه فوق زوجة وأولاده. يكون من الصعب جداً أن أمل ببقاء أي منزلة وأعتبار لنا عنده. وعلى كل حال، استفدن من خدمتنا وقدنا إن شئتُ اليه، فبإمكاننا على الأقل أن نلفظ مع التماسا اليه آخر انفاسنا.

قالت هذا وأمسكت بيد [فرجيليا] والأولاد^(٣٣) وذهبن جميعاً الى معسكر الفولسكان. فكان موكبهن منظراً مفعجاً أليماً أثر كثيراً حتى على العدو الذي راح يتابعه بالنظر وهو صامت صمت الاحترام والمهابة. في تلك الساعة كان [مارشوس] جالساً في مقرة يحفّ به اركان حربه وكبار ضباطه فلما لمح جماعة السوة يقتربن من مجلسه أدركته الحيرة ولم يفهم للأمر معنى ثم لما تبين أمه على رأس الجماعة زابله جلده وفارقت صلابته وعلت عليه عاطفة الحنان، وأرتبك جداً ولم يقو على البقاء، حالساً في دست الحكم، فأسرع لاستقبالهن وحيّاً أمه وعانقها عناقاً طويلاً، وانثنى الى زوجه وأولاده ليعمل كذلك، ولم يدخر دمعة في عينيه، ولا حناناً ولا ملاطفة، بل سمح لعواطفه الجياشة أن تحمله وتنطلق به متحررة ناشطة من إسارها.

وبعد أن شفا غليله، ولحظ أن أمه تريد أن تقول شيئاً له، دعا مجلس الشورى الفولسكاني للاجتماع وجلس الجميع بصفون الى اقوالها التالية:

- يا بني! إن ثيابنا وملامحنا قد تفصح لك دون كلام أو نطق عن شقائنا منذ ان نفيت وغبت عا. والآن فلتفكر في نفسك ألسنا أشقى امرأتين في العالم؛ حين نجد أشهى وأعذب منظر تمسناه ينقلب الى أبشع موقف واشدّه هولاً؛ فبمعامل من سوء طالع لا أدري كنهه ترى [فولونيا] ابنها، وترى [فرجيليا] زوجها يرفع السلاح لدك أسوار روما! حتى الصلاة التي كانت دوماً مصدر سلوى وعزاء للنساء في كل ضيق وبلوى، أمسّت عندنا مصدر ألم واضطراب. لأن أفضل الدعاء الذي نرفعه الى الآلهة، لا يتفق ودعاء

(٣٣) أخبرت (فاليريا) القصلين بنيتها في الأول. فأتخذوا الاقتراح الى مجلس الشيوخ الذي وافق عليه بعد نقاش طويل. عندها ركبت هي وعقائل روما في مركبات هيفاً لهن القصلان واتمهر بها الى معسكر الأعداء مشيعه بتحيات وهتافات الشيوخ العامة معاً.

الأخريات. ونحن في الوقت عينه لا نستطيع أن نضرع الى الآلهة لتنصر روما ولرعائتك من السوء. معاً، بل أن اسوء ما يمكن أن يلحق بنا الاعداء من لعنة، كان موضع نذورنا ودعواتنا. وزوجك وأولادك يعيشون محنة أليمة، فإما أن يحرروا منك وإما أن يحرروا من تربة الوطن. أمّا انا فقد وطدت العزم على استيقاح احدى النتيجةين اللتين ستسفر عنها الحرب بالنسبة لي. فان فشلت في اقناعك بتفضيل السلام والوئام على الحرب والخصام ونجحت في حملك على الاحسان للمفريقين بدل أن تقضي على احدهما، فخذها مني كلمة صدق وكن على يقين بأنك لن تبلغ بلادك إلا بعد أن تطأ أولاً جثة تلك التي جاءت بك الى النور. من الصعب علي أن انتظر وانتسكع في هذه الحياة حتى اليوم الذي أرى ولداً لي إما يقاد أسيراً في موكب النصر بزمام بني جلدته، وإما أن يدخل منتصراً عليهم. ولو اني طلبت منك انقاذ بلادك باهلاك الفولسكان، فإن الأمر سيصعب عليك حقاً يا بني، من الضعة والعار أن تجلب الدمار لبني قومك، ومن الظلم والشر أن تغدر بمن وضع ثقته فيك. على أن ما نريده هو حلّ مناسب لنا ولهم^(٢٤). وانه لما يشرف الفولسكان ويرفع قدرهم كثيراً وهم في تفوقهم العسكري هذا، أن يعمدوا الى أعظم نعمتين في الدنيا: السلم والصداقة، وإن نالوا منهما قدراً مساوياً لا غير. وإن لنا هاتين البركتين، فسيكون لك الشكر العام بوضعك العامل الرئيس لوجودهما. فإن لم يتسن ذلك، فلا سبيل لك إلا أن تتحمل وزر الشعبين كليهما. وتستهدف لومهما. إن فرص الحرب غير مؤكدة، على أن ما هو أكيد في هذه الساعة هو أنك لن تنال من فتح روما صيناً اللهم إلا تقويضك صرح بلادك كلها أنك جلبت البؤس والشقاء لاصدقائك والمحسنين اليك، ارضاءً لعاطفة الانتقام فيك.

وكان [مارشوس] يصغى الى أقوال أمه صامتاً لا ينطق بكلمة. ولما رأتة [قولنبا] يقف برهة كالأبكم بعد فراغها من الكلام، استطردت تقول:

- يا بني! ما معنى سكوتك هذا؟ اليس هو واجباً أن تغلب ارضاء املك بتحقيق رجائها، على كل شعورك بالأذى والظلم؟ أهو من أخلاق عظماء الرجال ان يتذكروا الأخطاء التي ارتكبتها الناس بحقهم؟ أو ليس من شيم الانسان الصالح الكبير النفس أن يذكر تلك المنافع التي نالها كتلك التي يبذلها الآباء للابناء؟ وان يجازوهم عليها بالاحترام والاكرام؟ وانت، وعهدي بك صلب القناة لا تلين قط في عقاب ناكري الجميل، يجب ألا تكون أكثر اهمالاً لهذا الواجب من الآخرين فلا تحفظ جميل غيرك. لقد فرضت على

(٢٤) طلبت هدنة أمدها سنة كاملة يتم خلال البحث عن تسوية لعقد صلح ثابت دائم.

بلادك عقاباً، ألا أنك لم تدفع لي ديني بعد، الحق يقال أن الدين والأخلاق اللذين لا إكراه فيهما كانا يجب أن يدفعاك الى اجابة طلب شريف عادل كهذا الذي أعرضه فاذا كان الأمر خلافاً لذلك، فعلياً أن أتوسلَ بآخراً ما لدي من حيلة...».

ما أن أنهت كلامها حتى ألقت بعنقها على قدميه وكذلك فعلت زوجته وأولاده. وهنا صرخ (مارشوس).

- آه يا امي! ماذا صنعت بي؟

ثم رفعها وهو يضغط يدها اليمنى بشدة غير اعتيادية وقال:

- لقد نلت للرومان نصراً ما بعده نصر، لكنه سيهلك ابنك الذي غلبته أنت وحدك لا سواك! وبعد تبادل أحداث خصوصية مع أمه وزوجة فترة قصيرة، أعادهما الى روما حسب مشيئتهما.

وفي صباح اليوم التالي، قوَّض المعسكر وعاد بالقلوسكان الى ديارهم. وفي أنفسهم انطباعات مختلفة من فعله هذا، فبعضهم كان يندد به ويدين تصرفه، وبعض من كان يميل الى السلم وقفوا على الحياء. وفئة ثالثة اسخطهم ذلك جداً، إلا أنهم لم ينظروا اليه نظرتهم الى الغادر المخادع، بل وجدوا ضعفه الأخير واستسلامه تحت هذا الضغط العاطفي، مما يمكن اغتفاره والتفاضي عنه. وعلى أية حال فإن أوامره لم تلق معارضة من أحد، وتبعوه بمنتهى الطاعة وان كانت طاعتهم هذه ناجمة عن أعجابهم بخلقه، أكثر من احترامهم لسلطته.

في الوقت عينه، كشف الرومان عن مبلغ الخوف الذي كانوا يشعرون به، وخشيئتهم من الحرب، بما بدأ منهم من تصرفات بعد أن انحابت عنهم سحبها. ما ان تأكد حرس الأسوار من تقويض القلوسكان معسكرهم وارتحالهم، حتى عمدوا الى فتح ابواب المعابد كافة بطرفة عين. وراحوا يتوجون رؤوسهم الاكاليل ويستعدون لتقديم الأضاحي والقرابين، كعادتهم عندما تردهم انبياء نصر ساحق ولكن فرحة المدينة كانت فريدة بصورة خاصة في تكريمهم النسوة واطهار دلائل الاعتزاز والإكبار لهن من الشيوخ ومن العامة على حد سواء. ولهيج الجميع بمأثرتهم وقال أنهم بلا مماراة منقذات الوطن. وأصدر مجلس الشيوخ أمراً باستجابة كل ما يطلبه من تكريم، وان يحقق لهن الحكام كل رغبة، وكانت طلبتهن قاصرة على اقامة معبد للآلهة الانثى (فورتون: الحظ). وعرضن أن تسد نفقات اقامته من تبرعاتهم الخاصة، إن تعهدت المدينة بالصرف على القرابين من الخزينة العامة وغير ذلك من مراسيم التكريم الخاصة بالآلهة، فلم يسع مجلس الشيوخ إلا الاعجاب بروحهن الوطنية، وأمر بانشاء المعبد فوراً، واقامة تمثال فيه

للربة على حساب الخزينة العامة^(٢٥). إلا أن النسوة اكتتبن فيما بينهن مبلغ لعمل تمثال آخر لربة الحظ الذي يؤثر عنه الرومان انه نطق بالعبارة التالية عندما كان يحرق نصبه: «بركات الآلهة هي هديتك أيتها النساء».

يقولون إن هذه العبارة سمعت مرة أخرى من فم التمثال. مؤكدة بذلك رأينا في امكان وقوع ما يبدو انه قريب من المستحيل.

من المحتمل أن تشاهد التمثال وهي يتضح عرقاً، أو تنحدر من احدقيته الدموع أو أن يتجمع على سطحه قطرات متحلبة ذات لون دموي، لأن المادة التي صنعت منها وهي الخشب أو الرخام كثيراً ما تنقشر أو تدركها عفونة بنجم عنها رطوبة، وقد تنشأ على سطوحها ألوان مختلفة من جراء التفاعل الداخلي أو من تأثير الهواء الخارجي، وبهذه العلامات، لم يكن من الغرابة والسخف أن يتصور المرء ان الآلهة تريد انذارنا بحدث مقبل. ويحدث أيضاً أن يصدر من التماثيل والصور اصوات قريبة الشبه بالأصوات أو التناؤد من جراء تشقق فجائي، أو انفصال داخلي قوي بين اجزائها. أمّا ان تصدر أصوات قولية ذات تعابير واضحة ولغة دقيقة من جمادٍ فهو في رأيي من المستحيلات. اذ لم يعرف قط عن روح انسانية أو الهية انها نطقت بكلمات أو عبارات لغوية من ذات نفسها ومن دون وجودها في جسم ذي اجهزة واعضاء منتظمة العمل، وحاسة نطق. ولكن لما كانت وقائع التاريخ بما تواتر فيها من الشهادات العديدة الموثوقة، ترغماً على التسليم بهذه الظاهرة، فعلياً ان نعلل ذلك مستنتجين بأن انطباعاً معيناً خلاف الاحساس البشري الاعتيادي يؤثر على الجزء المتخيل من طبيعتنا، فيبتعد بنا عن الحكم الصائب بحيث يحملنا على الاعتقاد بأننا نحس احساساً مادياً لا غبار فيه كما يحدث لنا في النوم. فنحن نتخيل بأننا نسمع ونرى بينما الأمر ليس كذلك. على ان الاشخاص الذين يكونون إحتراماً عميقاً للآلهة. ويتمسكون بالدين أشد تمسك، لا يسمح لهم احترامهم وقسكهم بما يعتقدون، بانكار أو دحض أي شيء من هذا القبيل، وحجتهم القوية تكمن في ايمانهم بالصفات الأثيرية العجيبة للقوى الالهية التي لا مجال لمقارنتها بقوانا البشرية، لا من حيث طبيعتها ولا من حيث فاعليتها. ولا من أسلوب فعلها أو قوتها؛ وليس مما يناقض العقل، انها تفعل أشياء لا نقوى عليها نحن، ونبتدع أموراً غير ممكنة بالنسبة لنا لاختلافها عما من شتى الوجوه، وفي مقدمة الاختلاف أفعالها الخاصة، وليس لنا إلا الاعتقاد

(٢٥) أقيم في الطريق اللاتيني Via Latina، على بعد اربعة اميال من روما في عين المكان الذي وفقت فيه فيثوريا في التعلب على عباد ابنها [فاليريوس ماكسيموس ٨٠١] أمّا فاليريا التي كانت أول من اقترح هذا الوفد الناجح فقد صارت أول كاهنة للهيكل الذي كانت ترتاده الرومانيات كثيراً (إيفي ٤٠٠٢).

بأنها لاتشبهنا قط ، وانها بعيدة جداً عَنَّا. يقول (هيراقلدس):

«ان الشك الذي يلازمنا ، ضيع علينا معظم المعرفة باللاهوت» .

لما عاد [مارشبيوس] الى آيتوم، بدأ [توللوس] فوراً باعداد الوسائل الكفيلة بالقضاء عليه وكان كرهه العظيم له بقدر خوفه منه - كان يدرك جيداً لو أن، مارشبيوس أفلتت من يده الآن فإن احتمال سنوح فرصة أخرى كهذه، بعيد جداً. فبعد تأليهه عدداً من بني قومه عليه، طلب منه اعتزال منصبه وتقديم الحساب للثولسكان عن أعماله. ولخشية [مارشبيوس] من الخطر الذي يتعرض الفرد البسيط الذي سيكونه، بينما سيبقى توللوس في منصب القائد الحائز أعظم السلطة بين المواطنين، أجاب قائلاً انه مستعد لاعتزال منصبه متى ارتدي، سحب سلطته أولئك الذين تسلمها منهم، كما انه مستعد في الوقت ذاته لتقديم الحساب عن تفاصيل أعماله وتصرفاته متى رغب الانتيات.

وعقد اجتماع عام، وتقدم الخطباء الشعبيون للكلام حسب الخطة المرسومة- ومرادهم اثارة حفاظ الشعب واضرام كوامن احقادهم. وعندما حان دور مارشبيوس ونهض للاجابة، سكت فجأة أكثرهم صخباً وهياجاً، إحتراماً له. وترك يتكلم دون ان يقاطعه أحد. وظهر على أخيار الناس كافة وكل من كان يصبو الى السلام أنهم سيصيحغون السمع اليه بكل عطف وانهم سيحكمون عليه بما يتفق مع العدل والوجدان.

فدبّ ديبب الخوف في [توللوس] وخشي نتيجة الدفاع الذي كان [مارشبيوس] يهّم بالقائه، فهو خطيب مفعوه ساهر اللسان، زد على هذا فان الخدمات الجليلة السالفة التي قدمها للثولسكان حفظت له في قلوبهم وما زالت تحفظ وداً وعطفاً لا يقلل من شأنه أي اعابة أو تنديد بسلوكه الأخير، والحقيقة هي أن الاتهام كان بعد ذاته دليلاً وشاهداً على عظمة نفسه لأن الشعب لاحق له في الشكوى منه أو اعتبار نفسه مخدوعاً ومغبوناً لأن مارشبيوس عدل عن اخضاع روما. فبفضله وحده اصبحوا على قاب قوسين من فتحها لهذا قدر المتآمرون ان الحكمة تقضي عليهم بالاستعجال في الأمر وعدم التأخر، ليتذوقوا طعم المشاعر الشعبية في حكمها لصالح مارشبيوس فصاحت الفئة الجريئة من حزبهم ان لا ضرورة تدعو للاصغاء الى غدار خائن والسماح له بالبقاء في منصبه وممارسة سلطة الطاعية المستبد بين ظهرانيهم. قالوا هذا وحملوا على [مارشبيوس] حملة رجل واحد، وفتكوا به في محل الاجتماع^(٣٦).

وسرعان ما تبيّن أن عملهم هذا لم يقع موقع رضى وقبول من غالبية الثولسكان، اذ خرجوا

(٣٦) يقول [ديون] انهم رجموه حتى قُضي عليه. ويتفق مع بلوتارخ إلا في قوله ان الاشتباكات التي حصلت بينه وبين ثلوس استمرت عدة أيام. أما شيشرون (الحط ١٠) فيفضل الرأي القائل بأنه بزع نفسه.

زرافات ووحداناً من مدنها العديدة لاستقبال جثمانه وإظهار آيات التكريم والاحلال له. ودفنوه دفنة مشرفة تليق بمقامه^(٢٧)، وزينوا ضريحه بمختلف تهاويل السلاح والشواخص، وجعلوه مثل أي نصب تذكاري لبطل نبيل، وقائد شهير. ولم يظهر من الرومان شيء يدل على تكرمه أو تحقيره عند سماعهم بمقتله. على أنهم استجابوا إلى طلب النساء الرومانيات في أن يقمن عليه الحداد ويندبنه لمدة عشرة أشهر، بمقتضى العادة التي جرى عليها عند فقدهم ابناً أو ابناً أو أخاً. وهذه أطول مدة من مدد الحداد على الميت التي رسمتها قوانين (نوما پومپيليوس)، كما ذكرناها بتفصيل في سيرة حياته.

ولم يمرّ طويل زمن حتى شعر القولسكان بفداحة خسارتهم فيه، ومدى حاجتهم إليه. فقد اختلفوا باديء ذي بدء مع الايكويين Aequilans، حلفائهم واصدقائهم حول تعيين جنرال لقواتهم المشتركة، فأقتتلوا فيما بينهم وسفكت الدماء وهلكت ارواح كثيرة. ثم انهم منوا بهزيمة نكراء على يد الرومان، فيها فقد (توللوس) حياته. وابتدت زهرة جيوشهم إبادة نامة وبهذا أرغموا على الخضوع لهم. وقبول سلم وفق شروط غير مشرفة لهم، وصاروا بذلك تابعين لروما خاضعين لسلطانها.

(٢٧) قتل كزيولانوس في السنة الأولى من الأولياد المائة والثالث والعشرين بحسب هذه الرواية. لكن (اليفي) نقلاً عن كاتب قديم جداً يدعى [فاببيوس پكتود] يخالفه في الرأي ويقول انه عاش حتى بلغ من العمر عتياً ومات ميتة طبيعية.

أوجه المقارنة بين الكيببىادس وكوريولانوس

بعد أن أتينا الى وصف كل أعمالهما التي تستحق الذكر؛ لنا أن نقول عن القسم العسكري منها أن الكفتين فيهما تقفان على مستوى واحد لا يميل الثقل بأحدهما دون الأخرى أبداً فبمقياس كاد يكون متساوياً أظهرهما كلاهما في مناسبات عديدة بسالة الجندي وأقدامه، وأبدىا براعة القائد وبُعد نظره، خلا أن انتصار الكيببىادس ونجاحه في عدة معارك بحرية وبرية، يضفي عليه صفة القائد الأكمل. وطالما كان كل منهما في بلاده متسلماً القيادة فقد كسب لهما من المجد والرفعة ما يعادل الأذى الذي لحقه بهما عند نفيه منها. ولقد شعر عقلاء الناس كلهم الكيببىادس الى استخدامهما في حياته السياسية لخطب ودّ الشعب وكسبه الى صفّه. ونفروا من التعالي الاوليغارشي والغرور والفطرسة التي استخدمها [مارشيسوس] في بلاده وكانت موضع كره الجمهور الروماني له. لا يمكن أن يكون هذان الموقفان موضع تقرّظ أو تقدير. على أن الرجل الذي يحبّ نفسه للآخرين بالمداينة والرياء لا يلام بقدر ما يلام من يلجأ الى السبّ والإهانة ليتحاشى الظهور بمظهر المداينة والرياء. إن إطلاّب السلطة عن طريق تحقير النفس، والاستعباد للجمهور لهُوَ الإنحطاط بعينه. إلا أن الوصول الى السلطة بالإرهاب والعنف واضطهاد الناس، هو انحطاط وظلم عظيم.

كان [الكيببىادس] حسب فهمنا لخلقهِ، رجلاً بسيطاً صريحاً لاشكّ فيه. اما الكيببىادس السياسي ورجل الدولة فكان مراوغاً بعيداً عن الاستقامة. ونال الملام الأعظم من الأسلوب الغادر غير الشريف الذي اتبعه مع سفراء اللقيديمونيّين، حسب رواية [ثوكيديدس] - فانهى به عهد السلام والاستقرار. على أن سياسته هذه التي ورطت مدينته في الحرب ثانية واصلتها الى منزلة وطيدة وحققت لها مكانة رفيعة بما ضمنه لها الكيببىادس من تحالفٍ مع [ارغوس] و[مانتينيا]، كذلك [مارشيسوس]، فهو على حدّ ما روى [ديونيسيوس]، استخدم وسائل غير شريفة لإثارة حرب بين الرومان والفولسكان عندما أفتعل نبأ كاذباً حول سوء نوايا مشاهدي الالعب، إن الدافع لهذا العمل، لهُوَ اقبح من دافع الكيببىادس الى عمله، حسب

رأى لأن سببه لم يكن الحسد السياسي ولا روح المنافسة والمباراة، بل لمجرد ارضاء عاطفة حقدٍ «لم يمل عنها أحدٌ عوصاً على الإطلاق» كما يقول [إيون]، فقذف باقالييم كاملة من ايطاليا في لجة الفوضى، وصحى بكثير من المدن البرينة على مذبح عاطفة كرهه بلاده. الحق يقال، ان الكيببىداس سبب ايضاً نكبات عظيمة لبني قومه، لكنه أمسك عن ذلك حالما تغير شعورهم نحوه، وبعد أن طرد من البلاد للمرة الثانية؛ لا نجد يتشفى بالاختطأ التي ارتكبها قوادها، ولا أغتبط بعثراتهم. ولم يجلس على التلّ غير مكترث بالخطر الذي يداهمهم، بل قام بشبيه العمل الذي قام به [ارستيديس] [السيموستوكليس] واستحق عليه الثناء الأعظم. أقبل على القادة وهم أعداء له، وبين لهم ما يجب أن يعملوه. أمّا [كربولانوس] فقد هاجم في مبدأ الأمر كل قومه، وان كان جزء منه فقط اساء معاملته في حين وقف القسم الآخر في صفه وتحمل معه الإساءة - في الواقع وعطف عليه، وهو أنبل الجزئين وافضلهما وثانياً؛ إن العناد الذي ركبه في مقاومة السفارات العديدة والرجاءات والتوسلات التي استهدفت تهدئة غضبه الشديد وشعوره بالإهانة، أظهرت أن أثارته الحرب الزبون على بلاده وتأليب الاعداء ضدها كان الغرض منه القضاء عليها وتدميرها لا استعادتها ونوالها. على أن هناك فرقاً واحداً قد نستخلصه، فقد يقال أن [الكيببىداس] لم يُعده الى احضان اثينا إلا لخطر الذي كان يحدث به وهو بين السبارطيين، فكان عامل الميل لهذا الخوف والكره معاً. في حين لم يكن [مارشبيوس] يستطيع ترك الفولسكان بصورة شريفة بعد أن أكرموا وفادته، وأمرّوه على جيوشهم وجعلوه موضعاً لشقتهم الثامّة، فكان موقفه يختلف اختلافاً بيناً عن موقف [الكيببىداس] الذي لم يرغب للقيديونيون حتى في استخدامه عارية، أي استعماله ثم نبذه. فكان ينقلب من منزل الى منزل في المدينة ومن جنرال الى جنرال في المعسكر حتى اضطر أخيراً الى وضع نفسه تحت رحمة [طيسافيرنس]. إلا اذا وجب علينا الافتراض بأنه لم يلجأ اليه ويستمنح رضاه إلا للحيلولة دون القضاء التام على مسقط رأسه. المدينة التي كان يصبو للعودة اليها. أمّا من ناحية المال فلقد قيل لنا أن [الكيببىداس] أهتم كثيراً باطلابه وجمعه عن طريق الرشاوى وانفاقه باسره ما يمكن في البذخ والتبذير. لكن [كوريولانوس] ترفع عنه، حتى عندما أرغمه على قبوله قواده، على سبيل التكريم، وان السبب الأساسي الذي ابتلاه بغض العامة عند المناقشات حول ديونهم، كان وطنه الفقراء بقدمه لا لأجل المال، بل قحة منه واعتداداً بنفسه.

ذكر [انتىپاطر Antipater] في رسالة له كتبها عن موت [ارسطو] الفيلسوف العبارة التالية «من بين الصفات التي تخلّى بها، قوة العقيدة». وافتقار خلق [مارشبيوس] الى هذه

المرّة جعل كل أعماله المجيدة، وفضائله الحميدة غير مقبولة من المتتبعين بها و«الكسرياء والاعتداد بالنفس صنوان للعُرلة» كما يقول (افلاطون). وهذا ما جعله مكروهاً. أما الكيببّادس، فالبراعة التي حارها في معاملة كلّ أمرٍ، بأحد أسلوب اليه خلافاً لما رشيوس، لم يكن عجباً أن يلقي كلّ انتصاراته اعظم التكريم وحاصل الامتياز، حتى علطاته نفسه بين آر وآخر، تجد فيها نوعاً من البركة، واللفظ. ولذلك تراه رغم الأذى الكثير الذي أحدثه بالمدينة، يعاد انتخابه للسلطة والقيادة تكراراً، في حين فشل (كوربولانوس) في سعيه لنيل المنصب الذي استحقه بخدمة العظيمة الأول، رغم ما أحدثه من ضرر بقي محبوباً ولم يكره. والثاني لم ينجح في نيل محبة بني قومه بكل الأعجاب الذي ناله.

زد على هذا، ما يجب قوله وهو أن (كوربولانوس) لم يحز لبلاده نجاحاً ونصراً عندما تولى القيادة العسكرية. وانما كانت انتصاراته كلها لعدوه ضدّ بلاده، واما (الكيببّادس) فخدماته لأثينا كثيرة، قائداً وجندياً. وطالما يكون موجوداً فهو المتفوق أبدأ على خصومه السياسيين ولا بفلح الدس عليه إلا في غيابه. وأدين (كوربولانوس) حضورياً في روما وبالشكل نفسه قتله الفولسكان، ولم تكن ادانته أو قتله بأي وجه حق أو تطبيقاً لمبدأ العدالة، إلا أنها لا تخلوان من أسباب وحجج نشأت عن أعماله نفسها. مادام فرط في فرص عسكرية موأتية، بعد رفضه كل المقترحات السليمة علناً، ونزوله عند وساطة النساء سرّاً، دون اللجوء الى عقد صلح وتثبيت دعائم سلم، كان يجب عليه أن يحصل على موافقة أولئك الذين وضعوا ثقتهم فيه قبل أن يعتزم الانسحاب، هذا اذا كان حقاً يعتبر مصلحتهم فيه هي الأقوى أو أن قلنا بأنه لم يكتسب بمصلحة الفولسكان وانه ما شئ الحرب (التي عافها الآن) إلا ليشفي غليله ويرضي عاطفة حقدّه، فان العمل النبيل لن يكون الصفح عن بلاده بسبب أمّه، ولكنه عمل أمّه لوطنها. ما دامت أمّه وزوجه جزء لا يتجزأ من البلاد التي أحرق بها الخطر. لقد رفض رفضاً قاسياً شفاعة الجمهور، ووساطة السفراء، وضراعة الكهنة، وبتنازله عن كل شيء، كفضل خاص، حابي به أمّه، فقد أكرمها إكراماً أقل وقعا من تحقيره المدينة التي ما نجت إلا بوساطة امرأة واحدة على ما يبدو، ورغم الأخطاء التي ارتكبتها. فضل كهذا هو الواقع فضلٌ مقبوتٌ من المذاق، غير معقول في أعين الطرفين. لقد انسحب دون يلبي طلب خصومه، أو يطلب الموافقة على انسحابه من أصدقائه. والعلة كلّها تكمن في خلقه المتعالي المعتقد والستوحش الغطريس، وهو خلق مكروه من معظم الناس في كلّ الحالات، وتكون الطامة الكبرى أن اقترن هذا الطع بطموح الى الرفعة والامتياز، فإبه يقلب الى قسوة ووحشية صرفة.

يأبى بعض الناس أن يستمنحوا الشعب فضلاً لزعمهم بأنهم ليسوا بحاجة إلى أي تكريم منه، ويتميزون غيظاً عندما لا يظفرون به. ومن المؤكد أن [ميتيللوس واريستيديس وإپامسداس] لم يطلبوا فضلاً من الجمهور، وكان ذلك لأنهم والحق يقال، لم يقيموا أو يقدروا قيمة الهبات التي يحسها الشعب بمجموعه أو يمنحها. كذلك لم يظهروا حقداً أو يستولدوا ضغنا لبني قومهم عندما أبعادوا إلى المنفى أكثر من مرة، بل لم تزايد الرغبة في العودة قط، وكانوا يعملون لها وللمصافاة مع الشعب عند تحول الشعور العام نحوه ومن كان ازهد الناس في طلب المنّة والفضل ولا يُعطاه، والشعور بالكرامة الجريحة لما يحبس عن المرء ما يهفو إليه من الرفعة والمكانة، لا ينشأ إلا عن الشهوة العارمة اليهما. ولم يؤثر عن [الكبيسادس] أنه أخفى سروره واغتباطه بأي تكريم ناله. كما كان يتألم من الإهمال وعدم الاكتراث، لذلك حرص دوماً أن تكون علاقاته طيبة مع بكلّ من عرفه. وكبرياء [كوربولانوس] حالت بينه وبين اظهار اللطف والرعاية لمن كان بيدهم رفعة واعلاء شأنه. ومع هذا فإن غرامه الشديد بالمعالي جعله يشعر بالكرامة الجريحة والغيظ لما أهمل الشعب أمره. وتلك ناحية النقص في طبيعه. وطبعه فيما عدا هذا نبيلٌ فرقتة وعفته وامانته تجعله في مصاف عظماء الأغريق وأطهارهم، وهو على كلّ ليس من الفئة التي ينتمى إليها [الكبيسادس] أقل الناس تمسكاً بهذه السجايا، وأكثرهم إهمالاً لها.

بدأت بكتابة السير لأجل الآخرين، إلا أنني وجدت نفسي أباشرها وأعكف عليها لأجل نفسي. فأخلاق وطبائع هؤلاء العظماء، صارت عندي أشبه بالمرأة التي ألحظُ فيها كيفية تقويم حياتي وتعديل سيرها. هذه الكتابة في الواقع لا تخرج عن وصف الحياة اليومية واللقاءات والمخالطات البشرية، ونحن في تحقيقاتنا عنها نلتقي ونرحب بضيوف متعاقبين فنظر الي:

«... منزلتهم والى خُلقهم وطبعمهم»

ونختار من أعمالهم الأنبل، والأجدر بالذكر:

«فآه! واية لذة عظيمة تلك التي ينال المرء منها»

وأية وسيلة أقوى أثراً منها في رفع مستوى اخلاق المرء!

يقول لنا [ديموقريطس] «ينبغي لنا ان نشمى لأنفسنا لقاء السمع الكريم من جمهرة الاطيار التي تسبح في الأثير المحيط بنا، والأخلق بنا أن نختار منها الأقرب الى اذواقنا وطباعنا، أي الاطيار الصالحة الخيرة، لا الطالحة الشريرة.»

هذا القول إنما يقحم في الفلسفة مبدأ غير صحيح في ذاته، يؤدي بالمرء الى معتقدات خرافية لا نهاية لها، وهذا مخالف لطريقتي؛ فبدراسني التاريخ، وبالعادة التي الفتها في الكتابة روضت ذاكرتي على إقتبال واستيقا، صور أفضل الشخصيات وبرزها في الحياة. وهذا ما مكّني من معالجة نفسي وتحريرها من الانطباعات الخسيسة الرضيعة الفاسدة المنتقلة اليّ بعدوى سوء العشرة المفروضة على نفسي رغم أنفي - بدواء تحويل افكاري نحو الأمثلة الرفيعة الشريفة، بمزاج هادي، مسهح. وقد أخترت الآن لكتابتي من هذه الطائفة مثلين هم [تيموليون الكورنثي] و[پاولوس اميلوس] رجلان وقفا على درجة واحدة من سلّم الشهرة لا باخلاقهما بل بالنجاح الذي أصابه في الحياة. حتى بات من المشكوك فيه أن يدينا بأعظم أعمالها الى حسن حفظهما، ام الى سعيهما وألمعيتهما.

كانت أحوال السيراكوزيين قبل إرسال [تيموليون] الى صقلية، قد آلت الى الوضع الآتي:

بعد أن عمد [ديون Dion] إلى طرد [ديونيسيوس] الطاغية، قُتل غيلة وخيانةً، وأنقسم أعوانه الذين ساعدوه في تحرير سيراكوز، على أنفسهم. وكادت المدينة تقفر من سكانها لكثرة تبدل يد الحكام عليها. ولتعاقد سلسلة من المصائب والويلات فيها^(١). وبات قسم من صقلية بلقياً يباباً خالياً من السكان لاستمرار الحروب مدة طويلة، ووقع معظم المدن التي نجت من التدمير في أيدي البرابرة والجنود العاطلين غير المرتبطين بخدمة، المستعدين لصناعة أي شكل من الأشكال الحكم. تلك هي الحال عندما اهتبل [نيساوس Nysaeus]^(٢) سيد (سيراكوز) في السنة العاشرة لنفيه. وليستعيد مجدداً سلطانه ويستقر في ملكه. لقد كان غريباً أن يفلح حزبٌ صغير جداً خلال الفترة الأولى من حكمه، في تجرده من أعظم سلطاته وأشدّها استبداداً. على أن الأغرب منه نجاحه في استعادة تلك السلطة وهو في المنفى لا حول له ولا طول، وفرص نفسه حاكماً مطلقاً على من طردوه. ووجد من بقي في سيراكوز أنفسهم مرغمين على طاعة طاغية وخدمته. طاغية مستبدٌ، فظّ الطمع (أن استخدمنا أخف وصف له). أمستلاً غيظاً الآن إلى درجة الوحشية بما أصابه من بلايا ونكبات. ولجأ سراة القوم وأخبارهم إلى [هيكيتس Hicetes] حاكم [الليوتينيين]^(٣) في الوقت المناسب، ووضعوا أنفسهم في حمايته وأختاروه قائداً لهم في الحرب لا لأنه يفضّل في شيء، أي طاغية مستبد عنيد، بل لأنه الملجأ الوحيد الذي وجدوه في حينه وما منحهم شيئاً من الثقة منه: إبه من أسرة سيراكوزية، ويملك القوات التي تمكّنه من منازلة قوات [ديونيسيوس].

في هذا الوقت ظهر القرطاجيون على ساحل صقلية بأسطول عظيم، وراح سكان الجزيرة يرصدون المكان والزمان الذي يختاره الغزاة للنزول إلى بلادهم. ودفعهم الرعب من الأسطول إلى إرسال وفد إلى بلاد اليونان لطلب العون من الكورنثيين الذين كانوا محلّ ثقتهم أكثر من غيرهم^(٤) لا للقرابة التي تصل فيما بينها ولا للفوائد العظيمة التي طالما جنوها من وضع

(١) قُتل ديون الذي طرد ديونيسيوس الابن من سيراكوز في ٢٥٧ ق.م وقام قاتله [كالبيوس] باغتصاب السلطة لنفسه لكنه طرد منها بعد عشرة أشهر. وقتل بعين الخنجر الذي غيبه في صدر صديقه. وأقبل ميهارينوس Hipparinus أخو ديونيسيوس يقود أسطولاً كبيراً احتل المدينة وأبقاها تحت حكمه زماء سنتين وانقسمت صقلية إلى شيع وأحزاب وكتل حاكمة.

(٢) كان رجلاً عسكرياً لامعاً. وقائداً عاماً بأمرة ديونيسيوس.

(٣) هؤلاء القوم كانوا يسكنون مدينة اسمها ليونتيني كما يشتهر هيرودوتس وهي لا تبعد كثيراً عن شمال سيراكوز بين نهري ليسوس وفيويوس. يعزى بناؤها إلى الظفقيديين. ويطلق على الريف المحيط بها ليوستريغوتي أو مخيم ليونتيني واشتهر بخصوبته.

(٤) أوجد أرخياس الكورنثي المستعمرة السيراكوزية في ٧٢٢ ق.م. كان الفينيقيون قد غزوا صقلية قبل ذلك بثلاثمائة عام وأنشأوا فيها مستعمراتهم.

ثقتهم فيهم بل كذلك لما أظهرته كورنث دوماً من شدة تعلق بالحرية، ونعرة من الطفيان ودخولها في عدة حروب لا سعيّاً وراء الكسب والعظمة بل، دفاعاً عن حرية الأغريق ليس إلا. إلا أن [هيكثيس] الذي جعل هدف قيادته تحرير السيراكوزيين من ظلم طاغية، لإستعبادهم بطغيانه؛ كان قد اتصل سراً بالغداة القرطاجيين وفأوضحهم وتوصل الى اتفاق معهم، بينما كان يمتدح جهراً غايات اتباعه السيراكوزيين، حتى انه ارفق بوفدهم الى الهيلوبيونيس وفداً من لدنه لا لرغبته في نيل أية معونة أو نجدة تأتي منهم. بل كان أمل أن يرفض الكورنثيون بذل العون وهو أمر قريب الاحتمال بسبب الاضطراب الذي كان يسود بلاد الاغريق وانشغال هؤلاء فيه، واذاً ذلك يكون أقدر على تحقيق مصالح القرطاجيين بسهولة، وتنفيذ ما تعهد لهم به، وبهذا الأسلوب يتمكن من استعمال الغزاة الأجانب اداة لتحقيق اغراضه، وقوة احتياطية له يوجهها ضد السيراكوزيين أو ضد [ديونيسيوس] حسبما تدعو اليه الظروف وقد أنكشفت خطته هذه فيما بعد.

وصلت السفارة الى الكورنثيين، وعرضت مهمتها. وكان هؤلاء القوم دوماً شديدي الرعاية والاهتمام بكلّ جالياتهم وزراعتهم في الخارج. إلا أنهم خصّوا [سيراكوز] بأعظم اهتمامهم وكان الوضع في كورنث مستقراً اذ ذاك، والقوم يتمتعون بظلّ السلام الوارف والراحة فصوتوا بالإجماع على تقديم العون لهم. وفي اثناء ما كانوا يتداولون في اختيار قائد للحملة، والحكام يجادلون في طلبات مختلفة من أولئك الطماحين الى المجد. نهض واحد من الجمع الحاشد ونطق باسم [تيموليون] ابن [تيموديموس Timodemus] الذي كان قد توارى منذ زمن طويل عن ميدان الشؤون العامة ولم تكن لديه اية فكرة أو دعوى لهذا النوع من المناصب. ويبدو وكأنّ إلها من الآلهة أوحى الى قلب هذا الرجل بذكر اسمه، وظهرت محابة آلهة الخطّ، وحسن نواياها في انتخابه، وفي مرافقتها كلّ أعماله التالية حتى لكانها أوصت بجدارته وأضاف السموّ والشهوة الى اخلاقه الشخصية لغاية في نفسها. كان [تيموديموس] أبوه [ديمارست Demariste] أمّه من الطبقة العليا في المدينة. وأمّا عنه فقد أشتهر بحبّ وطنه، ورقة طبعه، خلا مقته الشديد للطغاة وشرار الناس وكانت قابلياته الطبيعية في الحرب والقتال حسنة التكوين فيه بحيث أنه ظل يظهر شجاعةً وأقداماً نادرين في آخر مآثره ووقائمه عندما بلغ من العمر اراذله، لا يقلّان ابداً عن الكفاءة والألمعية التي بدأت في كلّ مشاريع شبابه. وكان أخوه الأكبر [تيموفانس Timophanes] لا يشبهه في شيء، فهو حادّ الطبع مشهور أحمق، أفسده بعض اصدقائه، والجنود الاجانب الذي كانوا يلزمونه وأغوا في نفسه حب النزوع الى السلطان المطلق، ويبدو انه كان قد كسب اسماً وتبريراً في كل فنون الحرب، بل

كان ركباً اخطارها وفارسها المجلي، ولهذا وقع حبه في قلوب الناس، ورفعوه الى مناصب هامة لحسن بلاته وجسارته وكان فضل تيموليون عليه في وصوله الى مركزه كبيراً، فقد دأب على اخفاء هفواته أو التقليل من شأنها على الأقل، يكسو بشائه العاطر كل ما يستاهل الثناء من أعمال اخيه، ويدفع الجانب الطيب من شمائله مشجعاً لتنتقل بما فيها من فوائد وحسات.

حدث مرة في معركة خاضها الكورنثيون صدّ قوات [ارغوس] و[كليوني Cleonae] (٥)، أن كان تيموليون جندياً في صف المشاة، و[طيموفانس] يقود خيالتهم، فاستهدفت حياته الى خطر جسيم إذ جرح حصانه وكبابه ورمحه الى أواسط العدو في حين تفرقت عنه كتيبته وولت الأدبار فزعاً، وكانت الشرذمة الباقية القليلة العدو التي تواجه قوات عدوه متفرقة قد دبّت فيها الفوضى وعجزت عن الصمود ولو لساعة. وما أن علم [تيموليون] بالخطر المحقق قد هرع لاتقاذه ومتر بترسه حسده الذي أصيب هو ودروعه بكثير من طعنات الرماح والسيوف. وقاتل العدو حتى أرغمه على التقهقر بعد لأي وحمل أخاه وعاد به حياً سالماً.

وعندما خشي الكورنثيون على حرية مدينتهم بالسماح لحلفائهم بدخولها، اصدروا مرسوماً يقضي بتجنيد اربعمائة حندي اجني مرتزق للمحافظة عليها، وسلمت قيادتهم [طيموفانس] فما لبث ان تجرّ ولم يرع مبدء من ساديء الشرف، وجعل نفسه حاكماً مطلقاً واخضع البلد الى سلطانه الفرد. وبعد ان فتك بالعديد من رؤساء القوم ممن خشي صولتهم ومقاومتهم بواباه دون إدانة ولا محاكمة؛ أعلن نفسه طاغية لكورنث. ووقع هذا على [تيموليون] وقعاً أليماً، معتبراً شرور أخيه مصدر خزي له ويلوى. وحاول اقناعه بالمنطق والعقل بالعدول عن سبيل الغواية والطموح السيء النقيبة. وان يبحث عن وسيلة لاصلاح ومعالجة الشرور التي الحقها بيني قومه. فازدري [طيموفانس] تحذيره المخلص ورفضه. وكرر [تيموليون] محاولته وأخذ معه [اسخيلوس] قريبه شقيق امرأة طيموفانس، وكاهناً نبياً صديقاً يطلق عليه ثيومبيروس في تاريخه اسم [ساتيروس Satyrus]، ويسميه [إيفوروس Ephorus] و[طيساؤوس] في تاريخهما [اورثاغوراس Orthagores]. عاد اذن الى أخيه برفقة هؤلاء، وتحوّلوا وأخفوا يلحفون عليه بالرجاء في الموضوع نفسه وينصحونه باخلاص الى الاصغاء لصوت العقل وأبدال طرائقه. لكن [طيموفانس] راح يضحك ساخراً من سذاجة الرجال ثم انفجر بهم صحتفاً ساخطاً فما كان من [تيموليون] إلا أن انتحى جانباً عنه ووقف يبكي بوجه مستور في حين انتضى الآخران سيفيهما ووثبا على الطاغية وقتلاه في الحال (٦).

(٥) اخر قرية لرغولية من جهة كورنث.

(٦) لديبورس الصقلي (١٥ ١٠) رواية أخرى مختلفة، قال: بعد أن قام تيموليون بقتل أخيه بيده في ميدان =

وسرعان ما شاع النبأ. وأشاد سراً الكورنثيين وكرامهم بتيموليون كثيراً، وقدرّوا فيه بغضه الجور وسَمَوْ نفسه التي جعلت التزاماته تجاه وطنه أقوى من وشائج القرى، رغم كونه رقيق الطبع، شديد الحب والعطف على أسرته، وهكذا قدّم ما هو عدل وخير على الربح والفائدة والمصلحة الشخصية. فأخوه الذي أنقذ حياته بشجاعة خارقة عندما كان يحارب في سبيل كورنث ببسالة وأخلاص، قام الآن بقتله لأنه استعبدّها فيما بعد باستبداده القذر. فكانت تضحية منه في غاية النبل. على أن أولئك الذين لا يعرفون كيف يعيشون في ظلّ الديمقراطية، ممن تعودَ حطّة التزلف الوضع للحكام ورجال السلطة، راحوا سرّاً يسلقون [تيموليون] بالسنتهم الحداد، ويشيرون اليه بالرجل الذي أقترف عملاً لا أشنع منه ولا اقبح، مع انهم أظهرّوا في العلن شدة اغتباطهم بمقتل الطاغية. فانتاب [تيموليون] الغم والكآبة الشديدة. ولما علم كم كان وقع الأمر شديداً على أمّه، وكيف أنها جارت بالشكوى الأليمة وصبّت عليه أقسى اللعنات وأهولها كأولئك الآخرين. قصّدها ليشرح لها ما وقع وبسرّ عمله لها، فوجد أنها لا تريد حتى النظر اليه إذ أغلقت ابوابها دونه لئلا يجد سبيله اليها. فنال منه الهمّ كثيراً وطاش صوابه وبلغ به اليأس حداً أن قرر معه وضع نهاية لقلقه بقتل نفسه بالاضراب عن تناول الطعام حتى الموت. إلا أن عناية اصدقائه وسهرهم المتواصل والشّدْ عليه بين الاخاح والتوسّل، الى استخدام القوة والارغام أدّى في نهاية الأمر الى أن يقرر ويعد باحتمال العيش شريطة أن تحترم عزّله التامة، وابتعاده عن اي عشرة. وهكذا تقطعت الاسباب بينه وبين الحياة العامة وحلت بينه وبين المجتمع جفوة تامة وخرج من كورنث وظلّ بعيداً عنها مدة طويلة يهيم على وجهه في الحقول والفيافي تعذّبهُ افكاره وتقصّ عليه مضجعه. ينفر أشدّ النفرة من اي صلة بالناس أو علاقة بالحياة الاجتماعية.

حقيقة لا جدال فيها: وهي انه ليس ثم أسهل من هزّ عقول الناس وإفقادها التوازن والصواب بكلمة مدح أو قذح يقال لها. إلا اذا كانت الأحكام المتخذة والغايات المنشودة مبنية على قاعدة الفلسفة والوعي، فتحوز صفتي الثبات والمتانة. وليس يكفي في العمل أن يكون عادلاً بمُدوْحاً بحدّ ذاته. بل يجب أن ينشأ من دوافع مكيّنة ومبدأ راسخ، وسيظلّ اذ ذاك جميلاً في اعيننا. ونبقى راضين عنه رضاً تاماً لا يتزعزع. فإن لم يكن العمل كذلك، فسيسلّمنا ضعفنا الى القلق والاضطراب عندما يدبّ في مظهري الصلاح والجمال اللذين زينا

= السوق. ثارت ثائرة المواطنين وهاج هائجهم فلاجل تهدئة الخواطر التأمّت الجمعية العامة وفي حمى النقاش وصل سفراء صقلية وطلبوا جنراً. فصار الإجماع على تيموليون إلا أنهم حذروهم قائلين «إن أدبت واجبك ببجاح فستعامل معاملة من قضى على طاغية. وإن أخفقت فستعامل كمجرم قتل اخاه إلا أن رواية بلوتارخ قد تكون ارجح وقد ايدتها مراجع أخرى.

لنا العمل، ديبب البلى وتخلق جدته في خيالنا، كالناس النهمين، فهم يتهافون على ألد ما في الصفحة من اللقم، ثم ما يلبثون أن يعافوها عندما تتخم بطونهم بالاكل فيحسون بالضيق والتعب مما كانوا شديدي الاشتها له.

إن الكره الذي يعقب الحب، يفسد خير الأعمال، والندم يجعل اروع الأعمال وأحسنها تأدية، وضعياً حافلاً بالاخطاء. في حين لا يتغير الاختيار المبني على أسس المعرفة والتحكيم العقلي، بعوامل الخيبة والإخفاق، ولا يُسلمنا الى الندامة. وقد يتفق أن يكون عملنا عند اجتازه، أقل نجاحاً من المأمول، وفي هذا الصدد أذكر قولاً مأثوراً (الفوكيون Phocion). كان هذا قد وقف من تدابير (لوسثينيس Leosthenes) موقف المعارضة الشديدة المستمرة. وعندما رأى علام النجاح تتوالى وقومه مغتبطين بها، يقدمون القرايين بمناسبة الانتصار، قال لهم:

- إن السرور الذي قد يتنابنى فيما لو كنت أنا الذي حقق لكم انتصار ليوسثينيس بدلاً منه، يعادل سروري لكوني أنا الذي أدلى برأي ضده.

ولدينا جواب آخر أشد من هذا وأوقع. عندما طلب (ديونيسيوس) الأكبر الزواج من إحدى بنات (ارستيدس) اللوكري Locria صاحب افلاطون. ردّ عليه بما يأتي:

- أفضل أن أرى العذراء تدرج في قبرها، على أن اراها في قصر طاغية!

وفي سورة غضب (ديونيسيوس) لهذه الإهانة، عمد الى قتل ابناء (ارستيدس)، ثم عاد يسأله بوقاحة: أما زال مصراً على رأيه السابق في مصائر بناته، فأجابه ارستيدس:

- لا يسعني إلا أن أتألم، لوحشية اعمالك، إلا اني لست بأسف على حرية كلماتي.

على أن الآلام التي استولت على (تيمولبون) لما فعله، حطمت عزيمته وسحقت روحه، وسواء كان مأتاها تعاسة مصير أخيه، أو الاحترام الذي يكنه لأمه فقد بقي زهاء عشرين عاماً عازفاً عن شرف المساهمة في حياة بلاده السياسية، ولما قُدّم اسمه مرشحاً لمنصب الجنرال وأيد الترشيح إقبال الجمهور بكل سرور على الاقتراع له، قصده (تيلكليدس Teleclides) وكان في حينه أفقر وأبرز رجل في كورنث وبدأ يحضه على القبول بقوله، أن الواجب يحتم عليه الآن أن يتصرف كما يتصرف الرجل الشجاع الجدير بالاحترام...

- لأنك إن أظهرت في مهمتك هذه تفانياً وبطولة فسنجمع على أنك أنقذتنا من طاغية حقاً. وإلا كنت قاتل أخيك في نظرنا.

وفيما كان يستعد للإبحار، ويجند المحاربين، وصلت الكورنثيين رسائل من (هيسيتس) نوضح تمرده وخيانتته. اذ ما أن توجه سفراؤه الى كورنث حتى ألقى بحظه الى جانب

القرطاجنيين، وفاوضهم في معاونته على ازاحة (ديونيسيوس) وحلوله محلّه في (سيراكوزا). ولما كان يحشى على خطته الغشلى في حالة وصول حيش وقائد من كورنث قبل تنفيذها، فقد بعث بكتاب على جناح السرعة ليحول دون ذلك، قائلاً بالآ حاجة تدعوهم الى تكيدهم العناء، والنفقات والتعرض لأخطار حملة الى صقلية، فقد اضطره تباطؤهم في ارسال النجدة الى قبول التحالف مع القرطاجنيين ضدّ (ديونيسيوس)، وأن هؤلاء سيترىسون بحملتهم، ويهاجمونها في عرض البحر بأسطول ضخم. وازالت تلاوة هذا الخطاب على الجمهور كلّ تردد في النفوس، حتى البارد غير المكثرت بالحملة منهم، وثارت كوامن سخطهم على (هيسيتيس) وأضطرت نفوسهم غيظاً وأقبلوا جميعاً على تجهيز حملة تيموليون بحماسة واخذوا يستعجلونه في الرحيل.

لما جُهزت السفن، وكمّلت أهبة الجنود من كل النواحي. حدث أن حملت كاهنة الرّبة [پروسپرينا: ربة الخصب] حلاًماً أو نزلت عليها رؤيا، خلاصتها إنّ هذه الرّبة وأمّها (سيريس: آلهة الزراعة) ظهرنا في عدة السّفر، وقالتا للكورنثيين انهما ستبحران الى صقلية مع [تيموليون]، وعندما قام الكورنثيون ببناء سفينة مقدسة اسموها «سفينة الرّبات» وكرسوها لهما. ثم أن تيموليون رحل الى [دلفي] بنفسه وضخّى لاپوللو، ثم نزل الى موضع الوحي من المعبد، ليفجأ بالرؤى الخارقة الآتية: انزلت عصاة رأس مطرزة بالتيجان وصور النصر من بين الهدايا المقدمة وطارت في فضاء المعبد ثم سقطت مباشرة على رأسه، وهكذا بدأ وكان لاپوللو يتوجّه بالنجاح مقدماً ويرسله الى هناك للفتح والنصر. وأنطلق في عرض البحر بعشر سفن فقط: سبع منها كورنثية، واثنان من [كوركير] (٧) وواحدة تبرع بها الليوكاديون Leuca-dia، ودخل أحشاء البحر ليلاً تدفعه ريح رخاء. وعلى حين غرة انشقت السماء وخرج منها لهبٌ ساطع مُنتشر واخذ يحوم فوق سفينته، ثم تجمّع اللهب ليغدو مشعلاً شبيهاً بالمشاعل ملازماً جانبها، ليديها بنوره الى الجزء الايطالي الذي قرروا النزول فيه وايدّ السحرة أنّ هذه المعجزة تؤيد حلم الكاهنة، لأن الرّبتين ترافقان الحملة فعلاً. وقد ارسلنا هذا النور من السماء ليتقدمهما: ذلك لأن صقلية مكرّسة (لپروسپرينا) لزعم الشعراء. أن حادثة الخطف وقعت هناك وان الجزيرة أعطيت مهرأ لها (٨) عندما تزوجت [پلوتو]: آله الموتى وجهنم.

شجعت هذه الخوارق الألهية أفراد الحملة كثيراً. فانطلقوا باقصى سرعتهم في رحلتهم

(٧) هي كورفو وقد عرفت أيام هوميروس موطناً للفيكيين. وليكاديا هي شبة جزيرة مجاورة. اشتهرت بلسائها المشهور باسم «قفزة الحب».

(٨) في اليوم الثالث من الزفاف أعطت العروس هدية للعريس عند ظهورها لأول مرة دون برقع بحسب عادات ذلك الزمان. ولهذا السبب يطلق عليها اليونان كلمة «أناكالويسوريون».

بشقون عباب الاوقيانوس حتى وجدوا أنفسهم بعد زمن قصير يجرون على طول الساحل الايطالي. إلا أن الانبياء التي وردت تيموليون من صقلية أقلقته كثيراً وثبتت عزائم جنوده. فقد تغلب [أكيتيس]^(٩) على [ديونيسيوس] في ساحة القتال وأخضع لسلطانه معظم أحياء مدينة سيراكوز نفسها، وهو في تلك اللحظة يطوقه ويحاصره في قلعتها وفي ما يسمى بالجزيرة حيث هرب وجعلها ملجأ الأخيرة. في حين كان على القرطاجيين حسب الاتفاق، ان يحولوا دون نزول [تيموليون] في أي ثغر من ثغور صقلية. فبطرده وطرده اتباعه، يمكنهم على هونهم وهواهم تقسيم الجزيرة فيما بينهما. وعلى هذا الأساس بعث القرطاجيون بعشرين من بوارجهم الى [ريجيموم]^(١٠) ومعها سفراء من [هيسيتيس] الى تيموليون، وقد حملهم تعليمات مناسبة لحظته هذه ومقترحات خادعة للإلهاء وحكايات ظاهرها معقول، لستر وتزويق غايات غير شريفة. أمروا أن يقدموا اقتراحاً يتضمن الطلب من تيموليون ان يحضر الى [هيسيتيس] ان شاء وبشاركه كل فتوحاته بعد ارساله السفن والجنود الى كورنث لأن الحرب تكاد تكون في حكم المنتهية. والقرطاجيون قد أغلقوا المدخل وعزموا على صدهم اذا حاولوا اقتحام سبيلهم عنوة الى الساحل، وعندما التقى الكررتشيون بالوفد في [ريجيموم] ووعوا رسالتهم وشاهدوا السفن الفينيقية راسية في الخليج ثارت كرامتهم للالهانة وسادهم سخط عام على [هيسيتيس] وقللهم خوف شديد على حيرانهم الصقليين Sicaliotes، الذين سيكونون ثمناً وتعويضاً [لهيسيتيس] على غدره من جهة، وغنيمة للقرطاجيين بسبب ما يمارسونه من سلطان على [هيسيتيس] من جهة أخرى.

كان أشبه بالمستحيل هزم السفن القرطاجية التي تقع عليهم الطريق وعددها ضعف عدد سفنهم. كذلك كانت مسألة دحر الجنود الظاهرة التي يقودها [هيسيتيس] في سيراكوز وأخذ زمام المبادأة منه بأولئك الجنود الذين ابهروا في الحملة.

ذلكم هو الموقف برمته. فبعد أن تحدث [تيموليون] برهة مع وفد [هيسيتيس] ورؤساء القرطاجيين قال لهم: إنه موافق بكل سرور على مقترحهم (وأي جدري في رفضه؟) لكنه يرغب قبل عودته الى [كورنث] أن يكون أهالي [ريجيموم] على بيئة تامة بكل ما دار من مفاوضات بينهما وان تذاع لهم بشكل علني لأن المدينة اغريقية، وتربطها بالجانبين صلة الصداقة، وهذا

(٩) وجد اكيثيس نفسه بحاجة الى ارزاق فانسحب كم حصار سيراكوز متجهاً الى بلاده فخرج عليه (ديونيسيوس) وهامم مؤخرته إلا أن (إكيثيس) استدار وواجهه وقتل ثلاثة آلاف من رجاله ثم تعقبه الى داخل المدينة وأحتل جزء منها. ويذكر بلوتارخ أن المدينة التي قُسمت بأسوار قوية بدت وكأنها مجموعة من المدن.

(١٠) (من أعمال كالابريا) تقع في مضيق مسينا.

التدبير سيكون ذا أثر كبير على سلامة عودته، كما سيجعلهم متمسكين وملتزمين بشروط الاتفاق لمصلحة أهالي سيراكوز حيث كانوا أشهدوا على أنفسهم علناً بمساعدتهم.

كان هدف [تيموليون] من كل هذا تحويل الأنظار عما بيته، وهو اهتبال فرصة للإسلاط باسطوله من بين سفنهم. ولم يكن سراة المدينة واعيانها يجهلون غرضه، بل عمدوا الى مساعدته في تنفيذه، تحذوهم رغبتهم الشديدة في تولي الكورنثيين زمام الأمور في صقلية، ويدفعهم خوفهم العظيم من مغبة مجاورة البرابرة لهم. ولذلك دُعي الى عقد اجتماع عام وأغلقت ابواب المدينة لئلا ينشغل المواطنون عنه بشؤونهم الخاصة، وتعاقب الخطباء على المنبر كل بدوره لشرح الموضوع للشعب، ينتهي واحد ليبثدي آخر وهكذا دون التوصل الى نتيجة، يتعمدون تبديد الوقت بالكلام الفارغ حتى تخرج السفن الكورنثية من المرفأ. وكان ربانة السفن القرطاجنية قد عوُثوا في المدينة لهذا الغرض، ولم ينتبههم اي شك، لأن [تيموليون] بقي معهم، وكان يبدي اشارات من يحاول التهيؤ لالقاء خطاب. ثم وردته اشارة سرية تعلمه بخروج بوارجه كلها الى عرض البحر^(١١)، خلا سفينة التي كانت بانتظاره، وتمكن بالتخفي ومساعدة [الريجيين القريبين في المنصة، من النزول عنها سراً والتسلل بين الحشود وأسرع الى الميناء ليبحر فوراً ويدرك باقي السفن؛ ووصل الاسطول كله الى [تارومينيوم - Tauromeni-um] المدينة الصقلية. وكان حاكمها المدعو [أندروماخوس Andromachus] قد دعاهم قبلاً، فاستقبلهم ورحب بهم أحسن ترحيب. كان اندروماخوس هذا، والد المؤرخ [طيماتوس]، وهو بلا جدال أو مقارنة خير حكام صقلية آنذاك. فقد نشر العدل في المدينة. وجعل الكلمة العليا للقانون، وكان يحث الطاعة مقتاً شديداً، ويعاديهم عداً صريحاً. لذلك سمح [لتيموليون] بانزال جنوده هناك، واتخاذ مدينته مقراً لادارة دفة الحرب، وأقنع السكان بالانضواء الى صفوف الحملة الكورنثية ومساعدة [تيموليون] في أنجاز مهمته.

بعد إرفضاض اجتماع [ريجيوم] أدرك القرطاجنيون المتخلفون هناك ان تيموليون أفلت منهم، فثار ثائرمهم. وسخطوا لانطلاء الحملة عليهم^(١٢). قدر ما أفعم الريجيون سروراً. ولم يسمعهم الا الابتسام والضحك عندما راح الفينيقيون يتشاكون الغش والخديعة. ثم انهم بعثوا برسول الى [تارومينيوم] على ظهر إحدى سفنهم. وهناك أخذ يتوعد ويستفز بأسلوبه البربري الوقع، ثم التفت الى [اندروماخوس] وصار يتهدده بالويل والثبور إن لم يبادر الى

(١١) خيل القرطاجيين ان اقلاع السفن التسع الى كورث انما هو نتيجة اتفاق تم بين قادة الفريقين وان السفينة العاشرة انما ابقيت لنقل [تيموليون] الى [الكيتيس].

(١٢) اي «الحملة الفينيقية» وقد جرت مثلاً: *Fraus Punica*.

إخراج الكورنثيين من مدينته فوراً. ثم مد يده مقلوبة الكف وقلبها الى فوق قائلاً أنه سيعمل هكذا بمدينته، أي بقلب عاليها سافلها في غمضة عين وبكل سهولة، فقلّد (اندروماخوس) حركة يده ساخراً وأمره بالانصراف حالاً إلا إذا أراد أن تُطبق لعبته هذه البارعة على السفينة التي أقلته.

وبلغ (ايكيتيس) نجاح تيموليون في خرق الحصار ونزوله البرّ، فأستولى عليه خوف عظيم من النتائج، وأرسل يطلب من القرطاجنيين تخصيص عدد كبير من سفنهم لحفارة الساحل والسهر عليه، وينس السيراكوزيون من سلامة ارواحهم. فالقرطاجنيون سادة الميناء^(١٣)، و(ايكيتيس) مطلق السلطان على المدينة. و(ديونييسوس) متحصن في القلعة. بينما لايسيطر تيموليون في صقلية إلا على هامش أو حافة منها وهي بلدة (تاورومينيوم) الصغيرة. وقواته لا تذكر. وأمله ضعيف. كان تحت أمرته ألف جندي على أكثر تقدير. ولا يملك من القمح ما يقيته به، ولا من المال لدفع المرتبات حتى لهذا العدد الضئيل. ولم تسعفه المدن الأخرى بشيء من الإمداد، إذ لم تكن لها ثقة به، بعد الارهاب والإضطهاد الذي ذاقتته على ايدي قادة الجيش سابقين، وخصوصاً غدر (كاليبوس Callipus) الاثيني، واللقيديوني (فاراكس Phrax). فبعد أن أوضح أن مجيئها يهدف الى استنقاذ حريتهما من يد الطغيان والقضاء على المستبدين، وضما العون من أهاليها؛ بلغ طغياتهما حداً عُدّ معه العهد المباد عسراً ذهبياً، وأعتبر الصقليون من مات في عهد الطغيان السالف أسعد حظاً ممن عاش ليري تلك الحرية المزهقة للأنفاس. ولهذا ما كانوا يتوقعون خيراً من القائد الكورنثي وتصوّروا أنها المهزلة عينها يعاد تمثيلها ثانية، ورأوا فيه سيداً جديداً مليئاً بالادعاءات الخادعة، والعهود الكاذبة يعمل على اجتذابهم الآمال العراض، والأمانى البراقة. فأعلنوا شكهم في اقواله، ورفضوا المروض التي قدمت اليهم باسمه، إلا أهالي (ادرانوم Adranum). وهي مدينة صغيرة مكرّسة للرب (ادرانوس)^(١٤) الذي يُجلّ كثيراً في صقلية. فهؤلاء دبّ فيهم الخلاف وأنفسوا حزين أحدهما اتصل (بهسيثيس) وحلفائه القرطاجنيين لإرسال نجدة له. والآخر فاوض (تيموليون) وحكمت الصدب أن تصل النجدتان في وقت واحد، رغم الجهود العظيمة التي بذلها الجانبان لاستباق الوصول. زحف (ايكيتيس) على رأس جيش قوامه خمسة آلاف بينما خرج (تيموليون) من (تاورومينيوم) وليس معه أكثر من ألف ومائتين. وتاورومينيوم

(١٣) عبأ لقرطاجيون مائة وخمسين سفينة حرب، وستين ألف رجل وثلاثمائة مركبة حربية [ديودوروس ١٧-١٦].

(١٤) من الشعار الذي جاء في النص بعدد يجب أن يكون مارس وهيكله محروساً بمائة كلب. والمدينة نفسها تقع في أسفل جبل (إتنا) على نهر يعين الاسم يصدر من الجبل.

تبعد من ادرانوم بحوالي ٢٤٠ فرلنغ [٩٣ ميلاً حديثاً تقريباً] وكانت مسيرته في اليوم الأول تتأثر بالبطء، وبكثرة التعسك في غضون مراحل سير قصيرة. إلا أنه غداً السير في اليوم التالي وبعد أن اجتاز أرضاً شديدة الرعونة بلغه وقت المساء أن [هسيتيس] وصل [ادرانوم] وهو يقوم بضرب خيامه امامه، واذاً ذاك هرع ضابطه ورؤساء عسكره الى وقف تقدم حرس المقدمة ليرتاح الحيش ويكون في حالة نشاط واستجمام عند التحامه بالعدو. إلا أن تيموليون خرج اليهم مسرعاً وأوقفهم عند حدّهم وامرهم باستئناف التقدم واستخدام كل همّة ممكنة لمفاجأة العدو الذي سيكون في حالة فوضى واضطراب، لأنه يأسر بضرب خيامه واعداد وجبة عشائه حال انتهاء مسيرته. ثم ان تيموليون حمل ترسه ووضع نفسه في مقدمة الرتل، وبهذا قادهم الى نصر أكيد. ان بسالته ارغمت كل جنوده على السير خلفه بالشجاعة والعزيمة نفسها حتى باتوا على بُعد لايزيد عن ثلاثين فرلنغ (١٦٠٠ يارد) وقطعوا هذه المسافة بسرعة خاطفة وحملوا على العدو الذي كانت الفوضى تسوده فتقهقر في أوّل التحام. ثم وبعد مقاومة ضعيفة ومناوشة قصيرة أنقلب التقهقر الى هزيمة عامة خسر فيها العدو ما لايزيد عن ثلاثمائة قتيل وضعف العدد من الأسرى. ووقع معسكره وكل ما فيه من عفش غنيمة في يد تيموليون. وكان من أثر هذا الهجوم أنه فتحت [ادرانوم] ابوابها لاستقبال المنتصر والاتصاء تحت رايته وحدثوه بمزيج من الإعجاب والذعر كيف انفتحت ابواب معدهم من تلقاء ذاتها ساعة بدء الهجوم. كما لوحظ أيضاً أن الرمح الذي يمسكه تمثال الآله راح بهتزاز في يده، وشوهدت حبات من العرق تنحدر على وجهه. والظاهر ان هذه الخوارق لم تكن فاصرة على التنبؤ بالنصر المنجز بل هي البشير بانتصارات [تيموليون] المقبلة ايضاً. وكان النصر الأول هو السبب لظهورها.

وبادرت المدن المجاورة والحكّام بارسال موفدين اليه يلتمسون صداقته، ويعرضون عليه الخدمات. ومنهم [مامركوس Mamercus] ^(١٥) طاغية [كاتانا Catana] وهو محارب ذو مراس، وامبر ثري، عرض عليه التحالف. علن أن الأهم من كلّ هذا هو ان [ديونيسيوس] الذي ركبه اليأس وبلغ شفا الاستسلام، ويدافع من احتقاره [الهسيتيس] على اثر هزمته النكراء المخزية، وأعجابه بشجاعة [تيموليون]. حقق الاتصال بالقائد الكورنشي وبيني قومه، وأعلن لهم رغبتهم في تسليم نفسه والنزل عن القلعة اليهم، فسرّ [تيموليون] وقتل فوراً بهذه العروض غير المتوقعة وبعث بالقائدين الكورنثيين [أقليدس، وتيلماخوس] على رأس فوج من جيشه قوامه اربعمائة مقاتل لاحتلال القلعة والاحتفاظ بها. وأمرهم بالآلا يدخلوا بكلّ

(١٥) يثبت «ماركوس» [ديودورس: المرجع السالف].

جنودهما حالاً أو على مرأى من الناس لما في ذلك من محذور ومادامت حراسة العدو بقلعة، بل أن يتسللوا الى الداخل بفصائل قليلة العدد. وهكذا تم احتلال القلعة وقصر [ديونيسيوس] ووضعوا أيديهم على كل الارزاق والمؤن التي كان قد استحصرتها وأدخرها لتمكينه من مواصلة الحرب. كما وجدوا عدداً لا بأس به من الخيل ومختلف الآت الحرب والمحصار ومقادير لا تحصى من الأسلحة والأسنة تكفي لتسليح جيش قوامه سبعون ألفاً، في مستودع أعد لأختزانها منذ عصر سحيق. كذلك وجدوا ألفي جندي من اتباع ديونيسيوس فضموا الى قوات [تيموليون]، أما الطاغية فقد نقل كنوزه ونفائسه الى سفينة احترت به سراً مع قليل من اصحابه دون أن يظن اليها [هيسيتيس]، حتى بلغت به معسكر [تيموليون] فدخل بشباب عادية مما يرتديه عامة الناس لأول مرة في حياته^(١٦). وبعد ذلك بقليل أرسل الى كورنث في سفينة واحدة، ومعه مبلغ يسير من المال.

ولد [ديونيسيوس] ورثي في افخم بلاط ملكي. وكان أشدّ الحكام استبداداً وطغياناً. قبض على ناصية السلطان وظلّ يمارسه عشر سنين بعد وفاة ابيه وقضى بعد حملة [ديون] اثنتي عشرة سنة أخرى في حروب طاحنة، وقتل داتسة وتقلبت به حظوظه فيها ولبست ازياء شتى، وجوزي في اثنائها بنكبات ومصائب تزيد كثيراً على ما اقترفه من آثام وزرعه من شرور خلال فترة ملكه الأولى. وعاش ليشهد بعينه موت ابنائه وهم في عزّ رجولتهم. وهتك اعراض بذته وهن في زهرة عُذرتهم ورأى الانتهاك الشنيع لستر اخته التي هي امرأته^(١٧)، فيبعد أن تعرضت هذه لثنى الإهانات الرقحة من الجنود قتلت مع أولادها والقيت جثتها في البحر.

بنزول [ديونيسيوس] برّ كورنث تقاطر الاغريق من كل انحاء البلاد لمشاهدة ذلك الطاغية الرهيب الأسبق يدفعهم حبّ الاستطلاع، ولتوجيه بعض القول له. أمّا الفريق الذي دفعه خالص الكره والإحتقار للتشفي بمصيبته فقد جازوا ليطاوا انقاض حظه المحطم الزائل على حدّ شائع القول، إلا ان الفريق الذي كان إهتمامه وعطفه منصرفاً الى التأمل في تقلبات حياته والزعازع التي عصفت بها، فلم يسعهم إلا ان يجدوا فيها دليلاً على قوة وجبروت العالم الالهى عبر المنظور على الضعف البشري والأشياء المنظورة.

لم تضع يد الطبيعة أو يد الفن^(١٨) في ذلك الحين، أمراً يمكن مضاهاته بما عملته الاقدار

(١٦) كان الوحيد الذي ولد وهو طاغية. في حين أن جميع الطغاة الآخرين ولدوا من أصولٍ حاملة ليرتقوا ان هذا النصب.

(١٧) سوفراسينه بنت ابيه من زوجه ارسطوماخه.

(١٨) بإضافة عبارة "يد الفن يريد يلو تارخ القول ان الشعراء التراجيدين الذين يعالجون على الاغلب موضوع سوء طوابع الملوك والأمراء لم يصوروا مثيلاً لمصيبة فرد كهذه المصيبة.

وإبدعه الخطّ في معزة [ديونيسيوس]. فهذا الذي كان قبل فترة ليست طويلة حاكم صقلية الأعلى تراه الآن يتسكع في سوق السمك، أو يجلس في دكان عطار، يحتسي شراب الحمارات الرخيص المشعشع بالماء، أو يخاصم امرأة من الإوشاب في قارعة الطريق، أو يتظاهر بارشاد مغنيات المسرح، ويسترسل معهن في جدالٍ عنيف حول هارمونية المقطوعات الغنائية، وإيقاعاتها وسلالها الموسيقية، مما يؤديه هناك. وكان سلوكه هذا موضع انتقاد مختلف الناس. وظنّ كثيرون أن تصرفاته هذه متأتية من ضعف طبعه، ومزاحه الشكس، أمّا الناس الأبعد منهم نظراً وتفكيراً فقد عللوا ذلك بأنه يؤدي به دوراً سياسياً، القصد منه تعويد الكورنثيين على الإستهانة بشخصه وصرف النظر عن خطورته فلا يعودون يشعرون بأيّ شكّ في نواياه ولا يحاذرون من ردود فعل حظه العائر فيه، أو تهبنا رغبة منه لتفسير حاله. واجتنباً لما يأتي به هذا الشكّ، تعتمد الظهور بمظهر يخالف طبعه الحقيقي، بتقمص مظهر الرقاعة والحمق في حياته الخاصة وأوقات فراغه.

مع هذا فقد سجل التاريخ له أقوالاً ورودوداً على أسئلة، يبدو منها رجلاً كيف نفسه لوضعه الجديد تكييفاً خصباً وضيقاً. ويتجلى بعض هذا من اعتراف أدلى به عند وصوله إلى [ليوكاديا Leucadia] وهي من مستعمرات كورنث كسيراكورز، إذ قال لسكانها: إنه وجد نفسه شبيهاً بالأولاد المذنبين الذين لا يخرجون في الكلام أمام إخوتهم، إلا أن الخجل يعرهم إذ يواجهوا آباءهم، وأنه ليسرّ العيش بينهم في جزيرتهم هذه، بينما يشعر بنوع من التهيب والرهبة، فيه كره وصدود لكورنث التي هي أمّ لكلبيهما، ويظهر الأمر أكثر وضوحاً في اجابة له على سؤال اجنبيّ لقيه في كورنث، هزأ بأسلوب فظّ مهين وتعرض بالقدح والزراية للأحاديث التي اعتاد [ديونيسيوس] تبادلها مع الفلاسفة والحكماء، (كانت صحبتهم مصدراً من مصادر سروره) عندما كان ملكاً، وتساءل بالنتيجة ما الذي افاده كلّ هذه الأحاديث الفلسفية الحكيمة من أفلاطون فأجابه: «أو تظنني لم أنتفع بفلسفته، وها أنت تراني تحمل عثار حظي على خير وجه؟». وعندما رغب منه [أرسطوگزبنس Aristoxenus] الموسيقي وعدد آخر أن يفسر لهم كيف اضرت به تعاليم أفلاطون، وابن هو موطن استيائه منها، أجابهم:

- من بين الشرور العديدة التي ترافق الحكم الاستبدادي المطلق، يبرز في مقدمتها انه لا يعود واحد من الاصدقاء المعتمدين والموثوق بهم، يجراً على الكلام بحرية، أو قول الحقيقة الصريحة. وبهذا حرمتُ افضال تعاليم أفلاطون.

وهي مناسبة أخرى كان من بين أصحاب الفكهين، رجل يريد دوماً أن يظهر بمظهر الفظة

ودقة النكته، فعلى سبيل التندر (ديونيسيوس) قام بفض طبّات ثيابه عند دخوله الحجرة التي كان يوجد فيها (ديونيسيوس) إشارة الى أنه لا يخفى بينها سلاحاً - كأن ديونيسيوس ما زال طاغيةً، فعلق هذا رداً على عمله بقوله: انه يفصل أن يراه وهو يقوم بعمله هذا عند تركه الغرفة أثباتاً بأنه لم يحف حاجة ويخرج بها...»

وعندما بدأ (فيليب المقدوني) يتحدث في مجلس شراب على سبيل المزاح معه عن القصائد والتمثيلات التراجيدية التي خلفها أبوه (ديونيسيوس الأكبر) وتظاهر بالعجب من توفر الرقت له لتأليف هذه القطع الرائعة الفريدة^(١٩) رغم اشغاله الكثيرة اجابه ديونيسيوس اجابة مفحمة. - انه الفها في ساعات الفراغ هذه التي نبدها أنا وأنت وأولئك الذين يسمّون بالمحظوظين ونحن عاكفون على الرّاح والأقداح.

لم يتيسر لأفلاطون الفيلسوف لقاء (ديونيسيوس) في كورنث فقد طواه الردى قبل قدومه. إلا أن (ديوجينس) (السينوبي Sinope) سلّم عليه عند أول لقاء معه في الشارع موجّها اليه هذه العبارة الغامضة:

- هيه يا ديونيسيوس! ما أقل ما تتأهل من عيشك الحالي!

فوق (ديونيسيوس) وأجاب:

- شكراً لك على التعزية يا ديوجينس.

فقال ديوجينس:

- على تمزيتك؟ ألسنت تظنّ اني أقصد خلاف ذلك. واني لناقم لأن عبداً مثلك لو نال ما يستحقّ فعلاً لوجب ان تترك وحيداً تهرم وموت وانت طاغية كما كان أبوك من قبلك. بينمت تستمع الآن برّخاء عيش بسطا - الناس، وتمرح وتعيث في مجتمعا؟

ولهذا لما أتامل حكايات (فيلستوس Philistus) المحزنة حول بنات (لپستينس Lep-

(١٩) عن ديودورس الصقلي [١٤، ١٠٩، ٦:١٥] كان ديونيسيوس الكبير يعتز كثيراً بما ينظمه من الشعر وان كان يدرك انه من اسوء الشعر. وحاول الشاعر المطلق (فيلوكزينس) مصارحته بالحقيقة. متعاشياً خداعه بفكرة طيبة يظنها عن قابلياته. لكنه ارسله للممل في الخارج بسبب ذلك. ثم اعادة في اليوم التالي الى مكانته الاولى التي كان يحتلها ثم راح يردد على مسامعه قصائد بذل مجهوداً كبيراً في نظمها عله يسمع منه اطراء. إلا ان الشاعر بدلاً من اطرائها نظر الى الحرس وخاطبهما وهو يبتسم «اعيدوني الى المناج الحجرية، ومع ذلك كله فقد شارك ديونيسيوس في مباراة الشعر اثناء الالعب الاولية ففسر السامعون وصغروا له وحملوا السرايق الفخم الذي نصبه تعظيماً تاماً. لكنه نجح في الفوز بجائزة في اثينا نتيجة تحيز واضح من الحكّمين. وقد عبّ كثيراً من الخمر بهذه المناسبة، وفجر وصق حتى ركتبه الام عطيمة فاعطاه الأطباء مرموماً لم يبق منه قط.

tines} (٢) حين تحده يطلق الزفرة الاليمة عليهن لسقوطهن من علياء السلطان ونعمائه في هاوية السؤس وحياة النذل، لا أرى زفرته تلك أكثر من بكاء امرأة على فقد صندوق ادهانها أو ثيابها الارجوانية، أو حليها الذهبية الرهيدة، وفي اعتقادي أن حكايات كهده قد لا تُعد متقدمة على أهدافي من كتابة السير، أو تعتبر غير مفيدة بحد ذاتها في نظر القراء غير المستعجلين كثيراً، أو من تشغلهم عنها أمور أخرى.

وعلى كل، فإذا بدت نكبة (ديونيسيوس) غريبة أو استثنائية، فلا شك في أن حظ تيموليون أغرب ودهشتنا منه لن تكون بأقل من استغرابنا من الأول. فقد تمكن في ظرف خمسين يوماً لنزوله صقلية من الاستيلاء على قلعة (سيراكوزا) وارسال (ديونيسيوس) إلى منفاه في الهلوبيونيسوس، هذه البداية المحسودة رفعت من معنويات الكورنثيين في بلادهم حتى أمروا له بنجدة قوامها الفان من الرجال ومائتان من الخيالة. فنزلت في (ثوري Thuri) ومرامها العبور منها إلى صقلية. إلا أن البحر كان يعج بسفن القرطاجيين مما جعل عبورها متعذراً فأضطرت إلى البقاء فيها متربصة بفرصة. إلا أنها لم تضيع وقتها سدى فقد قامت بعمل نبيل عندما خرج الثوريون لقتال أعدائهم (البروتيين) ودفعوا مدينتهم إلى يد الحملة الكورنثية للدفاع عنها والسهر على حراستها ففعلت كأنها مدينتها، ثم سلمتها لأهلها بكل أمانة.

في أثناء ذلك كان (إيكيتيس) مشابراً على حصار قلعة (سيراكوزا) ومنع كل أمداد من الوصول إليها بحراً لإلحاح الكورنثيين الذين يدافعون عنها. وفي الوقت نفسه استأجر اثنين من الأجانب المجهولي الهوية وأرسلهما إلى (ادرانوم) لاغتيال (تيموليون)، الذي لم يكن قط يحيط شخصه بأي حرس. وكان في تلك المدينة آمناً مطمئناً على سلامته يختلط بالسكان غير محاذرين، والأيام أيام أعياد لأللهتهم. وتشاء الصدفة أن يعلم الرجلان أن (تيموليون) سيقوم بتقديم القرى فأسرعاً إلى المعبد وقد أخفى كل منهما خنجراً تحت معطفه، وشقا طريقهما خلال الجمع الحاشد مقترنين شيئاً فشيئاً من المذبح. وفيما كان أحدهما يتطلع إلى الآخر منتظراً إشارة الثوب على الضحية، هجم رجل ثالث على واحد منهما وضربه بالسيف على رأسه فخرّ صريعاً في الحال. وبرج القاتل وزميل القاتل مكانيهما حالاً. الأول شق طريقه شاهراً سيفه الدامي وهرب ليلوى حتى لاذ بقمة صخرية عالية تشرف على هاوية. أما الثاني

(٢٠) طاعيه «ابولونيا» وهي مدينة صقلية قرب رأس ياكينوس كتب فيلپس تاريخ مصر باثني عشر مجلداً. وتاريخ صقلية بأحد عشر وتاريخ الطاعية ديونيسيوس بخمسة. ويعصل شيشرون (الخطابة ٢.٢) ثالثها على الأشير الأولين.

فقد تشبث بركان المذبح وراح يتوسل (تيموليون) ليصفح عنه ويمنحه الحياة، وسيفضي اليه بتفاصيل المؤامرة، فأمنه وغفر له، فاعترف بالمهمة التي كلف بها هو وزميله، وبينما كانت هذه الحقيقة تنجلي قبض على القاتل وانتزع من ملاذه الصخري واقتيد وهو يصرخ ويحتج قائلاً أنهم يرتكبون ظلماً في القبض عليه، لأنه أخذ بثأر حق عن دم أبيه الذي كان القاتل قد فتك به في مدينة (ليونتينى Leontini). وأيد قوله هذا عدد كبير من الحاضرين، الذين لم يسعهم الا يبدوا عجبهم من افاعيل الأقدار الغريبة والطرائق المدهشة التي تسلكها والسهولة التي تدفع حدثاً من الأحداث لتحرك به حدثاً آخر يختلف اختلافاً بيناً عن باعشه وان كان منبثقاً منه فتراها توحد ما بين الحداثين المقتربين، وتجمع الدقائق والتفاصيل المتباعدة وتصل الأعمال المنفصلة واحداً بالآخر تحقيقاً لمآربها. فاذا بالاشياء المتنافرة ظاهراً، والتي لايربطها رابط، تغدو في كف القدر نهاية وبداية بعضها لبعض «على حدّ ما يقال.

وتأكد للكورنثيين أن عمل الرجل لا جناح عليه فضلاً عن وقوعه في أحسن ظرف فأكرموا صاحبه ووصلوه بما يعادل عشرة جنيهات بعملتهم لقد أعار خدمات حقده العادل للروح الحارسة التي كانت تحمي (تيموليون) وظلّ مدةً طويلة لايشفي غلة حقده الذي يضطغنه وأحلّ الأخذ بثأره بتدخل الأقدار، حتى يُنقذ به (تيموليون).

إن هذه النجاة التي رسمها حسن الحظّ تعدت آثارها ونتائجها الحاضر الى المستقبل. فقد زرعت أعلى الأماني والآمال في النفوس، ورفعت درجة الاعتماد على (تيموليون) ودفعت الناس الى احترامه وإجلاله قدر إجلالهم لمقدساتهم. وأعتبروه رسولاً بعثت به السماء لتحرير صقلية والانتصاف لها من طغاتها. ولما وجد (هيسيتيس) فشل موأمرته، وانتقاض كثيرين من اتباعه عليه وانحيارهم الى (تيموليون)، بدأ يُنحي على نفسه باللائمة لاقتصاده الأحمق في قواته الكبيرة. فقد كان تحت تصرفه جحافل القرطاجيين كلها مستعدة للعمل رهن اشارته وهو لا يستخدم منها إلا أقساطاً أقساطاً ووحدات صغيرة بحذر وتوجس حتى لكأنه يختلسها اختلاساً، أو يخجل من زجّها في القتال. فقرر أن يطرح هذا التردد ويمتّ يستقدم (ماغو Mago) أمير بحرهم وكل اسطوله، فأقلع هذا القائد بعمارة بحرية جبارة لا يقل عدد بوارجها عن مائة وخمسين، وأسئولى على ميناء سيراكوز، وأنزل ستين ألفاً من الرجالة عسكروا جميعاً داخل المدينة. فصدق ما قيل منذ أقدم العصور وما تناقلته الناس حتى يومها، بأن صقلية ستقع غنيمة في يد البرابرة. وكان هذا الإنزال ختام النبوءة فالقرطاجيون قبل هذا لم يفلحوا في الاستيلاء عليها طوال حروبهم وصداماتهم الدموية الماضية مع أهاليها وها هوذا (هيسيتيس) يمهّد لهم السبيل ويضع كل شيء في أيديهم، ويجعل المدينة معسكراً للبرابرة.

وبهذا وحد جنود الكورنثيين في القلعة الحظر العظيم يحدق بهم وأشدّ بهم الضيق. وأقبل شحّ قواتهم الى حاحة ماسة لأن المواني محروسة حراسة دقيقة، وقد أقفلها العدو بوارحه وهو دائم التعرض لهم بالمناوشات وقتال الأسوار، لا يترك لهم سبيلاً للراحة، أو ساعة واحدة لنزع سلاحهم. ويضطرهم الى توزيع قواتهم لصدّ مختلف انواع الهجمات من جميع الجهات.

وأحتل (تيموليون) على هذه الورطة بارسال كميات من القمح بقوارب صيد وزوارق صغيرة من (كتانا)، وسهل على هذه أن تتسلل عبر السفن القرطاجية وقت هبوب العاصفة فتمرق مروقاً عندما يرغم هياج البحر سفن الحصار على الابتعاد أحداها عن الأخرى، ولما اتضح (لهيسيتيس وماغو) تدبير العدو في اغاثة قواه المحصورة، قررا مهاجمة (كتانا) قاعدة التموين، وخرجا من (سيراكوز) يقودان خبرة وحدات الجيش، ورأى قائد القلعة الكورنثي (نيون Neon) أن بقية الجيش في (سيراكوز) تتراخى في حصار القلعة وتهمل رصد مزاحلها ومداخلها أعداداً أمنها بنفسها واطمئناناً الى ضعف المحصورين، فلم يلبث أن فاجأها بهجوم كاسح منتهزاً فرصة تفرق وحداتها فقتل منها وهزم البقية ووفق في الاستيلاء على منطقة (أكرادينا Acradina) وهي منطقة من سيراكوز عرفت بمناعتها وقوة تحصينها. والحقيقة هي أن سيراكوز تألفت من اجتماع واتصال عدة مدن كانت متقاربة^(٢١). وقد غنم (نيون) منها مقادير كبيرة من المال والقمح، ولم يجلّ عنها الى القلعة بل عمد الى تقوية تحصيناتها، ووصلها بالقلعة بسور محكم رغير ذلك من التحكيمات. وأخذ على عاتقه الدفاع عن الاثنين.

عندما بلغ (ماغر رايسكيتس) مشارف كتانا، ادركهما فارس مُرسلاً من سيراكوز لإبلاغهما نبأ سقوط (أكرادينا). فقفلا عائدين بقواتهما على جناح السرعة، والقوضى والاضطراب يسود صفوفها، وهكذا عجزا عن أخذ المدينة التي خرجا اليها، وخسرا ما كان تحت سيطرتها.

هذه الانتصارات التي لا يمكن نكران عنصر الشجاعة والمهارة فيها، اسهم الحظ ومحاسن الصدف بدور رئيس فيها، إلا أنه يصعب جداً أن يعزى الحادث التالي الى شيء غير حسن الحظ ومحاباة الأقدار: قلنا أن الاحتياطي من جنود الكورنثيين ظلوا معسكرين في (ثوري)

(٢١) هال رابع منها وهي الجزيرة أو القلعة التي هي بين المينائين. الاخرادنيا وهي على مسافة قصيرة من الأولى وتيحه وقد أطلق عليها هذا الاسم من هيكل الهة الخط وبيايوليس أو المدينة الحديدية [انطريفي ٢٤.٢٥ وقارر بديودورس ٧ ١٣] وإلى هذه المدن يضيف بعض الكتاب ومنهم بلوتارخ مدينة خامسة يسمونها إبيولي.

لا يستطيعون الابحار الى صقلية خوفاً من بوارج القرطاجنيين التي كانت لهم بالمرصاد بقيادة [هانو Hanno]، ومن غوائل البحر الذي اجتاحه الثور، وهاجته العواصف أياماً عدة فبات من الخطر ركوبه. ولهذا قرروا الوصول الى مدينة [ريجيوم] براً فأخترقوا بلاد [البروتين] معتمدين على قوتهم وحذرهم وبلغوا هدفهم والبحر ما يزال هائجاً صخاباً. وفي تلك الاثناء ترصّل [هانو] الى فكرة خالها مجديّة. لم يتوقع أن يغامر الكورنثيون في الابحار، ورأى من العبث الانتظار أكثر مما أنتظر، وكان يشوهم في نفسه أبرع استراتيجي، وأمهر خبير في التسميه على العدو ونصب الفخاخ له. بناء على هذا أمر بحارته بضفر أكابيل الزهر على رؤوسهم، وتزيين السفن بالثروس الاغريقية والقرطاجنية، وأقلع متجهاً الى [سيراكوز] بمظاهر النصر هذه مستخدماً كل المجاذيف عند مروره تحت القلعة ويكثر من الهتاف والضجيج قاصداً بث الهلع في قلوب المحصورين والإيحاء لهم بأنه لم يبق الا بعد ان قضى على النجدة الكورنثية وهي في عرض البحر متجهة نحو صقلية. وفيما هو يواصل لعبته هذه امام سيراكوز، كانت النجدة الكورنثية في [ريجيوم]، وامامها الساحل خالي من سفن العدو، والريح ساكنة والبحر هادي. كأنما حدث بمعجزة. فأسرعوا يركبون كل ما وقعوا عليه من زوارق صيد ومراكب خفيفة، وأقلعوا ليلغوا ساحل صقلية بسلام وهدوء لا مثيل لهما. حتى انهم انزلوا خيولهم وأخذوا يقودونها من اعنتها سياحة وزوارقهم متجهة الى الساحل.

نزلت الحملة كلها واستقبلها تيموليون، وبفضلها تمكن من احتلال [مسينا Messina] فوراً، ومنها تقدم بنظام بديع نحو [سيراكوز] واضعاً اعظم ثقته في تحاحه الأخير، لا بما لديه من قوات. اذ لم يكن مجموع جيشه الكلي يزيد عن أربعة آلاف. ومع هذا فقد انتاب [ماغو] القلق والاضطراب عندما ابني. بمقدم [تيموليون]. وزاد وضعه سوءاً وتعاطم خوفه بالحادثه التالية:

تحيط بسيراكوز مستنقعات مترامية^(٢٢)، تستمد ما عدا العذب الكثير من الينابيع فضلاً عن البحيرات والأنهار التي تصب في البحر ويتكاثر في هذه المياه السمك الجري (الحسكليس) حتى لتعجب بها، ويتقاطر الناس على صيدها. فكان الجنود المرتزقة الذين يستخدمهم الفريقان يقضون أوقات فراغهم في ممارسة هذه الرياضة معاً، فيجتمعون في كل فترة هدنة او وقف قتال ويتبادلون احاديث الود فيما بينهم، اذ كانوا كلهم من الأغريق ليس بينهم عداً شخصي (على شعاعتهم ويلاتهم في الحرب). وفيما كانوا يوماً يصطادون أخذوا باسباب الحديث

(٢٢) هناك مستنق يدعى ليسميلا [ثوكيديديس ٧ ٥٢] وآخر يعرف بـ[سيراكو]. ومن هذا الأخير أخذت المدينة اسمها. وهذان المستنقان يجعلان هواء المدينة فاسداً وغير صحي بالمرة.

فأعلن هذا عن أعجابه بالبحر القريب، ولهج آخر بالثناء على ما يجده المرء من راحة ورفاهة في بنايات سيراكوز ومحلاتها العامة. فتدخل أحد الكورنثيين قائلاً:

- وانتم الذين جئتم من بلاد الأغريق كافة^(٢٣). الا تشفقون على هذه المدينة الرائعة الجلييلة، لتدعوها فريسة للبرابرة، بأذلين اليهود، لتثيبت قدم القرطاجيين في بلاد قريبة جداً من بلادنا. وهم شر الخلق وأشدّهم وحشية، بينما كان جديراً بكم أن تجعلوا بين بلادنا وهؤلاء القرطاجيين، سداً من الأقوام، أمتع وأقوى من هؤلاء الصقليين. أإلى هذا الحد بلغت بكم قلة الفطنة لتعتقدوا بأن القرطاجيين جاؤوا من «اعمدة هرقل» والمحيط الاطلنطي متجشمين كل هذه المخاطر لتثيبت ملك (هيسيتيس) فحسب؟ هذا الرجل الذي لو اقام وزناً للاعتبارات واتصف بما يليق بالقائد، لما تنكّر لأرومته وأسلافه وجاء بأعداد بلاده في محلهم. في حين كان يستطيع التمتع بالمكانة والقيادة المناسبة برضى من تيموليون وبقية الكورنثيين.»

راح مرتزقة (ايكيتس) من الاغريق يرددون هذه الأقوال في معسكرهم مما زوّد (ماغوا) بأسباب للشك في وجود مؤامرة تحاك ضده، فتمسك بها وتعلّل. واتخذها حجة للرحيل الذي كان قد اعتزمه منذ أمد. ولم يعرأذا صاغية لتوسلات (هيسيتيس) والحااحه عليه بالبقاء لإظهار مدى تفوقهما على العدو. على أن (ماغوا) كان يدرك انهما أدنى من تيموليون بكثير لأن البسالة والخطأ الى جانبه ولا قيمة لتفوقهما العددي ازاء هذين العاملين. فأسرع يركب سفنه ويقلع بها الى افريقيا وترك صقلية تغلت من يده بصورة لا تشرفه. ولدوافع موهومة صورتها مخيلته يعيا العقل السوي عن تبرير اتخاذها سبباً وجيهاً للرحيل.

وبعد إقلاعه بيوم واحد تقدم (تيموليون) نحو المدينة بنسق المعركة. ولما سمع هو واركاب حربه بالفرار الفجائي وشاهدوا ارضفة الميناء خالية تماماً لم يسكوا أنفسهم عن الضحك والتندر والتنديد بجين (ماغوا) وعلى سبيل السخرية والمزاح اذاعوا في المدينة بياناً يعلن عن استعدادهم لدفع مكافأة لكل من يستطيع ان يأتيهم بنبا مغادرة الاسطول القرطاجي ديارهم! على أن (هيسيتيس) قرر خوض المعركة وحيداً، وعدم ارخاء قبضته عن المدينة بل الصمود في المناطق التي يسيطر عليها والثبات في المواضع الجيدة التحصين الصعبة الاقتحام. وقسم تيموليون قواته الى ثلاثة جحافل. وحمل بنفسه على الجبهة التي يجري فيها نهر (اناباس Anapas) وهي جبهة منيعة صعبة التحم وأمر الجحفل الذي يقوده الضابط الكورنثي (ايسياس Isias) بالهجوم من موقع (اكرادينا) في حين يحاول (دينارخوس Dinarchus)

(٢٣) المرتزقة الاغريق في جيش هذا الأخير.

و[دياريتوس] اللذان جاءا بالأنحداث من كورنث، الاستيلاء على منطقة [إبيبولي-Epipoli-ae] بالمجحفل الثالث وحمل الجيش كله حملة شديدة في وقت واحد من جميع الجبهات، فانهارت مقاومة [هيسيتيس] وفر جنوده. وعلينا هنا أن نعزو أخذ المدينة عنوة وسقوطها السريع بعد اندحار العدو - إلى بسالة المهاجمين وحكمة قائدهم دون جدال. ولكن الأمر الذي لا يجعلنا ننكر دور حظّ تيموليون هو أن الكورنثيين لم يخسروا رجلاً واحداً أقتيلاً كان أم جريحاً حتى لكان ثم مباراة وتحدياً بين حفظه وعمل حفظه اعني وجود نوع من المنافسة في مجالات أعماله نفسها بحيث جعل الحظ هدفه أن يتفوق ويطمس على كل ما يقدم عليه من أعمال. وينبغي لمن يسمع الثناء عليه لمآثره الجليلة أن يعجب بحماية الحظّ لها أكثر مما يعجب بالجهد الشخصي فيها. وتعدت انباء نجاحه صقلية وملأت إيطاليا دهشة. حتى بلاد الاغريق فقد أهتمت من اقتصاها الى ادناها حوراً وفخراً بجلال أعماله بعد بضعة ايام فقط من وقوعها، حتى ان الكورنثيين الذين لم يعرفوا بنزول لجذاتهم في الجزيرة، واذ بانباء نزولها وانتصارها ترددهم في آن واحد. بهذا السبيل المفلح كانت عجلة الأمور تدرج، وبهذه السرعة والنشاط كان الحظّ يطلق سناد الكفاءة الطبيعية، كمفخرة جديدة من مخاferها.

بعد أن سيطر [تيموليون] على القلعة، تجنب الخطأ الذي وقع فيه [ديون] قبله. فلم يرضَ على البلد بشيء، في سبيل فخامة ابنتيتها وجمالها. ولكي يجتنب مظنة السوء التي أدت أولاً الى بفض [ديون] وسيت أخيراً في سقوطه، أمر أن يدور المنادي مُعلنًا لأهالي سيراكوز بأن كل من يرغب في المساهمة بالعمل، فعليه أن يأتي ومعه فأس ومجرفة وغيرها من الأدوات ليعاون في هدم التحصينات التي اقامها الطفافة. فتقدموا للعمل جميعاً كرجل واحد معتبرين الإعلان واليوم الذي أذيع فيه، أقوى دعامة لحرياتهم، وانقضوا على القلعة فهدموها، وقوضوا القصور والأنصاب التذكارية وكل ما يمت الى ذكرى الطفافة السالفين، ونقضوها حجراً على حجر، وبعد أن سوى أرضها بنى فوقها دوراً للقضاء لتوزيع العدل بين الأهالي وبنى أيضاً دوائر للحكومة الجمهورية التي أقامها على انقاض الحكم المستبد.

وكانت المدينة عندما دخلها خالية من السكان تقريباً. بعضهم قضى نحبهم بسبب الحروب الأهلية والفتن والثورات، وآخرون هربوا من الطغيان. وبلغت قلة السكان فيها حداً أن ساحة السوق العامة في سيراكوز وكانت تمتاز بسمتها تكاثر فيها العشب وغما وغطاها فأصبحت مرعى للخيل يتطرح سانسوها على العشب بينما هي ترعى الكلا. كذلك هجرت مدن أخرى تماماً باستثناء القليل. فصارت مرتعاً ومازى للخنازير البرية والإبائل، فكان المتعطلون يرتادونها للصيد فيجدون فرائسهم في مشارفها وبالقرب من أسوارها. وتعدر أقصاع من لاذ

بالريف أو التجأ الى القلاع، بترك مستقره أو قبول دعوة للعودة الى المدينة، فقد بلغت كراحتهم من مجرد اسم المجامع، والاجتماعات وانواع الحكومات والخطب العامة حداً عظيماً لأنها هي التي انجبت معظم المستبدين الذين تعاقبوا على حكمهم واضطهادهم. وفكر تيموليون مع السيراكوزيين في المعضلة، وتأمل الحراب الشامل، وضعف الأمل في محاولة الاقتناع التي ارتأها. ثم فصلَ الكتابة الى بلاده، بطلب ارسال جالية أغريقية لتأهيل سيراكوز. والأبقيت اراضيها المتاخمة بوراً. كذلك ذكر انه يتوقع حرباً أعظم من سابقتها مصدرها افريقي لأن الانباء التي وصلتته تشير الى ان [ماغو] يخع نفسه وأن القرطاجنيين الساخطين على تصرفه في الحملة الأخيرة، أمروا أن تُسمّر جثته على صليب، وهم الآن عاكفون على تهيئة قوات جبارة للهجوم على صقلية في الصيف القادم.

وصلت رسائل تيموليون الى كورنث. وفي الوقت نفسه عرض وفد سيراكوز رجاء اهلها اليها بأن يولوا مدينتهم البائسة رعايتهم وأن يصيروا مرة أخرى مؤسسين لها. ولم يفرّ الكورنثيين الطمع بفائدة من هذه العروض، ولا كانوا يريدون الاستيلاء على المدينة واستغلالها. لذلك قصدوا بالاول دورة الالعاب التي كان الاغريق يضعونها في منزلة القداسة ثم الى مختلف الاجتماعات الدينية المعقودة وأطلقوا المنادين يعلنون قائلين: إن الكورنثيين الذين قضاوا الى الاستبداد في سيراكوز وطردها الطاغية، يدعون بهذا كلّ المبعدين والمنفيين السيراكوزيين وأبنا من الصقليين الى العودة لسكنى المدينة، مع تمتعهم الكامل بالحرية بموجب قوانينهم الخاصة. وان الأراضي ستوزع عليهم بانصفة عادلة متساوية. ثم انهم ارسلوا مبعوثين الى آسيا وعدة جزر يسكنها كثير من اللاجئين المتفرقين، وطلبوا منهم السفر الى كورنث، وهناك سيزودون بسفن وربابنة وقافلة حراسة لتأخذهم الى سيراكوز على نفقة الكورنثيين. وكان من أثر هذه العروض الكريمة التي انتشرت انبأؤها وشاعت، أن أرتفعت مكانة الكورنثيين ونالوا الكثير من الثناء والمدح تعويضاً لسخائهم وشهامتهم وانقاذهم تلك البلاد من جور الظالمين، وتخليصها من يد البرابرة، واعادتها بالاخير الى أصحابها أهل الحق من السكان. فأجتمع هؤلاء في كورنث، ولما وجدوا عددهم قليلاً طلبوا من الكورنثيين أن يزودوهم بعدد آخر منهم ومن سائر بلاد الاغريق لينضموا اليهم كنازحين مشاركين. فأرتفع عددهم الى عشرة آلاف واهجر الجميع الى (سيراكوز)، وفي غضون هذه الفترة تقاطر على تيموليون من ايطاليا وصقلية حشود عظيمة بلغ رجالها على قول (اثانيس Athanis) ستين ألفاً. فقسم بينهم الأراضي كلها. وباع المنازل بألف تالنت. وبهذه الطريقة مكّن السيراكوزيين الأصليين من استعادة بيوتهم، كما توسّل بها الى جمع المال للمصلحة العامة، واملاء الخزانة التي خلت تماماً

وعجزت عن سدّ أي نفقات، لاسيما مصاريف الحرب، حتى أنهم لجأوا الى عرض تماثيلهم للبيع. واتبعت في هذا طريقة نظامية. وكان يرسو قرار المزايدة على أي منها بأغلبية الاصوات. كأنما تجري مزايدة لعدد كبير من المجرمين. وقيل أن تمثال المستبد القديم [جيلو Gelo] قد استثنى أثناء النطق باللعان على التماثيل الأخرى تكريماً له وأعجباً به، وبسبب الانتصار^(٢٤) الذي حازه على القوات القرطاجية في نهر [هيميرا Himera].

وهكذا تمّ بعث الحياة السعيدة في [سيراكوز] وأكثفت بالسكان لنزوح الناس اليها من كل الأمصار. ورغب [تيموليون] بعدئذ في تحرير مدن أخرى من عبودية ماثلة، والقضاء قضاءً مرمئاً على الحكم المستبد وازالته من صقلية. فزحف على البلاد التي كانت تزح تحتها، وأرغم [هيميتيس] أولاً على التحليّ عن مصالح القرطاجيين وهدم القلاع التي كان يسيطر عليها واعتزل الحكم ليعيش بين [الليونتينين] فرداً عادياً. وحذا حذوه [لپتينس] طاغية [ابولونيا Apollonia] وكثير من المدن الصغيرة الأخرى، بعد إبدائه بعض المقاومة، ورؤيته الخطر الذي يكمن في هزيمة عسكرية، فأتى [تيموليون] عليه وارسله الى كورنث، معتبراً قيام المدينة الأم بعرض هؤلاء الطغاة الصقليين على الأغريق في المنفى وبحالة بائسة، من قبيل الأعمال المجيدة ومن دواعي الفخر. وبعد هذا عاد الى سيراكوز حتى يتفرغ الى سنّ دستور جديد^(٢٥)، وليساعد [كيفالوس Cephalus] و[دبرنيسيوس] اللذين بعثت بهما كورنث لوضع القوانين، في تشييت أهم موادّه وأحكامه. ورغب في الوقت نفسه أن لا يبقى جنوده المأجورون عاطلين، وإن يغنموا لأنفسهم شيئاً من العدو بالأحرى، فبعث بقسم منهم تحت قيادة [دبنارخوس] و[ديماريوس] الى ناحية من الجزيرة ما زالت تحت السيطرة القرطاجيين. ناستنفروا عدة مدن للثورة على البرابرة. وغنموا ما أمّن لهم الحياة الباذخة فضلاً عن توفيرهم من اسلأهم ما يكفي لمواصلة الحرب. في تلك الاثناء نزل القرطاجينيون في ساحل [ليليبيوم Lilybaeum] الصخري بجيش قوامه سبعون ألفاً نقلتهم مائتا سفينة ضخمة، فضلاً عن ألف سفينة أخرى موسقة بالآلات الحصار والثغر، والعجلات الحربية، والقمع وغير ذلك من المهمات الحربية. وكل هذا يدل على أن نيتهم شنّ حرب طاحنة هدفها طرد الاغريق كافة وبصورة نهائية من صقلية لا حرباً متقطعة متدرجة كالسابق.

(٢٤) هُزم حقلار الذين أنزل قواته في صقلية وكانت تبلغ ثلاثمائة ألف مقاتل في السنة الثانية من الاولبياد الخامس والسبعين [نيودوروس].

(٢٥) من الأنظمة الحكيمة التي قررها انتخاب رئيس قضاة كل سنة يطلق عليه أمالي سيراكوز لقب «امفيبولس جويتر اوليبوس» وبهذا أضفي عليه شخصية مقدسة وكان أول من تولى المنصب (كوميث) ومنها جاءت عادة السيراكوزيين في حساب سنّهم بحكم هؤلاء القضاة.

كانت في الواقع قوة كافية للتغلب على الصقليين حتى ولو كانوا قلباً واحداً متحدين فيما بينهم لم تضعفهم النزاعات الحادة. وبسماح القرطاجيين ما حَلَّ من دمار بمستعمرتهم، رحفوا على الكورنثيين ونار العيظ تأكل افئدتهم، بقيادة الجنرالين [هسدروبيل Asdrubal] و[هميلقار Hamilcar].

ووصلت الانبياء عن عدوهم وقوتهم الى سيراكوز فجأة، فدبّ الفزع في الاهلين حتى انه لم ينضم للجيش من عشرات الألوف فيها غير ثلاثة آلاف أو أقل. أمّا الجنود الاجانب الذين يتقاضون أجراً فكان عددهم اربعة آلاف فقط، دبّ الهلع في قلوب ألفٍ منهم فتدخلوا عن [تيموليون] وهو في مسيرته الى العدو وتركوا صفوف الجيش، فبدأ عليه الاحتياج والذهول وذهبت المفاجأة بلبّه وشئتَ خاطره وهو أمر لم يكن منتظراً منه في هذه الساعة المرحجة من حياته أن يحاول الاشتباك بجيش قوامه سبعون ألفاً، وليس معه غير خمسة آلاف من الرجالة والف من الخيالة في حين كان المنطق يقضي بابقاء هذه القوات من للدقاع عن المدينة، إختار ان يحركها من [سيراكوز] ويكبدها مسيرة أيام ثمانية، فإن هُزموا في ميدان القتال فلا موضع يتقهقرون اليه ولا قبور تضم رفاتهم أن سقطوا قتلى في المعركة. على ان [تيموليون] وجد في كشف الجبناء عن أنفسهم قبل المعركة فالأ حسناً وحدثاً لا يخلو من فائدة. وانصرف الى تقوية معنوية الباقين وتشجيعهم. وأسرع بهم الى نهر [كرميسوس Crimesus] (٢٦) حيث بلغه ان القرطاجيين قد حشدوا قواتهم.

وفيما كانت قواته تتوغل مرتفعاً لتستطلع من قمته جيش العدو وقواه المحشودة إذ بها تلتقي بقطارٍ من البغال المحملة بأعشاب البقدونس. فعده الجنود فال سوءٍ وطالع نحس، فهذا النبات كثيراً ما تزين به اضرحة الموتى. وهناك مثل سائر مشتق من هذه العادة فيقال عن المريض مرضاً عضالاً، انه ليس بحاجة الى شيء غير البقدونس. ولأجل ان بهديء تيموليون من روعهم ويظمنن خواطرهم ويحرر اذهانهم من كل الخرافات ونذر الشر؛ توقف وارتمل خطبة مناسبة للحال قال فيها «ان الحظ اسعدهم الآن بأكاليل النصر التي جاءتهم منقاداً من تلقاء نفسها ووقعت في ايديهم كبشير من بشائر الظفر؛ فهذا النبات يتوج به الكورنثيون ابطالهم الفائزين في الالعب الاسثمية. مُعتبرين البقدونس في ذلك العصر شعار الفوز في الالعب الاسثمية كما هو الآن شعار الرياضة [النيمية Nemean] ولم يبدأ استعمال أغصان الصنوبر بديلاً عنه إلا في زمن ليس ببعيد جداً عن عصرنا هذا.

وختم تيموليون كلمته بتناول مقدار من البقدونس وعمل إكليلا منه لنفسه وحذا حذوه

(٢٦) نهير في صقلية يشير اسمه الى عشب البقدونس الذي ينمو على ضفافه بكثرة.

ضابط جيشه وسائر قطعاته. وفي تلك الاثناء لاحظ العرافون عقابين يطيران نحوهم. أحدهما مُنْشَنبٌ مخالبه في أفعى. والآخر يطلق وهو طائر صيحة عالية تدل على الجراءة والتحدى. فوجهوا اليهما انظار الجنود الذين جشوا كافةً وتوجهوا الى الآلهة بالصلاة ودعواها الى شدّ ازهرهم كان الوقت أوّل الصيف، ونهاية الشهر المسمى (تارجيليون) غير البعيد كثيراً عن الانقلاب الفصلي: Solstic. وكان النهر يُصعدُ ضباباً كثيفاً ينتشر فيسدل على السهل كله ستاراً من الظلام. لذلك تعذر عليهم لفترة من الزمن ان يستوضحوا شيئاً من معسكر العدو. خلا اللفظ والمزيج غير الواضح من الأصوات التي تتناهى الى المرتفع، مما ينشأ عادة من حركات بعيدة وضجيج جموع غفيرة. بعد أن اتمّ الكورنثيون صعود المرتفع وبلغوا القمة، والقوا بتروسهم جانباً ليصبوا شيئاً من الراحة، أرتفعت الشمس في كبد السماء وأصعدت معها الانجرة من الاسفل وتجمّع الهواء المثقل بالضباب وتكاثف عالياً وكونَ سحباً فوق الجبال وانقشع الضباب عن الأراضي الواطئة فأضت الرؤية واضحة، وبدأ نهر (كريميسوس) لهم ثانية والاعداء يعبرونه أولاً بعجلاتهم الحربية الضخمة التي تجر واحدتها اربعة خيول، وتلاها عشرة آلاف مقاتل راجل يحملون اتراساً بيضاً وتدل نفاسة أسلحتهم ويطء مشيتهم وأسلوب خطوهم أنهم قرطاجنيون. ثم جاءت في أعقابهم حشود متدافعة من مختلف الأقوام تتسابق على العبور متزاحمة دون نظام وادرك تيموليون أن النهر يتيح لهم فرصة في الانفراد بقتال اي عدد من الاعداء يقررون الاشتباك معه الاشتباك معه فوراً ووجه انتباه جنوده الى انقسام قواتهم الى قسمين منفصلين بيجرى النهر فبعضهم اتمّ العبور في حين كان بهم الآخرون بعبوره. واعطى اشارة (الديماريتوس) ليهجم بخيالاته على القرطاجنيين حتى يوقع الخلل في صفوفهم قبل ان يلمّوا شعشعهم وينتظموا في نسق المعركة. ثم انحدر بنفسه الى السهل واضعاً السيراكوزيين في القلب مع أقوى وأصلب الجنود المرتزقة يحيطون بشخصه ثم أنتظر قليلاً ليرى ما يحققه هجوم خيالاته. وتبين له أن العجلات الحربية التي كانت تجرى ذاهبة آهبة امام الجيش، لم يقتصر عملها هذا على منع الخيالة من الالتحام بالقرطاجنيين، بل كانت ترغمهم على الدوران لئلا تخترق صفوفهم وتمزقها، ثم يعودون فيصولون مجدداً. فما كان منه إلا أن قبض على ترسه وصاح بالمشاة أن يتبعوه بشقة وشجاعة وبدا وكأنه يكلمهم بلهجة لا بشرية، وبصوت أقوى من الاصوات الاعتيادية. والأمر سواء أكان صوته قد ارتفع تلقائياً بالحماسة والحمية اللتين ابتعثهما تصميمه على قتال العدو، أو أن ربّاً من الأرباب كل تحت لسانه - كما خيل لكثيرين، فبن جنوده روّدوا صدى صيحته وطلبوا أن يدفع بهم الى قلب المعركة فوراً فأعطى الخيالة اشارة الانسحاب من الجبهة الأمامية حيث توجد العجلات وكرّ على الأعداء.

من الزاوية ليكون الهجوم من المجنسة. وثبت قدمه جيشه الأمامية برص الرجال ووضع الترس لصق الترس. وأمر بأن ينفخ في النفير وهم.

تلقى القرطاجنيون الهجمة الأولى وشتوا لها. فان جسامهم كانت مغطاة بالزرد الحديدية ورؤوسهم محمية بالخذ النحاسية، فضلاً عن تروسهم الكبيرة التي كانت ترد عنهم طعنات الرماح اليونانية. لكن لما احتكم الجمعان الى السيوف، والتفوق فيها يعتمد على البراعة لا القوة وحدها. ولما سمع هزم رعود قاصفة مصدرها قمم الجبال، تخللتها ومضات بروق تخطف الأبصار، وأعقبها حلول ظلام داجن حام برهة فوق المرتفعات وذرى الجبال ثم هبط لنشر جناحيه على ميدان القتال حاملاً معه عاصفة مطر ورياح وبردة. اندفعت هذه العاصفة الى الأغرريق ومست ظهورهم مستاً ثم مضت واناخت بكلكلها على وجوه البرابرة. وانشال المطر عليها وبهر البرق الاعين، فصعب الأمر على القرطاجنيين وأسقط في يدهم، شأنهم في هذا شأن كل مستجد في هذه العوارض لأنهم لم يتعودوها، لاسيما هزم الرعد ودوي زخات المطر، والضجة التي تنشأ عن اصطدام البرد بالأسلحة والدروع المعدنية مما حال دون سماعهم أوامر ضباطهم والى جانب هذا كان الطين من أصعب العوائق للقرطاجنيين. لأن تجهيزاتهم لم تكن بالخفيفة، فقد أرهقوا أنفسهم كما ذكرت بالدروع الثقيلة. ثم أن قمصانهم الداخلية أشبعت بالماء، كما امتلأت به ثيابات صدرهم فأثقلتهم وأعاققت حركتهم في القتال، وسهلت على الأغرريق أن يطرحوهم ارضاً فلا تقوم لهم قائمة اذ يتعذر عليهم القيام وأسلحتهم بأيديهم من فرط ثقل الحديد. وارتفعت مياه [كريميسوس] أيضاً بفعل الأمطار، والحاجز الذي اعترض مجراه من أعداد العابرين الوفيرة. فطغى على الضفاف وانساح في السهول المجاورة التي تشقها الأخاديد والسواقي النازلة من سفوح المرتفعات، وملئت ماءً فأضت مجاري ونهيرات لا مسالك معينة لها، فتعثر فيها القرطاجنيون وتاهوا في شبكتها ووجدوا أنفسهم في أخطر مأزق. وبمختصر القول العاصفة تصب عليهم جام غضبها والأغرريق أثموا اباداة اربعمائة مقاتل من خطوطهم المتقدمة. وانكفأ الجيش على الأعقاب وراح ينهزم، فلحق المنتصرون باعداد كبيرة منه واعملوا فيها حد السيف أما البقية فقد أُنْجِثَتْ الى النهر وأخذت تعبر الى الضفة الأخرى فأصطدم جنودها بالوحدات القادمة من وسط النهر فجرضهم التيار وأغرقهم. ولكن القسم الكبير منهم حاولوا الصعود الى المرتفعات والاحتماء بها. فأدركتهم وحدات العدو الحفيفة وقضت عليهم. وقيل أن ثلاثة آلاف^(٢٧) من بين عشرة آلاف قتيل كانوا من المواطنين القرطاجيين، خسارة فادحة ونكبة عظيمة لقومهم! فهؤلاء القتل كانوا من خيرة مواطنيهم

(٢٧) يقول [ديودوروس ١٥ ٨] ان عدد القتلى بلغ الفين وخمسمائة.

حسباً وثروة وحاهاً. ولم يسحل تاريخهم قطّ مثل هذا العدد من القتلى القرطاجيين في اي معركة لهم قبل هذه لأنهم عادةً يستخدمون الأفارقة والاسبان والنوميديين في حروبهم، فإذا هزموا فإن الغُرم والأذى يقع على عاتق الأقوام الأخرى.

واتضح للأغريق حالاً مكانة القتلى وحالتهم الاجتماعية من نفاسة الغنائم لأنهم عندما بدأوا بجمعها - لم يأبهوا لا بالحديد ولا بالنحاس، فالمعادن الأكثر نفاسة كانت كثيرة، وكانت رؤية الفضة والذهب أمراً اعتيادياً. وأمّا عن الأسرى فقد سُرّق الجنود عدداً كبيراً منهم وبيع خلسة، ومع هذا فقد جيء بحوالي خمسة آلاف وسلموا للمسؤولين للمنفعة العامة. وأُغتُنم مائتا عربة حربية أيضاً. وبدت خيمة (تيموليون) بأفخم وازهى منظر فقد ملئت بشتى أنواع الأسلاب وعلقت في جوانبها مختلف التذكارات الحربية والزينات منها ألف درع صديري ذي صنعة دقيقة وجمالٍ أخاذ، وتروس يبلغ عددها عشرة آلاف. ولم يكف عدد المنتصرين لعملية تجريد القتلى من سلاحهم. ولنفاسة الغنائم وكثرتها تأخرت إقامة النصب التذكاري للمعركة، ثلاثة ايام. وبعث (تيموليون) بابناء انتصاره الى كورنث مع أفضل وابدع الأسلحة المعتمدة، شاهداً واثباتاً. ورفع اسم بلاده عالياً في ارجاء الدنيا. ولهج الناس بالشاء عليها اد يردا معابدها وحدها دون سائر المدن اليونانية الأخرى. مزدانة مكتظة بما انتزع من البرابرة أعداء الشعب الأغريقي عنوةً واقتداراً لا بغنائم وتقدمات سلبوها من بني الأغريق الآخرين. نتيجة سفك دماء اخوانهم والاعتزاز عندما يرون امثال هذه الأقوال مكتوبة عليها: لقد انتشل الكورنثيون وقائدهم تيموليون أغريق صقليه من عبودية القرطاجيين، ولهذا فانهم يقدمون الى الأرباب هذه القرايين اعترافاً بحصيل فضلهم وامتناناً منهم وهي عبارات تنم عن عدالة الفاتحين فضلاً عن شجاعتهم.

بعد أن أكمل تيموليون عمله هذا، أبقى الجنود المرتزقة في اراضي العدو لمصادرة وحمل كل ما يجدونه في المناطق الخاضعة لقرطاجنة وساق بقية الجيش عائداً الى (سيراكوزا) وأصدر ساعة وصوله أمراً بنفي الجنود المرتزقة الألف الذين تخلوا عنه بدناوة، وانفصلوا عن جيشه قبيل المعركة. وأرغمهم على مغادرة المدينة قبل مغيب الشمس. فابحروا الى ايطاليا وهناك ابادهم (البروتيين) الى آخر نذر رغم عهد الأمان الذي قطعوه لهم. وهكذا لاقوا جزاءهم العادل من القوى الالهية على خستهم وغدرهم. على أن (ساميسرقوس) ومن بعده (هيسيتيس) جددا حلفهما مع القرطاجيين ربما بدافع الغيظ من انتصارات تيموليون، أو لتأكدهما بأنه من لا يمكن التفاهم معه ولا المهادنة وإن لا وجه للقاء بينه وبين الطغاة. وأشدّد الحاحهما على حليفتهما بارسال جيش وقائدٍ جديدين الى صقلية. إلا إذا قاموا بخسارة كل

شيء. أو في حالة تخليهم نهائياً عن الجزيرة. فبعثوا بالقائد [غيسكو Gisco] على رأس عمارة بحرية قوامها سبعون بارجة. تحمل عدداً كبيراً من جنود الأغريق المرتزقة. وكان هذا أول تطوع لهم في خدمة القرطاجنيين. والظاهر أن مستأجرهم كانوا معجبين بهم يعلقون آمالاً جساماً على بأسهم وشدة مراسهم. وتمّ توحيد قوات الحلف في [مسينا]. وفي تلك المناطق تمكنوا من الفتك بارعانة من مرتزقة تيموليون. ونصبوا كميناً أيضاً لجميع المرتزقة الآخرين الذين كانوا بقيادة [يوتيسوس Euthymus] [الليوقادي Leucadian] في موضع من المستعمرة القرطاجنية يقال له [هيراى Hierae] ^(٢٨) وافنومهم. كانت هذه الحادثة أقوى دليل على رعاية الحظ لتيموليون فهؤلاء القتل وكانوا من جماعة [فيلوميليس Philomelus] وفوكيس Phocis وانومارخوس Onomarchus الذين أقتحموا معبد أبوللو في دلفي وشاركوهم في الكفر والتجديف ^(٢٩). فجفاهم الكلّ ونبذوهم كما ينبذ الملاعين فأضطروا الى التجوال في أرجاء البليوبسيسوس بلا هدف أو عمل حتى ضمهم تيموليون الى حملة صقلية بسبب حاجته الى الجنود وحالفهم النجاح في كل المعارك التي خاضوها تحت أمرته. حتى زالت الأخطار الجسيمة. فاذا بأجبالهم تحين عند ارساله اياهم لإسناد قطعاته الأخرى، فيهلكوا جميعاً وتذهب ريحهم بعيداً عن تيموليون، بجماعات وشراذم صغيرة هنا وهناك، وبهذا تحقق الانتقام الالهي الذي كتب عليهم وكان خادماً طيعاً للحظ الذي ما يرحم يحرس تيموليون مانعاً كل أذى واحجاف عن أحبار الرجال اثر عقاب ينزل بالأشرار، إن حرص الآلهة على رعاية البركات والنعم التي أدخرتها لتيموليون كان عظيماً في حالتي النجاح والفشل والسعد والنكد.

كان التحقير والاهانات التي عاناها السيراكوزيون من الطغاة، أشدّ وقعاً عليهم من كل الاضطهادات الأخرى. خذ مثلاً [ماميرقوس]، كان هذا الطاغية الكثير الزهو بنفسه والاعتداد بموهبته في نظم الشعر والتراجيديا انتهر فرصة تقديمه للآلهة تروس الجنود المرتزقة الذين فتك بهم، ليفخر بانتصاره في هذين البيتين البذيين:

(٢٨) ليس ثم موضع في صقلية بهذا الاسم. وربما كان المقصود (ميتي) وهي قلعة ذكرها الكتاب الاقدمون.
(٢٩) بدأت في السنة الأولى من الاولبياد المائة والثمانية. وكانت اسباب نشوبها كما يلي: فرض أهالي امفكتيون على أهالي فوكيس غرامة ثقيلة بسبب اجتياحهم ونهبهم أراضي [كيرا الموقوفة على أبوللو]. فغضب هؤلاء عن دفعها فصورت أراضيهم كلها وأوقفت على أبوللو. فجمع [فيلونيلوس] الاهالي وعرضهم على نهب كنوز معبد دلفي واستخدمها لاستئجار جنود للدفاع عن انفسهم. وقد جرّ هذا الى حرب السنوات الست. هلك خلالها معظم من حلت عليه لعنة أبوللو حسب تعبير ديودورس ١٥: ١٦ و ٢٧ و ٦٠. فقد هوى فيلوميلوس من منعدر فهلك، واتومارخوس الذي خلفه في القيادة قتله جنوده وعلقوه على صليب. واخوه فايالوس مات بأكلة داء الصدر. ولم تخلص نسوتهم من اللعنة لأنهن لبسن الطلى التي نهبته من المعبد.

هذه التروس^(٣٠) المرداة بالذهب والأرحوان والعاج

انما غنماناً من حربنا مع أناس فقراء!

ثم عندما زحف تيموليون الى كالاوريا (Calauria)، يادر (ايكيتس) بالاعارة على تخوم سيراقوز فضم مقداراً كبيراً من الأسلاب وعات فيها فساداً وأحدث كثيراً من التحريب ثم قفل عائداً الى (كالاوريا) مستخفاً بتيموليون وقوته الضعيفة التي كانت معه اذ ذاك. فلم يعترضه بل تركه يتقدمه مسافئاً، ثم لحق به بفرسانه مشاته الخفيفة، ولما أدرك (هيسيتيس) ان العدو يتابعه يادر الى عبور نهر (داميرياس (Damyrias)^(٣١) وتوقف وصفاً جنود للقائه وكانت مواضعه جيدة منيعة اشاعت في نفسه الثقة فقد أفاد من وعورة المر وارتفاع الضفتين وشدة انحدارهما. وفي تلك الاثناء وقعت مشادة غريبة بين الضباط على اسبقية الهجوم، اذ لم يكن واحد منهم يرغب أن يكون زميله سباقاً عليه والجميع يدعون بحق التقدم على سائرهم في القتال. وكان من المحتمل جداً أن يغدو عبورهم النهر فوضى تامة ويختل حبل النظام بتكالبهم وتزاحمهم. لذلك قرر تيموليون تسوية الأمر بالقرعة وأخذ من كل مطالب بالحق خاتماً وجمعها في ذيل عباءته وهزها، وشاء القدر أن يكون أول خاتم أخرجه ذا نقش يمثل نصباً تذكاريّاً لانتصاره على شكل ختم. فهتف الضباط فرحاً ولم ينتظروا حكم الخط في البقية وانما مضى كل منهم لطيبته وعبروا النهر باسرع ما يمكن وحملوا حملة واحدة على العدو الذي لم يحتمل عنف الهجوم وأطلق السيقان للريح تاركاً سلاحه مع ألف قتيل في ميدان القتال.

واستعجل تيموليون الزمن، فزحف على مدينة (الليونتيينين) وأخذ هيسيتيس وابنه (يوپوليموس (Eupolemus) وقائد خيالاته (يوثيموس) أحياء. اذ ان جنودهم انفسهم قدموهم الى تيموليون مقيدين بالحبال. وقتل (هيسيتيس) وابنه لكونهما من الطفافة والخونة، ولم يجد (يوثيموس) رحمة ولا غفراناً ولم تشفع له شجاعته الذائعة الصيت. لأنه متهماً بسب الكورنثيين وإهانتهم عند أول نزول لهم في صقلية، فقد أثر عنه انه قال لأهالي (ليونتيين) في خطاب له حول نزول القوات الكورنثية: إن الأنبياء ليست مخيفة. ولا خطر يحسب حسابه من جراً: «خروج نساء الكورنثيات من منازلهن!»

حقاً إن التعريض المهين والكلام البذيء الفاضح أشدّ وخزاً وأبعث على الحقد في نفوس الرجال من اعتداء اليد وأعمال السوء أن الناس لا يعيرون على الإهانة بقدر ما يعيرون على الجراح. والضرر والأذى الفعلي الذي يوقعه الخصم قد يمكن اغتفاره ففي حالة الحرب لا يتوقع

(٣٠) وهي التروس التي أخذت من معبد دلفي.

(٣١) أو «لاميرياس» فالفرق بين نطق A الاغريقية و A اللاتينية خفيف جداً.

أقل من هذا. في حين ان قارص الكلام وفاحشه قد يبدو مظهر كره وحقد لا ضرورة له، نابع عن الازراط في الحقد والتماذي في الاضطغان.

لما عاد تيموليون الى سيراكوز دفع المواطنون بزوجات هيسيتيس وبناته وابنه الى المحاكمة الشعبية وحكموا على الجميع بالموت. ويبدو أن هذا العمل كان أقل أعمال تيموليون تشريفاً في حياته فلو انه تدخل، لحفظ حياة هؤلاء النسوة التاعسات. وظاهر الحال يؤيد انه لم يقم للأمر وزناً وسلمهم للجماهير التي كانت متحرقة لأخذ ثار [ديون] الذي طرده ديونيسوس، فان [هيسيتيس] قبض على زوجه [أريته Arete] وأخته [أريستوماخه Aristomache] وابنه الذي لم يتعد دور المحدثاة والقاهم في البيم وهم أحياء، كما فصلنا ذلك في سيرة [ديون]. ثم توجه الى [كتانا] لقتال [ما ميرقوس] والتحم معه في معركة قرب نهر [ابولوس Abolus] (٣٢) وهزمه فهرب من وجهه بعد أن خلف أكثر من ألفي قتيل منهم عدد كبير من الفينتيين الذين أرسلهم [غيسكو] نجدة له، وعلى أثر ذلك طلب القرطاجينيون عقد الصلح فأجيب طلبهم واتفق الجانبان على الشروط التالية: أن يكون نفوذ القرطاجين قاصراً على الحدود التي يرسمها مجرى نهر [ليكوس Lycus] (٣٣)، وان لا يمنع السكان الراغبون في النزوح الى اراضي سيراكوز من الرحيل مع ذويهم وأموالهم. وان تتعهد قرطاجنة بقطع كل ارتباط والغاء كل اتفاق لها مع الطفافة. ولم يجد [ماميرقوس] اليائس المنبؤ إلا أن يستقل سفينة للابحار الى ايطاليا، مستهدفاً حضن [اللوكانيين Lucanians] على حرب تيموليون وسيراكوز. إلا ان بحارة السفينة عادوا بها من حيث أتت وسلموا مدينة [كتانا] الى تيموليون، فاضطر [ماميرقوس] الى الفرار خوفاً على حياته واللجوء الى [مسينا] حيث يحكم [هيو Hippo] الطاغية. فتقدم تيموليون والقي الحصار على المدينة من البر والبحر وخشي [هيو] سوء العاقبة وحاول الافلات خلسة من طوق العدو باحد السفن إلا أن أهالي [مسينا] فاجأوها قبل اقلاعها وامسكوا بالطاغية، ثم جمعوا أولادهم من المدارس كافة وجأوا بهم الى الملعب ليشاهدوا منظر انزال العقوبة بالطاغية المتجبر. ضربوه أولاً بالسياط، ثم قتلوه علناً. واستسلم [ماميرقوس] الى تيموليون بعد أن تعهد له هذا بأن تجري محاكمته في سيراكوز، وان لا يشارك تيموليون في الاتهام. فافتيد الى المحاكمة بناء على ذلك ووقف ليجيب عن التهم امام الشعب المحتشد وياشر في القاء خطبة أعدها من قبل تتضمن الدفاع

(٣٢) بطليموس وأخرون يسمونه Alabus او Alabis او Alabon وهو قريب من [ميبيل] بين [كتانا] و[سيراكوز].

(٣٣) ربما نقل بلوتارخ الاسم كما وحده عند [ديودورس ١٦ ٨٢] إلا ان المؤرخين الآخرين يطلقون عليه أليكوس أو هاليكوس ولعل القرطاجيين أضافوا اليه «أل» أو «ها» التعريف الخاصة بلعنتهم.

عن نفسه. فقوطع بالضجيج والهتاف العدائي. ولاحظ من سلوك العامة واشكالهم أن لا أمل فيهم فألقى عباءته جانباً وأسرع يعدو في أرجاء الملعب باقصى ما يطيق. ثم نطح صخرة في أسفل المقاعد قاصداً القضاء على حياته. إلا أنه لم يفلح واخطأ الموت الذي اراده، فقبض عليه واذيق ميتة اللصوص وقطاع الطرق.

بهذا قطع (تيموليون) أعصاب الطفيان ووضع حداً للحروب. كانت صقلية في أول نزوله تسبح في بحر من الفوضى، وكانت أمورها قد أختلت إلى حد كره أهلها السكنى فيها ونزحوا عنها تخلصاً من الشر والبؤس. فما لبث تيموليون أن أصلح من شأنها. وأعاد إليها مظاهر الحضارة والمدنية وجعلها قبلة أنظار الجميع، ومطمعهم، وتقاطر إليها الأجانب من شتى الأمصار للسكنى في المدن والبلدان التي تركها أهلها قفراً يباباً. وأكتظت مدينتا (أغريجنوم Agrigentum وغيليا Gela) الشهيرتان بالسكان ثانية وكان القرطاجنيون قد خربوها وهدموها بعد الحروب الأتيكية. عَمَرَ الأولى منهما (ميجيللوس Megellus وفيريستوس Phirestus) الإليثيان، وعمر الثانية (غُرجُس Gorgus) السيوسي. واجتمع فيهما سكانهما الأصليون الذين أعيد جمعهم من شتى الاتجاه، ونازحون جدد من الخارج. ولم تكن مهمة تيموليون قاصرة على تأمين العيش الآمن المستقر للجميع بعد هذه الحرب الضروس، وإنما تعداه إلى بذل المعونة ومديد المساعدة لهم. ولذلك لُقِبَ بمؤسس البلاد. وكان هذا الشعور بسود أهل صقلية كافة. وأستولى عليهم اعتقاد وهو أنه لا سبيل للسلم يسلك ولا إصلاح للقوانين ولا توزيع للأراضي الزراعية ولا إعادة لبناء أجهزة للحكم يتم بل ولا أي شيء، حسن بتحقيق الأ إذا كان تيموليون طرفاً فيه أو كان مهندس الأول. ليقوم على إنجازها واحكام صنعه. أو هندمته بلمسات دقيقة أخيرة من يده ليغدو جميلاً في عين الله والانسان.

إن بلاد اليونان أنجبت في ذلك العهد عدداً من عظماء الرجال وعباقرتهم. وأشتهروا كثيراً بجلال الأعمال من الامثال (تيموتيوس Timotheus وأغيسيلوس Agesilaus وپيلوبيداس Pelopidas وپامنداس) النموذج المحتذى الأول لتيموليون). إلا أن جلال خير أعمالهم تضاعف بالشدة والجهد العسير الذي بذل فيها (باستثناء الضرورة التي الجأتها إلى قتل أخيه) إلا وينطبق عليه شعر (سوفوكليس) كما لاحظ طيماؤوس:

ابنها الألهة! ماذا فعلت فينوس بل ماذا فعلت النعمة الالهية، باجتماعهما معاً
في الأعمال البشرية؟^{٢٤}.

فكما يظهر الجهد والتعب والزخرفة في شعر انتيماخوس Antimachus^(٢٤)، ورسوم

(٢٤) شاعر ملحمي. من كولوفون وهي مدينة أيونية. نبغ أيام سقراط وأفلاطون ونظم قصائد حملت اسم =

[ديوبيسيوس] (٢٥) وتُحِفُ [كولوفون Colophon] مع انها تزخر بالحركة والقوة، اذا ما قورنت باشعار [هوميروس] ورسوم نيقوماخوس (٢٦) التي تتضمن سحراً عجيباً الى جانب قوتها وجمالها العام - ذلك السحر الغريب المتأتى من سهولة عملها وبدايته كما يظهر للمتأمل لأول وهلة، كذلك كانت أعمال وحملات [إيامنيداس وإغيسيلاس] العسكرية، يظهر فيها الجهد الكبير والمشقة اذا ما قورنت بأعمال [تيموليون] السهلة الانجاز المنقادة طبيعياً... والنبيلة الاهداف أخيراً. وهذا ما يُرغم اجتهادنا العادل غير المتحيز على الحكم بأن اعمال [تيموليون] ليس مبعثها الحظ وانما هي نجاحات للمؤهلات المحظوظة، وان كان هو بالذات يعزو ذلك النجاح الى محابة الآلهة له ليس إلا. ولذلك تجده يقول في رسائله الى اصدقائه الكورنثيين وخطبه في أهالي سيراكوز: انه ليشكر الآله الذي خلص صقلية، وشاءت ارادته أن يشرفه باسم ولقب «المنقذ» الذي تلتف عليه به. ولهذا بنى في منزله هيكلًا يضحى فيه لآلهة الحظ التي حبه بعطفها. وأوقف المنزل نفسه على «الروح القدس».

كان المنزل قد اختاره السيراكوزيون له هدية وصرحاً تذكاريًا لمآثره وبطولاته. كما منحه قطعة أرض من أفضل وأجمل الاراضي في البلاد. وكان يقضي فيها جل أيامه مستمتعاً بحياة خاصة هادئة مع زوجته وأولاده الذين استقدمهم من كورنث، لأنه لم يعد الى وطنه قط لعزوفه عن اضطرابات بلاد اليونان ونزاعاتها، أو لأنفته من تعرض نفسه للغيرة العامة (وهو أخطر الأذى الذي يتعرض له كبار القادة عادةً ويتأتى من شهوتهم الى الرفعة والسلطان التي لا تقف عند حد)، وكان حكيماً في اختياره قضاء بقية أيامه في صقلية لينعم بقسط من آثار أعماله. وأعظمها طراً مشاهدته ذلك العدد الكبير من المدن تنمو وتزدهر وتعمر بالآلوف العديدة من الناس. وهم يحيون حياة رغيدة راضية بجهوده ومساعدته.

وعلى كل حال فان قول [سيمونيدس] «لا مفر من قيام عَرَفٍ على رأس كل قبرة» ليس قاصراً على هذا المثل وحده، بل ينطبق على كل نظام ديمقراطي، فلا بد أن يبرز فيه معارض مزيف ومتهم كذاب. وكذلك كان الأمر في [سيراكوز] اذ انبرى اثنان من الخطباء الجماهيريين

≡ مدينة ثيبه Thebiad.

(٢٥) كان رسماً. ولذلك سمى بالانثروپوكرافوس (پلين ١٠٠٢٥). ويخبرنا ان نيقوماخس كان يرسم بيد سريعة ماهرة وان لوحاته كانت تباع بما يعادل ثمن بلدة! اتفق معه اريستراتوس طاغية سيراكوز على رسم صورة ولم يكن يبدو أنها ستحتاج الى كثير من الوقت. إلا أن نيقوماخس تباطأ ولم يقدم إلا بعد ايام موافقاً على القيام بالرسم. إلا ان الطاغية نقم عليه لامبالاته وفكر في عقابه. لكن الرسام اكمل عمله خلال المدة المتفق عليها وبلغ فيه الابداع بحيث مال رضى الطاغية.

(٢٦) توفي في العام ٣٣٧ ق.م بعد أن حكم صقلية ثمانين سنوات [ديودورس ١٥ ٩٠].

وهما [لافيستيبوس Laphystius وديمياتوس Demaenetus] وأنشأ يفتريان على تيموليون ويشوّهان سمعته وطلب أولهما منه أن يتعهد بالإجابة على التهم التي ستوجه إليه. وأبى تيموليون أن يتدخل الجمهور في الإجراءات القضائية أو يعمل على إيقافها مدفوعاً بسخطه واستنكاره وحبته في ذلك أنه ما خاض هذه الحروب الطاحنة، وتكبد تلك المشاق والأخطار إلا للوصول الى هذه الغاية أي ان يكون لكل مواطن الحق في الرجوع الى القانون بكل حرية عندما يشاء. وعرض [رئيسيتوس] للشعب لائحة بعدد من التهم ضده عن أعمال عزاها اليه عندما كان قائداً للجيش. فلم يجب تيموليون بشيء خلا قوله انه مدين بالكثير للألهة لأنها حققت له رجاء طالما ناشدها انجازه. وأعني به أن يعيش ليري السيراقوزيين وهم يتمتعون بحرية القول، وهي تبدو الآن وكأنها ملك يمينهم.

وهكذا اعترف الجميع انه قام بأشرف ما قام به أي أغريقي معاصر له وأشتهر وحده وبرز في تلك الأعمال التي أعتاد فلاسفه الأغريق وخطبائهم سردھا ليحسّسوا ويرفعوا بها معنويات ابناء جلدتهم في سائر خطبتهم وتقاريفهم التي يلقونها في الاجتماعات الدينية القومية. وقدم دليلاً دامغاً على حكمة ادارته وشجاعته بمواجهة البرابرة وبانسحابه المسبق من مصائب الحروب الأهلية التي ما لشت أن أجتاحت بلاد اليونان، وتجنّب صقلية الدماء دون أن يلحقها عيب أو أن تلوث سمعته. يقابل ذلك عطفه على الأغريق وعلى اصدقائه بصورة عامة. كذلك تقديره تلك التذكارات التي غنمها في معارك لم يسفك في أغلبها دم كورنشي أو سيراقوزي واحد. فجنبهم ذرف الدموع ولبس الحداد، زد على ذلك انه انتشل صقلية في غضون أقل من ثماني سنوات من عللهم المتأصلة وفسادهم الداخلي ودفع بها حرة الى ايدي أهلها.

وطعن في السن وبدأ يشعر بضعف في بصره لينتفي، تماماً بعد زمن قصير. لم يحرم الرؤية لازورار الحظ عنه ولا لإقدامه على عمل كانت نتيجة تلك العاهة، بل هو ضعف ورأى داخلي ظهر بشكل طبيعي فيه بمرور الزمن. فلقد قيل أن عدداً كبيراً من اقربائه وافراد أسرته تعرضوا لهذا الضعف الذي تفاقم بهم، حتى فقدوا ابصارهم مثله في أواخر حياتهم. ويحدثنا [اثانيس] المؤرخ ان بقعة بيضاء صغيرة نزلت على انسان عينه ايام كان يقود الحرب ضد [هيرا وماميرقوس] ومنها أمكن الجميع ان يتكهنوا باقتراب العمى منه. إلا ان ذلك لم يمنعه من مواصلة الحصار وادارة دفة الحرب حتى وقع الطاغيثان في قبضته إلا أنه أعتزل منصب القائد الأعلى حال رجوعه الى سيراقوز وطلب من المواطنين اعفاءه من أي تكليف آخر. ولاسيما بعد تحسن الأحوال وسيادة الأمن والاستقرار. ولم يكن ثم ما يدعو الى العجب لإحتماله مصيبتة بروحابة صدر ودون ان تبذر منه اشارة الى نفاق الصبر أو الضيق. إلا ان

الاحترام والاعتراف بالجميل الذي أظهره له السيراكوزيون بعد فقدته بصره - يستحق إعجابنا والحق يقال. اذ اتخذوا لهم عادة في زيارته أفواجاً وجماعات وكانوا يصحبون الأجانب من الزائرين الى منزله ومزرعته ليسرّوا أيضاً مشاهدة منقذهم النليل. وكان حجّهم هذا مصدراً من مصادر سعادتهم وغطتهم. لقد تعلق هو الآخر بالأرض التي حررها، وأبى إن يستمتع بعودة الظافر الى اليونان بعد بطولاته وانتصاراته ولم يقم وزناً للاستعدادات الفخمة التي اتخذت في الوطن لاستقباله، وأثر البقاء حيث هو وانها، حياته فيها. وأسمى ما أكرم به تيموليون وأكبرها دليلاً على منزلته في نفوس السيراكوزيين، أنهم اصدروا قانوناً يحتم عليهم الا يستعبروا الا خدمات جنرال كورنشي في حالة اشتباكهم بحرب مع بلاد أجنبية. ومن مظاهر التشريف النبيلة التي اتبعوها في مجالس اداراتهم العامة مما يقوم شاهداً على مدى احترامهم له، أنهم كانوا ينشدون ابداً مشورته في الأمور الهامة المعقدة، ولا يستغنون عن رأيه في الأزمات، أما المسائل الصغرى فكانوا يعالجونها بأنفسهم. وفي تلك المناسبات كان ينقل الى الملعب محمولاً على محفة وهو جالس. فيمرّ في الساحة العمومية وعندما يستقرّ في الملعب يحييه الجمهور كلّ باسمه المجرد، فبرّة على محبتهم ويصمت برهة لتتقطع هتافاتهم وتقنياتهم الطيبة له. ثم يهرف اذنه الى مواضيع المناقشة ويدلي برأيه، وبعد أن يوضع في الاقتراع العام وتتم الموافقة يرفعه الخدم الى المحفة ويخترقون به المواطنين المجتمعين خارجاً وهتافهم وتهليلهم تدوي من الجانبين. وبعد انصرافه يعودون الى النظر في الأمور الثانوية. كذا كان حبه متأصلاً في النفوس وهو على حافة قبره. كان حباً مشبعاً بالاحترام والحنان الواجب للأب الذي والد الكلّ.

ثم ان وعكة جدّ بسيطة انتابته إلا انها كانت كافية لانها، حياته بمعونة الزمن. وأعلن عن تخصيص ايام معينة يتفرغ السيراكوزيون في أثنائها الى تهيئة كل ما هو واجب وضروري لتشيعه، ولانساح المجال أيضاً لمشاركة السكان المجاورين والأجانب في المراسيم. وكان يحفّ بالجنّازة كلّ مظاهر العظمة والأبهة والروعة وزين النعش بتذكارات الحرب وغيرها من الحللى وحملته نخبة من الشبان ووضعوه على البقعة التي كان [ديونيسوس] قد شيد فوقها قلعته فجاء هو وقوضهما. وحضرت المراسيم ألوف مؤلفة من الرجال والنساء وقد ضفروا اكاليل الزهر على رؤوسهم وارتدوا الشياپ الجديدة النظيفة حتى بدأ التشيع وكأنه عيد شعبي. وكانت كلماتهم ودموعهم التي تمزج بالمدح والدعوات لتيموليون الراحل، تظهر أن ولاهم لم يكن مجاملة وتكرّمهم ليس ارغاماً وجسراً بل هو تعبير عن حزن حقيقي وأظهار لحبهم الصادق. أخيراً وضع النعش فوق كومة من الحشب وأشعلت فيه النار. وفي أثناء ذلك بدأ

[ديميتريوس] أعلى النادين صوتاً، يقرأ البيان العام التالي:

«أصدر أهل سيراقوز مرسوماً يقضي بدفن [تيموليون ابن تيمودوريوس الكورنثي] على نفقة الخزينة العامة وخصص مبلغ مائتي مينا لذلك. ووضع جوائز سنوية لتحليداً لذكوره، تمنح للفائزين في مباريات الموسيقى وسباق الخيل وغيرها من الرياضات البدنية، لأنه كسر شوكة الطغاة وهزم البرابرة وعمر المدن الرئيسة بسكان جدد بعد أن هجرها أهلها. وأعاد للأغريق الصقليين نعمة الحياة الحرة وميزة العيش وفق شرائعهم الخاصة».

وتقادوا في تكريمه وتخليد ذاكره، فبنوا له ضريحاً في الساحة العامة. وأحاطوه فيما بعد بصفوف من الأعمدة، ثم الحقوا به معاهد رياضية للشباب، يمارسون فيها مختلف الألعاب البدنية، وأطلقوا عليها اسم [تيموليونتيموم Timoleonteum]. وظلوا يحافظون على شكل الإدارة والنظام الحكومي^(٢٧) والقوانين والدساتير التي وضعها لهم وعاشوا زمناً طويلاً يرفلون في بحبوحة من الرخاء والدعة^(٢٨).

(٢٧) من قوانينهم التي صاغها ديوقليس، بقي بعضها يمارس وتتعلق بصورة خاصة بالوصايا والعقود. أما بخصوص الواجبات والحقوق المدنية التي غيرها الطغاة أو صادروها فقد صححها أو أعادها. وقد طلب في هذا الصدد معاونو كيفالوس [ديودوروس ١٦: ٨٢].

(٢٨) انقطع هذا الازدهار بعد ٣٠ سنة تقريباً بالفتائن التي ارتكبها اغاتوكليس الذي نصب نفسه طاغية على سيراقوز.

إيميليوس باولوس

AEMILIUS PAULUS

في ترجمة لونغهورن وترجمة كوايز وردت المقدمة التي صدرها بلوتارخ لسيرة تيموليون هنا.

أجمع المؤرخون كافة أن أسرة «إميلي Aemilii» هي أحد الأسر الرومانية البارترشسية العريقة. ويخبرنا أولئك المؤرخون الذين يؤكدون بأن [نوما] الملك كان تلميذاً [لفيثاغورس] أن أوّل من خلف اسماً لذريته هو [ماميرقوس] ابن [فيثاغورس] الفيلسوف الذي كان يلقب «إميليوس» ارشاقته ولياقته في الكلام. وا قبل الحظّ أيضاً على معظم سلالة الدين ارتفعوا الى مصاف العظماء لكفاءتهم وقابلياتهم. حتى سوء الحظّ الذي لازم [لوشيبوس پاولوس] في معركة [كائي] ^(١) فهو دليل على حكمته وبسالته. فبعد أن عجز عن أقناع زميله بالعدول عن المجازفة في معركة، شارك معه في الهجوم إلا أنه لم يكن زميله في الفرار، بالعكس فقد صمد في الميدان وقتل وهو يحارب في حين تخلّى عنه من كان شديد العزم على الاشتباك، وكان [لاميليوس] هذا، بنت اسمها [اميليا] تزوجت [سكيبو الكبير]، وابن اسمه [پاولوس] وهو موضوع سيرتي هذه.

في مطلع رجولته التي صادفت عهداً اشتهرت فيه روما بنشاهير الشخصيات، تميز اميليوس، بابتعاده عن العلوم والدراسات التي اعتاد تلقّيها الشبان الوجهاء، ولم يسلك الى الشهرة السبل نفسها. لأنه لم يمارس الخطابة لكي يمتحن المرافعة في قضايا الناس، ولم يؤثر عنه الانحناء عند التحية أو العناق أو مصاحبة الدهماء تزلّفاً لهم. وهذا كلّ من الوسائل المعتادة للتقرب الى الناس وخطب ودهم، لا لأنه قاصر عنها، بل لكونه اختار الاستئثار بمجد البطولة والاستقامة والصلاح وهي اسمى الأمجاد وأكثرها خلوداً وفي هذه الفضائل ما لبث أن بزّ كلّ اقرانه. وكانت وظيفة [الايديل] الكريمة أوّل ما تقلّده. فقد تنافس عليها ضدّ اثني عشر مرشحاً بلغت كفاءاتهم ومؤهلاتهم حدّاً أنهم تسنّموا فيما بعد منصب القنصلية كافة بالتعاقب. ثم أُنْتُخِبَ فيما بعد الى صنف الكهنة الذين يعرفون [بالاوغور] ^(٢)، ووظائفهم

(١) إعتباراً من لوشيبوس اميليوس الذي كان قنصلاً في ٤٨٣ ق.م وهزم القولسكيين حتى لوشيبوس پاولوس والد پاولوس اميليوس الذي قتل في كائي ٢١٥ ق.م كان قد اشتهر عدد كبير من أفراد هذه الأسرة باستصاراتهم ونجاحهم الاداري.

(٢) كان بإمكان الاوكور (العراف) ان يحبط اي عمل من الاعمال العامة أو ان يجيزه بزعم برعم ان الاستخارة مواتية أو غير مواتية. وفي معهد الاوكور هذا يدخل معظم البارترشيين الذين يرغبون في =

عند الرومان أن يراقبوا ويسجلوا النبوءات المستخلصة من مسار الطير، أو معجزات الفضاء ولذلك تفرغ الى دراسة عادات بلاده القديمة دراسة دقيقة، وتحكم من أسرار دين اسلافه حتى ارتقى بوظيفته التي كانت مجرد لقب شرف يُطلب لنفسه، الى مرتبة من الصناعة والفن عالية جداً بمجهوده الخاص^(٣) واثبت صحة التعريف الذي وصفه الفلاسفة للدين بوصفه «علم عبادة الآلهة»^(٤) وكان يحرص عند قيامه باي واجب ديني على الدقة والمهارة، ويتفانى فيها كأنما لا يشغله في الدنيا غيرها، وهو لا يحذف من الشعائر جزءاً مهما ضؤل ولا يضيف شيئاً مهما قل بل كان يشدد على زملائه من الطائفة أن يلتزموا حتى بما قد يبدو تافهاً ويشدد في توصيتهم بأن توهمهم بسهولة تهدئة غضب رب من الأرباب واستمداده للصنح عن الأخطاء غير المقصودة، لا ينفي كون اي تراخ واهمال هو خطر شديد على السلامة العامة اذ لم يبدأ أي شخص قط في الاخلال سلامة بلاده بخرق شرائعها خرقاً شنيعاً. وان من بهمل في الحزنيات يوجد سابقة وتعلل للإهمال في الكليات والواجبات الهامة. ولم يكن أقل من هذا تشدداً في طلبه مراعاة النظام الروماني القديم في الأمور العسكرية. وعندما تولى القيادة لم يبذل اي مجهود في تعزيز مكانته بين الجنود^(٥) والتحجب اليهم بخطب ودّهم ومجاملتهم في حين كان هذا عادة جرى عليها كثير من القادة في ذلك الزمن. ففي فترة قيادتهم الأولى يظهرون المحابة والتردد للمادون كي يضمنوا لأنفسهم فترة ثانية. على انه استعداد لبلاده عظمتها الغابرة وسؤدها بتلقين الرومان قوانين الصبط العسكري بالعناية والدقة التي يستخدمها الكاهن في تدريسه اصول الشعائر والأسرار المرمية. وبصرامته في معالجة أمر كل من يخرق تلك القوانين أو يعتدي عليها مقداراً ان النصر على الأعداء هو بحد ذاته نتيجة لاحقة للتدريب الصحيح، والنظام الدقيق.

بينما كان الرومان مشتبكين في حرب مع أنطيوخوس الأكبر^(٦)، مستخدمين ضده عدداً من خيرة قادتهم وأكثرهم تجارب، نشبت حرب أخرى في الغرب، وضجت أسبانيا بقمعة السلاح^(٧). أرسلوا اليها (اميلوس) برتبة (پريتورا) لا بستة فؤوس، وهو العدد الذي يتقدم

٣ = الاتصاف الى العمل اسياسي.

(٣) انظر افلاطون «افثيرون».

(٤) الجنود الرومان يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية ولهم أن يدلو باصواتهم في كل الشؤون المدنية والعسكرية ذات الشأن.

(٦) بدأت الحرب مع أنطيوخوس الكبير ملك سورية في حدود العام ١٩٢ ق.م اي بعد معركة كاني باربع عشرة سنة وكان يقود الجيوش الرومانية كلايوس ثم الأخوان سكيبيو بعده. وقد ارتضى أكبرهما أن يكون مجرد معاون لأخيه [ليني ١: ٣٧].

اصحاب هذه الرتبة عادة، إنما يأتني عشر فأساً، لذلك كان في منصبه الپريتوري يتمتع بمظاهر سلطان القنصل. وهزم البرابرة في معركتين^(٧) وقتل منهم ثلاثين ألفاً؛ ويعزى نجاحه هذا أساساً الى حكمة القائد وادارته. فبمهارته العظيمة في اختيار أصلح ارض وبعثته الهجوم في معبر أحد الأنهار حقق لجوده نصراً سهلاً. وبعد ان سيطر على مائتين وخمسين مدينة وبلدة خضع له أهاليها تلقائياً وربطوا أنفسهم بقسم على الطاعة والولاء. غادر الاقليم والسلام بحيم عليه وعاد الى روما دون أن يضيف الى ما يملك درهماً واحداً من الحرب وكان في الواقع وبصورة عامة لا يكثرث جمع المال وان كان يعيش دوماً عيشة باذخة مسرفة على ما يملك وهو ليس بالكثير، حتى انه لم يخلف حين وفاته ما يكاد يفي بصدقات امرأته.

كانت [پاپيريا Papiria] أولى زوجيه. وهي بنت [ماسو Maso] الذي كان قنصلاً فيما مضى. عاش معها زمناً طويلاً في رباط الزوجية ثم طلقها مع أنها انجبت له ابنين من انبل الابناء، فهي أم [سكيبير] الشهير، و[فابيوس ماكسيموس]، ونحن لا ندري سبب انفصالهما هذا. إلا أن جانب الحق الذي يبدو في حكاية ذلك الروماني الذي طلق زوجته قد يفسر لنا السبب في قضيتنا هنا: كان هذا الروماني موضع لوم شديد من اصدقائه، وراحوا يسألونه: أليست هي عفيفة؟ أليست هي جميلة أليست هي ولوداً؟ « فرقع نعله وسألهم « أليس هو جديداً؟ أليس هو جيد الصنع؟ ومع هذا فلا أحد منكم يدري اين يؤذني. » وما هو مؤكد أن الاخطاء الكبيرة والفاضحة لا تؤدي الى انفصال الزوجين في كثير من الأحيان. في حين يكون مجرد المضايقة الخفيفة المتكررة الناجمة عن التنافر في الطبع أو سبباً للفرقة. ففي هذه الحالة يتعذر على الرجل والمرأة العيش معاً في أي درجة من الوئام.

وبعد أن ترك [اميلوس] [پاپيريا] بنى بزوجه الثانية فأنجبت له ولدين رباحا في منزله. وحولك الولدين الآخرين إلى أعظم وأشرف أسرتين في روما. فالأكبر^(٨) تبناه [فابيوس ماكسيموس] الذي تقلد منصب القنصلية خمس مرات ورباه في بيته. والثاني كفله ابن [سكيبو افريقانوس] وهو ابن عمته، فسماه [سكيبو].

وأعن بنيته فأحداهن تزوجت ابن [كاتو Cato] والثانية تزوجت [إيلوس تويبرو Aelius Tubero] وهو رجل فاضل جداً ويعد بين الرومان خير من جمع بين الجود والفقر. وكان لديه

(٧) يتكلم ليفي (المراجع السالف ٥٧) عن معركة واحدة ناجحة. فيها أخترق إميلوس پاولوس الاستحكامات الاسبانية وقتل ثمانية عشر ألفاً وأسّر ثلاثمائة.

(٨) اتخذ له اسم كوينتس فابيوس اميليانوس، وهو اب الخطيب الشهير [كوينتس فايبيوس] وكذلك أخوه افريقانوس الأصغر أو الثاني الذي ازال قرطاجة من الوجود في ١٠٥ ق.م. فقد اتخذ هو الآخر اسم اميليانوس.

سنة عشر قريباً كلهم صلييون من أسرة [أيلي Aelii] لا يملكون غير حقل واحد كان يكيّفهم العيش، ويسكنون في بيت صغير واحد أو كوخ بالأحرى يأويهم مع ذريتهم الكثيرة وزوجاتهم، ومن بينهم بت [أميلوس] صاحباً. ولم تكن تحجل من فقر زوجها مع أن أباهما تقلد منصب القنصل مرتين، وأستقبل استقبال الفاتحين مرتين. بل كانت تفخر وتعزّز بسجاياءه التي أبقتهم فقيراً والأمر يختلف اختلافاً بيناً عند الأخوة والأقارب في مثل سنه. فإن لم تفصل ما بين ميراثهم ارض واسعة أو أنهار وجدران على الأقل فتجعلهم بعيدين بعضهم عن بعض، فإن الشجار والخصام لا ينقطع فيما بينهم. إن التاريخ - والشئ بالشئ - يذكر - يقدم غاذج من هذا النوع لأولئك الذين يعتبرون ويرغبون في التعلم والصلاح.

ونعود إلى موضوعنا فنقول: بعد أن أختير [أميلوس] قنصلاً خرج إلى حرب [الليغوريين Ligurians]^(٩) أو الليغوستيين (Ligustines) وهم قوم يسكنون بالقرب من جبال الألب، أشتهروا بالإقدام وكثرة الحروب بدأ يُكسبهم جوارهم من الرومان مهارة في فنون الحرب. وكانوا يشغلون القسم الأقصى من إيطاليا المنتهي بسفوح الألب وتلك الأجزاء من الألب التي تلامس مياه بحر التوسكان وتواجه أفريقيا يسكنهم على الساحل الغاليون والايبريون. وكانوا في ذلك الزمن قد رجّحوا إهتمامهم إلى البحار ووصلوا في ملاحظتهم حتى «اعمدة هرقل» - بسفن خفيفة تناسب أغراضهم وهي القرصنة ونهب وتدمير كل ما يمر بهم في تلك الأنحاء. هؤلاء انتظروا قدوم [أميلوس] بجيش قوامه أربعون ألفاً، أي خمسة أضعاف الجيش الروماني الزاحف إلا أن أميلوس تغلب عليهم والجأهم إلى الفرار واضطروهم إلى الاحتماء بأسوار مدنتهم. وعرض عليهم وهم في وضعهم هذا، شروط صلح كريم. إذ كان من سياسة الرومان أن لا يقضوا قضاءً تاماً على الليغوريين لأنهم أشبه بحرس أو سدّ يحول دون مختلف محاولات الغالين التوغل في إيطاليا. وبثقة تامة من [أميلوس] سلموا إليه مدنتهم وسفنتهم. فأبقى على الأولى، ولم يتعرض بالهدم إلا لتحصيناتها واعادها اليهم إلا أنه صادر السفن ونقلها معه تاركاً فحسب، تلك المراكب التي لا يزيد عدد مجاذيفها عن ثلاثة، وأطلق سراح عدد كبير من الأسرى الذين استولوا عليهم برأً وبحراً رومانيين وأجانب. تلك هي أجدر أعماله بالذكر في فترة قنصليته الأولى.

وبعد هذا الملح كثيراً إلى رغبته في تجديد قنصلية فترة ثانية، ورشح مرة وعندما قوبل ترشيحه بالرفض، وتخطاه الناخون صرف النظر عن الرغبة بصورة باتة وتفرغ لواجبات كهانته وتشقيف أولاده الذين لم يكتف بتسشتهم كما نشأ هو على أصول التربية الرومانية القديمة،

(٩) ليفي [٤٠ ٢٥] كان ذلك في السنة التي تلت انتخابه قنصلاً.

وإنما بتعليمهم على الأصول اليوناني، وأبدى في ذلك إهتماماً فائقاً للعادة. فجاء باساتذة لتعليمهم النحو والمنطق والبلاغة، فضلاً عن معلمين للرسم وضع التماثيل، ومدرسين في الفروضية والكلاب، وأساتذة لرياضة الساحة والميدان، كلهم من بلاد اليونان. ولو لم تعقه شؤون الدولة لانضم إليهم في دراساتهم وأشرف على انجازهم تمارينهم، لقد كان حير أب في روما وأشدّهم حباً باولاده.

في المحيط السياسي لتلك الفترة من الزمن كانت الحرب بين الرومان وبين [بيرسيوس - Perseus] ملك مقدونيا، تحتل مركز الصدارة. وكانت الأصوات في روما تجار بالشكوى والتذمر الشديدين من قوّادهم^(١١١). فهؤلاء كانوا يديرون أمور الحرب بشكل يبعث الأسى والحجل. لإستقارهم الى الحنكة والشجاعة حتى أن الخسارة التي يلحقونها بالعدو كانت أقل بكثير مما ينالون منها على يده. أولئك الذين أرغموا منذ زمن غير بعيد - انطيوخوس الأكبر على الجلاء عن بقية آسيا^(١١٢) والانسحاب الى ما وراء جبال طوروس، والاقتصار على سورية مسروراً لشرائه الصلح بخمسة عشر ألف تالنت^(١١٣). أولئك الذين لم يمر زمن طويل على انتصارهم على [فيليب] الملك في [ثسالي] وتحرير الاعريق من النير المقدوني^(١١٤) لا بل انتصارهم على [هنيبل] نفسه ذلك الذي فاق كل الملوك في اليأس والسلطان بمدى بعيد، وأعتبر الرومان سيّة وعاراً عليهم أن يجد [بيرسيوس] نفسه ندّاً للرومان وقريباً قادراً على شنّ حربٍ صدهم على قدم المساواة لمدة طويلة بما تبقى فقط من قوّات أبيه المدحورة. جاهلين ان فيليب بعد هزيمته قد رفع كثيراً من مستوى الجيش المقدوني قوّة ونظاماً.

أخذ [انتيفونس Antigonos]^(١١٥) لنفسه ولعقبه لقب ملك وهو أقوى وأبرز قادة [الاسكندر] وخلفائه. وكان له ابن يدعى [ديميتريوس]، أنجب ابناً سماه [انتيفونس] عرف بلقب [غوناتاس Gonatas] وخلف هذا بدوره أبناء دعاه [ديميتريوس] مات بعد ان حكم فترة قصيرة واورث الملك لابنه الصغير [فيليب] ولخوف رؤساء المقدونيين من وقوع فوضى عظيمة

(١٠) كانت الحرب المقدونية الثانية مع [بيرسيوس] قد بدأت في العام ١٧١ ق.م.

(١١) هؤلاء القادة هم: پااولوس ليجينيوس كراسوس، تلاه اميلιος هو ستيليوس مانجيتوس، ثم كونيئس مارشيو فيليبوس الذي مدّ في أجل الحرب طويلاً. من خلال سنوات تقصلياتهم الثلاثة

(١٢) قبل ذلك بسبع عشرة سنة.

(١٣) يقول ليفي بل أننا عشر ألفاً تدفع بافساط متساوية خلال اثني عشر عاماً [المرجع السالف ٢٨ ٢٨].

(١٤) نهض فلانينيوس (انظر سيرته) بهذه المهمة. فاهلك ثمانية آلاف من رجال فيليب في ساحة القتال وأسر خمسة آلاف. بعدها أرسل منادياً يبشر بنبأ عودة الحرية الى بلاد الاغريق.

(١٥) انتيفونس هذا فتك بـ[القمينس] وانتزع (بابل) من يد (سلوقوس) وبعد ان دحر ابنه ديميتريوس اسطول بطليموس كان أول من لبس التاج من بين خلفاء الاسكندر واتخذ لقب ملك.

في السلا، جراء، حدائته، استدعوا ابن عم لابييه المتوفى يدعى [انثيفونس] أيضاً وزوجوه بالأرملة والدة [فيليب]، وجعلوه أول الأمر وصياً وقائداً للجيش فحسب. ولما وجدوا بالتجربة أنه يحكم المملكة بعدلٍ ويحقق لها الخير منحوه لقب ملك. وهذا هو الذي عُرف بلقب [دوسون Doson] (*) كأنما كان واعداً جيداً ومُنجزاً سيناً. وخلفه [فيليب] في الملك وكان في شبابه قد أظهر ما يبشر بأمال كبيرة في أنه سيضاهي حير الملوك. وانه سيعيد لمقدونيا يوماً ما منزلتها وعظمتها السالفة. وسيثبت انه الرجل الوحيد القادر على الحد من السلطان الروماني الذي قويت شوكته وارتفع وامتد ليشمل الدنيا. إلا أن نيته خابت عندما حلت به الهزيمة أمام [تيطس فلامينيوس] في معركة حاسمة بالقرب من [سكوتونيا Scotussa]، ووضع نفسه وكل ما يملك تحت رحمة الرومان، مغتبطاً لتمكنه من الخلاص بدفع غرامة رهيدة. ولكن ما ليث أن ضاقت نفسه ذرعاً بالأمر ولم يطق عليه صبراً فبعد أن راحت السكره وجاءت الفكرة - وجد نفسه يعيش أكثر شبهاً بالعبد المستسلم للراحة، من الحر الشجاع العاقل، يحكم مملكته وفق إهداء الفاتحين وبحسب مشيئتهم، فتركز كل افكاره في الحرب ودفعته الى الاستعداد لها بكل ما وسعه من حيلة وخفاء. ولهذا ترك مدنه الواقعة على الطرق الخارجية دون حاميات، وجرد سواحل بلاده البحرية من الحراسة حتى بدت مهجورة، إظهاراً لعدم اهتمامه بها. بينما راح في الوقت نفسه يحشد قوات كبيرة في المناطق العليا من البلاد، ويمد نقاطه العسكرية الداخلية وقلاعهم ومدنه بالمال والسلاح والرجال القادرين على حمل السلاح يُعد بها عدته للحرب. إلا انه أبقى استعداداته هذا سراً. وكان قد اختزن في مستودعاته الحربية ما يكفي لتسليح ثلاثين ألفاً. وفي اهرائه ومراقبة الحصينة أحتكر ثمانية ملايين بوشل من القمح. ومبالغ طائلة من المال تكفي لصرف رواتب ونفقات عشرة آلاف من الجنود المرتزقة يدافعون عن البلاد لمدة عشر سنوات. وقبل أن يضع فكرته هذه موضع التنفيذ أو يفيد من استعداداته العسكرية قضى نحبه حزناً وتأنيباً ضمير، بعد أن أدرك هول ما فعل بقتله ابنه البريء [ديمثريوس] بسبب وشاية شخص أكثر اجراماً، أو أوروث ابنه الثاني [پيرسيوس] الذي خلفه على العرش، كرهه للرومان، إلا انه لم يكن كفوءاً لتحقيق مآربه لاستناده الى الشجاعة ولسوء طباعه. وكان الطمع في مقدمة امراض نفسه وأخطائها. وهناك أيضاً رواية تتضمن طعناً في نسبه. خلاصتها أن امرأة فيليب الملك أخذته من أمه الحقيقية (غناثينيون Gna-thaenion) [و هي امرأة أرغوسية تعيش على مهنة الخياطة] فور وضعه، وقدمته لزوجها على أنه ابنه، وربما كان هذا السبب الرئيسي لدسه على [ديمثريوس] وموته اذ كان لا شاكاً

(*) دوسون معناها ذلك الذي سيعطي.

يحشى أن ينكشف عن ميلاده الوضيع طالما يوجد خلف شرعي في الأسرة.

وبصرف النظر عن هذا، ورغم خلقه الوضيع وطباعه الدنيئة فقد وضع ثقته في قوة موارده وشس حرباً على الرومان واستمر بها سجلاً وقتاً طويلاً يصّد خلالها الهجمات، بل حتى بهزم بعض القادة من ذوي الرتب القنصلية وبعض الجيوش والاساطيل الكبيرة. وهزم (هوليسوس ليجينوس Publius Licinius) أولاً من غزا مقدونيا، في معركة خيالة^(١٦) وقتل الفين وخمسمائة من الجنود المدربين وأسر ستمائة. وباغت اسطولهم وهو ملق مراسيه أمام (اوريوم Oreum)^(١٧) فاستولى على عشرين سفينة حمل موسقة بعملها وحطم ما كان محملاً بالقمع واستولى على أربع يوارج ذوات طبقات مجاذيف أربع. وخاض معركة ثانية ضدّ هوستيلوس وهو قنصل عسكري، أثناء توغله في البلاد وأجبره على التفهقر بعد قتال ضارٍ بالقرب من (اليماني Elimiae). وتجدّاه مرة أخرى للقتال عندما دبر غارة تسلّية على (تسالي) فخاف هوستيلوس النتيجة وأبى القتال. ومضى أبعد من هذا أظهاراً لآزدرائه بالرومان ورغبة في اشغال نفسه خلال فترات وقف الحرب معهم، فحمل على الدردانيّين Dardanians وقتل من هذا الشعب البربري عشرة آلاف وحمل عنهم غنائم كثيرة. وقادى، ففاوض الغاليين (ويسمون أيضاً باستيرني: Basternae) سرّاً وعقد معهم حلفاً. وهؤلاء شعب محارب أشتهر بالفروسيّة كان يسكن مشارف الدانوب. واستمال (الأليبريين Illyrians) بوساطة ملكهم (گنتيوس Genthius). للإلتصام اليه في الحرب. وذكرت الأخبار أيضاً أن البرابرة يهْمُونَ بغزو إيطاليا من بلاد الغال الجنوبية القريبة من ساحل الأدرياتي^(١٨)، باغرائهم بالوعود والمكافآت.

وعند ما أحبط الرومان علماً بهذه الأمور وجدوا أن الضرورة تقضي بالأبتم اختيار قادتهم بعامل المحاباة والرجاء والتوسط. بل المبادرة إلى انتخاب جنرالٍ ذي كفاءة وحكمة للتصرف في الأمور الجسام. وكذلك كان بولوس اميلوس. فمع تقدمه في السن ومشارفته على الستين، فقد ظلّ قوي البدن، غنياً بأولاده وأختانه الشجعان، فضلاً عن العدد الكبير من أقربائه واصدقائه المتنفذين وكلهم اجتمعوا عليه بلحون لكي يستجيب إلى رغبة الشعب الذي

(١٦) قدم لنا ليفي وصفاً لهذه المعركة في آخر كتابه الثاني والاربعين. عرض (برسيوس) الصلح على المندحرين بشروط سهلة كأنما هو المفلوب، إلا أن الرومان رفضوها، إذ كان من مباديء الرومان أن لا يعقدوا صلحاً وهم مفلوبون.

(١٧) في أثيوبيا.

(١٨) انظر بوليبيوس. وهو كاتب معاصر. يروي عما حصل في السفارة التي بعث بها [برسيوس] لقد حاول أيضاً مع [يوميبس] ملك نيبثيا وأرسل وعداً إلى انطيوخوس ملك سورية قائلاً أن الرومان أعداء جميع الملوك على حدٍّ سواء لا أن يوميبس طلب الفأ وخمسمائة تالت فتوقفت المفاوضات. وقد أحدثت المفاوضات سعداً داتها حقوة بين الرومان وبين صديقهم يوميبس ولم يستفد منها برسيوس.

دعاه لقبول منصب القنصل. فأبدى في أول الأمر إحجاماً وخجلاً من الشعب وأراد أن يتخلص من الحاحهم مظهراً تردده في تولي المنصب. ولكنهم ظلوا يتوافدون على منزله يومياً ويقفون على بابه طالبين منه الخروج والذهاب إلى مقر الانتخاب، ويشتمون في الحلاف عليه بالصياح والهتاف، حتى نزل إلى رغبتهم. وعندما بدا بين المرشحين، بدا وكأن ظهوره ليس للدعاء بالمنصب بل ليجينهم بالنصر والتجاح، هكذا بدا عندما دخل مخيم الاجتماع. فأستقبله الجميع بالأمل والغبطة العظيمة وأختاروه بالأجماع قنصلاً للمرة الثانية ولم يصبروا على اجراء الاقتراع كالعادة حول الاقليم الذي سيكون من نصيبه وإنما أعلنوه في الحال، قائداً للحرب المقدونية. وقيل أنه بعد صدور الأمر بتعيينه قائداً ضد (پرسیوس) وتكريم الجمهور العظيم برفاقته إلى منزله وجد بهته الطفلة (تارتيا Tartia) تبكي فجذبها إليه وسألها عن سبب بكانها فطوقت عنقه بذراعيها وقالت وهي تقبله:

- الا تدري يا أبي أن (پرسیوس) مات؟

تقصد كلباً صغيراً بهذا الاسم ربي معها في الدار. فأجاب اميلپوس :

- فأل حسن يا ابنتي، واني لأقبلها كما أقبَل نبوءة!

لقد ذكر شيشرون Cicero الخطيب هذه الحكاية في كتابه عن «النبوءات»^(١٩).

جرت العادة أن يرتقى القناصل الذين تم انتخابهم منصة معدة لذلك الغرض والقاء خطبة على الجمهور بضمونها شكرهم وامتنانهم لما جبوهم به من الثقة. وهكذا اجتمع لاميلپوس جمهور لساعه فكان مما قاله:

- عندما رشحت نفسي لمنصب القنصل أول مرة فاني كنت في حاجة إلى التكريم انا نفسي. أما الترشيح للمرة الثانية فلأنكم كنتم فعلاً في حاجة إلى جنرال، ولهذا لا أرى ما يدعوني إلى تقديم الشكر لكم.

فاذا حكمتكم بأن في مقدوري ادارة شؤون الحرب بصورة أكثر فائدة ونجاحاً، بشخص آخر غيري فاني متنازل له عن طيب خاطر. واذا وضعت ثقتكم الكاملة بي فعليكم ألا تنصوا من أنفسكم زملاء لي تشاطرونني الوظيفة أو تنتقدون أعمالي أو تقدموا تقارير، بل عليكم أن تعملوا بدون كلام - على إمدادي بالوسائل الضرورية والمعونة الواجبة للاستمرار في الحرب، أو لو كان قصدكم أن تتولوا قيادة قائدكم فان هذه الحملة ستكون أخيب من سالفها.

(١٩) يقول ليفي [١٧، ٤٤] بعكس ذلك.

وأشاع بهذه الخطبة إحتراماً عميقاً له في نفوس المواطنين، كما بعث آمالاً عراضاً في النجاح المقبل. وسُرَّ الجميع لأنهم تخطوا الطامحين إلى المنصب والباحثين عنه بالتسلق والمداهنة، ليستقر قرارهم على قائد له من الحكمة والشجاعة ما يكفل قوله الحقيقة والمصارحة مهما كانت مؤلة. إلى هذا القدر كان الرومان يحنون هاماتهم في طاعة القنصلية والمعقولات، ولولا ذلك ل حكموا الدنيا وغدوا أسباده.

ويم اميلبيوس وجهه شطر الحرب فوراً. وأنطلق مسرعاً إلى معسكر حيشه في رحلة موفقة خالية من الأخطار رعاه خلالها طالع سعوده، على أني حين أتأمل بحسن نهاية الحرب تحت قيادته، فلا يسعني إلا استبعاد الخط من تلك الاعمال المجيدة والمآثر السامية. (لا مثلما عروت إليه أعمال قادة آخرين) وأن كان قد أشتهر للغاية بحسن الخط. إن انتصاراته كانت حصيلة جراته الفائقة، واصالة افكاره، وتوجيهه الحازم لأتباعه واصدقائه وحضور بديهته، ومهارته في اختيار أصلح الآراء وأجدر المشورات في اخرج ساعات الضيق والخطر العظيم. هذا ان لم يذهب بي الرأي إلى أن جشع [برسيوس] وحبه الشديد للمال كان بمثابة مطلع يمن لأميلبيوس. والحق يقال أن حرص [برسيوس] على ماله قضى بالدمار والخراب النام على كل الاستعداد الحربي العظيم الرائع الذي أصعد آمال المقدونيين إلى درجة الايمان بكسب الحرب لا محالة. فقد دعا عشرة آلاف من [الباستيرني] وكل واحد منهم يلازمه واحد من المشاة^(٢٠) وكانوا كلهم جنوداً محترفين لا يعرفون غير القتال صناعة وتجارة، ولا غرض لهم إلا التغلب على من يقاومهم. ولا يفقهون شيئاً من الزراعة أو ملاحاة السفن أو الرعي. وصل هؤلاء مدبكا^(٢١) وضربوا خيامهم فيها وأمتزجوا بجنود الملك. وكانوا ضخام الأجسام يمارسون تمارين عجيبة، كثيري المباهاة، يوقع اصواتهم المجهيرة الرعب في قلوب العدو. وكل هذا رفع معنويات المقدونيين الذين اعتقدوا حالاً بأن الرومان لن يصمدوا أمامهم، وسيصابون بذعر وهلع لمنظرهم الغريب وحركانهم المتسمة بطابع القوة والعنف. بعد أن بث [برسيوس] الحماسة في نفوس جنوده وانعش آمالهم. تقدم رؤساء الجيش الحليف يطلبون من [برسيوس] ألف قطعة ذهبية لكل واحد فذهل وطار صوابه لجسامة المبلغ. وما لبث أن انسحب عنهم وحرم

(٢٠) وصف ليفي [٤٤ ٢٦] هذه الخيالة وصفاً جيداً إلى جانب جندي المشاة المرافق إذ يقول «أقل عشرة آلاف خيالاً ومثلهم من المشاة يسايرون الخيالة خطوة بخطوة. ما ان يفقد احد الخيالة حصانه حتى ينضم إلى المشاة» وقد تنس الرومان هذا التنظيم في صنف الوحدات الخفيفة وأطلقوا عليه اسم Velites بناء على اقتراح السنديريون [كوييتوس نافيوس] أثناء حصار [كابوا] في الحرب الفينونية الثانية [ليفى ٤: ٢٦]. ما ان علم برسيوس بقدوم الباسكرناي حتى ارسل انتيفونس لاستقبال ملكهم كلودنديقوس فقال هذا ان الغاليين لن يخطوا خطوة واحدة دون ان يدفع لهم المال. فرفض برسيوس ذلك لفرط بخله وقصر نظره.

(٢١) منطقة ميديكو في تراقيا تقع بين نهري ستريمون ونيسوس (أونستوس).

نفسه من معونتهم. وكان بهذا أشبه شيء، بوكيل أملاك للرومان لا عدواً لهم. وكيل عليه أن يقدم حساباً بنفقات الحرب لمن شئ عليهم الحرب، بل وكأن خصومه اساتذة يلقي على أيديهم ما يفعل. وهم الذين حشدوا له مائة ألف مقاتل دفعة واحدة، ناهيك باستعداداتهم الأخرى. لقد كان يواحه هذا الجيش اللجب في حرب عظيمة تضم هذا العدد الضخم من المحاربين، ومع هذا لم يبذل شيئاً من ماله بل ختم على خزائنه. وأستند به الخوف من مسها حتى لكأنها ملكاً لغيره. هذا ما فعله رجل لا هو بالليدي ولا بالفسيقي، بل رجل له حق الادعاء بالانتماء إلى (الاسكندر) و(فيليب)، وتصله بهما وشائج النسب. إن الرجال الذين فتحوا العالم كانوا يرون أن الامبراطوريات يجب أن تشرى بالمال، لا أن يُشرى المال بالامبراطوريات. ومما جرى مجرى الامثال قولهم: «إن مدن اليونان لم يفتحها (فيليب) بل فتحها المال». ولما زحف الاسكندر بجيشه على الهند، ولاحظ بطشاً في مسيرة المقدونيين لما أنقلوا به أنفسهم من غنائم الفُرس بدأ فأشعل النار في عرباته، وحمل الآخرين على احتذاء حذوه. ويتخلصهم من هذه الأثقال أمكنهم الانطلاق إلى المعركة دون عائق. أما (پرسيسوس) فلم ينفذ الغائلة عن نفسه وأولاده ومملكته بجانب صغير من أمواله وكنوزه الطائلة، وأحتار أن يحمل أسيراً مع عدد آخر من مواطنيه بأسم «الأسرى الاغنياء»، ليُري الرومان الأموال الطائلة التي جمعها وأدخرها لهم. إنه لم يكتف بمحاولة الغاليين، واعادتهم من حيث أتوا. بل بعد أن أشيع (گنشيوس) ملك الایلليين بالوعود ومساء بثلاثمائة تالنت لقاء مساعدته في الحرب، أمر أن يحصى المبلغ بحضور رسله وان تختم حقائبها. وعندها ظن (گنشيوس) ان المال أصبح ملكاً له، فبادر إلى ارتكاب عملٍ قبيح مخجل بقبضه على سفراء روما وحبسهم. فاطمأن (پرسيسوس) ورأى انه لم يعد بعد بحاجة إلى دفع المال (لگنشيوس) لشراء عدائه للرومان بعد أن صنع بسفرائهم ما ولد عداً أبدياً وورطه في حرب لا مناص منها بهذا الغدر الفاضح. وهكذا احتال على الملك البائس فسلبه التلثائة الثلاثمائة، دون أي وازع من ضمير. وشاهد طرده هو وزوجه وأولاده من مملكته كما تطرد الطيور من عشها - بالجيش الذي ساقه الرومان عليه تحت قيادة (لوشيسوس أنيئوس) (٢٢).

لم يتهور امبيليوس خصمه بل لم يقد له وزناً في الواقع، إلا أنه أعجب باستعداداته وقوته. إذ كان قد عبأ أربعة آلاف من الخيالة وما يناهز أو يكاد أربعين ألف راجل. بشكك سلاح كاملة للكراديس المقدونية المعروفة بالفلاتكس Phalanx نشرهم في مواقع تحاذي الساحل

(٢٢) أنظر ليفي [٤٤: ٣٠ و ٣١] دامت الحملة ثلاثين يوماً فقط ووصلت انتباؤهما يوماً قبل ان عرفت التفاصيل. ومن اسم غيتوس هذا اشتق اسم عشب الجنطيانا لأنه أول من اكتشف مرارته المفيدة [پليني ١٧: ٢٧].

على سفع حمل الأولمب في أرض لا منفذ إليها من كل الجهات، أحكم تحصينها بالمواقع والعوائق الخشبية فأصت مبيعة يصعب اقتحامها. وكان [برسيوس] يأمل أن يعلب خصمه اليأس والتعب بالتأخير. وكثرة الإنفاق، إلا أن إميلوس كان في هذا الوقت بالذات يعمل الفكر ويزن الآراء ويقلب في ذهنه إمكانات الهجوم ووسائله. ولقد وجد جنوده ناقمين متدمرين من تأخير الهجوم، بسبب إفتقارهم إلى الضبط والربط العسكري وهم يهتبلون كل فرصة للتدخل وتعليم قائدهم واجباته! فانحى عليهم تقريعاً وتوبيخاً، وحظر عليهم التدخل فيما لايعنيهم، ونههم إلى الاهتمام بحسب باليقظة والاستعدادهم وسلاحهم بصورة مستمرة. وان لا يستعملوا سيوفهم. بوصفهم رومانيين إلا عندما يرى قائدهم ذلك. كما أنه منع الحرس الليلي من اصطحاب رماحهم الثقيلة عند قيامهم بنوبات خفارتهم، ليكونوا أكثر انجهاً، وأقوى على مغالبة النوم حين لا يوجد سلاح فعّال في يدهم يدافعون به عن أنفسهم اذا فاجأهم العدو.

وكان شحّ الماء مصدر ضيق الجيش الرئيس. فما توفر منه وهو نزر مجّ يصدر أو بالأحرى ينزل بقطرات من ينبوع قريب للبحر. ورأى اميلوس أن يعسكر فوق سفع جبل الاولمب الشاهق المشجر. ومن غمّ الغابات الكثيف وازدهارها استنتج وجود مياه جوفية ذات مجار باطنية فحفر عدداً كبيراً من الآبار والحفر على طول قدمة الجبل ما لبث الماء أن نبط منها نقياً عذباً وفاض منها إلى السواقي التي حفرت لها والاحواض التي رتبت لاستقبالها. في الواقع هناك بعض من ينكر وجود صهاريج ماء محتلة في باطن الأرض في المواضع التي تنبثق منها الينابيع وانها عندما تنبثق يسيل ماؤها ويتحدّر ليس إلا. انهم ينكرون ذلك ويزعمون أن هذا المخزون من الماء انما يكون أوّل تكوينه واجتماعه من قيع المواد المحيطة به وأن هذا التغيير يتم بالضغط والبرودة، عندما تتبخر الرطوبة ويشد الضغط على البخار يصبح مائعاً. مثل اثناء النساء فهي لا تشبه الأوعية المملأ بالحليب معدّ ومهيأ دائماً للسيلان. وإنما يتغير غذاؤهن في اثناءهن، إلى حليب ويسيل خارجاً بالضغط. وكذلك الحال في المواضع الباردة الغنيّة بالينابيع، فهي لا تحوي أي مياه جوفية أو صهاريج لتزويد كل البحيرات والانهار العميقة الغور كأنما تستمد الماء من مصادر لا تنضب قط. إلا أنها تكثف الأبخرة والاهوية وتضغطها وتحيلها إلى تلك المادة المائعة. ولذلك تحد الماء باندفع بهذا الضغط في الأمكنة التي تحفر وتفتح، وتعطي من الماء بقدر ما يشرب البخار ويتميع (مثل ما تحتلب اثناء النساء عند الضغط عليها) في حين ان الاراضي المهجورة التي لا تحفر، تعجز عن ابطاء الماء لأنها تحتاج إلى الحركة التي هي سبب التميع. إلا أن أصحاب هذا الرأي يتيحون الفرصة للمرتابين بقولهم

- يجب والحالة هذه وللأسباب نفسها ألا يوجد دم في الأجسام الحية وأن الدماء يجب أن تتكون بالجراح أي أن نوعاً من الروح أو اللحم يتحول الى مائع أو مادة سائلة؛ زد على ذلك أن تحليلهم تدحضه الوقائع العملية فالناس الذين يحفرون انفاقاً سواء في أوقات الحصار أو بحثاً عن المعادن، قد يصادون انهاراً لم تجمع ماها شيئاً فشيئاً (كما يقضي التعليل، أي اذا كان تكوينها يتم في اللحظة التي تثغر الأرض) بل تتدفق فجأة باندفاع كميات عظيمة من الماء بعنف ثم يقف التدفق فجأة كما يرى كثيراً عند قطع صخرة. ولنترك هذه المسألة.

ظل أميلليوس ساكناً عدة أيام. وقيل لم يحدث أن جيشين عظيمين كانا متقاربين بهذه الدرجة، هادئين ساكنين بهذه الدرجة. وعندما استنفذ تجربة كل شيء، وقلب وجوه النظر في كل الانباء والمعلومات. أبلغ بوجود ممر واحد فقط ترك دون حراسة^(٢٣) يقع في [بيريا Per-rhabia] بالقرب من بثيوم ويطرا. وتغلب فيه عامل الأمل بترك العدو هذا الموضع من غير دفاع على عامل التخوف من وعورة الممر وصعوبة اجتيازه فأمر بعقد مجلس حرب للتداول في الأمر، وكان من بين الحاضرين [سكيبو] الملقب [ناسيكا Nasica] حن [سكيبو افريقانوس]، (نال أعظم النفوذ فيما بعد في مجلس الشيوخ)، وعرض نفسه لقيادة الجيش الذي تقرر إرساله للاحاطة بقوات العدو، وتلاه [فابيوس ماكسيموس] ابن أميلليوس البكر وكان في شرح شبابه، فاشاع اندفاعه وحماسه الشديدين السرور في نفس أبيه، وأمرهما على قطعات عسكرية أختلف في عددها [بوليبوس Polybius] مع ما ذكره لنا [ناسيكا] نفسه. قال هذا في رسالة مقتضبة بعثها الى أحد الملوك^(٢٤) بخصوص الحملة أن الجيش الذي قاده كان يضم ثلاثة آلاف مقاتل ايطالي غير روماني. وأن ميمنته قوامها خمسة آلاف والحق به مائة وعشرين فارساً مع سرية مختلطة قوامها مائتان من التراقيين والكريتيين أرسلها [هريالوس Harpalus].

اتجه [ناسيكا] بقطعاته نحو البحر وعسكر بالقرب من «هراقليوم»^(٢٥)، موهماً العدو بأنه يريد ركوب البحر والاقلاع للاحاطة بالعدو من جهة البحر. وعندما أنهى الجنود وجبة عشانهم

(٢٣) من تاجرين في بيريثيا في تساليا [ليني ٢٥:٤٤] وبيثيوم أو بيثوم هي مدينة في مقدونيا. ويقرا قلعة في البلاد نفسها.

(٢٤) لا وجود لا لرسالة [ناسيكا] ولا لتقرير [بوليبوس].

(٢٥) اذاغ القنصل أنهم سيستقلون الاسطول الذي كان قد أمر بالارساء بعيداً عن الساحل بقيادة الپريتور أوكتافيوس، موهماً العدو بأنه يقصد اجتياح سواحل مقدونيا. لكن القصد الحقيقي كان اخراج [برسيوس] من معسكره [ليني ٢٥:٤٤]. وهذه المدينة (هراكليوم) وهي واحدة من أكثر من أربعين مدينة بهذا الاسم منتشرة في أرجاء العالم القديم - تقع في لنستنس وهو من اقاليم مقدونيا لاتبعد كثيراً عن غرب خليج (ثيرما).

وخيمَ الظلام، جمع الصساط وأبلغهم بالخطئة الأصلية. وأنتقل يسري طوال الليل في الاتجاه المضاد متعداً عن البحر حتى بلغ به السرى الى موضع يشرف عليه معبد ابوللو وفيه اراح عسكره برهة.

يرتفع جبل الاولپ في هذا الموضع الى ما يزيد عن عشرة قُرُنُغات (حوالي ألفي يارد) كما يظهر من ابيات نظمها الشخص الذي قاس ارتفاعه واليك هي:

إن قصة الأولپ من الموقع الذي يقوم عليه
معد ابوللو، يبلغ ارتفاعها عشرة فرلنغات كاملة
بخط عمودي. وقد تزيد عن عشرة قُرُنُغات
بمائة قدم إلا أربع. وإن گزنناغوراس
Xenagoras ابن بوميوس Eumelus بلغ هذا الموضع
فالى المتسقى أيها الملك، وقم بحجك المبرور

يقول علماء الهندسة - ليس بين الحبال ما يزيد ارتفاعه عن ألفي يارد وليس بين البحار ما ينزل عمقه الى أكثر من هذه المسافة ومع هذا فيبدو ان (كزنناغوراس) لم يقم بقياساته تلك اعتباطاً وانما بحسب قواعد العلم وآلات وافية بالمرام.

هنا قصي ناسيكا ليلته، وكان أحد الجنود الكرتيين قد فرّ في اثناء المسيرة ولجأ الى العدو، وهناك أفضى الى (پرسبوس) بفحوى الخطبة التي رسمها الرومان لتطويقهم. وكان پرسبوس خالي الذهن تماماً من احتمال قيام اميليوس بمثل هذه المحاولة، وهو جاثم لا يحرك ساكناً أمامه. فصعق للسيا، إلا أنه لم يضع جيشه في الإنذار ولم يتم بتحريكه. بل أكتفى بوضع عشرة آلاف من المرتقة والفين من المقدونيين تحت أمرة (ميلو Milo) وأمره بمسك كل الشعب والمسالك وتشبيث اقدامه فيها. ويحدثنا (پوليببوس) ان الرومان فاجأوا هؤلاء وهم نائمون. لكن (ناسيكا) يقول أن المعركة كانت ضاربة والصدام دموياً على القمة. وانه هو نفسه نازل تراقبياً من المرتقة واصمها بطعنة رمح نجلاء فأرداه قتيلاً وان العدو أرغم على التقهقر وألقى بمعاطفه وفر فراراً مخزياً تاركاً سلاحه ودروعه في الميدان. واستأنف (ناسيكا) تقدمه وهبط بالجيش سالماً الى السهل.

وملك الخوف (پرسبوس) بعد هذه الواقعة، وهبطت آماله الى الحضيض فبادر الى نقل معسكره بأسرع ما أمكنه. وكان عليه أن يختار أحد أمرين، أما التوقف أمام (پيدنا Pyd-

na وهذا يؤدي به الى المخاطرة بمعركة حتماً. وأما أن يقوم بتوزيع قطعات جيشه على المدن المقدونية ويستظر قدوم الحرب الى عقر داره. حرباً إن وجدت سبيلها الى بلاده صعب الخلاص منها دون سفك دماء ثرة وهلاك أنفوس كثيرة. إلا أن ما أحيا في نفسه الشجاعة هو قول اصدقائه له، بأنه متفوق على العدو عددياً. وإن عزمة الرجال تشد ويسالتهنم تتضاعف لما يدافعون عن أولادهم وزوجاتهم، سيما اذا كانت بمحضر ومرأى من ملكهم المعرض الى الاخطار نفسها. فحضر خيامه حيث هو وأخذ يتأهب للقتال. فاستطلع الأرض ووزع القادات والأوامر كأنما قرر أن يحمل على الرومان حالما تبدو له طلائعهم وكان الموقع صالحاً لحركات الفلاكس التعبوية ومناوراتها. لأنها تتطلب أرضاً مستوية، وميداناً خالياً من العوائق. وكان فيها أيضاً أكام لا تُحصى تتصل أحداها بالأخرى وتفيد في حركات الكرّ والفرّ للقطعات الخفيفة والاستباكات الجانبية، ويحترق وسطها (ايسوت Aeson وليوكس Leucus) وهما بهران قليلا العمق في ذلك الوقت من آخر الصيف. إلا أنه كان المحتمل أن يخلقا للرومان بعض المتاعب.

في اللحظة التي انضم اميليوس الى (ناسيكا) اتخذ نسق المعركة وتقدموا نحو العدو. واستعرض اميليوس صفوفه المنتظمة في أسلوب رائع فلم يسعه إلا الاعجاب والدهشة واصدر امره بالوقوف. وأخذ يفكر في الأمر ملياً. وراح صفار الضباط المتحمسين للقتال يلحون عليه وهم راكبون الى جانبه - ببدء المعركة فوراً وكان ناسيكا المنتشي بخمرة لجأحه الأخير في الأولب أشدهم الحاحاً ولجاجة. فردّ عليه اميليوس باسماً

- كذلك كنت أفعل وأنا في مثل سنك يا صديقي، إلا أن الانتصارات المتعددة هدتني الى السبيل التي يمكن أن تؤدي بالرجال الى الهزيمة، وهي التي تمنعني من لقاء الجنود في خضم المعركة وقد اعباهم السير الطويل^(٢٦) ضد جيش مستعد منتظم الصفوف.

ثم انه أصدر أمراً بأن تنتظم طلائع الجيش وقطعاته التي يشاهدها العدو بنسق المعركة لتبدو وكأنها مستعدة للصولة. أما الباقي فعليه أن يخذل ويقيم التحكيمات لحماية العسكر. حتى ينفسح مجال للمؤخرة القصوى أن تدور على نفسها شيئاً فشيئاً وتنسحب بالتعاقب وتحلّ صفوفها بحيث لا يشعر بها العدو. وبهذا تتمّ عسكرة الجيش دونما ضجة أو عائق.

عندما جنّ الليل وانهى الجسد وجبة العشاء ونهياً للراحة والنوم، زحف الظلام فجأة على وجه القمر وكان بدرأ ثماً، مرتفعاً في كبد السماء، وراح نوره يتضائل بالتدرج متخذاً ألوانا

(٢٦) ليبي (٢٦:٤٤ - ٢٨) انظر خطبة (ناسيكا) وجوابي اميليوس عنها (أحداها أنية، والثانية صدرت في اليوم التالي) فضلاً عن تفاهيل أخرى.

مختلفة، ثم حُجِبَ تماماً بحسوف كليّ. فأنشأ الرومان على جاري عاداتهم بقرعون الأواني النحاسية ويرفعون المشاعل والاختشاب الملتهبة في الهواء. ليحتشوا النور اليه^(٢٧)، وكان ردّ الفعل عند المقدونيين عكس ذلك تماماً فقد استولى عليهم ذهولٌ ورعب عام، وسرت الشائعة في المعسكر من اقصه الى ادناه، بأن هذا الحسوف هو نذير سوء حتى للملك نفسه. أمّا [أميليوس] فقد كان خبيراً في هذه الظاهرة غير جاهل بأسباب هذا الشذو في الطبيعة، فحقيقة الأمر: ان القمر في مسراه يدخل ظلّ الأرض في دورة معينة من دورات الزمن ويظلّ مستتراً حتى يجتاز منطقة الظلام. وبعدها تلقى الشمس عليه نورها فيشع ضياءً. وكان [أميليوس] انساناً ورعاً تقياً حرصاً على مراسم القرابين. واقفاً على علوم النبوءات، فما أن لحظ القمر يستعيد نوره حتى قرب له إحدى عشرة بقرة من الأبقار، وعند انبلاج الفجر ضحّى بعشرين منها متعاقبة للربّ [هرقل] دون أن يظهر ما يشير الى قبوله الأضاحي وعندما قدم القران الحادي والعشرين وردت الإشارة بأن النصر سيكون حليف من يقف موقف الدفاع. فنذر [أميليوس] قرباناً عظيماً عمومياً لـ: (هيكاتومب Hecatomb) وألعاباً رسيّة لهرقل. وامر رؤساء المعسكر بالاستعداد للمعركة. وقدر لهم أن تبدأ عندما تتحول الشمس الى الغرب وتميل الى المغرب لئلا تبهر أشعتها عيون الجنود إن دارت رحى المعركة صباحاً. اما هو فقد أمضى تلك الفترة في خيمته التي كانت مفتوحة نحو السهل حيث معسكر العدو.

يذكر بعض المؤرخين أن أميليوس استخدم عند حلول المساء لحمل العدو على المبادأة بالقتال حتى يتخذ هو موقف الدفاع تحقيقاً للنبوءة. فأطلق حصاناً بدون سرج نحو العدو وأرسل وراءه بعض الرومان ليتظاهروا بطرده، وهكذا بدأت المعركة. ويقول آخرون أن [الثرقيين] هاجموا بقيادة المدعو [الكساندر] قطار حيوانات نقلية للرومان كانت تحمل علفاً للمعسكر. فدفع أميليوس بسبعمئة من الليفوريين لإسناد القافلة. وبدأت النجذات تتوالى تباعاً على الفريقين، حتى آل الأمر الى التهام الجيشين الرئيسين.

وكالربان البعيد النظر، استنتج أميليوس بفكره الثاقب، مبلغ ما في العاصفة القادمة من هول، لشدة اندفاع الجيشين والموجات التي كانت تتعاقب على الميدان، فخرج من خيمته ليمرّ بين صفوف فرقته مشجعاً ومحمّساً. كما تبين (ناسيكا) الذي اندمج بالمشتبكين وهو على جواده، ان قوات العدو كلها قد دخلت ميدان القتال وهي توشك على الالتحام. برز التراقيون

(٢٧) بحرنا لبقي أن (سولبيجيوس كالوس) وهو تربيون روماني قد تنبّ بالحسوف وأخبر القنصل ثم أنهى الأمر للحيش بادن منه ولذلك لم تند لظاهرة مفاجئة للجيش الروماني ولم تشع الحوف فيهم كما هو شأن الناس اراء هذه الظاهرة وبهذا رادت ثقة الجنود الرومان بضابطهم وبخلو المعركة وهم في أفضل حالٍ نفسيّ.

في المقدمة أولاً، وأوقع منظرهم الهلع في نفسه كما أخبرنا بشخصه. فقد كانوا ضخاماً عتلاً يحملون تروساً صقيلة كالمراة تيرق بريقاً، ويشتملون بمعاطف سوداء، وتكسو سيقانهم طماقات معدنية راقبة، وقد اردفوا وهم يتقدمون رماحهم المستقيمة المثقلة بالحديد، على أكتافهم اليمنى. وأعقبهم الجنود المرتزقة يحملون مختلف انواع الأسلحة، مختلطين بمحاربي (بايونيا Paeonia) ثم تلتهم صفوة من المقدونيين، ثم انتقاؤها من عرفوا بالقوة والشجاعة وعصفوان الشابات تلمع أجسامهم بما عليها من الدروع الصقيلة وتبهر العيون معاطفها الارجوانية. وفيما كان هؤلاء يتخذون مواقعهم تحركت من المعسكر على أثرهم القطعات المعروفة باسم «التروس البرونزية» وهي معبأة وفق نظام [الفلاتكس] حتى يذأ السهل كله متوهجاً بالنحاس المجلو ساطعاً بالفولاذ المصفول، ورددت الأكام صدى هتافهم يحسسون به بعضهم بعضاً. ويحثونهم على القتال. وصالوا صولة سريعة جريئة بترتيبهم هذا، فوقع أول القتلى منهم على مسافة لا تبعد عن معسكر الرومان أكثر من أربعمئة يارد. ونشب القتال حامياً، وبرز أميليوس الى الميدان ليجد أن الفصائل المقدونية المتقدمة قد أتمت غرز أسنة رماحها في تروس الرومان وسمرتهم وحالت دونهم ودون أعمال سيوفهم فيهم، لما رأى ذلك، ولما شاهد بقية المقدونيين يتناولون درقاتهم المعلقة في أكتافهم اليسرى ويضعونها أمامهم درءاً ثم يوجهون أسنة حراهم الى تروس أعدائهم، راعته قوة هذا الجدار من التروس النبعة ومظاهر الإلتحام في تلك الجبهة الزاخرة بالسلاح فانتابه قلقٌ وذ هول. لم تقع عينه من قبل على شيء كهذا ولقد ظلَّ المنظر راسخاً في ذهنه بعد المعركة، كثيراً ما تحدث عنه ووصف الشعور الذي تملكه وقتئذ. وعلى أية حال نقض عن نفسه الوجل، وأنطلق على صهوة جواده يجهول في صفوف جيشه دون درع يحمي صدره، ولا خوذة تقي رأسه والهدوء والبشاشة تضيئان أساريره.

ويحدثنا (بوليبوس) أن ما جرى في معسكر المقدونيين كان خلاف ما فعله أميليوس. اد ما أن حمي وطيس المعركة حتى سارع ملك المقدونيين في الابتعاد بدناء وخسة مبمماً شطر مدينة بيدنا^(٢٨) بحجة تقديم قربان (لهرقل)، ذلك الآله الذي أنف عن قبول قربان الجبناء النافهة وترفع عن تحقيق شروط التذور التي لا ترضى السماء عنها. فالحق يقال انه لضرب من المحال أن يقلل الأرياب بفوز الخائر بالجائزة، أو انتصار المنسل من المعركة أو نجاح من لم يتعبه الوصول الى النجاح، أو أن يظفر الأشرار بما يتمنون. ولقد استجيب دعاء أميليوس،

(٢٨) [بيدنا] هي بلدة من مقاطعة بيريا في إقليم مقدونيا قرب رأس ثيرما أما بللاً التي هرب اليها فيما بعد فهي تبعد عنها بمسافة قليلة الى الشمال وقد اشتهرت بكونها مسقط رأس الاسكندر الكبير.

لأنه صلى للنصر والسيف في يده، وقاتل وهو يطلب عون الآلهة.

وتم مؤرخ ما، بدعى [بوسيدونيوس Posidonius] ^(٢٩) الذي يزعم انه عاش في ذلك الوقت كان قد دور تاريخاً مفصلاً لهرسيوس، وشهد تلك الأحداث وضرب سهماً فيها، هذا المؤرخ ينبغي ترك [هرسيوس] الميدان خوفاً أو بحجة تقديم القرابين ويقول أنه أصيب بضربة من ساق حصان في فخذه قبل المعركة بيوم واحد، وكانت اصابة خطيرة أعجزته تماساً، إلا أنه أمر أن يؤتى له بأحد خيول الركوب وبرز الى الميدان وهو أعزل رغم الحاح اصدقائه جميعاً؛ وبات هدفاً لما يحصى من الحراب يرشق بها من كل جهة، فإخطأته جميعاً إلا واحداً مرق من جنبه الأيسر بقوة عظيمة فمزق ثيابه وأحدث في لحمه جرحاً سطحياً ظلت ندبته مدة طويلة. هذا ما أثنى [بوسيدونوس] في صدد الدفاع عن هرسيوس.

عجز الرومان عن فتح ثغرة في [الفلاتكس]. فما كان من [ساليوس Salius] أحد قواد البلينيين Pelignians إلا وأختطف علم كتيبته وقذف به في وسط الأعداء. (عند الإبطالين كان يعتبر التخلي عن الراية عاراً كبيراً وثلماً للشرف مهما كانت الظروف)، فاندفع البلينيون بجنون ووحشية لاستعادتها، ووقعت مذبحة مريعة في صفوف الجانبين هؤلاء كانوا ينزلون الضربان بسيوفهم على قنا العدو ليقطعوها تقطيعاً أو يعملون على دفعهم الى الخلف بتروسمهم أو إزاحتهم الى جانب بأيديهم وكان المقدونيون قابضين على قنطارياتهم الطويلة بكلتا اليدين يخرقون بأستنها اجسام من تعترض سبيلها فتشقب دروعهم. وليس ثم درع أوزد يصمد لهذا السلاح. لقد سار البلينيين والمارسيون Marrucians ^(٣٠) الى حتوفهم الأكيدة دون اعتبار بشيء وبحالة من الهياج الوحشي لاتوصف فخروا صرعى في ساحة الوغى. أبيد اول خط منهم ابادة تامة وأضطر من يلهم الى التقهقر بشكل لا يمكن وصفه بالهزيمة. وانسحبوا الى أكمة [أولوكروس Olocrus].

يقول [بوسيدونيوس]، لما شاهد [أميليوس] ما حصل مزق ثوبه عن جسمه، وهم بعض جنوده بالفرار، واحجم الباقي عن الاشتباك مع الفلاتكس، فقد اصابهم يأس من فتح ثغرة فيه والتوغل في داخله فلقد كان واهم الحق سداً منيعاً لايمكن الدنو منه ولا اقتحامه بخط قنطارياته الطويلة متلاحماً متقارباً يواجه المهاجمين انى تولوا، على أن طبيعة الأرض

(٢٩) قد يكون المقصود [بوسيدونيوس] الأيامي الذي كتب تكملة لتاريخ هوليبو. اذ انه كان في روما زمن قنصلية [مارچلوس] وبعد هذه المعركة بمائة وثمانين عاماً. وقد اعتبره بليوتارخ على ما يظهر مؤرخاً متفلاً أو قليل الأهمية عندما ذكره بعبارة تنم عن ذلك.

(٣٠) من هذه الاقوام الإيطالية كان المارسيون أول من سكن هذا وأصلهم من [السابين] وقد عاش هؤلاء في منطقة معينة على ساحل البحر الأدرياتي.

المتعادية لم تكن تسمح للفلاتكس بنشر جبهة طويلة تظلّ فيها التروس متلاحمةً أخذاً بعضها بحُجَزٍ بعضٍ على امتدادها ولاحت لأسيلبوس ثغرات وفراغات كثيرة فيه واستفاد مما يحصل عادة في اشتباكات الجيوش الكبيرة حيث يقوم المحاربون مناورات وجهود متباينة. فمعي موضع يشتد ضغطهم على العدو ويستमितون في التقدم. وفي موضع آخر يتقهقرون. إذ أسرع إلى حلّ صفوف فرقههم وأعادهم إلى تنظيم الكوهورت Cohort الروماني المعتاد، وأصدر إليهم أمراً بأن يحملوا حملات متقطعة ويفترات متتالية هدفهم منها فتح ثغرات في جبهة العدو. وحظر عليهم أن يقوموا بهجوم شامل عليه بكلّ القوات، بل إن يشتبكوا معه في معارك جانبية ثانوية. أبلغ أسيلبوس هذه الأوامر إلى قوادر الفرق، فنشروها بدورهم على الجنود. ثم بدأوا يطبقون الخطة فما يكادون يلجئون الثغرات، يتخللون الفراغات ويفصلون كتائب العدو بعضها عن بعض حتى يبدأوا بهجماتهم الموضعية، بعضهم يتعرض له من الجوانب حيث يكون مكشوفاً لا يستتره سلاح. وبعضهم يلتف عليه ليهاجمه من الخلف. وبهذه الخطة نجحوا في تحطيم الفلاتكس المقدوني وكانت قوته تكمن في العمل الموحد والوحدة المتلاحمة. وآلت المعركة العامة بالنتيجة إلى قتال الفرد للفرد، أو الفصائل الصغيرة للفصائل الصغيرة حيث ضربات سيوف المقدونيين القصيرة لاتتال مآرباً من تروس الرومان الطويلة، في حين لا تصمد دروعهم الخفيفة لطعنات سيوف الرومان القوية الثقيلة، فكانت تحترقها وتنفذ إلى الأبدان. ولا تطيل القول، ما لبث المقدونيون أن انكفأوا على الأعقاب وولوا الأدبار.

في زخم القتال، سقط سيف (ماركوس) خن أسيلبوس وابن (كانو) من يده وكان قد أبلى خير بلا، وأظهر من الشجاعة ما لا زيادة عليه. فحز ذلك في نفسه، ولا عرو فهو شاب فائر الدم وابن رجل شهير، ربي على أسس المبادئ الخلقية وأشدّها صرامة، فكانت تدفعه دائماً إلى ابداء الشجاعة التي تجعله ثدوةً. ولهذا هانت الدنيا في عينه وعُدّ حياته عبثاً عليه أن عاش ليرى اعداء يغنمون سلاحه فأخذ يركض هنا وهناك، مستوضحاً الوجه وكلما تبين له في أحدهما صديقاً أو زميلاً أنهى إليه بمصيبته ورجا منه العون حتى اجتمع له عدد كبير من الشجعان فشكوا طريقهم كتلة واحدة وهو في مقدمتهم بين صفوف جيشهم وحملوا على الموقع فهزموا من فيه بعد معركة ضارية وكثير من الجرحى وأكثر منهم قتلى وأتوا احتلاله وأنطلقوا يبحثون فيه عن سيف (ماركوس) حتى استخلصوه من أكدام الأسلحة والقتلى. فطاروا فرحاً بنجاحهم وارتفعت اصواتهم بنشيد النصر، ثم واصلوا هجومهم وقد تضاعفت حماسهم - على من بقي صامداً في مواقع العدو. أخيراً تمّ القضاء على ثلاثة آلاف مقدوني ثبتوا إلى آخر لحظة وواصلوا القتال بشجاعة مذهلة حتى النهاية. ووقعت مقتلة عظيمة بالغارين أيضاً

حتى أمتلاً السهل وسفوح التلال بجثثهم وصبت الدماء مياه نهر [ليوكوس] الذي لم يعبره الرومان الا في اليوم التالي للمعركة. وقيل أنه قتل ما يزيد عن خمسة وعشرين ألفاً من جنود العدو. في حين يذكر [پوسيدسيوس] أن قتلى الرومان لم يزيد عن المائة ويقول [ناسيكا] انه ثمانون ليس غير. لقد تقرر مصير هذه المعركة في فترة وجيزة جداً على سعتها وأهميتها وضخامة الجيوش التي خاضتها فقد بدأ الاشتباك في الساعة الثالثة بعد الظهر وما أن أزفت الرابعة حتى كان العدو يولى الأدبار. وقضى المنتصرون بقية النهار في مطاردة الفارين فقطعوا في هذا، حوالي ثلاثة عشر وأربعة عشر ميلاً. ولما تابوا الى المعسكر كان الليل قد تقدم بهم كثيراً. وأستقبلهم خدمهم بالمشاعل وجازوا بهم الى خيامهم التي كانت مضاءة ومزدانة بأكاليل الغار والليلاب^(٣١)، وهم يهتفون لهم ويهللون فرحين، لكن القائد العام كان حزناً لأن أصغر ابنه للذين جاءا معه الى الحرب، لم يعد مع المنتصرين. كان أحب ابنائه الى قلبه لعلمه بتفوقه على كل أخوته في الشجاعة والخصال الحميدة فهو جريء، رگاب خطر طمأحاً الى المجد، ما زال في مطلع شبابه يافعاً^(٣٢). ولم يكن لاميليوس من سبيل الا ان يعتبره من الهالكين في حين أن قلّة تجربته في الحرب جعلته يتوغل كثيراً في صفوف الأعداء، ويتأخر. ترك الجنود عشاءهم وحملوا المشاعل والمصابيح وتوجه فريق الى خيمة اميليوس بينما خرج فريق الى الخنادق يبحثون عنه بين قتلى أوّل الهجوم. وران الأسى والرجوم على المعسكر كله وضجّ السهل باصوات الرجال وهي تنادي [سكيبويا]. فهو على يفاعته موضع حبّ وأعجاب الكلّ لأنه بزّ اقرانه باخلاقه الرفيعة التي كانت تؤهله للقيادة والمشورة. وانصرم الليل أغلبه وكاد اليأس يستولى على الباحثين، وإذا به يعود والدماء الجديدة تعلوه لقد افرط في استئماره نصره الأول وقمادى في الاستمتاع بفوزه مثل كلب أصيل. ذلكم هو [سكيبويا] الذي دوّخ قرطاجنة [نونمانتيا Numantia] وقوضهما، وكان بلا ممارسة أعظم من يستحق الاجلال والتعظيم بين كلّ الرومان، وأكبرهم سلطاناً ومكانة بينهم. هكذا أرجأت آلهة الحظّ استيائها وغيرها من النجاح العظيم الى مناسبة أخرى وتركت اميليوس يستمتع بهذا النصر دون أن تشوبه شائبة أو يخالطه اذى.

(٣١) الغار هو البسات المقدس عند ابوللو والليلاب هو النبات المقدس عند باخوس. إن باخوس يخلط أحياناً بينه وبين هراقليوس، كان محارباً. وأما لنقرأ في الاساطير عن حملاته في الهند. الا ان العادة التي درج عليها الرومان بتزيين خيم المنتصرين بنبات اللبلاب - ربما نشأت من سبب أكثر بساطة يقول يوليوس قيصر انه وجد في معسكر بومبي خيمة لتولس وغيره من القادة مُزدانة بالليلاب ان كانوا قد وثقوا أنفسهم بالنصر.

(٣٢) كان يبلغ السابعة عشرة من العمر اذ داك.

أما عن [پرسیوس]، فقد بادر إلى الفرار من [پیدنا] بخيائنه التي لم تلحقها خسارة تذكر. وبلغ [پللاً Pella] وهنا أنضمت إليه فلول الرجال الذين أخذوا ينحون باللائمة والتقرير على الخيالة ويصمون بها بالخيانة والجبن وامتدت أيديهم لانتزاعهم من فوق سرورهم وإلقائهم على الأرض فتشايكوا بالأيدي وتضاربوا وخشي [پرسیوس] عاقبة الخلاف فحاد في سيره عن الطريق العم ونزع عنه ثياب الأرجوان لئلا تُعرف هويته، ووضعها أمامه ونزع تاجه وحمله بيده ثم نزل عن صهوة جواده ليسهل عليه تبادل الكلام مع أتباعه، وظلَّ يقوده من الزمام ثم توقف أحد الجنود منظاراً بشدَّ سير نعله، وتبعه آخر متعللاً بارواء حصانه، وأحتج ثالث بشرب الماء وهكذا بداؤا يتفضون من حوله متباطئين متسكعين بالتدريج. ولم يكن يدفهم إلى هذا خوفهم من العدو قدر ما كانوا يخشون بطش [پرسیوس]، فقد دفعه اضطرابه واختلال عقله بسبب ما أصابه، إلى محاولة تبرئة نفسه بالقاء وزر الهزيمة على كل شخص. وبلغ مدينة [پللاً] ليلاً فقصده [يوكتوس Euctus] و[يودئوس Edæus] أمينا بيت المال وأثارا سخطه بتعدادهما له أخطاءه الماضية، وبالجراءة التي أظهرها، واللوم الذي أختارا له وقتاً غير مناسبٍ قطعنها بخنجره وقتلها. وبعد هذا تخلى عنه الجميع خلا [ايثانرا] الكرיתי، و[ارخيدئوس الايتولي] و[نيون] البويوسي. أما من الجنود العاديين فلم يتخلف عبر الكريتين لا بدافع من أخلاص بل لطمع في ثروته الطائلة التي حرصوا عليها كما يحرص النحل على قفيره. فوزع عليهم منها بعض الاقداح والأواني الذهبية والفضية وغيرها مما بلغت قيمته خمسين تالنتاً^(٢٣). لكن عندما خرج من مدينة [امفيپوليس Amphipolis] إلى [غالپسوس Galipsus]^(٢٤) وهدأت مخاوفه بعض الشيء. عاد إليه داؤه القديم المعروف «الجشع» فراح يتظلم إلى أصدقائه قائلاً أنه اضطر بحكم الظروف القاسية إلى النزول للكريتين عما يخص الاسكندر الكبير، وأخذ يتوسل إلى من كانت في حوزتهم والدموع تجول في عينيه، بأن يسمحوا له بافتدائها بالمال. وأدرك الخبيريون بنفسيته أنه يريد أن يلعب بالكرיתי على الكرיתי. أما من صدقته وأعاد إليه فقد خرج بصفقة المغبون، إذ لم يدفع لهم شيئاً مما وعدهم. بل وتمكن بالخيالة أن يبتز من أصدقائه ثلاثين تالنتاً (كله وقع في يد العدو بعد زمن وجيز). ثم انه أبحر بما معه من أموال إلى [ساموثراكي Samothrace] وهناك لجأ إلى معبد [كاستور وپوللوکس]^(٢٥).

(٢٣) كان يخشى أن يدفع بها إليهم ثلاثين المليونين فقد الآخرين [ليفي المرجع نفسه ٤٥].

(٢٤) في إحدى المخطوطات كتبت Alpsus.

(٢٥) حمل معه مبلغاً قدره (٢٠٠٠) تالنت. كان الخوف مستولياً على پرسیوس عند وصوله [امفيپولس] لئلا يسلمه الأهلون إلى الرومان خرج يحمل فيليب الابن الوحيد الذي منحه فصعد المنبر وحاول الكلام إلا =

عُرف المقدونيون دائماً بحبهم للوكهم وشدة إخلاصهم لهم. والآن بعد أن تحطّم قطبهم الرئيس أنهارت معنوياتهم وأعلنوا الطاعة لاميلوس، ومكّوه من بلادهم في غضون يومين ليس غير. وهذا يزيد الرأي القائل بمحالة الخطّ له على ما يبدو. إن العلامة السماوية التي نزلت عليه في [امفيلوليس] كانت من قبيل الخوارق الطبيعية.

فعندما كان يقرب هناك وقبل بدء الشعائر المقدسة نزل من السماء برق على الهيكل بصورة مباغتة وأشعل النار في الخشب فأكمل حرق القريان وعلى أية حال فإن أجلى المظاهر الحارقة للطبيعة التي حصلت بمشينة من السماء - يبدو من حكاية الاشاعة التي أنتشرت في روما عن نصره. ففي اليوم الرابع للهزيمة [برسيوس] في [بيدنا] وبينما كان أهالي روما يشاهدون سباق خيل^(٣٦). بدأت فجأة اشاعة من مدخل الملعب مؤداها ان [اميلوس] قد هزم [برسيوس] في معركة عظيمة. وأنه يقوم الآن بإخضاع مقدونيا كلها لسلطانه. وسرى هذا النبأ بين الناس ليخلق فرحة عامة فتعالت الهتافات والتهليل، وضجت المدينة به طوال اليوم. وعندما لم يتعيّن مصدر النبأ وظهر أن كل شخص كان ينقله إلى الآخر على علاقه، صرف عنه النظر مؤقتاً واستقط من الحساب إلى أن وصلت الأخبار المؤيدة بعد أيام قليلة^(٣٧). فعدت الاشاعة الأولى من قبيل الخوارق. لاحتوائها على الواقع والحقيقة تحت مظاهر الخيال. وقيل أبصاً ان انباء المعركة التي جرت قرب نهر [سارغا Sarga]^(٣٨) في إيطاليا، أنتقلت إلى الپلويونيسوس في اليوم بالذات. كذلك معركة الميديين في [ميغال] فقد وصلت أنباؤها إلى [پلاطيا Plataea] في فترة يوم واحد أيضاً. وعندما هزم الرومان اتباع [تاركوين] وحلفاؤهم اللاتين شوهد في روما بعدها بقليل، شخصان طويلا القامة مهيبا الطلعة زعماً انهما يحملان انباءً من المعسكر، ورجح انهما [كاستور وپوللوکس] وكان أول حديث لهما قرب النافورة. فأبدى عجبه لما سمع منهما وقيل انهما ابتسما ومسّا لحية الرجل مساً رفيقاً فتحول شعرها

= ان العبرة خنفته ولم يساعفه اللسان بعد عدة محاولات تطلب من [ايقاندن] أن يتكلم عنه إلا ان الاهالي الذين كانوا له من الكارمين رفضوا الاستماع اليه وهتفوا «إنهب، إنهب» لقد قرأنا أن لاتعرض انفسنا وزوجاتنا وأطفالنا للخطر بسببكم، فإلهرب الهرب وأتركنا لعلنا ننال أفضل ما يمكن الحصول عليه من شروط الغالب». وكان ايقاندن الشخصية الرئيسة في عملية اغتيال [يوميثيس] وقد فطخ برسيوس بايقاندن بعد ذلك في [ساموثراكي] خشية أن يكشف دوره في الاغتيال.

(٣٦) فاليريوس ماكسيموس [٨٠١، ١] يقول ان مصدر الاشاعة هو شفص يدي [فاتينيوس] وهذا نقلها عن شابين يمتطيان جوازين اشبهين [كاستور وپوللوکس... طبعاً؟].

(٣٧) تقيّد الأمر بوصول كوينتوس فابيوس ماكسيموس ابن ايميلوس، ولوكولوس لينتولوس، وكوينتوس ميتلوس الدين أرسلهم [انيولس] فليقوا روما في اليوم العشرين الذي عقب المعركة.

(٣٨) في [ماغناريكيا] وهي ليست بالبعيدة عن [ريجيوم].

من الأسود الفاحم الى الاشقر الذهبي، وهذا ما أهد صحة اخبارهما. وألصق بالرجل لقب [أهينوباربوس Ahenobarbus] (٣٩)؛ أي ذا اللحية الصفراء. وفي زمننا هذا وقع حدث يجعل كل ما اتينا الى ذكره قابلاً للتصديق، فعندما شق [انطونيوس] عصا الطاعة على [دوميتيان] أعترى روما غم عظيم اذ توقعت حروباً طاحنة تأبئها من ناحية جرمانيا. وعلى حين غرة سرت اشاعة النصر على افواه الناس دفعة واحدة، دون أن يدري أحد مصدرها، وضجت المدينة كلها بانباء تشير الى مقتل انطونيوس، واهادة عسكره عن بكرة أبيه إلا شرذمة (٤٠). وقوي الاعتقاد ورسخ في النفوس حتى عدواً كبيراً من الحكام أخذوا يقدمون القرابين. وعندما حُقق عن المصدر ولم يعثر عليه تضاءلت الاشاعة وأخذ كل امرء يزبجها عن عاتقه ليلقيها على الآخر، وأخيراً ضاعت في الجَم الغفير كأنما غيبها البحر الاوقيانوس ولم يعد أحد يذكرها بكلمة في المدينة لانها لم تجد حقيقة تدعمها. ومع هذا زحف [دوميتيان] بقواته الى ميدان القتال. فالتقى بالسعاة القادمين وسلموه رسائل تنبئه بالنصر وعند التأمل وجد أن ظهور الاشاعة كان يوافق اليوم الذي تحققت فيه الغلبة، مع العلم ان المسافة بين منطلق الاشاعة وميدان المعركة كانت تزيد عن الفين وخمسمائة ميل. في الواقع ان اموراً كهذه لا تجد معاصرتنا تعليلاً أو تفسيراً.

ولنعد الآن الى موضوعنا، وصل الى [ساموثراكي]، القائد الروماني [كينيوس أوكثافيوس Cnaeus Octavius] وألقى مراسي اسطوله تحتها. وسمح [پرسيسيوس] أن يبقى متمتعاً بحق اللجوء إكراماً منه واجلالاً للأرباب (٤١). إلا أنه اتخذ كل الاحتياطات للحيلولة دون هروبه بحراً. على أن [پرسيسيوس] لم يقم وزناً لهذا وإنما اتصل [باورواندس Oroandes] الكريتي وهو صاحب سفينة صغيرة، وأقنعه بأن ينقله هو وأمواله بحراً. وبرهن هذا على انه نموذج صادق للكريتيين فقد نقل المال الى السفينة وأوصى پرسيسيوس أن يكون هو وأولاده وأقرب خدمه وأكثرهم ضرورة مجتمعين علي الرصيف القريب من معبد [سيريس] ليركبوا السفينة. لكن اورواندس أفلح بغنيمة من المال في مساء ذلك اليوم دون أن يأخذ پرسيسيوس. كان يكفي هذا بؤساً وعاراً أن يضطر الى الهبوط هو وزوجه وأولاده من نافذة ضيقة في الجدار وهم الذين لم يعرفوا في حياتهم معنى الضيق أو الفرار. وها هو الآن يطلق الزفرات من قلبه الذي أثقله الألم والشقاء. عندما استوقفه أحدهم وهو يدور في أرجاء الساحل هائماً يبحث

(٣٩) اسمه [لوشيوس دوميتيوس] ومن نسله نيرون الامبراطور.

(٤٠) شبت هذه الثورة في جرمانيا العليا في العام ٩٢ ق-م.

(٤١) كانت آلهة ساموثراكي تتفقت باحترام ومهابة خاصين عند سائر الاقدمين ديودورس.

عن السفينة. وأبلغه أن (ارواندس) هو الآن في عرض البحر. كان الوقت فجراً، فلم يبق له أي أمل بالفرار^(٤٢) وقفل راجعاً مع زوجه فبلغا الجدار ركضاً وإن كان الرومان قد لمحوا قبل أن يصلوهما بزمن. وكان هو نفسه قد وضع أولاده وديعته عند (ايون) أخلص ندمائه في الماضي، واحد الغاديس به في الحاضر. وهذا ما حمله بالدرجة الأولى على تسليم نفسه لأولئك الذين كان أولاده تحت رحمتهم (الحبوانات نفسها قد تقدم على ذلك عندما ينزع منها صغارها). وكان قد وضع أكبر ثقتهم في (ناسيكا) فقصده ولم يجده هناك، فلم يسعه إلا أن يندب سوء حظه وإن يسلم نفسه إلى (اوكتافيوس) بعد أن سُدَّت أمامه كل السبل. وهنا تبين أنه مستلّ برذيلة أخط من الجشع وأعني بها التهالك على الحياة، وكانت سبباً في حرمانه العطف وهو الشيء الوحيد الذي يأبى الخطئ عن استلابه حتى من أخط الناس وأعظمهم شراً، فقد طلب أن يؤخذ إلى (اميلبيوس)^(٤٣)، فنهض هذا من مقعده وتقدم لاستقباله يحفّ به اصداقاه وأدعت عيناه لمنظر رجل كبير المقام هوى إلى الحضيض عندما غضبت عليه الآلهة وعثر به حظه. وهنا بدأ (پرسبيوس) في أخرى موقف وأدعاه إلى الاشتزاز، إذ ألقى بنفسه تحت قدمي أميلبيوس وأخذ يقلل ركمته ويولول ويصرخ مستجيراً صرخات لا تمت إلى الرجولة بصلة. فلم يحتمل اميلبيوس ذلك ولم يطق سماعه وخزره بنظرات يشيع فيها الأسى والغضب وقال له:

- لماذا تتعب نفسك أيها الشقي في تبرئة الخطئ من أشدّ ملامك له بسلوكك هذا الذي يظهر بمظهر المستحق لهذه النكبة ويجعل سعادتك الزائلة تبدو وكأنها أكثر مما تستحق، لاحتلك المحاضرة؟ ثم لماذا تحطّ من قيمة انتصاري وتجعل فتوحاتي تافهة بالكشف عن جبنك والبرهنة على أن خصومتك تحط من قدر الرومان. إن البسالة المنكوبة تستدرّ الاحترام العظيم حتى من قلوب الأعداء، لكن الجبن وإن لم يكن كثير النجاح، إلا أن الرومان لا يجابهونه إلا بالاحتقار.

ومع هذا فقد أنهضه ومد إليه يده، وأوصى (توبيرو) أن يبقيه عنده. ثم أنه دعا ولديه وختنيه، وطائفة من وجهاء الرومان الشبان إلى دخول خيمته معه. وظلّ جالساً مدة طويلة وهو مطرق لا يطبق بحرف حتى أعجبوا لأمره، وأخيراً راح يحدثهم عن الحظوظ وأحوال البشر فقال:

(٤٢) يقول ليفي أنه أخفى نفسه في إحدى زوايا معبد (كاستور وبولوكس) لا تلفت النظر.
(٤٣) ما أن صار الملك في امفيبيوس تحت رحمة (اوكتافيوس) حتى وضعه في سفينة القيادة وحمل كل أمواله وكنوزه ثم أرسل ساعياً سريعاً إلى اميلبيوس يطعمه بالأمر. فأرسل هذا (توبيرو) ختنته مع آخرين من طلبة القوم ووجهانهم لاستقبال (پرسبيوس) وكذلك أمر بنهر الذبائح وكأنه نال نصراً جديداً. وخرج كل من كان في المعسكر لمشاهدة الملك الأمير الذي توجه وحيداً نحو خيمة اميلبيوس وهو مشتمل بمعطف أسود.

- بما قدر لذلك الذي يعلم جيداً بأنه بشر لا أكثر، أن يعتز بنفسه ويصغرّ خذّه وهي في أحسن حالٍ من الرخاء والرفاء، وإن يتبه عجباً وخيلاً عندما يفتح مدينة أو بلداً أو مملكة، لا أن يفكر في تغيير حظه هذا تفكيراً متزنأ. فعلى كل المحاربين أن يجدوا فيه عبرة، ويتخذونه مثلاً لضعفٍ قد ينتابهم، ولاحتمال تعرضهم للخطأ بصورة عامة، وإن يتعلموا منه درساً وهو أن لا ثبات ولا دوام لحالٍ وإلى كم يستطيع المرء أن يضمن السلامة لنفسه؟ في حين أن النصر والنجاح هو في مقدمة ما يوجب علينا التخوف من انقلاب حظوظنا. وتأملنا القليل في جوهر الأشياء، وملاحظتنا دوران المقادير السريع، وعرضة أحوال المرء إلى التبدل أن بشعرنا بالترح ونحن في وسط الفرح العظيم. عندما ترون سليل الاسكندر نفسه الذي بلغ أعلى درجة من السلطان وحكم أعظم امبراطورية يوطأ بالأقدام في فترة من الزمن وحيزة، لا تزيد عن ساعة واحدة. عندما ترون ملكاً يحيطه جيش جرار وما هي لحظة إلا وهو يتسلم قوت حياته من أيدي المنتصرين عليه. أقول اسعكم الايمان بشبات وخلود ما تملكه في ايدينا مع وجود ما يدعى بتقلبات الحظ؟ كلا أيها الشبان، دعوا جانباً كبرياءكم الباطلة وزهوكم الفارغ بالنصر، وأجلسوا جلسة التواضع ولا تحولوا أنظاركم عما سيأتي به الزمن، وما كتب لكم في لوح المستقبل يحمل أن يعكس ما قد يجعله غضب الآلهة الأخير نهاية وختاماً لسعادتنا الحاضرة».

وقيل أن [اميلوس] أسهب في هذا وتلكم كثيراً، وبعدها صرف الشبان فخرجوا وهم يشعرون باتضاع كبير، وإن خيلاءهم وزهوهم قد استوصلا من نفوسهم تماماً.

بعد هذا، وزع [اميلوس] قطعات جيشه على المقرات في المدن ليصيبوا الراحة. وخرج هو في زيارة لبلاد الأغريق. وقضى هو الآخر فترة راحة مفيدة مشرفة له ذات طابع انساني لا تقل خطراً عن أعماله الحربية، فقد خفف من ضيقة الناس أثناء رحلته وأصلح حكوماتهم ووزع الهبات والعطايا على المحتاجين، من القمح والزيت وما شاكلها مما أكتظت به مستودعات الملك المغلوب. فقد قيل انه أختزن كميات لم تنضب. حتى بعد أن أنتهى تحقيق جميع الطلبات وتوزيع كل الهبات، ووجد في دلفي عموداً عظيم الجرم مربع الشكل من الرخام الأبيض أعد ليكون قاعدة لتمثال الملك الذهبي فأمر ان ينصب فوقه تمثاله قائلاً أن العبد يقضي بأن يُخلي المغلوب مكانه للغالب وذكر أنه نطق في [اولمبيا Olympia] القول الذي سمعه الجميع : «إن [فيدياس] نحت جريتر [هوميرس]» وعندما وصل المفوضون الرومان العشرة من روما^(٤٤)، أعاد إلى المقدونيين مدنهم وأراضيهم، ومنحهم حق العيش في حرية

(٤٤) هؤلاء المفوضون العشرة كانوا من درجة قنصل. وقد قدموا لمساعدة اميلوس في وضع أسس لحكم =

يمارسون شرائعهم الخاصة دونما تدخل واكتفى باستيفاء غرامة للرومان قدرها مائة تالنت وهي ضعف ما كانوا يدفعونه للموكهم. ثم احياء مختلف حفلات التمثيل والالعاب الرياضية، وقدم القربان للأرباب وأقام الولائم وضروب الملاهي، وقد سددت نفقاتها كلها من خزان الملك. ولم يبخل بشيء من المال في احيائها. وأظهر فيها مبلغ علمه بالمقامات وأماكن الضيوف في تلك المناسبات، وبأي أسلوب يستقبل كل واحد وفقاً لمنزلته وقيمته. وانجز ذلك بدقة جميلة انتزعت الأعجاب من الأغريق فقد وجدوا أنه قوي الملاحظة في ما يتعلق بأصول الدعوات والحفلات، دقيق الذوق حتى في هذه الصفائر رغم انشغاله في الأمور العظيمة. ولم يكن بما يشينه أن يبدو هو نفسه بين كل هذه المظاهر الفخمة الرائعة أبهى المشاهد وادعاها الى الإعجاب ومصدر أعظم السرور لدعويته. ولقد قال لاولئك الذين بدوا مشدوهين من اهتمامه ومواظبته: إن ما يظهره من دقة في تنظيمه وليمة لا يقل عما يظهره في تنظيم وإدارة جيش والثاني منهما يجعله مرهوب الجانب في نظر العدو. والاول يجعل الوليمة مقبولة من الضيفان ولم يكن لنا الخلق على كرمه وسمو روحه بأقل من ثنائهم على سجاياه وشجاعته. لم يطق صبراً على المقادير العظيمة من الفضة والذهب التي كدست أكداً في قصور الملك، ودفع بها الى أيدي أسماء بيت المال الكويستورية Quaestor لتودع الخزانة العامة. وسمح فحسب لابنيه اللذين عرفا بحبيهما للعلم أن يستأثرا بكتب الملك. وعندما جرى توزيع جوائز البسالة النادرة منح (ابليوس توبيرو) ختته، انا، ذهباً يزن خمسة ارطال، وهذا هو (توبيرو) الذي نوهنا سابقاً به، وقلنا أنه كان واحداً من ستة عشر قريباً يعيشون معاً في بيت واحد ولا يملكون إلا حقلاً صغيراً. ولقد قيل أنه الاناء الوحيد الذي دخل منزل آل (ابلي) ليس عن طريق الشراء بل المكافأة للشجاعة وتكريماً ولم يكونوا قبل هذا قد استعملوا ذهباً أو فضة لا هم ولا زوجاتهم.

بعد أن أعاد أميليوس الأمور الى نصابها^(٤٥) غادر اليونان. وفي مقدونيا صبح المقدونيين بالأبلا بقرطوا في الحرية التي نالوها بمساعي الرومان وإن يحرسوا عليها بطاعتهم القانون والمحافظة على وحدتهم وتماسكهم^(٤٦). ثم انه توجه الى (ابيروس). وكان قد تسلم أوامر من

= جديد. وعن مهمتهم واسمائهم أنظر ليقي [١٧ ٤٥ و ١٨] لم يفهم الأغريق المقصود بالحرية التي جاحم بها الرومان لاسيما وقد اقترنت بغرامة مقدارها مائة تالنت! كما وجدوا تناقضاً في البيان نفسه فقد تحدث عن تركهم يمارسون تطبيق قوانينهم الخاصة في حين فرضت عليهم في الوقت عينه قوانين جديدة وانذروا بفرض المزيد. وما كان يلقهم أشد القلق هو تقطيع اوصال مملكتهم ووضع نهاية لوحدتهم الوطنية.

(٤٥) بانهية هذه الاجراءات أمر بتتعيد حكم الموت بـ (اندرونيكوس) من اثيوبيا، و(نيون) من بويوتيا فقد كانا صديقين (پرسوس) دائماً ولم يتخليا عنه.

(٤٦) هذه الاعتبارات التي حُبِي بها المقدونيون من الرومان لم تكن بالأمر الفائق العادة. فقد قسمت بلادهم =

مجلس الشيوخ تقضي أن يمكن جنوده الذين حاربوا (پرسیوس) تحت امرته. من نهب مدن تلك البلاد، ولكي ينجز تنفيذ الأمر بصورة مفاجئة ويأخذ السكان على حين غرة، بعث يستقدم عشرة من رؤساء كل مدينة وعند حضورهم أمرهم أن يهيبشوا له كل ما يوجد من المنازل الخاصة والمعابد من الذهب والفضة ويأتوا به اليه في يوم حده لهم. وأرسلهم ورفقة كل وفد نقيباً (سنتوريون = قائد مائة) مع سرية جنود بحجة التفتيش عن الذهب وتسلمه. ولكن لما حلّ اليوم المتفق عليه هبوا في كل المدن وأنطلقوا لتنفيذ قرار النهب والسلب، وساقوا في ساعة واحدة مائة وخمسين ألف عبد رقيق من أهاليها. ونهبت سبعون مدينة. على أن كل ما أعطي من هذا الخراب الشامل والدمار التام، لم يكن ليزيد عن أحد عشر دراهماً للجندي الواحد. وبعد هذا كان الناس يرتعدون من سماع كلمة اعلان حرب بعد أن عادت ثروة أمة بكاملها، بهذه الفائدة التافهة والريح الضئيل على كل فرد عند توزيعها.

بعد أن أنجز أميلوس هذا العمل الذي كان يتنافى تماماً مع طبيعه الرقيق وخلقه السمع، أنهى إلى (اوريكوس Oricus)^(٤٧) ومنها أركب جنوده السفن مبحراً إلى إيطاليا، ومغمر عياب التبر على ظهر سفينة الملك، وهي ذات سنة عشر رصيف تجذيف. وكانت قد تزينت زينة مفرطة بغنائم الأسلحة وأقمشة الأرجوان والقرمز. حتى أن الرومان المحتشدين على الضفاف لاستقباله أخذوا يتلمضون مسبقاً بحلاوة موكب نصره القادم، وهم يرقبون سفينته تشق الماء متهادية ضد التيار. إلا أن الجنود الذين أثارت كنوز پرسیوس الجشع في نفوسهم ولم يحصلوا على ما توهموه حقاً لهم، كانوا يظنون سخطاً وحنقاً على أميلوس، وظهر سخطهم هذا على شكل شكوى من صرامة قيادته وطغيانه. وأشارت الدلائل إلى أنهم راغبون عن منحه موكب نصر. وعلم بوجهة نظر الجنود هذه، (سرفيوس غالبا Servius Galba) عدو أميلوس. وكان يخدم تحت أمرته بمنصب (تريبون)، فخرج يعلن بكل جرأة أن أميلوس لا يستحق موكب نصر، ودخل بين الجنود يبذر الفتنة ويحرض عليه فزاد من صدودهم عن أميلوس، وتقادى في هجومه بأن طلب من مفوضي (تريبونات) الشعب أن يسمحوا له بأرجاء سرد اتهاماته وحججه إلى اليوم التالي لأن الساعات الأربع الباقية من النهار لا تكفي، لكنهم ابوا عليه ذلك وأمره بالكلام فوراً دون تأجيل إن كان لديه شيء. فبدأ يلقي خطبة طويلة عريضة ملأها بشتى المفتريات وصنوف الملام حتى أنتهى الوقت وزحف الظلام،

= إلى أربعة أقاليم وحرم بحكم القانون على أي شخص أن يتزوج أو يتاجر أو يبيع عقاراً لأخر ليس من سكته للأجانب وأوجب على كل تيلانهم وأطفال هؤلاء الذين تزيد أعمارهم عن الخامسة عشرة بأن ينقلوا فوراً إلى إيطاليا كما وضعت السلطة العليا في سائر مقدونيا بأيدي شيوخ رومانيين معينين.

(٤٧) ميناء في مقدونيا.

فعض الترييبوت الاجتماع. وأشتدت ثورة الجنود واحدقوا [بغالبا] وعقدوا الحناصر على مزامرة، وفي صباح اليوم الذكر حاصروا [الكابنول] وهو الموضع الذي عيه الترييبونات لعقد الاجتماع الثاني.

وفي ساعة الصباح الأولى وضعت قضية موكب النصر في التصويت، وباشرت القبيلة الأولى بالتصويت ضده، فانتشر النبا بين الأهالي حتى بلغ مجلس الشيوخ. كان الجمهور والحق يقال، شديد الأثم لما بلاتقيه اميلبوس من نكران وسوء معاملة، لكن هذا الأثم لن يتعد حذ الكلام ولم يخلف أثراً. وأستنكر رؤساء المجلس هذا العمل ووصروه بالحطة والذالة وأخذوا يحضون بعضهم بعضاً على وضع حد لتمرّد الجنود ووقاحتهم، والأ فلن يلبثوا أن يخرجوا عن طورهم، واذا ذاك يتعنر ضبطهم ويلجأون الى أعمال العنف اذا ما ترك لهم أمر حرمان اميلبوس من موكب النصر.

ثم أنهم ساروا بعدد كبير يشقون لأنفسهم طريقاً بين الجموع الحاشدة الى محل الاجتماع وطلبوا من [مفوضي الشعب] تأجيل التصويت الى أن يتكلموا بما في ضميرهم امام الشعب. فأوقف التصويت وبعد أن ساد الصمت نهض [ماركوس سرفيلبوس Marcus Servilius] الحائز درجة القصل، وكان قد أشتهر بفتكه بثلاثة وعشرين خصماً تحدّوه كلهم في معركة واحدة، ووجه الكلام الى الجمهور قائلاً:

- لقد وضع لي الآن أكثر من أي وقت مضى، كم كان عزيزنا اميلبوس باولوس قائداً عظيماً، واني لأعجب حقاً اذ أرى كيف استطاع تحقيق هذه الانتصارات العظيمة بجيش ساهه التمرّد وركبته الحطة والدنائة. كما اني لا أجد في نفسي قدراً من الدهشة يكفي شعباً فخر بالانتصارات على الابليريين والليفوريين وأبى الآن، حقداً وحسداً، أن يستمتع بمنظر الملك المقدوني يقاد الى الأسر حباً بقوة الرومان وسؤدهم، ويحفّ به كل تراث فيليب وأمجاد الاسكندر. وانتم الذين تقدمتم الى الأرباب بالقرابين هور سماعكم بأصغر أشاعة نصر أنتشرت في المدينة بحض الصدفة، وتوجهتم اليها بالدعاء ليكون النبا حقيقياً، أليس غريباً منكم أن تخذعوا الآلهة وتحرموها الاكرام الواجب وتخذعوا انفسكم بحرمانها فرصة النصر، بعد أن عاد القائد يحمل لكم فتوحات لا شك فيها ولا شبهة. وكأني بكم لا تطيقون رؤية ثمرة مجهوده العسكري، أو كأني بكم عازمين على الصفع عن عدوكم! ومن هذين البديلين يجمل بكم أن تحرموه موكب النصر خير لكم من حسه عنه حسداً له وحقداً! الى هذا الحد بلغ بكم سوء النية، حتى تعيروا أذناً صاغية لرجل ليس في جسده الأملس الطري من فرط الراحة والعناية البيتية الزائدة - أثر ما للندبة

حين يقف أمامنا هنا منتقصاً من قيمة جزال ومطالباً بالحدّ من حقوقه، جنرال علمته جراحنا كيف يحكم على بسالة القادة وجبنهم».

قال هذا ونضا عنه ثوبه وعرض صدره العاري الذي ازدهمت فيه الندوب ثم دار على عقبيه ليكشف عن أجزاء أخرى من جسمه جرت العادة سترها. قم توجه بالخطاب الى [غالبا] قائلاً:
- لعلك تسخر بي لما أفخر به الآن أمام أخواني المواطنين؛ إنني ما أصُبت بها إلا في مجال خدمتهم التي اثبتتني على صهوات الخيل ليلاً ونهاراً. ولكن، اذهب فاجمع الأصوات وأنا في أثرك. وكن منتبهاً الى الوضع وناكر الجميل، والى من أثر الملق والمداهة على اطاعة أمر قائده.

قيل إن هذه الخطبة افحمت الخصوم والجمت ألسنة الجنود، وقلبت آراهم رأساً على عقب فبادرت القبائل الى اعلان مركب نصر لاميلوس وقد تمّ تنظيمه على الشكل التالي:

نصبت الجماهير منصات ومنابر في الفورم وفي ملاعب السركس Circus (وهو الاسم الذي يطلقونه على محلات سباق الخيل) وفي كل المواضيع التي يمكن رؤية المواكب منها. وأرتدى المتفرجون ثياباً بيضاء وفتحت ابواب المعابد جميعاً وكانت مزدانة بالاكاليل يفوح منها البخور والعطور. واخليت الطرق ومع المرور فيها وعين عدد كبير من ضباط الشرطة لحفظ النظام فكان يدفعون الناس الى الخلف ويمنعون احتشادهم في الطرق وعبورهم في الشوارع الرئيسية. ودام الموكب ثلاثة أيام كاملة. ولم يتسع اليوم الأول لكلّ ما خصص له، وقد شاهد المتفرجون التماثيل والصور والمنحوتات الضخمة التي غنمت من العدو وهي تمثل مختلف الآلهة؛ حملت على مائتين وخمسين عربة ومرت تباعاً.

وفي اليوم الثاني شاهد الجمهور رتلًا من عربات النقل أثقلت بأبدع الدروع المقدونية، الفولاذية منها والنحاسية. وكانت قد صقلت بهذه المناسبة فأخذت ترسل بريقاً يخطف البصر. وكانت قطع السلاح مكدسة كدساً ظاهره الاهمال وباطنه تدبير متعمد ينطوي على براعة. والقصد منها أن تبدو مكدسة كيفما أنفق فألقيت اللامات والحوذ فوق التروس، والبُرْد فوق طماقات الساق وطرحت الدرقاات الكريتية بعضها على بعض، والقيت دروع الصدر وكنائات النشاب التراقية بين جُم الخيل. وبررت من كل هذا ذبايات السيف عارية عن اغمارها، مختلطة بالحراپ المقدونية الطويلة. كانت هذه الأسلحة قد شدّت وحزمت بقدر من الرخاوة يسمح لها أن تصطق وتحتك فيخرج منها رنين حادّ وضجة مزعجة رهيبة، تبعث الخوف والرعدة في أوصال الناظر اليها، وان كانت غنائم من عدو مغلوب.

بعد هذه العربات أقل ثلاثة آلاف رجل يحملون فضة مصكوكة نقداً، في سبعائه وخمسين وعاءً كل واحد منها وزن ثلاثة تالنتات. ويحمله أربعة رجال، وتقدم آخرون يحملون آنية وأكواباً من الفضة رتب بنظام دقيق ليجعل منها منظراً بديعاً، وهي من التحف العجيبة من ناحية أحجامها ودقة صنعها وغرابة نقشها.

وفي الصباح الباكر لليوم الأخير تقدم الموكب نافخو الأبواق، يوقعون اللحن الذي يضره الرومان لتعريض الجنود على القتال، وليس الحان الموكب والاحتفالات الدينية والاستقبالات الرسمية. ثم تلتهم أرهاف من الشباب وعليهم معاطف سوداء مزركشة الحواف يقودون مائة وعشرين ثوراً مسمناً مطلية القرون رؤوسها مزدانة بالشرائط وأكاليل الزهر، ولحق بهم صبيان أبيض يحملون أوعية ذهبية وفضضية، تحوي القربان السائلة. وأعقبها رتل يحمل العملة الذهبية في أوعية وزن الواحد منها ثلاثة تالنتات وعددها سبعة وسبعون^(٤٨). ثم تلاهم حملة الوعاء المكس للآلهة الذي أمر أميليوس بصنعه وزنته عشر تالنتات^(٤٩)، وهو مكفّت بالاحجار الكريمة. ثم مرت أكواب (انتيفونس) و[سلوقوس Seleucuse]، والاكواب المصنوعة في تراقيا وصحاف الذهب التي كانت تستعمل في مائدة [پرسيسوس] وضع فوقها سلاحه ودروعه وعلاها تاجه. ثم انقضت فترة، بعدها أقتيد أولاد الملك الأسرى تحف بهم بطانة من خدمهم وحشمهم ومعلميهم وكلهم منخرطون في البكاء يرفعون إلى المتفرجين أيدي الضراعة. وكانوا يحثون الأولاد على أخذائهم في التوسل لاستدرا العطف وكان بينهم إبنان وبنت. حال صغر سنهم دون شعورهم بمقدار بؤسهم. وعدم الشعور هذا جعل حالهم أدهى إلى الألم والرتاء. فشخصت عيون الرومان المشفقة إلى الأحداث وسمرت فيهم بحيث لم يشعروا بپرسيسوس عندما مرّ، ولم يقو كثيرون على مغالبة دموعهم. تابع الجميع هذا المشهد بمزيج من الأسى والفرح حتى غاب الولد عن النظر.

ثم مرّ [پرسيسوس] وهو متشح بالسواد وفي قدميه حذاء مقدوني. وبدأ ذاهلاً شارد الذهن لظلم بلواه، وتبعه رهط كبير من أصدقائه وندمائه وقد قلب الغم سحناتهم، وحملوا المتفرجين على الاستنتاج من بكائهم ومن دوام تطلعهم إلى [پرسيسوس] بأنهم يحملون حظه العاثر معظم شكواهم، وانهم لا يكتفون بمصائبهم - وكان پرسيسوس قد رجا في اميليوس أن يجنبه هذا

(٤٨) بحساب پلوتارخ كان ثم ما وزنته ٢٢٥٠ تالنت من العملة الفضية، و٢٢١ تالنت من العملة الذهبية. وحسب ما أورده فاليريوس أنتياس فإن الكمية تزيد عن ذلك. ويقول فيليوس پاتروكلوس أنها ضعف هذا المبلغ. وربما كان قوله أصح من تقديرات غيره لأن النقود التي جلبت من مقدونيا حررت الرومان من دفع الصرائف لمدة (١٢٥) سنة.

(٤٩) هذا الإناء يزن ستمائة پاوند، لأن زنة التالنت الواحد تساوي ستين پاوند. وقد كُرس ل(جوبيتر).

الموقف ولا يدخله في مسيرة الموكب. فبحث اليه اميلبيوس الذي سبق له ان احتقر جبينه وتهالكه على الحياة - بجواب مفاده ان الأمر منوط به الآن كما كان منوطاً به في الماضي - وقصده أن يقول له أن هذا العار يمكن تفاديه بالموت، وهو ما لا قبل لهذا الرجل الخائر القلب به. فظهر مخشاً حياً لأمل ما يساوره، وسمح لنفسه أن يعرض كجزء من غنائه!

بعد هذا عرض اربعمائة تاج من الذهب الحاصل قدمتها لاميلبيوس وفود المدن تكريماً لنصره. ثم لاح [اميلبيوس] وهو جالس في عجلة حربية فخمة الزينة (رجل قمين بالنظر حتى وهو مجرد عن شارات السلطة) وكان متسريلاً بالأجوان المنسوج بخيوط الذهب. وفي يده اليسنى غصن من الغار، ومرّت خلفه قطعات الجيش كلها يحمل افرادها جميعاً أغصان الغار وهم في نظام الكتائب وال سرايا. وكان بعضهم ينشد القصائد التي تتخللها النكات التعليقات اللاذعة جرياً على العادة الرومانية في هذه المناسبات^(٥٠)، وراح بعضهم ينشد أغاني النصر، ومشيداً ببطولات [اميلبيوس] الذي كان معط اعجاب كل الرجال وتقديرهم. وأما الطيبون منهم فما كانوا يشعرون نحوه بأي حسد، إلا قدر ما قد تشاء ارادة أحد الأرباب الثقيل من سعادة عظيمة جداً ومفرطة فيعمد الى تعقيد شؤون الحياة البشرية بحيث لا يعود يخلص أحد من التوائب والمصائب. وقد صدق [هوميروس] وأجاد في قوله «إن الذين يعتبرون أنفسهم موضع ين وبركة، هم كل من كان حظّه من الخير والشر متساوياً»^(٥١).

كان لاميلبيوس اربعة ابناء، اثنان منهما تبنتهما أسرطان كما أسلفت وهما [سكبيوس] و[فابيوس] أما الباقيان اللذان اغبيهما من قرينته الثانية فقد نشأ في بيته. وتوفياً في مقتبل العمر. الأول مات قبل دخول ابيه طافراً بخمسة ايام وله من العمر اربعة عشر عاماً ومات الثاني بعد تمام موكب النصر بثلاثة ايام وله من العمر اثنا عشر عاماً. ولم يبق روماني واحد الا وهو عميق الشعور بما اعتلج في نفس اميلبيوس من آلام. ولم يبق من لم ترتعد فرائصه من قسوة الحظ. وعدم ترده في صبّ هذا القدر الكبير من الزح على بيت، كان تمتلئاً بالسعادة والبشر، حافلاً بالقرابين. وفي مزجه الدموع والحسرات بأناشيد النصر والظفر.

واهتدى اميلبيوس بتفكيره المجرد الى أن الشجاعة والاقدام ليسا مجرد الثبات امام السلاح والرماح، بل الصمود في وجه صدمات الحظ ونوائيه. ولهذا ثبت وكيف نفسه لهذه الاضداد والمتناقضات في أحواله، بتوجيهه الخير على الشر، وموازنة شؤونه الخاصة بشؤونه العامة،

(٥٠) اورد سوتونيوس في السيرة التي كتبها ليوليوس قيصر نماذج من أناشيد انشدت بمناسبة النصر الذي حققه على الغالين.

(٥١) يشير هنا الى فقرة من خطبة أحيلى الموجهة لبريham [الالبانة ٢٤: ٥٦٦].

ولم يترك أي مجال لاستلاب شيء من عظمة انتصاره، والحظ من شأنه، فما أن فرغ من مواراة ابنه الأول التراب حتى دخل في موكب النصر. وما أن أكمل مراسيم دهن موت الثاني بعد قام الموكب حتى يادر إلى عقد اجتماع عام وخطب في المواطنين خطبة رجل لا يحتاج إلى تعزية الآخرين، بل الآخذ على نفسه معونة أخوانه المواطنين في الضراء التي عاناها هو نفسه. قال:

- أنا الذي ما كنت أخشى قط كل ما هو بشري، ظللت دائماً أشعر برهبة وتخوف من تقلبات الحظ وغدره، ولهذا السبب بالذات كان الحظ في هذه الحرب يساير كل أموري مثلما تسير الريح الرخاء السفينة، وهو ما جعلني أتوقع تغييراً وتحولاً. لقد قطعت البحر الأيوني في يوم واحد وبلغت (كوركسيرا) مبحراً من (برنديزيوم Brundisium). ومن هناك وصلت (دلفي) بعد خمسة أيام وضحيته فيه. وفي خمسة أيام أخرى كنت بين عساكري في مقدونيا. وبعد أن أنجزت قربان تطهير الجيش المعتاد، بإشرت واجباتي فوراً وفي غضون خمسة عشر يوماً وضعت نهاية مشرفة للحرب. لكنني بقيت هدفاً لانقلاب الحظ عليّ، وأنا ماض في سبيل تصريف شؤوني السبيل المهد العظيم اليأس. كنت أخشى أكثر ما أخشى تغيير ربة الحظ عليّ وأنا آمن بعيد عن غائلة أي عدو. وانتابني الشعور بنفسه وأنا في عرض البحر أنقل جيشتي المظفر إلى ارض الوطن مع غنائم هائلة وملك أسير. والواقع أن الشك لم يبرحني حتى بعد عودتي اليكم سالماً ورؤيتي المدينة ترفل باثواب البهجة وتعمها الفرحة والبشائر وتفرط في تقديم القرابين وبقيت غير مطمئن، وأنا العالم الخبير بأن ربة الحظ لا تغدق النعم العظيمة إلا إذا ما زجتها النعمة وشابها الترح. ولم أستطع أن احرر ذهني من الخوف. وبقي فكري يكدح ويجاهد كشأنه دوماً ليتكهن بما سيحل من سوء بهذه المدينة، حتى سقطت هذه البلية عليّ بين اسرتي، وحملت إلى القبر جثمانني اعز وأغلى ابنين، هما خلفاي الشرعيين واحداً اثر الآخر وليس لي ثالث بعدهما - جرى ذلك في وسط الاحتفالات بالنصر. وأنا الآن شخصياً مطمئن، آمن من الخطر على الأقل فيما يحظى عندي بأعظم الاهتمام. واني في الواقع واثق ومقتنع بأن ربة الحظ ستبقى من الآن فصاعداً إلى جانبكم ولن تلحق بكم أي أذى بعد أن شفت غليل حسدها كاملاً من نجاحتنا الأعظم بما فعلته به وأخذته مني. لقد جعلت العاتق مضرب المثل في تغير حال البشر كما جعلت الأسير الذي قاده في موكب النصر، مع فارق واحد وهو ان (پرسبوس) وان كان مغلوباً - ما زال يتمتع باولاده، بينما حرم النصر عليه من هذا.

تلك هي الخطبة القيمة الرفيعة التي قيل ان اميلبوس وجَّهها إلى الشعب نابعة من قلب

مخلص، ليس فيه تصنع أو افتعال.

ومع اشفاق أميليوس على حال [برسيوس] ورعبته في بذل ما يمكنه من عون بما هو في حدود سلطته، إلا أنه لم يفلح في أكثر من العمل على نقله من السجن العمومي [الكورچير Corcer] الى مكان أكثر نظافة وأحفل بالراحة واليق بالشر. وذكروا أن [برسيوس] أُضرب عن تناول الطعام حتى الموت أثناء ما كان تحت الحراسة. وقال بعضهم أن موته كان من أعجب وأغرب ما حدث: فقد حفظ له حراسه الجنود ضغينه ويقضاً شديداً لسبب ما، ولم يجدوا طريقة لازعاجه ومضايقته أجدي من حرمانه النوم باقلاقه كلما اراد ان يخلد الى الراحة واستنبطوا حيلًا ووسائل لايقانه مستيقظاً على الدوام، فرق حسمه ونحل حتى مات^(٥٢). ولحق به اثنان من ابنائه بعد زمن قصير، وقيل ان ابناً ثالثاً له اسمه [الاسكندر] أصبح فتيماً بارعاً في تحت وحفر النماثيل الصغيرة. واتقن اللغة الرومانية قراءة وكتابة بما أهله الى وظيفة كاتب فضائية كان فيها مثالا للنزاهة وقُدوة في الاخلاص للعمل.

وعزوا الى اميليوس منفعة طيبة للشعب من جراء فتحه مقدونيا وهي المبالغ الطائلة التي صَبَّها في الخزانة العامة مما جلبه فأعفى الناس من اداء الضرائب الى عهد قنصلية [هريتيوس Hirtius] و[پانسا Pansa] ويصادف ذلك أول الحرب بين [قيصر] و[أنطوني].

ولوحظ أمر غريب عجيب في حياة [اميليوس] وهو انحيازه الدائم الى طبقة الاشراف رغم تعلق الشعب الشديد به وأجلالهم له ولم يؤثر عنه أنه قال أو عمل شيئاً ينطوي على تودد للجماهير، أو أستجلاب ارضائها، بل كان دوماً يقف في صف الأشراف في كل المسائل السياسية. وهذه هي المثلية التي قذف بها ابيوس [Appius] في وجه [سكيبو افرقانونوس] ابنه بعد زمن. كان هذان أقوى رجلين في روما وقتذاك، متنافساً على منصب الرقيب العام Censor أولهما يعضده الاشراف ومجلس الشيوخ وهو الحزب الذي لم يتخل عنه آل أبي Ap-pii مطلقاً. أما الثاني فقد ركن الى نفوذ عامة الشعب وتعلقه وعلى منزلته الرفيعة، وفي ذات يوم لمح [أبيوس] قادماً الى الساحة العامة يحف به أخلاط من الدهماء وعامة الناس ورهط ممن لم يَرَّ على عتقه وحرمة زمن طويل. إلا أنهم كانوا يمتازون بكفاءتهم في دخول أي حوار يعمل على جمع كلمة العامة واستخدامهم في تحقيق كل ما يطلبون بالضجيج والالحاف. فناداه بصوت جهير قائلاً:

- ايه يا اميليوس پاولوس! لو عرفت ما يحدث فوق الأرض، لما وسعك إلا اطلاق الزفرات في

(٥٢) أورد هذا [نيودورس الصقلي ٢٦]. وقيل ان [فيليب] توفي قبل ابيه، لكن لا يعرف متى كان ذلك واين؟ لأن كتب ليبي وديودورس التي تعالج هذه الفقرة - مفقودة.

ترك! فها هو ذا اسك يطمح الى وظيفة المراقب العام بمعاونة [اميلبيوس] الدلال العمومي
[ليجينبيوس فيليببيكوس Licinius Philonicus]!

لقد كان [سكبيسيو] أهدأ موضع ثقة الشعب لأن سيل فضله لم يكن ينقطع عنهم، ولكن
[اميلبيوس] اباه رغم بقاءه في صف الاشراف، كان يتمتع بمنزلة شعبية لا تقل بابه حاله عن
أكثر الناس أطلاقاً لثقة الشعب، وسعيّاً وراء حبه بمختلف الوسائل. لقد أظهرت الجماهير ذلك
عندما وجدته لائقاً لمنصب المراقب العام^(٥٣) فأثرت به دون كل الشخصيات الرفيعة التي
سعت اليه، وهي ثقة تعدّ في أعلى درجات القدسيّة لما تتضمن من سلطة عظيمة ناهيك
بتدخلها في شؤون أخرى. فللمراقب العام سلطة طرد أي عضو في مجلس الشيوخ وتعيين من
يراه لائقاً، بدلاً منه. وله أن يفرض عقوبة فضح الشبان المتعطلين بمصادرة خيولهم. ومن
سلطته أن يقوم أمراً لكل فرد لأغراض دفع الضريبة، وأن يقوم بإحصاء النفوس العام (بلغ
عدد رجال في الإحصاء الذي أجراه اميلبيوس عندما كان يمارس الوظيفة: ٤٥٢, ٣٤٧ رجلاً
بالغاً). وأعلن إسناد زعامة مجلس الشيوخ الى (ماركوس لبيبيدوس) الذي أكرم بهذا المنصب
أربع مرات قبلها، ورفع عن مقعد المجلس ثلاثة هم أقلّ الشيوخ منزلة وأهمية وأجرى مثل هذه
التعديلات في إحصاء طبقة فرسان الجيش الروماني بمعاونة زميله في الوظيفة (مارشيوس
فيلبيوس).

فيما كان اميلبيوس منشغلاً في كثير من الأمور الخطيرة، ابتلي بداء دلت أعراضه الأولى
على الخطورة، ثم تبين بعد زمن أنه ليس كذلك، على أنه كان مزعجاً مستعصباً. فابهر الى
[فيلبا Velia]^(٥٤) في جنوب إيطاليا للاستشفاء نزولاً عند نصيح أطبائه، وبقي قريباً من
البحر مدة طويلة مستمتعاً بكل ما اتّبع له من هدوء وراحة. في حين ظلّ الرومان يشناقون
الى عودته، وكثيراً ما عبروا عن مشاعرهم ورغبتهم في قدومه جهراً في الملاعب والمحلات
العامة. ثم انه دنا موعد تقديم قربان دينيّ دعت الضرورة اليه، وخيل لأميلبيوس أن جسمه
يقوى على المشاركة فيه، فعاد الى روما. وأنجز المراسيم الدينية مع بقية الكهنة. وكان الشعب
في أثناء ذلك يتكالب عليه ويحيط به حشوده لتهنئة بسلامة العودة وطيب المقام، وفي اليوم
التالي قرب الى الآلهة أعترافاً بفضلها في شفائه. وبعد انتهائه من ذلك عاد الى منزله وجلس
الى الطاولة ليتناول غداً، واذا بنوبة مفاجئة تعتريه فراح يهذي، ثم غاب عن الوعي تماماً وفي

(٥٣) انتخب لوظيفة الجسور مع [كونينوس مارشيوس فيليببيوس] بعد قنصليته الثانية بأربع سنوات. ومما

يذكر أن هذا المنصب استحدث في العام ٤٤١ ق.م.

(٥٤) يكتب بلوتارح «إليا Elea» هنا تفريقاً لها عن (فيلبا) ويقول انها مدينة إيطالية لئلا يخلط بينها وبين
سميتها في بلاد لاغريق

اليوم الثالث^(٥٥) لفظ انقاسه الأخيرة. وبذلك انتهت حياة لم تجد في أي غط أو أسلوب من الأشياء سبيلاً قد يؤدي بها إلى السعادة، حتى أن روعة جنازته كان فيها من الغرابة ما يستوقف النظر ويدعو إلى العجب. فلقد كُرِّمت جنازته وسجايه بالجليل المهيّب من المراسيم عند مواراته التراب إذ انها خلت من الذهب و ومظاهر الفخخة المعتادة في تلك المناسبات وحفلت بالحب والثقة والاحترام لا من أبناء وطنه وحدهم بل من الأعداء الذين قاتلهم أيضاً فقد تعاون على حمل نعشه والسير به كل الشبان الأشداء من الأسبان والليغوريين والمقدونيين^(٥٦)، وسار خلفه الطاعنون في السِّن منهم، يتنادونه بالمحسن اليهم والمحافظ على أوطانهم. لأنه كان يعامل المغلوبين بالعطف والتسامح، ولا ينفك في كل أدوار حياته يهتم بشؤونهم ويواصل بذل الخير لهم ويقضى لهم حاجاتهم كأنهم من ذويهم وأقربائه. وذكروا المؤرخون أن تركته لم تزد عن ثلاثمائة وسبعين ألف دراهماً خلفها لابنائه بالتساوي إلا أن أصغرهما [سكيبو] نزل عن حصته لأخيه لأن أسرة (أفريقانوس) التي تبنته كانت ذات ثراء عريض.

هذا ما جأنا عن حياة وسيرة أميلبيوس^(٥٧).

(٥٥) في ١٥٩ ق.م.

(٥٦) بعض النبلاء المقدونيين الذين كانوا آنذاك في روما. ويقول فاليريوس ماكسيموس [٢.٤:٢] أنه كان أشبه بمركب نصر ثان فقد حمل هؤلاء نعشه وهو منقل برسوم وأشكال تمثل مناظر من مزيمة بلادهم.

(٥٧) هناك مقولة واحدة وجهها لابنه (سكيبو) تستهل الذكر هنا: «الجرال الكف لا يبدء معركة إلا عندما يدفع إليها كضرورة لأبنتها».

أوجه المقارنة بين تيموليون وباميليوس باولوس

تلك قصتا حياة هذين الرجلين العظيمين، وهما عند المقارنة متشابهتان بدون شك باستثناء اختلاف بسيط للغاية. فقد حاربا عدوين قريين: حارب أحدهما المقدونيين ونازل نائبهما القرطاجيين. وكان نصرهما مجيداً. الأول انتزع مقدونيا من خليفة [انتيفونس] السادس في الملك. والثاني حرّر صقلية من الطغاة المقتصبين وأعاد إلى الجزيرة حريتها السالفة. إلا إذا كان سجلنا لاميليوس مميزة على صاحبه، وذلك باشتباكه مع جيش (برسيوس) الكامل العدة والعدد، المؤلف من رجال كثيراً ما تغلبوا على الرومان في سوح القتال. في حين كان تيموليون قد وجد خصمه (ديونيسيوس) في أسوأ حال، وأكثره بأساً. وبطريق المعادلة تقدّم تيموليون اميليوس لأنه قضى على حكم طغاةٍ عديدين، وسحق جيشاً قرطاجياً جراراً، بعدد تافه لا يذكر من الرجال الذين جمعهم من كل صقع وبلد وليس كجيش اميليوس المتجانس المؤلف من جنود نظاميين حسني الضبط عجم القتال عودهم وتعودوا الطاعة. خلافاً لجيش تيموليون الذي جمعهم إليه أمل الكسب والربح لا خبرة ولا مراس لهم في القتال تحكمت فيهم الفوضى وتعذّر قيادهم.

عندما تتكامل خاتمه الحروب بالنجاح، وتكون وسائل بلوغها غير متساوية فإن أعظم التقدير هو بالتأكيد، للقائد الذي حقق انتصاره بقوات أقل عدداً.

وكلا الرجلين عرفا برصانة الخلق، وحسن المسلك في معالجتهم كل ما عَنَ لهما من مهام وواجبات إلا أن اميليوس انفرد عن صاحبة بأن لشرائع وعادات بلاده التي ربي عليها وثقف منذ نعومة أظفاره بدءاً في صلاحه لتولى الشؤون العامة وتصريفها، في حين أن تيموليون كوّن شخصية محمودة وسعيه الخاص وهذا واضح: لأن الرومان في ذلك العصر كانوا على حدٍ سواء شعباً منظماً طائعاً يحترم القانون، ويتبادل أفرادُه الخضوع والانصياع بعضهم لبعض، بينما نرى والدهشة تأخذ بلسا أنه لم يخلص قائد واحد من قواد اليونان في صقلية من الفساد والتفصح باستثناء [ديون]، ولهذا كان الكثير يحقدون عليه، ويتهمونه كذباً بعمله على إقامة

نظام ملكي هناك، وفق النظام اللقبديموني. ويكتب [طيسماؤوس] أن سوء الحال أدى بالسيراقوزيين حتى إلى اخراج (غيليبوس Gylippus) من البلاد بصورة غير مشرفة له بعد أن دمر سمعته الذي لم يقف عند حدا ما ظهر منه عندما كان قائداً للجيش، ويورد كثير من المؤرخين حكايات عن الاعمال الشريفة القذرة التي ارتكبها [فاركس] السبارطي، وكاليبوس Callippus الأثيني لغرض نصب نفسيهما ملكين في صقلية. من هما هذا الرجلان؟ ماذا كانا يملكان من قوة ليندفعا إلى تحقيق فكرتهما هذه؟ كان أولهما تابعاً لديونيسيوس عند طرد الطاغية من صقلية. وكان ثانيهما أمر سرية مشاة مأجور، من مرتزقة (ديون) جاء معه إلى صقلية. لكن تيموليون أرسل نزولاً عند رجاء السيراقوزيين والملاحهم وجاء مزوداً بسلطة قائد ولم يكن بحاجة إلى من يؤمره لأن سلطة جاءت منقادة إليه برجاء وطلب. إلا أنه مع هذا تنازل عن سلطانه بملء رغبته فور اتمامه تحرير صقلية من الغاضيين المصطهدين.

وبما يستحق أعجاباً هو أن اميلبوس فتح مملكة مقدونيا الواسعة الغنية دون أن يلمس أو ينظر إلى مال، ولم يعد منها فلساً واحداً في حين عُرف بالكرم وسخاء اليد على الآخرين بكل ما يملك. وليس قصدي أن أصع علامة استفهام على تيموليون لأنه قبل منزلاً ومزرعة ثمينة في الريف، هدية من السيراقوزيين فليس قبولها مما يخلّ بقواعد الشرف، على أنه يكون أعظم شأناً ومجداً في رفضه لها. واسمى ما ترتفع إليه النفس هو عزوفها عن شيء لا غبار على أخذه، وبما أن أقوى الاجسام واصحها هي التي تستطيع احتمال صبراً الشتاء، وحمارة الصيف وقت تغير الفصول الفجائي بكامل اليسر، وبما أن أصح العتود وأشدّها ثباتاً هي التي لا تتورم بالرخاء والعيش الهنيء، ولا تذوي وتضمحل بالنوائب والملمات، لذلك نجد خلق اميلبوس بقي ثابتاً بارزاً على سلوكه وتصرفاته، ظلّ سامياً رفيعاً حتى عندما فقد ابنين عزيزين مثلما كان عندما حقق أعظم انتصاراته وفتوحه. في حين أن تيموليون بعد أن أنزل العقاب العادل باخيه وهو عمل بطولي لا جدال فيه، استسلم لحزن لا مبرر له وحط من قدر نفسه بالغم والكآبة وحرّم نفسه عشرين سنة، من الظهور في المحلات العامة أو ممارسة أي عمل سياسي.

والحق يقال أن من الحسن والجميل جداً أن يُشجّب أي عمل وضيع، ويقابل بالكره والاحتقار، أما أن يظل المرء عرضةً للخوف من أي شكل من أشكال الملام، أو التقرع، فهذا يدل على قلب رقيق سليم الطوية، ولا يدل على قلب باسل شجاع.

پیلوپیداس

PELOPIDAS

364 – 420 ق.م

سمع [كاتو الأكبر Cato Major] أحدهم يشني على آخر بالاقدام والجراءة التي لا حدود لها في المعركة فقال: «هناك فرق كبير بين التقدير الواجب للبسالة وبين الاستهانة بالحياة». وهو قول في غاية الصواب. فنحن نعلم على أقل تقدير أنه كان [لأنتيغونس] جندي مقدام لا حد لجراته وكان يشكو علناً وسقم بدن، فسأله عن سبب سوء حاله ولما علم بدائه أمر أطباءه ببذل جهدهم في شفائه. وما أن شفي البطل المغوار، حتى زابلته الجراءة وطلق ركوب الاخطار طلاقاً لا رجعة فيه ولم يعد يظهر ذلك الاندفاع الاهوج في المعارك. فعجب [انتيفونس] لأمره وأخذ يلومه على تبدل حاله، فلم يخف الجندي عنه السبب إذ قال:

- سبب جبني أنت يا مولاي! بانقاضي من ذلك البؤس والشقاء الذي كان يدفعني الى الاستهانة بالحياة.

وهذا الشعور نفسه كان يحدو السيباريتي Sybarite^(١) في قولهم عن السبارطين: إن استسهالهم الموت في الحرب، ليس مما يستوجب الاعجاب والتقدير، مادام ذلك يحلهم من عملهم الشاق وحياتهم البائسة. في حين كان الواقع يقضي على [السيباريت] وهم شعب رقيق خانع أن يكرهوا الحياة، لأنهم لم يكونوا يخشون الموت في اطلابهم المجد وشوقهم الى السؤدد. لكن اللقيديمونيين وجدوا أن سجاياهم تحقق لهم سعادة في الحياة وفي الممات سواءً بسواء. كما نجد في قول القائل:

ماتوا، لا استهانة منهم بدمائهم وارتخاهاً لارواحهم

ولا بتوهمهم أن الموت هو شيء حسن بذاته.

لم يكن من رغبتهم أن يعيشوا لا أن يموتوا،

بل أن ينهضوا باعبانهما، بصورة تستحق الشناء.

(١) مستعمرة يونانية أسست منذ زمن قديم في خليج تارنتوم كان موقع المستعمرة الجغرافي وغنى أهلها وقوتهم قد وصل بهم حتى الترف الذي ضرب به المثل. كانت عاصمتهم تدعى أولاً [سيباريس] من اسم النهر الذي يجري قربها، ثم أعدل الاسم بـ(يثوريوم) أو (يثوري).

والمجاهدة في اجتناب الردى ليس موضع لوم إن لم يكن الغرض من الحياة العيش الدنيء الذليل. وليست الرغبة في الموت من الخصال الحميدة إن كان الدافع إليها احتقار الحياة. ولهذا نجد (هوميرس) يحرص دوماً على أن يدفع باشجع ابطاله وأكثرهم أقداماً - إلى ميدان المعركة وهم مدججون بالسلاح الجيد. ولذلك كان المسترعون اليونانيون ينزلون العقوبات بأولئك الذين يتركون دروعهم ولا يعاقبون من يفقد رمحه أو سيفه، ففي عرفهم أن الدفاع عن النفس هو أقرب الصفات إلى الرجولة من الهجوم في المعركة. وهذا يصدق خصوصاً على حاكم المدينة أو القائد العسكري. وبحسب تصنيف (إفيقراطس [Iphicrates] ^(٢)) إذا كانت القطعات الخفيفة بمثابة اليدين للجيش وإذا كانت الخيالة بمثابة قدميه والمشاة بمثابة صدره، فإن القائد هو الرأس. وعندما يقتحم القائد مواطن الخطر، لا يخاطر بحياته وحدها بل بكل من تعتمد سلامتهم على سلامته، والعكس بالعكس. لقد كان (كاليكراتيداس [Callicratidas] عظيمًا في كل شيء، سوى الخطأ الذي تضمن جوابه لكاهن تصحه بأن يمتيه لسلامته لما بدأ في قربانه من دلائل غير طيبة. فقد قال «في هذه الحالة لن تفقد سيارطاً رجلاً واحداً». الحق يقار أن (كاليكراتيداس) ليس غير فردٍ واحدٍ عندما يشارك في معركة برية أو بحرية، أنا بوصفه جنرالاً فهو يجمع في حياته حياة الكل، ويصعب أن يعتسر فرداً واحداً إذا أدى موته إلى دلاك عدد كبير. وخير من هذا الجواب، جواب (انتيفونس) الشيخ عندما اضطر إلى القتال دي (اندروس). فقد قال له أحدهم «إن سفن الأعداء تزيد سفننا عدداً» فأجابه قائلاً «وأنا؟ بكم من السفن تعدّني؟» يقصد بهذا أن القائد المحارب الباسل تقويمه بالكثير. ومن الواجبات الأولى التي تحتّمها وظيفته هو المحافظة على نفسه فباتقازها من الخطر انقاذ من تعتمد سلامتهم على سلامته. وانه لا يسعني إلا الاشارة (تيموثيوس [Timotheus]) الذي قال لـ(خاريس [Chares]) عندما كشف له عن الجراح التي أصابته وترسه المخروق بسنان رمح:

- على أنني كنت أشعر بالحزي والعار في اثناء حصار ساموس عندما سقط رمحٌ بالقرب مني، لأنني انكشفت للعدو مثل صبيٍّ غريب وأنا جنرال أقود جيشاً عرمرماً.

الحق يقال ان مخاطرة الجنرال بحياته لا غبار عليها إن كانت تصل إلى حدّ تقرير نتيجة فاصلة. فهنا ينبغي عليه أن يقاتل بنفسه ويقامر بحياته غير مبالٍ بالعواقب المحتملة التي قد تجعل قائداً يموت في ارذل الشيخوخة على الأقل، إن نجعله يموت بسبب الشيخوخة. أما إذا كانت الفائدة من اقدامه قليلة، والخسارة من سقوطه كبيرة، فمن يرغب في أن يخاطر بحياة جنرال، لأجل الحصول على نجاح جزئي يستطيع ان يحزره اي جندي بسيط؟

(٢) جنرال أثيني شهير. كان مغموراً إلا أن أعماله رفعت في صيته

هذا، حسب اعتقادي، ما يحذر بي أن أوظي به لسيرة كل من [پيلوپيداس، ومارچلوس] وكلاهما من عظماء الرجال، وكلاهما سقطا بسبب اقدامهما وبسالتهم. كانا من الشجعان المعدودين وكساً لئلاديهما انتصارات عظيمة ورفعاً من شأنها لحسن بلاتهما في الحرب ضدّ عدوين رهيبيين. فالتاريخ يذكر عن ثانيهما دحره [لهنيبعل] وهو في أوج قوته. وأولهما هزم اللقيديميبيين في معركة فاصلة حينما كان هؤلاء سادة البحر والبر. إلا أنهما خرقاً كل حدّ في تهورهما وارتخصا الحياة بطيش لا مثيل له في حين كان الحاجة الى أمثالهما من القادة ماسة جداً. إن الشبه الذي يجمع بين خصالهما، وأتفاق ميّتيهما دفعني الى أن أقرن ما بين سيرتيهما.

انحدر پيلوپيداس ابن [هيپوكلس Hippocles] من أسرة شريفة في [ثيبه]، مثل [إپامنداس]. ونشأ في خفض من العيش ورغده وورث وهو صغير مالاً كثيراً. فجعل همّه التفرّج عن ضيق المستحقين من الفقراء، مبرهنّاً على أنه سيد ماله لا عبداً له. وقد رأى افلاطون «أن من الرجال فريقاً ضاق عقله عن استعمال ثروته. وفريقاً من السفهاء اساء استخدامها. فالأول يعيشون عبيداً مغلدين لأرباحهم، والأخيرون يظنون دوماً عبيداً للملازم وشهواتهم». وهناك فريق ثالث من قبيل من سمح لنفسه أن يتنعم بوجود پيلوپيداس شاكراً كرمه وعطفه ألا [إپامنداس] صديقه، فانه لن يستطيع اقناعه بشيء مما يملك من دون سائر اصدقائه، فلم يرَ بداً من النزول الى مستوى فقره، وجدان الرضى في لبس الثياب الرثة مثله، وتناول طعامه التافه وأحتمال المشاق لا يهن، وأبداء جرأة لا تعرف احجاماً في ميدان الحرب. وكان مثل [كپانيوس Capaneus] في يورپيدس: «يملك ثروة طائلة، ولا تراه يفخر بها»

اذ يدركه الخجل ويفضل حياة إپاننداس المنفردة وتفلسفه. أصبح فقره العتيد الموروث أخفّ وأسهل حملاً. إلا أن [پولپيداس] تزوج امرأة من أسرة رفيعة وأنجب أولاداً، ومع هذا فقد بقي لا يفكر في مصالحه الخاصة إلا تفكيراً ثانوياً، وانصرف انصرافاً تاماً الى معالجة المسائل العامة، فضيع ثروته. فلما توجه اصدقائه بلومه، والتأكيد على ضرورة المال الذي أهمل شأنه، أجابهم قائلاً:

- أجل، فهو ضروري لتيقوديموس Nicodemus. مشيراً الى رجل مقعدٍ ضريب.

وبدأ كلاهما مزهليين بطبعهم لكل أسباب المعالي والبروز. على أن [پيلوپيداس] فضّل الرياضات البدنية بينما شغل [إپامنداس] بالدراسة والعلم. وكان أولهما يقضي ساعات فراغه في الصيد والاحتلاف الى الهاليسترا Palaestra (مدرسة المصارعة)، والثاني كان

يُداوم سماع المحاضرات وممارسة التفلسف؛ ومن آلاف المزايا الجديرة بالثناء فيهما، التقدير المعقول الذي لا يوازيه شيء، لتلك الرغبة الدائمة في عمل الخير والصدقة التي صانها من كل ما يشينها في حملاتهما العسكرية، وأعمالهما العامة، وفي فترة حكمهما الجمهورية. فلو نظر أي شخص إلى حكم [أريستيديس مع ثومستوكلس]، و[اسيون مع بيركلس] و[نيسياس مع الكيبادس] لهالة الفوضى والحقد، والتباغض الذي كان يسود علاقة كل زميلين. ولو تحول بنظره إلى [بوليبيداس وإپامنداس] وتأمل العطف والاحترام الذي كان يظهره أولهما للثاني، لما وسعه إلا الاقرار بأنهما أفضل قرنين وأكثرهما انسجاماً في الحكم والقيادة، وأحق وأحق بالتجلة من الآخرين الذين كانوا أكثر انشغالاً في مناصبة العدا، بعضهم لبعض، من منازحتهم لاعداء البلاد. ويعود السبب الحقيقي في هذا إلى خصالهما الحميدة وأخلاقهما العالية، فهما لم يجعلوا الثروة والجاه هدف مساعييهما - وهو هدف لا بدّ يؤدي إلى الشنآن المنطوي على التنافس والخصام - بل كانا من البداية موطئي النفس بدافع سام على أن يريا بلادهما تنعم بامجاد أعمالهما. ولهذا الغاية جتّد الواحد منهما موهلات الآخر واستخدم كما لو كان واستخدمها موهلاتهما معاً ويرى كثيرون أن جبل الودّ المتين هذا قد شدّهما منذ معركة [مانتينيا] ^(٣) التي شاركها فيها جنباً إلى جنب. إذ كانا بين أفراد النجدة التي أرسلتها [ثيبه] لتعزيز صفوف اللقيديمونيين اصدقائها وحلفائها في ذلك الحين. فقد وضعاً في صف المشاة معاً واشتبكا مع الاركادين. فانكفاً الجناح اللقيديموني على اعقابهم وفرّ عدد كبير. فما كان منهما إلا أن ضمّاً ترسيهما وصمداً في وجه المهاجمين. فأصيب [بوليبيداس] بسبعة جراح أمامية، وخرّ صريعاً فوق كومة من قتلى الجانبين. ومع أن إپامنداس عدّه في حكم الميت، فقد تقدم للدفاع عن سلاحه وجثته، وحارب جمهرة كبيرة من الاعداء بمفرده. مفضلاً موته على التفريط بصديقه الساتس. وخارت قواه لاصابته بطعنة رمح في صدره وضربة سيف في ذراعه، فخفّ ملك السبارطيين [أغيسيبوليس Agesipolis] من الجناح الثاني إلى مجدته وأنقذهما في آخر لحظة.

بقي اللقيديمونيون بعد هذا، يظهرّون الصداقة (الثيبه) ^(٤)، وهم في الواقع ينظرون نظرات

(٣) علينا أن لا نخلط بين [إپامنداس] فذلك كانت عزمًا على اللقيديميين وهذه كانت غنماً. وربما وقعت المعركة موضوع حديثنا في السنة الثالثة من الالولبياد الثامن والتسعين [ديودورس ٢٥ ٥].

(٤) وجدت سبارطا طوال حروب الپلوبيونيسي حليفاً مخلصاً في الثيبين. وبمساعدة سبارطا استعاد هؤلاء حكمهم على بويوتيا التي كانوا قد فقدوها بسبب هزيمتهم أمام الفرس. وبالأخير تماطلت قوتهم وجبروتهم حتى انهم رفضوا عقد معاهدة سلام مع انتلقيداس ولم يقللوا إلا بعد أن أرغموا. وعلمنا من [بوليبوس] أن اللقيديميين خلال فترة الساعه تلك لم يسحبوا حامياتهم من أية مدينة أغريقية رغم انهم أعلموا هرية تلك المدن.

الشك الحاقدا الى تنظيمات المدينة وقوتها. وكان بعضهم منصبا بالدرجة الأولى على حزب (ايسمنياس Ismenias) و (اندروقليدس Androclides) الذي ينتمي اليه بيلوبيداس، وهو حزب يهيج منهج التقدم ويعمل على ارساء دعائم الحريات لمواطني المدينة. ولذلك استمر به كل من (ارخياس Archias) و (ليونتيدياس وهيليب) وهم من الاثرياء ذوي المطامع الاشعبية الذين ارادوا إحلال النظام الاوليفارشي، فطلبوا من (فيوبيداس Phoeipidas) القائد السبارطي وكان ماراً بالمدينة بقوات كبيرة^(٥)، أن يفاجي، (قادميا Cadmea) ويشتت شمل الحزب المعارض لهم ويبعد اعضاءه عن البلاد لاقامة نظام حكم اوليفارشي، وبهذه الوسيلة يتم اخضاع المدينة لسلطان السبارطيين. فقبل باقتراحهم، وفأجاء، الشيبين في عيد (كسبريس)^(٦) من حيث لا يتوقعون واستولى على القلعة. وقبض على (ايسكنياس) وحمل الى سبارطا وهناك قتل بعد زمن وجيز. لكن بيلوبيداس، وفيرينيكوس واندروقليدس وعدداً كبيراً آخر تمكنوا من الفرار، فأعلنوا رسمياً بأنهم خارجون على القانون. وبقي ايامنداس في البلاد اذ لم يكن الطلب عليه شديداً فقد جعلته الفلسفة خاملاً، وأحاله الفقر عاجزاً.

وعزل اللقيديميون (فيوبيداس) وفرضوا عليه غرامة قدرها مائة وخمسون ألف دراخما، إلا أنهم لم يسحبوا حاميتهم من ألقاديميا وابقوها. فراح كل الأغريق يعجبون للتناقض بعد أن عاقبوا الفاعل، ووافقوا على الفعل. ومع أن الشيبين الذين فقدوا استقلالهم، وأضوا عبيداً لأرخياس وليونتيدياس لم يعد لديهم أي أمل في التحرر من هذا الطغيان الذي وجدوا كل قوة سبارطا العسكرية تحرسه، ولا وسيلة عندهم لكسر النير إلا إذا أمكن ازاحة هؤلاء من سيطرتهم على البحر والبر، فإن ليونتيدياس وعصابته، علموا أن المبعدين يعيشون في اثينا مقدرين من الأهالي ويحترمهم كل الأخبار والطيبين فبادروا الى الانتماء سراً بحياتهم وأغروا بعض الاشخاص المجهولين فنجحوا في اغتيال (اندروقليدس) إلا أنهم لم يفلحوا في الباقيين. وبعثوا ابضاً برسائل من سبارطا الى الأثينيين، حذروهم فيها من ابواء المبعدين أو تشجيعهم باية صورة. بل أن يعملوا الى طردهم بوصفهم اعداء الذاء للإتحاد الاغريقي. إلا أن الأثينيين لم يلحقوا أي أذى بالشيبين اللاجئين تدفعهم الى ذلك ميولهم الطبيعية الموروثة الى العطف ومجازاة الشيبين عن جميلهم في الماضي فقد ساعدهم هؤلاء كثيراً في المحافظة على نظامهم

(٥) كان [فوبيداس] يزحف على مدينة [اولينثوس] في الوقت الذي أخذه أخوه [افيدوميداس] يضيق عليها الخناق بحيشه اللقيديمي وبعدها قام ليونتيدياس أو ليونتياداس أحد البوليمارخيين - بتسليم مدينة ثيبته وقلعتها [كرزيغون الهلينيون ٥].

(٦) أو عيد تسموهوريا. يحتفل النساء بهذا العيد في كارميا. وهو أكبر أعياد التي تقيمها الاغريقيات ويحيين فيه أيضاً ذكرى أعظم مركبتين خص بهما البشر وهما الزراعة وسر

الديمقراطي وأصدروا مرسوماً عاماً بما مفاده كلُّ أثيني يجتاز [بويوسيا] مسلحاً لغرض مقاتلة الطغاة، على أي بويوسي أن يتقاضى عنه كأنه لم يره ولم يسمع به».

ومع أن بيلويداس كان من أصغر أعضاء الحزب سناً، إلا أنه كان من انشطهم، لأثني الاتصال بكلِّ مبعد على حدة سراً فبثير حماسته، وكثيراً ما كان يخطب في اجتماعاتهم قائلاً أنه لمن العار والحقارة إهمال بلادهم المستعبدة المحتلة والقناعة بالعيش هكذا عيشة التعطل والأمان والكسل معتمدين على مراسيم الحكومة الأثينية، متبصبين بدافع الخوف لأي خطيب معسول اللسان، قادر على استمالة الجمهور: كلاً أبداً، بل ينبغي عليهم أن يخاطروا في سبيل هذا الهدف العظيم ويتخذوا لهم مثلاً وقودة من شجاعة [تراسيبولوس - Thrasybulus] النادرة. وكما أنه زحف من [ثيبه] وكسر شوكة الطغاة الأثينيين، فعليهم أن يزحفوا من أثينا ويحرروا [ثيبه]. ونجح في اقناعهم بهذه الطرائق والأساليب فبعثوا سراً إلى ثيبه ببعض الأشخاص إلى جملة من الاصدقاء، ما زالوا في المدينة، وكشعوا لهم عن خططهم، فتمت الموافقة عليها وعرض [خارون Charon] وهو شخصية بارزة جداً - منزله لاستقبال المؤقرين. واحتال أحدهم المدعو [فيليداس Phillidas] على أن يُعين بمنصب كاتم سرِّ لكلِّ من [الرجناس وفيليبس] وكانا في ذلك الحين يملآن وظيفة [البوليمارخ] أو القائد العام. وكان إلامنداس قد نجح في إثارة حماسة الشباب. إذ كان يشجعهم في أثناء التمارين الرياضية على تحدي السبارطيين والدخول معهم في حلبة المصارعة. فإذا ما وجدهم يترنحون بنشوة انتصاراتهم وفوزهم. خاطبهم بحدة وقسوة بقوله أنه لمن العار الكبير أن يصل بهم الحين إلى الحد الذي لا يتورعون عن خدمة من لا يفوقهم بالقوة.

وحُدِّد يوم التنفيذ وأتفق المبعدون على أن يمكث [فيرنيكوس] في السهل الثرياسي - Thriasian^(٧)، في حين يتفحم أولُ الخطر فئة قليلة من الشباب بمحاولة دخول المدينة. فإذا فاجأهم العدو وقضى عليهم فعلى الآخرين أن يُعموا بأولادهم والأبوين. وعرض بيلويداس نفسه أولاً، وتبعه [ميلون Melon] و[داموقليدس Damocles] و[ثيويومبوس]، رجال من أسر عريقة المحتد بحبٍ رخلص بعضهم لبعض إلا في اطلال المجد واطهار الشجاعة فهم خصوم دائمون يناقش أحدهم الآخر. وكانوا اثني عشر فقط، ودعوا أصحابهم الباقين وبعثوا برسول إلى [خارون]، ثم انطلقوا في سبيلهم يرتدون معاطف قصاراً ويحملون عصيَّ صيدٍ ويجرون كلاب صيدٍ ليبدوا بمظهر صيادين يتجولون في الحقول بحثاً وراء صيدٍ، وبذلك يبعدون عنهم شبهة كلِّ من يلتصق. ووصل رسولهم إلى [خارون] وأخبره بأن أصحابه سيصلون وشيكاً فلم يشن

(٧) ثرياسيوم هي مدينة بالقرب من جبل [كيشيرون].

الخطر (خارون) عما اعترمه وبقي محافظاً على كلمة الشرف التي قطعها مقدماً مرله لايوا، المؤقرين القادمين. على أنه كان يوجد شخص اسمه [هيبوستينيداس Hipposthenidas]، وهو رجل ذو مبادئ قوية لا عبار عليها، محب لوطنه، صديق للمعدين، إلا أنه كان يفتقر الى العزم والارادة التي تتطلبها طبيعة العمل المفروض وقصر الوقت. ولذلك تهوّل المغامرة الوشيكة وبدأ الآن لأول مرة يتحسب للأمر؛ فوجد القصية تنحصر في الاعتماد على تلك القوة الضعيفة التي سيقدمها المبعدون للقيام بعمل لا يقل عن الاطاحة بالحكومة والتغلب على كل قوة سبارطا، فانسّل الى منزله وبعث بصديق له الى [ميلون وپيلوبيداس] ينصحهم بالعدول عن المغامرة مؤقتاً والعودة الى اثينا تربصاً بفرصة أفضل، فعاد الرسول المدعو (خليدون Chlidon) الى بيته مسرعاً وأخرج جواده وسأل عن السرج. ولما كانت زوجه تجهل موضعه، ولم يظهر له أثر منذ أدعت أنها اعارته لصديق فبدأ يتلاومان ثم انتقلا الى التلاعن ودعت عليه زوجته أن تكون سفرته نحسة له ولكل من أرسله وهكذا أمتد الخصام بهما حتى وجد (خليدون) أن عاطفته ضيّعت عليه الجزء الأكبر من يومه. وعندها رأى في ذلك نذير شؤم فعدل عن التفكير في الرحلة، وانصرف الى شأن آخر. فتأمل كيف كاد الفشل يحقق بهذه المشاريع المجيدة والعظيمة في ساعة مولدها الأولى.

وأنقسم [پيلوبيداس] وصحبه الى قسمين، وكانت الدنيا نهاراً عندما دخلا المدينة من طريقين مختلفين وهم مرتدون ثياب الريفيين. وكان اليوم عاصفاً ثم أخذ الثلج يسقط وهذا ما ساعد في اخفائهم كثيراً لأن معظم الناس أووا الى بيوتهم بسبب سوء الطقس. وأستقبلهم شركاؤهم في الداخل، حال وصولهم وقادوهم الى منزل (خارون) فأجتمع فيه من المعبدین وغيرهم ثمانية واربعون لا غير. وكان خطة القضاء على الطاغية بهذا الشكل: ذكرت قبلاً أن كاتم السرّ [فيلليداس] هو شريك للمعدين ومطلع على كل تدابيرهم، وقد دعا ليلة التنفيذ الى داره [ارخياس] وآخرين الى وليمة مجلس وشراب وأستقدم بعض نسوة المدينة لهذا الغرض. حتى اذا لعبت الخمرة بالرؤوس وانصرف المدعوون الى ملاذهم أعطيت الإشارة الى المؤقرين للايقاع بهم، وتم ذلك كما رسم ولكن قبل أن تسري نشوتها في اوصال [ارخياس] تماماً أبلغ بأن المعدين قد دخلوا المدينة سرّاً. وكان بلاغاً صعيحاً طبعاً لكنه غامض غير مؤكد تماماً؛ ومع ذلك بذل [فيلليداس] مجهوده في تحويل مجرى الحديث الى موضوع آخر، إلا أن [ارخياس] أرسل أحد حراسه الى (خارون) يطلب حضوره فوراً وكان الوقت ليلاً وپيلوبيداس واصحابه قد أكملوا التأهب للعمل وهم في المنزل بعد. ودق الباب فجأة بعد أن اثما لبس دروع الصدر وشدوا انطقة السيوف، فتقدم أحدهم من الباب ليسأل عن الأمر، ولما علم من

الحرس أن [البوليسارخ] طلب احضار [خارون] عا د في غاية الاضطراب ليطلع الآخرين، فتوهوا حالاً أن المؤامرة كلها قد افترضت، وانهم سيمزقون إرباً قبل يتمكنوا من تحقيق أي عمل يثبت بسالتهم على الأقل: على أنهم اتفقوا جميعاً، بوجوب اطاعة خارون للأمر والذهاب الى [البوليسارخ] دفعاً للشك. وكان [خارون] والحق يقال شجاعاً جميع القلب ثبت الجنار في وجه الخطر، إلا انه كان في هذا الموقف شديد القلق لشلا يظن به اصحابه المؤثرون، ويوصم بالخيانة ويحمل وزر موت هذا العدد الكبير من أهبل المواطنين. لذلك عمده الى احضار ابنه بعد أن استعدّ للرحيل - فجيء به من جناح النساء وكان صبيّاً حدثاً لكنه بدأ أجمل وأقوى كل من هم سنّه. فأخذوه ودفع به الى [بيلوينداس] قائلاً:

- إن وجدتموني خائناً، فعاملوا هذا الصبيّ معاملة عنوّ لا يستحق اي رحمة!

إن هذا الحرص الذي ابداه [خارون] استدّر الدمع من عيون الكثيرين. واحتجّ الكلّ بشدة على وصول الأمر به الى حدّ افتراض سوء النية والحطة باي واحد منهم عند ظهور الخطر الداني الى درجة اللوم والشك في أخلاصه وابوا عليه أن يدخل ابنه في المسألة، وان يبقيه بعيداً عن مكان الأذى: فلعله يحصل من غائلة الطاغية ويعيش ليشار للمدينة واصدقائه؟ على أن [خارون] رفض نقله الى محل أمين وتساءل قائلاً:

- أي حياة وأي سلامة تكون أشرف من الموت مع أبيه ومع مثل هؤلاء الصاحب الكرام بشجاعة واقدام؟

وبعد أن دعا الآلهة لحمايته، وحيّاهم جميعاً وشجعهم، انصرف وهو يعمل الفكر ويقلب وجوه النظر، مخفّطاً من صوته وساتراً من سيماته ما من شأنه ان يفصح، ومظهراً أقل ما أمكنه كما يضره في نفسه.

وعندما بلغ الباب خرج اليه [ارخياس] مع [فيليداس]، وقال له:

- سمعت يا خارون بقدوم بعض الرجال الى المدينة قبل قليل، وانهم يتجولون في انحائها وأن بعض الناس ينضمون اليهم.

فانتاب [خارون] الاضطراب، إلا انه سأل:

- من هم؟ من يخفيهم؟

ولما وجد أن [ارخياس] ليس على علم تام بالقضية استنتج أن المؤامرة لم تكشف، وان المعلومات التي وصلته لم يكن مصدرها أيّ مساهم مطلع، وعندئذ قال له

- لا تزعج نفسك بهذه الاشاعات الفارغة: وعلى أية حال فسوف اتحقق منها بنفسي إذ ينبغي

الآ بهمل أي خبر من هذا القبيل.

فما كان من [فيليداس] الواقف إلا وطفق يشي عليه ثم أعاد ارخياس الى مجلسه وسقاه حتى اتمله، ومد من أجل الوليمة ليكون ختامها صحبة النساء. وعندما عاد [خارون] وجد الرجال مستعدين لا كالمؤمل بالسلامة والفلاح، بل كالمتهاب للموت بشجاعة بعد أن يوقع مذبحه بالاعداء. فأبلغ [پيلويداس] والآخرين بحليلة الأمر، لكنه ادعى امام آل بيته بأن [ارخياس] طلبه لشأن آخر وأخترع حكاية مناسبة ولكن ما ان أوشكت هذه العاصفة على الختام حتى دفع «الحظ» بأخرى فقد اقبل رسول الى [ارخياس] يحمل اليه رسالة من سميه [ارخياس] كاهن الأسرار [الهيروفانت Hierophant] في اثينا. وكان صديقاً له ومستضيفاً. ولم يكن مضمون الرسالة مجرد شكوك غامضة عابرة، بل حقائق ثابتة كشفت عن تفاصيل الحطة كلها كما تبين ذلك فيما بعد. فجيء بالرسول أمام [ارخياس] الذي كان في حالة سكر شديد فسلمه الخطاب قائلاً:

- يرغب المرسل ان يقرأ خطابه فوراً، إنه يتعلق بموضوع هام جداً.

فأجابه [ارخياس] باسماء:

- الأمور الهامة غداً!

وتناول الخطاب ودسه تحت الفراش، وعاد يستأنف ما انقطع من حديث مع [فيليداس]. وذهبت كلماته هذه مثلاً عند الأغريق حتى يومنا هذا.

عندما بدت الفرصة مناسبة للعمل انطلق المؤتمرون بفرقتين، واتجه [پيلويداس] وداموقليدس وجماعتهم المداهمة [ليونتيداس وهيباتيس Hypates] ^(أ) وكان منزلاهما متجاورين. وأنطلق [خارون وميلون] الى حيث [ارخياس وفيليب] وقد غطى جميعهم دروع صورهم بثياب النساء ووضعوا قلائد كثرة من الصنوبر والشرين أخفاء لمعالم وجوههم. وما وصلوا الباب حتى أخذ المدعوون يصعقون ويهللون، متصورين انهم النسرة اللاتي كانوا يتوقعونهن. ودخل المؤتمرون وأجالوا بصرهم في الغرفة ليتشبهوا من كل الموجودين، ثم انتضوا سيوفهم وتقدموا من [ارخياس وفيليب] بين الموائد وكشفوا عن هوياتهم. وأقنع [فيليداس] فئة قليلة من المدعوين بالهدوء. أما الذين حاولوا مساعدة [الپوليسارخ] فقد سهل قتلهم لحالة السكر فيهم إلا أن مهمة [پيلويداس] ورهطه، كانت اصعب من مهمة زملائهم. فقد

(أ) لم يدع هؤلاء للحفل لأن [ارخياس] الذي كان يتوقع لقاء امرأة رفيعة المقام، لم يختر أن يرى ليونتيداس هناك

قصودوا [ليونتيدياس] وهو رجل عظيم القوة أريب، ووجدوا باب منزله مغلقاً وقد آوى الى فراشه، فطرقوه زمناً طويلاً دون مجيب وأخيراً سمعهم أحد الخدم فحاء ورفع المزلاج فأنفذوا الى الداخل فور فتحه، وأزاحوا الخادم جانباً وأسرعوا الى حجرة [ليونتيدياس]، وأدرك من الضجة والركض، حقيقة ما يقع فهب من فراشه قائماً وأشهر خنجره إلا أنه نسي إطفاء النور ليعرقلهم ويجعل المهاجمين تائهين يقع أحدهم على الآخر في الظلمة. وهكذا استقبلهم في غرفته المضيفة وهو بالباب وطعن أول الداخلين وكان [سكفيسودورس Cephisodorus] وعند سقوطه التحم بالناسي وهو بيلوبيدياس، وكان المر ضيقاً وجسد سفسودورس يعترض السبيل، وتلا ذلك صراع عنيف وحشي، وأخيراً تغلب بيلوبيدياس وبعد أن قتل [ليونتيدياس] خرج وجماعته يريدون هيباتس وأقتحموا بيته بالطريقة نفسها، فعرف بما هو مبيت له وهرب الى الجيران، إلا أنهم لحقوا وادركوه وقتلوه.

وبعد ذلك انضموا الى [ميلون]، وبعثوا يستعجلون المنفيين الذين تركوهم في [آتيكا]. وأعلنوا حرية المواطنين الثيبين^(٩)، وانزلوا الخنائم من الأروقة. وكسروا ابواب مخازن صانعي الاسلحة القريبة وسلحوا من جاء لصرتهم. وأقل [أپامنتداس وغورجيداس Gorgidad] وهما شاكياً السلاح يقودان جمهرة من الشباب المدفع الملتهب حماسة، ومن خيرة كبار السن، وساد المدينة هياج عظيم وضربت الفوضى اطنابها، وامتلاّت ضجيجاً وحركة، وأشعلت الأنوار في كل بيت، وراح الناس يتراكمون هنا وهناك، على أن الأهليين لم يجتمعوا كتلة واحدة فقد صعقوا لما حدث، وجعلوا حقيقة ما يجري بالضبط. وفضلوا التريث وانتظار ما سيأتي به الغد. ولذلك اتجه الاعتقاد بان الضباط السپارطيين أخطأوا بوقوفهم موقف المتردد وعدم مهاجمة المؤتمرين بينما كان تحت امرتهم حامية تتألف من ألف وخمسمائة مقاتل فضلاً عن كثير من الأهليين الذين لجأوا الى القلعة، إلا أنهم يتحركوا من القلعة وهم قلقون للضجة والحرائق، وتراكم الناس. وما أن ابلىح الصبح حتى كان المبعدون القادمون من آتيكا، داخل المدينة وكلهم شاكو السلاح. وعقد اجتماع شعبي عام بمسعى من [أپامنتداس وجورجيداس] وقدموا الى الشعب [بيلوبيدياس] ورهطه يحف بهم الكهنة وبايديهم قلائد الزهر، وانثى هؤلاء يحضون الشعب على القتال في سبيل الوطن والآلهة، فهب المجتمعون دفعة واحدة عندما بدوا لهم واستقبلوهم بالهتاف والتهليل، ورحبوا بهم كما يرحبون بالمنقذين.

وما أن تقرّر انتخاب [بيلوبيدياس] قائداً عاماً [البويثيا]، حتى باشر بالتعاون مع [خارون

(٩) وكذلك قام بيلوبيدياس بإرسال [فيلبيدياس] الى جميع سجون المدينة لأطلاق سراح شجعان الثيبين الذين اعتقلهم الطغاة السپارطيون وكنبوهم بالاغلال.

وميلون] بالفاء الحصار على القلعة ومداهمتهما بهجوم من كل الجهات لتحريرها، وكان مستعجلاً في ذلك لئلا يحرج جيش من سبارطا لانجاء من فيها^(١٠٠). وقد نجح في مسعاة بعد أن كار على قاب قوسين من المشل، إذ وافق على شروط خروج السبارطيين ورحيلهم عن البلاد، وفيما هم في طريق العودة التقوا عند [ميعارا] بكليومبروتوس Cleombrotus الراحف على [ثيبة] بقوات كبيرة. وادان السبارطيون كلاً من [هريبيداس Herppidas] و[ارسيسوس Arcissus] حاكميهما في [ثيبة] ونفذوا فيهما حكم الموت. أما الحاكم الثالث [ليسانوريداس Lysanoridas] فقد فرضوا عليه غرامة فادحة ففرّ إلى [پلپونييسوس]^(١٠١). هذه المأثرة كانت أشبه بمأثرة [ثراسيبولوس Thrasybulus]، من ناحية بأس القائمين بها، وأخطارها، وتطوراتها ونهايتها الناجحة، حتى وصفها الأغريق بالأخت التوأم لها. أذ يندر أن تجد أمثلة أخرى لها، حيث فئة صغيرة ضعيفة جداً تتغلب باقدامها الخارق على عدوٍ وفير العدد عظيم السلطان، وينجم عن انتصارها مثل هذا القدر من النفع والخير للبلاد. إلا أن الأحوال التي طرأت نتيجة هذا، زادت من شهرة النصر ورفعته. فقد بدأت في تلك الليلة بالذات الحرب التي قضت القضاء المبرم على كل ادعاء لسبارطا في الزعامة. وانتهت إلى الأبد تلك السيادة التي كانت تمارسها آنذاك على البر والبحر معاً. في تلك الليلة لم يداهم [پيلوپيداس] قلعة أو حصناً أو مدينة محصنة وإنما كان الرجل الثاني عشر الذي دخل بيتاً خاصاً، فحلّ وكسر سلاسل الحكم السبارطي - (ان عبّرنا عن الحقيقة بالمجاز) وكان يبدو قبل ذاك محكماً لا فكاًك منه.

وغزا اللقيديمونيون (بوتيا) بجيش عزم. وتخوف الآثينيون من الأخطار، فأعلنوا انهم ليسوا بحلفاء [لثيبة] وضيقوا على كل منحاز إلى قضية البوتوتيين. ونفذوا حكم الموت ببعض، ونفوا وغرّموا آخرين؛ وبدت قضية [ثيبة] يائسة لا أمل منها لفقدائها النصير والحليف. على أن پيلوپيداس وجورجيداس اللذان تسلما زعامة (بوتيا) دبّرا خلق نزاع بين اللقيديمونيين والآثينيين فاهتديا إلى الحيلة الآتية: كان المدعو [سفودرياس Sphodrias] قد ترك في [ثسپايي Thespieae] على رأس جيش سبارطي لاستقبال ولجدة الثيسيين المنشقين.

(١٠٠) لما لم يكن مستعلاً لاحتلال موقع منيع كهذا خلال يوم واحد وبالقوة القليلة العدد التي كان يقودها پيلوپيداس آنذاك. فعلمنا ان مرجع إلى ديودورس ١٦ ٢٥ وكزينفون: الهلينيون ٥، ليخبرنا بأن الآثينيين في فجر اليوم التالي الذي تم فيه احتلال المدينة. قاموا بإرسال خمسة آلاف من الرجال والفين من الخيالة بقيادة كزيبفون ووصلت من مدن بويوثيا تعزيزات أخرى قواتها سبعة آلاف أو أكثر فشارك قوات پيلوپيداس بالحصار. إلا أن المدينة صمدت عدة أيام ثم استسلمت بعد أن نفذت أرزاقها.

(١٠١) من التقاليد التي درج عليها المقاتلون السبارطيون ان يموتوا والسيف بيدهم دفاعاً عن الموضع الذي أوكل اليهم أمر الدفاع عنه.

وهو في الحقيقة قائد مشهور بشجاعته في ميدان القتال إلا أنه مافون العقل، مليء بآمال خيالية، ومطامح رفيعة. إن هذا الرجل أرسل بيلوبيداس وزملاؤه تاجراً من أصدقائهم يحمل إليه بالسر مبلغاً من المال... ونصيحة - كانت أقوى أثراً من المال. قال له إنه ليجدر برجل في مثل منزلته أن يسعى وراء مغامرة عظيمة، وأنه لن يجد خيراً من غزو الأثينيين وهم في عجلة من أمرهم، وبياعت ميناءهم [بيريوس] إذ ليس ما يسر سبارطا أكثر من الاستيلاء على أثينا، كما أن الأثينيين لن ينهبوا طبعاً لمساعدة أناس يهفصونهم ويعتجرونهم خونة في الوقت الحاضر. وظل يضرب فيه على هذا الوتر حتى اقنعه، فزحف ليلاً عن أثينا وتوغل بحيشه حتى بلغ [البوسيس]^(١٢)، وعند هذه المرحلة من مغامراته أصيبت قلوب رجاله بالتردد فانسحب إلى [تسباي] ولكن بعد أن أنكشفت زياه وورط قومه في حرب خطيرة. بعد هذه الحادثة أخذ الأثينيون يهشون بالمساعدات إلى ثيبة وهبوا ساخطين إلى البحر مبشرين إلى عدة أمكنة ومقدمين المعونة إلى كل بلد يوناني يرغب التخلص من نفوذ السبارطيين.

وفي تلك الفترة خاض الأثينيون بفردهم عدة معارك مع السبارطيين في [بوتيا]، وأشتبكوا كثيراً بالعدو، ولم تكن تلك المعارك بالكبيرة لكنها مهمة في تدريبها وتلقيها أيهم فنون القتال، وبهذا انصرفت أذهانهم إلى الحرب، وتعودت أبدانهم المشاق فكسبوا الخبرة والشجاعة بهذه الصدامات المتعددة، مما يفصح عنه قول [انتالكيداس Antalcidas] لاغيسيلوس بعد عودته جريحاً من [بوتيا]:

- لقد أجزل لك البويوتيون العطاء حقاً، مكافأة لك على تلقيهم فنون الحرب رغماً عنهم وكراهياً.

وإن شئت الحقيقة، فإن [اغيسيلوس] لم يكن استأذهم في هذا، بل أولئك الذين أطلقوهم بذكاء. وبعد نظر على أعدائهم كما تطلق صفار الكلاب، وعادوا بهم سالمين جميعاً بعد أن أذاقوهم حلاوة النصر، وقوة العزيمة. وبيلوبيداس يستأهل أعظم التكريم من بين كل هؤلاء الزعماء: إذ ما أن أنتخب جنرالاً لأول مرة، حتى بقي يقود الرجال سنة بعد أخرى طوال حياته إماماً بمنصب قائد «الكنيسة المقدسة» أو قائداً عاماً للجيش البويوتي وهو أكثر المنصبين لصوقاً به. هزم السبارطيون بالقرب من [بلاطيا Plataea] و[تسباي] ولاذوا بالفرار. رقتل [فيوبيداس] الذي أحتل القلعة [قادميا]. وفي [تاغرا] اببدت قوة كبيرة وقتل قائدها

(١٢) كان أملهم أن يبلغوا [بيريوس] ليلاً، لكنهم وعندما أصبح الصباح وجدوا أنهم لم يتقدموا أكثر من [اليفسيس]. وأدرك [سفوردياس] أن أمره انكشف فاجتاح في رجعته ضواحي أثينا وأستدعى الفيديميون [سفوردياس] واتخذ الإيقودي الإجراءات القضاية ضده. إلا أن [اغيسيلوس] بشفاعته والاح من ابنه الذي كان صديقاً لابن سفوردياس - عمل على إنقاذه [كزينفون المرجع السالف ه].

[پانثيودس Panthoides]، إلا أن هذه الإشتباكات وغيرها لم تصب المهزمنين بئس تام، وان رفعت من معنويات المنتصرين إذ لم تقع بين الفريقين معركة فاصلة، أو قتال منظم، وأما مجرد غزوات مفاجئة تملّوها الفرص والمناسبات ويسودها الكرّ والفرّ، ثم الهجوم ثم الانسحاب وهكذا، إلا أن معركة [تيجيري Tegyrae] التي كانت مقدّمة وتمهيداً [لليكوترا] رفعت من سمعة بيلوبيداس كثيراً، إذ لم يكن لأيّ من القادة الآخرين أي فضل فيها، ولم يظهر العدو أي دعوى بنصر بها، كانت مدينة [الاورخومينيين] منحاذاة إلى جانب السبارطيين، وقد عززت الحماية فيها بكتيتيين، وكان [بيلوبيداس] شاخصاً إليها ينتظر فرضته فلما سمع أن الحماية انتقلت إلى [لوكريس Locris] وأن [اورخومينيس Orchomenes] ^(١٣) باتت بلا حماية زحف عليها بكتيته المقدسة وكوكبة من الخيالة، وعند وصوله مشارفها وجد التعزيزات القادمة من سبارطا تتقدم نحوها، فقام بدورة حول قدمات الجبال وانسحب بجيشه الصغير عبر [ميجيري] وهو السيل الوحيد الذي يمكن مروره منه لأن نهر [ميلاس Melas] تنتشر مياهه حال فيضانه ويكون مستنقعات وبركاً صالحة للملاحة، ويجعل كل الأرض السهلة التي تتخللها غير صالحة للسير، وإلى أسفل المستنقعات بمسافة قصيرة يقوم معبد ومهبط وحي [أبوللو تيجيريوس] المهجور قبل زمن ليس بالطويل، وكان مزدهراً حتى الحروب الميديدية، بكاهنه [إيخيراتس Echecrates]، ويزعمون أن هذا الرب ولد هناك. والجبل المجاور يسمى [ديلوس Delos]، وهنا أيضاً يعود نهر [ميلاس] إلى مجراه، ومن خلف المعبد يجري ماء نبعين عجيب بحلاوته وكثرته وبرودته. نبع يسمى [فيونكس Phoenix] ونبع يسمى [إيلويا Elceia] إلى يومنا هذا. حتى لكأن [لوجينا Lucina] لم تولد بين شجرتين بل بين ينبوعين، وثم موقع قريب ظاهر يدعى [پتاوم Ptoum] يقال أنها رُوّعت اثناء وجودها فيه بظهور خنزير بري. وتتصل حكايات [پيثون Python] و[تيطيوس Tityus] بهذه المواقع أيضاً على المنوال نفسه. واني لأضرب صفحاً عن كثير من النقاط التي يمكن استخدامها موضع نقاش. لأن أساطيرنا لا تضع هذا الرب في مصاف الأرباب المولودين ثم تحولوا إلى آلهة خالدين، مثل [هرقل]، [باخوس] اللذين رفعتهم فضائلهم فوق طبقة البشر وقابلية الفناء، إلا أن أبوللو آله خالد غير مولود من بشر ^(١٤)، إذا استندنا في حكمنا هذا على أي حقيقة بما أنحدر البنا من أقدم الواقفين على هذا الموضوع، وأوفرهم حكماً.

(١٣) واحدة من أكبر وأهم مدن بويوثيا، وكان فيها حامية لقبديمية وقتذاك.

(١٤) هذه مقرة تستدعي تأملاً عظيماً: يؤمن الحكماء والفلاسفة القدماء أمثال فيثاغوراس وأفلاطون وغيرهما، إن الله ينبج أبناهم مثله خالدين، وأنهم لم يولدوا من رحم امرأة وهم يسأرونه في جوهره ان هذه الفكرة انحدرت اليهم من أقدم العصور وما ورد عنها من منثر كان ينوّه بآب الله الخالد مع الأب.

وبينما كان [الثيبينون] يتفقهرون من [اورخومينوس] نحو [تيجيري] كان السبارطيون يتقدمون من [لوكرس] في الوقت نفسه. وإذا بهما يلتقيان. ولما بات هؤلاء على مرأى من الثيبين يتقدمون عبر المضيق قال أحدهم ليلوبيداس:

- لقد وقعنا في يد العدو؟

فاجابه:

- ولم لا يكون هم الذين وقعوا في أيدينا؟

وأمر خيالاته فوراً بترك المؤخرة والهجوم. بينما جمع مشائته كتلة واحدة وكانوا ثلاثمائة^(١٥)، مؤملاً بهذه الطريقة أن يفتح ثغرة لنفسه في تشكيل عدوه الأكثر عدداً منه، من أي جهة يقوم بالهجوم. وكانت قوة السبارطيين تتألف من كتبتين (الكتيبة قوامها خمسمائة على ما يذكر [يفوروس]، أو سبعمائة على ما يقول [كالليستينس] Callis-thenes)، وبزعم آخرون ومنهم [بوليبوس] أنها تسعمائة). بقيادة (جورجوليون Gorgoleon) [ثيومبيرس]. فقرر التقدم لمهاجمة الثيبين وهما واثقان من النصر والتحم العريقان. وكان زخم القتال على أشده حيث يقف القادة. ووقع القائدان السبارطيان قتيلين أولاً ولحقت بالقوة التي تحيط بهما خسارة فادحة فما لبثت القوة كلها أن خارت معنوياتها وتحت طريقتاً للثيبين كأنها تريد مرورهم ونجاتهم. لكن بيلوبيداس دخل الثغرة دون أن يفكر في الإفلات بل استدار نحو الصامدين من الأعداء وأوقع بهم قتلاً وذبحاً، عقبه فرار من صفوف السبارطيين. ولم تستمر المطاردة مسافة طويلة لخوف المنتصرين من الاورخومينين المجاورين، ومن مجلدات لقيديمون. مهما يكن فقد نجحوا في شق طريقهم عنوةً بين أعدائهم وتغلبوا على قوتهم كلها. لذلك عمدوا الى اقامة نصب تذكاري لنصرهم ونزعوا أسلحة القتلى ثم قفلوا راجعين الى مقرهم مزهوين بما حققوا. لم يهزم السبارطيون في كل حروبهم العظيمة التي خاضوها ضد الأغريق أو البرابرة أمام قوة أصغر من قوتهم قبل هذا. ولم يندحروا في معركة فاصلة وكان عددهم فيها مساوياً لعدد خصمهم. ومن هذا ساد الاعتقاد بأن شجاعتهم لا يقف أمامها شيء، وإن سمعتهم الدأوبة كانت توقع الرعب في قلوب أعدائهم فيخسروا المعركة قبل دخولها. لأنهم لا يجدون أنفسهم أكفأ لرجال سبارطا حتى عند تساوي الفرص. على أن هذه الموقعة علمت الأغريق في المقام الأول أن الشجاعة والعزيمة وشدة المراس ليست قاصرة على

(١٥) هذا العدد القليل كان زهرة الجيش الثيبين. وقد خلع طيه لقب «الكتيبة المقدسة» أو «عصابة المحبين» تكريماً لأفراد الوحدة وقد عرفوا جميعاً وبلا استثناء. بولانهم وأخلاصهم لدولتهم الثيبية وبمفاداتهم بعضهم لبعض [أنظر الفلاطون: المحاورات].

رجال [يوروتاس] والبلاد الواقعة ما بين [بابيس Babyce] و[كناصيون Cnacion] بل عندما يشور الشباب خجلاً من الدناءة والخطة، ويكونون مستعدين للمغامرة في سبيل قضية عادلة، عندما يحشون العار أكثر مما يخشون الخطر، فاذ ذاك تجد أمامك أشجع الخصوم، وأشدّهم بأساً، أياً كانت البلاد التي انحلتهم.

كان [غورغيداس] على ما يزعمون، أول من ألف الكتيبة المقدسة من ثلاثمائة رجل مختارين. وكانت مهمتهم حراسة القلعة ولذلك كانت الدولة تنفق عليهم وتزودهم بكل ما هو ضروري لتدريبهم، ومن هنا جاء اسم «كتيبة المدينة». لأن الحصون كان يطلق عليها اسم المدينة عادةً، ويقول آخرون أنها تألفت من شبان ارتبط بعضهم ببعض برباط الودّ الخاصّ. وهناك قول فكه شهير [الپومينوس Pommenes] «هو» إن [نسطور] شاعر هوميروس، لم يكن بارعاً في قيادة الجيش حين نصّح الأغرقي أن يضعوا قبيلة في صف قبيلة وأسرة لأسق أسرة حتى «تساعد القبيلة القبيلة، ويعاون القريب قريبه!» بل كان عليه أن يضع المحبّ الى جنب حبيبه». لأن الرجال الذين ينتمون الى عشيرة واحدة، وينحدرون من أسرة واحدة، قليلاً ما يهتم احدهم بالآخر عندما يتأزم الموقف. ولكن عصبية شدد عراها الصداقة المبنية على الحب، لا تعلّ عرابها ولا تنفصم أصرتها. لأن المحبوبين يدركهم العار اذا أظهروا خسة وجبناً أمام محبوبهم، فتراهم يندفعون الى ركوب الخطر بكلّ سرور لانجاد بعضهم بعضاً. وليس هذا بالذي يدعو الى العجب مادام اهتمامهم بحبيهم العائنين يزيد عن اهتمامهم بالخاصين منهم. كقصّة ذلك الذي هم عدوّه يقتله، فكان رجاؤه الحارّ منه أن يقضي عليه بطعنة في صدره لئلا يدرك حبيبه الخجل لدن براه جريحاً في ظهره، ومن الاساطير المتداولة، أن [ابولاؤوس] ١٥- [laus] الذي عاون [هرقل] في أعماله وقاتل الى جانبه، كان حبيباً له. وذكر [ارسطو] أن المتحابين كانوا يقسمون على الوفاء فوق تربة [ابولاؤوس]. فمن المحتمل والحالة هذه أن تلك الكتيبة سميت «مقدسة» بسبب ذلك، لان [افلاطون] يُسمّي المحبّ «الصديق الملمم الهيا»^(١٦)، وقيل أنها لم تخسر معركة قطّ، حتى الموقعة التي جرت قرب [خيرونيا]: شخّص [فيليب] الى ميدان القتال بعد نهايته ليشنّ جثث القتلى فبلغ الموضع الذي سقط فيه «الثلاثمائة» صرعى معاً. اثناء اشتباكهم مع [فلاتسكه] فادركه عجب شديد، ولما علم انهم «كتيبة المحبين» بكى وقال:

- لا كان ذلك الرجل الذي يشكّ في أن هؤلاء الرجال أقدموا على أي فعل دنيء، أو عانوا منه.

(١٦) افلاطون المحادثات.

لم تكن نكبة [لايوس Laisus^(١٧)] سبب نشوء هذا الشكل من العلاقة ما بين الشيبين كما خيل للشعراء؛ فإن أولك نشوئها كان على يد المشترعين وهدفهم منها تطرية الطباع الجامحة اثناء الصغر. فجعلوا للعب بالناي مقاماً جلياً في مناسباتي اللهو والجد على السواء. وأهتموا كثيراً بتشجيع هذا اللون من الصداقة في مدارس المصارعة، لثرق امزجة الشباب وتلين طباعهم، وحداهم هذا الى افضل عمل وهو جعل الربة [هارموني Harmony] بنت [مارس] و[فينس] ربتهم المفضلة. لأن التحام القوة والشجاعة، بالركة وحسن السلوك الى «انسجام» يجمع كل عناصر العشرة والاجتماع في نظام تام توافقي.

وزع [غورغيداس] افراد هذه الكتيبة على الصفوف الامامية من المشاة، فتضاءلت بسالتهم، لأن تفرقهم وانفراط عقدهم، واختلاطهم بمن يقل عنهم عزيمه وأساساً هم فرصتهم العادلة لإظهار كفاءتهم كاملة. على أن [پيلوپيداس] الذي عجم بأسهم وخبره من [تيجري] حيث قاتلوا بمفردهم ملتفين حول شخصه، لم يفرق ما بينهم قط. وأبقى قوام الكتيبة على حاله. وكان يستند اليهم الواجب الأول في أعظم المعارك. إذ كما يكون عدو الجهاد المشدودة الى العجلة أشد وأسرع من عدوها منفردة (لا لأن قوتها المتحدة تشق الهواء بسهولة بل لأن مغالبتها بعضها بعضاً وتنافسها على السبق يذكي حماسها، ويلهب روحها بالإقدام) كذلك فكر [پيلوپيداس] أن ذوي البأس والعزم - باستفزازهم أحدهم الآخر الى أشرف الأعمار، سيكون أكثر نفعا وأشد مراساً وأقداماً إن اتحدوا معاً.

بادر اللقيديميون الى مسألة كل الاغريق، ثم وحدوا كل قواتهم ضد الشيبين. وأخترق ملكهم [كليومبروتوس] الحدود بجيش قوامه عشرة الآف راجل وألف فارس. الى ما قبل هذا كانت [بويوتيا] مهددة بالاحتلال فحسب، أما الآن فان شبح الفناء التام والدمار العام يخيم عليهم. واستولى على البلاد رعباً لم تعرف له مثيلاً من قبل. وترك [پيلوپيداس] منزله الى الحرب فلحقت به زوجته وتوسلت به باكية أن يكون حذراً على حياته فأجابها قائلاً:

- الجنود البسطاء ينصحون بالخذل على حياتهم يا زوجي العزيزة. أما القادة فيُنصحون بالحرص على سلامة الآخرين.

ولما بلغ المعسكر ووجد امراء الجيش منقسمين الى رأيين فبادر بنحاز بداهة الى جانب [إپامنداس] الذي كان من رأيه الاشتباك مع العدو. ولم يكن [پيلوپيداس] وقتذاك قائداً عاماً لبويوتيا، بل أمر الكتيبة المقدسة، واهلاً لتلك الثقة التي تناسب مثله رجلاً قدم لبلاده الكثير في مجال حرصه على حريتها واستقلالها. فكان له القول الفصل واتفق على القتال.

(١٧) لو لأكوس Lacus.

وعسكروا في [ليوكترا] أمام السبارطيين. وهما رأى [پيلوبيداس] رؤيا أسلمته الى قلق عظيم: في السهل الممتد امامه كانت ترقد جثث بنات [سكيداسوس Scedasus]، ويطلق على المرقد [ليوكتريدي Leuctridae] نسبة الى شهرة الموضع. وقد تمّ دفنهن هناك بعد أن اغتصبن وقتلن جماعة من السبارطيين الأغراب. بعد ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء راح الأب يطلب الانتصاف في لقيديون فلم يفز بطائل وعاد ليبخع نفسه على قبر بناته وهو يرسل أهول اللعنات والدعوات بالشر الى السبارطيين. ومنذ ذلك الحين والنبوءات والعرافة تترى منذرة قوم الجناح بالخطر الشديد من الانتقام الآلهي في [ليوكترا] وأغلق الأمر على الكثيرين ولم يفهموا المقصود بطبيعة الحال. وكان الغموص ناجحاً عن الموقع فهناك بليدة لاكونيا Laconia الواقعة على ساحل البحر، هي الأخرى تدعى [ليوكترون]، وثم موضع قريب من مدينة [ميفابوليس] في [اركاديا] يدعى [ليوكترا]، كما ان هذا الحادث وقع قبل المعركة بزمان سحيق.

خيل لپيلوبيداس وهو نائم في الخيمة أنه رأى هاته العذارى يبكين على قبرهن ويلعن السبارطيين. ورأى [سكيداسوس] يقول: اذا رغبوا في النصر فعليهم أن يضحوا لبناته بعدوا ذات شعر كستنائي. وعدّه [پيلوبيداس] أمراً بنطوي على قسوة والحاد، إلا انه نهض رقص الحلم على العرافين وأمرء الجيش، فكان من رأي بعضهم أن الأمر صحيح واجب الطاعة. وصبروا امثلة من التاريخ القديم تبريراً لوجهة نظرهم. فذكروا [مينيوكسيوس Menoeceus] ابن [كريون Creon] و[ماركاريا Marcaria] بنت [هرقل]. واوردوا امثلة من الأرملة المتأخرة فذكروا [فركيديدس Pherecydes] الفيلسوف الذي ضحاه اللقيديونيون، وما زال جلده محفوظاً عند ملوكهم تنفيذاً لما قضت به النبوءات. و[ليونيداس] الذي انذرته النبوءة فنفذ ما أمرته وضحى بنفسه لمصلحة البلاد الاغريقية. و[ثيموستوكلس] الذي قدم اضاحي بشرية الى [ياخوس أومبيستوس] قبيل خوضه معركة [سلاميس] وكل هؤلاء برهن بجاحهم على صواب أعمالهم. وعلى الضدّ من ذلك فعل [أغيسيلاس] فقد خرج من الموضع نفسه لقتال الأعداء الذين قاتلهم [اغاسمنون] في ما مضى، وأمر في حلم جاءه في [أوليس Aulis] ان يضحي بابنته قرباناً فحال ضعفه دون ذلك، وكانت نتيجة حملته الفشل والخيبة الذليلة^(١٨).

(١٨) كزينفون الهلينيون ٧. يعلمنا ان پيلوبيداس في اثناء سفارته الى ملك الفرس شوح له بان الكره الذي حفظه اللقيديميون لأهل ثيبه سببه انهم لم ينضموا الى قوات اغيسيلاس عند خروجه لحرب الفرس. ولأنهم معمره من التضحية بابنته في [اوليس] عندما طلبتها [ديانا] ولو فعل ذلك لضمان النجاح في حربه.

على أن الفريق الآخر وجده فريضة بربرية لا يمكن أن يكون محل رضى الكائنات العليا، وقالوا أن الجبارة والأعاصير ليست هي التي تحكم العالم، بل هو الألب الكليّ الأسمى، للآلهة وللإنس، ومن السخف أن يتصور سرور آله من الآلهة أو قوة من القوى العليا. بقتل البشر وتضحيتهم وإن وجد بينهم من كانت صفته هذه، فعلينا ألا نعتد بهم، لضعفهم هذا الذي يجعلهم أعجز عن أسداء العون لأحد، فمثل هذه النزوة القاسية اللامعقولة لا تحيا لا تصدر إلا من عقول ضعيفة مأفونة.

وفيما كان أمراء الجيش بين أخذ وردّ، و(هيلوبيداس) يعاني أعظم الحيرة، إذ همرة تنعلت من قطيع وتروح تعدو في أرجاء المعسكر، حتى وصلت موضع اجتماعهم فوقعت فجأة بلا حراك. وبينما أخذ بعضهم يبيدي عجبه للونها الكسنتاني الفاتح، وبعضهم يعجب برشاقة تكوينها، أو بقوة صهيلها وشدته، أستغرق الكاهن العراف (ثيوقريطس Theocritus) في التفكير، ثم هتف بهيلوبيداس:

- دونك يا صاحبي الطيب فأنظر! ها هي الضحية قد أقبلت فلا تنتظر عذراء أخرى سواها. وخذ ما بعثت به الآلهة لك.

فوثبوا على المهرة واقتادوها إلى قبر العذارى بالمراسيم الدينية والصلوات المعتادة، وضخوا بها منشرحي الخاطر، وأذاعوا بين صفوف الجيش حكاية رؤيا (هيلوبيداس)، وكيفية تقديمهم القربان المطلوب منه.

وعند بدء المعركة عمل (إيامننداس) على إمالة (فلاتكسه) إلى جهة اليسار محاولاً قدر استطاعته فصل الميمنة المؤلفة من السبارطيين عن بقية الوحدات الاغريقية، ومبادأة (كليومبروتوس) بهجوم عنيف وفق نظام الرتل ضد ذلك الجناح. فأدرك العدو الخطأ، وبدأ بتعبير نظام اصطفاانه يفتح ونشر ميمنته على جبهة واسعة للالتفاف حول (إيامننداس) وتطويره مستفدين من تفوقهم العددي الساحق. إلا أن (هيلوبيداس) أسرع يقود كتيبة الثلاثمائة إلى الميدان كالريح العاصف قبل أن يفلح (كليومبروتوس) في مد خطه وسد الثلمات فيه، وهكذا وثب عليهم وصفوفهم مختلفة. كان الجنود اللقيديميون بعدون أعظم الجنود في الدنيا خبرة وأحسنهم تدريباً. ولم يتعودوا شيئاً أو يتمزقوا عليه قدر ما تعودوا المحافظة على نظامهم عند انتقالهم من وضع إلى وضع في المعركة فلا يقع في صفوفهم أي خلل، ولا يترددون في السير وراء أي قائد أو مساعد قائد، بتشكيلات منتظمة. ويتقدمون إلى أي موضع يكون الخطر على أشده. وفي هذه المعركة تجاهل (إيامننداس) سائر القوات الاغريقية وحصر همه بالسبارطيين، فصكهم بفلاتكسه وأقبل (هيلوبيداس) باندفاع وسرعة لا

تصدق. فهذا شجاعتهم، وأوقع اللدلة في خططهم التسوية، وبدأ الفرار الأعظم ثم المقتلة الكبرى فيهم بما لم يعرف مثله من قبل^(١٩). ونال [هيلويداس] وهو بمنصب قائد كتيبة صغيرة لا حراً رفيع القيادة، شهرةً ومجداً من هذا النصر لا يقل عنا ناله أپامنداس الذي كان يشغل منصب القائد العام لبيوتيا.

مهما يكن، فقد تقدم كلاهما نحو هيلويدونيسوس زميلين في القيادة العليا وحصلتا من الحلف السبارطي على أكبر جزء من البلاد المتحالفة، وهي [إيليس Elis]، و[أرغوس] و[أركاديا]، ومعظم [لاكونيا]. وكان الوقت أقسى الشتاء، ولم يبق من الشهر الأخير غير أيام قلائل. وفي بداية الشهر التالي كان من المقرر أن يعين الضباط الجدد ومن يتأخر من الضباط القدماء في تسليم وحداته يقطع رأسه. فأشار قادة الجيش بالانسحاب خوفاً من حكم القانون، وإجتناباً لشدة برد الشتاء. إلا أن [هيلويداس] انضم إلى [أپامنداس] في حث بني قومه وتشجيعهم على القتال، وزحف بهم على سبارطا وعبروا [بورتاس] واستولوا على مدن عديدة وأجتاحوا البلاد وتوغلوا حتى بلغوا البحر.

كان الجيش الذي جرده الثيبيون يبلغ سبعين ألفاً من الأغريق، وتبلغ نسبتهم فيه واحداً إلى اثني عشر إلا أن سمعة الرجال رغبت كل حلفائهم في الانضواء تحت لوائهم واتخاذهم زعماء، بدون اتفاق أو معاهدة تنص على هذا، ولا شك في أن أرفع القوانين وأولها هو أن يكون من في حاجة إلى الحماية مطيعاً للقادر على الدفاع عنه. وكالبحارة الذين يظهرون الوقاحة والعنجهية في الطقس الهاديء والبحر الساكن وفي اثناء مكوثهم في الميناء يتطاولون حتى على الریان، فإذا ما أقبل النوء وعصفت العاصفة وبات الخطر مائلاً رأيتهم يتصاغرون للريان ويتسابقون إلى خدمته معلقين عليه كل آمالهم، كذلك كان الأرغوسيون والاليائيون والأركاديون، تراهم في مؤتمراتهم العامة ينازعون الثيبيين على القيادة العليا، فإذا جاءت المعركة، أو داهمهم الخطر العظيم، واحتتموا بقادتهم الثيبيين طوعاً، وتأثروا خطاهم دون تردد. وقد وفق الثيبيون في هذه الحملة فوجدوا بلاد [أركاديا] وطردوا السبارطيين الذين كانوا قد

(١٩) لم يكن الجيش الثيبي يزيد عن ستة آلاف مقاتل بأي حال من الأحوال [ديودورس ١٥ ٥٥ وكزينفون: ٦] في حين كان جيش خصمه مع خيالاته التي كانت أفضل تدريباً وكفاءة في حين لم يكن يمتطي الفيل من لمحاربين اللقيديمين إلا أغنياءهم الأمر الذي جعل هذا الصنف سيئ النظام سيئ التغذية بهرسان تنقصهم البراعة والدراسة. كما أنه ساء عجزه العددي بترتيب وحداته بعمق خمسين مقاتلاً في حين كان العمق السبارطي اثني عشر ولما استطهر الثيبيون وقتلوا [كليرمربوتس] استمات السبارطيون وهذهم استنقاذ جثة ملكهم منشع الحنرال الثيبي انتصاره الأول بانتصار ثانٍ تسبب عن معامرة السبارطيين بهجوم ثانٍ. ولم يصدق حلفاء سبارطا معهم في القتال إذ كانوا يتوقعون نصراً دون أن يسبقه قتال أما الثيبيون فقد حاضوا المعركة وحدهم دون حلفاء [ديودورس وكزينفون]. نشبت هذه المعركة في العام ٣٧١ ق.م.

أستعمروا [ميسينيا Messenia] وسكنوها. ثم استدعوا الميسينيين القدماء وأسكنوهم جميعاً في [إثوم Ithome] وفي [كنجرايه: Cenckrae] (٢٠) عند رجوعهم، شتتوا شمل القوات الآثينية التي كانت تريد الإيقاع بهم أثناء عبور المضيق، لعرقلة سيرهم.

وازداد الحب والاعجاب بشجاعتهما في نفوس سائر الأغريق لما أبدياه من بسالة وحققاه من انتصارات. في حين زاد حسد مواطنيهم لهما لصعود نجميهما، فاعدوا لهما استقبالاً شائناً مخجلاً. وحوكما بتهمة عقابها الموت، لأنهما لم يسلكا قيادتيهما في أول شهر إيوكاتيرس (Buvatius) كما يحتتمه القانون، بل احتفظا بها أربعة أشهر أخرى فوق مدتهما، وانجزا خلالها تلك الاعمال الباهرة في [ميسينيا واركاديا ولاقونيا] وحوكم [بيلوپيداس] أولاً. وتعرضت حياته لأعظم الخطر، إلا أنهما برّنا. وتحمل [إپامنداس] الاتهام والمحاكمة بصدر رحب وصبر جميل، وعدّ هذه المحنة جزءاً هاماً من فضيلتي الشجاعة والسماحة اللتين تعلمانه بأن الأذى الذي يصيبه في حياته السياسية لا يبرر له أن يحمل موجدّة. أما بيلوپيداس فكان حاد الطبع عاطفياً وقد أثاره اصدقاؤه وحشوه على الانتقام للإهانة، فاهتبل المناسبة الآتية: كان [مينيقليداس Meneclidas] الخطيب أحد أولئك الذين وحدوا جهودهم مع [ميلور] و[بيلوپيداس] في منزل [خارون] لتدبير الانقلاب ضدّ الطغاة. إلا أنه لم يقم بمآثر توارى ما قاما به، وكان خطيباً مصقفاً ذرب اللسان، إلا أنه متحلل الخلق، سيء الطبع. وحصر همه في النيل من بيلوپيداس والخط من قدر مآثره واستمر في ذلك حتى بعد المحاكمة. وهدفه الانتقاص من علوه قدراً وفضلو، والصاق الاتهامات بهما. وتمكن من إبعاد [إپامنداس] عن منصب القيادة العامة. وظلّ مدة طويلة صاحب اليد الطولى. إلا أن نفوذه لم يبلغ به حدّ نزع حبّ [بيلوپيداس] من قلوب الشعب وحرمانه عطفهم. فعمد إلى خلق خصومة بينه وبين [خارون]. إن الحاسدين من طرازه يجدون لذتهم وراحتهم في الانتقاص من عجزوا عن التفوق عليهم، واطهارهم بمظهر أسوأ من الآخرين، لذلك دأب في مبالغته بتعظيم أعمال [خارون] في خطبه العامة، وقعدقا المديح على حملاته وانتصاراته، وحاول تخليد النصر الذي أحرزته الخيالة التي قادها في [پلاطيا Plataea] (قبل معركة ليوكترا)، بالشكل التالي: كان [اندروكسيدس Androclydes] الكيزيكني Cyzicentian الرسّام قد استؤجر لتصوير معركة سابقة، فأنصرف إلى العمل بها في ثيبه. ثم قامت الثورة وأستمرت نيران الحرب، فحفظ الثيبيون الصورة وهي تكاد تكمل. فأخذ [مينيقليداس] يعمل على اقناع الثيبيين بتكريسها

(٢٠) حصل هذا بسبب خطأ من ايفيقراطس وهو قائد أشتهر بالحكمة والدهاء فقد نسي ان يضع حدوداً في معرّ كنخريسي في حين وضعهم في مركز أقل أهمية وخطراً.

لخارون ونقش اسمه عليها. وقصده من هذا أن يطمس مآثر [پيلوپيداس وإپامنداس]. وكانت دعوى سخيفة، واقتراحاً غير معقول، معناه وضع نصر منفرد لم يقتل فيه إلا سبارطي مغمور الأسمه [جيرانداس Gerandas] مع أربعين من جنوده، في موضع أعلى من كل تلك المعارك الهامة العديدة، ولذلك انبرى [پيلوپيداس] يعارض الاقتراح بوصفه مخالفاً للقانون قائلاً أن العرف الذي جرى الآثيبون عليه، يقضي بالآ بخلد رجلٍ مفرد آياً كان. بل أن تعزى الانتصارات كلها للشعب. غير أنه ظلّ طوال المناقشات يشني على خارون أجمل الثناء، وحصر همه في محاولة الكشف عن خبيثة [مينيقليدس] وأظهاره على حقيقته، شخصاً دسائساً حاقداً، وطلب من الشعبين إن ارادوا الاقدام على عمل يمتاز أن يعاملوه بما حقيق به وأقنعهم الى أن فرضوا على [مينيقليدس] غرامة فادحة عجز عن دفعها، وحاول بعد ذلك أن يثير القلاقل في الحكومة. هذه الأمور تنير لنا بعض الجواب من حياة [پيلوپيداس].

عندما أعلن [الاسكندر] طاغية [فيرى Pheras] (٢١) الحرب على قسم من مدن التساليين، وبيت السوء للجميع، بعثت المدن بسفارة الى [ثيبه] تطلب عونها. وكان [پيلوپيداس] يعلم أن انشغال [إپامنداس] في شؤون [الپيلوپونيسوس] يمنعه من المساهمة فعرض نفسه لقيادة التساليين في كفاحهم، لأنه لم يكن يريد أن تستسلم شجاعته ومهارته للكسل والبطالة، فضلاً عن أن انسحاب [إپامنداس] من واجبه لا ينطوى على حكمة أو فائدة. وما أن وصل [ثساليا] بجيشه حتى استولى على [لاريسا Larissa]، ثم حاول اصلاح سلوك [الاسكندر] الذي أعلن ولائه - واجتهد في حمله على نبذ أسلوب حكمه المستبد، واحترام القانون والحكم بعدلٍ ورفق، لكنه وجد فيه وحشاً ضارباً عنيداً لا تلين قناته، وبلغته عدة شكاوى عن جوره وبطشه، فضيق عليه الخناق حتى اضطره الى الانسلاسل سراً من المدينة هو وحرسه.

وعلى أثر ذلك ترك [پيلوپيداس] التساليين آمينين، وقد زال عنهم كل خوف من الطاغية، وحل ما بينهم الصفاء والوئام، وانحدر الى [مقدونيا] (٢٢)؛ وكان [بطليموس Ptolmy] اذ ذاك في حرب مع الاسكندر ملكها. وقد بعث الفريقان المختصمان بطلبه ليستمع الى خلاصتهما وليحكم فيما بينهما ويعاون الجانب المهضوم حقه. فقدم وصالحهما، ودعا المنفيين الى العودة وأخذ [فيليب] أخا الملك وثلاثين من أولاد الأشراف بمشابهة رهاثن، وجاء بهم الى [ثيبه]،

(٢١) دس لعمه پوليفرون السّم بعد ذلك وجعل نفسه طاغية في مكانه. وكان پوليفرون نفسه قد فتك باخيه پوليدوروس والد الكساندر. لقد غصب هؤلاء تساليا وكانت دولة حرّة [ديودوروس ٢٥-٦١، كزينفون ٦].

(٢٢) حلف أمتاس الثاني ثلاثة أولاد شرعيين هم الكساندر، وبركاس، وفيليب، كما خلف ابنا غير شرعي هو [بطليموس] الذي حارب الكساندر وقتله غدرًا وكان حكمه ثلاث سنوات.

مبرهنًا للاغريق على مبلغ الثقة والسمعة التي نالها الشيبليون بفضل نزاهتهم^(٢٣) وجراحتهم. وفيليب هذا^(٢٤)، هو الذي حاول فيما بعد أن يستعبد الاغريق، ولم يكن في حينه يتعدى الصبا، يعيش مع [پامينس Pammenes] في [ثيبه]. ومن هنا ظنّ انه اقتدى في اعماله التالية بپاميننداس ورجّح انه اتخذ من براعته في الحرب وخفته مثلاً يحتذيه. وهذا على كل حال جانب يسير من سجاياء [پاميننداس] أمّا عن دماثته ونزاهته وكرمه وطيبه التي برز فيها حقاً، فلم يتصف [فيليب] بوحدة منها لا طبعاً ولا تطبعاً.

وبعد فترة من الزمن عاد الثساليون يشكون [الاسكندر] الفيري لإثارته الفتن في المدن. فخرج [پيلوبيداس] مع [اسميناس Ismenias] في سفارة اليه من [ثيبه] بدون جيش لأنهما ما كانا يتوقعان قتالاً، على أن يستخدموا الثساليين عندما تضطرهما الحاجة. ودبّ الاضطراب في الوقت نفسه - في احوال مقدونيا مرة ثانية بعد أن عمد [بظليموس] الى اغتيال الملك، وتسلم زمام الحكم. فبعث اصديقاء الملك يستدعون [پيلوبيداس] فلم يرفض التدخل في الأمر ألا انه كان مفتقراً الى جيش خاص به، جئد بعض المرتزقة من البلد وتقدم بهم لمواجهة [بظليموس]، ولما تقابلت القوات عمد بظليموس الى افساد مرتزقة پيلوبيداس بالمال واغرائهم بعصيانه. ومع هذا فقد كانت اوصاله ترتعد خوفاً من مجرد اسم خصمه وشهرته، فأقبل عليه كما يقبل التابع على متبرعه وأعلن الولاء وطلب الصفح معتذراً بأنه ما مارس الحكم إلا ليحفظه لأخوة الملك الميت، وانه مستعد لتقديم الدليل على كونه صديقاً لأصديقاء [ثيبه] وعدواً لأعدائها. وضماناً لهذا وضع ابنه [فيلوكزينوس Philoxenus] وثلاثين من لداته بمثابة رهائن فارسلهم [پيلوبيداس] الى [ثيبه]. على انه حق بصورة خاصة على مرتزقته لما أظهره من غدر وخيانة. ولما علم أن معظم أموالهم وزوجاتهم وأولادهم في [فارسالوس Pharsalus]، فكر أنه يصيب منه انتقامه كاملاً لو تمكن من الاستيلاء عليها. فجمع حوله عدداً من الثساليين وزحف بهم على [فارسالوس] ولم يكذب يدخلها حتى ظهر [الاسكندر] الطاغية بجيش على أبوابها. وحسب [پيلوبيداس] انه جاء لتبرئة نفسه من الجرائم التي عريت اليه، فخرجا اليه، متصورين ان سلطة [ثيبه]، ومنزلةهما وسمعتهما تقيهما اي اعتداء، مع علمهما التام بقسوته وتهوره. ولما وجد الطاغية انهما وحيدان اعزلان بادر بالقبض عليهما وأحتلال [فارسالوس]، فاستولى على رعيته خوف عظيم، وساد

(٢٣) في هذا العهد كانت كل دويلات الاغريق قد نسيت إهتمامها بقضية الحرية. ولم يعد من بين كل هذه الحكومات من طبق النظام الجمهوري ويهتم بأمور المستضعفين والمظلومين ويشعر بالوطنية غير جمهورية

ثيبة. ديودورس ١٥: ٦٠٠.

(٢٤) هو والد الاسكندر الكبير.

الاعتقاد عندهم - بعد هذا الاعتداء الذنيء الصارخ - ان لا أحد سيسلم من بطشه، وان تصرفه ازا، الجميع وفي كل الأمور سيكون كسلوك اليانس من الحياة.

ولما بلغت الشيبين هذه الانباء ثار ثائهم وتميزوا غيظاً وبعثوا بجيش يقوده آخرون غير (إپامنداس) الذي كان مغضوباً عليه وقتذاك. وكان الطاغية قد سمح للناس كافة ان يتصلوا (ببيلوبيداس)^(٢٥) أول ما نقله الى (فيري)، متصوراً ان نكبته هذه ستحطم معنوياته، وتجعله يبدو موضع مهانة واستصغار، ولكن (بيلوبيداس) راح ينصح أهل (فيري) أن يتجملوا بالصبر فبعده فرج حتى لكانه مطمئن الى أن الطاغية لن يعتم ان يدفع ثمن الإهانات التي الحقها به. وبعث للطاغية بمن يخبره «انه من السخف والعبث أن يعذب بوميأ رعاياه الابرياء ويوقع بهم ذبحاً وتقتيلاً ويُقي عليه وهو يعلم جيداً بأنه سينتقم منه انتقاماً هائلاً لو نال حريته». فبهت الطاغية لجرأته، وحريته في الكلام وأجاب: «لماذا يستعجل (بيلوبيداس) موته الى هذا الحد؟»، فرد بيلوبيداس عليه بما يأتي:

- لكي تكون أسرع الى ميتك، اد ستصبح بعد قتلي ابغض الى الآلهة عما أنت عليه.

وبعد هذا منع الطاغية محادثته منعاً باتاً، إلا أن (ثيبي Thebe) زوجته، التي هي بنت (جاسون Jason) فلكتها رغبة شديدة في رؤيته ومكالمته بعد أن سمعت من الحراس عن نيل سلوكه وجرأته، فأقبلت عليه في السجن. ولكونها امرأة، لم تملح لأول وهلة في ادراك عظمتة وهو في وسط نكبته وانما حكمت بأنه عومل معاملة فظة دنيئة لا تليق بشهرته، من رثاة ثيابه ومظهره العام، فبكت، وكان (بيلوبيداس) يجهل هويتها. فتسمر في مكانه مبهوراً، وعندما علم صفتها اقرأها التحية منادياً اياها بلقب ابيها (فقد كان وجاسون صديقين وعشيرين ودودين). قالت له

- إني لأشفق على زوجك يا سيدي.

فأجابها:

.. أما أنا فاشفق عليك لأنك تستطيعين احتمال (الاسكندر) مع أنك غير مقيدة به بسلاسل! ومست عبارته من المرأة وترأ حساساً فلطالما ابغضت زوجها لقسوته وظلمه وفجوره الذي فاق كل حد، ولاعتدائه الشنيع على أخيها الاصغر وتعددت زياراتها له وكاشفته بما تجرعت من إهانات على يده، وأظهرت مزيداً من الحقد والكراهة لزوجها الطاغية.

(٢٥) كانوا قد غضبوا عليه لأنه لم يمض في مطاردة العدو بعد المعركة الأخيرة مع اللقيديميين قرب كورنث، واستشار مصره هذا بقتله وأسره الكثير من الاعداء. فمزل وتحي عن الحكم في بويوتيا وجعلوه يخدم كجندي بسيط في الجيش [ديودورس ١٥: ٧٢].

إن الجترالية الشيبين الذين أرسلوا الى [ثساليا] لم يفعلوا شيئاً، الا قيامهم بانسحاب مخجلٍ منها لقصر باعهم في القيادة، أو لسوء حظوظهم^(٢٦). ففرضت المدينة على كل منهم غرامة قدرها عشرة آلاف دراخما، وبعثت باپامننداس على رأس قواتها نفسها. فانتعشت آمال التساليين بشهرة القائد الجديد وانتفضوا ورفعوا جالاً لواء الثورة. وكانت أحوال الطاعية تسير به الى الخراب سيراً حثيثاً. وبلغ الخوف بقادة جيشه وانصاره مبلغاً شديداً وأشدت رغبة الرعية في الانتفاض عليه أملاً في عقاب عاجل ينزل به، إلا أن [أپامننداس] كان أكثر إهتماماً بسلامة [پيلوپيداس] من أي مجرد يحرزه. ولخوفه من استيلاء القنوط على الاسكندر اذا ضيق عليه الخناق، فيندفع كالوحش الهائج لينهش وبعض. لم يشنها عليه حرباً ضارية وانما ظل يحوم فوقه بجيشه كالباشق المستعد للانتفاض حتى اتلف أعصابه وحطم ثقته ولكنه لم يدفعه الى اليأس والهياج. كان [أپامننداس] يعلم مبلغ وحشيته، واستهانته التامة بكل ما هو عدل وحق. فلطالما دفن الناس أحياء والبس الابرياء جلود الدببة والخنازير وأطلق عليهم كلابه الشرسة ينهشونهم، أو جعلهم هدفاً لنباله واسنة حرايه! وفي [ميليبوا Meli-boea] و[سكرتوسا] المدينتين الحليفيتين^(٢٧) له، دعا السكان جميعاً الى اجتماع عام ثم أمر حراسه فأحاطوا بهم وأعملوا السيف فيهم كافة. وكرس الرمح الذي اراد به عمه [پوليفرون Polyphron]، وزينه بقلائد الزهر بضحي له ويقدم القرايين كما لو كان رباً، مطلقاً عليه اسم [تيخون Tychon]^(٢٨)، ومرة شاهد ممثلاً تراجيديا يمثل مسرحية «الطرواديين Troades» ليوربيدس فخرج من الملعب، وأرسل بطلب الممثل فلما حضر طلب منه ألا يتمتع من خروجه اثناء التمثيل وان ينصرف الى إكمال دوره لأنه لم يترك الملعب تحقيراً له بل لاجل من رعاياه إن رأوه يبكي لمشهد ما تعانیه [هيكوبا Hecuba] و[اندروماخه Andromache] في سياق التمثيلية، وهو الذي لم يدركه أسف على أي شخص فتك به! هذا المستبد انتابه القلق لأسم ونباً وقدم حملة بقيادة أپامننداس وسرعان ما «خفف جناحيه المقهورين، كالديك الجبان» وأرسل وفداً يعرض ويرجو ترضية، ورفض [أپامننداس] أن يقبل مثل هذا الرجل ضمن حلفاء [ثيبه] على انه منحه هدنة أمدها ثلاثون يوماً، ثم خلالها أطلق سراح [پيلوپيداس] واسميناس، فعادا الى الوطن.

وعلم الشيبينون ان السپارطيين والآثينيين أرسلوا وفداً الى مملكة الفرس، بطلب العون.

(٢٦) عقبهم الكساندر وانزل بهم حسائر جسيمة اثناء المطاردة. ويعود الفصل في سلامة البقية الباقية الى

كفاة [أپامننداس] الذي اجبره الجنود على أن يتسلم القيادة [ديودوروس ١٥: ٧٧]

(٢٧) هي من مدن مغنيزيا. ومغنيزيا أقليم يقع جنوب مقدونيا.

(٢٨) معنى الكلمة «نو الحظ السعيد» أو «المحظوظ».

فاتدبوا هم أيضاً (پيلويداس) لسفارة ماثلة، فكانت صدفه ممتازة لرفع مقامه وزيادة شهرته. اد لم يسبق أن حرّ في بلاد ملك فارس شخصية حليلة القدر شهيرة الصيت. لأن المجد الذي ناله من انتصاراته على السبارطيين لم يزجف كالسلفاة ببطء وخمول بل انتشر كالنار في الهشيم بعد أن تردد في البلاد صدى الموقعة الأولى في (ليوكترا) ثم عقبته انباء الانتصارات الجديدة تباعاً. فزادت كثيراً في شهرته وصيته ونشرته على القاصي والداني. وكان موضع أعجاب وتقدير كل جنرال أو قائد أو ساتراب فارسي بلقاء، وموضوع أحاديثهم. فقالوا مشيرين اليه:

- هذا هو الرجل الذي طرد اللقيسديمونيين من البحر والبر، وحبس سبارطا بين نهري (تيفيتوس) و(يورتاس)، وكانت قبلها بزمان قصير قد اشتبكت في حرب ضروس مع الملك العظيم تحت قيادة (اغيسيلاس)، حوالي (صوصد) و(اكبتانا).

ولقد أشاع هذا، السرور في أعطاف (ارتخششتا Artaxerxes) وزاد من رغبته في أن يُظهر (پيلويداس) التفاتاً ورعاية، فقد كان يحب أن يرى نفسه كعبة القصاد من عظماء الرجال، وموضع تبجيلهم وأرتفعت منزلة السفير الشبيبي عندما لقيه وسمع حديثه الذي كان أكثر رزانة من حديث السبارطيين، وأدّى له من الاحترام ما يليق بامثاله الملوك. الامر الذي لم تفت السفراء الآخرين ملاحظته وكان الاعتقاد سائداً أن (انتالسيدياس) الاغريق هو من نال أعظم الخطوة لديه من سائر الاغريق^(٢٩)، فقد بعث اليه بتلك القلادة المغموسة بالزيت التي كان قد أحاط بها عنقه في وليمة من الولائم. والحق يقال انه لم يعامل پيلويداس بمثل هذه المعاملة الرقيقة، على أنه المحفّه بأنفس وأغلى الهدايا حسب العادة المتبعة. وحقق سؤله وطلباته (وهي عدم التعرض لحرية الاغريق، واعمار (ميسينيا) بالسكان، ونشوء صداقة متوارثة بين الملك والشميين). وبعد أن نال ذلك قفل راجعاً معتذراً عن قبول كل الهدايا إلا ما اعتبره رمزاً لحسن النية ودليلاً على التعاطف. وكان نجاح (پيلويداس) سبباً من خراب السفراء الآخرين. فقد أدان الآثينيون سفيرهم (تيماغوراس Timagoras) ونفذوا به حكم الموت، ولو أنهم فعلوا ذلك بسبب قبوله مقداراً كبيراً من هدايا الملك^(٣٠)، فحكمهم هذا عادل

(٢٩) إن كان پلوتارح يقصد السفير السبارطي فهو يختلف عن كزينفون الذي يثبت اسمه بـ (يوثيكلس Euthycles) كذلك يعلمنا أن (تيماغوراس) هو الرجل الذي كان الملك يرفع من قدره ويكرمه بعد پيلويداس. وربما كان ذلك في فترة سابقة عندما كان (انتالقيدياس) في البلاط الفارسي. إن عادة ارسال المعطورات والروائح الزكية عنواناً للتقدير والمحبة، ما زالت سائدة في الشرق.

(٣٠) وعن كزينفون (المرح السالف ٧٠) أن جريمة تيماغوراس الحقيقية هي ما زعمه زميله الموقد معه (ليون) من أنه كان على اتصال دائم بـ (پيلويداس) مؤيداً كل شيء أقترحه لمصلحة أهل شيبه.

وصحيح. اذ لم يقل ذهباً وقضة فحسب بل قبل سريراً فاخراً وعبيداً للعناية به، [كان
الاغريق لا يعقون هذا الفن] فضلاً عن ثمانين بقرّة مع رعاتها، متعللاً بأنه حليب القر
ضروري لدا، ابتلي واخيراً كان قد حمل بمحفة الى ساحل البحر مع هبة لخدمه قدرها أربعة
نالتات. ولكن من المحتمل جداً ان لا يكون جشعه هو السبب في سخط الأثينيين، لأن
[ابيقريطس Epicrates] ناقل الامتعة، لم يكتف بالاعتراف للجمهور، بأنه تسلّم هدايا من
الملك. بل تقدم باقتراح يقضي أن ينتخب بدلاً من «الأراخنة» التسعة، فقراء تسعة من أشدّ
المواطنين إملاقاً وان يرسلوا بمثابة سفراء الى الملك ليغنيهم بهداياه. فضحك الجمهور فحسب
على هذه السكتة. على انهم في الحقيقة كانوا ساخطين ناقمين لفشل سفرائهم وحصول الشيبين
على كلّ ما سعوا اليه، دون أن يحسبوا حساب شهرة [پيلويدياس] التي كانت أقوى أثراً من
فصاحة الأثينيين ومقدرتهم الخطابية. مع رجل ما زال قلبه يميل الى المنتصر بقوة السلاح. إن
هذه السفارة التي أعادت ميسينيا الى أهلها الشرعيين وضمنت حرية بلاد الاغريق الأخرى.
حصلت لپيلويدياس على قدر كبير من حسن الثقة عند عودته.

في ذلك الزمن عاد [الاسكندر] الفيري الى طبعه الأول من العدوان فاستولى على كثير من
المدن الشمالية ووضع حاميات في بلاد آخائيي Achaen فيوتيس Phthiotis، والمغنيزيين،
ولما سمعت المدن بعودة پيلويدياس أرسلت الى ثيبة وقدأ مستنجداً، يطلب معونة بقيادة
[پيلويدياس] نفسه. فأجاب الثيبون سؤلهم بطيبة خاطر. وعندما تم تجهيز كل شيء لما وبدأ
الجنرال في مسيرته كسفت الشمس وساد الظلام المدينة ظهرأ. فهت [پيلويدياس] للظاهرة
العجيبة ولم ير من اللائق أن يرغب الرجال الخائفين الخائري العزّة على الرحيل، ولا أن يخاطر
بمصائر سبعة آلاف من مواطنيه، ولذلك انطلق بثلاثمائة فقط من الخيالة المتطوعين - في
الطريق الى تساليا خلافاً لرغبة العرافين واخوانه المواطنين عموماً. وكانوا كلّهم يرون في
الظاهرة نذير شؤم يستهدف هذا الرجل العظيم إلا أنه كان يتميز غيظاً من الاسكندر وينقم
عليه لما اصابه منه. كما كان يأمل أيضاً - مما سمعه قبلاً من حديث [ثيبي]، أن أسرته الآن
منقسمة على نفسها وعلى خلاف كبير. إلا أن انتصار الحملة كان أكثر إثارة له من اي دافع
آخر، ففي هذا الوقت كان اللقيديمونيون يرسلون الضباط العسكريين لمساعدة [ديونيسيوس]
الطاغية الصقليّ. والأثينيون يتقاضون الأموال من الاسكندر ويعظمونه باقامة تمثال برونزي له
باعتباره محسناً لهم. فكان شديد الرغبة في أن يظهر الشيبين للناس بأنهم هم وحدهم بين
الاغريق، يتنون قضية المستضعفين الذين يضطهدهم الطغاة، ولا يترددون في القضاء على اي
شكل من أشكال الحكومات المستبدة غير الشرعية في كل بلاد الاغريق.

عندما وصل بيلوبيداس مدينة (فارسالوس) جمع جيشاً وتقدم به للملاقاة الاسكندر، وعلم هذا ان الثيسيين في جيش خصمه قليلون، وأن مشاته ضعف مشاة الثساليين فسعى اليه في (ثيتيديوم Thetidium) وقال أحدهم لبيلوبيداس:

- الطاغية يواجهنا بجيش جرار.

فأجابه:

- وهذا أفضل لنا، اذ سنتغلب والحالة هذه على الكثرة.

وكان يمتدّ بين الجيشين سلسلة من التلال العالية الشديدة الانحدار بالقرب من مدينة (سينوسكفالي Cynoscephalæ) التي حاول الفريقان الاستيلاء عليها بمشاتهم. وقاد بيلوبيداس خيالاته الجيدة الكثيرة العدد في هجوم على خيالة العدو فهزموها ولاحقوها في انسهل. لكن الاسكندر احتل التلال في تلك الاثناء وهاجم المشاة الثساليين الذين تقدموا بعد ذلك وحاولوا أن يشقوا طريقهم صعوداً في المرتفع الوعر الصخري. فقتل طلائعهم وعجز الآخرون عن الحاق أي ضرر بقواته لما أصابهم من انهك شديد، فلما تبين لبيلوبيداس ذلك نفخ بوق التراجع لخيالاته وأمرها بمهاجمة وحدات العدو الصامدة في مواقعها. وتناول ترسه والتحق فوراً بالوحدات التي كانت تقاتل حول التلال وتقدم الى الصفوف الأمامية وملأ رحاله بالشجاعة والحماسة حتى خيل للاعداء أنهم يصلون عليهم بأرواح وأجسام أخرى غير تلك التي يملكونها؛ وصدوا هجومين أو ثلاثة لهم ولكنهم وجدوا اندفاعهم كاسحاً عنيفاً، كما أطبقت عليهم الخيالة العائدة من المطاردة فانكفأوا الى الوراء بنظام. وأدرك بيلوبيداس بشاقب نظره ومن الأرض المرتفعة ان جيش العدو تسوده الفوضى ويعمه الاضطراب وان لم تلحق به الهزيمة بعد، فأخذ يبحث عن الاسكندر ولما رآه على الجناح الأيمن يشجع مرتزقته ويصدر اليهم الأوامر، لم يتمالك شعور الغضب الذي اجتاحه لمراه. وانساق وراء عاطفته كالأعمى غير مقيم وزناً لا لحياته ولا لمسؤوليته القيادية فتقدم كثيراً عن جنوده وهو يصرخ متحدياً ويدعو الطاغية للنزال فلم يجيب هذا وتقهقر وأخفى نفسه بين حرسه. وصدّ (بيلوبيداس) طلائع المرتزقة التي التحمت معه عن قرب وقتل بعضها إلا أن كثيراً منهم صوبوا استنهم الى دروعه من بعيد وخرقوها فجرح حتى اذا أسرع الثساليون وقد استبد بهم القلق من النتيجة بهمطون التل لنجدته، وجدوه قد فارق الحياة. ووصلت الخيالة أيضاً ودحروا الفلاكس وطاردوا العدو المقهور مسافة طويلة وملأوا الميدان بحث القتلى الذين انافوا على الثلاثة آلاف.

ما كان لأحد أن يدهش للحزن العميق الذي استولى على الشيبين الحاضرين، لمصرع [پيلوپيداس]، فقد راحوا بندبونه وينادونه بالأب والمنقذ والمعلم لكل ما هو حسن وأهل للثناء. ولكن التساليين والحلفاء يزوهم في ذلك بما اصدروا من مراسيم بتكريمه غاية التكريم الحرّي بالتقديم للشحاعة الشريفة. وقدموا شواهد أقوى من هذا، على الود الذي يحفظونه له بابتداء مشاعرهم الخاصة. وذكر أن الجنود اذ علموا بمصرعه - لم يفكروا في نزع دروعهم أو رفع السروج عن ظهورهم خيولهم أو معالجة جروحهم، بل أسرعوا وهم لاهثون بحرارة القتال وبايديهم السلاح، الى حيث جثته مسجاة وراحوا بكندسون الغنائم الحربية عليه كأنه ما يزال في قيد الحياة يرى ما يصنعون. ثم قصوا أعراف خيلهم وجزوا نواصيهم^(٢١)، وامتنع أكثرهم عن ايقاد النار في خيامهم، وعافوا وجة عشائهم، وران الأسى والصمت على الجيش برمته. كأنهم لم يريحوا أعظم معركة وأخطرها، بل كأن الطاغية هزمهم وأخذهم عبيداً. وما ان علمت المدن بالفاجعة حتى خرج حكامها وشبابها واحداً وكهنتها لاستقبال الجثمان وأخذوا معهم تذكارات حرب وتيجاناً ودروعاً ذهبية. وعندما حان موعد الدفن تقدم شيوخ التساليين طالبين من الشيبين أن يتولوا عنهم مراسيم التشييع وقال واحد منهم:

- ايها الاصدقاء، نحن نطلب منكم فضلاً به تشريف لنا وراحة معاً في فاجعتنا العظمى هذه. إن التساليين لن يتيسر لهم بعد الآن أن يقوموا على خدمة [پيلوپيداس] الحي، ولن تتاح لهم فرصة تكريمه تكريماً يشعرون به. ولو سمحتم لنا بجثمانه، وبتزيين جنازته وتشيعه الى مقره الأخير، فأننا نأمل أن نشبت بهذا، الحقيقة الواقعة وهي ان خسارة التساليين به، أعظم من خسارة الشيبين. انكم فقدتم به جنراً حاذقاً فحسب، اما نحن ففقدنا جنرالنا وحريتنا. اذ كيف سنتجرأ على طلب قائد آخر منكم مادنا لا نقوى على إعادة پيلوپيداس؟

وأجابهم الشيبون الى طلبهم. فعملوا له تشييعاً فخماً لا يساويه تشييع، كما كان رأي أولئك الذين لا يرون الفخامة في المراكب التي يزينها الذهب والعاج والارجوان، كما فعل [فيليستوس Philistus]^(٢٢) الذي أنفق ببذخ واسراف جنوني على جنازة [ديونيسيوس] فحتم بها طغيانه مثل خاتمة فحمة لمسرحية تراجيدية عظيمة. ولم يكتف (الاسكندر الكبير) عند وفاة [هيفيستيون Hephæstion] بجزّ أعراف خيله وبغاله، بل عمد الى هدم دعائم اسوار المدينة لتظهر أيضاً بظهور الحداد وتبدو عند تشييعه كاسفة كئيبة عاطلة عن شكلها

(٢١) من تقاليد الحداد عند الاغريق

(٢٢) هذا الكاتب خدم بالتتابع الديونيسييين جميعاً ويعد ان هزم ديون آخر طاغية منهم قام بقتل نفسه.

الحميل. إلا أن مثل هذا التكريم الذي يجبر عليه الناس ويؤمنون به، إنما يشاركون فيه بمشاعر الحسد والغيط ممن حصصت لهم ومشاعر السخط والكراهية لمن فرضها عليهم. فهذه ليست أدلة على الحب والاحترام وإنما مظاهر ترفٍ ومباهاة قوم البرابرة وغطرسة أولئك الذين يغدقون ثرواتهم على هذا العيث المقيت. وهذا رجل من طبقة العامة، يموت في بلاد الغربة ولا زوج أو ولد أو أقرباء بجانبه. تتنافس المدن فيما بينها دون أرغامٍ أو طلبٍ بالخدمة والتشجيع والدفع، على استباق أحداها الأخرى في إظهار ما تكتنه من حبٍ. إن هذا ليبدو خلاصةً وختاماً لحظٍّ سعيد. «فموت الرجل السعيد ليس أعظم فاجعة، بل أعظم بركة» كما قال [إيسوب Ae-sop] لأنه يضمن سعادتهم العظمى ويجعلها بنأى عن متناول يد القدر. وإنها وإيم الحق لنعم النصيحة، تلك التي نقدم بها ذلك السبارطي الذي عانق [دياغوراس Diagoras] ^(٢٣) المتوج بالغار في الألعاب الاولمبية، وعاش ليري أولاده واحفاده يفوزون فيها ويتوجون، قال له:

- ألا مت يا [دياغوراس] لأنك لا تستطيع أن يكون إلها!

ومع هذا لو وضعت انتصارات كل الألعاب البيثية والاولمبية معاً، فمن ذا الذي يضاهيها بانتصار واحدٍ من انتصارات بيلوبيداس وكا أكثر ما حققه! لقد انفق حياته كلها في أعمال تقسم بالنيل واليسالة ومات بالأخير وهو القائد العام لقوات [بويوتيا] المسلحة للمرة الثالثة عشرة، وخرّ صريعاً وهو يقاتل ببأس لتقويض حكم طاغية، دفاعاً عن حرية الثساليين.

وكما أن موته أورث حزناً شاملاً، فإنه عاد بالنفع أيضاً للحلفاء إذ لم يتأخر البيثيون ساعة عن الثأر له ما أن سمعوا بمصرعه ودفعوا بسبعة آلاف من الرجال وسبعمئة من الخيالة تحت قيادة [مالسيطاس Malcitas] و[ديوجيتون Diogiton]. فوجدوا [الاسكندر] ضعيفاً لا يملك قوات، فارغماء على إعادة المدن التي استولى عليها. وسحب حاميته من بلاد المغنيزيين، وأخانيي فثيوتيس، وأعطائه عهداً بمساعدة الثيبين ضد أي عدوٍ يشاؤون. وقد أرضى هذا التدبير الثيبين إلا أن العقاب أدرك الطاغية للشر الذي عمله، وانتقم السماء لموت [بيلوبيداس] بالطريقة التالية: كان [بيلوبيداس] قد علم [ثيبي] زوج الطاغية بالآ تخاف المظهر الخارجي لقوة دفاع الطاغية واحتياطاته ما دامت تعيش هي بينها ولا تمنع من ولوجها. كما أنها كانت تخشى هي الأخرى تقلبات مزاجه، وتكره قسوته ولذلك ائتمرت به مع اخوتها الثلاثة [طيسفونوس Tisiphonus] و[بيثولوس Pytholau] و[ليوكوفرون Lycophron]

(٢٣) دياغوراس هذا، انحدر من نسل هيراقليوس من خط [تيليوليموس] الذي كان حاكماً لروفس. وقد قتل أمام أسوار طروادة. وكان موضوع النشيد الاولمبي السابع الذي نظمه الشاعر [بندار] ونقشه الرودسيون بناءً لذهب فوق هيكل منيرفا في ليندوس Lindus.

فقاموا بالمحاولة التالية لقتله: كانت كل الأجنحة تملأ بحرس الطاغية ليلاً، إلا أن غرفة نوعهما كانت في طابق علوي، وامام الباب كلب مقيد بسلسلة يقوم على حراستها وهو بهاجم كل اسان إلا الطاغية وزوجه والخادم الذي يطعمه. فلما قررت (ثيبي) أغتيال زوجها، عمدت الى احفاء أخوتها طوال اليوم المقرر للعملية - في حجرة مجاورة. ودخلت هي على عاداتها الى حجرة الاسكندر بمفردها وكان نائماً، وبعد قليل خرجت وطلبت من الخادم المختص أن يأخذ الكلب ويروح به لأن زوجها يريد أن يصيب نوماً هادئاً ثم انها القت صوفاً على الدرج لئلا تصدر اصوات من أقدام أخوتها اثناء صعودهم، ثم قادت أخوتها الى أعلى وهم شاكوا السلاح وتركتهم عند باب الحجرة ودخلت، ثم رجعت اليهم ويدها سيف الطاغية وكان معلقاً فوق رأسه، تأكيداً بأنه مستغرق في نومه. ولكن الخوف بدأ على الشبان، وظهر منهم صناد عن القتل، فتسلكتها سورة من الغيظ وراحت تفرعهم وأقسست بأنها ستوقظ الاسكندر وتكشف له عن المؤامرة. وهكذا تقدمتهم والمصباح في يدها الى الداخل، وكانوا يشعرون بمزيج من الخوف والعدا، وادانتهم من السرير فاسك أحدهم بقدميه وسحبه الآخر من شعره الى الخلف وطعمه الثالث طعنة قاتلة. ربما كان موته أسرع مما يجب. إلا أنه كان أول طاغية يقتل بمؤامرة زوجه. واهينت جثته وطرحته الى الخارج وأصبحت موطن اقدم أهل (فيري).

يبدو أنه تجرع ما تستحقه جرائمه الشنعاء.

مارچلوس

MARCELLUS

(Marcus Claudius)

268 _ 208

قالوا أن [ماركوس كلوديوس] الذي تولى منصب قنصل الرومان خمس مرات، كان ابن [ماركوس] وهو الأول الذي لُقّب [مارجلوس] في أسرته وهو من لفظ Martial^(١)؛ «عسكري» كما يؤكد [پوسيدونيوس Posidonius] وكان الحق يقال متمرساً في فنون الحرب لخبرته العسكرية الطويلة، قوي البدن، باطش الكف، مبالاً بطبيعته الى مزاوله صناعة الحرب. ولا يبدو مزاجه الناري وطبعه العنيف إلا في المعركة وبصورة بارزة، وإلا فهو متواضع رقيق السمائل لين العريكة. واما وقوفه على العلوم اليونانية. والتهديب العقلي، فلا يرتفع الى أكثر من اعجابه وتقديره لمن تمسوا فيها وبرعوا، ولم يكن هو بالذات قد أصاب منها حظاً يشبع به رغبته اليها، بسبب انصرافه الى مشاغله الأخرى العسكرية - فلو وجد في الدنيا أي من الرجال الذين قال عنهم هوميروس^(٢) بأن السماء قد -

قدرت عليهم أن يخوضوا حروباً طاحنة ضروراً

منذ شرخ الشباب حتى اراذل العرا»

فهم على وجه التأكيد كبار الرومان في ذلك العصر. ففي مطالع شبابهم خاضوا الحرب ضدّ القرطاجيين في صقلية. وفي ابن كهولتهم قاتلوا الغالين دفاعاً عن أراضي ايطاليا الاصلية. وأخيراً لما بلغوا سنّ الشيخوخة قادوا الكفاح ضدّ هنيبعل والقرطاجيين^(٣). وارادوا في أواخر سنيّ حياتهم ما كان مضموناً لمعظم الناس - أي الخلاص من متاعب الحرب ومشاقها، إلا أن مراتبهم ومواهبهم العظيمة كانت دوماً تستدعي انتدابهم للقيادة.

(١) الرومان مفرمون باتخاذ أسماء الهتهم الكبار أسماء لهم ومن هنا جاءت أسماء: ماركوس، مارشيو، ماميروس، مامركوس الخ..

(٢) الايلادة ١٤ ٨٦.

(٣) سنّ الخدمة العسكرية عند الرومان بمقتضى قانون [سرفيوس توليوس] يتراوح بين السابعة عشرة والسادسة والاربعين. وبعدها يعفى الروماني من أية خدمة عسكرية ولم يخرق هذا القانون إلا في الحرب الغالية كما ذكر فيما بعد أما اللقيديمي فيطلّ خاصصاً للخدمة العسكرية حتى سنّ الستين. وتبدأ الخدمة العسكرية عند الاثنيين في الثامنة عشرة حتى الاربعين ويقضي الاثنيي السنّين الأوليين في الدفاع عن المدينة. والخدمة في حاميات قلاع أتिका

وكان [مارچلوس] خبيراً في كل نوع من أنواع القتال، إلا أن تفوقه الأعظم هو في النزال الفردي، ولم يعلم عنه أنه رفض تحدياً، أو قتل تحدياً إلا وقتل متحديه. وفي صقلية حمى أخاه [اوتاسيليوس Otacilius] وأنقذ حياته عندما طوقه الاعداء في إحدى المعارك. وقضى على كل من دانه. وبسبب هذه البطولة أهدى إليه قادة الجيش، وهو بعد صغير - تيجاً وما إليها من جوائز التقدير. وبدأت سجاياه يتكشف أكثر فأكثر، حتى نصبه الشعب رئيس شرطة [كورول ايديل Curule Aedile]^(٤) وعينه الكهنة بمنصب [عراف: Augur]، وهي طبقة من الكهنة أودع لها الشرع أساساً مهمة مراقبة دلائل النبوءات. وفي فترة توليه الشرطة الجأته حادثة مؤسفة إلى رفع شكوى أمام مجلس الشيوخ: كان ابنه [ماركوس] يتمتع بجمال أخاذ، وهو في زهرة شبابه، وكان الاعجاب بذلك منه لا يقل عن الاعجاب بحسن اخلاقه. حاول زميل [مارچلوس] في الوظيفة الاعتداء على الشاب. وكان يدعى [كابيتولينس Capitoli-nus] وهو رجل سيء الطباع وقح، فصدّه الشاب عن نفسه أولاً، فلم يكفّ وتحرش به ثانية، فأبلغ أباه بالأمر. فأحترم مارچلوس غضباً وسخطاً وشكاه إلى مجلس الشيوخ: فاستأنف المتهم الشكوى إلى مفوضي [تريبونات] الشعب محاولاً بشتى الحيل والمساعي أسقاط التهمة عنه. فلم يقبل هؤلاء بسط حمايتهم عليه، وعمد هو إلى جبّ التهمة عن نفسه بالإنكار التام، ولما لم يكن في القضية شاهد عيان فقد وجد الشيوخ من اللازم احضار الشاب أمامهم. ولما رأوا خجله ودموعه، واحساسه بالعار، مقرونة بالسخط والقرف لم يعودوا بحاجة إلى دليل آخر لأثبات الواقعة، وادانوا [كابيتولينوس] وحكموا عليه بغرامة يدفعها للمشتكى. فصنع مارچلوس بها وعاء تقديمه فضيّ وأهداه للآلهة.

بعد أن وضعت الحرب الهونية Punie^(٥) أوزارها، وكانت قد امتدت عشرين سنة، ذرّ قرن

(٤) تشمل وظيفة الإيديل في عهد الجمهورية واجبات كثيرة وخطيرة فهو فضلاً عن مسؤولية في الإشراف على الألعاب العامة، يقوم بوظائف مدير الأشغال العامة كما أنه يراقب الأسواق وهو مسؤول عن ثبات الأسعار وتأمين القمح الكافي والمحافظة على المعابد. وتأتي هذه الوظيفة الرابعة في سلم المناصب الكبيرة التنفيذية [قنصل، بريطور، جنسور]. وقد استحدثت في العام ٣٦٦ ق.م كما تنقله التواريخ. وهي نوعان فما يدعى بـ Curulian Aedile وما يدعى بـ Plebian Aedile ومدة الخدمة هي سنة واحدة.

(٥) يحطّيه، بيلوتارح هنا هي سرده الوقائع. فالحرب الفيومية الأولى دامت ٢٢ عاماً، إذ بدأت في ٢٦٢ ق.م وأنتهت في ٢٤٩ ق.م. وفي أثناء ذلك بقي الغاليون ساكنين لا يأتون بحركة ثم تحركوا بعد أربع سنوات ورحلوا نحو [أرمينيوم] إلا أن البوني Boni الذين تمردوا على زعمانهم، أقدموا على قتل الملكين أتييس Ates وگالاتيس Galates وعلى أثر ذلك انقضّ الغاليون بعضهم على بعض فهلك عدد كبير، وقفل الباقون عائدین إلى بلادهم. وبعد خمس سنوات بدأوا يعدون لحرب جديدة بسبب التقسيم الذي أحدثه هلامينيوس في أراضي السيجنتس Pecintnes التي انتزعت الغاليين السنين الذي يقطنون ما وراء الألب وقد استمرت الاستعدادات مدة طويلة وبدأت الحرب بعد التقسيم بشامي سنين. وكان يقود الغاليين كل من =

الخطر الغاليي، وبدأ يقلق روما ثانية. وكان الالبسوريون Insubrians^(٦) الأقوياء الذين يسكنون اصقاع الألب الدنيا من إيطاليا قد جنّدوا من الغاليين مرتزقة عرفوا باسم [جيساتي Gaesatae]^(٧)، وكان من قبيل المعجزة وحسن الحظ النادر لروما، ان الحروب الغالية لم تتفق زمنياً والحرب الهونية مستعرة. كأنما تعهدوا لروما بالألا يحركوا ساكناً، وان ينتظروا المنتصرين لمهاجمتهم! ولأن وبعد ختام تلك الحرب لم يعد ثم ما ينعمهم من الظهور على المسرح. على أن الوضع السياسي السائد، وشهرة الغاليين السالفة، أشاعت خوفاً ليس بالقليل في نفوس الرومان. لأنهم كانوا في سبيل خوض حرب قريبة الميدان من أرض الوطن، بل ضمن حدود البلاد. كما كانوا ينظرون الى القوم نظرة حذر وتوجس يفوق توجسهم من أي قوم آخرين، فذكرى استيلائهم مرة على عاصمتهم ما زالت ماثلة لأذهانهم. وبدأ خوفهم هذا واضحاً من القانون الذي استنوه وقتذاك وهو ينص على اعفاء الكهنة من كل الواجبات العسكرية إلا عندما تهدد البلاد بغزوات [غالية].

وبلغت الاستعدادات الرومان لهذه الحرب أقصى درجة (لم يؤثر سابقاً أو لاحقاً أن عبأ الرومان مثل هذا العدد من الفرق الكاملة السلاح كما عباؤا الآن). وكان هذا وقرايينهم الفاتقة للعادة دلائل واضحة على مبلغ خوفهم. فمع أنهم كالأغريق يمتقنون الطقوس البربرية القاسية مقتناً شديداً، ويمتازون على سائر الشعوب الأخرى بمشاعرهم الوداعة المفضحة عن احترامهم للألوهة، لم يترددوا عندما دأمتهم هذه الحرب - في تطبيق نبوءات معينة وجدوها في «أسفار كسبيل» فعمدوا الى دفن رجل وامرأة يونانيتين وهم أحياء^(٨). واتبعوهما بذكر وأنثى غاليين - في سوق يدعى «سوق الوحوش». وأستثمروا الى يومنا هذا يقدمون الى هؤلاء الأرباب الضحايا الأربع خلال مراسيم دينية معينة في شهر تشرين الثاني من كل سنة.

وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين في مبدئها. يحرز الرومان أحياناً انتصارات باهرة، ويصابون أحياناً بهزائم منكرة. ولم يتقرر النصر التام لأحد في هذا الكفاح حتى نصب [فلامينيوس Flaminius] و[فيروبيوس Furius] قنصلين، فساقا جيشاً لجباً على [الالبسوريين]. وشوهد النهر الذي يجري في إقليم [بيسنوم Picenum] عند رحيلهما -

= كويكوليتاس و أنيرويتس اثناء تولي [إيميليوس باپوس وإيتيليوس ريگولوس منصب القنصلية في العام

١٢٤ ق.م [انظر بوليبيوس ٩٠٢ وليفي ٢٥:٢٢].

(٦) اي الميلتيون.

(٧) ربما لقبوا بهذا من نوع اسلحتهم.

(٨) فعلوا مثل هذا ثانية في الحرب الفونبة الثانية [ليفي ٥٧:٢٢].

وهو طافح بالدم. وذكر انه شوهدت اثماراً ثلاثة دفعة واحدة في [ارمينيوم Ariminum]. وفي اجتماع قنصلي بروما اعلن الكهنة العرافون أن انتخاب القنصلين لم يكن شرعياً، وليس بما يتفق والنبوءات التي تنذر بشؤم تنصيبهما. فعجل مجلس الشيوخ بارسال كتب الى المعسكر باستدعاء القنصلين الى روما بأسرع ما يمكن وأمرهما بالامتناع عن الاشتباك مع العدو، والتنازل عن منصبهما القنصلي وفي أول فرصة جيء بهذه الكتب الى [فلامينيوس] فأرجأ فضتها، حتى كسر العدو^(٩) وطارد قواتهم وتوغل وراء حدودهم وأجتاح بلادهم وعاث فيها سلباً. إلا أن الشعب لم يخرج لاستقباله عند عودته مثقلاً بمقادير ضخمة من الغنائم. لأنه لم يُطع في الحال الأمر الذي ورده بالعودة، بل لم يكثرث به وازدراه.. وكادوا ينكرون عليه حقه بموكب النصر. ولم نيته الاحتفال به حتى عزله هو زميله عن الحكم وانزلوهما الى مرتبة المواطن العادي. هكذا كانت تصرف كل الأمور في روما، بالاعتماد الكلي على الدين. فلا يسمحون بأي استصغار بوجه الى العرافة وطقوس القدماء، مهما كانت تصيب الامور المنهي عنها - من النجاح الكبير. وراح بهم الوهم الى أن احترام الحكام لارادة الآلهة هو أهم واجدى للسلامة الوطنية من قهر الاعداء. كان [طيباريوس سمپرونيوس Tiberius Sempronius] الذي وضع الجمهور سحاباه وأستقامته في أرفع منزلة، قد نصب [سببيو ناسيكا] و[كايس مارشيوس Caius Marcius] قنصلين لحلفاءه، فخرجوا كل الى الاقليم الذي عين فيه. ثم أن [طيباريوس] هذا بينما كان ينقّب في كتب الطقوس الدينية اذابه بقع على شيء كان يجهله وهو هذا؛ عندما يريد أي قنصل ان يقوم باستخارة، فانه يجلس في بيت أو خيمة تكترى له خارج المدينة، فاذا استدعاه أمر عاجل الى المدينة قبل ان يشاهد علامة ما، فعليه أن ينتقل الى خيمة أو بناء آخر عند عودته ليتابع منه المراقبة. ويظهر أن [طيباريوس] جهلاً منه، استخدم البيت نفسه مرتين قبل اعلانه تعيين القنصلين الجديدين.

ولما أدرك خطأه فاتح به مجلس الشيوخ، ولم يمر المجلس بهذه الهفوة البسيطة مرور الكرام بل عجل بالكتابة عنها لكل من [سيكبيو ناسيكا] و[كايس مارشيوس]، فتركوا اقليميهما وعادا فوراً الى روما ونزلا عن منصبيهما. حصل هذا في فترة متأخرة^(١٠)، وفي حدود ذلك الزمن أيضاً سحبت وظيفة الكهنوت من رجلين ذوي مكانة رفيعة جداً هما [كورنيليوس جيتيگوس Cornelius Cethegus] و[كونيتوس سولپيشيوس Quintus Sulpicius]. عزّل

(٩) لا يعود الفضل له بالنصر [ليني ٦٣:٢١] فقد دخل المعركة والنهر وراءه ولم يكن للجند مهرب غير العمل على نحر العدو. ويعود الفضل بالحقيقة الى التربيونين الذين لجأوا الى فنون عسكرية يشرحها ليفي بتفصيل. لقد اندحر [فلامينيوس] هذا أيام هنيبل في معركة تريبيا Trebia العام ٢١٦ ق.م.

(١٠) ستون سنة.

أولهما لأنه لم يرفع احشاه اضحية مذبوحة، بصورة صحيحة. ونُحي الثاني لأن الطاقية المهدبة التي يلبسها كهنة الأرباب أمشاله [فلامين Flamen] سقط من رأسه أثناء قيامه بذبح الأضحية. و[مينوشيوس] الدكشاتور الذي كان قد عين (كابوس فلامينوس) آمراً للخياله عزله هو ومن عينه عن القيادة لأن صوصاة فأرة سُمعت! وبصرف النظر عن اهتمامهم الشديد بمثل هذه الصفات التافهة، فإن هذا الحرص لم يؤد بهم إلى الشعبذات والاهام لأنهم لم ينحرفوا بها أو بغالوا عن أسلافهم في تطبيقها.

ما أن استقال (فلامينيوس) وصاحبه من منصب القنصلية، حتى قام الضباط المترسبون المعروفون باسم (انترركس Interrex)^(١١) باعلان [مارجللوس] قنصلاً وما ان تسلم مقاليد السلطة حتى أختار [كنيوس كورنيليوس Cnaeus Cornelius] زميلاً له. وقيل أن الغالين اقترحوا عقد صلح، وكان مجلس الشيوخ ميلاً الى السلم كذلك، لكن [مارجللوس] حمس الشعب للحرب. على أن الظواهر تشير الى ان الطرفين اتفقا على الصلح لكن مرتزقة الكيساتي، تقضوه بعبورهم الألب واثارتهم الاينسوريين (كان عدد الكيساتي، ثلاثين ألفاً فقط، بينما تجاوزهم الاينسوريون بكثير) وزحفوا وهم معتدون بقوتهم - نحو [أجيراي Acerrae]^(١٢) وهي مدينة تقع شمال نهر البو، ومنها أندفع ملكهم [بريتومارتوس Brito-martus] بعشرة آلاف منهم يجتاح الاراضي المحيطة بها. فلفت الانبياء [مارجللوس] فخلف زميله عند [اسيري] تاركاً معه المشاة وكل الأسلحة الثقيلة وثلاث وحدات الخيالة وأخذ بقيتها وستمائة من المشاة الخفيفة وراح يغذ السير ليلاً ونهاراً دون استراحة ولم يقف حتى أدرك هؤلاء العشرة آلاف بالقرب من قرية غالية تدعى [كلاستيديوم Clastidium]^(١٣) كانت قد ضمت الى ملك الرومان منذ وقت قصير. ولم يتسن له فاصل رمي لإراحة جنوده واستجماعهم إلا ان البرابرة انتهبوا اليه حالاً واستخفوا به لقله مشاته. وكان الغاليون أخذوا من ركب من امتطى الخيل - لذلك ابقنوا بالغلبة ولاسيما وان تفوقهم العددي على مارجللوس كبير جداً فلم يأبها وعاجلوه الهجوم، وملكهم على رأسهم كأنما يريدون وطئه تحت سنايك

(١١) أو [انتركيكس Interreges] وهؤلاء هم ضباط يتم تعيينهم في فترة خلو الدولة من الموظفين الاجرائيين كما يدل عليه معنى الكلمة اللاتينية المركبة «بين الحاكمين». ويكون واجبهم دعوة الجمعية العامة لانتخاب الحاكم الجدد من قناصل وهلم جزءاً. وقد استحدث المنصب زمن الملكية وبقي في عهد الجمهورية ولم يلغ.

(١٢) بلدة ما بين مدينتي ميلان وپلاچنتيا. قريبة من نقطة اتحاد نهري (ادأ) و(پو) كان الرومان يحاصرونها في حين زحف الغاليون لذك الحصار عنها. لكن ما لبثوا ان شبثوا عجزهم فعبروا نهر البو بجزء من عسكريهم والقوا الحصار على [كلاستيديوم] لتحويل الضغط وتخفيفه عن اجيري. [پوليبيوس، لفي ٥٢:٢٠].

(١٣) يضمها لفي في ليكوريا مونتاناً.

حيلهم، وهم يهددون بما سيرتكون من الفطائع والوحشية. عمد [مارچلوس] الى نشر خناحي خيائته وركب الى المشاة ومدّ في جناحيهم طولاً حتى بلغ جهة العدو، وقد لجأ الى هذا بسبب قلة جنوده وخوفاً في حركة التفاف يقوم بها العدو يستهدف بها الهجوم عليهم من سائر الجهات. وفيما هو بهم بالدوران لمواجهة العدو، أجفل حصانه لمنظر القتاليين المرعب وصيحاتهم، ونكص على عقبيه مرغماً راكبه على التنحي الى جانب، وخشي [مارچلوس] أن يفسر جنوده الحادثة تفسيراً سيئاً ويتخذوها فالاً نَحْناً فتثبط عزائمهم، أسرع يدير حصانه ليواجه العدو.

وأتى بحركة بدأ فيها وكأنه بصلي للشمس وانه لم ينكص دائراً على عقبيه بمحض الصدفة بل لغرض الدعاء. اذ كان من عادة الرومان أن يدوروا على أعقابهم عندما يرفعون الصلاة للآلهة. وفي هذه اللحظة التي كان سيصطدم فيها بالعدو قبل انه نذر خير السلاح [لجويتر فيريترىوس Jupiter Fertrius].

تطلع ملك الغال الى [مارچلوس] فخمن أنه الجنرال، من شعار السلطة الذي يتقلده فتقدم مسافة عن جيشه المهيأ للالتحام وتحده للنزاع بصوت عال ملوحاً برمحه وهمز جواده فأنطلق به نحوه كالعاصفة، وكان أقرع هامة من سائر العالين وابرزهم بدروعه المحلاة بالذهب والفضة ومختلف الألوان وهي تلمع كالبرق الخاطف. وبدت هذه الدروع لمارچلوس وهو يستعرض جيش العدو المصطف للمعركة، خير دروع وأجملها وحسبها تلك التي نذرها لجويتر، فأسرع نحو الملك وخرق درع صدره بطعنة رمح ثم أخذ يشدّ عليه بثقل حصانه حتى القاه على الأرض وعاجله بضربتين أو ثلاث أخرى فقتله. وترجل في الحال ووضع يده على سلاح القتل وشخص ببصره الى السماء وتكلم بالآتي:

- يا [جويتر فيريترىوس]، يا حكماً في بطولات القادة، وأعمال الجنرالات في الحرب وهي المارك، كن شاهداً بأنّي أنا جنرال، قتلت جنرالاً. أنا قنصل قتلت ملكاً بيدي هاتين، فكنت الثالث من الرومان في هذا. واليك أقدم أول وأفضل الغنائم؛ هب لنا القدرة على انهاء بقية هذه الحرب بهذا الحظّ المواتي نفسه.

ثم زجت الخيالة نفسها في المعركة ضدّ فرسان العدو ومشاتهم الذين هاجموا ونالوا نصراً فريداً لم يسمع مثله. إذ لم يحدث من قبل ومن بعد ان هزمت فئة قليلة من الخيالة هذا العدد الكبير من المشاة والفرسان معاً. لقد قتل من العدو عدد كثير. وجمعت الغنائم، وعاد [مارچلوس] الى زميله^(١٤) الذي كان يدير الحرب بدون توفيقٍ ضدّ العدو وبالقرب من

(١٤) في غياب مارچلوس اتمّ رميله سكيبيو الاستيلاء على (إجيري) ثم زحف على ميديولانوم والقي عليها =

[ميلان Milan] أعظم مدن الغاليين وأحفلها بالسكان، وكانت عاصمتهم ولذلك راحوا يدافعون عنها باستماتة وسالة، حتى بدأ وكأنهم يحاصرون [كورنيليوس] أكثر مما يحاصرونهم. وبعودة مارجللوس واستحاثات الكيساتي فور سماعهم بمصرع ملكهم واندهار جيشه، انقلبت الآية وتم الاستيلاء على ميلان^(١٥). ونزل الغاليون عن بقية بلدانهم وكل ما يملكون طواعية. وعقد صلح بين الطرفين بشروط عادلة.

وأعطى [مارجللوس] وحده حق الدخول بموكب النصر بمرسوم صادر من مجلس الشيوخ. وكان الاحتفال فخماً، باذخاً، مدهشاً بغنائم الحرب واجسام الأسرى الجبارة وهم يقادون. إلا أن المنظر الأروع والأندر كان الجنرال نفسه وهو يحمل سلاح الملك البريري إلى الرب الذي نذر لها. أتخذ عموداً خشبياً طويلاً مستقيماً من البلوط وهذبه وشذبه على هيئة نصب وعلق عليه دروع الملك والبنس وسلاحه واضعاً كل قطعة منها في مكانها المناسب، وسار به الموكب مهيباً وهو يحمل النصب وصعد العجلة ودخل المدينة ليبدو صورة لأروع نصر، ومشى خلفه الجيش وفق النظام العسكري وهو مزدان بدروع براق صقيلة. ينشد قصائد نظمت بالمناسبة ويترنم بأغاني الظفر أشادة بمدح جويتري، وجرالهم، ثم دخل [مارجللوس] معبد [جويتري فيريتريروس] وقدم هويته وهو على ما نعلم ثالث من فعل هذا وآخرهم. الأول كان [رومولوس] بعد قتله [اكرون] ملك [الكينينيين] والثاني كان [كورنيليوس كوسوس] الذي قتل [طولونيوس] الاتروسكاني، وثالثهم مارجللوس الذي صرع [بريتومارتوس] ملك الغال، وكان فيه مسك الحثام، ان الرب الذي قدمت له هذه الغنائم يدعى [جويتري فيريتريروس] ومن الغنائم التي حملت على القطب: Feretrum. وهي إحدى الكلمات اليونانية التي كثر استعمالها في ذلك الزمن في اللغة اللاتينية. أو هي كما يقول بعضهم لقب «جويتري ذي الرعود» مشتقاً من كلمة «Ferire». أي «الضرب» وهناك من يقول أنها مشتقة من «الضربات» التي تكال في القتال. ففي أثناء المعارك حتى يومنا هذا - ينادى المشتبكون في القتال أحدهم الآخر عند ضفطهم على العدو: «أضرب» وهي باللاتينية Feri. وبالغنائم يطلقون عليها عموماً اسم Spolia، وبصورة خصوصية: «Opima»، وان يقولوا أن [نوما بومبيليوس] ينو في تعليقاته بصنف أول وثان وثالث من الغنائم التي يسميها Spolia Opima. ويذكر الصنف الأول الذي يتم أغشنامة موقوف على [جويتري فيريتريروس] والثاني مخصص [لمارس] والثالث [لكويرينوس] وان المكافأة عن الأول ثلاثمائة أسّي Asses، وعن الثاني مائتان وعن ثالث

= الحصار [يوليوس المرحع نفسه، ليقي ٥٤:٢٠].

(١٥) استسلمت كونوم وهي مدينة هامة. وبذلك غدت كل إيطاليا رومانية صرفاً من جبال الألب إلى البحر الأيوني

مائة. والمفهوم العام السائد على كل - هو ان تلکم الغنائم لا تكون «أوبيما» إلا اذا وقعت في يد القائد العام أول غنيمة في معركة حاسمة وبشرط أن تسلب من القائد العام للعدو على أن يصرع بيد قائد العدو.

ارتاح الرومان بالنصر وختم الحرب ايّما ارتياح. وبلغ بهم السرور الى حدّ ارسالهم دليل امتنانهم من (اپوللو دلفي) كأساً ذهبية زمنتها مائة پاوند على سبيل الهدية ووزعوا جانباً كبيراً من الغنائم على حليفاتهم من المدن. وحرصوا على ارسال عدد كبير من الهدايا الى (هيرو Hiroe) ملك السيراغوزين صديقهم وحليفهم.

لما غزا (هنيعل) ايطاليا، أرسل (مارچلوس) الى صقلية على رأس عصابة بحرية. ولما هُزم الجيش الروماني البري في كاني Cannae وهلك من جنوده بضعة آلاف، ونجّت القلة منهم بالفرار الى كاموزيوم Canusium وخشي الجميع أن يقدم هنيعل على الزحف نحو روما فوراً بعد سحقه الجيش الروماني. وبعث مارچلوس أولاً الفأ وخمسمائة من جنوده لحماية البلدة ثم سار الى (كانوريوم) بأمر صدر اليه من مجلس الشيوخ، بعد أن بلغه تجمع كثير من الجنود الغارين وقلول الجيش المهزوم داخل تلك المدينة، ونجح في سحبهم خارج الاستحكامات واناذهم حائلاً دون قيام العدو بنهب تلك الانحاء. وكان معظم جنرالية الرومان قد صرعوا في ساحة القتال وفي اثناء العارك. وارتفعت شكوى الأهالي من طريقة ادارة الحرب، قائلين ان حذر (فابيوس ماكسيموس) المتناهي هو أشبه بالجمود والاحجام، وان كان يُعد نظره وصواب احكامه مما رفعه الى اسمى درجة من التقدير عند المواطنين، وكانت ثقتهم في ابعاد الخطر عنهم لأحد لها، الا انهم ما كانوا يتوقعون منه أن يرّد الكيل بكيل، ولذلك اتجهوا بانكارهم الى مارسلوس، يحدوهم الأمل في أن تقرن جرأته وعزمته وفورية اجراءاته بحذر فابيوس وفطنته، وأن يُطعم أحدهما بالآخر. فراحوا يدفعون بهما الى العدو معاً أحياناً بسلطة القنصل القائد لكليهما، وأحياناً بوظيفة (قنصل) لأحدهما، ويمنصب (پروقنصل) للآخر. وذكر (پوسيدونيوس) أن (فابيوس) لقبّ بدرع روما، ولقبّ (مارچلوس) بسيفها. وما هو ثابت أن هنيعل أقرّ بأنه يخشى فابيوس كما يخشى معلماً، ويخشى مارچلوس كما يخشى خصماً، يخاف من الأول لئلا يردعه عن خلق تشويش وفوضى، ويخاف الثاني لئلا يلحق به أذى.

في مبدأ الأمر بينما كان جنود هانيبال ثملين بخمرة انتصاراتهم، لا يقيمون ايّ وزن لقوة العدو، وقد بلغ اعتدادهم بأنفسهم حداً كبيراً، راح (مارچلوس) يهاجم فصائل السلب المغيرة التي كان يطلقها العدو، ويغير على ساقته في المؤخرة فيبيدها واحدة بعد الأخرى. وبهذا كان يُنقص من قوات خصمه شيئاً فشيئاً. ثم قدّم العون الى (الناپولين Neapolitans) وأهالي

[نولا Nola] فاستقرت أحوال الأولين الذين كانوا محلصين في حلفهم مع الرومان في الواقع، لكنه وحد النولانيين مختلفين منقسمين على أنفسهم ولم يكن الشيوخ قادرين على ممارسة الحكم ومباشرة العامة، لأن هؤلاء كانوا بصورة عامة متحاربين إلى جانب هنيبعل، وكان في المدينة شخص يُدعى [بانتيوس Bantius] ^(١٦) وهو رجل مشهود له بالأساس وشرف المحتد، أبلى بلاءً مرّاً في معركة [كاني] وقتل بعدد كبير من الأعداء، ثم وجد مدفوناً تحت أكداس من جثث القتلى تغطي جسده الرماح والأسنة فجاء به إلى هنيبعل فأحتفى به وأكرامه غاية الإكرام ولم يكتف باخلاء سبيله دون فدية، بل آخاه واستضافه، فأقلب نصيراً من أقوى انصار [هنيبعل] عرفاناً منه بجميله الكبير. وأنشأ يحرض الناس للانتفاض على الرومان، وراحت المساعي المبذولة لحمل [مارچلوس] على قتله عبثاً نظراً لما يتمتع به من مكانة وشهرة، ولاحتماله شتى الأخطار في القتال إلى جانب الرومان. وكان مارچلوس شديد الثقة بقدرته على استمالة شخصية كهذه جبلت بمعدن الشرف، بما طبع عليه من مزاج رقيق وسحر وجاذبية في حديثه وفي ذات يوم التقى [بانتيوس] فحيّاه هذا، فسأله [مارچلوس] متجاهلاً عما يكون؟ ليس لأنه لا يعرفه، بل ليتخذ من ذلك ذريعة لمجاذبة أطراف الحديث. فأفصح [بانتيوس] عن اسمه وكنيته فافتعل [مارچلوس] الدهشة المشوبة بالسرور والاعجاب ^(١٧) وقال:

- أفانت هو [بانتيوس] الذي لهج الرومان بمديحه، وخصوه بشناء فاق ثناءهم على كل من حارب في [كاني]، بوصفه البطل الذي ظلّ ملازماً [پاولوس اميليوس] ولم يتخل عنه، لا بل تلقى بصدرة الرماح التي كانت موجهة إليه؟

فأقرّ [بانتيوس] بأنه هو بعينه وكشف عن ندوبه. فقال له [مارچلوس]

- فلماذا إذن تشرفني بزيارة عند أول قدومي؛ وتلك هي براهينك على محبتك بنا؟ أترانا نحجم عن ردّ الفضل لمن يستحقونه ولا سيما أولئك الذين أكرمهم اعداؤنا بالذات؟

واتبع مجاملته هذه باهدائه حصان قتال ومبلغاً قدره خمسمائة دراخما. فانقلب [بانتيوس] لساعتها نصيراً من أخلص انصار مارچلوس. ونشط في الكشف عن كل من يعمل على الدس والفتنه.

وكان هؤلاء الدساسون من الكثرة بحيث دبروا مؤامرة واسعة تهدف إلى سلب ائقال الجيش الروماني وامتنعته حال قيام هؤلاء بحملة على العدو، لذلك قام [مارچلوس] بتدابير أمن

(١٦) أو مانيوس Bandius.

(١٧) أنظر سيرة [فانيوس ماكسيموس].

وحماية داخل المدينة، ووضع أمتعة الجيش في أمكنة قريبة من ابواب المدينة، وأصدر أمراً رسمياً يحظر اقتراب التوّلان من الأسوار. وبهذا لم يعد يرى سلاح في المدينة من الخارج. وهكذا استدبح هنيبعل للتحرك نحو المدينة بجيشه الذي كان يتخلّله بعض الفوضى، متوهماً أن المدينة تموج بالاضطراب. وعندئذ أمر مارچلوس بفتح أقرب باب وخرج للهجوم بنخبة من خيالته من الامام، وتبعه المشاة بالهجوم من باب ثانٍ^(١٨) وهم يصيحون، ثم فتح الباب الثالث اثنا، ما كان هنيبعل يصدّ الهجومين بجزء من جيشه، واندفعت منه بقّة قوات [مارچلوس]، ووشوا من جميع الجهات على العدو الذي خارت عزائمه بفعل المباغتة وكانت مقاومتهم ضعيفة لمن هاجمهم بالأول بسبب عنف الهجوم التالي عليهم من القوات الأخيرة، وهنا هُزم جنود هنيبعل وطوردوا حتى معسكرهم بعد أن خسروا كثيراً من القتلى والجرحى وهي أول مرة يولون أديارهم للرومان. وقيل أن أكثر من خمسة آلاف منهم سقطوا صرعى في هذه العملية. بينما لم يتجاوز خسائر الرومان خمسمائة قتيل، على أن المؤرخ ليقى لا يؤيد أن نصر الرومان كان كبيراً ولا الحسارة التي مني بها العدو بلغت هذا المبلغ، ومهما يكن فلا جدال في أن هذه المعركة رفعت كثيراً من منزلة مارچلوس وأنعشت معنويات الرومان بعد النكبات السالمة، وأحببت الثقة في أنفسهم بدرجة كبيرة إذ أبدأ الأمل يداعبهم في أن العدو الذي يكافحونه من الممكن أن يغلب، وأنه عرضة للهزيمة مثلهم.

ولذلك استدعى الرومان [مارچلوس] إثر وفاة القنصل الآخر^(١٩) ليعملوا على نصبه في محله، وتمكنوا رغم معارضة الحكام في أرحاء الانتخابات لحين قدومه^(٢٠)، ففعلاً ثم انتخابه باجماع الأصوات، ولكن اتفق أن أرعدت الدنيا في تلك الساعة، فأقنّى الكهنة العراقيون بأن انتعابه لم يكن شرعياً، فهو باطل ألا أنهم لم يجروا على إعلان قرارهم رسمياً، خوفاً من الشعب^(٢١)، فنزل [مارچلوس] عن القنصلية من تلقاء نفسه مستبقياً قيادته على كل، ثم

(١٨) عن هذه الهجمات وأثرها يؤيدنا ليلي [٢٣ ١٦] بمعلومات متواضعة هي أقرب إلى المنطق والمعقول.
(١٩) القنصل المتوفى هو [بوستيموس الينوس] الذي قضى عليه قوم بوني Boni وكل جيشه البالغ خمسة ومئتين ألفاً داخل غابة واسعة الرهاب يطلق عليها الغاليون اسم (ليتانا). ويبدو أنهم قطعوا كل الأشجار القريبة من الطريق الذي كان الجيش الروماني سيسلكه، وبشكل يكتنهم معه من مباغتة دون أن يتوقع ذلك (ليلي ٢٣: ٢٤). وقد جعل الغاليون من جمجمة القنصل وعاء للشراب يستخدمونها في أعيادهم. وفع دلم بعد معركة (كاني) باتشهر قليلة.

(٢٠) شك العامة بأنه أزعج عن الطريق عمداً بفعل مطس الشيوخ.
(٢١) كان مارچلوس من الطبقة العامة (البليبيان) الذين يقال لهم باللاتينية Terra Pili لبناء الأرض. وكذلك كان القنصل المزامل (سمبرونيوس) ولم يكن الهاتريشي مرتاحين لوجود قنصلين من الطبقة العامة انكرت صحة النبوة، لكن مارچلوس أظهر نفسه رجلاً حريصاً على النظام الجمهوري فرفض شرفاً لم يجمع عليه المواطنون كافة.

نُصب [بروقصلاً] وعاد إلى مقر قيادته في [نولا]. وراح يضيق الخناق على الموالين^(٢٢) للقرطاجيين ولما أقبل هؤلاء، مسرعين لنجدتهم أبى مارجلوس قبول تخديهم والدخول في معركة فاصلة، ولكن عندما أرسل هنيبعل جماعات للسلب وزاياله كل ترويع للقتال^(٢٣)، باعته [مارجلوس] بجيشه، وكان قد زود جنوده المشاة برماح طويلة بما يستعمل عادة في قتال البحر ودرهم على قذفها بقوة عظيمة إلى مسافات مناسبة نحو العدو الذي لم يكن لديه أية خبرة بهذا الأسلوب في القذف وتعود القتال بسيف قصيرة، ملتجئاً بعدوه التحام اليد باليد^(٢٤). والمعتقد أن هذا هو السبب الذي أدى إلى اندحار القرطاجيين المشاركين في المعركة اندحاراً تاماً ومرارهم أثر ذلك وتركهم خمسة آلاف قتيل^(٢٥)، وموت أربعة فيلة وعنيسة اثنين؛ لكن أعظم انتصار له، كان بعد ثلاثة أيام من هذه المعركة، حين أقتل أكثر من ثلاثمائة فارس إسباني ونوميدي يعلنون انفصالهم^(٢٦) عن جيش العدو والانضمام إليه، وهي ضربة مرجعة لهنيبعل لم يتلق مثلها حتى ذلك اليوم، فقد عرف دوماً بمقدرته الفائقة في تحقيق الانسجام والوثام بين جيشه البري المؤلف من أقوام مختلفة ذات طبائع متنافرة، وأفاد مارجلوس وخلفاءه^(٢٧) فهذه الكتيبة خدمات جليلة مخصصة في الحروب التالية.

وأخير فصلاً للمرة الثالثة، وأرسل حراً إلى صقلية^(٢٨) لأن نجاح هنيبعل شجع القرطاجيين على الادعاء، بالجزيرة كلها. والسبب الرئيس في ذلك، هو أن الفوضى والاضطراب عمماً سيراكوز بعد قتل [هيرويموس]^(٢٩) طاغيتهما، فألجأ الرومان في الوقت نفسه إلى إرسال قوة برية نحو المدينة بقيادة [إبيوس]^(٣٠) البريتور. وبينما كان مارجلوس

(٢٢) وهم الهيربيني Hirpini والسامني Samnite. (الرجع السالف ٤٢).

(٢٣) قبل هذا بأربعة أيام كان ثم معركة طاحنة أمام أسول مدينة (نولا) كانت تكون من العواصم الفواصل لولا أن حالت العاصفة بين الفريقين فانكفأ بعض عن بعض (الرجع نفسه ٤٤).

(٢٤) كانت سيوف المقاتلين الأقدمين قصيرة بصورة عامة ويشمل ذلك سيوف الرومان والسيارطيين والقرطاجيين والغاليين... إلخ.

(٢٥) وأكثر من هذا. فضلاً عن أسر ستمائة منهم وخسارة تسعة عشر لواء. أما الجانب الروماني فلم تزد خسائره عن الألف [لبي ٢٣-٤٦].

(٢٦) يجعلهم لبي ١٢٧٢، لذلك فمن المحتمل أننا نستطيع قراءة هذه العبارة بزيادة لفظة ألف.

(٢٧) هزم مارجلوس [هنيبعل] أمام نولا للمرة الثالثة. ولو أن كلوديوس نيرو الذي بحث به لهاجمة القرطاجيين من الخلف وصل في الوقت المناسب لمؤوض عن الخسارة التي الحقت به في (كاني).

(٢٨) في ٢١٢ ق.م.

(٢٩) وثب رعية (هيرونيوس) عليه ففتكوا به في [ليونتيوم]. وهذا هو ابن كيو Gelo وحفيد ميرو. توفي (ميرو) قبل أبيه الذي عمر تسعين عاماً. وهيرونيوس الذي لم يتم الخامسة عشرة عند وفاة جده، قتل بعد بضعة أشهر. وهذه الوفيات الثلاث وقعت في نهاية السنة السابقة لقنصلية مارجلوس الثالثة (لبي ٢٤، ٧-٤).

(٣٠) أرسل [إبيوس كلوديوس] قتل ماركس هيرونيوس.

يستقبل هذه القوة، بادر عدد من الجنود الرومانيين الى القاء انفسهم على قدميه مستعطفين، هذا العمل كان يمت بصلة الى السكبة التي سنورد وقائعها فيما يلي:

كان من نتائج معركة [كاني] أن عدداً من الجنود لجؤوا بفرارهم، ووقع عدد آخر في اسر العدو. وكانت الخسارة فادحة والعدد كبيراً حتى ظن أنه لم يبق ما يكفي من الرومان للدفاع عن سور المدينة.

ومع هذا فقد أبت كبرياء المدينة، ورسوخ عزمها أن تفتدي أسرى الرومان من هنيبعل رغم تفاهة مبلغ الفدية، وصدر قرار من مجلس الشيوخ بحظر ذلك مفضلاً أن يقتلهم العدو أو يبيعهم رقيقاً خارج إيطاليا، كما أمر أن ينفي الى صقلية كل من فرّ ناجياً بنفسه ولا يسمح لهم بالعودة الى إيطاليا حتى نهاية الحرب مع هنيبعل، هؤلاء الفارون المبعدون توجهوا الى مارچلوس فور وصوله صقلية والقوا بانفسهم على قدميه، طالبين منه، بكثير من التوسل واليكاء أن يعيد اليهم شرفهم بقبولهم في الخدمة ووعدده أن يثبتوا باخلاصهم وتفانيهم وحسن بلائهم في المستقبل بأن الهزيمة التي حلت بهم كانت اليد الطولي فيها الى معاندة الحظ وليس مبعثها جبنهم. وكان عددهم كبيراً، فأشفق عليهم مارچلوس وعرض مسألتهم على مجلس الشيوخ مقترحاً أن يمنح صلاحية غير مشروطة بزمان أو مكان بقبول تطوعهم وتأليف فرقة منهم. وبعد أخذ ورد طويلين، أصدر المجلس قراراً مفاده أنه لا يرى حيراً للجمهور في خدمة جنود جبناء. أما اذا رأى [مارچلوس] خلاف هذا فلا بأس أن بطوعهم، شريطة ألا يحظى أحد منهم بأي تكريم في أية مناسبة، ولا يعطى تاجاً أو جائزة عسكرية أو مكافأة عن اي عمل بطولي أو شجاعة يبديها. وقد حزّ هذا القرار في نفس [مارچلوس] حزاً، حتى انه انبأ مجلس الشيوخ عند عودته الى روما بعد انتهاء الحروب الصقلية، وعاتبهم لأنهم انكروا عليه حرية التصرف في التفريغ عن كربة المواطنين العظيمة، وهو الرجل الذي يستأهل الكثير من الجمهورية.

واراد [هيبوقريطس] قائد السيراكوزيين أن يقدم برهاناً على ولائه للقرطاجيين، ولينصب من نفسه حاكماً مستبداً على البلاد، فعمد الى قتل عدد من الرومان في مدينة [اليرنيثي]. فشارت ثائرة [مارچلوس] وحاصر المدينة واستولى عليها عنوة. ولم يتعرض لأي من سكانها بسوء، إلا أنه قبض على الفارين من الجيش، وأوقع بهم عقوبة «العصي والفأس». فما كان من هيبوقريطس إلا ونشر نبأ كاذباً في سيراكوز، زعم فيه أن مارچلوس أعمل السيف في رقاب كل البالغين من سكان المدينة. ثم انه جاء الى سيراكوز التي كانت تضج بالويل والثبور وتتلظى سخطاً لما أشيع عن مارچلوس فيبادرت الى نصبه سيّداً لها. فتحرك مارچلوس بكل قواته نحو المدينة وعسكر بالقرب من أسوارها وبعث بوفد الى سكانها ليكشفوا لهم عن

حقيقة الأمور في [اليونيتني]، فلم يتوصلوا الى تفاهم لأن السلطة كانت مركزة بيد [هيپوقريطس]^(٣١) ولا شأن للأهالي بها. فاشتر هجومه على المدينة من البرّ ومن البحر. وكان لواء القوات البرية معقوداً [لأبيوس]، أمّا هو، فشرع بهاجم الأسوار من جهة البحر بستين بارجة من ذوات الاطناف الخمسة. وكانت مجهزة بكل أنواع السلاح والقاذفات ويجسر ضخّم من الألواح مركب على ثماني سفن مشدودة بعضها الى بعض، وقد نُصب فوق هذا الجسر آلة المنجنيق لقذف الحجارة والحراّب، إضافة الى استعداد الضخّم هذا، كان معتمداً على شهرته وماضيه العسكري؛ إلا أن هذا كله لم يعد شيئاً مذكوراً أمام [ارخميدس - Archi-medes] وآلاته، كما سنوضح.

صممت هذه الآلات ورُكّبت بناءً على طلب ورغبة الملك [هيرو] بوصفها ادوات تسليية وتجريب في علوم الهندسة (جيومطريا)، ولم يقصد بها غايات مهمّة، وتم صنعها قبل زمن وجيز، لأن الملك العالم كان يريد أن يخرج بعض جوانب ابحاثه العلمية العجيبة الى حيز التطبيق العملي. ويخضع الحقائق النظرية الى عالم الحسّ، وينزلها الى ميدان العمل، ليستثار اهتمام الناس بهذا العلم ويرتفع تقديرهم له عموماً. وكان [يدوكسوس Eudoxus] و[آرخيتاس Archtas]^(٣٢) أوّل من عالجوا هذا العلم الشريف الجليل القدر، علم الحيل (الميكانيكا)، واستخدموا تفسيراً رائعاً عجيباً للحقائق الهندسة (الجومطرية)، ووسيلة تجريبية لاقتناع الحواس والبرهنة العملية على نتائج الشديدة التعقيد، والصعبة على الفهم بمجرد الرسوم والكلمات التي لاتفي بالغرض مهما كانت واضحة فمثلاً كثيراً ما يتطلب حلّ مسألة من المسائل فرض اشكال هندسية يتعين فيها ابعاد الحديّين في التناسب لايجاد أقصر خطين وتشيت هؤلاء الهندسيون بادواتهم، واتخذوا لأغراضهم خطوطاً معينة من منحنيات وقطوع. فأنبى [افلاطون]^(٣٣) يندّد بها ويستنكر تعاطيها لأنها «افساد بل قضاء، مجرم على علم الهندسة الصالح المجدي، يعزوفها المخجل عن كل ما لا يدخل في عداد المعقولات المجردة حيزاً ومادة، ولنحوها منحى الحسّ واستنادها التام الى المادة. وهو ما لا يتمّ تحقيقه إلا

(٣١) على أثر اغتيال هيرونيموس عاد الحكم جمهورياً. وتمكن كلّ من [ايپوقريطس] و[بيكيدس] وهما عميلان لهيبيل من أصول صقلية، أن يصمما پريطورين. وكان نتيجة ذلك أن لجأ الى وسائل لبذر الشقاق بين صقلية وروما دون القاء بال على معارضة زملائهما الباقيين العريضين على مصلحة البلاد.

(٣٢) [ايدركسيس] ملكي وهندسي شهير من [كبيدوس]. ويعزى اليه وضع السنة الاغريقية. كتب سيرته [ديوغنيس لانيريوتوس] اما [ارخيتاس] فقد نبغ في ايام حكم ديونيسيوس الأب قبل حصار سيراقوز بتكثر من مائة وستين عاماً.

(٣٣) لا يجد افلاطون شيئاً ذا جدوى في غير ما هو عامل ثقافة. ولذلك نراه لا يقرّ أن يشغل الفيلسوف نفسه في علوم الطسعة ألا تكون مادة للتسلية وتزجية الوقت فحسب.

بخسارة ودناءة». وهذا ما أدى الى انفصال علم (الحيل) الميكانيكا عن الهندسة، فاهمله العلاسفة واكروه وأحتقروه، فاحتل مكانة بين الفنون العسكرية. على أن [ارخميدس] ذكر في رسالته التي كتبها لصديقه وقريبه (هيرو) الملك، انه يمكن رفع وتحريك اي ثقلٍ بالغ ما بلغ اذا توفرت قوة معينة. وقيل لنا أن الأمر بلغ به حَدَّ الفخر اذ قال: انه بالاستناد الى قوة مركزة، وفي حالة وجود ارض أخرى غير ارضنا هذه، فهو يستطيع بالذهاب اليها، أن يرفع هذه الارض من مكانها! فسبغت [هيرو] وصُعق وطلب منه أن يبرهن على هذه المسألة بالتجارب، ويثبت كيف يتسنى لآلة صغيرة الجرم أن ترفع ثقلاً عظيماً. فأتخذ ارخميدس سفينة نقل من أحواض الملك موضعاً لتجربته، لا يمكن سحبها الى اليابسة دون استخدام مجهود عذد كبيرٍ من الرجال. فأركب فيها المسافرين حتى ضاقت بهم. وملأها بالأمثلة. وابتعد عنها مسافة كبيرة وجلس وامسك برؤوس حبال مشدودة ب بكرات وأنشأ يسحب عدداً منها بصورة تدريجية فتحركت السفينة اليه وتقدمت سعوية بخطٍ مستقيم وبسهولة ويسرٍ كأنها تسير على سطح البحر دون أن يستدعي ذلك منه مجهوداً عظيماً. فعجب الملك غاية العجب ووافقته بجدوى هذا العلم وسلطانه والحق على ارخميدس أن يصنع له آلات تصلح لكل أغراض الحصار الهجومية والدفاعية، فحقق [ارخميدس] طلبه إلا أن الظروف لم تلجئه الى استخدامها لأنه قضى جُلَّ حياته في سلام ودعة ورخاء. وبقيت تلكم الآلات مهيأة لاستعمال السيراكوزيين ومعها مخترعها وصانعها بشخصه.

وأول ما هاجم الرومان الأسوار من جهتين في آن واحد استولى العرب على السيراكوزيين حتى شلَّ حركتهم، إذ خيل لهم الأقبل لهم قط بهذه القوات. وهنا بدأ [ارخميدس] يستخدم آلاته، وراح يطر القوات البرية بكل أنواع المقذوفات من الأسلحة وكتل الصخر العظيمة التي كانت تسقط بقوة هائلة وضجيج يصم الأذان، فلا يقف أمامها أحدٌ إلا قضت عليه فصرعت من المهاجمين أكداًساً مكدسة. وحطمت صفوفهم فحطيماً غير مستثنية ضابطاً من جندي، ثم برزت من الأسوار في الوقت نفسه - اعمدة في غاية الضخامة والطول، أمتدت الى السفن وأخذت تفرقها بنزولها عليها بقوة هائلة ومخطمها. أو برفعها في الفضاء بكلاية^(٢٤) حديدية في رأسها تشبه منقار الكروان تنزل الى السفينة وتقبض عليها من قيدها وترتفع بها

(٢٤) الأولى الأعظم الذي حلَّ بالرومان هو آلة حربية على شكل غراب دي مخلين أو خطافين. مشدود الى سلسلة طويلة تتدلى من أعلى بواسطة عتلة. ان ثقل الحديد يجعلها تهوى بسرعة هائلة فتترطم السفن وتحطمها. ويحملها المدافعون رصاصاً من النهاية الثانية ويرفعون الغراب مع القيدوم الذي يمسك به فتتميل المؤخرة وتغرق في الماء في عين الوقت ثم يغلب الغراب قنيصته اي السفينة - بصورة مفاجئة فسقط القيدوم في البحر بقوة عظيمة وتمتلي السفينة بالماء وتغرق.

مكوسة تم تطلعها لبيتلعها البحر. أو كانت تسحب السفن بقوة آلة مصوبة داخل السور فتدور على نفسها ثم تصطدم بصخور الجرف النافرة في أسفل السور، فتتحطم ويهلك من عليها. وكثيراً ما كانت الرافعة ترتفع بالسفينة الى علو كبير في الفضاء (وهو منظر مهول للراني)، وتهزها الى أمام وخلف، وتؤرجعها حتى تقذف منها بحارتها ثم تطلقها من حلق لتتحطم فوق الصخور.

أما عن الآلة التي جاء بها [مارجلوس] محمولة فوق جسر عائِم، فتدعى [سامبوكا Sam-buca] لوحود وحه شبه بيها وبين آله من آلات الطرب. وفيما كانت تقترب من السور، سقطت عليها كتلة صخرية ترن عشرة ثالثات^(٢٥)، ثم ثانية وثالثة تباعاً هوت ظهرها بقوة خارقة وصوت أشبه بهزيم الرعد فقصمت دعائمها وفتحتها تفتيتاً، وقلقت الاحزمة التي تربطها بالجسر وفصلتها عنه. وأستولت الحيرة على [مارجلوس] ولم يدر أي سبيل يسلك. ثم عمد الى سحب كل سفنه الى مسافة تكون معها بمنجى من تلك الآلات. وأصدر أمراً بالتقهقر العام لجميع قواته البرية. ثم نفذ خطة أخرى وهو الدنو من الأسوار لئلا ان امكن، يحذره ظنه بأن اقترابهم الشديد من الأسوار سيحمي الجنود من غائلة [ارخميدس] الذي كان يستعمل الاقطاب المحدودة الى مسافات طويلة، في ادارة آلاته. ويكون الجنود في هذه الحالة تحت القاذف وستطير الحراب فوق رؤوسهم ولا تؤثر فيهم، بخروجهم من دائرة التصويب. والظاهر ان [ارخميدس] كان قد احتاط لهذا أيضاً منذ زم بعيد فصنع آلات توافق اية مسافة. وتناسب المقذوفات ذات المدى القصير. وفتح ما لا يحصى من المزاغل الضيقة في الأسوار وراح يوجه منها للمهاجمين ضربات غير متوقعة بالآت ذات مدايات قصيرة. وهكذا بينما كان الأمل يراودهم بنجاح حيلتهم، ما رأوا إلا ورشقات من الحراب تنشال عليهم مع مقذوفات أخرى، وعندما بدأت الصخور تهوي على رؤوسهم عمودياً وانطلقت السهام كالمنطر من الأسوار كافة، لم يروا بداً من الانسحاب، وفيما هم يتقهقرون عادت الآلات من النوع الأول تمطرهم بوابل من الشباب والرماح ذات المدى البعيد وأوقعت بهم مقتلة عظيمة. وأخذت سفنهم تصدم إحداها الأخرى بفعل آلاته، وهم عاجزون عن الرد بأي شكل كان، فقد ثبت

(٢٥) ليس سهلاً علينا أن نستوعب أو نكوّن فكرة عن عمل آلات ارخميدس وكيف يتم لها قذف كتلة صخرية عظيمة زنتها (١٢٥٠) پاوند على سفن مارجلوس وهن على مسافة كبيرة من الأسوار. ان الشرح الذي يقدمه [إبوليبوس ٨] أقرب الى المعقول هنا. ان يقرر بان الصخرة التي قذفها آلات ارخميدس تبلغ زنتها خمس پاوندات ويظهر ان (اليفي) يتفق معه في هذا. واذا نحن افترضنا بان پلوتارخ إما يقصد الثالثت الصقلي لا الروماني وهو يزن ٢٥ پاوندأ على قول بعضهم و ١٠ پاوندات على قول بعض، فن زعمه يكون أقرب الى الحقيقة والمعقول.

[ارخميدس] معظم آلاته فيما يلي السور مباشرة من الداخل ولذلك لم يكن بمقدور الرومان مشاهدتها ولا معرفة الجهة التي يأتيهم البلاء منها، بلا رفق ولا نهاية حتى خيل اليهم أنهم لا يقاثلون البشر بل الآلهة.

وكتبت السلامة [مارجللوس] في هذه المعمة. وراح يسخر بمهندسيه وصناعه قائلاً:

- ماذا؟ الا سبيل لنا إلا أن نكفّ عن قتال هذا الغول الهندسي المتعدد الأيدي [برياروس: Briareus] الذي يلعب بسفنا لعبة «الرفع والقذف»، ويمطرنا بآلاف مؤلفة من الحراب في كل دقيقة! انه لعمرى يفوق جبابرة الأساطير ذوي الأيادي المائة!

وما لا ريب فيه أن السراقوزيين لم يكونوا غير وعاء لاختراعات [ارخميدس] حلت فيه روح واحدة تحرك الجميع وتحكمهم. فبدؤوا جانباً كل اسلحة وراحوا يلقيون الرعب في غرس الرومان بهذه الآلات وحدها. وآمنوا لأنفسهم الحماية. ولا نطيل، فقد كان الفرق يستولى على الرومان كلما شاهدوا جبلاً صغيراً أو قطعة خشب تخرج من السور، فيصرخون:

- ها انها تعود ثانية!

متوهمين أن [ارخميدس] يهم باطلاق آلة من آلاته عليهم، فيطلقون سيقانهم للريح لا يلوون على شيء، وكف [مارجللوس] عن القتال والهجمات المتكررة وأودع كل آماله في الحصار الطويل الأمد.

على أن [ارخميدس] كان ذات نفس سامية، وروح عميقة، أودعت كنوزاً لا حصر لها من المعارف العلمية. حتى انه لم ير من المناسب أن يترك مذكرات، أو أي كتابة في هذه المواضع، رغم أن مخترعاته هذه، وضعته في أعلى درجات الشهرة، وفوقته على كل الحكمة البشرية. فقد اكر صناعة الميكانيكا كلها، وعدّها من العلوم التافهة التي لا جدوى منها وصدّت نفسه عن هذا الفن الذي ليس وراءه إلا الريح والاستعمال المادي الرخيص. وأوقف كل مطمح له وحصر همه في الابحاث والتنسيجات التي تطهرت من كل علاقة بحاجات الحياة الدنيا. وأنصرف الى الدراسات التي لا مجال لإنكار سموها أو الشك في علو مقامها إلا بدرجة احتواء جمال وعظمة المواضيع المبحوثة على الدقة وقوة الاقتناع من ناحية طرائقها ووسائل برهانها. تلك هي الدراسات الجديرة منا بأكثر الاعجاب والاحترام، وفي عالم الهندسة افي الامكان حلّ مسائل أكثر صعوبة وتعقيداً مما حلّه؟ أو ايجاد تفسيرات أكثر وضوحاً وبساطة من تفسيراته؟ بعضهم يعزو قدرته الفذة الى (جيّه) الملازم له. في حين يعزوه بعضهم الى الدأب المتواصل والجهود المدهشة التي بذلها ليصل الى نتائج بدأ ظاهر حالها بسيرة سهلة في

حين يتعذر عليك ان تحذ لها اي تعليل أو سبب مهما بذلت من جهد للتحري عنها . ومع هذا فما يقع بطرك عليها حتى يستولى عليك أعتقاد بأن لا شيء ، يحول دون كشفك عن سرّها . وهكذا يستدرحك بسبيل ممدّد قصير الى النتيجة المطلوبة ، وبهذا لا تعود ترى محتجراته من قبيل المعجزات أو الخوارق . ولقد شاع قول الناس فيه «إن سحر عروسة بحره (سيرين Siren) الأليفة المحبوبة هذه كانت تنسيه طعامه ، وتجعله يهمل نفسه ولا يحسّ لها وجوداً حتى انه كان يحمل الى الحمام قسراً ليُغسل جسمه ويدهن بالزيت وهناك يقوم بتابعة الاشكال الهندسية في رماد النار ، ويرسم مخططات هندسية في الزيت المنتشر على جسمه ، وينقلب الى حالة التجاذب تام يصرفه عن عالم الواقع . وبأصدق التعابير يكون في حالة الوحي الالهي مع جبه وتعلقه بالعلم . وكانت مكتشفاته عديدة وعجيبة ، وقيل انه أوصى اصدقائه والأقربين أن يضعوا على القبر الذي يحوى رفاته ، كرة تحتوي على اسطوانه وينقشون هذا «الجسم الذي يغمر في سائل يفقد من وزنه بقدر حجمه فيه»^(٣٦) .

هكذا كان ارخميدس الذي برز الآن مع مدينته كائنين لا يقهران بسعيه ومجهوده . وأستمر الحصار ، إلا أن مارچلوس استولى في غضون ذلك على (ميفارا) وهي من أوائل المدن التي بناها الاغريق في صقلية ، كما احتل أيضاً معسكر (هيبوقريطس) في أكيلي (Aciliæ) وفتك بما يزيد على ثمانية آلاف من رجاله^(٣٧) ، اذ فاجأهم وهم منصرفون الى اقامة استحكاماتهم . ثم أحتاج قسماً كبيراً من الجزيرة وحقق الغلبة على كلّ من اشتبك معه . وفي اثناء الحصار وقع بيد الرومان لقيديموني يدعى (داميبوس Damippus)^(٣٨) كان قد رحل عن سيراكوز في

(٣٦) أكتشف هذا النصب شيشرون عندما كان يشغل وظيفة الكويستور في صقلية وهو بشكل عمود صغير . عرضه على السيراكوزيين فلم يفيدوه بشيء عنه . ويقول هو انه وجد أبياتاً شعرية محفورة عليه تكاد أعجازها تكون متآكلة بفعل الزمن . وكان يبدو فيه - وهو ما تؤيده بقايا الإبيات الشعرية - صوراً الاسطوانة والكرة وهما الشكلان الهندسيان اللذان أكتشف ارخميدس النسبة بين مساحتهما [أنظر شيشرون ٢٣٥] ويضيف قائلاً انه قبر ارخميدس كاد يختفي تماماً فلا يلفت النظر بسبب العشب الذي نما حوله فغطاه ، لولا اليهود ، التي بذلها الرجل الابيريوني فادت الى العثور عليه .

(٣٧) دخل همليكو مينا هراكليا على رأس اسطول ضخم ارسل من قرطاجنة فانزل عشرين ألف راجل وثلاثة آلاف خيال وأشي عشر فيلاً . ما ان أكمل الانزال حتى زحف بجيشه هذا على أكركنتم وانزعهما من الرومان مع عدة مدن أخرى كان مارچلوس قد أستولى عليها . عندئذ قررت حامية سيراكوزة التي ظلت سالمة ان تعز فوات (همليكو) بعشرة آلاف راجل و ألف وحسمائة خيال تحت قيادة (هيبوقريطس) وعاد مارچلوس الى سيراكوزة بعد ان فشل في استعادة اكركنتوم وفيما هو على مقربة من (اكريلي) استب محاة الى (هيبوقريطس) وهو مشغول في تحكيم معسكره فانقص عليه دون ان يدع له فرصة تحريد قواته أو تنظيم صفوفه ويثر ثمانية آلاف من مرتائنه اسلاءً . [ليفي ٢٤: ٣٥ و ٣٦] .

(٣٨) طالاً نحدة من ملك فيليب [ليفي ٢٥ ٢٣] .

أحدى السفن، وأظهر السيراكوزيون لهفة شديدة في افتدائه، فجرت لهذا الغرض عدة لقاءات ومداولات بين مارسللوس وبينهم واتيحت له الفرصة خلال ذلك ان يتأمل برجاً من الابراج كان في الامكان ادخال مجموعة من الجنود اليه سراً. وفي غفلة عن العيون. لأن الجدار المجاور له لم يكن صعب المرتقى كما كان العدو مهملأ حراسة البرج بشكل يدل على عدم الاهتمام. وتروى الى موقعه كثيراً ودرس ارتفاع السور اثناء المداولات حول فدية [داميبوس] حتى تأكد منه وأمر بتهنية سالام لتسلقه، وفي يوم ما احتفل السيراكوزيون بعيد (ديانا) فلما أخذت الخمر مأخذها منهم وانصرفوا قماماً الى اللهو والقصف، تمكن [مارجللوس] من البرج ولكنه لم يكتف بذلك بل ملأ الجدار القريب منه جنوداً قبل أن ينبج الصبح. ثم شق طريقه الى [الهكسايلوم Hexapylum]. فانتبه السيراكوزيون من غفلتهم وأقلقتهم الصبغة. وها أمر [مارجللوس] بفتح الأبواب في كل مكان فاستولى عليهم رعب شديد وأطلقوا سيقانهم للريح، وهم يظنون ان الرومان سيطروا على المدينة بأسرها في حين كانت أمنع منطقة فيها واجملها وأكثرها غنى بعيدة عن متناول المهاجم. هذه المنطقة تعرف باسم [أقرادينا Acradina] ويفصلها عن سائر المدينة الخارجية جدار شاهق وهي تتألف من حيين: [نيابوليس Neapolis] و[ليسا Tyche] استولى مارجللوس على هذين، وعبر فجرا [الهكسايلوم]، فأقبل عليه ضباطه يهتفون بالنصر^(٢٩)، إلا انه شخص ببصره الى المدينة الجميلة الممتدة تحته وهو واقف على مرتفع. وقيل أن الألم أبكاه^(٤٠) للفاجعة التي توشك أن تحمل بها. اذ تمثلت لذهنه صورة المدينة كيف سينقلب شأنها بعد ساعات معدودات، حين يعيث الجنود بها سلباً ونهباً، لم يكن ثم ضابط واحد من كل ضباطه يجراً على معارضة مطلب الجنود. كان عدد كبير في الواقع بصر على اشغال النار فيها. وهدمها حجراً على حجر وتسويتها بالقاع. لكن [مارجللوس] لم يعر أذناً صاغية لمثل هذا. وسمح بكثير من الاحجام وهو كاره، ان يكون النهب قاصراً على النقود والعبيد. وأصدر أمراً جازماً بخطر الاعتداء على أي مواطن حر أو قتل أو استرقاق أو اذية أي سيراكوزي. ومع كل لينة هذا، فقد ظل يرى ان حالة المدينة تدعو الى الرثاء حقاً. ولم يكتف مشاعره القوية وهو في بحران التهاني والفرح. وعبر عن حزنه واشفاقه عندما شاهد كل تلك النفائس ومظاهر الترف التي جمعت بعضاً على بعض في حقبة طويلة من سنوات الرخاء والاستقرار، تعدو خلال ساعة واحدة فقط فهي أثر بعد عين فقد ذكر

(٢٩) دخل مدينة [بيبولي] ليلاً، ودخل [ثيغه] صباح اليوم التالي وكان يحيط بالاولى سور هو صورة طبق الأصل من سور اورتيكيا والاخرايينا وتيفه ونيابوليس لكنها امتازت عن البقية بقلعتها المسماة يوريالوم وهي مقامة على صخرة كبيرة ذات جوانب شديدة الانحدار. لتبدو وكأنها مدينة قائمة بذاتها.
(٤٠) ليفي ٢٤.٢٥.]

أن ما نهب منها لم يكن ماقل مما نهب من قرطاجنة^(٤١) فيما بعد. إذ ما عثم الجنود أن حصلوا على أمر ينهب الاحياء الأخرى من مدينة التي تم الاستيلاء عليها بالخدعة. ولم يتركوا شيئاً إلا أخذوه إلا أموال الملك فقد حُمِلت إلى بيت المال، ولم يحزن (مارجللوس) لشئٍ قدر ما أحزنه قتل (ارخميدس). فقد شاعت الأقدار أن يكون منصرفاً وقتشذ، إلى الاشتغال بمسألة في شكل هندسي مركزاً ذهبه وعيبيه في موضوع شغله فلم ينتبه إلى هجوم الرومان واقتحامهم المدينة. وفي حالة لاوعيه هذا دنا منه جندي على غير انتظار وأمره أن يتبعه إلى مارجللوس، فأبى إلا بعد اعتدائه إلى حَلٍّ للمسألة التي يفكر فيها، فثار بالجندي الغضب وانتضى سيفه وعاجله بطعنة فجلاء. وكتب آخرون أن جندياً رومانياً أسرع نحوه مشهراً سيفه يريد قتله فالتفت إليه (ارخميدس) واستأذنه متوسلاً بأن يمكس يده عنه ريثما ينتهي بما بين يديه من مسألة إلى حَلٍّ ونتيجة. إلا أن الجندي قتله حالاً دون أن ينيله رجاء. وحدثنا آخرون أن (ارخميدس) وهو يقصد (مارجللوس) التقى ببعض الجنود حاملاً أدوات حاسبة ومزولات، وزوايا وكُرَات وهي ما يقاس به حجم الشمس بالنظر المجرد، فظنوه يحمل ذهباً في اوعيه فقتلوه. ومن الثابت أن موته كان شديد الوقع على مارسللوس وظلَّ يعد الجندي الذي فتك به مجرمًا قاتلاً. وأستدعى اقرباء العالم وذويه وأجزل لهم الهبات ووصلهم بكثير من المال.

كانت الشعوب والحق يقال، تعتبر الرومان من حبة الجنود في ساحات القتال. لكن لم يشتهر عنهم في ذلك الحين ما يكشف فيهم عن انسانية وتهذيب ورقة قلب، والظاهر أن مارجللوس كان أول روماني أظهر للاغريق حرص بني قومه على العدل والقسط. فقد بات تساهله ولبنه مما يضرب به الأمثال تجاه أي من كانت له صلة به وعطفه الكبير على المدن الكثيرة والاشخاص، حتى إذا أصدر أمراً فيه صرامة أو قسوة بحق أهل (امنا Emna) أو (ميفارا) أو (سيراكوز) فيجب أن ينصرف الذهن حتماً إلى لوم من هبت عليه العاصفة، لا من ارسلها. وسأورد مثلاً واحداً من عدة أمثلة:

في صقلية بلدة تدعى (انجيوم Engyum) ليست كبيرة ولكنها عتيقة تتمتع بمنزلة محترمة بوجود معبد لربات يسمين «الأمهات»^(٤٢) ويقال أن الكريتيين هم الذين بنوه، إلا أن أهلها يعرضون بعض الحراب وخود الحرب، نقش عليها اسماً (مريونيس Menones) (تهجنته اليونانية لا تختلف عن اللاتينية) و(بوليسيس) اللذين قدماها هدية للربات، ومهما يكن،

(٤١) دام حصار سيراكوز ثلاث سنوات كوامل. وپلوتارخ لم يورد تفاصيل عما جرى خلال تلك الفترة. وما تلاه أي بعد اقتحام المدينة، ولكن ثم وصفاً دقيقاً مسهباً يقدمه لنا ليني ٢٥ . ١٣ - ٢١.

(٤٢) المفسود كيبيط، جونو، كيريس. وينوه شيشرون هم وجود معبد للول في انجيوم فحسب [٤٤٠٤].

فهذه البلدة انتصرت للقرطاجنيين وعدَّ أهلها من أخلص اشياعهم. ونصحهم (نيسياس) وهو أبرز مواطن نيسهما أن يعدلوا عن ذلك ويعلنوا ولا هم للرومان، ويشرَّ برأيه في خطبه وإجتماعاتهم ووصف سبيلهم الأولى بالحزن والخرق. فقررروا القاء القبض عليه وتسليمه للقرطاجنيين موثقاً، خشية نفوذه وتأثيره على النفوس. فادرك نيتهم المبيتة. ولما وجد الرقابة قد أحكمت عليه راح يجذف على (الأمهات) ويقذفهن بهجر القول، وأظهر استحقاقه لهنَّ وبدأ كالناكر الجاحد للرأي المتواتر بوجود هاته الراهبات. فطرب خصومه لما حلَّ به وياقنوا انه كالساعي الى حتفه بطلفه أو كالساحر عن خرايه المعلق فوق رأسه وفيما كانوا في سبيل الامساك به عقد اجتماع عام، فقام (نيسياس) لاثناء خطبة على الناس تتعلق بأحد المواضيع التي يجرى البحث فيها، وفيما هو مسترسل، توقف فجأة وألقى بنفسه على الأرض - ثم أسرع بالنهوض والناس مندهولون، لا يأتون حراكاً. (كما يحصل عادة على أثر مثل هذه المفاجآت) ودار برأسه وأستأنف الكلام بصوت راعش ونبرة عميقة أخذ يرفعها بالتدريج حتى وصل حدَّ الزعيق. ولما يقن ان كل من في الملعب قد صغقه الرعب والجمه، ألقى بمعطفه جانباً وشق ثوبه ووثب مسرعاً نحو الباب وهو شبه عارٍ يصرخ قائلاً ان «الأمهات» يدفعنه خارجاً. ولم يجرأ انسان أن يضع يده عليه أو يوقفه، ترمناً وحشوعاً دينياً، بل أنسحوا له الى الباب، فأسرع غير باحلٍ عليهم بأي صرخة أو حركة تجعله من صف المجاديب أو المحايين. وكانت زوجه على علم بما يعتعله وما هو غرضه. فأخذت أولادها وقصدت أولاً معبد (الربات) وانظرت متوسلة، ثم تظاهرت ببخشا زوجها الذي هام على وجهه فلم يعترضها أحد وهكذا خرجت من المدينة بسلام ووصلت الأسرة كلها الى (مارچلوس) في سيراكوز، ولما ازدادت الإهانات من أهل (انجيوم) وكثر تطاولهم على (مارچلوس) التي القبض على رجالها وحبسهم بالاعلال، وأوشك أن ينفذ فيهم القصاص الاكبر أنبري (نيسياس) ملقياً بنفسه على قدميه والدموع تنحدر من عينيه، راجياً العفو عن بني قومه، وأشتدَّ في رجائه حياتهم لاسيما خصومه منهم حتى رقَّ (مارچلوس) وأطلق الجميع ومنح (نيسياس) صباعاً واسعة ونفائس من الصلات والجوائز. هذه الرواية اوردها (پوسيدونيوس) الفيلسوف.

أخيراً، أستدعى الشعب (مارچلوس) الى روما^(٤٢) لإدارة دفعة الحرب في أرض الوطن. فحمل معه مقداراً كبيراً من أجمل آثار سيراكوز الفنية، يريد أن يزيد من موكب نصره روعة وجلالاً، ويزين عاصمة بلاده بها. كانت روما عاطلة عن مثل هذه الآثار الفنية والزخارف

(٤٢) حقق انتصاراً كبيراً على (إبيكيدس وهانق) قبل عودته الى روما واهلك فيه عدداً كبيراً واستولى على أسرى كثيرين وغنم ثمانية من القبلة [ليني ٢٥: ٤٠].

الرائعة ولم تكن تتدقق مستوح الفنانين أو تبتهج بالنظر اليه مهما كان صنعه دقيقاً. لقد اتحت بأسلحة البرابرة والغنائم الحربية التي تلتخطها الدماء، وهي ليست بالمنظر الذي يشرح الحاطر ويسر العين. ويفتح قلب المتفرج المهدد الوديع المسالم، فكما سمي إيامنداس حقول (بويوتا) «ممرس مارس». وكما أطلق [كزينفون] على [أفسس] اسم «مصنع الحرب». كذلك يصح في رأيي أن تسمي روما ذلك العهد بعبارة الشاعر (پندار) «مقر مارس الذي لا يعرف سلاماً» ولذلك أحب الشعب [مارجللوس] لأنه زين المدينة بآثار مؤتلفة أنيقة فيها سحر كل التناسق والرشاقة الاغريقية، على أن (فاببوس ماكسيموس) الذي لم يس شيئاً من آثار (تارنتوم) عند استيلائه عليها، ولم ينقل منها حجراً الى روما، كان موضع إكبار ورضى من كبار السن، أكثر من [مارجللوس]، لقد أكتفى بأخذ النقود والحاجات الثمينة ولم يسمع بنقل التماثيل. متعللاً بقوله (كم قيل لنا): «الا فلنترك للتارنتيين هذه الآلهة الساخطة».

وعتبرا على [مارجللوس] أولاً لأنه وضع روما موضع المتناول اذ جعلها تبدو وكأنها تحتفل بانتصارات وتحمي مواكب ظفر نالتها لا من بني البشر وحدهم بل من الآلهة أيضاً بعرضها قائلها كالأسرى.

أما اللوم الآخر الموجه له، فهو صرف اتجاه الشعب الى التعطل والهأؤه بعث الكلام حول الفنون الجميلة والفنانين. وهو الذي نشأ على الحرب والفلاحة ولم يتذوق طعم الترف والنعيم كما وصف پوربيدس هرقل:

«انه فظ خشن، لا يصلح إلا لعظام الأمور».

وانقلبوا لبيدوا جل أوقاتهم في تفقد وانتقاد التوافه من الأشياء. وبصرف النظر عن لوم [مارجللوس] في هذا المجال، فانه رفع من قدر الاغريق أنفسهم بتعليمه بني قومه الجيلة احترام نتاجهم العجيب الجميل وتقديرهم له.

وعندما عارض خصومه في دخوله بموكب الظفر بحجة وجود بقية حرب في صقلية، ولأن منحه موكباً ثالثاً قد يزيد من الحاقدين عليه، بادر هو الى صرف النظر عنه مكتفياً باحتفاله بالنصر فوق جبل [ألان Alban]، ثم دخل المدينة «بمهرجان شعبي» وهو ما يطلق عليه باللاتينية «Ovation» وباليونانية «eua». ولم يركب في هذا المهرجان عجلة ولم يكلل بالغار، ولم يعلن دخوله بنفخ الابواق، وانما دخل ماشياً منتعلاً حذاءه، واطلقت أصوات عدد كبير من المايات والسربانات في وقت واحد، وكان وهو مطوق بقلائد اللبلاب يظهر سلمي يشير في العفوس احتراماً وخشاً أكثر من الخوف. وهو ما يجعلني استنتج ان الاختلاف بين

«المهرجان الشعبي» وبين مواكب النصر لا يعتمد على عظمة العمل بل على أسلوب انجازة. فأولئك الذين خاضوا معركة طاحنة وفتكوا بكثير من الاعداء وعادوا منتصرين، حق لهم ان يتقدموا ذلك الموكب العسكري المربع. ثم أن العادة المتبعة آنذاك قضت بتطهير الجيش كله عن طريق تقديم القرابين، وبتزيين الجنود وأسلحتهم بكثير من نبات الغار. أما أولئك القادة الذين انجزوا ما كلفوا به عن طريق المفاوضة والمنطق دون استخدام أية قوة فإن العرف كان يقضي بمنحهم شرف «المهرجان الشعبي الحافل» الخالي من المظاهر العسكرية، فالنابي هو شعار السلام، والصلاب هو نبتة (فيسوس)، تلك الربة التي تبغض القوة والحرب أكثر من كل الآلهة الآخرين. وكلمة Ovation ليست مأخوذة في اللفظة اليونانية «إفاسموس Evasmus» كما تظن الأغلبية بسبب ما يتخلل المهرجان من هتاف وصياح بكلمة «Eua! إيفا» فهذا ما يسمع ألبساً في مواكب النصر. لقد ادخل اليونانيون هذه الكلمة الى لغتهم مصحفةً، لتوهمهم أن هذا التكريم لأبد وان يكون له بعض علاقة هو الآخر (بباجوس) الذي يلقبه اليونانيون (اييوس Euius) و(ثريامبوس Thriambus). على أن الأمر خلاف ذلك، فقد جرت العادة في مواكب النصر ان يضحي القادة بشور، وفي المهرجانات الشعبية ان يضحوا بشاة ومن هنا جاءت لفظة «Ovation» المأخوذة من الكلمة اللاتينية «أوفيس Ovis». والشئ، بالشئ، يذكر أن قرابين السيارطين المشرعة قانوناً، كانت بعكس العادة الرومانية، فالعسكري اللقيديوني الذي ينجز ما كلف به بالدهاء والمكر أو بالتعاهم والطيبة يقوم بتضحية ثور عند تنحيه عن قيادته، وأما اذا انجز مهمته بطريق القوة والحرب، فانه يضحي ببديك. من هذا ترى ان اللقيديونيين - رغم كونهم شبوا على الحرب وشابوا، يعتبرون المهمة التي تنجز بالحكمة والعقل أليق بمقام الرجل وأشرف له من استخدام قوته وشجاعته المجردتين. وأني لأترك الحكم لغيري في أفصلية هاتين الطريقتين.

وانتخب (مارجللوس) قنصلاً للمرة الرابعة، فقام السيراكوزيون بتحريض خصومه، بلفقون تهمةً عليه ويعرضون شكواهم في روما، وزعموا فيها انهم لاقوا اضطهاداً وأذى على يده خلافاً للعهد الممنوح لهم^(٤٤). وأتفق أن مارجللوس كان وقت تقديم الشكوى، في الكابيتول يتقدم قرباناً. فمكث في المجلس ليتيح لهم فرصة عرض الشكوى والظلامة وحاول زميل (مارجللوس) صرفهم ليحمي زميله في غيبابه، لكن أقبل حال سماعه بالأمر وجلس على

(٤٤) ما ان أستغفر المقام بالسيراكوزيين في روما. حتى بدء القنصلان بسحب القرعة على توزيع الاقاليم بينهما. ووقع (صقلية) من سهم مارجللوس فكانت ضربة شديدة وقعت على هؤلاء اللقديون ولم يجرؤا على الاحتجاج والتظلم لو لم يعرض مارجللوس استبدال صقلية باقليم آخر [لبي ٢٦ و ٢٩ و ٣٠].

كرسي الرئاسة وبدأ أولاً يعرض على المجلس المسائل العاجلة والشؤون الأخرى لتصرفها. وما انتهى من ذلك حتى ترك معقده ويمّ شطر المحلّ المخصص للمتهمين عند تقديم دفاعهم، كأبي شخص عادي. وافصح الحرية التامة للسيراقوزيين حتى يدلّوا بشكاواهم. فوهت عزائمهم من موقفه الحليل ومن شرط ثقته بنفسه وتسمّروا في الأرض مذهولين وبدأ تأثير وجوده في المجلس وهو مرتدّ نوب السلطة أشدّ مهابة وصرامة وهو في دروعه وشكة سلاحه على أنهم باشروا بتعداد التهم حين وجدوا تشجيعاً وتحريضاً من خصومه. والقوا خطبةً مرجوا فيها التهم القضائية بظلاماتهم وشكاواهم، قالوا أنهم ذاقوا على يده ما احجم قادة آخرون من ابقاعه باعدانهم، مع كونهم حلفاء وأصدقاء للرومان، فردّ عليهم [مارجللوس] (٤٥) أن السيراقوزيين ارتكبوا أعمال عدوان كثيرة ضد شعب روما. وأنهم لم يعانون شيئاً يزيد عمّا لا مفر للعدو المغلوب الأسير من تذوقه. وأنهم جنوا على أنفسهم وأن أعمالهم هي التي جعلتهم يرسفون في أغلال الأسر لأنهم رفضوا الانصياع إلى محاولات الاقناع بالحسنى واللين التي بذلها كثيراً، وهذه الحرب التي شنوها لم يرغمهم عليها الطغاة أبداً، وأنما عمدوا إلى خلق طغاة لغرض إثارة الحرب فحسب. ثم ختمت الخطبة. وغادر المشتكون قاعة المجلس كما يقضي به العرف. كما ترك [مارجللوس] رملاءً منسحباً مع السيراقوزيين، وبقي خارج الباب ينتظر قرار الحكم (٤٦). ولم يد عليه انشغال بال التهم، ولا سخطاً من متهميه. بل ظلّ ينتظر النتيجة بهدوء ثم ووقار. أخيراً توصل المجلس إلى قرار اجماعي صدر بموجبه مرسوم يقضي بجبّ كل التهم عن [مارجللوس] (٤٧) والإشادة بأفعاله، وبرأه. ته.

بالحق السيراقوزيون بأنفسهم على قدميه وغيونهم مخطئةً بالدموع، يرجون صفحه وغفرانه عن الحاضرين، وعطفه على شقاء سائر أهل المدينة وسيبقون دائماً أبداً أسرى فضله شاكرين. قرن لهم قلبه ولأن لدموعهم وآلامهم ولم يكتف بصفحه عن الوفد بل وعدهم خيراً وظلّ أبداً ينتهز الفرص ليخص السيراقوزيين بالتفاته ويشملهم بعطفه. وأيد مجلس الشيوخ استقلالهم

(٤٥) عندما فرغ السيراقوزيون من عرض اتهاماتهم ضد مارجللوس أمرهم زميله القنصل ليثنيوس Lavinus بالاتسحاب إلا أن مارجللوس أصرّ على أن يبقوا ليسمعوا دفاعه.

(٤٦) في أثناء ما كان القضاة يتداولون في الحكم. خرج هو إلى الكابتول لتسجيل أسماء المجندين الجدد [ليفي المرجع نفسه ٢٦ و ٢٧].

(٤٧) لم يحص سلوك مارجللوس بالموافقة التامة من مجلس الشيوخ حين استبدلته على سيراكوز. فبعض الاعضاء أحد يتذكر التعلق الشديد بالجمهورية الذي عبّر عنه (هيرود) في كثير من المناسبات ولم يسمعهم إلا أن يبحوا باللائمة على جنرالهم الذي استباح المدينة. ولم يكن السيراقوزيون في وضع يستطيعون به اظهار شعورهم الحقيقي حيال وجود جيش من المرتزقة بين ظهرانيهم فاضطروا للنزول عند حكم الظروف وإطاعة أوامر ضباط (غنيبيل) الذين كانوا يسيطرون على سائر قطعات الجيش.

وحريتهم التي أعيدت اليهم، وأقرّ حقوقهم وقرابينهم وثبت لهم ما بقي من ممتلكاتهم الخاصة. ورداً لهذا الجميل أصدر السيراكوزيون قانوناً يصرّ على أن يطوق المواطنون اعناقهم بقلائد الزهر ويقدموا القرابين للآلهة كلما وطئت قدم [مارچلوس] أو واحد من ذريته، فضلاً عن ضروب أخرى من التكريم.

بعد هذا، تحرك [مارچلوس] نحو [هانيبل]، كاد كل قناصل الرومان وجنرالاتهم منذ هزيمة [كاني] يطبقون خطة واحدة ضدّ هنيبعل لم يحيدوا عنها أبداً وهي اجتناب الالتحام معه في معركة كيفما كان. ولم يجد أحد منهم شجاعة كافية تدفعه الى الاشتباك معه في قتال، وتحكيم السيف وحده. إلا أن [مارچلوس] تنبى الخطة المعاكسة. فقد رأى ان ايطاليا سيحيق بها البوار بالتأخير الذي أملوا منه انهاك [هنيبعل]. وكان [فابيوس] الذي تمسك بسياسة الحذر، ينتظر أن تنطفيء نار الحرب من تلقاء نفسها في حين كانت حال روما تتردى وتسوء، باطراد. ويأبى الأخذ بهذا السبيل الصحيح لمعالجة داء البلاد، فموقفه يشبه موقف الطبيب المتردد الذي يخشى إعطاء الدواء للمريض، ويبقى منتظراً مؤمناً أن ضعف قوى المريض وانتكاسته هو ضعف المرض وزواله.

وكانت حصيلة خطة [مارچلوس] الأولى، سيطرته على مدن السامنيين Samnites الكبيرة التي انتقضت على العدو، ووجد فيها مقادير كبيرة من القمح والأموال، وثلاثة آلاف جندي قرطاجني تركهم هنيبعل فيها لأغراض الدفاع. ثم على أثر مقتل الهروقنصل [كنيوس فلوقيرس Canæus Fluvius] وأحد عشر تربيوناً (مفوضاً) عسكرياً وإبادة معظم الجيش الذي بقوده. في [إبوليا Apulia]، بعث [مارچلوس] برسائل الى روما يطلب فيها من الشعب ان يتحلّى بالصبر والشجاعة، لأنه سيزحف قوياً للاصطدام بهنيبعل ليقبض نصره مائتاً^(٤٨). ويحدثنا [ليفي] انه عندما قرئت رسائله لم تحدث الأثر المأمول ولم ترفع من معنويات الشعب. وإنما هبطت بها كثيراً. فقد تبينوا فراحة الخطب لأن [مارچلوس] كان في نظرهم ائمن من [فلوقيرس]. ولكن هذا ما كان قد قرره وتقدم نحو بلاد اللوكانيين. والتقى بخصمه في [نوميسسترو] وكان قد سبقه الى احتلال المرتفعات، فحضر خيامه في السهل المنبسط وفي اليوم التالي وضع فرقته في نسق المعركة فقبل [هنيبعل] التحدي والتحم الجمعان واستمر القتال سحالاً بين الفريقين دون أن يستظهر أحدهما، وأقبل الليل ففصلهم مرغمين. ولم تكذب شمس اليوم التالي الا وجيش [مارچلوس] متأهب الاستئناف القتال. وقد خرج من معسكره، وشتر صفوفه بين حثث قتلى الأمس يتحدى هنيبعل لانهاء النزاع بمعركة أخرى،

(٤٨) في الساعة التاسعة صباحاً.

فأبى السحدي وانسحب بجيشه، حتى أسرع الى اللحاق به. وكان في كل الاشتباكات الموضعية، والتعرضات الجاسية التي حصلت اثناء المطاردة، هو الجانب المتفوق ابداً، مما زاد من شهرته كثيراً، حتى انه لما أوف موعده عقد الكوميتيا Comitia في روما فضل مجلس الشيوخ استدعاء القنصل الثاني من صقلية^(٤٩)، على سحب [مارچلوس] من جبهة القتال. ولم وصل زميله طلب منه أن يعين [كونيتوس فلوفوس] بمنصب الدكتاتور، لأن الدكتاتور لا يعينه الشعب أو مجلس الشيوخ بل القنصل الپريتور بحضور الجمعية العمومية أذ يسمي مرشحه الذي يختار ويقلده المنصب علناً. ومن هنا جاء لقبه «دكتاتور»، فهو من لفظة «ديكيري Decere» اي «تسمية». ويقول آخرون إنه ما سمي دكتاتوراً إلا لأن كلمته هي بحكم القانون، وأن أوامره التي يصدرها لاتوضع في التصويت، ولذلك كان الرومان يسمون قرارات الحكام «ادبكت Edict».

كان زميل [مارچلوس] القادم من صقلية، يريد تعيين رجل آخر لهذا المنصب^(٥٠)، ولم يكن ليرضى بالتحول عن رأيه مرغماً، فغادر روما ليلاً عائداً الى صقلية. فما كان من عامة الشعب إلا أن أصدر قراراً إجماعاً باختيار [كونيتوس فلوفوس] وأرسل مجلس الشيوخ رسولاً عاجلاً الى [مارچلوس] يأمره بتسمية مرشح الشعب، فأطاع وأعلنه دكتاتوراً حسب رغبة الشعب، مستبقياً منصب الپروقنصل لنفسه مدة سنة أخرى. ثم أتفق مع [فابيوس ماكسيموس] بأن يضرب الحصار على [تارنتوم] بينما يقوم هو باستدراج هنيبل ومشاغله لتعويقه عن نجدة المدينة. وهكذا أدركه في [كانوزيوم] وحاول الالتحام به إلا أن [هنيبل] راح يروج منه ويرفض الدخول معه في معركة بكثرة تغييره لمعسكره، الى أن باغته وهو يعسكر فاستغزه باشتباكات خفيفة موضعية حتى جرّه جرّاً الى معركة طاحنة، لكن الليل حاجزهما والقتال على أشده. وفي اليوم التالي خرج مارچلوس للقتال ونشر عسكره بنسق الهجوم، وهنا أمر [هنيبل] باجتماع عام للقوات القرطاجية وقام يخطب فيهم وقد أثقله الهم، راجياً بحرارة أن يقاتلوا قتالاً جديراً بانتصاراتهم الماضية ومما جاء فيها «انتم ترون كيف تعزّ علينا الراحة، وكيف يحال بيننا وبين الاستجمام بعد كلّ الانتصارات التي أحرزناها. لا سبيل لنا الى ذلك إلا اذا الحقنا الهزيمة بهذا الرجل».

(٤٩) ساء على اقتراح مارچلوس نفسه الذي شرح لهم كتابة أهمية استمراره في الضغط على هنيبل ولهذا قام مجلس الشيوخ باستدعاء [ليفيبوس] [لبقي ٤.٤٧].
(٥٠) كان [ليفيبوس] يردد في تسمية [ماركوس فاليريوس ميسالا] دكتاتوراً. ولما ترك روما فجأة موصياً نائنه الپريور نان لا يرشح [فلوفوس] قام تربيونات الشعب بالاضطلاع بالمسؤولية. وحمل المجلس مارچلوس على مصادقة الترشيح [لبقي المرجع نفسه].

ثم التقى الجيشان في قتالٍ مرَّ عنيف. وأتى [مارجلوس] بحركة تعبيرية غير مناسبة أدت إلى ارتكابه خطأ^(٥١). كانت الميمنة ترزح تحت ضغط شديد فأمر إحدى فرقة الاحتياط بأن تتقدم إلى خطِّ القتال. هذه الحركة أحدثت خللاً في صفوف الفرق المقاتلة وترتيبها الهجومي، ودفعت بالنصر إلى يد العدو، وسقط ألفان وسبعمائة من الرومان. فانسحب [مارجلوس] إلى معسكره وجمع الجنود وخطب فيهم. وما قاله:

- اني أرى كثيراً من جثث الرومان وسلاحهم، ولا أرى رومانياً واحداً.

ورفض رفضاً قاطعاً أن يقبل رجاءهم بالصفح عنهم، طالما هم مغلوبون، إلا أنه وعدهم بالصفح عند انتصارهم. وقرر أن يخرج بهم إلى الميدان في اليوم التالي، لتصل أنباء انتصارهم فيها إلى روما قبل وصول أنباء هزيمة الأُمس. ثم أمرهم بالانصراف، وأشار بتوزيع جراية شعير عوضاً عن القمح^(٥٢) على كل الوحدات التي أولت ظهرها للعدو. فكان لهذا التقريع وقع أليم في نفوس الجنود، وقيل أنه رغم إصابة أغلبيتهم بجراح بليغة فلم يكن بينهم أحد إلا وشعر أن خطبة الجنرال أشد أماً له من جراحه نفسها.

وابلج الصبح وارتفع الوشاح القرمزي على خيمة القائد، إشارة للقتال النوري. وطلبت السرايا التي وصمت بالجبن وسوء التصرف أن يكون ترتيبها في الصف الأمامي، فنالت مبتهاها، ثم قدّم التربيون العسكرون بقية القطعات ووضعوها في نسق الهجوم، ولما أبلغ [هنيبل] يتهيؤ العدو هتافاً قائلاً:

- ياللعجب! ما حيلتنا بهذا الرجل الذي لا قبل له بتحمل حسن الحفظ ولا بسوئه؟ إنه الرجل الوحيد الذي لا يدعنا في راحة عندما يكون منتصراً، ولا يدع نفسه ترتاح عندما يصاب بهزيمة. ويبدو إلا مناص لنا من قتاله أبداً. فالثقة التي يبثها تجاهه الباهر في نفسه، تدفعه إلى البحث عن مغامرة أخرى كذلك عاره لفشل ذريع أصيب به يدفعه إلى معامرة مماثلة.

ثم اشتبك الجيشان. وظلت النتيجة غامضة. فأمر [هنيبل] بنقل الفيلة إلى اللواء الأول المتقدم وأن تساق نحو وحدات الرومان الأمامية، فتم ذلك وأحدث اندفاعها ووطنها كثيراً من الجنود فوضى خطيرة في صفوف الرومان فأسرع التربيون العسكري [فلافوس] يختطف راية

(٥١) لم تكن المعركة غير معقولة، لكن أسمى تنفيذها. ويقول ليني أن الميمنة تراجعت بأسرع مما كان يجب عليها وأن الفرقة الثامنة عشرة التي أمرت بالتقدم من المؤخرة إلى الطليعة كانت حركتها بطيئة جداً وهذا ما خلق فوضى

(٥٢) تلك هي الحقبة الشاملة. وإلى جانب هذا أمر ضباط السرايا أن يظلوا اليوم بطوله معتشقي السيوف بدون اهزيمة [المراجع نفسه ١٢].

من يد حاملها. وتقدم من أحد الغيلة واصابه بجرح من السنان المثبت في عقب قناة الرؤية، وحمله على الفرار. وبإصابته بطعنة ثانية استدار وانسحب وتبعته الغيلة الأخرى، وبمشاهدة [مارجللوس] ذلك أسرع يدفع حيالته بهجوم عنيف عليها وعلى العدو خلفها. ففرت وأوقعت الخلل في صفوف القرطاجيين. واستمرت الخيالة تشد شداً عنيفاً وراحت تطارد العدو حتى دفعت به الى معسكره هارباً. والغيلة تصول وتجول فيهم وتهلك منهم الكثير. وقبل ان عدد قتلاهم أناف على ثمانية آلاف. ووقع من الرومان ثلاثة آلاف قتيل ولم يسلم واحد بلا جراح. وهذا ما اتاح [لهنيسيل] محالاً للانسحاب في هذه الليل، واضعاً بينه وبين خصمه مسافة بعيدة. وكان عدد المرحى من جنود [مارجللوس] سبباً في عجزه عن مطاردة العدو؛ وانتقل بمسيرات بطيئة هيئة الى [كمبانيا] وقضى فصل الصيف في [سينوسا Sinuessa] (٥٣) منشغلاً في تضييد جراح جيشه واعادة تنظيم فرقته.

لكن ما أن انتزع [هنيسيل] نفسه من مخالب [مارجللوس] حتى راح يتنقل بجيشه في ارجاء إيطاليا بحيث سالباً غاضباً ناهباً لا يخشى أحداً. وارتفعت الأصوات في روما تهاجم [مارجللوس] وتنتقد سلوكه. وتوصل منتقدوه الى اقناع [بويليشيوس بيبولوس Publius Bibulus] أحد معوضي [تريبون] الشعب، وهو رجل عفيف المزاج وخطيب مفعوه الى الاضطلاع بتوجيه الاتهام له. فتمكن هذا بخطبه المتواصلة الملحاحه من حمل الشعب على سحب قيادة الجيش من يد [مارجللوس] لأنه «انسحب بعد عملية عسكرية صغيرة، من ميدان القتال، ليستجّم ويتعشّ بالخمائم الحارة هناك على حدّ قوله» (٥٤).

ولما بلغ مارجللوس بهذا، عيّن عدداً من مساعديه الضباط الادارة معسكره وأسرع الى روما لتفنيذ التهم الملققة به. ووجد في انتظاره لائحة تتضمن قائمة كاملة بالتهم. واجتمع الشعب في الملعب الفلاميني، يوم المرافعة، فنهض [بيبولوس] من مجلسه ووجه التهمة اليه، فلقى [مارجللوس] بردود مختصرة بسيطة، وتبعه رؤساء المدينة وافاضلها يتكلمون بقوة عارضة وبلاغة واسهاب، يعيرون على الشعب موقفه ويتحدونه أن يكون أسوأ حكماً على مارجللوس من اعدائه بادائته بالتردد والجبن وهو القائد الوحيد بين كل قادتهم الذي صفع العدو في وجهه. سيما كان هذا يتحاماه ويروج منه بقدر ما كان يرغب في الاشتباك مع غيره من قادة

(٥٣) ليني [المرح السالف ٢٠ يقول «ل من (فينوسيا) فهي أقرب بكثير من كانوسيوم وأسهل سبيلاً لايصال الحرجى».

(٥٤) هناك حمائم حارة بالقرب من سنيوساً. كما يحدثنا سترابو (ه) ولا يوجد في (فينوسيا). فان كان مارجللوس قد قصد المدينة الأخيرة، فالشعر الساخر الذي قيل بمفع لا يبرر له أو مناسبة. لذلك أهمل ليني ذكره. لكن أورد عين ما قاله (لبيولوس) من «أن مارجللوس قضى الصيف في مقره».

الرومان، ويعد أن أنتهى الخطباء. حُدد المدعي بآماله في الإدانة، ولم يُكتف بتبرئه مارچلوس
لما أُعيد انتخابه قنصلاً للمرة الخامسة.

وعند أول مباشرته الوظيفة زار مدن اتورريا^(٥٥) قمع فيها فتنة خطيرة كادت تؤدي الى
ثورة. وزار مدنها وطيب الخواطر فيها. وعارض الكهنة في شرعية تكريس معبد كان قد ندره
للربّين «الشرف» و«الفضيلة» من الأموال التي غنست في صقلية، زاعمين أنه لا يحوز
تكريس معبد واحد لربّين اثنين^(٥٦)، فما لبث أن لحقه بشان، وهو شديد السخط لتلك المعارضة
التي كاد يفسرها بنذير شؤم. والحق يقال أن الخوارق التي تعاقبت حينذاك، اشاعت الخوف في
نفسه. فقد سقطت صواعق على بعض المعابد. وفي معبد [جوبيتر] قرضت الفيضان الذهب.
وتنوقل ايضاً ان ثوراً أخذ يتكلم، وان طملاً ولد برأس يشبه رأس الفيل. لقد عولج أمر هذه
الخوارق كلها بطبيعة الحال، ولكن الآلهة لم تعلن عن رضاها كما ينبغي. وعلى هذا اضطرت
استخارة الطير الى النقاء في روما وهو يعرق الإرم غيضاً ويتلهّب شوقاً للقتال، ولم يكن أحد
مثله يضطرم بالرغبة في خوض معركة مع [هنيبعل] فهي مدار أحلامه في الليل، وهي
موضوع كل أحاديثه مع أصدقائه واصحابه، وهي رجاؤه الوحيد الذي يتقدم به الى الآلهة.
كانت امنيته الكبرى ان يلاقي [هنيبعل] في ساحة الوغى، بل يخيل لي أنه سيكون مغتبطاً
جداً بالهجوم عليه والجيشان ضمن معسكر واحد. ولو لم يكن [مارچلوس] مثقلاً بالتكريم،
متخفماً بالشهرة، ولو لم يقدم البراهين بشتى الطرق على نضوج احكام وبعد نظر لايدانيه
فيهما أي قائد محنك، لقلنا أن نرق الشباب الذي لا يليق برجل في مثل سنه، هو عامل
الإثارة والتحمس فيه. وكان قد تجاوز الستين عندما بدأ فترة قنصليته الخامسة.

بعد أن قدمت القرايين، وتم كل ما يتعلق بارضاء الآلهة وتهذئة خاطرها حسبما أوصى به
العرافون، خرج مع زميله^(٥٧) لمراصلة الحرب وأخذ يحاول بشتى الوسائل استفزاز [هنيبعل]
الذي كان وقتذاك قد ضرب معسكره الدائم في موضع يقع ما بين [بانتييا Bantia]
و[فيوسيا Venusia]، إلا أنه أبى القتال، على أن استخباراته أعلمته بأن بعض الوحدات

(٥٥) قبل ذلك. بحسب رواية ليفي.

(٥٦) كانت حجتهم في ذلك انه اذا نزلت بالهيكل صاعقة أو أرعدت الدنيا أو ابرقت أو حلت به أية ظاهرة
تستدعي تقديم الكفارة فانهم لن يعرفوا لأي من الالهين يجب تقديم الاضحية؟ وعلى هذا الاساس قام
(مارچلوس) ببناء معبد ثانٍ لآلهة الفضيلة Virtue ارضاء لهم. ولم تطل به الهيئة ليقوم بتكريسه إلا ان
ابنه قام بتكريس المعبد بعد اربع سنوات من وفاته.

(٥٧) اعظم اليه زميله قادماً من موضع آخر.

الرومانية تتجه نحو مدينة [الوكري أو إبيفيرى الغرب Locri, Epiyephyri] (٥٨) فكمّن لهما تحت جبيل يدعى [بتليا Petelia] وقتل منهما ألفين وخمسمائة جندي، فاستشاط مارجللوس غيظاً وعصفت بنفسه ربيع الانتقام وتحرك مقترباً من هنيبل. وكان بين المعسكرين أكمة ذات مناعة تعطيها الغابات، والمرقى إليها صعب من الجهتين وفيها ينابيع ينحدر ماؤها إلى أسفل. وكان الموقع ممتازاً ذا فائدة عسكرية كبيرة، حتى عجب الرومان لأن هنيبل أهمل احتلاله وتركه يقع بيد عدوه مع أنه كان اسبق إليه منه. أما الحقيقة في الأمر فلم تكن كما تصور الرومان ففائدة الأكمة لم تغب عن [هنيبل]، إلا أنه وجد أنه أصح لنصب كمين ولهذا تركه في الظاهر وأخفى في غاباته وغاربه أعداداً من الرماة بالشباب والرماح. وكان واثقاً أن صلاح الموقع سيُفري به الرومان، ولم يكن محطناً في حذسه. فقد أخذ الرومان يبحثون في أمره، ويتناقشون حوله فيما بينهم حتى كان الكلّ ضباط وقادة وقَرّ الرأي على احتلاله والاستفادة منه للنبيل من العدو. ولا سيما إذا نقلوا معسكرهم إليه ومنتوه بحصن. فقرر مارجللوس الخروج بسرية خيالة لاستطلاعهم وأستدعى عرافاً وياشر في التقريب للأكمة. وفي الضحية الأولى أخرج الكاهن [الاروسپكس Aruspex] الكبد من دون رأس، وفي الضحية الثانية ظهر الرأس بحجم اعتيادي. وكانت العلامات الأخرى فيها، مشجعة مبشرة بالخير. ويظهر كفاية هذه العلاقات لتبديد الخوف من علامات النحس الأولى، أعلن العرافون أنهم يحشرون الثانية أكثر من الأولى. لأن الاحشاء الحسنه جداً والبشرة بالخير، إذا تلت أحشاءً ضحية أخرى مشوهة مخيفة، يكون التغيير موضع شك، والدليل منذراً بشؤم. لكن...

«لا يفلح في صدّ القدر المحتوم، لا النار ولا جدار من البرونز» كما يقول [پندارا]. وهكذا خرج [مارجللوس] إلى الأكمة بصحبه زميله [كرسپينوس Crispinus] وابنه وهو [تريببون] عسكري، مع مائتين وعشرين فارساً على أكثر تقدير. ليس بينهم روماني واحد، وهم من الاتروسكيين، مع أربعين من [الفريجلائن Fregellan]، لطالما قدموا لقائهم الدليل على بأسهم وأخلاصهم في كل الظروف.

كان التلّ مكسواً بالعابات تماماً. وعلى قمته جلس أحد كشافة العدو، مستتراً عن أعين الرومان، في حين كان معسكرهم مكشوفاً له برّمته. فلما دنا [مارجللوس] وجماعته من الكمين أعطى الكشف إشارة لهم فبرزوا من حفائهم وخبياهم وباغتوه دفعة واحدة وأحاطوا به من كل جهة وراحوا يقذفونه بوابل من الرماح فاصابت فريقاً، وأدركت ظهور الفارين. ثم

(٥٨) لم تكن هذه وحدات من وحدات الجيش الروماني المرتبطة بأمره القنصلين بل هي قطعات عسكرية سحبت من صقلية ومن حامية (تارنثوم) المرجع نفسه

حملوا يشدة على من صمد وهم الفريجلاتيون الأربعون (الذين عملوا حلقة بعد هروب الاتروسكريين عند بدء الهجوم). وأستمروا يدافعون عن القنصلين ببسالة حتى أصيب (كرسپينوس) برمحين فالوى بعنان جواده هارياً. وأصيب مارچلوس في خاصرته بقطعنة حرية عريضة السنان، وعندها ترك الاحياء القلة من الفريجلاتييين فنصلها صريعاً وهربت (مارچلوس الاصغر) الذي اصيب هو الآخر، حتى بلغت المعسكر. ولم يزد عدد القتلى عن الأربعين، ووقع في الأسر خمسة من (اللكتور) وثمانية عشر فارساً. وتوفي (كرسپينوس) متأثراً بجراحه بعد بضعة ايام^(٥٩). كانت خسارة قنصلين في اشتباك واحد نكبة لم ين بها الرومان بمثلها من قبل.

ما أن اسيء (هنييعل) بمصرع مارچلوس حتى ترك كل ما يشغله وهرع الى الأكمة. وهناك وقف ينظر الى الجسد الهامد، ويتأمل طويلاً في شكله ومثانة بنيانه، ولم تخرج من فمه كلمة واحدة تعبر عن زهو أو تباه كما كان يعق لغيره أن يفعل حين يتخلص من عدو عنيدٍ محرر. على أن النهاية اذهلته تماماً. ولم يأخذ من خصمه الصريع غير خاقه^(٦٠). وأمر بكسائه ثياباً لائقة وتزيينه وحرقه بغاية الاحترام ثم وضع بقايا الجثة في دعاء فضي مغطى بتاج ذهبي، وبعث به الى ابنه. إلا أن بعض النوميديين من عسكره، سطوا على حامله وأنتزعوه منهم والقوا بالعظام. فبلغ ذلك هنييعل فقال:

- اذن فمن المستحيل أن نعانده ارادة الله!

وأنزل بالنوميديين اللصوص عقاباً، إلا انه لم يتخذ أي إجراء لجمع العظام واعادتها. مدركاً أن القدر المحتوم حكم على مارچلوس أن يخر صريعاً هكذا، وإن يظل ملقى على ظهر الأرض هكذا.

هذا ما دوت له لنا (كورنيليوس نپوس [Cornelius Nepos] و[فابريوس ماكسيموس Vari-us Maximus] عن الحادث، إلا أن [ليفي]^(٦١) و[أوغسطس قيصر] يؤكدان أن الوعاء بلغ

(٥٩) لم تتركه الوفاة إلا في آخر السنة وذلك بعد ترشيحه [تليوس ماتليوس توسكاتوس] دكتاتوراً من أجل عقد الجمعية العامة. ويؤم بعضهم انه توفي في [تارنتوم] وبعضهم يقول لا بل في كامپانيا (الرجع نفسه (٣٣).

(٦٠) خيل لهنييعل انه سيفقد كثيراً من خاتم مارچلوس الرسمي إلا أن (كرسپينوس) يادر على الفور بإذاعة نبأ وفاته بين سائر المدى مع التحذير بأن خاتمه الرسمي قد وقع في يد هنييعل وعليهم ان لا يصدقوا من يعرضه عليهم. وقد انقذ هذا التحذير (سالابيوس) في (ايبوليا) وان انطلت القدعة على رسله الذين جاؤا بالخاتم وأدخلوهم المدينة وذبحوهم عن بكرة ابيهم وكانوا حوالي الستمانئة من الرومان الهاربين من الخدمة اما الباقون فقد تمكنوا من الهرب

(٦١) يحدثنا بان (هنييعل) قام بدفن [مارچلوس] في التل الذي سقط فيه. اما عن أثر [أوغسطس قيصر] =

الإبن، فشيعت رفاته بجنارة فخمة. وأقيم له نصب تذكاري في روما. وخلد اسمه بميدان مصارعة واسع في [كاتانا] بصقلية. ونصبت تماثيل وصور مما غشه من سيراكور، في معبد الآلهة المسماة (كابيري Cabiri) بساموثراس، وهي معبد ميسرثا بـ[ليندس Lindus] حيث أقيم أيضاً تمثال له. نقشت عليه الابيات التالية (على ما يذكر بوسيدونيوس).

أبها ذا الغريب! كان هذا نجم روما الالهي يوماً. انه «كلوديوس مارچلوس» الكريم النسب، الذي حارب حروبها ونصب قنصلاً عليها سبع مرات. وبذراعه المرعدة ذبحت الألوف!

اصاف ناظم هذه الابيات فترة توليه منصب الپروقنصل مرتين الى قنصلياته الخمس. وظلّ نسله موضع اكبار وأجلال حتى [مارچلوس] ابن [اوكتافيا] شقيقة [اوغسطس قيصر] (٦٢) التي أحبته لزوجها [كابوس مارچلوس]، وتوفي هذا الابن في شرح الشباب عام توليه منصب [يديل] وهو حديث عهد بالزواج من بنت [قيصر] فأوقفت امه [اوكتافيا] (٦٣) مكتبة على روحه تخليداً لذكراه، وأوقف [قيصر] الملعب الذي يحمل اسمه.



اوغسطس

= فلا وجود له.

- (٦٢) استمر السبل على الانتخاب بعد موته زهاء مائة وخمس وثمانين سنة. إذ انه قتل في ٢٠٦ ق.م ومات مارچلوس الشاب اخر السلالة في ٢١ ق.م
(٦٣) يقول (سويتونيوس) ان اغسطس هو الذي أوقف المكتبة باسم اوكتافيا. [اغسطس ٢٩] و [ديون ١: ٥٣].



أوجه المقارنة بين بيلوبيداس ومارچلوس

دلكم هو أهم وأبرز ما وجدته عند المؤرخين عن (مارچلوس وبيلوبيداس)، والشبه قريب جداً بين هذين الرجلين العظميين في طباعهما وأخلاقهما، فكلاهما كان بأسلاً مقداماً، حازماً وثاب الروح. إلا أن ثم اختلافاً جزمياً في نقطة واحدة. وهي أن (مارچلوس) فتك بارواح الكثير في المدن العديدة التي استولى عليها، أما (بيلوبيداس وإپامنداس) فلم يؤثر عنهما أنهما قتلا أو استرقا شخصاً واحداً عقب أي نصر حازاه. وقيل لنا أيضاً أن الثيبين انفسهم ما كانوا ليقدموا على عمل كهذا ضدّ (الاورخمينيين) لو وجد هذان القائدان في حينه. كانت انتصارات (مارچلوس) على الغاليين باهرة رائعة، فقد قهر وهزم عدداً هائلاً من الخيالة والمشاة، بعدد ضئيل من الفرسان - (وهو عمل لا تجد له نظيراً فيما سجله المؤرخون عن قائد آخر غيره) وأخذ ملكهم أسيراً. وكان بيلوبيداس يطمع الى مثل هذا المجد إلا أنه لم يبلغه وقتله الطاغية في اثنا محاولته. على أن في إمكانك ان تضع مقابل ذلك معركتي (ليوكترا وتيجري) المجيدتين. ونحن لا نجد في وقائع مارچلوس، واقعة تمتاز بالحيلة والتآمر الخفي، كما فعل (بيلوبيداس) عند عودته من المنفى فقصى على الطغاة في (ثيبه). مما يمكن اعتباره في مقدمة الأعمال الباهرة التي استعمل فيها المكر والكتمان. ولا نكران في أن (هنيبعل) كان أخطر خصوم روما وأقواهم ولكن اللقيديميون ما كانوا ليقولوا عنه خطراً بالنسبة للثيبين ومن المسلم به أنهم ذاقوا مرارة الهزيمة والفرار على يد (بيلوبيداس) في (ليوكترا وتيجري) في حين يذكر (بوليبسوس) أن هنيبعل لم يذق طعم الهزيمة إلا مرة واحدة على يد (مارچلوس). وبقي النصر معقوداً له في كل المعارك حتى مجيء (سكيبو) وقد ملّت أنا نفسي الى الأخذ بأقوال (البقي) و(قيصر) و(كورنيليوس نيبوس)، وبأقوال (يوبا Juba) الملك، من الأغريق، في زعمهم أن جنود هنيبعل، عانوا الاندحار والهزيمة أمام (مارچلوس) دلكم هو أهم وأبرز ما وجدته عند المؤرخين عن (مارچلوس وبيلوبيداس)، والشبه قريب جداً بين هذين الرجلين العظميين في طباعهما وأخلاقهما، فكلاهما كان بأسلاً مقداماً، حازماً

الكثير في المدن العديدة التي استولى عليها، أما (بيلوبيداس) و(أبامنتداس) فلم يؤثر عليهما
أنهما قتلا أو استرقا شخصاً واحداً عقب أي نصر حازاه. وقيل لنا أيضاً أن الثيبين انفسهم
ما كانوا ليقدموا على عمل كهذا ضد (الاورخمانيين) لم وجد هذان القائدان في حينه. كانت
انتصارات (مارجللوس) على الغاليين باهرة رائعة. فقد قهر وهزم عدداً هائلاً من الخيالة
والمشاة، بعدد ضئيل من الفرسان - (وهو عمل لا تجد له نظيراً فيما سجله المؤرخون من قائد
آخر غيره) وأخذ ملكهم أسيراً. وكان بيلوبيداس يطمح الى مثل هذا المجد، إلا أنه لم يبلغه
وقتله الطاغية في أثناء محاولته. على أن في امكانك ان تضع مقابل ذلك معركتي (اليوكترا
وتيجري) المجيدتين. ونحن لا نجد في وقائع مارجللوس، واقعةً تنافس بالحيلة والتأمر الخفي،
كما فعل (بيلوبيداس) عند عودته من المنفى فقصى على الطغاة في [ثيبه]، مما يمكن اعتباره
في مقدمة الأعمال الباهرة التي استعمل فيها المكر والكتمان. ولا نكران في أن (هنيبعل)
كان أخطر خصوم روما واقواهم ولكن اللقيديونيين ما كانوا ليعفوا عنه خطراً بالنسبة للثيبين
ومن المسلم به انهم ذاقوا مرارة الهزيمة والفرار على يد (بيلوبيداس) في (اليوكترا وتيجري)
في حين يذكر (بوليسوس) أن هنيبعل لم يذق طعم الهزيمة إلا مرة واحدة على يد
(مارجللوس). وبقي النصر معقوداً له في كل المعارك حتى محي - (سكيبو) وقد ملت أنا
نفسي الى الأخذ بأقوال (البقي) و(قيصراً) و(كورنيليوس نيبوس). وبأقوال (يوبا Juba)
الملك، من الأغريق، في زعمهم أن جنود هنيبعل، عانوا الاندحار والهزيمة امام (مارجللوس)
في بعض المعارك. إلا أنها معارك لم تؤثر في مجرى الحرب العام بلا شك، حتى بدت وكأنها
مجرد اشتباكات خادعة يقصد بها القرطاجينيون نوعاً من المشاغلة والالهاء. وأروع ما في
الأمر هو معنوية الرومان. فبعد اندحار عدد كبير من حشوشهم ومقتل العديد من قوادهم
ويمختصر القول - بعد الفوضى التي هست امبراطوريتهم. ظلوا يظهرون من الشجاعة ما
يوازي خسائرهم، ولم تفارقهم رغبتهم في خوض غمرات معارك جديدة. قدر رغبة اعدائهم
فيها. وكان (مارجللوس) الوحيد الذي حقق المغلبة على الرهبة والخوف العظيمين المتأصلين.
فأحسا معنويات الجنود، ورفع منها، وثبت كيائنها، لتنتقل الى بسالة وحماسة جعلتهم لا
يتخلون بسهولة عن النصر، بل يناضلون في سبيله الى آخر رمق. كان هؤلاء الرجال قد
عودتهم هراثهم المستمرة على اعتبار أنفسهم سعداء لو نجحوا بالفرار من وجه [هنيبعل]،
فجاء مارجللوس ليعلمهم بأن الإقرار بانهم نكصوا خطوة واحدة في مثار التقع وزخم القتال،
وان يركبهم الهم الناصب اذا فاتهم النصر.

ویمختصر القول: لم یغلب (پیلوپیداس) قط في اية معركة كان هو قائدها العام، وموجوداً فيها، وفاز (مارچلوس) بمعارك تزيد عن اى عدد فاز به قائد معاصر له. والحق یقضى أن یوضع الشخص الذي یصعب قهره، (مع الأخذ بنظر الاعتبار بطولاته العديدة) على قدم المساواة مع ذلك الذي لم یُقهَر قط.

لقد استولى (مارچلوس) على سيراكوز عنوةً، في حين أخفقت آمال (پیلوپیداس) في الاستيلاء على سبارطا. واني لأرى في رفع رايته الى جدران سبارطا وطموحه الى أن يكون أول من یعبر نهر یورتاس بقوة السلاح، عملاً أصعب بكثير من اخضاع صقلية، إلا اذا اعتبرنا (أپامنداس) أحق وأولى بنسبة هذه المأثرة اليه كما كانت معركة لیوكترا أيضاً، في حين بنى مارچلوس شهرته وعظمته أعماله البطولية على معارك تفرد بها وحده ولم يكن لغيره سهمٌ فيها. فهو وحده استولى على سيراكوز ودره الغاليين دون معونة من زميله وانيرى للملاقاة (هنيبعل) في ساحة القتال بمفرده ودون زميل، عندما أحجم الآخرون عن ذلك. وبتغييره في أسلوب حرب الخصم قدم أول مثلٍ من أمثلة الجرأة على التعرض له.

وليس یوسعی الاشادة بمقتل أيٍّ من هذين العظیمين. فعامل الغرابة والفجاءة في نهاية حياتهما یشیع في نفسی شعوراً بالألم والحسرة. ويستأثر هنيبعل باعجابي لأنه لم یصب بخدش واحد في سائر المعارك العديدة الطاحنة التي لا یكفي يوم واحد لإحصائها.

واني لأجل (خريسانتيس Chrysantes) (الذي ورد ذكره في كيروپيديا Cyropædia كزينفون) فقد رفع سيفه ليهوى به على خصمه، حين نفع بنفير الانسحاب فتركه وتقهر بملء الطاعة والسكينة، على أنه قد يمكن أغتقار ثورة الغضب التي دفعت (پیلوپیداس) الى ملاحقة ثأرة في زخم المعركة، وكما یقول (یورپيدس):

أولى صفات القائد أن یحرز نصراً مضموناً.

وثاني صفاته، أن يموت ميتة الشرف».

ففي هذه الحالة لا يمكن القول ان القائد «عاني» موتاً، والحري أن یقال: عاني معركة. إن عزم (پیلوپیداس) على قتل الطاغية وهو مائل امام عينيه، لم یفقده رشاده ویسلمه الى جموع العاطفة الى الحد الذي بنسيه الهدف المتوخى من النصر، على انه ما كان لیستوقع أن تسنح له فرصة ثانية مساوية لهذه الفرصة في يسرها ومجدها وخلوها وبنضال في قضية عادلة شريفة كهذه. لكن مارچلوس أوقع نفسه في الخطر وسقط في كمين ليس الحسبان في سبيل هدف لا یعود عليه بفائدة كبيرة، وعندما لم تستدع اليه ضرورة ماسة أو وجود خطرٍ مائل یسلمه الى

نزف العاطفة، وهو الذي تولى القنصلية خمس مرات، ودخل في مواكب نصر ثلاثة وغنم أسلاب ونفائس ملوك، وأحرز الانتصارات، تراه ينزل إلى مرتبة كشّاف أو ديدبان فيعرض كل أمجاده لتُداس باقدام المرتزة الاسبان والنوميديين الذين باعوا أنفسهم للقرطاجيين حتى شعروا هم أنفسهم بأنهم أصغر من ان يستحقوا مثل هذا النجاح، وكادوا ينكرون على أنفسهم هذا النصر غير المنتظر بقتلهم أشجع وأكفأ وأشهر الرومان مع قليل من الفريجولان.

ولا يتوهمن أحد أننا ما قلنا هذا إلا ونحن نقصد انتقاد هذين الرجلين العظيمين أو انتقاصهما، فالحقيقة هي أننا نريد أن نعبّر بهذا عن سخطنا الصريح وألمنا لأنهما اضاعاً كلّ فضائلهما على مذبح شجاعتهما وانقفا حياتيهما كأن خسارتها قاصرة على شخصيهما، لا على بلادهما وحلفاء بلادهما واصدقائهما.

بعد مصرع [پيلوپيداس] قام بتشجيعه اصدقاؤه الذين ضحى بحياته في سبيلهم. أمّا [مارچلوس] فإن اعداءه هم الذين قاموا بهذا. وكان حظاً سعيداً كريماً لأولهما. إلا أنه كان يوجد شيء، أسمى واروع في التكريم والإجلال الذي ابداه العدو لفضائل وشخصية كانت عقبتهم الكأداء، من اقرار الاصدقاء بالفضل. ففي الواحدة يكون الدافع الى التكريم والتقدير الفضيلة وحدها. وفي الأخرى تكون مصلحة الناس الشخصية وفائدتهم هي الأصل فيما ينتهجون.

